

مِفْتَاحُ دَارِ السَّعَادَةِ

ومنشور ولاية العلم والإرادة

تأليف

الإمام أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر الشهير بابن
قيم الجوزية قدس الله روحه الزكية

قال صاحب كشف الظنون (مفتاح دار السعادة) للشيخ شمس الدين
محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية الدمشقي المتوفى سنة ٧٥١
كتاب كبير الحجم . فيه فوائد مرسله يقتبس من مجموعها معرفة العلم
وفضله ومعرفة إثبات الصانع ومعرفة قدر الشريعة ومعرفة النبوة ومعرفة
الرد على المنجمين ومعرفة الطيرة والفال والزجر ومعرفة أصول نافعة جامعة
ما تكمل به النفوس البشرية إلى غير ذلك من الفوائد

الجزء الأول

يطلب من

مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده

بيروت الأزهر بمصر

دار النشر والتوزيع للطباعة
الكتاب صباع . تليفون ٥٠٨٥٤

سيرة النبي محمد ﷺ

الحمد لله الذي سهل لعباده المتقين إلى مرضاته سبيلا ، وأوضح لهم طرق الهداية وجعل اتباع الرسول عليها دليلا ، واتخذهم عبداً له فأقروا له بالعبودية ولم يتخذوا من دونه وكيفا ، وكتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه لما رضوا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولا ، والحمد لله الذي أقام في أزمنة الفترات من يكون بينان سنن المرسلين كقبلا ، واختص هذه الأمة بأنه لا تزال فيها طائفة على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمره ولو اجتمع الثقلان على حربهم قبلا ، يدعون من ضل إلى الهدى ويصبرون منهم على الأذى ويبصرون بنور الله أهل العمى ويحيون بكتابه الموتى فهم أحسن الناس هديا وأقومهم قبلا ، فكم من قتيل لا بليس قد أحيوه ، ومن ضال جاهل لا يعلم طريق رشده قد هدوه ، ومن مبتدع في دين الله بشبه الحق قد رموه ، جهاداً في الله وابتغاء مرضاته ، وبيانا لحججه على العالمين وبياناته ، وطلباً للزاني لديه ونيل رضوانه وجناته ، فاربوا في الله من خرج عن دينه القويم وصرطه المستقيم ، الذين عقدوا ألوية البدعة واطلعوا أئمة الفتنة وخالفوا الكتاب واختلفوا في الكتاب واتفقوا على مفارقة الكتاب وبنذوه وراء ظهورهم وارتضوا غيره منه بدلا ، * أحمدوه وهو المحمود على كل ما قدره وقضاه . وأستعينه استعانة من يعلم أنه لا رب له غيره ولا إله له سواه ، واستهديه سبيل الذين أنعم عليهم بمن اختاره لقبول الحق وارتضاه ، واشكره والذكر كفيلا بالمزيد من عطاياه ، واستغفره من الذنوب التي تحول بين القلب وهداه ، وأعوذ بالله من شر نفسي وسيئات عملي استعاذة عبد فار إلى ربه بذنوبه وخطاياها ، واعتصم به من الأهواء المرذية والبسوع المضلة فما خاب من أصبح به معصما وبحماء نزيلا ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أشهد بها مع الشاهدين ، وأتمهلها عن الجاحدين ، وأدخرها عند الله عدة ليوم الدين ، وأشهد أن الحلال ما حله والحرام ما حرمه والدين ما شرعه وأن الساعة آتية لا ريب فيها وإن الله يبعث من في القبور ، وأشهد أن محمداً عبده المصطفى ونبيه المرتضى ورسوله الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ، أرسله رحمة للعالمين ؛ ومحجة للسالكين وحجة على العباد أجمعين ؛ أرسله على حين فترة من الرسل فهدى به إلى أقوم الطرق ؛ وأوضح السبل ، وافترض على العباد طاعته ؛ وتعظيمه وتوقيره وتبجيله ؛ والقيام بحقوقه وسد إليه جميع الطرق

فلم يفتح لأحد إلا من طريقه ؛ فشرح له صدره ورفع له ذكره وعلم به من الجهالة وبصر به من العمى ، وأرشد به من الغي ، وفتح به أعينا عميا ، وآذانا صما وقلوبا غلفا ، فلم يزل صلى الله عليه وسلم قائما بأمر الله لا يرده عنه راد ، داعيا إلى الله لا يصدده عنه صاد ، إلى أن أشرقت برسالته الأرض بعد ظلماتها وتألفت القلوب بعد شتاتها وسارت دعواته سير الشمس في الأقطار ، وبلغ دينه ما بلغ الليل والنهار ، فلما أكمل الله به الدين ، وأتم به النعمة على عباده المؤمنين ، استأثر به ونقله إلى الرفيق الأعلى من كرامته ، والمحل الأرفع الأسمى من أعلى جناته ، ففارق الأمة وقد تركها على المحجة البيضاء التي لا يزيغ عنها إلا من كان من الهالكين ، فصلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين ، صلاة دائمة بدوام السموات والأرضين مقيمة عليهم أبدا لا تروم انتقالا عنهم ولا تحويلا .

(أما بعد) فإن الله سبحانه لما أهبط آدم أبا البشر من الجنة لما له في ذلك من الحكيم التي تعجز العقول عن معرفتها والألسن عن وصفها فكان إهباطه منها عين كماله ليعود إليها على أحسن أحواله فأراد سبحانه أن يذيقه وولده من نصب الدنيا وغمومها وهمومها وأوصابها ما يعظم به عندهم مقدار دخولهم إليها في الدار الآخرة فان الضد يظهر حسنه الضد ولو تربوا في دار النعم لم يعرفوا قدرها * وأيضا فانه سبحانه أراد أمرهم ونهيهم وابتلاءهم واختبارهم وليست الجنة دار تكليف فاهبطهم إلى الأرض وعرضهم بذلك لأفضل الثواب الذي لم يكن لينال بدون الأمر والنهي * وأيضا فانه سبحانه أراد أن يتخذ منهم أنبياء ورسلا وأولياء وشهداء يحبهم ويحبونه يخفى بينهم وبين أعدائه وامتنحهم بهم فلما آثروه وبدلوا نفوسهم وأمورهم في مرضاته ومحابه نالوا من محبته ورضوانه والقرب منه ما لم يكن لينال بدون ذلك أصلا فدرجة الرسالة والنبوة والشهادة والحب فيه والبغض فيه وموالاته أوليائه ومعاداة أعدائه عنده من أفضل الدرجات ولم يكن ينال هذا إلا على الوجه الذي قدره وقضاه من إهباطه إلى الأرض وجعل معيشته ومعيشة أولاده فيها * وأيضا فانه سبحانه له الأسماء الحسنى فمن أسمائه الغفور الرحيم العفو الحليم الخافض الرفع المعز المذل المحي المميت الوارث الصبور ولا بد من ظهور آثار هذه الأسماء . . . فاقضت حكمته سبحانه أن ينزل آدم وذريته دارا يظهر عليهم فيها أثر أسمائه الحسنى فيغفر فيها لمن يشاء ويرحم من يشاء ويخفض من يشاء ويرفع من يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء وينتقم من يشاء ويعطي ويمنع ويبسط إلى غير ذلك من ظهور أثر أسمائه وصفاته * وأيضا فانه سبحانه الملك الحق المبين والملك هو الذي يأمر وينهى ويثيب ويعاقب ويهين ويكرم ويعز ويذل فاقضى ملكه سبحانه أن أنزل آدم وذريته دارا تجري عليهم فيها أحكام الملك ثم ينقلهم إلى

دار يتم عليهم فيها ذلك * وأيضا فانه سبحانه أنزلهم إلى دار يكون إيمانهم فيها بالغيب والإيمان بالغيب هو الإيمان النافع وأما الإيمان بالشهادة فكل أحد يؤمن يوم القيامة يوم لا ينفع نفساً إلا بإيمانها في الدنيا فلو خلقوا في دار النعيم لم ينالوا درجة الإيمان بالغيب واللذة والكرامة الحاصلة بذلك لا تحصل بدونه بل كان الحاصل لهم في دار النعيم لذة وكرامة غير هذه * وأيضا فان الله سبحانه خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض والأرض فيها الطيب والحديث والسهل والحزن والسكريم واللتيم فعمل سبحانه أن في ظهره من لا يصلح لمساكنته في داره فأنزله إلى دار استخرج فيها الطيب والحديث من صلبه ثم ميزهم سبحانه بدارين فجعل الطيبين أهل جواره ومسكنته في داره وجعل الحديث أهل دار الشقاء دار الخبثاء ، قال الله تعالى (ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الحديث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون) فلما علم سبحانه أن في ذريته من ليس بأهل لمجاورته أنزلهم دارا استخرج منها أولئك وألحقهم بالدار التي هم لها أهل حكمة بالغة ومشيتة نافذة ذلك تقدير العزيز العليم * وأيضا فانه سبحانه لما قال للملائكة (إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) أجابهم بقوله (إني أعلم ما لا تعلمون) ثم أظهر سبحانه علمه لعباده وللملائكة بما جعله في الأرض من خواص خلقه ورسله وأنبيائه وأوليائه ومن يتقرب إليه ويبذل نفسه في محبته ومرضاته مع مجاهدة شهوته وهواه فيترك محبوباته تقربا إلى الله ويترك شهواته ابتغاء مرضاتي ويبذل دمه ونفسه في محبتي وأخصه بعلم لا تعلمونه يسبح بحمدي آناء الليل وأطراف النهار ويعبدني مع معارضات الهوى والشهوة والنفس والعدو إذ تعبدوني أتم من غير معارض يعارضكم ولا شهوة تعتربكم ولا عدو أسلطه عليكم بل عبادتكم لي بمنزلة النفس لأحدهم * وأيضا فاني أريد أن أظهر ما خفي عليكم من شأن عدوي ومحاربتة لي وتكبره عن أمرى وسعيه في خلاف مرضاتي وهذا وهذا كانا كامينين مستترين في أبي البشر وأبي الجن فأنزلهم دارا أظهر فيها ما كان الله سبحانه منفردا بعلمه لا يعلمه سواه وظهرت حكمته وتم أمره وبدا للملائكة من علمه ما لم يكونوا يعلمون * وأيضا فانه سبحانه لما كان يحب الصابرين ويحب المحسنين ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفا ويحب التوايين ويحب المتطهرين ويحب الشاكرين وكانت محبته أعلى أنواع الكرامات اقتضت حكمته أن أسكن آدم وبنيه دارا يأتون فيها بهذه الصفات التي ينالون بها أعلى الكرامات من محبته فكان إنزالهم إلى الأرض من أعظم النعم عليهم (والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم) * وأيضا فانه سبحانه أراد أن يتخذ من آدم ذرية يواليهم ويودهم ويحبهم ويجبونه فحبتهم له هي غاية كالمهم ونهاية شرفهم

ولم يمكن تحقيق هذه المرتبة السنوية إلا بموافقة رضاه واتباع أمره وترك إرادات النفس وشهواتها التي يكرها محبوبهم فأنزلهم دارا أمرهم فيها ونهاهم فقاموا بأمره ونهيه فقالوا درجة محبتهم له فأنالهم درجة حبه إياهم وهذا من تمام حكمته وكمال رحمته وهو البر الرحيم * وأيضا فانه سبحانه لما خلق خلقه أطوارا وأصنافا وسبق في حكمه تفضيله آدم وبنيه على كثير من مخلوقاته جعل عبوديته أفضل درجاتهم أعنى العبودية الاختيارية التي يأتون بها طوعا واختيارا لا كرها واضطرارا * وقد ثبت أن الله سبحانه أرسل جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يخبره بين أن يكون ملكا نبيا أو عبدا نبيا فنظر إلى جبريل كالمستشير له فأشار إليه أن تواضع فقال بل أن أكون عبدا نبيا فذكره سبحانه باسم عبوديته في أشرف مقاماته في مقام الإسراء ومقام الدعوة ومقام التحدي فقال في مقام الإسراء (سبحانه الذي أسرى بعبده ليلا) ولم يقل برسوله ولا نبيه إشارة إلى أنه قام هذا المقام الأعظم بكمال عبوديته لربه وقال في مقام الدعوة (وانه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا) وقال في مقام التحدي (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله) وفي الصحيحين في حديث الشفاعة وتراجع الأنبياء فيها وقول المسيح صلى الله عليه وسلم اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فدل ذلك على أنه نال ذلك المقام الأعظم بكمال عبوديته لله وكمال مغفرة الله له وإذا كانت العبودية عند الله بهذه المنزلة اقتضت حكمته أن أسكن آدم وذريته دارا يتألون فيها هذه الدرجة بكمال طاعتهم لله وتقربهم إليه بحجابه وترك مألوفاتهم من أجله فكان ذلك من تمام نعمته عليهم وإحسانه إليهم * وأيضا فانه سبحانه أراد أن يعرف عباده الذين أنعم عليهم تمام نعمته عليهم وقدرها ليكونوا أعظم محبة وأكثر شكرا وأعظم التناذرا بما أعطاهم من النعيم فأراهم سبحانه فعله بأعدائه وما أعد لهم من العذاب وأنواع الآلام وأشدهم تخليصهم من ذلك وتخصيصهم بأعلى أنواع النعيم ليزداد سرورهم وتكامل غبظتهم ويعظم فرحهم وتم لذتهم وكان ذلك من إتمام الإنعام عليهم ومحبتهم ولم يكن بد في ذلك من إنزالهم إلى الأرض وامتحانهم واختبارهم وتوفيق من شاء منهم رحمة منه وفضلا وخذلان من شاء منهم حكمة منه وعدلا وهو العليم الحكيم ولا ريب أن المؤمن إذا رأى عدوه ومحبوبه الذي هو أحب الأشياء إليه في أنواع العذاب والآلام وهو يتقلب في أنواع النعيم واللذة ازداد بذلك سرورا وعظمة لذته وكملت نعمته * وأيضا فانه سبحانه إنما خلق الخلق لعبادته وهي الغاية منهم قال تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) ومعلوم أن كمال العبودية المطلوب من الخلق لا يحصل في دار النعيم والبقاء إنما يحصل في دار المحنة والإبتلاء وأما دار البقاء فدار لذة ونعيم لا دار ابتلاء وامتحان وتكليف *

وأيضا فإنه سبحانه اقتضت حكمته خلق آدم وذريته من تركيب مستلزم لداعى الشهوة والفتنة وداعى العقل والعلم فإنه سبحانه خلق فيه العقل والشهوة ونصهما داعيين بمقتضياتهما ليتم مراده ويظهر لعباده عزته في حكمته وجبروته ورحمته وبره وطفه في سلطانه وملكوته فاقضت حكمته ورحمته أن أذاق أباهم وبيل مخالفته وعرفه مايجبى عواقب لإجابة الشهوة والهوى ليكون أعظم حذراً فيها وأشد هروباً وهذا كحال رجل سائر على طريق قد كمننت الأعداء في جنبانه وخلفه وأمامه وهو لا يشعر فإذا أصيب منها مرة بمصيبة استعد في سيره وأخذ أهبة عدوه وأعد له مايدفعه ولولا أنه ذاق ألم اغارة عدوه عليه وتبييته له لما سمحت نفسه بالاستعداد والحذر وأخذ العدة فن تمام نعمة الله على آدم وذريته أن أراهم ما فعل العدو بهم فاستعدوا له وأخذوا أهبته .. فان قيل كان من الممكن أن لا يسلط عليهم العدو .. قيل قد تقدم أنه سبحانه خلق آدم وذريته على بنية و تركيب مستلزم لمخالطهم لعدوهم وابتلائهم به ولو شاء لخلقهم كالملائكة الذين هم عقول بلا شهوات فلم يكن لعدوهم طريق إليهم ولاكن لو خلقوا هكذا لكانوا أخلاقا آخر غير بنى آدم فان بنى آدم قد ركبوا على العقل والشهوة * وأيضا فإنه لما كانت محبة الله وحده هى غاية كمال العبد وسعادته التى لا كمال له ولا سعادة بدونها أصلا وكانت المحبة الصادقة إنما تتحقق بإيثار المحبوب على غيره من محبوبات النفوس واحتمال المشاق فى طاعته ومرضاة فهذا تتحقق المحبة ويعلم ثبوتها فى القلب اقتضت حكمته سبحانه إخراجهم إلى هذه الدار المحفوفة بالشهوات ومحابب النفوس التى بإيثار الحق عليها والإعراض عنها يتحقق حبهم له وإيثارهم إياه على غيره ولذلك يتحمل المشاق الشديدة وركوب الأخطار واحتمال الملامة والصبر على دواعى الغى والضلال ومجاهدتها بقوى سلطان المحبة وثبت شجرتها فى القلب وتطعم ثمرتها على الجوارح فان المحبة الثابتة اللازمة على كثرة الموانع والعوارض والصوراف هى المحبة الحقيقية النافعة وأما المحبة المشروطة بالعافية والنعيم واللذة وحصول مراد المحب من محبوبه فليست محبة صادقة ولا ثابت لها عند المعارضات والموانع فان المعلق على الشرط عدم عند عدمه ومن ذلك لأمر ولى عند انقضائه وفرق بين من يعبد الله على السراء والرخاء والعافية فقط وبين من يعبد على السراء والضراء والشدة والرخاء والعافية والبلاء * وأيضا فان الله سبحانه له الحمد المطلق الكامل الذى لانهاية بعده وكان ظهور الأسباب التى يحمدها عليها من مقتضى كونه محموداً وهى من لوازم حمده تعالى وهى نوعان فضل وعدل إذ هو سبحانه المحمود على هذا وعلى هذا فلا بد من ظهور أسباب العدل واقتضائها لمسمياتها ليترتب عليها كمال الحمد الذى هو أهله فبما أنه سبحانه محمود على إحسانه وبره وفضله وثوابه فهو محمود على عدله وانتقامه وعقابه إذ يصدر ذلك كله عن عزته وحكمته ولهذا نبه سبحانه على هذا كثيراً كما فى سورة الشعراء حيث يذكر فى آخر كل قصة من قصص الرسل وأممهم (إن فى ذلك لآية

وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك هو العزيز الرحيم) فأخبر سبحانه أن ذلك صادر عن عزته المتضمنة كمال قدرته وحكمته المتضمنة كمال علمه ووضعه الأشياء مواضعها اللاتقة بها فما وضع نعمته ونجاته لرسله ولا اتباعهم ونعمته وإهلاكه لأعدائهم إلا في محلها اللائق بها لكمال عزته وحكمته ولهذا قال سبحانه عقيب إخباره عن قضائه بين أهل السعادة والشقاوة ومصير كل منهم إلى ديارهم التي لا يلبق بهم غيرها ولا تقتضى حكمته سواها (وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين) * وأيضا فإنه سبحانه اقتضت حكمته وحده أن فاورت بين عباده أعظم تفاوت وابتدئه ليشكره منهم من ظهرت عليه نعمته وفضله ويعرف أنه قد حبي بالألغام وخص دون غيره بالأكرام ولو تساوا جميعهم في النعمة والعافية لم يعرف صاحب النعمة قدرها ولم يبذل شكرها إذ لا يرى أحداً إلا في مثل حاله ومن أقوى أسباب الشكر وأعظمها استخراجها له من العبد أن يرى غيره في ضد حاله الذي هو عليها من الكمال والفلاح * وفي الأثر المشهور أن الله سبحانه لما أرى آدم ذريته وتفاوت مراتبهم قال يارب هلا سويت بين عبادك قال إني أحب أن أشكر فاقضت محبته سبحانه لأن يشكر خلق الأسباب التي يكون شكر الشاكرين عندها أعظم وأكمل وهذا هو عين الحكمة الصادرة عن صفة الحمد * وأيضا فإنه سبحانه لا شيء أحب إليه من العبد من تذلل بين يديه وخضوعه وافتقاره وانكساره وتضرعه إليه * ومعلوم أن هذا المطلوب من العبد إنما يتم بأسبابه التي تتوقف عليها وحصول هذه الأسباب في دار النعيم المطلق والعافية الكاملة يمتنع إذ هو مستلزم للجمع بين الضدين * وأيضا فإنه سبحانه له الخلق والأمر والأمر هو شرعه وأمره ودينه الذي بعث به رسله وأنزل به كتبه وليست الجنة دار تكليف تجري عليهم فيها أحكام التكليف ولو أزمها وإنما هي دار نعيم ولذرة واقتضت حكمته سبحانه استخراج آدم وذريته إلى دار تجرى عليهم فيها أحكام دينه وأمره ليظهر فيهم مقتضى الأمر ولو أزمه فإن الله سبحانه كما أن أفعاله وخلقته من لوازم كمال أسمائه الحسنى وصفاته العلى فكذلك أمره وشرعه وما يترتب عليه من الثواب والعقاب واند آرشد سبحانه إلى هذا المعنى في غير موضع من كتابه فقال تعالى (أيجسب الإنسان أن يترك سدى) أى مهملا معطلا لا يؤمر ولا ينهى ولا يثاب ولا يعاقب وهذا يدل على أن هذا مناف لكمال حكمته وإن ربوبيته وعزته وحكمته تأبى ذلك ولهذا أخرج الكلام مخرج الإنكار على من زعم ذلك وهو يدل على أن حسنه مستقر في الفطر والعقول وقبح تركه سداً معطلا أيضاً مستقر في الفطر فكيف ينسب إلى الرب ما يقبحه مستقر في فطرته وعقولكم وقال تعالى (أخصبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم) نزه نفسه سبحانه عن هذا الحساب الباطل المضاد لموجب أسمائه وصفاته وأنه لا يلبق بجلاله نسبته إليه ونظائر هذا في القرآن كثيرة * وأيضا فإنه سبحانه يجب من عباده

أمورا يتوقف حصولها منهم على حصول الأسباب المقتضية لها ولا تحصل إلا في دار الابتلاء والامتحان فانه سبحانه يحب الصابرين ويحب الشاكرين ويحب الذين يقا تلون في سبيله صفا ويحب التواين ويحب المتطهرين ولا ريب أن حصول هذه المحبوبات بدون أسبابها تمتنع كما تمتنع حصول الملزوم بدون لازمه والله سبحانه أفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه من الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في أرض دوية مهلكة إذا وجدها كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال لله أشد فرحا بتوبة عبده المؤمن من رجل في أرض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فنام فاستيقظ وقد ذهبت فطلبها حتى أدركه العطش ثم قال أرجع إلى المكان الذي كنت فيه فأنام حتى أموت فوضع رأسه على ساعده ليموت فاستيقظ وعنده راحلته عليها زاده وطعامه وشرابه فالثه أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وسياقته إن شاء الله الكلام على هذا الحديث وذكر سر هذا الفرع بتوبة العبد والمقصود أن هذا الفرع المذكور إنما يكون بعد التوبة من الذنب فالنوبة والذنب لازمان لهذا الفرع ولا يوجد الملزوم بدون لازمه وإذا كان هذا الفرع المذكور إنما يحصل بالنوبة المستلزمة للذنب فحصوله في دار النعيم التي لا ذنب فيها ولا مخالفة تمتنع ولما كان هذا الفرع أحب إلى الرب سبحانه من عدمه اقتضت محبته له خلق الأسباب المقتضية إليه ليمرتب عليها المسبب الذي هو محبوب له وأيضاً فإن الله سبحانه جعل الجنة دار جزاء وثواب وقسم منازلها بين أهلها على قدر أعمالهم وعلى هذا خلقها سبحانه لما له في ذلك من الحكمة التي اقتضتها أسماؤه وصفاته فإن الجنة درجات بعضها فوق بعض وبين الدرجتين كما بين السماء والأرض كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال إن الجنة مائة درجة بين كل درجتين كما بين السماء والأرض وحكمة الرب سبحانه مقتضية لعمارة هذه الدرجات كلها وإنما تعمر ويقع التفاوت فيها بحسب الأعمال كما قال غير واحد من السلف ينجون من النار بعفو الله ومغفرته ويدخلون الجنة بفضلته ونعمته ومغفرته ويتقاسمون المنازل بأعمالهم . وعلى هذا حمل غير واحد ما جاء من إثبات دخول الجنة بالأعمال كقوله تعالى (وذلك الجنة التي أوردتموها بما كنتم تعملون) وقوله تعالى (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) . قالوا وأما نبي دخولها بالأعمال كما في قوله صلى الله عليه وسلم إن يدخل الجنة أحد بعمله قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا فالمراد به نبي أصل الدخول . وأحسن من هذا أن يقال الباء المقتضية للدخول غير الباء التي نفي معها الدخول فالمقتضية هي باء السببية الدالة على أن الأعمال سبب للدخول مقتضية له كاقتران سائر الأسباب لمسبباتها والباء التي نفي بها الدخول هي باء المعاوضة والمقابلة التي في نحو قولهم اشتريت هذا بهذا فأخبر النبي ﷺ أن دخول الجنة ليس في مقابلة عمل أحد وأنه لولا تعمد الله سبحانه لعبده برحمته لما أدخله الجنة فليس عمل العبد وإن تنهى

موجباً بمجردة لدخول الجنة ولا عوضاً لها فان أعماله وإن وقعت منه على الوجه الذى يحبه الله ويرضاه فهى لا تقاوم نعمة الله التى أنعم بها عليه فى دار الدنيا ولا تعادلها بل لو حاسبه لوقعت أعماله كلها فى مقابلة اليسير من نعمه وتبقى بقية النعم مقتضية لشكرها فلو عذبه فى هذه الحالة لعذبه وهو غير ظالم له ولو رحمه لكانت رحمته خيراً له من عمله كما فى السنن من حديث زيد بن ثابت وحذيفة وغيرهما مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الله لو عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم والمقصود أن حكمته سبحانه اقتضت خلق الجنة درجات بعضها فوق بعض وعمارها بأدم وذريته وإنزالهم فيها بحسب أعمالهم ولازم هذا إنزالهم إلى دار العمل والمجاهدة . وأيضاً فانه سبحانه خلق آدم وذريته ليستخلفهم فى الأرض كما أخبر سبحانه فى كتابه بقوله (انى جعل فى الأرض خليفة) وقوله (وهو الذى جعلكم خلائف فى الأرض) وقال (ويستخلفكم فى الأرض) فأراد سبحانه أن ينقله وذريته من هذا الاستخلاف إلى توريثه جنة الخلد وعلم سبحانه بسابق عمله أنه لضعفه وقصور نظره قد يختار العاجل الخسيس على الآجل النفيس فان النفس مولعة بحب العاجلة وإيثارها على الآخرة وهذا من لوازم كونه خلق من عجل وكونه خلق عرجولاً فعلم سبحانه ما فى طبيعته من الضعف والخور . فاقضت حكمته أن أدخله الجنة ليعرف النعيم الذى أعد له عياناً فيكون إليه أشوق وعليه أحرص وله أشد طلباً فان محبة الشيء وطلبه والشوق اليه من لوازم تصوره فن باشر طيب شيء ولذته وتذوق به لم يكبد يصبر عنه وهذا لأن النفس ذواقة توافقه فاذا ذاقت تاقته ، ولهذا إذا ذاق العبد طعم حلاوة الإيمان وخالطت بشاشته قلبه رسخ فيه حبه ولم يؤثر عليه شيئاً أبداً ، وفى الصحيح من حديث أبى هريرة رضى الله عنه المرفوع أن الله عز وجل يسأل الملائكة فيقول ما يسألنى عبادى فيقولون يسألونك الجنة فيقول وهل رأوها فيقولون لا يارب فيقول كيف لو رأوها فيقولون لو رأوها لكانوا أشد لها طلباً فاقضت حكمته أن أراها أباهم وأسكنه اياها ثم قص على بنيه قصته فصاروا كأنهم مشاهدون لها حاضرون مع أبيهم فاستجاب من خلق لها وخلق له وسارع اليها فلم يثنه عنها العاجلة بل يعد نفسه كأنه فيها ثم سباه العدو فيراها وطنه الأول فهو دائم الحنين إلى وطنه ولا يقر له قرار حتى يرى نفسه فيه كما قيل :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول
كم منزل فى الأرض يألفه الفتى وحينئذ أبداً لأول منزل

ولى من أبيات تلم بهذا المعنى :

وحى على جنات عدن فانها منازلك الأولى وفيها الخيم

ولكننا سبي العدو فهل ترى نعود إلى أوطاننا ونسلم

فسر هذه الوجوه أنه سبحانه وتعالى سبق في حكمه وحكمته أن الغايات المطلوبة لا تتال إلا بأسبابها التي جعلها الله أسباباً مفضية إليها ومن تلك الغايات أعلى أنواع النعيم وأفضلها وأجلها فلا تتال إلا بأسباب نصبها مفضية إليها وإذا كانت الغايات التي هي دون ذلك لا تتال إلا بأسبابها مع ضعفها وانقطاعها كتحصيل المأكول والمشروب والملبوس والولد والمال والجاه في الدنيا فكيف يتوهم حصول أعلى الغايات وأشرف المقامات بلا سبب يفضي إليه ولم يكن تحصيل تلك الأسباب إلا في دار المجاهدة والحريث فكان اسكان آدم وذريته هذه الدار التي يتالون فيها الأسباب الموصلة إلى أعلى المقامات من إتمام انعامه عليهم وسرها أيضاً أنه سبحانه جعل الرسالة والنبوة والخلة والتكليم والولاية والعبودية من أشرف مقامات خلقه ونهايات كمالهم فأنزلهم داراً أخرج منهم الأنبياء وبعث فيها الرسل واتخذ منهم من اتخذ خليلاً وكلم موسى تكليماً واتخذ منهم أولياء وشهداء وعبيداً وخاصة يحبهم ويحبونه وكان لإنزالهم إلى الأرض من تمام الانعام والاحسان . وأيضاً أنه أظهر لخلقته من آثار أسمائه وجريان أحكامها عليهم ما اقتضته حكمته ورحمته وعلوه . وسرها أيضاً أنه تعرف إلى خلقه بأفعاله وأسمائه وصفاته وما أحدثه في أوليائه وأعدائه من كرامته وانعامه على الأولياء واهانته واشقائه للاعداء ومن اجابته دعواتهم وقضائه حوائجهم وتفريج كرباتهم وكشف بلائهم وتصريفهم تحت أقداره كيف يشاء وتقليبهم في أنواع الخير والشر فكان في ذلك أعظم دليل لهم على أنه ربهم ومليكمهم . وأنه الله الذي لا إله إلا هو وأنه العليم الحكيم السميع البصير وأنه الإله الحق وكل ماسواه باطل فتظاهرت أدلة ربوبيته وتوحيده في الأرض وتنوعت وقامت من كل جانب فعرفه الموقفون من عبادته وأقروا بتوحيده إيماناً واذعاناً وجحدته الخذلون على خليقته وأشركوا به ظليماً وكفراً فأهلك من هلك عن بينة وحى من حى بينة والله سميع عليم . ومن تأمل آياته المشهودة والمسموعة في الأرض ورأى آثارها . علم تمام حكمته في اسكان آدم وذريته في هذه الدار إلى أجل معلوم فالله سبحانه إنما خلق الجنة لآدم وذريته وجعل الملائكة فيها خدماً لهم . ولكن اقتضت حكمته أن خلق لهم داراً يتزودون منها إلى الدار التي خلقت لهم وأنهم لا ينالونها إلا بالزاد كما قال تعالى في هذه الدار (وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ان ربكم لرؤوف رحيم) فهذا شأن الانتقال في الدنيا من بلد إلى بلد فكيف الانتقال من الدنيا إلى دار القرار . وقال تعالى (وتزودوا فان خير الزاد التقوى) فباع المغبونون

منازلهم منها بأبخس الحظ وأنقص الثمن وباع الموفقون نفوسهم وأموالهم من الله وجعلوها ثمناً للجنة فريحت تجارتهم ونالوا الفوز العظيم . قال الله تعالى (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم واموالهم بأن لهم الجنة) فهو سبحانه ما أخرج آدم منها إلا وهو يريد أن يعيده اليها أكمل إعادة كما قيل على لسان القدر يا آدم لا تجزع من قولي لك اخرج منها فلا تخلتها فاني أنا الغنى عنها وعن كل شيء . وأنا الجواد الكريم وأنا لا أمتنع فيها فاني أطعم ولا أطعم وأنا الغنى الحميد ولكن انزل إلى دار البذر فاذا بذرت فاستوى الزرع على سوية وصار حصيداً خيئئذ فتعال فاستوفه أحوج ما أنت اليه الحبة بعشر أمثالها إلى سبعائة ضعف إلى أضعاف كثيرة فاني أعلم بمصلحتك منك وأنا العلي الحكيم ﴿ فان قيل ما ذكرتموه من هذه الوجوه وأمثالها إنما يتم إذا قيل أن الجنة التي أسكنها آدم وأهبط منها جنة الخلد التي أعدت للبتقين والمؤمنين يوم القيامة وحيئئذ يظهر سر اهباطه واخراجه منها ﴿ ولكن قد قالت طائفة منهم أبو مسلم ومنذر بن سعيد البلوطي وغيرهما انها كانت جنة في الأرض في موضع عال منها لا أنها جنة المأوى التي أعدها الله لعباده المؤمنين يوم القيامة . وذكر منذر بن سعيد هذا القول في تفسيره عن جماعة فقال وأما قوله لآدم اسكن أنت وزوجك الجنة فقالت طائفة أسكن الله تعالى آدم ^{صلى الله عليه وسلم} جنة الخلد التي يدخلها المؤمنون يوم القيامة وقال آخرون هي جنة غيرها جعلها الله له وأسكنه اياها ليست جنة الخلد قال وهذا قول تكثر الدلائل الشاهدة له والموجبة للقول به لأن الجنة التي تدخل بعد القيامة هي من حيز الآخرة وفي اليوم الآخر تدخل ولم يأت بعد وقد وصفها الله تعالى لنا في كتابه بصفاتنا ومحال أن يصف الله شيئاً بصفة ثم يكون ذلك الشيء بغير تلك الصفة التي وصفها به والقول بهذا دافع لما أخبر الله به وقالوا وجدنا الله تبارك وتعالى وصف الجنة التي أعدت للمتقين بعد قيام القيامة بدار المقامة ولم يسمها بدار آدم فيها ووصفها بأنها جنة الخلد ولم يخلد آدم فيها ووصفها بأنها دار جزاء ولم يقل أنها دار ابتلاء وقد ابتلى آدم فيها بالمعصية والفتنة ووصفها بأنها ليس فيها حزن وأن الداخلين اليها يقولون الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن وقد حزن فيها آدم ووجدناه سماها دار السلام ولم يسم فيها آدم من الآفات التي تكون في الدنيا وسماها دار القرار ولم يستقر فيها آدم وقال فيمن يدخلها وما هم منها بمخرجين وقد أخرج منها آدم بمعصيته وقال لا يمسمها فيها نصب وقد ند آدم فيها هاربا فارا عند أصابته المعصية وطفق يخصف ورق الجنة على نفسه وهذا النصب بعينه الذي نفاه الله عنها وأخبر أنه لا يسمع فيها لغو ولا تأثيم وقد أثم فيها آدم وأسمع فيها ما هو أكبر من اللغو وهو أنه أمر فيها بمعصية ربه وأخبر أنه لا يسمع فيها لغو ولا كذب وقد أسمعها فيها ابليس السكذب وغيره وقاسمه عليه أيضا بعد أن أسمعها

اياه . وقد شرب آدم من شرابها الذى سماه فى كتابه شرابا طهورا أى مطهرا من جميع الآفات المذمومة وآدم لم يطهر من تلك الآفات . وسماها الله تعالى مقعد صدق وقد كذب ابليس فيها آدم ومقعد الصدق لا كذب فيه وعليون لم يكن فيه استحالة قط ولا تبديل ولا يكون باجماع المصلين والجنة فى أعلى عليين والله تعالى انما قال انى جاعل فى الأرض خليفة ولم يقل انى جاعله فى جنة المأوى فقالت الملائكة أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء والملائكة اتقى الله من أن تقول مالا نعلم وهم القائلون لا علم لنا إلا ما علمتنا . وفى هذا دلالة على أن الله قد كان أعلمهم أن بنى آدم سيفسدون فى الأرض والا فكيف كانوا يقولون مالا يعلمون والله تعالى يقول وقوله الحق (لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) والملائكة لا تقول ولا تعمل إلا بما تؤمر به لا غير . قال الله تعالى (ويفعلون ما يؤمرون) والله تعالى أخبرنا أن ابليس قال لآدم (هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى) فان كان قد أسكن الله جنة الخلد والملك الذى لا يبلى فكيف لم يرد عليه نصيحته ويكذبه فى قوله فيقول وكيف تدلنى على شيء أنا فيه قد أعطيته واخترته بل كيف لم يحث التراب فى وجهه ويسبهه لأن ابليس لئن كان يكون بهذا الكلام مغويا له انما كان يكون زاريا عليه لأنه انما وعده على معصية ربه بما كان فيه لا زائدا عليه . ومثل هذا لا يخاطب به إلا المجانين الذين لا يعقلون لأن العوض الذى وعده به بمعصية ربه قد كان أحرزه وهو الخلد والملك الذى لا يبلى ولم يخبر الله آدم إذ أسكنه الجنة أنه فيها من الخالدين ولو كان فيها من الخالدين لما ركن إلى قول ابليس ولا قبل نصيحته واسكنه لما كان فى غير دار خلود غيره بما أطمعه فيه من الخلد فقبل منه ولو أخبر الله آدم أنه فى دار الخلد ثم شك فى خبر ربه لسماه كافرا ولما سماه عاصيا لأن من شك فى خبر الله فهو كافر ومن فعل غير ما أمره الله به وهو معتقد للتصديق بخبر ربه فهو عاص . وانما سعى الله آدم عاصيا ولم يسمه كافرا . قالوا فان كان آدم أسكن جنة الخلد وهى دار القدس التى لا يدخلها إلا طاهر مقدس فكيف توصل اليها ابليس الرجس الملعون المذموم المدحور حتى فتن فيها آدم وابليس فاسق قد فسق عن أمر ربه وليست جنة الخلد دار الفاسقين ولا يدخلها فاسق البتة انما هى دار المتقين وابليس غير تقى فبعد أن قيل له (اهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها) انفسح له أن يرقى إلى جنة المأوى فوق السماء السابعة بعد السخط والابعاد له بالعفو والاستكبار هذا مضاد لقوله تعالى (اهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها) فان كانت مخاطبته آدم بما خاطبه به وقاسمه عليه ليس تكبرا فليس تعقل العرب التى أنزل القرآن بلسانها ما التكبى . ولعل من ضعفت رويته وقصر بحثه أن يقول

ان ابليس لم يصل اليها ولكن وسوسته وصلت . فهذا قول يشبه قائله ويشاكل معتقده
وقول الله تعالى حكم بيننا وبينه وقوله تعالى وقاسمهما يرد ما قال لأن المقاسمة ليست وسوسة
ولكنها مخاطبة ومشافهة ولا تكون إلا من اثنين شاهدين غير غائبين ولا أحدهما وبما
يدل على أن وسوسته كانت مخاطبة قول الله تعالى (فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل
أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى) فأخبر أنه قال له ودل ذلك على أنه انما وسوس
إليه مخاطبة لا أنه أوقع ذلك في نفسه بلا مقابلة فمن ادعى على الظاهر تأويلا ولم يقم عليه
دليلا لم يجب قبول قوله وعلى أن الوسوسة قد تكون كلاما مسموعا أو صوتا قال رؤبة :

✽ وسوس يدعو مخلصا رب الفلق ✽

وقال الأعشى :

تسمع للحلى وسواسا إذا انصرفت ✽ كما استعان بريح عشرق زجل
قالوا في قول ابليس لهما ما كما ربكنا عن هذه الشجرة دليل على مشاهدته لهما وللشجرة
✽ ولما كان آدم خارجا من الجنة وغير ساكن فيها قال الله (ألم أنهيكم عن تلك الشجرة)
ولم يقل عن هذه الشجرة كما قال له ابليس لأن آدم لم يكن حينئذ في الجنة ولا مشاهداً
للشجرة مع قوله عز وجل (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) فقد أخبر
سبحانه خبرا محكما غير مشتببه أنه لا يصعد إليه إلا كلم طيب وعمل صالح وهذا بما قدمنا
ذكره أنه لا يبلغ المقدس المطهر إلا مقدس مطهر طيب ومعاذ الله أن تكون وسوسة ابليس
مقدسة أو طاهرة أو خيرا بل هي شر كلها وظلمة وخبيث ورجس تعالى الله عن ذلك علواً
كبيراً وكما أن أعمال الكافرين لا تلج القدس الطاهر ولا تصل إليه لأنها خبيثة غير طيبة
كذلك لا تصل ولم تصل وسوسة ابليس ولا ولجت القدس قال تعالى (كلا ان كتاب الفجار
لنرى سجين) ✽ وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم ان آدم نام في جنته وجنة الخلد لا نوم
فيها باجماع من المسلمين لأن النوم وفاة وقد نطق به القرآن والوفاة تقلب حال ودار السلام
مسئلة من تقلب الأحوال والنائم ميت أو كلميت قالوا وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم
أنه قال لأم حارثة لما قالت له يا رسول الله ان حارثة قتل معك فان كان صار إلى الجنة
صبرت واحتسبت وان كان صار إلى ما سوى ذلك رأيت ما أفعل فقال لها رسول الله صلى
الله عليه وسلم أو جنة واحدة هي انما هي جنان كثيرة فاخبر صلى الله عليه وسلم ان الله جنات
كثيرة فلعل آدم أسكنه الله جنة من جناته ليست هي جنة الخلد قالوا وقد جاء في بعض
الأخبار ان جنة آدم كانت بأرض الهند قالوا وهذا وان كان لا يصححه رواة الأخبار
ونقلة الآثار فالذي تقبله الألباب ويشهد له ظاهر الكتاب أن جنة آدم ليست جنة الخلد

ولا دار البقاء وكيف يجوز أن يكون الله أسكن آدم جنة الخلد ليكون فيها من الخالدين وهو قائل للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة وكيف أخبر الملائكة أنه يريد أن يجعل فى الأرض خليفة ثم يسكنه دار الخلود ودار الخلود لا يدخلها إلا من يخلد فيها كما سميت بدار الخلود فقد سماها الله بالأسماء التى تقدم ذكرنا لها تسمية مطلقة لا خصوص فيها فاذا قيل للجنة دار الخلد لم يجوز أن ينقص مسمى هذا الاسم بحال فهذا بعض ما احتج به القائلون بهذا المذهب وعلى هذا فاسكان آدم وذريته فى هذه الجنة لا ينافى كونهم فى دار الابتلاء والامتحان وحينئذ كانت تلك الوجوه والفوائد التى ذكرتموها ممكنة الحصول فى الجنة (فالجواب) أن يقال هذا فيه قولان للناس ونحن نذكر القولين واحتجاج الفريقين ونبين ثبوت الوجوه التى ذكرناها وأمثالها على كلا القولين ونذكر أولاً قول من قال انها جنة الخلد التى وعدّها الله المتقين وما احتجوا به وما نقضوا به حجج من قال انها غيرها ثم نتبعها مقالة الآخرين وما احتجوا به وما أجابوا به عن حجج منازعيهم من غير انتصاب لنصرة أحد القولين وابطال الآخر إذ ليس غرضنا ذلك وإنما الغرض ذكر بعض الحكم والمصالح المقتضية لاجراج آدم من الجنة واسكانه فى الأرض فى دار الابتلاء والامتحان وكان الغرض بذلك الرد على من زعم أن حكمة الله سبحانه تأبى ادخال آدم الجنة وتعريضه للذنب الذى أخرج منها به وأنه أى فائدة فى ذلك والرد على أن من أبطل أن يكون له فى ذلك حكمة وإنما هو صادر عن محض المشيئة التى لاحكمة وراءها ولما كان المقصود حاصل على كل تقدير سواء كانت جنة الخلد أو غيرها بنينا الكلام على التقديرين ورأينا أن الرد على هؤلاء بدبوس السلاق (١) لا يحصل غرضاً ولا يزيل مرضاً فلسكننا هذا السبيل ليكون قولهم مردوداً على كل قول من أقوال الأمة وبالله المستعان وعليه التسكان ولا حول ولا قوة الا بالله فنقول أما ما ذكرتموه من كون الجنة التى أهبط منها آدم ليست جنة الخلد وإنما هى جنة غيرها فهذا مما قد اختلف فيه الناس والاشهر عند الخاصة والعامة الذى لا يخطر بقلوبهم سواه أنها جنة الخلد التى أعدت للمتقين وقد نص غير واحد من السلف على ذلك واحتج من نصر هذا بما رواه مسلم فى صحيحه من حديث أبى مالك الاشجعى عن أبى حازم عن أبى هريرة وأبو مالك عن ربيع بن حراش عن حذيفة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يجمع الله عز وجل الناس حتى يزلف لهم الجنة فيأتون آدم عليه السلام فيقولون يا أبانا استفتح لنا الجنة فيقول وهل أخرجكم من الجنة الا خطيئة أتيكم آدم وذكر الحديث قالوا فهذا يدل على أن الجنة التى أخرج منها آدم هى بعينها التى يطلب منه

أن يستفتحها لهم قالوا ويدل عليه أن الله سبحانه (قال يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة) إلى قوله (اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين) عقيب قوله اهبطوا فدل على أنهم لم يكونوا أولاً في الأرض وأيضاً فإنه سبحانه وصف الجنة التي أسكنها آدم بصفات لا تكون في الجنة الدنيوية فقال تعالى (إن لك إلا تجرع فيها ولا تعرى وأنك لا تظلم فيها ولا تضحى) وهذا لا يكون في الدنيا أصلاً ولو كان الرجل في أطيب منازلها فلا بد أن يعرض له الجوع والظمأ والتعرى والضحى للشمس وأيضاً فإنها لو كانت الجنة في الدنيا لعلم آدم كذب ابليس في قوله هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى فإن آدم كان يعلم أن الدنيا منقضية فانية وأن ملكها يبلى وأيضاً فإن قصة آدم في البقرة ظاهرة جداً في أن الجنة التي أخرج منها فوق السماء فإنه سبحانه قال (واذ قلنا للبلائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس أوى واستكبر وكان من الكافرين وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم) . فهذا اهباط آدم وحواء وابليس من الجنة ولهذا أتى فيه بضمير الجمع . وقيل انه خطاب لهم وللجنة وهذا يحتاج إلى نقل ثابت إذ لا ذكر للجنة في شيء من قصة آدم وابليس . وقيل خطاب لآدم وحواء وأتى فيه بلفظ الجمع كقوله تعالى (وكنا لحكمهم شاهدين) . وقيل لآدم وحواء وذريتهما . وهذه الاقوال ضعيفة غير الاول لانها بين قول لا دليل عليه وبين ما يدل ظاهر الخطاب على خلافه فثبت أن ابليس داخل في هذا الخطاب وأنه من المهبطين من الجنة . ثم قال تعالى (قلنا اهبطوا منها جميعاً فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلاخوف عليهم ولا هم يحزنون) وهذا الاهباط الثانى لا بد أن يكون غير الاول وهو اهباطه من السماء إلى الأرض وحينئذ فتكون الجنة التي اهبطوا منها أولاً فوق السماء وهى جنة الخلد وقد ذهبت طائفة منهم الزمخشري الى أن قوله اهبطوا منها جميعاً خطاب لآدم وحواء خاصة وعبر عنهما بالجمع لاستبعاهما ذريتهما . قال والدليل عليه قوله تعالى (قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فاما يأتينكم منى هدى) وقال ويدل على ذلك قوله (فمن تبع هداى فلاخوف عليهم ولا هم يحزنون) والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أو ائمتك أصحاب النار هم فيها خالدون) وما هو الا حكم يعم الناس كلهم ومعنى بعضكم لبعض عدو . عليه الناس من التعادى والتباغض وتضليل بعضهم لبعض . وهذا الذى اختاره أضعف الاقوال فى الآية فان العداوة التي ذكرها الله انما هى بين آدم وابليس وذريتهما كما قال تعالى (ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً) . وأما

آدم وزوجه فان الله سبحانه اخبر في كتابه أنه خلقها منه ليسكن اليها وقال سبحانه (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة) فهو سبحانه جعل المودة بين الرجل وزوجه وجعل العداوة بين آدم وابليس وذريتهما ويدل عليه أيضا عود الضمير اليهم بلفظ الجمع . وقد تقدم ذكر آدم وزوجه وابليس في قولهم فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما فهؤلاء ثلاثة آدم وحواء وابليس فلماذا يعود الضمير على بعض المذكور مع منافرة الطريق الكلام ولا يعود على جميع المذكور مع أنه وجه الكلام . فان قيل فما تصنعون بقوله في سورة طه : (قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو) وهذا خطاب لآدم وحواء . وقد أخبر بعبادة بعضهم بعضا قيل اما أن يكون الضمير في قوله اهبطا راجعا إلى آدم وزوجه أو يكون راجعا إلى آدم وابليس ولم يذكر الزوجة لأنها تبع له وعلى الثاني فالعبادة المذكورة للخاطبين بالاهباط وهما آدم وابليس وعلى الأول تكون الآية قد اشتملت على أمرين . أحدهما أمره لآدم وزوجه بالهبوط . والثاني جعله العداوة بين آدم وزوجه وابليس ولا بد أن يكون أبليس داخل في حكم هذه العداوة قطعا كما قال تعالى إن هذا عدو لك ولزوجك ، وقال لذريته إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا وتأمل كيف انفقت المواضع التي فيها العداوة على ضمير الجمع دون التثنية . واما ذكر الاهباط فتارة يأتي بلفظ ضمير الجمع وتارة بلفظ التثنية وتارة يأتي بلفظ الافراد لابليس وحده . كقوله تعالى في سورة الاعراف (قال ما منعك أن لاتسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها) فهذا الاهباط لابليس وحده والضمير في قوله منها قيل أنه عائد إلى الجنة وقيل عائد إلى السماء وحيث أتى بصيغة الجمع كان لآدم وزوجه وابليس إذ مدار القصة عليهم وحيث أتى بلفظ التثنية فاما ان يكون لآدم وزوجه إذ هما اللذان باشرا الاكل من الشجرة واقدمتا على المعصية . واما ان يكون لآدم وابليس إذ هما ابوا الثقيلين فذكر حالهما وما آل اليه أمرهما ليسكون عظة وعبرة لاولادهما والقولان محكيان في ذلك وحيث أتى بلفظ الافراد فهو لابليس وحده . وأيضا فالذي يوضح أن الضمير في قوله اهبطا منها جميعا لآدم ولابليس ان الله سبحانه لما ذكر المعصية أفرد بها آدم دون زوجه فقال (وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتبه ربه فتاب عليه وهدى قال اهبطا منها جميعا) وهذا يدل على أن المخاطب بالاهباط هو آدم ومن زين له المعصية ودخلت الزوجة تبعا وهذا لأن المقصود اخبار الله تعالى لعباده المكلفين من الجن والإنس بما جرى على أبيهما من شؤم المعصية ومخالفة الأمر لئلا يقتدوا بهما في ذلك فذكر أبو الثقيلين أبلغ في حصول هذا المعنى من ذكر أبوي الإنس فقط وقد أخبر سبحانه عن الزوجة أنها أكلت مع آدم وأخبر أنه اهبطه

وأخرجه من الجنة بتلك الأكلة فعلم أن هذا اقتضاه حكم الزوجية وانها صارت إلى ما صار إليه آدم فكان تجريد العناية إلى ذكر الأبوين اللذين هما أصل الذرية أولى من تجريدها إلى ذكر أبي الانس وأمهم والله أعلم وبالجملة فقولوه (اهبطوا بعضهم لبعض عدو) ظاهر في الجمع فلا يسوغ حمله على الاثنين في قوله اهبطا . قالوا وأما قولكم انه كيف وسوسله بعد اهباطه منها ومحال أن يصعد إليها بعد قوله تعالى اهبط . فجوابه من وجوه ٥ أحدهما أنه أخرج منها ومنع من دخولها على وجه السكنى والكرامة واتخاذها داراً فمن أين لكم أنه منع من دخولها على وجه الابتلاء والامتحان لآدم وزوجه ويكون هذا دخولا عارضا كما يدخل مشرط دار من امروا بابتلائه ومحتته وان لم يكونوا اهلا لسكنى تلك الدار ٥ الثاني انه كان يدنو من السماء فيكلمهما ولا يدخل عليهما دارهما ٥ الثالث انه لعله قام على الباب فناداهما وقاسمهما ولم يبلغ الجنة الرابع انه قد روى انه اراد الدخول عليهما فممنعه الخزنة فدخل في فم الحية حتى دخلت به عليهما ولا يشعر الخزنة بذلك . قالوا وبما يدل على انها جنة الخلد بعينها انها جاءت معرفة بلام التعريف في جميع المواضع كقوله (اسكن انت وزوجك الجنة) ولا جنة يعهدا المخاطبون ويعرفونها إلا جنة الخلد التي وعد الرحمن عباده بالغيب فقد صار هذا الاسم علماً عليها بالغلبة وإن كان في أصل الوضع عبارة عن البستان ذى الثمار والفواكه وهذا كالمدينة لطيبة والنجم للثريا ونظائرها فحيث ورد اللفظ معرفاً بالألف واللام انصرف إلى الجنة المعهودة المعلومة في قلوب المؤمنين . وأما ان أريد به جنة غيرها فانها تجيء منكرة كقوله (جنتين من أعناب) أو مقيدة بالإضافة كقوله (ولولا إذ دخلت جنتك) أو مقيدة من السياق بما يدل على أنها جنة في الأرض كقوله (إنا بلوناكم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصر منها مصبحين) الآيات فهذا السياق والقييد يدل على أنها بستان في الأرض . قالوا وأيضاً فإنه قد اتفق أهل السنة والجماعة على أن الجنة والنار مخلوقتان وقد تواترت الاحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم بذلك كما في الصحيحين عن عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالعداء والعشى إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار يقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال اختصمت الجنة والنار فقالت الجنة مالى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقطهم وقالت النار مالى لا يدخلنى إلا الجبارون والمتكبرون فقال للجنة أنت رحمتى أرحم بك من أشاء وقال للنار أنت عذابى أعذب بك من أشاء الحديث وفي السنن عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل إلى الجنة فقال اذهب فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها قال

فذهب فنظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها الحديث وفي الصحيحين في حديث الاسراء ثم رفعت
لى سدرة المنتهى فاذا ورقها مثل آذان الفيلة وإذا نبقها مثل قلال هجر وإذا أربعة أنهار نهران
ظاهران ونهران باطنان فقلت ما هذا يا جبريل قال أما النهران الظاهران فالنيل والفرات وأما
الباطنان فنهران فى الجنة . وفيه أيضا ثم أدخلت الجنة فاذا جناذب اللؤلؤ وإذا ترابها المسك
وفى صحيح البخارى عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال بينما أنا أسير فى الجنة إذا أنا
بنهر حافته قباب الدر المجوف قال قلت ما هذا يا جبريل قال هذا الكوثر الذى أعطاك ربك
فضرب الملك بيده فاذا طينه مسك اذفر . وفى صحيح مسلم فى حديث صلاة الكسوف أن النبي
صلى الله عليه وسلم جعل يتقدم ويتأخر فى الصلاة ثم أقبل على أصحابه فقال انه عرضت لى
الجنة والنار فقربت منى الجنة حتى لو تناولت منها قطفا لأخذته فلو أخذته لا كلمت منه ما بقيت
الدنيا . وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود فى قوله تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً
بل أحياء عند ربهم يرزقون) أرواحهم فى جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح
من الجنة حيث شامت ثم تأوى إلى تلك القناديل فاطلع عليهم ربك اطلاعة فقال هل تشتهون
شيئاً فقالوا أى شىء نشتهى ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا الحديث . وفى الصحيح من
حديث ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أصيب اخوانكم بأحد جعل الله
أرواحهم فى أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من
ذهب معلقة فى ظل العرش فلما وجدوا طيب ما كلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا من يبلغ عنا
إخواننا أنا فى الجنة نرزق لئلا يزهودوا فى الجهاد ولا يتكلموا عند الحرب فقال الله أنا أبلغهم
عنكم فانزل الله عز وجل (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله) الآية . وفى الموطأ من حديث
كعب بن مالك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إنما نسمة المؤمن طائر يعلق فى الجنة
حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه وفى البخارى أن إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم
لما توفى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أن له مرضعاً فى الجنة . وفى صحيح البخارى عن
عمران بن حصين قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اطلمت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها
الفقراء واطلمت فى النار فرأيت أكثر أهلها النساء . والآثار فى هذا الباب أكثر من أن
تذكر وأما القول بأن الجنة والنار لم تخلقا بعد . فهو قول أهل البدع من ضلال المعتزلة ومن
قال بقولهم وهم الذين يقولون ان الجنة التى أهبط منها آدم إنما كانت جنة بشرقى الأرض
وهذه الإحاديث وأمثالها ترد قولهم . قالوا وأما احتجاجكم بسائر الوجوه التى ذكرتموها فى
الجنة وأنها منتفية فى الجنة التى أسكنها آدم من اللغو والكذب والنصب والعرى وغير ذلك
فهذا كله حق لا نتكره نحن ولا أحد من أهل الاسلام ولكن هذا إنما هو إذا دخلها المؤمنون

يوم القيامة كما يدل عليه سياق الكلام وهذا لا ينبغي أن يكون فيها بين آدم وإبليس ما حكاه الله عز وجل من الامتحان والابتلاء ثم يصير الأمر عند دخول المؤمنين إليها إلى ما أخبر الله عز وجل به فلا تنافي بين الأمرين . قالوا وأما قولكم ان الجنة دار جزاء وثواب وليست دار تكليف وقد كلف الله سبحانه آدم فيها بالنهي عن الشجرة . فخوابه من وجهين ه أحدهما أنه إنما يمتنع أن تكون دار تكليف إذا دخلها المؤمنون يوم القيامة حينئذ ينقطع التكليف وأما امتناع وقوع التكليف فيها في دار الدنيا فلا دليل عليه . الثاني أن التكليف فيها لم يكن بالأعمال التي يكلف بها الناس في الدنيا من الصيام والصلاة والجهاد ونحوها وإنما كان حجراً عليه في شجرة من جملة أشجارها وهذا لا يمتنع وقوعه في جنة الخلد كما أن كل أحد محجور عليه أن يقرب أهل غيره فيها فان أردتم بأن الجنة ليست دار تكليف امتناع وقوع مثل هذا فيها في وقت من الأوقات فلا دليل لكم عليه وإن أردتم أن غالب التكليف التي تكون في الدنيا متفتية فيها فهو حق ولكن لا يدل على مطلوبكم . قالوا وهذا كما أنه موجب الأدلة وقول سلف الأمة فلا يعرف بقولكم قائل من أئمة العلم ولا يرجع عليه ولا يلتفت إليه . قال ، الأولون الجواب عما ذكرتم من وجهين بجملة ومفصل . أما المجمع فانكم لم تأتوا على قولكم بدليل يتعين المصير إليه لا من قرآن ولا من سنة ولا أثر ثابت عن أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا التابعين لامسندا ولا مقطوعاً . ونحن نوجدكم من قال بقولنا . هذا أحد أئمة الإسلام سفيان بن عيينة قال في قوله عز وجل (ان لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى) قال يعنى في الأرض وهذا عبد الله بن مسلم بن قتيبة قال في معارفه بعد أن ذكر خلق الله لآدم وزوجه ان الله سبحانه أخرجه من مشرق جنة عدن إلى الأرض التي منها أخذ وهذا أبي قد حكى الحسن عنه أن آدم لما احتضر اشتهى قطفاً من قطف الجنة فانطلق بنوه ليطلبوه له فلقيتهم الملائكة فقالوا أين تريدون يا بني آدم قالوا إن أبانا اشتهى قطفاً من قطف الجنة فقالوا لهم ارجعوا فقد كفيتموه فأتوهوا إليه فقبضوا روحه وغسلوه وحنطوه وكفنوه وصلى عليه جبريل وبنوه خلف الملائكة ودفنوه وقالوا هذه سنتكم في موتاكم . وهذا أبو صالح قد نقل عن ابن عباس في قوله اهبطوا منها قال هو كما يقال هبط فلان في أرض كذا وكذا وهذا وهب بن منبه يذكر أن آدم خلق في الأرض وفيها سكن وفيها نصب له الفردوس وانه كان بعدن وإن سيحون وجيحون والفرات انقسمت من النهر الذي كان في وسط الجنة وهو الذي كان يسقيا ، وهذا منذر بن سعيد البلوطي اختاره في تفسيره ونصره بما حكيناه عنه وحكاه في غير التفسير عن أبي حنيفة فيما خالفه فيه فلم قال بقوله في هذه المسألة . وهذا أبو مسلم الاصبهاني صاحب التفسير وغيره أحد الفضلاء المشهورين قال بهذا وانتصر له واحتج عليه بما هو معروف

في كتابه . وهذا أبو محمد عبد الحق بن عطية ذكر القولين في تفسيره في قصة آدم في البقرة .
وهذا أبو محمد بن حزم ذكر القولين في كتاب الملل والنحل له . فقال وكان المنذر بن سعيد
القاضي يذهب إلى أن الجنة والنار مخلوقتان إلا أنه كان يقول أنها ليست هي التي كان فيها
آدم وامراته ومن حكى القولين أيضاً أبو عيسى الرمانى في تفسيره واختار أنها جنة الخلد .
ثم قال والمذهب الذى اخترناه قول الحسن وعمرو بن واصل وأكثر أصحابنا وهو قول
أبي علي وشيخنا أبي بكر وعليه أهل التفسير ومن ذكر القولين أبو القاسم الراغب في تفسيره .
فقال واختلف في الجنة التي أسكنها آدم فقال بعض المتكلمين كان بستانا جعله الله له امتحانا
ولم يكن جنة المأوى ثم قال ومن قال لم يكن جنة المأوى لأنه لا تكليف في الجنة وآدم كان مكلفا .
قال وقد قيل في جوابه انها لا تكون دار التكليف في الآخرة ولا يمنع أن تكون في وقت دار تكليف .
دون وقت كما أن الانسان يكون في وقت مكلفا دون وقت . ومن ذكر الخلاف في المسئلة
أبو عبدالله بن الخطيب الرازى في تفسيره فذكر هذين القولين وقولا ثالثاً وهو التوقف قال لا مكان
الجميع وعدم الوصول إلى القطع كما سياتى حكاية كلامه ومن المفسرين من لم يذكر غير هذا القول
وهو أنها لم تكن جنة الخلد إنما كانت حيث شاء الله من الأرض وقالوا كانت تطلع فيها الشمس
والقمر وكان ابليس فيها ثم أخرج قال ولو كانت جنة الخلد لما أخرج منها . ومن ذكر القولين
أيضاً أبو الحسن الماوردى فقال في تفسيره واختلف في الجنة التي أسكنها على قولين . أحدهما أنها جنة
الخلد . الثاني أنها جنة أعداها الله لها وجعلها دار ابتلاء وليست جنة الخلد التي جعلها الله دار جزاء
ومن قال بهذا اختلفوا فيه على قولين . أحدهما أنها في السماء لأنه أهبطهما منها وهذا قول الحسن .
الثاني أنها في الأرض لأنه امتحنهما فيها بالنهي عن الشجرة التي نهيا عنها دون غيرها من الثمار وهذا
قول ابن يحيى وكان ذلك بعد أن أمر ابليس بالسجود لآدم والله أعلم بصواب ذلك هذا
كلامه وقال ابن الخطيب في تفسيره اختلفوا في أن الجنة المذكورة في هذه الآية هل كانت في
الأرض أو في السماء وبتقدير أنها كانت في السماء فهل هي الجنة التي هي دار الثواب وجنة الخلد أو
جنة أخرى فقال أبو القاسم البلخى وأبو مسلم الاصبهاني هذه الجنة في الأرض وحملها الاهباط
على الانتقال من بقعة إلى بقعة كما في قوله تعالى اهبطوا مصراً . القول الثاني وهو قول الجبائي
أن تلك كانت في السماء السابعة قال والدليل عليه قوله اهبطوا ثم ان الاهباط الأول كان من
السماء السابعة إلى السماء الأولى والاهباط الثاني كان من السماء إلى الأرض . والقول الثالث
وهو قول جمهور أصحابنا أن هذه الجنة هي دار الثواب والدليل عليه هو أن الآلف واللام
في لفظ الجنة لا يفيد العموم لأن سكنى آدم جميع الجنان محال فلا بد من صرفها إلى المأمود
السابق والجنة المأمودة المعلومة بين المسلمين هي دار الثواب فوجب صرف اللفظ إليها قال :
والقول الرابع أن الكل ممكن والادلة الثقلية ضعيفة ومتعارضة فوجب التوقف وترك القطع .

قالوا ونحن لا نقصد هؤلاء ولا نعتمد على ما حكى عنهم والحجة الصحيحة حكم بين المتنازعين
قالوا وقد ذكرنا على هذا القول ما فيه كفاية * وأما الجواب المفصل فنحن نتكلم على
ما ذكرتم من الحجج لينكشف وجه الصواب فنقول وبالله التوفيق * أما استدلالكم بحديث
أبي هريرة وحذيفة حين يقول الناس لآدم استفتح لنا الجنة فيقول وهل أخرجكم منها إلا
خطيئة أبيكم فهذا الحديث لا يدل على أن الجنة التي طلبوا منه أن يستفتحها لهم هي التي أخرج
منها بعينها فإن الجنة اسم جنس فشكل بستان يسمى جنة كما قال تعالى (انا بلوناكم كما بلونا
أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين) وقال تعالى (وقالوا ان نؤمن لك حتى تفجر
لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب) وقال تعالى (ومثل الذين
ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة) وقال تعالى
(واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل) إلى قوله
(ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله) فإن الجنة اسم جنس فهم لما طلبوا
من آدم أن يستفتح لهم جنة الخلد أخبرهم بأنه لا يحسن منه أن يقدم على ذلك وقد أخرج
نفسه وذريته من الجنة التي أسكنه الله آياها بذنبه وخطيئته هذا الذي دل عليه الحديث .
وأما كون الجنة التي أخرج منها هي بعينها التي طلبوا منه أن يستفتحها لهم فلا يدل الحديث
عليه بشيء من وجوه الدلالات الثلاث ولو دل عليه لوجب المصير إلى مدلول الحديث وامتنع
القول بمخالفته وهل مدارنا إلا على فهم مقتضى كلام الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه
عليه . قالوا وأما استدلالكم بالهبوط وأنه نزول من علو إلى سفلى . فجوابه من وجهين :
أحدهما أن الهبوط قد استعمل في النقلة من أرض إلى أرض كما يقال هبط فلان
بلد كذا وكذا وقال تعالى (اهبطوا مصرا فان لكم ما سألتم) وهذا كثير في نظم
العرب ونثرها قال :

إن تهبطين بلاد قو م يرتعون من الطلاح

وقد روى أبو صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما قال هو كما يقال هبط فلان أرض كذا
وكذا . الثانى أنا لا تنازعكم في أن الهبوط حقيقة ما ذكرتموه ولكن من أين يلزم أن تكون
الجنة التي منها الهبوط فوق السموات فاذا كانت في أعلى الأرض أما يصح أن يقال هبط منها
كما هبط الحجر من أعلى الجبل إلى أسفله ونحوه . وأما قوله تعالى (واسكنم في الأرض مستقر
ومتاع إلى حين) فهذا يدل على أن الأرض التي أهبطوا إليها لهم فيها مستقر ومتاع إلى حين
ولا يدل على أنهم لم يكونوا في جنة عالية أعلى من الأرض التي أهبطوا إليها تخالف الأرض

في صفاتها وأشجارها ونعيمها وطيبها فالله سبحانه فآوت بين بقاع الأرض أعظم تفاوت
وهذا مشهود بالحس فمن أين لكم أن تلك لم تكن جنة تميزت عن سائر بقاع الأرض بما
لا يكون إلا فيها ثم أهبطوا منها إلى الأرض التي هي محل التعب والنصب والابتلاء والامتحان
وهذا بعينه هو الجواب عن استدلالكم بقوله تعالى (إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى) إلى
آخر ما ذكرتموه مع أن هذا حكم معلق بشرط والشرط لم يحصل فانه سبحانه انما قال ذلك
عقيب قوله (ولا تقربا هذه الشجرة) وقوله (ان لك ألا تجوع فيها ولا تعرى) هو صيغة
وعد مرتبطة بما قبلها والمعنى ان اجتنبت الشجرة التي نهيتك عنها ولم تقر بها كان لك هذا الوعد
والحكم المعلق بالشرط عدم عند عدم الشرط فلما أكل من الشجرة زال استحقاؤه لهذا الوعد ،
قال وأما قولكم أنه لو كانت الجنة في الدنيا لعلم آدم كذب ابليس في قوله هل أدلك على
شجرة الخلد وملك لا يبلى إلى آخره فدعوى لا دليل عليها لأنه لا دليل لكم على أن الله
سبحانه كان قد أعلم آدم حين خلقه أن الدنيا منقضية فانية وان ملكها يبلى ويزول وعلى تقدير
أن يكون آدم حينئذ قد أعلم ذلك فقول ابليس هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى لا يدل
على أنه أراد بالخلد مالا يتناهى فان الخلد في لغة العرب هو اللبث الطويل كقولهم قيد مخلد
وحبس مخلد وقد قال تعالى لثمود (أتبنون بكل ربيع آية تعيثون وتمدنون مصانع لعلمكم
تمخلدون) وكذلك قوله (وملك لا يبلى) يراد به الملك الطويل الثابت . وأيضاً فلا وجه
للاعتذار عن قول ابليس مع تحقق كذبه ومقاسمته آدم وحواء على الكذب والله سبحانه
قد أخبر أنه قاسمهما ودلاهما بغرور وهذا يدل على أنهما اغترا بقوله فغرهما بأن اطعتهما
في خلد الأبد والملك الذي لا يبلى وبالجملة فالاستدلال بهذا على كون الجنة التي سكنها آدم
هي جنة الخلد التي وعداها المتقون غير بين * ثم نقول لو كانت الجنة هي جنة الخلد التي لا يزول
ملكها لكانت جميع أشجارها شجر الخلد فلم يكن لتلك الشجرة اختصاص من بين سائر الشجر
بكونها شجرة الخلد وكان آدم يسخر من ابليس إذ قد علم ان الجنة دار الخلد . فان قلتم لعل
آدم لم يعلم حينئذ ذلك فغره الخبيث وخدعه بأن هذه الشجرة وحدها هي شجرة الخلد . فلنا
فانعموا منا بهذا الجواب بعينه عن قولكم لو كانت الجنة في الدنيا لعلم آدم كذب ابليس في
ذلك لأن قوله كان خداعا وغرورا محضا على كل تقدير فانقلب دليلكم حجة عليكم وبالله
التوفيق ، قالوا ، وأما قولكم ان قصة آدم في البقرة ظاهرة جدا في أن جنة آدم كانت فوق
السماء فتحن نظالكم بهذا الظهور ولا سبيل لكم إلى إثباته قولكم أنه كرر فيه ذكر الهبوط
مرتين ولا بد أن يفيد الثاني غير ما أفاد الأول فيكون الهبوط الأول من الجنة والثاني من
السماء فهذا فيه خلاف بين أهل التفسير فقالت طائفة هذا القول الذي ذكرتموه وقالت طائفة

منهم النقاش وغيره أن الهبوط الثاني إنما هو من الجنة الى السماء والهبوط الأول الى الأرض وهو آخر الهبوطين في الوقوع وان كان أولهما في الذكر وقالت طائفة أتى به على جهة التعليل والتأكيد كما تقول الرجل اخرج اخرج وهذه الأقوال ضعيفة . فأما القول الأول فيظهر ضعفه من وجوه . أحدها أنه مجرد دعوى لا دليل عليها من اللفظ ولا من خبر يجب المصير اليه وما كان هذا سبيله لا يحمل القرآن عليه . الثاني ان الله سبحانه قد أهبط ابليس لما امتنع من السجود لآدم اهباطاً كونياً قدرياً لا سبيل له الى التخلف عنه فقال تعالى (اهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج انك من الصاغرين) وقال في موضع آخر (فاخرج منها فانك رجيم وان عليك اللعنة الى يوم الدين) وفي موضع آخر (اخرج منها مذموماً مدحوراً لمن تبعل منهم لآملأن جهنم منكم أجمعين) وسواء كان الضمير في قوله منها راجعاً الى السماء أو الى الجنة فهذا صريح في اهباطه وطرده ولعنه وادحاره والمدحور المبعد وعلى هذا فلو كانت الجنة فوق السموات لكان قد صعد اليها بعد اهباط الله له . وهذا وان كان يمكننا فهو في غاية البعد عن حكمة الله ولا يقتضيه خبره فلا ينبغي أن يصار اليه . وأما الوجوه الأربعة التي ذكرتموها من صعوده للوسوسة فهي مع أمر الله تعالى بالهبوط مطلقاً وطرده ولعنه ودحوره لا دليل عليها لا من اللفظ ولا من الخبر الذي يجب المصير اليه وما هي إلا احتمالات مجردة وتقديرات لا دليل عليها . الثالث أن سياق قصة اهباط الله تعالى لابليس ظاهرة في أنه اهباط الى الأرض من وجوه . أحدها أنه سبحانه نبه على حكمة اهباطه بما قام به من التكبر المقضى غاية ذل وطرده ومعاملته بنقيض قصده وهو اهباطه من فوق السموات الى قرار الأرض ولا تقتضى الحكمة أن يكون فوق السماء مع كبره ومنافاة حاله لحال الملائكة الأكرمين . الثاني أنه قال (فاخرج منها فانك رجيم وان عليك لعنتي الى يوم الدين) وكونه رجيماً ملعوناً ينفي أن يكون في السماء بين المقربين المطهرين . الثالث أنه قال (اخرج منها مذموماً مدحوراً) وما سكوت السموات لايعلوه المذموم المدحور أبداً . وأما القول الثاني فهو القول الأول بعينه مع زيادة ما لا يدل عليه السياق بحال من تقديم ما هو مؤخر في الواقع وتأخير ما هو مقدم فيه فيرد بما رد به القول الذي قبله . وأما القول الثالث وهو أنه للتأكيد فان أريد التأكيد اللفظي المجرد فهذا لا يقع في القرآن وان أريد به أنه مستلزم للتعليل والتأكيد مع ما يشتمل عليه من الفائدة فصحيح فالصواب أن يقال اعيد الاهباط مرة ثانية لأنه علق عليه حكماً غير المعلق على الاهباط الأول فانه علق على الأول عداوة بعضهم بعضاً فقال (اهبطوا بعضكم لبعض عدو) وهذه جملة حالية وهي اسمية بالضمير وحده عند الأكثرين . والمعنى اهبطوا متعادين وعلق على الهبوط الثاني حكيمين آخرين أحدهما هبوطهم جميعاً والثاني

قوله (فاما يا تينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) فكأنه قيل اهبطوا بهذا الشرط مأخوذاً عليكم هذا العهد وهو أنه مهما جاءكم منى هدى فمن اتبعه منكم فلا خوف عليه ولا حزن يلحقه ففي الاهباط الأول إيدان بالعقوبة ومقابلتهم على الجريمة وفي الاهباط الثانى روح التسليمية والاستبشار بحسن عاقبة هذا الهبوط لمن تبع هداى ومصيره إلى الأمن والسرور المضاد للخوف والحزن فكسرهم بالاهباط الأول وجبر من اتبع هداى بالاهباط الثانى على عادته سبحانه وولطفه بعباده وأهل طاعته كما كسر آدم بالإخراج من الجنة وجبره بالكلمات التى تلقاها منه فتاب عليه وهداى ومن تدبر حكمته سبحانه وولطفه وبره بعباده وأهل طاعته فى كسره لهم ثم جبره بعد الانكسار كما يكسر العبد بالذنب ويذله به ثم يجبره بتوبته عليه ومغفرته له وكما يكسره بأنواع المصائب والمحن ثم يجبره بالعافية والنعمة انفتح له باب عظيم من أبواب معرفته ومحبهه وعلم أنه أرحم بعباده من الوالدة بولدها وان ذلك الكسر هو نفس رحمته به وبره ولطفه وهو أعلم بمصلحة عبده منه ولكن العبد لضعف بصيرته ومعرفته بأسماء ربه وصفاته لا يكاد يشعر بذلك ولا ينال رضا المحبوب وقربه والابتهاج والفرح بالدنو منه والزلفى لديه الا على جسر من الذلّة والمسكنة وعلى هذا قام أمر المحبة فلا سبيل إلى الوصول إلى المحبوب إلا بذلك كما قيل :

تذلل لمن تهوى لتحتضى بقربه فكتم عزة قد نالها العبد بالذل
إذا كان من تهوى عزيزاً ولم تكن ذليلاً له فاقراً السلام على الوصل

وقال آخر :

اخضع وذل لمن تحب فليس فى شرع الهوى أنف يشال ويقعد

وقال آخر :

وما فرحت بالوصل نفس عزيزة وما العز إلا ذلها وانكسارها

. قالوا وإذا علم أن إبليس أهبط من دار العز عقب امتناعه وإبائه من السجود لآدم ثبت ان وسوسته له ولزوجته كانت فى غير المحل الذى أهبط منه والله أعلم . قالوا وأما قولكم ان الجنة إنما جاءت معرفة باللام وهى تنصرف إلى الجنة التى لا يعهد بنو آدم سواها فلاريب أنها جاءت كذلك ولكن العهد وقع فى خطاب الله تعالى آدم لسكنها بقوله (اسكن أنت وزوجك الجنة) فهى كانت معهودة عند آدم ثم أخبرنا سبحانه عنها معرفاً لها بلام التعريف فانصرف العرف بها إلى تلك الجنة المعهودة فى الذهن وهى التى سكنها آدم ثم أخرج منها فمن أين فى هذا ما يدل على محلها وموضعها بنفى أو إثبات . وأما مجيء جنة الخلد معرفة باللام فلانها الجنة

التي أخبرت بها الرسل لأممهم ووعدها الرحمن عباده بالغيب فحيث ذكرت انصرف الذهن إليها دون غيرها لأنها قد صارت معلومة في القلوب مستقرة فيها ولا ينصرف الذهن إلى غيرها ولا يتوجه الخطاب إلى سواها وقد جاءت الجنة في القرآن معرفة باللام والمراد بها بستان في بقعة من الأرض كقوله تعالى (انا بلوناكم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين) فهذا لا ينصرف الذهن فيها إلى جنة الخلد ولا إلى جنة آدم بحال . قالوا وما قولكم انه قد انفق أهل السنة والجماعة على أن الجنة والنار مخلوقتان وأنه لم يناع في ذلك إلا بعض أهل البدع والضلال . واستدلوا لكم على وجود الجنة الآن فحيث لا تنازعكم فيه وعندنا من الأدلة على وجودها أضعاف ما ذكرتم ولكن أى تلازم بين أن تكون جنة الخلد مخلوقة وبين أن تكون هي جنة آدم بعينها فكانكم تزعمون أن كل من قال ان جنة آدم هي جنة في الأرض فلا بد له أن يقول ان الجنة والنار لم يخالقا بعد وهذا غلط منكم منشؤه من توهمكم أن كل من قال بأن الجنة لم تخلق بعد فانه يقول ان جنة آدم هي في الأرض وكذلك بالعكس ان كل من قال ان جنة آدم في الأرض فيقول ان الجنة لم تخلق فأما الأول فلاريب فيه وأما الثاني فوهم لا تلازم بينهما لافى المذهب ولا فى الدليل فأنتم نصبتهم دليلكم مع طائفة نحن وأنتم متفقون على انكار قولهم ورده وابطاله ولكن لا يلزم من هذا بطلان هذا القول الثالث وهذا واضح . قالوا وأما قولكم ان جميع ما نفاه الله سبحانه عن الجنة من اللغو والعذاب وسائر الآفات التي وجد بعضها من ابليس عدو الله فهذا إنما يكون بعد القيامة إذ ادخلها المؤمنون كما يدل عليه السياق . فجوابه من وجهين . أحدهما أن ظاهر الخبر يقتضى نفيه مطلقا لقوله تعالى (لا لغو فيها ولا تأثيم) ولقوله تعالى (لا تسمع فيها لاغية) فهذا نفى عام لا يجوز تخصيصه إلا بمخصص بين والله سبحانه قد حكم بأنها دار الخلد حكما مطلقا فلا يدخلها إلا خالد فيها فتخصيصكم هذه التسمية بما بعد القيامة خلاف الظاهر . الثانى أن ما ذكرتم إنما يصار إليه إذا قام الدليل السالم عن المعارض المقاوم أنها جنة الخلد بعينها وحيثئذ يتعين المصير إلى ما ذكرتم فاما إذا لم يقم دليل سالم على ذلك ولم يجمع الأمة عليه فلا يسوغ مخالفة ما دلت عليه النصوص البيئية بغير موجب والله أعلم . قالوا وبما يدل على أنها ليست جنة الخلد التي وعدوها المتقون أن الله سبحانه لما خلق آدم أعلمه أن عمره أجل ينتهى إليه وأنه لم يخلقه للبقاء . ويدل على هذا ما رواه الترمذى فى جامعهم قال حدثنا محمد بن بشار قال حدثنا صفوان بن عيسى حدثنا الحارث بن عبد الرحمن بن أبي زياب عن سعيد بن أبي سعيد المقبرى عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح عطس فقال الحمد لله يارب فقال له ربه يرحمك الله يا آدم إذ ذهب إلى أولئك الملائكة إلى ملاء منهم جلوس فقل السلام

عليكم قالوا وعليك السلام ثم رجع إلى ربه فقال ان هذه تحيتك وتحيمة بنيك بينهم فقال الله له ويداها مقبوضتان اختر أيتها شئت فقال اخترت يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين مباركة ثم بسطها فاذا فيها آدم وذريته قال أي رب ما هؤلاء قال هؤلاء ذريتك فاذا كل انسان مكتوب عمره بين عينيه فاذا رجل أضوؤهم أو من أضوؤهم قال يارب من هذا قال هذا ابنك داود وقد كتبت له عمراً أربعين سنة قال يارب زد في عمره قال ذاك الذي كتبت له قال أي رب فاني قد جعلت له من عمري ستين سنة قال أنت وذاك قال ثم أسكن الجنة ماشاء الله ثم اهبط منها وكان آدم يعد لنفسه فأتاه ملك الموت فقال له آدم قد عجلت أليس قد كتبت لي ألف سنة قال بلى ولا تكنك جعلت لابنك داود ستين سنة فجحد فجحدت ذريته ونسى فذسيت ذريته قال فمن يومئذ أمر بالكتابة والشهود هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه وروى من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ . قالوا فهذا صريح في أن آدم لم يكن مخلوقاً في دار الخلد التي لا يموت من دخلها وإنما خلق في دار الفناء التي جعل الله لها ولأهلها أجلاً معلوماً وفيها أسكن . فان قيل فاذا كان آدم قد علم أن له عمراً ينتهي اليه وأنه ليس من الخالدين فكيف لم يكذب ابليس ويعلم بطلان قوله حيث قال له (هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى) بل جوز ذلك وأكل من الشجرة طمعاً في الخلد . فالجواب ما تقدم من الوجهين اما أن يكون المراد بالخلد المسكت الطويل لا أبداً الأبد أو يكون عدوه ابليس لما قاسمه وزوجه وغرهما وأطمعهما بدوامهما في الجنة نسي ما قدر له من عمره . قالوا والمعول عليه في ذلك قوله تعالى للملائكة (اني جاعل في الأرض خليفة) وهذا الخليفة هو آدم باتفاق الناس ولما عجبت الملائكة من ذلك وقالوا (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) عرفهم سبحانه أن هذا الخليفة الذي هو جاعل في الأرض ايس حاله كما توهمتم من الفساد بل أعلمه من علمي ما لا تعلمونه فأظهر من فضله وشرفه بأن علمه الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فلم يعرفوها و (قالوا سبحانه لا علم لنا إلا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم) وهذا يدل على أن هذا الخليفة الذي سبق به اخبار الرب تعالى للملائكته وأظهر تعالى فضله وشرفه وأعلمه بما لم تعلمه الملائكة وهو خليفة مجعول في الأرض لافوق السماء . فان قيل قوله تعالى اني جاعل في الأرض خليفة إنما هو بمعنى سأجعله في الأرض فهي مآله ومصيره وهذا لا ينافي أن يكون في جنة الخلد فوق السماء أولاً ثم يصير إلى الأرض للخلافة التي جعلها الله له واسم الفاعل هنا بمعنى الاستقبال ولهذا انتصب عنه المفعول . فالجواب أن الله سبحانه أعلم ملائكته بأنه يخلقه لخلافة الأرض لا لسكنى جنة الخلود وخبره الصدق وقوله الحق وقد علمت الملائكة

أنه هو آدم فلو كان قد أسكنه دار الخلود فوق السماء لم يظهر للملائكة وقوع الخبز ولم يحتاجوا إلى أن يبين لهم فضله وشرفه وعلبه المتضمن رد قولهم (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) فانهم إنما سألوا هذا السؤال في حق الخليفة المجمعول في الأرض فأما من هو في دار الخلد فوق السماء فلم تتوهم الملائكة منه سفك الدماء والفساد في الأرض ولا كان اظهار فضله وشرفه وعلبه وهو فوق السماء رادا لقولهم وجوابا لسؤالهم بل الذي يحصل به جوابهم ضد ما توهموه إظهار تلك الفضائل والعلوم منه وهو في محل خلافته التي خلق لها وتوهمت الملائكة أنه لا يحصل منه هناك إلا ضدها من الفساد وسفك الدماء وهذا واضح لمن تأمله وأما اسم الفاعل وهو جاعل وإن كان بمعنى الاستقبال فلأن هذا إخبار عما سيفعله الرب تعالى في المستقبل من جعله الخليفة في الأرض وقد صدق وعده ووقع ما أخبر به وهذا ظاهر في أنه من أول الأمر جعله خليفة في الأرض وأما جعله في السماء أولا ثم جعله خليفة في الأرض ثانياً وإن كان كما لا ينافي الاستخلاف المذكور فهو بما لا يقتضيه اللفظ بوجه بل يقتضى ظاهره خلافه فلا يصار إليه إلا بدليل يوجب المصير إليه وحوله نددن . قالوا وأيضا فمن المعلوم الذي لا يخالف فيه مسلم ان الله سبحانه خلق آدم من تراب وهو تراب هذه الأرض بلا ريب كما روى الترمذى في جامعه من حديث عوف عن قسامة بن زهير عن أبي موسى الأشعري رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله تبارك وتعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك والسهل والحزن والحديث والطيب قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح وقد رواه الإمام أحمد في مسنده من طرق عدة وقد أخبر سبحانه أنه خلقه من تراب وأخبر أنه خلقه من سلاله من طين وأخبر أنه خلقه من صلصال من حمأ مسنون والصلصال قيل فيه هو الطين اليابس الذي له صلصلة مالم يطبخ فاذا طبخ فهو نثار . وقيل فيه هو المتغير الرائحة من قولهم صل صل إذا أنتن والحما الطين الأسود المتغير والمسنون قيل المصبوب من سنت الماء إذا صببته وقيل المتين المسن من قولهم سنت الحجر على الحجر إذا حككته فاذا سال بينهما شيء فهو سنين ولا يكون إلا منتنا وهذه كلها أطوار التراب الذي هو مبدؤه الأول كما أخبر عن خلق الذرية من نقطة ثم من علقه ثم من مضغة وهذه أحوال النطفة التي هي مبدأ الذرية ولم يخبر سبحانه أنه رفعه من الأرض إلى فوق السموات لا قبل التخليق ولا بعده وإنما أخبر عن اسجد الملائكة له وعن إدخاله الجنة وما جرى له مع إبليس بعد خلقه فأخبر سبحانه بالأمور الثلاثة في نسق واحد مرتباً بعضها ببعض . قالوا فأين الدليل الدال على اصعاد مادته واصعاده بعد خلقه إلى فوق السموات هذا بما لا دليل لكم عليه أصلا ولا هو لازم من لوازم ما أخبر الله به . قالوا ومن المعلوم أن ما فوق

السموات ليس بمكان للطين الأرضي المتغير الرائحة الذي قد أنتن من تغيره وإنما محله هذا الأرض التي هي محل المتغيرات والفسادات وأما ما كان فوق الأفلاك فلا يلحقه تغير ولا أنتن ولا فساد ولا استحالة . قالوا وهذا أمر لا يرتاب فيه العقلاء . قالوا وقد قال تعالى (وأما الذين سعدوا في الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ) فأخبر سبحانه أن هذا العطاء في الجنة الخلد غير مقطوع وما أعطيه آدم فقد انقطع فلم تكن تلك الجنة الخلد . قالوا وأيضا فلا نزاع في أن الله تعالى خلق آدم في الأرض كما تقدم ولم يذكر في قصته أنه نقله إلى السماء ولو كان تعالى قد نقله إلى السماء لسكان هذا أولى بالذكر لأنه من أعظم أنواع النعم عليه وأكبر أسباب تفضيله وتشريفه وأبلغ في بيان آيات قدرته وربوبيته وحكمته وأبلغ في بيان المقصود من عاقبة المعصية وهو الإهباط من السماء التي نقل إليها كما ذكر ذلك في حق إبليس حيث لم يجيء في القرآن ولا في السنة حرف واحد أنه نقله إلى السماء ورفع له إليها بعد خلقه في الأرض علم أن الجنة التي أدخلها لم تكن هي الجنة الخلد التي فوق السموات قالوا وأيضا فإنه سبحانه قد أخبر في كتابه أنه لم يخلق عباده عبثا ولا سدى وأنكر على من زعم ذلك فدل على أن هذا مناف لحكمته ولو كانتا الجنة آدم هي الجنة الخلد لسكانوا قد خلقوا في دار لا يؤمرون فيها ولا يهون وهذا باطل بقوله (أيحسب الإنسان أن يترك سدى) قال الشافعي وغيره معطلا لا يؤمر ولا ينهى وقال (أحسبتم أنا خلقناكم عبثا) فهو تعالى لم يخلقهم عبثا ولا تركهم سدى وجنة الخلد لا تكليف فيها . قالوا وأيضا فإنه خلقها جزاء للعاملين بقوله تعالى (نعم أجر العاملين) وجزاء للمتقين بقوله (ولنعم دار المتقين) ودار الثواب بقوله (ثوابا من عند الله) فلم يكن ليسكنها إلا من خلقها لهم من العاملين ومن المتقين ومن تبعهم من ذرياتهم وغيرهم من الحور والولدان . وبالجمله فخيمته تعالى اقتضت أنها لا تتال إلا بعد الابتلاء والامتحان والصبر والجهاد وأنواع الطاعات وإذا كان هذا مقتضى حكمته فإنه سبحانه لا يفعل إلا ما هو مطابق لها . قالوا فإذا جمع ما أخبر الله عز وجل به من أنه خلقه من الأرض وجعله خليفة في الأرض وأن إبليس وسوس له في مكانه الذي أسكنه فيه بعد أن أهبط إبليس من السماء وأنه أخبر ملائكته أنه جاعل في الأرض خليفة وإن دار الجنة لا لغو فيها ولا تأثيم وأن من دخلها لا يخرج منها أبداً وإن من دخلها ينعم لا يبؤس وأنه لا يخاف ولا يحزن وأن الله سبحانه حرمها على الكافرين وعدو الله إبليس أكفر الكافرين فحال أن يدخلها أصلا لا دخول عبور ولا دخول قرار وأنها دار نعم لا دار ابتلاء وامتحان إلى غير ذلك مما ذكرناه من منافاة أوصاف الجنة الخلد للجنة التي أسكنها آدم إذا جمع ذلك بعضه إلى بعض ونظر فيه بعين الانصاف والتجرد عن نصره المقالات تبين الصواب من ذلك والله المستعان

قال الآخرون بل الجنة التي أسكنها آدم عند سلف الأمة وأمتها وأهل السنة والجماعة هي جنة الخلد ومن قال انها كانت جنة في الأرض بأرض الهند أو بأرض جدة أو غير ذلك فهو من المتفلسفة والملاحدين والمعتزلة أو من اخوانهم المتكلمين المبتدعين فان هذا يقوله من يقوله من المتفلسفة والمعتزلة والسكتاب يرد هذا القول وسلف الأمة وأمتها متفقون على بطلان هذا القول قال تعالى (واذ قلنا للبلائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس ابي واستكبر وكان من الكافرين وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع الى حين) فقد أخبر سبحانه أنه أمرهم بالهبوط وان بعضهم لبعض عدو ثم قال (ولكم في الأرض مستقر ومتاع الى حين) وهذا بين انهم لم يكونوا في الأرض وانما اهبطوا الى الأرض فانهم لو كانوا في الأرض وانتقلوا منها الى أرض أخرى كما انتقل قوم موسى من أرض الى أرض كان مستقرهم ومتاعهم الى حين في الأرض قبل الهبوط كما هو بعده وهذا باطل . قالوا وقد قال تعالى في سورة الأعراف لما قال إبليس (أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج انك من الصاغرين) يبين اختصاص الجنة التي في السماء بهذا الحكم بخلاف جنة الأرض فان ابليس كان غير ممنوع من التكبر فيها والضمير في قوله منها عائد الى معلوم وان كان غير مذكور في اللفظ لأن العالم به أغنى عن ذكره . قالوا وهذا بخلاف قوله (اهبطوا مصرا فان لكم ماسأتم) فانه لم يذكر هنا ما اهبطوا منه وإنما ذكر ما اهبطوا إليه بخلاف إهباط ابليس فانه ذكر مبدأ هبوطه وهو الجنة والهبوط يكون من علو الى سفلى وبنو اسرائيل كانوا بجبال السراة المشرفة على مصر الذي يهبطون اليه ومن هبط من جبل إلى واد قيل له اهبط . قالوا وأيضا فبنو اسرائيل كانوا يسرون ويرحلون والذي يسير ويرحل إذا جاء بلدة يقال نزل فيها لأن من عادته أن يركب في مسيره فإذا وصل نزل عن دوابه ويقال نزل العدو بأرض كذا ونزل القفل ونحوه ولفظ النزول كلفظ الهبوط فلا يستعمل نزل وهبط إلا إذا كان من علو إلى سفلى وقال تعالى عقب قوله (اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع الى حين قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون) فهذا دليل على أنهم لم يكونوا قبل ذلك في مكان فيه يحيون وفيه يموتون ومنها تخرجون والقرآن صريح في أنهم انما صاروا اليه بعد الالهباط . قالوا ولو لم يكن في هذه إلا قصة آدم وموسى لكانت كافية فان موسى صلى الله عليه وسلم انما لام آدم عليه السلام لما حصل له ولذريته من الخروج من الجنة من التمسك والمشقة فلو كانت بستانا في الأرض لكان غيره من بساتين الأرض يعوض

عنه وموسى أعظم قدرا من أن يلومه على أن أخرج نفسه وذريته من بستان في الأرض ، قالوا وكذلك قول آدم يوم القيامة لما يرغب اليه الناس أن يستفتح لهم باب الجنة فيقول وهل أخرجكم منها إلا خطيئة أبيكم فان ظهور هذا في كونها جنة الخلد وأنه اعتذر لهم بأنه لا يحسن منه أن يستفتحها وقد أخرج منها بخطيئته من أظهر الأدلة . قال الأولون أما قولكم ان من قال انها جنة في الأرض فهو من المتفلسفة والملحدين والمعتزلة أو من اخوانهم فقد أوجدناكم من قال بهذا وليس من أحد من هؤلاء . ومشاركة أهل الباطل للحق في المسئلة لا يدل على بطلانها ولا تكون اضافتها لهم موجبة لبطلانها ما لم يختص بها فان أردتم أنه لم يقل بذلك إلا هؤلاء فليس كذلك وان أردتم أن هؤلاء من جملة القائنين بهذا لم يقدم شيئا . قالوا وأما قواكم وسلف الأمة وأئمتها متفقون على بطلان هذا القول فنحن نطالبكم بنقل صحيح عن واحد من الصحابة ومن بعدهم من أئمة السلف فضلا عن اتفاقهم . قالوا ولا يوجد عن صاحب ولا تابع ولا تابع تابع خبر يصح موصولا ولا شاذا ولا مشهورا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الله تعالى أسكن آدم جنة الخلد التي هي دار المتقين يوم المعاد . قالوا وهذا القاضى منذر بن سعيد قد حكى عن غير واحد من السلف أنها ليست جنة الخلد . فقال ونحن نوجدكم أن أبا حنيفة فقيه العراق ومن قال بقوله قد قالوا أن جنة آدم التي خلقها الله ليست جنة الخلد وليسوا عند أحد من العالمين من الشاذين بل من رؤساء المخالفين وهذه الدواوين مشحونة من علومهم . وقد ذكرنا قول ابن عيينة وقد ذكر ابن مزين في تفسيره . قال سألت ابن نافع عن الجنة مخلوقة فقال السكوت عن هذا أفضل . قالوا فلو كان عند ابن نافع أن الجنة التي أسكنها آدم هي جنة الخلد لم يشك انها مخلوقة ولم يتوقف في ذلك . وقال ابن قتيبة في كتابه غريب القرآن في قوله تعالى (وقلنا اهبطوا منها) قال ابن عباس رضى الله عنهما في رواية أبي صالح هو كما يقال هبط فلان أرض كذا وكذا ولم يذكر في كتابه غيره فأين اجماع سلف الأمة وأئمتها . قالوا وأما احتجاجكم بقوله تعالى (ولكم في الأرض مستقر) عقيب قوله اهبطوا فهذا لا يدل على أنهم كانوا في جنة الخلد فان أحد الأقوال في المسئلة انها كانت جنة في السماء غير جنة الخلد كما حكاه الماوردى في تفسيره وقد تقدم . وأيضا فان قوله (ولكم في الأرض مستقر) يدل على أن لهم مستقرا إلى حين في الأرض المنقطعة عن الجنة ولا بد فان الجنة أيضا لها أرض . قال تعالى عن أهل الجنة (وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوا من الجنة حيث نشاء فنعهم أجر العاملين) فدل على أن قوله (ولكم في الأرض مستقر) المراد به الأرض الخالية من

تلك الجنة لا كل ما يسمى أرضاً وكان مستقرهم الأول في أرض الجنة ثم صار في أرض
الابتلاء والامتحان ثم يصير مستقر المؤمنين يوم الجزاء أرض الجنة أيضاً فلا تدل الآية على
أن جنة آدم هي جنة الخلد . قالوا وهذا هو الجواب بعينه عن استدلالكم بقوله تعالى (قال
فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون) فإن المراد به الأرض التي أهبطوا إليها وجعلت
مسكننا لهم بدل الجنة . وهذا تفسير المستقر المذكور في البقرة مع تضمنه ذكر الإخراج منها .
قالوا وأما قوله تعالى لا إبليس (أهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها) . وقولكم أن هذا
انما هو في الجنة التي في السماء وإلا لجنّة الأرض لم يمنع إبليس من التكبر فيها فهو دليل لنا
في المسئلة فإن جنة الخلد لا سبيل لابليس إلى دخولها والتكبر فيها أصلاً . وقد أخبر تعالى
أنه وسوس لآدم وزوجه وكذبهما وغرهما وخانتهما وتكبر عليهما وحسدتهما وهما حينئذ
في الجنة فدل على أنها لم تكن جنة الخلد ومحال أن يصعد إليها بعد اهباطه وإخراجه منها .
قالوا والضمير في قوله أهبطوا منها إما أن يكون عائداً إلى السماء كما هو أحد القولين وعلى
هذا فيكون سبحانه قد أهبطه من السماء عقب امتناعه من السجود وأخبر أنه ليس له أن يتكبر
ثم تكبر وكذب وخان في الجنة فدل على أنها ليست في السماء أو يكون عائداً إلى الجنة على
القول الآخر ولا يلزم من هذا القول أن تكون الجنة التي كاد فيها آدم وغره وقاسمه كاذبا
في تلك التي أهبط منها بل القرآن يدل على أنها غيرها كما ذكرناه فعلى التقديرين لا تدل الآية
على أن الجنة التي جرى لآدم مع إبليس ما جرى فيها هي جنة الخلد . قالوا وأما قولكم ان
بنى اسرائيل كانوا بجبال السراة المشرفة على الأرض التي يهبطون وهم كانوا يسيرون ويرحلون
فذلك قيل لهم أهبطوا فهذا حق لا ننازعكم فيه وهو بعينه جواب لنا فان الهبوط يدل على أن
تلك الجنة كانت أعلا من الأرض التي أهبطوا إليها وأما كونها جنة الخلد فلا . قالوا والفرق
بين قوله أهبطوا مصراً وقوله أهبطوا منها فإن الأول لنهاية الهبوط وغايته وأهبطوا منها
متضمن لمبدئه وأوله لا تأثير له فيما نحن فيه فإن هبط من كذا إلى كذا يتضمن معنى الانتقال
من مكان عال إلى مكان سافل فأى تأثير لا ابتداء الغاية ونهايتها في تعيين محل الهبوط بأنه جنة
الخلد . قالوا وأما قصة موسى ولومه لآدم على إخراجه من الجنة فلا يدل على أنها جنة الخلد
وقولكم لا يظن بموسى أنه يلوم آدم على إخراجه نفسه وذريته من بستان في الأرض تشنيع
لا يفيد شيئاً أفتري كان ذلك بستاناً مثل آحاد هذه البساتين المقطوعة المهووعة التي هي عرضة
الآفات والتعب والنصب والظمأ والحرق والسقى والتلقيح وسائر وجوه النصب الذي يلحق
هذه البساتين ولا ريب أن موسى عليه الصلاة والسلام أعلم وأجمل من أن يلوم آدم على

خروجه وإخراج بنيه من بستان هذا شأنه ولكن من قال بهذا وإنما كانت الجنة لا يلحقها آفة ولا تنقطع ثمارها ولا تغور أنهارها ولا يجوع ساكنها ولا يظمأ ولا يضحي للشمس ولا يعرى ولا يمسه فيها النعب والنصب والشقاء ومثل هذه الجنة يحسن لوم الإنسان على التسبب في خروجه منها ، قالوا وأما اعتذار آدم عليه الصلاة والسلام يوم القيامة لأهل الموقف بأن خطيئته هي التي أخرجته من الجنة فلا يحسن أن يستفتحها لهم فهذا لا يستلزم أن تكون هي بعينها التي أخرج منها بل إذا كانت غيرها كان أبلغ في الاعتذار فانه إذا كان الخروج من غير جنة الخلد حصل بسبب الخطيئة فكيف يليق استفتاح جنة الخلد والشفاعة فيها ثم خرج من غيرها بخطيئة فهذا موقف نظريين ونهاية أقدام الطائفتين فمن كان له فضل علم في هذه المسئلة فليجد به فهذا وقت الحاجة اليه ومن علم منتهى خطوته ومقدار بضاعته فليكل الأمر إلى عالمه ولا يرضى لنفسه بالتنقيص والازراء عليه وليكن من أهل التلؤل الذين هم نظارة الحرب إذا لم يكن من أهل الكبر والفر والطعن والضرب فقد تلاقت الفحول وتطاعنت الأقران وضاق بهم المجال في حابة هذا الميدان .

إذا تلاقى الفحول في اجب ه فكيف حال الغصيص في الوسط

هذه معاهد حجج الطائفتين مجنازة ببابك وإليك تساق وهذه بضائع تجار العلماء ينادى عليها في سوق الكسباد لا في سوق النفاق فمن لم يكن له به شيء من أسباب البيان والتبصرة فلا يعدم من قد استفرخ وسعه وبذل جهده منه التصويب والمعدرة ولا يرضى لنفسه بشر الخطين وانحس الخطين جهل الحق وأسبابه ومعاداة أهله وطلابه وإذا عظم المطلوب وأعوزك الرفيق الناصح العليم فارحل بهمتك من بين الأموات وعليك بمعلم ابراهيم فقد ذكرنا في هذه المسئلة من النقول والأدلة والنكت البديعة ما لعله لا يوجد في شيء من كتب المصنفين ولا يعرف قدره إلا من كان من الفضلاء المنصفين ومن الله سبحانه الاستمداد وعليه التوكل وإليه الاستناد فإنه لا يخيب من توكل عليه ولا يضيع من لاذ به وفوض أمره اليه وهو حسبنا ونعم الوكيل .

فصل

ولما أهبطه سبحانه من الجنة وعرضه وذريته لأنواع المحن والبلاء أعطاهم أفضل مما منعهم وهو عهده الذي عهد إليه وإلى بنيه وأخبر أنه من تمسك به منهم صار إلى رضوانه ودار كرامته . قال تعالى عقب إخراجهم منها (قلنا اهبطوا منها جميعا فاما يأتينكم مني هدى

فمن اتبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وفى الآية الأخرى قال (اهبطا منها جميعاً فاما يا تينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فان له مديشة صنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) فلما كسره سبحانه باهباطه من الجنة جبره وذريته بهذا العهد الذى عهده إليهم . فقال تعالى (فاما يا تينكم منى هدى) وهذه هى أن الشرطية المؤكدة بما الدالة على استغراق الزمان . والمعنى أى وقت وأى حين أناكم منى هدى وجعل جواب هذا الشرط جملة شرطية وهى قوله (فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى) كما تقول إن زرتنى فمن بشرنى بقدمك فهو حر وجواب الشرط يكون جملة تامة اما خبراً محضاً كقولك ان زرتنى أكرمك أو خبراً مقروناً بالشرط كذا أو مؤكداً بالقسم أو بأن واللام كقوله تعالى (وإن أطعتموهم انكم لمشركون) . واما طلباً كقول النبى ﷺ إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله وقوله وإذا لقيتموهم فاصبروا وقوله تعالى (وإذا حللتم فاصطادوا فإذا انسأخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) وأكثر ما يأتى هذا النوع مع إذا التى تفيد تحقيق وقوع الشرط امر وهو افادته بتحقيق الطلب عند تحقيق الشرط ففى تحقق الشرط فالطلب متحقق فأتى بإذا الدالة على تحقيق الشرط فعمل تحقيق الطلب عندها وقد يأتى مع أن قليلاً كقوله تعالى (وإن كذبوك فقل لى عملى ولاكم عملكم) وأما جملة انشائية كقوله لعبد الكافر ان أسلمت فأنت حر ولامرأته ان فعلت كذا فأنت طالق فهذا انشاء للعتى والطلاق عند وجود الشرط على رأى أو انشاء له حال التعليق ويتأخر نفوذه الى حين وجود الشرط على رأى آخر . وعلى التقديرين نجواب الشرط جملة انشائية . والمقصود ان جواب الشرط فى الآية المذكورة جملة شرطية وهى قوله (فمن اتبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وهذا الشرط يقتضى ارتباط الجملة الأولى بالثانية ارتباط العلة بالمعلول والسبب بالمسبب فيكون الشرط الذى هو ملزوم علة ومقتضيا للجزاء الذى هو لازم فان كان بينهما تلازم من الطرفين كان وجود كل منهما بدون دخول الآخر متممًا كدخول الجنة بالإسلام وارتفاع الخوف والحزن والضلال والشقاء مع متابعة الهوى وهذه هى عامة شروط القرآن والسنة فانها أسباب وعلل والحكم ينتفى بانقضاء علته وان كان التلازم بينهما من أحد الطرفين كان الشرط ملزوماً خاصاً والجزاء لازماً عاماً ففى تحقق الشرط الملزوم الخاص تحقق الجزاء اللازم العام ولا يلزم العكس كما يقال ان كان هذا انساناً فهو حيوان وان كان البيوع صحيحاً فالملك ثابت . وهذا غالب ما يأتى فى قياس الدلالة حيث يكون الشرط دليلاً على الجزاء فيلزم من وجوده وجود الجزاء لأن الجزاء لازمه ووجود الملزوم يستلزم وجود اللازم ولا يلزم من عدمه عدم الجزاء وان

وقع هذا الشرط بين علة ومعلول فان كان الحكم معللا بعلم صح ذلك وجزأ أن يكون الجزأ
أعم من الشرط كة. ولك إن كان هذا مرتدا فهو حلال الدم فان حل الدم أعم من حله بالردة .
إلا أن يقال أن حكم العلة المعينة ينتفي بانتفائها وإن ثبت الحكم بعلة أخرى فهو حكم آخر وأما
حكم العلة المعينة فبحال أن ينفي مع زوالها وحينئذ فيعود التلازم من الطرفين ويلزم من وجود
كل واحد من الشرط والجزأ وجود الآخر ومن عدمه عدمه وتام تحقيق هذا في مسألة
تعلييل الحكم الواحد بعلتين وللناس فيه نزاع مشهور وفصل الخطاب فيها ان الحكم الواحد ان
كان واحدا بالنوع كحل الدم وثبوت الملك ونقض الطهارة جاز تعليله بالعلل المختلفة وإن كان
واحداً بالعين كحل الدم بالردة وثبوت الملك بالبيع أو الميراث ونحو ذلك لم يجز تعليله بعلتين
مختلفتين وبهذا التفصيل يزول الاشتباه في هذه المسألة والله أعلم . ومن تأمل أدلة الطائفتين
وجد كل ما احتج به من رأى تعلييل الحكم بعلم مختلفة إنما يدل على تعلييل الواحد بالنوع بها
وكل من نفي تعلييل الحكم بعلتين إنما يتم دليله على نفي تعلييل الواحد بالعين بهما فالقولان عند
التحقيق يرجعان إلى شيء واحد . والمقصود أن الله سبحانه جعل اتباع هـداه وعهده الذي
عهده إلى آدم سبباً ومقتضياً لعدم الخوف والحزن والضلال والشقاء وهذا الجزأ ثابت
بثبوت الشرط منتفياً بانتفائه كما تقدم بيانه ونفي الخوف والحزن عن متبوع الهدى نفي لجميع
أنواع الشرور فان المسكروه الذي ينزل بالعبد متى علم بحصوله فهو خائف منه أن يقع به وإذا
وقع به فهو حزين على ما أصابه منه فهو دائماً في خوف وحزن وكل خائف حزين فكل
حزين خائف وكل من الخوف والحزن يكون على فعل المحبوب وحصول المسكروه . فالأقسام
أربعة خوف من فوت المحبوب وحصول المسكروه وهذا جماع الشر كله فنفى الله سبحانه ذلك
عن متبوع هـداه الذي أنزله على ألسنة رسله وأتى في نفي الخوف بالاسم الدال على نفي الثبوت
واللزوم فان أهل الجنة لا بد لهم من الخوف في الدنيا وفي البرزخ ويوم القيامة حيث يقول
آدم وغيره من الأنبياء نفسى نفسى فأخبر سبحانه أنهم وإن خافوا فلا خوف عليهم أى
لا يلحقهم الخوف الذى خافوا منه وأتى في نفي الحزن بالفعل المضارع الدال على نفي التجدد
والحدوث أى لا يلحقهم حزن ولا يحدث لهم إذا لم يذكروا ما سلف منهم بل هم في سرور دائم
لا يعرض لهم حزن على ما فات . وأما الخوف فلما كان تعلقه بالمستقبل دون الماضى نفي لحوقه
لهم جملة أى الذى خافوا منه لا ينالههم ولا يلزمهم والله أعلم فالحزين إنما يحزن في المستقبل
على ماضى والخائف إنما يخاف في الحال مما يستقبل فلا خوف عليهم أى لا يلحقهم ما خافوا
منه ولا يعرض لهم حزن على ما فات . وقال في الآية الأخرى (فمن اتبع هـداهى فلا يضل
ولا يشقى) فنفى عن متبوع هـداه أمرين الضلال والشقاء قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما

تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ثم قرأ (فاما
يا تينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى) والآية نفت مسمى الضلال والشقاء
عن متبع الهدى مطلقاً فاقضت الآية أنه لا يضل في الدنيا ولا يشقى ولا يضل في الآخرة ولا يشقى
فيها فان المراتب أربعة هدى وشقاوة في الدنيا وهدى وشقاوة في الآخرة لكن ذكر ابن
عباس رضى الله عنهما في كل دار أظهر مرتبتهما فذكر الضلال في الدنيا إذ هو أظهر لنا وأقرب
من ذكر الضلال في الآخرة . وأيضا فضلال الدنيا أضل ضلال في الآخرة وشقاء الآخرة
مستلزم للضلال فيها فنبه بكل مرتبة على الأخرى فنبه بشقى ضلال الدنيا على نفي ضلال الآخرة
فان العبد يموت على ما عاش عليه ويبعث على ما مات عليه قال الله تعالى في الآية الأخرى
(ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى
أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا ففسيها وكذلك اليوم تنسى) وقال في الآية
الأخرى (ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا) فأخبر أن من كان فى
هذه الدار ضالاً فهو فى الآخرة أضل وأما نفي شقاء الدنيا فقد يقال أنه لما انتفى عنه الضلال
فيها وحصل له الهدى والهدى فيه من برد اليقين وطمأنينة القلب وذائق طعم الايمان فوجد
حلاوته وفرحة القلب به وسروره والتنعيم به ومصير القلب حيا بالايمان مستنيراً به قويا به
قد نال به غذاءه ورواه وشفاؤه وحياته ونوره وقوته ولذته ونعيمه ماهو من أجل أنواع
النعيم وأطيب الطيبات وأعظم اللذات . قال الله تعالى (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو
مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) فهذا خبر أصدق
الصادقين ومخبره عند أهله عين اليقين بل هو حق اليقين ولا بد لكل من عمل صالحا أن يحيمه
الله حياة طيبة بحسب إيمانه وعمله ولكن يغلط الجفافة الأجلاف فى مسمى الحياة حيث
يظنونها النعم فى أنواع المآكل والمشارب والملابس والمناكح أو لذة الرئاسة والمال وقهر
الأعداء والتفنن بأنواع الشهوات ولاريب أن هذه لذة مشتركة بين البهائم بل قد يكون حظ
كثير من البهائم منها أكثر من حظ الانسان فمن لم تكن عنده لذة إلا اللذة التى تشاركه فيها
السباع والدواب والأنعام فذلك بمن يتنادى عليه من مكان بعيد ولكن أين هذه اللذة من اللذة
بأمر إذا خالط بشاشته القلوب سلى عن الأبناء والنساء والأوطان والأموال والاخوان
والمساكن ورضى بتركها كلها والخروج منها رأسا وعرض نفسه لأنواع المكروه والمشاق وهو
متحل بهذا مشرح الصدر به يطيب له قتل ابنه وأبيه وصاحبه وأخيه لا تأخذه فى ذلك لومة
لائم حتى أن أحدهم ليتلقى الرمح بصدرة ويقول فزت ورب الكعبة ويستطيل الآخر حياته
حتى يلقى قوته من يده ويقول انها لحياة طويلة ان صبرت حتى آكلها ثم يتقدم إلى الموت فرحا

مسرورا ويقول الآخر مع فقره لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن عليه لجالدونا عليه بالسيوف ويقول الآخر انه لير بالقلب أوقات يرقص فيها طرباً . وقال بعض العارفين انه لتمر بي أوقات أقول فيها إن كان أهل الجنة في مثل هذا انهم لفي عيش طيب ومن تأمل قول النبي صلى الله عليه وسلم لما نهام عن الوصال فقالوا انك تواصل فقال اني لست كهيتكم اني أظل عند ربي يطعمني ويسقيني علم أن هذا طعام الأرواح وشرابها وما يفيض عليها من أنواع البهجة واللذة والسرور والنعيم الذي رسول الله صلى الله عليه وسلم في الذروة العليا منه وغيره إذا تعلق بعباده رأى ملك الدنيا ونعيمها بالنسبة إليه هباء منثورا بل باطلا وغرورا . وغلط من قال أنه كان يأكل ويشرب طعاما وشرابا يفتدى به بدنه لوجوه . أحدها أنه قال أظل عند ربي يطعمني ويسقيني ولو كان أكل وشربا لم يكن وصالا ولا صوما . الثاني أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبرهم أنهم ليسوا كهيتته في الوصال فانهم إذا واصلوا تضرروا بذلك وأما هو صلى الله عليه وسلم فانه إذا واصل لا يتضرر بالوصال فلو كان يأكل ويشرب لكان الجواب وأنا أيضاً لا واصل بل آكل وأشرب كما تأكلون وتشربون فلما قرره على قولهم انك تواصل ولم ينكره عليهم دل على أنه كان مواصلا وان لم يكن يأكل أو شربا يفطر الصائم . الثالث أنه لو كان أكل وشربا يفطر الصائم لم يصح الجواب بالفارق بينهم وبينه فانه حينئذ يكون صلى الله عليه وسلم هو وهم مشتركون في عدم الوصال فكيف يصح الجواب بقوله لست كهيتكم وهذا أمر يعلمه غالب الناس ان القلب متى حصل له ما يفرحه ويسره من نيل مطلوبه ووصال حبيبته أو ما يغمه ويسوؤه ويمحزنه شغل عن الطعام والشراب حتى أن كثيرا من العشاق تمر به الأيام لا يأكل شيئا ولا يطلب نفسه أكل . وقد أفصح القائل في هذا المعنى :

لها أحاديث من ذكراك تشغلها عن الشراب وتلهيها عن الزاد
لها بوجهك نور تستضيء به ومن حديثك في أعقابها حادي
إذا اشتكت من كلال السير أو عدها روح القدم فتحيا عند ميعاد

والمقصود أن الهدى مستلزم لسعادة الدنيا وطيب الحياة والنعيم العاجل وهو أمر يشهد به الحس والوجد وأما سعادة الآخرة فغيب يعلم بالايمان فذكرها ابن عباس رضى الله عنهما لكونها أهم وهي الغاية المطلوبة وضلال الدنيا أظهر وبالنجاة منه ينجو من كل شر وهو أضل ضلال الآخرة وشقاؤها فلذلك ذكره وحده والله أعلم .

فصل

وهذان الضلالان أعنى الضلال والشقاء يذكرهما سبحانه كثيراً في كلامه ويخبر أنهما حظ أعدائه ويذكر ضدتهما وهما الهدى والفلاح كثيراً ويخبر أنهما حظ أوليائه . أما الأول فكقوله تعالى (ان المجرمين في ضلال وسعر) فالضلال الضلال والسعر هو الشقاء والعذاب وقال تعالى (قد خسر الذين كذبوا بقاء الله وما كانوا مهتدين) . وأما الثاني فكقوله تعالى في أول البقرة وقد ذكر المؤمنين وصفاتهم (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) وكذلك في أول لقمان . وقال في الأنعام (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) ولما كانت سورة أم القرآن أعظم سورة في القرآن وأقرضها قراءة على الأمة وأجمعها لكل ما يحتاج إليه العبد وأعمها نفعاً ذكر فيها الأمرين فأمرنا أن نقول (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم) فذكر الهداية والنعمة وهما الهدى والفلاح ثم قال (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) فذكر المغضوب عليهم وهم أهل الشقاء والضالين وهم أهل الضلال وكل من الطائفتين له الضلال والشقاء لكن ذكر الوصفين معاً لتكون الدلالة على كل منهما بصريح لفظه . وأيضاً فإنه ذكر ما هو أظهر الوصفين في كل طائفة فان الغضب على اليهود أظهر لعنادهم الحق بعد معرفته والضلال في النصارى أظهر لغلبة الجهل فيهم . وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون .

فصل

وقوله تعالى (فاما يا تينكم منى هدى) هو خطاب لمن أهبطه من الجنة بقوله (اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو) ثم قال (فاما يا تينكم منى هدى) وكلا الخطابين لأبوي الثقلين وهو دليل على أن الجن مأمورون منهيون داخلون تحت شرائع الأنبياء وهذا مما لاخلاف فيه بين الأمة وأن نبينا بعث اليهم كما بعث إلى الانس كما لاخلاف بيننا أن مسيئتهم مستحق للعقاب . وإنما اختلف علماء الإسلام في المسلم منهم هل يدخل الجنة فالجمهور على أن محسنهم في الجنة كما أن مسيئهم في النار وقيل بل نوابهم سلامتهم من الجحيم . وأما الجنة فلا يدخلها أحد من أولاد إبليس وإنما هي لبني آدم وصالحى ذريته خاصة . وحكى هذا القول عن أبي حنيفة رحمه الله تعالى . واحتج الأولون بوجوه . أحدها هذه الآية فإنه سبحانه أخبر أن من اتبع هداة فلا يخاف ولا يحزن ولا يضل ولا يشقى وهذا مستلزم

لكمال النعيم . ولا يقال أن الآية إنما تدل على نفي العذاب فقط ولا خلاف أن مؤمنهم لا يعاقبون لأننا نقول لولم تدل الآية إلا على أمر عدى فقط لم يكن مدحاً لمؤمنى الانس ولما كان فيها إلا مجرد أمر عدى وهو عدم الخوف والحزن . ومعلوم أن سياق الآية ومقصودها إنما أريد به أن من اتبع هدى الله الذى أنزله حصل له غاية النعيم وان دفع عنه غاية الشقاء . وعبر عن هذا المعنى المطلوب بنفى الأمر المذكورة لاقتضاء الحال لذلك فإنه لما أهبط آدم من الجنة حصل له من الخوف والحزن والشقاء ما حصل فأخبره سبحانه أنه معطيه وذريته عهداً من اتبعه منهم اتقى عنه الخوف والحزن والضلال والشقاء . ومعلوم أنه لا ينتفى ذلك كله إلا بدخول دار النعيم ولكن المقام بذكر التصريح بنفى غاية المكروهات أولى . الثانى قوله تعالى (وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى لولا إلى قومهم منذرين قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم يا قومنا أجببوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويحرك من عذاب أليم) فأخبرنا سبحانه عن نذيرهم اخباراً بقوله أن من أجاب داعيه غفر له وأجاره من العذاب ولو كانت المغفرة لهم إنما ينالون بها مجرد النجاة من العذاب كان ذلك حاصلًا بقوله (ويحرك من عذاب أليم) بل تمام المغفرة دخول الجنة والنجاة من النار فكل من غفر الله له فلا بد من دخوله الجنة . الثالث قوله تعالى فى الحور العين (لم يطعمهن إنس قبلهم ولا جان) فهذا يدل على أن مؤمنى الجن والانس يدخلون الجنة وأنه لم يسبق من أحد منهم طمث لأحد من الحور فدل على أن مؤمنهم يتأنى منهم طمث الحور العين بمد الدخول كما يتأنى من الانس ولو كانوا بمن لا يدخل الجنة لما حسن الاخبار عنهم بذلك . الرابع قوله تعالى (فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأنوا به متشابهة ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون) والجن منهم مؤمن ومنهم كافر كما قال صالحوهم (وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون) فكما دخل كافرهم فى الآية الثانية وجب أن يدخل مؤمنهم فى الأولى . الخامس قوله عن صالحهم (فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً) والرشد هو الهدى والفلاح وهو الذى يهدى اليه القرآن ومن لم يدخل الجنة لم ينل غاية الرشد بل لم يحصل له من الرشد إلا مجرد العلم . السادس قوله تعالى (سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتیه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) ومؤمنهم ممن آمن بالله ورسله فيدخل فى المبشرين ويستحق البشارة . السابع قوله تعالى (والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) عم

سبحانه بالدعوة وخص بالهداية المفوضية اليها فن هداها اليها فهو بمن دعاه اليها فن اهتدى من الجن فهو من المدعوين اليها . الثامن قوله تعالى (ويوم نحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الانس وقال اوليائهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مشوا كم خالدين فيها إلا ما شاء الله ان ربك حكيم عليم وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون يامعشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ذلك ان لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون واسكل درجات مما عملوا) وهذا عام في الجن والانس فأخبرهم تعالى أن لكلهم درجات من عمله فاقضى أن يكون لحسنهم درجات من عمله كما لحسن الانس . التاسع قوله تعالى (ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون) وقوله تعالى (ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون) ووجه التمسك بالآية من وجوه ثلاثة . أحدها عموم الاسم الموصول فيها . الثاني ترتيبه الجزاء المذكور على المسألة ليدل على أنه مستحق بها وهو قول ربنا الله مع الاستقامة والحكم يعم بعموم علته فاذا كان دخول الجنة مرتباً على الاقرار بالله وربوبيته مع الاستقامة على أمره فمن أتى ذلك استحق الجزاء . الثالث انه قال (فلاخوف عليهم ولا هم يحزنون أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون) فدل على أن كل من لاخوف عليه ولا حزن فهو من أهل الجنة وقد تقدم في أول الآيات قوله تعالى (فن اتبع هداى فلاخوف عليهم ولا هم يحزنون) وأنه متناول للفرعيين ودلت هذه الآية على أن من لاخوف عليه ولا حزن فهو من أهل الجنة . العاشر أنه إذا دخل مسيئهم النار بعدل الله فدخل محسنهم الجنة بفضله ورحمته أولى فان رحمته سبقت غضبه والفضل أغلب من العدل ولهذا لا يدخل النار إلا من عمل أعمال أهل النار . وأما الجنة فيدخلها من لم يعمل خيراً قط بل ينشئ لها أقواماً يسكنهم إياها من غير عمل عملوه ويرفع فيها درجات العبد من غير سعي منه بل بما يصل اليه من دعاء المؤمنين وصلاتهم وصدقتهم وأعمال البر التي يهدونها اليه بخلاف أهل النار فانه لا يعذب فيها بغير عمل أصلاً . وقد ثبت بنص القرآن واجماع الأمة ان مسيء الجن في النار بعدل الله وبما كانوا يكسبون فحسنهم في الجنة بفضل الله وبما كانوا يعملون . لكن قيل أنهم يكونون في ربض الجنة يراهم أهل الجنة ولا يرونهم كما كانوا في الدنيا يرون بني آدم من حيث لا يرونهم ومثل هذا لا يعلم إلا بتوقيف تنقطع الحججة عنده فان ثبتت حجة يجب اتباعها وإلا فهو مما يحكى ليعلم وصحته موقوفة على الدليل والله أعلم .

فصل

ومتابعة هدى الله التي رتب عليها هذه الأمور هي تصديق خبره من غير اعتراض شبهة تقدم في تصديقه وامثال أمره من غير اعتراض شهوة تمنع امتثاله وعلى هذين الأصلين مدار الإيمان وهما تصديق الخبر وطاعة الأمر ويتبعهما أمران آخران وهما نفي شبهات الباطل الواردة عليه المانعة من كمال التصديق وان لا يخمش بها وجه تصديقه ودفع شهوات الغي الواردة عليه المانعة من كمال الامتثال فهنا أربعة أمور . أحدها تصديق الخبر . الثاني بذل الاجتهاد في ردالشبهات التي توحىها شياطين الجن والانس في معارضته . الثالث طاعة الأمر والرابع مجاهدة النفس في دفع الشهوات التي تحول بين العبد وبين كمال الطاعة وهذان الأمران أعنى الشبهات والشهوات أصل فساد العبد وشقاقه في معاشه ومعاده كما أن الأصلين الأولين وهما تصديق الخبر وطاعة الأمر أصل سعادته وفلاحه في معاشه ومعاده وذلك أن العبد له قوتان قوة الإدراك والنظر وما يتبعها من العلم والمعرفة والسلام وقوة الارادة والحب وما يتبعه من النية والعزم والعمل فالشبهة تؤثر فسادا في القوة العلمية النظرية مالم يداوها بدفعها والشهوة تؤثر فسادا في القوة الارادية العملية مالم يداوها باخراجها قال الله تعالى في حق نبيه يذكر مامن به عليه من نزاهته وطهارته مما يلحق غيره من ذلك (والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى) فما ضل دليل على كمال علمه ومعرفته وانه على الحق المبين وما غوى دليل على كمال رشده وأنه أبر العالمين فهو الكامل في علمه وفي عمله وقد وصف صلى الله عليه وسلم بذلك خلفاءه من بعده وأمر بابنائهم على سنتهم فقال عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى رواه الترمذى وغيره فالراشد ضد الغاوى والمهدى ضد الضال وقد قال تعالى (كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلافتهم فاستمتعتم بخلافتكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلافتهم وخضتم كالذي خاضوا أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون) فذكر تعالى الأصلين وهما داء الأولين والآخرين أحدهما الاستمتاع بالخلاق وهو النصب من الدنيا والاستمتاع به متضمن لنيل الشهوات المانعة من متابعة الأمر بخلاف المؤمن فانه وان نال من الدنيا وشهواتها فانه لا يستمتع بنصيبه كله ولا يذهب طبيعته في حياته الدنيا بل ينال منها ما ينال منها ليتقوى به على التزود لمعاده والثاني الخوض بالشبهات الباطلة وهو قوله (وخضتم كالذي خاضوا) وهذا شأن النفوس الباطلة التي لم تخلق الآخرة لاتزال ساعية في نيل شهواتها فاذا نالتها فانما هي في خوض بالباطل الذي لا يجدى عليها إلا الضرر العاجل والآجل . ومن تمام حكمة الله تعالى أنه يبتلى هذه النفوس بالشقاء والتعب في تحصيل راداتها وشهواتها فلا تتفرغ للخوض بالباطل الا قليلا ولو تفرغت هذه النفوس الباطلية

لكانت أئمة تدعوا إلى النار وهذا حال من تفرغ منها كما هو مشاهد بالعيان وسواء كان المعنى وخضتم للحزب الذي خاضوا أو كالفريق الذي خاضوا فإن الذي يكون للواحد والجمع ونظيره قوله تعالى (والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين) لكن لايجرى على جمع تصحيح فلا يجيء المسلمون الذي جاؤا وإنما يجيء غالبا في اسم الجمع كالحزب والفريق أو حيث لا يذكر الموصوف وان كان جمعا كقول الشاعر :

وان الذي جاءت تقيح دماؤهم ه هم القوم كل القوم يا أم خالد

أو حيث يراد الجنس دون الواحد والعدد كقوله تعالى (والذي جاء بالصدق وصدق به) ثم قال (أولئك هم المتقون) ونظيره الآية التي نحن فيها وهي قوله (وخضتم كالذي خاضوا) أو كان المعنى على القول الآخر وخضتم خوضا كالخوض الذي خاضوا فيكون صفة لمصدر محذوف كقولك اضرب كالذي ضرب وأحسن كالذي أحسن ونظائره وعلى هذا فيكون العائد منصوبا محذوفا وحذفه في مثل ذلك قياس مطرد على القولين فقد ذمهم سبحانه على الخوض بالباطل واتباع الشهوات واخبر أن من كانت هذه حاله فقد حبط عمله في الدنيا والآخرة وهو من الخاسرين ونظير هذا قول أهل النار لأهل الجنة وقد سألوهم كيف دخلوها (قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب بيوم الدين) فذكروا الأصليين الخوض بالباطل وما يتبعه من التكذيب بيوم الدين . وإيثار الشهوات وما يستلزمه من ترك الصلوات واطعام ذوى الحاجات فهذان الأصلان هما ما هما والله ولى التوفيق .

فصل

والقلب السليم الذى ينجو من عذاب الله هو القلب الذى قد سلم من هذا وهذا فهو القلب الذى قد سلم لربه وسلم لامره ولم تبق فيه منازعة لامره ولا معارضة لخبره فهو سليم بما سوى الله وأمره لا يريد الا الله ولا يفعل إلا ما أمره الله فآله وحده غايته وأمره وشرعه وسيلته وطريقته لا تعترضه شبهة تحول بينه وبين تصديق خبره لكن لا تتمر عليه إلا وهي مجتازة تعلم أنه لاقرار لها فيه ولا شهوة تحول بينه وبين متابعة رضاه ومتى كان القلب كذلك فهو سليم من الشرك وسليم من البدع وسليم من الغي وسليم من الباطل وكل الأقوال التي قيلت في تفسيره فذلك يتضمنها . وحقيقته أنه القلب الذى قد سلم لعبودية ربه حياء وخوفا وطعما ورجاء ففنى بحبه عن حب ماسواه وبخوفه عن خوف ماسواه وبرجائه عن رجاء ماسواه وسلم لامره

ولرسوله تصديقا وطاعة كما تقدم واستسلم لقضائه وقدره فلم يتهمه ولم ينازعه ولم يتسخط لأقداره فاسلم لربه انقيادا وخضوعا وذلا وعبودية وسلم جميع أحواله وأقواله وأعماله وأذواقه ومواجيده ظاهرا وباطنا من مشكاة رسوله وعرض ما جاء من سواها عليها فما وافقها قبله وما خالفها رده وما لم يتبين له فيه موافقة ولا مخالفة وقف أمره وأرجأه إلى أن يتبين له وسالم أوليائه وحزبه المفلحين الذابين عن دينه وسنة نبيه القائمين بها وعادى أعداءه المخالفين لكتابه وسنة نبيه الخارجين عنهما الداعين إلى خلافهما .

فصل

وهذه المتابعة هي التلاوة التي أثنى الله على أهلها في قوله تعالى (ان الذين يتلون كتاب الله) وفي قوله (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به) والمعنى يتبعون كتاب الله حق اتباعه وقال تعالى (أنزل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة) وقال (إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين وأن أتلا القرآن) حقيقة التلاوة في هذه المواضع هي التلاوة المطلقة التامة وهي تلاوة اللفظ والمعنى فتلاوة اللفظ جزء مسمى التلاوة المطلقة وحقيقة اللفظ إنما هي الإتيان يقال أنزل أثر فلان وتلوت أثره وقفوتيه وقصصته بمعنى تبعت خلفه ومنه قوله تعالى (والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها) أي تبعها في الطلوع بعد غيبتها ويقال جاء القوم يتلو بعضهم بعضا أي يتبع وسمى تالي الكلام تاليا لأنه يتبع بعض الحروف بعضها لا يخرجها جملة واحدة بل يتبع بعضها بعضا مرتبة كلما انقضى حرف أو كلمة أتبعه بحرف آخر وكلمة أخرى وهذه التلاوة وسيلة وطريقة . والمقصود التلاوة الحقيقية وهي تلاوة المعنى واتباعه تصديقا بخبره وإتيانا بأمره وانتهاء بنهيته وإتيانا به حيث ما قادت معه فتلاوة القرآن تتناول تلاوة لفظه ومعناه وتلاوة المعنى أشرف من مجرد تلاوة اللفظ وأهلها هم أهل القرآن الذين لهم الثناء في الدنيا والآخرة فانهم أهل تلاوة ومتابعة حقا .

فصل

ثم قال تعالى (ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى) لما أخبر سبحانه عن حال من اتبع هداه في معاشه ومعاده أخبر عن حال من أعرض عنه ولم يتبعه فقال (ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا) أي عن الذكر الذي أنزلته فالذكر هنا مصدر مضاف إلى الفاعل كقيامي وقراءتي لا إلى المفعول وليس المعنى ومن أعرض

عن أن يذكرني بل هذا لازم المعنى ومقتضاه من وجه آخر سند كره . وأحسن من هذا الوجه أن يقال الذكر هنا مضاف لإضافة الأسماء لا إضافة المصادر إلى معمولاتها . والمعنى ومن أعرض عن كتابي ولم يتبعه فان القرآن يسمى ذكراً قال تعالى (وهذا ذكر مبارك أنزلناه) وقال تعالى (ذلك تلوه عليكم من الآيات والذكر الحكيم) وقال تعالى (وما هو إلا ذكر للعالمين) وقال تعالى (إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وانه لكتاب عزيز) وقال تعالى (إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن) وعلى هذا فاضافته كإضافة الأسماء للجوامد التي لا يقصد بها إضافة العامل إلى معموله ونظيره في إضافة إسم الفاعل (غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب) فان هذه الإضافات لم يقصد بها قصد الفعل المتجدد وإنما قصد بها قصد الوصف الثابت للإلزام وكذلك جرت أوصافاً على اعرف المعارف وهو اسم الله تعالى في قوله تعالى (تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير) .

فصل

وقوله تعالى (فان له معيشة ضنكاً) فسرهما غير واحد من السلف بعذاب القبر وجمعوا هذه الآية أحد الأدلة الدالة على عذاب القبر ولهذا قال (ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) أى ترك في العذاب كما تركت العمل بآياتنا فذكر عذاب البرزخ وعذاب دار البوار ونظيره قوله تعالى في حق آل فرعون (النار يعرضون عليها غدوا وعشيا) فهذا في البرزخ (ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) فهذا في القيامة الكبرى ونظيره قوله تعالى (ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسهم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون) فقول الملائكة اليوم تجزون عذاب الهون المراد به عذاب البرزخ الذي أوله يوم القبض والموت ونظيره قوله تعالى (ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق) فهذه الإذاعة هي في البرزخ وأولها حين الوفاة فانه معطوف على قوله (يضربون وجوههم وأدبارهم) وهو من القول المحذوف مقوله لدلالة الكلام عليه كمنظاره وكلاهما واقع وقت الوفاة . وفي الصحيح عن البراء بن عازب رضى الله عنه في قوله تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة) قال نزلت في عذاب القبر والأحداث في عذاب القبر تسكاد تبلغ حد التواتر . والمقصود أن الله سبحانه أخبر أن من أعرض عن ذكره وهو الهدى الذي من انبعه لا يضل ولا يشقى فان له معيشة ضنكاً وتكفل لمن حفظ

عهده أن يحييه حياة طيبة ويجزيه أجره في الآخرة فقال تعالى (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) فأخبر سبحانه عن فلاح ما تمسك بعهده علماً وعملاً في العاجلة بالحياة الطيبة وفي الآخرة بأحسن الجزاء وهذا بعكس من له المعيشة الضنك في الدنيا والبرزخ ونسيانه في العذاب بالآخرة وقال سبحانه (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين وانهم ليمصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون) فأخبر سبحانه أن من ابتلاه بقرينه من الشياطين وضلّاه به إنما كان بسبب اعراضه وعشوه عن ذكره الذي أنزله على رسوله فكان عقوبة هذا الاعراض أن يقض له شيطاناً يقارنه فيصده عن سبيل ربه وطريق فلاحه وهو يحسب أنه مهتد حتى إذا وافي ربه يوم القيامة مع قرينه وعين هلاكه وافلاسه قال (ياليت بيني وبينك بعد المشركين فبئس القرين) وكل من أعرض عن الاهتداء بالوحي الذي هو ذكر الله فلا بد أن يقول هذا يوم القيامة . فان قيل فهل لهذا عذر في ضلاله إذا كان يحسب أنه على هدى كما قال تعالى (ويحسبون أنهم مهتدون) . قيل لا عذر لهذا وأمثاله من الضلال الذين منشأ ضلالهم الاعراض عن الوحي الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ولو ظن أنه مهتد فانه مفرط باعراضه عن اتباع داعي الهدى فاذا ضل فائماً أتى من تفريطه واعراضه وهذا بخلاف من كان ضلاله لعدم بلوغ الرسالة وعجزه عن الوصول إليها فذاك له حكم آخر والوعيد في القرآن إنما يتناول الأول وأما الثاني فان الله لا يعذب أحداً إلا بعد إقامة الحجة عليه كما قال تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وقال تعالى (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) . وقال تعالى في أهل النار (وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين) . وقال تعالى (أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين أو تقول لو أن الله هداني لكانت من المنتقين أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين بلى قد جاءك آياتي فكذبتها واستكبرت وكنت من الكافرين) وهذا كثير في القرآن .

فصل

وقوله تعالى (ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً) اختلف فيه هل هو من عمى البصيرة أو من عمى البصر والذين قالوا هو من عمى البصيرة إنما حملهم على ذلك قوله (أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا) . وقوله (لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) وقوله (يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين) وقوله (لآرون الجحيم ثم آترونها عين اليقين) ونظائر هذا مما ثبت لهم الروية

في الآخرة كقوله تعالى (وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي)
وقوله (يوم يدعون إلى نار جهنم دعا هذه النار التي كنتم بها تكذبون أفسح هذا أم أنتم
لاتبصرون) وقوله (ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها) والذين رجحوا أنه من
عمى البصر قالوا السياق لا يدل لإعليه لقوله (قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا)
وهو لم يكن بصيرا في كفره قط بل قد تبين له حينئذ أنه كان في الدنيا في عمى عن الحق
فكيف يقول وقد كنت بصيرا وكيف يحجب بقوله (كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك
اليوم تنسى) بل هذا الجواب فيه تنبيه على أنه من عمى البصر وأنه جوزى من جنس عمله فانه لما
أعرض عن الذكر الذي بعث الله به رسوله وعميت عنه بصيرته أعمى الله بصره يوم القيامة
وتركه في العذاب كما ترك الذكر في الدنيا لجأزه على عمى بصيرته عمى بصره في الآخرة وعلى
تركه ذكره تركه في العذاب وقال تعالى (ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء
من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكا وصما) . وقد قيل في هذه الآية أيضا
أنهم عمى وبكم وصم عن الهدى كما قيل في قوله (ونحشره يوم القيامة أعمى) قالوا لأنهم
يتكلمون يومئذ ويسمعون ويبصرون ومن نصرانه العمى والبكم والصمم المضاد للبصر
والسمع والنطق قال بعضهم هو عمى وصم وبكم مقيد لا مطلق فهم عمى عن رؤية ما يسرهم
وسمعه . ولهذا قد روى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال لا يرون شيئا يسرهم . وقال
آخرون هذا الحشر حين تتوفاهم الملائكة يخرجون من الدنيا كذلك فإذا قاموا من قبورهم إلى
الموقف قاموا كذلك ثم انهم يسمعون ويبصرون فيما بعد وهذا مروى عن الحسن . وقال
آخرون هذا إنما يكون إذا دخلوا النار واستقروا فيها سلبوا الأسماع والأبصار والنطق حين
يقول لهم الرب تبارك وتعالى (اخصوا فيها ولا تكلمون) حينئذ ينقطع الرجاء وتبكم عقولهم
فيصيرون بأجمعهم عميا بكما صما لا يبصرون ولا يسمعون ولا ينطقون ولا يسمع منهم إلا
الزفير والشهيق . وهذا منقول عن مقاتل والذين قالوا المراد به العمى عن الحججة إنما مرادهم
أنهم لا حجة لهم ولم يريدوا أن لهم حجة هم عمى عنها بل هم عمى عن الهدى كما كانوا في الدنيا
فان العبد يموت على ما عاش عليه ويبعث على ما مات عليه وبهذا يظهر أن الصواب هو القول
الآخر وأنه عمى البصر فان الكافر يعلم الحق يوم القيامة عيانا ويقر بما كان يجحده في الدنيا
فليس هو أعمى عن الحق يومئذ ﴿ وفصل الخطاب ﴾ ان الحشر هو الضم والجمع ويراد به
نارة الحشر إلى موقف القيامة كقول النبي صلى الله عليه وسلم انكم محشورون إلى الله حفاة
عراة غرلا وكقوله تعالى (وإذا الوحوش حشرت) وكقوله تعالى (وحشرناهم فلم نغادر
منهم أحدا) ويراد به الضم والجمع إلى دار المستقر فحشر المتقين جمعهم وضمهم إلى الجنة

وحشر الكافرين جمعهم وضمهم إلى النار . قال تعالى (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً) .
وقال تعالى (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم) فهذا الحشر هو بعد حشرهم إلى الموقف وهو حشرهم وضمهم إلى النار لأنه قد أخبر عنهم أنهم (قالوا يا ويلنا هذا يوم الدين هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون) ثم قال تعالى (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم) وهذا الحشر الثاني وعلى هذا فهم ما بين الحشر الأول من القبور إلى الموقف والحشر الثاني من الموقف إلى النار فعند الحشر الأول يسمعون ويبصرون ويجادلون ويكلمون وعند الحشر الثاني يحشرون على وجوههم عمياً وبكياً وصماً فلكل موقف حال يليق به ويقتضيه عدل الرب تعالى وحكمته فالقرآن يصدق بعضه بعضاً (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) .

فصل

والمقصود أن الله سبحانه وتعالى لما اقتضت حكمته ورحمته إخراج آدم وذريته من الجنة أفاضل منها وهو ما أعطاهم من عهده الذي جملة سببها موصل لهم إليه وطريقاً واضحاً بين الدلالة عليه من تمسك به فاز واهتدى ومن أعرض عنه شقى وغوى . ولما كان هذا العهد الكريم والصراط المستقيم والنبأ العظيم لا يوصل إليه أبداً إلا من باب العلم والإرادة فالإرادة باب الوصول إليه والعلم مفتاح ذلك الباب المتوقف فتحه عليه وكال كل انسان إنما يتم بهذين النوعين همة ترقيه وعلم يبصره ويهديه فان مراتب السعادة والفلاح إنما تفوت العبد من هاتين الجهتين أو من إحداهما اما أن لا يكون له علم بها فلا يتحرك في طلبها أو يكون عالماً بها ولا تنهض همته إليها فلا يزال في حضيض طبعه محبوساً وقلبه عن كانه الذي خلق له مصدوداً منكوساً قد أسام نفسه مع الأنعام راعياً مع الحمل واستطاب لقيعات الراحة والبطالة واستلان فراش العجز والكسل لا كمن رفع له علم فشمع اليه وبورك له في تفرده في طريق طلبه فلزمه واستقام عليه ندابت غلبات شوقه الا لهجرة إلى الله ورسوله ومقتت نفسه الرفقاء إلا ابن سبيل يرافقه في سبيله . ولما كان كمال الإرادة بحسب كمال مرادها وشرف العلم تابع لشرف معلومه كانت نهاية سعادة العبد الذي لا سعادة له بدونها ولا حياة له إلا بها أن تكون إرادته متعلقة بالمراد الذي لا يبلى ولا يفوت وعزمات همته مسافرة إلى حضرة الحمى الذي لا يموت ولا سبيل له إلى هذا المطلب الأسنى والحظ الأوفى إلا بالعلم الموروث عن عبده ورسوله وخليله وحبيبه الذي بعثه لذلك داعياً وأقامه على هذا الطريق هادياً وجعله واسطة بينه وبين الأنام وداعياً لهم بإذنه إلى داد السلام وأبي سبحانه أن يفتح لأحد منهم لإعلى يديه أو يقبل من أحد منهم سعياً إلا أن يكون مبتدأ منه ومنتهياً إليه .

فاطرق كلها إلا طريقه ^{صلى الله عليه وسلم} مسدودة والقلوب بأسرها إلا قلوب أتباعه المتقادة اليه عن الله محبوسة مسدودة فحق على من كان في سعادة نفسه ساعيا وكان قلبه حيا عن الله واعيا أن يجعل على هذين الأصلين مدار أقواله وأعماله وأن يصيرهما أحييته التي اليها مفرغه في حياته وطاء له فلا جرم كان وضع هذا الكتاب مؤسسا على هاتين القاعدتين ومقصوده التعريف بشرف هذين الأصلين ﴿ وسميته مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ﴾ إذ كان هذا من بعض النزل والتحف التي فتح الله بها على حين انقطاعي إليه عند بيته وإلقائي نفسي ببابه مسكينا ذليلا وتعرضي لفتحاته في بيته وحوله بكرة وأصيلا فما حاب من أنزل به حوائجه وعلق به آماله وأصبح ببابه مقبيا وبجماه نزيلا ولما كان العلم أمام الإرادة ومقدما عايبا ومفصلا لها ومرشدا لها قدمنا الكلام عليه على الكلام على المحبة . ثم تقبى ان شاء الله بعد الفراغ منه كتابا في الكلام على المحبة وأقسامها وأحكامها وفوائدها وثمراتها وأسبابها وموانعها وما يقويها وما يضعفها والاستدلال بسائر طرق الأدلة من النقل والعقل والفطرة والقياس والاعتبار والذوق والوجد على تعلقها بالإله الحق الذي لا إله غيره بل لا ينبغي أن تكون إلا له ومن أجله والرد على من انكر ذلك وتبين فساد قوله عقلا ونقلًا وفطرة وقياسًا وذوقًا ووجدًا فهذا مضمون هذه التحفة وهذه غرائس معانيها الآن تجلي عليك وخود أبقارها البديعة الجمال ترفل في حللها وهي ترف اليك فاما شمس مناظرها بسعد الاسعد وأما خود ترف إلى ضيرير مقعد فاختر لنفسك احدى الخطتين وأنزلها فيما شئت من المنزلاتين ولا بد لكل نعمة من حاسد ولا كل حق من جاحد ومعاند هذا وإنما أودع من المعاني والنفائس رهن عند متأمله ومظالمه له غنمه وعلى مؤلفه غرمه وله ثمرته ومنفعتته ولصاحبه كله ومشقته مع تعرضه لظعن الطاعنين ولا اعتراض المناقشين وهذه بضاعته المزجاة وعقله المكدرود يعرض على عقول العالمين وإلقائه نفسه وعرضه بين مخالب الحاسدين وأنياب البغاة المعتدين فلك أيها القارئ صفوه ولمؤلفه كدره وهو الذي تجشم غراسه وتعبه ولك ثمره وها هو قد استهدف لسهام الراشقين واستعذر إلى الله من الزلل والخطأ ثم إلى عباده المؤمنين . اللهم فعياذا بك بمن قصر في العلم والدين بأعه وطالت في الجهل وأذى عبادك ذراعه فهو لجهله يرى الإحسان أساءة والسنة بدعة والعرف نكرا وظلمه يجزى بالحسنة سيئة كاملة وبالسيئة الواحدة عشرة قد اتخذ بطن الحق وغمط الناس سلما إلى ما يحبه من الباطل ويرضاه ولا يعرف من المعروف ولا ينكر من المنكر إلا ما وافق إرادته أو حالف هواه يستطيل على أولياء الرسول وحزبه باصغريه ويجالس أهل الغي والجهالة ويزاحمهم بركبته قد ارتوى من ماء آجن وتضلع واستشرف إلى مراتب

ورثة الأنبياء وتطلع يركض في ميدان جهله مع الجاهلين ويبرز عليهم في الجهالة فيظن أنه من السابقين وهو عند الله ورسوله والمؤمنين عن تلك الوراثة النبوية بمعزل وإذا أنزل الوراثة متازلهم منها فنزلته منها أقصى وأبعد منزل .

نزلوا بمكة في قبائل هاشم ونزلت بالبيداء أبعاد منزل

وعياذا بك من جعل الملامة بضاعته والعدل نصيحته فهو دائما يبدى في الملامة ويعيد . ويكرر على العدل فلا يفيد ولا يستفيد . بل عياذا بك من عدو في صورة ناصح وولى في مسلاخ بعيد كاشح يجعل عداوته وأذاه حذرا وإشفاقا وتنفيره وتخذيله إسعافا وإرفاقا وإذا كانت العين لا تكاد إلا على هؤلاء تفتح والميزان بهم يخف ولا يرجح فإحرى اللبيب بأن لا يعيرهم من قلبه جزا من الالتفات ويسافر في طريق مقصده بينهم سفره إلى الأحياء بين الأموات وما أحسن ما قال القائل :

وفي الجمل قبل الموت موت لأهله وأجسامهم قبل القبور قبور
وأرواحهم في وحشة من جسومهم وليس لهم حتى الذنور نشور

اللهم فلك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان وبك المستغاث وعليك التكلان ولا حول ولا قوة إلا بك وأنت حسبنا ونعم الوكيل . فلنشرع الآن في المقصود بحول الله وقوته فنقول .

الأصل الأول في العلم وفضله وشرفه

وبيان عموم الحاجة اليه وتوقف كمال العبد ونجاته في معاشه ومعاده عليه

قال الله تعالى (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم) استشهد سبحانه بأولى العلم على أجل مشهود عليه وهو توحيده فقال (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط) وهذا يدل على فضل العلم وأهله من وجوه . أحدها استشهادهم دون غيرهم من البشر . والثاني اقتران شهادتهم بشهادته . والثالث اقترانها بشهادة ملائكته . والرابع أن في ضمن هذا تزكيتهم وتعديلهم فإن الله لا يستشهد من خلقه إلا العدول ومنه الأثر المعروف عن النبي صلى الله عليه وسلم يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين . وقال محمد بن أحمد بن يعقوب بن شيبه رأيت رجلا قدم رجلا إلى إسماعيل بن إسحاق القاضي

فادعى عليه دعوى فسأل المدعى عليه فأنكر فقال للدعى ألك بيضة قال نعم فلان وفلان قال أما فلان فمن شهودى وأما فلان فليس من شهودى قال فيمرفه القاضى قال نعم قال بماذا قال أعرفه بكتب الحديث قال فكيف تعرفه فى كتبه الحديث قال ما علمت إلا خيراً . قال فان النبى صلى الله عليه وسلم قال يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله فمن عدله رسول الله صلى الله عليه وسلم أولى بمن عدلته أنت فقال قم فهاهنا فقد قبلت شهادته . وسياأتى إن شاء الله الكلام على هذا الحديث فى موضعه . الخامس أنه وصفهم بكونهم أولى العلم وهذا يدل على اختصاصهم به وأنهم أهله وأصحابه ليس بمستعار لهم . السادس أنه سبحانه استشهد بنفسه وهو أجل شاهد ثم بختيار خلقه وهم ملائكته والعلماء من عباده ويكفيهم بهذا فضلاً وشرفاً . السابع أنه استشهد بهم على أجل مشهود به وأعظمه وأكبره وهو شهادة أن لا إله إلا الله والعظيم القدر إنما يستشهد على الأمر العظيم أكبر الخلق وساداتهم . الثامن أنه سبحانه جعل شهادتهم حجة على المنكرين فهم بمنزلة أدلته وآياته وبراهينه الدالة على توحيده . التاسع أنه سبحانه أفرد الفعل المتضمن لهذه الشهادة الصادرة منه ومن ملائكته ومنهم ولم يعطف شهادتهم بفعل آخر غير شهادته وهذا يدل على شدة ارتباط شهادتهم بشهادته فكأنه سبحانه شهد لنفسه بالتوحيد على ألسنتهم وأنظمتهم بهذه الشهادة فكان هو الشاهد بها لنفسه إقامة وإنطاقاً وتعليماً وهم الشاهدون بها له إقراراً واعترافاً وتصديقاً وإيماناً . العاشر أنه سبحانه جعلهم مؤدين لحقه عند عباده بهذه الشهادة فإذا أدوا فقد أدوا الحق المشهود به فثبت الحق المشهود به فوجب على الخلق الإقرار به وكان ذلك غاية سعادتهم فى معاشهم ومعادهم وكل من ناله الهدى بشهادتهم وأقر بهذا الحق بسبب شهادتهم فلهم من الأجر مثل أجره وهذا فضل عظيم لا يدرى قدره إلا الله وكذلك كل من شهد بها عن شهادتهم فلهم من الأجر مثل أجره أيضاً فهذه عشرة أوجه فى هذه الآية . الحادى عشر فى تفضيل العلم وأهله أنه سبحانه نفي التسوية بين أهله وبين غيرهم كأنفى التسوية بين أصحاب الجنة وأصحاب النار . فقال تعالى (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) كما قال تعالى (لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة) وهذا يدل على غاية فضلهم وشرفهم ، الوجه الثانى عشر أنه سبحانه جعل أهل الجهل بمنزلة العميان الذين لا يبصرون فقال (أفمن يعلم إنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى) فاثم إلا عالم أو أعمى وقد وصف سبحانه أهل الجهل بأنهم صم بكم عمى فى غير موضع من كتابه . الوجه الثالث عشر أنه سبحانه أخبر عن أولى العلم بأنهم يرون أن ما أنزل إليه من ربه حقاً وجعل هذا ثناء عليهم واستشهاداً بهم . فقال تعالى (ويرى الذين أتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق) الوجه الرابع عشر أنه سبحانه أمر بسؤالهم والرجوع إلى أقوالهم وجعل ذلك كالشهادة منهم . فقال (وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن

كنتم لا تعملون) وأهل الذكر هم أهل العلم بما أنزل على الأنبياء . الوجه الخامس عشر أنه سبحانه شهد لأهل العلم شهادة في ضمنها الاستشهاد بهم على صحة ما أنزل الله على رسوله فقال تعالى (أفغير الله أتبعي حكما وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين) . الوجه السادس عشر أنه سبحانه سلى نبيه بإيمان أهل العلم به وأمره أن لا يعبأ بالجاهلين شيئا . فقال تعالى (وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا) وهذا شرف عظيم لأهل العلم وتحته ان أهله العالمون قد عرفوه وآمنوا به وصدقوا فسواء آمن به غيرهم أولا . الوجه السابع عشر أنه سبحانه مدح أهل العلم وأثنى عليهم وشرفهم بأن جعل كتابه آيات بينات في صدورهم وهذه خاصة ومنقبة لهم دون غيرهم . فقال تعالى (وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تحطه يمينك إذا لارتاب المبطلون بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون) وسواء كان المعنى أن القرآن مستقر في صدور الذين أوتوا العلم ثابت فيها محفوظ وهو في نفسه آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم . أو كان المعنى أنه آيات بينات في صدورهم أي كونه آيات بينات معلوم لهم ثابت في صدورهم والتولان متلازمان ليسا بمختلفين . وعلى التقديرين فهو مدح لهم وثناء عليهم في ضمنه الاستشهاد بهم فتأمله . الوجه الثامن عشر أنه سبحانه أمر نبيه أن يسأله مزيد العلم فقال تعالى (فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه وقل رب زدني علما) وكفى بهذا شرفا للعلم أن أمر نبيه أن يسأله المزيد منه . الوجه التاسع عشر أنه سبحانه أخبر عن رفعة درجات أهل العلم والإيمان خاصة . فقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشروا فانشروا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير) وقد أخبر سبحانه في كتابه برفع الدرجات في أربعة مواضع . أحدها هذا . والثاني قوله (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ويؤتوا الزكاة وهم يخشون الله أن يؤتوا الجزاء من حيث يشاءون وهم يحبون) والثالث قوله تعالى (ومن يأت به مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك هم الدرجات العلى) والرابع قوله تعالى (وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا

عظيما درجات منه ومغفرة ورحمة) فهذه أربعة مواضع في ثلاثة الرفعة بالدرجات لأهل الإيمان الذي هو العلم النافع والعمل الصالح والرابع الرفعة بالجهاد فعادت رفعة الدرجات كلها إلى العلم والجهاد اللذين بهما قوام الدين، الوجه العشرون . أنه سبحانه استشهد بأهل العلم والإيمان يوم القيامة على بطلان قول الكفار . فقال تعالى (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون) الوجه الحادي والعشرون أنه سبحانه أخبر أنهم أهل خشية بل خصهم من بين الناس بذلك . فقال تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور) وهذا حصر الخشيتة في أولى العلم . وقال تعالى (جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدون فيها أبدأرضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه) وقد أخبر أن أهل خشية هم العلماء فدل على أن هذا الجزء المذكور للعلماء بمجموع النصين . وقال ابن مسعود رضى الله عنه كفى بخشية الله علما وكفى بالاعتزاز بالله جهلا . الوجه الثاني والعشرون أنه سبحانه أخبر عن أمثاله التي يضربها لعباده يدلهم على صحة ما أخبر به أن أهل العلم هم المنتفعون بها المختصون بعلمها فقال تعالى (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) وفي القرآن بضعة وأربعون مثلا وكان بعض السلف إذا مر بمثل لا يفهمه يبكي ويقول لست من العالمين . الوجه الثالث والعشرون أنه سبحانه ذكر مناظرة إبراهيم لأبيه وقومه وغلبته لهم بالحجة وأخبر عن تفضيله بذلك ورفعه درجته بعلم الحجية فقال تعالى عقيب مناظرته لأبيه وقومه في سورة الأنعام (وتلك حجيتنا آتيناها إبراهيم على قومه فرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم) قال زيد بن أسلم رضى الله عنه نرفع درجات من نشاء بعلم الحجية . الوجه الرابع والعشرون أنه سبحانه أخبر أنه خلق الخلق ووضع بيته الحرام والشهر الحرام والهدى والقلائد ليعلم عباده أنه بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير فقال تعالى (الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهما لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما) فدل على أن علم العباد برهيم وصفاته وعبادته وحده هو الغاية المطلوبة من الخلق والأمر . الوجه الخامس والعشرون أن الله سبحانه أمر أهل العلم بالفرح بما آتاهم وأخبر أنه خير مما يجمع الناس فقال تعالى (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) وفسر فضل الله بالإيمان ورحمته بالقرآن والإيمان والقرآن هما العلم النافع والعمل الصالح والهدى ودين الحق وهما أفضل علم وأفضل عمل . الوجه السادس والعشرون . أنه سبحانه شهد لمن آتاه العلم بأنه قد آتاه خيرا كثيرا . فقال تعالى (يوتى الحكمة من يشاء ومن يوت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا) قال

ابن قتيبة والجمهور الحكمة لإصابة الحق والعمل به وهي العلم النافع والعمل الصالح . الوجه السابع والعشرون . أنه سبحانه عدد نعمه وفضله على رسوله وجعل من أجلها أن آتاه الكتاب والحكمة وعلمه مالم يكن يعلم . فقال تعالى (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلّمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما) . الوجه الثامن والعشرون . أنه سبحانه ذكر عباده المؤمنين بهذه النعمة وأمرهم بشكرها وأن يذكروه على لسانها إليهم فقال تعالى (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون) الوجه التاسع والعشرون . أنه سبحانه لما أخبر ملائكته بأنه يريد أن يجعل في الأرض خليفة قالوا له أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال انى أعلم ما لا تعلمون وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين قالوا سبحانه لا علم لنا إلا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم إلى آخر قصة آدم وأمر الملائكة بالسجود لآدم فأبى ابليس فلعنه وأخرجه من السماء (وبيان فضل العلم من هذه القصة من وجوه) أحدها أنه سبحانه رد على الملائكة لما سأله كيف يجعل في الأرض من هم أطوع له منه فقال (انى أعلم ما لا تعلمون) فأجاب سؤلهم بأنه يعلم من بواطن الأمور وحقائقها ما لا يعلمونه وهو العليم الحكيم فظهر من هذا الخليفة من خيار خلقه ورسله وأنبيائه وصالحى عباده والشهداء والصدّيقين والعلماء وطبقات أهل العلم والايمان من هو خير من الملائكة وظهر من ابليس من هو شر العالمين فأخرج سبحانه هذا وهذا والملائكة لم يكن لها علم لا بهذا ولا بهذا ولا بما فى خلق آدم واسكانه الأرض من الحكيم الباهرة . الثانى انه سبحانه لما أراد اظهار تفضيل آدم وتمييزه وفضله مئزه عليهم بالعلم فعلمه الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين . جاء فى التفسير أنهم قالوا لن يخلق ربنا خلقاً هو أكرم عليه منا فظنوا أنهم خير وأفضل من الخليفة الذى يجعله الله فى الأرض فلما امتحنهم بعلم ما علمه لهذا الخليفة أقروا بالعجز وجهل مالم يعلموه . فقالوا (سبحانه لا علم لنا إلا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم) فحينئذ أظهر لهم فضل آدم بما خصه به من العلم فقال (يا آدم أنبئهم باسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم) أقروا له بالفضل . الثالث أنه سبحانه لما أن عرفهم فضل آدم بالعلم وعجزهم عن معرفة ما علمه قال لهم (ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) فعرفهم سبحانه نفسه بالعلم وأنه أحاط علما بظواهرهم وباطنهم وبغيب السموات والأرض فتعرف بهم بصفة العلم وعرفهم فضل نبيه وكليمه بالعلم وعجزهم عما آتاه آدم من العلم وكفى بهذا شرفا للعلم . الرابع أنه سبحانه جعل فى آدم

من صفات السكّال ما كان به أفضل من غيره من المخلوقات وأراد سبحانه أن يظهر ملائكته فضله وشرفه فأظهر لهم أحسن ما فيه وهو علمه فدل على أن العلم أشرف ما في الإنسان وإن فضله وشرفه إنما هو بالعلم ونظير هذا ما فعله بنبيه يوسف عليه السلام لما أراد إظهار فضله وشرفه على أهل زمانه كلهم أظهر للملك وأهل مصر من علمه بتأويل رؤياه ما عجز عنه علماء التعبير حينئذ قدمه ومكنته وسلم إليه خزائن الأرض وكان قبل ذلك قد حبسه على ما رآه من حسن وجهه وجمال صورته ولما ظهر له حسن صورة علمه وجمال معرفته أطلقه من الحبس ومكنته في الأرض فدل على أن صورة العلم عند بني آدم أبهى وأحسن من الصورة الحسية ولو كانت أجمل صورة . وهذا وجه مستقل في تفضيل العلم مضاف إلى ما تقدم فتم به ثلاثون وجها . الوجه الحادي والثلاثون أنه سبحانه ذم أهل الجهل في مواضع كثيرة من كتابه فقال تعالى (وليكن أكثرهم يجهلون) وقال (وليكن أكثرهم لا يعلمون) وقال تعالى (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا) فلم يقتصر سبحانه على تشبيه الجهال بالأنعام حتى جعلهم أضل سبيلا منهم . وقال (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) أخبر أن الجهال شر الدواب عنده على اختلاف أصنافها من الحمير والسباع والكلاب والحشرات وسائر الدواب فالجهال شر منهم وليس على دين الرسل أضر من الجهال بل أعداؤهم على الحقيقة . وقال تعالى لنبيه وقد أعاده (فلا تكونن من الجاهلين) وقال كلمه موسى عليه الصلاة والسلام (أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) . وقال لأول رسله نوح عليه السلام (اني أعظك أن تكونن من الجاهلين) فهذه حال الجاهلين عنده والأول حال أهل العلم عنده . وأخير سبحانه عن عقوبته لأعدائه أنه منعهم علم كتابه ومعرفته وفقهه . فقال تعالى (وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجبا مستورا وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا) وأمر نبيه بالاعراض عنهم فقال (وأعرض عن الجاهلين) وأثنى على عباده بالاعراض عنهم ومناكرتهم كما في قوله (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين) وقال تعالى (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) وكل هذا يدل على قبح الجهل عنده وبغضه للجهل وأهله وهو كذلك عند الناس فإن كل أحد يتبرأ منه وإن كان فيه . الوجه الثاني والثلاثون ان العلم حياة ونور والجهل موت وظلمة والشر كله سببه عدم الحياة والنور والخير كله سببه النور والحياة فان النور يكشف عن حقائق الأشياء ويبين مراتبها والحياة هي المصححة لصفات السكّال الموجبة لتسديد الأقوال والأعمال فكلما تصرف من الحياة فهو خير كله كالحياة الذي سببه كمال حياة القلب وتصوره حقيقة القبح ونفرت منه وضده الوقاحة

والفحش وسببه موت القلب وعدم نفرته من القبيح وكالحياء الذى هو المطر الذى به حياة كل شيء . قال تعالى (أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها) كان ميتاً بالجهل قلبه فأحياه بالعلم وجعل له من الايمان نوراً يمشى به فى الناس . وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم لئلا يعلم أهل الكتاب أن لا يقدرين على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتية من يشاء والله ذو الفضل العظيم) وقال تعالى (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) وقال تعالى (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ماالكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وانك لتهدى إلى صراط مستقيم) فأخبر أنه روح تحصل به الحياة ونور يحصل به الإضاءة والإشراق لجمع بين الأصلين الحياة والنور . وقال تعالى (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور باذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم) وقال تعالى (فأمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا والله بما تعملون خبير) وقال تعالى (يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نوراً مبيناً) وقال تعالى (قد أنزل الله اليكم ذكراً رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور) وقال تعالى (الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم) فضرب سبحانه مثلاً لنوره الذى قذفه فى قلب المؤمن كما قال أبى بن كعب رضى الله عنه مثل نوره فى قلب عبده المؤمن وهو نور القرآن والايمان الذى أعطاه إياه كما قال فى آخر الآية (نور على نور) يعنى نور الايمان على نور القرآن كما قال بعض السلف يكاد المؤمن ينطق بالحكمة وإن لم يسمع فيها بالأثر فإذا سمع فيها بالأثر كان نوراً على نور وقد جمع الله سبحانه بين ذكر هذين النورين وهما الكتاب والايمان فى غير موضع من كتابه كقوله (ما كنت تدري ماالكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا) وقوله تعالى (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) ففضل الله الايمان ورحمته القرآن . وقوله تعالى (أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها) وقد تقدمت هذه الآيات . وقال فى آية النور (نور على نور)

وهو نور الإيمان على نور القرآن . وفي حديث النّوأس بن سمان رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الله ضرب مثلاً صراطاً مستقيماً وعلى كتنى الصراط داران لهما أبواب مفتحة على الأبواب ستور وداع يدعو على الصراط وداع يدعو فوقه (والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) والأبواب التي على كتنى الصراط حدود الله فلا يقع أحد في حدود الله حتى يكشف الستر والذي يدعو من فوقه واعظ ربه رواه الترمذى وهذا لفظه . والإمام أحمد ولفظه والداعى على رأس الصراط كتاب الله والداعى فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مؤمن فذكر الأصلين وهما داعى القرآن وداعى الإيمان . وقال حذيفة حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعملوا من الإيمان ثم عملوا من القرآن . وفي الصحيحين من حديث أبى موسى الأشعري رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ریح لها ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كالريحانة ريحها طيب وطعمها سر ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الخنزيرة طعمها مر ولا ریح لها فجعل الناس أربعة أقسام أهل الإيمان والقرآن وهم خيار الناس . الثاني أهل الإيمان الذين لا يقرءون القرآن وهم دونهم فهو لاء هم السعداء والأشقياء قسماً . أحدهما من أوتى قرآناً بلا إيمان فهو منافق . والثاني من لا أوتى قرآناً ولا إيماناً . والمقصود أن القرآن والإيمان هما نور يجعله الله في قلب من يشاء من عباده وأنهما أصل كل خير في الدنيا والآخرة وعلمهما أجل العلوم وأفضاها بل لا علم في الحقيقة ينفع صاحبه إلا لعلمها (والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) الوجه الثالث والثلاثون أن الله سبحانه جعل صيد الكلب الجاهل ميتة يحرم أكلها وأباح صيد الكلب المعلم وهذا أيضاً من شرف العلم أنه لا يباح إلا صيد الكلب العالم وأما الكلب الجاهل فلا يحل أكل صيده فدل على شرف العلم وفضله . قال الله تعالى (يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه واتقوا الله إن الله سريع الحساب) ولولا منزلة العلم والتعالم وشرفهما كان صيد الكلب المعلم والجاهل سواء . الوجه الرابع والثلاثون أن الله سبحانه أخبرنا عن صفيه وكليمه الذي كتب له التوراة بيده وكله منه إليه أنه رجل عالم يتعلم منه ويزداد علماً إلى علمه فقال (واذ قال موسى لفتهاه لأبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا) حرصا منه على لقاء هذا العالم وعلى التعلم منه فلما لقيه سلك معه مسلك المتعلم مع معلمه وقال له (هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً) فبدأه بعد السلام بالاستئذان على متابعته وأنه لا يتبعه إلا بأذنه وقال (على أن تعلمن مما علمت

رشدنا) فلم يجيء ممنحنوا ولا متعنتوا وإنما جاء متعلما مستزيدا علما إلى علمه . وكفى بهذا فضلا وشرفا للعلم فإن
نبي الله وكليمه سافروا وحل حتى لقي النصب من سفره في تعلم ثلاث مسائل من رجل عالم ولما سمع به لم يقبله
قرار حتى لقيه وطلب منه متابعتة وتعليمه وفي قصتهما عبر وآيات وحكم ليس هذا موضع
ذكرها . الوجه الخامس والثلاثون قوله تعالى (وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر
من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون)
نذب تعالى المؤمنين إلى التفقه في الدين وهو تعلمه وانذار قومهم إذا رجعوا إليهم وهو التعليم
وقد اختلف في الآية فقيل المعنى ان المؤمنين لم يكونوا لينفروا كلهم للتفقه والتعلم بل ينبغي
أن ينفر من كل فرقة منهم طائفة تتفقه تلك الطائفة ثم ترجع تعلم القاعدين فيسكون التغير على
هذا تغير تعلم والطائفة تقال على الواحد فما زاد قالوا فهو دليل على قبول خير الواحد وعلى
هذا حملها الشافعي وجماعة . وقالت طائفة أخرى المعنى وما كان المؤمنون لينفروا إلى الجهاد
كلهم بل ينبغي أن تنفر طائفة للجهاد وفرقة تقعد تتفقه في الدين فإذا جاءت الطائفة التي نفرت
فقبتها القاعدة وعلمتها ما أنزل من الدين والحلال والحرام . وعلى هذا فيسكون قوله ليتفقهوا
ولينذروا للفرقة التي نفرت منها طائفة وهذا قول الأكثرين وعلى هذا فالتغير تغير جهاد
على أصله فإنه حيث استعمل إنما يفهم منه الجهاد . قال الله تعالى (انفروا خفافاً وثقالا
وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم) وقال النبي صلى الله عليه وسلم لاهجرة بعد الفتح ولكن
جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا وهذا هو المعروف من هذه اللفظة . وعلى القولين فهو
ترغيب في التفقه في الدين وتعلمه وتعليمه فان ذلك يعدل الجهاد بل ربما يكون أفضل منه
كما سيأتى تقريره في الوجه الثامن والمائة ان شاء الله تعالى . الوجه السادس والثلاثون قوله تعالى
(والعصر إن الإنسان لنيخس إلا الذين آمنوا و عملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا
بالصبر) قال الشافعي رضي الله عنه لو فكر الناس كلهم في هذه السورة لكففتهم (وبيان ذلك)
ان المراتب أربعة وباستكمالها يحصل للشخص غاية كماله . احداها معرفة الحق . الثانية عمله به
الثالثة تعليمه من لا يحسنه . الرابعة صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه فذكر تعالى المراتب
الأربعة في هذه السورة وأقسم سبحانه في هذه السورة بالعصر ان كل أحد في خسر إلا الذين
آمَنوا وعملوا الصالحات وهم الذين عرفوا الحق وصدقوا به فهذه مرتبة . وعملوا الصالحات
وهم الذين عملوا بما علوه من الحق فهذه مرتبة أخرى . وتواصوا بالحق وصى به بعضهم
بعضاً تعليماً وارشاداً فهذه مرتبة ثالثة . وتواصوا بالصبر صبروا على الحق ووصى بعضهم
بعضاً بالصبر عليه والثبات فهذه مرتبة رابعة وهذا نهاية الكمال فان الكمال أن يكون الشخص
كاملاً في نفسه مكملًا لغيره وكاله باصلاح قوته العلمية والعملية فصلاح القوة العلمية بالإيمان

وصلاح القوة العملية بعمل الصالحات وتكميله غيره بتعليمه اياه وصبره عليه وتوصيته بالصبر على العلم والعمل فهذه السورة على اختصارها هي من أجمع سور القرآن للخير بجزايريه والحد لله الذي جعل كتابه كافياً عن كل ما سواه شافياً من كل داء هادياً إلى كل خير . الوجه السابع والثلاثون أنه سبحانه ذكر فضله وجمته على أنبيائه ورسله وأوليائه وعباده بما آتاهم من العلم فذكر نعمته على خاتم أنبيائه ورسله بقوله (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك عالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً) وقد تقدمت هذه الآية . وقال في يوسف (ولما بلغ أشده آتيناها حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين) وقال في كلمه موسى (ولما بلغ أشده واستوى آتيناها حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين) ولما كان الذي آتاه موسى من ذلك أمراً عظيماً خصه به على غيره ولا يثبت له إلا الأفوياء أولو العزم هيأه له بعد أن بلغ أشده واستوى يعني تم وكملت قوته . وقال في حق المسيح (يا عيسى ابن مريم نعمتي عليك وعلى والدك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهدي وكهلاً وإذ علمت الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل) وقال في حقه ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل فجعل تعليمه مما بشر به أمه وأقر عينها به . وقال في حق داود (وآتيناها الحكمة وفصل الخطاب) وقال في حق الخضر صاحب موسى وفتاه (فوجدنا عبداً من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً) فذكر من نعمه عليه تعليمه وما آتاه من رحمته . وقال تعالى يذكر نعمته على داود وسليمان (وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفثت فيه غم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً) فذكر النبيين الكريمين وأثنى عليهما بالحكم والعلم وخص بفهم القضية أحدهما وقد ذكرت الحكيمين الداوودي والسليمانى ووجهيهما ومن صار من الأئمة إلى هذا ومن صار إلى هذا وترجيح الحكم السليمانى من عدة وجوه وموافقته للقياس وقواعد الشرع في كتاب الاجتهاد والتقليد . وقال تعالى (قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس يجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً وعلمتم مالم تعلموا وأنتم ولا آباؤكم قل الله) يعنى الذى أنزله جعل سبحانه تعليمهم مالم يعلموا هم ولا آباؤهم دليلاً على صحة النبوة والرسالة إذ لا ينال هذا العلم إلا من جهة الرسل فكيف يقولون ما أنزل الله على بشر من شيء . وهذا من فضل العلم وشرفه وأنه دليل على صحة النبوة والرسالة والله الموفق للرشاد . وقال تعالى (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) وقال تعالى (هو الذى بعث فى الاميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم

ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) يعني وبعث في آخرين منهم لما يلحقوا بهم وقد اختلف في هذا اللحاق المنفي فقيل هو اللحاق في الزمان أى يتأخر زمانهم عنهم وقيل هو اللحاق في الفضل والسبق وعلى التقديرين فامتن عليهم سبحانه بان علمهم بعد الجهل وهداهم بعد الضلالة ويالها من منة عظيمة فانت المان وجلت أن يقدر العباد لها على ثمن . الوجه الثامن والثلاثون أن أول سورة أنزلها الله في كتابه سورة القلم فذكر فيها ما من به على الانسان من تعليمه ما لم يعلم فذكر فيها فضله بتعليمه وتفضيله الانسان بما علمه اياه وذلك يدل على شرف التعليم والعلم . فقال تعالى (اقرأ باسم ربك الذى خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم) فافتتح السورة بالأمر بالقراءة الناشئة عن العلم وذكر خلقه خصوصا وعموماً . فقال (الذى خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم) وخص الانسان من بين المخلوقات لما أودعه من عجائبه وآياته الدالة على ربوبيته وقدرته وعلمه وحكمته وكمال رحمته وانه لا إله غيره ولا رب سواه وذكر هنا مبدأ خلقه من علق ليكون العلقه مبدأ الأطوار التى انتقلت اليها النطفة فهى مبدأ تعلق التخليق ثم أعاد الأمر بالقراءة مخبراً عن نفسه بأنه الأكرم وهو الأفعال من الكرم وهو كثرة الخير ولا أحد أولى بذلك منه سبحانه فان الخير كله بيديه والخير كله منه والنعم كلها هو مولها والسكال كله والمجد كله له فهو الأكرم حقاً ثم ذكر تعليمه عموماً وخصوصاً . فقال الذى علم بالقلم فهذا يدخل فيه تعليم الملائكة والناس ثم ذكر تعليم الانسان خصوصاً . فقال (علم الانسان ما لم يعلم) فاشتملت هذه السكيات على أنه معطى الموجودات كلها بجميع أقسامها فان الوجود له مراتب أربعة احداها مراتبها الخارجية المدلول عليها بقوله خلق . المرتبة الثانية الذهنية المدلول عليها بقوله (علم الانسان ما لم يعلم) . المرتبة الثالثة والرابعة اللفظية والخطية فالخطية مصرح بها فى قوله الذى علم بالقلم واللفظية من لوازم التعليم بالقلم فان السكيات فى فرع النطق والنطق فرع التصور فاشتملت هذه السكيات على مراتب الوجود كلها وانه سبحانه هو معطيها بخلقها وتعليمه فهو الخالق المعلم وكل شىء فى الخارج فيخلقها وجد وكل علم فى الذهن فتعليمه حصل وكل لفظ فى اللسان أو خطى البنان فباقداره وخلقها وتعليمه وهذا من آيات قدرته وبراهين حكمته لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . والمقصود أنه سبحانه تعرف إلى عباده بما علمهم اياه بحكمته من الخط واللفظ والمعنى فكان العلم أحد الأدلة الدالة عليه بل من أعظمها وأظهرها وكفى بهذا شرفاً وفضلاً له . الوجه التاسع والثلاثون انه سبحانه سمي الحجة العلمية سلطاناً ، قال ابن عباس رضى الله عنه كل سلطان فى القرآن فهو حجة وهذا كقوله تعالى (قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغنى له ما فى السموات وما فى الأرض ان عندكم من سلطان بهذا أنقولون على الله

مالا تعلمون) يعنى ما عندكم من حجة بما قلتم ان هو الا قول على الله بلا علم ، وقال تعالى (ان هى الا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان) يعنى ما أنزل بها حجة ولا برهاناً بل هى من تلقاء أنفسكم وآبائكم ، وقال تعالى (أم لكم سلطان مبين فاتتوا بكتابتكم ان كنتم صادقين) يعنى حجة واضحة فاتتوا بها ان كنتم صادقين فى دعواكم إلا موضعاً واحداً اختلف فيه وهو قوله (ما أغنى عنى مالىة هلك عنى سلطانيه) فقيل المراد به القدرة والملك أى ذهب عنى مالى وملكى فلا مالى ولا سلطان وقيل هو على بابيه أى انقطعت حجتى وبطلت فلا حجة لى . والمقصود ان الله سبحانه سى علم الحجة سلطاناً لأنها توجب تسلط صاحبها واقتداره فله بها سلطان على الجاهلين بل سلطان العلم أعظم من سلطان اليد ولهذا ينقاد الناس للحجة مالا ينقادون لليد فان الحجة تنقاد لها القلوب وأما اليد فانما ينقاد لها البدن فالحجة تأسر القلب وتقوده وتذل المخالف وان أظهر العناد والمكابرة فقلبه خاضع لها ذليل مقهور تحت سلطانها بل سلطان الجاه ان لم يكن معه علم يساس به فهو بمنزلة سلطان السباع والاسود ونحوها قدرة بلا علم ولا رحمة بخلاف سلطان الحجة فانه قدرة بعلم ورحمة وحكمة ومن لم يكن له اقتدار فى علمه فهو اما لضعف حجته وسلطانه واما لقهر سلطان اليد والسيوف له والا فالحجة ناصرة نفسها ظاهرة على الباطل قاهرة له . الوجه الأربعون ان الله تعالى وصف أهل النار بالجهل وأخبر أنه سد عليهم طرق العلم فقال تعالى حكاية عنهم (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير فانتفروا بذنبيهم فسيحاً لأصحاب السعير) فاخبروا أنهم كانوا لا يسمعون ولا يعقلون والسمع والعقل هما أصل العلم وبهما يتال ، وقال تعالى (ولقد ذرأنا لجنهم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) فاخبر سبحانه أنهم لم يحصل لهم علم من جهة من جهات العلم الثلاث وهى العقل والسمع والبصر كما قال فى موضع آخر (صم بكم عمى فهم لا يعقلون) وقال تعالى (أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) وقال تعالى (وجعلناهم سمعا وأبصاراً وأفتدء فإ أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفتدءتهم من شىء اذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن) فقد وصف أهل الشقاء كآرى بعدم العلم وشبههم بالأنعام تارة وتارة بالخمار الذى يحمل الاسفار وتارة جعلهم أضل من الأنعام وتارة جعلهم شر الدواب عنده وتارة جعلهم أمواتا غير أحياء وتارة أخبر أنهم فى ظلمات الجهل والضلال وتارة أخبر أن على قلوبهم أكنة وفى آذانهم وقرا وعلى أبصارهم غشاوة وهذا كله يدل على قبح الجهل وذم أهله وبغضه لهم كما أنه يجب

أهل العلم ويمدحهم ويشي عليهم كما تقدم والله المستعان، الوجه الحادى والأربعون مافى الصحيحين من حديث معاوية رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين وهذا يدل على ان من لم يفقهه فى دينه لم يرد به خيرا كأن من أراد به خيرا فقهه فى دينه ومن فقهه فى دينه فقد أراد به خيرا إذا أريد بالفقه العلم المستلزم للعمل وأما ان أريد به مجرد العلم فلا يدل على ان من فقه فى الدين فقد أريد به خيرا فان الفقه حينئذ يكون شرطا لإرادة الخير وعلى الأول يكون موجبا والله اعلم . الوجه الثانى والأربعون مافى الصحيحين ايضا من حديث ابى موسى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت السكبال والعشب الكثير وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا وأصاب طائفة منها أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به شبهه صلى الله عليه وسلم العلم والهدى الذى جاء به بالغيث لما يحصل بكل واحد منهما من الحياة والنافع والأغذية والأدوية وسائر مصالح العباد فانها بالعلم والمطر وشبه القلوب بالأراضى التى يقع عليها المطر لأنها المحل الذى يمسك الماء فينبت سائر أنواع النبات النافع كما أن القلوب تعى العلم فيثمر فيها ويزكو وتظهر بركتته وثمرته ثم قسم الناس إلى ثلاثة أقسام بحسب قبولهم واستعدادهم لحفظه وفهم معانيه واستنباط أحكامه واستخراج حكمه وفوائده . أحدها أهل الحفظ والفهم الذين حفظوه وعقلوه وفهموا معانيه واستنبطوا وجوه الأحكام والحكم والفوائد منه فهؤلاء بمنزلة الأرض التى قبلت الماء وهذا بمنزلة الحفظ فأنبتت السكبال والعشب الكثير وهذا هو الفهم فيه والمعرفة والاستنباط فانه بمنزلة انبات الكلال والعشب بالماء فهذا مثل الحفاظ الفقهاء أهل الرواية والدراية . القسم الثانى أهل الحفظ الذين رزقوا حفظه ونقله وضبطه ولم يرزقوا تفقها فى معانيه ولا استنباطا ولا استخراجا لوجوه الحكم والفوائد منه فهم بمنزلة من يقرأ القرآن ويحفظه ويراعى حروفه وإعرابه ولم يرزق فيه فهما خاصا عن الله كما قال على بن أبى طالب رضى الله عنه لإفهما يؤتبه الله عبدا فى كتابه والناس متفاوتون فى الفهم عن الله ورسوله أعظم تفاوت فرب شخص يفهم من النص حكما أو حكماين ويفهم منه الآخر مائة أو مائتين فهؤلاء بمنزلة الأرض التى أمسكت الماء للناس فانتفعوا به هذا يشرب منه وهذا يسقى وهذا يزرع فهؤلاء القسيان هم السعداء والأولون أرفع درجة وأعلى قدرا (وذلك فضل الله يؤتبه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) القسم الثالث الذين لا نصيب لهم منه لاحفظاً ولا فهما ولا رواية ولا دراية بل هم بمنزلة

الأرض التي هي قيعان لا تنبت ولا تمسك الماء وهؤلاء هم الأشقياء والقسمان الأولان اشتركا في العلم والتعليم كل بحسب ما قبله ووصل اليه فهذا يعلم ألفاظ القرآن ويحفظها وهذا يعلم معانيه وأحكامه وعلومه والقسم الثالث لا علم ولا تعليم فهم الذين لم يرفعوا بهدى الله رأسا ولم يقبلوه وهؤلاء شر من الأنعام وهم وقود النار فقد اشتمل هذا الحديث الشريف العظيم على التنبيه على شرف العلم والتعليم وعظم موقعه وشقاء من ليس من أهله وذكر أقسام بنى آدم بالنسبة فيه إلى شقيهم وسعيدهم وتقسيم سعيدهم إلى سابق مقرب وصاحب يمين مقتصد وفيه دلالة على ان حاجة العباد إلى العلم كحاجتهم إلى المطر بل أعظم وانهم إذا فقدوا العلم فهم بمنزلة الأرض التي فقدت الغيث . قال الإمام أحمد الناس محتاجون إلى العلم أكثر من حاجتهم إلى الطعام والشراب لأن الطعام والشراب يحتاج اليه في اليوم مرة أو مرتين والعلم يحتاج اليه بعدد الأنفاس وقد قال تعالى (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا وما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل) شبه سبحانه العلم الذي أنزله على رسوله بالماء الذي أنزله من السماء لما يحصل لكل واحد منهما من الحياة ومصالح العباد في معاشهم ومعادهم ثم شبه القلوب بالأودية فقلب كبير يسع علما كثيرا كواد عظيم يسع ماء كثيرا وقلب صغير إنما يسع علما قليلا كواد صغير إنما يسع ماء قليلا . فقال (فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا) هذا مثل ضربه الله تعالى للعلم حين تحالط القلوب بشاشته فانه يستخرج منها زبد الشبهات الباطلة فيطفو على وجه القلب كما يستخرج السيل من الوادي زبدا يعلو فوق الماء وأخبر سبحانه أنه راب يطفو ويعلو على الماء لا يستقر في أرض الوادي كذلك الشبهات الباطلة إذا أخرجها العلم ربت فوق القلوب وطففت فلا تستقر فيه بل تجنى وترمى فيستقر في القلب ما ينفع صاحبه والناس من الهدى وذين الحق كما يستقر في الوادي الماء الصافي ويذهب الزبد جفاء وما يعقل عن الله أمثاله إلا العالمون ثم ضرب سبحانه لذلك مثلا آخر . فقال (وما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله) يعني أن ما يوقد عليه بنو آدم من الذهب والفضة والنحاس والحديد يخرج منه خبثه وهو الزبد الذي تلقىه النار وتخرجه من ذلك الجوهر بسبب مخالطتها فانه يقذف ويلقى به ويستقر الجوهر الخالص وحده وضرب سبحانه مثلا بالماء لما فيه من الحياة والتبريد والمنفعة ومثلا بالنار لما فيها من الإضاءة والاشراق والاحراق فأيات القرآن تحي القلوب كما تحيا الأرض بالماء وتحرق خبثها وشبهاتها وشهواتها وسخاؤها كما تحرق النار ما يلقي فيها وتميز جيدها من زبدها كما تميز النار الخبث من الذهب والفضة والنحاس ونحوه منه . فهذا بعض ما في هذا المثل العظيم من العبر والعلم . قال الله تعالى (وتلك

الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) الوجه الثالث والأربعون مافي الصحيحين أيضاً من حديث سهل بن سعد رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعلى رضى الله عنه لأن يهدى الله بك رجلا واحداً خيراً لك من حمر النعم وهذا يدل على فضل العلم والتعالم وشرف منزلة أهله بحيث إذا اهتدى رجل واحد بالعالم كان ذلك خيراً له من حمر النعم وهي خيارها وأشرفها عند أهلها فما الظن بمن يهتدى به كل يوم طوائف من الناس . الوجه الرابع والأربعون ماروى مسلم فى صحيحه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الأثم مثل آثم من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً . أخبر صلى الله عليه وسلم أن المتسبب إلى الهدى بدعوته له مثل أجر من اهتدى به . والمتسبب إلى الضلالة بدعوته عليه مثل إثم من ضل به لأن هذا بذل قدرته فى هداية الناس وهذا بذل قدرته فى ضلالتهم فنزل كل واحد منهما بمنزلة الفاعل التام وهذه قاعدة الشريعة كما هو مذکور فى غير هذا الموضع . قال تعالى (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون) وقال تعالى (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم) وهذا يدل على ان من دعا الأمة إلى غير سنة رسول الله ﷺ فهو عدوه حقاً لأنه قطع وصول أجر من اهتدى بسنته اليه وهذا من أعظم معاداته نعوذ بالله من الخذلان الوجه الخامس والأربعون ماخرجا فى الصحيحين من حديث ابن مسعود رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ لاحسد إلا فى اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها . فاخبر صلى الله عليه وسلم أنه لا ينبغي لأحد أن يحسد أحداً يعنى حسد غبطة ويتمنى مثل حاله من غير أن يتمنى زوال نعمة الله عنه إلا فى واحدة من هاتين الخصلتين وهى الإحسان إلى الناس بعلمه أو بماله . وما عدا هذين فلا ينبغي غبطته ولا تمنى مثل حاله لقلته منفعة الناس به . الوجه السادس والأربعون قال الترمذى حدثنا محمد بن عبد الأعلى حدثنا سلمة بن رجاء حدثنا الوليد بن حميد حدثنا القاسم عن أبى أمامة الباهلى قال ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم رجلان أحدهما عالم والآخر عابد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فضلهما على العابد كفضلى على أدناكم ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة فى جحرها وحتى الحوت فى البحر ليصلون على معلمى الناس الخير . قال الترمذى هذا حديث حسن غريب سمعت أبا عمار الحسين ابن حريث الخزاعى . قال سمعت الفضيل بن عياض يقول عالم عامل معلم يدعى كبيراً فى ملكوت السموات وهذا مروى عن الصحابة قال ابن عباس علماء هذه الأمة رجلا ن فرجل أعطاه الله علماً

فبذله للناس ولم يأخذ عليه صفدا ولم يشتر به ثمنا أو لثك يصلح عليهم طير السماء وحياتان البحر ودواب الأرض والكرام الكاتبون ورجل آناه الله علما فضن به عن عباده وأخذ به صفدا واشترى به ثمنا فذلك يأتي يوم القيامة يلجم بلجام من نار ذكره ابن عبد البر مرفوعا وفي رفعه نظر . وقوله ان الله وملائكته وأهل السموات والأرض يصلون على معلم الناس الخير لما كان تعليمه للناس الخير سببا لنجاتهم وسعادتهم وزكاة نفوسهم جازاه الله من جنس عمله بان جعل عليه من صلواته وصلاة ملائكته وأهل الأرض ما يكون سببا لنجاته وسعادته وفلاحه . وأيضا فان معلم الناس الخير لما كان مظهرا لدين الرب وأحكامه ومعرفا لهم بأسمائه وصفاته جعل الله من صلواته وصلاة أهل سمواته وأرضه عليه ما يكون تنويها به وتشريفا له وإظهارا للشناء عليه بين أهل السماء والأرض . الوجه السابع والاربعون مارواه أبو داود والترمذي من حديث أبي الدرداء رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول من سلك طريقا يريدنى فيه علما سلك الله به طريقا إلى الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم وإن العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض حتى الحيتان فى الماء وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب إن العلماء ورثة الأنبياء إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر . وقد رواه الوليد بن مسلم عن خالد بن يزيد عن عثمان ابن أيمن عن أبي الدرداء قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من غدا العلم يتعلمه فتح الله له به طريقا إلى الجنة وفرشت له الملائكة اكتافها وصلت عليه ملائكة السماء وحياتان البحر وللعالم من الفضل على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب والعلماء ورثة الأنبياء إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما إنما ورثوا العلم فمن أخذ بالعلم أخذ بحظ وافر وموت العالم مصيبة لا تجبر وثلة لا تسد ونجم طمس وموت قبيلة أيسر من موت عالم وهذا حديث حسن والطريق التى يسلكها إلى الجنة جزاء على سلوكه فى الدنيا طريق العلم الموصلة إلى رضا ربه ووضع الملائكة أجنحتها له تواضعا له وتوقيرا وإكراما لما يحمله من ميراث النبوة ويطلبه وهو يدل على المحبة والتعظيم فمن حمية الملائكة له وتعظيمه تضع أجنحتها له لأنه طالب لما به حياة العالم ونجاته ففيه شبهة من الملائكة وبينه وبينهم تناسب فان الملائكة أنصح خلق الله وأنفعهم لبنى آدم وعلى أيديهم حصل لهم كل سعادة وعلم وهدى . ومن نفعهم لبنى آدم ونصحهم أنهم يستغفرون لمسيئتهم ويثنون على مؤمنينهم ويعينونهم على أعدائهم من الشياطين ويحرضون على مصالح العبد أضعاف حرصه على مصلحة نفسه بل يريدون له من خير الدنيا والآخرة ما لا يريد العبد ولا يخطر بباله . كما قال بعض التابعين وجدنا الملائكة أنصح خلق الله لعباده ووجدنا الشياطين أغش الخلق للعباد . وقال تعالى (الذين يحملون

العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صالح من آباؤهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم) فإي نصيح للعباد مثل هذا إلا نصيح الأنبياء فإذا طلب العبد العلم فقد سعى في أعظم ما ينصح به عباد الله فلذلك تحبه الملائكة وتعظمه حتى تضع أجنحتها له وضاً ومحبة وتعظيماً . وقال أبو حاتم الرازي سمعت ابن أبي أويس يقول سمعت مالك بن أنس يقول معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم تضع أجنحتها يعني تبسطها بالدعاء لطالب العلم بدلا من الأيدي وقال أحمد بن مروان المالكي في كتاب المجالسة له حدثنا زكريا بن عبد الرحمن البصرى . قال سمعت أحمد بن شعيب يقول كنا عند بعض المحدثين بالبصرة فحدثنا بحديث النبي صلى الله عليه وسلم ان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم وفي المجلس معنا رجل من المعتزلة فجعل يستهزئ بالحديث فقال والله لأطرقن غدا نعلى بمسامير فأطأ بها أجنحة الملائكة ففعل ومشى في الثعابين فحفت رجلاه جميعاً ووقعت فيهما الأكلة . وقال الطبراني سمعت أبا يحيى زكريا بن يحيى الساجي . قال كنا نمشى في بعض أزقة البصرة إلى باب بعض المحدثين فاسرعنا المشى وكان معنا رجل ماجن منهم في دينه فقال ارفعوا أرجلكم عن أجنحة الملائكة لا تكسروها كالمستهزئ . فإزال من موضعه حتى جفت رجلاه وسقط . وفي السنن والمسانيد من حديث صفوان بن عسال . قال قلت يا رسول الله انى جئت أطلب العلم قال مرحباً بطالب العلم إن طالب العلم لتتحف به الملائكة وتظله بأجنحتها فيركب بعضهم بعضاً حتى تبلغ السماء الدنيا من حينها لما يطلب . وذكر حديث المسح على الخفين . قال أبو عبد الله الحاكم اسناده صحيح . وقال ابن عبد البر هو حديث صحيح حسن ثابت محفوظ مرفوع ومثله لا يقال بالرأى ففي هذا الحديث حف الملائكة له بأجنحتها إلى السماء وفي الأول وضعها أجنحتها له فالوضع تواضع وتوقير وتبجيل والحف بالأجنحة حفظ وحماية وصيانة فيضمن الحديثان تعظيم الملائكة له وحبها إياه وحياطته وحفظه فلولا يكن لطالب العلم إلا هذا الحظ الجزيل لسكنى به شرفاً وفضلاً . وقوله صلى الله عليه وسلم إن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء فانه لما كان العالم سبباً في حصول العلم الذى به نجات النفوس من أنواع المهلكات وكان سعيه مقصوراً على هذا وكانت نجات العباد على يديه جوزى من جنس عمله وجعل من في السموات والأرض ساعياً في نجاته من أسباب المهلكات باستغفارهم له وإذا كانت الملائكة تستغفر للؤمنين فكيف لا تستغفر لخاصتهم وخلصتهم . وقد قيل ان من في السموات ومن في الأرض المستغفرين

للعالم عام في الحيوانات ناطقها وبهيمها طيرها وغيره ويؤكد هذا قوله حتى الحيتان في الماء وحتى النملة في جحرها . فقبل سبب هذا الاستغفار أن العالم يعلم الخلق مراعاة هذه الحيوانات ويعرفهم ما يحل منها وما يحرم ويعرفهم كيفية تناولها واستخدامها وركوبها والانتفاع بها وكيفية ذبحها على أحسن الوجوه وارفقتها بالحيوان والعالم أشفق الناس على الحيوان وأقومهم ببيان ما خلق له وبالجملة فالرحمة والإحسان التي خلق بهما ولهما الحيوان وكتب لهما حظهما منه إنما يعرف بالعلم فالعالم معرف لذلك فاستحق أن تستغفر له البهائم والله أعلم . وقوله وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب تشبيهه مطابق لحال القمر والكواكب فان القمر يضيء الآفاق ويمتد نور في أقطار العالم وهذه حال العالم . وأما الكواكب فنوره لا يجاوز نفسه أو ما قرب منه وهذه حال العابد الذي يضيء نور عبادته عليه دون غيره وان جاوز نور عبادته غيره فانما يجاوزه غير بعيد كما يجاوز ضوء الكواكب له مجاوزة يسيرة ومن هذا الأثر المروى إذا كان يوم القيامة يقول الله للعابد أدخل الجنة فإنما كانت منفعتك لنفسك ويقال للعالم اشفع تشفع فإنما كانت منفعتك للناس . وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما إذا كان يوم القيامة يؤتى بالعابد والفقير فيقال للعابد ادخل الجنة ويقال للفقير اشفع تشفع وفي التشبيه المذكور لطيفة أخرى وهو أن الجهل كالليل في ظلمته وحنسده والعلماء والعباد بمنزلة القمر والكواكب الطالعة في تلك الظلمة وفضل نور العالم فيها على نور العابد كفضل نور القمر على الكواكب . وأيضا فالدين قوامه وزينته وإضاءته بعبادته وعباده فاذا ذهب علمه وعباده ذهب الدين كما أن السماء إضاءتها وزينتها بقمرها وكواكبها فاذا خسفت قمرها وانثرت كواكبها أناها ما توعد وفضل علماء الدين على العباد كفضل ما بين القمر والكواكب . فان قيل كيف وقع تشبيه العالم بالقمر دون الشمس وهي أعظم نوراً . قيل فيه فائدتان . إحداهما أن نور القمر لما كان مستفاداً من غيره كان تشبيه العالم الذي نوره مستفاد من شمس الرسالة بالقمر أولى من تشبيهه بالشمس الثانية أن الشمس لا يختلف حالها في نورها ولا يلحقها محاق ولا تفاوت في الإضاءة . وأما القمر فانه يقل نوره ويكثر ويمتليء وينتص كما أن العلماء في العلم على مراتبهم من كثرتهم وقلته فيفضل كل منهم في علمه بحسب كثرتهم وقلته وظهوره وخفائه كما يكون القمر كذلك فعالم كالقدر ليلة تمه وآخر دونه بليلة وثانية وثالثة وما بعدها إلى آخر مراتبه وهم درجات عند الله فان قيل تشبيه العلماء بالنجوم أمر معلوم كقوله صلى الله عليه وسلم: أصحابي كالنجوم ولهذا هي في تعبير الرؤيا عبارة عن العلماء فكيف وقع تشبيههم هنا بالقمر . قيل أما تشبيه العلماء بالنجوم فان النجوم يهتدى بها في ظلمات البر والبحر وكذلك العلماء . والنجوم زينة السماء . (٥ - مفتاح ١)

فكذلك العلماء زينة للأرض . وهي رجوم للشياطين حائلة بينهم وبين استراق السمع لئلا يلبسوا بما يسترقونه من الوحي الوارد إلى الرسل من الله على أيدي ملائكته وكذلك العلماء رجوم للشياطين الانس والجن الذي يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً فالعلماء رجوم لهذا الصنف من الشياطين ولولاهم لطمست معالم الدين بتلبيس المضلين . ولكن الله سبحانه أقامهم حراساً وحفظة لدينه ورجوماً لأعدائه وأعداء رسله فهذا وجه تشبيههم بالنجوم وأما تشبيههم بالقمر فذلك كان في مقام تفضيلهم على أهل العبادة المجردة وموازنة ما بينهما من الفضل والمعنى أنهم يفضلون العباد الذين ليسوا بعلماء كما يفضل القمر سائر الكواكب فشكل من التشبيهين لا ئى بموضعه والحمد لله . وقوله أن العلماء ورثة الأنبياء هذا من أعظم المناقب لأهل العلم فإن الأنبياء خير خلق الله فورثتهم خير الخلق بعدهم . ولما كان كل موروث ينتقل ميراثه إلى ورثته اذهم الذين يقومون مقامه من بعده ولم يكن بعد الرسل من يقوم مقامهم في تبليغ ما أرسلوا به إلا العلماء كانوا أحق الناس بميراثهم . وفي هذا تنبيه على أنهم أقرب الناس إليهم فإن الميراث إنما يكون لأقرب الناس إلى الموروث وهذا كما أنه ثابت في ميراث الدينار والدرهم فكذلك هو في ميراث النبوة والله يختص برحمته من يشاء وفيه أيضاً ارشاد وأمر للامة بطاعتهم واحترامهم وتعزيزهم وتوقيرهم واجلالهم فانهم ورثة من هذه بعض حقوقهم على الأمة وخلفائهم فيهم . وفيه تنبيه على أن محبتهم من الدين وبغضهم مناف للدين كما هو ثابت لموروثهم وكذلك معاداتهم ومحاربتهم معاداة ومحاربة لله كما هو في موروثهم . قال على كرم الله وجهه ورضى عنه حجة العلماء دين يدان به . وقال صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن ربه عز وجل : من عادى لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة وورثته الأنبياء سادات أولياء الله عز وجل وفيه تنبيه للعلماء على سلوك هدى الأنبياء وطريقهم في التبليغ من الصبر والاحتمال ومقابلة إساءة الناس إليهم بالاحسان والرفق بهم واستجلابهم إلى الله باحسن الطرق وبذل ما يمكن من النصيحة لهم فإنه بذلك يحصل لهم نصيبهم من هذا الميراث العظيم قدره الجليل خطره . وفيه أيضاً تنبيه لأهل العلم على تربية الأمة كما يربى الوالد ولده فيربونهم بالتدريج والترقى من صغار العلم إلى كباره ونحميلهم منه ما يطيقون كما يفعل الأب بولده الطفل في إيصال الغذاء إليه فإن أرواح البشر بالنسبة إلى الأنبياء والرسل كالأطفال بالنسبة إلى آباؤهم بل دون هذه النسبة بكثير ولهذا كل روح لم تربها الرسل لم تفلح ولم تصلح لصالحة كما قيل .

ومن لا يربيه الرسول ويسقه لباناله قد در من ندى قدسه
فذلك لقيط ماله نسبة الولا ولا يتعدى طور انشاء جنسه
وقوله أن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهما إنما ورثوا العلم هذا من كمال الأنبياء وعظم

تصحهم للامم وتمام نعمة الله عليهم وعلى أممهم أن أزاح جميع العلل وحسم جميع المواد التي
توهم بعض النفوس أن الأنبياء من وجنس الملوك الذين يريدون الدنيا وما كبرها فخماهم الله سبحانه
وتهالى من ذلك أتم الحماية . ثم لما كان الغالب على الناس أن أحدهم يريد الدنيا لولده من بعده
ويسعى ويتعب ويحرم نفسه لولده سد هذه الذريعة عن أنبيائه ورسله وقطع هذا الوهم الذي عساه
أن يخاطب كثيراً من النفوس التي تقول فلعله ان لم يطب الدنيا لنفسه فهو يحصلها لولده فقال
صلى الله عليه وسلم : نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركنا فهو صدقة فلم تورث الأنبياء دينارا ولا درهما
ولما ورثوا العلم . وأما قوله تعالى وورث سليمان داود فهو ميراث العلم والنبوة لا غير . وهذا با اتفاق
أهل العلم من المفسرين غيرهم وهذا لأن داود عليه السلام كان له أولاد كثيرة سوى سليمان فلو كان
الموروث هو المال لم يكن سليمان مختصا به . وأيضاً فإن كلام الله يسان عن الأخبار بمثل هذا فإنه بمنزلة
أن يقال مات فلان وورثه ابنه . ومن المعلوم ان كل أحد يرثه ابنه وليس في الأخبار بمثل
هذا فائدة . وأيضاً فإن ما قبل الآية وما بعدها يبين أن المراد بهذه الوراثة وراثة العلم والنبوة
لا وراثة المال . قال تعالى (ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالوا الحمد لله الذي فضلنا على كثير
من عباده المؤمنين وورث سليمان داود) وإنما سيق هذا لبيان فضل سليمان وما خصه الله
به من كرامته وميراثه ما كان لأبيه من أعلى المواهب وهو العلم والنبوة (ان هذا هو الفضل
المبين) . وكذلك قول زكريا عليه الصلاة والسلام (وإنى خفت الموالى من ورأى وكانت
امرأتى عاقراً فهب لى من لدنك ولياً يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً) فهذا
ميراث العلم والنبوة والدعوة إلى الله وإلا فلا يظن بنبي كريم أنه يخاف عصبته أن يرثه ماله
فيسأل الله العظيم ولداً يمنعهم ميراثه ويكون أحق به منهم وقد نزه الله أنبياءه ورسله عن
هذا وأمثاله فبعداً لمن حرف كتاب الله ورد على رسوله كلامه ونسب الأنبياء إلى ما هم برآء
منزهون عنه والحمد لله على توفيقه وهدايته . ويذكر عن أبي هريرة رضى الله عنه أنه مر
بالسوق فوجدهم في تجاراتهم ويبيعاتهم فقال أتم ههنا فيما أتم فيه وميراث رسول الله صلى الله
يقسم في مسجده فقاموا سراغاً إلى المسجد فلم يجدوا فيه إلا القرآن والذكر وبجاس العلم
فقالوا أين ما قلت يا أبا هريرة . فقال هذا ميراث محمد صلى الله عليه وسلم يقسم بين ورثته وليس بموارثكم
ودنياكم أو كما قال . ونوله فن أخذه وأخذ بحظ وافر أعظم الحظوظ وأجداها ما نفع العبد
ودام نفعه له وليس هذا إلا حظه من العلم والدين فهو الحظ الدائم النافع الذى إذا انقطعت
الحظوظ لأربابها فهو موصول له أبد الأبدين وذلك لأنه موصول بالحى الذى لا يموت فلذلك
لا ينقطع ولا يفوت وسائر الحظوظ تعدم وتلاشى بتلاشى متعلقاتها كما قال تعالى (وقدمنا إلى
ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً) فإن الغاية لما كانت منقطعة زائلة تبعها أعمالهم فانقطعت

عنهم أخرج ما يكون العامل إلى عمله وهذه هي المصيبة التي لا تجبر عياداً بالله واستعانة به وافتقاراً وتوكلاً عليه ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وقوله موت العالم مصيبة لا تجبر وثلة لا تسد ونجم طمس وموت قبيلة أيسر من موت عالم لما كان صلاح الوجود بالعلماء ولولا هم كان الناس كالبهائم بل أسوأ حالا كان موت العالم مصيبة لا يجبرها إلا خلف غيره له . وأيضاً فإن العلماء هم الذين يسوسون العباد والبلاد والممالك فوهم فساد انظام العالم ولهذا لا يزال الله يغرس في هذا الدين منهم خالفاً عن سالف يحفظ بهم دينه وكتابه وعباده وتأمّل إذا كان في الوجود رجل قد فاق العالم في الغنى والكرم وحاجتهم إلى ما عنده شديدة وهو محسن إليهم بكل ممكن ثم مات وانقطعت عنهم تلك المادة فموت العالم أعظم مصيبة من موت مثل هذا بكثير ومثل هذا يموت بموته أمم وخلائق كما قيل :

تعلم ما الرزية فقد مال ولا شاة تموت ولا بعير
ولكن الرزية فقد حر يموت بموته بشر كثير

وقال آخر

فما كان قيس هاسكه هلك واحد ولكننه بنيان قوم تهـدما

والوجه الثامن والأربعون ماروى الترمذى من حديث الوليد بن مسلم حدثنا روح بن جناح عن مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ : فقيه أشد على الشيطان من ألف عابد . قال الترمذى غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث الوليد بن مسلم قلت قد رواه أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي اليقطينى حدثنا عمر بن سعيد بن سنان حدثنا هشام بن عمار حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا روح بن جناح عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال الخطيب والأول هو المحفوظ عن روح مجاهد عن ابن عباس وما أرى الوهم وقع في هذا الحديث إلا من أبي جعفر لأن عمر بن سنان عنده عن هشام بن عمار عن الوليد عن روح عن الزهرى عن سعيد حديث في السماء بيت يقال له البيت المعمور حيال الكعبة وحديث ابن عباس كانا في كتاب ابن سنان عن هشام يتلو أحدهما الآخر فكتبت أبو جعفر أسناد حديث أبي هريرة رضى الله عنه ثم عارضه لسهو أوزاع نظره فنزل إلى متن حديث ابن عباس فركب متن هذا على اسناد هذا وكل واحد منهما ثقة مأمون برى من تعمد الغلط وقد رواه أبو أحمد بن عدى عن محمد بن سعيد بن مهران حدثنا شيبان أبو الربيع السمان عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل شيء دعامة ودعامة الإسلام الفقه في الدين والفقيه أشد على الشيطان من ألف

عابد ولهذا الحديث علة وهو أنه روى من كلام أبي هريرة وهو أشبهه رواه همام بن يحيى حدثنا يزيد بن عياض حدثنا صفوان بن سليم عن سليمان عن يسار عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما عبد الله بشيء أفضل من فقهه فى الدين قال وقال أبو هريرة لأن أفته ساعة أحب إلى من أن أحيى ليلة أصلها حتى أصبح والفقير أشد على الشيطان من ألف عابد ولكل شىء دعامة ودعامة الدين الفقه . وقد روى بإسناد فيه من لا يحتج به من حديث عاصم بن أبى النجود عن زر بن حبیش عن عمر بن الخطاب يرفعه ان الفقيه أشد على الشيطان من ألف ورع وألف مجتهد وألف متعبد . وقال المزنى روى عن ابن عباس أنه قال ان الشياطين قالوا لإبليس ياسيدنا مالنا نراك تفرح بموت العالم ما لا تفرح بموت العابد والعالم لا نصيب منه والعابد نصيب منه قال انطلقوا فانطلقوا إلى عابد فأتوه فى عبادته فقالوا إنا نريد أن نسألك فانصرت فقال إبليس هل يقدر ربك أن يجعل الدنيا فى جوف بيضة فقال لا أدرى فقال أترونه كفر فى ساعة ثم جاؤا إلى عالم فى حلقته يضحك أصحابه ويحذثهم فقالوا إنا نريد أن نسألك فقال سل فقال هل يقدر ربك أن يجعل الدنيا فى جوف بيضة قال نعم قالوا كيف قال يقول كن فيكون فقال أترون ذلك لا يعدو نفسه وهذا يفسد على عالم كثيراً . وقد رويت هذه الحكاية على وجه آخر وإني سألت العابد فقالوا هل يقدر ربك أن يخلق مثل نفسه فقال لا أدرى فقال أترونه لم تنفعه عبادته مع جهله وسألوا عن ذلك فقال هذه المسئلة محال لأنه لو كان مثله لم يكن مخلوقاً فكونه مخلوقاً وهو مثل نفسه مستحيل فإذا كان مخلوقاً لم يكن مثله بل كان عبداً من عبده وخلقاً من خلقه فقال أترون هذا يهدم فى ساعة ما أبنيه فى سنين أو كما قال . وروى عن عبد الله بن عمرو فضل العالم على العابد سبعين درجة بين كل درجتين حضر الفرس سبعين عاماً وذلك أن الشيطان يضع البدعة فيبصرها العالم وينهى عنها والعابد مقبل على عبادة ربه لا يتوجه لها ولا يعرفها وهذا معناه صحيح فإن العالم يفسد على الشيطان ما يسعى فيه ويهدم ما يبنيه فكل ما أراد إحياء بدعة وإماتة سنة حال العالم بينه وبين ذلك فلا شىء أشد عليه من بقاء العالم بين ظهرانى الأمة ولا شىء أحب إليه من زواله من بين أظهرهم ليتمكن من إفساد الدين وإغواء الأمة . وأما العابد فعليه أن يجاهده ليسلم منه فى خاصة نفسه وهيات له ذلك . الوجه التاسع والأربعون ما روى الترمذى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالم ومعلم . قال الترمذى هذا حديث حسن . ولما كانت الدنيا حقيرة عند الله لا تساوى لديه جناح بعوضة كانت وما فيها فى غاية البعد منه وهذا هو حقيقة اللعنة وهو سبحانه إنما خلقها مزعة للأخرة ومعبراً إليها يتزود منها عباده إليه فلم يكن يقرب منها إلا ما كان متضمناً

لإقامة ذكره ومفضيا إلى محابه وهو العلم الذى به يعرف الله ويعبد ويذكر ويثنى عليه ويمجده ولهذا خلقها وخلق أهلها . كما قال تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) . وقال (الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وإن الله قد أحاط بكل شيء علماً) فتضمنت هاتان الآيتان أنه سبحانه إنما خلق السموات والأرض وما بينهما ليعرف بأسمائه وصفاته وليعبد فهذا المطلوب وما كان طريقاً إليه من العلم والتعلم فهو المستثنى من اللعنة واللعنة واقعة على ما عداه إذ هو بعيد عن الله وعن محابه وعن دينه وهذا هو متعلق العقاب فى الآخرة فانه كما كان متعلق اللعنة التى تتضمن الذم والبغض فهو متعلق العقاب والله سبحانه إنما يحب من عباده ذكره وعبادته ومعرفته ومحبته ولوازم ذلك وما أفضى إليه . وما عداه فهو مبعوض له مذموم عنده . الوجه الحسنون مارواه الترمذى من حديث أبي جعفر الرازى عن الربيع بن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع . قال الترمذى هذا حديث حسن غريب رواه بعضهم فلم يرفعه وإنما جعل طلب العلم من سبيل الله لأن به قوام الإسلام كما أن قوامه بالجهاد فقوام الدين بالعلم والجهاد ولهذا كان الجهاد نوعين جهاد باليد والسنان وهذا المشارك فيه كثير والثانى الجهاد بالحجة والبيان وهذا جهاد الخاصة من اتباع الرسل وهو جهاد الأئمة وهو أفضل الجهادين اعظم منفعته وشدة مؤنته وكثرة أعدائه . قال تعالى فى سورة الفرقان وهى مكية (ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيراً فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا) فهذا جهاد لهم بالقرآن وهو أكبر الجهادين وهو جهاد المنافقين أيضاً فإن المنافقين لم يكونوا يقاتلون المسلمين بل كانوا معهم فى الظاهر وربما كانوا يقاتلون عدوهم معهم ومع هذا . فقد قال تعالى (يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) ومعلوم أن جهاد المنافقين بالحجة والقرآن . والمقصود أن سبيل الله هى الجهاد وطلب العلم ودعوة الخلق به الى الله . ولهذا قال معاذ رضى الله عنه عليكم بطلب العلم فإن تعلمه لله خشية ومدارسته عبادة ومذاكرته تسبيح والبحث عنه جهاد ولهذا قرن سبحانه بين الكتاب المنزل والحديد الناصر . كما قال تعالى (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزأنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز) فذكر الكتاب والحديد إذ بهما قوام الدين كما قيل :

فما هو إلا الوحى أوحد مرهف تميل ظباه أخذعاً كل مايل

فهذا شفاء الداء من كل عاقل وهذا دواء الداء من كل جاهل

ولما كان كل من الجهاد بالسيف والحجة يسمى سبيل الله فسر الصحابة رضى الله عنهم

قوله (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) بالأمراء والعلماء فإنهم المجاهدون في سبيل الله هؤلاء بأيديهم وهؤلاء بألسنتهم فطلب العلم وتعليمه من أعظم سبيل الله عز وجل . قال كعب الأحبار طالب العلم كالغادي الراجح في سبيل الله عز وجل . وجاء عن بعض الصحابة رضی الله عنهم إذا جاء الموت طالب العلم وهو على هذه الحال مات وهو شهيد وقال سفیان بن عيينة من طلب العلم فقد بايع الله عز وجل . وقال أبو الدرداء من رأى الغدو والروح إلى العالم ليس بجهاد فقد نقص في عقله ورأيه ، الوجه الحادى والخسوس ما رواه الترمذی حدثنا محمود بن غيلان حدثنا أبو أسامة عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة ، قال الترمذی هذا حديث حسن قال بعضهم ولم يقل في هذا الحديث صحيح لأنه يقال داس الأعمش في هذا الحديث لأنه رواه بعضهم فقال حدثت عن أبي صالح والحديث رواه مسلم في صحيحه من أوجه عن الأعمش عن أبي صالح قال الحاكم في المستدرک هو صحيح على شرط البخارى ومسلم رواه عن الأعمش جماعة منهم زائدة وأبو معاوية وابن نمير وقد تقدم حديث أبي الدرداء في ذلك والحديث محفوظ وله أصل وقد تظاهر الشرع والقدر على أن الجزاء من جنس العمل فكما سلك طريقاً يطلب فيه حياة قلبه ونجاته من الهلاك سلك الله به طريقاً يحصل له ذلك . وقد روى من حديث عائشة رواه ابن عدى من حديث محمد بن عبد الملك الانصارى عن الزهرى عن عروة عنها مرفوعاً ولفظه أوحى الله إلى أنه من سلك مسلكاً يطلب العلم سهلت له طريقاً إلى الجنة الوجه الثانى الخسوس أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا لمن سمع كلامه ووعاه وبلغه بالنضرة وهى البهجة ونضارة الوجه وتحسينه فى الترمذى وغيره من حديث ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال نضر الله أمراً سمع مقالتي فوعاها وحفظها وبلغها فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم لإخلاص العمل لله ومناصحة أئمة المسلمين ولزوم جماعتهم فإن دعوتهم تحيط من ورائهم وروى هذا الاصل عن النبي صلى الله عليه وسلم ابن مسعود ومعاذ بن جبل وأبو الدرداء وجبير بن مطعم وأنس بن مالك وزيد بن ثابت والنعمان بن بشير قال الترمذى حديث ابن مسعود حديث حسن صحيح وحديث زيد بن ثابت حديث حسن وأخرج الحاكم في صحيحه حديث جبير بن مطعم والنعمان بن بشير وقال في حديث جبير على شرط البخارى ومسلم ولولم يكن في فضل العلم الا هذا وحده لكتفى به شرفاً فإن النبي صلى الله عليه وسلم دعا لمن سمع كلامه ووعاه وحفظه وبلغه وهذه هى مراتب العلم . أولها وتانيها سماعه وعقله فاذا سمعه وعاه بقلبه أى عقله واستقر في قلبه كما يستقر الشيء الذى يوعى في وعائه ولا يخرج منه

وكذلك عقله هو بمنزلة عقل البعير والدابة ونحوها حتى لا تشرذم وتذهب ولهذا كان الوعي والعقل قدراً زائداً على مجرد إدراك المعلوم . المرتبة الثالثة تعامده وحفظه حتى لا ينسأه فيذهب . المرتبة الرابعة تبليغه وبثه في الأمة ليحصل به ثمرته ومقصوده وهو بثه في الأمة فهو بمنزلة الكميخ المدفون في الأرض الذي لا ينفق منه وهو معرض لنهاهه فإن العلم مالم ينفق منه ويعلم فإنه يوشك أن يذهب فإذا أنفق منه نما وزكا على الانفاق فمن قام بهذه المراتب الأربع دخل تحت هذه الدعوة النبوية المتضمنة لجمال الظاهر والباطن فإن النضرة هي الهجة والحسن الذي يكساه الوجه من آثار الإيمان وابتهاج الباطن به وفرح القلب وسروره والتناذه به فتظهر هذه الهجة والسرور والفرحة نصارة على الوجه ولهذا يجمع له سبحانه بين الهجة والسرور والنضرة . كما في قوله تعالى (فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً فالنضرة في وجوههم والسرور في قلوبهم فالنعيم وطيب القلب يظهر نصارة في الوجه . كما قال تعالى (تعرف في وجوههم نضرة النعيم) ، والمقصود أن هذه النضرة في وجهه من سمع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ووعاها وحفظها وبلغها فبى أثر تلك الخلاوة والهجة والسرور الذى فى قلبه وباطنه . وقوله صلى الله عليه وسلم رب حامل فقهه إلى من هو أفقه منه تنبيهه على فائدة التبليغ وإن المبلغ قد يكون أفهم من المبلغ فيحصل له فى تلك المقالة مالم يحصل للبليغ أو يكون المعنى أن المبلغ قد يكون أفقه من المبلغ فإذا سمع تلك المقالة حملها على أحسن وجوهها واستنبط فقهها وعلم المراد منها . وقوله صلى الله عليه وسلم ثلاث لا يغفل عليهن قلب مسلم إلى آخره أى لا يحمل الغل ولا يبقى فيه مع هذه الثلاثة فإنها تنفى الغل والغش وهو فساد القلب وسخايمه فالخلص لله لإخلاصه يمنع غل قلبه ويخرجه وينيله جملة لأنه قد انصرفت دواعى قلبه وإرادته إلى مرضاة ربه فلم يبق فيه موضع للغل والغش كما قال تعالى : (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين) فلما أخلص لربه صرف عنه دواعى السوء والفحشاء فانصرف عنه السوء والفحشاء . ولهذا لما علم إبليس أنه لا سبيل له على أهل الإخلاص استثناهم من شرطته التى اشترطها للغواية والإهلاك فقال (فبعتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين) قال تعالى (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين) فالإخلاص هو سبيل الخلاص والإسلام هو مركب السلامة والإيمان خاتم الأمان ، وقوله ومناصحة أئمة المسلمين هذا أيضاً منافع للغل والغش فإن النصيحة لا تجامع الغل إذ هى ضده فمن نصح الأئمة والأمة فتمد برىء من الغل . وقوله ولزوم جماعتهم هذا أيضاً مما يظهر القلب من الغل والغش فإن صاحبه للزومه جماعة المسلمين يجب لهم ما يجب لنفسه ويكره لهم ما يكره لها ويسوؤه ما يسوؤهم ويسره ما يسرهم وهذا بخلاف من انحاز عنهم واشتغل بالظعن

عليهم والعيب والذم لهم كنفعل الرافضة والخوارج والمعتزلة وغيرهم فان قلوبهم بمنزلة غلا وغشاً ولهذا تجدد الرافضة أبعد الناس من الإخلاص وأغشهم للأئمة والأمة وأشدهم بعداً عن جماعة المسلمين فهو لاء أشد الناس غلا وغشاً بشهادة الرسول والأمة عليهم وشهادتهم على أنفسهم بذلك فانهم لا يكونون قط إلا أعواناً وظهراً على أهل الإسلام فأى عدو قام للمسلمين كانوا أعوان ذلك العدو وبطائه وهذا أمر قد شاهدته الأمة منهم ومن لم يشاهد فقد سمع منه ما يصم الآذان ويشجى القلوب . وقوله فان دعوتهم تحيط من ورائهم هذا من أحسن الكلام وأوجزه وأنغمه معنى شبه دعوة المسلمين بالسور والسياس المحيطة بهم المانع من دخول عدوهم عليهم فبتلك الدعوة التي هي دعوة الإسلام وهم داخلونها لما كانت سوراً وسياساً عليهم أخبر أن من أزم جماعة المسلمين أحاطت به تلك الدعوة التي هي دعوة الإسلام كما أحاطت بهم فالدعوة تجمع شمل الأمة وتلم شعبتها وتحيط بها فمن دخل في جماعتها أحاطت به وشملته . الوجه الثالث والخمسون أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بتبليغ العلم عنه في الصحيحين من حديث عبد الله ابن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغوا عنى ولو آية وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار . وقال ليبلغ الشاهد منكم الغائب روى ذلك أبو بكره ووابصة بن معبد وعمار بن ياسر وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وأسماء بنت يزيد بن السكن وحجير وأبو قريع وسرى بنت نهران ومعاوية بن حيدة القشيرى وعم أبى حرة وغيرهم فأمر صلى الله عليه وسلم بالتبليغ عنه لما فى ذلك من حصول الهدى بالتبليغ وله صلى الله عليه وسلم أجر من بلغ عنه وأجر من قبل ذلك البلاغ وكلما كثر التبليغ عنه تضاعف له الثواب فله من الأجر بعدد كل مبلغ وكل مهتد بذلك البلاغ سوى ماله من أجر عمله المختص به فكل من هدى واهتدى بتبليغه فله أجره لأنه هو الداعى إليه ولو لم يكن فى تبليغ العلم عنه إلا حصول ما يحبه صلى الله عليه وسلم لكفى به فضلاً . وعلامة المحب الصادق أن يسعى فى حصول محبوب محبوبه ويبدل جهده وطاقته فيها . ومعلوم أنه لاشئ أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من إيصاله الهدى إلى جميع الأمة فالمبلغ عنه ساع فى حصول محابه فهو أقرب الناس منه وأحبهم إليه وهو نائبه وخليفته فى أمته وكفى بهذا فضلاً وشرفاً للعلم وأهله : الوجه الرابع والخمسون أن النبي صلى الله عليه وسلم قدم بالفضائل العلمية فى أعلا الولايات الدينية وأشرفها وقدم بالعلم بالأفضل على غيره . فروى مسلم فى صحيحه من حديث أبى مسعود البدرى عن النبي صلى الله عليه وسلم يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله فان كانوا فى القراءة سواء فأعلمهم بالسنة فان كانوا فى السنة سواء فأقدمهم لإسلاماً أو سنناً وذكر الحديث فقدم فى الإمامة تفضيله العلم على تقدم الإسلام والهجرة ، ولما كان

العلم بالقرآن أفضل من العلم بالسنة لشرف معلومه على معلوم السنة قدم العلم به ثم قدم العلم بالسنة على تقدم الهجرة وفيه من زيادة العمل ما هو متميز به لسكن إنما راعى التقديم بالعلم ثم بالعمل وراعى التقديم بالعلم بالأفضل على غيره وهذا يدل على شرف العلم وفضله وإن أهله هم أهل التقديم إلى المراتب الدينية . الوجه الخامس والخمسون ما ثبت في صحيح البخارى من حديث عثمان بن عفان رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال خيركم من تعلم القرآن وعلمه وتعلم القرآن وتعليمه يتناول تعلم حروفه وتعليمها وتعلم معانيه وتعليمها وهو أشرف قسمي علمه وتعليمه فإن المعنى هو المقصود واللفظ وسيلة إليه فتعلم المعنى وتعليمه تعلم الغاية وتعليمها وتعلم اللفظ المجرد وتعليمه تعلم الوسائل وتعليمها وبين الغايات والوسائل . الوجه السادس والخمسون ما رواه الترمذى وغيره في نسخة عمرو بن الحارث عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لن يشبع المؤمن من خير يسمعه حتى يكون مقتناه الجنة . قال الترمذى هذا حديث حسن غريب وهذه نسخة معروفة رواها الناس وساق أحمد في المستند أكثرها أو كثيراً منها ولهذا الحديث شواهد تجعل النبي صلى الله عليه وسلم النعمة في العلم وعدم الشبع منه من لوازم الإيمان وأوصاف المؤمنين وأخبر أن هذا لا يزال دأب المؤمن حتى دخوله الجنة ولهذا كان أئمة الإسلام إذا قيل لأحدهم إلى متى تطالب العلم فيقول إلى الممات . قال نعيم ابن حماد سمعت عبد الله بن المبارك رضى الله عنه يقول وقد عابه قوم في كثرة طلبه للحديث فقالوا له إلى متى تسمع قال إلى الممات . وقال الحسين بن منصور الجصاص قلت لأحمد بن حنبل رضى الله عنه إلى متى يكتب الرجل الحديث قال إلى الموت . وقال عبد الله بن محمد البغوى سمعت أحمد بن حنبل رضى الله عنه يقول إنما أطلب العلم إلى أن أدخل القبر . وقال محمد بن اسماعيل الصائغ كنت أصوغ مع أبي ببيغداد فر بنا أحمد بن حنبل وهو يعدو ونعلاه في يديه فأخذ ابى بمجامع ثوبه فقال يا أبا عبد الله ألا تستحى إلى متى تعدو مع هؤلاء قال إلى الموت . وقال عبد الله بن بشر الطالقانى أرجو أن يأتينى أمر اى والمحبرة بين يدي ولم يفارقنى العلم والمحبرة ، وقال حميد بن محمد بن يزيد البصرى جاء ابن بسطام الحافظ يسألنى عن الحديث فقلت له ما أشد حرصك على الحديث فقال أو ما أحب أن أكون فى قطار آل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل لبعض العلماء متى يحسن بالمرء أن يتعلم قال ما حسنت به الحياة وسئل الحسن عن الرجل له ثمانون سنة أيحسن أن يطلب العلم قال ان كان يحسن به أن يعيش . الوجه السابع والخمسون ما رواه الترمذى أيضاً من حديث ابراهيم بن الفضل عن الملقبرى عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الكلمة الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها . قال الترمذى هذا

حديث غريب لانعرفه الا من هذا الوجه وأبراهيم ابن الفضل المديني الخزومي يضعف في الحديث من قبل حفظه وهذا أيضاً شاهد لما تقدم وله شواهد والحكمة هي العلم فاذا فقدته المؤمن فهو بمنزلة من فقد ضالة نفيسة من نفائسه فاذا وجدها قر قلبه وفرحت نفسه بوجودها كذلك المؤمن إذا وجد ضالة قلبه وروحه التي هو دائماً في طابها ونشدانها والتفتيش عليها وهذا من أحسن الأمثلة فان قلب المؤمن يطاب العلم حيث وجده أعظم من طلب صاحب الضالة لها . الوجه الثامن والخمسون . قال الترمذي حدثنا أبو كريب حدثنا خلف بن أيوب عن عوف عن ابن سيرين عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم خصننا ان لا يجتمعان في منافق حسن سميت وفقه في الدين . قال الترمذي هذا حديث غريب ولا يعرف هذا الحديث من حديث عوف الا من حديث هذا الشيخ خلف بن أيوب العامري ولم أر أحداً يروى عنه غير أبي كريب محمد بن العلاء ولا أدري كيف هو وهذه شهادة بأن من اجتمع فيه حسن السميت والفقه في الدين فهو مؤمن وأحرى بهذا الحديث أن يكون حقاً وان كان استناده فيه جهالة فان حسن السميت والفقه في الدين من أخص علامات الايمان وان يجمعهما الله في منافق فان النفاق ينافيهما ويتأفياهما . الوجه التاسع والخمسون قال الترمذي حدثنا مسلم ابن حاتم الأنصاري حدثنا أبو حاتم البصري حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري عن أبيه عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب . قال قال أنس بن مالك رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ يا بني ان قدرت ان تصبح وتمسى وليس في قلبك غش لأحد فافعل ثم قال يا بني وذلك من سننك ومن أحياء سننك فقد أحبنى ومن أحبني كان معي في الجنة وفي الحديث قصة طويلة . قال الترمذي هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه ومحمد بن عبد الله الأنصاري صدوق وأبوه ثقة وعلي بن زيد صدوق إلا أنه ربما يرفع الشيء الذي يوقفه غيره سمعت محمد بن بشارة يقول قال أبو الوليد قال شعبة حدثنا علي بن زيد وكان رفاعاً . قال الترمذي ولا يعرف لسعيد بن المسيب عن أنس رواية إلا هذا الحديث بطوله وقد روى عباد المنقري هذا الحديث عن علي بن زيد عن أنس ولم يذكر فيه عن سعيد بن المسيب وذا كرت به محمد بن اسمعيل فلم يعرفه ولم يعرف لسعيد بن المسيب عن أنس هذا الحديث ولا غيره . ومات أنس سنة ثلاث وتسعين وسعيد بن المسيب سنة خمس وتسعين بعده بستين . قلت ولهذا الحديث شواهد . منها ما رواه الدارمي عبد الله حدثنا محمد بن عيينة عن مروان بن معاوية الفزاري عن كثير ابن عبد الله عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لبلال بن الحارث اعلم قال ما أعلم يارسول الله قال اعلم يا بلبال قال ما أعلم يارسول الله قال انه من أحياء سنة من سننك قد أميتت بعدى كان له من الأجر مثل من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيء ومن ابتدع

بعدة ضلالة لا يرضاها الله ورسوله كان عليه مثل آتام من عمل بها لا ينقص ذلك من أوزار
الناس شيئاً رواه الترمذى عنه وقال حديث حسن . قال ومحمد بن عيينة مصيبى شامى وكثير
ابن عبد الله هو ابن عمرو بن عوف المزنى وفى حديثه ثلاثة أقوال لأهل الحديث منهم من
يصححه ومنهم من يحسنه وهما للترمذى . ومنهم من يضعفه ولا يراه حجة كالامام أحمد
وغيره ولكن هذا الأصل ثابت من وجوه كحديث من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل
أجر من اتبعه وهو صحيح من وجوه . وحديث من دل على خير فله مثل أجر فاعله وهو
حديث حسن رواه الترمذى وغيره فهذا الأصل محفوظ عن النبي ﷺ فالحديث الضعيف فيه
بمثلة الشواهد والمتابعات فلا يضر ذكره . الوجه الستون أن النبي صلى الله عليه وسلم أوصى
بطلبة العلم خيراً وما ذاك إلا لفضل مطلوبهم وشرفه . قال الترمذى حدثنا سفيان بن وكيع
حدثنا أبو داود الحفرى عن سفيان عن أبي هريرة قال كنا نأتى أبا سعيد فيقول مرحباً
بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم إن النبي ﷺ قال إن الناس لكم تبع وان رجلاً
يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهمون فى الدين فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً حدثنا قتيبة حدثنا
روح بن قيس عن أبي هريرة العبدى عن أبي سعيد الخدرى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال
يأتىكم رجال من قبل المشرق يتعلمون فإذا جاؤكم فاستوصوا بهم خيراً فكان أبو سعيد إذا
رأنا قال مرحباً بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال الترمذى هذا حديث لا نعرفه
إلا من حديث أبي هريرة العبدى عن أبي سعيد قال أبو بكر العطار قال على ابن
المدىنى قال يحيى بن سعيد كان شعبة يضعف أبا هريرة العبدى قال يحيى وما زال ابن عوف
يروى عن أبي هريرة حتى مات وأبو هريرة اسمه عمارة بن جوين . الوجه الحادى
والستون ما رواه الترمذى من حديث أبي داود عن عبد الله بن سنجرية عن سنجرية عن
النبي صلى الله عليه وسلم قال من طلب العلم كان كفارة لما مضى هذا الأصل لم أجد فيه
إلا هذا الحديث وليس بشيء فان أبا داود هو نفيح الاعشى غير ثقة ولكن قد تقدم أن العالم
يستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض وقد رويت آثار عديدة عن جماعة من الصحابة
فى هذا المعنى . منها ما رواه الثورى عن عبد الكريم عن مجاهد عن ابن عباس أن ملكاً موكلاً
بطلب العلم حتى يرد من حيث أبدأه مغفوراً له . ومنها ما رواه قطر بن خليفة عن أنى الطفيل
عن على ما اتعمل عبد قط ولا تخفف ولا لبس ثوباً ليغدو فى طلب العلم إلا غفرت ذنوبه
حيث يخطو عند باب بيته وقد رواه ابن عدى مرفوعاً . وقال ليس يرويه عن قطر غير اسمعيل
ابن يحيى التميمى . قلت وقد رواه اسمعيل بن يحيى هذا عن الثورى حدثنا محمد بن أيوب الجوزجاني
عن مجالد عن الشعبي عن الأسود عن عائشة مرفوعاً من اتعمل ليتعلم خيراً غفر له قبل أن

يخطو وقد رواه عبد الرحمن بن محمد المحاربي عن قطر عن أبي الطيفيل عن علي وهذه الأسانيد وأن لم تكن بمفردها حجة فطلب العلم من أفضل الحسنات والحسنات يذهب السيئات فجدير أن يكون طلب العلم ابتغاء وجه الله يكفر ماضي من السيئات فتدلت النصوص أن اتباع السيئة الحسنة تمحوها فكيف بما هو من أفضل الحسنات وأجل الطاعات فالعمدة على ذلك لاعلى حديث أبي داود والله أعلم . وقد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن الرجل ليخرج من منزله وعليه من الذنوب مثل جبال تهامة فإذا سمع العلم خاف ورجع وتاب فانصرف إلى منزله وليس عليه ذنب فلانفارقوا مجالس العلماء . الوجه الثاني والستون مارواه ابن ماجه فى سننه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال خرج رسول الله ﷺ فإذا فى المسجد مجلسان يجلس يتفقون ويجلس يدعون الله تعالى ويسألونه فقال كلا المجلسين إلى خير أما هؤلاء فيدعون الله وأما هؤلاء فيتعلون ويفقهون الجاهل هؤلاء أفضل بالتعليم أرسلت ثم قعد معهم . الوجه الثالث والستون أن الله تبارك وتعالى يباهى ملائكته بالقوم الذين يتذاكرون العلم ويذكرون الله ويحمدونه على ما من عليهم به منه قال الترمذى حدثنا محمد بن بشار حدثنا مرحوم بن عبدالعزيز العطار حدثنا أبو نعامه عن أبي عثمان عن أبي سعيد قال خرج معاوية إلى المسجد فقال ما يجلسكم قالوا جلسنا نذكر الله عز وجل قال الله ما أجلسكم إلا ذلك قالوا الله ما أجلسنا إلا ذلك قال أما انى لم استحلقتكم تهمة لكم وما كان أحد بمنزلى من رسول الله صلى الله عليه وسلم أقل حديثاً عنه منى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خرج على حلقة من أصحابه قال ما يجلسكم قالوا جلسنا نذكر الله ونحمده لما هدانا للإسلام ومن علينا بك . قال الله ما أجلسكم إلا ذلك قالوا الله ما أجلسنا إلا ذلك قال أما انى لم استحلقتكم تهمة لكم أنه أتانى جبريل فأخبرنى أن الله تعالى يباهى بكم الملائكة قال الترمذى هذا حديث حسن غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه وأبو نعامه السعدى اسمه عمرو بن عيسى وأبو عثمان النهدى اسمه عبد الرحمن بن مل فهؤلاء كانوا قد جلسوا يحمدون الله بذكر أوصافه وآلائه ويثنون عليه بذلك ويذكرون حسن الإسلام ويعترفون لله بالفضل العظيم إذ هداهم له ومن عليهم برسوله . وهذا أشرف علم على الاطلاق ولايعنى به إلا الراشخون فى العلم فإنه يتضمن معرفة الله وصفاته وأفعاله ودينه ورسوله ومحبة ذلك وتعظيمه والفرح به وأحرى بأصحاب هذا العلم أن يباهى الله بهم الملائكة وقد بشر النبي ﷺ الرجل الذى كان يجب سورة الإخلاص وقال أحبها لأنها صفة الرحمن عز وجل فقال حبك اياها أدخلت الجنة . وفى لفظ آخر أخبروه أن الله يحبه فدل على أن من أحب صفات الله أحبه الله وأدخله الجنة . والجهمية أشد الناس نفرة وتنفيراً عن صفاته ونعوت كاله يعاقبون ويذمون من

يذكرها ويقرؤها ويجمعها ويعتني بها ولهذا لهم المقت والذم عند الأمة وعلى لسان كل عالم من علماء الإسلام والله تعالى أشد بغضاً ومقتاً لهم جزاء وفاقا . الوجه الرابع والستون . أن أفضل منازل الخلق عند الله منزلة الرسالة والنبوة فآله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس وكيف لا يكون أفضل الخلق عند الله من جعلهم وسائط بينه وبين عبادته في تبليغ رسالاته وتعريف أسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه ومراضيه ومساخطه وثوابه وعقابه وخصمهم بوحيمه واختصمهم بتفضيله وارتضاهم لرسالته إلى عبادته وجعلهم أركي العالمين نفوساً وأشرفهم أخلاقاً وأكملهم علوماً وأعمالاً وأحسنهم خلقة وأعظمهم محبة وقبولاً في قلوب الناس وبرأهم من كل وصم وعيب وكل خلق ذني وجعل أشرف مراتب الناس بعدهم مرتبة خلافتهم ونيابتهم في أممهم فانهم يخلفونهم على منهاجهم وطريقهم من نصيحتهم للأمة وارشادهم الضال وتعليمهم الجاهل ونصرهم المظلوم وأخذهم على يد الظالم وأمرهم بالمعروف وفعله ونهيمهم عن المنكر وتركه والدعوة إلى الله بالحكمة للمستجيبين والموعظة الحسنة للعرضين الغافلين والجدال بالتي هي أحسن للبعاندين المعارضين . فهذه حال أتباع المرسلين وورثة النبيين . قال تعالى (قل هذه سبيلي ادعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) وسواء كان المعنى أنا ومن اتبعني على بصيرة وأنا ادعوا إلى الله . أو المعنى ادعوا إلى الله على بصيرة والقولان متلازمان فانه لا يكون من أتباعه حقا إلا من دعا إلى الله على بصيرة كما كان متبوعه يفعل ^{صلى الله عليه وسلم} فهو أولاد خلفاء الرسل حقا وورثتهم دون الناس وهم أولو العلم الذين قاموا بما جاء به علماً وعملاً وهداية وارشاداً وصبراً وجهاداً وهؤلاء هم الصديقون وهم أفضل أتباع الأنبياء ورأسهم وإمامهم الصديق الأكبر أبو بكر رضى الله عنه . قال الله تعالى (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ذلك الفضل من الله وكفي بالله علماً) فذكر مراتب السعداء وهي أربعة وبدأ بأعلاهم مرتبة ثم الذين يلونهم إلى آخر المراتب وهؤلاء الأربعة هم أهل الجنة الذين هم أهلها جعلنا الله منهم بمنه وكرمه . الوجه الخامس والستون ان الإنسان إنما يميز على غيره من الحيوانات بفضيلة العلم والبيان وإلا فغيره من الدواب والسباع أكثر أكلا منه وأقوى بطشاً وأكثر جماعاً وأولاداً وأطول أعماراً وإنما ميز على الدواب والحيوانات بعلمه وبيانه فاذا عدم العلم بقي معه القدر المشترك بينه وبين سائر الدواب وهي الحيوانية المحضة فلا يبقى فيه فضل عليهم بل قد يبقى شراً منهم كما قال تعالى في هذا الصنف من الناس (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) فهو أولاد هم الجهال (ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم) أى ليس عندهم محل قابل للخير (ولو) كان محلهم قابلاً للخير (لأسمعهم) أى

لأنهمهم والسمع ههنا سمع فهم وإلا فسمع الصوت حاصل لهم وبه قامت حجة الله عليهم . قال تعالى (ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون) . وقال تعالى (ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون) وسواء كان المعنى ومثل داعى الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع من الدواب إلا أصواتا مجردة أو كان المعنى ومثل الذين كفروا حين ينادون كمثل دواب الذى ينعق بها فلا تسمع إلا صوت الدعاء والنداء فالقولان متلازمان بل هما واحد وإن كان التقدير الثانى أقرب إلى اللفظ وأبلغ فى المعنى فعلى التقديرين لم يحصل لهم من الدعوة إلا الصوت الحاصل الأنعام فهؤلاء لم يحصل لهم حقيقة الإنسانية التى يميز بها صاحبها عن سائر الحيوان والسمع يراد به ادراك الصوت ويراد به فهم المعنى ويراد به القبول والإجابة والثلاثة فى القرآن فن الأول قوله (قد سمع الله قول الذى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير) وهذا أصرح ما يكون فى إثبات صفة السمع ، ذكر الماضى والمضارع واسم الفاعل سميع ويسمع وهو سميع وله السمع كما قالت عائشة رضى عنها الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول الله ﷺ وأنا فى جانب البيت وأنه ليخفى على بعض كلامها فأنزل الله (قد سمع الله قول الذى تجادلك فى زوجها) . والثانى سمع الفهم كقوله (ولو علم الله فيهم خيراً لآسمعهم) أى لآفهمهم (ولو آسمعهم لتولوا وهم معرضون) لما فى قلوبهم من الكبر والإعراض عن قبول الحق ففهم آفتان إحداهما أنهم لا يفهمون الحق لجهلهم ولو فهموه لتولوا عنه وهم معرضون عنه لكبرهم وهذا غاية النقص والعيب والثالث سمع القبول والإجابة كقوله تعالى (لو خرجوا فىكم مازادوكم إلا خبالاً ولا وضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم) أى قابلون مستجيبون . ومنه قوله (سماعون للكذب) أى قابلون له مستجيبون لأهله . ومنه قول المصلى سمع الله لمن حمده أى أجاب الله حمد من حمده ودعاء من دعاه . وقول النبي ﷺ إذا قال الإمام سمع الله لمن حمده فقولوا ربنا ولك الحمد يسمع الله لكم أى يجيبكم . والمقصود أن الإنسان اذا لم يكن له علم بما يصلحه فى معاشه ومعاده كان الحيوان البهيم خيراً منه لسلامته فى المعاد مما يهلكه دون الإنسان الجاهل . الوجه السادس والستون إن العلم حاكم على ما سواه ولا يحكم عليه شيء فكل شيء يختلف فى وجوده وعدمه وصحته وفساده ومنفعته ومضرته ورجحانه ونقصانه وكاله ونقصه ومدحه وذمه ومرتبته فى الخير وجودته وردائه وقربه وبعده وإفضائه إلى مطلوب كذا وعدمه وإفضائه وحصول المقصود به وعدم حصوله إلى سائر جهات المعلومات فان العلم حاكم على ذلك كله فإذا حكم العلم انتزع النزاع ووجب الإلتباع وهو الحاكم على الممالك والسياسات والأموال

والأقلام فللك لا يتأيد بعلم لا يقوم وسيف بلا علم مخراق لاعب وقلم بلا علم حركة عابث
والعلم مسلط حاكم على ذلك كله ولا يحكم شيء من ذلك على العلم وقد اختلف في تفضيل مداد
العلماء على دم الشهداء وعكسه وذكر لكل قول وجوه من التراجيح والأدلة ونفس هذا
النزاع دليل على تفضيل العلم ومرتبته فإن الحاكم في هذه المسئلة هو العلم فبه واليه وعنده
يقع التحاكم والتخاصم والمفضل منهما من حكم له بالفضل . فإن قيل فكيف يقبل حكمه لنفسه .
قيل وهذا أيضا دليل على تفضيله وعلو مرتبته وشرفه فإن الحاكم إنما لم يسخ أن يحكم لنفسه
لأجل مظنة التهمة والعلم لا تلحقه تهمة في حكمه لنفسه فإنه إذا حكم حكم بها تشهد العقول
والنظر بصحته وتلقاه بالقبول ويستحيل حكمه اتهمته فإنه إذا حكم بها انعزل عن مرتبته
وانحط عن درجته فهو الشاهد المزكى العادل والحاكم الذي لا يجوز ولا يعزل . فإن قيل فماذا
حكمه في هذه المسئلة التي ذكرتموها . قيل هذه المسئلة كثير فيها الجدال واتسع المجال وأدلى
كل منهما بحجته واستعلى بمرتبته والذي يفصل النزاع ويعيد المسئلة إلى مواقع الإجماع الكلام
في أنواع مراتب الكمال وذكر الأفضل منهما والنظر في أي هذين الأمرين أولى به وأقرب
اليه . فهذه الأصول الثلاثة تبين الصواب ويقع بها فصل الخطاب . فأما مراتب الكمال فأربع
النيرة والصديقية والشهادة والولاية وقد ذكرها الله سبحانه في قوله (ومن يطع الله والرسول
فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك
رفيقا ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما) وذكر تعالى هؤلاء الأربع في سورة الحديد فذكر
تعالى الإيمان به وبرسوله ثم ندب المؤمنين إلى أن تخضع قلوبهم لكتابه ووحيه ثم ذكر
مراتب الخلائق سقيمهم وسعيدهم . فقال (إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً
يضاعف لهم ولهم أجر كريم والذين آمنوا بالله ورسوله أولئك هم الصديقون والشهداء عند
ربهم لهم أجرهم ونورهم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) ، وذكر
المنافقين قبل ذلك فاستوعبت هذه الآية أقسام العباد سقيمهم وسعيدهم . والمقصود أنه ذكر
فيها المراتب الأربعة الرسالة والصديقية والشهادة والولاية فأعلا هذه المراتب النبوة والرسالة ويلها
الصديقية فالصديقون هم أئمة أتباع الرسل ودرجتهم أعلا الدرجات بعد النبوة فإن جرى قلم العالم
بالصديقية وسال مداده بها كان أفضل من دم الشهيد الذي لم يلحقه في رتبة الصديقية وإن سال دم
الشهيد بالصديقية وقطر عليها كان أفضل من مداد العالم الذي قصر عنها فأفضلها صديقها فإن استويا
في الصديقية استويا في المرتبة والله أعلم . والصديقية هي كمال الإيمان بما جاء به الرسول علماً
وتصديقاً وقياماً به فهي راجعة إلى نفس العلم فكل من كان أعلم بما جاء به الرسول وأكمل تصديقاً
له كان أتم صديقية فالصديقية شجرة أصولها العلم وفروعها التصديق وثمرتها العمل فهذه كلمات

جامعة في مسئلة العالم والشهيد وأيهما أفضل . الوجه السابع والستون أن النصوص النبوية قد تواترت بأن أفضل الأعمال إيمان بالله فهو رأس الأمر والأعمال بعده على مراتبها ومنازلها والإيمان لهركننان . أحدهما معرفة ما جاء به الرسول والعلم به والثاني تصديقه بالقول والعمل والتصديق بدون العلم والمعرفة محال فانه فرع العلم بالشيء المصدق به فاذا العلم من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد ولا تقوم شجرة الايمان الا على ساق العلم والمعرفة فالعلم إذا أجل المطالب وأسنى المواهب . الوجه الثامن والستون أن صفات الكمال كلها ترجع إلى العلم والقدرة والإرادة والإرادة فرع العلم فانها تستلزم الشعور بالمراد فهى مفتقرة إلى العلم في ذاتها وحقيقتها والقدرة لا تؤثر إلا بواسطة الإرادة والعلم لا يفتقر في تعلقه بالمعلوم إلى واحدة منهما وأما القدرة والإرادة فكل منها يفتقر في تعلقه بالمراد والمقدور إلى العلم وذلك يدل على فضيلته وشرف منزلته . الوجه التاسع والستون ان العلم أعم الصفات تعلقاً بمعلقه وأوسعها فإنه يتعلق بالواجب والممكن والمستحيل والجائز والموجود والمعدوم فذات الرب سبحانه وصفاته وأسمائه معلومة له ويعلم العباد من ذلك ما علمهم العليم الخبير وأما القدرة والإرادة فكل منهما خاص التعلق أما القدرة فإنما تتعلق بالممكن خاصة لا بالمستحيل ولا بالواجب فهى أخص من العلم من هذا الوجه وأعم من الإرادة فإن الإرادة لا تتعلق إلا ببعض الممكنات وهو ما أريد وجوده فالعلم أوسع وأعم وأشمل في ذاته ومعلقه . الوجه السبعون ان الله سبحانه أخبر عن أهل العلم بأنه جعلهم أئمة يهدون بأمره ويأتهم بهم من بعدهم . فقال تعالى (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) وقال في موضع آخر (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قره أعين واجعلنا للمتقين إماما) أى أئمة يقتدى بنا من بعدنا . فأخبر سبحانه أن بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين وهى أرفع مراتب الصديقين واليقين هو كمال العلم وغايته فبتكميل مرتبة العلم تحصل إمامة الدين وهى ولاية آلها العلم يختص الله بهامن يشاء من عباده . الوجه الحادى والسبعون ان حاجة العباد إلى العلم ضرورية فوق حاجة الجسم إلى الغذاء لأن الجسم يحتاج إلى الغذاء فى اليوم مرة أو مرتين وحاجة الإنسان إلى العلم بعدد الأنفاس لأن كل نفس من أنفاسه فهو محتاج فيه إلى أن يكون مصاحباً لإيمان أو حكمة فان فارقه الايمان أو حكمة في نفس من أنفاسه فقد عطب وقرب هلاكه وليس إلى حصول ذلك سبيل إلا بالعلم فالحاجة اليه فوق الحاجة إلى الطعام والشراب وقد ذكر الإمام أحمد هذا المعنى بعينه فقال: الناس أحوج إلى العلم منهم إلى الطعام والشراب لأن الطعام والشراب يحتاج إليه فى اليوم مرة أو مرتين والعلم يحتاج اليه كل وقت . الوجه الثانى والسبعون ان صاحب العلم أقل تعباً وعملاً وأكثر أجراً واعتبر هذا بالشاهد فان الصناعات والاجراء يعانون

الأعمال الشاقة بأنفسهم والأستاذ المعلم يجلس يامرهم وينهاهم ويربهم كيفية العمل ويأخذ أضعاف ما يأخذونه . وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى حيث قال أفضل الأعمال إيمان بالله ثم الجهاد فالجهاد فيه بذل النفس وغاية المشقة والإيمان علم القلب وعمله وتصديقه وهو أفضل الأعمال مع أن مشقة الجهاد فوق مشقته بأضعاف مضاعفة وهذا لأن العلم يعرف مقادير الأعمال ومراتبها وفاضلها من مفضولها وراجحها من مرجوحها فصاحبها لا يختار لنفسه إلا أفضل الأعمال والعامل بلا علم يظن أن الفضيلة في كثرة المشقة فهو يتحمل المشاق وإن كان ما يعانیه مفضولاً ورب عمل فاضل والمفضول أكثر مشقة منه واعتبر هذا بحال الصديق فإنه أفضل الأمة . ومعلوم أن فهم من هو أكثر عملاً وحجاً ووصوماً وصلوة وقراءة منه . قال أبو بكر بن عياش ماسبقكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة ولكن بشيء وفر في قلبه وهذا موضوع المثل المشهور .

من لم يمثّل سيرك المدلل * تمشى رويداً ونجى في الأول

الوجه الثالث والسبعون أن العلم إمام العمل وقائده والعمل تابع له ومؤتم به فكل عمل لا يكون خلف العلم مقتدياً به فهو غير نافع لصاحبه بل مضرة عليه . كما قال بعض السلف من عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح والأعمال إنما تتفاوت في القبول والرد بحسب موافقتها للعلم ومخالفتها له فالعمل الموافق للعلم هو المقبول والمخالف له هو المردود فالعلم هو الميزان وهو المحك . قال تعالى (هو الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور) قال الفضيل بن عياض هو أخلص العمل وأصوبه قالوا يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه قال إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً فالخالص أن يكون لله . والصواب أن يكون على السنة . وقد قال تعالى (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) فهذا هو العمل المقبول الذي لا يقبل الله من الأعمال سواه وهو أن يكون موافقاً لسنة رسول الله ﷺ مراداً به وجه الله ولا يتمكن العامل من الاتيان بعمل يجمع هذين الوصفين إلا بالعلم فإنه إن لم يعلم ما جاء به الرسول لم يمكنه قصده وإن لم يعرف معبوده لم يمكنه إرادته وحده فلولو العلم لما كان عمله مقبولاً فالعلم هو الدليل على الإخلاص وهو الدليل على المتابعة . وقد قال الله تعالى (إنما يتقبل الله من المتقين) وأحسن ما قيل في تفسير الآية أنه إنما يتقبل الله عمل من اتقاه في ذلك العمل وتقواه فيه أن يكون لوجهه على موافقة أمره وهذا إنما يحصل بالعلم وإذا كان هذا منزلة العلم وموقعه علم أنه أشرف شيء وأجله وأفضله والله أعلم . الوجه الرابع والسبعون أن العامل بلا علم كالسائر بلا دليل . ومعلوم أن عطب مثل هذا أقرب من سلامته

وان قدر سلامته اتفاقاً نادراً فهو غير محمود بل مذموم عند العقلاء ، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يقول من فارق الدليل ضد السبيل ولا دليل إلا بما جاء به الرسول . قال الحسن العامل على غير علم كالسالك على غير طريق والعامل على غير علم ما يفسد أكثر مما يصاح فاطلبوا العلم طلباً لا تنضروا بالعبادة واطلبوا العبادة طلباً لا تنضروا بالعلم فان قوما طلبوا العبادة وتركوا العلم حتى خرجوا بأسيا فيهم على أمة محمد ﷺ ولو طلبوا العلم لم يدهم على ما فعلوا والفرق بين هذا وبين ما قبله ان العلم مرتبة في الوجه الأول مرتبة المطاع المتبوع المقتدى به المتبع حكمه المطاع أمره ومرتبه في هذا الوجه مرتبة الدليل المرشد إلى المطلوب الموصل إلى الغاية . الوجه الخامس والسبعون أن النبي ﷺ ثبت في الصحيحين عنه أنه كان يقول اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق باذنك انك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم . وفي بعض السنن أنه كان يكبر تكبيرة الاحرام في صلاة الليل ثم يدعو بهذا الدعاء . والهداية هي العلم بالحق مع قصده وإثاره على غيره فالمهتدى هو العامل بالحق المريد له وهي أعظم نعمة لله على العبد ولهذا أمرنا سبحانه أن نسأله هداية الصراط المستقيم كل يوم وليلة في صلواتنا الخمس فإن العبد محتاج إلى معرفة الحق الذي يرضى الله في كل حركة عاهرة وباطنة فاذا عرفها فهو محتاج إلى من يلهمه قصد الحق فيجعل إرادته في قلبه ثم إلى من يقدره على فعله ومعلوم ان ما يجمله العبد أضعاف أضعاف ما يعلمه وان كل ما يعلم أنه حق لا يتاوعه نفسه على إرادته ولو أرادته لعجز عن كثير منه فهو مضطر كل وقت إلى هداية تتعلق بالماضى وبالحال والمستقبل أما الماضى فهو محتاج إلى محاسبة نفسه عليه وهل وقع على السداد فيشكر الله عليه ويستدعيه أم خرج فيه عن الحق فيتوب إلى الله تعالى منه ويستغفره ويعزم على أن لا يعود . وأما الهداية في الحال فهي مطلوبة منه فإنه ابن وقته فيحتاج أن يعلم حكم ما هو متلبس به من الأفعال هل هو صواب أم خطأ . وأما المستقبل فحاجته في الهداية أظهر ليكون سيره على الطريق . وإذا كان هذا شأن الهداية علم أن العبد أشد شيء اضطراباً اليها وأن ما يورده بعض الناس من السؤال الفاسد وهي انا إذا كنا مهتدين فأى حاجة بنا أن نسأل الله أن يهديننا وهل هذا الا تحصيل الحاصل أفسد سؤال وأبعده عن الصواب وهو دليل على أن صاحبه لم يحصل معنى الهداية ولا أحاط علماً بحقيقتها ومسماها فلذلك تكلف من تكلف الجواب عنه بأن المعنى ثبتنا على الهداية وأدمها لنا ومن أحاط علماً بحقيقة الهداية وحاجة العبد اليها علم أن الذى لم يحصل له منها أضعاف ما حصل له وانه كل وقت محتاج إلى هداية - متجددة لآسيا والله تعالى خالق أفعال القلوب والجوارح فهو كل وقت محتاج أن يخلق الله له هداية

خاصة ثم ان لم يصرف عنه الموانع والصوارف التي تمنع موجب الهداية وتصرفها لم ينفع بالهداية ولم يتم مقصودها له فإن الحكم لا يكفي فيه وجود مقتضيه بل لابد مع ذلك من عدم مانعه ومنافيه . ومعلوم أن وساوس العبد وخواطره وشهوات الغي في قلبه كل منها مانع وصول أثر الهداية اليه فإن لم يصرفها الله عنه لم يهتد هدى تاما فاجاته إلى هداية الله له مقرونة بأنفاسه وهي أعظم حاجة للعبد . وذكر النبي ﷺ في الدعاء العظيم القدر من أوصاف الله وربوبيته ما يناسب المطلوب فإن فطر السموات والأرض توسل إلى الله بهذا الوصف في الهداية للفطرة التي ابتدأ الخلق عليها فذكر كونه فاطر السموات والأرض والمطلوب تعليم الحق والتوفيق له فذكر علمه سبحانه بالغيب والشهادة وان من هو بكل شيء عليم جدير أن يطلب منه عبده أن يعلمه ويرشده ويهديه وهو بمنزلة التوسل إلى الغنى بغناه وسعة كرمه أن يعطى عبده شيئا من ماله والتوسل إلى الغفور بسعة مغفرته أن يغفر لعبده وبعفوه أن يعفو عنه وبرحمته أن يرحمه ونظائر ذلك وذكر ربوبيته تعالى لجبريل وميكائيل وإسرافيل وهذا والله أعلم لأن المطلوب هدى يحيا به القلب وهؤلاء الثلاثة الأملاك قد جعل الله تعالى على أيديهم أسباب حياة العباد أما جبريل فهو صاحب الوحي الذي يوحيه الله إلى الأنبياء وهو سبب حياة الدنيا والآخرة . وأما ميكائيل فهو موكل بالقطر الذي به سبب حياة كل شيء . وأما إسرافيل فهو الذي ينفخ في الصور فيحيا الله الموتى بنفخته فاذا هم قيام لرب العالمين . والهداية لها أربع مراتب وهي مذكورة في القرآن . المرتبة الأولى الهداية العامة وهي هداية كل مخلوق من الحيوان والآدمي لمصلحه التي بها قام أمره قال الله تعالى (سبح اسم ربك الأعلى الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى) فذكر أمورا أربعة : الخلق والتسوية والتقدير والهداية فسوى خلقه وأنقته وأحكمه ثم قدر له أسباب مصلحه في معاشه وتقلباته وتصرفاته وهداه إليها والهداية تعليم فذكر أنه الذي خلق وعلم كما ذكر نظير ذلك في أول سورة أنزلها على رسوله وقد تقدم ذلك . وقال تعالى حكاية عن عدوه فرعون أنه قال لموسى (فمن ربكما يا موسى قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) وهذه المرتبة أسبق مراتب الهداية وأعمها . المرتبة الثانية هداية البيان والدلالة التي أقام بها حجته على عباده وهذه لا تستلزم الاهتداء التام . قال تعالى (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) يعني بينا لهم ودللناهم وعرفناهم فأثروا الضلالة والعمى . وقال تعالى (وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدمهم عن السبيل وكانوا مستبصرين) . وهذه المرتبة أخص من الأولى وأعم من الثانية . وهي هدى التوفيق والإلهام . قال الله تعالى (والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) فعمم بالدعوة خلقه وخص بالهداية من شاء منهم . قال تعالى

(إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) مع قوله (وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم) فأثبت هداية الدعوة والبيان ونفى هداية النوفيق والالهام . وقال النبي ﷺ في تشهد الحاجة من يهد الله فلا مضل له ومن يضل فلا هادي له . وقال تعالى (إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل) أي من يضل الله لا يهتدي أبداً وهذه الهداية الثالثة هي الهداية الموجبة المستلزمة للاهتمام . وأما الثانية فشرط لا موجب فلا يستحيل تخلف الهدى عنها بخلاف الثالثة فإن تخلف الهدى عنها مستحيل . المرتبة الرابعة الهداية في الآخرة إلى طريق الجنة والنار . قال تعالى (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم) . وأما قول أهل الجنة (الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله) فيحتمل أن يكونوا أرادوا الهداية إلى طريق الجنة وأن يكونوا أرادوا الهداية في الدنيا التي أوصلتهم إلى دار النعيم ولو قيل إن كلا الأمرين مراد لهم وإهم حمدوا الله على هدايته لهم في الدنيا وهدايتهم إلى طريق الجنة كان أحسن وأبلغ وقد ضرب الله تعالى لمن لم يحصل له العلم بالحق واتباعه مثلامطابقاً لحاله : فقال تعالى (قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى إننا قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين) . الوجه السادس والسبعون أن فضيلة الشيء وشرفه يظهر تارة من عموم منفعته وتارة من شدة الحاجة إليه وعدم الاستغناء عنه وتارة من ظهور النقص والشر بفقده وتارة من حصول اللذة والسرور والبهجة بوجوده لكونه محبوباً ملائماً فادراكه يعقب غاية اللذة وتارة من كمال الثمرة المترتبة عليه وشرف علته الغائية وفضاله إلى أجل المطالب وهذه الوجوه ونحوها تنشأ وتظهر من متعلقه فإذا كان في نفسه كلاً وشرفاً بقطع النظر عن متعلقاته جمع جهات الشرف والفضل في نفسه ومتعلقاته . ومعلوم أن هذه الجهات بأسرها حاصلة للعلم فإنه أعم شيء نفعاً وأكثره وأدومه والحاجة إليه فوق الحاجة إلى الغذاء بل فوق الحاجة إلى النفس إذ غاية ما يتصور من فقدهما فقد حياة الجسم . وأما فقد العلم ففيه فقد حياة القلب والروح فلا غنى للعبد عنه طرفه عين . ولهذا إذا فقد من الشخص كان شراً من الخير بل كان شراً من الدواب عند الله ولا شيء أنقص منه حينئذ وأما حصول اللذة والبهجة بوجوده فلأنه كمال في نفسه وهو ملائم غاية الملاءمة للنفوس فإن الجهل مرض ونقص وهو في غاية الإيذاء والإيلام واليأس للنفس ومن لم يشعر بهذه الملاءمة والمنافرة فهو لفقده حسه ونفسه * وما لجرح ميت إيلام * فحصوله للنفس ادراك منها لغاية محبوبها واتصال به وذلك غاية لذتها وفرحتها وهذا بحسب المعلوم في نفسه ومحبة النفس له ولذتها بقربه والعلوم والمعلومات

متفاوتة في ذلك أعظم التفاوت وأبينه فليس علم النفوس بفاطرها وباريها ومبدعها ومحبته والتقرب اليه كعملها بالطبيعة وأحوالها وعوارضها وصحتها وفسادها وحركاتها وهذا يتبين . بالوجه السابع والسبعين وهو أن شرف العلم تابع لشرف معلومه لو ثوق النفس بأدلة وجوده وبراهينه ولشدة الحاجة إلى معرفته وعظم النفع بها ولا ريب أن أجل معلوم وأعظم وأكبره فهو الله الذي لا إله إلا هو رب العالمين وقيوم السموات والأرضين الملك الحق المبين الموصوف بالكمال كله المنزه عن كل عيب ونقص وعن كل تمثيل وتشبيه في كماله . ولا ريب أن العلم به وبأسمائه وصفاته وأفعاله أجل العلوم وأفضلها ونسبته إلى سائر العلوم كنسبة معلومه إلى سائر المعلومات وكما أن العلم به أجل العلوم وأشرفها فهو أصلها كلها كما أن كل موجود فهو مستند في وجوده إلى الملك الحق المبين ومفتقر إليه في تحقق ذاته وأينيته وكل علم فهو تابع للعلم به مفتقر في تحقق ذاته إليه فالعلم به أصل كل علم كما أنه سبحانه رب كل شيء ومليكه وموجده . ولا ريب أن كمال العلم بالسبب التام وكونه سبباً يستلزم العلم بمسببه كما أن العلم بالعلة التامة ومعرفة كونها علة يستلزم العلم بمعلوله وكل موجود سوى الله فهو مستند في وجوده إليه استناد المصنوع إلى صانعه والمفعول إلى فاعله فالعلم بذاته سبحانه وصفاته وأفعاله يستلزم العلم بما سواه فهو في ذاته رب كل شيء ومليكه والعلم به أصل كل علم ومنشؤه فمن عرف الله عرف ما سواه ومن جهل ربه فهو لما سواه أجهل قال تعالى (ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم) ، فتأمل هذه الآية تجد تحتها معنى شريفاً عظيماً وهو أن من نسي ربه أنساه ذاته ونفسه فلم يعرف حقيقته ولا مصالحه بل نسي ما به صلاحه وفلاحه في معاشه ومعاده فصار معطلاً مهملاً بمنزلة الأنعام السائبة بل ربما كانت الأنعام أخبر بمصالحها منه لبقائها هداها الذي أعطاه إياه خالقها وأما هذا نخرج عن فطرته التي خلق عليها فنسي ربه فأنساه نفسه وصفاتها وماتكمل به وتزكوه وتسمد به في معاشها ومعادها قال الله تعالى (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً) فغفل عن ذكر ربه فانقرط عليه أمره وقلبه فلا التفات له إلى مصالحه وكمالها وما تزكوه بنفسه وقلبه بل هو مشتت القلب مضيعه مفرط الأمر حيران لا يهتدى سبيلاً ، والمقصود أن العلم بالله أصل كل علم وهو أصل علم العبد بسعادته وكمالها ومصالح دنياه وآخرته والجهل به مستلزم للجهل بنفسه ومصالحها وكمالها وما تزكوه وتفليح به فالعلم به سعادة العبد والجهل به أصل شقاوته يزيد له إيضاحاً . الوجه الثامن والسبعون أنه لا شيء أطيب للعبد ولا أذل ولا أهنأ ولا أنعم لقلبه وعيشه من حبة فاطره وباريه ودوام ذكره والسعى في مرضاته وهذا هو الكمال الذي لا كمال للعبد بدونه وله خلق الخلق ولأجله نزل الوحي وأرسلت الرسل وقامت السموات والأرض ووجدت الجنة والنار ولأجله شرعت الشرائع

ووضع البيت الحرام ووجب حجه على الناس إقامة لذكره الذى هو من توابع محبته والرضا به
وعنه ولاجل هذا أمر بالجهاد وضرب أعناق من أباه وآثر غيره عليه وجعل له فى الآخرة دار الوان
خالداً مخلداً وعلى هذا الأمر العظيم أسست الملة ونصبت القبلة وهو قطب رحى الخلق والأمر
الذى مدارهما عليه ولاسيبيل إلى الدخول إلى ذلك إلا من باب العلم فان محبة الشيء فرغ عن الشعور به
وأعرف الخلق بالله أشدهم حبا له فكل من عرف الله أحبه ومن عرف الدنيا وأهلها زهد فيهم فالعلم
يفتح هذا الباب العظيم الذى هو سر الخلق والأمر بكاسياتى بيانه إن شاء الله تعالى. الوجه التاسع
والسبعون ان اللذة بالمحجوب تضعف وتقوى بحسب قوة الحب وضعفه فكما كان الحب أقوى
كانت اللذة أعظم ولهذا تعظم لذة الظمان بشرب الماء البارد بحسب شدة طلبه للماء وكذلك الجائع
وكذلك من أحب شيئاً كانت لذته على قدر حبه إياه والحب تابع للعلم بالمحجوب ومعرفة جماله
الظاهر والباطن فلذة النظر إلى الله بعد لقائه بحسب قوة حبه وإرادته وذلك بحسب العلم به
وبصفات كاله فإذا العلم هو أقرب الطرق إلى أعظم اللذات وسيأتى تقرير هذا فيما بعد ان شاء
الله تعالى. الوجه الثمانون ان كل ماسوى الله يفتقر إلى العلم لا قوام له بدونه فان الوجود
وجودان وجود الخلق ووجود الأمر والخلق والأمر مصدرهما علم الرب وحكمته فكل
ماضيه الوجود من خلقه وأمره صادر عن علمه وحكمته فما قامت السموات والأرض وما بينهما
إلا بالعلم ولا بعثت الرسل وأنزلت الكتب إلا بالعلم ولا عبد الله وحده وأثنى عليه
ومجد إلا بالعلم ولا عرف الخلال من الحرام إلا بالعلم ولا عرف فضل الإسلام على غيره
إلا بالعلم. واختلف هنا فى مسألة وهى أن العلم صفة فعلية أو انفعالية فقالت طائفة هو
صفة فعلية لأنه شرط أو جزء وسبب فى وجود المفعول فان الفعل الاختيارى يستدعى حياة
الفاعل وعلمه وقدرته وإرادته ولا يتصور وجوده بدون هذه الصفات. وقالت طائفة هو
انفعالى فإنه تابع للمعلوم متعلق به على ما هو عليه فان العالم يدرك المعلوم على ما هو به فادراكه
تابع له فكيف يكون متقدما عليه. والصواب ان العلم قسمان علم فعلى وهو علم الفاعل المختار
بما يريد أن يفعله فانه موقوف على إرادته الموقوفة على تصوره المراد وعلمه به فهذا علم قبل
الفعل متقدم عليه مؤثر فيه وعلم انفعالى وهو العلم التابع للمعلوم الذى لا تأثير له فيه كعلمنا
بوجود الأنبياء والأمم والملوك وسائر الموجودات فان هذا العلم لا يؤثر فى المعلوم ولا هو
شرط فيه فكل من الطائفتين نظرت جزئيا وحكمت كليا وهذا موضع يغلط فيه كثير من
الناس وكلا القسمين من العلم صفة كمال وعدمه من أعظم النقص يوضحه. الوجه الحادى
والثمانون أن فضيلة الشيء تعرف بضده فالضد يظهر حسنه الضد وبضدها تنبئ الأشياء
ولا ريب أن الجهل أصل كل فساد وكل ضرر يلحق العبد فى دنياه وأخراه فهو نتيجة

الجهل وإلا فتح العلم التام بأن هذا الطعام مثلاً مسموم من أكله قطع أمعائه في وقت معين لا يقدم على أكله وان قدر أنه قدم عليه لعلبة جوع أو استعجال وفاة فهو لعله بموافقة أكله لمقصوده الذي هو أحب إليه من العذاب بالجوع أو بغيره . وهنا اختلفت في مسألة عظيمة وهي أن العلم هل يستلزم الاهتداء ولا يتخلف عنه الهدى الا لعدم العلم أو نقصه والافصح المعرفة الجازمة لا يتصور الضلال وأنه لا يستلزم الهدى فقد يكون الرجل عالماً وهو ضال على عمد هذا مما اختلف فيه المتكلمون وأرباب السلوك وغيرهم فتألت فرقة من عرف الحق معرفة لا يشك فيها استحالة أن لا يهتدى وحيث ضل فلنقصان علمه واحتجوا من النصوص بقوله تعالى (لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك) فشهد تعالى لكل راسخ في العلم بالإيمان . وبقوله تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) . وبقوله تعالى (ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق) . وبقوله تعالى (شهد الله أنه لا إله الا هو والملائكة وأولو العلم) . وبقوله تعالى (أمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى) قسم الناس قسمين . أحدهما العلماء بان ما أنزل إليه من ربه هو الحق . والثاني العمى فدل على أنه لا واسطة بينهما . وبقوله تعالى في وصف الكفار (صم بكم عمى فهم لا يعقلون) وبقوله (وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون) . وبقوله تعالى (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة) . وهذه مدارك العلم الثلاث قد فسدت عليهم . وكذلك قوله تعالى (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون) . وقوله (وأضله الله على علم) قال سعيد بن جبير على علمه تعالى فيه . قال الزجاج أي على ما سبق في علمه تعالى أنه ضال قبل أن يخلفه (وختم على سمعه) أي طبع عليه فلم يسمع الهدى (وعلى قلبه) فلم يعقل الهدى (وعلى بصره غشاوة) فلا يبصر أسباب الهدى وهذا في القرآن كثير مما يبين فيه مناقاة الضلال للعلم . ومنه قوله تعالى (ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً اولئك الذين طبع الله على قلوبهم) فلو كانوا علموا ما قال الرسول لم يسألوا أهل العلم ماذا قال ولما كان مطبوعاً على قلوبهم . وقال تعالى (والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات) . وقال تعالى (قل آمنوا به أو لا تؤمنوا ان الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولاً) فهذه شهادة من الله تعالى لأولى العلم بالإيمان به وبكلامه . وقال تعالى عن اهل النار (وقالوا لو كنا نسمع او نعقل ما كنا في اصحاب السعير) فدل على ان اهل الضلال لا يسمع لهم ولا عقل وقال تعالى (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون) اخبر تعالى انه لا

يعقل أمثاله إلا العالمون والكفار لا يدخلون في مسمى العالمين فهم لا يعقلونها . وقال تعالى (بل أتبع الذين ظلوا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضل الله) . وقال تعالى (وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمتنا الله أو تأتينا آية) . وقال تعالى (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) ولو كان الضلال يجمع العلم لسكان الذين لا يعلمون أحسن حالا من الذين يعلمون والنص بخلافه والقرآن يملوء بسلب العلم والمعرفة عن الكفار فتارة يصفهم بأنهم لا يعلمون وتارة بانهم لا يعقلون وتارة بأنهم لا يشعرون وتارة بانهم لا يفقهون وتارة بانهم لا يسمعون . والمراد بالسمع المنفي سمع الفهم وهو سمع القلب لا إدراك الصوت وتارة بانهم لا يبصرون فدل ذلك كله على أن الكافر مستلزم للجهل مناف للعلم لا يجمعه ولهذا يصف سبحانه الكفار بأنهم جاهلون . كقوله تعالى (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) . وقوله تعالى (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين) . وقوله تعالى (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) . وقال النبي صلى الله عليه وسلم لما بلغ قومه من أذاه ذلك المبلغ اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون . وفي الصحيحين عنه من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين فدل على أن الفقه مستلزم لإرادة الله الخير في العبد ولا يقال الحديث دل على أن من أراد الله به خيراً أوفقه في الدين ولا يدل على أن كل من فقهه في الدين فقد أراد به خيراً أو بينهما فرق . ودليلكم إنما يتم بالتقدير الثاني والحديث لا يقتضيه . لأننا نقول النبي صلى الله عليه وسلم جعل الفقه في الدين دليلاً وعلامة على إرادة الله بصاحبه خيراً والدليل يستلزم المدلول ولا يتخلف عنه فإن المدلول لازمه ووجود الملزوم بدون لازمه محال . وفي الترمذي وغيره عنه صلى الله عليه وسلم خصلتان لا يجتمعان في منافق حسن سمع وفقه في الدين فجعل الفقه في الدين منافياً للنفاق بل لم يكن السلف يطلقون اسم الفقه الاعلى العلم الذي يصحبه العمل كما سئل سعد بن إبراهيم عن أئمة أهل المدينة قال أتقاهم وسأل فرقد السنجى الحسن البصرى عن شيء . فأجابته فقال إن الفقهاء يخالفونك فقال الحسن ثناك أمك فريد هل رأيت بعينيك فقيهاً إنما الفقيه الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة البصير بدينه المداوم على عبادة ربه الذي لا يهزم من فوقه ولا يسخر بمن دونه ولا يبتغي على علم علمه الله تعالى أجراً . وقال بعض السلف إن الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله ولم يؤمنهم مكر الله ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى ما سواه . وقال ابن مسعود رضى الله عنه كنى بخشية الله علماً وبالاعتزاز بالله جهلاً . قالوا فهذا القرآن والسنة وإطلاق السلف من الصحابة والتابعين يدل على أن العلم والمعرفة مستلزم للهداية وأن عدم الهداية دليل على الجهل وعدم العلم . قالوا ويدل عليه أن الإنسان مادام عقله معه لا يؤثر هلاك

نفسه على نجاتها وعذابها العظيم الدائم على نعيمها المقيم والحس شاهد بذلك . ولهذا وصف الله سبحانه أهل معصيته بالجهل في قوله تعالى (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليهما حكيمًا) . قال سفيان الثوري كل من عمل ذنباً من خلق الله فهو جاهل كان جاهلاً أو عالماً أن كان عالماً فمن أجهل منه وإن كان لا يعلم فمثل ذلك . وقوله (ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليهما حكيمًا) . قال قبل الموت . وقال ابن عباس رضى الله عنهما ذنب المؤمن جهل منه . قال قتادة أجمع أصحاب رسول الله ﷺ ان كل شيء عصى الله فيه فهو جهالة . وقال السدي كل من عصى الله فهو جاهل . قالوا ويدل على صحة هذا أن مع كمال العلم لا تصدر المعصية من العبد فانه لو رأى صديقاً يتطالع عليه من كوة لم تتحرك جوارحه لمواقعة الفاحشة فكيف يقع منه حال كمال العلم بنظر الله اليه ورؤيته له وعقابه على الذنب وتحريمه له وسوء عاقبه فلا بد من غفلة القلب على هذا العلم وغيبته عنه فحينئذ يكون وقومه في المعصية صادراً عن جهل وغفلة ونسيان مضاد للعلم والذنب مخوف بجهلين جهل بحقيقة الأسباب الصارفة عنه و جهل بحقيقة المفسدة المترتبة عليه وكل واحد من الجهلين تحته جهالات كثيرة فاعصى الله إلا بالجهل وما أطيع إلا بالعلم فهذا بعض ما احتججت به هذه الطائفة . وقالت الطائفة الأخرى العلم لا يستلزم الهداية وكثيراً ما يكون الضلال عن عمد وعلم لا يشك صاحبه فيه بل يؤثر الضلال والكفر وهو عالم بقبحه ومفسدته . قالوا وهذا شيخ الضلال وداعى الكفر وإمام الفجرة إبليس عدو الله قد علم أمر الله له بالسجود لآدم ولم يشك فيه بخالفه وعاند الأمر وباء بلعنة الله وعذابه الدائم مع علمه بذلك ومعرفة به وأقسم له بعزته أنه يغوى خلقه أجمعين إلا عباده منهم المخلصين فكان غير شاك في الله وفي وحدانيته وفي البعث الآخر وفي الجنة والنار ومع ذلك اختار الخلود في النار واحتمل لعنة الله وغضبه وطرده من سمائه وجنته عن علم بذلك ومعرفة لم يحصل لكثير من الناس . ولهذا (قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون) وهذا اعتراف منه بالبعث وقرار به وقد علم قسم ربه ليأن جهنم منه ومن اتباعه فكان كفره كفر عناد محض لا كفر جهل . وقال تعالى إخباراً عن قوم ثمود (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) يعنى بينا لهم وعرفناهم فعرّفوا الحق وتيقنوه وآثروا العمى عليه فكان كفر هؤلاء عن جهل . وقال تعالى حاكياً عن موسى إنه قال لفرعون (لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإني لأظنك يافرعون مشبوراً) أى هالسا على قراءة من فتح التاء وهى قراءة الجمهور وضمها الكسائي وحده وقراءة الجمهور أحسن وأوضح وأختم معنى وبها تقوم الدلالة ويتم الإلزام بتحقيق كفر فرعون وعناده ويشهد

لها قوله تعالى إخباراً عنه وعن قومه (فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين ووجدوا بها
واسيتيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) فأخبر سبحانه أن تكذيبهم وكفرهم
كان عن يقين وهو أقوى العلم ظلماً منهم وعلواً لا جهلاً وقال تعالى لرسوله (قد نعلم أنه ليحزنك
الذي يقولون فإنيهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) يعني أنهم قد عرفوا
صدقك وأنت غير كاذب فيما تقول ولكن عاندوا ووجدوا بالمعرفة قاله ابن عباس رضى الله
عنهما والمفسرون . قال قتادة يعلمون أنك رسول ولكن يجحدون . قال تعالى (ووجدوا بها
واسيتيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً) . وقال تعالى (يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم
تشهدون يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون) معنى تكفرون
بالقرآن وبمن جاء به وأنتم تشهدون بصحته وبأنه الحق فكفركم كفر عناد ووجود عن علم وشهود
لا عن جهل وخفاء . وقال تعالى عن السحرة من اليهود (ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة
من خلاق) أى علموا من أخذ السحر وقبله لا نصيب له في الآخرة ومع هذا العلم والمعرفة فهم
يشترونه ويقبلونه ويتعلمونه . وقال تعالى (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون
أبنائهم) ذكر هذه المعرفة عن أهل الكتاب في القبلة كما في سورة البقرة وفي التوحيد كقول
في الأنعام (أنتم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإنى
برىء مما تشركون الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) وفى الكتاب أنه منزل
من عند الله لقوله تعالى (والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق) وقال تعالى (كيف
يهدى الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدى
القوم الظالمين) . قال ابن عباس رضى الله عنهما هم قريظة والنضير ومن دان بدينهم كفروا
بالنبي ﷺ بعد أن كانوا قبل مبعثه مؤمنين به وشهدوا له بالنبوة وإنما كفروا بغياً
وحسداً . قال الزجاج أعلم الله عز وجل أنه لاجهة لهدايتهم لأنهم قد استحقوا أن يضلوا
بكفرهم لأنهم كفروا بعد البينات ومعنى كيف يهديهم أى أنه لا يهديهم لأن القوم عرفوا
الحق وشهدوا به وتيقنوه وكفروا عمداً فمن أين تأتيم الهداية فإن الذى ترجى هدايته من
كان ضالاً ولا يدرى أنه ضال بل يظن أنه على هدى فإذا عرف الهدى اهتدى وأما من
عرف الحق وتيقنه وشهد به قلبه ثم اختار الكفر والضلال عليه فكيف يهدى الله مثل
هذا . وقال تعالى عن اليهود (فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين) .
ثم قال (بشما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على
من يشاء من عباده) . قال ابن عباس رضى الله عنهما لم يكن كفرهم شكاً ولا اشتهاً
ولكن بغياً منهم حيث صارت النبوة فى ولد اسماعيل . ثم قال بعد ذلك (ولما جاءهم رسول

من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون) فلما شبههم في فعلهم هذا بمن لا يعلم دل على أنهم نبذوه عن علم كفعل من لا يعلم تقول إذا خاطبت من عصاك عمداً كأنك لم تعلم ما فعلت أو كأنك لم تعلم بنهي إياك ومنه على أحد القولين . قوله تعالى (فان تولوا فأنما عليك البلاغ المبين يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون) . قال السدي يعني محمداً صلى الله عليه وسلم واختاره الزجاج . فقال يعرفون أن أمر محمد صلى الله عليه وسلم حق ثم ينكرون ذلك وأول الآية يشهد لهذا القول . وقال تعالى (وانزل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخذ إلى الأرض وانبع هواه فثله كمثل الكلب) . قالوا فهل بعد هذه الآية بيان فان هذا آناه الله آياته فانسلخ منها وآثر الضلال والغي * وقصته معروفة حتى قيل إنه كان أوتي الاسم الاعظم ومع هذا فلم يتفهمه علمه وكان من الغاوين فلو استلزم العلم والمعرفة الهداية لاستلزمه في حق هذا . وقال تعالى (وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين) وهذا يدل على ان قولهم (ياهود ماجئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين) إما بهت منهم وجحود وإما نفي الآيات الاقتراح والعنت ولا يجب الايمان بها وقد وصف سبحانه ثمود بانها كفرت عن علم وبصيرة بالحق ولهذا قال . (وآتيناهم الناقة مبصرة فظلموا بها) يعني بيئة مضيئة . وهذا كقوله تعالى (وجعلنا آية النهار مبصرة) أى مضيئة وحقيقة اللفظ أنها تجعل من رآها مبصراً فهي توجب له البصر فتبصره أى تجعله ذا بصر فهي موضحة مبيئة يقال بصر به إذا رآه كقوله تعالى (فبصرت به عن جنب) . وقوله (بصرت بما لم يبصروا به) وأما أبصره فله معنيان . أحدهما جعله باصراً بالشيء أى ذا بصر به كآية النهار وآية ثمود والثاني بمعنى رآه كقولك أبصرت زيدا وفي حديث أبي شريح العدوي أحدثك قولاً قال به رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح فسمعت أذناى ووعاه قلبي وأبصرت عينيما حين تسلم به . ومنه قوله تعالى (فتول عنهم حتى حين وأبصرهم فسوف يبصرون) قيل المعنى أبصرهم وما يقضى عليهم من الاسر والقتل والعذاب فى الآخرة فسوف يبصرونك وما يقضى لك من النصر والتأييد وحسن العاقبة والمراد تقرب المبصر من المخاطب حتى كأنه نصب عينيه ورأى ناظره ، والمقصود ان الآية أوجبت لهم البصيرة فأثروا الضلال والكفر عن علم وبقين ولهذا والله أعلم ذكر قصتهم من بين قصص سائر الأمم فى سورة الشمس وضحاها لأنه ذكر فيها انقسام النفوس إلى الزكية الراشدة المهتدية وإلى الفاجرة الضالة الغاوية وذكر فيها الاصلين القدر والشرع ، فقال (فاهلها فجورها

وتقواها) فهذا قدره وقضاؤه ثم قال (قد أفلح من زكّاه وقد خاب من دساها) فهذا أمر دونه وثمود هداهم فاستحبوا العمى على الهدى . فذكر قصتهم ليبين سوء عاقبة من آثر الفجور على التقوى والتدسية على التزكية والله أعلم بما أراد ، قالوا ويكفي في هذا اخباره تعالى عن الكفار أنهم يقولون بعد ما عاينوا العذاب ووردوا القيامة ورأوا ما أخبرت به الرسل (ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين بل بدأ لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) فإى علم أبين من علم من ورد القيامة ورأى ما فيها وذاق عذاب الآخرة ثم لو ورد إلى الدنيا لاختار الضلال على الهدى ولم ينفعه ما قد عاينه ورآه . وقال تعالى (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون) فهل بعد نزول الملائكة عياناً وتكليم الموتى لهم وشهادتهم الرسول بالصدق وحشر كل شيء في الدنيا عليهم من بيان وإيضاح للحق وهدى ومع هذا فلا يؤمنون ولا يتقادون للحق ولا يصدقون الرسول ومن نظر في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قومه ومع اليهود علم أنهم كانوا جازمين بصدقه صلى الله عليه وسلم لا يشكون أنه صادق في قوله أنه رسول الله ولكن اختاروا الضلال والكفر على الإيمان . قال المسور بن مخزومة رضى الله عنه لأبى جهل وكان خاله أى خال هل كنتم تنهون محمداً بالكذب قبل أن يقول مقالته التى قالها قال أبو جهل لعنه الله تعالى يا ابن أخى والله لقد كان محمد فينا وهو شاب يدعى الامين ماجربنا عليه كذباً قط فلما وخطه الشيب لم يكن ليكذب على الله قال ياخال فلم لا تتبعونه قال يا ابن أخى تنازعنا نحن وبنو هاشم الشرف فاطعموا وأطعمنا وسقوا وسقيننا وأجاروا وأجرونا فلما تجاثبنا على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا منا نبى فتى ندرك هذه وهذا أمية بن أبى الصلت كان ينتظره يوماً بيوم وعلمه عنده قبل مبعثه . وقصته مع أبى سفیان لما سافرا معا معروفة واخباره برسول الله صلى الله عليه وسلم لما تيقنه وعرف صدقه قال لا أومن بنبى من غير ثقيف أبداً وهذا هرقل تيقن أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يشك فيه وآثر الضلال والكفر استبقاء للملكة . ولما سأله اليهود عن التسع آيات البينات فاخبرهم بها قبلوا يده وقالوا نشهد أنك نبى قال فما يمنعكم أن تتبعونى قالوا إن داود عليه السلام دعا أن لا يزال فى ذريته نبى ولإنا نخشى أن تقتلنا يهود فهؤلاء قد تحققوا نبوته وشهدوا له بها ومع هذا آثروا الكفر والضلال ولم يصيروا مسلمين بهذه الشهادة فقيل لا يصير الكافر مسلماً بمجرد شهادة أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يشهد لله بالوحدانية وقيل يصير بذلك مسلماً وقيل إن كان كفره بتكذيب الرسول كاليهود صار مسلماً بذلك وإن كان كفره بالشرك مع ذلك لم يصير مسلماً إلا بالشهادة بالتوحيد

كالنصارى والمشركين ، وهذه الأقوال الثلاثة في مذهب الإمام أحمد وغيره وعلى هذا فإما لم يحكم هؤلاء اليهود الذين شهدوا له بالرسالة بحكم الإسلام لأن مجرد الإقرار والإخبار بصحة رسالته لا يوجب الإسلام إلا أن يلتزم طاعته ومتابعته والافلو قال انا أعلم أنه نبي ولكن لا أتبعه ولا أدين بدينه كان من أكفر الكفار كحال هؤلاء المذكورين وغيرهم وهذا متفق عليه بين الصحابة والتابعين وأئمة السنة أن الإيمان لا يكفي فيه قول اللسان بمجرد ولا معرفة القلب مع ذلك بل لا بد فيه من عمل القلب وهو حبه لله ورسوله وقيامه لدينه والتزامه طاعته ومتابعة رسوله وهذا خلاف من زعم أن الإيمان هو مجرد معرفة القلب وإقراره وفيما تقدم كفاية في إبطال هذه المقالة ومن قال أن الإيمان هو مجرد اعتقاد صدق الرسول فيما جاء به وإن لم يلتزم متابعته وعاداه وأبغضه وقائله لزمه أن يكون هؤلاء كلهم مؤمنين وهذا إلزام لا محيد عنه ولهذا اضطرب هؤلاء في الجواب عن ذلك لما ورد عليهم وأجابوا بما يستحى العاقل من قوله كقول بعضهم إن إبليس كان مستهزئاً ولم يكن يقر بوجود الله ولا بأن الله ربه وخالقه ولم يكن يعرف ذلك وكذلك فرعون وقومه لم يكونوا يعرفون صحة نبوة موسى ولا يعتقدون وجود الصانع وهذه فضائح نعوذ بالله من الوقوع في أمثالها ونصرة المقالات وتقليد أربابها تحمل على أكثر من هذا ونعوذ بالله من الخذلان . قالوا وقد بين القرآن أن الكفر أقسام : أحدها كفر صادر عن جهل وضلال وتقليد الأسلاف وهو كفر أكثر الانتباغ والعوام . الثاني كفر جحود وعناد وقصد مخالفة الحق ككفر من تقدم ذكره وغالب ما يقع هذا النوع فيمن له رياسة علمية في قومه من الكفار أو رياسة سلطانية أو من له ما كل وأموال في قومه فيخاف هذا على رياسته وهذا على ماله وما كله فيؤثر الكفر على الإيمان عمداً . الثالث كفر لإعراض محض لا ينظر فيما جاء به الرسول ولا يحبه ولا يبغضه ولا يواليه ولا يعاديه بل هو معرض عن متابعته ومعاداته وهذان القسمان أكثر المتكلمين ينكرونهما ولا يثبتون من الكفر إلا الأول ويجعلون الثاني والثالث كفراً لدلانه على الأول لأنه في ذاته كفر فليس عندهم الكفر إلا مجرد الجهل . ومن تأمل القرآن والسنة وسير الانبياء في أنهم هم ودعوتهم لهم وما جرى لهم معهم جزم بخطأ أهل الكلام فيما قالوه وعلم أن عامة كفر الامم عن تيقن وعلم ومعرفة بصدق أنبيائهم وصحة دعواهم وما جاؤا به وهذا القرآن يملوء من الأخبار عن المشركين عباد الأصنام أنهم كانوا يقرءون بالله وأنه هو وحده ربهم وخالقهم وأن الأرض وما فيها له وحده وأنه رب السموات السبع ورب العرش العظيم وأنه بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه وأنه هو الذى سخر الشمس والقمر وأنزل المطر وأخرج النبات والقرآن مناد عليهم بذلك محتج بما أقروا به من ذلك على صحة ما دعتم إليه رسله

فكيف يقال إن القوم لم يكونوا مقرين قط بأن لهم رباً وخالقاً وهذا بهتان عظيم بالكفر
أمر وراء مجرد الجهل بل الكفر الاغلاظ هو ما أنكروه هؤلاء وزعموا أنه ليس بكفر .
قالوا والقلب عليه واجبان لا يصيره مؤمناً إلا بهما جميعاً واجب المعرفة والعلم وواجب الحب
والانقياد والاستسلام فكما لا يكون مؤمناً إذا لم يأت بواجب العلم والاعتقاد لا يكون
مؤمناً إذا لم يأت بواجب الحب والانقياد والاستسلام بل إذا ترك هذا الواجب مع علمه
ومعرفته به كان أعظم كفراً وأبعد عن الإيمان من الكافر جهلاً فإن الجاهل إذا عرف وعلم
فهو قريب إلى الانقياد والانبعاث وأما المعاند فلا دواء فيه . قال تعالى (كيف يهتدي
الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم
الظالمين) ، قالوا فحب الله ورسوله بل كون الله ورسوله أحب إلى العبد من سواهما لا يكون العبد
مسلياً إلا به ولا ريب أن الحب أمر وراء العلم فما كل من عرف الرسول أحبه كما تقدم
قالوا وهذا الحاسد يحمل بغض المحسود على معاداته والسعى في آذاه بكل ممكن مع علمه
بفضله وعلمه وأنه لا شيء فيه يوجب عداوته إلا محاسنه وفضائله . ولهذا قيل الحاسد عدو
للنعم والمكارم فالحاسد لم يحمله على معاداة المحسود جهله بفضله وكاله وإنما حمله على
ذلك لإفساد قصده وإرادته كما هي حال الرسل وورثتهم مع الرؤساء الذين سلمهم الرسل
ووارثوهم رئاستهم الباطلة فعادوهم وصدوا النفوس عن متابعتهم ظناً أن الرياسة تبقى لهم
وينفردون بها وسنة الله في هؤلاء أن يسلبهم رياسة الدنيا والآخرة ويصغرهم في عيون
الخلق مقابلة لهم بتقيض قصدهم (وما ربك بظلام للعبيد) فهذا موارد احتجاج الفريقين
وموقف أقدم الطائفتين فاجلس أيها المنصف منهما مجلس الحكومة وتوخ
بعلمك وعدلك فصل هذه الخصومة فقد ادلى كل منهما بحجج لا تعارض ولا تنازع وجاء
ببيانات لا ترد ولا تدافع فهل عندك شيء غير هذا يحصل به فصل الخطاب وينكشف به
لطالب الحق وجه الصواب فيرضى الطائفتين ويزول به الاختلاف من البين وإلا نقل المطى
وحاديها واعط النفوس باريها :

دع الهوى لأناس يعرفون به قد كابدوا الحب حتى لان أصعبه

ومن عرف قدره وعرف لذى الفضل فضله فقد قرع باب التوفيق والله الفتح العليم فنقول
وبالله التوفيق .

كلا الطائفتين ما خرجت عن موجب العلم ولا عدلت عن سنن الحق وإنما الاختلاف
والتباين بينهما من عدم التوارد على محل واحد ومن اطلاق ألفاظ مجملة بتفصيل معانها يزول
الاختلاف ويظهر أن كل طائفة موافقة الأخرى على نفس قولها . وبيان هذا أن المقتضى قسبان

مقتض لا يتخلف عنه موجهه ومقتضاه لقصوره في نفسه بل يستلزمه استلزام العلة النامة
لمعلولها ومقتض غير تام يتخلف عنه مقتضاه لقصوره في نفسه عن التمام أو لقوات شرط
اقتضائه أو قيام مانع منع تأثيره فان أريد بكون العلم مقتضياً للاهتداء والاقتضاء التام الذي
لا يتخلف عنه أثره بل يلزمه الاهتداء بالفعل . فالصواب قول الطائفة الثانية وإنه لا يلزم
من العلم حصول الاهتداء المطلوب وإن أريد بكونه موجباً أنه صالح للاهتداء مقتض له وقد
يتخلف عنه مقتضاه لقصوره أو فوات شرط أو قيام مانع . فالصواب قول الطائفة الأولى
وتفصيل هذه الجملة أن العلم بكون الشيء سبباً لمصلحة العبد ولذاته وسروره قد يتخلف عنه
عمله بمقتضاه لأسباب عديدة . السبب الأول ضعف معرفته بذلك ، السبب الثاني عدم الأهلية
وقد تكون معرفته به تامة لكن يكون مشروطاً بزكاة المحل وقبوله للتنزيكية فاذا كان المحل غير
زكي ولا قابل للتنزيكية كان كالأرض الصلدة التي لا يخاطها الماء فانه يمتنع النبات منها لعدم أهليتها
وقبولها فاذا كان القلب قاسياً حجرياً لا يقبل تنزيكية ولا تؤثر فيه النصائح لم ينتفع بكل علم يعلمه
كما لا تنبت الأرض الصلبة ولو أصابها كل مطر وبذر فيها كل بذر كما قال تعالى في هذا الصنف
من الناس (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب
الآليم) وقال تعالى (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً
ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله) وقال تعالى (قل انظروا ماذا في السموات والأرض
وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) وهذا في القرآن كثير فاذا كان القلب قاسياً
غليظاً جافياً لا يعمل فيه العلم شيئاً وكذلك إذا كان مريضاً مهيناً مائياً لا صلاحه فيه ولا قوة
ولا عزيمة لم يؤثر فيه العلم . السبب الثالث قيام مانع وهو إما حسد أو كبر وذلك مانع
لإبليس من الانقياد الأمر وهو داء الأولين والآخرين إلا من عصم الله وبه تخلف الإيمان
عن اليهود الذين شاهدوا رسول الله ﷺ وعرفوا صحة نبوته ومن جرى مجراه وهو الذي
منع عبد الله بن أبي من الإيمان وبه تخلف الإيمان عن أبي جهل وسائر المشركين فانهم
لم يكونوا يرتابون في صدقه وأن الحق معه لكن حملهم الكبر والحسد على الكفر وبه تخلف
الإيمان عن أمية وأضرابه ممن كان عنده علم بنبوة محمد ﷺ . السبب الرابع مانع الرياسة
والملك وان لم يقيم بصاحبه حسد ولا تكبر عن الانقياد للحق لكن لا يمكنه أن يجتمع له
الانقياد وملكه ورياسته فيضن بملكه ورياسته كحال هرقل وأضرابه من ملوك الكفار
الذين علموا نبوته وصدقته وأقروا بها باطنياً وأحبوا الدخول في دينه لكن خافوا على ملكهم
وهذا داء أرباب الملك والولاية والرياسة وقل من نجا منه إلا من عصم الله وهو داء فرعون
وقومه . ولهذا قالوا (أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون) أنفوا أن يؤمنوا ويتبعوا

موسى وهرون وينقادوا لهما وبنو إسرائيل عبيد لهم . ولهذا قيل إن فرعون لما أراد متابعة موسى وتصديقه شاور هامان وزيره فقال بيئنا أنت إله تعبد تصير عبداً تعبد غيرك فأبى العبودية واختار الرياسة والإلهية المحال . السبب الخامس مانع الشهوة والمال وهو الذى منع كثيراً من أهل الكتاب من الإيمان خوفاً من بطلان ما كلهم وأموالهم التى تصير إليهم من قومهم وقد كانت كفار قريش يصدون الرجل عن الإيمان بحسب شهوته فيدخلون عليه منها فكانوا يقولون لمن يجب الزنا إن محمداً يحرم الزنا ويحرم الخمر وبه صدوا الأعشى الشاعر عن الإسلام وقد فاوضت غير واحد من أهل الكتاب فى الإسلام وصحته فكان آخر ما كلنى به أحدهم أنا لا أترك الخمر وأشربها أمنأً فإذا أسلمت حلتم بينى وبينها وجلدتونى على شربها . وقال آخر منهم بعد أن عرف ماقلت له لى أقارب أرباب أموال وبنى إن أسلمت لم يصل لى منها شىء وأنا أوامل أن أرثهم أو كما قال . ولا ريب أن هذا القدر فى نفوس خلق كثير من الكفار فتفق قوة داعى الشهوة والمال وضعف داعى الإيمان فيجيب داعى الشهوة والمال ويقول لا أرغب بنفسى عن آبائى وسلفى . السبب السادس محبة الأهل والأقارب والعشيرة يرى أنه إذا اتبع الحق وخالفهم أبعده وطردوه عنهم وأخرجوه من بين أظهرهم . وهذا سبب بقاء خلق كثير على الكفر بين قومهم وأهالهم وعشائرهم . السبب السابع محبة الدار والوطن وان لم يكن له بها عشيرة ولا أقارب لكن يرى أن فى متابعة الرسول خروجه عن داره ووطنه إلى دار الغربة والنوى فيضن بوطنه . السبب الثامن تخيل أن فى الإسلام ومتابعة الرسول إزاراً وطعنأً منه على آباءه وأجداده وذمأً لهم وهذا هو الذى منع أبا طالب وأمثاله عن الإسلام استعظموا آباءهم وأجدادهم أن يشهدوا عليهم بالكفر والضلال وأن يختاروا خلاف ما اختار أولئكم لأنفسهم ورأوا أنهم إن أسلموا سفهوا أحلام أولئكم وضللوا عقولهم ورموهم بأقبح القبائح وهو الكفر والشرك . ولهذا قال أعداء الله لأبى طالب عند الموت أترغب عن ملة عبد المطلب فكان آخر ما كلهم به هو على ملة عبد المطلب فلم يدعه أعداء الله إلا من هذا الباب لعلمهم بتعظيمه آباء عبد المطلب وأنه إنما حاز الفخر والشرف به فكيف يأتى أمراً يلزم منه غاية تنقيمه وذمه . ولهذا قال لولا أن تكون مسبة على بنى عبد المطلب لا قررت بها عينك أو كما قال . وهذا شعره يصرح فيه بأنه قد علم وتحقق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وصدقه كقوله :

واتد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية ديننا

لولا الملامة أو حذار مسبة لوجدتني سمحاً بذلك مبيئنا

(وفي قصيدته اللامية)

قو الله لولا أن تكون مسبة تجر على أشياخنا في المحافل
لكننا اتبعناه على كل حاله من الدهر جداً غير قول التهازل
لقد علموا أن ابتئالا مكذب لدينا ولا يعنى بقول إلا باطل

والمسبة التي زعم أنها تجر على أشياخه شهادته عليهم بالكفر والضلال وتسفيه الأحلام
وتضليل العقول فهذا هو الذي منعه من الإسلام بعد تيقنه . السبب التاسع متابعة من
يعاديه من الناس للرسول وسبقه إلى الدخول في دينه وتخصسه وقربه منه وهذا القدر منع
كثيراً من اتباع الهدى يكون للرجل عدو ويبغض مكانه ولا يحب أرضاً يمشى عليها ويقصد
مخالفته ومناقضته فيراه قد اتبع الحق فيحمله قصد مناقضته ومعاداته على معاداة الحق
وأهله وإن كان لا عداوة بينه وبينهم وهذا كما جرى لليهود مع الأنصار فانهم كانوا أعدائهم
وكانوا يتواعدونهم بخروج النبي صلى الله عليه وسلم وأنهم يتبعونه ويقابلونهم معه فلما
بدرهم إليه الإنصار وأسلبوا حملهم معاداتهم على البقاء على كفرهم ويهوديتهم . السبب
العاشر مانع الألف والعادة والمثأ فان العادة قد تقوى حتى تغلب حكم الطبيعة ولهذا قيل
هي طبيعة ثانية فيربي الرجل على المقالة وينشأ عليها صغيراً فيتررب قلبه ونفسه عليها كما يتررب
لحمه وعظمه على الغذاء المعتاد ولا يعقل نفسه إلا عليها ثم يأتيه العلم وهلة واحدة يريد
إزالتها وإخراجها من قلبه وأن يسكن موضعها فيعسر عليه الانتقال ويصعب عليه الزوال
وهذا السبب وإن كان أضمر الأسباب معنى فهو أغلبها على الأمم وأرباب المقالات والنحل
ليس مع أكثرهم بل جميعهم إلا ما عسى أن يشذوا إعادة ومرتب تربى عليه طفلاً لا يعرف
غيرها ولا يحسن به فدين العوايد هو الغالب على أكثر الناس فالانتقال عنه كالانتقال
عن الطبيعة إلى طبيعة ثانية فصلوات الله وسلامه على أنبيائه ورسله خصوصاً على خاتمهم
وأفضلهم محمد صلى الله عليه وسلم كيف غيروا عوائد الأمم الباطلة ونقلوهم إلى الإيمان
حتى استخذوا به طبيعة ثانية خرجوا بها عن عادتهم وطبيعتهم الفاسدة ولا يعلم مشقة هذا
على النفوس إلا من زاول نقل رجل واحد عن دينه ومقالته إلى الحق فجزى الله المسلمين
أفضل ما جزى به أحداً من العالمين . إذا عرف أن الممتضى نوعان فالهدى الممتضى وحده
لا يوجب الاهتداء والهدى التام يوجب الاهتداء . فالاول هدى البيان والدلالة والتعليم ولهذا
يقال هدى فما اهتدى . والثاني هدى البيان والدلالة مع إعطاء التوفيق وخلق الإرادة فهذا
الهدى الذي يستلزم الاهتداء ولا يتخلف عنه موجه فتى وجد السبب وانتفت الموانع لزم
وجود حكمه . وههنا دقيقة بها يفصل النزاع وهي أنه هل ينعتف من قيام المانع وعدم الشرط

على المتقضى أمر يضعفه في نفسه ويسلبه اقتضاه وقوته أو الاقتضاء بحاله وانما غلب المانع فكان التأثير له . ومثال ذلك في مسئلتنا أنه بوجود هذه الموانع المذكورة أو بعضها هل يضعف العلم حتى لا يصير مؤثراً البتة أو العلم بحاله ولكن المانع بقوته غلب فكان الحكم له . هذا سر المسألة وفقهها فأما الأول فلا شك فيه ولكن الشأن في القسم الثاني وهو بقاء العلم بحاله والتحقيق أن الموانع تحجبه وتعميه وربما قلبت حقيقته من القلب والقرآن قد دل على هذا . قال تعالى (وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين) فعاقبهم سبحانه بازاعة قلوبهم عن الحق لما زاغوا عنه ابتداء . ونظيره قوله تعالى (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون) ولهذا قيل من عرض عليه حق فرده فلم يقبله عوقب بفساد قلبه وعقله ورأيه . ومن هنا قيل لأرى لصاحب هوى فان هواه يحمله على رد الحق فيفسد الله عليه رأيه وعقله . قال تعالى (فيما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف) أخبر سبحانه أن كفرهم بالحق بعد أن علموه كان سبباً لطبع الله على قلوبهم (بل طبع الله عليها بكفرهم) حتى صارت غلفاً والغلف جمع أغلف وهو القلب الذي قد غشيه غلاف كالسيف الذي في غلافه وكل شيء في غلافه فهو أغلف وجمعه غلف يقال سيف أغلف وقوس غلفاء ورجل أغلف وأقلف إذا لم يفتح ، والمعنى قلوبنا عليها غشاوة وغطاء فلا تفقه ما نقول يا محمد صلى الله عليه وسلم ولم تع شيئاً من قال أن المعنى أنها غلف للعلم والحكمة أي أوعية لها فلا يحتاج إلى قولك ولا تقبله استغناء بما عندهم لوجوده أحدها أن غلف جمع أغلف كقلف وأقلف وحمى وأحمر وجرى وأجرد وغلب وأغلب ونظائره والأغلف من القلوب هو الداخل في الغلاف هذا هو المعروف من اللغة الثاني أنه ليس من الاستعمال السائغ المشهور أن يقال قلب فلان غلاف لكذا وهذا لا يكاد يوجد في شيء من نثر كلامهم ولا نظمه ولا نظير له في القرآن فيحمل عليه ولا هو من التشبيه البديع المستحسن فلا يجوز حمل الآية عليه . الثالث أن نظير قول هؤلاء قول الآخرين من الكفار . قلوبنا في أكنة مما ندعونا إليه والأكنة هنا هي الغلف التي قلوب هؤلاء فيها والأكنة كالأوعية والأغطية التي تغطي المتاع ومنه الأكنة الغلاف السهام الرابع أن سياق الآية لا يحسن مع المعنى الذي ذكره ولا يحسن مقابته بقوله (بل طبع الله عليها بكفرهم) وانما يحسن مع هذا المعنى أن يسلب عنهم العلم والحكمة التي ادعوا كما قيل لهم لما ادعوا ذلك (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) ، وأما هنا فلما ادعوا أن قلوبهم في أغطية وأغشية لا تفقه قوله قوبلوا بأن عرفهم أن كفرهم ونقضهم ميثاقهم وقتلهم الأنبياء كان سبباً

لأن طبع على قلوبهم . ولا ريب أن القلب إذا طبع عليه أظلمت صورة العلم فيه وانطمست وربما ذهب أثرها حتى يصير السبب الذي يهتدى به المهتدون سبباً لضلال هذا كما قال تعالى . (يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون) فآخبر تعالى أن القرآن سبب لضلال هذا الصنف من الناس وهو هداه الذي هدى به رسوله وعباده المؤمنين ولهذا أخبر سبحانه أنه إنما يهتدى به من اتبع رضوان الله . قال تعالى (وهذا ما أنزلت سورة . فمنهم من يقول أينا نأفأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون) ولا شيء أعظم فساداً لمحل العلم من صيرورته بحيث يضل بما يهتدى به فنسبته إلى الهدى والعلم نسبة الفهم الذي قد استحسنت فيه المرارة إلى الماء العذب كما قيل :

ومن يك ذا فم مريض * يجد مرابه الماء الزلالا

وإذا فسد القلب فسد إدراكه وإذا فسد الفهم فسد إدراكه وكذلك إذا فسدت العين وأهل المعرفة من الصيارفة يقولون إن من خاف في نقده نسي النقد وسلبه فاشتباه عليه الخالص بالزغل . ومن كلام بعض السلف يهتف العلم بالعمل فإن أجابه حل والاراحتل . وقال بعض السلف كنا نستمعين على حفظ العلم بالعمل به فترك العمل بالعلم من أقوى الأسباب في ذهابه ونسيانه . وأيضا فإن العلم يراد للعمل فإنه بمنزلة الدليل للسائر فإذا لم يسر خلف الدليل لم ينتفع بدلالته فنزل منزلة من لم يعلم شيئاً لأن من علم ولم يعمل بمنزلة الجاهل الذي لا يعلم كما أن من ملك ذهباً وفضة وجاع وعرى ولم يشتر منها ما يأكل ويلبس فهو بمنزلة الفقير العادم كما قيل :

ومن ترك الإنفاق عند احتياجه مخافة فقر فالذي فعل الفقر (١)

والعرب تسمى الفحش والبذاء جهلاً أما لكونه ثمرة الجهل فيسمى باسم سببه وموجبه وأما لأن الجهل يقال في جانب العلم والعمل قال الشاعر :

ألا لا يحبان أحد علمنا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ومن هذا قول موسى لقومه وقد قالوا (اتخذنا هزواً قال أعود بالله أن أكون من الجاهلين) فجعل الاستهزاء بالمؤمنين جهلاً . ومثله قوله تعالى حكاية عن يوسف أنه قال (وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين) . ومن هذا قوله تعالى (خذ العفو وأمر

(١) هكذا في الأصل والصواب :

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي فعل الفقر

بالمعرف وأعرض عن الجاهلين) ليس المراد إعراضه عن لا علم عنده فلا يعمله ولا يرشده وإنما المراد إعراضه عن جهل من جهل عليه فلا يقابله ولا يعاتبه . قال مقاتل وعروة والضحاك وغيرهم من نفسك عن مقابلتهم على سفههم وهذا كثير في كلامهم ومنه الحديث إذا كان صوم أحدكم فلا يصبخ ولا يجهل ومن هذا تسمية المعصية جهلا . قال قتادة أجمع أصحاب محمد أن كل من عصى الله فهو جاهل وليس المراد أنه جاهل بالتحريم إذ لو كان جاهلا لم يكن عاصيا فلا يترتب الحد في الدنيا والعقوبة في الآخرة على جاهل بالتحريم بل نفس الذنب يسمى جهلا وإن علم مرتكبه بتجريمه إما أنه لا يصدر إلا عن ضعف العلم ونقصانه وذلك جهل فسمى باسم سببه وإما تزيلا لفاعله منزلة الجاهل به . الثاني أنهم لما ردوا الحق ورغبوا عنه عوقبوا بالطبع والرين وسلب العقل والفهم كما قال تعالى عن المنافقين (ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) . الثالث أن العلم الذي ينتفع به ويستلزم النجاة والفلاح لم يكن حاصلًا لهم فسلب عنهم حقيقته والشئ قد ينتفي لثني ثمرته والمراد منه . قال تعالى في ساكن النار (فان له نار جهنم لا يموت فيها ولا يحيى) نبي الحياة لا تنفاه فائتتها والمراد منها ويقولون لا مال إلا ما أنفق ولا علم إلا ما نفع . ولهذا نفي عنه سبحانه عن الكفار الأسماع والأبصار والعقول لما لم ينتفعوا بها . وقال تعالى (وجعلناهم سماً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شئ إذ كانوا يجحدون بآيات الله) وقال تعالى (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها) ولما لم يحصل لهم الهدى المطلوب بهذه الحواس كانوا بمنزلة فاقديها . قال تعالى (سم بكم عمى فهم لا يعقلون) فالقلب يوصف بالبصر والعمى والسمع والصمم والنطق والبسم بل هذه له أصلاً وللعين والاذن واللسان تبعاً فإذا عدمها القلب فصاحبه أعمى مفتوح العين أصم ولا آفة باذنه أبكم وإن كان فصيح اللسان . قال تعالى (فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) فلا تنافي بين قيام الحججة بالعلم وبين سلبه ونفيه بالطبع والحتم والغفل على قلوب من لا يعمل بموجب الحججة وينقاد لها . قال تعالى (وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفوراً) . فآخبر سبحانه أنه منعهم فقه كلامه وهو الإدراك الذي ينتفع به من فقهه ولم يكن ذلك مانعاً لهم من الإدراك الذي تقوم به الحججة عليهم فانهم لو لم يفهموه جملة ما ولوا على أدبارهم نفوراً عند ذكر توحيد الله فلما ولوا عند ذكر التوحيد دل على أنهم كانوا يفهمون الخطاب وأن الذي غشى قلوبهم كالذي غشى آذانهم . ومعلوم أنهم لم يعدموا السمع جملة ويصيروا كالأعمى . ولذلك

ينفي سبحانه عنهم السمع تارة ويشبته أخرى قال الله تعالى (ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم)
ومعلوم أنهم قد سمعوا القرآن وأمر الرسول باسماهم إياه . وقال تعالى (وقالوا لو كنا نسمع
أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير) فهذا السمع المنفي عنهم سمع الفهم والفقه والمعنى ولو علم
الله فيهم خيراً لأسمعهم سمعاً ينتفعون به وهو فقهه المعنى وعقله والافقد سمعوه سمعاً تقوم به
عليهم الحاجة ولكن لما سمعوه مع شدة بغضه وكرهته ونفرتهم عنه لم يفهموه ولم يعقلوه
والرجل إذا اشتدت كراهته للكلام ونفرتة عنه لم يفهم ما يراد به فينزل منزلة من لم يسمعه .
قال تعالى (ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون) نفى عنهم استطاعة السمع مع
صحة حواسهم وسلامتها وإنما لفرط بغضهم ونفرتهم عنه وعن كلامه صاروا بمنزلة من لا يستطيع
أن يسمعه ولا يراه وهذا استعمال معروف للخاصة والعامية يقولون لا أطيع أنظر إلى فلان
ولا أستطيع أن أسمع كلامه من بغضه ونفرتة عنه وبعض الجبرية يحتج بهذه الآية وشبهها على
مذهبهم ولادلالة فيها إذ ليس المراد سلبهم السمع والبصر الذي تقوم به الحاجة قطعاً وإنما المراد سلب
السمع الذي يرتب عليه فائدته وثمرته والقدر حق ولكن الواجب تنزيل القرآن منازلته ووضع
الآيات مواضعها واتباع الحق حيث كان ومثل هذا إذا لم يحصل لفهم الخطاب لا يعذر بذلك
لأن الآفة منه وهو بمنزلة من سد أذنيه عند الخطاب فلم يسمعه فلا يكون ذلك عذراً له . ومن
هذا (قولهم قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب) يعنون
أنهم في ترك القبول منه ومحبة الاستماع لما جاء به وإيثار الأعراض عنه وشدة النفار عنه بمنزلة
من لا يعقله ولا يسمعه ولا يبصر المخاطب لهم به فهذا هو الذي يقولون لا خلود في النار
(ولو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير) ولهذا جعل ذلك مقدوراً لهم وذنباً
اكتسبوه . فقال تعالى (فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير) والله تعالى ينفي تارة
عن هؤلاء العقل والسمع والبصر فإنها مدارك العلم وأسباب حصوله وتارة ينفي عنهم
السمع والعقل وتارة ينفي عنهم السمع والبصر وتارة ينفي عنهم العقل والبصر وتارة ينفي عنهم
وحده فنفي الثلاثة نفي لمدارك العلم بطريق المطابقة ونفي بعضها نفي له بالمطابقة والآخر باللزوم
فإن القلب إذا فسد فسد السمع والبصر بل أصل فسادهما من فساده وإذا فسد السمع والبصر
فسد القلب فإذا أعرض عن سماع الحق وأبغض قائله بحيث لا يحب رؤيته امتنع وصول الهدى
إلى القلب ففسد وإذا فسد السمع والعقل تبعهما فساد البصر فكل مدرك من هذه يصح بصحة
الآخر ويفسد بفساده . فلنذا يجيء في القرآن نفي ذلك صريحاً ولزوماً . وبهذا التفصيل يعلم
اتفاق الأدلة من الجانبين وفي استدلال الطائفة الثانية بقوله (الذين آتيناهم الكتاب)
يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) ونظائرها نظر فإن الله تعالى حيث قال (الذين آتيناهم الكتاب) لم
يكونوا إلا بمذوحين مؤمنين وإذا أراد ذمهم والاختبار عنهم بالعناد وإيثار الضلال أتى بلفظ

الذين أتوا الكتاب مبيناً للمفعول . فالأول كقوله تعالى (الذين آتيناكم الكتاب من قبله هم به يؤمنون وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا) الآيات . وكقوله تعالى (أفغير الله أتبعي حكما وهو الذي أنزل اليكم الكتاب مفصلاً والذين آتيناكم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين) فهذا في سياق مدحهم والاستشهاد بهم ليس في سياق ذمهم والاختبار بعنادهم ووجودهم كما استشدهم في قوله تعالى (قل كفي بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب) وفي قوله (فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون) . وقال تعالى (الذين آتيناكم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون) . واختلاف في الضمير في يتلونه حق تلاوته فقيل هو ضمير الكتاب الذي أتوه قال ابن مسعود يحلون حلاله ويحرمون حرامه ويقروونه كما أنزل ولا يحرفونه عن مواضعه قالوا وأنزات في مؤمنى أهل الكتاب وقيل هذا وصف للمسلمين والضمير في يتلونه للكتاب الذي هو القرآن وهذا بعيد إذا عرف أن القرآن يأباه ولا يرد على ما ذكرنا قوله تعالى (الذين آتيناكم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وأن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون) بل هذا حجة لنا أيضاً لما ذكرنا فانه أخبر في الأول عن معرفتهم برسوله صلى الله عليه وسلم ودينه وقبلته كما يعرفون أبناءهم استشهاداً بهم على من كفر وثناه عليهم ولهذا ذكر المفسرون أنهم عبد الله بن سلام وأصحابه وخص في آخر الآية بالذم طائفة منهم فدل على أن الأولين غير مذمومين وكونهم دخلوا في جملة الأولين بلفظ المضمير لا يوجب أن يقال آتيناكم الكتاب عند الاطلاق فانهم دخلوا في هذا اللفظ ضمناً وتبعاً فلا يلزم تناوله لهم قصداً واختياراً . وقال تعالى في سورة الانعام (قل أتتكم للشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون الذين آتيناكم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) قيل الرسول وصدقه وقيل المذكور هو التوحيد والقولان متلازمان إذ ذلك في معرض الاستشهاد والاحتجاج على المشركين لاني معرض ذم الذين آتاهم الكتاب فان السورة مكية والحجاج كان فيها مع أهل الشرك والسياق يدل على الاحتجاج لاذم المذكورين من أهل الكتاب . وأما الثاني فكقوله (وأن الذين أتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون وإن أتيت الذين أتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك) فهذا شهادته سبحانه للذين أتوا الكتاب . والأول شهادته للذين آتاهم الكتاب بأنهم يؤمنون . وقال تعالى (يا أيها الذين أتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصداقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على ادبارها) وقال تعالى (وقل للذين أتوا الكتاب والأمينين أو أسلمتم) وهذا خطاب لمن لم يسلم منهم وإلا فلم يؤمر

أن يقول هذا لمن أسلم منهم وصدق به ولهذا لا يذكر سبحانه الذين أوتوا نصيباً من الكتاب إلا بالذم أيضاً كقوله (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت) الآية . وقال تعالى (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل) . وقال (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون) فالأقسام أربعة الذين آتيناهم الكتاب وهذا لا يذكره سبحانه إلا في معرض المدح والذين أوتوا نصيباً من الكتاب لا يكون أظ إلا في معرض الذم والذين أوتوا الكتاب أعم منه فانه قد يتناولهما ولكن لا يفرد به الممدوحون قط وبأهل الكتاب يعم الجنس كله ويتناول الممدوح منه والمذموم كقوله (من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون يؤمنون بالله واليوم الآخر) الآية . وقال في الذم (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين) وهذا الفصل ينتفع به جدا في أكبر مسائل أصول الإسلام وهي مسألة الإيمان واختلاف أهل القبلة فيه وقد ذكرنا فيه نكتة حسناً يتضح بها الحق في المسألة والله أعلم . الوجه الثاني والثمانون أن الله سبحانه فاوت بين النوع الإنساني أعظم تفاوت يكون بين المخلوقين فلا يعرف اثنان من نوع واحد بينهما من التفاوت ما بين خير البشر وشرهم والله سبحانه خلق الملائكة عقولا بلا شهوات وخلق الحيوانات ذوات شهوات بلا عقول وخلق الإنسان هركياً من عقل وشهوة فمن غلب عقله شهوته كان خيراً من الملائكة ومن غلبت شهوته عقله كان شراً من الحيوانات وفوت سبحانه بينهم في العلم فجعل عالمهم معلم الملائكة ، كما قال تعالى (يا آدم أنبئهم بأسمائهم) وتلك مرتبة لارتبة فوقها وجعل جاهلهم بحيث لا يرضى الشيطان به ولا يصلح له كما قال الشيطان لجاهلهم الذي أطاعه في الكفر إني برىء منك وقال لجاهلهم الذين عصوا رسوله إني برىء منكم فله ما أشد هذا التفاوت بين شخصين أحدهما تسجد له الملائكة ويعلمها بما الله عليه والآخر لا يرضى الشيطان به وليا وهذا التفاوت العظيم إنما حصل بالعلم وثمرته ولو لم يكن في العلم إلا القرب من رب العالمين والالتحاق بعالم الملائكة وصحبة الملائكة الأعلى لكي في به فضلاً وشرفاً فكيف وعز الدنيا والآخرة منوط به ومشروط بحصوله . الوجه الثالث والثمانون أن أشرف ما في الإنسان محل العلم منه وهو قلبه وسمعه وبصره . ولما كان القلب هو محل العلم والسمع رسوله الذي يأتيه به والعين طبيعته كان ملكاً على سائر الأعضاء يأمرها فتأتمر لأمره ويصرفها فتنقاد له طائفة بما خص به من العلم دونها فلذلك كان ملكها والمطاع فيها وهكذا العالم في الناس كالقلب في الأعضاء . ولما كان صلاح الأعضاء بصلاح ملكها ومطاعها وفسادها بفسادها كانت هذه حال الناس مع علمائهم

وملوكم . كما قال بعض السلف صنفان إذا صلحا صلح سائر الناس وإذا فسدا فسد سائر الناس العلماء والأمراء . قال عبد الله بن المبارك :

وهل أفسد الدين الا الملو ك وأخبار سوء ورهبانها

ولما كان للسمع والبصر من الإدراك ما ليس لغيرهما من الأعضاء كانا في أشرف جزء من الإنسان وهو وجهه وكانا من أفضل ما في الإنسان من الأجزاء والأعضاء والمنافع . واختلف في الأفضل منهما فقالت طائفة منهم أبو المعالي وغيره السمع أفضل قالوا لأن به تنال سعادة الدنيا والآخرة فانها إنما تحصل بمتابعة الرسل وقبول رسالاتهم وبالسمع عرف ذلك فان من لا يسمع له لا يعلم ما جاؤا به . وأيضاً فان السمع يدرك به أجل شيء وأفضله وهو كلام الله تعالى الذي فضله على الكلام كفضل الله على خلقه ، وأيضاً فان العلوم إنما تنال بالتفاهم والتخاطب ولا يحصل ذلك إلا بالسمع . وأيضاً فان مدركه أعم من مدرك البصر فانه يدرك الكليات والجزئيات والشاهد والغائب والموجود والمعدوم والبصر لا يدرك إلا بعض المشاهدات والسمع يسمع كل علم فأين أحدهما من الآخر ولوفرنا شخصين أحدهما يسمع كلام الرسول ولا يرى شخصه والآخر بصير يراه ولا يسمع كلامه لاصممه هل كانا سواء . وأيضاً ففارقة البصر إنما يفقد إدراك بعض الأمور الجزئية المشاهدة ويمكنه معرفتها بالصفة ولو تقريباً وأما فاقد السمع فالذي فاته من العلم لا يمكن حصوله بحاسة البصر ولو قريباً . وأيضاً فان ذم الله تعالى للكفار بعدم السمع في القرآن أكثر من ذمهم بعدم البصر بل إنما يذمهم بعدم البصر تبعاً لعدم العقل والسمع . وأيضاً فان الذي يورده السمع على القلب من العلوم لا يلحقه فيه كلال ولا سامة ولا تعب مع كثرة وعظمه والذي يورده البصر عليه يلحقه فيه الكلال والضعف والنقص وربما خشى صاحبه على ذهابه مع قلته ونزارته بالنسبة إلى السمع . وقالت طائفة منهم ابن قتيبة بل البصر أفضل فان أعلا النعم وأفضله وأعظمه لذة هو النظر إلى الله في الدار الآخرة وهذا إنما ينال بالبصر وهذه وحدها كافية في تفضيله . . قالوا وهو مقدمة القلب وطبيعته ورائده فنزلته منه أقرب من منزلة السمع ولهذا كثيراً ما يقرن بينهما في الذكر بقوله (فاعتبروا يا أولى الأبصار) فالاعتبار بالقلب والبصر بالعين . وقال تعالى (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) ولم يقل وأسماعهم . وقال تعالى (فإنها لا تسمى الأبصار ولكن تسمى القلوب التي في الصدور) وقال تعالى (قلوب يومئذ واجفة أبصارها خاشعة) وقال تعالى (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور) وقال في حق رسوله (ما كذب الفؤاد ما رأى) ثم قال (مازاغ البصر وما طغى) وهذا يدل على شدة الوصلة والارتباط بين القلب والبصر ولهذا يقرأ الإنسان ما في قلب

الآخر من عينه وهذا كثير في كلام الناس نظمه ونثره وهو أكثر من أن نذكره هنا . ولما كان القلب أشرف الأعضاء كان أشدها ارتباطاً به وأشرف من غيره . قالوا ولهذا يأتى القلب ما لا يأتى السمع عليه بل إذا ارتاب من جهة عرض ما يأتى به على البصر ليزكيه أم يردّه فالبصر حاكم عليه مؤتمن عليه . قالوا ومن هذا الحديث الذى رواه أحمد فى مسنده مرفوعاً ليس المخبر كالمعائن . قالوا ولهذا أخبر الله سبحانه موسى أن قومه افتتنوا من بعده وعبدوا العجل فلم يلحقه فى ذلك ما لحقه عند رؤية ذلك ومعاينته من إلقاء الألواح وكسرها لقوت المعاينة على الخبر . قالوا وهذا إبراهيم خليل الله يسأل ربه أن يريه كيف يحيى الموتى وقد علم ذلك بنجر الله له ولو لكان طلب أفضل المنازل وهى طمأنينة القلب . قالوا ولليقين ثلاث مراتب أولها للسمع وثانيتها للعين (١) وهى المسماة بعين اليقين وهى أفضل من المرتبة الأولى وأكمل . قالوا وأيضاً فالبصر يودى إلى القلب ويودى عنه فان العين مرآة القلب يظهر فيها ما يحبه من المحبة والبغض والموالاتة والمعاداة والسرور والحزن وغيرها . وأما الأذن فلان يودى عن القلب شيئاً البتة وإنما مرتبتها الايصال اليه حسب فالعين أشد تعلقاً به . والصواب ان كلامهما له خاصية فضل بها الآخر فالمدرّك بالسمع أعم وأشمل والمدرّك بالبصر أتم وأكمل فالسمع له العموم والشمول والبصر له الظهور والتمام وكال الإدراك وأما نعيم أهل الجنة فشيئان . أحدهما النظر إلى الله . والثانى سماع خطابه وكلامه كما رواه عبد الله بن أحمد فى المسند وغيره كأن الناس يوم القيامة لم يسمعوا القرآن إذا سمعوه من الرحمن عز وجل . ومعلوم ان سلامه عليهم وخطابه لهم ومحضرته إياهم كما فى الترمذى وغيره لا يشبهها شىء قط ولا يكون أطيب عندهم منها ولهذا يذكر سبحانه فى وعيد أعدائه انه لا يكلمهم كما يذكر احتجاجاً عنهم ولا يرونه فكلامه أعلا نعيم أهل الجنة والله أعلم . الوجه الرابع والثمانون ان الله سبحانه فى القرآن يعدد على عباده من نعمه عليهم أن اعطاهم آلات العلم فيذكر الفؤاد والسمع والأبصار ومرة يذكر اللسان الذى يترجم به عن القلب . فقال تعالى فى سورة النعم وهى سورة النحل التى ذكر فيها أصول النعم وفروعها وتمامها ومكملاتها فعدد نعمه فيها على عباده وتعرف بها اليهم واقتضاهم شكرها وأخبر أنه يتمها عليهم ليعرفوها ويذكروها ويشكروها فأولها فى أصول النعم وآخرها فى مكملاتها . قال تعالى (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون) فذكر سبحانه نعمته عليهم بأن أخرجهم لاعلم لهم ثم اعطاهم الأسماع والأبصار والأفئدة التى نالوا بها من العلم ما نالوه وانه فعل بهم ذلك

(١) هكذا فى الأصل بدون أن يذكر المرتبة الثالثة .

ليشكروه . وقال تعالى (وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء) وقال تعالى (ألم نجعل له عينين ولساناً وشفقتين وهديناه النجدين) فذكر هنا العينين التي يبصر بهما فيعلم المشاهدات وذكر هداية النجدين وهما طريقا الخير والشر وفي ذلك حديث مرفوع ومرسل وهو قول أكثر المفسرين وتدل عليه الآية الأخرى (إنا هديناك السبيل إما شاكرًا وإما كفرًا) والهداية تكون بالقلب والسمع فقد دخل السمع في ذلك لزوماً وذكر اللسان والشفقتين اللتين هما آلة التعليم فذكر آلات العلم والتعليم وجعلها من آياته الدالة عليه وعلى قدرته و وحدانيته ونعمه التي تعرف بها إلى عباده ولما كانت هذه الأعضاء الثلاثة التي هي أشرف الأعضاء وملوكها والمنصرفه فيها والحاكمة عليها خصها سبحانه وتعالى بالذكر في السؤال عنها . فتم قال (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً) فسعادة الإنسان بصحة هذه الأعضاء الثلاثة وشقاوته بفسادها . قال ابن عباس يسأل الله العباد فيما استعملوا هذه الثلاثة السمع والبصر والفؤاد والله تعالى أعطى العبد السمع ليعلم به أوامر ربه ونواهيه وعهوده والقلب ليعقلها ويفقهها والبصر ليرى آياته فيستدل بها على وحدانيته وربوبيته فالمقصود باعطائه هذه الآلات العلم وثمرته ومقتضاه . الوجه الخامس والثمانون إن أنواع السعادة التي تؤثرها النفوس ثلاثة سعادة خارجية عن ذات الإنسان بل هي مستعارة له من غيره نزول باسترداد العارية وهي سعادة المال والحياة فبيننا المرء بها سعيداً ملحوظاً بالعناية مرموقاً بالأبصار إذ أصبح في اليوم الواحد أذل من وتد بقاع يشج رأسه بالفهر واجبي فالسعادة والفرح بهذه كفرح الأقرع بحمة ابن عمه والجمال بها كجمال المرء بثيابه وبزينته فاذا جاوز بصرك كسوته فليس وراء عبادان قرية . ويحكى عن بعض العلماء أنه ركب مع تجار في مركب فانكسرت بهم السفينة فأصبحوها بعد عز الغنى في ذل الفقر ووصل العالم إلى البلد فأكرم وقصد بأنواع التحف والكرامات فلما أرادوا الرجوع إلى بلادهم قالوا له هل لك إلى قومك كتاب أو حاجة فقال نعم تقولون لهم إذا اتحدتم مالا لا يفرق إذا انكسرت السفينة فاتخذوا العلم تجارة . واجتمع رجل ذو هيئة حسنة ولباس جميل ورواه برجل عالم نجس المخاضة فلم ير شيئاً فقالوا كيف رأيته فقال رأيت داراً حسنة مزخرفة ولكن ليس بها ساكن . السعادة الثانية سعادة في جسمه وبدنه كصحته واعتدال مزاجه وتناسب أعضائه وحسن تركيبه وصفاء لونه وقوة أعضائه فهذه ألصق به من الأولى ولكن هي في الحقيقة خارجة عن ذاته وحقيقته فان الإنسان إنسان بروحه وقلبه لا بجسمه وبدنه . كما قيل :

يا خادم الجسم كى يشقى بخدمته فأنت بالروح لا بالجسم إنسان (١)
فنسبة هذه إلى روحه وقلبه كنسبة ثيابه ولباسه إلى بدنه فان البدن أيضا عارية للروح وآلة لها ومركب من مراكبها فسماعاتها بصحته وجماله وحسنه سعادة خارجة عن ذاتها وحقيقتها .
السعادة الثالثة هى السعادة الحقيقية وهى سعادة نفسانية روحية قلبية وهى سعادة العلم النافع ثمرته فانها هى الباقية على تقلب الأحوال والمصاحبة للعبد فى جميع أسفاره وفى دوره الثلاثة .
أعنى دار الدنيا ودار السبرخ ودار القرار وبها يترقى معارج الفضل ودرجات الكمال .
أما الأولى فانها تصحبه فى البقعة التى فيها ماله وجهاه . والثانية تعرضه للزوال والتبدل بنكس الخلق والرد إلى الضعف فلا سعادة فى الحقيقة إلا فى هذه الثالثة التى كلما طال الأمد ازدادت قوة وعلواً وإذا عدم المال والجاه فهى مال العبد وجهاه وتظهر قوتها وأثرها بعد مفارقة الروح البدن إذا انقطعت السعادتان الأوليتان وهذه السعادة لا يعرف قدرها ويبعث على طلبها إلا العلم بها فعادت السعادة كلها إلى العلم وما يقتضيه والله يوفق من يشاء لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع . وإنما رغب أكثر الخلق عن اكتساب هذه السعادة وتحصيلها وعورة طريقها ومرارة مبادئها وتعب تحصيلها وانها لا تنال إلا على جد من التعب فانها لا تحصل إلا بالجد المحض بخلاف الأوليين فانهما حظ قد يحوزه غير طالبه وبخت قد يحوزه غير جالبه من ميراث أو هبة أو غير ذلك . وأما سعادة العلم فلا يورثك إياها إلا بذل الوسع وصدق الطلب وصحة النية . وقد أحسن القائل فى ذلك :

فقل لمرجى معالى الأمور بغير اجتهاد رجوت المحالا

﴿ وقال الآخر ﴾

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والإقدام قتال

ومن طمحت همته الى الأمور العالية فواجب عليه أن يشد على حجة الطرق الدينية وهى السعادة وان كانت فى ابتدائها لا تنفك عن ضرب من المشقة والكراهة والتأذى وانما متى أكرهت النفس عليها وسيقت طائفة وكراهة اليها وصبرت على لأوائها وشدتها أفضت منها الى رياض مؤنقة ومقاعد صدق ومقام كريم تجدد كل لذة دونها لعب الصبي بالعصفور بالنسبة الى لذات الملوك فينبذ حال صاحبها كما قيل :

وكنت أرى أن قد تنهى بي الهوى الى غاية ما بملها لى مذهب

(١) هكذا بالأصل والبيت مقتضب من بيتين وهما :

يا خادم الجسم كى يشقى بخدمته أنطاب الريح مما فيه خسران
أنهى إلى الروح واستكمل فضائلها فأنت بالروح لا بالجسم إنسان

فلما تلاقينا وعايينت حسنها تيقنت أني إنما كنت ألعب

فالمسكارم منوطة بالمسكاراة والسعادة لا يعبر إليها إلا على جسر المشقة فلا تقطع مسافتها إلا في سفينة الجهد والاجتهاد . قال مسلم في صحيحه قال يحيى بن أبي كثير لا ينال العلم براحة الجسم . وقد قيل من طلب الراحة ترك الراحة .

فيا وصل الحبيب أما إليه بغير مشقة أبدا طريق

ولولا جهل الأكرهين بحلاوة هذه اللذة وعظم قدرها لتجالدوا عليها بالسيوف ولكن حفت بحجاب من المسكاره وحجبوا عنها بحجاب من الجهل ليختص الله لها من يشاء من عباده والله ذو الفضل العظيم ، الوجه السادس والثمانون إن الله تعالى خلق الموجودات وجعل لكل شيء منها كالا يختص به هو غاية شرفه فاذا عدم كاله انتقل إلى الرتبة التي دونه واستعمل فيها فكان استعماله فيها كمال أمثاله فاذا عدم تلك أيضا نقل إلى مادونها ولا تعطل وهكذا أبدا حتى إذا عدم كل فضيلة صار كالشوك وكالحطب الذي لا يصلح إلا للوقود فالفرس إذا كانت فيه فروسيته التامة أعد لمراكب الملوك وأكرام إكرام مثله فاذا نزل عنها قليلا أعد لمن دون الملك فإن ازداد تقصيره فيها أعد لآحاد الأجناد فان تقاصر عنها جملة استعمل استعمال الخمار إما حول المدار وإما لنقل الزبل ونحوه فان عدم ذلك استعمل استعمال الأغنام للذبح والاعدام . كما يقال في المثل أن فرسين التقيا أحدهما تحمى ملك والآخر تحمى الروايا فقال فرس الملك أما أنت صاحبي وكنت أنا وأنت في مكان واحد فما الذي نزل بك إلى هذه المرتبة فقال ما ذاك إلا أنك هملجت قليلا وتكسعت أنا . وهكذا السيف إذا نبا عما هيء له ولم يصلح له ضرب منه فاس أو مفشار ونحوه وهكذا الدور العظام الحسان إذا خربت وتهدمت اتخذت حظائر للغنم أو الإبل وغيرها . وهكذا آدمي إذا كان صالحا لاصطفاه الله له برسائله ونبوته اتخذه رسولا ونبيا . كما قال تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالته) فاذا كان جوهره قاصرا عن هذه الدرجة صالحا لخلافة النبوة وميراثها رشحه لذلك وبلغه إياه فاذا كان قاصرا عن ذلك قابلا لدرجة الولاية رشح لها وإن كان ممن يصلح للعمل والعبادة دون المعرفة والعلم جعل من أهله حتى ينتهي إلى درجة عموم المؤمنين فان نقص عن هذه الدرجة ولم تكن نفسه قابلة لشيء من الخير أصلا استعمل حطبا ووقودا للنار . وفي أثر اسرائيلي أن موسى سأل ربه عن شأن من يعذبهم من خلقه . فقال يا موسى ازرع زرعا فزرعه فأوحى إليه أن احصده ثم أوحى إليه أن انسفه وذره ففعل وخلص الحب وحده والعيدان والعصف وحده فأوحى إليه أن لا يجعل في النار من العباد من لا خير فيه بمنزلة العيذان والشوك التي لا يصلح إلا للنار . وهكذا الإنسان يترقى في درجات الكمال درجة بعد

درجة حتى يبلغ نهاية ما يناله أمثاله منها فكم بين حاله في أول كونه نظفة وبين حاله والرب
يسلم عليه في داره وينظر إلى وجهه بكره وعشيا والنبي صلى الله عليه وسلم في أول أمره
لما جاءه الملك فقال له اقرا فقال ما أنا بقارىء وفي آخره أمره بقول الله له (اليوم أكملت
لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي) وبقوله له خاصة (وأنزله عليك الكتاب والحكمة
وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما) : وحكى أن جماعة من النصارى
تحدثوا فيما بينهم فقال قائل منهم ما أقل عقول المسلمين يزعمون أن نبيهم كان راعى الغنم
فكيف يصلح راعى الغنم للنبوة . فقال له آخر من بينهم أما هم فوالله أعقل منا فان الله
بحكمته يسترعى النبی الحيوان البهيم فاذا أحسن رعايته والقيام عليه نقله منه إلى رعاية الحيوان
الناطق حكمة من الله وتدریجاً لعبده ولکن نحن جئنا إلى مولود خرج من امرأة يأكل
ويشرب ويبول ويبكى فقلنا هذا إلهنا الذى خلق السموات والأرض فأمسك القوم عنه .
فكيف يحسن بذى همة قد أراح الله عنه عله وعرفه السعادة والشقاوة أن يرضى بأن يكون
حيوانا وقد أمكنه أن يصير إنسانا وبأن يكون إنسانا وقد أمكنه أن يكون ملكا وبأن
يكون ملكا وقد أمكنه أن يكون ملكا فى مقعد صدق عند ملك مقتدر فتقوم الملائكة فى
خدمته وتدخل عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار . وهذا السبيل
إنما ينال بالعلم ورعايته والقيام به فإد الأمر إلى العلم وثمرته والله تعالى الموفق . وأعظم
التقص وأشد الحسرة نقص القادر على التمام وحسرتة على تفويته . كما قال بعض السلف اذا
كثرت طرق الخير كان الخارج منها أشد حسرة . وصدق القائل :

ولم أر فى عيوب الناس عيباً كـنقص القادرين على التمام

فثبت أنه لا شىء أفتح بالإنسان من أن يكون غافلا عن الفضائل الدينية والعلوم النافعة
والأعمال الصالحة فمن كان كذلك فهو من الهمج الرعاع الذين يكدرون الماء ويغفلون
الأسعار إن عاش عاش غير حميد وإن مات مات غير فقيد فقدم راحة للبلاد والعباد ولا
تبكى عليهم السماء ولا تستوحش لهم الغبراء . الوجه السابع والثمانون أن القلب يعترضه
مرضان يتواردان عليه إذا استحكما فيه كان هــلاكه وموته وهما مرض الشهوات ومرض
الشبهات هذان أصل داء الخلل إلا من عافاه الله . وقد ذكر الله تعالى هذين المرضين
فى كتابه . أما مرض الشبهات وهو أصعبهما وأفتلهاما للقلب فى قوله فى حق المنافقين (فى
قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا) وقوله (وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون
ماذا أراد الله بهذا مثلا) . وقال تعالى (ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض
والقاسية قلوبهم) فهذه ثلاثة مواضع المراد بمرض القلب فيها مرض الجهل والشبهة . وأما مرض

الشهوة في قوله (يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض) أى لا تلن في الكلام فيطمع الذي في قلبه فجور وزناء . قالوا والمرأة ينبغى لها إذا خاطبت الاجانب أن تغلظ كلامها وتقويه ولا تليته وتسكره فان ذلك أبعد من الريبة والطمع فيها وللقلب أمراض أخر من الرياء والكبر والعجب والحسد والفخر والخيلاء وحب الرئاسة والعلو في الأرض وهذا المرض مركب من مرض الشهوة والشهوة فانه لا بد فيه من تخيل فاسد واردة باطالة كالعجب والفخر والخيلاء والكبر المركب من تخيل عظمتة وفضله وإرادة تعظيم الخلق له ومحمدتهم فلا يخرج مرضه عن شهوة أو شهوة أو مركب منهما . وهذه الأمراض كلها متولدة عن الجهل ودواؤها العلم كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في حديث صاحب الشجرة الذي افتوه بالغسل فمات فقلوه قتلهم الله ألا سألوا إذ لم يعلموا إنما شفاء العي السؤال فجعل العي وهو عي القلب عن العلم واللسان عن النطق به مرضاً وشفائه سؤال العلماء فأمراض القلوب أصعب من أمراض الابدان لأن غاية مرض البدن أن يفضى بصاحبه إلى الموت . وأما مرض القلب فيفضى بصاحبه إلى الشقاء الأبدى ولا شفاء لهذا المرض إلا بالعلم ولهذا سمي الله تعالى كتابه شفاء لأمراض الصدور . وقال تعالى (يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربي أن اتقوا الله ما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين) ولهذا السبب نسبة العلماء إلى القلوب كنسبة الأطباء إلى الابدان وما يقال للعلماء أطباء القلوب فهو لقدر ما جامع بينهما وإلا فالأمر أعظم فان كثيراً من الأمم يستغنون عن الأطباء ولا يوجد الأطباء إلا في اليسير من البلاد وقد يعيش الرجل عمره أو برهة منه لا يحتاج إلى طبيب . وأما العلماء بالله وأمره فهم حياة الموجود وروحه ولا يستغنى عنهم طرفة عين فحاجة القلب إلى العلم ليست كالحاجة إلى التنفس في الهواء بل أعظم وبالجملة فالعلم للقلب مثل الماء للسماك إذا فقدته مات فنسبة العلم إلى القلب كنسبة ضوء العين إليها وكنسبة سماع الأذن وكنسبة كلام اللسان إليه فاذا عدمه كان كالعين العمياء والأذن الصماء واللسان الأخرس ولهذا يصف سبحانه أهل الجهل بالعمى والصم والبكم وذلك صفة قلوبهم حيث فقدت العلم النافع فبقيت على عماها وصمها وبكمها . قال تعالى (ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً) والمراد عي القلب في الدنيا . وقال تعالى (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكياً وصماً أوهم جهنم) لأنهم مكندا كانوا في الدنيا والعبد يبعث على ما مات عليه . واختلف في هذا العمى في الآخرة فقيل هو عي البصيرة بدليل إخباره تعالى عن رؤية الكفار ما في القيامة ورؤية الملائكة ورؤية النار وقيل هو عي البصر ورجح هذا بأن الاطلاق ينصرف إليه وبقوله (قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً) وهذا عي العين فان الكافر لم يكن بصيراً بحجته . وأجاب هؤلاء عن رؤية الكفار

في القيامة بأن الله يخرجهم من قبورهم إلى موقف القيامة بصراء ويحشرون من الموقف إلى النار عمياً قاله الفراء وغيره . الوجه الثامن والتاؤون ان الله سبحانه بحكمته سلب على العبد عدواً عالمياً بطرق هلاكه وأسباب الشر الذي يلقه فيه متمننا فيها خيراً بها حريصاً عليها لا يفتقر يقظة ولا مناماً ولا بدله من واحدة من ست يناها منه . أحدها وهي غاية مراده منه أن يحول بينه وبين العلم والايان فيلقيه في الكفر فاذا ظفر بذلك فرغ منه واستراح فان فاتته هذه وهدى للاسلام حرص على تلو الكفر وهي البدعة وهي أحب اليه من المعصية فان المعصية يتاب منها والبدعة لا يتاب منها لأن صاحبها يرى أنه على هدى . وفي بعض الآثار يقول ابليس أهلكت بني آدم بالذنوب وأهلكوني بالاستغفار وبلا إله الا الله فلما رأيت ذلك بثبت فيهم الأهواء فهم يذنبون ولا يتوبون لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنماً فاذا ظفر منه بهذه صيره من رعاته وأمراته فان أعجزته تشغله بالعمل المفضول عما هو أفضل منه ليرتج عليه الذي بينهما وهي الخامسة فان أعجزه ذلك صار إلى السادسة وهي تسليط حربه عليه يؤذونه ويشتمونه ويهتونه ويرمونه بالعظام ليحزنه ويشغل قلبه عن العلم والارادة وسائر أعماله فكيف يمكن أن يحتز منه من لا علم له بهذه الامور ولا بعدوه ولا بما يحصنه منه فانه لا يتجو من عدوه إلا من عرفه وعرف طريقه التي يأتيه منها وجيشه الذي يستعين به عليه وعرف تداخله ومخارجه وكيفية محاربهه وبأى شيء يحاربه وبماذا يداوى جراحته وبأى شيء يستمد القوة لقتاله ودفعه وهذا كله لا يحصل إلا بالعالم فالجاهل في غفلة وعسى عن هذا الامر العظيم والخطب الجسم . ولهذا جاء ذكر العدو وشأنه وجنوده ومكايده في القرآن كثيراً جداً لحاجة النفوس إلى معرفة عدوها وطرق محاربهه وبجاهدته فلو لا أن العلم يكشف عن هذا لما نجا من نجا منه فالعلم هو الذي تحصل به النجاة . الوجه التاسع والتاؤون ان أعظم الاسباب التي يحرم بها العبد خير الدنيا والآخرة ولذة النعيم في الدارين ويدخل عليه عدو منها هو الغفلة المضادة للعلم والسكسل المضاد للارادة والعزيمة هذان أصل بلاء العبد وحرمانه منازل السعداء وهما من عدم العلم . أما الغفلة فمضادة للعلم منافية له وقد ذم سبحانه أهلها ونهى عن الكون منهم وعن طاعتهم والقبول منهم . قال تعالى (ولا تكن من الغافلين) . وقال تعالى (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا) . وقال تعالى (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل وأولئك هم الغافلون) . وقال النبي صلى الله عليه وسلم في وصيته لنساء المؤمنين لا تغفلن فتنسين الرحمة وسئل بعض العلماء عن عشق الصور فقال قلوب غفلت عن ذكر الله فابتلاها الله بعبودية غيره فالقلب الغافل مأوى

الشیطان فإنه وسواس خناس قد التقم قلب الغافل يقرأ عليه أنواع الوسواس والخيالات الباطلة فإذا تذكر وذكر الله انجمع وانضم وخنس وتضام لذكر الله فهو دائماً بين الوسوسة والخنس . وقال عروة بن رويم إن المسيح صلوات الله عليه وآله سأل ربه أن يريه موضع الشيطان من ابن آدم فجلى له فاذا رأسه رأس الحية واضع رأسه على ثمرة القلب فاذا ذكر العبد ربه خنس وإذا لم يذكر وضع رأسه على ثمرة قلبه فمناه وحدته . وقد روى في هذا المعنى حديث مرفوع فهو دائماً يترقب غفلة العبد فيبذر في قلبه بذر الأمانى والشهوات والخيالات الباطلة فيشمر كل حنظل وكل شوك وكل بلاء ولا يزال يمدده بسقيه حتى يغطي القلب ويعميه . وأما الكسل فيتولد عنه الاضاعة والتفريط والحرمان وأشد الندامة وهو مناف للارادة والعزيمة التي هي ثمرة العلم فان من علم أن كماله ونعيمه في شيء طلبه بجهد وعزم عليه بقلبه كله فان كل أحد يسعى في تكميل نفسه ولذته ولكن أكثرهم أخطأ الطريق لعدم علمه بما ينبغي أن يطلبه فالارادة مسبوقة بالعلم والتصور فتخلفها في الغالب انما يكون لتخلف العلم والادراك وإلا فتح العلم التام بأن سعادة العبد في هذا المطلب ونجاته وفوزه كيف يلحقه كسل في النهوض اليه ولهذا استعاذ النبي صلوات الله عليه وآله من الكسل . ففي الصحيح عنه انه كان يقول اللهم انى أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل وضلع الدين وغلبة الرجال فاستعاذ من ثمانية أشياء كل شيئين منها قرينان والفرق بينهما ان المكروه الوارد على القلب اما أن يكون على ماضى أو لما يستقبل . فالأول هو الحزن والثانى الهم . وان شئت قلت الحزن على المكروه الذى فات ولا يتوقع دفعه والهم على المكروه المنتظر الذى يتوقع دفعه وتأماه والعجز والكسل قرينان فان تخلف مصالحة العبد وكاله ولذته وسروره عنه أما أن يكون مصدره عدم القدرة فهو العجز أو يكون قادراً عليه لكن تخلف لعدم إرادته فهو الكسل وصاحبه يلام عليه ما يلام على العجز وقد يكون العجز ثمرة الكسل فيلام عليه أيضاً فكثيراً ما يكسل المرء عن الشيء الذى هو قادر عليه وتضعف عنه ارادته فيفضى به الى العجز عنه وهذا هو العجز الذى يلوم الله عليه في قول النبي صلى الله عليه وسلم إن الله يلوم على العجز والا فالعجز الذى لم تخاق له قدرة على دفعه ولا يدخل معجزه تحت القدرة لا يلام عليه . قال بعض الحكماء فى وصيته إياك والكسل والضجر فان الكسل لا ينهض لمكرمة والضجر إذا نهض اليها لا يصبر عليها والضجر متولد عن الكسل والعجز فلم يفرد في الحديث بلفظ ثم ذكر الجبن والبخل فإن الاحسان المتوقع من العبد اما بماله وإما ببدنه فالبخيل مانع لنفع ماله والجبان مانع لنفـع بدنه والمشهور عند الناس ان البخل مستلزم الجبن من غير عكس لأن من بخل بماله فهو بنفسه أبخل والشجاعة تستلزم الكرم من غير عكس لأن من جاد بنفسه فهو بماله أسمح وأجود وهذا الذى

قالوه ليس بلازم أكثره فان الشجاعة والكرم واضدادها أخلاق وغرائز قدتجمع في الرجل وقد يعطى بعضها دون بعض وقد شاهد الناس من أهل الاقدام والشجاعة والبأس من هو أبخل الناس وهذا كثير أما يوجد في أمة الترك يكون أشجع من ليث وأبخل من كلب فالرجل قد يسمح بنفسه ويضن بماله ، ولهذا يقاتل عليه حتى يقتل فيميدا بنفسه دونه فمن الناس من يسمح بنفسه وماله ومنهم من يبخل بنفسه ومنهم من يسمح بماله ويبخل بنفسه وعكسه و الأقسام الأربعة موجودة في الناس ثم ذكر ضلع الدين وغلبة الرجال فان القهر الذي ينال العبد نوعان . أحدهما قهر بحق وهو ضلع الدين . والثاني قهر بباطل وهو غلبة الرجال فصولات الله وسلامه على من أوتى جوامع العلم واقتبست كنوز العلم والحكمة من الفاظة والمقصود أن الغفلة والسكسل اللذين هما أصل الحرمان سببهما عدم العلم فعاد التقص كنه إلى عدم العلم والعزيمة والسكسل كله إلى العلم والعزيمة والناس في هذا على أربعة أضرب الضرب الأول من رزق علماء وأعين على ذلك بقوة العزيمة على العمل وهذا الضرب خلاصة الخلق وهم الموصوفون في القرآن بقوله (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) . (وقوله أولى الأيدي والأبصار) . وقوله أفمن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً أيمشى به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها) فبالحياة تنال العزيمة وبالنور ينال العلم وأمة هذا الضرب هم أولو العزم من الرسل الضرب الثاني من حرم هذا وهذا وهم الموصوفون بقوله (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) وقوله (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم الاكلاً نعام بل هم اضلوا سبيلاً) وقوله (لأنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء) وقوله (وما أنت بمسمع من في القبور) وهذا الصنف شر البرية يضيقون الديار ويغلون الأسعار وعند أنفسهم أنهم يعلون ولكن ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ويملدون ولكن ما يضرهم ولا ينفعهم وينطفون ولكن عن الهوى ينطقون ويتكلمون ولكن بالجهل يتكلمون ويؤمنون ولكن بالجبت والطاغوت ويعبدون ولكن يعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويجادلون ولكن بالباطل ليدحضوا به الحق ويتفكرون ويبيتون ولكن مالا يرضى من القولى يبيتون ويدعون ولكن مع الله إله آخر يدعون ويذكرون ولكن إذا ذكروا لا يذكرون ويصلون ولكنهم من المصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون ويحكون ولكن حكم الجاهلية يبعثون ويكتبون ولكن يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ائشثروا به ثمنا قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون ويقولون إننا نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون . فهذا الضرب ناس بالصورة وشياطين بالحقيقة وجلهم إذا فكرت فهم حمير أو كلاب أو ذئاب وصدق البحترى في قوله :

لم يبق من جل هذا الناس باقية يناها الوهم إلا هذه الصور

(وقال الآخر)

لا تخدعك اللحاء والصور

تسعة أعشار من ترى بقر

في شجر السدر منهم مثل

لها رواء وما لها ثمر

وأحسن من هذا كله قوله تعالى (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة) عالمهم كما قيل فيه :

زوامل للأسفار لا علم عندهم

بجيدها إلا كعلم الأباعر

لعمرك ما يدرى البعير إذا غدا

بأوساقه أوراخ ما في القرائر

وأحسن من هذا وأبلغ وأوجز وأفصح قوله تعالى (كمثل الخمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين) . الضرب الثالث من فتح له باب العلم وأغلق عنه باب العزم والعمل فهذا في رتبة الجاهل أو شر منه . وفي الحديث المرفوع أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه نبته أبو نعيم وغيره فهذا جهله كان خيرا له وأخذ لعذابه من علمه فما زاده العلم إلا وبالاً وعذاباً وهذا لا مطمع في صلاحه فان التائه عن الطريق يرجي له العود إليها إذا أبصرها فاذا عرفها وحاد عنها عمدا فتى ترجى هدايته . قال تعالى (كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين . الضرب الرابع من رزق حظا من العزيمة والإرادة ولكن قل نصيبه من العلم والمعرفة فهذا إذا وفق له الاقتداء بداع من دعاة الله ورسوله كان من الذين قال الله فيهم (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ذلك الفضل من الله وكفى بالله علما) رزقنا الله من فضله ولا أحرمانا بسوء أعمالنا انه غفور رحيم . الوجه التسعون ان كل صفة مدح الله بها العبد في القرآن فهي ثمرة العلم ونتيجته وكل ذم ذمه فهو ثمرة الجهل ونتيجته فدحه بالإيمان وهو رأس العلم ولبه ومدحه بالعمل الصالح الذي هو ثمرة العلم النافع ومدحه بالشكر والصبر والمسارة في الخيرات والحب له والخوف منه والرجاء والإجابة والحلم والوقار واللب والعقل والعفة والكرم والإيثار على النفس والنصيحة لعباده والرحمة بهم والرفقة وخفض الجناح والعتو عن مسيئتهم والصفح عن جانبيهم وبذل الإحسان لكافئتهم ودفع السيئة بالحسنة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر في مواطن الصبر والرضا بالقضاء واللين للأولياء والشدة على الأعداء والصدق في الوعد والوفاء بالعهد والإعراض

عن الجاهلين والقبول من الناصحين واليقين والتوكل والطمأنينة والسكينة والتواصل
والتعاطف والعدل في الأقوال والأفعال والأخلاق والقوة في أمره والبصيرة في دينه والقيام
بأداء حقه واستخراجه من المانعين له والدعوة إليه وإلى مرضاته وجنته والتحذير عن سبيل
أهل الضلال وتبيين طرق الغي وحال سالكيها والتواصي بالحق والتواصي بالصبر والحض
على طعام المسكين وبر الوالدين وصلة الأرحام وبذل السلام لكافة المؤمنين إلى سائر
الأخلاق المحمودة والأفعال المرصية التي أقسم الله سبحانه على عظيمها . فقال تعالى (ر
والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون وإن لك لأجراً غير ممنون وإنك لعلى خلق
عظيم) . قالت عائشة رضی الله عنها وقد سئلت عن خلق رسول الله ﷺ فقالت كان خلقه
القرآن فاكتفى بذلك السائل وقال فهمت أن أقوم ولا أسأل عن شيء بعدها فهذه الأخلاق
ونحوها هي ثمرة شجرة العلم . وأما شجرة الجهل فثمر كل ثمرة قبيحة من الكفر والفساد
والشرك والظلم والبغى والعدوان والجزع والهلع والكنود والعجلة والطيش والحدة والفحش
والبذاء والشح والبخل ولهذا قيل في حد البخل جهل مقرون بسوء الظن ومن ثمرته الغش
للخلق والكبر عليهم والفخر والخيلاء والعجب والرياء والسمعة والنفاق والكذب
واخلاف الوعد والغلظة على الناس والانتقام ومقابلة الحسنه بالسيئة والأمر بالمنكر والنهي
عن المعروف وترك القبول من الناصحين وحب غير الله ورجائه والتوكل عليه وإيثار رضاه
على رضا الله وتقديم أمره على أمر الله والتأوت عند حق الله والوثوق بما عند حق نفسه
والغضب لها والانتصار لها فإذا انتهكت حقوق نفسه لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم بأكثر
من حقه وإذا انتهكت محارم الله لم ينبض له عرق غضبا لله فلا قوة في أمره ولا بصيرة في دينه
ومن ثمرتها الدعوة إلى سبيل الشيطان وإلى سلوك طرق البغى واتباع الهوى وإيثار الشهوات
على الطاعات وقيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال وأدبنا وعقوق الأمهات وقطيعة
الأرحام وإساءة الجوار وركوب مركب الخزي والعار . وبالجملة فالخير بمجموعه ثمر يجتنى
من شجرة العلم والشر بمجموعه شوك يجتنى من شجرة الجهل فلو ظهرت صورة العلم الأبصار
لزداد حسنها على صورة الشمس والقمر ولو ظهرت صورة الجهل لكان منظرها أقبح منظر بل
كل خير في العالم فهو من آثار العلم الذي جاءت به الرسل ومسبب عنه . وكذلك كل خير
يكون إلى قيام الساعة وبعدها في القيامة وكل شر وفساد حصل في العالم ويحصل إلى قيام الساعة
وبعدها في القيامة فسببه مخالفة ما جاءت به الرسل في العلم والعمل ولولم يكن للعلم أب ومرب
وسانس ووزير إلا العقل الذي به عمارة الدارين وهو الذي أرشد إلى طاعة الرسل وسلم

القلب والجوارح ونفسه إليهم وانقاد لحكمه وعزل نفسه وسلم الأمر إلى أهله لكي به شرفا وفضلا وقد مدح الله سبحانه العقل وأهله في كتابه في مواضع كثيرة منه وذم من لا عقل له وأخبر أنهم أهل النار الذين لا سمع لهم ولا عقل فهو آلة كل علم وميزانه الذي به يعرف صحيحه من سقيمه وراجحه من مرجوحه والمرأة التي يعرف بها الحسن من القبيح . وقد قيل العقل ملك والبدن روحه وحواسه وحركاته كلها رعية له فاذا ضعف عن القيام عليها وتعهدا وصل الخلل إليها كلها . ولهذا قيل من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه كان حتفه في أغلب خصال الشر عليه . وروى أنه لما هبط آدم من الجنة أناه جبريل . فقال إن الله أحضرك العقل والدين والحياء لتختار واحدا منها فقال العقل فقال الدين والحياء أمرنا أن لا نفارق العقل حيث كان فانحاز إليه والعقل عقلان عقل غريزة وهو أب العلم ومربيه ومثمره وعقل مكتسب مستفاد وهو ولد العلم وثمرته ونتيجته فاذا اجتمعا في العبد فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء واستقام له أمره وأقبلت عليه جيوش السعادة من كل جانب وإذا فقد أحدهما فالحيوان البهيم أحسن حالا منه وإذا انقص الرجل بنقصان أحدهما ومن الناس من يرجح صاحب العقل الغريزي . ومنهم من يرجح صاحب العقل المكتسب . والتحقيق أن صاحب العقل الغريزي الذي لا علم ولا تجربة عنده آفته التي يؤتى منها الإحجام وترك انتهاز الفرصة لأن عقله يعقله عن انتهاز الفرصة لعدم علمه بها وصاحب العقل المكتسب يؤتى من الإقدام فإن علمه بالفرص وطرقها يلقيه على المبادرة إليها وعقله الغريزي لا يطبق رده عنه فهو غالبا يؤتى من إقدامه والأول من إحجامه فاذا رزق العقل الغريزي عقلا إيمانيا مستفادا من مشكاة النبوة لا عقلا معيشيا نفاقيا يظن أربابه أنهم على شيء إلا إنهم هم الكاذبون فانهم يرون العقل أن يرضوا الناس على طبقاتهم ويسلموهم ويستجلبوا مودتهم ومحبتهم وهذا مع أنه لا سبيل إليه فهو إيثار للراحة والدعة وموتة الأذى في الله والموالاته فيه والمعاداة فيه وهو وإن كان أسلم عاجلة فهو المهلك في الآجلة فانه ما ذاق طعم الإيمان من لم يوال في الله ويعاد فيه فالعقل كل العقل ما أوصل إلى رضا الله ورسوله والله الموفق المعين . وفي حديث مرفوع ذكره ابن عبد البر وغيره أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل قل فلان العابد أما زهدك في الدنيا فقد تعجلت به الراحة وأما انقطاعك إلى فقد اكتسبت به العز فما عملت فيما لي عليك قال وما لك علي قال هل واليت في وليا أو عادت في عدوا وذكر أيضا أنه أوحى الله إلى جبريل أن اخسف بقربة كذا وكذا قال يارب ان فيهم فلانا العابد قال به فابدا إنه لم يتمعر وجهه في يوما قط . الوجه الحادي والتسعون حديث ابن عمر عن النبي ﷺ اذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قالوا يا رسول الله وما رياض الجنة قال

حلق الذكر فان لله سيارات من الملائكة يطلبون حلق الذكر فاذا أتوا عليهم صفوا بهم . قال عطاء مجالس الذكر مجالس الحلال والحرام كيف يشتري ويبيع وبصوم ويصلى ويتصدق وينكح ويطلق ويحج ذكره الخطيب في كتاب الفقيه والمتفقه وقد تقدم بيانه . الوجه الثاني والتسعون ما رواه الخطيب أيضا عن ابن عمر يرفعه مجلس فقه خير من عبادة ستين سنة وفي رفته نظر . الوجه الثالث والتسعون ما رواه أيضا من حديث عبد الرحمن بن عوف يرفعه يسير الفقه خير من كثير من العبادة ولا يثبت رفته . الوجه الرابع والتسعون ما رواه أيضا من حديث أنس يرفعه فقيه أفضل عند الله من ألف عابد وهو في الترمذى من حديث روح ابن جناح عن مجاهد عن ابن عباس مرفوعاً وفي ثبوتها مرفوعين نظر والظاهر أن هذا من كلام الصحابة فمن دينهم . الوجه الخامس والتسعون ما رواه أيضاً عن ابن عمر يرفعه أفضل العبادة الفقه . الوجه السادس والتسعون . ما رواه أيضاً من حديث نافع عن ابن عمر يرفعه ما عبد الله بشيء أفضل من فقه في دين . الوجه السابع والتسعون . ما رواه عن علي أنه قال العالم أعظم أجراً من الصائم القائم الغازى في سبيل الله . الوجه الثامن والتسعون . ما رواه المخلص عن صاعد حدثنا القاسم بن الفضل بن بزيع حدثنا حجاج بن نصير حدثنا هلال بن عبد الرحمن الجعفي عن عطاء بن أبي ميمونة عن أبي هريرة وأبي ذرأنهما قالاباب من العلم يتعلمه أحب اليينا من ألف ركعة تطوعاً وباب من العلم نعلمه عمل به أو لم يعمل أحب اليينا من مائة ركعة تطوعاً وقالسمعنا رسول الله ﷺ يقول إذا جاء الموت طالب العالم وهو على هذه الحال مات شهيداً ورواه ابن داود عن شاذان عن حجاج به . قلت وشاهده مامر من حديث الترمذى عن أنس يرفعه من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع الوجه التاسع والتسعون مارواه الخطيب أيضاً عن أبي هريرة قال لأن أعلم باباً من العلم في أمر أو نهى أحب إلى من سبعين غزوة في سبيل الله وهذا ان صح فعناه أحب إلى من سبعين غزوة بلا علم لأن العمل بلا علم فساده أكثر من صلاحه أو يريد علماً يتعلمه ويعلمه فيكون له أجر من عمل به إلى يوم القيامة وهذا لا يحصل في الغزو المجرد . الوجه المائة مارواه الخطيب أيضا عن أبي الدرداء أنه قال مذاكرة العلم ساعة خير من قيام ليلة . الوجه الحادى والمائة مارواه عن الحسن قال لأن أعلم باباً من العلم فاعلمه مسلماً أحب إلى من أن يكون لى الدنيا في سبيل الله . الوجه الثانى والمائة قال مكحول ما عبد الله بأفضل من الفقه . الوجه الثالث والمائة قال سعيد بن المسيب ليست عبادة الله بالصوم والصلاة ولكن بالفقه في دينه وهذا الكلام يراد به أمران . أحدهما أنها ليست بالصوم والصلاة الخاليين عن العلم ولكن بالفقه الذى يعلم به كيف الصوم والصلاة . والثانى أنها ليست الصوم والصلاة

فقط بل الفقه في دينه من أعظم عباداته . الوجه الرابع والمائة قال اسحاق بن عبد الله بن أبي فروة أقرب الناس من درجة النبوة العلماء وأهل الجهاد والعلماء دلوا الناس على ماجات به الرسل وقد تقدم الكلام في تفضيل العالم على الشهيد وعكسه . الوجه الخامس والمائة قال سفيان بن عيينة أرفع الناس عند الله منزلة من كان بين الله وبين عباده وهم الرسل والعلماء الوجه السادس والمائة قال محمد بن شهاب الزهري ما عبد الله بمثل الفقه وهذا الكلام ونحوه يراد به أنه ما يعبد الله بمثل أن يتعبد بالفقه في الدين فيكون نفس التفقه عبادة . كما قال معاذ بن جبل عليكم بالعلم فإن طلبه لله عبادة وسيأتي ان شاء الله ذكر كلامه بتامه وقد يراد به أنه ما عبد الله بعبادة أفضل من عبادة يصحبها الفقه في الدين لعلم الفقيه في دينه بمراتب العبادات ومفسداتها وواجباتها وسننها وما يكملها وما ينقصها وكلا المعنيين صحيح . الوجه السابع والمائة قال سهل بن عبد الله التستري من أراد النظر إلى مجالس الأنبياء فليتنظر إلى مجالس العلماء وهذا لأن العلماء خلفاء الرسل في أممهم ووارثوهم في علمهم فمجالسهم مجالس خلافة النبوة ، الوجه الثامن والمائة أن كثيراً من الأئمة صرحوا بأن أفضل الأعمال بعد الفرائض طاب العلم . فقال الشافعي ليس شيء بعد الفرائض أفضل من طلب العلم وهذا الذي ذكر أصحابه عنه أنه مذهبه . وكذلك قال سفيان الثوري وحكاه الحنفية عن أبي حنيفة . وأما الإمام أحمد فحكى عنه ثلاث روايات احدها أنه العلم فانه قيل له أي شيء أحب إليك أجلس بالليل انسخ أو أصلى تطوعاً قال نسختك تعلم به أمور دينك فهو أحب إلي . . و ذكر الخلال عنه في كتاب العلم نصوصاً كثيرة في تفضيل العلم ، ومن كلامه فيه الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب وقد تقدم والرواية الثانية أن أفضل الأعمال بعد الفرائض صلاة التطوع واحتج هذه الرواية بقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة وبقوله في حديث أبي ذر وقد سأله عن الصلاة فقال خير موضوع وبأنه أوصى من سأله موافقته في الجنة بكثرة السجود وهو الصلاة . وكذلك قوله في الحديث الآخر عليك بكثرة السجود فانك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة وحط عنك بها خطيئة وبالاحاديث الدالة على تفضيل الصلاة والرواية الثالثة أنه الجهاد فانه قال لا أعدل بالجهاد شيئاً ومن ذا يطيقه . ولا ريب أن أكثر الأحاديث في الصلاة والجهاد : وأما مالك فقال ابن القاسم سمعت مالكا يقول ان أفواجا ابتغوا العبادة وأضاعوا العلم فخرجوا على أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأسيا فهم ولو ابتغوا العلم لحجزهم عن ذلك . قال مالك وكتب أبو موسى الأشعري إلى عمر بن الخطاب أنه قرأ القرآن عندنا عدد كذا وكذا فكتب إليه عمر أن أفرض لهم . من بيت المال فلما كان في العام

الثاني كتب إليه أنه قد قرأ القرآن عندنا عدد كثير لا أكثر من ذلك فكتب إليه عمر أن
أحهم من الديوان فاني أخاف من أن يسرع الناس في القرآن أن يتفقهوا في الدين فيتأولوه
على غير تأويله . وقال ابن وهب كنت بين يدي مالك بن أنس فوضعت ألواحي وقتت إلى
الصلاة فقال . ما الذي قمت إليه بأفضل من الذي تركته . قال شيخنا وهذه الأمور الثلاثة
التي فضل كل واحد من الأئمة بعضها وهي الصلاة والعلم والجهاد هي التي قال فيها عمر بن
الخطاب رضى الله عنه لولا ثلاث في الدنيا لما أحببت البقاء فيها لولا أن أحمل أو أجهز
جيشا في سبيل الله ولولا مكابدة هذا الليل ولولا مجالسة أقوام ينتقون أطيب الكلام كما
ينتقى أطيب التمر لما أحببت البقاء . فالأول الجهاد . والثاني قيام الليل . والثالث مذاكرة
العلم فاجتمعت في الصحابة بكاملهم وتفرقت فيمن بعدهم . الوجه التاسع والمائة ما ذكره أبو
نعيم وغيره عن بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال فضل العلم خير من
نقل العمل وخير دينكم الورع وقد روى هذا مرفوعا من حديث عائشة رضى الله عنها وفي
رفعه نظر وهذا الكلام هو فصل الخطاب في هذه المسئلة فإنه إذا كان كل من العلم
والعمل فرضا فلا بد منهما كالصوم والصلاة فإذا كانا فضلين وهما النفلان المتطوع بهما
ففضل العلم ونقله خير من فضل العبادة ونقلها لأن العلم يعم نفعه صاحبه والناس معه والعبادة
يختص نفعها بصاحبها ولأن العلم تبقى فائدته وعنده بعد موته والعبادة تنقطع عنه ولما مر من
الوجوه السابقة . الوجه العاشر بعد المائة مارواه الخطيب وأبو نعيم وغيرهما عن معاذ بن
جبيل رضى الله عنه قال تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية وطلبه عبادة ومدارسته تسبيح والبحث
عنه جهاد وتعليمه لمن لا يحسنه صدقة وبذله لأهله قربة به يعرف الله ويعبد به يؤحد وبه يعرف
الحلال من الحرام وتوصل الأرحام وهو الأنيس في الوحدة والصاحب في الخلوة والدليل على
السراء والمعين على الضراء والوزير عند الأخطاء والقريب عند الغرباء ومنار سبيل الجنة
يرفع الله به أقواما فيجعلهم في الخير قادة وسادة يقتدى بهم أدلة في الخير تقتص آثارهم
وترمق أفعالهم وترغب الملائكة في خلقتهم وبأجنتهم تمسحهم يستغفر لهم كل رطب ويابس
حتى حيتان البحر وهوامه وسباع البر وأنعامه والسماء ونجومها والعلم حياة القلوب من العمى
ونور الأبصار من الظلم وقوة للابدان من الضعف يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات
العلى التفكير فيه يعدل بالصيام ومدارسته بالقيام وهو إمام للعمل والعمل تابعه يلهمه السعداء
ويحرمه الأشقياء هذا الأثر معروف عن معاذ ورواه أبو نعيم في المعجم من حديث معاذ
مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ولا يثبت وحسبه أن يصل إلى معاذ . الوجه الحادى

عشر بعد المائة مارواه يونس بن عبد الأعلى عن ابن أبي فديك حدثني عمرو بن كثير عن أبي العلاء عن الحسن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيى به الإسلام فيبئته وبين الأنبياء في الجنة درجة النبوة . وقد روى من حديث علي بن زيد بن جدعان عن سعيد بن المسيب عن ابن عباس عن النبي ﷺ وهذا وإن كان لا يثبت استناده فلا يبعد معناه من الصحة فإن أفضل الدرجات النبوة وبعدها الصديقية وبعدها الشهادة وبعدها الصلاح . وهذه الدرجات الأربع التي ذكرها الله تعالى في كتابه في قوله (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً) فمن طلب العلم ليحيى به الإسلام فهو من الصديقين ودرجته بعد درجة النبوة . الوجه الثاني عشر بعد المائة قال الحسن في قوله تعالى (ربنا آتنا في الدنيا حسنة) هي العلم والعبادة (وفي الآخرة حسنة) هي الجنة وهذا من أحسن التفسير فإن أجل حسنات الدنيا العلم النافع والعمل الصالح . الوجه الثالث عشر بعد المائة قال ابن مسعود عليكم بالعلم قبل أن يرفع ورفع هلاك العلماء فوالذي نفسى بيده ليوذن رجال قتلوا في سبيل الله شهداء أن يبعثهم الله علماء لما يرون من كرامتهم وإن أحداً لم يولد عالماً وإنما العلم بالتعلم . الوجه الرابع عشر بعد المائة قال ابن عباس وأبو هريرة وبعدهما أحمد بن حنبل تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلينا من إحيائها . الوجه الخامس عشر بعد المائة قال عمر رضى الله عنه أيها الناس عليكم بالعلم فإن لله سبحانه رداء يحبه فمن طلب باباً من العلم رداه الله بردائه فإن أذنب ذنباً استعبته لئلا يسلبه رداه ذلك حتى يموت به . قلت ومعنى استعتاب الله عبده أن يطلب منه أن يمتبه أى يزيل عتبه عليه بالتوبة والاستغفار والإجابة فإذا أناب إليه رفع عنه عتبه فيكون قد أعتب ربه أى أزال عتبه عليه والرب تعالى قد استعبته أى طلب منه أن يمتبه . ومن هذا قول ابن مسعود وقد وقعت زلزلة بالكوفة إن ربكم يستعجبكم فاعتبوه وهذا هو الاستعتاب الذى نفاه سبحانه فى الآخرة فى قوله (فالיום لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون) أى لا نطلب منهم إزالة عتبننا عليهم فإن إزالته إنما تكون بالتوبة وهى لا تنفع فى الآخرة وهذا غير استعتاب العبد ربه كما فى قوله تعالى (فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فهاهم من المعتبين) فهذا معناه أن يطلبوا إزالة عتبننا عليهم والعفو فهاهم من المعتبين أى ما هم عن زوال العتب عليهم وهذا الاستعتاب ينفع فى الدنيا دون الآخرة . الوجه السادس عشر بعد المائة ، قال عمر رضى الله عنه موت ألف عابد أهون من موت عالم بصير بحلال الله وحرابه ووجه قول عمر أن هذا العالم يهدم على إبليس كل ما بينه وبعده وإرشاده وأما العابد فغفنه مقصور على نفسه . الوجه السابع عشر بعد المائة قول بعض السلف إذا أتى على يوم

لازداد فيه علماً يقربني إلى الله فلا بورك لي في شمس ذلك اليوم وقد رفع هذا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفعه إليه باطل وحسبه أن يصل إلى واحد من الصحابة أو التابعين . وفي مثله قال القائل إذا مر بي يوم ولم أستفد هدى ولم أكتسب علماً فما ذلك من عمري . الوجه الثامن عشر بعد المائة قال بعض السلف الإيمان عريان ولباسه التقوى وزينته الحياء وثمرته العلم وقد رفع هذا أيضاً ورفعه باطل . الوجه التاسع عشر بعد المائة إنه في بعض الآثار بين العالم والعابد مائة درجة بين كل درجتين حضر الجواد المضر سبعين سنة وقد رفع هذا أيضاً وفي رفعه نظر . الوجه العشرون بعد المائة مارواه حرب في مسائله مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم وسلم يجمع الله تعالى العلماء يوم القيامة ثم يقول يا معشر العلماء إن لم أضع علمي فيكم إلا لعلمي بكم ولم أضع علمي فيكم لأعذبكم اذهبوا فقد غفرت لكم وهذا وإن كان غريباً فله شواهد حسان ، الوجه الحادي والعشرون بعد المائة . قول ابن المبارك وقد سئل من الناس قال العلماء قيل فمن الملوك قال الزهاد قيل فمن السفلة قال الذي يأكل يدينه . الوجه الثاني والعشرون بعد المائة ان من أدرك العلم لم يضره ما فاته بعد ادراكه اذ هو أفضل الحظوظ والعطايا ومن فاته العلم لم ينفعه ما حصل له من الحظوظ بل يكون وبالاعليه وسببها لهلاكه وفي هذا قال بعض السلف أى شيء أدرك من فاته العلم وأى شيء فاته من أدرك العلم الوجه الثالث والعشرون بعد المائة . قال بعض العارفين أليس المريض إذا منع الطعام والشراب والدواء يموت قالوا بلى قالوا فكذلك القلب إذا منع عنه العلم والحكمة ثلاثة أيام يموت وصدق فان العلم طعام القلب وشرابه ودواؤه وحياته موقوفة على ذلك فاذا فقد القلب العلم فهو موت ولكن لا يشعر بموته كما أن السكران الذي قد زال عقله والخائف الذي قد انتهى خوفه إلى غايته والمحب والمفكر قد يبطل احساسهم بألم الاجراحت في تلك الحال فإذا صحوا وعادوا إلى حال الاعتدال أدركوا آلامها هكنا العبد إذا حط عنه الموت أحمال الدنيا وشواغلها اختص بهلاكه وخسرانه .

ختم لا تصحو وقد قرب المدى وحتم لا ينجاب عن قلبك السكر

بل سوف تصحو حين ينكشف العطا وتذ كر قولى حين لا ينفع الذكر

فإذا كشف الغطاء وبرح الخفاء وبليت السرائر وبدت الضمائر وبعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور فحينئذ يكون الجهل ظلمة على الجاهلين والعلم حسرة على الباطنين . الوجه الرابع والعشرون بعد المائة قال أبو الدرداء من رأى أن الغدو إلى العلم ليس بجهاد فقد نقص في رأيه وعقله وشاهد هذا قول معاذ وقد تقدم . الوجه الخامس والعشرون بعد المائة قول أبي الدرداء أيضاً لأن أتعلم مسألة أحب إلى من قيام ليلة . الوجه السادس والعشرون

بعد المائة قوله أيضا العالم والمتعلم شريكان في الأجر وسائر الناس همج لاخير فهم . الوجه السابع والعشرون بعد المائة مارواه أبو حاتم بن حبان في صحيحه من حديث أنى هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول من دخل مسجدنا هذا لیتعلم خيراً أو ليعلمه كان كالمجاهد في سبيل الله ومن دخله لغير ذلك كان كالناظر إلى ما ليس له . الوجه الثامن والعشرون بعد المائة ما رواه أيضا في صحيحه من حديث الثلاثة الذين انتهوا إلى رسول ﷺ وهو جالس في حلقة فأعرض أحدهم واستحى الآخر فجلس خلفهم وجلس الثالث في فرجة في الحلقة فقال النبي صلى الله عليه وسلم أما أحدهم فأوى إلى الله فأواه الله وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه فلومل يكن لطالب العلم إلا أن الله يؤويه وإليه ولايعرض عنه لكنى به فضلا ، الوجه التاسع والعشرون بعد المائة مارواه كميل بن زياد النعنعى قال أخذ على بن أنى طالب رضى الله عنه بيدي فأخرجنى ناحية البجاعة فلما أصحرت جعل يتنفس ثم قال يا كميل بن زياد القلوب أوعية نخيرها أوعاها احفظ عنى ما أقول لك الناس ثلاثة فعالم ربانى ومتعلم على سبيل نجاته وهمج رعاى أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجئوا إلى ركن وثيق العلم خير من المال العلم يحرسك وأنت تحرس المال العلم يزكوك على الاتفاق وفى رواية على العمل والمال تنقصه النفقة العلم حاكم والمال محكوم عليه ومحبة العلم دين يدان بها العلم يكسب العالم الطاعة فى حياته وجميع الأحدث بعد وفاته وصناعة المال نزول بزواله مات خزان الأموال وهم أحياء والعلماء باقون ما بقى الدهر أعيانهم مفقودة وأمثالهم فى القلوب موجودة هاه هاه إن ههنا علماً وأشار بيده إلى صدره لو أصبت له حملة بل أصبته لثقتاً غير مأمون عليه يستعمل آلة الدين للدنيا يستظهر حجج الله على كتابه وبنعمه على عباده أو منقاداً لأهل الحق لا بصيرة له فى أحبابه ينقدح الشك فى قلبه بأول عارض من شبهة لا ذاولاً ذلك أو منموماً للذات سلس القياد للشهوات أو مغرى بجمع الأموال والإدخار ليسا من دعاة الدين أقرب شها بهم الأنعام السائمة لذلك يموت العلم بموت حامله اللهم بك لن تخلو الأرض من قائم لله بحجته لكىلا تبطل حجج الله وبياناته أولئك الأقلون عدداً الأعظمون عند الله قىلا بهم يدفع الله عن حججه حتى يؤدوها إلى نظرائهم ويزرعوها فى قلوب أشباهم همج بهم العلم على حقيقة الأمر فاستلانوا ما استوعر منه المترفون وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالملا إلا على أولئك خلفاء الله فى أرضه ودعائه إلى دينه هاه هاه شوقاً إلى رؤيتهم وأستغفر الله لى ولك إذا شئت فقم ذكره أبو نعيم فى الحلية وغيره . قال أبو بكر الخطيب هذا حديث حسن من أحسن الأحاديث معنى وأشرفها لفظاً وتقسيم أمير

المؤمنين للناس في أوله تقسيم في غاية الصحة ونهاية السداد لأن الإنسان لا يتخلو من أحد الأقسام التي ذكرها مع كمال العقل وإزاحة العلل إما أن يكون عالما أو متعلما أو مغفلا للعلم وطلبه ليس بعالم ولا طالب له فالعالم الرباني هو الذي لا زيادة على فضله لفاضل ولا منزلة فوق منزلته لمجتهد وقد دخل في الوصف له بأنه رباني وصفه بالصفات التي يقتضيها العلم لأهله ويمنع وصفه بما خالفها . ومعنى الرباني في اللغة الرفيع الدرجة في العلم العالي المنزلة فيه . وعلى ذلك حللوا قوله تعالى (لولا ينهائم الربانيون) وقوله (كونوا ربانيين) قال ابن عباس حكاه فقهاء . وقال أبو رزين فقهاء علماء . وقال أبو عمر الزاهد سألت ثعلبا عن هذا الحرف وهو الرباني فقال سألت ابن الأعرابي فقال إذا كان الرجل عالما عاملا معلما قيل له هذا رباني فإن خرم عن خصلة منها لم نقل له رباني .

قال ابن الأنباري عن النحويين أن الربانيين منسوبون إلى الرب وأن الألف والنون زيدتا للمبالغة في النسب كما تقول لحياي وجبهاني إذا كان عظيم اللحية والجمجمة . وأما المتعلم على سبيل النجاة فهو الطالب بتعلمه والقاصد به نجاته من التفريط في تصحيح الفروض الواجبة عليه والرغبة بنفسه عن إهمالها وإطراحها والأنفقة من مجانسة البهائم . ثم قال وقد نفي بعض المتقدمين عن الناس من لم يكن من أهل العلم . وأما القسم الثالث فهم المهملون لأنفسهم الراضون بالمنزلة الدنية والحال الخسيسة التي هي في الحضيض الأسقط والهبوط الأسفل التي لا منزلة بعدها في الجهل ولا دنونها في السقوط . وما أحسن ما شبههم بالهجم الرعاع وبه يشبه دناءة الناس وأراذلهم والرعاع المتبدد المتفرق وللناعق الصائح وهو في هذا الموضوع الراعى يقال نعق الراعى بالغنم يتعق إذا صاح بها . ومنه قوله تعالى (ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً أصم بكم عمى فهم لا يعقلون) . ونحن نشير إلى بعض ما في هذا الحديث من الفوائد . فقوله رضى الله عنه القلوب أوعية يشبه القلب بالوعاء والإباء والوادي لأنه وعاء للخير والشر . وفي بعض الآثار إن لله في أرضه آنية وهي القلوب فخيرها أرقها وأصلها وأصفاها فهي أواني مملوءة من الخير وأواني مملوءة من الشر كما قال بعض السلف قلوب الأبرار تغلي بالبر وقلوب الفجار تغلي بالفجور . وفي مثل هذا قيل في المثل . وكل إناء بالذي فيه ينضح وقال تعالى (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها) شبه العلم بالماء النازل من السماء والقلوب في سمعتها وضيقها بالأودية فقلب كبير واسع يسع علما كثيرا كواد كبير واسع يسع ماء كثيرا وقلب صغير ضيق يسع علما قليلا كواد صغير ضيق يسع ماء قليلا . ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لا تسموا العنب الكرم فإن الكرم قلب المؤمن فإنهم كانوا يسمون شجر العنب الكرم لكثرة منافعه وخيره والكرم كثيرة الخير والمنافع فأخبرهم أن قلب

المؤمن أولى بهذه التسمية لكثرة ما فيه من الخير والمنافع وقوله فخيرها أوعاها يراد به أسرعها وعيا وأثبتها وعيا ويراد به أيضا أحسنها وعيا فيكون حسن الوعي الذي هو إيعاء لما يقال له في قلبه هو سرعته وكثيرته وثباته والوعاء من مادة الوعي فإنه آلة ما يوعى فيه كالغطاء والفراس والبساط ونحوها ويوصف بذلك القلب والأذن كقوله تعالى (إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية) . قال قتادة أذن سمعت وعقلت عن الله ما سمعت . وقال الفراء لتحفظها كل أذن فتكون عظة لمن يأتي بعد فالوعي توصف به الأذن كما يوصف به القلب يقال قلب واع وأذن واعية لما بين الأذن والقلب من الارتباط فالعلم يدخل من الأذن إلى القلب فهي بابه والرسول الموصل إليه العلم كما أن اللسان رسوله المؤدى عنه ومن عرف ارتباط الجوارح بالقلب علم أن الأذن أحقها أن توصف بالوعي وأنها إذا وعت وعى القلب . وفي حديث جابر في المثل الذي ضربته الملائكة للنبي صلى الله عليه وسلم ولأمته وقول الملك له اسمع سمعت أذنيك وعقل قلبك فلما كان القلب وعاءا والأذن مدخل ذلك الوعاء وبابه كان حصول العلم موقوفا على حسن الاستماع وعقل القلب والعقل هو ضبط ما وصل إلى القلب وإمساكه حتى لا يتفلس منه . ومنه عقل البعير والداية والعقال لما يعقل به وعقل الإنسان يسمى عقلا لأنه يعقله عن اتباع الغي والهلاك ولهذا يسمى حجرا لأنه يمنع صاحبه كما يمنع الحجر ما حواه فعقل الشيء أخص من علمه ومعرفته لأن صاحبه يعقل ما علمه فلا بدعه يذهب كما تعقل الداية التي يخاف شرودها . وللادراك مراتب بعضها أقوى من بعض فأولها الشعور ثم الفهم ثم المعرفة ثم العلم ثم العقل ومرادنا بالعقل المصدر لا القوة الغريزية التي ركبها الله في الإنسان فخير القلوب ما كان واعيا للخير صابغا له وليس كالقلب القاسي الذي لا يقبله . فهذا قلب حجري ولا كالمائع الأخرق الذي يقبل ولكن لا يحفظ ولا يضبط فنفهم الأول كالرسم في الحجر وتفهم الثاني كالرسم على الماء بل خير القلوب ما كان لنا صلبا يقبل بلبنته ما ينطبع فيه ويحفظ صورته بصلابته فهذا تفهيمه كالرسم في الشمع وشبهه . وقوله الناس ثلاثة فعالم رباني ومتعلم على سبيل النجاة وهمج رعاع هذا تقسيم خاص للناس وهو الواقع فإن العبد إما أن يكون قد حصل كماله من العلم والعمل أولا فالأول العالم الرباني والثاني إما أن تكون نفسه متحركة في طلب ذلك الكمال ساعية في إدراكه أولا والثاني هو المتعلم على سبيل النجاة الثالث وهو الهمج رعاع فالأول هو الواصل والثاني هو الطالب والثالث هو المحروم . والعالم الرباني . قال ابن عباس رضي الله عنهما هو المعلم أخذه من التربية أي يربي الناس بالعلم ويربهم به كما يربي الطفل أبوه . وقال سعيد بن جبير هو الفقيه العليم الحكيم قال سيبويه زادوا ألفا ونوناً في الرباني إذا أرادوا تخصيصا بعلم الرب تبارك وتعالى كما قالوا شعراني ولحياني ومعنى قول سيبويه رحمه الله إن هذا العالم لما نسب إلى علم الرب تعالى الذي بعث به رسوله

وتخصص به نسب اليه دون سائر من علم علما . قال الواحدى فالربانى على قوله منسوب إلى الرب على معنى التخصيص بعلم الرب أى يعلم الشريعة وصفات الرب تبارك وتعالى . وقال المبرد الربانى الذى يرب العلم ويرب الناس به أى يعلمهم ويصلحهم . وعلى قوله فالربانى من رب يرب رباً أى يربيه فهو منسوب إلى التربية يربى عليه ليكمل ويتم بقيامه عليه وتعاهده إياه كما يربى صاحب المال ماله ويربى الناس به كما يربى الأطفال أو لياؤهم . وليس هذا من قوله (وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير) فالربيون هنا الجماعات باجماع المفسرين قيل لأنه من الربة بكسر الراء وهى الجماعة . قال الجوهري الربى واحد الربيين وهم الألوفا من الناس . قال تعالى (وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم) ولا يوصف العالم بكونه ربانياً حتى يكون عاملاً بعلمه معلماً له فهذا قسم . والقسم الثانى متعلم على سبيل نجاة أى قاصداً بعلمه النجاة وهو المخلص فى تعلمه المتعلم ما ينفعه العامل بما عليه فلا يكون المتعلم على سبيل نجاة إلا بهذه الأمور الثلاثة فانه إن تعلم ما يضره ولا ينفعه لم يكن على سبيل نجاة وإن تعلم ما ينفع به لا للنجاة فكذلك وإن تعلمه ولم يعمل به لم يحصل له النجاة ولهذا وصفه بكونه على السبيل أى على الطريق التى تنجيه وليس حرف على وما عمل فيه متعلقاً بمتعلم إلا على وجه التضمن أى مفتش متطلع على سبيل نجاته فهذا فى الدرجة الثانية وليس من تعلمه ليمارى به السفهاء أو يجارى به العلماء أو يصرف وجوه الناس اليه فان هذا من أهل النار كما جاء فى الحديث وثبته أبو نعيم أيضاً . قوله ^{صلى الله عليه وسلم} من تعلم علماً بما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد رائحة الجنة . قال وثبت أيضاً قوله ^{صلى الله عليه وسلم} أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه فهو لاء ليس فيهم من هو على سبيل نجاة بل على سبيل الهلكة نعوذ بالله من الخذلان . القسم الثالث المحروم المعارض فلا عالم ولا متعلم بل همج رعاع والهمج من الناس حماؤهم وجهاتهم وأصله من الهمج جمع همجة وهو ذباب صغير كالبعوض يسقط على وجوه الغنم والدواب وأعينها فثبته همج الناس به والهمج أيضاً مصدر قال الراجز :

قد هلكت جارتنا من الهمج وإن تجع نأكل عتوداً أو نلج

والهمج هنا مصدر ومعناه سوء التدبير فى أمر المعيشة . وقولهم همج حاج مثل ليل لايلى والرعاى من الناس الخلقى الذين لا يعتد بهم . وقوله اتباع كل ناعق أى من صاح بهم ودعاهم تبعوه سواء دعاهم إلى هدى أو إلى ضلال فانهم لا علم لهم بالذى يدعون اليه أحق هو أم باطل فهم مستجيبون لدعوتهم وهؤلاء من أضر الخلقى على الأديان فإنهم الأكثرون عدداً الأقلون

عند الله قدراً وهم حطب كل فتنة بهم توقد ويشب ضرامها فإنها يهترطها أولو الدين ويتولاهها
 الطمع الرعاع وسعى داعيهم ناعقا تشديدا لهم بالأنعام التي ينعم بها الراعي فتذهب معه أين
 ذهب . قال تعالى (ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم
 بكم عمى فهم لا يعقلون) وهذا الذى وصفهم به أمير المؤمنين هو من عدم علمهم وظلمة قلوبهم
 فليس لهم نور ولا بصيرة يفرقون بها بين الحق والباطل بل الكل عندهم سواء . وقوله رضى
 الله عنه يميلون مع كل ريح وفى رواية مع كل صائح شبه عقولهم الضعيفة بالغصن الضعيف
 وشبه الأهوية والآراء بالرياح والغصن يميل مع الريح حيث مالت وعقول هؤلاء تميل مع
 كل هوى وكل داع ولو كانت عقولا كاملة كانت كالشجرة الكبيرة التي لا تتلاعب بها الرياح .
 وهذا بخلاف المثل الذى ضربه النبي ﷺ للمؤمنين بالخامة من الزرع تفيئهم الريح مرة
 وتقيئهم أخرى والمنافع كشجرة الأرز التي لا تقطع حتى تستحصد فإن هذا المثل ضرب
 للمؤمن وما يلقاه من عواصف البلاء والأوجاع والأوجال وغيرها فلا يزال بين عافية
 وبلاء وبحنة ومنحة وصحة وسقم وأمن وخوف وغير ذلك فيقع مرة ويقوم أخرى ويميل
 تارة ويعتدل أخرى فيكفر عنه بالبلاء ويمحص به ويخلص من كدره والكافر كله خبث
 ولا يصلح إلا للوقود فليس فى إصابته فى الدنيا بأنواع البلاء من الحكمة والرحمة ما فى إصابة
 المؤمن فهذه حال المؤمن فى الابتلاء . وأما مع الأهواء ودعاة الفتن والضلال والبدع
 فكما قيل :

نزول الجبال الراسيات وقلبه على العهد لا يلوى ولا يتغير

وقوله رضى الله عنه لم يستضيئوا بنور العلم ولم ياجسوا إلى ركن وثيق بين السبب الذى
 جعلهم بتلك المثابة وهو أنه لم يحصل لهم من العلم نور يفرقون به بين الحق والباطل . كما قال
 تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم
 نورا تمشون به) . وقال تعالى (أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس
 كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها) . وقوله تعالى (يهدى به الله من اتبع رضوانه سبيل
 السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور) الآية . وقوله (ولكن جعلناه نورا نهدى به من
 نشاء من عبادنا) فإذا عدم القلب هذا النور صار بمنزلة الخيران الذى لا يدرى أين يذهب
 فهو لخيره وجهله بطريق مقصوده يوم كل صوت يسمعه ولم يسكن قلوبهم من العلم ما تمتنع
 به من دعاء الباطل فإن الحق متى استقر فى القلب قوى به وامتنع مما يضره ويهلكه . ولهذا سمي
 الله الحجة العلمية سلطانا وقد تقدم ذلك فالعبد يوقى من ظلمة بصيرته ومن ضعف قلبه فإذا

استقر فيه العلم النافع استنارت بصيرته وقوى قلبه وهذا الأصلان هما قطب السعادة أعنى العلم والقوة وقد وصف بهما سبحانه المعلم الأول جبريل صلوات الله وسلامه عليه فقال (إن هو إلا وحي يوحى علمه شديد القوى) . وقال تعالى في سورة التكويد (إنه لقول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين) فوصفه بالعلم والقوة وفيه معنى أحسن من هذا وهو الأشبه بمراد على رضى الله عنه وهو أن هؤلاء ليسوا من أهل البصائر الذين استضاءوا بنور العلم ولا لجئوا إلى عالم مستبصر فقلده ولا متبعين لمستبصر فإن الرجل إما أن يكون بصيراً أو أعمى متمسكاً ببصير يتقوده أو أعمى يسير بلا قائد . وقوله رضى الله عنه العلم خير من المال العلم يجرسك وأنت تجرس المال . يعنى أن العلم يحفظ صاحبه ويحميه من موارد الهلكة ومواقع العطب فإن الإنسان لا يلقى نفسه فى هلكة إذا كان عقله معه ولا يعرضها لمتلف إلا إذا كان جاهلاً بذلك لا علم له به فهو كمن يأكل طعاماً مسموماً فالعالم بالسلم وضرره يجرسه عليه ويمتنع به من أكله والجاهل به يقتله جهله فهذا مثل حراسة العلم للعالم وكذا الطبيب الحاذق يمتنع بعلمه عن كثير مما يجلب له الأمراض والأسقام وكذا العالم بمخاوف طريق سلوكه ومعاطبها يأخذ حذره منها فيجرسه عليه من الهلاك وهكذا العالم بالله وبأمره وبعده ومكائده ومداخله على العبد يجرسه عليه من وساوس الشيطان وخطراته وإلقاء الشك والريب والكفر فى قلبه فهو بعلمه يمتنع من قبول ذلك فعلمه يجرسه من الشيطان فكليهما جاء لياخذ صاحبه بحرس العلم والإيمان فيرجع خائباً . وأعظم ما يجرسه من هذا العدو المبين العلم والإيمان فهذا السبب الذى من العبد والله من وراء حفظه وحراسته وكلاءته فتى وكله إلى نفسه طرفة عين تخطفه عدوه . قال بعض العارفين أجمع العارفون على أن التوفيق أن لا يكلك الله إلى نفسك وأجمعوا على أن الخذلان أن يخلى بينك وبين نفسك . وقوله العلم يزكو على الإنفاق والمال تنقصه النفقة العالم كلما بذل علمه للناس وأنفق منه تفجرت ينابيعه وازداد كثرة وقوة وظهوراً فيكتسب بتعليمه حفظ ما علمه ويحصل له به علم مالم يكن عنده وربما تكون المسئلة فى نفسه غير مكشوفة ولا خارجة من حيز الإشكال فإذا تكلم بها وعلمها اتضحت له وأضامات وانفتح له منها علوم أخر . وأيضاً فإن الجزء من جنس العمل فكما علم الخالق من جهاتهم جزاءه الله بأن علمه من جهاته كما فى صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال فى حديث طويل وإن الله قال لى أنفق أنفق عليك وهذا يتناول نفقة العلم إما بلفظه وإما بتدبيره وإشارته وخواتمه ولزكاء العلم ونحوه طريقان أحدهما تعليمه والثانى العمل به فإن العمل به أيضاً ينميه ويكثره ويفتح لصاحبه أبوابه وخباياه وقوله والمال تنقصه النفقة لا ينافى قول النبي صلى الله عليه وسلم ما نقصت صدقة من مال فإن المال إذا تصدقت منه وأنفقت ذهب ذلك القدر

وخلفه غيره . وأما العلم فكالقنيس من النار لو اقتبس منها العالم لم يذهب منها شيء بل يزيد العالم بالاقباس منه فهو كالعين التي كلما أخذ منها قوى ينبتو عنها وجاش معينها وفضل العلم على المال يعلم من وجوه أحدها أن العلم ميراث الأنبياء والمال ميراث الملوك والأغنياء . والثاني أن العلم يحرس صاحبه وصاحب المال يحرس ماله . والثالث أن المال تذهبه النفقات والعلم يزكو على النفقة . الرابع أن صاحب المال إذا مات فارقه ماله والعلم يدخل معه قبره . الخامس أن العلم حاكم على المال والمال لا يحكم على العلم . السادس أن المال يحصل للؤمن والكافر والبر والفاجر والعلم النافع لا يحصل إلا للؤمن . السابع أن العالم يحتاج إليه الملوك فمن دونهم وصاحب المال إنما يحتاج إليه أهل العدم والفاقة . الثامن أن النفس تشرف وتزكو بجمع العلم وتحصيله وذلك من كمالها وشرفها والمال يزكيا ولا يكملها ولا يزيد لها صفة كمال بل النفس تنقص وتشح وتمنل بجمعه والحرص عليه فحرصا على العلم عين كمالها وحرصا على المال عين نقصها التاسع أن المال يدعوها إلى الطغيان والفخر والخيلاء والعلم يدعوها إلى التواضع والقيام بالعبودية فالمال يدعوها إلى صفات الملوك والعلم يدعوها إلى صفات العبيد . العاشر أن العلم جاذب موصل لها إلى سعادتها التي خلقت لها والمال حجاب بينها وبينها . الحادي عشر أن غنى العلم أجل من غنى المال فإن غنى المال غنى بأمم خارجي عن حقيقة الإنسان لو ذهب في ليلة أصبح فقيرا معدما وغنى العلم لا يخشى عليه الفقر بل هو في زيادة أبدا فهو الغنى العالی حقيقة كما قيل .

غنت بلا مال عن الناس كلهم وإن الغنى العالی عن الشيء لا به

الثاني عشر أن المال يستعبد محبه وصاحبه فيجعل له عبدا له كما قال النبي صلى الله عليه وسلم تس عبد الدينار والدرهم الحديث والعلم يستعبد له ربه وخالقه فهو لا يدعو إلا إلى عبودية الله وحده . الثالث عشر أن حب العلم وطلبه أصل كل طاعة وحب الدنيا والمال وطلبه أصل كل سيئة . الرابع عشر أن قيمة الغنى ماله وقيمة العالم علمه فهذا متقوم بماله فاذا عدم ماله عدمت قيمته وبقي بلا قيمة والعالم لا تزول قيمته بل هي في تضاعف وزيادة دائما . الخامس عشر أن جوهر المال من جنس جوهر البدن وجوهر العلم من جنس جوهر الروح كما قال يونس بن حبيب علمك من روحك ومالك من بدنك والفرق بين الأمرين كالفرق بين الروح والبدن . السادس عشر أن العالم لو عرض عليه بحظه من العلم الدنيا بما فيها لم يرضها عوضاً من علمه والغنى العاقل إذا رأى شرف العلم وفضله وابتهاجه بالعلم وكاله به يود لو أن له علمه بغناه أجمع . السابع عشر أنه ما أطاع الله أحد قط إلا بالعلم وعامة من يعصيه إنما يعصيه بالمال . الثامن عشر أن العالم يدعو الناس إلى الله بعلمه وحاله وجامع المال يدعوهم إلى الدنيا بحاله وماله . التاسع عشر أن غنى المال قد يكون سبب هلاك صاحبه كثيرا فإنه معشوق النفوس فاذا رأت من يستأثر بمعشوقها عليها سعت في هلاكه كما هو الواقع وأما غنى

(٩ - مفتاح ١)

العلم فسبب حياة الرجل وحياة غيره به والناس إذا رأوا من يستأثر عليهم به ويطلبه أحبوه
وخدموه وأكرموه والعشرون إن اللذة الحاصلة من غنى إما لذة وهمية وإما لذة بهيمية فإن صاحبه التذ
بنفس جمعه وتحصيله فذلك لذة وهمية خيالية وإن التذ بانفاقه في شهوته فهي لذة بهيمية وأما لذة
العلم فلذة عقلية روحانية وهي تشبه لذة الملائكة وبهجتها وفرق ما بين اللذتين ، الحادى
والعشرون إن عقلاء الأمم مطبقون على ذم الشره في جمع المال الحريص عليه وتنقصه والإضرار
به ومطبقون على تعظيم الشره في جمع العلم وتحصيله ومدحه ومحبه ورؤيته بعين الكمال
الثانى والعشرون أنهم مطبقون على تعظيم الزاهد في المال المعرض عن جمعه الذى لا يلتفت
إليه ولا يجعل قلبه عبداً له ومطبقون على ذم الزاهد فى العلم الذى لا يلتفت إليه ولا يحرص عليه
لثالث والعشرون أن المال يمدح صاحبه بتخليه منه وإخراجه والعلم إنما يمدح بتخليه به واتصافه به
الرابع والعشرون أن غنى المال مقرون بالخوف والحزن فهو حزين قبل حصوله خائف بعد حصوله
وكما كان أكثر كان الخوف أقوى وغنى العام مقرون بالأمن والفرح والسرور . الخامس والعشرون
أن الغنى بما له لا بد أن يفارقه غناه ويتعذب ويتألم بمفارقه والغنى بالعلم لا يزول ولا يتعذب
صاحبه ولا يتألم فلذة الغنى بالمال لذة زائلة منقطعة بعقبها الأمل ولذة الغنى بالعلم لذة باقية مستمرة
لا يلحقها ألم . السادس والعشرون إن استلذذ النفس وكماها بالغنى استكمال عبارية مؤداة فتجعلها
بالمال تجمل بثوب مستعار لا بد أن يرجع إلى ما لىه يوماً ما وأما تجملها بالعلم وكماها به
فتجعل بصفة ثابتة لها راسخة فيها لا تفارقها . السابع والعشرون أن الغنى بالمال هو عين فقر
النفس والغنى بالعلم هو عين فقر النفس والغنى بالعلم هو غناها الحقيقية فغناها بعلمها هو
الغنى وغناها بما لها هو الفقر . الثامن والعشرون أن من قدم وأكرم لماله إذا زال ماله زال تقديمه
وإكرامه ومن قدم وأكرم لعلمه لا يزداد إلا تقديماً وإكراماً . التاسع والعشرون ان تقديم
الرجل لماله هو عين ذمه فانه نداء عليه بنقصه وانه لولا ماله لكان مستحقاً للتأخر والإهانة
وأما تقديمه وإكرامه لعلمه فانه عين كاله اذ هو تقديم له بنفسه وبصفته القائمة به لا بأمر
خارج عن ذاته . الوجه الثلاثون أن طالب الكمال بغنى المال كالجامع بين الضدين فهو طالب
ما لا سبيل له اليه (وبيان ذلك) ان القدرة صفة كمال وصفة الكمال محبوبة بالذات والاستغناء
عن الغير أيضاً صفة كمال محبوبة بالذات فاذا مال الرجل بطبعه الى السخاوة والجود وفعل المكرمات
فهذا كمال مطلوب لمعقلا محبوب للنفوس واذا التفت الى أن ذلك يقتضى خروج المال من
من يده وذلك يوجب نقصه واحتياجه الى الغير وزوال قدرته نفرت نفسه عن السخاء والكرم
والجود واصطناع المعروف وظن أن كاله فى إمساك المال وهذه البالية أمر ثابت لعامة
الخلق لا ينفكون عنها فلاجل ميل الطبع إلى حصول المدح والثناء والتعظيم بحب الجود والسخاء

والمسكارم ولاجل فوت القدرة الحاصلة بسبب إخراجها والحاجة المنافية لكمال الغنى يجب
إبقاء ماله ويكره السخاء والكرم والجود فيبقى قلبه واقفاً بين هذين الداعيين يتجاذبانه ويعتوران
عليه فيبقى القلب في مقام المعارضة بينهما فن الناس من يترجح عنده جانب البذل والجود
والكرم فيؤثره على الجانب الآخر . ومنهم من يترجح عنده جانب الإمساك وبقاء القدرة
والغنى فيؤثره فهذان نظران للعقلاء . ومنهم من يبلغ به الجهل والحماسة إلى حيث يريد الجمع
بين الوجهين فيعد الناس بالجود والسخاء والمسكارم طمعاً منه في فوزه بالمدح والثناء على ذلك
وعند حضور الوقت لا يفي بما قال فيستحق الذم ويبذل بلسانه ويمسك بقلبه ويده فيقع في أنواع
القبائح والفضائح . وإذا تأملت أحوال أهل الدنيا من الأغنياء رأيتهم تحت أسر هذه البلية
وهم غالباً يكونون ويشكون . وأما غنى العلم فلا يعرض له شيء من ذلك بل كلما بذله ازداد يبذله
فرحاً وسروراً وابتهاجاً وإن فاتته لذة أهل الغنى وتمتعهم بأموالهم فهم أيضاً قد فاتتهم لذة
أهل العلم وتمتعهم بعلومهم وابتهاجهم بها فمع صاحب العلم من أسباب اللذة ما هو أعظم وأقوى
وأدوم من لذة الغنى وتعبه في تحصيله وجمعه وضبطه أقل من تعب جامع المال لجمعه وألمه
دون ألمه كما قال تعالى للمؤمنين تسليمة لهم بما ينالهم من الألم والتعب في طاعته ومرضاته
(ولا تمنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا
يرجون وكان الله عليماً حكيماً) . الحادي والثلاثون أن اللذة الحاصلة من المال والغنى إنما هي
حال تجده فقط . وأما حال دوامه فإذا أن تذهب تلك اللذة وإما أن تنقص ويدل عليه أن
الطبع يبقى طالباً لغنى آخر حريصاً عليه فهو يحاول تحصيل الزيادة دائماً فهو في فقر مستمر
غير منقضى ولو ملك خزائن الأرض فققره وطابه وحرصه باق عليه فانه أحد المنهومين
الذين لا يشبعان فهو لا يفارقه ألم الحرص والطلب . وهذا بخلاف غنى العلم والإيمان فان لذته
في حال بقاءه مثلها في حال تجده بل أزيد وصاحبها وإن كان لا يزال طالباً للزيد حريصاً
عليه فطلبه وحرصه مستصحب للذة الحاصل ولذة المرجو المطلوب ولذة الطلب وابتهاجه
وفرحه به . الثاني والثلاثون أن غنى المال يستدعي الإنعام على الناس والإحسان إليهم فصاحبه
إما أن يسد على نفسه هذا الباب وإما أن يفتحه عليه فان سده على نفسه اشتهر عند الناس
بالبعد من الخير والنفع فأبغضوه وذمموه واحتقروه وكل من كان بغيضاً عند الناس حقيراً
لديهم كان وصول الآفات والمضرات إليه أسرع من النار في الحطب اليابس ومن السيل في
منحدره وإذا عرف من الخلق أنهم يمتقونه ويبغضونه ولا يقيمون له وزناً تألم قلبه غاية التألم
وأحضر الهموم والغموم والأحزان . وإن فتح باب الإحسان والعطاء فانه لا يمكنه إيصال
الخير . والإحسان إلى كل أحد فلا بد من إيصاله إلى البعض وإمساكه عن البعض وهذا

يفتح عليه باب العداوة والمذمة من المحروم والمحرور . أما المحروم فيقول كيف جاد على غيري
وبخل على وأما المحروم فانه يلتذ ويفرح بما حصل له من الخير والنفع فيبقى طامعاً مستشرفاً
لنظيره على الدوام وهذا قد يتعذر غالباً فيفضي ذلك إلى العداوة الشديدة والمذمة . ولهذا
قيل اتق شر من أحسنت إليه وهذه الآفات لا تعرض في غنى العلم فان صاحبه يمكنه بذله
للعالم كلهم واشتراهم فيه والقدر المبذول منه باق لآخذه لا يزول بل يتجر به فهو كالغني
إذا أعطى الفقير رأس مال يتجر به حتى يصير غنياً مثله . الوجه الثالث والثلاثون إن جمع المال
مقرون بثلاثة أنواع من الآفات والمحن نوع قبله ونوع عند حصوله ونوع بعد مفارقتها .
فأما النوع الأول فهو المشاق والانسداد والآلام التي لا يحصل إلا بها . وأما النوع الثاني
فشقة حفظه وحراسته وتعلق القلب به فلا يصبح إلا مهموماً ولا يمسي إلا مغموماً فهو بمنزلة
عاشق مفرط المحبة قد ظفر بمعشوقه والعيون من كل جانب ترمقه والأسن والقلوب ترشقه
فأى عيش ولذة لمن هذه حاله وقد علم أن أعداءه وحساده لا يفترون عن سبهم في التفريق
بينه وبين معشوقه وإن لم يظفروا هم به دونه ولكن مقصودهم أن يزيلوا اختصاصه به دونهم
فان فازوا به وإلا استوا في الحرمان فزال الاختصاص المؤلم للنفوس ولو قدروا على مثل
ذلك مع العالم لفعلوه ولكنهم لما علموا أنه لا سبيل إلى سلب علمه عمدوا إلى جرده وانكاره
ليزيلوا من القلوب محبته وتقديمه والثناء عليه فان بهر علمه وامتنع عن مكابرة الجحود والانكار
رموه بالعظام ونسبوه إلى كل قبيل لينيلوا من القلوب محبته ويسكنوا موضعها النفرة عنه
وبغضه وهذا شغل السحرة بعينه فهؤلاء سحرة بألسنتهم فان عجزوا له عن شيء من القبائح
الظاهرة رموه بالتلبس والتدليس والدوكرة والرياء وحب الترفع وطلب الجاه وهذا القدر
من معاداة أهل الجهل والظلم للعلماء مثل الحر والبرد لا بد منه فلا ينبغي لمن له مسكة عقل
أن يتأذى به إذ لا سبيل له إلى دفعه بحال فليوطن نفسه عليه كما يوطنها على برد الشتاء
وحر الصيف . والنوع الثالث من آفات الغنى ما يحصل للعبد بعد مفارقتها من تعلق قلبه به
وكونه قد حيل بينه وبينه والمطالبة بمحقوقه والمحاسبة على مقبوضه ومصروفه من أين اكتسبه
وفيما ذا أنفقه وغنى العلم والإيمان مع سلامته من هذه الآفات فهو كفيل بكل لذة وفرحة
وسرور ولكن لا ينال إلا على جسر من التعب والصبر والمشقة . الرابع والثلاثون ان لذة
الغنى بالمال مقرونة بمخاطة الناس ولو لم يكن إلا خدمه وأزواجه وسراريه وأتباعه إذ لو انفرد
الغنى بماله وحده من غير أن يتعلق بخادم أو زوجة أو أحد من الناس لم يكمل انتفاعه بماله
ولا التذاذه به وإذا كان كمال لذته بغناه موقوفاً على انصاله بالغير فذلك منشأ الآفات والآلام
ولو لم يكن الا اختلاف الناس وطبايعهم واراتهم فمقبيح هذا حسن ذلك ومصلحة ذلك مفسدة

هذا ومففعة هذا مضرة ذاك وبالعكس فهو مبتلى بهم فلا بد من وقوع النفرة والتباغض والتعادى بينهم وبينه فان إرضاءهم كلهم محال وهو جمع بين الضدين وإرضاء بعضهم واستخاط غيره سبب الشر والمعادة وكلما طالت المخالطة ازدادت أسباب الشر والعداوة وقويت وبهذا السبب كان الشر الحاصل من الأقارب والعشراء أضعاف الشر الحاصل من الأجانب والبعداء وهذه المخالطة انما حصلت من جانب الغنى بالمال أما إذا لم يكن فيه فضيلة لهم فانهم يتجنبون مخالطته ومعاشرته فيستريح من أذى الخلطة والعشرة وهذه الآفات معدودة في الغنى بالعلم . الخامس والثلاثون إن المال لا يراد لذاته وعينه فانه لا يحصل بذاته شيء من المنافع أصلا فانه لا يشبع ولا يروى ولا يدفىء ولا يتمتع وإنما يراد لهذه الأشياء فانه لما كان طريقا إليها أريد اعادة الوسائل . ومعلوم أن الغايات أشرف من الوسائل فهذه الغايات إذا أشرف منه وهي مع شرفها بالنسبة إليه ناقصة دنيئة وقد ذهب كثير من العقلاء إلى أنها لا حقيقة لها وإنما هي دفع الألم فقط فان لبس الثياب مثلا انما فائدته دفع التآلم بالحر والبرد والريح وليس فيها لذة زائدة على ذلك وكذلك الأكل إنما فائدته دفع ألم الجوع ولهذا لولم يجد ألم الجوع لم يستطع الأكل وكذلك الشرب مع العطش والراحة مع التعب . ومعلوم أن في مزاولة ذلك وتحصيله ألما وضرا وألما وضرا وألمه أقل من ضرر ما يدفع به وألمه فيحتمل الإنسان أخف الضررين دفعا لأعظمهما . وحكى عن بعض العقلاء أنه قيل له وقد تناول قدحا كريها من الدواء كيف حالك معه قال أصبحت في دار بليات أدافع آفات بأفات . وفي الحقيقة فلذات الدنيا من المآكل والمشارب واللبس والمسكن والمنكح من هذا الجنس واللذة التي يباشرها الحس ويتحرك لها الجسد وهي الغاية المطلوبة له من لذة المنكح والمآكل شهوتي البطن والفرج ليس لهما ناث البتة إلا ما كان وسيلة اليهما وطريقا إلى تحصيلهما وهذه اللذة منغصة من وجوه عديدة . منها أن تصور زوالها وانقضائها وفنائها يوجب تنغصها . ومنها أنها بمزوجة بالآفات ومعجونة بالآلام محتاطة بالخاوف وفي الغاب لا تفي آلامها بطبيها كما قيل :

قايست بين جماها وفعالها فاذا الملاحه بالقباحة لا تفي

ومنها أن الاراذل من الناس وسقطهم يشاركون فيها كبراهم وعقلاءهم بل يزيدون عليهم فيها أعظم زيادة وأخشىا فنسبتهم فيها إلى الافاضل كنسبة الحيوانات البهيمية اليهم فشاركه الاراذل وأهل الحسة والدناءة فيها وزيادتهم على العقلاء فيها مما يوجب النفرة والاعراض عنها وكثير من الناس حصل له الزهد في المحبوب والمعشوق منها بهذه الطريق وهذا كثير في أشعار الناس ونثرهم كما قيل

سارك حبها من غير بغض ولكن لكثرة الشركاء فيه
إذا وقع الذباب على طعام رفعت يدي ونفسي تشتيه
وتجتنب الاسود ورود ماء إذا كان السكلاب يلغز فيه

وقيل لزاهد ما الذي زهدك في الدنيا فقال خسة شركائها وقلة وفاتها وكثرة جفائها
وقيل لآخر في ذلك فقال مامدت يدي إلى شيء منها إلا وجدت غيري قد سبقني إليه
فاتركه له . ومنها أن الالتئاذ بموقعها إنما هو بقدر الحاجة اليها والتألم بمطالبة النفس لتناولها
وكما كانت شهوة الظفر بالشئ أقوى كانت اللذة الحاصلة بوجوده أكمل فلما لم تحصل تلك
الشهوة لم تحصل تلك اللذة فمقدار اللذة الحاصلة في الحال مساو لمقدار الحاجة والالم والمضرة في
الماضي وحينئذ يتقابل اللذة الحاصلة والالم المتقدم فيتساقان فتصير اللذة كأنها لم توجد ويصير
بمنزلة من شق بطن رجل ثم خاطه وداواه بالمرهم أو بمنزلة من ضربه عشرة أسواط وأعطاه
عشرة دراهم ولا يخرج لذات الدنيا غالبا عن ذلك ومثل هذا لا يعد لذة ولا سعادة ولا كالا
بل هو بمنزلة قضاء الحاجة من البول والغائط فإن الإنسان يتضرر بشقله فإذا قضى حاجته
استراح منه فاما أن يعد ذلك سعادة وبهجة ولذة مطلوبة فلا . ومنها أن هاتين اللذتين اللتين
هما أثر اللذات عند الناس ولا سبيل إلى نيلهما إلا بما يقترن بهما قبلهما وبعدهما من مباشرة
القاذورات والتألم الحاصل عقيبهما مثال لذة الأكل فإن العاقل لو نظر إلى طعامه حال مخالطته
ريقه وعجنه به لنفرت نفسه منه ولو سقت تلك اللقمة من فيه لنفر طبعه من اعادةها إليه ثم
إن لذته به إنما تحصل في مجرى نحو الأربع الأصابع فإذا فصل عن ذلك المجرى زال لذته
به فإذا استقر في معدته وخالطه الشراب وما في المعدة من الأجزاء الفضلية فانه حينئذ يصير
في غاية الحسة فان زاد على مقدار الحاجة أورت الادواء المختلفة على تنوعها ولولا أن
بقائه موقوف على تناوله لكان تركه والحالة هذه أليق به كما قال بعضهم :

لولا قضاءه جرى نزهت أنمليتي عن أن تلم بما أكل ومشروب

وأما لذة الوقاع فقدرها أبين من أن نذكر آفاته ويدل عليه أن أعضاء هذه اللذة هي
عورة الإنسان التي يستحيا من رؤيتها وذكرها وسرها أمر فطر الله عليه عباده ولا تتم
لذة الموافقة إلا بالاطلاع عليها وإبرازها والتلذذ بالرطوبات المستقدرة المتولدة منها ثم إن
تمامها إنما يحصل بانفصال النطفة وهي اللذة المقصودة من الوقاع وزمنها يشبه الآن الذي
لا ينقسم فصعوبة تلك المزاولة والمحاولة والمطاوله والمراورة والتعب لأجل لذة لحظة كد
الطرف فأين مقايسة بين هذه اللذة وبين التعب في طريق تحصيلها . وهذا يدل على أن هذه

اللذة ليست من جنس الخيرات والسعادات والكمال الذى خلق له العبد ولا كمال له بدونه بل ثم أمر وراء ذلك كله قد هيء له العبد وهو لا يفعلان له لغفلته عنه وإعراضه عن التفطيش على طريقه حتى يصل اليه يسوم نفسه مع الانعام السائمة :

قد هيؤك لأمر لو فطنت له فأربأ نفسك أن ترعى مع الحمل

وموقع هذه اللذات من النفس كموقع لذة البراز من رجل احتبس في موضع لا يمكنه القيام إلى الخلاء وصار مضطراً اليه فانه يجد مشقة شديدة وبلاء عظيماً فاذا تمكن من الذهاب إلى الخلاء وقدر على دفع ذلك الخبيث المؤذى وجد لذة عظيمة عند دفعه وإرساله ولا لذة هناك إلا راحته من حمل ما يؤذيه حمله . فعمل أن هذه اللذات إما أن تكون دفع آلام وإما أن تكون لذات ضعيفة خسيصة مقترنة بأفات ترى مضرتها عليه وهذا كما يعقب لذة الوقاع من ضعف القلب وخفقان الفؤاد وضعف القوى البدنية والقلبية وضعف الارواح واستيلاء العفونة على كل البدن واسرع الضعف والخور اليه واستيلاء الاخلاط عليه لضعف القوة عن دفعها وقهرها . . وبما يدل على أن هذه اللذات ليسب خيرات وسعادات وكألا أن العقلاء من جميع الأمم مطبقون على ذم من كانت هي نهمته وشغله ومصرف همته وإرادته والازراء به وتحقير شأنه والحاقه بالبهائم ولا يقيمون له وزن ولو كانت خيرات وكألا لكان من صرف اليها همته أكل الناس . وبما يدل على ذلك أن القلب الذى قد وجه قصده وإرادته إلى هذه اللذات لا يزال مستغرفاً في الهموم والغموم والاحزان وما يناله من اللذات في جنب هذه الآلام كقطرة في بحر كما قيل سروره ووزن حبة وحر نه قنطار فإن القلب يجرى بجرى مرآة منصوبة على جدار وذلك الجدار يمر لأنواع المشتميات والمليذونات والمكروهات وكلما مر به شيء من ذلك ظهر فيه أثره فإن كان محبوباً مشتمياً مال طبعه إليه فإن لم يقدر على تحصيله تألم وتعذب بفقده وإن قدر على تحصيله تألم في طريق الحصول بالتعب والمشقة ومنازعة الغير له ويتألم حال حصوله خوفاً من فراقه وبعد فراقه خوفاً على ذهابه وإن كان مكروهاً له ولم يقدر على دفعه تألم بوجوده وإن قدر على دفعه اشتغل بدفعه ففاته مصلحة راجحة الحصول فيتألم لفواتها فعمل أن هذا القلب أبداً مستغرق في بحار الهموم والغموم والاحزان وإن نفسه تضحك عليه وترضيه بوزن ذرة من لذته فيغيب بها عن شهوده القناطر من ألمه وعذابه فإذا حيل بينه وبين تلك اللذة ولم يبق له إلا سبيل تجرد ذلك الألم وأحاط به واستولى عليه من كل جهاته فقل ما شئت في حال عبد قد غيب عنه سعده وحظوظه وأفراحه وأحضر شقوته وهمومه وغمومه وأحزانه وبين العبد وبين هذه الحال أن ينكشف الغطاء ويرفع الستر وينجلي الغبار ويحصل

مافى الصدور فإذا كانت هذه غاية اللذات الحيوانية التى هى غاية جمع الأموال وطلبها فما الظن بقدر الوسيلة . وأما غنى العلم والإيمان فدائمه اللذة متصل الفرحه مقتضى لأنواع المسرة والبهجة لايزول فيحزن ولا يفارق فيؤلم بل أصحابه كما قال الله تعالى فيهم (لاخوف عليهم ولاهم يحزنون) . السادس والثلاثون إن غنى المال يبغض الموت وإفناء الله فانه لحبه لماله يكره مفارقتة ويحب إبقاءه ليمتع به كما شهد به الواقع . وأما العلم فانه يحجب للعبد لقاء ربه ويزهده فى هذه الحياة النكدة الفانية . السابع والثلاثون إن الأغنياء يموت ذكرهم بموتهم والعلماء يموتون ويبقى ذكرهم كما قال أمير المؤمنين فى هذا الحديث مات خزان الأموال وهم أحياء والعلماء باقون مابقى الدهر فخزان الأموال أحياء كاموات والعلماء بعد موتهم أموات كاحياء . الثامن والثلاثون إن نسبة العلم إلى الروح كنسبة الروح إلى البدن فالروح ميمته حياتها بالعلم كما أن الجسد ميمت حياته بالروح فالغنى بالمال غاية أن يزيد فى حياة البدن وأما العلم فهو حياة القلوب والأرواح كما تقدم تقريره . التاسع والثلاثون إن القلب ملك البدن والعلم زينته وعدته وماله وبه قوام ملكة والملك لا بد له من عدد وعدة ومال وزينة فالعلم هو مركبه وعدته وجماله . وأما المال فغاياته أن يكون زينة وجمالا للبدن إذا أنفقه فى ذلك فإذا خزنه ولم ينفقه لم يكن زينة ولا جمالا بل نقصاً ووبالاً . ومن المعلوم أن زينة الملك به ومابه قوام ملكة أجل وأفضل من زينة رعيتة وجماله قوام القلب بالعلم كما أن قوام الجسم بالغذاء . الوجه الأربعون أن القدر المقصود من المال هو مايكفى العبد ويقيمه ويدفع ضرورته حتى يتمكن من قضاء جهازه ومن التزود لسفره إلى ربه عز وجل فإذا زاد على ذلك شغله وقطعه عن السفر وعن قضاء جهازه وتعبية زاده فكان ضرره عليه أكثر من مصلحته وكما ازداد غناه به ازداد تثبطاً وتخلفاً عن التجهز لما أمامه . وأما العلم النافع فكلما ازداد منه ازداد فى تعبية الزاد وقضاء الجهاز وإعداد عدة المسير والله الموفق وبه الاستعانة ولا حول ولا قوة إلا به فعدة هذا السفر هو العلم والعمل وعدة الإقامة جمع الأموال والادخار ومن أراد شيئاً هياً له عدته . قال تعالى (ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين) . قوله محبة العلم أو العالم دين يدان بها لأن العلم ميراث الأنبياء والعلماء ورثتهم فحبة العلم وأهله محبة لميراث الأنبياء وورثتهم وبغض العلم وأهله بغض لميراث الأنبياء وورثتهم فحبة العلم من علامات السعادة وبغض العلم من علامات الشقاوة وهذا كله إنما هو فى علم الرسل الذى جاؤا به وورثوه للامة لا فى كل ما يسمى علماً . وأيضاً فان محبة العلم تحمل على تعلمه واتباعه وذلك هو الدين وبغضه ينهى عن تعلمه واتباعه

وذلك هو الشقاء والضلال وأيضاً فإن الله سبحانه عليم يجب كل عايم وإنما يضع علمه عند من يحبه فن أحب العالم وأهله فقد أحب ما أحب الله وذلك بما يدان به . قوله العلم يكسب العالم الطاعة في حياته وجميل الاحدوثة بعد مماته يكسبه ذاك أى يجعله كسباً له ويورثه إياه ويقال كسبه ذلك عزا وطاعة وأكسبه لغتان ومنه حديث خديجة رضى الله عنها إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتكسب المعدوم روى بفتح التاء وضمها ومعناه تكسب المال والغنى هذا هو الصواب وقالت طائفة من رواه بضمها فذلك من أكسبه مالا وعزاً ومن رواه بفتحها فعناه تكسب أنت المال المعدوم بمعرفتك وحذقك بالتجارة ومعاذ الله من هذا الفهم وخديجة أجل قدرأ من تكلمها بهذا في هذا المقام العظيم أن تقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم أبشر فوالله لا يخزيك الله إنك تكسب الدرهم والدينار وتحسن التجارة ومثل هذه التحريفات إنما تذكر لئلا يغتر بها في تفسير كلام الله ورسوله . والمقصود أن قوله العلم يكسب العالم الطاعة في حياته أى يجعله مطاعاً لأن الحاجة إلى العلم عامة لكل أحد للبلوك فمن دونهم فكل أحد محتاج إلى طاعة العالم فإنه يأمر بطاعة الله ورسوله فيجب على الخلق طاعته . قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) وفسر أولى الأمر بالعلماء قال ابن عباس هم الفقهاء والعلماء أهل الدين الذين يعلمون الناس دينهم أوجب الله تعالى طاعتهم . وهذا قول مجاهد والحسن والضحاك واحدى الروايتين عن الإمام أحمد وفسروا بالأمراء وهو قول ابن زيد وإحدى الروايتين عن ابن عباس وأحمد والآية تتناولها جميعاً فطاعة ولادة الأمر واجبة إذا أمروا بطاعة الله ورسوله وطاعة العلماء كذلك فالعالم بما جاء به الرسول العامل به أطوع في أهل الأرض من كل أحد فإذا مات أحيا الله ذكره ونشر له في العالمين أحسن الثناء فالعالم بعد وفاته ميت وهو حى بين الناس والجاهل في حياته حى وهو ميت بين الناس . كما قيل

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله وأجسامهم قبل القبور قبور
وأرواحهم في وحشة من جسومهم وليس لهم حتى النشور نشور
(وقال الآخر)

قد مات قوم وما ماتت مكارمهم وعاش قوم وهم في الناس أموات
(وقال آخر)

وما دام ذكر العبد بالفضل باقياً فذلك حى وهو في التراب هالك

ومن تأمل أحوال أئمة الإسلام كأئمة الحديث والفقهاء كيف هم تحت التراب وهم في العالمين كأنهم أحياء بينهم لم يفقدوا منهم إلا صورهم وإلا فذكورهم وحديثهم والشأن عليهم غير منقطع وهذه هي الحياة حقاً حتى عد ذلك حياة ثانية . كما قال المتنبي .

ذكر الفقيه عيشه الثاني وحاجته مافاته وفضول العيش أشغاله

قوله وصنعة المال تزول بزواله يعني أن كل صنعة صنعت للرجل من أجل ماله من إكرام ومحبة وخدمة وقضاء حوائج وتقديم واحترام وتولية وغير ذلك فإنها إنما هي مراعاة لماله فإذا زال ماله وفارقه زالت تلك الصنائع كلها حتى إنه ربما لا يسلم عليه من كان يدأب في خدمته ويسعى في مصالحه . وقد أكثر الناس من هذا المعنى في أشعارهم وكلامهم وفي مثل قولهم .
من ودك لأمر ملك عند انقضائه . قال بعض العرب .

ومن هذا ما قيل إذا أكرمك الناس لمال أو سلطان فلا يعجبك ذلك فإن زوال الكرامة بزوالها ولكن لم يعجبك إن أكرموك لعلم أو دين وهذا أمر لا ينكر في الناس حتى أنهم ليسكرموا الرجل لثيابه فإذا نزعه لم يرمهم تلك الكرامة وهو هو قال مالك بلغني أن أبا هريرة دعى إلى وليمة فأتى فحجب فرجع فلبس غير تلك الثياب فادخل فلما وضع الطعام أدخله في الطعام فعوتب في ذلك فقال إن هذه الثياب هي التي أدخلت فهى تأكل حكاة ابن مزين الطليطلي في كتابه وهذا بخلاف صنعة العلم فإنها لا تزول أبداً بل كل ما لها في زيادة ما لم يسلب ذلك العالم علمه وصنعة العلم والدين أعظم من صنعة المال لأنها تكون بالقلب واللسان والجوارح فهى صادرة عن حب وإكرام لأجل ما أودعه الله تعالى إياه من علمه وفضله به على غيره . وأيضاً فصنعة العلم تابعة لنفس العالم وذاته وصنعة المال تابعة لماله المنفصل عنه . وأيضاً فصنعة المال صنعة معاوضة وصنعة العلم والدين صنعة حب وتقرب وديانة . وأيضاً فصنعة المال تكون مع البر والفاجر والمؤمن والكافر وأما صنعة العلم والدين فلا تكون إلا مع أهل ذلك وقد يراد من هذا أيضاً معنى آخر وهو أن من اصطنعت عنده صنعة بمالك إذا زال ذلك المال وفارقه عدت صنيعتك عنده وأما من اصطنعت إليه صنعة علم وهدى فإن تلك الصنعة لا تفارقه أبداً بل ترى في كل وقت كأنك أسديتها إليه حينئذ ، قوله مات خزان الأموال وهم أحياء قد تقدم بيانه ، وكذا قوله والعلم باقون ما بقى الدر . وقوله أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة المراد بأمثالهم صورهم العملية ووجودهم المثالي أى وإن فقدت ذواتهم فصورهم وأمثالهم في القلوب لا تفارقها وهذا هو الوجود الذهني العلي لأن محبة الناس لهم واقتداءهم بهم وانتفاعهم بعلومهم

يوجب أن لا يزالوا نصب عيونهم وقبلة قلوبهم فهم موجودون معهم وحاضرون عندهم وإن غابت عنهم أعيانهم . كما قيل :

ومن عجب أني أحسن إليهم وأسأل عنهم من لقيت وهم معي
وتطلبهم عيني وهم في سوادها ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلعي

﴿ وقال آخر ﴾

ومن عجب أن يشكو البعد عاشق وهل غاب عن قلب المحب حبيب
خيالك في عيني وذكرك في فمي ومثواك في قلبي فأين تعيب

قوله آه إن هاهنا علماً وأشار إلى صدره يدل على جواز إخبار الرجل بما عنده من العلم والخير ليقبض منه ولينتفع به . ومنه قول يوسف الصديق عليه السلام اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم فمن أخبر عن نفسه بمثل ذلك ليكثر به ما يحبه الله ورسوله من الخير فهو محمود وهذا غير من أخبر بذلك ليتكثر به عند الناس ويتمم وهذا يجازيه الله بمقت الناس له وصغره في عيونهم والأول يكثره في قلوبهم وعيونهم وإنما الأعمال بالنيات وكذلك إذا أتى الرجل على نفسه ليخلص بذلك من مظلة وشر أو ليستوفي بذلك حقاً له يحتاج فيه إلى التعريف بحاله أو ايقطع عنه أطماع السفلة فيه أو عند خطبته إلى من لا يعرف حاله والأحسن في هذا أن يوكل من يعرف به وبحاله فان لسان ثناء المرء على نفسه قصير وهو في الغالب مذموم لما يقترن به من الفخر والتعظيم . ثم ذكر أصناف حملة العلم الذين لا يصاحون لخله وهم أربعة أحدهم من ليس هو بمأمون عليه وهو الذي أوتي ذكاه وحفظاً ولا يمكن مع ذلك لم يؤت ذكاه فهو يتخذ العلم الذي هو آلة الدين آلة الدنيا يستعملها به ويتوسل بالعلم إليها ويجعل البضاعة التي هي متجر الآخرة متجر الدنيا وهذا غير أمين على ما حملة من العلم ولا يجعله الله إماماً فيه قط فان الأمين هو الذي لا غرض له ولا إرادة لنفسه إلا اتباع الحق وموافقته فلا يدعو إلى إقامة رياسته ولا دنياه وهذا الذي قد اتخذ بضاعة الآخرة ومتجرها متجراً للدنيا قد خان الله وخان عباده وخان دينه . فلماذا قال غير مأمون عليه . وقوله يستظهر بحجج الله على كتابه وبنعمه على عباده هذه صفة هذا الخائن إذا أنعم الله عليه استظهر بتلك النعمة على الناس وإذا تعلم علماً استظهر به على كتاب الله ومعنى استظهاره بالعلم على كتاب الله تحكيمه عليه وتقديمه وإقامته دونه وهذه حال كثير من يحصل له علم فانه يستغنى به ويستظهر به ويحكاه ويجعل كتاب الله تبعاً له يقال استظهر فلان على كذا بكذا أي ظهر عليه به وتقدم وجعله وراء ظهره وليست هذه حال العلماء فإن العالم

حقاً يستظهر بكتاب الله على كل ما سواه فيقدمه ويحكمه ويجمله عياراً على غيره مهمناً عليه كما جعله الله تعالى كذلك فالمستظهر به موفق سعيد والمستظهر عليه مخذول شقي فمن استظهر على الشيء فقد جعله خلف ظهره مقدماً عليه ما استظهر به وهذا حال من اشتغل بغير كتاب الله عنه واكتفى بغيره منه وقدم غيره وأخره . والصنف الثاني من حملة العلم المنقاد الذي لم يتسلح له صدره ولم يطمئن به قلبه بل هو ضعيف البصيرة فيه لكنه منقاد لأهله وهذه حال اتباع الحق من مقلديهم وهؤلاء وإن كانوا على سبيل نجاة فليسوا من دعاة الدين وإنما هم من مكثرى سواد الجيش لا من أمرائه وفرسانه والمنقاد منفعل من قاده يقوده وهو مطاوع الثلاثي وأصله مشقيد كما كتسب ثم أعلنت الياء ألفاً لحركتها بعد فتحة فصار منقاد تقول قدته فانقاد أى لم يتمتع والإحناء جميع حنو بوزن علم وهى الجوانب والنواحي والعرب تقول أزجر احناء طيرك أى أمسك نواحي خفتك وطيشك يميناً وشمالاً وأماماً وخلفاً . قال لبيد فقلت ازدرج احناء طيرك واعلن بانك ان قدمت رجلك عاثر

والطير هنا الخنفة والطيش . وقوله يتقدح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة هذا للضعف علمه وقلة بصيرته إذا وردت على قلبه أدنى شبهة قدحت فيه الشك والريب بخلاف الراسخ في العلم لو وردت عليه من الشبهه بعدد أمواج البحر ما أزلت يقينه ولا قدحت فيه شكاً لأنه قد رسخ في العلم فلا تستفزه الشبهات بل إذا وردت عليه ردها حرس العلم وجيشه مغلوله مغلوله والشبهه وارد يرد على القلب يحول بينه وبين انكشاف الحق له فتى باشر القلب حقيقة العلم لم تؤثر تلك الشبهه فيه بل يقوى علمه ويقينه بردها ومعرفة بطلانها ومتى لم يباشر حقيقة العلم بالحق قلبه قدحت فيه الشك بأول وهلة فإن تداركها وإلا تابعت على قلبه أمثالها حتى يصير شاكاً مرتاباً والقلب يتوارده جيشان من الباطل جيش شهوات الغى وجيش شبهات الباطل فأيا قلب صغاً إليها وركن إليها تشربها وامتلأ بها فينضج لسانه وجوارحه بموجها فان أشرب شبهات الباطل تفجرت على لسانه الشكوك والشبهات والايادات فيظن الجاهل أن ذلك لسعة علمه وإنما ذلك من عدم علمه ويقينه . وقال لى شيخ الإسلام رضى الله عنه وقد جعلت أورد عليه إيراداً بعد إيراد لا تجعل قلبك للايادات والشبهات مثل السفنجة فيتشربها فلا ينضج إلا بها ولكن اجعله كالزجاجه المصمتة تمر الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها فيراها بصفاته ويدفعها بصلابته وإلافاذا أشربت قلبك كل شبهة تمر عليها صار مقراً للشبهات أو كما قال فما أعلم أنى انتفعت بوصية فى دفع الشبهات كاتتفاعى بذلك . وإنما سميت الشبهه شبهة لاشتباه الحق بالباطل فيها فانها تلبس ثوب الحق على جسم الباطل وأكثرت الناس أصحاب حسن ظاهر فينظر الناظر فيما ألبسته من اللباس فيعتقد صحتها . وأما صاحب العلم واليقين

فانه لا يعتر بذلك بل يجاوز نظره إلى باطنها وما تحت لباسها فيكشف له حقيقتها ومثال هذا الدرهم الزائف فانه يعتر به الجاهل بالتمدد نظراً إلى ما عليه من لباس الفضة والناقد البصير يجاوز نظره إلى ما وراء ذلك فيطلع على زيفه فاللفظ الحسن الفصيح هو للشبهة بمنزلة اللباس من الفضة على الدرهم الزائف والمعنى كالتحاس الذي تحته وكم قد قتل هذا الاعتذار من خلق لا يحميهم إلا الله . وإذا تأمل العاقل الفطن هذا القدر وتدبره رأى أ أكثر الناس يقبل المذهب والمقالة بلفظ ويردها بعينها بلفظ آخر . وقد رأيت أنا من هذا في كتب الناس ما شاء الله وكم رد من الحق بتشيعه بلباس من اللفظ قبيح . وفي مثل هذا قال أئمة السنة منهم الإمام أحمد وغيره لا نزبل عن الله صفة من صفاته لأجل شناعة شنعته فهؤلاء الجهمية يسمون إثبات صفات الكمال لله من حياته وعلمه وكلامه وسمعه وبصره وسائر ما وصف به نفسه تشبيهاً وتجسيمياً ومن أثبت ذلك مشبهاً فلا ينفر من هذا المعنى الحق لأجل هذه التسمية الباطلة إلا العقول الصغيرة القاصرة خفافيش البصائر وكل أهل نخلة ومقالة يكسون نحتهم ومقالتهم أحسن ما يقدرون عليه من الألفاظ ومقالة مخالفيهم أقبح ما يقدرون عليه من الألفاظ ومن رزقه الله بصيرة فهو يكشف بها حقيقة ما تحت تلك الألفاظ من الحق والباطل ولا تعتر باللفظ . كما قيل في هذا المعنى .

تقول هذا جنى النحل تمدحه وإن نشأ قلت ذا قىء الزنا بئر

مدحاً وذمماً وما جاوزت وصفهما والحق قد يعتر به سوء تعبير

فاذا أردت الاطلاع على كنهه المعنى هل هو حق أو باطل فجرده من لباس العبارة وجرد قلبك عن النفرة والميل ثم أعط النظر حقه ناظراً بعين الانصاف ولا تكن بمن ينظر في مقالة أصحابه ومن يحسن ظنه نظراً تاماً بكل قلبه ثم ينظر في مقالة خصومه ومن يسيء ظنه به كمنظر الذمير والملاحظة فالناظر بعين العداوة يرى المحاسن مساوية والناظر بعين المحبة عكسه وما سلم من هذا إلا من أراد الله كرامته وارتضاه لقبول الحق . وقد قيل :

وعين الرضا عن كل عيب كليله كما أن عين السخط تبدى المساويا

(وقال آخر)

نظروا بعين عداوة لو أنها عين الرضا الاستحسنوا ما استقبجوا

فاذا كان هذا في نظر العين الذي يدرك الحسوسات ولا يتمكن من المكابرة فيها فما الظن بنظر القلب الذي يدرك المعاني التي هي عرضة المكابرة والله المستعان على معرفة الحق وقبوله ورد الباطل وعدم الاعتراض به . وقوله بأول عارض من شبهة هذا دليل ضعف عقله ومعرفة إذ

تؤثر فيه البداآت ويستفز بأوائل الأمور بخلاف الثابت التام العاقل فانه لا تستفزه البداآت ولا تزججه وتقلقه فان الباطل له دهشة وروعة في أوله فاذا ثبت له القلب رد على عقبيه والله يحب من عنده العلم والاناة فلا يجعل بل يثبت حتى يعلم ويستيقن ما ورد عليه ولا يجعل بأمر من قبل استحكامه فالعجلة والطيش من الشيطان فمن ثبت عند صدمة البداآت استقبال أمره بعلم وحزم ومن لم يثبت لها استقبله بعجلة وطيش وعاقبته الندامة وعاقبة الأول حمد أمره ولكن الأول آفة متى قرنت بالحزم والعزم نجا منها وهي الفوت فانه لا يخاف من التثبيت إلا الفوت فاذا اقترن به العزم والحزم تم أمره . ولهذا في الدعاء الذي رواه الإمام أحمد والنسائي عن النبي صلى الله عليه وسلم اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد وهاتان الكلمتان هما جماع الفلاح وما أتى العبد إلا من تضييعهما أو تضييع أحدهما فما أتى أحد إلا من باب العجلة والطيش واستفزاز البداآت له أو من باب التهاون والنمات وتضييع الفرصة بعد مواناتها فاذا حصل الثبات أولا والعزيمة ثانيا أفلح كل الفلاح والله ولي التوفيق . الصنف الثالث رجل نهمته في نيل لذته فهو منقاد لداعى الشهوة أين كان ولا ينال درجة ورائة النبوة مع ذلك ولا ينال العلم إلا بهجر اللذات وتطبيق الراحة قال مسلم في صحيحه قال يحيى بن أبي كثير لا ينال العلم براحة الجسم . وقال ابراهيم الحربي أجمع عقلاء كل أمة أن النعيم لا يدرك بالنعيم ومن آثر الراحة فاتته الراحة فما لصاحب اللذات وما لدرجة ورائة الانبياء

فدع عنك الكتابة لست منها ولو سودت وجهك بالمداد

فان العلم صناعة القلب وشغله فما لم تنفرغ لصناعته وشغله لم تنلها وله وجهة واحدة فاذا وجهت وجهته إلى اللذات والشهوات انصرفت عن العلم ومن لم يغلب لذة إدراكه العلم وشهوته على لذة جسمه وشهوة نفسه لم ينل درجة العلم أبدا فاذا صارت شهوته في العلم ولذته في كل إدراكه رجى له أن يكون من جملة أهله ولذة العلم لذة عقلية روحانية من جنس لذة الملائكة ولذة شهوات الأكل والشراب والنكاح لذة حيوانية يشارك الإنسان فيها الحيوان ولذة الشر والظلم والفساد والعلوى في الأرض شيطانية يشارك صاحبها فيها إبليس وجنوده وسائر اللذات تبطل بمفارقة الروح البدن إلا لذة العلم والإيمان فانها تكمل بعد المفارقة لأن البدن وشواغله كان ينقصها ويقلمها ويحجبها فاذا انطوت الروح عن البدن التذت لذة كاملة بما حصلته من العلم النافع والعمل الصالح فمن طلب اللذة العظمى وآثر النعيم والمقيم فهو في العلم والايمن اللذين بهما كمال سعادة الإنسان وأيضا فان تلك اللذات سريعة الزوال وإذا انقضت أعقبت هما ونغما وألا يحتاج صاحبها أن يداويه بمثلها دفعا لألمه وربما كان معاودته لها مؤلما له كريها إليه لكن يحمله عليه مداوة ذلك الغم والهلم فأين هذا من لذة العلم ولذة الايمان بالله ومحبهه والاقبال عليه والنعيم بذكره فهذه هي اللذة الحقيقية

الصنف الرابع من حرصه وهمته في جمع الأموال وتشميرها وادخارها فقد صارت لذته في ذلك وفتى بها عما سواه فلا يرى شيئاً أطيب له مما هو فيه فمن أين هذا ودرجة العلم فهو لاء الأصناف الأربعة ليسوا من دعاة الدين ولا من أئمة العلم ولا من طلبته الصادقين في طلبه ومن تعلق منهم بشيء منه فهو من المتسلقين عليه المتشمسين بحملته وأهله المدعين لوصاله المبتوتين من حباله وفتنة هؤلاء فتنة لكل مفتون فإن الناس يتشمسون بهم لما يظنون عندهم من العلم ويقولون لسنا خيراً منهم ولا نرغب بأنفسنا عنهم فهم حجة لكل مفتون ولهذا قال فيهم بعض الصحابة الكرام احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون . وقوله أقرب شبيها بهم الأنعام السائمة وهذا التشبيه مأخوذ من قوله تعالى (إنهم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً) فما أقصر سبحانه على تشبيههم بالأنعام حتى جعلهم أضل سبيلاً منهم والسائمة الراعية وشبه أمير المؤمنين هؤلاء بها لأن همته في سعى الدنيا وحطامها والله تعالى يشبه أهل الجهل والغى تارة بالأنعام وتارة بالخر وهذا تشبيه لمن تعلم علماً ولم يعقله ولم يعمل به فهو كالخمار الذي يحمل أسفاراً وتارة بالكلب وهذا لمن انسلخ عن العلم وأخذ إلى الشهوات والهوى . وقوله كذلك يموت العلم بموت حامله هذا من قول النبي صلى الله عليه وسلم في حديث عبد الله بن عمر وعائشة رضی الله عنهم وغيرهما أن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من صدور الرجال ولكن يقبض العلم بقبض العلماء فإذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا رواه البخاري في صحيحه فذهاب العلم إنما هو بذهاب العلماء . قال ابن مسعود يوم مات عمر رضی الله عنه إنى لأحسب تسعة أعشار العلم اليوم قد ذهب وقد تقدم قول عمر رضی الله عنه موت ألف عابد أهون من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه . وقوله اللهم بلى إن تخلو الأرض من مجتهد قائم لله بحجج الله ويدل عليه الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم لا تزال طائفة من أمتي على الحق لا يضرم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك . ويدل عليه أيضاً ما رواه الترمذي عن قتبية حدثنا حماد بن يحيى الأبيح عن ثابت عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل أمي مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره قال هذا حديث حسن غريب . ويروى عن عبد الرحمن بن مهدي أنه كان يثبت حماد بن يحيى الأبيح وكان يقول هو من شيوخنا وفي الباب عن عمار وعبد الله بن عمرو فلو لم يكن في أواخر الأمة قائم بحجج الله مجتهد لم يكونوا موصوفين بهذه الخيرية . وأيضاً فإن هذه الأمة أكمل الأمم وخير أمة أخرجت للناس ونبيها خاتم النبيين لاني بعده جعل الله العلماء فيها كلما هلك عالم خلقه عالم لثلاث تطمس معالم الدين وتختفي أعلامه . وكان بنو إسرائيل كلما هلك نبي خلفه نبي فكانت تسوسهم الأنبياء والعلماء لهذه الأمة كالأنبياء في بني إسرائيل . وأيضاً في الحديث الآخر يحمل هذا العلم من كل خلف عدو له ينفون عنه تحريف الغالين

وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين وهذا يدل على أنه لا يزال محمولا في القرون قرنا بعد قرن وفي صحيح أبي حاتم من حديث الخولاني قال قال رسول الله ﷺ لا يزال الله يغرس في هذا الدين غرسا يستعملهم في طاعته وغرس الله هم أهل العلم والعمل فلو خلت الأرض من عالم خلت من غرس الله . ولهذا القول حجج كثيرة لها موضع آخر وزاد الكذابون في حديث علي إما ظاهراً مشهوراً وإما خفياً مستوراً وظنوا أن ذلك دليل لهم على القول بالمنتظر ولكن هذه الزيادة من وضع بعض كذا بيهم والحديث مشهور عن علي لم يقل أحد عنه هذه المقالة إلا كذاب وحجج الله لا تقوم بخفي مستور لا يقع العالم له على خبر ولا ينتفعون به في شيء أصلاً فلا جاهل يتعلم منه ولا ضال يهتدى به ولا خائف يأمن به ولا ذليل يتعزز به فأى حجة لله قامت بمن لا يرى له شخص ولا يسمع منه كلمة ولا يعلم له مكان ولا سماً على أصول القائلين به فإن الذي دعاهم إلى ذلك أنهم قالوا لا بد منه في اللطف بالمكلفين وانقطاع حاجتهم عن الله فيما لله العجب أي لطف حصل بهذا المعدوم لا المعصوم وأي حجة أنتمم للخلق على ربهم بأصلكم الباطل فإن هذا المعدوم إذا لم يكن لهم سبيل قط إلى لقائه والاهتداء به فهل في تسكين مال لا يطاق أبلغ من هذا وهل في العذر والحجة أبلغ من هذا فالذي فررتهم منه وقعتم في شر منه وكنتم في ذلك كما قيل :

المستجير بعمره عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار

ولكن أبي الله إلا أن يفضح من تنقص بالصحابة الأختيار وبسادة هذه الأمة وأن يرى الناس عورته ويغريه بكشفها ونعوذ بالله من الخذلان ولقد أحسن القائل :

ما أن للسر داب أن يلد الذي حملتموه بزعمكم ما أنا
فعلى عقولكم العفاء فانكم نلثتم العنقاء والغيلانا

ولقد بطلت حجج استودعها مثل هذا الغائب وضاعت أعظم ضياع فاتم أبطلتم حجج الله من حيث زعمتم حفظها وهذا تصريح من أمير المؤمنين رضى الله عنه بأن حامل حجج الله في الأرض بحيث يؤديها عن الله ويبلغها إلى عباده مثله رضى الله عنه ومثل إخوانه من الخلفاء الراشدين ومن اتبعهم إلى يوم القيامة . وقوله لسكيلا تبطل حجج الله وبيناته أي لسكيلا تذهب من بين يدي الناس وتبطل من صدورهم وإلا فالبطالان محال عليها لأنها ملزوم ما يستحيل عليه البطلان . فإن قيل فما الفرق بين الحجج والبيانات . قيل الفرق بينهما أن الحجج هي الأدلة العلمية التي يعقلها القلب وتسمع بالأذن قال تعالى في مناظرة إبراهيم لقومه وتبيين بطلان ما هم عليه بالدليل العلمي (وتلك حججتنا آتيناهم إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء) قال ابن زيد بعلم الحججة وقال تعالى (فإن حاجوك فقل أسئلت وجهي لله ومن اتبعني) وقال

تعالى (والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حججهم داخضة عند ربهم) والحجة هي اسم لما يحتاج به من حق وباطل قال تعالى (لئلا يكون للناس عليكم حجة الا الذين ظلموا منهم) فانهم يحتاجون عليكم بحجة باطلة (فلا تخشوهم واخشوني) وقال تعالى (ولذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حججهم إلا أن قالوا ائتوا بآياتنا إن كنتم صادقين) والحجة المضافة إلى الله هي الحق وقد تكون الحجة بمعنى المخاصمة ومنه قوله تعالى (فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم) أى قد وضع الحق واستبان وظهر فلا خصومة بيننا بعد ظهوره ولا مجادلة فان الجدال شريعة موضوعة للتعاون على إظهار الحق فاذا ظهر الحق ولم يبق به خفاء فلا فائدة في الخصومة والجدال على بصيرة لمخاصمة المنكر ومجادلته عناء لاغنى فيه هذا معنى هذه الآية وقد يقع في وهم كثير من الجهال أن الشريعة لا احتجاج فيها وأن المرسل بها صلوات الله وسلامه عليه لم يكن يحتاج على خصومه ولا يجادلهم ويظن جهال المنطقيين وفروخ اليونان أن الشريعة خطاب للجمهور ولا احتجاج فيها وأن الأنبياء دعوا الجمهور بطريق الخطابة والحجج للخواص وهم أهل البرهان يعنون نفوسهم ومن سلك طريقهم وكل هذا من جهلهم بالشريعة والقرآن فان القرآن مملوء من الحجج والأدلة والبراهين في مسائل التوحيد وإثبات الصانع والمعاد وإرسال الرسل وحدث العالم فلا يذكر المتكلمون وغيرهم دليلاً صحيحاً على ذلك إلا وهو في القرآن بأفصح عبارة وأوضح بيان وأتم معنى وأبعده عن الإيرادات والأسئلة وقد اعترف بهذا حذاق المتكلمين من المتقدمين والمتأخرين . قال أبو حامد في أول الأحياء فان قلت فلم لم تورد في أقسام العلم الكلام والفلسفة وتبين أنهما مذمومان أو مندوحان فاعلم أن حاصل ما يشتمل عليه الكلام من الأدلة التي ينتفع بها فالقرآن والأخبار مشتملة عليه وما خرج عنهما فهو إما مجادلة مذمومة وهي من البدع كما سيأتى بيانه واما مشاغبة بالمتعلق بمناقضات الفرق وتطويل بنقل المقالات التي أكثرها ترهات وهذيانات تزديها الطباع وتمجها الأسماع وبعضها خوض فيما لا يتعلق بالدين ولم يكن شيء منه مألوفاً في العصر الأول ولكن تغير الآن حكمه إذا حدثت البدع الصارفة عن مقتضى القرآن والسنة لفقت لها شبيها ورثت لها كلاماً مؤلفاً فصار ذلك المحذور بحكم الضرورة مأذوناً فيه . وقال الرازى في كتابه أقسام الذات لقد تأملت الكتب الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تروى غليلاً ولا تشفى عليلاً ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن اقرأ في الإنبات (إليه يصعد الكلم الطيب) (الرحمن على العرش استوى) وقرأ في النفي (ليس كمثل شيء) ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي وهذا الذي أشار إليه بحسب ما فتح له من

دلالة القرآن بطريق الخبر وإلا فدلالته البرهانية العقلية التي يشير إليها يرشد إليها فتكون دليلاً سمعياً عقلياً أمر تميز به القرآن وصار العالم به من الراسخين في العلم وهو العلم الذي يطمئن إليه القلب وتساكن عنده النفس ويزكو به العقل وتستأنس به البصيرة وتقوى به الحججة ولا سبيل لأحد من العالمين إلى قطع من حاج به بل من خاعم به فاجت حجته وكسر شبهة خصمه وبه فتحت القلوب واستجيب لله ولرسوله ولكن أهل هذا العلم لا تكاد الأعصار تسمح منهم إلا بالواحد بعد الواحد فدلالة القرآن سمعية عقلية قطعية يقينية لا تعترضها الشبهات ولا تتداولها الاحتمالات ولا ينصرف القلب عنها بعد فهمها أبداً وقال بعض المتكلمين أفيت عمرى في الكلام أطلب الدليل وأنا لا أزداد إلا بعداً عن الدليل فرجعت إلى القرآن أتدبره وأتفكر فيه وإذا أنا بالدليل حقاً معى وأنا لا أشعر به فقلت والله ما مثلى إلا كما قال القائل :

ومن العجائب والعجائب جمّة قرب الحبيب وما إليه وصول

كالعيش في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

قال فلما رجعت إلى القرآن إذا هو الحكيم والدليل ورأيت فيه من أدلة الله وحججه وبراهينه وبياناته ما لو جمع كل حق قاله المتكلمون في كتبهم لكانت سورة من سور القرآن وافية بمضمونه مع حسن البيان وفصاحة اللفظ وتطبيق المفصل وحسن الاحتراز والتنبيه على مواقع الشبه والإرشاد إلى جوابها وإذا هو كما قيل بل فوق ما قيل :

كفى وشفى ما في الفؤاد فلم يدع لذي أرب في القول جداً ولا هزلاً

وجعلت جيوش الكلام بعد ذلك تفد إلى كما كانت وتزاحم في صدرى ولا يأذن لها القلب بالدخول فيه ولا تنقى منه إقبالا ولا قبولا فترجع على ادبارها . والمقصود أن القرآن مملوء بالاحتجاج وفيه جميع أنواع الأدلة والأقضية الصحيحة وأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم فيه بإقامة الحججة والمجادلة . فقال تعالى (وجادلهم بالتي هي أحسن) وقال (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن) وهذه مناظرات القرآن مع الكفار موجودة فيه وهذه مناظرات رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه لخصومهم وإقامة الحجج عليهم لا ينكر ذلك إلا جاهل مفرط في الجهل . والمقصود الفرق بين الحجج والبيانات . فنقول الحجج الأدلة العلمية والبيانات جمع بيئنة وهي صفة في الأصل يقال آية بيئنة وحجة بيئنة والبيئنة اسم لكل ما يبين الحق من علامة منصوبة أو أمارة أو دليل على . قال تعالى (لقد أرسلنا رسلاً بالبيئات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان) فالبيئات الآيات التي أقامها الله دلالة على صدقهم من المعجزات والكتاب هو الدعوة وقال تعالى (إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم) ومقام إبراهيم آية جزئية مرئية بالأبصار

وهو من آيات الله الموجودة في العالم . ومنه قول موسى لفرعون وقومه (قد جئتمكم بيينة من ربكم فأرسل معي بنى اسرائيل قال إن كنت جئت بأية فأت بها إن كنت من الصادقين فألقى عصاه) وكان القاء العصا وانقلابها حية هو البيينة . وقال قوم هود يا هود ما جئتنا بيينة يريدون آية الاقتراح وإلا فهو قد جاءهم بما يعرفون به أنه رسول الله إليهم فطلب الآية بعد ذلك تعنت واقتراح لا يكون لهم عذر في عدم الإجابة إليه وهذه هي الآيات التي قال الله تعالى فيها (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) فعدم إجابته سبحانه إليها إذ طلبها الكفار رحمة منه وإحسان فإنه جرت سنته التي لا تبدل لها أنهم إذا طلبوا الآية واقتروها وأجيبوا ولم يؤمنوا عوجوا بعذاب الاستئصال فلما علم سبحانه أن هؤلاء لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية لم يجبههم إلى ما طلبوا فلم يعمهم بعذاب لما أخرج من بينهم وأصلابهم من عبادة المؤمنين وإن أكثرهم آمن بعد ذلك بغير الآيات التي اقتروها فكان عدم إنزال الآيات المطلوبة من تمام حكمة الرب ورحمته وإحسانه بخلاف الحجج فإنها لم تنزل متتابعة يتلو بعضها بعضا وهي كل يوم في مزيد وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي أكثر ما كانت وهي باقية إلى يوم القيامة ، وقوله أولئك الأقلون عدداً الأعظمون عند الله قدرا يعني هذا الصنف من الناس أقل الخلق عدداً وهذا سبب غربتهم فانهم قليلون في الناس والناس على خلاف طريقهم فلهم نبأ وللناس نبأ . قال النبي صلى الله عليه وسلم بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء فالؤمنون قليل في الناس والعلماء قليل في المؤمنين وهؤلاء قليل في العلماء وإياك أن تغتر بما يغتر به الجاهلون فانهم يقولون لو كان هؤلاء على حق لم يكونوا أقل الناس عدداً والناس على خلافهم . فاعلم أن هؤلاء هم الناس ومن خالفهم فمشبهون بالناس وليسوا بناس فإنا نحن إلا أهل الحق وإن كانوا أقلهم عدداً . قال ابن مسعود لا يكن أحدكم إمعة يقول أنا مع الناس ليوطن أحدكم نفسه على أن يؤمن ولو كفر الناس . وقد ذم سبحانه الأكثرين في غير موضع كقوله (وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله) وقال : (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) . وقال : (وقليل من عبادى الشكور) وقال : (وإن كثيرا من الخطاء ليبغى بعضهم على بعض الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم) . وقال بعض العارفين انفرادك في طريق طلبك دليل على صدق الطلب .

مت بداء الهوى والاختاطر واطرق الحى والعيون نواظر

لا تخف وحشة الطريق اذا سرت وكن فى خفارة الحق سائر

وقوله بهم يدفع الله عن حججه حتى يؤديها الى نظرائهم ويزرعوها في قلوب أشباههم وهذا لأن الله سبحانه ضمن حفظ حججه وبيئاته وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه

لا تزال طائفة من أمته على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم الى قيام الساعة فلا يزال غرس الله الذين غرسهم في دينه يغرسون العلم في قلوب من أهلهم الله لذلك وارتضاهم فيكونوا ورثة لهم كما كانوا هم ورثة لمن قبلهم فلا تنقطع حجج الله والقائم بها من الأرض . وفي الأثر المشهور لا يزال الله يغرس في هذا الدين غرسا يستعملهم بطاعته . وكان من دعاء بعض من تقدم اللهم اجعلني من غرسك الذين تستعملهم بطاعتك ولهذا ما أقام الله لهذا الدين من يحفظه ثم قبضه إليه إلا وقد زرع ما علمه من العلم والحكمة أما في قلوب أمثاله وأما في كتب ينتفع بها الناس بعده وبهذا وبغيره فضل العلماء العباد فان العالم إذا زرع علمه عند غيره ثم مات جرى عليه أجره وبقي له ذكره وهو عمر ثمان وحياة أخرى وذلك أحق ما تنافس فيه المتنافسون ورغب فيه الراغبون . وقوله هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فاستلانا ما استوعره المترفون وأنسوا مما استوحش منه الجاهلون . الهجوم على الرجل الدخول عليه بلا استئذان ولما كانت طريق الآخرة وعرة على أكثر الخلق لمخالفتها لشهواتهم ومباينتها لإرادتهم ومألوفاتهم قل سالكوها وازهدهم فيها قلة عليهم أو عدمه بحقيقة الأمر وعاقبة العباد ومصيرهم وما هيئوا له وهيء لهم فقل عليهم بذلك واستلانا مركب الشهوة والهوى على مركب الاخلاص والتقوى وتوعرت عليهم الطريق وبعدت عليهم الشقة وصعب عليهم مرتقى عقابها وهبوط أوديتها وسلوك شعابها فأخذلوا الى الدعة والراحة وآثروا العاجل على الآجل وقالوا عيشنا اليوم نقد وموعدونا نسيمة فنظروا الى عاجل الدنيا وأغضوا العيون عن آجائها ووقفوا مع ظاهرها . ولم يتأملوا باطنها وذاقوا حلاوة مبادئها وغاب عنهم مرارة عواقبها ودر لهم ثديها فطاب لهم الارتضاع واشتغلوا به عن التفكير في الفطام ومرارة الانقطاع وقال مغترهم بالله وجاحدهم لعظمتهم وربوبيته متمثلا في ذلك :

* خذ ما تراه ودع شيئا سمعت به *

وأما القائمون لله بحجته خلفاء نبيه في أمته فانهم لجمال عليهم وقوته نقد بهم الى حقيقة الأمر وهجم بهم عليه فعانوا ببصائرهم ما عشيت عنه بصائر الجاهلين فاطمأنت قلوبهم به وعملوا على الوصول اليه لما باشرها من روح اليقين ورفع لهم علم السعادة فشمروا اليه وأسمعهم منادى الايمان النداء فاستبقوا اليه واستيقنت أنفسهم ما وعدهم به ربهم فزهدوا فيما سواه ورغبوا فيما لديه علموا أن الدنيا دار بمر لا دار مقر ومنزل عبور لا مقعد حبور وأنها خيال طيف أو سحابة صيف وإن من فيها كراكب قال تحت ظل شجرة ثم راح عنها وتركها وتيقنوا أنها أحلام نوم أو كظلم زائل :

* إن اللبيب بمثلها لا يخدع *

وأن وصفها صدق في وصفها إذ يقول

أرى أشقياء الناس لا يسأمونها على أنهم فيها عراة وجوع
أراها وإن كانت تحب فانها سحابة صيف عن قليل تقشع

فرحلت عن قلوبهم مدبرة كما رحلت عن أهلها موليه وأقبلت الآخرة إلى قلوبهم مسرعة كما
أسرعت إلى الخلق مقبلة فامتطوا ظهور العزائم وهجروا لذة المنام وما ليل المحب بنائم علموا
طول الطريق وقلة المقام في منزل التزود فسارعوا في الجهاز وجد بهم السير إلى منازل الأحباب
فقطعوا المراحل وطورا المفاوز . وهذا كله من ثمرات اليقين فإن القلب إذا استيقن ما أمامه
من كرامة الله وما أعد لأولياته بحيث كأنه ينظر إليه من وراء حجاب الدنيا ويعلم أنه إذا زال
الحجاب رأى ذلك عيانا زالت عنه الوحشة التي يجدها المتخلفون ولأن لهما استوعره المترفون
وهذه المرتبة هي أول مراتب اليقين وهي علمه وتيقنه وهي انكشاف المعلوم للقلب بحيث
يشاهده ولا يشك فيه كما انكشاف المرئي للبصر . ثم يليها المرتبة الثانية وهي مرتبة عين اليقين ونسبتهما
إلى العين كنسبة الأول إلى القلب ثم تليها المرتبة الثالثة وهي حق اليقين وهي مباشرة المعلوم
وإدراكه الإدراك التام فالأولى كعملك بأن في هذا الوادي ماء والثانية كرويته والثالثة كالشرب
منه . ومن هذا ما يروى في حديث حارثة . وقول النبي ﷺ كيف أصبحت يا حارثة قال أصبحت
مؤمنا حقا قال إن لكل قول حقيقة فاحقيقة إيمانك قال عزفت نفسى عن الدنيا وشهواتها فأسهرت
ليلي وأظلمات نهاري وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزا وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون
فيها وإلى أهل النار يتعاورون فيها . فقال عبيد نوري نور الله قلبه فهذا هو هجوم العلم بصاحبه على
حقيقة الأمر ومن وصل إلى هذا استلان ما يستوعره المترفون وأنس بما يستوحش منه الجاهلون
ومن لم يثبت قدم إيمانه على هذه الدرجة فهو إيمان ضعيف وعلامة هذا النشراح الصدر لمنازل
الايان وانفساحه وطمأنينة القلب لأمر الله والإجابة إلى ذكر الله ومحبهه والفرح بلقائه
والتجافي عن دار الغرور كما في الأثر المشهور إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح قيل وما
علامة ذلك قال التجافي عن دار الغرور والإجابة إلى دار الخلود والاستعداد للبوت قبل نزوله
وهذه هي الحال التي كانت تحصل للصحابة عند النبي ﷺ إذا ذكرهم الجنة والنار كما في الترمذي وغيره
من حديث الجريري عن أبي عثمان النهدي عن حنظلة الأسدي . وكان من كتاب النبي ﷺ أنه
مر بأبي بكر رضي الله عنه وهو يبكي فقال مالك يا حنظلة فقال نافق حنظلة يا أبا بكر نكون
عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالجنة والنار كأننا رأينا عين فاذا رجعنا إلى الأزواج والضيعة
نسبنا كثير اقال فوالله إنا لسلكنا انطلق بنا إلى رسول الله ﷺ فانطلقنا فلما رآه رسول الله
ﷺ قال مالك يا حنظلة قال نافق حنظلة يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأننا

رأى عين فاذا رجعنا عافسنا الأزواج والضيعة ونسينا كثيرا . قال فقال رسول الله ﷺ لو تدمون على الحال التي تقومون بها من عندي لصاغتكم الملائكة في مجالسكم وفي طرقكم وعلى فرشكم ولكن ياخذن ساعة وساعة وساعة وساعة . قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح وفي الترمذي أيضاً نحوه من حديث أبي هريرة . والمقصود أن الذي يهجم بالقلب على حقيقة الايمان ويلين له ما يستوعره غيره ويؤنسه بما يستوحش منه سواء العلم التام والحب الخاص والحب تبع للعالم يقوى بقوته ويضعف بضعفه والحب لا يستوعر طريقاً توصله إلى محبوبه ولا يستوحش فيها . وقوله صحبوا الدنيا بابدان أرواحها معلقة بالملا الأعلى وفي رواية بالمحل الأعلى الروح في هذا الجسد بدار غربة ولها وطن غيره فلا تستقر إلا في وطنها وهي جوهر علوى مخلوق من مادة علوية وقد اضطرت إلى مساكنة هذا البدن الكشيف فهي دائماً تطلب وطنها في المحل الأعلى وتحن إليه حنين الطير إلى أوكارها وكل روح ففيها ذلك ولكن لفرط اشتغالها بالبدن وبالمحسوسات المألوفة أخذت إلى الأرض ونسيت معلمها ووطنها الذي لراحة لها في غيره فانه لراحة اللبؤ من دون لقاء ربه والدنيا سجنه حقاً فلماذا تجد المؤمن بدنه في الدنيا وروحه في المحل الأعلى . وفي الحديث المرفوع إذا نام العبد وهو ساجد باهى الله به الملائكة فيقول انظروا إلى عبدي بدنه في الأرض وروحه عندى رواه تمام وغيره . وهذا معنى قول بعض السلف القلوب جوارح القلب حول الحشر وقلب يطوف مع الملائكة حول العرش فأعظم عذاب الروح الغماسها وتدسيسها في أعماق البدن واشتغالها بملاذنه وانقطاعها عن ملاحظة ما خلقت له وهيمت له وعن وطنها ومحلمها ومحل أنسها ومنزل كرامتها ولكن سكر الشهوات يحجبها عن مطالعة هذا الألم والعذاب فإذا صحت من سكرها وأفاقت من غمرتها أقبلت عليها جيوش الحشرات من كل جانب فحينئذ تنقطع حسرات على مافاتنا من كرامة الله وقربه والانس به والوصول إلى وطنها الذي لراحة لها الا فيه كما قيل :

صحبتك اذ عيني عليها غشاوة فلما انجلت قطعت نفسي ألومها

ولو تنقلت الروح في المواطن كلها والمنازل لم تستقر ولم تظمن إلا في وطنها ومحلمها الذي خلقت له كما قيل :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب الا للحبيب الأول

كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبدا لأول منزل

وإذا كانت الروح تحن أبداً إلى وطنها من الأرض مع قيام غيره مقامه في السكنى وكثيراً ما يكون غير وطنها أحسن وأطيب منه وهي دائماً تحن إليه مع أنه لا يضر عليها ولا عذاب في مفارقتها إلى مثله فكيف بحنينها إلى الوطن الذي في فراقها له عذابها وآلامها وحسرتها التي لا تنقضى فالعبد

المؤمن في هذه الدار سبي من الجنة إلى دار التعب والعناء ثم ضرب عليه الرق فيها فكيف يلام على حنينه إلى داره التي سبي منها وفرق بينه وبين من يحب وجمع بينه وبين عدوه فروحه دائماً معلقة بذلك الوطن وبدنه في الدنيا . ولى من أبيات في ذلك :

وحى إلى جنات عن فانها منازل الأولى وفيها الخيم
ولكننا سبي العدو فهل ترى نعود إلى أوطاننا ونسلم
وكذا أراد منه العدو نسيان وطنه وضرب الذكر عنه صفحا وإيلافه وطنا غيره أبت ذلك
روحه وقلبه كما قيل :

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على التأقل
ولهذا كان المؤمن غريباً في هذه الدار أين حل منها فهو في دار غربة . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ولسكنها غربة تنقضي وبصير إلى وطنه ومنزله وإنما الغربة التي لا يرجى انقطاعها فهي غربة في دار الهوان ومفارقة وطنه الذي كان قد هيء وأعد له وأسر بالتهجين إليه والقدوم عليه فإني إلا اغترابه عنه ومفارقته له فتلك غربة لا يرجى إيابها ولا يجبر مصابها ولا تبادر إلى انكار كون البدن في الدنيا والروح في الملا^ء الأعلى فللروح شأن والبدن شأن والنبي صلى الله عليه وسلم كان بين أظهر أصحابه وهو عند ربه يطعمه ويسقيه فبدنه بينهم وروحه وقلبه عند ربه . وقال أبو الدرداء إذا نام العبد عرج بروحه إلى تحت العرش فإن كان طاهراً أذن لها بالسيجود وإن لم يكن طاهراً لم يؤذن لها بالسيجود فهذه والله أعلم هي العلة التي أمر الجنب لأجلها أن يتوضأ إذا أراد النوم وهذا الصعود إنما كان لتجرد الروح عن البدن بالنوم فاذا تجردت بسبب آخر حصل لها من الترقى والصعود بحسب ذلك التجرد وقد يقوى الحب بالحب حتى لا يشاهد منه بين الناس إلا جسمه وروحه في موضع آخر عند محبوبه وفي هذا من أشعار الناس وحكاياتهم ما هو معروف . وقوله أولئك خلفاء الله في أرضه ودعواته إلى دينه هذا حجة أحد القولين في أنه يجوز أن يقال فلان خليفة الله في أرضه واحتج أصحابه أيضاً بقوله تعالى الملائكة (اني جاعل في الأرض خليفة) . واحتجوا بقوله تعالى (وهو الذي جعلكم خلائف في الأرض) وهذا خطاب لنوع الانسان بقوله تعالى (أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض) وبقول موسى لقومه (عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون) . وبقول النبي صلى الله عليه وسلم ان الله يمكن لكم في الأرض ومستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون فانقوا الدنيا واتقوا النساء . واحتجوا بقول الراعي يخاطب أبا بكر رضى الله عنه :

خليفة الرحمن انا معشر حنفاء نسجد بكرة وأصيلا

عرب نرى لله في أموالنا حق الزكاة منزلا تنزيلا

ومنعت طائفة هذا الاطلاق وقالت لا يقال لأحد أنه خليفة الله فان الخليفة انما يكون ممن يعيب ويخلفه غيره والله تعالى شاهد غير غائب قريب غير بعيد راء وسامع فحال أن يخلفه غيره بل هو سبحانه الذى يخلف عبده المؤمن فيكون خليفته . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الدجال أن يخرج وأنا فيكم فانا حجيجه دونكم وان يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيح نفسه والله خليفتي على كل مؤمن والحديث في الصحيح . وفي صحيح مسلم أيضا من حديث عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول اذا سافر اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل والحضر الحديث . وفي الصحيح ان النبي صلى الله عليه وسلم قال اللهم اغفر لابى سلمة وارفع درجته في المهديين واخلفه في أهله فانه تعالى هو خليفة العبد لأن العبد يموت فيحتاج الى من يخلفه في أهله . قالوا ولهذا أنكر الصديق رضى الله عنه على من قال له يا خليفة الله قال لست بخليفة الله ولكنى خليفة رسول الله وحسى ذلك . قالوا وأما قوله تعالى (انى جاعل فى الأرض خليفة) فلا خلاف ان المراد به آدم وذريته وجمهور أهل التفسير من السلف والخلف على أنه جعله خليفة ممن كان قبله فى الأرض . قيل عن الجن الذين كانوا سكانها . وقيل عن الملائكة الذين سكنوها بعد الجن وقصتهم مذكورة فى التفاسير . وأما قوله تعالى (وهو الذى جعلكم خلائف فى الأرض) فليس المراد به خلائف عن الله وانما المراد به أنه جعلكم يخلف بعضكم بعضا فكما هلك قرن خلفه قرن الى آخر الدهر . ثم قيل ان هذا خطاب لامة محمد صلى الله عليه وسلم خاصة أى جعلكم خلائف من الامم الماضية فهلكوا وورثتم أتم الأرض من بعدهم ، ولا ريب ان هذا الخطاب للامة والمراد نوع الانسان الذى جعل الله أباهم خليفة ممن قبله وجعل ذريته يخلف بعضهم بعضا الى قيام الساعة ولهذا جعل هذا آية من آياته كقوله تعالى (أمن يحيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض) وأما قول موسى لقومه (ويستخلفكم فى الأرض) فليس ذلك استخلافه وانما هو استخلاف عن فرعون وقومه أهلهم وجعل قوم موسى خلفاء من بعدهم وكذا قول النبي صلى الله عليه وسلم ان الله مستخلفكم فى الأرض أى من الامم التى تهلك وتكونون أتم خلفاء من بعدهم . قالوا وأما قول الراعى فقول شاعر قال قصيدة فى غيبة الصديق لا يدري أبلغت أبا بكر أم لا ولو بلغته فلا يعلم انه أقره على هذه اللفظة أم لا . قلت ان أريد بالاضافة الى الله أنه خليفة عنه فالصواب قول الطائفة المانعة منها وإن أريد بالاضافة أن الله استخلفه عن غيره ممن كان قبله فهذا لا يمتنع فيه الاضافة وحققتها خليفة الله الذى جعله الله خلفا عن غيره وبهذا يخرج الجواب عن قول أمير المؤمنين أولئك خلفاء الله فى أرضه . فان قيل هذا لا مدح فيه لان هذا

الاستخلاف عام في الامة وخلافة الله التي ذكرها أمير المؤمنين خاصة بخواص الخلق .
فالجواب أن الاختصاص المذكور أفاد اختصاص الإضافة فالإضافة هنا للتشريف والتخصيص
كما يضاف إليه عباده . كقوله تعالى (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان * وعباد الرحمن الذين
يمشون على الأرض هونا) ونظائرهما . ومعلوم أن كل الخلق عباد له خلفاء الأرض كالعباد في قوله
(والله بصير بالعباد . وما الله يريد ظلماً للعباد) وخلفاء الله في قوله (إن عبادى ليس لك
عليهم سلطان) ونظائره وحقيقة اللفظة أن الخليفة هو الذى يخلف الذاهب أى يجرى بعده
يقال خلف فلان فلانا وأصلها خليف بغير هاء لأنها فعيل بمعنى فاعل كالعلم والقدير فدخلت
التاء للمبالغة في الوصف كراوية وعلامة . ولهذا جمع جمع فعيل ففعل خلفاء كشرى وشرفاء
وكريم وكرماء ومن راعى لفظه بعد دخول التاء عليه جمعه على فعائل فقال خلانف كعقيلة
وعقائل وظريفة وظرائف وكلاهما ورد به القرآن هذا قول جماعة من النحاة . والصواب
أن التاء إنما دخلت فيها للعدل عن الوصف إلى الاسم فإن الكلمة صفة في الأصل ثم أجريت
بجرى الاسماء فألحقت التاء لذلك كما قالوا نطيحة بالتاء فإذا أجروها صفة قالوا شاة نطيح كما
يقولون كف خضيب وإلا فلا معنى للمبالغة في خليفة حتى تلحقها تاء المبالغة والله أعلم .
وقوله ودعائه إلى دينه الدعاء جمع داع كقاض وقضاة ورام ورماة وإضافتهم إلى الله
للاختصاص أى الدعاء المخصوص به الذين يدعون إلى دينه وعبادته ومعرفته ومحبته
وهؤلاء هم خواص خلق الله وأفضلهم عند الله منزلة وأعلامهم قدراً * يدل على ذلك (الوجه
الثلاثون بعد المائة) وهو قوله تعالى (ومن أحسن قولاً لمن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال
إننى من المسلمين) . قال الحسن هو المؤمن أجاب الله في دعوته ودعا الناس إلى ما أجاب
الله فيه من دعوته وعمل صالحاً في إجابته فهذا حبيب الله هذا ولى الله فمقام الدعوة إلى الله
أفضل مقامات العبد . قال تعالى (وانه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً) .
وقال تعالى (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن) جعل
سببانه مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق فالمستجيب القابل للذكي الذى لا يعاند الحق
ولا يأباه يدعى بطريق الحكمة . والقابل الذى عنده نوع غفلة وتأخير يدعى بالموعظة الحسنة
وهى الأمر والنهى المقرون بالرغبة والرغبة . والمعاند الجاحد يجادل بالتي هي أحسن هذا
هو الصحيح في معنى هذه الآية لاما يزعم أسير منطق اليونان أن الحكمة قياس البرهان وهى
دعوة الخواص . والموعظة الحسنة قياس الخطابة وهى دعوة العوام . والمجادلة بالتي هي أحسن
القياس الجدلى وهو رد شغب المشاغب بقياس جدلى مسلم المقدمات وهذا باطل وهو مبنى على أصول

الفلسفة وهو مناف لأصول المسلمين وقواعد الدين من وجوه كثيرة ليس هذا موضع ذكرها. وقال تعالى (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) . قال الفراء وجماعة ومن اتبعني معظوف على الضمير في أدعو يعنى ومن اتبعني يدعو الى الله كما أدعو وهذا قول السكلي قال حق على كل من اتبعه أن يدعو إلى مادعا اليه ويذكر بالقرآن والموعظة ويقوى هذا القول من وجوه كثيرة . قال ابن الانبارى ويجوز أن يتم الكلام عند قوله إلى الله ثم يتدىء بقوله على بصيرة أنا ومن اتبعني فيكون الكلام على قوله جملتين أخبر في أولهما أنه يدعو إلى الله وفي الثانية بانه من اتبعه على بصيرة والقولان متلازمان فلا يكون الرجل من أتباعه حقاً حتى يدعو إلى مادعا اليه وقول الفراء أحسن وأقرب إلى الفصاحة والبلاغة وإذا كانت الدعوة إلى الله أشرف مقامات العبد وأجلها وأفضلها فهي لا تحصل إلا بالعلم الذى يدعو به واليه بل لا بد في كمال الدعوة من البلوغ في العلم إلى حد يصل إليه السعى ويكفى هذا في شرف العلم أن صاحبه يجوز به هذا المقام والله يؤتى فضله من يشاء . (الوجه الحادى والثلاثون بعد المائة) . أنه لو لم يكن من فوائد العلم إلا أنه يشمر اليقين الذى هو أعظم حياة القلب وبه طمأنينته وقوته ونشاطه وسائر لوازم الحياة ولهذا مدح الله سبحانه أهله في كتابه وأثنى عليهم بقوله (وبالآخرة هم يوقنون) وقوله تعالى (كذلك نفصل الآيات لقوم يوقنون) . وقوله في حق خليله إبراهيم (وكذا تكلمنا لى إبراهيم) وفى الحديث (إن الناس كانوا بأياتنا لا يوقنون) . وفى الحديث المرفوع من حديث سفیان الثورى عن سليمان التيمى عن خيشمة عن عبد الله بن مسعود يرفعه لا ترضين أحداً بسخط الله ولا تحمدن أحداً على فضله ولا تذمن أحداً على مالم يؤتك الله فان رزق الله لا يسوقه حرص حرص ولا يردده عنك كراهية كاره وأن الله يعدله وقسطه جعل الروح والراحة والفرح فى الرضا واليقين وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط فاذا باشر القلب اليقين امتلاً نوراً واتقى عنه كل ريب وشك وعوفى من أمراضه القانلة وامتلاً شكراً لله وذكر له له ومحبة وخوفاً ففى عن بيضة واليقين والمحبة هما ركنا الإيمان وعليهما ينبى وبهما قوامه وهما يمدان سائر الأعمال القلبية والبدنية وعنهما تصدر وبضعفهما يكون ضعف الأعمال وبقوتها قوتها وجميع منازل السائرين ومقامات العارفين إنما تفتح بهما وهما يشمران كل عمل صالح وعلم نافع وهدى مستقيم . قال شيخ العارفين الجيد اليقين هو استقرار العلم الذى لا يتقلب ولا يتحول ولا يتغير فى القلب ، وقال سهل حرام على قلب أن يشم رائحة اليقين وفيه سكون إلى غير الله وقيل من علاماته الالتفات إلى الله فى كل نازلة والرجوع اليه فى كل أمر والاستعانة به فى كل حال وإرادة وجهه بكل حركة وسكون

وقال السرى اليقين السكون عند جولان الموارد في صدرك لتيقنك أن حركتك فيها لا تنفعك ولا ترد عنك مقصيا. قلت هذا إذا لم تكن الحركة مأمورا بها فإذا كانت مأمورا بها فاليقين في بذل الجهد فيها واستفراغ الوسع . وقيل إذا استكمل العبد حقيقة اليقين صار بالبلاء عنده نعمة والمحنة منحة فالعلم أول درجات اليقين . ولهذا قيل العلم يستعملك واليقين يحمك فاليقين أفضل مواهب الرب لعبده ولا تثبت قدم الرضاء إلا على درجة اليقين . قال تعالى (مأصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه) . قال ابن مسعود هو العبد تصيبه المصيبة فيعلم أنها من الله فيرضى ويسلم فلها لم يحصل له هداية القلب والرضا والتسليم إلا بيقينه قال في الصحاح اليقين العلم وزوال الشك يقال منه يقنت الأمر يقنا واستيقنت وأيقنت وتيقنت كله بمعنى واحد وأنا على يقين منه وإنما صارت الياء واوا في موقن للضمة قبلها وإذا صغرت أرددته الى الأصل فقلت ميبقن وربما عبروا عن الظن باليقين وبالظن عن اليقين قال :

تحسب هو أس وأيقن أنني بها مفتد من واحد لأغامره

يقول تشمم الأسد ناقتي يظن أنني أفندي بها منه واستحى نفسي فأتركها له ولا اقتحم المهالك لمقاتته . قلت هذا موضع اختلاف فيه أهل اللغة والتفسير هل يستعمل اليقين في موضع الظن والظن في موضع اليقين فرأى ذلك طائفة منهم الجوهري وغيره واحتجوا بسوى ما ذكر بقوله تعالى (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون) ولو شكوا في ذلك لم يكونوا موقنين فضلا عن أن يمدحوا بهذا المدح وبقوله (قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله) . وبقوله تعالى (ورأى الجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها) وبقول الشاعر

فقلت لهم ظنوا بالني مقاتل سراتهم في الفارسي المسرد

أى استيقنوا بهذا العدد وأبى ذلك طائفة وقالوا لا يكون اليقين إلا للعلم وأما الظن فمفهم من وافق على أنه يكون الظن في موضع اليقين وأجابوا عما احتج به من جواز ذلك بأن قالوا هذه المواضع التي زعمتهم أن الظن وقع فيها موقع اليقين كلها على بابها فإننا لم نجد ذلك إلا في علم بمغيب ولم نجدهم يقولون لمن رأى الشيء أظنه ولمن ذاقه أظنه وإنما يقال لغائب قد عرف بالسمع والعلم فاذا صار إلى المشاهدة امتنع إلى اطلاق الظن عليه قالوا وبين العيان والخبر مرتبة متوسطة باعتبارها أوقع على العلم بالغائب الظن لفقد الحال التي تحصل المدركة بالمشاهدة وعلى هذا أخرجت سائر الأدلة التي ذكرتوها ولا يرد على هذا قوله (ورأى الجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها) لأن الظن إنما وقع على مواقعها وهي غيب حال الرؤية فاذا واقعها لم يكن ذلك ظنا بل حق يقين قالوا وأما قول الشاعر : وأيقن أنني بها مفتد . فعلى بابه لأنه ظن أن الأسد لتيقنه شجاعته

وجراءته موقن بأن الرجل يدع له ناقته يفتدى بها من نفسه قالوا وعلى هذا يخرج معنى الحديث نحن أحق بالشك من إبراهيم وفيه أجوبة لكن بين العيان والخير رتبة طلب إبراهيم زوالها بقوله ولكن ليظمن قلبي فعبّر عن تلك الرتبة بالشك والله أعلم . (الوجه الثاني والثلاثون بعد المائة) ما رواه أبو يعلى الموصلي في مسنده من حديث أنس بن مالك يرفعه إلى النبي ﷺ قال طلب العلم فريضة على كل مسلم وهذا وإن كان في مسنده حفص بن سليمان وقد ضعف فمعناه صحيح فإن الإيمان فرض على كل واحد وهو ماهية مركبة من علم وعمل فلا يتصور وجود الإيمان إلا بالعلم والعمل . ثم شرائع الإسلام واجبة على كل مسلم ولا يمكن أداؤها إلا بعد معرفتها والعلم بها والله تعالى أخرج عباده من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً فطلب العلم فريضة على كل مسلم وهل يمكن عبادة الله التي هي حقه على العباد كلهم إلا بالعلم وهل ينال العلم إلا بطلبه ثم إن العلم المفروض تعلمه ضربان ضرب منه فرض عين لا يسع مسلماً جهله وهو أنواع النوع الأول علم أصول الإيمان الخمسة بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فإن من لم يؤمن بهذه الخمسة لم يدخل في باب الإيمان ولا يستحق اسم المؤمن . قال الله تعالى (ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين) وقال (ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً) . ولما سأل جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر قال صدقت فالإيمان بهذه الأصول فرع معرفتها والعلم بها . النوع الثاني علم شرائع الإسلام واللازم منها علم ما يخص العبد من فعلها كعلم الوضوء والصلاة والصيام والحج والزكاة وتوابعها وشروطها ومبطلاتها . النوع الثالث علم المحرمات الخمسة التي اتفقت عليها الرسل والشرائع والكتب الالهية وهي المذكورة في قوله تعالى (قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) فهذه محرمات على كل واحد في كل حال على لسان كل رسول لا تباح قط ولهذا أتى فيها بانما المفيدة للحصر مطلقاً وغيرها محرم في وقت مباح في غيره كالهيئة والدم ولحم الخنزير ونحوه فهذه ليست محرمة على الإطلاق والدوام فلم تدخل تحت التحريم المحصور المطلق . النوع الرابع علم أحكام المعاشرة والمعاملة التي تحصل بينه وبين الناس خصوصاً وعموماً والواجب في هذا النوع يختلف باختلاف أحوال الناس ومنازلهم فليس الواجب على الإمام مع رعيته كالواجب على الرجل مع أهله وجيرته وليس الواجب على من نصب نفسه لأنواع التجارات من تعلم أحكام البياعات كالواجب على من لا يبيع ولا يشتري إلا ما تدعو الحاجة إليه وتفصيل هذه الجملة لا ينضبط بحد لاختلف الناس في أسباب العلم الواجب وذلك يرجع

إلى ثلاثة أصول اعتقاد وفعل وترك فالواجب في الاعتقاد مطابقتها للحق في نفسه والواجب في العمل معرفته وموافقة حركات العبد الظاهرة والباطنة الاختيارية للشرع أمراً وإباحة والواجب في الترك معرفة موافقة الكيف والسكون لمَرْضَاتِ الله وأن المطلوب منه إبقاء هذا لفعل على عدمه المستصحب فلا يتحرك في طلبه أو كلف النفس عن فعله على الطريقتين . وقد دخل في هذه الجملة علم حركات القلوب والأبدان وأما فرض الكفاية فلا أعلم فيه ضابطاً صحيحاً فان كل أحد يدخل في ذلك ما يظنه فرضاً فيدخل بعض الناس في ذلك علم الطب وعلم الحساب وعلم الهندسة والمساحة وبعضهم يزيد على ذلك علم أصول الصناعة كالزراعة والحياسة والحداثة والخياطة ونحوها وبعضهم يزيد على ذلك علم المنطق وربما جعله فرض عين وبناء على عدم صحة إيمان المقلد وكل هذا هوس وخبط فلا فرض إلا ما فرضه الله ورسوله فياسبحان الله هل فرض الله على كل مسلم أن يكون طبيباً حجاجاً حاسباً مهندساً أو حائكاً أو فلاحاً أو نجاراً أو خياطاً فإن فرض الكفاية كفرض العين في تعلقه بعموم المكلفين وإنما يخالفه في سقوطه بفعل البعض ثم على قول هذا القائل يكون الله قد فرض على كل أحد جملة هذه الصنائع والعلوم فإنه ليس واحد منها فرضاً على معين والآخر على معين آخر بل عموم فرضيتها مشتركة بين العموم فيجب على كل أحد أن يكون حاسباً حائكاً خياطاً نجاراً فلاحاً طبيباً مهندساً فان قال المجموع فرض على المجموع لم يكن قولك إن كل واحد منها فرض كفاية صحيحاً لأن فرض الكفاية يجب على العموم . وأما المنطق فلو كان علماً صحيحاً كان غاية أن يكون كالمساحة والهندسة ونحوها فكيف وباطله أضعاف حقه وفساده وتناقض أصوله واختلاف مبانيه توجب مراعاتها للذهن أن يزيغ في فكره ولا يؤمن بهذا إلا من قد عرفه وعرف فساده وتناقضه ومناقضه كثير منه للعقل الصريح وأخبر بعض من كان قد قرأه وعنى به أنه لم يزل متعجباً من فساد أصوله وقواعده ومبانيها الصريح المعقول وتضمنها لدعاو حصة غير مدلول عليها وتقريفة بين متساويين وجمعه بين مختلفين فيحكم على الشيء بحكم وعلى نظيره بضد ذلك الحكم أو يحكم على الشيء بحكم ثم يحكم على مضاده أو مناقضه به قال إلى أن سألت بعض رؤسائه وشيوخ أهله عن شيء من ذلك فأفكر فيه ثم قال هذا علم قد قصفته الأذهان ومرت عليه من عهده القرون الأوائل أو كما قال فينبغي أن نتسلمه من أهله وكان هذا من أفضل ما رأيت في المنطق . قال إلى أن وقفت على رد متكلمي الإسلام عليه وتبين فساده وتناقضه فوقفت على مصنف لأبي سعيد السيرافي النحوي في ذلك وعلى رد كثير من أهل الكلام والعربية عليهم كالقاضي أبي بكر بن الطيب والقاضي عبد الجبار والجبائي وابنه وأبي المعالي وأبي القاسم الأنصاري

وخلق لا يحصون كثرة ورأيت استشكالات فضلائهم ورؤسائهم لمواضع الاشكال ومخالفاتها ما كان ينقدح لي كثير منه ورأيت آخر من تجرد للرد عليهم شيخ الإسلام قدس الله روحه فإنه أتى في كتابيه الكبير والصغير بالعجب العجاب وكشف أسرارهم وهتك أستارهم فقلت في ذلك :

واعجباً لمنطق اليونان كم فيه من إفك ومن بهتان
مخبط لمجيد الأذهان ومفسد لفطرة الإنسان
مضطرب الأصول والمباني على شفا هار بناء الباني
أحوج ما كان إليه العاني يخونه في السر والإعلان
يمشي به اللسان في الميدان مشى مقيد على صفوان
تمهل العثار والتواني كأنه السراب بالقيعان
بدا لعين الظمى الخيراني فأمه بالظن والحسبان
يرجو شفاء غلة الظمان فلم يجد ثم سوى الحرمان
فعاد بالخبيثة والخسران يقرع سن نادم حيران
قد ضاع منه العمر في الأمان وعين الخفة في الميزان

وما كان من هوس النفوس بهذه المنزلة فهو بأن يكون جهلاً أولى منه بأن يكون علماً تعلمه فرض كفاية أو فرض عين وهذا الشافعي وأحمد وسائر أئمة الإسلام وتصانيفهم وسائر أئمة العربية وتصانيفهم وأئمة التفسير وتصانيفهم لمن نظر فيها هل راعوا فيها حدود المنطق وأوضاعه وهل صح لهم علمهم بدونه أم لا بل هم كانوا أجل قدراً وأعظم عقولاً من أن يشغلوا أفكارهم بهذيان المنطقيين وما دخل المنطق على علم إلا أفسده وغير أوضاعه وشوش قواعده . ومن الناس من يقول أن علوم العربية من التصريف والنحو واللغة والمعاني والبيان ونحوها تعلمها فرض كفاية لتوقف فهم كلام الله ورسوله عليها . ومن الناس من يقول تعلم أصول الفقه فرض كفاية لأنه العلم الذي يعرف به الدليل ومرتبته وكيفية الاستدلال وهذه الأقوال وإن كانت أقرب إلى الصواب من القول الأول فليس وجوبها عاماً على كل أحد ولا في كل وقت وإنما يجيب وجوب الوسائل في بعض الأزمان وعلى بعض الأشخاص بخلاف الفرض الذي يعم وجوبه كل أحد وهو علم الإيمان وشرائع الإسلام فهذا هو الواجب وأما ما عداه فإن توقفت معرفته عليه فهو من باب ما لا يتم الواجب إلا به ويكون الواجب منه القدر الموصل إليه دون المسائل التي هي فضلة لا يفترق معرفة الخطاب وفهمه إلهها فلا

يطلق القول بأن علم العربية واجب على الإطلاق إذ الكثير منه ومن مسائله وبحوثه لا يتوقف فهم كلام الله ورسوله عليها وكذلك أصول الفقه القدر الذي يتوقف فهم الخطاب عليه منه يجب معرفته دون المسائل المقررة والأبحاث التي هي فضلة فكيف يقال أن تعلمها واجب وبالجملة فالمطلوب الواجب من العبد من العلوم والأعمال إذا توقف على شيء منها كان ذلك الشيء واجباً وجوب الوسائل . ومعلوم أن ذلك التوقف يختلف باختلاف الأشخاص والأزمان والأسنة والأذهان فليس لذلك حد مقدر والله أعلم (الوجه الثالث والثلاثون بعد المائة) ما رواه ابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة يرفعه إلى النبي ﷺ قال سأل موسى ربه عن ست خصال كان يظن أنها له خالصة والسابعة لم يكن موسى يحبها قال يارب أى عبادك أتقى قال الذى يذكر ولا ينسى قال فأى عبادك أهدى قال الذى يتبع الهدى قال فأى عبادك أحكم قال الذى يحكم للناس ما يحكم لنفسه قال أى عبادك أعلم قال عالم لا يشبع من العلم يجمع علم الناس إلى علمه قال فأى عبادك أعز قال الذى إذا قدر عفا قال فأى عبادك أغنى قال الذى يرضى بما أوتى قال فأى عبادك أفقر قال صاحب منقوص فأخبر فى هذا الحديث أن أعلم عباده الذى لا يشبع من العلم فهو يجمع علم الناس إلى علمه لنهمته فى العلم وحرصه عليه ولا ريب أن كون العبد أعظم عباد الله من أعظم أوصاف كاله وهذا هو الذى حمل موسى على الرحلة إلى عالم الأرض ليعلمه بما علمه الله . هذا وهو كليم الرحمن وأكرم الخلق على الله فى زمانه وأعلم الخلق فحمله حرصه ونهمته فى العلم على الرحلة إلى العالم الذى وصف له فلولا أن العلم أشرف ما بذلت فيه المهبج وأنفقت فيه الأنفاس لاشتغل موسى عن الرحلة إلى الخضر بما هو بصدده من أمر الأمة وعن مقاساة النصب والتعب فى رحلته وتلفه للخضر فى قوله (هل أتبعك على أن تعلمن ما علمت رشداً) فلم ير اتباعه حتى استأذنه فى ذلك وأخبره أنه جاء متعلماً مستفيداً فهذا النبي الكريم كان عالماً بقدر العلم وأهله صلوات الله وسلامه عليه (الوجه الرابع والثلاثون بعد المائة) أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق لعبادته الجامعة لمحبهته وإيثار مرضاته المستلزمة لمعرفته رنصب للعباد علماً لا كمال لهم إلا به وهو أن تكون حركاتهم كلها موافقة على وفق مرضاته ومحبهته ولذلك أرسل رسوله وأنزل كتبه وشرع شرائعه فكامل العبد الذى لا كمال له إلا به أن تكون حركاته موافقة لما يجه الله منه ويرضاه له ولهذا جعل اتباع رسوله دليلاً على محبهته . قال تعالى (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم) فالحجب الصادق يرى خيانه منه محبوبه أن يتحرك بحركة اختيارية فى غير مرضاته وإذا فعل فعلاً مما أبيع له بموجب طبيعته وشهوته تاب منه كما يتوب من الذنب ولا يزال هذا الأمر يقوى عنده حتى تنقلب

مباحاته كلها طاعات فيحتسب نومه وفطره وراحته كما يحتسب قومه وصومه واجتهاده وهو دائماً بين سرّاء يشكر الله عليها وضراء يصبر عليها فهو سائر الى الله دائماً في نومه ويقظته . قال بعض العلماء الاكياس عادات الحمقى والحمقى عباداتهم عادات وقال بعض السلف حبذا نوم الاكياس وفطرهم يغيبون به سهر الحمقى وصومهم فالحب الصادق ان نطق نطق الله وبالله وان سكنت سكنت لله وان تحرك فبأمر الله وان سكن فسكونه استعانة على مرضات الله فهو لله وبالله ومع الله ومعلوم ان صاحب هذا المقام أحوج خلق الله الى العلم فانه لا تميز له الحركة المحبوبة لله من غيرها ولا السكون المحبوب له من غيره إلا بالعلم فليست حاجته الى العلم كحاجة من طلب العلم لذاته ولانه في نفسه صفة كمال بل حاجته اليه كحاجته الى ما به قوام نفسه وذاته ولهذا اشتدت وصاة شيوخ العارفين لمريديهم بالعلم وطلبه وانه من لم يطلب العلم لم يفلح حتى كانوا يعدون من لا علم له من السفلة . قال ذو النون وقد سئل من السفلة فقَالَ من لا يعرف الطريق إلى الله تعالى ولا يتعرفه وقال أبو يزيد لو نظرتم إلى الرجل وقد أعطى من الكرامات حتى يتربع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود ومعرفة الشريعة . وقال أبو حمزة البراز من علم طريق الحق سهل عليه سلوكه ولا دليل على الطريق الا متابعة الرسول في أقواله وأفعاله وأحواله . وقال محمد بن الفضل الصوفي الزاهد ذهاب الإسلام على يدي أربعة أصناف من الناس صنّف لا يعملون بما يعلمون وصنّف يعملون بما لا يعلمون وصنّف لا يعلمون وصنّف يعلمون وصنّف يمنعون الناس من التعلم قلت . الصنّف الأول من له علم بلا عمل فهو أضر شيء على العامة فانه حجة لهم في كل نقیصة ومنحسة . والصنّف الثاني العابد الجاهل فان الناس يحسنون الظن به لعبادته وصلاحه فيقتدون به على جهله وهذان الصنّفان هما اللذان ذكرهما بعض السلف في قوله احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فان فتنتهما فتنة لكل مفتون فان الناس إنما يقتدون بعلمائهم وعبادهم فاذا كان العلماء فجرة والعباد جهلة عمت المصيبة بهما وعظمت الفتنة على الخاصة والعامة والصنّف الثالث الذين لا علم لهم ولا عمل وإنما هم كالأنعام السائمة . والصنّف الرابع نواب إبليس في الأرض وهم الذين يثبطون الناس عن طلب العلم والتفقه في الدين فهو لاء أضر عليهم من شياطين الجن فانهم يحولون بين القلوب وبين هدى الله وطريقه فهو لاء الأربعة أصناف هم الذين ذكرهم هذا العارف رحمة الله عليه وهو لاء كلهم على شفا جرف هار وعلى سبيل الهدى وما يلقى العالم الداعي إلى الله ورسوله ما يلقاه من الأذى والمخاربة إلا على أيديهم والله يستعمل من يشاء في سخطه كما يستعمل من يحب في مرضاته إنه بعباده خبير بصير ولا ينكشف سر هذه الطوائف وطريقتهم إلا بالعلم فعاد الخير بخذا فيره إلى العلم وموجبه والشر

بمخادفيره إلى الجهل وموجبه (الوجه الخامس والثلاثون بعد المائة) أن الله سبحانه جعل العلماء وكلاء وأمناء على دينه ووحيه وارتضاهم لحفظه والقيام به والذب عنه وناهيك بها منزلة شريفة ومنقبة عظيمة . قال تعالى (ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين) وقد قيل ان هؤلاء القوم هم الأنبياء وقيل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل كل مؤمن . هذه أمهات الأقوال بعد أقوال متفرعة عن هذه كقول من قال هم الأنصار أو المهاجرون والأنصار أو قوم من أبناء فارس وقال آخرون هم الملائكة . قال ابن جرير وأولى هذه الأقوال بالصواب أنهم الأنبياء الثمانية عشر الذين سبهم في الآيات قبل هذه الآية . قال وذلك ان الخبر في الآيات قبلها عنهم مضى وفي التي بعدها عنهم ذكر فما يلها بان يكون خبراً عنهم أولى وأحق بان يكون خبراً عن غيرهم فالتأويل فإن يكفر قومك من قريش يا محمد بآياتنا وكذبوا بها وجحدوا حقيقتها فقد استحفظناها واسترعينا القيام بها رسلنا وأنبياءنا من قبلك الذين لا يجحدون حقيقتها ولا يكذبون بها ولكنهم يصدقون بها ويؤمنون بصحتها . قلت السورة مكية والإشارة بقوله هؤلاء إلى من كفر به من قومه أصلاً ومن عداهم تبعاً فيدخل فيها كل من كفر بما جاء به من هذه الأمة والقوم المولكون بها هم الأنبياء أصلاً والمؤمنون بهم تبعاً فيدخل كل من قام بحفظها والذب عنها والدعوة إليها ولا ريب أن هذا للأنبياء أصلاً وللمؤمنين بهم تبعاً وأحق من دخل فيها من اتباع الرسول خلفاؤه في أمته وورثته فهم المولكون بها وهذا يذم في الأقوال التي قبلت في الآية . وأما قول من قال أنهم الملائكة فضعيف جداً لا يدل عليه السياق وتأباه لفظه قوما إذ الغالب في القرآن بل المطرد تخصيص القوم ببني آدم دون الملائكة . وأما قول إبراهيم لهم قوم منكرون وإنما قاله لما ظنهم من الإنس وأيضاً فلا يقتضيه غفامة المعنى ومقصوده ولهذا لو أظهر ذلك وقيل فإن يكفر بها كفار قومك فقد وكلنا بها الملائكة فإنهم لا يكفرون بها لم نجد منه من التسليمية وتحقير شأن الكفرة بها وبيان عدم تأهلهم لها والإنعام عليهم وإيثار غيرهم من أهل الإيمان الذين سبقت لهم الحسنى عليهم لكونهم أحق بها وأهلها والله أعلم حيث يضع هداه ويختص به من يشاء وأيضاً فإن تحت هذه الآية إشارة وبشارة بحفظها وأنه لا ضيعة عليها وأن هؤلاء وإن ضيعوها ولم يقبلوها فإن لها قوماً غيرهم يقبلونها ويحفظونها ويرعونها ويذبون عنها فكفر هؤلاء بها لا يضيعها ولا يذمها ولا يضرها شيئاً فإن لها أهلاً ومستحقاً سواهم فتأمل شرف هذا المعنى وجلالته وما تضمنه من تحريض عبادة المؤمنين على المبادرة إليها والمساعدة إلى (١١ - مفتاح ١)

قبولها وما تحته من تزيينهم على محبته لهم وإيثاره إياهم بهذه النعمة على أعدائه الكافرين وما تحته من احتقارهم وازدرائهم وعدم المبالاة والاحتفال بهم وإن كنتم وإن تؤمنوا بها فعبادى المؤمنون بها الموكلون بها سواكم كثير كما قال تعالى . (قل آمنوا به أولا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا تبلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا) وإذا كان الملك عبيد قد عصوه وخالفوا أمره ولم يلتفتوا إلى عهده وله عبيد آخرون سامعون له مطيعون قابلون مستجيبون لأمره فنظر إليهم وقال إن يكفر هؤلاء نعمي ويعصوا أمرى ويضيعوا عهدى فإن لى عبيدا سواهم وهم أنتم تطيعون أمرى وتحفظون عهدى وتودون حقى فان عبيده المطيعين يجدون فى أنفسهم من الفرح والسرور والنشاط وقوة العزيمة ما يكون موجبا لهم المزيد من القيام بحق العبودية والمزيد من كرامة سيدهم ومالكهم وهذا أمر يشهد به الحس والعيان . وأما توكيلهم بها فهو يتضمن توفيقهم للإيمان بها والقيام بحقوقها ومراعاتها والذب عنها والنصيحة لها كما يوكل الرجل غيره بالشئ ليقوم به ويتعده ويحافظ عليه وبها الأولى متعلقة بوكنا وبها الثانية متعاقبة بكافرين والباء فى بكافرين لتأكيد النفي . فان قلت فهل يصح أن يقال لأحد هؤلاء المؤكلين أنه وكيل الله بهذا المعنى كما يقال ولى الله . قلت لا يلزم من اطلاق فعل التوكيل المقيد بأمر ما إن يصاغ منه اسم فاعل مطلق كما أنه لا يلزم من اطلاق فعل الاستخلاف المقيد أن يقال خليفة الله لقوله (ويستخلفكم فى الأرض) . وقوله (رعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم) فلا يوجب هذا الاستخلاف أن يقال لسلك منهم أنه خليفة الله لأنه استخلاف مقيد ولما قيل للصدوق يا خليفة الله قال لست بخليفة الله ولكنى خليفة رسول الله وحسبى ذلك ولكن يسوغ أن يقال هو وكيل بذلك كما قال تعالى (فقد وكلنا بها قوما) والمقصود أن هذا التوكيل خاص بمن قام بها علما وعملا وجهاداً لأعدائها وذبا عنها ونفيا لتجريف العالمين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين . وأيضا فهو توكيل رحمة وإحسان وتوفيق واختصاص لا توكيل حاجة كما يوكل الرجل من يتصرف عنه فى غيبته لحاجة إليه . ولهذا قال بعض السلف (فقد وكلنا بها قوما) يقول رزقناها قوما فلها لا يقال لمن رزقها ورحم بها أنه وكيل لله وهذا بخلاف اشتقاق ولى الله من الموالات فانها المحبة والقرب فيكما يقال عبد الله وحبيبه يقال ولىه والله تعالى يوالى عبده إحسانا إليه وجبرا له ورحمة بخلاف الخلق فانه يوالى المخلوق لتعززه به وتمكثه بمولاته لذل العبد وحاجته وأما العزيز الغنى فلا يوالى أحدا من ذل ولا حاجة . قال تعالى (وقل الحمد لله الذى

لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً) فلم ينف
الولي نفيًا عامًا مطلقاً بل نفي أن يكون له ولي من الذل وأثبت في موضع آخر أن له أولياء
بقوله (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وقوله (الله ولي الذين آمنوا)
فهذا موالاته رحمة وإحسان وجبر والموالات المنفية موالاته حاجة وذل . يوضح هذا الوجه
السادس والثلاثون بعد المائة) وهو ما روى عن النبي ﷺ من وجوه متعددة أنه قال
يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل
الجاهلين فهذا الحمل المشار إليه في هذا الحديث هو التوكل المذكور في الآية فأخبر ﷺ
أن العلم الذي جاء به يحمله عدول أمته من كل خلف حتى لا يضيع ويذهب وهذا يتضمن تعديله
حلى الله عليه وسلم لحمة العلم الذي بعث به وهو المشار إليه في قوله هذا العلم فكل من
حمل العلم المشار إليه لا بد وأن يكون عدلاً ولهذا اشتهر عند الأمة عدالة نقلته وحملته اشتهارا
لا يقبل شكاً ولا امتراء ولا ريب أن من عدله رسول الله ﷺ لا يسمع فيه جرح فالأمة
الذين اشتهروا عند الأمة بنقل العلم النبوي وميراثه كلهم عدول بتعديل رسول الله ﷺ
ولهذا لا يقبل قرح بعضهم في بعض وهذا بخلاف من اشتهر عند الأمة جرحه والقرح فيه
كأئمة البدع ومن جرى مجراهم من المتهمين في الدين فانهم ليسوا عند الأمة من حملة العلم
فاحمل علم رسول الله ﷺ إلا عدل ولكن قد يعاطف في مسمى العدالة فيظن أن المراد بالعدل
من لا ذنب له وليس كذلك بل هو عدل موثمن على الدين وإن كان منه ما يتوب إلى الله منه
فان هذا لا يتنافى العدالة كما لا يتنافى الإيمان والولاية .

فصل

وهذا الحديث له طرق عديدة منها ما رواه ابن عدى عن موسى بن اسمعيل بن موسى بن
جعفر عن أبيه عن جده جعفر بن محمد عن أبيه عن علي عن النبي ﷺ . ومنها ما رواه
العوام بن حوشب عن شهر بن حوشب عن معاذ عن النبي ﷺ ذكره الخطيب وغيره .
ومنها ما رواه ابن عدى من حديث الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب عن سالم عن ابن
عمر عن النبي ﷺ . ومنها ما رواه محمد بن جرير الطبري من حديث ابن أبي كريمة عن معاذ
ابن رفاعة السلمي عن أبي عثمان النهدي عن أسامة بن زيد عن النبي ﷺ . ومنها ما رواه
حماد بن يزيد عن بقر بن الوليد عن معاذ بن رفاعة عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري قال قال رسول
الله ﷺ . قال الدارقطني حدثنا أحمد بن الحسن بن زيد حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا مشي
ابن بكر ومبشر وغيرهما من أهل العلم كلهم يقولون حدثنا معاذ بن رفاعة عن إبراهيم بن عبد الرحمن

عن النبي ﷺ يعني أن المحفوظ من هذا الطريق مرسل لأن إبراهيم هذا لا صحبة له . وقال الخلال في كتاب العلال قرأت على زهير بن صالح بن أحمد حدثنا منها قال سألت أحمد عن حديث معاذ بن رفاعة عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري قال قال رسول الله ﷺ يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين فقلت لأحمد كأنه موضوع قال لا هو صحيح فقلت بمن سمعته أنت فقال من غير واحد قلت من هم قال حدثني به مسكين إلا أنه يقول عن معاذ عن القاسم بن عبد الرحمن قال أحمد ومعاذ بن رفاعة لا بأس به . ومنها ما رواه أبو صالح حدثنا الليث بن سعد عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب عن عبد الله بن مسعود قال سمعت النبي ﷺ يقول يرث هذا العلم من كل خلف عدوله . ومنها ما رواه أبو أحمد بن عدى من حديث زريق بن عبد الله الألهاني عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبي أمامة الباهلي قال قال رسول الله ﷺ رواه عنه بقرية . ومنها ما رواه بن عدى أيضاً من طريق مروان الفراري عن يزيد بن كيسان عن أبي حازم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ . ومنها ما رواه تمام في فوائده من حديث الليث عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن أبي قبيل عن عبد الله بن عمرو وأبي هريرة رواه عنه خالد بن عمرو . ومنها ما رواه القاضي اسماعيل من حديث علي بن مسلم البلوي عن أبي صالح الأشعري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ (الوجه السابع والثلاثون بعد المائة) إن بقاء الدين والدنيا في بقاء العلم وبذهاب العلم تذهب الدنيا والدين فقوام الدين والدنيا إنما هو بالعلم قال الأوزاعي قال ابن شهاب الزهري الاعتصام بالسنة نجاة العالم يقبض قبضاً سريعاً فنعش العلم ثبات الدين والدنيا وذهاب العلم ذهاب ذلك كله . وقال ابن وهب أخبرني يزيد عن ابن شهاب قال بلغنا عن رجال من أهل العلم أنهم كانوا يقولون الاعتصام بالسنة نجاة والعالم يقبض قبضاً سريعاً فنعش العلم ثبات الدين والدنيا وذهاب العلم ذهاب ذلك كله (الوجه الثامن والثلاثون بعد المائة) أن العلم يرفع صاحبه في الدنيا والآخرة ما لا يرفعه الملك ولا المال ولا غيرهما فالعلم يزيد الشريف شرفاً ويرفع العبد المملوك حتى يجلسه بجاس الملوك كما ثبت في الصحيح من حديث الزهري عن أبي الطفيل أن نافع بن عبد الحارث أتى عمر بن الخطاب بعسفان وكان عمر استعمله على أهل مكة فقال له عمر من استخلفت على أهل الوادي قال استخلفت عليهم ابن ابزي فقال من ابن ابزي؟ فقال رجل من مواليها فقال عمر استخلفت عليهم مولى فقال إنه قارىء لكتاب الله عالم بالفرائض فقال عمر أما أن نبيكم ﷺ قد قال إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين قال أبو العالية كنت أتى ابن عباس وهو على سريره وحوله قریش فيأخذ بيدي فيجلسني معه على السرير فتغامر بي قریش ففطن لهم ابن عباس فقال كذا هذا العلم يزيد الشريف شرفاً ويجلس المملوك على الأسرة

وقال ابراهيم الحربى كان عطاء ابن ابي رباح عبدا لامرأة من مكة وكان أنفه كأنه باقلاة
قال وجاء سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين إلى عطاء هو وابناه فجلسوا إليه وهو يصلى فلما صلى
انقفل إليهم فما زالوا يسألونه عن مناسك الحج وقد حول قفاه إليهم ثم قال سليمان لابنيه قوما
فقاما فقال يا بني لا تنيا في طلب العلم فإني لا أنسى ذلنا بين يدي هذا العبد الأسود قال الحربى
وكان محمد بن عبد الرحمن إلا وقص عنقه داخل في بدنه وكان منكباة خارجين كأنهما زجان فقالت
أمه يا بني لا تكون في مجلس قوم إلا كنت المضحوك منه المستخور به فعليك بطلب العلم فانه يرفعك
فولى قضاء مكة عشرين سنة قال وكان الخصم إذا جلس إليه بين يديه يرعد حتى يقوم قال ومرت
به امرأة وهو يقول اللهم اعتن رقبتي من النار فقالت له يا ابن أخي وأى رقبة لك وقال يحيى
ابن أكرم قال الرشيدى ما أنبل المراتب قلت ما أنت فيه يا أمير المؤمنين قال فتعرف أجل منى
قلت لا قال لكنى أعرفه رجل فى حلقة يقول حدثنا فلان عن فلان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
قلت يا أمير المؤمنين أهذا خير منك وأنت ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وولى عهد المؤمنين قال
نعم ويملك هذا خير منى لان اسمه مقترن باسم رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يموت أبدا ونحن نموت
ونفنى والعلماء باقون ما بقى الدهر وقال خيشمة بن سليمان سمعت ابي الخنجر يقول كنت فى مجلس
ابن هارون والناس قد اجتمعوا إليه فرأى أمير المؤمنين فوقف علينا فى المجلس وفى المجلس ألوف
فالتفت إلى أصحابه وقال هذا الملك وفى تاريخ بغداد للخطيب حدثنى أبو النجيب عبد الغفار
ابن عبد الواحد قال سمعت الحسن بن على المقرئ يقول سمعت أبا الحسن بن فارس يقول
سمعت الأستاذ ابن العميد يقول ما كنت أظن أن فى الدنيا حلاوة الذم من الرياضة والوزارة التى
أنا فيها حتى شهدت مذاكرة سليمان ابن أيوب بن أحمد الطبرانى وأبي بكر الجعابى بحضورى فكان
الطبرانى يغلب بكثرة حفظه وكان الجعابى يغلب الطبرانى بفطنته وزكا أهل بغداد حتى
ارتفعت أصواتهم ولا يكاد أحدهما يغلب صاحبه فقال الجعابى عندى حديث ليس فى الدنيا
إلا عندى فقال هاته فقال حدثنا أبو خليف حدثنا سليمان بن أيوب وحدث بالحديث فقال
الطبرانى أنبأنا سليمان بن أيوب ومنى سمع أبو خليفة فاسمع منى حتى يعلو اسنادك فإناك تروى
عن أبي خليفة عنى فنجعل الجعابى وغلبه الطبرانى قال ابن العميد فوددت فى مكانى أن الوزارة
والرياسة ليتها لم تكن لى وكنت الطبرانى وفرحت مشى الفرح الذى فرح الطبرانى لأجل
الحديث أو كما قال وقال المزنى سمعت الشافعى يقول من تعلم القرآن عظمت قيمته ومن
نظر فى الفقه نبل مقداره ومن تعلم اللغة رقى طبعه ومن تعلم الحساب جزل رأيه ومن
كتب الحديث قويت حجته ومن لم يصن نفسه لم ينفعه عليه وقد روى هذا الكلام عن
لشافعى من وجوه متعددة وقال سفیان الثورى من أراد الدنيا والآخرة فعليه بطلب العلم وقال عبد

الله بن داود سمعت سفيمان الثوري يقول ان هذا الحديث عز فن اراد به الدنيا وجدها ومن اراد به الآخرة وجدها وقال النضر بن شميل من اراد ان يشرف في الدنيا والآخرة فليتعلم العلم وكفى بالمرء سعادة أن يوثق به في دين الله ويكون بين الله وبين عبادته وقال حمزة بن سعيد المصري لما حدث أبو مسلم اللخمي أول يوم حدث قال لابنه كم فضل عندنا من أثمان غلاتنا قال ثلاثمائة دينار قال فرقها على أصحاب الحديث والفقراء شكرا ان أبالك اليوم شهد على رسول الله ﷺ فقبلت شهادته وفي كتاب الجليس والآنيس لأبي الفرج المعافى بن زكرياء الجريري حدثنا محمد بن الحسين بن دريد حدثنا أبو حاتم عن العتيبي عن أبيه قال ابنتي معاوية بالاباطح مجلسا مجلسا عليه ومعه ابنته قرظة فاذا هو بجماعة على رحال لهم واذا شاب منهم قد رفع عقيرته يتغنى :

من يساجلني يساجل ماجدا يملأ الدلو الى عقد الكرب

قال من هذا قالوا عبد الله بن جعفر قال خلوا له الطريق ثم إذا هو بجماعة فيهم غلام يتغنى :

بينما يذكرني أبصرني عند قيد المليل يسعي بي الأعر

قلن تعرفن الفتى قلن نعم قد عرفناه وهل يخفي القمر

قال من هذا قالوا عمر بن أبي ربيعة قال خلوا له الطريق فليذهب قال ثم إذا هو بجماعة وإذا

فيهم رجل يسئل فيقال له رميت قبل أن أحلق وحلقت قبل أن أرمى في أشياء أشكلت عليهم

من مناسك الحج فقال من هذا قالوا عبد الله بن عمر فالتفت إلى ابنته قرظة وقال هذا وأبيك

الشرف هذا والله شرف الدنيا والآخرة . وقال سفيمان بن عيينة أرفع الناس منزلة عند الله

من كان بين الله وبين عبادته وهم الأنبياء والعلماء وقال سهل التستري من اراد أن ينظر إلى

مجالس الأنبياء فليتنظر إلى مجالس العلماء يجيء الرجل فيقول يا فلان ايش تقول في رجل حلف

على امرأته بكذا وكذا فيقول طلقت امرأته ويجيء آخر فيقول حلفت بكذا وكذا فيقول

ليس يحنث بهذا القول وليس هذا إلا لنبي أو عالم فاعرفوا لهم ذلك (الوجه التاسع والثلاثون

بعد المائة) ان النفوس الجاهلة التي لا علم عندها قد ألبست ثوب الذل والازراء عليها والتمقص

بها أسرع منه إلى غيرها وهذا أمر معلوم عند الخاص والعام قال الأعمش اني لأرى الشيخ

لا يروى شيئاً من الحديث فاشتبهى أن أظلمه وقال معاوية سمعت الأعمش يقول من لم يطلب

الحديث اشتبهى أن أصفهه بنعلي وقال هشام بن علي سمعت الأعمش يقول إذا رأيت الشيخ

لم يقرأ القرآن ولم يكتب الحديث فاصفع له فانه من شيوخ القمراء قال أبو صالح قلت لأبي

جعفر ما شيوخ القمراء قال شيوخ دهريون يجتمعون في ليالي القمر يتذاكرون أيام الناس

ولا يحسن أحدهم أن يتوضأ للصلاة وقال المزني كان الشافعي إذا رأى شيخاً سأله عن الحديث

والفقه فان كان عنده شيء والا قال له لا جزاك الله خيراً عن نفسك ولا عن الاسلام قد

ضيعت نفسك وضيعت الاسلام وكان بعض خلفاء بنى العباس يلعب بالشطرنج فاستأذن عليه
 عمه فأذن له وغطى الرقعة فلما جلس قال له ياعم هل قرأت القرآن قال لا قال هل كتبت شيئاً
 من السنة قال لا قال فهل نظرت في الفقه واختلاف الناس قال لا قال فهل نظرت في العربية
 وأيام الناس قال لا قال فقال الخليفة اكشف الرقعة ثم أتم اللعب وزال احتشامه وحيأوه
 منه وقال له ملاعبه يا أمير المؤمنين تكشفها ومعنا من تحتشم منه قال اسكت فما معنا أحد .
 وهذا لأن الانسان انما تميز عن سائر الحيوانات بما خص به من العلم والعقل والفهم فاذا عدم
 ذلك لم يبق فيه إلا القدر المشترك بينه وبين سائر الحيوانات وهي الحيوانية الهيمية ومثل هذا
 لا يستحى منه الناس ولا يمتنعون بحضرتة وشهوته مما يستحيا منه من أولى الفضل والعلم (الوجه
 الأربعون بعد المائة) ان كل صاحب بضاعة سوى العلم إذا علم ان غير بضاعته خير منها زهد
 في بضاعته ورغب في الأخرى وود أنها له عوض بضاعته إلا صاحب بضاعة العلم فإنه ليس
 يجب أن له بحظه منها حظ أصلاً وكان سفیان الثوري إذا رأى الشيخ لم يكتب الحديث قال
 لا جزاك الله عن الاسلام خيراً قال أبو جعفر الطحاوي كنت عند أحمد بن أبي عمران فمر بنا
 رجل من بنى الدنيا فنظرت اليه وشغلت به عما كنت فيه من المذاكرة فقال لي كأنى بك قد
 فكرت فيما أعطى هذا الرجل من الدنيا قلت له نعم قال هل أدلك على خلة هل لك أن
 يحول الله إليك ما عنده من المال ويحول اليه ما عندك من العلم فتعيش أنت غنيا جاهلاً ويعيش
 هو عالماً فقيراً فقلت ما أختار أن يحول الله ما عندي من العلم إلى ما عنده فالعلم غنى بلا مال
 وعز بلا عشيرة وسلطان بلا رجال وفي ذلك قيل :

العلم كنز وذخر لا نفاذ له نعم القرن إذا ما صاحب صحبا
 قد يجمع المرء مالا ثم يحرمه عما قليل فيلتي الذل والحربا
 وجامع العلم مغبوط به أبدأ ولا يحاذر منه الفوت والسلبا
 يا جامع العلم نعم الذخر تجمعه لا تعدان به درأ ولا ذهباً

(الوجه الحادى والأربعون بعد المائة) أن الله سبحانه أخبر أنه يجزى المحسنين أجرهم بأحسن
 ما كانوا يعملون وأخبر سبحانه أنه يجزى على الاحسان بالعلم وهذا يدل على أنه من أحسن
 الجزاء أما المقام الأول فى قوله تعالى (والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون لهم
 ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم
 بأحسن الذى كانوا يعملون) وهذا يتناول الجزاء من الدينوى والأخروى وأما المقام الثانى
 فى قوله تعالى (ولما بلغ أشده آتيناها حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين) قال الحسن من
 أحسن عبادة الله فى شبابه لقاء الله الحكمة عند كبر سنه وذلك قوله (ولما بلغ أشده آتيناها

حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين) ومن هذا قال بعض العلماء تقول الحكمة من التمسنى فلم يجدنى فليعمل باحسن مايعلم وليترك أقيح ما يعلم فاذا فعل ذلك فانا معه وإن لم يعرفنى (الوجه الثاني والأربعون بعد المائة) إن الله سبحانه جعل العلم للقلوب كالمنطق للاراض فكما أنه لا حياة للارض إلا بالمنطق فكذلك لا حياة للقلب إلا بالعلم . وفى الموطأ قال لقمان لابنه يا بنى جالس العلماء وزاحمهم بركبتك فان الله تعالى يحيى القلوب الميتة بنور الحكمة كما يحيى الارض بوابل المطر ولهذا فإن الارض إنما تحتاج إلى المطر فى بعض الأوقات فاذا تتابع عليها احتاجت إلى انقطاعه وأما العلم فيحتاج اليه بعدد الأنفاس ولا تزيده كثرتة إلا صلاحا ونفعا (الوجه الثالث والأربعون بعد المائة) ان كثيرا من الأخلاق التى لا تحمد فى الشخص بل يذم عليها تحمد فى طلب العلم كالملق وترك الاستحياء والذل والتردد إلى أبواب العلماء ونحوها . قال ابن قتيبة جاء فى الحديث ليس الملق من أخلاق المؤمنين إلا فى طلب العلم وهذا أثر عن بعض السلف . وقال ابن عباس ذلك طالبا فعززت مطلوبها وقال وجدت عامة علم رسول الله صلى الله عليه وسلم عند هذا الحى من الأنصار إن كنت لأقبل عند باب أحدهم ولو شدت أذن لى ولكن أبغى بذلك طيب نفسه . وقال أبو اسحاق قال على كلمات لو رحلتهم المطى فيهن لأفنيتموهن قبل أن تدركوا مثلهن لا يرجون عبد إلا ربه ولا يخافن إلا ذنبه ولا يستحي من لا يعلم أن يتعلم ولا يستحي إذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم واعلموا أن منزلة الصبر من الإيمان كمنزلة الرأس من الجسد فاذا ذهب الرأس ذهب الجسد وإذا ذهب البصر ذهب الإيمان . ومن كلام بعض العلماء لا ينال العلم مستحي ولا متكبر هذا يمنعه حياؤه من التعلم وهذا يمنعه كبره وإنما حدث هذه الأخلاق فى طلب العلم لأنها طريق إلى تحصيله فكانت من كمال الرجل ومفضية إلى كماله . ومن كلام الحسن من استتر عن طلب العلم بالحياء لبس للجهل سر باله فاقطعوا سراييل الحياء فانه من رق وجهه رق علمه وقال الخليل منزلة الجهل بين الحياء والأنفة . ومن كلام على رضى الله تعالى عنه قرنت الهيبة بالحيبة والحياء بالحرمان . وقال ابراهيم لمنصور سل مسألة الحق واحفظ حفظ الأكياس وكذلك سؤال الناس هو عيب ونقص فى الرجل وذلة تنافى المروءة إلا فى العلم فانه عين كماله ومروءته وعزه كما قال بعض أهل العلم خير خصال الرجل السؤال عن العلم . وقيل إذا جلست إلى عالم فسل نفعها لا نعتنا . وقال روبة بن العجاج أتيت النسابة البكرى فقال من أنت قلت أنا ابن العجاج قال قصرت وعرفت لعلك كقوم إن سكت لم يسألونى وإن تكلمت لم يعوا عنى قلت أرجو أن لا أكون كذلك قال ما أعداء المروءة قلت تخبرنى قال بنوعم السوء إن رأوا حسنا ستروه وإن رأوا سيئا أذاعوه ثم قال إن للعالم آفة ونكدنا وهجنة فأفته

نسيانه ونكده الكذب فيه وهجنته نشره عند غير أهله . وأنشد ابن الأعرابي :

ما أقرب الأشياء حين يسوقها قدروا بعدها إذا لم تقدر
فسل الفقيه تكن فقيها مثله من يسع في علم بذل يهر
فتدبر العلم الذى تفتى به لاخير في علم بغير تدبر
ولقد يجد المرء وهو مقصر ويخيب جد المرء غير مقصر
ذهب الرجال المقتدى بفعالهم والمنكرون لكل أمر منكر
وبقيت في خلف يزين بعضهم بعضا ليدفع معور عن معور

وللعلم ست مراتب . أولها حسن السؤال . الثانية حسن الانصات والاستماع . الثالثة حسن الفهم . الرابعة الحفظ . الخامسة التعليم . السادسة وهى ثمرته وهى العمل به ومراعاة حدوده فن الناس من يجرمه لعدم حسن سؤاله إما لأنه لايسأل بحال أو يسأل عن شئ وغيره أهم إليه منه كمن يسأل عن فضوله التى لا يضر جهله بها ويدع ما لاغنى له عن معرفته وهذه حال كثير من الجهال المتعلمين ومن الناس من يجرمه لسوء انصاته فيكون الكلام والممارات آثر عنده وأحب إليه من الانصات وهذه آفة كامة فى أكثر النفوس الطالبة للعلم وهى تمنعهم علما كثيرا ولو كان حسن الفهم . ذكر ابن عبد البر عن بعض السلف أنه قال من كان حسن الفهم ردى الاستماع لم يقم خيره بشره وذكر عبد الله بن أحمد فى كتاب العلل له قال كان عروة بن الزبير يحب مارة ابن عباس فكان يحزن عليه عنه وكان عبيد الله بن عبد الله بن عتبة يल्प له فى السؤال فيعزه بالعلم عزا . وقال ابن جريج لم أستخرج العلم الذى استخرجت من عطاء إلا يرفق به . وقال بعض السلف إذا جالست العالم فمكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول وقد قال الله تعالى (إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) فتأمل ماتحت هذه الألفاظ من كنوز العلم وكيف تفتح مراعاتها للعبد أبواب العلم والهدى وكيف ينغلق باب العلم عنه من اهمالها وعدم مراعاتها فانه سبحانه أمر عباده أن يتدبروا آياته المتلوة المسموعة والمرئية المشهودة بما تكون تذكرة لمن كان له قلب فان من عدم القلب الواعى عن الله لم ينتفع بكل آية تمر عليه ولو مرت به كل آية ومرور الآيات عليه كطلوع الشمس والقمر والنجوم ومرورها على من لا بصر له فاذا كان له قلب كان بمنزلة البصير إذا مرت به المراتب فانه يراها ولكن صاحب القلب لا ينتفع بقلبه إلا بأمرين أحدهما أن يحضره ويشهده لما يلقى إليه فان كان غائبا عنه مسافرا فى الأمان والشهوات والخيالات لا ينتفع به فاذا حضره وأشهده لم ينتفع إلا بأن يلقى سمعه ويصغى بكلمته إلى ما يوعظ به ويرشد إليه . وهاهنا ثلاثة

أمور . أحدها سلامة القلب وصحته وقبوله . الثاني احضاره وجمعه ومنعه من الشرود والتفرق . الثالث لقاء السمع وإصغاؤه والاقبال على الذكر فذكر الله تعالى الأمور الثلاثة في هذه الآية . قال ابن عطية القلب هنا عبارة عن العقل إذ هو محل المعنى لمن كان له قلب وواع ينتفع به . قال وقال الشبلي قلب حاضر مع الله لا يغفل عنه طرفة عين وقوله (أو ألقى السمع وهو شهيد) معناه صرف سمعه إلى هذه الأنباء الواعظة وأثبتته في سمعه فذلك اللقاء له عليها ومنه قوله (وألقيت عليك محبة مني) أي أنبتهم عليك وقوله وهو شهيد قال بعض المتأولين معناه وهو شاهد مقبل على الأمر غير معرض عنه ولا مفسر في غير ما يسمع . قال وقال قتادة هي إشارة إلى أهل الكتاب فكأنه قال ان هذه العبر لتذكرك لمن له فهم فتدبر الأمر أو لمن سمعها من أهل الكتاب فشهد بصحتها لعلمه بها من كتابه التوراة وسائر كتب بني اسرائيل قال فشهد على التأويل الأول من المشاهدة وعلى التأويل الثاني من الشهادة وقال الزجاج معنى من كان له قلب من شرف قلبه إلى التفهم ألا ترى أن قوله صم بكم عمي أنهم لم يستمعوا استماع مستفهم مسترشد فعملوا بمنزلة من لم يسمع كما قال الشاعر * أصم عما ساءه سميع * ومعنى أو ألقى السمع استمع ولم يشغل قلبه بغير ما يسمع والعرب تقول ألقى إلى سمعك أي استمع مني وهو شهيد أي قلبه فيما يسمع وجاء في التفسير أنه يعني به أهل الكتاب الذين عندهم صفة النبي ﷺ فالمعنى أو ألقى السمع وهو شهيد أشاهد أن صفة النبي ﷺ في كتابه وهذا هو الذي حكاه ابن عطية عن قتادة وذكر أن شهيدا فيه بمعنى شاهد أي مخبر . وقال صاحب الكشف لمن كان له قلب وواع لأن من لا يعي قلبه فكأنه لا قلب له وللقاء السمع الإصغاء وهو شهيد أي حاضر بفظنته لأن من لا يحضر ذهنه فكأنه غائب أو هو مؤمن شاهد على صحته وأنه وحى من الله وهو بعض الشهداء في قوله لتكنوا شهداء على الناس وعن قتادة وهو شاهد على صدقه من أهل الكتاب لوجود نعمته عنده فلم يختلف في أن المراد بالقلب القلب الواعي وأن المراد باللقاء السمع لإصغاؤه وإقباله على المذكور وتفريغ سمعه له . واختلف في الشهيد على أربعة أقوال أحدها أنه من المشاهدة وهي الحضور وهذا أصح الأقوال ولا يليق بالآية غيره . الثاني أنه شهيد من الشهادة وفيه على هذا ثلاثة أقوال . أحدها أنه شاهد على صحة مأمه من الإيقان . الثاني أنه شاهد من الشهداء على الناس يوم القيامة الثالث أنه شهادة من الله عنده على صحة نبوة رسول الله ﷺ بما علمه من الكتب المنزلة والصواب القول الأول فان قوله (وهو شهيد) جملة حالية والواو فيها واو الحال أي ألقى السمع في هذه الحال وهذا يقتضى أن يكون حال القائه السمع شهيدا

وهذا هو من المشاهدة والحضور ولو كان المراد به الشهادة في الآخرة أو الدنيا لما كان لتقييدها بإلقاء السمع معنى إذ يصير الكلام إن في ذلك لآية لمن كان له قلب أو ألقى السمع حال كونه شاهداً بما معه في التوراة أو حال كونه شاهداً يوم القيامة ولا ريب أن هذا ليس هو المراد بالآية . وأيضاً فالآية عامة في كل من له قلب وألقى السمع فكيف يدعى تخصيصها بمؤمنى أهل الكتاب الذين عندهم شهادة من كتبهم على صفة النبي صلوات الله عليه وآله . وأيضاً فالسورة مكية والخطاب فيها لا يجوز أن يخص بأهل الكتاب ولا سيما مثل هذا الخطاب الذى علق فيه حصول مضمون الآية ومقصودها بالقلب الواعى وإلقاء السمع فكيف يقال هى فى أهل الكتاب ؟ فان قيل المختص بهم قوله وهو شهيد فهذا أفسد وأفسد لأن قوله وهو شهيد يرجع الضمير فيه إلى جملة من تقدم وهو من له قلب أو ألقى السمع فكيف يدعى عوده إلى شىء غايته أن يكون بعض المذكور أولاً ولا دلالة فى اللفظ عليه . وأيضاً فان المشهود به محذوف ولا دلالة فى اللفظ عليه فلو كان المراد به وهو شاهد بكذا لذكر المشهود به إذ ليس فى اللفظ ما يدل عليه وهذا بخلاف ما إذا جعل من الشهود وهو الحضور فانه لا يقتضى مفعولاً مشهوداً به ليم الكلام بذكره وحده . وأيضاً فإن الآية تضمنت تقسيماً وترديداً بين قسمين أحدهما من كان له قلب والثانى من ألقى السمع وحضر بقلبه ولم يرغب فهو حاضر القلب شاهده لا غايته وهذا والله أعلم سر الإتيان بأو دون الواو لأن المنتفع بالآيات من الناس نوعان . أحدهما ذو القلب الواعى الزكى الذى يكتب فى هدايته بأدنى تنبيه ولا يحتاج إلى أن يستجلب قلبه ويحضره ويجمعه من مواضع شتاتة بل قلبه واعزكى قابل للهدى غير معرض عنه فهذا لا يحتاج إلا إلى وصول الهدى إليه فقط لئلا يستعداده وصحة فطرته فإذا جاءه الهدى سارع قلبه إلى قبوله كأنه كان مكتوباً فيه فهو قد أدركه بحملا ثم جاء الهدى بتفصيل ما شهد قلبه بصحته بحملا وهذه حال أكمل الخلق استجابة لدعوة الرسل كما هى حال الصديق الأكبر رضى الله عنه . والنوع الثانى من ليس له هذا الاستعداد والقبول فاذا ورد عليه الهدى أصغى إليه بسمعه وأحضر قلبه وجمع فكرته عليه وعلم صحته وحسنه بنظره واستدلالة وهذه طريقة أكثر المستجيبين ولهم نوع ضرب الأمثال وإقامة الحجج وذكر المعارضات والأجوبة عنها والأولون هم الذين يدعون بالحكمة وهؤلاء يدعون بالموعظة الحسنة فهؤلاء نوعا المستجيبين . وأما المعارضون المدعون للحق فنوعان نوع يدعون بالمجادلة بالتي هى أحسن فان استجابوا وإلا فالمجادلة فهؤلاء لا بد لهم من جدال أو جلال ومن تأمل دعوة القرآن وجدها شاملة لهؤلاء الأقسام متناولة لها كلها كما قال تعالى (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هى أحسن) فهؤلاء المدعون بالكلام وأما أهل الجلال فهم الذين أمر الله بقنالهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله . وأما من فسر الآية

بأن المراد بمن كان له قلب هو المستغنى بفطرته عن علم المنطق وهو المؤيد بقوة قدسية يقال بها الحد الأوسط بسرعة فهو - كمال فطرته مستغن عن مراعات أوضاع المنطق والمراد بمن ألقى السمع وهو شهيد من ليست له هذه القوة فهو محتاج إلى تعلم المنطق ليوجب له مراعاته وإصغاؤه إليه أن لا يزيغ في فكره وفسر قوله ادع إلى سبيل ربك بالحكمة أنها القياس البرهاني والموعظة الحسنة القياس الخطابي وجادلهم بالتي هي أحسن القياس الجدلي فهذا ليس من تفاسير الصحابة ولا التابعين ولا أحد من أئمة التفسير بل ولا من تفاسير المسلمين وهو تحريف لكلام الله تعالى وحمل له على اصطلاح المنطقية المبخوسة الحظ من العقل والإيمان وهذا من جنس تفاسير القرامطة والباطنية وغلاة الإسماعيلية لما يفسرونه من القرآن وينزلونه على مذاهبهم الباطلة والقرآن يرى من ذلك كله منزعه عن هذه الأباطيل والهدايات وقد ذكرنا بطلان ما فسر به المنطقيون هذه الآية التي نحن فيها والآية الأخرى في موضع آخر من وجوه متعددة وبيننا بطلانه عقلا وشرعا ولغة وعرفا وأنه يتعالى كلام الله عن حمله على ذلك وبالله التوفيق . والمقصود بيان حرمان العلم من هذه الوجوه الستة : أحدها ترك السؤال . الثاني سوء الإنصات وعدم القاء السمع . الثالث سوء الفهم . الرابع عدم الحفظ . الخامس عدم نشره وتعليمه فإن من خزن علمه ولم ينشره ولم يعلمه ابتلاه الله بنسيانه وذهابه منه جزاء من جنس عمله وهذا أمر يشهد به الحس والوجد . السادس عدم العمل به فإن العمل به يوجب تذكره وتدبره ومراعاته والنظر فيه فاذا أهمل العمل به نسيه . قال بعض السلف كنا نستمين على حفظ العلم بالعمل به . وقال بعض السلف أيضاً العلم يهتف بالعمل فإن أجا به حل وإلا ارتحل فالعمل به من أعظم أسباب حفظه وثباته وترك العمل به لإضاعة له فما استدر العلم ولا استجلب بمثل العمل . قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤاتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به) وأما قوله تعالى (واتقوا الله ويعلمكم الله) فليس من هذا الباب بل هما جملتان مستقتان طلبية وهي الأمر بالتقوى وخبرية وهي قوله تعالى ويعلمكم الله أى والله يعلمكم ما تتقون وليست جوابا للأمر بالتقوى ولو أريد بها الجزاء لآتى بها مجزومة مجردة عن الواو فكان يقول واتقوا الله يعلمكم أو إن تقوه يعلمكم كما قال (إن تقوا الله يجعل لكم فرقا) فتدبره . (الوجه الرابع والأربعون بعد المائة) إن الله سبحانه نفي التسوية بين العالم وغيره كما نفي التسوية بين الخبيث والطيب وبين الأعمى والبصير وبين النور والظلمة وبين الظل والحورور وبين أصحاب الجنة وأصحاب النار وبين الأبيكم العاجز الذى لا يقدر على شئ . ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم وبين المؤمنين والكفار وبين الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمفسدين فى الأرض وبين المتقين

والفجار فهذه عشرة مواضع في القرآن نفي فيها التسوية بين هؤلاء الأصناف وهذا يدل على أن منزلة العالم من الجاهل كمنزلة النور من الظلمة والظل من الحرور والطيب من الخبيث ومنزلة كل واحد من هذه الأصناف مع مقابله وهذا كاف في شرف العلم وأهله بل إذا تأملت هذه الأصناف كلها ووجدت نفي التسوية بينها راجعا إلى العلم وموجبه فبه وقع التفضيل وانتفت المساواة . (الوجه الخامس والأربعون بعد المائة) أن سليمان لما توعد الهدهد بأن يعذبه عذاباً شديداً أو يذبحه وإنما نجا منه بالعلم وأقدم عليه في خطابه له بقوله أحطت بما لم تحط به خبراً وهذا الخطاب إنما جراه عليه العلم وإلا فالهدهد مع ضعفه لا يتمكن من خطابه لسليمان مع قوته بمثل هذا الخطاب لولا سلطان العلم . ومن هذا الحكاية المشهورة أن بعض أهل العلم سئل عن مسألة فقال لا أعلمها فقال أحد تلامذته أنا أعلم هذه المسألة فغضب الأستاذ وهم به فقال له أيها الأستاذ لست أعلم من سليمان بن داود ولو بلغت في العلم ما بلغت ولست أنا أجهل من الهدهد وقد قال لسليمان أحطت بما لم تحط به فلم يعتب عليه ولم يعنفه . (الوجه السادس والأربعون بعد المائة) إن من نال شيئاً من شرف الدنيا والآخرة فأنما ناله بالعلم وتأمل ما حصل لآدم من تميزه على الملائكة واعترافهم له بتعليم الله له الأسماء كلها ثم ما حصل له من تدارك المصيبة والتعويض عن سكين الجنة بما هو خير له منها بعلم الكلمات التي تلقاها من ربه وما حصل ليوسف من التمكين في الأرض والعزة والعظمة بعلمه بتعبير تلك الرؤيا ثم علمه بوجوده استخراج أخيه من إخوته بما يقرون به ويحكمون هم به حتى آل الأمر إلى ما آل إليه من العز والعاقة الحميدة وكال الحال التي توصل إليها بالعلم كما أشار إليها سبحانه في قوله ﴿ كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم ﴾ جاء في تفسيرها نرفع درجات من نشاء بالعلم كما رفعنا درجة يوسف على إخوته بالعلم وقال في إبراهيم عليه السلام (و تلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء) فهذه رفعة بعلم الحجية والأول رفعة بعلم السياسة وكذلك ما حصل للخضر بسبب علمه من تلمذة كلهم الرحمن له وتلفه معه في السؤال حتى قال هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً . وكذلك ما حصل لسليمان من علم منطق الطير حتى وصل إلى ملك سبأ وقهر ملكتهم واحتوى على سرير ملكها ودخولها تحت طاعته . ولذلك قال (بأيتها الناس علمنا منطق الطير واوتينا من كل شيء إن هذا هو الفضل المبين) وكذلك ما حصل لداود من علمه نسج الدروع من الوقاية من سلاح الأعداء وعدد سبحانه هذه النعمة بهذا العلم على عباده فقال (وعلمناه صنعة لبوس لكم لنحفظنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون) وكذلك ما حصل للمسيح من علم الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ما رفعه الله

به إليه وفضله وكرمه وكذلك ما حصل لسيد ولد آدم من العلم الذي ذكره الله به نعمة عليه فقال وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما (الوجه السابع والأربعون بعد المائة) إن الله سبحانه أنثى على إبراهيم خليله بقوله تعالى وإن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لانعمه اجتياه) فهذه أربع أنواع من الثناء افتتحها بأنه أمة والأمة هو القدوة الذي يؤتم به، قال ابن مسعود والأمة المعلم للخير وهي فعلة من الائتم كقدوة وهو الذي يقتدى به والفرق بين الأمة والإمام من وجهين أحدهما أن الإمام كل ما يؤتم به سواء كان بقصدته وشعوره أولا ومنه سمي الطريق إماما كقوله تعالى (وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين فانتقمنا منهم وإنهما لبإمام مبين) أى بطريق واضح لا يخفى على السالك ولا يسمى الطريق أمة. الثاني أن الأمة فيه زيادة معنى وهو الذي جمع صفات الكمال من العلم والعمل بحيث بقى فيها فردا وحده فهو الجامع لخصال تفرقت في غيره فكأنه باين غيره باجتماعها فيه وتفرقها أو عدمها في غيره ولفظ الأمة يشعر بهذا المعنى لما فيه من الميم المضعفة الدالة على الضم بمخرجها وتكريرها وكذلك ضم أوله فان الضمة من الواو ومخرجها ينضم عند النطق بها وأتى بالثناء الدالة على الوحدة كالغرفة واللقمة ومنه الحديث إن زيد بن عمرو بن نفيل يبعث يوم القيامة أمة وحده فالضم والاجتماع لازم لمعنى الأمة ومنه سميت الأمة التي هي آحاد الأمم لأنهم الناس المجتمعون على دين واحد أو في عصر واحد. الثاني قوله قانتا لله قال ابن مسعود القانت المطيع والفتوت يفسر بأشياء كلها ترجع إلى دوام الطاعة. الثالث قوله حنيفا والحنيف المقبل على الله ويلزم هذا المعنى ميله عما سواه فالميل لازم معنى الحنيف لأنّه موضوعه لغة. الرابع قوله شاكرا لانعمه والشكر للنعم مبنى على ثلاثة أركان الأقرار بالنعمة وإضافتها إلى المنعم بها وصرفها في مرضاته والعمل فيها بما يجب فلا يكون العبد شاكرا إلا بهذه الأشياء الثلاثة والمقصود أنه مدح خليله بأربع صفات كلها ترجع إلى العلم والعمل بموجبه وتعليمه ونشره فعاد الكمال كله إلى العلم والعمل بموجبه ودعوة الخلق إليه (الوجه الثامن والأربعون بعد المائة) قوله سبحانه عن المسيح أنه قال (إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا وجعلني مباركا أينما كنت) قال سفيان بن عيينة جعلني مباركا أينما كنت قال معلما للخير وهذا يدل على أن تعليم الرجل الخير هو البركة التي جعلها الله فيه فإن البركة حصول الخير وتماؤه ودوامه وهذا في الحقيقة ليس إلا في العلم الموروث عن الأنبياء وتعليمه ولهذا سمي سبحانه كتابه مباركا كما قال تعالى (وهذا ذكر مبارك أنزلناه) وقال (كتاب أنزلناه إليك مبارك) ووصف رسوله بأنه مبارك كما في قول المسيح (وجهلني مباركا أينما كنت فبركة كتابه ورسوله هي سبب ما يحصل بهما من العلم والهدى والدعوة إلى الله. (الوجه التاسع والأربعون

بعد المائة) مافي الصحيح عن أن هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له رواه مسلم في الصحيح وهذا من أعظم الأدلة على شرف العلم وفضله وعظم ثمرته فإن ثوابه يصل إلى الرجل بعد موته مادام ينتفع به فكأنه حتى لم ينقطع عمله مع ماله من حياة الذكر والشاة جريان أجره عليه إذا انقطع عن الناس ثواب أعمالهم حياة ثانية وخص النبي ﷺ هذه الأشياء الثلاثة بوصول الثواب إلى الميت لأنه سبب لحصولها والعبد إذا باشر السبب الذي يتعلق به الأمر والنهي يترتب عليه مسببه وإن كان خارجا عن سعيه وكسبه فلما كان هو السبب في حصول هذا الولد الصالح والصدقة الجارية والعلم النافع جرى عليه ثوابه وأجره لتسببه فيه فالعبد إنما يثاب على ما باشره أو على ما تولد منه وقد ذكر تعالى هذين الأصلين في كتابه في سورة براءة فقال (ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يظنون موطنًا يغيط الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين) فهذه الأمور كلها متولدات عن أفعالهم غير مقدورة لهم وإنما المقدور لهم أسبابها التي باشرها ثم قال (ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون) فالنفقة وقطع الوادى أفعال مقدورة لهم وقال في القسم الأول كتب لهم به عمل صالح إلا أن المتولد حاصل عن شيئين أفعالهم وغيرها فليست أفعالهم سببا مستقلا في حصول المتولد بل هي جزء من أجزاء السبب فيكتب لهم من ذلك ما كان مقابلا لأفعالهم وأيضاً فإن الظمأ والنصب وغيظ العدو ليس من أفعالهم فلا يكتب لهم نفسه ولكن لما تولد عن أفعالهم كتب لهم به عمل صالح وأما القسم الآخر وهو الأفعال المقدورة نفسها كالإنفاق وقطع الوادى فهو عمل صالح فيكتب لهم نفسه إذ هو مقدور لهم حاصل بارادتهم وقدرتهم فعاد الثواب إلى الأفعال المقدورة والمتولد عنها وبالله التوفيق ﴿ الوجه الخمسون بعد المائة ﴾ ما ذكره ابن عبد البر عن عبد الله بن داود قال إذا كان يوم القيامة عزل الله تبارك وتعالى العلماء عن الحساب فيقول ادخلوا الجنة على ما كان فيكم إنى لم أجعل على فيكم إلا لخير أردته بكم قال ابن عبد البر وزاد غيره في هذا الخبر أن الله يحبس العلماء يوم القيامة في زمرة واحدة حتى يقضى بين الناس ويدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ثم يدعو العلماء فيقول يا معشر العلماء إنى لم أضع حكمتي فيكم وأنا أريد أن أعذبكم قد علمت أنكم تخطون من المعاصى ما يخط غيركم فسترتها عليكم وغفرتها لكم وإنما كنت أعبد بفتياكم وتعليمكم عبادى ادخلوا الجنة بغير حساب ثم قال لا معطى لما منع ولا مانع لما أعطى قال وروى نحو هذا

المعنى بإسناد متصل مرفوع وقد روى حرب الكرماني في مسائله نحوه مرفوعاً وقال إبراهيم بلغني أنه إذا كان يوم القيامة توضع حسنات الرجل في كفة وسيئاته في الكفة الأخرى فتشيل حسناته فإذا بئس فظن أنها النار جاء شيء مثل السحاب حتى يقع من حسناته فتشيل سيئاته قال فيقال له أتعرف هذا من عمالك فيقول لا فيقال هذا ما علمت الناس من الخير فعمل به من بعدك (فان قيل) فمواعد الشرع تقتضى أن يسامح الجاهل بما لا يسامح به العالم وأنه يغفر له ما لا يغفر للعالم فان حجة الله عليه أقوم منها على الجاهل وعلمه بفتح المعصية وبغض الله لها وعقوبته عليها أعظم من علم الجاهل ونعمة الله عليه بما أودعه من العلم أعظم من نعمته على الجاهل وقد دلت الشريعة وحكم الله على أن من حبي بالإنعام وخص بالفضل والإكرام ثم أسام نفسه مع ميل الشهوات فارتعها في مراتع الهلاكات وتجراً على انتهاك الحرمان واستخف بالتبعات والسيئات أنه يقابل من الانتقام والعتب بما لا يقابل به من ليس في مرتبته وعلى هذا جاء قوله تعالى (يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً) ولهذا كان حد الحر ضعف حد العبد في الزنا والقذف وشرب الخمر لكمال النعمة على الحر وبما يدل على هذا الحديث المشهور الذي أثبتته أبو نعيم وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه . قال بعض السلف يغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنب وقال بعضهم أيضاً إن الله يعاقب الجهال ما لا يعاقب للعالماء (فالجواب إن هذا الذي ذكرتموه) حق لا ريب فيه ولكن من قواعد الشرع والحكمة أيضاً أن من كثرت حسناته وعظمت وكان له في الإسلام تأثير ظاهر فانه يحتمل له ما لا يحتمل لغيره ويعفى عنه ما لا يعفى عن غيره فان المعصية خبث والماء إذا بلغ قلتين لم يحتمل الخبث بخلاف الماء القليل فانه لا يحتمل أدنى خبث ومن هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم لعمر وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم وهذا هو المانع له صلى الله عليه وسلم من قتل من جس عليه وعلى المسلمين وارتكب مثل ذلك الذنب العظيم فأخبر صلى الله عليه وسلم أنه شهد بدرأ فدل على أن مقتضى عقوبته قائم ولكن منع من ترتب أثره عليه ماله من المشهد العظيم فوَقعت تلك السقطة العظيمة مغفورة في جنب ماله من الحسنات ولما حض النبي صلى الله عليه وسلم على الصدقة فأخرج عثمان رضي الله عنه تلك الصدقة العظيمة قال ما ضر عثمان ما عمل بعدها وقال لطلحة لما تطأطأ للنبي صلى الله عليه وسلم حتى صعد على ظهره إلى الصخرة أوجب طلحة وهذا موسى كليم الرحمن عز وجل أتقى الألواح التي فيها كلام الله الذي كتبه له ألقاها على الأرض حتى تكسرت ولطم عين ملك الموت ففقاها وعاتب ربه ليلة الأسرى في النبي صلى الله عليه وسلم وقال شاب بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي وأخذ بلحية

هارون وجره إليه وهو نبي الله وكل هذا لم ينقص من قدرة شيئاً عند ربه وربّه تعالى يكرمه
ويحبه فان الأمر الذي قام به موسى والعدو الذي برز له والصبر الذي صبره والأذى الذي أوديه
في الله أمر لا تؤثر فيه أمثال هذه الأمور ولا تعير في وجهه ولا تخفض منزلته وهذا أمر معلوم
عند الناس مستقر في فطرهم إن من له أوف من الحسنات فانه يسامح بالسيئة والسيئتين ونحوها حتى
أنه لا يمتلج داعي عقوبته على إساءته وداعي شكره على إحسانه فيغلب داعي الشكر لداعي العقوبة كما قيل:
وإذا الحبيب أتى بذنب واحد جاءت محاسنه بألف شفيع
وقال آخر :

فان يكن الفعل الذي ساء واحداً فافعله اللاتي سررن كثير

(والله سبحانه) يوازن يوم القيامة بين حسنات العبد وسيئاته فأيهما غلب كان التأثير له فيفعل
بأهل الحسنات الكثيرة الذين آثروا محابه ومراضيه وغلبتهم دواعي طبعهم أحياناً من العفو
والمساحة ما لا يفعله مع غيرهم . وأيضاً فان العالم إذا زل فانه يحسن اسراع القيمة وتدارك
الفارط ومداداة الجرح فهو كالطبيب الخاذق الصير بالمرض وأسبابه وعلاجه فان زواله على
يده أسرع من زواله على يد الجاهل . وأيضاً فان معه من معرفته بأمر الله وتصديقه بوعده ووعيده
وخشيته منه وازرائه على نفسه بار تكابه وإيمانه بأن الله حرمه وان له ربا يغفر الذنب ويأخذ
به إلى غير ذلك من الأمور المحبوبة للرب ما يغفر الذنب ويضعف اقتضائه ويزيل أثره بخلاف
الجاهل بذلك أو أكثره فانه ليس معه إلا ظلمة الخطيئة وقبحها وآثارها المردية فلا يستوى
هذا وهذا . وهذا فصل الخطاب في هذا الموضوع وبه يتبين أن الأمرين حق وانه لا منافاة
بينهما وان كل واحد من العالم والجاهل انما زاد قبح الذنب منه على الآخر بسبب جهله وتجرد
خطيئته عما يقاومها ويضعف تأثيرها ويزيل أثرها فعاد القبح في الموضوعين إلى الجهل وما يستلزمه
وقلته وضعفه إلى العلم وما يستلزمه وهذا دليل ظاهر على شرف العلم وفضله وبالله التوفيق .
(الوجه الحادى والخمسون بعد المائة) ان العالم مشتغل بالعلم والتعميم لا يزال في عبادة فنفس
تعلمه وتعليمه عبادة قال ابن مسعود لا يزال الفقيه يصلى قالوا وكيف يصلى قال ذكر الله على
قلبه ولسانه ذكره ابن عبد البر وفي حديث معاذ مرفوعاً وموقوفاً تعلموا العلم فان تعلمه لله
حسنة وطلبه عبادة ومذاكرته تسميح وقد تقدم والصواب انه موقوف وذكر ابن عبد البر
عن معاذ مرفوعاً لأن تغدو فتعلم باباً من أبواب العلم خير لك من أن تصلى مائة ركعة وهذا
لا يثبت رفعه وقال ابن وهب كنت عند مالك بن أنس فحانت صلاة الظهر أو العصر وأنا
أقرأ عليه وانظر في العلم بين يديه فجمعت كتي وقت لا ركع فقال لى مالك ما هذا فقالت أقوم
إلى الصلاة فقال ان هذا لعجب ما الذى تمت إليه أفضل من الذى كمت فيه إذا صحت فيه النية
وقال الربيع سمعت الشافعى يقول طلب العلم أفضل من الصلاة النافلة وقال سفيان الثورى
(١٢ - مفتاح ١)

ما من عمل أفضل من طلب العلم إذا صححت فيه النية وقال رجل للمعاني بن عمران أيما أحب
الليل أقوم أصلي اليك كله أو أكتب الحديث فقال حديث تكتهبه أحب إلى من قيامك من
أول الليل إلى آخره وقال أيضاً كتابة حديث واحد أحب إلى من قيام ليلة وقال ابن عباس
تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلى من إحيائها وفي مسائل اسحاق بن منصور قلت لأحمد بن حنبل
قوله تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلى من إحيائها أي علم أراد قال هو العلم الذي ينتفع به
الناس في أمر دينهم قلت في الوضوء والصلاة والصوم والحج والطلاق ونحو هذا قال نعم قال
اسحاق وقال لي اسحاق بن راهويه هو كما قال أحمد وقال أبو هريرة لأن أجلس ساعة فاتفقه
في ديني أحب إلى من إحياء ليلة إلى الصباح وذكر ابن عبد البر من حديث أبي هريرة يرفعه
الكل شيء عماد وعماد هذا الدين الفقه وما عبد الله بشيء أفضل من فقه في الدين الحديث وقد
تقدم وقال محمد بن علي الباقر عالم ينتفع بعلمه أفضل من ألف عابد وقال أيضاً رواية الحديث
وبه في الناس أفضل من عبادة ألف عابد ولما كان طالب العلم والبحث عنه وكتابته والتفتيش
عليه من عمل القلب والجوارح كان من أفضل الأعمال ومنزلته من عمل الجوارح كتنزلة أعمال
القلب من الاخلاص والتوكل والحننة والانابة والحشمة والرضا ونحوها من الأعمال الظاهرة
فان قيل فالعلم انما هو وسيلة إلى العمل ومراد له والعمل هو الغاية ومعلوم أن الغاية أشرف
من الوسيلة فكيف تفضل الوسائل على غايتها قيل كل من العلم والعمل ينقسم قسمين منه
ما يكون وسيلة ومنه ما يكون غاية فليس العلم كله وسيلة مرادة لغيرها فان العلم بالله وأسماؤه
وصفاته هو أشرف العلوم على الاطلاق وهو مطلوب لنفسه مراد لذاته قال الله تعالى (الله
الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ينزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء
قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً) فتمد أخبر سبحانه أنه خلق السموات والأرض ونزل
الأمر بينهن ليعلم عباده أنه بكل شيء علیم وعلى كل شيء قدير فهذا العلم هو غاية الخلق المطلوبة
وقال تعالى (فاعلم أنه لا إله إلا الله) فالعلم بوحدايته تعالى وانه لا إله إلا هو مطلوب لذاته
وان كان لا يكتفي به وحده بل لابد معه من عبادته وحده لا شريك له فهما أمران مطلوبان
لا نفسهما أن يعرف الرب تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه وأن يعبد بموجبه ومقتضاها
فكما أن عبادته مطلوبة مراد لذاتها فكذلك العلم به ومعرفة وأيضاً فان العلم من أفضل أنواع
العبادات كما تقدم تقريره فهو متضمن للغاية والوسيلة (وقولكم) أن العمل غاية أما أن
تريدوا به العمل الذي يدخل فيه عمل القلب والجوارح أو العمل المخصص بالجوارح فقط
فان أريد الأول فهو حق وهو يدل على أن العلم غاية مطلوبة لأنه من أعمال القلب كما تقدم
وأن أريد به الثاني وهو عمل الجوارح فقط فليس بصحيح فان أعمال القلوب مقصودة

ومراد لذاتها بل في الحقيقة أعمال الجوارح وسيلة مرادة لغيرها فإن الثواب والعقاب والمدح والذم وتوابعها هو القلب أصلاً وللجوارح تبعاً وكذلك الأعمال المقصودة بها أو لا صلاح القلب واستقامته وعبوديته لربه ومليكه وجعلت أعمال الجوارح تابعة لهذا المقصود مرادة وإن كان كثير منها مراداً لأجل المصلحة المترتبة عليه فن أجلها صلاح القلب وزكاه وطهارته واستقامته فعلم أن الأعمال منها غاية ومنها وسيلة وإن العلم كذلك وأيضا فالعلم الذي هو وسيلة إلى العمل فقط إذا تجرد عن العمل لم يذفع به صاحبه فالعمل أشرف منه . وأما العلم المقصود الذي تنشأ ثمرته المطلوبة منه من نفسه فهذا لا يقال إن العمل المجرد أشرف منه فكيف يكون مجرد العبادة البدنية أفضل من العلم بالله وأسمائه وصفاته وأحكامه في خلقه وأمره ومن العلم بأعمال القلوب وآفات النفوس والطرق التي تفسد الأعمال وتمنع وصولها من القلب إلى الله والمسافات التي بين الأعمال والقلب وبين القلب والرب تعالى وبما تقطع تلك المسافات إلى غير ذلك من علم الإيمان وما يقويه وما يضعفه فكيف يقال إن مجرد التعبد الظاهر بالجوارح أفضل من هذا العلم بل من قام بالأمرين فهو أكمل وإذا كان في أحدهما فضل ففضل هذا العلم خير من فضل العبادة فإذا كان في العبد فضلة عن الواجب كان صرفها إلى العلم الموروث عن الأنبياء أفضل من صرفها إلى مجرد العبادة فهذا فصل الخطاب في هذه المسئلة والله أعلم (الوجه الثاني والخسون بعد المائة) مارواه الامام أحمد والترمذي من حديث أبي كبشة الأماري قال قال رسول الله ﷺ إنما الدنيا لأربعة نفر عبد رزقه الله مالا وعلماً فهو يتقى في ماله ربه ويصل فيه رحمه ويعلم لله فيه حقاً فهذا بأحسن المنازل عند الله ورجل آناه الله علماً ولم يؤت مالا فهو يقول لو أن لي مالا لعملت بهم فلان فهو بنيته وهما في الأجر سواء ورجل آناه الله مالا ولم يؤت مالا فهو يخبط في ماله ولا يتقى فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ولا يعلم لله فيه حقاً فهذا بأسوأ المنازل عند الله ورجل لم يؤت مالا ولا علماً فهو يقول لو أن لي مالا لعملت بهم فلان فهو بنيته وهما في الوزر سواء حديث صحيح صححه الترمذي والحاكم وغيرهما * فقسم النبي ﷺ أهل الدنيا أربعة أقسام . . خیرهم من أوتى علماً ومالا فهو محسن إلى الناس وإلى نفسه بعلمه وماله . . ويليه في المرتبة من أوتى علماً ولم يؤت مالا وإن كان أجرهما سواء فذلك إنما كان بالنية وإلا فالمتصدق فوقه بدرجة الاتفاق والصدقة والعالم الذي لا مال له إنما سواه في الأجر بالنية الجازمة المقترن بها مقدورها وهو القول المجرد . الثالث من أوتى مالا ولم يؤت علماً فهذا أسوأ الناس منزلة عند الله لأن ماله طريق إلى هلاكه فلو عدمه لكان خيراً له فإنه أعطى ما يتزود به إلى الجنة فجعله ذاداً له إلى النار . الرابع من لم يؤت مالا

ولاعلماً ومن نيته أنه لو كان له مال لعمل فيه بمحصية الله فهذا يلي الغنى الجاهل في المرتبة ويساويه في الوزر بنيته الجازمة المقترن بها مقدورها وهو القول الذي لم يقدر على غيره فقسم السعداء قسمين وجعل العلم والعمل بموجبه سبب سعادتها وقسم الأشقياء قسمين وجعل الجهل وما يترتب عليه سبب شقاوتها فعدت السعادة بحملتها إلى العلم وموجبه والشقاوة بحملتها إلى الجهل وثمرته . (الوجه الثالث والخمسون بعد المائة) ما ثبت عن بعض السلف أنه قال تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة وسأل رجل أم الدرداء بعد موته عن عبادته فقالت كان نهاره أجمعه في بادية التفكير وقال الحسن تفكر ساعة خير من قيام ليلة وقال الفضل التفكير مرآة تريك حسناتك وسيئاتك وقيل لابراهيم إنك تطيل الفكرة فقال الفكرة مخ العقل وكان سفیان كثيراً ما يتمثل :

إذا المرء كانت له فكرة • ففي كل شيء له عبرة

وقال الحسن في قوله تعالى (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق) قال أمنعهم التفكير فيها وقال بعض العارفين لو طاعت قلوب المتقين بفكرها إلى ما قدر في حجب الغيب من خير الآخرة لم يصف لهم في الدنيا عيش ولم تقر لهم فيها عين وقال الحسن طول الوحدة أتم للفكرة وطول الفكرة دليل على طريق الجنة وقال وهب ما طالت فكرة أحد قط إلا علم وما علم امرؤ قط إلا عمل وقال عمر بن عبد العزيز الفكرة في نعم الله من أفضل العبادات وقال عبد الله بن المبارك لبعض أصحابه وقد رآه مفكراً أين بلغت قال الصراط وقال بشر لو فكر الناس في عظمة الله ما عصوه وقال ابن عباس ركعتان مقتصدتان في تفكير خير من قيام ليلة بلا قلب وقال أبو سليمان الفكري في الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لأهل الولاية والفكرة في الآخرة تورث الحكمة وتجلي القلوب وقال ابن عباس التفكير في الخير يدعو إلى العمل به وقال الحسن إن أهل العلم من الوايعدون بالذکر على الفكر والفكر على الذکر ويناطقون القلوب حتى نطق بالحكمة ومن كلام الشافعي استمعوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكرة وهذا لأن الفكرة عمل القلب والعبادة عمل الجوارح والقلب أشرف من الجوارح فكان عمله أشرف من عمل الجوارح . وأيضاً فالتفكير يوقع صاحبه من الإيمان على ما لا يوقعه عليه العمل المجرد فإن التفكير يوجب له من انكشاف حقائق الأمور وظهورها له وتميز مراتبها في الخير والشر ومعرفة مفضولها من فاضلها وأقبحها من قبيحها ومعرفة أسبابها الموصلة إليها وما يقاوم تلك الأسباب ويدفع موجبها والتميز بين ما ينبغي السعي في تحصيله وبين ما ينبغي السعي في دفع أسبابه والفرق بين الوهم والخيال المانع لاكثر النفوس من انتهاز الفرص بعد امكانها وبين السبب المانع حقيقة فيشتغل به دون الأول فما قطع

العبد عن كماله وفلاحه وسعادته العاجلة والآجلة قاطع أعظم من الوهم الغالب على النفس
والخيال الذي هو مركبها بل بجرها الذي لا تنفك سابحة فيه وإنما يقطع هذا العارض
بفكرة صحيحة وعزم صادق يميز به بين الوهم والحقيقة وكذلك إذا فكر في عواقب الأمور
وتجاوز فكره مبادئها وضعها مواضعها وعلم مراتبها فاذا ورد عليه واراد الذنب والشهوة
فتجاوز فكره لذته وفرح النفس به إلى سوء عاقبته وما يترتب عليه من الألم والحزن الذي
لا يقاوم تلك المذة والفرحة ومن فكر في ذلك فانه لا يكاد يقدم عليه وكذلك إذا ورد
على قلبه وارد الزاحمة والدعة والاكسل والتقاعد عن مشقة الطاعات وتعها حتى عبر بفكره
إلى ما يقرب عليها من اللذات والخيرات والأفراح التي تغمر تلك الآلام التي في مبادئها بالنسبة
إلى كمال عواقبها وكلما غاص فكره في ذلك اشتد طلبه لها وسهل عليه معاناتها واستقبلها
ببشاط وقوة وعزيمة وكذلك إذا فكر في منتهى ما يستعبده من المال والجاه والصور ونظر
إلى غاية ذلك بعين فكره استحى من عقله ونفسه أن يكون عبداً لذلك كما قيل :

لو فكر العاشق في منتهى حسن الذي يسببه لم يسبه

وكذلك إذا فكر في آخر الأظعمة المفتخرة التي تفانت عليها نفوس اشباه الأنعام
وما يصير أمرها إليه عند خروجها ارتفعت همته عن صرفها إلى الإعتناء بها وجعلها معبود
قلبه الذي إليه يتوجه وله يرضى ويغضب ويسعى ويكدح ويوالي ويعادى كما جاء في المسند
عن النبي ﷺ أنه قال إن الله جعل طعام ابن آدم مثل الدنيا وإن قزحه وملحه بأنه يعلم إلى
ما يصير أو كما قال ﷺ فإذا وقع فكره على عاقبة ذلك وآخر أمره وكانت نفسه حرة أبية
رباً بها أن يجعلها عبداً لما آخره أتم شيء وأخبثه وأفئسه .

فصل

إذا عرف هذا فالفكر هو احضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة ومثال
ذلك إذا أحضر في قلبه العاجلة وعيشتها ونعيمها وما يقترن به من الآفات وانقطاعه وزواله
ثم أحضر في قلبه الآخرة ونعيمها ولذته ودوامه وفضله على نعم الدنيا وجزم بهذين العلمين
أثمر له ذلك علماً ثالثاً وهو أن الآخرة ونعيمها الفاضل الدائم أولى عند كل عاقل بإشاره
من العاجلة المنقطعة المنغصة ثم له في معرفة الآخرة حالتان : إحداهما أن يكون قد سمع ذلك
من غيره من غير أن يباشر قلبه برد اليقين به ولم يفض قلبه إلى مكائده حقيقة الآخرة وهذا
حال أكثر الناس فيتجاذبه داعيان أحدهما داعي العاجلة وإيثارها وهو أقوى الداعيين عنده
لأنه مشاهد له محسوس وداعى الآخرة وهو أضعف الداعيين عنده لأنه داع عن سماع

لم يباشر قلبه اليقين به ولا كلفه حقيقته العلمية فاذا ترك العاجلة للآخرة تريبه نفسه بأنه قد ترك معلوماً لمظنون أو متحققاً لموهوم فلسان الحال ينادى عليه لا أدع ذرة منقودة لدره موعودة وهذه الآفة هي التي منعت النفوس من الاستعداد للآخرة وأن يسعى لها سعيها وهي من ضعف العلم بها وتيقنها وإلا فمع الجزم التام الذي لا يخالج القلب فيه شك لا يقع التهاون بها وعدم الرغبة فيها ولهذا لو قدم لرجل طعام في غاية الطيب واللذة وهو شديد الحاجة إليه ثم قيل له إنه مسموم فانه لا يقدم عليه لعلمه بأن سوء ما تجني عاقبة تناوله تربو في المضرة على لذة أكله فما بال الإيمان بالآخرة لا يكون في قلبه بهذه المنزلة ماذا إلا لضعف شجرة العلم والإيمان بها في القلب وعدم استقرارها فيه وكذلك إذا كان سائراً في طريق فقيل له إن بها قطاعاً واصوصا يقتلون من وجدوه يأخذون متاعه فانه لا يسلكها إلا على أحد وجهين إما أن لا يصدق الخبر وإما أن يثق من نفسه بغلبتهم وقهرهم والانتصار عليهم وإلا فمع تصديقه للخبر تصديقا لا يتمارى فيه وعلمه من نفسه بضعفه وعجزه عن مقاومتهم فانه لا يسلكها ولو حصل له هذان العلمان فيما يرتكبه من إثارة الدنيا وشهواتها لم يقدم على ذلك فلم أن يشاره للعاجلة وترك استعداده للآخرة لا يكون قط مع كمال تصديقه وإيمانه أبدأ (الحالة الثانية) أن يتيقن ويجزم جزماً لاشك فيه بأن له داراً غير هذه الدار ومعاداة خلق وإن هذه الدار طريق الى ذلك المعاد ومنزل من منازل السائرين اليه ويعلم مع ذلك أنها باقية ونعيمها وعذابها لا يزول ولا نسبة لهذا النعيم والعذاب العاجل اليه إلا كما يدخل الرجل أصبعه في اليم ثم ينزعها فالذي تعلق بها منه هو كالدينا بالنسبة الى الآخرة فيشمر له هذا العلم إيثار الآخرة وطلبها والاستعداد التام لها وأن يسعى لها سعيها وهذا يسمى تفكيراً وتذكراً ونظراً وتأملًا واعتباراً وتدبراً واستبصاراً وهذه معان متقاربة تجتمع في شيء وتفرق في آخر ويسمى تفكيراً لأنه استعمال الفكرة في ذلك وإحضاره عنده ويسمى تذكراً لأنه إحضار العلم الذي يجب مراعاته بعد ذهوله وغيبته عنه ومنه قوله تعالى (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون) ويسمى نظراً لأنه التفات بالقلب إلى المنظور فيه ويسمى تأملًا لأنه مراجعة للنظر كرة بعد كرة حتى يتجلى له وينكشف لقلبه ويسمى اعتباراً وهو افتعال من العبور لأنه يعبر منه إلى غيره فيعبر من ذلك الذي قد فكر فيه إلى معرفة ثالثة وهي المقصود من الاعتبار ولهذا يسمى عبرة وهي على بناء الحالات كالجلسة والركبة والقتلة إيداناً بأن هذا العلم والمعرفة قد صار حالاً لصاحبه يعبر منه إلى المقصود به وقال الله تعالى (إن في ذلك لعبرة لمن يخشى) وقال (إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار) (ويسمى تدبراً) لأنه نظر في ادبار الأمور وهي أواخرها وعواقبها ومنه تدبر القول وقال

تعالى أفلم يدبروا القول أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً وتدبر السلام أن ينظر في أوله وآخره ثم يعيد نظره مره بعد مره ولهذا جاء على بناء الفعل كالتجرع والفهم والتبين (وسمى استبصاراً) وهو استعمال من التبصر وهو تبين الأمر وانكشافه وتجليه للبصيرة وكل من التذكر والتفكير له فائدة غير فائدة الآخر فالتذكر يفيد تكرار القلب على ماعله وعرفه ليرسخ فيه ويثبت ولا ينمحي فيذهب أثره من القلب جملة والتفكير يفيد تكثير العلم واستجلاب ما ليس حاصلًا عند القلب فالتفكير يحصله والتذكر يحفظه ولهذا قال الحسن مازال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكير وبالتفكير على التذكر ويناطقون القلوب حتى نطقت بالحكمة فالتفكير والتذكر بذار العلم وسقيه مطارحته ومذاكرته تلقينه كما قال بعض السلف ملاقاته الرجال تلقينهم لأبوابها فالذاكرة بها لقاح العقل فالخير والسعادة في خزائنه مفتاحها التفكير فانه لا بد من تفكير وعلم يكون نتيجه التفكير وحال يحدث للقلب من ذلك العلم فان كل من علم شيئاً من المحبوب أو المكروه لا بد أن يبقى لقلبه حالة وينصبغ بصبغة من علمه وتلك الحال توجب له إرادة وتلك الإرادة توجب وقوع العمل فهاهنا خمسة أمور التفكير وثمرته العلم وثمرتها الحالة التي تحدث للقلب وثمره ذلك الإرادة وثمرتها العمل فالتفكير إذا هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها وهذا يكشف لك عن فضل التفكير وشرفه وأنه من أفضل أعمال القلب وأتقنها له حتى قيل تفكير ساعة خير من عبادة سنة فالتفكير هو الذي ينقل من موت الفطنة إلى حياة اليقظة ومن المسكاره إلى المحاب ومن الرغبة والحرص إلى الزهد والقناعة ومن سجن الدنيا إلى فضاء الآخرة ومن ضيق الجهل إلى سعة العلم ورحبه ومن مرض الشهوة والاخلاد إلى هذه الدار إلى شفاء الإناية إلى الله والتجافي عن دار الغرور ومن مصيبة العمى والصمم والبكم إلى نعمة البصر والسمع والفهم عن الله والعقل عنه ومن أمراض الشبهات إلى برد اليقين وتلج الصدور (وبالجملة) فأصل كل طاعة إنما هي التفكير وكذلك أصل كل معصية إنما يحدث من جانب الفكرة فان الشيطان يصادف أرض القلب خالية فارغة فيبذر فيها حب الأفسكار الرديه فيتولد منه الإرادات والعزوم فيتولد منها العمل فاذا صادف أرض القلب مشغولة يبذر الأفسكار النافعة فيما خلق له وفيما أمر به وفيما هي له وأعد له من النعيم المقيم أو العذاب الأليم لم يجد لبذره موضعاً وهذا كما قيل :

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً فارغاً فتمكنا

(فان قيل) فقد ذكرتم الفكر ومنفعته وعظم تأثيره في الخير والشر فما متعلقه الذي

ينبغي أن يوقع عاياه ويجرى فيه فإنه لا يتم المقصود منه إلا بذكر متعلقه الذي يقع الفكر فيه
والا ففكر بغير متفكر فيه محال (قيل مجرى الفكر) ومتعلقه أربعة أمور (أحدها) غاية
محبوبة مرادة الحصول (الثاني) طريق موصلة إلى تلك الغاية (الثالث) مضرة مطلوبة
الإعدام ومكروهة الحصول (الرابع) الطريق المفضى إليها الموقوع عليها فلا تتجاوز أفكار
العقلاء هذه الأمور الأربعة وأى فكر تخطاها فهو من الأفكار الرديئة والخيالات والاماني
الباطلة كما يتخيل الفقير المعدم نفسه من أغنى البشر وهو يأخذ ويعطى وينعم ويحرم وكما
يتخيل العاجز نفسه من أقوى الملوك وهو يتصرف في البلاد والرعية ونظير ذلك من أفكار
القلوب الباطولية التي من جنس أفكار السكران والمحموش والضعيف العقل فالأفكار الرديئة
هي قوت الانفس الخسيسة التي هي في غاية الدنائة فإنها قد قنعت بالخيال ورضيت بالمحال ثم
لا تزال هذه الأفكار تقوى بها وتزايد حتى توجب لها آثارا رديئة ووساوس وأمراضاً بطيئة
الزوال وإذا كان الفكر النافع لا يخرج عن الأقسام الأربعة التي ذكرناها فله أيضاً محلان
ومنزلان (أحدهما) هذه الدار والآخرة دار القرار فأبناء الدنيا الذين ليس لهم في الآخرة
من خلاق عمروا بيوت أفكارهم بتلك الأقسام الأربعة في هذه الدار فأثمرت لهم أفكارهم
فيها ما أثمرت وليكن إذا حقت الحقايق وبطلت الدنيا وقامت الآخرة تبين الرابع من
المغبون وخسر هنالك المبطلون وأبناء الآخرة الذين خلقتوا لها عمروا بيوت أفكارهم على
تلك الأقسام الأربعة فيها (ونحن نفصل ذلك) بعون الله وفضله فنقول : كل طالب لشيء
فهو محب له مؤثر لقربه ساع في طريق تحصيله متوصل إليه بجهده وهذا يوجب له تعلق
أفكاره بجماله محبوبه وكأنه وصنغاته التي يحب لأجلها وتعلقها بما يناله به من الخير والفرح
والسرور ففكره في حال محبوبه دائر بين الجمال والاجمال والحسن والاحسان فكلمة قويت
محبته ازداد هذا الفكر وقوى وتضاعف حتى يستغرق أجزاء القلب فلا يبقى فيه فضل لغيره
بل يصير بين الناس بقالبه وقلبه كله في حضرة محبوبه فإن كان هذا المحبوب هو المحبوب الحق
الذي لا تنبغى المحبة إلا له ولا يحب غيره إلا تبعاً لمحبته فهو أسعد المحبين به وقد وضع الحب
موضعه وتهيأت نفسه ليكاملها الذي خلقت له والذي لا يكملها بدون وجهه وإن كانت تلك المحبة
لغيره من المحبوبات الباطلة المملاشية التي تفتنى وتبقى حزازات القلوب بها على حالها فقد وضع
المحبة في غير موضعها وظلم نفسه أعظم ظلم وأقبحه وتهيأت بذلك نفسه لغاية شقاها وألمها
(وإذا عرف هذا عرف) أن تعلق المحبة بغير الإله الحق هو عين شقاء العبد وخسرانه
فأفكاره المتعلقة بها كلها باطلة وهي مضرة عليه في حياته وبعد موته والمحبة الذي قد ملك المحبوب
أفكار قلبه لا يخرج فكره عن تعلقه بمحبوبه أو بنفسه ثم فكره في محبوبه لا يخرج عن حالتين

أحدهما فكرته في جماله وأوصافه . والثانية فكرته في أفعاله واحسانه وبره ولطفه الدالة على كمال صفاته وان تعلق فكره بنفسه لم يخرج أيضاً عن حالتين . إما أن يفكر في أوصافه المسخوطة التي يبغضها محبوبه ويمقتها عليها ويسقطه من عينه فهو دائماً يتوقع بفكره عليها ليمتحنها ويبعد منها . والثانية أن يفكر في الصفات والأخلاق والأفعال التي تقربه منه وتحببه اليه حتى يتصف بها فالفكرتان الأولتان توجب له زيادة محبته وقوتها وتضاعفها والفكرتان الآخرتان توجب محبة محبوبه له واقباله عليه وقربه منه وعطفه عليه واشاره على غيره فالمحبة التامة مستلزمة لهذه الأفكار الأربعة . فالفكرة الأولى والثانية تتعلق بعلم التوحيد وصفات الاله المعبود سبحانه وأفعاله . والثالثة والرابعة تتعلق بالطريق الموصلة إليها وقواطعها وآفاتهما وما يمنع من السير فيها اليه فتفكره في صفات نفسه يميز له المحبوب لربه منها من المكروه له وهذه الفكرة توجب ثلاثه أمور أحدها ان هذا الوصف هل هو مكروه مبعوض لله أم لا الثاني هل العبد متصف به أم لا والثالث إذا كان متصفاً به فما طريق دفعه والعافية منه وان لم يكن متصفاً به فما طريق حفظ الصحة وبقائه على العافية والاحتراز منه وكذلك الفكرة في الصفة المحبوبة تستدعي ثلاثة أمور أحدها ان هذه الصفة هل هي محبوبة لله مرضية له أم لا الثاني هل العبد متصف بها أم لا . الثالث أنه إذا كان متصفاً بها فما طريق حفظها ودوامها وإن لم يكن متصفاً بها فما طريق اجتلائها والتخليق بها ثم فكرته في الأفعال على هذين الوجهين أيضاً سواء ومجاري هذه الأفكار ومواقفها كثيرة جداً لا تكاد تنضب (وانما يحصرها ستة أجناس) . الطاعات الظاهرة والباطنة والمعاصي الظاهرة والباطنة والصفات والأخلاق الحميدة . والأخلاق والصفات الذميمة (فهذه مجارى) الفكرة في صفات نفسه وأفعالها وأما الفكرة في صفات المعبود وأفعاله وأحكامه فتوجب له التمييز بين الإيمان والكفر والتوحيد والشرك والافرار والتعطيل وتنزيه الرب عما لا يليق به ووصفه بما هو أهله من الجلال والإكرام (ومجارى هذه الفكرة) تدبر كلامه وما تعرف به سبحانه إلى عبادته على أسننه رسله من أنبائه وصفاته وأفعاله وما نزل نفسه عنه بما لا ينبغي له ولا يليق به سبحانه وتدبر أيامه وأفعاله في أولياته وأعدائه التي قصصها على عبادته وأشهدهم إياها ليستدلوا بها على انه ألهم الحق المبين الذي لا تنبغي العبادة إلا له ويستدلوا بها على انه على كل شيء قدير وانه بكل شيء عليم وانه شديد العقاب وانه غفور رحيم وانه العزيز الحكيم وانه الفعال لما يريد وانه الذي وسع كل شيء رحمة وعلماً وان أفعاله كلها دائرة بين الحكمة والرحمة والعدل والمصلحة لا يخرج شيء منها عن ذلك وهذه الثمرة لاسبيل إلى تحصيلها الا تدبر كلامه والنظر في آثار أفعاله (وإلى هذين الأصلين) ندب عباده في القرآن فقال في

الأصل الأول (أفلا يتدبرون القرآن . أفلم يدبروا القول . كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته . إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعقلون) وقال في الأصل الثاني (قل انظروا ماذا في السموات والأرض . إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض . إن في السموات والأرض لآيات للؤمنين وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون . واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون . أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم . قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل . ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنمشون ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون إلى قوله ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره) . ونوع سبحانه الآيات في هذه السور لجعل خلق السموات والأرض واختلاف لغات الأمم وألوانهم آيات للعالمين كلهم لاشتراكهم في العلم بذلك وظهوره ووضوح دلالاته وجعل خلق الأزواج التي تسكن إليها الرجال والقاء المودة والرحمة بينهم آيات لقوم يتفكرون فإن سكون الرجل إلى امرأته وما يكون بينهما من المودة والتعاطف والترحام أمر باطن مشهود بعين الفكرة والبصيرة فتى نظر بهذه العين إلى الحكمة والرحمة والقدرة التي صدر عنها ذلك دله فكره على أنه الإله الحق المبين الذي أقرت الفطر بربوبيته وإلاهيته وحكمته ورحمته وجعل المنام بالليل والنهار للتصرف في المعاش وابتغاء فضله آيات لقوم يسمعون وهو سمع الفهم وتدبر هذه الآيات وارتباطها بما جعلت آية له مما أخبرت به الرسل من حياة العباد بعد موتهم وقيامهم من قبورهم كما أحياهم سبحانه بعد موتهم وأقامهم للتصرف في معاشهم فهذه الآية إنما ينتفع بها من سمع ما جاءت به الرسل وأصغى إليه واستدل بهذه الآية عليه وجعل إراءتهم البرق وأنزل الماء من السماء وإحياء الأرض به آيات لقوم يعقلون فإن هذه أمور مرتبة بالأبصار مشاهدة بالحس فإذا نظر فيها ببصر قلبه وهو عقله استدلل بها على وجود الرب تعالى وقدرته وعلمه ورحمته وحكمته وامكان ما أخبر به من حياة الخلائق بعد موتهم كما أحياء هذه الأرض بعد موتها وهذه أمور لا تدرك إلا ببصر القلب وهو العقل فإن الحس دل على الآية والعقل دل على ما جعلت له آية فذكر سبحانه الآية المشهودة بالبصر والمدلول عليه المشهود بالعقل فقال (ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) فتبارك

الذي جعل كلامه حياة للقلوب وشفاء لما في الصدور. وبالجملة فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكير فإنه جامع لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين ومقامات العارفين وهو الذي يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والرضا والتفويض والشكر والصبر وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكيانه وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة التي بها فساد القلب وهلاكه فلو علم الناس مافي قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا به عن كل ماسواها فإذا قرأه بتفكير حتى مر آية وهو محتاج إليها في شفاء قلبه كررها ولو مائة مرة ولو ليلة فقراءة آية بتفكير وتفهم خير من قراءة ختمه بغير تدبر وتفهم وأنفع للقلب وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن وهذه كانت عادة السلف يردد أحدهم الآية إلى الصباح وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قام بآية يرددها حتى الصباح وهي قوله وإن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ، فقراءة القرآن بالتفكير هي أصل صلاح القلب ولهذا قال ابن مسعود لانهذوا القرآن هذا الشعر ولا تنثروه ، نثر الدقل وقفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب لا يكن هم أحدكم آخر السورة وروى أبو أيوب عن أبي جرة قال قلت لابن عباس إني سريع القراءة إني أقرأ القرآن في ثلاث قال لأن أقرأ سورة من القرآن في ليلة فأتدبرها وأرتها أحب إلى من أن أقرأ القرآن كما تقرأ (والتفكير في القرآن نوعان) تفكير فيه يقع على مراد الرب تعالى منه وتفكير في معاني مادعا عباده إلى التفكير فيه فالأول تفكير في الدليل القرآني والثاني تفكير في الدليل العياني الأول ففكير في آياته المسموعة والثاني تفكير في آياته المشهودة ولهذا أنزل الله القرآن ليتدبر ويتفكر فيه ويعمل به لا مجرد تلاوته مع لإعراض عنه قال الحسن البصري أنزل القرآن ليعمل به فاتخذوا تلاوته عملا.

فصل

وإذا تأملت مادعى الله سبحانه في كتابه عباده إلى التفكير فيه أو قعلك على العلم به سبحانه وتعالى وبوحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله من عموم قدرته وعلمه وكمال حكمته وبرحمته واحسانه وبره ولطفه وعدله ورضاه وغضبه وثوابه وعقابه فهذا تعرف إلى عباده وندبهم إلى التفكير في آياته . ونذكر لذلك أمثلة مما ذكرها الله سبحانه في كتابه ليستدل بها على غيرها (فن ذلك خلق الإنسان وقد ندب سبحانه) إلى التفكير فيه والنظر في غير موضع من كتابه كقوله تعالى (فلينظر الإنسان مم خلق) وقوله تعالى (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) وقال تعالى (يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم

شيئاً) وقال تعالى (أيحسب الإنسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من منى يمى ثم كان علقه
مخفوق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى) وقال تعالى
(ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين إلى قدر معلوم فقدرنا فنعمهم القادرون) وقال
(أو لم ير الإنسان أنأخلفناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين) وقال (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة
من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة
عظاما فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) وهذا كثير في
القرآن يدعو العبد إلى النظر والفكر في مبدأ خلقه ووسطه وآخره إذ نفسه وخلقها من أعظم
الدلائل على خالقه وفاطره وأقرب شيء إلى الإنسان نفسه وفيه من العجائب الدالة على عظمة
الله ما تنمضي الأعمار في الوقوف على بعضه وهو غافل عنه معرض عن التفكير فيه ولو فكر
في نفسه ازجره ما يعلم من عجائب خلقها عن كفره قال الله تعالى (قتل الإنسان ما أ كفره من
أى شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم أما ته فأقره ثم إذ اشاء أنشره) فلم يكرر
سبحانه على أسماءنا وعقولنا ذكر هذا لنسمع لفظ النطفة والعلقة والمضغة والتراب ولا نتكلم
بها فقط ولا لمجرد تعريفنا بذلك بل لأمر وراء ذلك كله هو المقصود بالحطاب واليه جرى
ذلك الحديث (فانظر الآن إلى النطفة) بعين البصيرة وهي قطرة من ماء مهين ضعيف مستقدر
لو مرت بها ساعة من الزمان فسدت وانتنت كيف استخراجها رب الأرباب العليم القدير
من بين الصلب والترائب منقاداً لقدرته مطيعة لمشيئته مذلة الانقياد على ضيق طرقها واختلاف
بجاريها إلى أن ساقها إلى مستقرها ويجهها وكيف جمع سبحانه بين الذكر والأنثى وألقى المحبا
بينهما وكيف قادهما بسلسلة الشهوة والمحبة إلى الاجتماع الذي هو سبب تخليق الولد وتكوينه وكيف
قدر اجتماع ذينك المائين مع بعض كل منهما عن صاحبه وساقهما من أعماق العروق والأعضاء وجمعهما في
موضع واحد جعل لهما قرارا مكيئا لا يناله هواء يفسده ولا برد يجمده ولا عارض يصل
اليه ولا آفة تتسلط عليه ثم قلب تلك النطفة البيضاء المشربة علقه حمراء تضرب إلى سوا
ثم جعلها مضغة لحم مخالفة للعلقة في لونها وحققتها وشكلها ثم جعلها عظاما مجردة لا كسو
عليها مباينة للمضغة في شكلها وهيأتها وقدرها وملسها ولونها (وانظر) كيف قسم تلك
الأجزاء المتشابهة المتساوية إلى الأعصاب والعظام والعروق والأوتار واليايس واللين ويبر
ذلك ثم كيف ربط بعضها ببعض أقوى رباط وأشدّه وأبعده عن الانحلال وكيف كساه
لحمأ ركبها عليها وجعله وعاء لها وغشاء وحافظاً وجعلها حاملة له مقيمة له فاللحم قائم بها وهو
محفوظة به وكيف صورها فأحسن صورها وشق لها السمع والبصر والفم والأنف وساء

المنافذ ومد اليدين والرجلين وبسطهما وقسم رؤسهما بالأصابع ثم قسم الأصابع بالانامل
وركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء
كل واحد منها له قدر يخصه ومنفعة تخصه (ثم انظر) الحكمة البالغة في تركيب العظام قواما
للبدن وعماداً له وكيف قدرها ربها وخالفها بتقادير مختلفة وأشكال مختلفة فمنها الصغير والكبير
والطويل والقصير والمنحنى والمستدير والدقيق والعريض والمصمت والمجوف وكيف ركب
بعضها في بعض فمنها ما تركيبه تركيب الذكر في الأنثى ومنها ما تركيبه تركيب اتصال فقط
وكيف اختلفت أشكالها باختلاف منافعها كالأضراس فانها لما كانت آلة للطحن جعلت عريضة
ولما كانت الأسنان آلة للقطع جعلت مستدقة محددة ولما كان الإنسان محتاجا إلى الحركة بجملة
بدنه وبيعض أعضائه للتردد في حاجته لم يجعل عظامه عظماً واحداً بل عظاما متعددة وجعل
بينها مفاصل حتى تيسر بها الحركة وكان قدر كل واحد منها وشكله على حسب الحركة المطلوبة
منه وكيف شد أسر تلك المفاصل والأعضاء وربط بعضها ببعض بأوتار ورباطات أنبتها
من أحد طرفي العظم والصق أحد طرفي العظم بالطرف الآخر كالرباط له ثم جعل في أحد
طرفي العظم زوائد خارجة عنه وفي الآخر نقرا غائصة فيه موافقة لشكل تلك الزوائد ليدخل
فيها وينطبق عليها فإذا أراد العبد أن يحرك جزء من بدنه لم يتمتع عليه ولولا المفاصل لتعذر
ذلك عليه وتأمل كيفية خلق الرأس وكثرة ما فيه من العظام حتى قيل إنها خمسة وخمسون
عظماً مختلفة الأشكال والمقادير والمنافع وكيف ركبها سبحانه وتعالى على البدن وجعله عالياً
علو الركب على مركزه ولما كان عالياً على البدن جعل فيه الحواس الخمس وآلات الإدراك كلها
من السمع والبصر والشم والذوق واللمس وجعل حاسة البصر في مقدمه ليكون كالطلليعة والحرس
والكاشف للبدن وركب كل عين من سبع طبقات لكل طبقة وصف مخصوص ومقدار مخصوص
ومنفعة مخصوصة لو فقدت طبقة من تلك الطبقات السبع أو زالت عن هيئتها وموضعها
تعطلت العين عن الإبصار ثم أركز سبحانه داخل تلك الطبقات السبع خلقاً عجباً وهو إنسان
العين بقدر العدسة يبصر به ما بين المشرق والمغرب والأرض والسماء وجعله من العين بمنزلة
القلب من الأعضاء فهو ملكها وتلك الطبقات والاجفان والأهداب خدم له وحجاب وحراس
فتبارك الله أحسن الخالقين (فانظر) كيف حسن شكل العينين وهيئتها ومقدارهما ثم جعلهما
بالاجفان غطاء لها وسترا وحفظاً وزينة فهما يتلقيان عن العين الأذى والقذى والغيبار
ويكفنانها من البارد المؤذى والحار المؤذى ثم غرس في أطراف تلك الاجفان الأهداب
جمالا وزينة ولمنافع أخر وراء الجمال والزينة ثم أودعهما ذلك النور الباصر والضوء الباهر
الذي يخرق ما بين السماء والأرض ثم يخرق السماء مجاوزا لرؤية ما فوقها من السكواكب وقد

أودع سبحانه هذا السر العجيب في هذا المقدار الصغير بحيث تنطبع فيه صورة السموات مع اتساع أكتافها وتباعد أقطارها وشق له السمع (وخلق) الأذن أحسن خلقه وأبلغها في حصول المقصود منها فجملة ما بجوفه كالصدفة لتجمع الصوت فتؤديه إلى الصماخ وليحس بديب الحيوان فيها فيبادر إلى إخراجها وجعل فيها غضوناً وتجاويف واعوجاجات تمسك الهواء والصوت الداخل فتكسر حدته ثم تؤديه إلى الصماخ ومن حكمة ذلك أن يطول به الطريق على الحيوان فلا يصل إلى الصماخ حتى يستيقظ أو ينتبه لإمساكه وفيه أيضاً حكم غير ذلك ثم اقتضت حكمة الرب الخالق سبحانه أن جعل ماء الأذن مرا في غاية المرارة فلا يجاوزه الحيوان ولا يقطعه داخلا إلى باطن الأذن بل إذا وصل إليه أعمل الحيلة في رجوعه وجعل ماء العينين ملحاً ليحفظها فانها شحمة قابلة للفساد فكانت ملوحة مائماً صيانة لها وحفظاً وجعل ماء الفم عذبا حلوا ليدرك به طعوم الأشياء على ما هي عليه إذ لو كان على غير هذه الصفا لأحالها إلى طبيعته كما ان من عرض لغمه المرارة استمر طعم الأشياء التي ليست بم كما قيل :

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا

(ونصب سبحانه) قصبية الأنف في الوجه فأحسن شكله وهيأته ووضعها وفتح في المنخرين وحجز بينهما بحاجز وأودع فيهما حاسة الشم التي تدرك بها أنواع الروائح الطيبة والخبيثة والنافعة والضارة ويستنشق به الهواء فيوصله إلى القلب فيتروح به ويتغذى به ثم لم يجعل في داخله من الاعوجاجات والغضون ما جعل في الأذن لئلا يمسك الرائحة فيضعفها ويقطع مجراها وجعله سبحانه مصباً تنحدر إليه فضلات الدماغ فتجتمع فيه ثم تخرج منه واقتضت حكمته أن جعل أعلاه أدق من أسفله لأن أسفله إذا كان واسعاً اجتمعت فيه تلك الفضلات فخرجت بسهولة ولأنه يأخذ من الهواء ملأه ثم يتصاعد في مجراه قليلا حتى يصل إلى القلب وصولا لا يضره ولا يزعجه ثم فصل بين المنخرين بحاجز بينهما حكمة منه ورحمة فانه لما كان قصبية ويجرى سائرا لما يتحدر فيه من فضلات الرأس ويجرى النفس الصاعد منه جعل في وسطه حاجزا لئلا يفسد بما يجري فيه فيمنع نشقه للنفس بل إما أ تعتمد الفضلات نازلة من أحد المنفذين في الغالب فيبقى الآخر للتنفس وإما أن يجري فيها فينقسم فلا يندسد الأنف جملة بل يبقى فيه مدخل للتنفس وأيضاً فانه لما كان عضوا واحدا وحاسة واحدة ولم يكن عضوين وحاستين كالأذنين والعينين اللتين اقتضت الحكمة تعدده فانه ربما أصيبت إحدهما أو عرضت لها آفة تمنعها من كمالها فتكون الأخرى سالمة فلا تتعطل

منفعة هذا الحس جملة وكان وجود أنفين في الوجه شيئا ظاهرا فنصب فيه أنفا واحدا وجعل فيه منفذين حجز بينهما بحاجز يجرى بجرى تعدد العينين والأذنين في المنفعة وهو واحد فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين (وشق سبحانه) للعبد الفم في أحسن موضع وأليقه به وأودع فيه من المنافع وآلات الذوق والسكلام وآلات الطحن والقطع ما يبهر العقول عجايبه فأودعه اللسان الذي هو أحد آياته الدالة عليه وجعله ترجمانا لملك الأعضاء مبينا مؤدياً عنه كما جعل الأذن رسولا مؤدياً مبلغاً إليه فهي رسوله وبريده الذي يؤدي إليه الأخبار واللسان بريده ورسوله الذي يؤدي عنه ما يريد (واقترضت حكيمته سبحانه) أن يجعل هذا الرسول مصوناً محفوظاً مستورا غير بارز مكشوف كالأذن والعين والأنف لأن تلك الأعضاء لما كانت تؤدي من الخارج إليه جعلت بارزة ظاهرة ولما كان اللسان مؤدياً منه إلى الخارج جعل له سترا مصوناً لعدم الفائدة في إبرازه لانه لا يأخذ من الخارج إلى القلب (وأيضاً) فلأنه لما كان أشرف الأعضاء بعد القلب ومنزلة منه منزلة ترجمانه ووزيره ضرب عليه سرادق تستره وتصونه وجعل في ذلك السرادق كالقلب في الصدر وأيضاً فانه من أطف الأعضاء وألينها وأشدّها رطوبة وهو لا يتصرف إلا بواسطة الرطوبة المحيطة به فلو كان بارزاً صار عرضة للحرارة واليبوسة والنفاس المانع له من التصرف ولغير ذلك من الحكم والفوائد (ثم زين سبحانه الفم بما فيه) من الأسنان التي هن جمال له وزينة وبها قوام العبد وغذاؤه وجعل بعضها أرحاء للطحن وبعضها آلة للقطع فأحكم أصولها وحدد رؤسها وبيض لونها ورتب صفوفها متساوية الرؤس متناسقة الترتيب كأنها الدر المنظوم بياضاً وصفاء وحسناً وأحاط سبحانه على ذلك حائطين وأودعهما من المافع والحكم ما أودعهما وهما الشفتان فحسن لونهما وشكلهما ووضعهما وهياتهما وجعلهما غطاء للفم وطبقاً له وجعلهما إتماماً لخارج حروف السكلام ونهاية له كما جعل أقصى الخلق بداية له واللسان وما جاوره وسطاً ولهذا كان أكثر العمل فيها له إذ هو الواسطة واقترضت حكمته أن جعل الشفتين لهما صرفاً لا عظم فيه ولا عصب لئتمكن بهما من مص الشراب ويسهل عليه فتحهما وطبقهما وخص الفك الأسفل بالتحريك لأن تحريك الأخرى أحسن ولأنه يشتمل على الأعضاء الشريفة فلم يخاطر بها في الحركة وخلق سبحانه الخناجر مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة والصلابة واللين والطول والقصر فاختلفت بذلك الأصوات أعظم اختلاف ولا يكاد يشبهه صوتان إلا نادراً ولهذا كان الصحيح قبول شهادة الأعمى لئيزه بين الأشخاص بأصواتهم كما يميز البصير بينهم بصورهم والاشتباه العارض بين الأصوات كاشتباه العارض بين الصور (وزين سبحانه) الرأس بالشعر وجعله لباساً له لاحتياجه إليه وزين الوجه بما

أُنبت فيه من الشعور المختلفة الأشكال والمقادير فزيئنه بالحاجبين وجعلهما وقاية لما يتحدر من بشرة الرأس إلى العينين وقوسهما وأحسن خطهما وزين أجفان العينين بالأهداب وزين الوجه أيضا باللحية وجعلها كالألوان ووقارا ومهابة للرجل وزين الشفتين بما أنبت فوقهما من الشارب وتحتها من العنفة (وكذلك خلقه سبحانه) للدين اللتين هما آلة العبد وسلاحه ورأس مال معاشه فطولهما بحيث يصلان إلى ما شاء من بدنه وعرض الكف ليتمكن به من القبض والبسط وقسم فيه الأصابع الخمس وقسم كل إصبع بثلاث أنامل والابهام باثنتين ووضع الأصابع الأربعة في جانب والابهام في جانب لتدور الابهام على الجميع فجاءت على أحسن وضع صلحت بالقبض والبسط ومباشرة الأعمال ولو اجتمع الألوان والآخرون على أن يستبطنوا بدقيق أفكارهم وضعا آخر الأصابع سوى ما وضعت عليه لم يجدوا إليه سبيلا فبقار من لو شاء لسواها وجعلها طبعا واحدا كالصفيحة فلم يتمكن العبد بذلك من مصالحه وأنواع تصرفاته ودقيق الصنائع والخط وغير ذلك فان بسط أصابعه كانت طبعا يضع عليه ما يريد وإن ضمها وقبضها كانت دبوسا وآلة للضرب وإن جعلها بين الضم والبسط كانت مغرفة له يتناول بها وتمسك فيها ما يتناوله وركب الأظفار على رؤسها زينة لها وعمادا ووقاية وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا ينالها جسم الأصابع وجعلها سلاحا لغيره من الحيوان والطير وآلة لمعاشه وليحرك الإنسان بها بدنه عند الحاجة فالظفر الذي هو أقل الأشياء وأحقرها لو عدمه الإنسان ثم ظهرت به حكمة لاشتدت حاجته إليه ولم يقم مقامه شيء في حرك بدنه ثم هدى اليد إلى موضع الحلك حتى تمتد إليه ولو في النوم والغفلة من غير حاجة إلى طلب ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحلك إلا بعد تعب ومشقة ثم انظر إلى الحكمة الباعثة في جعل عظام أسفل البدن غليظة قوية لأنها أساس له وعظام أعاليه دونها في المثانة والصلابة لأنها محمولة (ثم انظر كيف جعل) الرقبة مركبا للرأس وركبها من سبع خرزات بجوفات مستديرات ثم طبق بعضها على بعض وركب كل خرزة تركيبا محكما متقنا حتى صارت كأنها خرزة واحدة ثم ركب الرقبة على الظهر والصدر ثم ركب الظهر من أعلاه إلى منتهى عظم العجز من أربع وعشرين خرزة مركبة بعضها في بعض هي بجمع أضلاعه والتي تمسكها أن تنحل وتنفصل ثم وصل تلك العظام بعضها ببعض فوصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتفين بعظام العضدين والعضدين بالذراعين والذراعين بالكف والأصابع (وانظر) كيف كسا العظام العريضة كعظام الظهر والرأس كسوة من اللحم تناسبها والعظام الدقيقة كسوة تناسبها كالأصابع والمتوسطة كذلك كعظام الذراعين والعضدين فهو مركب على ثلاثمائة وستين عظما مائتان وثمانية وأربعون مفصل وباقها صغار حشيت خلال المفاصل فلو زادت عظما واحدا لكان مضره على الإنسان

يحتاج إلى قلعه ولو نقصت عظما واحدا كان نقصانا يحتاج إلى جبره فالطبيب ينظر في هذه العظام وكيفية تركيبها ليعرف وجه العلاج في جبرها والعارف ينظر فيها ليستدل بها على عظمة باريتها وخالقها وحكمته وعلبه ولطفه وكَم بين النظرين (ثم انه سبحانه حتى بلغ عددها إلى خمسمائة وتسعة وعشرين رباطا وهي مختلفة في الغنظ والدقة والطول والقصر والاستقامة والانحناء بحسب اختلاف مواضعها ومحالها فجعل منها أربعة وعشرين رباطا آلة لتحريك العين وفتحها وضمها وإبصارها لو نقصت منهن رباطا واحدا اختل أمر العين وهكذي اسكل عضو من الأعضاء رباطات هن له كآلات التي بها يتحرك ويتصرف ويفعل كل ذلك صنع الرب الحكيم وتقدير العزيز العليم في قطرة ماء مهين فويل للسكنديين وبعدا للجاحدين (ومن عجائب خلقه) أنه جعل في الرأس ثلاث خزائن نافذة بعضها إلى بعض خزانة في مقدمه وخزانة في وسطه وخزانة في آخره وأردع تلك الخزائن من أسرارها ما أودعها من الذكر والفكر والتعقل (ومن عجائب خلقه) ما فيه من الأمور الباطنة التي لا شاهد كالقلب والكبد والطحال والرئة والأمعاء والمثانة وسائر ما في بطنه من الآلات العجيبة والقوى المتعددة المختلفة المنافع (فاما القلب) فهو الملك المستعمل لجميع آلات البدن والمستخدم لها فهو محفوف بها محشود مخدوم مستقر في الوسط وهو أشرف أعضاء البدن وبه قوام الحياة وهو منبع الروح الحيوانية والحرارة الغريزية وهو معدن العقل والعلم والحلم والشجاعة والكرم والصبر والاحتمال والحب والارادة والرضا والغضب وسائر صفات الكمال لجميع الأعضاء الظاهرة والباطنة وقواها إنما هي جنود من أجناد القلب فان العين طليعته ورائده الذي يكشف له المرئيات فان رأته شيئا أدته إليه ولشدة الارتباط الذي بينها وبينه إذا استقر فيه شيء ظهر فيها فهي مرآته المترجمة للنظر ما فيه كما أن اللسان ترجمانه المؤدى للسمع ولهذا كثيرا ما يقرن سبحانه في كتابه بين هذه الثلاث كقوله (ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً) وقوله (وجعلنا لهم سمعا وأبصاراً وأفئدة) وقوله (صم بكم عمي) وقد تقدم ذلك وكذلك يقرن بين القلب والبصر كقوله (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم) وقوله في حق رسوله محمد ﷺ (ما كذب الفؤاد ما رأى) ثم قال مازاغ البصر وما طغى (وكذلك) الاذن هي رسوله المؤدى إليه (وكذلك) اللسان ترجمانه وبالجملة فسائر الأعضاء خدمه وجنوده وقال النبي ﷺ (الا ان في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد الا وهي القلب) وقال أبوهريرة القلب ملك والأعضاء جنوده فان طاب الملك طابت جنوده وإذا خبت الملك خبثت جنوده وجعلت الرئة له كالمروحة تروح عليه دائما لأنه أشد الأعضاء

حرارة بل هو منبع الحرارة (وأما الدماغ) وهو المخ فانه جعل بارداً واختلف في حكمة ذلك فقالت طائفة إنما كان الدماغ بارداً لتبريد الحرارة التي في القلب ليردها عن الافراط إلى الاعتدال وردت طائفة هذا وقالت لو كان كذلك لم يكن الدماغ بعيداً عن القلب بل كان ينبغي أن يحيط به كالرئة أو يكون قريباً منه في الصدر ليكسر حرارته قالت الفرقة الأولى بعد الدماغ من القلب لا يمنع ما ذكرناه من الحكمة لأنه لو قرب منه لعلبته حرارة القلب بقوتها فجعل البعد بينهما بحيث لا يتفاسدان وتعتدل كيفية كل واحد منهما بكيفية الآخر وهذا بخلاف الرئة فانها آلة للترويح على القلب لم تجعل لتعديل حرارته وتوسطت فرقة أخرى وقالت بل المخ حار لكنه فاتر الحرارة وفيه تبريد بالخاصية فانه مبدأ للذهن ولهذا كان الذهن يحتاج إلى موضع ساكن قارصاف عن الأقدار والكدر خال من الجليلة والزجل ولذلك يكون جودة الفكر والتذكر واستخراج الصواب عند سكون البدن وفطور حركانه وقلة شواغله ومن عجائبه ولذلك لم يصلح لها القلب وكان الدماغ معتدلاً في ذلك صالحاً له ولذلك تجود هذه الأفعال في الليل وفي المواضع الخالية ونفسد عند التهاب نار الغضب والشهوة وعند الهم الشديد ومع التعب والحركات القوية البدنية والنفسانية (وهذا بحث متصل بقاعدة أخرى) وهي أن الحواس والعقل هل مبدؤها القلب والدماغ (فقالت طائفة) مبدؤها كلها القلب وهي مرتبطة به ويده وبين الحواس منافذ وطرق قالوا وكل واحد من هذه الأعضاء التي هي آلات الحواس له اتصال بالقلب بأعصاب وغير ذلك وهذه الأعصاب تخرج من القلب إلى أن تأتي إلى كل واحد من هذه الاجسام التي فيها هذه الحواس (قالوا فالعين) إذا أبصرت شيئاً أدته بالآلة التي فيها إلى القلب لأن هذه الآلة متصلة منها إلى القلب والسمع إذا أحس صوتاً أداه إلى القلب وكذلك كل حاسة ثم أوردوا على أنفسهم سؤالاً فقالوا (ان قيل كيف يجوز أن يكون عضو واحد على ضروب من الامتزاج يمدّه عدة حواس مختلفة وأجسام هذه الحواس مختلفة وقرّة كل حاسة مختلفة لقوة الحاسة الأخرى (وأجابوا عن ذلك) بأن جميع العروق التي في البدن كلها متصلة بالقلب إما بنفسها وإما بواسطة فما من عرق ولا عضو الا وله اتصال بالقلب اتصالاً قريباً أو بعيداً قالوا وينبعث منه في تلك العروق والمجاري إلى كل عضو ما يناسبه ويشاكله فينبعث منه إلى العينين ما يكون منه حس البصر وإلى الأذنين ما يدرك به المسموعات وإلى اللحم ما يكون منه حس اللمس وإلى الأنف ما يكون به حس الشم وإلى اللسان ما يكون به حس الذوق وإلى كل ذي قوة ما يمد قوته ويحفظها فهو المعد لهذه الأعضاء والحواس والقوى ولهذا كان الرأي الصحيح أنه أول الأعضاء تكويتها قالوا ولا ريب أن مبدأ القوة العاقلة منه وان كان قد خالف في ذلك آخرون وقالوا بل العقل

في الرأس (فالصواب ان مبدأه) ومنشأه من القلب وفروعه وثمرته في الرأس والقرآن قد دل على هذا بقوله (أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها) وقال (أن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب) ولم يرد بالقلب هنا مضغة اللحم المشتركة بين الحيوانات بل المراد ما فيه من العقل واللب ونازعهم في ذلك طائفة أخرى وقالوا مبدأ هذه الحواس إنما هو الدماغ وانكروا أن يكون بين القلب والعين والأذن والأنف أعصاب أو عروق وقالوا هذا كذب على الخلق (والصواب التوسط) بين الفريقين وهو أن القلب تنبعث منه قوة إلى هذه الحواس وهي قوة معنوية لا تحتاج في وصولها إليه إلى مجار مخصوصة وأعصاب تكون حاملة لها فان وصول القوى إلى هذه الحواس والأعضاء لا يتوقف الا على قبولها واستعدادها وامداد القلب لا على مجار وأعصاب وهذا يزول الالتباس في هذا المقام الذي طال فيه الكلام وكثر فيه النزاع والخصام والله أعلم وبه التوفيق للصواب (والمقصود التنبيه) على أقل القليل من وجوه الحكمة التي في خلق الإنسان والأمر أضعاف أضعاف ما يخطر بالبال أو يجري فيه المقال وإنما فائدة ذكر هذه الشذرة التي هي كل شيء بالنسبة إلى ما وراءها التنبيه وإذا نظر العبد إلى غذائه فقط في مدخله ومستقره ومخرجه رأى فيه العبر والعجائب كيف جعلت له آلة يتناول بها ثم ياب يدخل منه ثم آلة تقطعه صغاراً ثم طاحون يطحنه ثم أعين بما يعجنه ثم جعل له مجرى وطريقاً إلى جانب النفس ينزل هذا ويصعد هذا فلا يلتقيان مع غاية القرب ثم جعل له حوايا وطرقاً توصله إلى المعدة فهي خزائنه وموضع اجتماعه ولها بابان بب أعلى يدخل منه الطعام وباب أسفل يخرج منه ثقله والباب الأعلى أوسع من الأسفل إذ الأعلى مدخل للحاصل والأسفل مصرف للصار منه والأسفل منطبق دائماً ليستقر الطعام في موضعه فإذا انتهى الهضم فان ذلك الباب يفتح إلى انقضاء الدفع ويسمى البواب لذلك والأعلى يسمى فم المعدة والطعام ينزل إلى المعدة متكيمياً فإذا استقر فيها انماع وذاب ويحيط بالمعدة من داخلها وخارجها حرارة نارية بل ربما تزيد على حرارة النار ينضج بها الطعام كما ينضج الطعام في القدر بالنار المحيطة به ولذلك يذيب ما هو مستحجر بالخصا وغيره حتى يتركه مائعا فإذا أذابه علاصفوه الى فوق ورسي كدره الى أسفل ومن المعدة عروق متصلة بسائر البدن يبعث فيها معلوم كل عضو وقوامه بحسب استعداده وقبوله فيبعث أشرف ما في ذلك وألطفه وأخفه الى الأرواح فيبعث الى البصر بصرا والى السمع سمعا والى الشم شماً والى كل حاسة بحسبها فهذا ألطف ما يتولد عن الغذاء ثم يبعث منه الى الدماغ ما يناسبه في اللطافة والاعتدال ثم يبعث من الباقي الى الأعضاء في تلك المجارى بحسبها ويبعث منه الى العظام والشعر والظفار ما يغذيها

ويحفظها فيكون الغذاء داخلا الى المعدة من طرق وبجوار وخارجا منها الى الاعضاء من طرق
وبجوار هذا وورد اليها وهذا صادر عنها حكمة بالغة ونعمة سابعة ولما كان الغذاء اذا استحال
في المعدة استحال دما ومرة سوداء ومرة صفراء وبلغها اقتضت حكمته سبحانه وتعالى ان
جعل لكل واحد من هذه الاخلاط مصرفا ينصب اليه ويجمع فيه ولا ينبعث الى الاعضاء
الشريفة الا اكمله فوضع المرارة مصبا للرة الصفراء ووضع الطحال مقرا للرة السوداء
والكبد تمتص أشرف ما في ذلك وهو الدم ثم تبعه الى جميع البدن من عرق واحد ينقسم
على مجار كثيرة يوصل الى كل واحد من الشعور والاعصاب والعظام والعروق ما يكون به
قوامه ثم اذا نظرت الى ما فيه من القوى الباطنة والظاهرة المختلفة في أنفسها ومنافعها رأيت
العجب العجيب كقوة سمعه وبصره وشمه وزوقه ولمسه وحيه وبغضه ورضاه وغضبه وغير
ذلك من القوى المتعلقة بالادراك والإرادة وكذلك القوى المتصرفة في غذائه كالقوة المنضجة
له وكالقوة الماسكة له والدافعة له الى الاعضاء والقوة الهاضمة له بعد أخذ الاعضاء حاجتها منه
الى غير ذلك من عجائب خلقته الظاهرة والباطنة .

فصل

فارجع الآن الى النطفة وتأمل حالها أولا وما صارت اليه ثانيا وأنه لو اجتمع الإنس
والجن على أن يخلقوا لها سمعا أو بصرا أو عقلا أو قدرة أو علما أو روحا بل عظما واحدا
من أصغر عظامها بل عرقا من أدق عروقها بل شعرة واحدة لعجزوا عن ذلك بل ذلك كله
آثار صنع الله الذي أتقن كل شيء في قطرة من ماء مهين فن هذا صنعه في قطرة ماء فكيف
صنعه في ملكوت السموات وعلوها وسعتها واستدارتها وعظم خلقها وحسن بنائها وعجائب
شمسها وقمرها وكواكبها ومقاديرها وأشكالها وتفاوت مشارقها ومغاربها فلا ذرة فيها تنفك
عن حكمة بل هي أحكم خلقا وأتقن صنعا وأجمع العجائب من بدن الإنسان بل لا نسبة لجميع
ما في الأرض الى عجائب السموات قال الله تعالى (أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها
فسواها) وقال تعالى (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي
تجرى في البحر بما ينفع الناس الى قوله آيات لقوم يعقلون) فبدأ بذكر خلق السموات
وقال تعالى (ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولي الألباب)
وهذا كثير في القرآن فالأرض والبحار والهواء وكل ماتحت السموات بالإضافة الى السموات
كقطرة في بحر ولهذا قل ان تجيء سورة في القرآن الا وفيها ذكرها إما إخبارا عن عظمتها
وسعتها وإما اقسامها وإما دعاء الى النظر فيها وإما ارشادا للعباد أن يستدلوا بها على عظمة

جانهاور افعها وإما استدلالا منه سبحانه بخلقها على ما أخبر به من المعاد والقيمة وإما استدلالا
عنه بر بيته لها على وحدانيته وأنه الله الذي لا اله الا هو وإما استدلالا منه بحسبها واستوائها
والثام أجزاءها وعدم الفطور فيها على تمام حكمته وقدرته وكذلك ما فيها من الكواكب
والشمس والقمر والعجائب التي تتقاصر عقول البشر عن قليلها فكم من قسم في القرآن بها كقوله
(والسما ذات البروج . والسما والطارق . والسما وما بناها . والسما ذات الرجوع والشمس
وضحاها والنجم إذا هوى . والنجم الثاقب، فلا أقسم بالحنس) وهي الكواكب التي تكون
خسنا عند طلوعها جوار في مجراها ومسيرها كمنسا عند غروبها فاقسم بها في أحوالها الثلاثة ولم
يقسم في كتابه بشيء من مخلوقاته أ أكثر من السماء والنجوم والشمس والقمر وهو سبحانه يقسم
بما يقسم به من مخلوقاته انضمته الآيات والعجائب الدالة عليه وكلما كان أعظم آية وأبلغ في
الدلالة كان إقسامه به أ أكثر من غيره ولهذا يعظم هذا القسم كقوله (فلا أقسم بمواقع النجوم
وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) وأظهر القولين أنه قسم بمواقع هذه النجوم التي في السماء فإن اسم
النجوم عند الاطلاق إنما ينصرف إليها وأيضا فإنه لم يجر عاداته سبحانه باستعمال النجوم في
آيات القرآن ولا في موضع واحد من كتابه حتى تحمل عليه هذه الآية وجرت عاداته باستعمال
النجوم في الكواكب في جميع القرآن وأيضا فإن نظير الأقسام بمواقعها هنا إقسامه بهوى
النجم في قوله (والنجم إذا هوى) وأيضا فإن هذا قول جمهور أهل التفسير وأيضا فإنه سبحانه
يقسم بالقرآن نفسه لا بوضوله إلى عباده هذه طريقة القرآن قال الله تعالى (ص والقرآن ذي
الذكر . يس والقرآن الحكيم . ق والقرآن المجيد . حم والكتاب المبين) ونظائره (المقصود انه
سبحانه) إنما يقسم من مخلوقاته بما هو من آياته الدالة على ربوبيته ووحدانيته وقد أنى سبحانه
في كتابه على المتفكرين في خلق السموات والأرض وذم المعرضين عن ذلك فقال (وجعلنا
السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون) وتأمل خلق هذا السقف الأعظم مع صلابته
وشدته ووثاقته من دخان وهو بخار الماء قال الله تعالى (وبدينا فوقكم سبعا شدادا) وقال تعالى
(أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها) وقال (وجعلنا السماء سقفا محفوظا) فانظر
إلى هذا البناء العظيم الشديد الواسع الذي رفع سمكه أعظم ارتفاع وزينه بأحسن زينة وأودعه
العجائب والآيات وكيف ابتداء خلقه من بخار ارتفع من الماء وهو الدخان

فسبحان من لا يقدر الخلق قدره ومن هو فوق العرش فرد موحد

لقد تعرف إلى خلقه بأنواع التعريفات ونصب لهم الدلالات وأوضح لهم الآيات البينات ليهلك
من هلك عن بينة ويحيى من حي بينة وإن الله لسميع علم فارجع العصر إلى السماء وانظر فيها وفي
كواكبها ودورانها وطلوعها وغروبها وشمسها وقمرها واختلاف مشارقها ومغاربها ودورها

في الحركة على الدوام من غير فتور في حركتها ولا تغير في سيرها بل تجرى في منازل قدر ثبت لها بحساب مقدر لا يزيد ولا ينقص إلى أن يطويها فاطرها وبعدها وانظر إلى كثرت كواكبها واختلاف ألوانها ومقاديرها فبعضها يميل إلى الحمرة وبعضها إلى البياض وبعضها إلى اللون الرصاصي (ثم انظر) إلى مسير الشمس في فللكها في مدة سنة ثم هي في كل يوم تطلع وتغرب بسير سخرها له خالقها لا تتعداه ولا تقصر عنه ولولا طلوعها وغروبها لما عرف الليل والنهار ولا المواقيت ولأطبق الظلام على العالم أو الضياء ولم يتميز وقت المعاش من وقت السبات والراحة وكيف قدر لها السميع العليم سفيرين متباعدين أحدهما سفرها صاعدة إلى أوجها والثاني سفرها هابطة إلى حضيتها تنتقل في منازل هذا السفر منزلة منزلة حتى تبلغ غايتها منه فأحدث ذلك السفر بقدرة الرب القادر اختلاف الفصول من الصيف والشتاء والخريف والربيع فإذا انخفض مسيرها عن وسط السماء برد الهوى وظهر الشتاء وإذا استوت في وسط السماء اشتد القيظ وإذا كانت بين المسافتين اعتدل الزمان وقامت مصالح العباد والحيوان والنبات بهذه الفصول الأربعة واختلفت بسببها الأقوات وأحوال النبات وألوانه ومنافع الحيوان والأغذية وغيرها (وانظر) إلى القمر وعجائب آياته كيف يبديه الله كالخيط الدقيق ثم يتزايد نوره ويتكامل شيئاً فشيئاً كل ليلة حتى ينتهي إلى ابداره وكاله وتماه ثم يأخذ في النقصان حتى يعود إلى حالته الأولى ليظهر من ذلك مواقيت العباد في معاشهم وعبادتهم ومناسكهم فتميزت به الأشهر والسنين وقام حساب العالم مع ما في ذلك من الحكم والآيات والعبر التي لا يحصوها إلا الله (وبالجمله فما من كوكب من الكواكب) إلا وللرب تبارك وتعالى في خلقه حكم كثيرة ثم في مقداره ثم في شكله ولونه ثم في موضعه من السماء وقربه من وسطها وبعده وقربه من الكوكب الذي يليه وبعده منه وإذا أردت معرفة ذلك على سبيل الإجمال فقسه بأعضاء بدنك واختلافها وتفاوتها بين المتجاورات منها وبعد ما بين المتباعدات وأشكالها ومقاديرها وتفاوت منافعها وما خلقت له وأين نسبة ذلك إلى عظم السموات وكواكبها وآياتها وقد اتفق أرباب الهيئة على أن الشمس بقدر الأرض مائة مرة وبنهاً وستين مرة والكواكب التي نراها كثير منها أصغرهما بقدر الأرض وبهذا يعرف ارتفاعها وبعدها وفي حديث أبي هريرة الذي رواه الترمذي أن بين الأرض والسماء مسيرة خمسمائة عام وبين كل سماء من كذلك وأنت ترى الكوكب كأنه لا يسير وهو من أول جزء من طلوعه إلى تمام طلوعه يكون فللكه قد طلع بقدر مسافة الأرض مائة مرة أو أكثر وذلك بعد لحظة واحدة ، لأن الكوكب إذا كان بقدر الأرض مائة مرة مثلاً ثم سار في اللحظة من موضع إلى موضع فقد قطع بقدر مسافة الأرض مائة مرة وزيادة في لحظة من اللحظات وهكذا يسير على الدوام والعبد غافل

عنه وعن آياته وقال بعضهم إذا تلفظت بقولك لا نعم فيين اللفظتين تكون الشمس قد قطعت من الفلك مسيرة خمسمائة عام ثم أنه سبحانه أمسك السموات مع عظمها وعظم ما فيها وثبتها من غير علاقة من فوقها ولا عمد من تحتها (الله الذي خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تمتد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبأنا فيها من كل زوج كريم هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين)

(فصل) والنظر في هذه الآيات وأمثالها نوعان : نظر إليها بالبصر الظاهر فيرى مثلاً زرقة السماء ونجومها وعلوها وسعتها وهذا نظر يشارك الإنسان فيه غيره من الحيوانات وليس هو المقصود بالأمر الثاني أن يتجاوز هذا إلى النظر بالبصيرة الباطنة فتفتح له أبواب السماء فيجول في أقطارها وملكوتهما وبين ملائكتها ثم يفتح له باب بعد باب حتى ينتهي به سير القلب إلى عرش الرحمن فينظر سعته وعظمته وجلاله ومجده ورفعته ويرى السموات السبع والأرضين السبع بالنسبة إليه كحلقة ملقاة بأرض فلاة ويرى الملائكة حافين من حوله لهم زجل بالتسبيح والتحميد والتقديس والتكبير والأمر ينزل من فوقه بتدبير الممالك والجنود التي لا يعلمها إلا ربها ومليكها فينزل الأمر باحياء قوم وإماتة آخرين وإعزاز قوم وإذلال آخرين وإسعاد قوم وشقاوة آخرين وإنشاء ملك وسلب ملك وتحويل نعمة من محل إلى محل وقضاء الحاجات على اختلافها وتباينها وكثرتها من جبر كسر وإغناء فقير وشفاء مريض وتفريج كرب ومغفرة ذنب وكشف ضر ونصر مظلوم وهداية حيران وتعليم جاهل ورد آبق وأمان خائف وإجارة مستجير ومدد لضعيف وإغاثة لماهوف وإعانة لعاجز وانتقام من ظالم وكف العدوان فهي مراسم دائرة بين العدل والفضل والحكمة والرحمة تنفذ في أقطار العوالم لا يشغله سمع شيء منها عن سمع غيره ولا تغلظه كثرة المسائل والحوائج على اختلافها وتباينها واتحاد وقتها ولا يتبرم بالحاح الملحين ولا تنقص ذرة من خزائنه لا إله إلا هو العزيز الحكيم فينمذ يقوم القلب بين يدي الرحمن مطرقاً لهيبته خاشعاً لعظمته عان لعزته فيسجد بين يدي الملك الحق المبين سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم المزيد فهذا سفر القلب وهو في وطنه وداره ومحل ملكه وهذا من أعظم آيات الله وعجائب صنعه فيأله من سفر ما أبركه وأروحه وأعظم ثمرته وربحه وأجل منفعته وأحسن عاقبته سفر هو حياة الأرواح ومفتاح السعادة وغنيمة العقول والالباب لا كالسفر الذي هو قطعة من العذاب

(فصل) وإذا نظرت إلى الأرض وكيف خلقت رأيتها من أعظم آيات فاطرها وبديعها خلقها سبحانه فراشا ومهادا وذلكها لعباده وجعل فيها أرزاقهم وأقواتهم ومعايشهم وجعل فيها السبل لينتقلوا فيها في حوائجهم وتصرفاتهم وأرساها بالجبال فجعلها أوتاداً تحفظها لئلا تتمد

بهم ووسع أكنافها ودحاها فدها وبسطها وطحاها فوسعها من جوانبها وجعلها كقناتا للحياء
تضمهم على ظهرها ما داموا أحياء وكقناتا للأمم تضمهم في بطنها إذا ما توارى فظرها ووطن
للأحياء وبطنها ووطن للأمم وقد أكثر تعالى من ذكر الأرض في كتابه ودعا عباده إلى
النظر إليها والتفكير في خلقها فقال تعالى (والأرض فرشناها فنعم الماهدون . الله الذي جعل
لكم الأرض قراراً . الذي جعل لكم الأرض فراشا . أفلا ينظرون إلى الأبل كيف خلقت
وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت . إن في السموات
والأرض آيات للمؤمنين) وهذا كثير في القرآن فانظر إليها وهي ميمته هامة خاشعة فإذا
أنزلنا عليها الماء اهتزت فتحركت وربت فارتفعت واخضرت وأنبئت من كل زوج بهيج
فأخرجت عجائب الثبات في المنظر والخبر بهيج للناظرين كريم للتناولين فأخرجت الأقوات
على اختلافها وتباين مقاديرها وأشكالها وألوانها ومتافها والفواكه والثمار وأنواع الأدوية
ومراعى الدواب والطيور (ثم انظر) قطعها المتجاورات وكيف ينزل عليها ماء واحداً فتنبت
الازواج المختلفة المتباينة في اللون والشكل والرائحة والطعم والمنفعة واللقاح واحد والأم
واحدة كما قال تعالى (وفي الأرض قطع متجاورات وجزئات من أعناب وزرع ونخيل صنوان
وغير صنوان يسبق بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك آيات لقوم يعقلون)
فكيف كانت هذه الاجنة المختلفة مودعة في بطن هذه الأم وكيف كان حملها من لقاح واحد
صنع الله الذي أتقن كل شيء لا إله إلا هو ولولا أن هذا من أعظم آياته لما نبه عليه عباده
وهدهم إلى التفكير فيه . قال الله تعالى (وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت
وربت وأنبئت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء
قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور) فجعل النظر في هذه الآية
وما قبلها من خلق الجنين دليلاً على هذه النتائج الخمس مستلزماً للعلم بها ثم انظر كيف أحكم
جوانب الأرض بالجبال الراسيات الشوامخ الصم الصلاب وكيف نصبها فأحسن نصبها وكيف
رفعها وجعلها أصلب أجزاء الأرض لئلا تضمحل على تطاول السنين وترادف الامطار والرياح
بل أتقن صنعها وأحكم وضعها وأودعها من المنافع والمعادن والعيون ما أودعها ثم هدى الناس
إلى استخراج تلك المعادن منها وألهمهم كيف يصنعون منها النقود والحلى والزينة واللباس
والسلاح وآلة المعاش على اختلافها ولولا هدايته سبحانه لهم إلى ذلك لما كان لهم علم شيء منه
ولا قدرة عليه (ومن آياته الباهرة) هذا الهواء اللطيف المحبوس بين السماء والأرض يدرك
بحس اللبس عند هبوبه يدرك جسمه ولا يرى شخصه فهو يجرى بين السماء والأرض والطيور
مختلقة فيه ساجدة بأجنحتها في أمواجه كما تسميح حيوانات البحر في الماء وتضطرب جوانبه

وأما وجهه عند هيجانه كما تضطرب أمواج البحر فإذا شاء سبحانه وتعالى حركة بحركة الرحمة فجعله رخاء ورحمة وبشرى بين يدي رحمته ولا قحاً للسحاب يلقيه بحمل الماء كما يلقيح الذكر الأثني بالحمل . وتسمى رياح الرحمة المبشرات والنشور والذاريات والمرسلات والرخاء والواقع ورياح العذاب العاصف والقاصف وهما في البحر والعقيم والصرصر وهما في البر وإن شاء حركة بحركة العذاب فجعله عقياً وأودعه عذاباً أليماً وجمله نعمة على من يشاء من عباده فيجعله صرصراً ونحساً وعاتياً ومفسداً لما يمر عليه وهي مختلفة في مهابها فمنها صبا ودبور وجنوب وشمال وفي منفعتها وتأثيرها أعظم اختلاف فريح لينة رطبة تغذى النبات وأبدان الحيوان وأخرى تجففه وأخرى تهلكه وتعطبه وأخرى تشده وتصلبه وأخرى توهنه وتضعفه . ولهذا يخبر سبحانه عن رياح الرحمة بصيغة الجمع لاختلاف منافعها وما يحدث منها . فريح تثير السحاب وريح تلقحه وريح تحملها على متونها وريح تغذى النبات . ولما كانت الرياح مختلفة في مهابها وطبائرها جعل لكل ريح ريحاً مقابلتها تسكس سورتها وحدتها ويبقى لينها ورحمتها فرياح الرحمة متعددة وأما ريح العذاب فانه ريح واحدة ترسل من وجه واحد لا هلاك ما ترسل باهلاكه فلا تقوم لها ريح أخرى تقابلها وتسكس سورتها وتدفع حدتها بل تكون كالجيش العظيم الذي لا يقاومه شيء يدمر كل ما أتى عليه . وتأمل حكمة القرآن وجلالته وفصاحته كيف طرد هذا في البر وأما في البحر فجاءت ريح الرحمة فيه بلفظ الواحد كقوله تعالى (هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في القللك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان) فان السفن إنما تسير بالريح الواحدة التي تأتي من وجه واحد فإذا اختلفت الرياح على السفن وتقابلت لم يتم سيرها فالمقصود منها في البحر خلاف المقصود منها في البر إذ المقصود في البحر أن تكون واحدة طيبة لا يعارضها شيء فأفردت هنا وجمعت في البر . ثم أنه سبحانه أعطى هذا المخلوق اللطيف الذي يحركه أضعف المخلوقات ويخرقه من الشدة والقوة والبأس ما يقلق به الأجسام الصلبة القوية الممتنعة وينعجبها عن أمائها وبقوتها ويحملها على منته فانظر اليه مع لطفه وخفته إذا دخل في الزق مثلاً وامتلأ به ثم وضع عليه الجسم الثقيل كالرجل وغيره وتحامل عليه ليغمسه في الماء لم يطق ويضع الحديد الصلب الثقيل على وجه الماء فيرسب فيه فامتنع هذا اللطيف من قهر الماء له ولم يمتنع منه القوى الشديد وبهذه الحكمة أمسك الله سبحانه السفن على وجهه الماء مع ثقلها وثقل ما تحويه وكذلك كل مجوف حل فيه الهواء فانه لا يرسب فيه لأن الهواء يمتنع من الغوص في الماء فتعلق به السفينة المشحونة الموقرة فتأمل كيف استجار هذا الجسم الثقيل العظيم بهذا اللطيف الخفيف وتعلق به حتى أمن من الغرق وهذا كالذي يهوى في قلب فيتعلق بذيل رجل قوى شديد يمتنع عن السقوط في القلب فينجو بتعلقه به فسبحان من خلق هذا

المركب العظيم الثقيل بهذا الهواء اللطيف من غير علاقة ولا عقدة تشاهد (ومن آيته السحاب
المستخر بين السماء والأرض) كيف ينشئه سبحانه بالرياح فتثيره كسيفا ثم يؤلف بينه ويضم
بعضه إلى بعض ثم تلقحه الريح وهى التى سماها سبحانه لواقع ثم يسوقه على متونها إلى الأرض
المحتاجة إليه فإذا علاها واستوى عليها أهرق ماءه عليها فيرسل سبحانه عليه الريح وهو فى
الجو فتذروه وتفرقه لئلا يؤذى ويهدم ما ينزل عليه بجملته حتى إذا رويت وأخذت حاجتها
منه أفلح عنها وفارقها فهى روايا الأرض محمولة على ظهور الرياح وفى الترمذى وغيره
أن النبى صلى الله عليه وسلم لما رأى السحاب قال هذه روايا الأرض يسوقها الله إلى قوم
لا يشكرونه ولا يذكرونه فالسحاب حامل رزق العباد وغيرهم التى عليها ميرتهم . وكان
الحسن إذا رأى السحاب قال فى هذا والله رزقكم ولكم تحرمونه بخطاياكم وذنوبكم .
وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم قال بينما رجل بفلاة من الأرض إذ سمع صوتا فى
سحابة إسق حديقه فلان فر الرجل مع السحابة حتى أتت على حديقه فلما توسطتها أفرغت فيها
مائها فإذا برجل معه مسحاة يسحى الماء بها فقال ما اسمك يا عبد الله قال فلان الإسم الذى
سمعه فى السحابة (وبالجمل) فإذا تأملت السحاب الكشيف المظلم كيف تراه يجتمع فى جوصاف
لاكدورة فيه وكيف يخلقه الله متى شاء وإذا شاء وهو مع لينة ورخاوته حامل للماء الثقيل
بين السماء والأرض إلى أن يأذن له ربه وخالقه فى إرسال مامعه من الماء فيرسله وينزله منه
مقطعا بالقطرات كل قطرة بقدر مخصوص اقتضته حكمته ورحمته فيرش السحاب الماء على
الأرض رشا ويرسله قطرات مفصلة لا تختاط قطرة منها بأخرى ولا يتقدم متأخرها
ولا يتأخر متقدمها ولا تدرك القطرة صاحبها فتمزج بها بل تنزل كل واحدة فى الطريق
الذى رسم لها لا تعدل عنه حتى تصيب الأرض قطرة قطرة قد عميت كل قطرة منها لجزء من
الأرض لا تتعداه إلى غيره فلو اجتمع الخلق كلهم على أن يخلقوا منها قطرة واحدة أو يحصوا
عدد القطر فى لحظة واحدة لعجزوا عنه . فتأمل كيف يسوقه سبحانه رزقا للعباد والدواب
والطير والذر والنمل يسوقه رزقا للحيوان الفلانى فى الأرض الفلانية بجانب الجبل الفلانى
فيصل إليه على شدة من الحاجة والعطش فى وقت كذا وكذا . ثم كيف أودعه فى الأرض
ثم أخرج به أنواع الأغذية والأدوية والأقوات فهذا النبات يغذى وهذا يصلح الغذاء
وهذا ينفعه وهذا يضعف وهذا اسم قاتل وهذا شفاء من السم وهذا يمرض وهذا دواء من
المرض وهذا يبرد وهذا يستخن وهذا إذا حصل فى المعدة قبح الصفراء من أعماق العروق
وهذا إذا حصل فيها ولد الصفراء واستحال اليها وهذا يدفع البلاءم والسوداء وهذا يستحيل

إليهما وهذا يهبج الدم وهذا يسكنه وهذا ينوم وهذا يمنع النوم وهذا يفرح وهذا يجلب
الغم إلى غير ذلك من عجائب النبات التي لا تنكاد تخلو ورقة منه ولا عرق ولا ثمرة من منافع
تعجز عقول البشر عن الأحاطة بها وتفصيلها . وانظر إلى مجارى الماء فى تلك العروق
الرفيعة الضئيلة الضعيفة التي لا يكاد البصر يدركها إلا بعد تحديقه كيف يقوى قسره واجتذابه
من مقره ومركزه إلى فوق ثم ينصرف فى تلك المجارى بحسب قبولها وسعتها وضيقها ثم
تنفرق وتشعب وتدق إلى غاية لا يناها البصر . ثم انظر إلى تكون حمل الشجرة ونقلته من
حال إلى حال كتنقل أحوال الجنين المغيب عن الأبصار ترى العجب العجيب فتبارك الله رب
العالمين وأحسن الخالقين بينما تراها حطبا قائما غاريا لا كسوة عليها إذ كساها ربها وخالقها
من الزهر أحسن كسوة ثم سلبها تلك الكسوة وكساها من الورق كسوة هي أنبت من الأولى
ثم أطلع فيها حماتها ضعيفا ضئيلا بعد أن أخرج ورقها صيانة وثوبا لتلك الثمرة الضعيفة
لتستجن به من الحر والبرد والآفات ثم ساق إلى تلك الثمار رزقها وغذاها فى تلك العروق
والمجارى فتغذت به كما يتغذى الطفل بلبان أمه ثم رباها ونماها شيئا فشيئا حتى استوت
وكملت وتناهى إدراكها فأخرج ذلك الجنى اللذيذ اللين من تلك الحطبة الصماء . هذا وكم لله
من آية فى كل ما يقع الحس عليه ويبصره العباد وما لا يبصرونه تفنى الأعمار دون الأحاطة
بها وبجميع تفاصيلها .

فصل

ومن آياته سبحانه وتعالى الليل والنهار وهما من أعجب آياته وبدائع مصنوعاته ولهذا
يعيد ذكرهما فى القرآن ويبيده كقوله تعالى (ومن آياته الليل والنهار) وقوله (وهو الذى
جعل الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا) وقوله عز وجل (وهو الذى خلق الليل
والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون) وقوله عز وجل (الله الذى جعل لكم الليل
لتسكنوا فيه والنهار مبصرا) وهذا كثير فى القرآن فانظر إلى هاتين الآيتين وما تضمنتا من
العبر والدلالات على ربوبية الله وحكمته كيف جعل الليل سكنا ولباسا يغشى العالم فتسكن
فيه الحركات وتأوى الحيوانات إلى بيوتها والطيور إلى أوكارها وتستجم فيه النفوس وتستريح
من كد السعى والتعب حتى إذا أخذت منه النفوس راحتها وسباتها وتطلعت إلى معايشها وتصرفها
جاء فائق الأصباح سبحانه وتعالى بالنهار يقدم جيشه بشير الصباح فهزم تلك الظلمة ومزقها كل
مزق وكشفها عن العالم فإذا هم مبصرون فانتشر الحيوان وتصرف فى معاشه ومصالحه وخرجت
الطيور من أوكارها فياله من معاد ونشأة دال على قدرة الله سبحانه على المعاد الأكبر وتكرره .

ودوام مشاهدة النفوس له بحيث صار عادة ومألفاً منعتها من الاعتبار به والاستدلال به على النشأة الثانية وإحياء الخلق بعد موتهم ولا ضعف في قدرة القادر التام القدرة ولا قصور في حكمته ولا في علمه يوجب تخلف ذلك ولكن الله يهدى من يشاء ويضل من يشاء وهذا أيضاً من آياته الباهرة أن يعنى عن هذه الآيات الواضحة البينة من شاء من خلقه فلا يهتدى بها ولا يبصرها لمن هو واقف في الماء إلى خلقه وهو يستغيث من العطش وينسكرو وجود الماء وبهذا وأمثاله يعرف الله عز وجل ويشكر ويحمد ويتضرع إليه ويسأل .

فصل

ومن آياته وعجائب مصنوعاته البحار المكتنفة لأقطار الأرض التي هي خليجان من البحر المحيط الأعظم بجميع الأرض حتى أن المكشوف من الأرض والجبال والمدن بالنسبة إلى الماء كجزيرة صغيرة في بحر عظيم وبقية الأرض مغمورة بالماء ولولا إمساك الرب تبارك وتعالى له بقدرته ومشيبته وحبس الماء لطغى على الأرض وعلاها كلها هذا طمع الماء ولهذا حار عقلاء الطبيعيين في سبب بروز هذا الجزء من الأرض مع اقتضاء طبيعة الماء للعلو عليه وإن يغمره ولم يجدوا ما يحيلون عليه ذلك إلا الاعتراف بالعناية الأزلية والحكمة الإلهية التي اقتضت ذلك لعيش الحيوان الأرضي في الأرض وهذا حق ولكنة يوجب الاعتراف بقدرة الله وإرادته ومشيبته وعلمه وحكمته وصفات كاله ولا يحصى عنه . وفي مسند الإمام أحمد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما من يوم إلا والبحر يستأذن ربه أن يغرق بنى آدم . وهذا أحد الأقوال في قوله عز وجل (والبحر المسجور) أنه المحبوس حكاة ابن عطية وغيره . قالوا ومنه ساجور الكلب وهي القلادة من عود أو حديد التي تمسك وكذلك لولا أن الله يحبس البحر ويسمك لفاض على الأرض فالأرض في البحر كبيت في جملة الأرض وإذا تأملت عجائب البحر وما فيه من الحيوانات على اختلاف أجناسها وأشكالها ومقاديرها ومنافعها ومضارها وأوانها حتى أن فيها حيواناً أمثال الجبال لا يقوم له شيء وحتى أن فيه من الحيوانات ما يرى ظهورها فيظن أنها جزيرة فينزل الركاب عليها فتحس بالنار إذا أوقدت فتتحرك فيعلم أنه حيوان وما من صنف من أصناف حيوان البر إلا وفي البحر أمثاله حتى الإنسان والفرس والبعير وأصنافها وفيه أجناس لا يهد لها نظير في البر أصلاً هذا مع ما فيه من الجواهر واللؤلؤ والمرجان فترى اللؤلؤة كيف أودعت في كن كالبيت لها وهي الصدفة تكبها وتحفظها ومنه اللؤلؤ المكشون وهو الذي في صدفة لم تسمه الأيدي وتأمل كيف نبت المرجان في قعره في الصخرة الصماء تحت الماء على هيئة الشجر هذا مع ما فيه من العنبر وأصناف النفائس

التي يقذفها البحر وتستخرج منه ثم انظر إلى عجائب السفن وسيرها في البحر تشقه وتمخره . بلا قائد يقودها ولا سائق يسوقها وإنما قائدها وسائقها الرياح التي يسخرها الله لاجرائها فاذا حبس عنها القائد والسائق ظلت راكدة على وجه الماء قال الله تعالى (ومن آياته لجوارى في البحر كالأعلام إن يشأ يسكن الرياح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لسكل صبار شكور) وقال الله تعالى (الله الذي سخر لكم البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله واهلأكم تشكرون) فما أعظمها من آية وأبينها من دلالة ولهذا يكرر سبحانه ذكرها في كتابه كثيراً وبالجملة فعجائب البحر وآياته أعظم وأكثر من أن يحصها إلا الله سبحانه وقال الله تعالى (إننا لما طغى الماء حملناكم في الجارية لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية) .

فصل

ومن آياته سبحانه خلق الحيوان على اختلاف صفاته وأجناسه وأشكاله ومنافعه وألوانه وعجائبه المودعة فيه فمنه الماشى على بطنه ومنه الماشى على رجليه ومنه الماشى على أربع ومنه ما جعل سلاحه في رجليه وهو ذو الخالب ومنه ما جعل سلاحه المناقير كالنسر والرخم والغراب ومنه ما سلاحه الأسنان ومنه ما سلاحه الصياصي وهي القرون يدافع بها عن نفسه من يروم أخذه ومنه ما أعطى منها قوة يدفع بها عن نفسه لم يحتج إلى سلاح كالأسد فإن سلاحه قوته ومنه ما سلاحه في ذرقه وهو نوع من الطير إذا دنا منه من يريد أخذه ذرق عليه فأهلكه ونحن نذكر هنا فصولاً منشورة من هذا الباب مختصرة وإن تضمنت بعض التكرار وترك الترتيب في هذا المقام الذي هو من أهم فصول الكتاب بل هو لب هذا القسم الأول ولهذا يكرر في القرآن ذكر آياته ويعيدها ويبيدها ويأمر عباده بالنظر فيها مرة بعد أخرى فهو من أجل مقاصد القرآن قال الله تعالى (قل انظروا ماذا في السموات والأرض) وقال تعالى (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الأبالب) وقال تعالى (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت) وقال الله تعالى (أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء) وقال تعالى (إن الله فائق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ذلكم الله فأنى تؤفكون فائق الاصباح وجاعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات

كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعتاب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا الى ثمرة اذا أثمر وينعه) فأمر سبحانه بالنظر إليه وقت خروجه وإثماره ووقت نضجه وإدراكه يقال أئتمت الثمار إذا نضجت وطابت لأن في خروجه من بين الحطب والورق آية باهرة وقدرة بالغة ثم في خروجه من حد العفوصة واليبوسة والمرارة والحوضنة إلى ذلك اللون المشرق الناصع والطعم الحلو اللذيذ الشهى آيات لقوم يؤمنون وقال بعض السلف حق على الناس أن يخرجوا وقت إدراك الثمار وينهافهم فيظنوا إليها ثم تلى (انظروا الى ثمرة إذا أثمر وينعه) ولو أردنا نستوعب مافي آيات الله المشهورة من العجائب والدلالات الشاهدة لله بأن الله الذي لا اله الا هو الذي ليس كمثل شيء وانه الذي لا أعظم منه ولا أكمل منه ولا أبر ولا اللطف لعجزنا نحن والأولون والآخرون عن معرفة أدنى عشر معشار ذلك ولكن ما لا يدرك جميعه لا ينبغي ترك التنبية على بعض ما يستدل به على ذلك وهذا حين الشروع في الفصول .

فصل

تأمل العبرة في موضع هذا العالم وتأليف أجزائه ونظمها على أحسن نظام وأدله على كمال قدرة خالقه وكمال علمه وكمال حكمته وكمال لطفه فانك إذا تأملت العالم وجدته كالبيت المبني المعد فيه جميع آياته ومصالحه وكل ما يحتاج اليه فالسماء سقفه المرفوع عليه والأرض مهدا وبساط وفرش ومستقر للساكن والشمس والقمر سرجان يزهران فيه والنجوم مصابيح له وزينة وأدلة للنتقل في طرق هذه الدار والجواهر والمعادن مخزونة فيه كالذخائر والحواصل المعدة للمياه كل شيء منها لشأنه الذي يصلح له وضروب النبات مهيأ لما ربه وصنوف الحيوان مصروقة لمصالحه فمنها الركوب ومنها الحلوب ومنها الغذاء ومنها اللباس والأمتعة والآلات ومنها الحرس الذي وكل بحرس الإنسان يحرسه وهو نائم وقاعد مامو مستعد لإهلاكه وأذاه فلو لا ما سلط عليه من ضده لم يقر للإنسان قرار بينهم وجعل الانسان كالملك المخول في ذلك المحكم فيه المنتصرف بفعله وأمره ففي هذا أعظم دلالة وأوضحها على أن العالم مخلوق لخالق حكيم قدير علم قدره أحسن تقدير ونظمه أحسن نظام وإن الخالق له يستحيل أن يكون اثنين بل الاله واحد لإله إله هو تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً وإنه لو كان في السموات والأرض إله غير الله لفسد أمرهما واختل نظامهما وتعطلت مصالحهما وإذا كان البدن يستحيل أن يكون المدبر له روحان متكافئان متساويان ولو كان كذلك لفسد وهلك مع امكان أن يكون تحت قهر ثالث هذا من المحال في أوائل العقول وبداية الفطر فلو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب

كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون فهذان برهانان يعجز الأولون والآخرون أن يقدحوا فيهما بقدرح صحيح أو يأتوا بأحسن منهما ولا يعترض عليهما إلا من لم يفهم المراد منهما ولولا خشية الإطالة لذكرنا تقديرهما وبيان ما تضمنتهما من السر العجيب والبرهان الباهر وسنفرد إن شاء الله كتابا مستقلا لادلة التوحيد .

فصل

فتأمل خلق السماء وارجع البصر فيها كرة بعد كرة كيف تراها من أعظم الآيات في علوها وارتفاعها وسعتها وقرارها بحيث لا تصعد علوا كالنار ولا تهبط نازلة كالأجسام الثقيلة ولا عمد تحتها ولا علاقة فوقها بل هي مسموكة بقدره الله الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا ثم تأمل استواءها واعتدالها فلا صدع فيها ولا فطر ولا شق ولا أمت ولا عوج ثم تأمل ما وضعت عليه من هذا اللون الذي هو أحسن الألوان وأشدها موافقة للبصر وتقوية له حتى إن من أصابه شيء أضر ببصره يؤمر بادمان النظر إلى الخضرة وما قرب منها إلى السواد وقال الأطباء إن من كل بصره فإنه من دوائه أن يديم الاطلاع إلى إجابة خضراء مملوءة ماء فتأمل كيف جعل أديم السماء بهذا اللون ليمسك الأبصار المتقاربة فيه ولا يتكأ فيها بطول مباشرتها له هذا بعض فوائد هذا اللون والحكمة فيه اضعاف ذلك .

فصل

ثم تأمل حال الشمس والقمر في طلوعهما وغروبهما لإقامة دولتي الليل والنهار ولولا طلوعهما لبطل أمر العالم وكيف كان الناس يسعون في معاشهم ويتصرفون في أمورهم والدنيا مظلمة عليهم وكيف كانوا يتهنون بالعيش مع فقد النور ثم تأمل الحكمة في غروبهما فإنه لولا غروبهما لم يكن للناس هدوء ولا قرار مع فرط الحاجة إلى السبات وجموم الحواس وانبعاث القوى الباطنة وظهور سلطانها في النوم المعين على هضم الطعام وتنفيذ الغذاء إلى الأعضاء ثم لولا الغروب لكانت الأرض تحمي بدوام شروق الشمس واتصال طلوعها حتى يحترق كل ما عليها من حيوان ونبات فصارت تطلع وقتاً بمنزلة السراج يرفع لأهل البيت ليقضوا حوائجهم ثم تغيب عنهم مثل ذلك ليقروا ويهدؤا وصار ضياء النهار مع ظلام الليل وحر هذا مع برد هذا مع تضادهما متعاونين متظاهرين بهما تمام مصالح العالم وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى ونبه عباده عليه بقوله عز وجل ﴿ قل أرأيتم أن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون قل أرأيتم أن جعل الله عليكم النهار

سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتينكم ليليل تسكنون فيه أفلا تبصرون) خص سبحانه النهار بذكر البصر لأنه محله وفيه سلطان البصر وتصرفه وخص الليل بذكر السمع لأن سلطان السمع يكون بالليل وتسمع فيه الحيوانات ما لا تسمع في النهار لأنه وقت هدوء الأصوات وخبود الحركات وقوة سلطان السمع وضعف سلطان البصر والنهار بالعكس فيه قوة سلطان البصر وضعف سلطان السمع فقوله أفلا تسمعون راجع إلى قوله قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتينكم به وقوله أفلا تبصرون راجع إلى قوله قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة وقال تعالى (تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجاً وقراً منيراً وهو الذي جعل الليل والنهار خلفاً لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً) فذكر تعالى خلق الليل والنهار وإنهما خلفتا أى يخالف أحدهما الآخر لا يجتمع معه ولو اجتمع معه لفاتت المصلحة بتعاقبهما واختلافهما وهذا هو المراد باختلاف الليل والنهار كون كل واحد منهما يخلف الآخر لا يجامعه ولا يحاذيه بل يغني أحدهما صاحبه فيطلبه حيثما حتى يزيله عن سلطانه ثم يجيء الآخر عقيبته فيطلبه حيثما حتى يهزمه ويزيله عن سلطانه فهما دائماً يتطالبان ولا يدرك أحدهما صاحبه .

فصل

ثم تأمل بعد ذلك أحوال هذه الشمس في انخفاضها وارتفاعها لإقامة هذه الأزمنة والفصول وما فيها من المصالح والحكم إذ لو كان الزمان كله فصلاً واحداً لفاتت مصالح الفصول الباقية فيه فلو كان صيفاً كله لفاتت منافع مصالح الشتاء ولو كان شتاءً لفاتت مصالح الصيف وكذلك لو كان ربيعاً كله أو خريفاً كله ففي الشتاء تغور الحرارة في الأجواف وبطن الأرض والجبال فتولد مواد الثمار وغيرها وتبرد الظواهر ويستكشف فيه الهواء فيحصل السحاب والمطر والتلج والبرد الذي به حياة الأرض وأهلها واشتداد أبدان الحيوان وقوتها وتزايد القوى الطبيعية واستخلاف ما حملته حرارة الصيف من الأبدان وفي الربيع تتحرك الطبائع وتظهر المواد المتولدة في الشتاء فيظهر النبات ويتنور الشجر بالزهر ويتحرك الحيوان للتناسل وفي الصيف يمتد الهواء ويسخن جداً فتفضع الثمار وتنحل فضلات الأبدان والأخلاط التي انعمدت في الشتاء وتغور البرودة وتهرب إلى الأجواف ولهذا تبرد العيون والآبار ولا تهضم المعدة الطعام التي كانت تهضمه في الشتاء من الأطعمة الغليظة لأنها كانت تهضمها بالحرارة التي سكنت في البطون فلما جاء الصيف خرجت الحرارة إلى ظاهر الجسد وغارت البرودة فيه فاذا جاء الخريف اعتدل الزمان وصفا الهواء وبرد فانكسر ذلك السموم وجعله الله بحكمته برزخاً بين سموم الصيف وبرد الشتاء لئلا يتنقل الحيوان وهلة واحدة من

الحر الشديد إلى البرد الشديد فيجد أذاه ويعظم ضرره فإذا انتقل إليه بتدرج وترتيب لم يصعب عليه فإنه عند كل جزء يستعد لقبول ما هو أشد منه حتى تأتي جمرة البرد بعد استعداد وقبول حكمة بالغة وآية باهرة وكذلك الربيع برزخ بين الشتاء والصيف ينتقل فيه الحيوان من برد هذا إلى حر هذا بتدرج وترتيب فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين .

فصل

ثم تأمل حال الشمس والقمر وما أودعاهم من النور والإضاءة وكيف جعل لهما بروجاً ومنازل ينزلانها مرحلة بعد مرحلة لإقامة دولة السنة وتماثل مصالح حساب العالم الذي لا غناء لهم في مصالحهم عنه فبذلك يعلم حساب الأعمار والآجال المنوجلة للديون والإجارات والمعاملات والعدد وغير ذلك فلولاً لحلوك الشمس والقمر في تلك المنازل وتعلمها فيها منزلة بعد منزلة لم يعلم شيء من ذلك وقد نبه تعالى على هذا في غير موضع من كتابه كقوله (هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون) وقال تعالى (وجعلنا الليل والنهار آيتين فحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب) .

فصل

ثم تأمل الحكمة في طلوع الشمس على العالم كيف قدره العزيز العليم سبحانه فانها لو كانت تطلع في موضع من السماء فتقف فيه ولا تعود لما وصل شعاعها إلى كثير من الجهات لأن ظل أحد جوانب كرة الأرض يحجبها عن الجانب الآخر وكان يكون الليل دائماً سرمداً على من لم تطلع عليهم والنهار سرمداً على من هي طاعة عليهم فيفسد هؤلاء وهؤلاء فاقتضت الحكمة الإلهية والعناية الربانية أن قدر طلوعها من أول النهار من المشرق فتشرق على ما قبلها من الأفق الغربي ثم لا تزال تدور وتغشى جهة بعد جهة حتى تنتهي إلى المغرب فتشرق على ما استتر عنها في أول النهار فيختلف عندهم الليل والنهار فتنتظم مصالحهم .

فصل

ثم تأمل الحكمة في مقادير الليل والنهار تجدها على غاية المصلحة والحكمة وأن مقدار اليوم واللييلة لو زاد على ما قدر عليه أو نقص لفانت المصلحة واختلفت الحكمة بذلك بل جعل مكياها أربعة وعشرين ساعة وجعلها يتقارضان الزيادة والنقصان بينهما فما يزيد في أحدهما من الآخر يعود الآخر فيسترده منه . قال الله تعالى (يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل) وفيه قولان أحدهما أن المعنى يدخل ظلمة هذا في مكان ضياء ذلك وضياء هذا في مكان ظلمة الآخر فيدخل كل واحد منهما في موضع صاحبه وعلى هذا فهى عامة في كل ليل ونهار والقول الثاني

أنه يزيد في أحدهما ما ينقصه من الآخر فما ينقص منه يلج في الآخر لا يذهب جملة وعلى هذا فالآية خاصة ببعض ساعات كل من الليل والنهار في غير زمن الاعتدال فهي خاصة في الزمان وفي مقدار ما يلج في أحدهما من الآخر وهو في الأقاليم المعتدلة غاية ما تنتهي الزيادة خمس عشرة ساعة فيصير الآخر تسع ساعات فإذا زاد على ذلك انحرف ذلك الإقليم في الحرارة أو البرودة إلى أن ينتهي إلى حد لا يسكنه الإنسان ولا يتكون فيه النبات وكل موضع لا تقع عليه الشمس لا يعيش فيه حيوان ولا نبات لفرط برده ويدهسه وكل موضع لا تفارقه كذلك لفرط حره ويدهسه والمواضع التي يعيش فيها الحيوان والنبات هي التي تطلع عليها الشمس وتغيب وأعد لها المواضع التي تعاقب عليها الفصول الأربعة ويكون فيها اعتدالان خريفيين وربيعيين .

فصل

ثم تأمل إنارة القمر والكواكب في ظلمة الليل والحكمة في ذلك فإن الله تعالى اقتضت حكمته خلق الظلمة لهدو الحيوان وبرد الهواء على الأبدان والنبات فتعادل حرارة الشمس فيقوم النبات والحيوان فلما كان ذلك مقتضى حكمته شاب الليل بشيء من الأنوار ولم يجعله ظلمة داجية حندسا لاضوء فيه أصلا فكان لا يتمكن الحيوان فيه من شيء من الحركة ولا الأعمال ولما كان الحيوان قد يحتاج في الليل إلى حركة ومسير وعمل لا يتنبأ له بالنهار لضيق النهار أو أشدة الحر أو لخوفه بالنهار كحال كثير من الحيوان جعل في الليل من أضواء الكواكب وضوء القمر ما يتأتى معه أعمال كثيرة كالسفر والحراث وغير ذلك من أعمال أهل الحروث والزروع لجعل ضوء القمر بالليل معونة للحيوان على هذه الحركات وجعل طلوعه في بعض الليل دون بعض مع نقص ضوءه عن الشمس لئلا يستوى الليل والنهار فتفوت حكمة الاختلاف بينهما والتفاوت الذي قدره العزيز العليم فتأمل الحكمة البالغة والتقدير العجيب الذي اقتضى أن أعان الحيوان على دولة الظلام بجند من النور يستعين به على هذه الدولة المظلمة ولم يجعل الدولة كلها ظلمة صرفا بل ظلمة مشوبة بنور رحمة منه وإحسانا فسبحان من أنقن ماصنع وأحسن كل شيء خلقه .

فصل

ثم تأمل حكمته تبارك وتعالى في هذه النجوم وكثرتها وعجيب خلقها وأنها زينة للسماء وأدلة يهتدى بها في طرق البر والبحر وما جعل فيها من الضوء والنور بحيث

يمكننا رؤيتها مع البعد المفرط ولولا ذلك لم يحصل لنا الاهتداء والدلالة ومعرفة المواقيت ثم تأمل تسخيرها متقادة بأمر ربها تبارك وتعالى جارية على سنن واحد اقتضت حكمته وعلمه أن لا يخرج عنه فجعل منها البروج والمنازل والثواب والسيارة والكبار والصغار والمتوسط والأبيض الأزهر والأبيض الأحمر ومنها ما يخفى على الناظر فلا يدركه وجعل منطقة البروج قسمين مرتفعة ومنخفضة وقدر سيرها تقديراً واحداً ونزل الشمس والقمر والسيارات منها منازلها فمنها ما يقطعها في شهر واحد وهو القمر ومنها ما يقطعها في عام ومنها ما يقطعها في عدة أعوام كل ذلك موجب الحكمة والعناية وجعل ذلك أسباباً لما يحدثه سبحانه في هذا العالم فيستدل بها الناس على تلك الحوادث التي تقارنها كهم ففهم بما يكون مع طلوع الثريا إذا طلعت وغروبها إذا سقطت من الحوادث التي تقارنها وكذلك غيرها من المنازل والسيارات ثم تأمل جعله سبحانه بنات نعش وما قرب منها ظاهرة لا تغيب لقرنها من المركز ولما في ذلك من الحكمة الالهية وانها بمنزلة الأعلام التي يهتدى بها الناس في الطرق المجهولة في البر والبحر فهم ينظرون اليها وإلى الجدى والفرقدين كل وقت أرادوا فيهتدون بها حيث شاؤوا .

فصل

ثم تأمل اختلاف سير الكواكب وما فيه من العجائب كيف تجد بعضها لا يسير إلا مع رفقته ولا يفرد عنهم سيره أبداً بل لا يسرون إلا جميعاً وبعضها يسير سيراً مطلقاً غير مقيد برفيق ولا صاحب بل إذا انفق له مصاحبته في منزل وافقه فيه ليلة وفارقه الليلة الأخرى فبينما تراه ورفيقه وقرينه إذ رأيتهما مفترقين متباعدين كأنهما لم يتصاحبا قط وهذه السيارة لها في سيرها سيران مختلفان غاية الاختلاف سير عام يسير بها فللكها وسير خاص تسير هي في فللكها كما شبهوا ذلك بنملة تدب على رحي ذات الشمال والرحى تأخذ ذات اليمين فلانملة في ذلك حركتان مختلفتان إلى جهتين متباينتين إحداهما بنفسها والأخرى مكرهة عليها تبعاً للرحى تجذبها إلى غير جهة مقصدها وبذلك يجعل التقديم فيها كل منزلة إلى جهة الشرق ثم يسير فللكها وبمنازلها إلى جهة الغرب فسل الزنادقة والمهظة أي طبيعة اقتضت هذا وأى فلك أوجبه وهلا كانت كلها راتبه أو منتقلة أو على مقدار واحد وشكل واحد وحركة واحدة وجريان واحد وهل هذا إلا صنع من بهرت العقول حكمته وشهدت مصنوعاته ومبتدعاته بأنه الخالق البارئ المصور الذي ليس كمثل شيء أحسن كل شيء خلقه وأنقن كل ما صنعه وأنه العليم الحكيم الذي خلق فسوى وقدر فهدى وأن هذه لإحدى آياته الدالة عليه وعجائب مصنوعاته الموصلة للأفكار إذا سافرت فيها إليه وأنه خلق مسخر مر بوب مدبر (ان ربكم الله الذي خلق السموات

والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين . فان قلت فما الحكمة في كون بعض النجوم راتباً وبعضها منتقلاً . قيل إنما لو كانت كلها راتباً ابطلت الدلالة والحكم التي نشأت من تنقلها في منازلها ومسيرها في بروجها ولو كانت كلها منتقلة لم يكن لمسيرها منازل تعرف بها ولا رسم يقاس عليها لأنه إنما يقاس مسير المنتقلة منها بالراتب كما يقاس مسير السائر على الأرض بالمنازل التي يمرون عليها فلو كانت كلها بحال واحدة لاختلط نظامها ولبطلت الحكمة والفوائد والدلالات التي في اختلافها والتشبه المعطل بذلك وقال لو كان فاعلمها ومبدعها مخاراً لم تسكن على وجه واحد وأمر واحد وقدر واحد فهذا الترتيب والنظام الذي هي عليه من أدل الدلائل على وجود الخالق وقدرته وإرادته وعلمه وحكمته ووحدانيته

فصل

ثم تأمل هذا الفلك الدوار بشمس وقمر ونجومه وبروجه وكيف يدور على هذا العالم هذا الدوران الدائم إلى آخر الأجل على هذا الترتيب والنظام وما في طي ذلك من اختلاف الليل والنهار والفصول والحر والبرد وما في ضمن ذلك من مصالح ما على الأرض من أصناف الحيوان والنبات وهل يخفى على ذى بصيرة ان هذا ابداع المبدع الحكيم وتقدير العزيز العليم ولهذا خاطب الرسل أمتهم مخاطبة من لا شك عنده في الله وإنما دعوه إلى عبادته وحده لا إلى الاقرار به فقالت لهم (أفي الله شك فاطر السموات والأرض) فوجوده سبحانه وربوبيته وقدرته أظهر من كل شيء على الاطلاق فهو أظهر للبصائر من الشمس للأبصار وأبين للعقول من كل ما تعقله وتقر بوجوده فما ينكره إلا مكابر بلسانه وقلبه وعقله وفطرته وكلها تكذبه قال تعالى (الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم تلتقون وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار ان في ذلك آيات لقوم يتفكرون وفي الأرض قطع متجاورات) الآية . وقال تعالى (ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات للذين آمنوا وفي خلقكم وما يبث من دابة) إلى قوله (وآياته يؤمنون) وقال تعالى (خلق السموات بغير عمد ترونها وأتى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة إلى قوله في ضلال مبين) . وقال تعالى (خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون) إلى قوله (أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون) وتأمل كيف وخذ سبحانه الآية من قوله (هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب إلى آخرها) وختمها بأصحاب الفكرة فأما

توحيد الآية فلأن موضع الدلالة واحد وهو الماء الذي أنزله من السماء فاخرج به كلما ذكره من الأرض وهو على اختلاف أنواعه لقاحه واحد وأمه واحدة فهذا نوع واحد من آياته .
 وأما تخصيصه ذلك بأهل الفكر فلأن هذه المخلوقات التي ذكرها من الماء موضع فكر وهو نظر القلب وتأمله لا موضع نظر مجرد بالعين فلا ينتفع الناظر بمجرد رؤية العين حتى ينتقل منه إلى نظر القلب في حكمه ذلك وبديع صنعه والاستدلال به على مخالفه وباريه وذلك هو الفكر بعينه . وأما قوله تعالى في الآية التي بعدها (ان في ذلك آيات لقوم يعقلون) فجمع الآيات لأنها تضمنت الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم وهي آيات متعددة مختلفة في أنفسها وخلقتها وكيفياتها فان إظلام الجو وغروب الشمس والليل الذي يلبس العالم كالثوب ويسكنون تحته آية باهرة ثم ورد جيش الضياء يقدمه بشير الصباح فينهزم عنسكر الظلام وينتشر الحيوان وينكشط ذلك اللباس بجملة آية أخرى ثم في الشمس التي هي آية النهار آية أخرى وفي القمر الذي هو آية الليل آية أخرى وفي النجوم آيات أخرى كما قدمناه هذا مع ما يتبعها من الآيات المقارنة لها من الرياح واختلافها وسائر ما يحدثه الله بسببها آيات أخر فالموضع موضع جمع وخص هذه الآيات بأهل العقل لأنها أعظم بما قبلها وأدلى وأكبر والأولى كالباب لهذه فمن استدل بهذه الآيات وأعطاها حقها من الدلالة استحق من الوصف ما يستحقه صاحب الفكر وهو العقل ولأن منزلة العقل بعد منزلة الفكر فلما دلهم بالآية الأولى على الفكر نقلهم بالآية الثانية التي هي أعظم منها إلى العقل الذي هو فوق الفكر فتأمل . فأما قوله في الآية الثالثة (ان في ذلك آية لقوم يذكرون) فوحد الآية وخصها بأهل التذكر . فأما توحيد الأولى فكأنما هو في محل واحد فهو نوع من أنواع آياته وإن تعددت أصنافه وأنواعه . وأما تخصيصه إياها بأهل التذكر فطريقة القرآن في ذلك أن يجعل آياته للتبصر والتذكر كما قال تعالى في سورة ق (والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي أنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) فالتبصرة التعقل والتذكر والتفكير باب ذلك ومدخله فإذا فكر تبصر وإذا تبصر تذكر فجاء التذكير في الآية لترتيبه على العقل المرتب على الفكر فقدم الفكر إذ هو الباب والمدخل ووسط العقل إذ هو ثمرة الفكر ونتيجته وأخر التذكر إذ هو المطلوب من الفكر والعقل فتأمل ذلك حق التأمل . فان قلت فما الفرق بين التذكر والتفكير فإذا تبين الفرق ظهرت الفائدة . قلت التفكير والتذكر أصل الهدى والفلاح وهما قطبا السعادة ولهذا وسعنا السلام في التفكير في هذا الوجه لعظم المنفعة وشدة الحاجة إليه قال الحسن ما زال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكير وبالتفكير على التذكر ويناطقون القلوب حتى نطقت فإذا لها أسماع وأبصار . فاعلم أن التفكير طاب القلب ما ليس بمحاصل من العلوم من أمر هو حاصل

منها هذا حقيقته فإنه لو لم يكن ثم مراد يكون مورداً للفكر استحالة الفكر لأن الفكر بغير متعلق متفكر فيه محال وتلك المواد هي الأمور الحاصلة ولو كان المطلوب بها حاصلًا عنده لم يتفكر فيه فإذا عرف هذا فالتفكير ينقل من المقدمات والمبادئ التي عنده إلى المطلوب الذي يريد فاذا ظفر به وتحصل له تذكر به وأبصر مواقع الفعل والترك وما ينبغي إشارته وما ينبغي اجتنابه فالتذكر هو مقصود التفكير وثمرته فاذا تذكر عاد بتذكره على تفكره فاستخرج ما لم يكن حاصلًا عنده فهو لا يزال يكرر بتفكره على تذكره وبتذكره على تفكره مادام عاقلاً لأن العلم والإرادة لا يقفان على حد بل هو دائماً سائر بين العلم والإرادة (وإذا عرفت) معنى كون آيات الرب تبارك وتعالى تبصرة وذكرى يتبصر بها من عمى القلب ويتذكر بها من غفلته فان المضاد للعلم إما عمى القلب وزواله بالتبصر وإما غفلته وزواله بالتذكر . والمقصود تنبيه القلب من رقدته بالإشارة إلى شيء من بعض آيات الله ولو ذهبنا لتتبع ذلك لنفذ الزمان ولم نخط بتفصيل واحدة من آياته على التمام ولكن ما لا يدرك جملة لا يترك جملة وأحسن ما أنفقت فيه الأنفاس التفكير في آيات الله ومعائب صنعه والانتقال منها إلى تعلق القلب واهمة به دون شيء من مخلوقاته فلذلك عقدنا هذه الكتاب على هذين الأصلين إذ هما أفضل ما يكتسبه العبد في هذه الدار

فصل

فصل المعطل الجاحد ما نقول في دولا ب دائر على نهر قد أحكمت آلاله وأحكمت تركيبه وقدرت أدواته أحسن تقدير وأبلغه بحيث لا يرى الناظر فيه خلا في مادته ولا في صورته وقد جعل على حديقه عظيمه فيها من كل أنواع الثمار والزروع يسقيها حاجتها وفي تلك الحديقه من يلم شعثها ويحسن مرعاتها وتعهدا والقيام بجميع مصالحها فلا يختل منها شيء ولا يتلف ثمارها ثم يقسم قيمتها عند الجذاذ على سائر الخراج بحسب حاجاتهم وضروراتهم فيقسم لكل صنف منهم ما يليق به ويقسمه هكذا على الدوام ترى هذا اتفاقاً بلا صانع ولا مختار ولا مدبر بل انفق وجود ذلك الدولا ب والحديقه وكل ذلك اتفاقاً من غير فاعل ولا قيم ولا مدبر أفترى ما يقول لك عقلك في ذلك لو كان وما الذي يفتيك به وما الذي يرشدك إليه ولكن من حكمة العزيز الحكيم أن خلق قلوباً عمياً لا بصائر لها فلا ترى هذه الآيات الباهرة لإلا رؤية الحيوانات البهيمية كما خلق أعيناً لا أبصار لها والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره وهي لا تراها فما ذنبها أن أنكرتها وجحدتها فهي تقول في ضوء النهار هذا ليل ولكن أصحاب الأعين لا يعرفون شيئاً ولقد أحسن القائل وهبى قلت هذا الصبح ليل أيعمى العالمون عن الضياء

فصل

ثم تأمل المسك للسموات والأرض الحافظ لهما أن تزولا أو تقعا أو يتعطل بعض ما فيهما أفترى من المسك لذلك ومن القيم بأمره ومن المقيم له فلو تعطل بعض آلات هذا الدولاب العظيم والحديقة العظيمة من كان يصلحه وماذا كان عند الخلق كلهم من الحيلة في رده كما كان فلو أمسك عنهم قيم السموات والأرض الشمس لجعل عليهم الليل سرمدا من الذي كان يطلعها عليهم ويأتيهم بالنهار ولو حبسها في الأفق ولم يسيرها فن ذا الذي كان يسيرها ويأتيهم بالليل ولو أن السماء والأرض زالتا فن ذا الذي كان يمسكها من بعده .

فصل

ثم تأمل هذه الحكمة البالغة في الحر والبرد وقيام الحيوان والنبات عليهما وفكر في دخول أحدهما على الآخر بالتدريج والمهلة حتى يبلغ نهايته ولو دخل عليه مفاجأة لأضر ذلك بالأبدان وأهلكها وبالنبات كما لو خرج الرجل من حمام مفرط الحرارة إلى مكان مفرط في البرودة ولولا العناية والحكمة والرحمة والإحسان لما كان ذلك . فان قات هذا التدريج والمهلة إنما كان لإبطاء سير الشمس في ارتفاعها وانخفاضها . قيل لك فما السبب في ذلك الانخفاض والارتفاع فان قلت السبب في ذلك بعد المسافة من مشارقها ومغاربها قيل لك فما السبب في بعد المسافة ولا تزال المسألة متوجّهة عليك كما عينت سببا حتى تفضى بك إلى أحد أمرين إما مكابرة ظاهرة ودعوى أن ذلك اتفاق من غير مدبر ولا صانع وإما الاعتراف برب العالمين والإقرار بقيوم السموات والأرضين والدخول في زمرة أولى العقل من العالمين وإن تجدد بين القسمين واسطة أبدأ فلا تتعب ذهنك بهذيانات الملحدين فانها عند من عرفها من هوس الشياطين وخيالات المبطلين وإذا طلع فجر الهدى وأشرقت النبوة فعساكر تلك الخيالات والوساوس في أول المنهزمين والله هم نوره ولو كره الكافرون .

فصل

ثم تأمل الحكمة في خلق النار على ما هي عليه من السكون والظهور فانها لو كانت ظاهرة أبدأ كالماء والهواء كانت تحرق العالم وتنتشر ويعظم الضرر بها والمفسدة ولو كانت كأمثة لا تظهر أبدأ لغات المصالح المترتبة على وجودها فاقتضت حكمة العزيز العليم أن يجعلها مخزونة في الأجسام يخرجها ويقيها الرجل عند حاجته إليها فيمسكها ويحبسها بمادة يجعلها فيها من الحطب ونحوه فلا يزال حابسها ما احتاج إلى بقائها فاذا استغنى عنها وترك حبسها بالمادة خبت بإذنها واطرها فاسقطت المؤنة والمضرة ببقائها فسبحان من سخرها وأنشأها على تقدير محكم عجيب اجتمع فيه الاستمتاع والانتفاع

والسلامة من الضرر قال تعالى (أفرأيتم النار التي تورون) إلى قوله (فسبح باسم ربك العظيم) فسبحان ربنا العظيم لقد تعرف إلينا بأياته وشفافنا بيناته وأغنانا بها عن دلالات العالمين فأخبر سبحانه أنه جعلها تذكرة بنار الآخرة فاستجبر منها ونهرب إليه منها ومتاعاً للقيوم وهم المسافرون النازلون بالقواء والقواء هي الأرض الخالية وهم أحوج إلى الانتفاع بالنار للإضاءة والطبخ والخبز والتدفى والإنس وغير ذلك .

فصل

ثم تأمل حكمته تعالى في كونه خص بها الإنسان دون غيره من الحيوانات فلاحاجة بالحيوان إليها بخلاف الإنسان فإنه لو فقد لها لعظم الداخل عليه في معاشه ومصالحه وغيره من الحيوانات لا يستعملها ولا يتمتع بها ونزبه من مصالح النار على خلة صغيرة القدر عظيمة النفع وهي هذا المصباح الذي يتخذة الناس فيقتضون به من حوائجهم ماشاؤا من ليهم ولو هذه الخلة لكان الناس نصف أعمارهم بمنزلة أصحاب القبور فمن كان يستطيع كتابة أو خياطة أو صناعة أو تصرفاً في ظلمة الليل الداجي وكيف كانت تكون حال من عرض له وجع في وقت من الليل فاحتاج إلى ضياء أو دواء أو استخراج دم أو غير ذلك ثم انظر إلى ذلك النور المحمول في ذبالة المصباح على صغر جوهره كيف يضئ ما حوله كله فترى به القريب والبعيد ثم انظر إلى أنه لو اقتبس منه كل من يفرض أو يقدر من خلق الله كيف لا يفنى ولا ينفذ ولا يضعف وأما منافع النار في انضاج الأطعمة والأدوية وتجفيف ما لا ينفذ إلا بجفافه وتحليل ما لا ينفذ إلا بتحليله وعقد ما لا ينفذ إلا بعقده وتركيبه فأكثر من أن يحصى ثم تأمل ما أعطيته النار من الحركة الصاعدة بطبعها إلى العلو فلولا المادة تمسكها لذهبت صاعدة كما أن الجسم الثقيل لولا الممسك يمسكه لذهب نازلاً فمن أعطى هذا القوة التي يطلب بها الهبوط إلى مستقره وأعطى هذه القوة التي تطلب بها الصعود إلى مستقرها وهل ذلك إلا بتقدير العزيز العليم .

فصل

ثم تأمل هذا الهواء وما فيه من المصالح فإنه حياة هذه الأبدان والممسك لها من داخل بما تستنشق منه ومن خارج بما تباشر به من روحه فتغذى به ظاهراً وباطناً وفيه تطرد هذه الأصوات فتحملها وتؤديها للتقريب والبعيد كالبريد والرسول الذي شأنه حمل الأخبار والرسائل وهو الحامل لهذه الروائح على اختلافها ينقلها من موضع إلى موضع فتأق العبد الرائحة من حيث تهب الريح وكذلك تأتيه الأصوات وهو أيضاً الحامل للحر والبرد اللذين بهما صلاح الحيوان والنبات وتأمل منفعة الريح وما يجرى له في البر والبحر وما هيئت له من الرحمة

والعذاب وتأمل كم سخر للسحاب من ريح حتى أمطر فسخرت له الميثرة أو لا فتشيره بين السماء والأرض ثم سخرت له الحاملة التي تحملها على منها كالجل الذي يحمل الراوية ثم سخرت له المؤلفة فتولف بين كسفه وقطعه ثم يجتمع بعضها إلى بعض فيصير طبقة واحدا ثم سخرت له اللاقحة بمنزلة الذكر الذي يلقح الأنثى فتلقحه بالماء ولولاها لكان جهاماً لاماء فيه ثم سخرت له المزجية التي تزجيه وتسوقه إلى حيث أمر فيفرغ مائه هنالك ثم سخرت له بعد اعصاره المفرقة التي تبشه وتفركه في الجو فلا ينزل مجتمعاً ولو نزل جملة لأهلك المساكن والحيوان والنبات بل تفرقه فيجعله قطرا وكذلك الرياح التي تلقح الشجر والنبات ولولاها لكانت عقبا وكذلك الرياح التي تسير السفن ولولاها لوقفت على ظهر البحر ومن منافعها أنها تبرد الماء وتضرم النار التي يراد اضرارها وتجفف الأشياء التي يحتاج إلى جفافها . وبالجملة فحياة ما على الأرض من نبات وحيوان بالرياح فانه لولا تسخير الله لها لعباده لذوى النبات ومات الحيوان وفسدت المطاعم وأنقن العالم وفسد ألا ترى إذا ركبت الرياح كيف يحدث الكرب والغم الذي لو دام لأنف النفوس وأسقم الحيوان وأمراض الأصحاء وأنهك المرضى وأفسد الثمار وعفن الزرع وأحدث الوباء في الجو فسبحان من جعل هبوب الرياح تأتي بروحه ورحمته ولطفه ونعمته كما قال النبي ﷺ في الرياح إنها من روح الله تأتي بالرحمة . وتنبه للطيفة في هذا الهواء وهي إن الصوت أثر يحدث عند اصطكاك الأجرام وليس نفس الاضطكاك كما قال ذلك من قاله ولكنه موجب الاضطكاك وقرع الجسم للجسم أو قلعه عنه فسببه قرع أو قلعه فيحدث الصوت فيحمله الهواء ويؤديه إلى مسامع الناس فينتفعون به في حوائجهم ومعاملاتهم بالليل والنهار وتحدث الأصوات العظيمة من حركاتهم فلو كان أثر هذه الحركات والأصوات يبقى في الهواء كما يبقى الكتاب في القرطاس لامتأ العالم منه وأعظم الضرر به واشتدت مؤنته واحتاج الناس إلى محوه من الهواء والاستبدال به أعظم من حاجتهم إلى استبدال الكتاب المعلوم كتابة فان ما يلقى من الكلام في الهواء اضعاف ما يودع في القرطاس فاقضت حكمة العزيز الحكيم أن جعل هذا الهواء قرطاساً خفياً يحمل الكلام بقدر ما يبلغ الحاجة ثم يمحي بإذن ربه فيعود جديداً نقياً لا شيء فيه فيحمل ما حمل كل وقت .

فصل

ثم تأمل خلق الأرض على ما هي عليه حين خلقها واقفة ساكنة لتسكون مهادا ومستقرا للحيوان والنبات والامتعة ويتمكن الحيوان والناس من السعي عليها في مآربهم والجلوس لراحاتهم والنوم لهدوهم والتمسك من أعمالهم ولو كانت رجراجة متكيفة لم يستطيعوا على ظهرها قرارا ولا هدوا ولا ثبت لهم عليها بناء ولا أمكنهم عليها صناعة

ولا تجارة ولا حراثة ولا مصنحة وكيف كانوا يتهنون بالعيش والارض ترج من
تحتهم واعتبر ذلك بما يصيبهم من الزلازل على قلة مكثها كيف يصيرهم إلى ترك منازلهم
والهرب عنها وقد نبه الله تعالى على ذلك بقوله (وأتق في الأرض رواسي أن تُميد بكم)
وقوله تعالى (الله الذي جعل لكم الأرض قراراً) وقوله (الله الذي جعل لكم الأرض
مهدياً) وفي القراءة الأخرى مهادا . وفي جامع الترمذي وغيره من حديث أنس بن مالك
عن النبي ﷺ قال لما خلق الله الأرض جعلت تميد تخلق الجبال عليها فاستقرت فوجدت
الملائكة من شدة الجبال فقالوا يارب هل من خلقك شيء أشد من الجبال قال نعم الحديد
قالوا يارب هل من خلقك شيء أشد من الحديد قال نعم النار قالوا يارب فهل من خلقك
شيء أشد من النار قال نعم الريح قالوا يارب فهل من خلقك شيء أشد من الريح قال نعم ابن
آدم يتصدق صدقة بيمينه يخفيها عن شماله ثم تأمل الحكمة البالغة في ليونة الأرض مع يبسها
فإنها لو أفرطت في اللين كالتين لم يستقر عليها بناء ولا حيوان ولا تمكنا من الارتفاع بها
ولو أفرطت في اليبس كالحجر لم يمكن حرثها ولا زرعها ولا شقتها وفتحها ولا حفر عيونها
ولا البناء عليها فنقصت عن يبس الحجارة وزادت على ليونة التين فجاءت بتقدير فاطرها
على أحسن ما جاء عليه مهاد للحيوان من الاعتدال بين اللين واليبوسة فتهيأ عليها جميع المصالح .

فصل

ثم تأمل تأمل الحكمة البالغة في أن جعل مهب الشمال عليها أرفع من مهب الجنوب
وحكمة ذلك أن تتحد المياه على وجه الأرض فتسقيها وترويه ثم تفيض فتصب في البحر
فكما أن الباني إذا رفع سطحاً رفع أحد جانبيه وخفض الآخر ليكون مصبا للماء ولو جعله
مستويا لقيام عليه الماء فافسده كذلك جعل مهب الشمال في كل بلد أرفع من مهب الجنوب
ولولا ذلك لبق الماء واقفا على وجه الأرض فنزع الناس من العمل والارتفاع وقطع الطرق
والمسالك وأضر بالخلق أفيحسن عند من له مسكة من عقل أن يقول هذا كله اتفاق من غير
تدبير العزيز الحكيم الذي أنقن كل شيء .

فصل

ثم تأمل الحكمة العجيبة في الجبال الذي يحسبها الجاهل الغافل فضلة في الأرض لاحاجة
إليها وفيها من المنافع ما لا يحصيه إلا خالقها وناصبها وفي حديث إسلام ضمام بن ثعلبة قوله
لنبي ﷺ بالذي نصب الجبال وأودع فيها المنافع آله أمرك بكذا وكذا قال اللهم نعم ،
فن منافعها أن الثلج يستقط عليها فيبقى في قلوبها حاصل اشراب الناس إلى حين نفاذه وجعل

فيها ليزوب أولاً فأولاً فتجىء منه السيول الغزيرة وتسيل منه الأنهار والأودية فينبت في المروج والوهاد والربا ضروب النبات والفواكه والأودية التي لا يكون مثلها في السهل والرمل فلولاً الجبال لسقط الثلج على وجه الأرض فأنحل جملة وساح دفعة فعدم وقت الحاجة إليه وكان في انخلاله جملة السيول التي تهلك مامرت عليه فيضر بالناس ضرراً لا يمكن تلافيه ولادفعه لاذيته (ومن منافعها) ما يكون في حصونها وقللها من المغارات والكهوف والمعاقل التي بمنزلة الحصون والقلاع وهي أيضاً أكنان للناس والحيوان . ومن منافعها ما ينحت من أحجارها للأبنية على اختلاف أصنافها والأرحية وغيرها . ومن منافعها ما يوجد فيها من المعادن على اختلاف أصنافها من الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والزربرد والزمرد وأصناف ذلك من أنواع المعادن الذي يعجز البشر عن معرفتها على التفصيل حتى أن فيها ما يكون الشيء اليسير منه تزيد قيمته ومنفعته على قيمة الذهب بأضعاف مضاعفة وفيها من المنافع ما لا يعلمه إلا فاطرها ومبدعها سبحانه . ومن منافعها أيضاً أنها ترد الرياح العاصفة وتكسر حبتها فلا تدعها تصدم ماتحتها ولهذا فالساكنون تحتها في أمان من الرياح العظام المؤذية . ومن منافعها أيضاً أنها ترد عنهم السيول إذا كانت في مجاريها فتصرفها عنهم ذات اليمن وذات الشمال ولولاها خربت السيول في مجاريها مامرت به فتكون لهم بمنزلة السد والسكن . ومن منافعها أنها أعلام يستدل بها في الطرقات فهي بمنزلة الأدلة المنصوبة المرشدة إلى الطرق ولهذا سماها الله أعلاماً فقال (ومن آياته الجوارى في البحر كالأعلام) فالجوارى هي السفن والأعلام الجبال واحدها علم قالت الخنساء .

وأن صخرأ لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار
فسمى الجبل علماً من العلامة والظهور . ومن منافعها أيضاً ما ينبت فيها من العقاقير والأودية التي لا تكون في السهول والرمال كما أن ما ينبت في السهول والرمال لا ينبت مثله في الجبال وفي كل من هذا وهذا منافع وحكم لا يحيط به إلا الخلاق العليم . ومن منافعها أنها تكون حصونا من الأعداء يتحرز فيها عباد الله من أعدائهم كما يتحصنون بالقلاع بل تكون أبلغ وأحصن من كثير من القلاع والمدن . ومن منافعها ما ذكره الله تعالى في كتابه أن جعلها الأرض أوتادا تثبتها ورواسي بمنزلة مراسي السفن وأعظم بها من منفعة وحكمة هذا وإذا تأملت خلقتها العجيبة البديعة على هذا الوضع وجدتها في غاية المطابقة للحكمة فانها لو طالت واستدقت كالحائط لتعذر الصعود عليها والانتفاع بها وسترت عن الناس الشمس والهواء فلم يتمكنوا من الانتفاع بها ولو بسطت على وجه الأرض لضيق عليهم المزارع والمسكن ولملأت السهل ولما حصل لهم بها الانتفاع من التحصن والمغارات والاكنان ولما سترت عنهم الرياح ولما حجبت السيول

ولو جعلت مستديرة شكل السكره لم يتمكنوا من صعودها ولما حصل لهم بها الارتفاع التام فكان أولى الأشكال والأوضاع بها واليقها وأوقعها على وفق المصلحة هذا الشكل الذي نصب عليه ولقد دعانا الله سبحانه في كتابه إلى النظر فيها وفي كيفية خلقها فقال (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت) تخلقها ومنافعها من أكبر الشواهد على قدره باريها وفاطرها وعلوه وحكمته ووجدانيته هذا مع أنها تسيح بحمده وتخشع له وتسجد وتشقق وتهبط من خشيته وهي التي خافت من ربها وفاطرها وخالقها على شدتها وعظم خلقها من الأمانة إذ عرضها عليها وأشفقت من حملها ومنها الجبل الذي كلم الله عليه موسى كلمته ونجيه : ومنها الجبل الذي تجلى له ربه فساخ وتكدك . ومنها الجبل الذي حبب الله رسوله وأصحابه اليه وأحبه رسول الله ﷺ وأصحابه . ومنها الجبلان اللذان جعلهما الله سوراً على نبيه وجعل الصفا في ذيل أحدهما والمروة في ذيل الآخر وشرع لعباده السعي بينهما وجعله من مناسكهم وتعبداتهم . ومنها جبل الرحمة المنصوب عليه ميدان عرفات فله كم به من ذنب مغفور وعثرة مقالة وزلة مفعومها وحاجة مقضية وكرمة مفروجة وبلية مرفوعة ونعمة متجددة وسعادة مكتسبة وشقاوة مبحوة كيف وهو الجبل المخصوص بذلك الجمع الأعظم والوفد الأكرم الذين جاؤا من كل فج عميق وقوفالربهم مستكئين لعظمته خاشعين لعزته شعثاً غبراً حاسرين عن رؤسهم يستقبلونه عثراتهم ويسألونه حاجاتهم فيدون منهم ثم يباهى بهم الملائكة فله ذاك الجبل وما ينزل عليه من الرحمة والتجاوز عن الذنوب العظام . ومنها جبل حراء الذي كان رسول الله ﷺ يخلو فيه بربه حتى أكرمه الله برسالاته وهو في غاره فهو الجبل الذي فاض منه النور على أقطار العالم فانه ليفخر على الجبال وحق له ذلك فسبحان من اختص برحمته وتكريمه من شاء من الجبال والرجال فجعل منها جبالاتها مغناطيس القلوب كأنها مركبة منه فهي تهوى إليها كلما ذكرتها وتهفو نحوها كما اختص من الرجال من خصه بكرامته وأتم عليه نعمته ووضع عليه محبته منه فأحبهه وحبيه إلى ملائكته وعباده المؤمنين ووضع له القبول في الأرض بينهم .

وإذا تأملت البقاع وجدتها تشقى كما تشقى الرجال وتسعد

فدع عنك الجبل الفلاني وجبل بني فلان وجبل كذا

خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

هذا وانما لتعلم أن لها موعداً ويوماً تنسف فيها نسفاً وتصير كالعين من هولها وعظمه فهي مشفقة من هول ذلك الموعد منتظرة له وكانت أم الدرداء رضى الله عنها إذا سافرت فصعدت على جبل تقول لمن معها أسمعت الجبال ما وعدتها ربهما فيقال ما أسمعتها فنقول (ويسألونك

عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا) فهذا حال الجبال وهى الحجارة الصلبة وهذه رقتها وخشيتها وتدككها من جلال ربها وعظمتها وقد أخبر عنها فاطرها وباريها إنه لو أنزل عليها كلامه لحشعت ولتصدعت من خشية الله فيا عجباً من مضغة لحم أقسى من هذه الجبال تسمع آيات الله تتلى عليها ويذكر الرب تبارك وتعالى فلا تلتين ولا تخشع ولا تذيب فليس بمستنكر على الله عز وجل ولا يخالف حكمته أن يخلق لها ناراً تذيبها إذ لم تلن بكلامه وذكره وزواجره ومواعظه فمن لم يلن لله فى هذه الدار قلبه ولم ينب إليه ولم يذره بحبه والبكاء من خشيته فليستمتع قليلا فان أمامه المئين الأعظم وسيرد إلى عالم الغيب والشهادة فيرى ويعلم

فصل

ولما اقتضت حكمته تبارك وتعالى أن جعل من الأرض السهل والوعر والجبال والرمل لينفع بكل ذلك فى وجهه ويحصل منه ما خلق له وكانت الأرض بهذه المثابة لزم من ذلك أن صارت كالأمان التى تحمل فى بطنها أنواع الأولاد من كل صنف ثم تخرج إلى الناس والحيوان من ذلك ما أذن لها فيه ربها أن تخرجه إما بعلمهم وإما بدونه ثم يرد إليها ما خرج منها وجعلها سبحانه على كفانا فلاحياء ماداموا على ظهرها فإذا ماتوا استودعتهم فى بطنها فكانت كفانا لهم تضمهم على ظهرها أحياء وفى بطنها أمواتا فإذا كان يوم الوقت المعلوم وقد أنقأها الحمل وحان وقت الولادة ودنو الخاض أوحى إليها ربها وفاطرها أن تضع حملها وتخرج أنقأها فتخرج الناس من بطنها إلى ظهرها وتقول رب هذا ما استودعتنى وتخرج كمنوزها باذنه تعالى ثم تحدث أخبارها وتشهد على بنيتها بما عملوا على ظهرها من خير وشر .

فصل

ولما كانت الرياح تجول فيها وتدخل فى تجاويفها وتحدث فيها الأبخرة وتحقق الرياح ويتعذر عليها المنفذ أذن الله سبحانه لها فى الأحيان بالتنفس فتحدث فيها الزلازال العظام فيحدث من ذلك لعباده الخوف والخشية والإنابة والإقلاع عن معاصيه والتضرع إليه والندم كما قال بعض السلف وقد زلزلت الأرض أن ربكم يستعجبكم وقال عمر بن الخطاب وقد زلزلت المدينة فخطبهم ووعظهم وقال لئن عادت لا أسأكنكم فيها .

فصل

(ثم تأمل حكمة الله عز وجل) فى عزة هذين التقدين الذهب والفضة وقصور خيرة العالم عما حاولوا من صنعتهما والتشبه بخلق الله اياهما مع شدة حرصهم وبلوغ أقصى جهدهم واجتهادهم فى ذلك فلم يظفروا بسوى الصنعة ولو مكثوا أن يصنعوا مثل ما خلق الله من ذلك لفسد أمر العالم وأستفاض الذهب والفضة فى الناس حتى صاروا

كاسعف والفخار وكانت تعطل المصلحة التي وضعا لاجلها وكانت كثرتهما جداً سبب تعطل الانتفاع بهما فإنه لا يبقى لها قيمة ويبطل كونهما قيمياً لفنائس الأموال والمعاملات وأرزاق المقاتلة ولم يتسخر بعض الناس لبعض إذ يصير الكل أرباب ذهب وفضة فلو أغنى خلقه كلهم لأفقرهم كلهم فمن يرضى لنفسه بامتئانها في الصنائع التي لا قوام للعالم إلا بها فسبحان من جعل عزتهما سبب نظام العالم ولم يجعلهما في العزة كالكبريت الأحمر الذي لا يوصل إليه فتفوت المصلحة بالكلية بل وضعهما وأنبتهما في العالم بقدر اقتضته حكمته ورحمته ومصالح عبادته . وقرأت بخط الفاضل جبريل بن روح الأنباري قال أخبرني بعض من تداول المعادن أنهم أوغلوا في طلبها إلى بعض نواحي الجبل فأتوها إلى موضع وإذا فيه أمثال الجبال من الفضة ومن دون ذلك واد يجرى متصلياً بماء غزير لا يدرك ولا حيلة في عبوره فانصرفوا إلى حيث يعملون ما يعبرون به فلما هم مشوه وعادوا راموا طريق النهر فما وقفوا له على أثر ولا عرفوا إلى أين يتوجهون فانصرفوا آيسين وهذا أحد ما يدل على بطلان صناعة الكيمياء وانها عند التحقيق زغل وصبغة لا غير وقد ذكرنا بطلانها وبيننا فسادها من أربعين جهات في رسالة مفردة والمقصود أن حكمة الله تعالى اقتضت عزة هذين الجوهرين وقلتهما بالنسبة إلى الحديد والنحاس والرصاص لصلاح أمر الناس واعتبر ذلك بأنه إذا ظهر الشيء الظريف المستحسن مما يحدهه الناس من الامتعة كان نفيساً عزيزاً مادام فيه قلة وهو مرغوب فيه فاذا فشى وكثر في أيدي الناس وقدر عليه الخاص والعام سقط عندهم وقلت رغباتهم فيه ومن هذا قول القائل نفاسة الشيء من عزته ولهذا كان أزهد الناس في العالم أهله وجيرانه وأرغبهم فيه البعداء عنه .

فصل

وتأمل الحكمة البديعة في تيسيره سبحانه على عباده ما هم أحوج إليه وتوسيعه وبذله فكلما كانوا أحوج إليه كان أكثر وأوسع وكلما استغنوا عنه كان أقل وإذا توسطت الحاجة توسط وجوده فلم يكن بالعام ولا بالنادر على مراتب الحاجات وتفاوتها فاعتبر هذا بالأصول الأربعة التراب والماء والهواء والنار وتأمل سعة ما خلق الله منها وكثرته فتأمل سعة الهواء وعمومه ووجوده بكل مكان لأن الحيوان مخلوق في البر لا يمكنه الحياة إلا به فهو معه أينما كان وحيث كان لأنه لا يستغنى عنه لحظة واحدة ولولا كثرته وسعته وامتداده في أقطار العالم لاختنق العالم من الدخان والبخار المتصاعد المنعقد فتأمل حكمة ربك في أن سخره الرياح فاذا تصاعد إلى الجو حالته سبحانه أو ضباباً فأذهبت عن العالم شره وأذاه فسل الجاحد من الذي دبر هذا التدبير وقدر هذا التقدير وهل يقدر العالم كلهم لو اجتمعوا أن يحيلوا ذلك

ويقبلوه سبحانه أو ضباباً أو يذهبوه عن الناس ويكشفوه عنهم ولو شاء ربه تعالى لحبس عنه الرياح فاختبى على وجه الأرض فأهلك ما عليها من الحيوان والناس .

فصل

ومن ذلك سعة الأرض وامتدادها ولولا ذلك لضاقت عن مساكن الانس والحيوان وعن مزارعهم ومراعيهم ومنابت ثمارهم وأعشابهم . فان قلت فما حكمة هذه القفار الخالية والقلوات الفارغة الموحشة . فاعلم أن فيها معاش مالا يحصيه إلا الله من الوحوش والدواب وعليها أرزاقهم وفيها مطردهم ومنزلهم كالمدن والمساكن للانس وفيها مجالهم ومرعاهم ومصيفهم ومشتاهم ثم فيها بعد متسع ومتنفس للناس ومضطرب إذا احتاجوا إلى الانتقال والبدو والاستبدال بالأوطان فكم من بئساء سملق صارت قصوراً وجنانا ومساكن ولولا سعة الأرض وفسحها لسكان أهلها كالمحصورين والمحبوسين في أماكنهم لا يجدون عنها انتقالا إذا فدحهم ما يزعجهم عنها ويضطرمهم إلى النقلة منها وكذلك الماء لولا كثرته وتدفقه في الأودية والانهار لضاقت عن حاجة الناس اليه وغلب القوى الضعيف واستبد به دونه فيحصل الضرر وتعظم البلية مع شدة حاجة جميع الحيوان اليه من الطير والوحوش والسباع فاقتضت الحكمة ان كان بهذه الكثرة والسعة في كل وقت وأما النار فقد تقدم أن الحكمة اقتضت كونها متى شاء العبد أوراها عند الحاجة فهي وان لم تكن ميثومة في كل مكان فانها عتيدة حاصلة متى احتيج إليها واسعة لكل ما يحتاج اليه منها غير أنها مودعة في أجسام جعلت معادن لها للحكمة التي تقدمت .

فصل

ثم تأمل الحكمة البالغة في نزول المطر على الارض من علو ليعم بسقيه وهاذا وتلوها ونظراها وآكامها ومنخفضها ومرتفعها ولو كان ربه تعالى إنما يسقيها من ناحية من نواحيها لما أتى الماء على الناحية المرتفعة إلا إذا اجتمع في السفلى وكثر وفي ذلك فساد قاقتضت حكمته أن سقاها من فوقها فينشئ سبحانه السحاب وهي روايا الارض ثم يرسل الرياح فتحمل الماء من البحر وتلقحها به كما يلقح الفحل الانثى ولهذا تجد البلاد القريبة من البحر كثيرة الامطار وإذا بعدت من البحر قل مطرها وفي هذا المعنى يقول الشاعر يصف السحاب
شربن بماء البحر ثم ترفعت متى ليج خضر لهن نديج

وفي الموطأ مرفوعا وهو أحد الاحاديث الاربعة المنطوعة إذا نشأت سحابة بحرية ثم تشامت فتلک عين غديقة فالتة سبحانه ينشئ الماء في السحاب انشاء تارة يقبل الهواء ماء وتارة يحمله الهواء من البحر فيلقح به السحاب ثم ينزل منه على الارض للحكم التي

ذكرناها ولو أنه ساقه من البحر إلى الأرض جاريا على ظهرها لم يحصل عموم السقي إلا بتخريب كثير من الأرض ولم يحصل عموم السقي لأجزائها فصاعده سبحانه إلى الجو بلطفه وقدرته ثم أنزله على الأرض بغاية من اللطف والحكمة التي لا اقتراح بجمع عقول الحكماء فوقها فأنزله ومعها رحمته على الأرض.

فصل

ثم تأمل الحكمة البالغة في إنزاله بقدر الحاجة حتى إذا أخذت الأرض حاجتها منه وكان يتابعه عليها بعد ذلك يضرها أفلح عنها وأعقبه بالصحو فهما أعنى الصحو والغيم يعتقان على العالم لما فيه صلاحه ولو دام أحدهما كان فيه فساد فلو توالى الأمطار ، لأهلك ما على الأرض ولو زادت على الحاجة أفسدت الحبوب والثمار وعفنت الزروع والخضراوات وأرخت الأبدان وحشرت الهواء فحدثت ضروب من الأمراض وفسد أكثر الماء كل وتقطعت المسالك والسبل ولو دام الصحو جفت الأبدان وغيض الماء وانقطع معين العيون والآبار والأنهار والأودية وعظم الضرر واحتدم الهواء فيبس ما على الأرض وجفت الأبدان وغلب اليبس وأحدث ذلك ضروبا من الأمراض عسرة الزوال فاقضت حكمة اللطيف الخبير أن عاقب بين الصحو والمطر على هذا العالم فاعتدل الأمر وضح الهواء ودفع كل واحد منهما عادية الآخر واستقام أمر العالم وصلح .

فصل

ثم تأمل الحكمة الألهية في إخراج الأقوات والثمار والحبوب والفواكه متلاحقة شيئا بعد شيء متتابعة ولم يخلقها كلها جملة واحدة فانها لو خلقت كذلك على وجه الأرض ولم تكن تنبت على هذه السوق والأغصان لدخل الخلل وفاتت المصالح التي ربت على تلاحقها وتتابعها فان كل فصل وأوان يقتضى من الفواكه والنبات غير ما يرضيه الفصل الآخر فهذا حار وهذا بارد وهذا معتدل وكل في فصله موافق للمصلحة لا يليق به غير ما خلق فيه . ثم أنه سبحانه خلق تلك الأقوات مقارنة لمنافع آخر من العصف والخشب والورق والنور والعسف والسكر وغيرها من منافع النبات والشجر غير الأقوات كعلف البهائم وأداة الابنية والسفن والرحال والأواني وغيرها ومنافع النور من الأدوية والمنظر البهيج الذي يشوق الناظرين وحسن مرأى الشجر وخلقتها البديعة المشاهدة لفاطرها ومبدعها بغاية الحكمة واللطف . ثم إذا تأملت لإخراج ذلك النور البهي من نفس ذلك الحطب ثم الورق الأخضر ثم إخراج تلك الثمار على اختلاف أنواعها وأشكالها ومقاديرها وأوانها وطعومها وروائحها ومنافعها وما يراود منها ثم تأمل أين كانت مستودعة في تلك الخشبة وهاتيك العيدان وجعلت الشجرة لها كالأم

فهل كان في قدرة الأب العاجز الضعيف إبراز هذا التصوير العجيب وهذا التقدير المحكم وهذه الأصباغ الفاتقة وهذه الطعوم اللذيذة والروائح الطيبة وهذه المناظر العجيبة فسل الجاحد من تولى تقدير ذلك وتصويره وإبرازه وترتيبه شيئاً فشيئاً وسوق الغذاء إليه في تلك العروق اللطاف التي يكاد البصر يعجز عن إدراكها وتلك المجارى الدقاق. فمن الذى تولى ذلك كله ومن الذى أطلع لها الشمس وسخر لها الرياح وأنزل عليها المنظر ودفع عنها الآفات وتأمل تقدير اللطيف الخبير فان الأشجار لما كانت تحتاج إلى الغذاء الدائم كحاجة الناس وسائر الحيوان ولم يكن لها قوة أفواه كأفواه الحيوان ولا حركة تنبعث بها لتناول الغذاء جعلت أصولها مركززة في الأرض ليسرع بها الغذاء وتمتصه من أسفل الترى فتؤديه إلى أغصانها فتؤديه الأغصان إلى الورق والثر كل له شرب معلوم لا يتعداه يصل إليه في مجارى وطرق قد أحكمت غاية الأحكام فتأخذ الغذاء من أسفل فتلقمه بعروقها كما يلتقم الحيوان غذاءه بفمه ثم تقسمه على حملها بحسب ما يحتاجه فتعطي كل جزء منه بحسب ما يحتاج إليه لا تظلمه ولا تزيد على قدر حاجته. فسل الجاحد من أعطاهما هذا ومن هداها إليه ووضعها فيها فلو اجتمع الأولون والآخرون هل كانت قدرتهم وإرادتهم تصل إلى تربية ثمرة واحدة منها هكذا بإشارة أو صناعة أو حيلة أو مزاوله؟ وهل ذلك إلا من صنع من شهدت له مصنوعاته ودلت عليه آياته كما قيل :

فواعجبا كيف يعصى الإله أم كيف يجده الجاحد
 والله في كل تحريكه وتسكينة أبدأ شاهد
 وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

فصل

ثم تأمل إذا نصبت خيمة أو فسطاطاً كيف تمده من كل جانب بالأطناب ليثبت فلا يسقط ولا يتعوج. هكذا تجعد النبات والشجر له عروق ممتدة في الأرض منتشرة إلى كل جانب لتسكبه وتقيمه وكلما انتشرت أعاليه امتدت عروقه وأطنابه من أسفل في الجهات. ولولا ذلك كيف كانت تثبت هذه النخيل الطوال الباسقات والدوح العظام على الرياح العواصف. وتأمل سبق الخلق الإلهية للصناعة البشرية حتى يعلم الناس نصب الخيم والفساطيط من خلقه للشجر والنبات لأن عروقه لها كأطناب الأطناب الخيمة وأغصان الشجر يتخذ منها الفساطيط ثم يحاكي بها الشجرة.

فصل

ثم تأمل الحكمة في خلق الورق فانك ترى في الورقة الواحدة من جملة العروق

الممتدة فيها المبسوثة فيها ما يبهز الناظر . فمنها غلاظ ممتدة في الطول والعرض ومنها دقاق تتخلل تلك الغلاظ منسوجة نسيجاً دقيقاً معجباً لو كان مما يتولى البشر صنع مثله بأيديهم لما فرغوا من ورقة في عام كامل ولا احتاجوا فيه إلى آلات وحركات وعلاج تعجز قدرتهم عن تحصيله فبث الخلاق العليم في أيام قلائل من ذلك ما يملأ الأرض سهاماً وجبالها بلا آلات ولا معين ولا معالجة ان هي إلا ارادته النافذة في كل شيء وقدرته التي لا يمتنع منها شيء . (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) فتأمل الحكمة في تلك العروق المتخللة الورقة بأسرها لتسقيها وتوصل إليها المادة فتحفظ عليها حياتها ونضارتها بمنزلة العروق المبسوثة في الأبدان التي توصل الغذاء إلى كل جزء منه وتأمل ما في العروق الغلاظ من إمساكها الورق بصلابتها ومنايتها لئلا تتمزق وتضمحل فهي بمنزلة الأعصاب لبدن الحيوان فتراها قد أحكمت صنعتها ومدت العروق في طولها وعرضها لتتماسك فلا يعرض لها التمزق .

فصل

ثم تأمل حكمة اللطيف الخبير في كونها جعلت زينة للشجر وسترأ ولباساً للثمرة ووقاية لها من الآفات التي تمتنع كإلها ولهذا إذا جردت الشجرة عن ورقها فسدت الثمرة ولم ينتفع بها وانظر كيف جعلت وقاية لمنبت الثمرة الضعيفة من اليبس فاذا ذهبت الثمرة بقى الورق وقاية لتلك الأفنان الضعيفة من الحر حتى إذا طفت تلك الجرة ولم يضر الأفنان عراها من ورقها وسلبها إياه لتكتسى لباساً جديداً أحسن منه فتبارك الله رب العالمين الذي يعلم مساقط تلك الأوراق ومنابتها فلا يخرج منها ورقة إلا بإذنه ولا تسقط إلا بعلمه ومع هذا فلو شاهدنا العباد على كثرتهم وتنوعها وهي تسبح بحمد ربها مع الثمار والأفنان والأشجار لشاهدوا من جمالها أمراً آخر ولرأوا خلقتها بعين أخرى ولعلوا أنها لشأن عظيم خلقت وأنما لم تخلق سدى . قال تعالى (والنجم والشجر يسجدان) فالنجم ما ليس له ساق من النبات والشجر ماله ساق وكلها ساجدة لله مسبحة بحمده (وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً) ولعلك أن تكون ممن غاظ حجابها فذهب إلى أن التسبيح دلالتها على صانعها فقط فاعلم أن هذا القول يظهر بطلانه من أكثر من ثلاثين وجهاً قد ذكرنا أكثرها في موضع آخر . وفي أية لغة تسمى الدلالة على الصانع تسبيحاً وسجوداً وصلاةً وتأويلاً وهبوطاً من خشيته كما ذكر تعالى ذلك في كتابه فتارة يخبر عنها بالتسبيح وتارة بالسجود وتارة بالصلاة كقوله تعالى (والطير صافات كل قد علم صلواته وتسبيحه) أفترى يقبل عقلك أن يكون معنى الآية قد علم الله دلالاته عليه وسمى تلك الدلالة صلاةً وتسبيحاً وفرق بينهما وعطف أحدهما

على الآخر وتارة يخبر عنها بالتأويب كقولہ (يا جبال أوبى معہ) وتارة يخبر عنها بالتسبيح الخاص بوقت دون وقت كالعشى والاشراق أفترى دلالتها على صانعها انما يكون في هذين الوقتين ؟ . وبالجملة فبطلان هذا القول أظهر لذوى البصائر من أن يطلبوا دليلا على بطلانه والحمد لله .

فصل

ثم تأمل حكمته سبحانه في إبداع العجم والنوى في جوف الثمرة وما في ذلك من الحكم والفوائد التي منها أنه كالعظم لبدن الحيوان فهو يمسك بصلابته رخاوة الثمرة ورقتها ولطافتها ولولا ذلك اشدخت وتفسخت ولأسرع اليها الفساد فهو بمنزلة العظم والثمره بمنزلة اللحم الذي يكسوه الله عز وجل العظام . ومنها أن في ذلك بقاء المادة وحفظها إذ ربما تعطلت الشجرة أو نوعها تخلف فيها ما يقوم مقامها عند تعطلها وهو النوى الذى يغرس فيعود مثلها . ومنها ما في تلك الحبوب من أقوات الحيوانات وما فيها من المنافع والأدهان والأدوية والأصبغ وضروب آخر من المصالح التي يتعلمها الناس وما خفي عليهم منها أكثر فتأمل الحكمة في إخراجها سبحانه هذه الحبوب لمنافع فيها وكسوتها لحما لذيذا شهييا يتفكر به ابن آدم ثم تأمل هذه الحكمة البديعة في أن جعل للثمرة الرقيقة اللطيفة التي يفسدها الهواء والشمس غلافا يحفظها وغشاء يوارىها كالرمان والجوز واللوز ونحوه وأما مالا يفسد إذا كان بارزا فجعل له أول خروجه غشاء يواريه لضعفه ولقلة صبره على الحر فاذا اشتد وقوى تفتق عن ذلك الغشاء وضحي للشمس والهواء كقطع النخل وغيره .

فصل

ثم تأمل خلقه الرمان وماذا فيه من الحكم والعيان فانك ترى داخل الرمانة كأمثال القلال شحما مترا كما في نواحيها وترى ذلك الحب فيها مرصوفا رصفا ومنضودا نضدا لا تمكن الأيدي أن تنضده وترى الحب مقسوما أقساما وفرقا وكل قسم وفرقة منه ملفوفا بلفائف وحجب منسوجة أعجب نسج وأطفه وأدقه على غير منوال الاموال (كن فيكون) ثم ترى الوعاء المحكم الصلب قد اشتمل على ذلك كله وضمه أحسن ضم فتأمل هذه الحكمة البديعة في الشحم المودع فيها فان الحب لا يمد بعضه بعضاً إذا رمد بعضه بعضاً لا يختلط وصار حبة واحدة فجعل ذلك الشحم خلاله ليمده بالغذاء والدليل عليه أنك ترى أصول الحب مركوزة في ذلك الشحم وهذا بخلاف حب العنب فإنه استغنى عن ذلك بأن جعل لكل حبة مجرى تشرب منه فلا تشرب حق أختها بل يجرى الغذاء في ذلك العرق مجرى واحدا ثم ينقسم منه في مجارى الحبوب كلها فينبعث منه في كل مجرى غذاء تلك

الحبة فتبارك الله أحسن الخالقين . ثم أنه لف ذلك الحب في تلك الرمانة بتلك اللقائف ليضمه ويمسكه فلا يضطرب ولا يتبدد ثم غشى فوق ذلك بالغشاء الصلب صوناً له وحفظاً وعمسكاً له باذن الله وقدرته فهذا قليل من كثير من حكمة هذه الثمرة الواحدة ولا يمكننا ولا غيرنا استقصاء ذلك ولو طالت الأيام واتسع الفكر ولو لكن هذا منبه على ما وراءه واللبيب يكتفي ببعض ذلك . وأمان غلبت عليه الشقاوة (وكأين من آية في السموات والأرض يبرون عليها وهم عنها معرضون) غافلون عن موضع الدلالة فيها.

فصل

ثم تأمل هذا الربيع والنماء الذى وضعه الله فى الزرع حتى صارت الحبة الواحدة ربما أنبتت سبعائة حبة ولو أنبتت الحبة حبة واحدة مثلها لا يكون فى الغلة متسع لما يرد فى الأرض من الحب وما يكفى الناس ويقوت الزارع إلى إدراك زرعه فصار الزرع بريع هذا الربيع ليفى بما يحتاج إليه للقوت والزراعة وكذلك ثمار الأشجار والتخيل وكذلك ما يخرج مع الأصل الواحد منها من الصنوان ليكون لما يقطعه الناس ويستعملونه فى مأربهم خلفاً فلا تبطل المادة عليهم ولا تنقص ولو أن صاحب بلد من البلاد أراد عمارته لأعطى أهله ما يبذرونه فيهم وما يقيمهم إلى استواء الزرع فاقتضت حكمة اللطيف الخبير أن أخرج من الحبة الواحدة حبات عديدة ليقيم الخراج الناس ويدخرون منه ما يزرعون.

فصل

ثم تأمل الحكمة فى الحبوب كالبر والشعير ونحوهما كيف يخرج الحب مدرجا فى قشور على رؤسها أمثال الأسنة فلا يتمكن جنود الطير من افسادها والعبث فيها فإنه لو صادف الحب بارزا لا صوان عليه ولا وقاية تحول دونه لتمكن منه كل التمكن فافسد وعاب وعاث وأكب عليه أكلا ما استطاع وعجز أرباب الزرع عن رده فجعل اللطيف الخبير عليه هذه الوقايات لتصونه فينال الطير منه مقدار قوته ويبقى أكثره الإنسان فإنه أولى به لأنه هو الذى كدح فيه وشقى به وكان الذى يحتاج إليه أضعاف حاجة الطير .

فصل

ثم تأمل الحكمة الباهرة فى هذه الأشجار كيف تراها فى كل عام لها حمل ووضع فبى دائماً فى حمل وولادة فإذا أذن لها ربها فى الحمل احتبست الحرارة الطبيعية فى داخلها واختبأت فيها ليكون فيها حملها فى الوقت المقدر لها فيكون ذلك الوقت بمنزلة وقت العلوق ومبدأ

تكوين النطف فتعمل المادة في أجوافها عملها وتميئها للعلق حتى إذا آن وقت الحمل دب فيها الماء فلانت أعطافها وتحركت للحمل وسرى الماء في أفنانها وانتشرت فيها الحرارة والرطوبة حتى إذا آن وقت الولادة كسيت من سائر الملابس الفاخرة من النور والورق ما تتبختر فيه وتميس به وتفخر على العقيم فإذا ظهرت أولادها وبان للناظر حملها علم حينئذ كرمها وطيبها من لؤمها وبخلها فتولى تغذية ذلك الحمل من تولى غذاء الأجنة في بطون أمهاتها وكساها الأوراق وصانها من الحر والبرد فإذا تكامل الحمل وآن وقت الفطام تدك اليك أفنانها كأنما تناولك ثمرة درها فإذا قابلتها رأيت الأفنان كأنها تلقاك بأولادها وتحريك وتكرمك بهم وتقدمهم إليك حتى كأن منا ولا يناولك إياهم بيده ولا سيما قطوف جنات النعم الدانية التي يتناولها المؤمن قائماً وقاعدا ومضطجعاً وكذلك ترى الرياحين كأنها تحميك بأنفاسها وتقابلك بطيب رائحتها وكل هذا إكراماً لك وعناية بأمرك وتخصيصاً لك وتفضيلاً على غيرك من الحيوانات أفيجمل بك الاشتغال بهذه النعم عن المنعم بها فكيف إذا استعنت بها على معاصيه وصرفتها في مساخطه فكيف إذا جحدته وأضفتها إلى غيره كما قال (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) بخدير بمن له مسكة من عقل أن يسافر بفكره في هذه النعم والآلاء ويكرر ذكرها لعله يوقفه على المراد منها . ما هو ولأى شيء خلق ولماذا هيء وأى أمر طلب منه على هذه النعم كما قال تعالى (واذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون) فذكر آلائه تبارك وتعالى ونعمه على عبده سبب الفلاح والسعادة لأن ذلك لا يزيد إلا بحمده لله وحمداً وشكراً وطاعة وشهود تقصيره بل تقرظه في القليل مما يجب لله عليه والله در القائل :

قد هيؤك لأمر لو فطنت له فارباً بنفسك أن ترعى مع الحمل

فصل

شم تأمل الحكمة في شجرة اليقطين والبطيخ والجزر كيف لما اقتضت الحكمة أن يكون حمله ثماراً كباراً جعل نباته منبسطاً على الأرض إذ لو انتصب قائماً كما ينتصب الزرع اضعفت قوته عن حمل هذه الثمار الثقيلة ولتقصت قبل ادراكها وانتهائها إلى غاياتها فاقترضت حكمة مبدعها وخالقها أن بسطه ومدته على الأرض ليلقى عليها ثماره فتحملها عنه الأرض فترى العرق الضعيف الدقيق من ذلك منبسطاً على الأرض وثماره مبعوثه حواليه كأنها حيوان قد أكتنفها أجرؤها فهي ترضعهم ولما كان شجر اللوبيا والباذنجان والباقلان وغيرها مما يقوى على حمل ثمرته أنبته الله منتصباً قائماً على ساقه إذ لا يلقى من حمل ثماره مؤنة ولا يضعف عنه .

فصل

ثم تأمل كيف اقتضت الحكمة الإلهية موافات أصناف الفواكه والثمار للناس بحسب الوقت المشاكل لها المقتضى لها فتوافيهم كموافاة الماء للظمان فتتلقاها الطبيعة بانسراح واشتياق منتظرة لقدومها كانتظار الغائب للغائب فلو كان نبات الصيف انما يوافي في الشتاء لصادف من الناس كراهية واستهتقالاتا بوروده مع ما كان فيه من المضرة للأبدان والأذى لها وكذلك لو وافى ما في ربيعها في الخريف أو ما في خريفها في الربيع لم يقع من النفوس ذلك الموقع ولا استطابته واستلذته ذلك الالتذاذ. ولهذا تجد المتأخر منها عن وقته يملول محلول الطعم ولا يظن أن هذا لجرى العادة المجردة بذلك فإن العادة إنما جرت به لأنه وفق الحكمة والمصلحة التي لا يخل بها الحكيم الخبير .

فصل

ثم تأمل هذه النخلة التي هي إحدى آيات الله تجد فيها من الآيات والعجائب ما يبهرك فانه لما قدر أن يكون فيه انك تحتاج إلى اللقاح جعلت فيها ذكور تلقحها بمنزلة الحيوان وانائه ولذلك اشتد شهيهام بين سائر الأشجار بالإنسان خصوصا بالمؤمن كما مثله النبي صلى الله عليه وسلم وذلك من وجوه كثيرة (أحدها) ثبات أصلها في الأرض واستقراره فيها وليست بمنزلة الشجرة التي اجتمعت من فوق الأرض مالهام من قرار (الثاني) طيب ثمرتها وحلاوتها وعموم المنفعة بها كذلك المؤمن طيب الكلام طيب العمل فيه المنفعة لنفسه وغيره (الثالث) دوام لباسها وزينتها فلا يسقط عنها صيفاً ولا شتاء كذلك المؤمن لا يزول عنه لباس التقوى وزينتها حتى يوافي ربه تعالى (الرابع) سهولة تناول ثمرتها وتيسره أما قصيرها فلا يحوج المتناول أن يرقاها وأما باسقتها فصعوده سهل بالنسبة إلى صعود الشجر الطوال وغيرها فتراها كأنها قد هيئت منها المراتق والدرج إلى أعلاها وكذلك المؤمن خيره سهل قريب لمن رام تناوله لا بالغر ولا بالثيم (الخامس) ان ثمرتها من أنفع ثمار العالم فانه يؤكل رطبه فاكهة وحلاوة وبابسة يكون قوتا وأدما وفاكهة ويتخذ منه الخل والناطف والحلوى ويدخل في الأدوية والأشربة وعموم المنفعة به وبالغيب فوق كل الثمار . وقد اختلف الناس في أيهما أنفع وأفضل وصنف الجاحظ في المحاكمة بينهما مجلداً فأطال فيها الحجاج والتفضيل من الجانبين . وفصل النزاع في ذلك أن النخل في معدنه ومحل سلطانه أفضل من الغيب وأعم نفعاً وأجدى على أهله كالمدينة والحجاز والعراق والغيب في معدنه ومحل سلطانه أفضل وأعم نفعاً وأجدى على أهله كالشام والجبال والمواضع الباردة التي لا تقبل النخيل . وحضرت مرة في مجلس بمكة فيه من أكابر البلد فجزت هذه المسئلة وأخذ بعض الجماعة الحاضرين يطنب في تفضيل النخل

وفوائده وقال في أثناء كلامه ويكنى في تفضيله انا نشترى بنواه العنب فكيف يفضل عليه ثم يكون نواه ثمنا له وقال آخر من الجماعة قد فصل النبي ﷺ النزاع في هذه المسئلة وشفى فيها بنهيه عن تسمية شجر العنب كرما وقال الكرم قلب المؤمن فإى دليل أبين من هذا وأخذوا يبالغون في تقرير ذلك . فقلت للأول ما ذكرته من كون نوى التمر ثمناً للعنب فليس بدليل فان هذا له أسباب . أحدها حاجتكم إلى النوى للعلف فيرغب صاحب العنب فيه لعلف ناضحه وحولته . الثانى ان نوى العنب لا فائدة فيه ولا يجتمع . الثالث ان الاعناب عندكم قليلة جداً والتمر أكثر شىء عندكم فيكثر نواه فيشترى به الشىء اليسير من العنب وأما في بلاد فيها سلطان العنب فلا يشترى بالنوى منه شىء ولا قيمة لنوى التمر فيها . وقلت لمن احتج بالحديث هذا الحديث من حجج فضل العنب لأنهم كانوا يسمونه شجرة الكرم لكثرة منافعه وخيره فانه يؤكل رطباً ويابساً وحلوا وحامضاً ويجنى منه أنواع الأشربة والحلوى واللبس وغير ذلك فسموه كرماً لكثرة خيره فأخبرهم النبي ﷺ أن قلب المؤمن أحق منه بهذه التسمية لكثرة ما أودع الله فيه من الخير والبركة والرحمة واللين والعدل والإحسان والنصح وسائر أنواع البر والخير التى وضعها الله في قلب المؤمن فهو أحق بأن يسمى كرماً من شجر العنب ولم يرد النبي ﷺ إبطال ما فى شجر العنب من المنافع والفوائد وان تسميته كرماً كذب وانها لافضة لامعنى تحتها كتسمية الجاهل عالماً والفاجر براً والبخيل سخياً الأترى أنه لم ينف فوائد شجر العنب وانما أخبر عنه أن قلب المؤمن أغزر فوائده وأعظم منافع منها . هذا الكلام أوقريب منه جرى في ذلك المجلس وأنت إذا تدبرت قول النبي ﷺ الكرم قلب المؤمن وجدته مطابقاً لقوله في النخلة مثلاً مثل المسلم فثبه النخلة بالمسلم في حديث ابن عمر وشبه المسلم بالكرم في الحديث الآخر ونهاهم أن يخلصوا شجر العنب باسم الكرم دون قلب المؤمن وقد قال بعض الناس في هذا معنى آخر وهو أنه نهاهم عن تسمية شجر العنب كرماً لأنه يقتضى منه أم الحبائث فيسكره أن يسمى باسم يرغب النفوس فيها ويحضهم عليها من باب سد الذرائع فى الألفاظ وهذا لا بأس به لولا أن قوله فان الكرم قلب المؤمن كالتعليل لهذا النهى والإشارة إلى أنه أولى بهذه التسمية من شجر العنب ورسول الله ﷺ أعلم بما أراد من كلامه فالذى قصده هو الحق . وبالجملة فالله سبحانه عدد على عباده من نعمه عليهم ثمرات النخيل والأعناب فساقها فيما عدده عليهم من نعمه والمعنى الأول أظهر من المعنى الآخر إن شاء الله فان أم الحبائث تتخذ من كل ثمر كالنخيل كما قال تعالى (ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرأورزقا حسناً) وقال أنس نزل تحريم الخمر وما بالمدينة من شراب الأعناب شىء وإنما كان شراب القوم الفضيخ المتخذ من التمر فلو كان نهيه ﷺ عن تسمية شجر العنب

كرما لأجل المسكر لم يشبه النخلة بالمؤمن لأن المسكر يتخذ منها والله أعلم (الوجه السادس) من وجوه التشبيه أن النخلة أصبر الشجر على الرياح والجهود وغيرها من الدوح العظام تيملها الريح تارة وتقلعها تارة وتقصف أفنانها ولا صبر لكثير منها على العطش كصبر النخلة فكذلك المؤمن صبور على البلاء لا تزعه الرياح . السابع أن النخلة كلها منقعة لا يسقط منها شيء بغير منقعة فثمرها منقعة وجدعها فيه من المنافع ما لا يحبل الأبنية والسقوف وغير ذلك وسعفها تسقف به البيوت مكان القصب ويستتر به الفرج والخلل وخصوصها يتخذ منه المكاتب والزناجيل وأنواع الآنية والحصر وغيرها وليفها وكرهها فيه من المنافع ما هو معلوم عند الناس وقد طابق بعض الناس هذه المنافع وصفات المسلم وجعل لكل منقعة منها صفة في المسلم تقابلها فلما جاء إلى الشوك الذي في النخلة جعل بإزاءه من المسلم صفة الحدة على أعداء الله وأهل الفجور فيكون عليهم في الشدة والغلظة بمنزلة الشوك والمؤمنين والمتقين بمنزلة الرطب حلاوة وإيناً (الثامن) على الكفار رحماء بينهم (التاسع) إن قلبها من أطيب القلوب وأحلاه المؤمن إذا طال عمره ازداد خيره وحسن عمله (العاشر) إن قلبها من أطيب القلوب . العاشر أنها لا يتعطل نفعها بالكلية أبداً بل إن تعطلت منها منقعة ففيها منافع أخر حتى لو تعطلت ثمارها سنة لسكان الناس في سعفها وخصوصها وليفها وكرهها منافع وهكذا المؤمن لا يخلو عن شيء من خصال الخير قط إن أجذب منه جانب من الخير أخصب منه جانب فلا يزال خيره مأمولاً وشره مأمولاً . في الترمذي مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم خيركم من يرجى خيره ويؤمن شره وشركم من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره فهذا فصل معترض ذكرناه استطراداً للحكمة في خلق النخلة وهيئتها فلنرجع إليه فتأمل خلقه الجذع الذي لها كيف هو تجده كالمسوج من خيوط ممدودة كالسدا وأخرى معترضة كاللحمه كنجو المسوج باليد وذلك لتشتد وتصلب فلا تتقصف من حمل الحيوان الثقيل وتصبر على هز الرياح العاصفة ولينها في السقوف والجسور والأواني وغير ذلك مما يتخذ منها وهكذا سائر الخشب وغيرها إذا تأملته شبهه النسيج ولا تراه مصمتاً كاللحم الصلد بل ترى بعضه كأنه داخل بعضاً طولاً وعرضاً كتداخل أجزاء اللحم بعضها في بعض فإن ذلك أتم له وأهياً لما يراد منه فإنه لو كان مصمتاً كاللحجارة لم يمكن أن يستعمل في الآلات والأبواب والأواني والأمتعة والأسرة والتوابيت وما أشبهها ومن بديع الحكمة في الخشب أن جعل يطفو على الماء وذلك للحكمة البالغة إذ لولا ذلك لما كانت هذه السفن تحمل أمثال الجبال من الحمولات والأمتعة وتمخر البحر مقبلة ومدبرة ولولا ذلك لما تهيأ للناس هذه المرافق لحمل هذه التجارات العظيمة والأمتعة الكثرية

ونقلها من بلد إلى بلد من حيث لو نقلت في البر لعظمت المؤنة في نقلها وتعذر على الناس كثير من مصالحهم .

فصل

ثم تأمل أحوال هذه العقاقير والأدوية التي يخرجها الله من الأرض وما خص به كل واحد منها وجعل عليه من العمل والنتفع فهذا يغور في المفاصل فيستخرج الفضول الغليظة القاتلة أو احتسبت وهذا يستخرج المرة السوداء وهذا يستخرج المرة الصفراء وهذا يحلل الأورام وهذا يسكن الهيجان والقلق وهذا يجلب النوم ويعيده إذا أعوزه الإنسان وهذا يخفف البدن إذا وجد الثقل وهذا يفرح القلب إذا تراكت عليه الغموم وهذا يجلو البلغم ويكشطه وهذا يحد البصر وهذا يطيب التنكية وهذا يسكن هيجان الباءة وهذا يهيجها وهذا يبرد الحرارة ويطفئها وهذا يقتل البرودة ويهيج الحرارة وهذا يدفع ضرر غيره من الأدوية والأغذية وهذا يقاوم بكيفية غيره فيعتدلان فيعتدل المزاج بتناولهما وهذا يسكن العطش وهذا يصرف الرياح الغليظة ويطردها وهذا يعطى اللون إشرافاً ونضارة وهذا يزيد في أجزاء البدن بالسمن وهذا ينقص منها وهذا يدبغ المعدة وهذا يجلوها ويغسلها إلى أضعاف ذلك مما لا يحصىه العباد فسل المعطل من جعل هذه المنافع والقوى في هذه النباتات والحشائش والحبوب والعروق ومن أعطى كل منها خاصيته ومن هدى العباد بل الحيوان إلى تناول ما ينفع منه ترك ما يضر ومن فطن لها الناس والحيوان البهيم وبأى عقل وتجربة كان يقف على ذلك ويعرف ما خلق له كما زعم من قل نصيبه من التوفيق لولا انعام الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى وهب أن الإنسان فطن لهذه الأشياء بذهنه وتجاربه وفكره وقياسه فن الذى فطن لها البهائم فى أشياء كثيرة منها ما لا يهتدى إليها الإنسان حتى صار بعض السباع يتداوى من جراحه ببعض تلك العقاقير من النبات فيبرأ فمن الذى جعله يقصد ذلك النبات دون غيره وقد شوهد بعض الطير يمتحن عند الحصر بآء البحر فيسهل عليه الخارج وبعض الطير يتناول إذا اعتل شيئاً من النبات فتعود صحته وقد ذكر الأطباء فى مبادئ الطب فى كتبهم من هذا عجائب فسل المعطل من ألهمها ذلك ومن أرسدها إليه ومن دلها عليه أفيجوز أن يكون هذا من غير مدبر عزيز حكيم وتقدير عزيز عليم وتقدير لطيف خبير بهرت حكمته العقول وشهدت له الفطر بما استودعها من تعريفه بأنه الله الذى لا إله إلا هو الخالق البارئ المصور الذى لا تنبغى العبادة إلا له وإنه أو كان معه فى سمواته وأرضه إله سواه لفسدت السموات والأرض واختل نظام الملك فسبحانه وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً . واعلمك أن تقول ما حكمة هذا النبات المبتوث فى الصحارى

والفقار والجبال التي لا أنيس بها ولا ساكن وتظن أنه فضلة لا حاجة إليه ولا فائدة في خلقه وهذا مقدار عقلك ونهاية عليك فكلم لباريه وخالقه فيه من حكمة وآية من طعم لوحش وطيور ودواب مساكنها حيث لا تراها تحت الأرض وفوقها فذلك بمنزلة مائدة نصبها الله لهذه الطيور والدواب تتناول منها كيفياتها ويبقى الباقي كما يبقى الرزق الواسع الفاضل عن الضيف لسمعة رب الطعام وغناه التام وكثرة إنعامه

فصل

ثم تأمل الحكمة البالغة في إعطائه سبحانه بهيمة الأنعام الأسماع والأبصار ليتم تناولها لمصلحتها وبكامل انتفاع الإنسان بها إذ لو كانت عمياء أو صماء لم يتمكن من الانتفاع بها ثم سلبها العقول على كبر خلقها التي للإنسان ليتم تسخيرها إياها فيقودها ويصرفها حيث شاء ولو أعطيت العقول على كبر خلقها لامتنع من طاعته واستعصت عليه ولم تكن مسخرة له فأعطيت من التمييز والإدراك ما تتم به مصلحتها ومصلحة من ذلك له وسلبت من الذهن والعقل ما ميز به عليها الإنسان ولما ظهر أيضاً فضيلة التمييز والاختصاص ، ثم تأمل كيف قادها وذلكها على كبر أجسامها ولم يكن بطيئاً لولا تسخيرها قال الله تعالى (وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتستروا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين) أي مطيقين ضابطين وقال تعالى (أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون وذللتناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون) فترى البعير على عظم خلقته يقوده النسي الصغير ذليلاً منقاداً ولو أرسل عليه لسواه بالأرض ولفصله عضواً فسل المعطل من الذي ذلله وسخره وقاده على قوته لبشر ضعيف من أضعف المخلوقات وفرغ بذلك التسخير النوع الإنساني لمصالح معاشه ومعاده فإنه لو كان يزاول من الأعمال والاحتمال ما يزاول الحيوان لشغل بذلك عن كثير من الأعمال لأنه كان يحتاج مكان الجمل الواحد إلى عدة أناسي يحملون أثقاله وحمله ويعجزون عن ذلك وكان ذلك يستفرغ أوقاتهم ويصدحهم عن مصالحهم فأعينوا بهذه الحيوانات مع ما لهم فيها من المنافع التي لا يحصيها إلا الله من الغذاء والشراب والدواء واللباس والامتعة والآلات والأواني والركوب والحراث والمنافع الكثيرة والجمال .

فصل

ثم تأمل الحكمة في خلق آلات البطش في الحيوانات من الإنسان وغيره فالإنسان لما خلق مهيباً لمثل هذه الصناعات من البناء والحياطة والكتابة . وغيرها خلق له كف

مستدير منبسط وأصابع يتمكّن بها من القبض والبسط والطي والنشر والجمع والتفريق وضم الشيء إلى مثله والحيوان البهيم لما لم يتهيأ لتلك الصنائع لم يخلق له تلك الاكف والأصابع بل لما قدر أن يكون غذاء بعضها من صيده كالسباع خلق له أكف اطاف مدجة ذوات برائن ومخالب تصلح لاقتناص الصيد ولا تصلح للصناعات هذا كله في أكلة اللحم من الحيوان وأما أكلة النبات فلما قدر أنها لا تصطاد ولا صنعة لها خلق لبعضها أظلالا تقيها خشونة الأرض إذا جالت في طلب المرعى وبعضها حوافر ملهبة مقعرة كأخص القدم لتنطبق على الأرض وتحمي للركوب والحولة ولم يخلق لها برائن ولا أنيابا لأن غذاءها لا يحتاج إلى ذلك .

فصل

ثم تأمل الحكمة في خلقه الحيوان الذي يأكل اللحم من البهائم كيف جعلت له أسنان حداد وبرائن شداد وأشداق مهرونة وأفواه واسعة وأعينت بأسلحة وأدوات تصلح للصيد والأكل ولذلك تجد سباع الطير ذوات مناقير حداد ومخالب كالكلاليب ولهذا حرم النبي صلى الله عليه وسلم كل ذى ناب من السباع ومخلب من الطير لضرره وعدوانه وشره والمغتذى شبيهه بالغازي فلو اغتذى بها الإنسان لصار فيه من أخلاقها وعدوانها وشرها ما يشابهها به فحرم على الأمة أكلها ولم يحرم عليهم الضبيع وإن كان ذا ناب فإنه ليس من السباع عند أحد من الأمم والتحریم إنما كان لما تضمن الوصفين أن يكون ذا ناب وأن يكون من السباع ولا يقال هذا ينتقض بالسبع إذا لم يكن له ناب لأن هذا لم يوجد أبدا فصولات الله وسلامه على من أوتى جوامع الكلم فأوضح الأحكام وبين الحلال والحرام . فانظر حكمة الله عز وجل في خلقه وأمره فيما خلقه وفيما شرعه تجده مصدر ذلك كله الحكمة البالغة التي لا يختل نظامها ولا ينخرم أبدا ولا يختل أصلا ومن الناس من يكون حظه من مشاهدة حكمة الأمر أعظم من مشاهدة حكمة الخلق وهؤلاء خواص العباد الذين عقلوا عن الله أمره ودينه وعرفوا حكمته فيما أحكمه وشهدت فطنهم وعقولهم أن مصدر ذلك حكمة بالغة واحسان ومصالحة أرادت بالعباد في معاشهم ومعادهم وهم في ذلك درجات لا يحصيها إلا الله ومنهم من يكون حظه من مشاهدة حكمة الخلق أوفر من حظه من حكمة الأمر وهم أكثر الأطباء الذين صرفوا أفكارهم إلى استخراج منافع النبات والحيوان وقواها وما تصاح له مفردة ومركبة وليس لهم نصيب في حكمة الأمر إلا كما للفقهاء من حكمة الخلق بل أقل من ذلك ومنهم من فتح عليه بمشاهدة الخلق والأمر بحسب استعداده وقوته فرأى الحكمة الباهرة التي بهرت العقول في هذا وهذا فاذا نظر إلى خلقه وما فيه من الحكم ازداد إيمانا ومعرفة وتصديقا بما جاءت

به الرسل وإذا نظر إلى أمره وما تضمنه من الحكمة الباهرة ازداد إيماناً وبقيناً وتسليماً لا كمن حجب بالصنعة عن الصانع وبالكواكب عن مكوكبها فسمى بصره وغلظ عن الله حجاباً ولو أعطى علمه حقه لكان من أقوى الناس إيماناً لأنه أطلع من حكمة الله وباهر آياته ومعجائب صنعته الدالة عليه وعلى علمه وقدرته وحكمته على ما خفي عن غيره ولكن من حكمة الله أيضاً أن سلب كثيراً من عقول هؤلاء خاصيتها وحجبها عن معرفته وأوقفها عند ظاهر من العلم بالحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون لدنائمتها وخسرتها وحقرتها وعدم أهليتها لمعرفته ومعرفة أسمائه وصفاته وأسرار دينه وشرعه والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . وهذا باب لا يطلع الخلق منه على ماله نسبة إلى الخافي عنهم منه أبدأ بل علم الأولين والآخرين منه كمنقرة العصفور من البحر ومع هذا فليس ذلك بموجب للاعراض عنه واليأس منه بل يستدل العاقل بما ظهر له منه على ما وراه .

فصل

ثم تأمل أولاً ذوات الأربع من الحيوان كيف تراها تتبع أمهاتها مستقلة بأنفسها فلا تحتاج إلى الحمل والتربية كما يحتاج إليه أولاد الإنس فمن أجل أنه ليس عند أمهاتها ما عند أمهات البشر من التربية والملاطفة والرفق والآلات المنصلة والمنفصلة أعطاها اللطيف الخبير النهوض والاستقلال بأنفسها على قرب العهد بالولادة ولذلك ترى أفراخ كثير من الطير كالذجاج والدراج والفتخ يدرج ويلقط حين يخرج من البيضة وما كان منها ضعيف النهوض كفراخ الحمام واليمام أعطى سبحانه أمهاتها من فضله العطف والشفقة والحنان ما تمج به الطعم في أفواه الفراخ من حواصلها فتخبأه في أعز مكان فيها ثم تسوقه من فيها إلى أفواه الفراخ ولا تزال بها كذلك حتى ينهض الفرخ ويستقل بنفسه وذلك كله من حظها وقسمها الذي وصل إليها من الرحمة الواحدة من المائة فإذا استقل بنفسه وأمكته الطيران لم يزل به الأبوان يعالجانها أتم معالجة وألطفها حتى يطير من وكره ويستترزق لنفسه وبأكل من حيث يأكلان وكأنهما لم يعرفاه ولا عرفهما قط بل يطردانه عن الوكر ولا يدعانه وأقواتهما وبينهما بل يقولان له بلسان يفهمه اتخذ لك وكرأ وقوتا فلا وكر لك عندنا ولا قوت فسل المعطل أهذا كله عن إهمال ومن الذي ألهمها ذلك ومن الذي عطفها على الفراخ وهي صغار أحوج ما كانت إليها ثم سلب ذلك عنها إذا استغنت الفراخ رحمة بالأمهات تسعى في مصالحتها إذ لو دام لها ذلك لاضر بها وشغلها عن معاشها لا سيما مع كثرة ما يحتاج إليه أولادها من الغذاء فوضع فيها الرحمة والإيثار

والحنان رحمة بالفراخ وسلبها إياها عند استغنائها رحمة بالالاهات أفيجوز أن يكون هذا كله بلا تدبير مدبر حكيم ولا عناية ولا لطف منه سبحانه وتعالى لقد قامت أدلة ربوبيته وبراهين إلهيته وشواهد حكمته وآيات قدرته فلا يستطيع العقل لها وجوداً إن هي إلا مكابرة باللسان من كل جهود كفور (أفى الله شك فاطر السموات والأرض) وإنما يكون الشك فيما تخفى أدياته وتشكل براهينه فاما من له فى كل شىء محسوس أو معقول آية بل آيات مؤدية عنه شهادة له بأنه الله الذى لا اله إلا هو رب العالمين فكيف يكون فيه شك .

فصل

ثم تأمل الحكمة البالغة فى قوائم الحيوان كيف اقتضت أن يكون زوجها لا فرداً إما اثنتين وإما أربعاً ليهتياً به المشى والسعى وتم بذلك مصلحته إذ لو كانت فرداً لم يصلح لذلك لأن الماشى ينتقل ببعض قوائمه ويعتمد على بعض فذو القائمتين ينقل واحدة ويعتمد على الأخرى وذو الأربع ينقل اثنتين ويعتمد على اثنتين وذلك من خلاف لأنه لو كان ينقل قائمتين من جانب ويعتمد على قائمتين من الجانب الآخر لم يثبت على الأرض حال نقله قوائمه ولكن مشيه نقر الطائر وذلك مما يؤذيه ويتعبه لنقل بدنه بخلاف الطائر ولهذا إذا مشى الإنسان كذلك قليلاً أجهده وشق عليه بخلاف مشية الطبيعي الذى هو له فاقضت الحكمة تقديم نقل البنى من يديه مع اليسرى من رجله واقرار يسرى اليمين ويمنى الرجلين ثم نقل الأخرين كذلك وهذا أسهل ما يكون من المشى وأخفه على الحيوان .

فصل

ثم تأمل الحكمة البالغة فى أن جعل ظهور الدواب مبسوطة كأنها سقف على عمد القوائم ليهتياً ركوبها وتستقر الحولة عليها ثم خولف هذا فى الإبل فجعل ظهورها مسنمة معقودة كالقبو لما خصت به من فضل القوة وعظم ما تحمله والأقباء تحمل أكثر مما تحمل السقوف حتى قيل إن عقد الأقباء إنما أخذ من ظهور الإبل . وتأمل كيف لما طول قوائم البعير طول عنقة ليتناول المرعى من قيام فلو قصرت عنقه لم يمكنه ذلك مع طول قوائمه وليكون أيضاً طول عنقه موازناً للحمل على ظهره إذا استقل به كما ترى طول قصبه القبان حتى قيل إن القبان إنما عمل من خلقة الجمل من طول عنقه وثقل ما يحمله ولهذا تراه يمد عنقه إذا استقل بالحمل كأنه يوازنه موازنة .

فصل

ثم تأمل الحكمة فى كون فرج الدابة جعل بارزاً من ورانها ليمكن الفحل من ضرابها .

ولو جعل في أسفل بطنها كما جعل للمرأة لم يتمكن الفحل من ضرابها إلا على الوجه الذى تجامع به المرأة وقد ذكر في كتب الحيوان أن فروج الفيلة فى أسفل بطنها فإذا كان وقت الضراب ارتفع ونشز وبرز للفحل فيتمكن من ضرابها فلما جعل فى الفيلة على خلاف ما هو فى سائر البهائم خصت بهذه الخاصية عنها ليتهايم الأمر الذى به دوام النسل .

فصل

ثم تأمل كيف كسيت أجسام الحيوان البهيمى هذه الكسوة من الشعر والوبر والصوف وكسيت الطيور الريش وكسى بعض الدواب من الجلد ما هو فى غاية الصلابة والقوة كالسحفاة وبعضها من الريش ما هو كالأسنة كل ذلك بحسب حاجاتها إلى الوقاية من الحر والبرد والعدو الذى يريد أذاها فإنها لما لم يكن لها سبيل إلى اتخاذ الملابس واصطناع الكسوة وآلات الحرب أعيئت بملايس وكسوة لا تفارقها وآلات وأسلحة تدفع بها عن نفسها وأعيئت باظلاف واخفاف وحرافر لما عدمت الاحذية والنعال فعها حذاؤها وسقاؤها وخص الفرس والبغل والحرار بالحوافر لما خلق للركض والشد والجرى وجعل لها ذلك أيضاً سلاحاً عندا تنصافها من خصمها عوضاً عن الصياصى والمخالب والأنياب والبرائن فتأمل هذا اللطف والحكمة فإنها لما كانت بهائم خرساً لا عقول لها ولا أكف ولا أصابع مهيأة للانتفاع والدفاع ولا حظ لها فيما يتصرف فيه الآدميون من النسج والغزل ولطف الحيلة جعلت كسوتها من خلقتها باقية عليها ما بقيت لا تحتاج إلى الاستبدال بها وأعطيت آلات وأسلحة تحفظ بها أنفسها كل ذلك لتمام الحكمة التى أريدت بها ومنها وأما الإنسان فإنه ذو حيلة وكف مهيأة للعمل فهى تغزل وتنسج ويتخذ لنفسه الكسوة ويستبدل بها حالاً بعد حال وله فى ذلك صلاح من جهات عديدة . منها أن يستريح إذا خلع كسوته إذا شاء ويلبسها إذا شاء ليس كالمضطر إلى حمل كسوة . ومنها أنه يتخذ لنفسه ضروباً من الكسوة للصيف وضروباً للشتاء فإن كسوة الصيف لا تليق بالشتاء وكسوة الشتاء لا تليق بالصيف فيتخذ لنفسه فى كل فصل كسوة موافقة . ومنها أنه يجعلها تابعة لشهوته وإرادته . ومنها أنه يتلذذ بأنواع الملابس كما يتلذذ بأنواع المطاعم فجعلت كسوته متنوعة تابعة لاختياره كما جعلت مطاعمه كذلك فهو يكتسى ما يشاء من أنواع الملابس المتخذة من النبات تارة كالقطن والكتان ومن الحيوان تارة كالوبر والصوف والشعر ومن الدود تارة كالحرير والإبريسم ومن المعادن تارة كالذهب والفضة فجعلت كسوته متنوعة لتتم لذته وسروره وابتهاجه وزينته بها ولذلك كانت كسوة أهل الجنة منفصلة عنهم كما هى فى الدنيا ليست مخلوقة من أجسامهم كالحيوان فدل على أن ذلك أكل وأجل وأبلغ فى النعمة . ومنها إرادة تمييزه عن الحيوان فى ملبسه كما

ميزه عنه في مطعمه ومسكنه وبيانه وعقله وفهمه . ومنها اختلاف الكسوة واللباس وتباينه بحسب تباين أحواله وصنائه وحر به وسلبه وطقنه وإقامته وصحته ومرضه ونومه ويقظته ورفاهيته فلكل حال من هذه الأحوال لباس وكسوة تخصها لا تليق إلا بها فلم يجعل كسوته في هذه الأحوال كلها واحدة لا سبيلاً إلى الاستبدال بها فهذا من تكريمه وتفضيله على سائر الحيوان .

فصل

ثم تأمل حكمة عجيبة جعلت للبهائم والوحوش والسباع والدواب على كثير مما لا يرى منها شيء . وليست شيئاً قليلاً فتخفي لقلتها بل قد قيل أنها أكثر من الناس واعتبر ذلك بما تراه في الصحارى من أسراب الطيأ والبقر والوعول والذئاب والنور وضروب الهوام على اختلافها وسائر دواب الأرض وأنواع الطيور التي هي أضعاف أضعاف بني آدم لا تكاد ترى منها شيئاً ميثاً لا في كنهه ولا في أوكاره ولا في مساقطه ولا في مراعيه بطرقه وموارده ومنازله ومماقله ومعاصمه إلا ما عدا عليه عاد إما أفرسه سبع أو رماه صائد أو عدا عليه عاد أشغله وأشغل بني جنسه عن احراز جسمه وإخفاء جيفته فدل ذلك على أنها إذا أحست بالموت ولم تغلب على نفسها كمنت حيث لا يوصل إلى أجسامها وقبرت جيفها قبل نزول البسبب بها ولو لا ذلك لامتلات الصحارى بجيفها وأفسدت الهواء بروائحها فعاد ضرر ذلك بالناس وكان سبيلاً إلى وقوع الوباء وقد دل على هذا قوله تعالى في قصة ابني آدم (فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سواة أخيه قال يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سواة أخى فأصبح من النادمين) وأما ما جعل عيشه بين الناس كالأناعام والدواب فلقدرة الانسان على نقله واحتيااله في دفع أذيته منع مما جعل في الوحوش كالسباع فتأمل هذا الذي حار بنو آدم فيه وفيما يفعلون به كيف جعل طبعاً في البهائم وكيف تعلموه من الطير . وتأمل الحكمة في ارسال الله تعالى لابن آدم الغراب المؤذن اسمه بغربة القاتل من أخيه وغربته هو من رحمة الله تعالى وغربته من أبيه وأهله واستيحاشه منهم واستيحاشهم منه وهو من الطيور التي تنفر منها الأنس ومن نعيمها وتستوحش بها فأرسل اليه مثل هذا الطائر حتى صار كالمعلم له والأستاذ وصار بمنزلة المتعلم والمستند ولا تتسكح حكمة هذا الباب وارتباط المسميات فيه بأسمائها فقد قال النبي ﷺ إذا بعثتم إلى بريدة فابعثوه حسن الاسم حسن الوجه وكان يسأل عن اسم الأرض إذا نزلها واسم الرسول إذا جاء اليه ولما جاءهم سهيل ابن عمرو يوم الحديدية قال قد سهل أمركم ولما أراد تغيير اسم حزن بسهل قال لم يزل معنى اسمه فيه وفي زريته ولما سأل عمر بن الخطاب الرجل عن اسمه واسم أبيه وداره ومنزله فأخبره

أنه جرة بن شهاب وأن داره بالحرقة وأن مسكنه منها ذات اظى قال له أدرك بيتك فقد احترق فكان كما قال . وشواهد هذا الباب أكثر من أن نذكرها هنا وهذا باب لطيف المنزع شديد المناسبة بين الأسماء والمسميات وكثيرا ما أوقع الناس قديما وحديثا بنعيق الغراب واستدلالهم به على البين والاعتراب وينسبونه إلى الشؤم وينفرون منه وينفر منهم فكان جديرا أن يرسل هذا الطائر إلى القاتل من ابني آدم دون غيره من الطيور فكأنه صورة طائره الذى ألزمه فى عنقه وطار عنه من عمله ولا تظن أن ارسال الغراب وقع اتفاقا خاليا من الحكمة فإنك إذا خفي عليك وجه الحكمة فلا تنكرها واعلم أن خفاءها من لطفها وشرها والله تعالى فيما يخفى وجه الحكمة فيه على البشر الحكم الباهرة المتضمنة للغايات المحمودة .

فصل

ثم تأمل الحكمة الباهرة فى وجه الدابة كيف هو فانك ترى العينين فيه شاخصتين أمامهما تبصر ما بين يديها أتم من بصر غيرها لأنها تحرس نفسها وراكبها فتتقى أن تصدم حائطا أو تتردى فى حفرة فجملت عينها كعيني المنتصب القامة لأنها طليعة وجعل فوها مشقوقا فى أسفل الخطم لتتمكن من العض والقبض على العلف إذ لو كان فوقها فى مقدم الخطم كأنه من الإنسان فى مقدم الذقن لما استطاعت أن تتناول به شيئا من الأرض ألا ترى الإنسان لا يتناول الطعام بفيه لكن بيده فلما تكن الدابة تتناول طعامها بيدها جعل خطمها مشقوقا من أسفل لتضعه على العلف ثم تقضمه وأعينت بالجحفة وهى لها كالشفة للإنسان لتلتصق بها ما قرب منها وما بعد وقد أشكلت منفعة الذنب على بعض الناس ولم يهتد لإيها وفيه منافع عديدة فمنها انه بمنزلة الطبق على الدبر والغطاء على حياها يواريهما ويستترهما ومنها أن بين الدبر ومراق البطن من الدابة له وضر يجتمع عليه الذباب والبعوض فيؤذى الدابة فجعل أذناها كالمذاب لها والمرواح تطرد به ذلك ومنها أن الدابة تستريح إلى تحريكه وتصريفه يمنة ويسرة فانه لما كان قيامها على الأربع بكل جسمها وشغلت قدماها بحمل البنن عن التصرف والتقلب كان لها فى تحريك الذنب راحة وعمى أن يكون فيها حكم آخر تقصر عنها افهام الخلق ويزدرىها السامع إذا عرضت عليه فانه لا يعرف موقعها إلا فى وقت الحاجة فن ذلك أن الدابة تربض فى الوحل فلا يكون شئ أعون على رفعها من الأخذ بذنبها .

فصل

ثم تأمل شفر الفيل وما فيه من الحكم الباهرة فانه يقوم له مقام اليد فى تناول العلف

والماء وإيرادهما إلى جوفه ولولا ذلك ما استطاع أن يتناول شيئاً من الأشياء من الأرض لأنه ليست له عنق يمددها كسائر الأنعام فلما عدم العنق أخلف عليه مكانه الخراطوم الطويل ليسد مسده وجعل قادراً على سدله ورفعته وثنيه والتصرف به كيف شاء وجعل وعاء أجوف لين الملمس فهو يتناول به حاجته ويحمله ما أراد إلى جوفه ويحبس فيه ما يريد ويكيد به إذا شاء ويعطى ويتناول إذا أراد فسل المعطل من الذى عوضه ومن أخلف عليه مكان العضو الذى منعه ما يقوم له مقامه وينوب منابه غير الرزرف الرحيم بخلقه المتكفل بمصالحهم اللطيف بهم وكيف يتأتى ذلك مع الإهمال وخلو العالم عن قيمه وبارئته ومبدعه وفاطره لا إله إلا هو العزيز الحكيم (فإن قلت) فما باله لم يخلق ذا عنق كسائر الأنعام وما الحكمة و ذلك . قيل والله أعلم بحكمته فى مصنوعانه لأن رأسه وأذنيه أمر هائل عظيم وحمل ثقيل فلو كان ذا عنق كسائر الأعناق لانهدت رقبته بثقله ووهنت بحمله فجعل رأسه ماصقاً بجسمه لئلا يناله منه شيء من الثقل والمؤنة وخلق له مكان العنق هذا المشفر الطويل يتناول به غذاءه ولما طالت عنق البعير للحكمة فى ذلك صغر رأسه بالنسبة إلى عظم جثته لئلا يؤذيه ثقله ويوهن عنقه فسبحان من فانت حكمه عد العادين وحصر الحاصرين .

فصل

ثم تأمل خلق الزرافة واختلاف أعضائها وشبهها بأعضاء جميع الحيوان فرأسها رأس فرس وعنقها عنق بعير وأظلافها أظلاف بقرة وجلدها جلد نمر حتى زعم بعض الناس أن لقاحها من فحول شتى وذكروا أن أصنافاً من حيوان البر إذا وردت الماء ينزو بعضها على بعض فتنزو المسترحشة على السائمة فتنتج مثل هذا الشخص الذى هو كالملتقط من أناس شتى وما أرى هذا القائل إلا كاذباً عليها وعلى الخلق إذ ليس فى الحيوان صنف يلقح صنفاً آخر فلا الجمل يلقح البقر ولا الثور يلقح الناقة ولا الفرس يلقحهما ولا يلقحانه ولا الوحوش يلقح بعضها بعضاً ولا الطيور وإنما يقع هذا نادراً فيما يتقارب كالبقر الوحشى والأهلى والضأن والمعز والفرس والحمار والذئب والضبع فيتولد من ذلك البغل والسمع والعسبار وقول الفقهاء هل تجب الزكاة فى المتولد من الوحشى والأهلى فيه وجهان هذا إنما يتصور فى واحد واثنين وثلاثة يكمل بها النصاب فأما نصاب كله متولد من الوحشى والأهلى فلا وجود لذلك والأحكام المتعلقة بهذه المتولدات تذكر فى الزكاة وجزاء الصيد والأضاحى والأحوط يتغلب فى كل باب . فى الأضاحى يتغلب عدم الأجزاء وفى الإحرام والحرم يتغلب وجوب الأجزاء وفى الأضحية يتغلب جانب التحريم وفى الزكاة اختلاف مشهور . وسئل شيخنا أبو (١٦ - مفتاح)

العباس بن تيمية قدس الله روحه عن حمار نزا على فرس فأحبلها فهل يكون ابن الفرس حلالاً أو حراماً . فأجاب بأنه حلال ولا حكم للفحل في اللبن في هذا الموضوع بخلاف الاناسي لأن ابن الفرس حادث من العلف فهو تابع للحمها ولم يسر وطىء الفحل إلى هذا اللبن فأياه لاحرمة هناك تنتشر بخلاف ابن الفحل في الاناسي فانه تنتشر به حرمة الرضاع ولا حرمة هنا تنتشر من جهة الفحل لا إلى الولد خاصة فانه يتكون منه ومن الأم فعقاب عليه التحريم وأما اللبن فلم يتكون بوطنه وإنما يتكون من العلف فلم يكن حراماً هذا بسط كلامه وتقديره والمقصود ابطال زعم أن هذه الحيوانات المختلفة ياقح بعضها بعضها عند الموارد فتتكون الزرافة وإنه كاذب عليها وعلى الإبداع والذي يدل على كذبها أنه ليس الخارج من بين ما ذكرنا من الفرس والحمار والذئب والضبع والضأن والممرز عضو من كل واحد من أبيه وأمه كما يكون للزرافة عضو من الفرس وعضو من الجمل بل يكون كالم توسط بينهما الممتزج منهما كما نشاهده في البغل فانك ترى رأسه وأذنيه وكفله وحوافره وسطاً بين أعضاء أبيه وأمه مشتقة منهما حتى تجد سجيحه كالممتزج من صهيل الفرس ونهيق الحمار فهذا يدل على أن الزرافة ليست بنتاج آباء مختلفة كما زعم هذا الزاعم بل من خلق عجيب ووضع بديع من خلق الله الذي أبدعه آية ودلالة على قدرته وحكمته التي لا يعجزها شيء . ليرى عباده أنه خالق أصناف الحيوان كلها كما يشاء وفي أي لون شاء . فمنها المتشابهة الخلقة المتناسب الأعضاء . ومنها المختلف التركيب والشكل والصورة كما يرى عباده قدرته التامة في خلقه لنوع الإنسان على الأقسام الأربعة الدالة على انه مخلوق بقدرته ومشيشته تابع لها فمنه ما خلق من غير أب ولا أم وهو أبو النوع الإنساني . ومنه ما خلق من ذكر بلا أنثى وهي أمهم التي خلقت من ضلع آدم . ومنه ما خلق من أنثى بلا ذكر وهو المسيح ابن مريم : ومنه ما خلق من ذكر وأنثى وهو سائر النوع الإنساني فيرى عباده آياته ويتعرف اليهم بآلائه وقدرته وأنه إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . وأما طول عنق الزرافة وما لها فيه من المصلحة فلأن منشأها ومرعاها كما ذكر المعتبرون بحالها ومساكنها في غياض ذوات أشجار شاهقة ذاهبة طولاً فأعينت بطول العنق لتتناول أطراف الشجر الذي هناك وثمارها وهذا ما وصلت إليه معرفتهم وحكمة اللطيف الخبير فوق ذلك وأجل منه .

فصل

ثم تأمل هذه النملة الضعيفة وما أعطيته من الفطنة والحيلة في جمع القوت وادخاره وحفظه ودفع الآفة عنه فإنك ترى في ذلك عبراً وآيات فترى جماعة النمل إذا أرادت إحراز

القوت خرجت من أسرابها طالبة له فإذا ظفرت به أخذت طريقاً من أسرابها إليه وشرعت في نقله فتراها رفقتين رفقة حاملة تحمله إلى بيوتها سرّبا ذاهبا ورفقة خارجة من بيوتها إليه لا تخاط تلك في طريقها بل هما كالحيطين بمنزلة جماعة الناس الذاهبين في طريق والجماعة الراجعة من جانبهم فإذا ثقل عليها حمل الشيء من تلك اجتمعت عليه جماعة من النمل وتساعدت على حمله بمنزلة الخشبة والحجر الذي تساعد الفئمة من الناس عليه فإذا كان الذي ظفر به ممنه واحداً ساعدها رفقتها عليه إلى بيتها وخلوا بينهما وبينه وإن كان الذي صادفه جماعة تساعدن عليه ثم تقاسمته على باب البيت . ولقد أخبر بعض العارفين أنه شاهد ممنه يوماً عجباً . قال رأيت نملة جاءت إلى شق جرادة فزاولته فلم تطق حمله من الأرض فذهبت غير بعيد ثم جاءت معها بجماعة من النمل قال فرفعت ذلك الشق من الأرض فلما وصلت النملة برفقتها إلى مكانه دارت حوله ودرن معها فلم يجدن شيئاً فرجعن فوضعتن ثم جاءت فصادفته فزاولته فلم تطق رفعه فذهبت غير بعيد ثم جاءت بهن فرفعتن فدرن حول مكانه فلم يجدن شيئاً فذهبن فوضعتن فعدت لجماعت بهن فرفعتن فدرن حول المكان فلما لم يجدن شيئاً تحلقن حلقة وجعلن تلك النملة في وسطها ثم تحامدن عليها فقطعنها عضواً عضواً وأنا أنظر . ومن عجب أمر الفطنة فيها إذا نقلت الحب إلى مساكنها كسرت له لثلاً ينبت فإن كان مما ينبت الفلققان منه كسرت له أربعة فإذا أصابه نداءً وبلل وخافت عليه الفساد أخرجه للشمس ثم ترده إلى بيوتها ولهذا ترى في بعض الأحيان حبا كثيراً على أبواب مساكنها مكسراً ثم تعود عن قريب فلا ترى منه واحدة ومن فطنتها أنها لا تتخذ قريتها إلا على نثر من الأرض لثلاً يفيض عليها السيل فيعرقها فلا ترى قرية نمل في بطن واد وليكن في أعلاه وما ارتفع عن السيل منه ويكفي في فطنتها ما نص الله عز وجل في كتابه من قولها جماعة النمل وقد رأت سليمان عليه الصلاة والسلام وجنوده (يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون) فتمكلمت بعشرة أنواع من الخطاب في هذه النصيحة . النداء . والتثنية . والتسمية . والأمر . والنص . والتحذير . والتخصيص . والتفهم . والتعميم . والاعتذار فاشتملت نصيحتها مع الاختصار على هذه الأنواع العشرة . ولذلك أعجب سليمان قولها وتبسم ضاحكاً منه وسأل الله أن يوزعه شكر نعمته عليه لما سمع كلامها ولا تستبعد هذه الفطنة من أمة من الأمم تسمي بحمد ربها كما في الصحيح عن النبي ﷺ قال نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة فلدغته نملة فأمر بجهازه فأخرج ثم أحرق قرية النمل فأوحى الله إليه . من أجل أن لدغتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسمي فهل نملة واحدة .

فصل

ومن عجيب الفطنة في الحيوان أن الثعلب إذا أعوزه الطعام ولم يجد صيداً تماوت و نفخ بطنه حتى يحسبه الطير ميتاً فيقع عليه لياً كل منه فيثب عليه الثعلب فيأخذه . ومن عجيب الفطنة في هذه الذبابة الكبيرة التي تسمى أسد الذباب فانك تراه حين يحس بالذباب قد وقع قريباً منه يسكن ملياً حتى كأنه موات لا حراك فيه فإذا رأى الذباب قد اطمان وغفل عنه دب دبيبا رفيفا حتى يكون منه بحيث يناله ثم يثب عليه فيأخذه . ومن عجيب حيل العنكبوت أنه ينسج تلك الشبكة شركاً للصيد ثم يكمن في جوفها فإذا نشب فيها البرغش والذباب وثب عليه وامتنص دمه فهذا يحكى صيد الأشراك والشباك والأول يحكى صيد الكلاب والفهود ولا تزدرين العبرة بالشيء الحقير من الذرة والبعوض فإن المعنى النفيس يقتبس من الشيء الحقير والازدراء بذلك ميراث من الذين استنكرت عقولهم ضرب الله تعالى في كتابه المثل بالذباب والعنكبوت والكلب والخنزير فأنزل الله تعالى (إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها) فأغزر الحكم وأكثرها في هذه الحيوانات التي تزدرىها وتحتقرها وكم من دلالة فيها على الخالق ولطفه ورحمته وحكمته فسل المعطل من ألهمها هذه الحيل والتلطف في اقتناص صيدها الذي جعل قوتها ومن جعل هذه الحيل فيها بدل ما سألها من القوة والقدرة فأعناها ما أعطاه من الحيلة عما سألها من القوة والقدرة سوى اللطيف الخبير .

فصل

ثم تأمل جسم الطائر وخلقته فإنه حين قدر بأن يكون طائراً في الجو خفف جسمه وأدج خلقته واقتصر به من القوائم الأربع على اثنتين ومن الأصابع الخمس على أربع ومن مخرج البول والزبل على واحد يجمعهما جميعاً ثم خلق ذا جو جو محدود ليسهل عليه اختراق الهواء كيف توجه فيه كما يجعل صدر السفينة بهذه الهيئة ليشق الماء بسرعة وتنفذ فيه وجعل في جناحيه وذنبه ريشات طوال متان لينهض به بالطيران وكسى جسمه كله الريش ليتداخله الهواء فيحملة ولما قدر أن يكون طعامه اللحم والحب يبلعه بلعاً بلا مضغ نقص من خلقه الأسنان وخلق له منقار صلب يتناول به طعامه فلا يتفسخ من لقط الحب ولا يتعقف من نهش اللحم ولما عدم الأسنان وكان يزدرد الحب صحيحاً واللحم غريباً أعين بفضل حرارة في الجوف تطحن الحب وتطبخ اللحم فاستغنى عن المضغ والذي يدلك على قوة الحرارة التي أعين بها أنك ترى عجم الزبيب وأمثاله يخرج من بطن الإنسان صحيحاً وينطبخ في جوف الطائر حتى لا يرى له أثر . ثم اقتضت الحكمة أن جعل يبيض بيضاً ولا يلد ولادة لئلا يشغل عن

الطيران فإنه لو كان مما يحمل ويمسك حمله في جوفه حتى يستحكم ويثقل لا نقله وعاقه عن النهوض والطيران . وتأمل الحكمة في كون الطائر المرسل السائح في الجو يلهم صبر نفسه أسبوعاً أو أسبوعين باختياره قاعداً على بيضه حاضناً له ويحتمل مشقة الحبس ثم إذا خرج فراخه تحمل مشقة الكسب وجمع الحب في حوصلته ويزق فراخه وليس بذى روية ولا فكرة في عاقبة أمره ولا يؤمل في فراخه ما يؤمل الإنسان في ولده من العون والرغد وبقاء الذكر . فهذا من فعله يشهد بأنه معطوف على فراخه لعله لا يعلمها هو ولا يفكر فيها من دوام النسل وبقائه .

فصل

ثم تأمل خلقه البيضة وما فيها من المخ الأصفر الخائر والماء الأبيض الرقيق فبعضه ينشأ منه الفرخ وبعضه يغتذى منه إلى أن يخرج من البيضة وما في ذلك من الحكمة فإنه لما كان نشو الفرخ في تلك البشرة المنخفضة التي لا تفاقذ فيها للواصل من خارج جعل معه في جوف البيضة من الغذاء ما يكتفي به إلى خروجه .

فصل

وتأمل الحكمة في حوصلة الطائر وما قدرت له فإن في مسلك الطعام إلى القابضة ضيق لا ينفذ فيه الطعام إلا قليلاً فلو كان الطائر لا يلتقط حبة ثانية حتى تصل الأولى إلى جوفه لاطال ذلك عليه فني كان يستوفى طعامه وإنما يختلسه اختلاصاً أشد الحذر فجعلت له الحوصلة كالخلاة المعلقة أمامه ليوعى فيها ما ازدرد من الطعم بسرعة ثم ينقل إلى القابضة على مهل وفي الحوصلة أيضاً خصلة أخرى فإن من الطير ما يحتاج إلى أن يزق فراخه فيكون رده الطعم من قرب اليسهل عليه .

فصل

ثم تأمل هذه الألوان والأصباغ والوشى التي تراها في كثير من الطير كالطاووس والدراج وغيرهما التي لو خطت بدقيق الأفلام ووشيت بالأيدى لم يكن هذا فمن أين في الطبيعة المجردة هذا التشكيل والتخطيط والتلوين والصبغ العجيب البسيط والمركب الذي لو اجتمعت الخليفة على أن يحاكيه لتعذر عليهم فتأمل ريش الطاووس كيف هو فإنك تراه كنسيج الثوب الرفيع من خيوط رفيع جداً قد ألف بعضها إلى بعض كتأليف الخيط إلى الخيط بل الشعرة إلى الشعرة ثم ترى النسيج إذا مددته ينفتح قليلاً قليلاً ولا يذشق ليتداخله الهواء فينقل الطائر إذا طار فترى في وسط الريشة عموداً غليظاً متيناً قد نسج عليه ذلك الثوب التي كهيئة الشعر

ليسهك بصلابته وهو القصبه التي تكون في وسط الريشة وهو مع ذلك أجوف يشتمل على الهواء فيحمل الطائر فأى طبيعة فيها هذه الحكمة والخبرة واللفظ ثم لو كان ذلك في الطبيعة كما يقولون لسكانت من أدل الدلائل وأعظم البراهين على قدرة مبدعها ومنشئها وعلمه وحكمته فإنه لم يكن ذلك لها من نفسها بل إنما هو لها بمن خلقها وأبدعها فما كذبه المعطل هو أحد البراهين والآيات التي على مثلها يزداد إيمان المؤمنين وهكذا آيات الله يضل بها من يشاء ويهدى من يشاء .

فصل

تأمل هذا الطائر الطويل الساقين وأعرف المنفعة في طول ساقيه فإنه يرمى أكثر مرعاه في ضحضاح الماء فتراه يركز على ساقيه كأنه دست فوق مركب ويتأمل ما دب في الماء فإذا رأى شيئاً من حاجته خطا خطوا رفيقا حتى يتناولوه ولو كان قصير القامتين كان إذا خطا نحو الصيد لياً أخذ له لصق بطنه بالماء فيشيره ويذعر الصيد منه فيفر فخلق له ذلك العمودان ليذكر بهما حاجته ولا يفسد عليه مطلبه وكل طائر فله نصيب من طول الساقين والعنق ليتمكنه تناول الطعام من الأرض ولو طال ساقاه وقصرت عنقه لم يتمكن أن يتناول شيئاً من الأرض وربما أعين مع عنقه بطول المناقير ليزداد مطلبه سهولة عليه وامكانا . . ثم تأمل هذه العصافير كيف تطلب أكلها بالنهار كله فلا هي تفقده ولا هي تجده مجموعاً معداً بل تناله بالحركة والطلب في الجهات والنواحي فسبحان الذي قدره ويسره كيف لم يجعله مما يتعذر عليها إذا التمسته ويفوتها إذا قعدت عنه وجعلها قادرة عليه في كل حين وأوان بكل أرض ومكان حتى من الجدران والأسطحه والسقوف تناوله بالهويناء من السعى فلا يشاركها فيه غير بنى جنسها من الطير ولو كان ما تقفأت به يوجد معداً بمجرد ما كانه كانت الطير تشاركها فيه وتغلبها عليه وكذلك لو وجدته معداً مجموعاً لا كبت عليه بحرص ورغبة فلا تقلع عنه وإن شبعته حتى تبشم وتهلك وكذلك الناس لو جعل طعامهم معداً لهم بغير سعى ولا تعب أدى ذلك إلى الشره والبطنه ولكثر الفساد وعمت الفواحش والبغى في الأرض فسبحان اللطيف الخبير الذي لم يخلق شيئاً سدى ولا عبثاً (وانظر) في هذه الطير التي لا تخرج إلا بالليل كالبوم والهام والخفاس فان أقواتها هيئت لها في الجو لا من الحب ولا من اللحم بل من البعوض والفراس وأشباههما مما تلقطه من الجو فتأخذ منه بقدر الحاجة ثم تأوى إلى بيوتها فلا تخرج إلى مثل ذلك الوقت بالليل وذلك أن هذه الضروب من البعوض والفراس وأشباههما مبروثة في الجو لا يكاد يخلو منها موضع منه واعتبر ذلك بأن تضع سراجاً بالليل في سطح أو عرصه الدار فيجتمع عليه من هذا

الضرب شيء كثير وهذا الضرب من الفراش ونحوها ناقص الفطنة ضعيف الحيلة ليس في الطير أضعف منه ولا أجهل وفيما يرى من تهافته في النار وأنت تطرده عنها حتى يحرق نفسه دليل على ذلك فجعل معاش هذه الطيور التي تخرج بالليل من هذا الضرب فتقتات منه فإذا أتى النهار انقطعت إلى أوكارها فالليل لها بمنزلة النهار لغيرها من الطير ونهارها بمنزلة ليل غيرها ومع ذلك فساق لها الذي تكفل بأرزاق الخلق رزقها وخلقه لها في الجو ولم يدعها بلارزق مع ضعفها وعجزها وهذه إحدى الحكم والفوائد في خلق هذه الفراش والجنادب والبعوض فكم فيها من رزق لامة تسمح بحمد ربها ولولا ذلك لانتشرت وكثرت حتى أضرت بالناس ومنعتهم القرار فانظر إلى عجيب تقدير الله وتدييره كيف اضطر العقول إلى أن شهدت بربوبيته وقدرته وعلمه وحكمته وأن ذلك الذي تشاهده ليس باتفاق ولا بإهمال من سائر وجوه الأدلة التي لا تتمكن الفطر من جحدها أصلاً وإذ قد جرى الكلام إلى الخفاش فهو من الحيوانات العجيبة الخلقة بين خلقه الطيور وذوات الأربع وهو إلى ذوات الأربع أقرب فإنه ذو أذنين ناشرتين وأسنان ودبر وهو يلد ولدا ويرضع ويمشي على أربع وكل هذه صفة ذوات الأربع وله جناحان يطير بهما مع الطيور ولما كان بصره يضعف عن نور الشمس كان نهاره كليل غيره فإذا غابت الشمس انتشر ومن ذلك سمي ضعيف البصر أخفش والخفش ضعف البصر ولما كان كذلك جعل قوته من هذه الطيور الضعاف التي لا تطير إلا بالليل . وقد زعم بعض من تكلم في الحيوان أنه ليس يطعم شيئاً وإنما غذاؤه من النسيم البارد فتقط وهذا كذب عليه وعلى الخائفة لأنه يبول وقد تكلم الفقهاء في بوله هل هو نجس لأنه بول غير ما كول أو نجس معفو عن يسيره لمشقة التحرز منه على قولين هماروايتان عن أحمد وبعض الفقهاء لا ينجس بوله بحال وهذا أقيس الأقوال إذ لا نص فيه ولا يصح قياسه على الأبول النجسة لعدم الجامع المؤثر ووضوح الفرق وليس هذا موضع استيفاء الحجج في هذه المسئلة من الجانبين . والمقصود أنه لو كان لا يأكل شيئاً لم يكن له أسنان إذ لا معنى للأسنان في حق من لا يأكل شيئاً ولهذا لما عدم الطفل الرضيع الأكل لم يهبط الأسنان فلما كبر واحتاج للغذاء أعين عليه بالأسنان التي تقطعه والأضرار التي تطحنه وليس في الخائفة شيء مهمل ولا عن الحكمة بمعطول ولا شيء لا معنى له وأما الحكم والمنافع في خلق الخفاش فقد ذكر منها الأطباء في كتبهم ما انتهت إليه معرفتهم حتى أن بوله يدخل في بعض الأحوال إذا كان بوله الذي لا يخطر بالبال فيه منفعة البتة فما الظن بحملته ولقد أخبر بعض من أشهد بصدقه أنه رأى رخلا وهو طائر معروف قد عشش في شجرة فنظر إلى حية عظيمة قد أقبلت نحو عشه

فاتحة فاما لتبتاعه فيبيناهو يضطرب في حيلة النجاة منها إذ وجد حسكة في العش فحملها فالتقاه
في فم الحية فلم تزل تلتوى حتى ماتت .

فصل

ثم تأمل أحوال النحل وما فيها من العبر والآيات فانظر إليها وإلى اجتهادها في صنعة
العسل وبنائها البيوت المسندة التي هي من أتم الأشكال وأحسنها استدارة وأحكمها صنعا فإذا انضم
بعضها إلى بعض لم يكن بينها فرجة ولا خلل كل هذا بغير مقياس ولا آلة ولا بيكار وتلك
من أثر صنع الله وإلهامه إياها وإيحائه إليها كما قال تعالى (وأوحى ربك إلى النحل أن
اتخذى من الجبال بيوتا) إلى قوله (آيات لقوم يتفكرون) فتأمل كمال طاعتها وحسن
اتتمارها لأمر ربها اتخذت بيوتها في هذه الامكنة الثلاثة في الجبال الشقفان وفي الشجر
وفي بيوت الناس حيث يعرشون أى يبنون العروش وهي البيوت فلا يرى للنحل بيت غير
هذه الثلاثة البتة . وتأمل كيف أكثر بيوتها في الجبال والشقفان وهو البيت المقدم
في الآية ثم في الأشجار وهي من أكثر بيوتها وبما يعرش الناس وأقل بيوتها بينهم حيث
يعرشون وأما في الجبال والشجر فبيوت عظيمة يؤخذ منها من العسل الكثير جدا وتأمل
كيف أداها حسن الامثال إلى أن اتخذت البيوت أولا فإذا استقر لها بيت خرجت منه فرعت
وأكلت من الثمار ثم آوت إلى بيوتها لأن ربها سبحانه أمرها باتخاذ البيوت أولا ثم بالأكل بعد
ذلك ثم إذا أكلت سلكت سبل ربها منللة لا يستوعز عليها شيء ثم تعرى ثم تعود ومن عجيب شأنها أن لها
أمير يسمى اليعسوب لا يتم لها روح ولا إياب ولا عمل ولا مرعى إلا به فهي مؤتمرة لأمره
سامعة له مطيعة وله عليها تكليف وأمر ونهى وهي رعية له متقادة لأمره متبعة لرأيه يدبرها
كما يدبر الملك أمر رعيته حتى انها إذا آوت إلا بيوتها وقف على باب البيت فلا يدع واحدة
تزاحم الأخرى ولا تتقدم عليها في العبور بل تعبر بيوتها واحدة بعد واحدة بغير تزاحم ولا تصادم
ولا تراكم كما يفعل الامير إذا انتهى بعسكره إلى معبر ضيق لا يجوزه الا واحد واحد ومن تدبر
أحوالها وسياساتها وهدايتها واجتماع شملها وانتظام أمرها وتدبير ملكها وتفويض كل عمل
إلى واحد منها يتعجب منها كل العجب ويعلم أن هذا ليس في مقدورها ولا هو من ذاتها فإن
هذه أعمال محكمة متقنة في غاية الاحكام والإتقان فإذا نظرت إلى العامل رأيت من أضعف
خلق الله وأجهله بنفسه وبحاله وأعجزه عن القيام بمصلحته فضلا عما يصدر عنه من الأمور
العجيبة . ومن عجيب أمرها أن فيها أميرين لا يجتمعان في بيت واحد ولا يتأمران على جمع
واحد بل إذا اجتمع منها جندان وأميران قتلوا أحداً لا يبرين وقطموه وانفقوا على الأمير الواحد

من غير معاداة بينهم ولا أذى من بعضهم لبعض بل يصيرون يداً واحدة وجنوداً واحداً .

فصل

ومن أعجب أمرها ما لا يمتدى له أكثر الناس ولا يعرفونه وهو التناج الذى يكون لها هل هو على وجه الولادة والتوالد أو الاستحالة فقل من يعرف ذلك أو يفطن له وليس تناجها على واحد من هذين الوجهين وإنما تناجها بأمر من أعجب العجيب فإنها إذا ذهبت إلى المرعى أخذت تلك الأجزاء الصافية التى على الورق من الورد والزهر والحشيش وغيره وهى الطل فتمصها وذلك مادة العسل ثم انها تكبس الأجزاء المنعقدة على وجه الورقة وتعقدتها على رجلها كالعنسة فتملاً بها المسدسات الفارغة من العسل ثم يقوم بعسوبها على بيته مبتدئاً منه فينفخ فيه ثم يطوف على تلك البيوت بيتاً بيتاً وينفخ فيها كلها فتدب فيها الحياة بإذن الله عز وجل فتتحرك وتخرج طيوراً بإذن الله وتلك إحدى الآيات والمعجائب التى قل من يتفطن لها وهذا كله من ثمرة ذلك الوحي الإلهى أفادها وأكسبها هذا التدبير والسفر والمعاش والبناء والتناج فسل المعطل من الذى أوحى إليها أمرها وجعل ما جعل فى طباعها ومن الذى سهل لها سبله ذللاً منقاداً لا تستعصى عليها ولا تستوعرها ولا تضل عنها على بعدها ومن الذى هداها لثأنها ومن الذى أنزل لها من الطل ما اذا جتته رده عسلاً صافياً مختلفاً ألوانه فى غاية الخلاوة واللذاعة والمنفعة من بين أبيض يرى فيه الوجه أعظم من رؤيته فى المرأة وسمه لى من جاء به وقال هذا أغر ما يعرف الناس من العسل وأصفاه وأطيبه فإذا طعمه الذشىء يكون من الحلوى ومن بين أحمر وأخضر ومورد وأسود وأشقر وغير ذلك من الألوان والطعوم المختلفة فيه بحسب مراعيه ومادتها وإذا تأملت ما فيه من المنافع والشفاء ودخوله فى غالب الأدوية حتى كان المتقدمون لا يعرفون السكر ولا هو المذكور فى كتبهم أصلاً وإنما كان الذى يستعملونه فى الأدوية هو العسل وهو المذكور فى كتب القوم ولعمرك الله انه لا نفع من السكر وأجدى وأجلى للاخلاط وأقع لها وأذهب لضررها وأقوى للبعدة وأشد تفرجاً للنفس وتقوية للأرواح وتنفيذاً للدواء وإعانة له على استخراج الداء من أعماق البدن ولهذا لم يجيء فى شىء من الحديث قط ذكر السكر ولا كانوا يعرفونه أصلاً ولو عدم من العالم لما احتاج اليه ولو عدم العسل لاشتدت الحاجة إليه وإنما غلب على بعض المدن استعمال السكر حتى هجروا العسل واستطابوه عليه ورأوه أقل حدة وحرارة منه ولم يعملوا أن من منافع العسل ما فيه من الحدة والحرارة فإذا لم يوافق من يستعمله كسرهما بمقابلها فيصير أنفع له من السكر وسنفرده إن شاء الله مقالة نبين فيها فضل العسل على

السكر من طرق عديدة لا تمتنع وبراهين كثيرة لا تدفع ومتى رأيت السكر يجلو بلغمًا ويذيب خلطًا أو يشفي من داء وإنما غاية بعض التنفيد للدواء إلى العروق للطافته وحلاوته وأما الشفاء الحاصل من العسل فقد حرمه الله كثيرًا من الناس حتى صاروا يذمون ويحشون غائلته من حرارته وحدته ولا ريب أن كونه شفاءً وكون القرآن شفاءً والصلاة شفاءً وذكر الله والإقبال عليه شفاءً أمر لا يعم الطبائع والأنفس فهذا كتاب الله هو الشفاء النافع وهو أعظم الشفاء وما أقل المستشفين به بل لا يزيد الطبائع الرديئة إلا رداءً ولا يزيد الظالمين إلا خساراً وكذلك ذكر الله والإقبال عليه والابانة إليه والفرع إلى الصلاة كم قد شفى به من عليل وكم قد عوفى به من مريض وكم قام مقام كثير من الأدوية التي لا تبلغ قريباً من مبلغه في الشفاء وأنت ترى كثيراً من الناس بل أكثرهم لا نصيب لهم من الشفاء بذلك أصلاً ولقد رأيت في بعض كتب الأطباء المسلمين في ذكر الأدوية المفردة ذكر الصلاة ذكرها في باب الصاد وذكر من منافعها في البدن التي توجب الشفاء وجوها عديدة ومن منافعها في الروح والقلب . وسمعت شيخنا أبا العباس بن تيمية رحمه الله يقول وقد عرض له بعض الألم فقال له الطبيب أضرب ما عليك الكلام في العلم والفكر فيه والتوجه والذكر فقال أستم تزعمون أن النفس إذا قويت وفرحت أوجب فرحها لها قوة تعين بها الطبيعة على دفع العارض فإنه عدوها فإذا قويت عليه قهرته فقال له الطبيب بلى فقال إذا اشتغلت نفسى بالتوجه والذكر والكلام في العلم وظفرت بما يشكل عليها منه وفرحت به وقويت فأوجب ذلك دفع العارض هذا أو نحوه من الكلام . والمقصود أن ترك كثير من الناس الاستشفاء بالعسل لا يخرجهم عن كونه شفاءً كما أن ترك أكثرهم الاستشفاء بالقرآن من أمراض القلوب لا يخرجهم عن كونه شفاءً لها وهو شفاء لما في الصدور وإن لم يستشف به أكثر المرضى كما قال تعالى ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾ فعم بالموعظة والشفاء وخص بالهدى والمعرفة فهو نفسه شفاء استشفى به أو لم يستشف به ولم يصف الله في كتابه بالشفاء إلا القرآن والعسل فهما الشفاء أن هذا شفاء القلوب من أمراض غيرها وضلالها وأدواء شهاتها وشهواتها وهذا شفاء الأبدان من كثير من أسقامها وأخلاطها وآفاتنا . ولقد أصابني أيام مقامى بمكة أسقام مختلفة ولا طبيب هناك ولا أدوية كما في غيرها من المدن فكنت أستشفى بالعسل وماء زمزم ورأيت فيهما من الشفاء أمراً عجيباً وتأمل أختياره سبحانه وتعالى عن القرآن بأنه نفسه شفاء وقال عن العسل (فيه شفاء للناس) وما كان نفسه شفاءً أبلغ مما جعل فيه شفاء وليس هذا موضع استقصاء فوائد العسل ومنافعه .

فصل

ثم تأمل العبرة التي ذكرها الله عز وجل في الأنعام وما سقانا من بطونها من اللبن الخاص
السائغ الهنيء المرىء الخارج من بين الفرث والدم فتأمل كيف ينزل الغذاء من أفواهها إلى
المعدة فينقلب بعضه دماً بإذن الله وما يسرى في عروقها وأعضائها وشورها ولحومها فإذا
أرسلته العروق في مجاريها إلى جملة الأجزاء فبها كل عضو أو عصب وعضروف وشعر وظفر
وحافر إلى طبيعته ثم يبقى الدم في تلك الحزائن التي له إذ به قوام الحيوان ثم ينصب ثقله
إلى الكرش فيصير زبلاً ثم ينقلب باقيه لبناً صافياً أبيض سائغاً للشاربين فيخرج من بين
الفرث والدم حتى إذا أنهكت الشاة أو غيرها حلباً خرج الدم مشوباً بحمرة فصنى الله
سبحانه الألف من الثفل بالطبخ الأول فانفصل إلى السكبد وصار دماً وكان مخلوطاً
بالأخلاق الأربعة فأذهب الله عز وجل كل خاط منها إلى مقره وخزائنه المهيأة له من المرارة
والطحال والسكبية وبقي الدم الخاص يدخل في أوردة السكبد فينصب من تلك العروق إلى
الضرع فيقبله الله تبارك وتعالى من صورة الدم وطبعه وطعمه إلى صورة اللبن وطبعه وطعمه
فاستخرج من الفرث والدم فسل المعطل الجاحد من الذي دبر هذا التدبير وقدر هذا التقدير
وأتمن هذا الصنع ولطف هذا اللطف سوى اللطيف الخبير .

فصل

ثم تأمل العبرة في السمك وكيفية خلقته وأنه خلق غير ذى قوائم لأنه لا يحتاج إلى المشى
إذ كان مسكنه الماء ولم يخلق له رئة لأن منفعة الرئة التنفس والسمك لم يحتاج إليه لأنه ينعفس
في الماء وخلقت له عوض القوائم أجنحة شداد يقذف بها من جانبها كما يقذف صاحب المركب
بالمقاذيف من جانبي السفينة وكسى جلده قشوراً متداخلة كمتداخل الجوشن ليقويه من الآفات
وأعين بقوة الشم لأن بصره ضعيف والماء يحجبه فصار يشم الطعام من بعد فية تصده وقد ذكر
في بعض كتب الحيوان أن من فيه إلى صماخه منافذ فهو يصب الماء فيها بفيه ويرسله من
صماخيه فيتروح بذلك كما يأخذ الحيوان النسيم البارد بأنفه ثم يرسله ليتروح به فإن الماء
للحيوان البحري كالهواء للحيوان البري فهما بجران أحدهما أطف من الآخر بجر هواء
يسبح فيه حيوان البر وبحر ماء يسبح فيه حيوان البحر فلو فارق كل من الصنفين بحره إلى
البحر الآخر مات فدكا يختنق الحيوان البري في الماء يختنق الحيوان البحري في الهواء
فسبحان من لا يحصى العادون آياته ولا يحيطون بتفصيل آية منها على الانفراد بل أن علموا
فيها وجهاً جعلوا منها أوجهاً . فتأمل الحكمة البالغة في كون السمك أكثر الحيوان نسلاً . ولهذا
ترى في جوف السمكة الواحدة من البيض ما لا يحصى كثرة (وحكمة ذلك) أن يتسع لما

يعتدى به من أصناف الحيوان فإن أكثرها يأكل السمك حتى السباع لأنها في حافات الاجام
جائمة تمسك على الماء الصافي فإذا تعذر عليها صيد البر رصدت السمك فاختطفته فلما كانت
السباع تأكل السمك والطيور تأكله والناس تأكله والسمك الكبير تأكله ودواب البر تأكله
وقد جملة الله سبحانه غذاء لهذه الأصناف اقتضت حكمته أن يكون بهذه السكثرة ولو رأى
العبد مافي البحر من ضرور الحيوانات والجواهر والأصناف التي لا يحصيها إلا الله ولا
يعرف الناس منها إلا الشيء القليل الذي لا نسبة له أصلا إلى ما غاب عنهم لرأى العجب
ولعلم سعة ملك الله وكثرة جنوده التي لا يعلمها إلا هو (وهذا الجراد) نثرة حوت (١) من
حيتان البحر ينثره من منخره وهو جنود من جنود الله ضعيف الخلقة عجيب التركيب فيه
خلق سبع حيوانات فإذا رأيت عساكره قد أقبلت أبصرت جنوداً لا مرد له ولا يحصى منه
عدد ولا عدة فلو جمع الملك خيله ورجله ودوابه وسلاحه ليصده عن بلاده لما أمكنه ذلك فانظر كيف
ينساب على الأرض كالسيل فيغشى السهل والجبل والبدو والحضر حتى يسترن نور الشمس بسكثته ويسد
وجه السماء بأجنته ويبلغ من الجو إلى حيث لا يبلغ طائر أكبر جناحين منه فسل المعطل
من الذي بعث هذا الجنود الضعيف الذي لا يستطيع أن يرد عن نفسه حيوانا رام أخذه بلية
على العسكر أهل القوة والسكثرة والعدد والحيلة فلا يقدر أن يجمعهم على دفعه بل ينظرون
إليه يستمد بأقواتهم دونهم ويمزقها كل ممزق ويذر الأرض قفراً منها وهم لا يستطيعون أن
يردوه ولا يحولوا بينه وبينها وهذا من حكمته سبحانه أن يساط الضعيف من خلقه الذي لا
مؤنة له على القوى فينتقم به منه وينزل به ما كان يحذره منه حتى لا يستطيع لذلك ردا ولا صرفا
قال الله تعالى (وزيد أن نم على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين
ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) فواحسرتاه
على استقامة مع الله وإيثار لمرضاته في كل حال يمكن به الضعيف المستضعف حتى يرى
من استضعفه أنه أولى بالله ورسوله منه ولكن اقتضت حكمة الله العزيز الحكيم أن يأكل
الظالم الباغي ويتمتع في خفارة ذنوب المظلوم المبغي عليه فذنوبه من أعظم أسباب الرحمة في
حق ظالمه كما أن المسؤل إذا رد السائل فهو في خفارة ذنوبه ولو صدق السائل لما أفح من رده
وكذلك السارق وقاطع الطريق في خفارة منع أصحاب الأموال حقوق الله فيها ولو أدوام الله عليهم
فيها لحفظها الله عليهم وهذا أيضا باب عظيم من حكمة الله يطلع الناظر فيه على أسرار من أسرار
التقدير وتسلط العالم بعضهم على بعض وتمكين الجناة والبغاة فسبحان من له في كل شيء حكمة

(١) - (قوله نثرة حوت الخ) في هامش الأصل بخط بعض الفضلاء ما نصه ليس كذلك بل المراد من
كونه نثرة حوت اتحاد حكمها في حل أكل ميتتها كما صرح بذلك شراح الحديث اه وهو مقبول اه مرجحه .

بالغة وآية باهرة حتى أن الحيوانات العادية على الناس في أموالهم وأرزاقهم وأبدانهم تعيش في خفارة ما كسبت أيديهم ولولا ذلك لم يسلط عليهم منها شيء. ولعل هذا الفصل الاستفرادي أنفع لما مله من كثير من الفصول المتقدمة فإنه إذا أعطاه حقه من النظر والفكر عظم انتفاعه به جدا والله الموفق ويحكي أن بعض أصحاب الماشية كان يشوب اللبن ويبيعه على أنه خالص فأرسل الله عليه سيلا فذهب بالغنم فجعل يعجب فأتى في منامه فقيل له أتعجب من أخذ السيل غنمك أنه تلك القطرات التي شبت بها اللبن اجتمعت وصارت سيلا فقس على هذه الحكاية ما تراه في نفسك وفي غيرك. تعلم حينئذ أن الله قائم بالقسط وأنه قائم على كل نفس بما كسبت وأنه لا يظلم مثقال ذرة. والآثر الإسرائيلي معروف أن رجلا كان يشوب الخبز ويبيعه على أنه خالص فجمع من ذلك كيس ذهب وسافر به فركب البحر ومعه قرد له فلما نام أخذ القرد الكيس وصعد به إلى أعلى المركب ثم فتحه فجعل يلقى به ديارا في الماء ودينارا في المركب كأنه يقول له بلسان الحال ثمن الماء صار إلى الماء ولم يظلمك. وتأمل حكمة الله عز وجل في حبس الغيث عن عباده وابتلائهم بالقحط إذا منعوا الزكاة وحرموا المساكين كيف جوزوا على منع ما لبسوا كين قبلهم من القوت بمنع الله مادة القوت والرزق وحبسها عنهم فقال لهم بلسان الحال منعتم الحق فمنعتم الغيث فهلا استنزتموه ببئذل ما لله قبلكم. وتأمل حكمة الله تعالى في صرفه الهدى والإيمان عن قلوب الذين يصرفون الناس عنه فصددهم عنه كما صدوا عباده صددا بصد ومنعاً بمنع. وتأمل حكمته تعالى في محق أموال المرابين وتسليط المتلفات عليها كما فعلوا بأموال الناس ومحقوها عليهم وأنفقوها بالربا جوزوا إتلافاً باتلاف فقل أن ترى مرابيا إلا وآخريه إلى محق وقلة وحاجة. وتأمل حكمته تعالى في تسليط العدو على العباد إذا جار قويمهم على ضعيفهم ولم يؤخذ للظالم حقه من ظالمه كيف يسلط عليهم من يفعل بهم كفعالهم برعاياهم وضعفائهم سواء وهذه سنة الله تعالى منذ قامت الدنيا إلى أن تطوى الأرض ويعيدها كما بدأها. وتأمل حكمته تعالى في أن جعل ملوك العباد وأمراءهم وولاتهم من جنس أعمالهم بل كأن أعمالهم ظهرت في صور وولاتهم وملوكهم فان استقاموا استقامت ملوكهم وإن عدلوا عدلت عليهم وإن جاروا جاروا جارت ملوكهم وولاتهم وإن ظهر فيهم المنكر والخديعة فولاتهم كذلك وإن منعوا حقوق الله لديهم وبخلوا بها منعت ملوكهم وولاتهم ما لهم عندهم من الحق وبخلوا بها عليهم وإن أخذوا ممن يستضعفونه ما لا يستحقونه في معاملتهم أخذت منهم الملوك ما لا يستحقونه وضربت عليهم المكوس والوظائف وكلما يستخرجونه من الضعيف يستخرجه الملوك منهم بالقوة فعمالهم ظهرت في صور أعمالهم وليس في الحكمة الألهية أن يولى على الأشرار الفجار إلا من يكون من جنسهم ولما كان الصدر الأول خيار

القرون وأبرها كانت ولاتهم كذلك فلما شابوا شاب لهم الولاية لحكمة الله تأتي أن يولي علينا في مثل هذه الأزمان مثل معاوية وعمر بن عبد العزيز فضلا عن مثل أبي بكر وعمر بل ولاتنا على قدرنا وولاية من قبلنا على قدرهم وكل من الأمرين موجب الحكمة ومقتضاها ومن له فطنه إذا سافر بفكره في هذا الباب رأى الحكمة الالهية سائرة في القضاء والقدر ظاهرة وباطنة فيه كما في الخلق والأمر سواء فأياك أن تظن بظنك الفاسدان شيئا من أفضيته وأقداره عار عن الحكمة البالغة بل جميع أفضيته تعالى وأقداره واقعة على أتم وجوه الحكمة والصواب واكن العقول الضعيفة محجوبة بضعفها عن إدراكها كما أن الأبصار الخفائية محجوبة بضعفها عن ضوء الشمس وهذه العقول الضعاف إذا صادفها الباطل جالت فيه وصالت ونطقت وقالت كما أن الخفاش إذا صادفه ظلام الليل طار وسار .

خفافيش أعشاها النهار بضوته ولازمها قطع من الليل مظلم

وتأمل حكمته تبارك وتعالى في عقوبات الأمم الخالية وتنويعها عليهم بحسب تنوع جرائمهم كما قال تعالى ﴿ وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم ﴾ إلى قوله (يظلمون) وتأمل حكمته تعالى في مسخ من الأمم في صور مختلفة مناسبة لتلك الجرائم فإنها لما مسخت قلوبهم وصارت على قلوب تلك الحيوانات وطباعها اقتضت الحكمة البالغة أن جعلت صورهم على صورها لتم المناسبة ويكمل الشبه وهذا غاية الحكمة واعتبر هذا بمن مسخوا قرده وخنائير كيف غلبت عليهم صفات هذه الحيوانات وأخلاقها وأعمالها ثم إن كنت من المتوسمين فاقرأ هذه النسخة من وجوه أشباههم ونظرائهم كيف تراها بادية عليها وإن كانت مستورة بصورة الإنسانية فاقرأ نسخة القرده من صور أهل المسكر والخديعة والفسق الذين لا عقول لهم بل هم أخف الناس عقولا وأعظمهم مكرراً وخداعاً وفسقاً فإن لم تقرأ نسخة القرده من وجوههم فليست من المتوسمين واقرأ نسخة الخنازير من صور أشباههم ولا سيما أعداء خيار خلق الله بعد الرسل وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن هذه النسخة ظاهرة على وجوه الرافضة يقرأها كل مؤمن كاتب وغير كاتب وهي تظهر وتختفي بحسب خنزيرية القلب وخبيثه فإن الخنزير أخبث الحيوانات وأردؤها طباعاً ومن خاصيته أنه يدع الطيبات فلا يأكلها ويقوم الإنسان عن رجيحه فيبادر إليه فتأمل مطابقة هذا الوصف لأعداء الصحابة كيف تجده منطبقاً عليهم فإنهم عمدوا إلى أطيب خلق الله وأطهرهم فعادهم وتبرؤا منهم ثم والوا كل عدو لهم من النصارى واليهود والمشركين فاستعانوا في كل زمان على حرب المؤمنين الموالين لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمشركين والكفار وصرحوا بأنهم خير منهم فأى شبهة ومناسبة أولى بهذا الضرب من الخنازير فإن لم تقرأ هذه

النسخة من وجوههم فلسنت من الموسمين . وأما الأخبار التي تكاد تبلغ حد التواتر بمسوخ من مسخ منهم عند الموت خزيراً فأكثر من أن تذكر هاهنا وقد أفرد لها الحافظ بن عبد الواحد المقدسي كتاباً وتأمل حكمته تعالى في عذاب الأمم السالفة بعذاب الاستئصال لما كانوا أطول أعماراً وأعظم قوى وأعنى على الله وعلى رسوله فلما تقاصرت الأعمار وضعفت القوى رفع عذاب الاستئصال وجعل عذابهم بأيدي المؤمنين فكانت الحكمة في كل واحد من الأمرين ما اقتضته في وقته وتأمل حكمته تبارك وتعالى في إرسال الرسل في الأمم واحداً بعد واحد كلما مات واحد خلفه آخر لحاجتها إلى تتابع الرسل والأنبياء لضعف عقولها وعدم اكتفائها بآثار شريعة الرسول السابق فلما انتهت النبوة إلى محمد بن عبد الله رسول الله ونبيه أرسله إلى أكمل الأمم عقولاً ومعارف وأصحابها أذهاناً وأغزرها علوماً وبمشه بأكمل شريعة ظهرت في الأرض منذ قامت الدنيا إلى حين مبعثه فأغنى الله لامة بكامل رسولها وكامل شريعته وكامل عقولها وصحة أذهانها عن رسول يأتي بعده أقام له من أمته ورثة يحفظون شريعته ووكلمهم بها حتى يؤدوها إلى نظرائهم ويزرعوها في قلوب أشباههم فلم يحتاجوا معه إلى رسول آخر ولا نبي ولا محدث ولهذا قال صلى الله عليه وسلم أنه قد كان قبلكم في الأمم محدثون فإن يكن في أمتي أحد فعمر فجزم بوجود المحدثين في الأمم وعلق وجوده في أمته بحرف الشرط وليس هذا بتقصان في الأمة على من قبلهم بل هذا من كمال أمته على من قبلها فإنها لكاملها وكامل نبيها وكامل شريعته لا تحتاج إلى محدث بل إن وجد فهو صالح للتبابعة والاستشهاد لا أنه عمدة لأنها في غنية بما بعث الله به نبيها عن كل منام أو مكاشفة أو إلهام أو تحديث وأما من قبلها فللحاجة إلى ذلك جعل فيهم المحدثون . ولا تظن أن تخصيص عمر رضى الله عنه بهذا تفضيل له على أبي بكر الصديق بل هذا من أقوى مناقب الصديق فإنه لكامل مشربه من حوض النبوة وتمام رضاعه من ثدى الرسالة استغنى بذلك عما تلقاه من تحديث أو غيره فالذى يتلقاه من مشكاة النبوة أتم من الذى يتلقاه عمر من التحديث فتأمل هذا الموضع وأعطه حقه من المعرفة وتأمل مافيه من الحكمة البالغة الشاهدة لله بأنه الحكيم الخبير وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أكمل خلقه وأكملهم شريعة وإن أمته أكمل الأمم وهذا فصل معترض وهو أنفع فصول الكتاب ولولا الإطالة لوسعنا فيه المقال وأكثرنا فيه من الشواهد والأمثال ولقد فتح الله الكريم فيه الباب وأرشد فيه إلى الصواب وهو المرجو لتمام نعمته ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

فصل

فأعد الآن النظر فيك وفي نفسك مرة ثانية من الذى دبرك بألطف

التدبير وأنت جنين في بطن أمك في موضع لا يد تنالك ولا بصر يدركك ولا حيلة لك في التماس الغذاء ولا في دفع الضرر فمن الذي أجرى إليك من دم الأم ما يغذوك كما يغذو الماء النبات وقلب ذلك الدم لبنا ولم يزل يغذيك به في أضييق المواضع وأبعدها من حيلة التمسكسب والطلب حتى إذا كمل خلقك واستحكمت قوى أديمك على مباشرة الهواء وبصرك على ملاقات الضمياء وصلبت عظامك على مباشرة الأيدي والتقلب على الغبراء هاج الطاق بأملك فازعجك إلى الخروج أيما ازعاج إلى عالم الابتلاء فركضك الرحم ركضة من مكانك كأنه لم يضمك قط ولم يشتمل عليك فيما بعد ما بين ذلك القبول والاشتغال حين وضعت نطفة وبين هذا الدفع والطرود والإخراج وكان مبتهجا بحملك فصار يستغيث ويعج إلى ربك من ثقلك فمن الذي فتح لك بابه حتى ولجت ثم ضمه عليك حتى حفظت وكملت ثم فتح لك ذلك الباب ووسعه حتى خرجت منه كلبح البصر لم يخنقك ضيقه ولم تحبسك صعوبة طريقك فيه فلو تأملت حالك في دخولك من ذلك الباب وخروجك منه لذهب بك العجب كل مذهب فمن الذي أوحى إليه أن يتضايق عليك وأنت نطفة حتى لا تنفس هناك وأوحى إليه أن يتسع لك وينفسح حتى تخرج منه سليماً إلى أن خرجت فريداً وحيداً ضميماً لا قشرة ولا لباس ولا متاع ولا مال أحوج خلق الله وأضعفهم وأفقرهم فصرف ذلك اللبن الذي كنت تتغذى به في بطن أمك إلى خزانتي معلقتين على صدرها تحمل غذاءك على صدرها كما حملتك في بطنها ثم ساقه إلى تينك الخزانتي أنظف سوق على مجار وطرق قد تهيأت له فلا يزال واقفاً في طريقه ومجاربه حتى تستوفي ما في الخزانة فيجري وينساق إليك فهو بر لا تنقطع مادتها ولا تنسد طرقها يسوقها إليك في طرق لا يهتدى إليها الطواف ولا يسلكها الرجال فمن رققه لك وصفاه وأطاب طعمه وحسن لونه وأحكم طبخه أعدل لإحكام لا بالحار المؤذي ولا بالبارد الردي ولا المر ولا المالح ولا الكريه الرائحة بل قلبه إلى ضرب آخر من التغذية والمنفعة خلاف ما كان في البطن فوافاك في أشد أوقات الحاجة إليه على حين ظمأ شديد وجوع مفرط جمع لك فيه بين الشراب والغذاء فحين تولد قد تلمظت وحركت شفيتك للرضاع فوجد الثدي المعلق كالإدوة قد تدلى إليك وأقبل بدره عليك ثم جعل في رأسه تلك الحيلة التي هي بمقدار صغر فك فلا يضيق عنها ولا تتعب بالتقامها ثم أنقب لك في رأسها نقباً لطيفاً بحسب احتمالك ولم يوسعه فتختنق باللبن ولم يضيقه فتمصه بكلفة بل جعله بقدر اقتضته حكمته ومصالحتك فمن عطف عليك قلب الأم ووضع فيه الحنان العجيب والرحمة الباهرة حتى تكون في أنها ما يكون من شأنها وراحتها ومقيلها فإذا أحست منك بأدنى صوت أو بكاء قامت إليك وآثرتك على نفسها على عدد الأنفس منقادة إليك بغير قائد ولا سائق إلا قائد الرحمة وسائق

الحنان تود لو أن كل ما يؤلمك بجسمها وأنه لم يطفرك منه شيء. وأن حياتها تزداد في حياتك فن الذى وضع ذلك فى قلبها حتى إذا قوى بدنك واتسعت أمعاؤك وخشنت عظامك واحتجت إلى غذاء أصلب من غذائك ليشتد به عظمك ويقوى عليه لحمك . وضع فى فيك آله القطع والطحن فنصب لك أسنانا تقطع بها الطعام وطواحين تطحنه بها فن الذى حبسها عنك أيام رضاعك رحمة بأمك ولطفًا بها ثم أعطاكها أيام أكلك رحمة بك وإحسانًا إليك ولطفًا بك فلو أنك خرجت من البطن ذا سن وناب وناجذ وضرس كيف كان حال أمك بك ولو أنك منعها وقت الحاجة إليها كيف كان حالك بهذه الأظعمة التى لا تسيغها إلا بعد تقطيعها وطحنها وكلما ازدادت قوة وحاجة إلى الأسنان فى أكل المطاعم المختلفة زيد لك فى تلك الآلات حتى تنتهى إلى النواجذ فتطبق نهش اللحم وقطع الخبز وكسر الصلب ثم إذا ازدادت قوة زيد لك فيها حتى تنتهى إلى الطواحين التى هى آخر الأضراس . فن الذى ساعدك بهذه الآلات وأنجدك بها ومكنك بها من ضروب الغذاء ؟ ثم أنه اقتضت حكمته أن أخرجك من بطن أمك لا تعلم شيئاً بل غيباً لا عقل ولا فهم ولا علم وذلك من رحمته بك فإنك على ضعفك لا تحتمل العقن والفهم والمعرفة بل كنت تتمزق وتتصدع بل جعل ذلك ينتقل فيك بالتدرج شيئاً فشيئاً فلا يصادفك ذلك وهلة واحدة بل يصادفك يسيراً يسيراً حتى يتكامل فيك . واعتبر ذلك بأن الطفل إذا سبي صغيراً من بلده ومن بين أبويه ولا عقل له فإنه لا يؤلمه ذلك وكلما كان أقرب إلى العقل كان أشق عليه وأصعب حتى إذا كان عاقلاً فلا تراه إلا كالواله الحيران ثم لو ولدت عاقلاً فهما كحالك فى كبرك تنغصت عليك حياتك أعظم تنغيص وتنكدت أعظم تنكيد لأنك ترى نفسك محمولا رضيعاً معصبا بالحرق مربوطاً بالقمط مسجوناً فى المهدي عاجزاً ضعيفاً عما يحاوله الكبير فكيف كان يكون عيشك مع تعلقك التام فى هذه الحالة ثم لم يكن يوجد لك من الحلاوة واللطافة والوقع فى القلب والرحمة بك ما يوجد للولود الطفل بل تكون أنك خلق الله وأنقلهم وأعتهم وأكثرهم فضولاً وكان دخولك هذا العالم وأنت غيبى لا تعقل شيئاً ولا تعلم ما فيه أهله محض الحكمة والرحمة بك والتدبير فتلقى الأشياء بذهن ضعيف ومعرفة ناقصة ثم لا يزال يتزايد فيك العقل والمعرفة شيئاً فشيئاً حتى تألف الأشياء وتمرن عليها وتخرج من التأمل لها والحيرة فيها وتستقبلها بحسن التصرف فيها والتدبير لها والإتيان لها . وفى ذلك وجوه أخر من الحكمة غير ما ذكرناه . فن هذا الذى هو قيم عليك بالمرصاد يرصدك حتى يوافقك بكل شيء من المنافع والآراب والآلات فى وقت حاجتك لا يقدمها عن وقتها ولا يؤخرها عنه ثم أنه أعطاك الأظفار

(١٧ مفتاح - ١)

وقت حاجتك إليها لمنافع شتى فإنها تعين الأصابع وتقويها فإن أكثر العمل لما كان
برؤس الأصابع وعليها الاعتماد أعيئت بالأظافر قوة لها مع ما فيها من منفعة حك الجسم
وقشط الأذى الذى لا يخرج باللحم عنه إلى غير ذلك من فوائدها ثم جملك بالشعر على
الرأس زينة ووقاية وصيانة من الحر والبرد إذ هو مجمع الحواس ومعدن الفكر
والذكر وثمرة العقل تنهى إليه ثم خص الذكر بأن جعل وجهه بالحماية وتوابعها وقارا
وهيبة له وجمالا وفصلا له عن سن الصبا وفرقا بينه وبين الإناث وبقية الأثني على
حالها لما خلقت له من استمتاع الذكر بها فبقي وجهها على حاله ونضارته ليكون أهيج للرجل
على الشهوة وأكمل للذة الاستمتاع فالماء واحدا والجوهر واحد والوعاء واحد واللتاح واحد
فمن الذى أعطى الذكر الذكورية والأثني الأنوثة. ولا تلتفت إلى ما يقوله الجهلة من الطباة نعيين
فى سبب الإذكار والإيناث وحالة ذلك على الامور الطبيعية التى لا تكاد تصدق فى هذا الموضوع
إلا اتفاقا وكذبها أكثر من صدقها وليس استناد الإذكار والإيناث إلا إلى محض المرسوم
الإلهى الذى يلقى به إلى ملك التصوير حين يقول يارب ذكر أم أنثى شقى أم سعيد فما الرزق
فما الأجل فيوحى ربك ما يشاء ويكتب الملك فاذا كان للطبيعة تأثيراً فى الإذكار والإيناث
فلها تأثير فى الرزق والأجل والشقاوة والسعادة وإلا فلا إذ يخرج الجميع ما يوحىه الله إلى
الملك ونحن لا ننكر ان لذلك أسبابا باخر ولكن تلك من الأسباب التى استأثر الله بها دون
البشر قال الله تعالى (لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن
يشاء الذكور) إلى قوله قدير . فذكر أصناف النساء الأربعة مع الرجال . أحدها من تلد الإناث
فقط . الثانية من تلد الذكور فقط . الثالثة من تلد الزوجين الذكر والأثني وهو معنى التزويج
هنا أن يجعل ما يهب له زوجين ذكراً وأنثى . الرابعة العقيم التى لا تلد أصلا . وبما يدل على أن
سبب الإذكار والإيناث لا يعلمه البشر ولا يدرك بالقياس والفكر وإنما يعلم بالوحى ماروى
مسلم فى صحيحه من حديث ثوبان قال كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم فجاء حبر من أخبار
اليهود فقال السلام عليك يا محمد فدفعته دفعة كاد يصرع منها فقال لم تدفعنى فقلت ألا تقول
يا رسول الله فقال اليهودى إنما ندعوه باسمه الذى سماه به أهله فقال رسول الله صلى الله عليه
وسلم إن اسمى محمد الذى سماني به أهلى قال اليهودى جئت أسألك فقال رسول الله صلى الله عليه
وسلم أينفعك شيء إن حدثتلك قال أسمع بأذنى فنهكت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعود معه فقال سل
فقال اليهودى أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات فقال رسول الله
^{صلى الله عليه وسلم} هم فى الظلمة دون الجسر قال فمن أول الناس إجازة قال فقراء المهاجرين قال اليهودى فما
تحفتهم حين يدخلون الجنة فقال زيادة كبد حوت ذى النون قال فما غذاؤهم على أثرها قال

ينفجر لهم نور الجنة الذي يأكل من أطرافها قال فما شراهم عليه قال من عين تسمى
سلسبيلا قال صدقت وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه إلا نبي أو رجل أو رجلان
قال ينفعك إن حدثتكم قال أسمع بأذني قال جئت أسألك عن الولد قال ماء الرجل أبيض وماء
المرأة أصفر فإذا اجتمعا فعلا مني الرجل مني المرأة أذكر بإذن الله وإن علا مني المرأة مني
الرجل أنثى بإذن الله قال اليهودى لقد صدقت وإنك لنبى ثم انصرف فقال رسول الله صلى
الله عليه وسلم لقد سألتني عن هذا الذي سألتني عنه ومالى علم به حتى أتاني الله به والذي دل
عليه العقل والنقل أن الجنين يخلق من الماءين جميعاً فالذكر يقذف مائه في رحم الأنثى
وكذلك هي تنزل مائها إلى حيث ينتهي مائه فيلتقي الماآن على أمر قد قدره الله وشاءه
فيخلق الولد بينهما جميعاً وأيهما غلب كان الشبه له كما في صحيح البخارى عن حميد عن أنس
قال بلغ عبد الله بن سلام قدوم النبي ﷺ فأتاه فقال إني سألتك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي
قال ما أول أشرط الساعة وما أول طعام يأكله أهل الجنة ومن أى شيء ينزع الولد إلى
أبيه ومن أى شيء ينزع إلى أخواله فقال رسول الله ﷺ أخبرني بهن آفعا جبريل فقال
عبد الله ذلك عدو اليهود من الملائكة فقال رسول الله ﷺ أما أول أشرط الساعة فنار
تخسر الناس من المشرق إلى المغرب وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت وأما
الشبه في الولد فإن الرجل إذا غشى المرأة وسبقها مائه كان الشبه له وإن سبقته كان الشبه لها فقال
أشهد أنك رسول الله وذكر الحديث وفي الصحيحين عن أم سلمة قالت يا رسول الله إن الله لا يستحي
من الحق هل على المرأة من غسل إذا هي احتلمت قال نعم إذا رأت الماء الأصفر فضحكت أم سلمة
فقال أو تحتلم المرأة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فهم يشبهها الولد فهذه الأحاديث الثلاثة تدل
على أن الولد يخلق من الماءين وأن الإذكار والإيناث يكون بغلبة أحد الماءين وقهره الآخر
وعلوه عليه وإن الشبه يكون بالسبق فمن سبق مائه إلى الرحم كان الشبه له وهذه أمور ليس
عند أهل الطبيعة ما يدل عليها ولا تعلم إلا بالوحى وليس في صناعتهم أيضاً ما ينافيها على أن
في النفس من حديث ثوبان ما فيها وأنه يخاف أن لا يكون أحد رواه حفظه كما ينبى وأن
يكون السؤال إنما وقع فيه عن الشبه لا عن الإذكار والإيناث كما سأل عنه عبد الله بن
سلام ولذلك لم يخرج البخارى وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن أبي بكر عن أنس عن
النبي صلى الله عليه وسلم قال إن الله وكل بالرحم ملكاً فيقول يارب نطفة يارب علقة يارب
مضغة فإذا أراد أن يخلقها قال يارب أذكر أم أنثى شتى أم سعيد فما الرزق فما الأجل فيكتب
كذلك في بطن أمه أفلا ترى كيف أحال بالإذكار والإيناث على مجرد المشيئة وقرنه بما لا تأثير للطبيعة
فيه من الشقاوة والسعادة والرزق والأجل ولم يتعرض الملك لكتابة الذى للطبيعة فيه مدخل ولا ترى
عبد الله بن سلام لم يسأل إلا عن الشبه الذى يمكن الجواب عنه ولم يسأل عن الإذكار والإيناث

مع أنه أبلغ من الشبه والله أعلم وإن كان رسول الله ﷺ قد قاله فهو عين الحق وعلى كل تقدير فهو يبطل ما زعمه بعض الطبايعيين من معرفة أسباب الإذكار والإيناث والله أعلم .

فصل

فانظر كيف جعلت آلات الجماع في الذكر والأنثى جميعاً على وفق الحكمة فجعلت في حق الذكر آلة ناشزة تمتد حتى توصل المنى إلى قعر الرحم بمنزلة من يناول غيره شيئاً فهو يمد يده إليه حتى يوصله إياه ولأنه يحتاج إلى أن يقذف ماءه في قعر الرحم وأما الأنثى فجعل لها وعاء مجوف لأنها تحتاج إلى أن تقبل ماء الرجل وتمسكه وتشتمل عليه فأعطيت آلة تليق بها ثم لما كان ماء الرجل ينحدر من أجزاء الجسد رقيقاً ضعيفاً لا يخلق منه الولد جعل له الأنثيان وعاء يطبخ فيهما ويحكم إنضاجه ليشدد وينعقد ويصير قابلاً لأن يكون مبدأً للتخليق ولم تحتج المرأة إلى ذلك لأن رقة مائها ولطافته إذا مزج غاظ ماء الرجل وشدته قوى به واستحكم ولو كان الماء أن رقيقان ضعيفان لم يتكون الولد منهما وخص الرجل بآلة النضج والطبخ لحكم منها أن حرارته أقوى والأنثى باردة فلو أعطيت تلك الآلة لم يستحكم طبخ الماء وإنضاجه فيها ومنها أن ماءها لا يخرج عن محله بل ينزل من بين ترائبها إلى محله . ومنها أنها لما كانت محلاً للجماع أعطيت من الآلة ما يليق بها فلو أعطيت آلة الرجل لم تحصل لها اللذة والاستمتاع ولما كانت تلك الآلة معطلة بغير منفعة فالحكمة التامة فيما وجدت خلقته كل منهما عليه .

فصل

فارجع الآن إلى نفسك وكرر النظر فيك فهو يكفيك وتأمل أعضائك وتقدير كل عضو منها للأرب والمنفعة المهمة لها فالإيدان للعلاج والبطش والأخذ والإعطاء والمخاربة والدفع . والرجلان لحمل البدن والسعي والركوب وانتصاف القامة والعينان للاهتمام والجمال والزينة والملاحة ورؤية مافي السموات والأرض وآياتهما وعجايبهما . والفم للغذاء والكلام والجمال وغير ذلك . والأنف للنفس وإخراج فضلات الدماغ وزينة للوجه . واللسان للبيان والترجمة عنك . والأذنان صاحبتي الأخبار تؤديانها إليك . واللسان يبلغ عنك . والمعدة خزانه يستقر فيها الغذاء فتنضجه وتطبخه وتصلحه إصلاحاً آخر وطبخاً آخر غير الإصلاح والطبخ الذي توليته من خارج فأنت تعاني إنضاجه وطبخه وإصلاحه حتى تظن أنه قد كمل وأنه قد استغنى عن طبخ آخر وإنضاج آخر وطباخه الداخل ومنضجه يعاني من نضجه وطبخه ما لا تهتدي إليه ولا تقدر عليه فهو يوقد عليه نيراناً تذيب الحصى وتذيب ما لا تذيبه النار وهي في أطف موضع منك لا تحرقك ولا تتهب وهي أشد حرارة من النار وإلا فما يذيب هذه الأطعمة الغليظة الشديدة جداً حتى يجعلها ماء ذائباً وجعل الكبد للتخليص وأخذصفو الغذاء وأطفه ثم رتب منها مجارى

وظرفا يسوق بها الغذاء إلى كل عضو وعظم وعصب ولحم وشعر وظفر وجعل المنازل والابواب لإدخال ما ينفعك وإخراج ما يضرك وجعل الأوعية المختلفة خزائن تحفظ مادة حياتك فهذه خزائنه للطعام وهذه خزائنه للحرارة وهذه خزائنه للدم وجعل منها خزائن مؤديات لتلا تخطلط بالخزائن الأخرى فجعل خزائن للمرة السوداء وأخرى للبرة الصفراء وأخرى للبول وأخرى للبنى فتأمل حال الطعام في وصوله إلى المعدة وكيف يسرى منها في البدن فإنه إذا استقر فيها اشتملت عليه وانضمت فتطبخه وتجمد صنعمته ثم تبعثه إلى الكبد في مجار دقاق وقد جعل بين الكبد وبين تلك المجارى غشاء رقيقا كالمصفاة الضيقة الأبخاش تصفيه فلا يصل إلى الكبد منه شيء غليظ خشن فيمنكروها لأن الكبد رقيقة لا تحمل الغليظ فإذا قبلته الكبد أنفذته إلى البدن كله في مجار ميماءة بمنزلة المجارى المعدة للماء ليسلك في الأرض فيعمها بالسقى ثم يبعث ما بقى من الخبث والفضول إلى مغاير ومصارف قد أعدت لها فما كان من مرة صفراء بعثت به إلى المرارة وما كان من مرة سوداء بعثت به إلى الطحال وما كان من الرطوبة المائية بعثت به إلى المثانة فمن ذا الذى تولى ذلك كله وأحكمه ودبره وقدره أحسن تقدير وكأنى بك أيها المسكين تقول هذا كله من فعل الطبيعة وفي الطبيعة عجائب وأسرار فلو أراد الله أن يهديك لسألت نفسك بنفسك وقلت أخبرني عن هذه الطبيعة أهى ذات قائمة بنفسها لها علم وقدرة على هذه الأفعال العجيبة أم ليست كذلك بل عرض وصفة قائمة بالمطبوع تابعة له محمولة فيه فإن قالت لك بل هى ذات قائمة بنفسها لها العلم التام والقدرة والإرادة والحكمة فقل لها هذا هو الخالق البارئ المصور فلم تسمينه طبيعية وبالله من ذكر الطبايع ومن يرغب فيها فهلا سميته بما سمي به نفسه على السن رسله ودخلت في جملة العقلاء والسعداء فإن هذا الذى وصفت به الطبيعة صفته تعالى وإن قالت لك بل الطبيعة عرض محمول مفتقر إلى حامل وهذا كله فعلها بغير علم منها ولا إرادة ولا قدرة ولا شعور أصلا وقد شوهد من آثارها ما شوهد فقل لها هذا ما لا يصدق ذو عقل سليم كيف تصدر هذه الأفعال العجيبة والحكم الدقيقة التى تعجز عقول العقلاء عن معرفتها وعن القدرة عليها ممن لا عقل له ولا قدرة ولا حكمة ولا شعور وهل التصديق بمثل هذا الإدخول في سلك المجانين والمبرسمين ثم قل لها بعد ولو ثبت لك ما أدعيت فمعلوم أن مثل هذه الصفة ليست بخالفة لنفسها ولا مبدعة لذاتها فمن ربه ومبدعها وخالقها ومن طبعها وجعلها تفعل ذلك فهى إذا من أدل الدلائل على بارئها وفاطرها وكال قدرته وعلمه وحكمته فلم يجد عليك تعطيلك رب العالم وجحدك الصفاته وأفعاله إلا مخافتك العقل والفطرة ولو حاكمتك إلى الطبيعة لرأيتك أنك خارج عن موجبها فلا أنت مع موجب العقل ولا الفطرة ولا الطبيعة ولا الإنسانية أصلا وكفى بذلك جهلا وضلالا فإن رجعت إلى العقل وقلت لا يوجد حكمة إلا من حكيم قادر عليم ولا نديب

متقن إلا من صانع قادر مختار مدبر عليم بما يريد قادر عليه لا يعجزه ولا يؤوده قيل لك فإذا أقررت ويحك بالخلق العظيم الذى لا إله غيره ولا رب سواه فدع تسميته طبيعة أو عقلا فما لا أو موجبا بذاته وقل هذا هو الله الخالق البارىء المصور رب العالمين وقيوم السموات والأرضين ورب المشارق والمغرب الذى أحسن كل شىء خلقه وأنقن ما صنع فإلك جحدت أسماءه وصفاته وذاته وأضفت صنيعه إلى غيره وخلقه إلى سواه مع أنك مضطر إلى الإقرار به وإضافة الإبداع والخلق والربوبية والتدبير إليه ولا بد والحمد لله رب العالمين على أنك لو تأملت قولك طبيعة ومعنى هذه اللفظة لذلك على الخالق البارىء لفظها كما دل العقول عليه معناها لأن طبيعة فعيلة بمعنى مفعولة أى مطبوعة ولا يحتمل غير هذا البتة لأنها على بناء الغرائز التى ركبت فى الجسم ووضعت فيه كالسجية والغريزة والبحيرة والسليقة والطبيعة فهى التى طبع عليها الحيوان وطبعت فيه ومعلوم أن طبيعة من غير طابع لها محال فقد دل لفظ الطبيعة على البارى تعالى كما دل معناها عليه والمسلمون يقولون إن الطبيعة خلق من خلق الله مسخر مربوب وهى سنته فى خليقته التى أجزاها عليه ثم أنه يتصرف فيها كيف شاء وكما شاء فيسلبها تأثيرها إذا أراد ويقلب تأثيرها إلى ضده إذا شاء ليرى عباده أنه وحده الخالق البارىء المصور وأنه يخلق ما يشاء كما يشاء (وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) وإن الطبيعة التى انتهى نظر الخفافيش إليها إنما هى خلق من خلقه بمنزلة سائر مخلوقاته فكيف يحسن بمن له حظ من إنسانية أو عقل أن ينسى من طبعها وخلقها ويحيل الضحك والإبداع عليها ولم يزل الله سبحانه يسلبها قوتها ويحيلها ويقلبها إلى ضد ما جعلت له حتى يرى عباده أنها خلقه وصنعه مسخرة بأمره (ألاله الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين)

فصل

فأعد النظر فى نفسك وتأمل حكمة اللطيف الخبير فى تركيب البدن ووضع هذه الأعضاء مواضعها منه وإعدادها لما أعدت له وإعداد هذه الأوعية المعدة لحمل الفضلات وجمعها لكيلا تنتشر فى البدن فتفسده ثم تأمل الحكمة البالغة فى تميمتك وكثرة أجزائك من غير تفكيك ولا تفصيل ولو أن صائغا أخذ تمثالا من ذهب أو فضة أو نحاس فأراد أن يجعله أكبر مما هو هل كان يمكنه ذلك إلا بعد أن يكسره ويصوغه صياغة أخرى والرب تعالى ينمى جسم الطفل وأعضائه الظاهرة والباطنة وجميع أجزائه وهو باق ثابت على شكله وهيئته لا يتزائل ولا ينفك ولا ينقص . وأعجب من هذا كله تصويره فى الرحم حيث لا تراه العيون ولا تلمسه الأيدي ولا تصل إليه الآلات فيخرج بشراً سوياً مستوفياً لكل ما فيه مصلحته وقوامه

من عضو وحاسة وآلة من الأحشاء والجوارح والحوامل والأعصاب والرباطات والأغشية والعظام المختلفة الشكل والقدر والمنفعة والموضع إلى غير ذلك من اللحم والشحم والمخ وما في ذلك من دقيق التركيب ولطيف الخلقة وحق الحكمة وبديع الصنعة كل هذا صنع الله أحسن الخالقين في قطرة من ماء مهين وما كرر عليك في كتابه مبدأ خلقك وإعادته ودعاك إلى التفكير فيه إلا لما بك من العبرة والمعرفة ولا تستطل هذا الفصل وما فيه من نوع تكرار يشتمل على مزيد فائدة فإن الحاجة إليه ماسة والمنفعة عظيمة فانظر إلى بعض ما خصك به وفضلك به على البهائم المهملة إذ خلقك على هيئة تنصب قائماً وتستوى جالساً وتستقبل الأشياء بيدك وتقبل عليها بجملةك فيمكنك العمل والصلاح والتدبير ولو كنت كذوات الأربع المكبوبة على وجهها لم يظهر لك فضيلة تميز واختصاص ولم يتهياً منك ما تهياً من هذه النسبة.

فصل

قال الله تعالى (ولقد كرمتنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم الآية) فسبحان من ألبسه خلع الكرامة كلها من العقل والعلم والبيان والنطق والشكل والصورة الحسنة والهيئة الشريفة والقدر الممتد والاكتماب العلوم بالاستدلال والفكر واقتناص الأخلاق الشريفة الفاضلة من البر والطاعة والانقياد فكم بين حاله وهو نطفة في داخل الرحم مستودع هناك وبين حاله والملك يدخل عليه في جنات عدن (فتبارك الله أحسن الخالقين) فالديار قرية والمؤمن رئيسها والكل مشغول به ساع في مصالحه والكل قد أقيم في خدمته وحوادثه فالملائكة الذين هم حملة عرش الرحمن ومن حوله يستغفرون له والملائكة الموكلون به يحفظونه والموكلون بالقطر والنبات يسعون في رزقه ويعملون فيه والأفلاك مسخرت منقاداً دائرة بما فيه مصالحه والشمس والقمر والنجوم مسخرات جاريات بحساب أزمنته وأوقاته وإصلاح روائب أوقاته والعالم الجوى مسخر له برياحه وهوائه وسحابه وطييره وما أودع فيه والعالم السفلي كله مسخر له مخلوق لمصالحه أرضه وجباله وبحاره وأنهاره وأشجاره وثماره ونباته وحيوانه وكل ما فيه كما قال تعالى (الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم) إلى قوله كفار فالسائر في معرفة آلاء الله وتأمل حكمته وبديع صفاته أطول باعاً وأملاً صواعاً من اللصيق بمكانه المقيم في بلد عادته وطبعه راضياً بعيش بني جنسه لا يرضى لنفسه إلا أن يكون واحداً منهم يقول لي أسوة بهم وهل

أنا إلا من ربيعة أو مضر * وليست نفائس البضائع إلا لمن امتطى غارب الاغتراب وطوف
في الآفاق حتى رضى من الغنيمة بالإياب فاستلان ما استوعره البطالون وأنس بما استوحش
منه الجاهلون .

فصل

فأعد النظر في نفسك وحكمة الخلاق العليم في خلقك وانظر إلى الحواس التي منها تشرف
على الأشياء كيف جعلها الله في الرأس كالمصباح فوق المنارة لتمكين بها من مطالعة الأشياء
ولم يجعل في الأعضاء التي تتمتع كاليد والرجلين فتعرض للأفات بمباشرة الأعمال والحركات
ولا جعلها في الأعضاء التي في وسط البدن كالبطن والظهر فيعسر عليك التلفت والاطلاع على
الأشياء فلما لم يكن لها في شيء من هذه الأعضاء موضع كان الرأس أليق المواضع بها وأجملها
فالرأس صومعة الحواس . ثم تأمل الحكمة في أن جعل الحواس خمسا في مقابلة المحسوسات
الخمس ليلقى خمسا بخمس كي لا يبقى شيء من المحسوسات لا يناله بحاسة فجعل البصر في مقابلة
المبصرات والسمع في مقابلة الأصوات والشم في مقابلة أنواع الروائح المختلفة والذوق في
مقابلة الكيفيات المذوقات واللس في مقابلة الملووسات فأى محسوس بقى بلا حاسة ولو كان
في المحسوسات شيء غير هذه لأعطاك له حاسة سادسة ولما كان ماعداها إنما يدرك بالباطن
أعطاك الحواس الباطنة وهي هذه الأخراس التي جرت عليها السنة العامة والخاصة حيث
يقولون في المفكر المتأمل . ضرب أخماسه في أسداسه فأخماسه حواسه الخمس وأسداسه جهاته
الست وأرادوا بذلك أنه جذبه القلب وسار به في الأقطار والجهات حتى قلب حواسه الخمس
في جهاته الست وضررها فيها لشدة فكره .

فصل

ثم أعينت هذه الحواس بمخلوقات آخر منفصلة عنها تكون واسطة في إحساسها فأعينت
حاسة البصر بالضياء والشعاع فلولا لم ينتفع الناظر ببصره فلو منع الضياء والشعاع لم تنفع
العين شيئا . وأعينت حاسة السمع بالهواء يحمل الأصوات في الجو ثم يلقها إلى الأذن
فتحويه ثم تقلبه إلى القوة السامعة ولولا الهواء لم يسمع الرجل شيئا . وأعينت حاسة الشم
بالنسيم اللطيف يحمل الرائحة ثم يؤديها إليها فتدركها فلولا هو لم تشم شيئا . وأعينت حاسة
الذوق بالريق المتحلل في الفم تدرك القوة الزائقة به طعوم الأشياء ولهذا لم يكن له طعم
لا حلو ولا حامض ولا مالح ولا حريف لأنه كان يحيل تلك الطعوم إلى طعمه ولا يحصل به
مقصوده . وأعينت حاسة اللمس بقوة جعلها الله فيها تدرك بها الملووسات ولم تحتاج إلى شيء

من خارج بخلاف غيرها من الحواس بل تدرك الملموسات بلا واسطة بينها وبينها لأنها إنما تدركها بالاجتماع والملاسة فلم تحتاج إلى واسطة .

فصل

ثم تأمل حال من عدم البصر وما يناله من الخلل في أموره فإنه لا يعرف موضع قدمه ولا يبصر ما بين يديه ولا يفرق بين الألوان والمناظر الحسنة من القبيحة ولا يتمكن من استفادة علم من كتاب يقرأه ولا يتهمياً له الاعتبار والنظر في عجائب ملك الله هذا مع أنه لا يشعر بكثير من مصالحة ومضاره فلا يشعر بحفرة يهوى فيها ولا بحيوان يقصده كالسميع فيتحرز له ولا بعدو يهوى نحوه ليقنتله ولا يتمكن من هرب إن طلب بل هو ملق السلم لمن رامه بأذى ولولا حفظ خاض من الله له قريب من حفظ الوليد وكلاءته لكان عظمه أقرب من سلامته فإنه بمنزلة لحم على وضم ولذلك جعل الله ثوابه إذا صبر واحتسب الجنة ومن كمال لطفه أن عكس نور بصره إلى بصيرته فهو أقوى الناس بصيرة وحنساً وجمع عليه همه فقلبه بمجموع عليه غير مشتت ليهنأ له العيش وتم مصلحته ولا يظن أنه مغموم حزين متأسف . هذا حكم من ولد أعمى فأما من أصيب بعينيه بعد البصر فهو بمنزلة سائر أهل البلاء المتقلبين من العافية إلى البلية فالحنمة عليه شديدة لأنه قد حيل بينه وبين ما ألفه من المرأى والصور ووجوه الانتفاع ببصره فهذا له حكم آخر . وكذلك من عدم السمع فإنه يفقد روح المخاطبة والمحاوراة ويعدم لذة المذاكرة ونعمه الأصوات الشجية وتعظم المؤنة على الناس في خطابهم ويتبرمون به ولا يسمع شيئاً من أخبار الناس وأحاديثهم فهو بينهم شاهد ككاتب وحى كبيت وقريب كبعيد . وقد اختلف النظار في أيهما أقرب إلى الكمال وأقل اختلالاً لأموره الضرير أو الأطرش وذكروا في ذلك وجوهاً وهذا مبنى على أصل آخر وهو أى الصفتين أكمل صفة السمع أو صفة البصر وقد ذكرنا الخلاف فيهما فيما تقدم من هذا الكتاب وذكرنا أقوال الناس وأدلتهم والتحقيق في ذلك فأى الصفتين كانت أكمل فالضرر بعدمها أقوى . والذي يليق بهذا الموضع أن يقال عادم البصر أشد هماً ضرراً وأسلمهما ديناً وأحمدهما عاقبة وعادم السمع أقلهما ضرراً في دنياه وأجهلها بدينه وأسوأ عاقبة فإنه إذا عدم السمع عدم المواعظ والنصائح وانسدت عليه أبواب العلوم النافعة وانفتحت له طرق الشهوات التي يدركها البصر ولا يناله من العلم ما يكفه عنها فضرره في دينه أكثر وضرر الأعمى في دنياه أكثر ولهذا لم يكن في الصحابة أطرش وكان فيهم جماعة أضرأ وقل أن يبنتلى الله أو ليأاه بالطرش ويبنتلى كثير منهم بالأعمى . فهذا فصل الخطاب في هذه المسئلة فضررة الطرش في الدين ومضرة العمى في الدنيا والمعافى من عافاه الله منهما ومتعه بسمعه وبصره وجعلهما الوارثين منه .

فصل

وأما من عدم البيانين بيان القلب وبيان اللسان فذلك بمنزلة الحيوانات البهيمية بل هي أحسن حالا منه فإن فيها ما خلقت له من المنافع والمصالح التي تستعمل فيها وهذا يجمل كثيرا مما تهتدى إليه البهائم ويلقى نفسه فيما تكلف البهائم أنفسها عنه وأن عدم بيان اللسان دون بيان القلب ومن عدم خاصة الإنسان وهي النطق اشتدت المؤنة به وعليه وعظمت حسرته وطال تأسفه على رد الجواب ورجع الخطاب فهو كالمقعد الذي يرى ما هو محتاج إليه ولا تمتد إليه يده ولا رجله فكلم الله على عبده من نعمة سابعة في هذه الأعضاء والجوارح والقوى والمنافع التي فيه فهو لا يلتفت إليها ولا يشكر الله عليها ولو فقد شيئاً منها لتنى أنه له بالدنيا وما عليها فهو يتقلب في نعم الله بسلامه أعضائه وجوارحه وقواه وهو عار من شكرها ولو عرضت عليه الدنيا بما فيها بزوال واحدة منها لأبى المعاوضة وعلم أنها معاوضة غبن (إن الإنسان لظلوم كفور).

فصل

ثم تأمل حكمته في الأعضاء التي خلقت فيك آحادا ومثنى وثلاث ورباع وما في ذلك من الحكم البالغة فالرأس واللسان والأنف والذكر خلق كل منهما واحدا فقط إذ لا مصلحة في كونه أكثر من ذلك ألا ترى أنه لو أضيف إلى الرأس رأس آخر لانتقلا بدنه من غير حاجة إليه لأن جميع الحواس التي يحتاج إليها مجتمعة في رأس واحد ثم أن الإنسان كان ينقسم برأسه قسمين فإن تكلم من أحدهما وسمع به وأبصر وشم وذاق بقي الآخر معطلا لا أرب فيه وإن تكلم وأبصر وسمع بهما معا كلاما واحداً وسمعاً واحداً وبصراً واحداً كان الآخر فضلة لا فائدة فيه وإن اختلف إدراكهما اختلفت عليه أحواله وإدراكاته وكذلك لو كان له لسانان في فم واحد فإن تكلم بهما كلاما واحداً كان أحدهما ضائعا وإن تكلم بأحدهما دون الآخر فكذلك وإن تكلم بهما معا كلامين مختلفين خلط على السامع ولم يدر بأى الكلامين يأخذ وكذلك لو كان له هنوان وفان لكان مع قبح الخلقة أحدهما فضلة لا منفعة فيه وهذا بخلاف الأعضاء التي خلقت مثنى كالعينين والأذنين والشفتين واليدين والرجلين والساقين والفخذين والوركين والثديين فإن الحكمة فيها ظاهرة والمصلحة بيّنة والجمال والزينة عليها بادية فلو كان الإنسان بعين واحدة لكان مشوه الخلقة ناقصها وكذلك الحاجبان وأما اليدان والرجلان والساقان والفخذان فتعددهما ضروري للإنسان لا تتم مصلحته إلا بذلك ألا ترى من قطعت إحدى يديه أو رجله كيف تبقى حاله وعجزه فلو أن النجار والخياط والحداد والحجاز والبناء وأصحاب الصنائع التي لا تنأى إلا باليدين شلت يد أحدهما لتعطلت عليه صنعته فاقتضت الحكمة

أن أعطى من هذا الضرب من الجوارح والأعضاء اثنين اثنين وكذلك أعطى شفتين لأنه لا تكمل مصلحته إلا بهما وفيهما ضروب عديدة من المنافع ومن الكلام والذوق وغطاء الفم والجمال والزينة والقبلة وغير ذلك وأما الأعضاء الثلاثة فهي جوانب أنفه وحيطاناه وقد ذكرنا حكمة ذلك فيما تقدم وأما الأعضاء الرباعية فالكعاب الأربعة التي هي تجمع القدمين والممسكة لهما وبهما قوة القدمين وحر كتهما وفيهما منافع الساقين وكذلك أجنفان العينين فيها من الحكم والمنافع أنها غطاء للعينين ووقاية لهما وجمال وزينة وغير ذلك من الحكم فافتضت الحكمة البالغة أن جمعت الأعضاء على ما هي عليه من العدد والشكل والهيئة فلو زادت أو نقصت لكان نقصا في الخلقة ولهذا يوجد في النوع الإنساني من زائد في الخلقة وناقص منها ما يدل على حكمة الرب تعالى وأنه لو شاء لجعل خلقه كلهم هكذا وليعلم الكامل الخلقة تمام النعمة عليه وأنه خلق خلقا سويا معتدلا لم يزد في خلقه ما لا يحتاج إليه ولم ينقص منه ما يحتاج إليه كما يراه في غيره فهو أجدر أن لم يزد شكرا وحمداً لربه ويعلم أن ذلك ليس من صنع الطبيعة وإنما ذلك صنع الله الذي أتقن كل شيء خلقه وأنه يخاق ما يشاء .

فصل

من أين للطبيعة هذا الاختلاف والفرق الحاصل في النوع الإنسان بين صورهم فقل أن يرى إثنان متشابهان من كل وجه وذلك من أندر ما في العالم بخلاف أصناف الحيوان كأنعم والوحوش والطيور وسائر الدواب فإنك ترى السرب من الطباء والثلة من الغنم والذود من الإبل والصور من البقر تتشابه حتى لا يفرق بين واحد منها وبين الآخر إلا بعد طول تأمل أو بعلامة ظاهرة والناس مختلفة صورهم وخلقهم فلا يكاد اثنان منهم يجتمعان في صفة واحدة وخلقها واحدة بل ولا صوت واحد وحنجرة واحدة والحكمة البالغة في ذلك أن الناس يحتاجون إلى أن يتعارفوا بأعينهم وحلاهم لما يجري بينهم من المعاملات فلو لا الفرق والاختلاف في الصور لفسدت أحوالهم وتشت نظامهم ولم يعرف الشاهد من المشهود عليه ولا المدين من رب الدين ولا البائع من المشتري ولا كان الرجل يعرف عرسه من غيرها للاختلاط ولا هي تعرف بعلمها من غيره وفي ذلك أعظم الفساد والخلل فمن الذي ميز بين حلاهم وصورهم وأصواتهم وفرق بينها بفروق لا تنالها العبارة ولا يدركها الوصف فسل المعطل أهذا فعل الطبيعة وهل في الطبيعة اقتضاء هذا الاختلاف والافتراق في النوع وأين قول الطبايعيين أن فعلها متشابه لأنها واحدة في نفسها لا تفعل بإرادة ولا مشيئة فلا يمكن اختلاف أفعالها فكيف يجمع المعطل بين هذا وهذا فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور وربما وقع في النوع الإنساني تشابه بين اثنين لا يكاد يميز بينهما فتعظم عليهم المؤنة في

معاملتهما وتشدد الحاجة إلى تمييز المستحق منهما والمؤاخذ بذنبه ومن عليه الحق وإذا كان هذا يعرض في التشابه في الأسماء كثيرا ويلقى الشاهد والحاكم من ذلك ما يلقي فما الظن لو وضع التشابه في الخلقة والصورة. ولما كان الحيوان البهيم والطيور والحوش لا يضرها هذا التشابه شيئا لم تدع الحكمة إلى الفرق بين كل زوجين منها. فتبارك الله أحسن الخالقين الذي وسعت حكمته كل شيء.

فصل

ثم تأمل لم صارت المرأة والرجل إذا أدركا اشتراكا في نبات العانة ثم ينفرد الرجل عن المرأة باللحمية فإن الله عز وجل لما جعل الرجل قيبا على المرأة وجعلها كالخول له والعاني في يديه ميزه عليها بما فيه له المهابة والعز والوقار والجلالة لكمالها وحاجته إلى ذلك ومنعتها المرأة لكمال الاستمتاع بها والتلذذ لتبقى نضارة وجهها وحسنه لا يشينه الشعر واشتركا في سائر الشعور للحكمة والمنفعة التي فيها.

فصل

ثم تأمل هذا الصوت الخارج من الحلق وتهيمته آلاته والكلام وانتظامه والحروف ومخارجها وأدواتها ومقاطعها وأجراسها تجدد الحكمة الباهرة في هواء ساذج يخرج من الجوف فيسلك في أنبوبة الخنجرة حتى ينتهي إلى الحلق واللسان والشفيتين والأسنان فيحدث له هناك مقاطع ونهايات وأجراس يسمع له عند كل مقطع ونهاية جرس مبين منفصل عن الآخر يحدث بسببه الحرف فهو صوت واحد ساذج يجري في قصبته واحدة حتى ينتهي إلى مقاطع وحدود تسمع له منها تسعة وعشرين حرفا يدور عليها الكلام كله أمره ونهيه وخبره واستخباره ونظمه ونثرة وخطبه ومواعظه وفضوله فمنه المضحك ومنه المبكي ومنه الموقس ومنه المطمع ومنه المخوف ومنه المرجى والمسلى والحزن والقابض للنفس والجوارح والمندب لها والذي يستقم الصحيح ويبرى السقيم ومنه ما يزيل النعم ويحل النقم ومنه ما يستدفع به البلاء ويستجلب به النعماء وتستمال به القلوب ويؤلف به بين المتباغضين ويوالي به بين المتعادين ومنه ما هو بضد ذلك ومنه الكلمة التي لا يلقي لها صاحبها بالأيهوى بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب والكلمة التي لا يلقي لها بالاصحابها يركض بها في أعلا علمين في جوار رب العالمين فسبحان من أنشأ ذلك كله من هواء ساذج يخرج من الصدر لا يدري ما يراد به ولا أين ينتهي ولا أين مستقره هذا إلى ما في ذلك من اختلاف الألسنة واللغات التي لا يحصيها إلا الله فيجتمع الجمع من الناس من بلاد شتى فيتكلم كل منهم بلغته

فتمسح لغات مختلفة وكلاما منتظما مؤلفا ولا يدري كل منهم ما يقول الآخر واللسان الذي هو جارحة واحدة في الشكل والمنظر وكذلك الحلق والأضراس والشفقتان والكلام مختلف متفاوت أعظم تفاوت فالآية في ذلك كالآية في الأرض التي تسمى بماء واحد وتخرج مع ذلك من أنواع النبات والأزهار والحبوب والثمار تلك الأنواع المختلفة المتباينة ولهذا أخبر الله سبحانه في كتابه أن في كل منهما آيات فقال (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين) وقال (وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد) الآية فانظر الآن في الحنجرة كيف هي كالأنبوب لخروج الصوت واللسان والشفقتان والأسنان لصياغة الحروف والنغمات ألا ترى أن من سقطت أسنانه لم يقم الحروف التي تخرج منها ومن اللسان ومن سقطت شفته كيف لم يقم الراء واللام ومن عرضت له آفة في حلقة كيف لم يتمكن من الحروف الحلالية. وقد شبه أصحاب التشریح مخرج الصوت بالمزمار والرثة بالزق الذي ينفخ فيه من تحته ليدخل الريح فيه والفضلات التي تقبض على الرثة ليخرج الصوت من الحنجرة بالكف التي تقبض على الزق حتى يخرج الهواء في القصب والشفقتين والأسنان التي تصوغ الصوت حروفا ونغما بالأصابع التي تختلف على المزمار فتصوغه ألحانا والمقاطع التي ينتهي إليها الصوت بالأبجاش التي في القصبه حتى قيل إن المزمار إنما اتخذ على مثال ذلك من الإنسان فإذا تعجبت من الصناعة التي عملها أكف الناس حتى تخرج منها تلك الأصوات فما أحراك بطول التعجب من الصناعة الإلهية التي أخرجت تلك الحروف والأصوات من اللحم والدم والعروق والعظام ويابعد ما بينهما ولكن المؤلف المعتاد لا يقع عند النفوس موقع التعجب فإذا رأت مالا نسبة له إليه أصلا إلا أنه غريب عندها تلقته بالتعجب وتسبيح الرب تعالى وعندها من آياته العجيبة الباهرة ما هو أعظم من ذلك مما لا يدركه القياس ثم تأمل اختلاف هذه النغمات وتباين هذه الأصوات مع تشابه الحناجر والحلوق والألسنة والشفافة والأسنان فمن الذي ميز بينها أتم تمييز مع تشابه محالها سوى الخلاق العليم.

فصل

وفي هذه الآلات مآرب أخرى ومنافع سوى منفعة الكلام ففي الحنجرة مسلك النسيم البارد الذي يروح على الفؤاد بهذا النفس الدائم المتتابع وفي اللسان منفعة الذوق فتذوق به الطعوم وتدرك لذتها ويميز به بينها فيعرف حقيقة كل واحد منها وفيه مع ذلك معونة على إساعة الطعام وأن يلوكه ويقبله حتى يسهل مسلكه في الحلق وفي الأسنان من المنافع ما هو معلوم من تقطيع الطعام كما تقدم وفيها إسناد الشفتين وامساكهما

عن الاسترخاء وتشويه الصورة ولهذا ترى من سقطت أسنانه كيف تسترخى شفتاه وفي الشفتين
منافع عديدة يرشف بها الشراب حتى يكون الداخل منه إلى حلقه بقدر فلا يشرق به الشراب
ثم هما باب معلق على الفم الذي إليه ينتهى إليه ما يخرج من الجوف ومنه يبتدى ما يلج في
فهما عطاء وطابق عليه يفتحهما البواب متى شاء ويغلقهما إذا شاء وهما أيضاً جمال وزينة للوجاهة
وفيها منافع أخرى سوى ذلك وانظر إلى من سقطت شفتاه ما أشوه منظره . وقد بان أن
كل واحد من هذه الأعضاء يتصرف إلى وجوه شتى من المنافع والمآرب والمصالح كما تتصرف
الأداة الواحدة في أعمال شتى هذا ولو رأيت الدماغ وكشف لك عن تركيبه وخلقه رأيت
العجب العجيب وتكشفت لك عن تركيب يحار فيه العقل قد لف بحجب وأعشية بعضها فوق
بعض لتصونه عن الأعراض وتحفظه عن الاضطراب ثم أطبقت عليه الجمجمة بمنزلة الخوذ
وبيضة الحديد لتقيه حد الصدمة والسقطة والضربة التي تصل إليه فتلتقاها تلك البيضة عند
بمنزلة الخوذة التي على رأس المحارب ثم جللت تلك الجمجمة بالجلد الذي هو فروة الرأس يستر العظم
من البروز للمؤذيات ثم كسيت تلك الفروة حلة من الشعر الوافر وقاية لها وسترا من الحر والبر
والأذى وجمالاً وزينة له فسل المعطل من الذي حصن الدماغ هذا التحصين وقدره هذا التقديم
وجمله خزائنه أودع فيها من المنافع والقوى والعجائب ما أودعه ثم أحكم سد تلك الخزانة
وحصنها أتم تحصين وصانها أعظم صيانة وجعلها معدن الحواس والادراكات ومن الذي جعلها
الأجفان على العينين كالغشاء والأشجار كالأشراج والأهداب كالرفوف عليها إذا فتحت ومن
الذي ركب طبقاتها المختلفة طبقة فوق طبقة حتى بلغت عدد السموات سبعمائة وجعل لكل طبقة
منفعة وفائدة فلو اختلت طبقة منها لا اختل البصر ومن شقها في الوجه أحسن شق وأعظم
أحسن شكل وأودع الملاحظة فهما وجعلها مرآة للقلب وطلبة وحارسا للبدن ورائداً يرسا
كالجند في مهماته فلا يتعب ولا يعيا على كثرة ظمئه وطول سفره ومن أودع النور الباصر في
في قدر جرم العدسة فيرى فيه السموات والأرض والجمال والشمس والقمر والبحار والعجائب
من داخل سبع طبقات وجعلها في أعلا الوجه بمنزلة الحارس على الرابية العالية ربيعة للبدن
ومن حجب الملك في الصدر وأجلسه هناك على كرسى المملوكة وأقام جند الجوارح والأعضاء والقوى
الباطية والظاهرة في خدمته وذلكم الهوى مؤتمرة إذا أمرها منتهية إذا نهاها سامعة له مطيعة تسكن
وتسعى في مرضاته فلا تستطيع منه خلاصاً ولا خروجا عن أمره فمنها رسولها ومنها بريده ومنها
ترجمانه ومنها أعوانه وكل منها على عمل لا يتعبه ولا يتصرف في غير عمله حتى إذا أرا
الراحة أوعز إليها بالهدوء والسكون لئلا أخذ الملك راحته فإذا استيقظ من منامه قامت جنود

بين يديه على أعمالها وذهبت حيث وجهها دائمة لا تفتر فلو شاهدته في محل ملكه والأشغال والمراسيم صادرة عنه وواردة والعساكر في خدمته والبرد تتردد بينه وبين جنده ورعيته لرأيت له شأنا عجيبا فإذا فات الجاهل الغافل من العجائب والمعارف والعبر التي لا يحتاج فيها إلى طول الأسفار وركوب القفار قال تعالى (وفي الأرض آيات للذوقين وفي أنفسكم أفلا تبصرون) فدعا عباده إلى التفكير في أنفسهم والاستدلال بها على فاطرها وباريها ولولا هذا لم نوسع الكلام في هذا الباب ولأطلنا النفس إلى هذه الغاية ولكن العبرة بذلك حاصلة والمنفعة عظيمة والفكرة فيه مما يزيد المؤمن إيمانا فكم دون القلب من حرس وكم له من خادم وكم له من عميد ولا يشعر به والله ما خلق له وهياً له وأريد منه وأعد له من الكرامة والنعيم أو الهوان والعذاب فأما على سرير الملك في مقعد صدق عند مليك مقتدر ينظر إلى وجه ربه ويسمع خطابه وإما أسير في السجن الأعظم بين أطباق النيران في العذاب الآليم فلو عقل هذا السلطان ماهياً له لاضن بما ملكه وسعى في الملك الذي لا ينقطع ولا يبديد ولكنه ضرت عليه حجب الغفلة ليقضى الله أمراً كان مفعولاً .

فصل

ومن جعل في الحلق منفذين * أحدهما للصوت والنفس الواصل إلى الرئة * والآخر للطعام والشراب وهو المرىء الواصل إلى المعدة وجعل بينهما حاجزاً يمنع عبور أحدهما في طريق الآخر فلو وصل الطعام من منفذ النفس إلى الرئة لأهلك الحيوان ومن جعل الرئة مروحة للقلب تروح عليه لانتفى ولا تفتر لكيلا تنحصر الحرارة فيه فيهلك . ومن جعل المنافذ لفضلات الغذاء وجعل لها أشراجاً تقبضها لكيلا تجرى جرياً دائماً فتفسد على الإنسان عيشه ويمنع الناس من مجالسة بعضهم بعضاً . ومن جعل المعدة كأشد ما يكون من العصب لأنها هيئت لطبخ الأطعمة وإنضاجها فلو كانت لحمًا غضاً لانتبخت هي ونضجت فجعلت كالعصب الشديد لتقوى على الطبخ والإنضاج ولا تنهكها النار التي تحتها . ومن جعل السكبد رقيقة ناعمة لأنها هيئت لقبول الصفو اللطيف من الغذاء والهضم وعمل هو أطف من عمل المعدة . ومن حصن المنخ اللطيف الرقيق في أنابيب صلبة من العظام ليحفظها ويصونها فلا تفسد ولا تذوب . ومن جعل الدم السيال محبوباً محصوراً في العروق بمنزلة الماء في الوعاء ليضبط فلا يجري . ومن جعل الأظفار على أطراف الأصابع وقاية لها وصيانة من الأعمال والصناعات . ومن جعل داخل الأذن مستوياً كهيئة الكوكب ليترد فيه الصوت حتى ينتهي إلى السمع الداخل وقد انكسرت حدة الهواء فلا ينكوه وليتعذر على الهواء النفوذ إليه قبل أن يمسك ويمسك

ما عساه أن يغشاها من القذى والوسخ ولغير ذلك من الحكم ومن جعل على الفخذين والوركين من اللحم أكثر مما على سائر الأعضاء ليقبها من الأرض فلا تألم عظامها من كثرة الجلوس كما يألم من قد نحل جسمه وقل لحمه من طول الجلوس حيث لم يحل بينه وبين الأرض حائل . ومن جعل ماء العينين ملحاً يحفظها من الذوبان وماء الأذن مرا يحفظها من الذباب والهوام والبعوض وماء الفم عذبا يدرك به طعوم الأشياء فلا يخاطبها طعم غيرها . ومن جعل باب الخلاء في الإنسان في أستر موضع كما أن البناء الحكيم يجعل موضع التخلي في أستر موضع في الدار وهكذا منفذ الخلاء من الإنسان في أستر موضع ليس بارزاً من خلفه ولا ناشزاً بين يديه بل مغيب في موضع غامض من البدن يلتقى عليه الفخذان بما عليهما من اللحم متوارياً فإذا جاء وقت الحاجة وجلس الإنسان لها برز ذلك المخرج الأرض . ومن جعل الأسنان حداداً لقطع الطعام وتفصيله والأضراس عراضاً لرضه وطحنه . ومن سلب الإحساس الحيواني الشعور والأظفار التي في الآدمي لأنها قد تطول وتمتد وتدعو الحاجة إلى أخذها وتخفيفها فلو أعطاها الحس لآلمته وشق عليه أخذ ما شاء منها ولو كانت تحس لوقع الإنسان منها في إحدى البليتين أما تركها حتى تطول وتفحش وتثقل عليه وأما مقاساة الألم والوجع عند أخذها . ومن جعل باطن الكف غير قابل لإنبات الشعر لأنه لو أشعر لتعذر على الإنسان صحة اللبس ولشق عليه كثير من الأعمال التي تباشر بالكف وهذه الحكمة لم يكن هن الرجل قابلاً لإنباته لأنه يمنعه من الجماع . ولما كانت المادة تقتضى إنباته هناك نبت حول هن الرجل والمرأة وهذه الحكمة سلبت عن الشفتين وكذا باطن الفم وكذا أيضاً القدم أخصها وظاهرها لأنها تلاقى التراب والوسخ والطين والشوك فلو كان هناك شعر لآذى الإنسان جدا وحمل من الأرض كل وقت ما يشغل الإنسان وليس هذا الإنسان وحده بل ترى البهائم قد جللمها الشعر كلها وأخلت هذه المواضع منه لهذه الحكمة أفلا ترى الصنعة الإلهية كيف سلبت وجوه الخطأ والمضرة وجاءت بكل صواب وكل منفعة وكل مصلحة ولما اجتهد الطاعنون في الحكمة العائنون للخلق فيما يطعنون به عابوا الشعور تحت الآباط وشعر العانة وشعر باطن الأنف وشعر الركبتين وقالوا أي حكمة فيها وأى فائدة . وهذا من فرط جهلهم وسخافة عقولهم فإن الحكمة لا يجب أن تكون بأسرها معلومة للبشر ولا أكثرها بل لا نسبة لما علوه إلى ما جهلوه فيها لو قيست علوم الخلائق كلهم بوجوده حكمة الله تعالى في خلقه وأمره إلى ما خفي عنهم منها كانت كمنقرة عصفور في البحر وحسب الفطن اللبيب أن يستدل بما عرف منها على ما لم يعرف ويعلم الحكمة فيما جهله منها مثلها فيماعله بل أعظم وأدق وما مثل هؤلاء الحقى النوكى لإلا كمثل رجل لا علمه بدقائق الصنائع

والعلوم من البناء والهندسة والطب بل والحياكة والخياطة والنجارة إذا رام الاعتراض بعقله الفاسد على أربابها في شيء من آلاتهم وصنائعهم وترتيب صناعاتهم خفيت عليه فجعل كل ما خفي عليه منها شيء قال هذا لا فائدة فيه وأى حكمة تقتضيه هذا مع أن أرباب الصنائع بشر مثله يمكنه أن يشاركهم في صناعاتهم ويفوقهم فيها فما الظن بمن بهرت حكمته العقول الذي لا يشاركه مشارك في حكمته كما لا يشاركه في خلقه فلا شريك له بوجه فمن ظن أن يكتال حكمته بمكيال عقله أو يجعل عقله عياراً عليها فما أدركه أقر به وما لم يدركه نفاه فهو من أجهل الجاهلين ولله في كل ما خفي على الناس وجه الحكمة فيه حكم عديدة لا تدفع ولا تتكر. فاعلم الآن أن تحت منابت هذه الشعور من الحرارة والرطوبة ما اقتضت الطبيعة لإخراج هذه الشعور عليها ألا ترى أن العشب ينبت في مستنقع المياه بعد نضوب الماء عنها لما خصت به من الرطوبة ولهذا كانت هذه المواضع من أربط مواضع البدن وهي أقبل لنبات الشعر وأهياً فدفعت الطبيعة تلك الفضلات والرطوبات إلى خارج فصارت شعراً ولو حبست في داخل البدن لأضرته وأذت باطنه ونزوحها عين مصلحة الحيوان واحتباسها إنما يكون لنقص وآفة فيه وهذا كخروج دم الحيض من المرأة فإنه عين مصلحتها وكالها ولهذا يكون احتباسه فساد في الطبيعة ونقص فيها. ألا ترى أن من احتبس عنه شعر الرأس واللحية بعد إبانته كيف تراه ناقص الطبيعة ناقص الخلقة ضعيف التركيب فإذا شاهدت ذلك في الشعر الذي عرفت بعض حكمته فمالك لا تعتبره في الشعر الذي خفيت عليك حكمته. ومن جعل الريق يجرى دائماً إلى الفم لا ينقطع عنه لئيل الخلق واللهوات ويسهل الكلام ويسبخ الطعام. قال بقراط الرطوبة في الفم مطية الغذاء فتأمل حالك عند ما يحف ريقك بعض الجفاف ويقل ينبوع هذه العين التي لا يستغنى عنه.

فصل

ثم تأمل حكمة الله تعالى في كثرة بكاء الأطفال وما لهم فيه من المنفعة فإن الأطباء والطبايعين شهدوا منفعة ذلك وحكمته وقالوا في أدمغة الأطفال رطوبة لو بقيت في أدمغتهم لأحدثت أحداثاً عظيمة فالبكاء يسيل ذلك ويحدره من أدمغتهم فتقوى أدمغتهم وتصح. وأيضاً فإن البكاء والعياط يوسع عليه مجارى النفس ويفتح العروق ويصاحبها ويقوى الأعصاب وكما للطفل من منفعة ومصلحة فيما تسمعه من بكائه وصراخه فإذا كانت هذه الحكمة في البكاء الذى سببه ورود الألم المؤذى وأنت لا تعرفها ولا تتكاد تخظر ببالك فهكذا يلام الأطفال فيه وفي أسبابه وعواقبه الحميدة من الحكم ما قد خفي على أكثر الناس واضطرب عليهم الكلام في حكمه اضطراب الأرشية وسلوكوا في هذا الباب مسالك. فقالت (١٨ - مفتاح ١)

طائفة ليس إلا محض المشيئة العارية عن الحكمة والغاية المطلوبة وسدوا على أنفسهم هذا الباب جملة وكذا سئلوا عن شيء أجابوا بلا يسأل عما يفعل وهذا من أصدق الكلام وليس المراد به نفي حكمته تعالى وعواقب أفعاله الحميدة وغاياتها المطلوبة منها وإنما المراد بالآية إفراده بالإلهية والربوبية وإنه لكمال حكمته لامعقب لحكمه ولا يعترض عليه بالسؤال لأنه لا يفعل شيئاً سدى ولا خلق شيئاً عبثاً وإنما يسأل عن فعله من خرج عن الصواب ولم يكن فيه منفعة ولا فائدة ألا ترى إلى قوله ﴿ أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا فسبحان الله رب العرش عما يصفون لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ كيف ساق الآية في الإنكار على من اتخذ من دونه آلهة لاتساويه فسواها به مع أعظم الفرق فقوله لا يسأل عما يفعل إثبات لحقيقة الإلهية وإفراد له بالربوبية والإلهية وقوله وهم يسألون نفي صلاح تلك الآلهة المتخذة الإلهية فإنها مسئولة مربية مدبرة فكيف يسوى بينها وبينه مع أعظم الفرقان فهذا الذي سيق له الكلام فجعلها الجبرية ملجأ ومعقلا في إنكار حكمته وتعليل أفعاله بغاياتها المحمودة وعواقبها السديدة والله الموفق للصواب . وقالت طائفة الحكمة في ابتلائهم وتعويضهم في الآخرة بالثواب التام فتميل لهم قد كان يمكن إيصال الثواب إليهم بدون هذا الإيلام فأجابوا بأن توسط الإيلام في حقهم كتوسط التكليف في حق المكلفين فتميل لهم فهذا ينتقض عليكم بإيلام أطفال الكفار فأجابوا بأننا لا نقول أنهم في النار كما قاله من قاله من الناس والنار لا يدخلها أحد إلا بذنب وهؤلاء لا ذنب لهم وكذا الكلام معهم في مسألة الأطفال والحجاج فيها من الجانبيين بما ليس هذا موضعه فأورد عليهم مالا جواب لهم عنه وهو إيلام أطعاهم الذين قدر بلوغهم وموتهم على الكفر فإن هذا لا يعويض فيه قطعاً ولا هو عقوبة على الكفر فإن العقوبة لا تكون سلفاً وتعجيلاً فخاروا في هذا الموضوع واضطربت أصولهم ولم يأتوا بما يقبله العقل . وقالت طائفة ثالثة هذا السؤال لو تأمله مورده لعلم أنه ساقط وإن تكلف الجواب عنه إلزام مالا يلزم فإن هذه الآلام وتوابعها وأسبابها من لوازم النشأة الإنسانية التي لم يخلق منفكاً عنها فهى كالحر والبرد والجوع والعطش والتعب والنصب والهضم والغم والضعف والعجز فالسؤال عن حكم الحاجة الى الأكل عند الجوع والحاجة الى الشرب عند الظمأ وإلى النوم والراحة عند التعب فإن هذه الآلام هى من لوازم النشأة الإنسانية التي لا ينفك عنها الإنسان ولا الحيوان فلو تجرد عنها لم يكن إنساناً بل كان ملكاً أو خلقاً آخر وليست آلام الأطفال بأصعب من آلام البالغين لكن لما صارت لهم عادة سهل موقعها عندهم وكم بين ما يقاسيه الطفل ويعانيه البالغ العاقل وكل ذلك من مقتضى الإنسانية وموجب الحلقة فلو لم يخلق كذلك لكان خلقاً آخر فيرى

أن الطفل إذا جاع أو عطش أو برد أو تعب قد خص من ذلك بما لم يمتحن به الكبير فيأيلامه
بغير ذلك من الأوجاع والأسقام كما يلامه بالجوع والعطش والبرد والحر دون ذلك أو فوقه وما خلق
الإنسان بل الحيوان إلا على هذه النشأة . قالوا فإن سأل سائل وقال فلم خلق كذلك وهلا
خلق خلقه غير قابلة للألم فهذا سؤال فاسد فإن الله تعالى خلقه في عالم الابتلاء والامتحان من
مادة ضعيفة فهي عرضة للأفات وركبه تركيباً معرضاً للأنواع من الآلام وجعل فيه الأخلاط
الأربعة التي لا قوام له إلا بها ولا يكون إلا عليها وهي لا محالة توجب امتزاجاً واختلاطاً
وتفاعلاً يعنى بعضها على بعض بكيفية تارة وبكميته تارة وبهما تارة وذلك موجب الآلام
قطعاً ووجود الملزوم بدون لازمه محال ثم أنه سبحانه ركب فيه من القوى والشهوة والإرادة
ما يوجب حركته الدائبة وسعيه في طلب ما يصلحه ودفع ما يضره بنفسه تارة وبمن يعينه تارة
فأوج النوع بعضه إلى بعض فحدث من ذلك الاختلاط بينهم وبغى بعضهم على بعض فحدث من
ذلك الآلام والشورور بنحو ما يحدث من امتزاج أخلاطه واختلاطها وبغى بعضها على بعض
والآلام لا تتخلف عن هذا الامتزاج أبداً إلا في دار البقاء والنعيم المقيم لاني دار الابتلاء
والامتحان فمن ظن أن الحكمة في أن تجعل خصائص تلك الدار في هذه فقد ظن
باطلاً بل الحكمة التامة البالغة إقتضت أن تكون هذه الدار بمنزلة عاقبتها بيلامها وراحتها
بعنائها ولذتها بآلامها وصحتها بسقمها وفرحها بغمها فهي دار ابتلاء تدفع بعض آفاتها ببعض
كما قال القائل :

أصبحت في دار بليات أدفع آفات بآفات

ولقد صدق فيك إذا فكرت في الأكل والشرب واللباس والجماع والراحة وسائر
ما يستلذ به رأيتك يدفع بها ما يقابل من الآلام والبليات أفلا تراك تدفع بالأكل ألم الجوع
وبالشرب ألم العطش وباللباس ألم الحر والبرد وكذا سائرهما ومن هنا قال بعض العقلاء
إن لذاتها لنا هي دفع الآلام لا غير فأما اللذات الحقيقية فلها دار أخرى ومحل آخر
غير هذه فوجود هذه الآلام واللذات الممتزجة المختلطة من الأدلة على المعاد وأن
الحكمة التي إقتضت ذلك هي أولى باقتضاء دارين دار خالصة اللذات لا يشوبها ألم ما ودار
خالصة الآلام لا يشوبها لذة ما والدار الأولى الجنة والدار الثانية النار أفلا ترى كيف ذلك
ذلك مع ما أنت مجبول عليه في هذه النشأة من اللذة والألم على الجنة والنار ورأيت
شواهدهما وأدلة وجودهما من نفسك حتى كأنك تعانيهما عياناً وانظر كيف دل العيان
والحس والوجود على حكمة الرب تعالى وعلى صدق رسله فيما أخبروا به من الجنة والنار
فتأمل كيف قاد النظر في حكمة الله إلى شهادة العقول والفطر بصدق رسله وما أخبروا

به تفصيلا يدل عليه العقل بجملا فأين هذا من مقام من أداء علمه إلى المعارضة بين ما جاءت به الرسل وبين شواهد العقل وأدلته واسكن تلك العقول كادها باريها ووكها إلى أنفسها خلقت بها عساكر الخلدان من كل جانب وحسبك بهذا الفصل وعظيم منفعته من هذا الكتاب والله المحمود المسئول تمام نعمته فهذه كلمات مختصرة نافعة في مسألة إيلاء الأطفال لعلمك لا تظفر بها في أكثر الكتب . فارجع الآن إلى نفسك وفكر في هذه الأفعال الطبيعية التي جعلت في الإنسان وما فيها من الحكمة والمنفعة وما جعل لكل واحد منها في الطبع المجرد والداعي الذي يقتضيه ويستحثه فالجوع يستحث الأكل ويطلبه لما فيه من قوام البدن وحياته وعماته والسكري يقتضى النوم ويستحثه لما فيه من راحة البدن والأعضاء واجام القوى وعودها إلى قوتها جديدة غير كالة والشبق يقتضى الجماع الذي به دوام النسل وقضاء الوطر وتمام اللذة فتجد هذه الدواعي تستحث الإنسان لهذه الأمور وتتقاضاها منه بغير اختياره وذلك عين الحكمة فإنه لو كان الإنسان إنما يستدعى هذه المستحثات إذا أراد لأوشك أن يشتغل عنها بما يعروه من العوارض مدة فينحل بدنه ويهلك ويترامى إلى الفساد وهو لا يشعر كما إذا احتاج بدنه إلى شيء من الدواء والصالح فدافعه وأعرض عنه حتى إذا استحكمت به الداء أهلكه فاقترضت حكمة اللطيف الخبير أن جعلت فيه بواعث ومستحثات تؤزه أزا إلى ما فيه قوامه وبقاؤه ومصالحته وترد عليه بغير اختياره ولا استدعائه فجعل لكل واحد من هذه الأفعال محرك من نفس الطبيعة يحركه ويحدوه عليه . ثم أنظر إلى ما يعطيه من القوى المختلفة التي بها قوامه فأعطى القوة الجاذبة الطالبة المستحثة التي تقتضى معلومها من الغذاء فتأخذها ويورده على الأعضاء بحسب قبولها ثم أعطى القوة الممسكة التي تمسك الطعام وتحبسه ريثما تنضجه الطبيعة وتحكم طبخه وتمهؤه لمصارفه وتبعثه لمستحقه . ثم أعطى القوة الهاضمة التي تصرفه في البدن وتمضمه عن المعدة ثم أعطى القوة الدافعة وهي التي تدفع ثقله ومالا منفعته فيه فتدفعه وتخرجه عن البدن لئلا يؤذيه وينهك فمن أعطاك هذه القوة عند شدة حاجتك إليها ومن جعلها خادماً لك ومن أعطاهما أفعالها واستعمل كل واحد منها على غير عمل الآخر ومن ألف بينها على تباينها حتى اجتمعت في شخص واحد ومحل واحد ولو عادى بينها كان بعضها يذهب بعضها فمن كان يحول بينه وبين ذلك فلولا القوة الجاذبة كيف كنت متحركاً لطلب الغذاء الذي به قوام البدن ولولا الممسكة كيف كان الطعام يذهب في الجوف حتى تمضمه المعدة ولولا الهاضمة كيف كان يطبخ حتى يخلص منه الصفو إلى سائر أجزاء البدن وأعماقه ولولا الدافعة كيف كان الثقل المؤذي القاتل لو انحسرت أولاً فأولاً فيستريح البدن فيخف

وينشط . فتأمل كيف وكلت هذه القرة بك والقيام بمصالحك فالبدن كدار للملك فيها حشمه وخدمه قد وكل بتلك الدار أقواماً يقومون بمصالحها فبعضهم لاقتضاء حوائجها وإيرادها عليها وبعضهم لقبض الوارد وحفظه وخزونه الى أن يهياً ويصلح وبعضهم يقبضه فيهيؤه ويصلحه ويدفعه الى أهل الدار ويفرقه عليهم بحسب حاجاتهم وبعضهم لمسح الدار وتنظيفها وكنسها من المزابل والأفذار فالملك هو الملك الحق المبين جل جلاله والدار أنت والحشم والخدم الأعضاء والجوارح والقوام عليها هذه القوى التي ذكرناها .

(تنبيه) فرق بين نظر الطبيب والطبايعى في هذه الأمور فنظرهما فيها مقصور على النظر في حفظ الصحة ودفع السقم فهو ينظر فيها من هذه الجهة فقط وبين نظر المؤمن العارف فيها فهو ينظر فيها من جهة دلالتها على خالقها وباريها وماله فيها من الحكم البالغة والنعيم السابغة والآلاء التي دعا العباد الى شكرها وذكرها .

(تنبيه) ثم تأمل حكمة الله عز وجل في الحفظ والنسيان الذي خص به نوع الإنسان وماله فيهما من الحكم واللعبد فيهما من المصالح فإنه لو لا القوة الحافظة التي خص بها لدخل عليه الخلل في أموره كلها ولم يعرف ماله وما عليه ولا ما أخذ ولا ما أعطى ولا ما سمع ورأى ولا ما قال ولا ما قيل له ولا ذكر من أحسن إليه ولا من أساء إليه ولا من عامله ولا من تنفعه فيقرب منه ولا من ضره فيبتأى عنه ثم كان لا يمتدى إلى الطريق الذي سلكه أول مرة ولو سلكه مرارا ولا يعرف علماً ولو درسه عمره ولا ينتفع بتجربة ولا يستطيع أن يعتبر شيئاً على ما مضى بل كان خليقاً أن ينساخ من الإنسانية أصلاً فتأمل عظيم المنفعة عليك في هذه الخلال وموقع الواحدة منها فضلاً عن جميعهن ومن أعجب النعم عليه نعمة النسيان فإنه لو لا النسيان لما سلا شيئاً ولا انقضت له حسرة ولا تعزى عن مصيبة ولا مات له حزن ولا بطل له حقد ولا تمتع بشيء من متاع الدنيا مع تذكر الآفات ولا رجا غفلة عدو ولا نقمة من حاسد فتأمل نعمة الله في الحفظ والنسيان مع اختلافهما وتضادها وجعله في كل واحد منهما ضرباً من المصلحة .

(تنبيه) ثم تأمل هذا الخلق الذي خص به الإنسان دون جميع الحيوان وهو خلق الحياء الذي هو من أفضل الأخلاق وأجلها وأعظمها قدراً وأكثرها نفعاً بل هو خاصة الإنسانية فمن لحياء فيه ليس معه من الإنسانية إلا اللحم والدم وصورتهما الظاهرة كما أنه ليس معه من الخير شيء ولو لا هذا الخلق لم يقر الضيف ولم يوف بالوعد ولم يؤد أمانة ولم يقض لأحد حاجة ولا تحرى الرجل الجميل فأثره والقبيح فتجنبه ولا ستر له عورة ولا امتنع من فاحشة وكثير من الناس لو لا الحياء الذي فيه لم يؤد شيئاً من الأمور المفترضة عليه ولم يرع مخلوق

حقاً ولم يصل له رحماً ولا بر له والذأ فإن الباعث على هذه الأفعال إما ديني وهو رجاء عاقبتها
الخميدة وإما دنيوي علوي وهو حياء فاعلمها من الخلق قد تبين أنه لولا الحياء إما من الخائني
أو من الخلائق لم يفعلها صاحبها . وفي الترمذي وغيره مرفوعاً استحياوا من الله حق الحياء
قالوا وما حق الحياء قال أن تحفظ الرأس وما حوى والبطن وما وعى وتذكر المقابر والبلى
وقال صلى الله عليه وسلم إذ لم تستح فاصنع ما شئت وأصح القولين فيه قول أبي عبيد والأكثرين أنه تهديد
كقوله تعالى (اعملوا ما شئتم) وقوله (كلوا وتمتعوا قليلاً) وقالت طائفة هو إذن وإباحة
والمعنى إنك إذا أردت أن تفعل فعلاً فانظر قبل فعله فإن كان مما يستحيا فيه من الله ومن
الناس فلا تفعله وإن كان مما لا يستحيا منه فافعله فإنه ليس بقبیح . وعندى أن هذا الكلام
صورته صورة الطلب ومعناه معنى الخبر وهو في قوة قولهم من لا يستحي صنع ما يشتهي فليس
بإذن ولا هو مجرد تهديد وإنما هو في معنى الخبر . والمعنى أن الرادع عن القبیح إنما هو الحياء
فمن لم يستح فإنه يصنع ما شاء وإخراج هذا المعنى في صيغة الطلب انسكتة بديعة جداً وهي أن
للإنسان أمرين وزاجرين أمر وزاجر من جهة الحياء فإذا أطاعه امتنع من فعل كل ما يشتهي
وله أمر وزاجر من جهة الهوى والطبيعة فمن لم يطع أمر الحياء وزاجره أطاع أمر الهوى والشهوة
ولا بد لإخراج الكلام في قالب الطلب يتضمن هذا المعنى دون أن يقال من لا يستحي
صنع ما يشتهي .

(تنبيه) ثم تأمل نعمة الله على الإنسان بالبيان النطق والبيان الخطي وقد اعتد
بهما سبحانه في جملة من اعتد به من نعمه على العبد فقال في أول سورة أنزلت على رسول الله
ﷺ (إقرأ باسم ربك الذي خلق الإنسان من علق إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم
علم الإنسان ما لم يعلم) فتأمل كيف جمع في هذه الكلمات مراتب الخلق كلها وكيف تضمنت
مراتب الوجودات الأربعة بأوجز لفظ وأوضحه وأحسنه فذكر أولاً عموم الخلق وهو
إعطاء الوجود الخارجي ثم ذكر ثانياً خصوص خلق الإنسان لأنه موضع العبرة والآية فيه
عظيمة ومن شهوده عما فيه محض تعدد النعم وذكور مادة خلقه هاهنا من العلة وفي سائر
المواضع يذكر ما هو سابق عليها إما مادة الأصل وهو التراب والطين أو الصلصال الذي
كالفتخار أو مادة الفرع وهو الماء المهيمن وذكر في هذا الموضوع أول مبادئ تعلق التخليق
وهو العلة فإنه كان قبلها نظفة فأول انتقالها إنما هو إلى العلة ثم ذكر ثالثاً التعليم بالقلم الذي
هو من أعظم نعمه على عباده إذ به تخلد العلوم وتثبت الحقوق وتعلم الوصايا وتحفظ الشهادات
ويضبط حساب المعاملات الواقعة بين الناس وبه تقيد أخبار الماضين للباقيين اللاحقين ولولا
الكتابة لانتقضت أخبار بعض الأزمنة عن بعض ودرست السنن وتخبط الأحكام ولم يعرف

الخلف مذاهب السلف وكان معظم الخلل الداخل على الناس في دينهم ودينهم إنما يعترهم من النسبيات الذي يحو صور العلم من قلوبهم فجعل لهم الكتاب وعاء حافظاً للعلم من الضياع كالأوعية التي تحفظ الأمتعة من الذهاب والبطلان فعمدة الله عز وجل بتعليم القلم بعد القرآن من أجل النعم والتعليم به وإن كان مما يخلص إليه الإنسان بالفطنة والحيلة فإنه الذي بلغ به ذلك وأوصله إليه عطية وهبها الله منه وفضل أعطاه الله إياه وزيادة في خلقه وفضله فهو الذي علمه الكتابة وإن كان هو المتعلم ففعله فعل مطاوع لتعليم الذي علم بالقلم فإن علمه فتعلم كما أنه دله الكلام فتكلم . هذا ومن أعطاه الذهن الذي يعي به واللسان الذي يترجم به والبنان الذي يخط به ومن هياً ذهنه لقبول هذا التعليم دون سائر الحيوانات ومن الذي أنطق لسانه وحرك بنانه ومن الذي دعم البنان بالكف ودعم الكف بالساعد فكلم الله من آية نحن غافلون عنها في التعليم بالقلم فقف وقفة في حال الكتابة وتأمل حالك وقد أمسكت القلم وهو جماد ووضعته على القرطاس وهو جماد فتولد من بينهما أنواع الحكم وأصناف العلوم وفنون المراسلات والخطب والنظم والنثر وجوابات المسائل فمن الذي أجرى فلك المعاني على قلبك ورسمها في ذهنك ثم أجرى العبارات الدالة عليها على لسانك ثم حرك بها بنانك حتى صارت نقشا عجيباً معناه أعجب من صورته فتقضى به مآربك وتبلغ به حاجة في صدرك وترسله إلى الأقطار النائية والجهات المتباعدة فيقوم مقامك ويترجم عنك ويتكلم على لسانك ويقوم مقام رسولك ويجدى عليك ما لا يجدى من ترسله سوى من علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم والتعليم بالقلم يستلزم المراتب الثلاثة مرتبة الوجود الذهني والوجود اللفظي والوجود الرسمي فقد دل التعليم بالقلم على أنه سبحانه هو المعطى لهذه المراتب ودل قوله خلق على أنه يعطى الوجود العيني فدلّت هذه الآيات مع اختصارها ووجازتها وفصاحتها على أن مراتب الوجود بأسرها مسندة إليه تعالى خلقا وتعلما وذكر خلقين وتعليمين خلقا عاما وخلقا خاصا وتعلما خاصا وتعلما عاما وذكر من صفاته هاهنا اسم الأكرم الذي فيه كل خير وكل كمال فله كل كمال وصفها ومنه كل خير فعلا فهو الأكرم في ذاته وأوصافه وأفعاله وهذا الخلق والتعليم إنما نشأ من كرمه وبره وإحسانه لا من حاجة دعت به إلى ذلك وهو الغنى الحميد وقوله تعالى (الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان) دلّت هذه الكلمات على إعطائه سبحانه مراتب الوجود بأسرها فقوله خلق الإنسان إخبار عن الإيجاد الخارجي العيني وخص الإنسان بالخلق لما تقدم * وقوله علم القرآن إخبار عن إعطاء الوجود العلمي الذهني فإنما تعلم الإنسان القرآن بتعليمه كما أنه إنما صار إنسانا بخلقه فهو الذي خلقه وعلمه * ثم قال علمه البيان والبيان هنا يتناول مراتب ثلاثة كل منها يسمى بيانا . أحدها البيان الذهني الذي يميز فيه بين المعلومات . الثاني البيان

اللفظي الذي يعبر به عن تلك المعلومات ويترجم عنها فيه غيره . الثالث البيان الرسمي الخطي الذي يرسم به تلك الألفاظ فيتبين الناظر معانيها كما يتبين للسامع معاني الألفاظ فهذا بيان للعين وذلك بيان للسمع والأول بيان للقلب وكثيراً ما يجمع سبحانه بين هذه الثلاثة كقوله (أن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً) وقوله (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون) ويذم من عدم الانتفاع بها في اكتساب الهدى والعلم النافع كقوله (صم بكم عمى) وقوله (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة) وقد تقدم بسط هذا الكلام .

(تنبيه) ثم تأمل حكمة اللطيف الخبير فيما أعطى الإنسان عليه بما فيه صلاح معاشه ومعاده ومنع عنه علم ما لا حاجة له به فجهله به لا يضر وعلمه به لا ينتفع به انتفاعاً طائلاً ثم يسر عليه طرق ما هو محتاج إليه من العلم أتم تيسير وكلما كانت حاجته إليه من العلم أعظم كان تيسيره إياه عليه أتم فأعطاه معرفة خالقه وبارئه ومبدعه سبحانه والإقرار به ويسر عليه طرق هذه المعرفة فليس في العلوم ما هو أجل منها ولا أظهر عند العقل والفطرة وليس في طرق العلوم التي تنال بها أكثر من طرقها ولا أدل ولا أبين ولا أوضح فكلمها تراه بعينك أو تسمعه بأذنك أو تعقله بقلبك وكلما يخطر ببالك وكلما نالته حاسة من حواسك فهو دليل على الرب تبارك وتعالى فطرق العلم بالصانع فطرية ضرورية ليس في العلوم أجل منها وكل ما استدل به على الصانع فالعلم بوجوده أظهر من دلالته ولهذا قالت الرسل لأمتهم أفي الله شك فخطابوهم مخاطبة من لا ينبغي أن يخطر له شك مافي وجود الله سبحانه ونصب من الأدلة على وجوده ووحدانيته وصفات كماله الأدلة على اختلاف أنواعها ولا يطبق حصرها إلا الله ثم ركز ذلك في الفطرة ووضع في العقل جملة ثم بعث الرسل مذكرين به ولهذا يقول تعالى (فذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) وقوله (فذكر إن نفعنا الذكرى) وقوله (إنما أنت مذكر) وقوله (فما لهم عن التذكرة معرضين) وهو كثير في القرآن ومفصلين (١) لما في الفطرة والعقل العلم به جملة فانظر كيف وجد الإقرار به وتوحيده وصفات كماله ونعوت جلاله وحكمته في خلقه وأمره المقتضية إثبات رسالة رسله ومجازاته المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته مودعاً في الفطرة مركزاً فيها فلو خلقت على ما خلقت عليه لم يعرض لها ما يفسدها ويحولها ويغيرها عما فطرت عليه ولأقرت بوحدانيته ووجوب شكره وطاعته وبصافته وحكمته في أفعاله وبالثواب والعقاب ولكونها لما فسدت وانحرفت عن المنهج الذي خلقت

عليه أنكرت ما أنكرت ووجدت ماجدحت فبعث الله رسله مذكرين لأصحاب الفطر الصحيحة السليمة فانقادوا طوعاً واختياراً ومحبة وإذعاناً بما جعل من شواهد ذلك في قلوبهم حتى أن منهم من لم يسأل عن المعجزة والطارق بل علم صحة الدعوة من ذاتها وعلم أنها دعوة حق برهانها فيها ومعذرتين (١) ومقيمين البينة على أصحاب الفطر الفاسدة لئلا نحتج على الله بأنه ما أرشدها ولاهداها فيحقق القول عليها بإقامة الحججة فلا يكون سبحانه ظالماً لها بتعذيبها وأشقاها وقد بين ذلك سبحانه في قوله (إن هو إلا ذكر وقرآن مبين لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين) فتأمل كيف ظهرت معرفة الله والشهادة له بالتوحيد واثبات أسمائه وصفاته ورسالة رسله والبعث للجزاء مسطورة مثبتة في الفطر ولم يكن ليعرف بها أنها ثابتة في فطرته فلما ذكرته الرسل ونهته رأى ما أخبروه به مستقراً في فطرته شاهداً به عقله بل وجوارحه ولسان حاله وهذا أعظم ما يكون من الإيمان وهو الذي كتبه سبحانه في قلوب أوليائه وخاصته فقال (أولئك كتب في قلوبهم الإيمان) فتدبر هذا الفصل فإنه من السكون في هذا الكتاب وهو حقيق بأن تثني عليه الخناصر والله الخمد والمئة . والمقصود أن الله سبحانه أعطى العبد من هذه المعارف وطرقها ويسرها عليه ما لم يعطه من غيرها لعظم حاجته في معاشه ومعاده إليها ثم وضع في العقل من الإقرار بحسن شرعه ودينه الذي هو ظله في أرضه وعدله بين عباده ونوره في العالم ما لو اجتمعت عقول العالمين كلهم فكانوا على عقل أعقل رجل واحد منهم لما أمكنهم أن يقترحوا شيئاً أحسن منه ولا أعدل ولا أصلح ولا أنفع للخلقة في معاشها ومعادها فهو أعظم آياته وأوضح بيناته وأظهر حججه على أنه الله الذي لا إله إلا هو وإنه المتصف بكل كمال المنزه عن كل عيب ومثال فضلاً عن أن يحتاج إلى إقامة شاهد من خارج عليه بالأدلة والشواهد لتكثير طرق الهدى وقطع المعذرة وازاحة العلة والشبهة (إيهلك من هلك عن بينة ويحييا من حي عن بينة وإن الله لسميع عليم) فأثبت في الفطرة حسن العدل والإنصاف والصدق والبر والإحسان والوفاء بالعهد والنصيحة للخلق ورحمة المسكين ونصر المظلوم ومواساة أهل الحاجة والفاقة وأداء الأمانات ومقابلة الإحسان بالإحسان وبالإساءة بالعفو والصفح والصبر في مواطن الصبر والبذل في مواطن البذل والانتقام في موضع الانتقام والحلم في موضع الحلم والسكينة والوقار والرفقة والرفق والتؤدة وحسن الأخلاق وجميل المعاشرة مع الأفارب والأباعد وستر العورات وإقالة العثرات والإيثار عند الحاجات وإغاثة اللهفات وتفريج الكربات والتعاون على أنواع

الخير والبر والشجاعة والسباحة والبصيرة والثبات والعزيمة والقوة في الحق واللين لأهله والشدة على أهل الباطل والغلظة عليهم والإصلاح بين الناس والسعي في إصلاح ذات البين وتعظيم من يستحق التعظيم وإهانة من يستحق الإهانة وتنزيل الناس منازلهم وإعطاء كل ذي حق حقه وأخذ ماسهل عليهم وطوعت به أنفسهم من الأعمال والأموال والأخلاق ولأرشاد ضالهم وتعليم جاهلهم واحتمال جفوتهم واستواء قريتهم وبعيدهم في الحق فأقربهم إليه أولاهم بالحق وإن كان بعيداً وأبعدهم عنه أبعدهم من الحق وإن كان قريباً قريباً إلى غير ذلك من معرفة العقل الذي وضعه بينهم في المعاملات والمناكحات والجنايات وما أودع في فطرهم من حسن شكره وعبادته وحده لا شريك له وإن نعمه عليهم توجب بذل قدرتهم وطاقتهم في شكره والتقرب إليه وإيثاره على ماسواه وأثبت في الفطر عليها بقبيح اضداد ذلك ثم بعث رسله في الأمر بما أثبت في الفطر حسنه وكاله والنهي عما أثبت فيها قبيحه وعيبه وذمه فطابقت الشريعة المنزلة للفطرة المكتملة مطابقة التفصيل بجملة وقامت شواهد دينه في الفطرة تنادى للإيمان حتى على الفلاح وصدعت تلك الشواهد والآيات دياجي ظلم الإباء كما صدع الليل ضوء الصباح وقبل حاكم الشريعة شهادة العقل والفطرة لما كان الشاهد غير متمم ولا معرض للجراح .

فصل

وكذلك أعظام من العلوم المتعلقة بصلاح معاشهم ودينامهم بقدر حاجاتهم كعلم الطب والحساب وعلم الزراعة والغراس وضروب الصنائع واستنباط المياه وعقد الأبنية وصناعة السفن واستخراج المعادن وتهيتها لما يراد منها وتركيب الأدوية وصناعة الأطعمة ومعرفة ضروب الخيل في صيد الوحش والظير ودواب الماء والتصرف في وجوه التجارات ومعرفة وجوه المكاسب وغير ذلك مما فيه قيام معاشهم ثم منعمهم سبحانه علم ماسوى ذلك مما ليس في شأنهم ولا فيه مصلحة لهم ولا نشأتهم قابلة له كعلم الغيب وعلم ما كان وكل ما يكون والعلم بعدد القطر وأمواج البحر وذرات الرمال ومسافات الأوراق وعدد الكواكب ومقاديرها وتعلم ما فوق السموات وما تحت الثرى وما في لجج البحار وأقطار العالم وما يكتنه الناس في صدورهم وما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد إلى سائر ما عذب عنهم علمه فمن تكلف معرفة ذلك فقد ظلم نفسه وبخس من التوفيق حظه ولم يحصل إلا على الجهل المركب والخيال الفاسد في أكثر أمره ووجرت سنة الله وحكمته أن هذا الضرب من الناس أجهلهم بالعلم النافع وأقلهم صواباً فترى عند من لا يعرفون به رأساً من الحكم والعلم الحق النافع ما لا يخطر ببالهم أصلاً وذلك من حكمة الله في خلقه وهو العزيز الحكيم ولا يعرف هذا إلا من اطلع على ما عند القوم من أنواع الخيال

وضروب المحال وفنون الوسوس والهوى والهوس والخبط وهم يحسبون أنهم على شيء إلا
إنهم هم الكاذبون فالحمد لله الذى من على المؤمنين (إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم
آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) .

فصل

ومن حكمته سبحانه ما منعه من العلم علم الساعة ومعرفة آجالهم وفي ذلك من الحكمة البالغة
ملا يحتاج إلى نظر فلو عرف الإنسان مقدار عمره فإن كان قصير العمر لم يتهنأ بالعيش وكيف
يتهنأ به وهو يترقب الموت في ذلك الوقت فلو لا طول الأمل لخربت الدنيا وانما عمارتها
بالآمال وإن كان طويل العمر وقد تحقق ذلك فهو واثق بالبقاء فلا يبالي بالانهماك في الشهوات
والمعاصى وأنواع الفساد ويقول إذا قرب الوقت أحدثت توبة وهذا مذهب لا يرضيه الله
تعالى عز وجل من عباده ولا يقبله منهم ولا تصلح عليه أحوال العالم ولا يصلح العالم إلا على
هذا الذى اقتضته حكمته وسبق في علمه فلو أن عبداً من عبديك عمل على ان يسخك أعموا ثم
يرضيك ساعة واحدة إذا نيقن أنه صائر إليك تقبل منه ولم يفرلديك بما يفوز به من همه رضاك
وكذا سنة الله عز وجل ان العبد اذا عاين الانتقال إلى الله تعالى لم ينفعه توبة ولا اقلع قال
تعالى (وايسر التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني نبت الآن)
وقوله (فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرونا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم
إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى خلت في عباده) والله تعالى إنما يغفر للعبد إذا كان وقوع
الذنب منه على وجه غلبة الشهوة وقوة الطبيعة فيواقع الذنب مع كراهته له من غير إصرار في
نفسه فهذا ترجى له مغفرة الله وصفحته وعفوه لعلمه تعالى بضعفه وغلبة شهوته له وأنه يرى
كل وقت مالا صبر له عليه فهو إذا واقع الذنب واقعه واقعة ذليل خاضع لربه خائف محتاج
في صدره شهوة النفس الذنب وكراهة الإيمان له فهو يجيب داعى النفس تاره وداعى الإيمان
تارات فأما من بنى أمره على أن لا يقف عن ذنب ولا يقدم خوفا ولا يدع لله شهوة وهو فرح
مسرور يضحك ظهرا لبطن إذ ظفر بالذنب فهذا الذى يخاف عليه أن يحال بينه وبين التوبة
ولا يوفق لها فإنه من معاصيه وقبائح على نقد عاجل يتقاضاه سلفاً وتعجيلاً ومن توبته وإياه
ورجوعه إلى الله على دين مؤجل إلى انقضاء الأجل وإنما كان هذا الضرب من الناس يحال
بينهم وبين التوبة غالباً لأن النزوع عن اللذات والشهوات إلى مخالفة الطبع والنفس والاستمرار
على ذلك شديد على النفس صعب عليها أثقل من الجبال ولا سيما إذا انضاف إلى ذلك ضعف
البصيرة وقلة النصيب من الإيمان فنفسه لا تطوع له أن يبيع نقداً بنسيئة ولا عاجلاً بأجل
كما قال بعض هؤلاء وقد سئل أيما أحب اليك درهم اليوم أو دينار غدا فقال لا هذا ولا هذا
ولكن ربع درهم من أول أمس فخرام على هؤلاء أن يوفقوا للتوبة إلا أن يشاء الله فإذا بلغ

العبد حد الكبر وضعفت بصيرته ووهت قواه وقد أوجبت له تلك الأعمال قوة في غيه وضعفا في إيمانه صارت كالمسكة له بحيث لا يتمكن من تركها فإن كثرة المزاوالات تعطى المسكات فتبقى للنفس هيئة راسخة ومسكة ثابتة في الغي والمعاصي وكلما صدر عنه واحد منها أثر أثارا زائدا على أثر ما قبله فيقوى الأثران وهلم جرا فيهجم عليه الضعف والكبر ووهن القوة على هذه الحال فينتقل إلى الله بنجاسته وأوساخه وأدرانته لم يتطهر للتقدم على الله فما ظنه بربه ولو أنه تاب وأناب وقت القدرة والامكان لتقبلت توبته ورحمت سيئاته ولكن حيل بينهم وبين ما يشتهون ولا شيء أشهى لمن انتقل إلى الله على هذه الحال من التوبة ولكن فرط في أداء الدين حتى نفذ المال ولو أداه وقت الامكان لتقبله بربه وسيعلم المسرف والمفرط أي ديان أدان وأي غريم يتقاضاه يوم يكون الوفاء من الحسنات فإن فذيت فيحمل السيئات . فبان أن من حكمة الله ونعمه على عباده أن ستر عنهم مقادير آجالهم ومبلغ أعمالهم فلا يزال السكيس يترقب الموت وقد وضعه بين عينيه فينكشف عما يضره في معاده ويحتهد فيما ينفعه ويسر به عند القدوم . فإن قلت فما هو مع كونه قد غيب عنه مقدار أجله وهو يترقب الموت في كل ساعة ومع ذلك يقارف الفواحش ويبتغى المحارم فأى فائدة وحكمة حصلت بستر أجله عنه . قيل لعمر الله أن الأمر كذلك وهو الموضوع الذي حير الألباب والعقلاء وافترق الناس لأجله فرقا شتى ففرقة أنكرت الحكمة وتعليل أفعال الرب جملة وقالوا بالجبر المحض وسدوا على أنفسهم الباب وقالوا لا تعلق أفعال الرب تعالى ولا هي مقصود بها مصالح العباد وإنما مصدرها محض المشيئة وصرف الإرادة فأنكروا حكمة الله في أمره ونهيه . وفرقة نفت لأجله القدر جملة وزعموا أن أفعال العباد غير مخلوقة لله حتى يطالب لها وجوه الحكمة وإنما هي خلقهم وابداعهم فهمى واقعة بحسب جهلهم وظلمهم وضعفهم فلا يقع على السداد والصواب إلا أقل القليل منها فما تان الطائفتان متقابلتان أعظم تقابل فالأولى غلت في الجبر وانكار الحكم المقصودة في أفعال الله . والثانية غلت في القدر وأخرجت كثيرا من الحوادث بل أكثرها عن ملك الرب وقدرته وهدى الله أهل السنة الوسط لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه فأنبتوا لله عز وجل عموم القدرة والمشية وأنه تعالى أن يكون في مسكته مالا يشاء أو يشاء مالا يكون وأن أهل سمواته وأرضه أنجز وأضعف من أن يخلقوا مالا يخلقه الله أو يحدوا مالا يشاء بل ما شاء الله كان ووجد وجوده بمشيئته ومالم يشأ لم يكن وامتنع وجوده لعدم المشيئة له وأنه لا حول ولا قوة الا به ولا تتحرك في العالم العلوى والسفلى ذرة الا بإذنه ومع ذلك فله في كل ما خلق وقضى وقدر وشرع من الحكم البالغة والعواقب الحميدة ما اقتضاه كمال حكمته وعلمه وهو العليم الحكيم فما خلق شيئا ولا قضاه ولا شرعه الا لحكمة بالغة وان تقاصرت عنها عقول البشر فهو الحكيم القدير فلا تجحد حكمته كالا تجحد قدرته

والطائفة الأولى جمحدت الحكمة والثانية جمحدت القدرة والأمة الوسط أثبتت له كمال الحكمة وكال القدرة فالفرقة الأولى تشهد في المعصية مجرد المشيئة والخلق العارى عن الحكمة وربما شهدت الجبر وأن حركاتهم بمنزلة حركات الأشجار ونحوها * والفرقة الثانية تشهد في المعصية مجرد كونها فاعلة محدثة مختارة هي التي شاءت ذلك بدون مشيئة الله والأمة الوسط تشهد عز الربوبية وقهر المشيئة ونفوذها في كل شيء وتشهد مع ذلك فعلها وكسبها واختيارها وإيثارها شهواتها على مرضات ربها فيوجب الشهود الأول لها سؤال ربها والتذلل والتضرع له أن يوفقها لطاعته ويحول بينها وبين معصيته وأن يثبتها على دينه ويعصمها بطواعيته ويوجب الشهود الثاني لها اعترافها بالذنب وإقرارها به على نفسها وأنها هي الظالمة المستحقة للعقوبة وتنزيه ربها عن الظلم وأن يعذبها بغير استحقاق منها أو يعذبها على ما لم تعمله فيجتمع لها من الشهود دين شهود التوحيد والشرع والعدل والحكمة * وقد ذكرنا في الفتوحات القدسية مشاهد الخلق في موافقة الذنب وأنها تنهى إلى ثمانية مشاهد . أحدها المشهد الحيواني الالهي الذي شهود صاحبه مقصور على شهوات لذته به فقط وهو في هذا المشهد مشارك لجميع الحيوانات وربما يزيد عليها في اللذة وكثرة التمتع . والثاني مشهد الجبر وأن الفاعل فيه سواه والمحرك له غيره ولا ذنب له هو وهذا مشهد المشركين وأعداء الرسل . الثالث مشهد القدر وهو أنه هو الخالق لفعله المحدث له بدون مشيئة الله وخلقفه وهذا مشهد القدرية المجوسية . الرابع مشهد أهل العلم والإيمان وهو مشهد القدر والشرع يشهد فعله وقضاء الله وقدره كما تقدم . الخامس مشهد الفقر والفاقة والعجز والضعف وأنه إن لم يعنه الله ويثبته ويوفقه فهو هالك والفرق بين مشهد هذا ومشهد الجبرية ظاهر . السادس مشهد التوحيد وهو الذي يشهد فيه لإنفراد الله عز وجل بالخلق والإبداع ونفوذ المشيئة وأن الخلق أنجز من أن يعصوه بغير مشيئته والفرق بين هذا المشهد وبين المشهد الخامس أن صاحبه شاهد لكمال فقره وضعفه وحاجته وهذا شاهد لتفرد الله بالخلق والإبداع وأنه لا حول ولا قوة إلا به . السابع مشهد الحكمة وهو أن يشهد حكمة الله عز وجل في قضائه وتخليته بين العبد والذنب والله في ذلك حكم تعجز العقول عن الإحاطة بها وذكرنا منها في ذلك الكتاب قريباً من أربعين حكمة وقد تقدم في أول هذا الكتاب التنبية على بعضها . الثامن مشهد الأسماء والصفات وهو أن يشهد ارتباط الخلق والأمر والقضاء والقدر بأسمائه تعالى وصفاته وأن ذلك موجبها ومقتضاها فأسمائه الحسنى اقتضت ما اقتضته من التخلية بين العبد وبين الذنب فإنه الغفار التواب العفو الحليم وهذه أسماء تطلب آثارها وموجباتها ولا بد فلولم تذنّبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم وهذا المشهد والذي قبله أجل هذه المشاهد وأشرفها وأرفعها قدراً

وهما الخواص الخليفة فتأمل بعد ما بينهما وبين المشهد الأول وهذان المشهدان يطرحان العبد على باب المحبة ويفتحنان له من المعارف والعلوم أموراً لا يعبر عنها وهذا باب عظيم من أبواب المعرفة قل من استفتحه من الناس وهو شهود الحكمة البالغة في قضاء السيئات وتقدير المعاصي وإنما استفتح الناس باب الحكيم في الأوامر والنواهي وخاصوا فيها وأتوا بما وصلت إليه علومهم واستفتحوا أيضاً بابها في المخلوقات كما قدمناه وأتوا فيه بما وصلت إليه قواهم وأما هذا الباب فكم رأيت كلامهم فيه فقل أن ترى لأحدهم فيه ما يشفي أو يلم وكيف يطلع على حكمة هذا الباب من عنده أن أعمال العباد ليست مخلوقة لله ولا داخله تحت مشيئته أصلاً وكيف يتطلب لها حكمة أو يشبها أم كيف يطلع عليها من يقول هي خلق الله ولكن أفعاله غير معللة بالحكم ولا يدخلها لام تعليل أصلاً وإن جاء شيء من ذلك صرف إلى لام العاقبة لا إلى لام العلة والغاية فأما إذا جاءت الباء في أفعاله صرفت إلى باء المصاحبة لا إلى باء السببية وإذا كان المتكلمون عند الناس هم هؤلاء الطائفتان فإنهم لا يرون الحق خارجاً عنهما ثم كثير من الفضلاء يتحير إذا رأى بعض أقوالهم الفاسدة ولا يدري أين يذهب . ولما عربت كتب الفلاسفة صار كثير من الناس إذا رأى أقوال المتكلمين الضعيفة وقد قالوا إن هذا هو الذي جاء به الرسول قطع القنطرة وعدى إلى ذلك البر وكل ذلك من الجمل القبيح والظن الفاسد أن الحق لا يخرج عن أقوالهم فما أكثر خروج الحق عن أقوالهم وما أكثر ما يذهبون في المسائل التي هي حق وصواب إلى خلاف الصواب . والمقصود أن المتكلمين لو أجمعوا على شيء لم يكن إجماعهم حجة عند أحد من العلماء فكيف إذا اختلفوا والمقصود أن مشاهدة حكمة الله في أفضيته وأقداره التي يجربها على عباده باختياراتهم وإراداتهم هي من أطف ما تكلم فيه الناس وأدقه وأغضه وفي ذلك حكم لا يعلمها إلا الحكيم العليم سبحانه ونحن نشير إلى بعضها . فمنها أنه سبحانه يحب التوابين حتى أنه من محبته لهم يفرح بتوبة أحدهم أعظم من فرح الواحد برأيته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض الدرية المهلكة إذا فقدتها وأيس منها وليس في أنواع الفرح أكمل ولا أعظم من هذا الفرح كما سنوضح ذلك ونزيده تقريراً عن قريب إن شاء الله ولولا المحبة التامة للتوبة ولأهلها لم يحصل هذا الفرح . ومن المعلوم أن وجود المسبب بدون سببه تمتنع وهل يوجد ملزوم بدون لازمه أو غاية بدون وسيلتها وهذا معنى قول بعض العارفين ولولم تكن التوبة أحب الأشياء إليه لما بتلى بالذنب أكرم المخلوقات عليه فالتوبة هي غاية كمال كل آدمي وإنما كان كمال أبيهم بها فكم بين حاله وقد قيل له إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنت لا تنظماً فيها ولا تضحى وبين قوله ثم اجتاد به فتاب عليه وهدى فالحال الأولى حال أكل وشرب

وتتمتع والحال الأخرى حال اجتناب واصطفاء وهداية فيما بعد ما بينهما ولما كان كماله بالتوبة كان كمال بنيه أيضا بها كما قال تعالى (ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات) فكمال الآدمي في هذه الدار بالتوبة النصوح وفي الآخرة بالنجاة من النار ودخول الجنة وهذا السكالم مرتب على كماله الأول . والمقصود أنه سبحانه لمحبة التوبة وفرحة بها يقتضى على عبده بالذنب ثم إن كان بمن سبقت له الحسنى قضى اه بالتوبة وإن كان بمن غلبت عليه شقاوته أقام عليه حجة عدله وعاقبه بذنبه .

فصل

ومنها أنه سبحانه يجب أن يتفضل عليهم ويتم عليهم نعمه ويريمهم مواقع بره وكرمه فلمحبته الأفضال والأناعام ينوعه عليهم أعظم الأنواع وأكثرها في سائر الوجوه الظاهرة والباطنة ومن أعظم أنواع الإحسان والبر أن يحسن إلى من أساء ويعفو عن ظلمه ويغفر لمن أذنب ويتوب على من تاب إليه ويقبل عذر من اعتذر إليه وقد ندب عباده إلى هذه الشيم الفاضلة والأفعال الحميدة وهو أولى بها منهم وأحق وكان له في تقدير أسبابها من الحكيم والعواقب الحميدة ما يبهز العقول فسبحانه وبحمده . وحكى بعض العارفين أنه قال طفت في ليله مطيرة شديدة الظلمة وقد خلا الطواف وطابت نفسى فوقفتم عند الملتزم ودعوت الله فقلت اللهم اعصمني حتى لأعصيك فتهتف بي هاتف أنت تسألنى العصمة وكل عبادى يسألونى العصمة فإذا عصمتهم فعلى من أتفضل ولئن أغفر قال فبقيت ليلتى إلى الصباح أستغفر الله حياء منه . هذا ولو شاء الله عز وجل أن لا يعصى فى الأرض طرفة عين لم يعص ولكن اقتضت مشيئته ما هو موجب حكمته سبحانه فمن أجهل بالله ممن يقول أنه يعصى قسرا بغير اختياره ومشيئته سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا

فصل

ومنها أنه سبحانه له الأسماء الحسنى والسكالم اسم من أسمائه أثر من الآثار فى الخلق والأمر لا بد من ترتيبه عليه كترتب المرزوق والرزق على الرازق وترتب المرحوم وأسباب الرحمة على الراحم وترتب المرنيات والمسموعات على السميع والبصير ونظائر ذلك فى جميع الأسماء فلولا لم يكن فى عباده من يخطئ . ويذنب ليتوب عليه ويغفر له ويعفو عنه لم يظهر أثر أسمائه الغفور والعفو والحليم والتراب وما جرى مجراها وظهور أثر هذه الأسماء ومتعلقاتها فى الخليقة كظهور آثار سائر الأسماء الحسنى ومتعلقاتها فكما أن اسمه الخالق يقتضى مخلوقا والبارئ يقتضى مبروأ والمصور يقتضى مصورا ولا بد فاسماؤه الغفار التواب تقتضى مغفورا له ما يغفره له وكذلك من يتوب

عليه وأموراً يتوب عليه من أجلها ومن يحكم عنه ويعفو عنه وما يكون متعلق
الحلم والعفو فإن هذه الأمور متعلقة بالغير ومعانيها مستازمة لمتعلقاتها . وهذا باب أوسع
من أن يدرك واللييب يكتفي منه بالمسير وغليظ الحجاب في واد ونحن في واد :

وان كان أثل الواد يجمع بيننا فغير خفي شيجه من خزامه

فتأمل ظهور هذين الإسمين اسم الرزاق واسم الغفار في الخليفة ترى وما يعجب العقول وتأمل
آثارهما حق التأمل في أعظم مجامع الخليفة وانظر كيف وسعهم رزقه ومغفرته ولولا ذلك لما
كان له من قيام أصلاً فإسكل منهم نصيب من الرزق والمغفرة فإما متصلاً بنشأته الثانية وإما
مختصاً بهذه النشأة .

فصل

ومنه أنه سبحانه يعرف عباده عزه في قضائه وقدره ونفوذ مشيئته وجريان حكمته وأنه
لا يحيص للعبد عما قضاه عليه ولا مفر له منه بل هو في قبضة مالهك وسيده وأنه عبده وابن
عبده وابن أمته ناصيته بيده ماض فيه حكمه عدل فيه قضاؤه .

فصل

ومنها أنه يعرف العبد حاجته إلى حفظه له ومعونته وصيانيته وأنه كالوليد الطفل في حاجته
إلى من يحفظه ويصونه فإن لم يحفظه مولاه الحق ويصونه ويعينه فهو هالك ولا بد وقد مدت
الشياطين أيديها إليه من كل جانب تريد تمزيق حاله كله لإفساد شأنه كله وإن مولاه وسيده
إن وكله إلى نفسه وكله إلى ضيعة وعجز وذنب وخطيئة وتفريط فهلاكه أدنى إليه من شرك
نعله . فقد أجمع العلماء بالله على أن التوفيق أن لا يكل الله العبد إلى نفسه وأجمعوا على أن الخذلان
أن يخلى بينه وبين نفسه .

فصل

ومنها أنه سبحانه يستجلب من عبده بذلك ما هو من أعظم أسباب السعادة له من استعاذته
واستعاذته به من شر نفسه وكيد عدوه ومن أنواع النداء والتضرع والابتهال والإناابة
والفاقة والمحبة والرجاء والخوف وأنواع من كلمات العبد تبلغ نحو المائة ومنها ما لا تدرکه
العبارة وإنما يدرك بوجوده فيحصل للروح بذلك قرب خاص لم يكن يحصل بدون هذه
الأسباب ويجد العبد من نفسه كأنه ملق على باب مولاه بعد أن كان نائياً عنه وهذا الذي
أمر له أن الله يحب التوابين وهو ثمرة لله أفرح بتوبة عبده وأسرار هذا الوجه يضيق عنها

القلب واللسان وعسى أن يجيئك في القسم الثاني من الكتاب ما تقر به عينك ان شاء الله تعالى فكم بين عبادة يدل صاحبها على ربه بعبادته شاخ بأفنه كلما طلب منه أو صاف العبد قامت صور تلك الأعمال في نفسه فحجبتة عن معبوده والهه وبين عبادة من قد كسر الذل قلبه كل الكسر وأحرق ما فيه من الرعونات والحقاقات والخيالات فهو لا يرى نفسه إلا مسيئاً كما لا يرى ربه إلا محسناً فهو لا يرضى أن يرى نفسه طرفة عين قد كسر ازدرأؤه على نفسه قلبه وذلك لسانه وجوارحه وطأطأ منه ما ارتفع من غيره فقلبه واقف بين يدي ربه وقوف ناكس الرأس خاشع خاضع غاض البصر خاشع الصوت هادىء الحركات قد سجد بين يديه سجدة إلى الممات فلو لم يكن من ثمرة ذلك القضاء والقدر إلا هذا وحده لكنى به حكمة والله المستعان .

فصل

ومنها أنه سبحانه يستخرج بذلك من عبده تمام عبوديته فإن تمام العبودية هو بتكميل مقام الذل والانقياد وأكمل الخلق عبودية أكملهم ذل الله وانقيادا وطاعة والعبد ذليل لمولاه الحق بكل وجهه من وجوه الذل فهو ذليل لعزه وذليل لقمه وذليل لربو بيته فيه وتصرفه وذليل لإحسانه إليه وانعامه عليه فان من أحسن اليك فقد استعبدك وصار قلبك معبده وذليلاً تعبد له لحاجته إليه على مدى الأنفاس في جلب كل ما ينفعه ودفع كل ما يضره . وهنا نوعان من أنواع التذلل والتعبد لها أثر عجيب يقتضيان من صاحبهما من الطاعة والفوز مالا يقتضيه غيرهما أحدهما ذل المحبة وهذا نوع آخر غير ما تقدم وهو خاصة المحبة ولها بل روحها وقوامها وحقيقتها وهو المراد على الحقيقة من العبد لو فطن وهذا يستخرج من قلب المحب من أنواع التقرب والتودد

والتملق والايثار والرضا والحمد والشكر والصبر والتندم وتحمل العظام مالا يستخرجه الخوف وحده ولا الرجاء وحده كما قال بعض الصحابة إنه ليستخرج محبته من قلبى من طاعته مالا يستخرجه خوفه أو كما قال فهذا ذل المحبين . الثاني ذل المعصية فإذا انضاف هذا إلى هذا هناك فثبت الرسوم وتلاشت الأنفس واضمحلت القوى وبطلت الدعاوى جملة ، وذهبت الرعونات وطاحت الشطحات ونحى من القلب واللسان أنا وأنا واستراح المسكين من شكاوى الصدود والإعراض والهجر وتجرد الشهودان فلم يبق الاشهود العز والجلال الشهود المحض الذى تفرد به ذوا الجلال والإكرام الذى لا يشاركه أحد من خلقه فى ذرة من ذراته وشهود الذل والفقر المحض من جميع الوجوه بكل اعتبار فيشهد غاية ذله وانكساره رعة محبو به وجلاله وعظمته وقدرته وغناه فإذا تجرد له هذان الشهودان ولم يبق ذرة من ذرات الذل والفقر والضرورة إلى ربه إلا شاهداً فيه بالفعل وقد شهد مقابلهما هناك فله أى مقام أقيم فيه هذا القلب إذ ذاك وأى قرب حظى به وأى نعم أدركه وأى روح باشره فتأمل الآن موقع الكسرة التى حصلت له بالمعصية فى هذا

الموطن ما أعجبها وما أعظم موقعها كيف جاءت فحقت من نفسه الدعاوى والرعونات وأنواع الآماني الباطلة ثم أوجبت له الحياء والنجل من صالح ما عمل ثم أوجبت له استكثار قليل ما يرد عليه من ربه لعله بأن قدره أصغر من ذلك وأنه لا يستحقه واستقلال أمثال الجبال من عمله الصالح بأن سيئاته وذنوبه تحتاج من المكفرات والمأحيات إلى أعظم من هذا فهو لا يزال محسناً وعند نفسه المسيء المذنب متكسراً ذليلاً خاضعاً لا يرتفع له رأس ولا ينقام له صدر وإنما ساقه إلى هذا الذل والذي أورثه إياه مباشرة الذائب فأى شيء أنفع له من هذا الدواء ..

لعل عتبك محمود عواقبه وربما صحت الأجسام بالعلل

ونسكتة هذا الوجه أن العبد متى شهد صلاحه واستقامته شخ بأفقه وتعاضمت نفسه وظن أنه وأنه أى عظيم فإذا ابتلى بالذنب تصاعرت إليه نفسه وذل وخضع وتيقن أنه وأنه أى عبداً ذليلاً .

فصل

ومنها أن العبد يعرف حقيقة نفسه وأنها الظالمة وأن ما صدر منها من شر فقد صدر من أهله ومعدنه إذ الجهل والظلم منبع الشر كله وأن كل ما فيها من خير وعلم وهدى وإناقة وتقوى فهو من ربه تعالى هو الذى زكاها به وأعطاه إياه لا منها فإذا لم يشأ تزكية العبد تركه مع دواعي ظلمه وجهله فهو تعالى الذى يزكى من يشاء من النفوس فتزكو وتأتى بأنواع الخير والبر ويترك تزكية من يشاء منها فتأتى بأنواع الشر والخبث ، وكان من دعاء النبي ﷺ : اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وإياها ومولاها . فإذا ابتلى الله العبد بالذنب عرف نفسه ونقصها فرتبه له على ذلك التعريف حكم ومصالح عديدة . منها أنه يأف من نقصها ويجتهد فى كمالها ومنها أنه يعلم فقرها دائماً إلى من يتولاها ويحفظها . ومنها أنه يستريح ويربح العباد من الرعونات والحقاقت التى ادعاها أهل الجهل فى أنفسهم من قدم أو اتصال بالتقديم أو اتحاد به أو حلول فيه أو غير ذلك من المحالات فلولا أن هؤلاء غاب عنهم شهودهم لنقص أنفسهم وحقيقتهم لم يقعوا فيها وقعوا فيه .

فصل

ومنها تعريفه سبحانه عبده ساعة حله وكرمه فى ستره عليه وأنه لو شاء لعاجله على الذنب ولهتكه بين عبادته فلم يطب له معهم عيش أبداً ولكن جملة بستره وغشاه بجله وقبض له من يحفظه وهو فى حالته تلك بل كان شاهداً وهو يبارزه بالمعاصى والآثام وهو مع ذلك يحرسه بعينه التى لا تنام وقد جاء فى بعض الآثار يقول الله تعالى : أنا الجواد الكريم من أعظم منى جوداً وكرماً عبادى يبارزونى

بالعظام وأنا أكلوهم في منازلهم . فأى حلم أعظم من هذا الحلم وأى كرم أوسع من هذا الكرم فلولا حله وكرمه ومغفرته لما استقرت السموات والأرض في أماكنها وتأمل قوله تعالى (أن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا وإن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده) الآية هذه الآية تقتضى الحلم والمغفرة فلولا حله ومغفرته لزلتا عن أماكنهما ومن هذا قوله (لا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولدا) .

فصل

ومنها تعريفه عبده أنه لا سبيل له إلى النجاة إلا بعفوه ومغفرته وأنه رهين بحقه فإن لم يتغمده بعفوه ومغفرته وإلا فهو من الهالكين لا محالة فليس أحد من خلقه إلا وهو محتاج إلى عفو ومغفرته كما هو محتاج إلى فضله ورحمته .

فصل

ومنها تعريفه عبده كرمه سبحانه في قبول توبته ومغفرته له على ظلمه وإساءته فهو الذى جاد عليه بأن وفقه للتوبة وألهمه إياها ثم قبلها منه فتاب عليه أولاً وآخرأ فتوبة العبد محفوفة بتوبة قبلها عليه من الله إذنا وتوفيقاً وتوبة ثانية منه عليه قبولاً ورضاً فله الفضل في التوبة والكرم أولاً وآخرأ لا إله إلا هو .

فصل

ومنها إقامة حجة عدله على عبده ليعلم العبد أن لله عليه الحجة البالغة فإذا أصابه ما أصابه من المكروه فلا يقال من أين هذا ولا من أين أتيت ولا بأى ذنب أصبت فما أصاب العبد من مصيبة قط دقيقة ولا جليلة إلا بما كسبت يده وما يعفو الله عنه أكثر وما نزل بلاء قط إلا بذنب ولا رفع بلاء إلا بتوبة ولهذا وضع الله المصائب والبلايا والمحن رحمة بين عباده يكفر بها من خطاياهم فهي من أعظم نعمه عليهم وإن كرهتها أنفسهم ولا يدرى العبد أى النعمتين عليه أعظم نعمته عليه فيما يكره أو نعمته عليه فيما يحب وما يصيب المؤمن من هم ولا وصب ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها وإذا كان للذنوب عقوبات ولا بد فكلاماً عوقب به العبد من ذلك قبل الموت خير له مما بعده وأيسر وأسهل بكثير .

فصل

ومنها أن يعامل العبد بنى جنسه في إساءتهم إليه وزلاتهم معه بما يجب أن يعامله الله به في إساءته وزلاته وذنوبه فإن الجزاء من جنس العمل فن عفا عن الله عنه ومن سآخ أخاه في إساءته إليه سآخه الله في سيئاته ومن أغضى وتجاوز تجاوز الله عنه ومن استقصى استقصى عليه

ولا تنس حال الذي قبضت الملائكة روحه فقيل له هل عملت خيراً أهل عمات حسنة قال ما أعلمه قيل تذكر قال كنت أبايع الناس فكسنت أنظر الموسر وأتجاوز عن المعدر أو قال كسنت أمر قتياني أن يتجاوزوا في السكة فقال الله نحن أحق بذلك منك وتجاوز الله عنه فآله عز وجل يعامل العبد في ذنوبه بمثل ما يعامل به العبد الناس في ذنوبهم فإذا عرف العبد ذلك كان في ابتلائه بالذنوب من الحكم والفوائد ما هو أنفع الأشياء له .

فصل

ومنها أنه إذا عرف هذا فأحسن إلى من أساء إليه ولم يقابله بإساءته إساءة مثلها تعرض بذلك لمثلها من ربه تعالى وأنه سبحانه يقال أساءته وذنوبه بإحسانه كما كان هو يقابل بذلك إساءة الخلق إليه والله أوسع فضلاً وأكرم وأجزل عطاء فمن أحب أن يقابل الله إساءته بالإحسان فيقابل هو إساءة الناس إليه بالإحسان ومن علم أن الذنوب والإساءة لازمة للإنسان لم تعظم عنده إساءة الناس إليه فليتأمل هو حاله مع الله كيف هي مع فرط إحسانه إليه وحاجته هو إلى ربه وهو هكذا له فإذا كان العبد هكذا لربه فكيف يتكران يكون الناس له بتلك المنزلة . ومنها أنه يقيم معاذير الخلائق وتتسع رحمته لهم ويتفرج بطانه ويزول عنه ذلك الحصر والضيق والانحراف واكل بعضه بعضاً ويستريح العصاة من دعائه عليهم وقنوطه منهم وسؤال الله أن يخسف بهم الأرض ويسلط عليهم البلاء فانه حينئذ يرى نفسه واحداً منهم فهو يسأل الله لهم ما يسأله لنفسه وإذا دعا لنفسه بالتوبة والمغفرة أدخلهم معه فيرجو لهم فوق ما يرجو لنفسه ويخاف على نفسه أكثر مما يخاف عليهم فأين هذا من حاله الأولى وهو ناظر إليهم بعين الاحتقار والأزدراء لا يجد في قلبه رحمة لهم ولا دعوة ولا يرجو لهم نجاته فالذنب في حق مثل هذا من أعظم أسباب رحمته ومع هذا فيقيم أمر الله فيهم طاعة لله ورحمة بهم وإحساناً إليهم إذ هو عين مصلحتهم لا غلظة ولا قوة ولا فظاظة .

فصل

ومنها أن يخلع صولة الطاعة من قلبه وينزع عنه رداء الكبر والعظمة الذي ليس له ويلبس رداء الذل والانكسار والفقر والفاقة فلو دامت تلك الصولة والعزة في قلبه لخيف عليه ما هو من أعظم الآفات كما في الحديث لو لم تذبوا الخفت عليكم ما هو أشد من ذلك العجب أو كما قال صلى الله عليه وسلم فكتم بين آثار العجب والكبر وصولة الطاعة وبين آثار الذل والانكسار كما قيل يا آدم لا تجزع من كأس زلل كانت سبب كيسك فقد استخرج منك داء العجب وألبست رداء العبودية يا آدم لا تجزع من قولي لك أخرج منها

فلك خلقتها ولكن انزل إلى دار المجاهدة وابذر بذر العبودية فإذا كمل الزرع واستحصد فتعال فاستوفه .

لا يوحشك ذلك العتب أن له لطفاً يريك الرضا في حالة الغضب فبينما هو لابس ثوب الاذلال الذي لا يليق بمثله تداركه ربه برحمته فنزعه عنه وألبسه ثوب الذل الذي لا يليق بالعبد غيره فما لبس العبد ثوباً أكمل عليه ولا أحسن ولا أبهى من ثوب العبودية وهو ثوب المذلة الذي لا عزله بغيره .

فصل

ومنها أن الله عز وجل على القلوب أنواعا من العبودية من الخشية والخوف والإشفاق وتوابعها من المحبة والأناقة وابتغاء الوسيلة إليه وتوابعها وهذه العبوديات لها أسباب تهيئها وتبعث عليها فكلما قيضه الرب تعالى لعبده من الأسباب الباعثة على ذلك المهيجة له فهو من أسباب رحمته له ورب ذنب قدهاج لصاحبه من الخوف والإشفاق والوَجَل والأناقة والمحبة والإيثار والفرار إلى الله ما لا يهيجه له كثير من الطاعات وكَم من ذنب كان سبباً لاستقامة العبد وفراره إلى الله وبعده عن طرق الغي وهو بمنزلة من خلط فأحس بسوء مزاجه وكان عنده أخلاط مزمنة قاتلة وهو لا يشعر بها فثرب دواء أزال تلك الأخلاط العفنة التي لو دامت لترامت به إلى الفساد والعطب وأن من تبلغ رحمته ولطفه وبره بعبده هذا المبلغ وما هو أعجب وألطف منه لحقيق بأن يكون الحب كله والطاعات كلهاه وأن يذكر فلا ينسى ويطاع فلا يعصى ويشكر فلا يكفر .

فصل

ومنها أنه يعرف العبد مقدار نعمة معافاته وفضله في توفيقه له وحفظه إياه فانه من تربى في العافية لا يعلم ما يقاسيه المبتلى ولا يعرف مقدار النعمة فلو عرف أهل طاعة الله أنهم هم المنعم عليهم في الحقيقة وإن الله عليهم من الشكر أضعاف ما على غيرهم وإن توسدوا التراب ومضغوا الحصى فهم أهل النعمة المطلقة وإن من خلى الله بينه وبين معاصيه فمقدسة من عينه وهان عليه وإن ذلك ليس من كرامته على ربه وإن وسع الله عليه في الدنيا ومد له من أسبابها فإنهم أهل الإبتلاء على الحقيقة فإذا طالبت العبد نفسه بما تطلبه من الحظوظ والأقسام وأرته أنه في بلية وضائقة تداركه الله برحمته وابتلاء ببعض الذنوب فرأى ما كان فيه من المعافاة والنعمة وأنه لا نسبة لما كان فيه من النعم إلى ما طلبته نفسه من الحظوظ فحينئذ يكون أكثر أمانيه وآماله العود إلى حاله وأن يتممه الله بعافيته .

فصل

ومنها أن التوبة توجب للثائب آثارا عجيبة من المقامات التي لا تحصل بدونها فتوجب له من المحبة والرفقة واللطف وشكر الله وحمده والرضا عنه عبوديات أخر فإنه إذا تاب إلى الله تقبل الله توبته فرتب له على ذلك القبول أنواعا من النعم لا يهتدى العبد لتفاصيلها بل يزال يتقلب في بركتها وآثارها ما لم ينقضها ويفسدها .

فصل

ومنها أن الله سبحانه يحبه ويفرح بتوبته أعظم فرح وقد تقرر أن الجزاء من جنس العمل فلا ينسى الفرحة التي يظفر بها عند التوبة النصوح وتأمل كيف تجد القلب يرقص فرحا وأنت لا تدري بسبب ذلك الفرح ما هو وهذا أمر لا يحس به إلا حي القلب وأما ميت القلب فإنما يجد الفرح عند ظفره بالذنب ولا يعرف فرحاً غيره فوازن إذا بين هذين الفرحين وانظر ما يعقبه فرح الظفر بالذنب من أنواع الأحزان والهموم والغموم والمصائب فمن يشتري فرحة ساعة بغم الأبد وانظر ما يعقبه فرح الظفر بالطاعة والتوبة النصوح من الانسراح الدائم والنعيم وطيب العيش ووازن بين هذا وهذا ثم اختر ما يليق بك ويناسبك وكل يعمل على شاكلته وكل امرئ يصبو إلى ما يناسبه .

فصل

ومنها أنه إذا شهد ذنوبه ومعاصيه وتفريطه في حق ربه استكثر القليل من نعم ربه عليه ولا قليل منه لعله أن الواصل إليه فيها كثير على مسمى مثله واستقل السكثير من عمله لعله بأن الذي ينبغي أن يغسل به نجاسته وأوضاره وأوساخه أضعاف ما أتى به فهو دائما مستقل لعله كأننا ما كان مستكثر لنعمة الله عليه وإن دقت وقد تقدم التنبيه على هذا الوجه وهو من أطف الوجوه فعليك بمراعاته فله تأثير عجيب ولولم يكن في فوائد الذنب إلا هذا لسكنى به فأين حال هذا من حال من لا يرى لله عليه نعمة إلا ويرى أنه كان ينبغي أن يعطى ما هو فوقها وأجل منها وأنه لا يقدر أن يتكلم وكيف يعاند القدر وهو مظلوم مع الرب لا ينصفه ولا يعطيه مرتبته بل هو مغرئ بما نذته لفضله وكأله وأنه كان ينبغي له أن ينال الثريا ويطأ بأخصه هنالك ولكنه مظلوم مخسوس الحظ وهذا الضرب من أبفض الخلق إلى الله وأشدهم مقتا عنده وحكمة الله تقتضى أنهم لا يزالون في سفال فهم بين عتب على الخالق وشكوى له وذل لخلقه وحاجة إليهم وخدمة لهم أشغل الناس قلوبا بأرباب الولايات والمناصب ينتظرون ما يقذفون به إليهم من عظامهم وغسالة أيديهم وأوانيهم وأفرغ الناس قلوبا عن معاملة الله والانتقطاع إليه والتلذذ بمناجاته والطمأنينة بذكره وقررة العين بخشيته والرضاء به فعيادا بالله من زوال نعمته وتحول عاقبته

ولجأة نغمته ومن جميع سخطة .

فصل

ومنها أن الذنب يوجب لصاحبه التقيظ والتحرز من مصائد عدوه ومكائمه ومن أين يدخل عليه اللصوص والقطاع ومكائهم ومن أين يخرجون عليه وفي أى وقت يخرجون فهو قد استمد لهم وتأهب وعرف بماذا يستدفع شرهم وكيدهم فلو أنه مر عليهم على غرة وطمأ نيتة لم يأمن أن يظفروا به ويحتاحوه جملة .

فصل

ومنها أن القلب يكون ذاهلا عن عدوه معرضا عنه مشتغلا ببعض مهماته فإذا أصابه سهم من عدوه استجمعت له قوته وحاسته وحميته وطلب بثاره إن كان قلبه حرا كريما كالرجل الشجاع إذا جرح فإنه لا يقوم له شيء بل تراه بعدها هائجا طالبا مقداما والقلب الجبان المهين إذا جرح كالرجل الضعيف المهين إذا جرح ولى هاربا والجراحات في أكتافه وكذلك الأسد إذا جرح فإنه لا يطاق فلاخير فيمن لا مروءة له يطلب أخذ ثاره من أعدى عدوه فما شيء أشقى للقلب من أخذه بثاره من عدوه ولا عدو أعدى له من الشيطان فإن كان قلبه من قلوب الرجال المتسابقين في حلبة المجد جد في أخذ الثأر وغاظ عدوه كل الغيظ وأضناه كما جاء عن بعض السلف أن المؤمن لينضى شيطانه كما ينضى أحدكم بعيره في سفره .

فصل

ومنها أن مثل هذا يصير كالطبيب ينتفع به المرضى في علاجهم ودوائهم والطبيب الذى عرف المرض مباشرة وعرف دواءه وعلاجه أحذق وأخبر من الطبيب الذى إنما عرفه وصفا هذا فى أمراض الأبدان وكذلك فى أمراض القلوب وأدوائها وهذا معنى قول بعض الصوفية أعرف الناس بالآفات أكثرهم آفات وقال عمر بن الخطاب إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ فى الإسلام من لا يعرف الجاهلية ولهذا كان الصحابة أعرف الأمة بالإسلام وتفصيله وأبوابه وطرقه وأشد الناس رغبة فيه ومحبة له وجهادا لأعدائه وتكلموا بأعلامه وتحذروا من خلافه لكمال علمهم بضده لجأهم الإسلام وكل خصلة منه مضادة لكل خصلة مما كانوا عليه فازدادوا له معرفة وحبا وفيه جهادا بمعرفتهم بضده وذلك بمنزلة من كان فى حصر شديد وضيق ومرض وفقر وخوف ووحشة فقيض الله له من نقله منه إلى فضاء وسعة وأمن وعافية وغنى ومهجة وسرور فإنه يزداد سروره وغبطته ومحبته بما نقل إليه بحسب معرفته بما كان فيه وليس حال هذا كمن ولد فى الأمن والعافية والغنى والسرور فإنه لم يشعر بغيره وربما قيصت له أسباب تخرجه عن

ذلك إلى ضده وهو لا يشعر وربما ظن أن كثيراً من أسباب الهلاك والعطب تفضى به إلى السلامة والأمن والعافية فيكون هلاكه على يدي نفسه وهو لا يشعر وما أكثر هذا الضرب من الناس فإذا عرف الضدين وعلم مبادئ الطرفين وعرف أسباب الهلاك على التفصيل كان أحرى أن تدوم له النعمة مالم يؤثر أسباب زوالها على علم وفي مثل هذا قال القائل .
عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه
وهذه حال المؤمن يكون فطنا حاذقا أعرف الناس بالشر وأبعدهم منه فإذا تكلم في الشر وأسبابه ظننته من شر الناس فإذا خالطته وعرفت طويته رأيت من أبر الناس والمقصود أن من بلى بالآفات صار من أعرف الناس بطرقها وأمكنه أن يسدها على نفسه وعلى من استنصحه من الناس ومن لم يستنصحه .

فصل

ومنها أنه سبحانه يذيق عبده ألم الحجاب عنه والعبء وزوال ذلك الإنس والقرب لبتحن عبده فإن أقام على الرضا بهذه الحال ولم يجد نفسه تطالبه بحالها الأول مع الله بل اطمأنت وسكنت إلى غيره علم أنه لا يصلح فوضعه في مرتبة التي تليق به وإن استغاث استغاثته الملهوف وتقلق وتقلق المسكروب ودعا دعاء المضطر وعلم أنه قد فاتته حياته حقاً فهو يهتف بربه أن يرد عليه حياته ويعيد عليه مالا حياة له بدونه علم أنه موضع لما أهل له فرد عليه أحوج ما هو إليه فعظمت به فرحته وكملت به لذته وتمت به نعمته وانصل به سروره وعلم حينئذ مقداره فعرض عليه بالنواجذ وثنى عليه الخناصر وكان حاله كحال ذلك الفاقد لراحته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة إذا وجدها بعد معاينة الهلاك فما أعظم موقع ذلك الوجدان عنده والله أسرار وحكم ومنهيات وتعريفات لاتألفها عقول البشر .

فقل لخليط القلب ويحك ليس ذا بعشك فادرج طالبا عشك البالي
ولا تك بمن مد باعا إلى جننا فقصر عنه قال ذا ليس بالحالي

فالعبد إذا بلى بعد الإنس بالوحشة وبعد القرب بتار البعاد اشتاقت نفسه إلى لذة تلك المعاملة فحنت وأنت وتصدعت وتعرضت لنفحات من ليس لها منه عوض أبدا ولا سيما إذا تذكرت بره ولطفه وحنانه وقربه فإن هذه الذكرى تمنعها القرار وتمييز منها البلايل كما قال القائل وقد فاته طواف الوداع فركب الأخطار ورجع إليه .

ولما تذكرت المنازل بالحى ولم يقض لى تسليمه المتزود

تيقنت أن العيش ليس بتنافى إذا أنا لم أنظر إليها بموعده

وإن استمر أعراضها ولم تحن إلى معيها الأول ولم تحس بمفاقمتها الشديدة وضرورتها

إلى مراجعة قربها من ربها فهي بمن إذا غاب لم يطلب وإذا أبق لم يسترجع وإذا جنى لم يستعقب وهذه هي النفوس التي لم تؤهل لما هنالك وبحسب المعترض هذا الحرمان فإنه يكفيه وذلك ذنب عقابه فيه .

فصل

ومنها أن الحكمة الإلهية اقتضت تركيب الشهوة والغضب في الإنسان وهاتان القوتان فيه بمنزلة صفاته الذاتية لا ينفك عنهما وبهما وقعت المحنة والابتلاء وعرض لنيل الدرجات العلى واللحاق بالرفيق الأعلى والهبوط إلى أسفل سافلين فهاتان القوتان لا يدعان العبد حتى ينيلانه منازل الأبرار أو يضعانه تحت أقدام الأشرار ولن يجعل الله من شهوته مصروقة إلى ما أعد له في دار النعيم وغضبه حمية لله ولرسوله ولدينه كمن جعل شهوته مصروقة في هواه وأمانيه العاجلة وغضبه مقصور على حظه ولو انتهكت محارم الله وحدوده وعطلت شرائعه وسنته بعد أن يكون هو ملحوظا بعين الاحترام والتعظيم والتوقير ونفوذ الحكمة وهذه حال أكثر الرؤساء أعاذنا الله منها فلن يجعله الله هذين الصنفين في دار واحدة فهذا صعد بشهوته وغضبه إلى أعلى عليين وهذا هوى بهما إلى أسفل سافلين . والمقصود أن تركيب الإنسان على هذا الوجه هو غاية الحكمة ولا بد أن يقتضى كل واحد من القوتين أثره فلا بد من وقوع الذنب والمخالفات والمعاصي فلا بد من ترتب آثار هاتين القوتين عليهما ولو لم يخلقا في الإنسان لم يكن إنسانا بل كان ملكا فالترتب من موجبات الإنسانية كما قال النبي صلى الله عليه وسلم كل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التوابون فأما من اكتتفته العصمة وضربت عليه سرادقات الحفظ فهم أقل أفراد النوع الإنساني وهم خلاصته ولبه .

فصل

ومنها أن الله سبحانه إذا أراد بعبيده خيرا أنسأه رؤية طاعاته ورفعها من قلبه ولسانه فإذا ابتلى بالذنب جعله نصب عينيه ونسى طاعاته وجعل همه كله بذنبه فلا يزال ذنبه إمامه أن قام أو قعد أو غدا أو راح فيكون هذا عين الرحمة في حقه كما قال بعض السلف أن العبد ليعمل الذنب فيدخل به الجنة ويعمل الحسنة فيدخل بها النار قالوا وكيف ذلك قال يعمل الخطيئة فلا تزال نصب عينيه كلما ذكرها بسكى وندم وتاب واستغفر وتضرع وأتاب إلى الله وذلك له وانكسر وعمل لها أعمالا فتكون سبب الرحمة في حقه ويعمل الحسنة فلا تزال نصب عينيه بمن بها وراها ويعتدبها على ربه وعلى الخلق ويتكبر بها ويتعجب من الناس كيف لا يعظمونه ويكرمونهم ويجلونهم عليها فلا تزال هذه الأمور به حتى

تقوى عليه آثارها فتدخله النار فعلامة السعادة أن تكون حسنات العبد خلف ظهره وسيئاته نصب عينيه وعلامة الشقاوة أن يجعل حسناته نصب عينيه وسيئاته خلف ظهره والله المستعان .

فصل

ومنها أن شهود العبد ذنوبه وخطاياها موجب له أن لا يرى لنفسه على أحد فضلا ولا له على أحد حقا فإنه يشهد عيوب نفسه وذنوبه فلا يظن أنه خير من مسلم يؤمن بالله ورسوله ويحرم ما حرم الله ورسوله وإذا شهد ذلك من نفسه لم ير لها على الناس حقوقا من الإكرام يتقاضاهم أياها ويذمهم على ترك القيام بها فإنها عنده أخس قدراً وأقل قيمة من أن يكون له بها على عباد الله حقوق يجب عليهم مراعاتها أوله عليهم فضل يستحق أن يكرم ويعظم ويقدم لأجلها فيرى أن من سلم عليه أو لقيه بوجه منبسط فقد أحسن إليه وبذل له ما لا يستحقه فاستراح هذا في نفسه وأراح الناس من شكائته وغضبه على الوجود وأهله فما أطيب عيشه وما أنعم باله وما أقر عينه وأين هذا ممن لا يزال عاتباً على الخلق شاكياً ترك قيامهم بحقه ساخطا عليهم وهم عليه أسخط .

فصل

ومنها أنه يوجب له الإمساك عن عيوب الناس والفكر فيها فإنه في شغل بعيب نفسه فطوى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس وويل لمن نسى عيبه وتفرغ لعيوب الناس هذا من علامة الشقاوة كما أن الأول من أمارات السعادة .

ومنها أنه إذا وقع في الذنب شهد نفسه مثل إخوانه الخطائين وشهد أن المصيبة واحدة والجميع مشتركون في الحاجة بل في الضرورة إلى مغفرة الله وعباده ورحمته فدكماً يجب أن يستغفر له أخوه المسلم كذلك هو أيضاً ينبغي أن يستغفر لأخيه المسلم فيصير هجيراً رب اغفر لي ولوالدي وللسلمين والمسلمات وللمؤمنين والمؤمنات وقد كان بعض السلف يستحب لكل أحد أن يداوم على هذا الدعاء كل يوم سبعين مرة فيجعل له منه ورداً لا يخل به وسمعت شيخنا يذكره وذكر فيه فضلاً عظيماً لا أحفظه وربما كان من جملة أوراده التي لا يخل بها وسمعت يقول أن جعله بين السجدين جائر فإذا شهد العبد أن أخوانه مصابون بمثل ما أصيب به محتاجون إلى ما هو محتاج إليه لم يمتنع من مساعدتهم إلا لفرط جهل بمغفرة الله وفضله وحقيق بهذا أن لا يساعد فإن الجزاء من جنس العمل وقد قال بعض السلف إن الله لما عتب على الملائكة بسبب قولهم (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) وامتنح هاروت وماروت بما امتنحهما به جعلت الملائكة بعد ذلك تستغفر لبي آدم وتدعو الله لهم .

فصل

ومنها أنه إذا شهد نفسه مع ربه مسيئراً خاطئاً مفرطاً مع فرط إحسان الله إليه في كل طريقة عين وبره به ودفعه عنه وشدة حاجته إلى ربه وعدم استغنائه عنه نفساً واحداً وهذه حاله معه فكيف يطمع أن يكون الناس معه كما يجب وأن يعاملوه بمحض الإحسان وهو لم يعامل ربه بتلك المعاملة وكيف يطمع أن يطيعه بملوكه وولده وزوجته في كل ما يريد ولا يعصونه ولا يخلون بحقوقه وهو مع ربه ليس كذلك وهذا يوجب له أن يستغفر لمسيئتهم ويعفو عنه ويسامحه ويفضى عن الاستقصاء في طلب حقه فهذه الأثمار ونحوها متى اجتناها العبد من الذنب فهي علامة كونه رحمة في حقه ومن اجتنى منه أضرارها وأوجبت له خلاف ما ذكرناه فهي والله علامة الشقاوة وأنه من هو انه ^{على} الله وسقوطه من عينه خلى بينه وبين معاصيه ليقم عليه حجة عدله فيعاقبه باستحقاقه وتداعى السيئات في حق مثل هذا وتتألف فيتولد من الذنب الواحد ماشاء الله من المتالف والمعاطب التي يهوى بها في دركات العذاب والمصيبة كل المصيبة الذنب الذي يتولد من الذنب ثم يتولد من الإثنين ثالث ثم تقوى الثلاثة فتوجب رابعاً وهلم جرا ومن لم يكن له فقه نفس في هذا الباب هلك من حيث لا يشعر فالحسنات والسيئات آخذ بعضها برقاب بعضها يتلو بعضها بعضها ويشمر بعضها بعض قال بعض السلف إن من ثواب الحسنة الحسننة بعدها وإن من عقاب السيئة السيئة بعدها وهذا أظهر عند الناس من أن تضرب له الأمثال وتطلب له الشواهد والله المستعان .

فصل

وإذا تأملت حكمته سبحانه فيما ابتلى به عباده وصفوته بما ساقهم به إلى أجل الغايات وأكمل النهايات التي لم يكونوا يعبرون إليها إلا على جسر من الابتلاء والامتحان وكان ذلك الجسر لسكّاله كالجسر الذي لا سبيل إلى عبورهم إلى الجنة إلا عليه وكان ذلك الابتلاء والامتحان عين المنهج في حقهم والكرامة فصورته صورة ابتلاء وامتحان وباطنه فيه الرحمة والنعمة فكم لله من نعمة جسيمة ومنة عظيمة تجنى من قطوف الابتلاء والامتحان . فتأمل حال أينا آدم وما آلت إليه محنته من الاصطفاة والاجتباء والتوبة والهداية ورفعة المنزلة ولولا تلك المحنة التي جرت عليه وهي إخراجهم من الجنة وتوابع ذلك لما وصل إلى ما وصل إليه فكم بين حالته الأولى وحالته الثانية في نهايته . وتأمل حال أينا الثاني نوح عليه السلام وما آلت إليه محنته وصبره على قومه تلك القرون كلها حتى أقر الله عينه وأغرق أهل الأرض بدعوته وجعل العالم بعده من ذريته وجعله خامس خمسة وهم أولوالعزم الذين هم أفضل الرسل وأمر رسوله ونبيه محمداً صلوات الله وسلامه عليه أن يصبر كصبره وأنتى عليه بالشكر فقال (أنه كان عبداً

شكورا) فوصفه بكمال الصبر والشكر . ثم تأمل حال أئمتنا الثالث إبراهيم عليه السلام وإمام الخنفاء وشيخ الأنبياء وعمود العالم وخليل رب العالمين من بنى آدم وتأمل ما آلت إليه محنته وصبره وبذله نفسه لله وتأمل كيف آل به بذله لله نفسه ونصره دينه إلى أن اتخذ الله خليلاً لنفسه وأمر رسوله وخليله محمداً صلى الله عليه وآله أن يتبع ملته . وأنبهك على خصلة واحدة مما أكرمه الله به في محنته بذبح ولده فإن الله تبارك وتعالى جزاه على تسليمه ولده لأمر الله بأن يبارك في نسله وكثره حتى ملأ السهال والجبل فإن الله تبارك وتعالى لا يتكرم عليه أحد وهو أكرم الأكرمين فمن ترك لوجهه أمراً أو فعله لوجهه بذل الله له أضعاف ما تركه من ذلك الأمر أضعافاً مضاعفة وجزاه بأضعاف ما فعله لأجله أضعافاً مضاعفة فلما أمر إبراهيم بذبح ولده فبادر لأمر الله ووافق عليه الولد أباه رضا منهما وتسليماً وعلم الله منهما الصدق والوفاء . فداه بذبح عظيم وأعطاهما ما أعطاهما من فضله وكان من بعض عطاياه أن يبارك في ذريتهما حتى ملؤا الأرض فإن المقصود بالولد إنما هو التماسل وتكثير الذرية ولهذا قال إبراهيم (رب هب لي من الصالحين) وقال (رب اجعلني مقيم الصلاة ومن زريتي) فغاية ما كان يحذر ويخشى من ذبح ولده انقطاع نسله فلما بذل ولده لله وبذل الولد نفسه ضاعف الله له النسل وبارك فيه وكثر حتى ملؤا الدنيا وجعل النبوة والكتاب في ذريته خاصة وأخرج منهم محمداً صلى الله عليه وآله . وقد ذكر أن داود عليه السلام أراد أن يعلم عدد بنى إسرائيل فأمر بإحضارهم وبعث لذلك نقباء وعرفاء وأمرهم أن يرفعوا إليه ما بلغ عددهم فكشوا مدة لا يقدر على ذلك فأوحى الله إلى داود أن قد علمت أنى وعدت أباك إبراهيم لما أمرته بذبح ولده فبادر إلى طاعة أمرى أن أبارك له في ذريته حتى يصيروا في عدد النجوم وأجعلهم بحيث لا يحصى عددهم وقد أردت أن يحصى عدداً قدرت أنه لا يحصى وذكر باقى الحديث فجعل من نسله هاتين الأمتين العظيمتين اللتين لا يحصى عددهم إلا الله خالقهم ورازقهم وهم بنو إسرائيل وبنو إسماعيل هذا سوى ما أكرمه الله به من رفع الذكر والثناء الجليل على السنة جميع الأمم وفي السموات بين الملائكة فهذا من بعض ثمره معاملته قنباً لمن عرفه ثم عامل غيره ما أخسر صفته وما أعظم حسرته .

فصل

ثم تأمل حال السكليم موسى عليه السلام وما آلت إليه محنته وفتونه من أول ولادته إلى منتهى أمره حتى كلفه الله تكليماً وقربه منه وكتب له التوراة بيده ورفع له إلى أعلى السموات واحتمل له ما لا يحتمل لغيره فإنه رمى الألواح على الأرض حتى تكسرت وأخذ بلحية نبي الله هارون وجره إليه ولطم وجهه ملك الموت فقفا عينه وخاصم ربه ليلة الإسراء في شأن

رسول الله ﷺ ور به يحبه على ذلك كله ولا سقط شيء منه من عينه ولا سقطت منزلته عنده بل هو الوجيه عند الله القريب ولولا ما تقدم له من السوابق وتحمل الشدائد والمحن العظام في الله ومقاسات الأمر الشديد بين فرعون وقومه ثم بنى إسرائيل وما آذوه به وما صبر عليهم لله لم يكن ذلك . ثم تأمل حال المسيح ﷺ وصبره على قومه واحتماله في الله وما تحمله منهم حتى رفعه الله إليه وطهره من الذين كفروا وانتقم من أعدائه وقطعهم في الأرض ومزقهم كل ممزق وسلبهم ممالكهم ونغرهم إلى آخر الدهر .

فصل

فإذا جئت إلى النبي ﷺ وتأملت سيرته مع قومه وصبره في الله واحتماله ما لم يحتمله نبي قبله وتلون الأحوال عليه من سلم وخوف وغنى وفقير وأمن وإقامة في وطنه وظن عنه وتركه لله وقتل أحبائه وأوليائه بين يديه وأذى الكفار له بسائر أنواع الأذى من القول والفعل والسحر والكذب والافتراء عليه والبهتان وهو مع ذلك كله صابر على أمر الله يدعو إلى الله فلم يؤذ نبي ما أودى ولم يحتمل في الله ما احتمله ولم يعط نبي ما أعطيه فرفع الله له ذكره وقرن اسمه باسمه وجعله سيد الناس كلهم وجعله أقرب الخلق إليه وسيلة وأعظمهم عنده جاهها وأسمعهم عنده شفاعته وكانت تلك المحن والابتلاء عين كرامته وهي بمازاده الله بها شرفا وفضلا وساقه بها إلى أعلا المقامات وهذا حال ورتبه من بعده الأمثل فالأمثل كل له نصيب من المحنة يسوقه الله به إلى كماله بحسب متابعتة له ومن لا نصيب له من ذلك فحظه من الدنيا حظ من خلق لها وخلقت له وجعل خلاقه ونصيبه فيها فهو يأكل منها رغدا ويتمتع فيها حتى يناله نصيبه من الكتاب بمتحن أولياء الله وهو في دعة وخفض عيش ويخافون وهو آمن ويحزنون وهو في أهله مسرور له شأن ولهم شأن وهو في واد وهم في واد همه ما يقيم به جاهه ويسلم به ماله وتسمع به كلمته لزم من ذلك ما لزم ورضى من رضى وسخط من سخط وهمهم إقامة دين الله وإعلاء كلمته وإعزاز أوليائه وأن تكون الدعوة له وحده فيكون هو وحده المعبود لا غيره ورسوله المطاع لا سواه فله سبحانه من الحكم في ابتلائه أنبياءه ورسوله وعباده المؤمنين ما تنقصر عقول العالمين عن معرفته وهل وصل من وصل إلى المقامات المحمودة والنهايات الفاضلة إلا على جسر المحنة والابتلاء .

كذا المعالي إذا مارمت تدركها فاعبر إليها على جسر من التعب والحمد لله وحده وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا دائما أبدا إلى يوم الدين ورضى الله عن أصحاب رسول الله أجمعين .

فصل

وإذا تأملت الحكمة الباهرة في هذا الدين القويم والملة الحنيفية والشريعة المحمدية التي لا

تنال العبارة كالمها ولا يدرك الوصف حسننها ولا تقترح عقول العقلاء ولو اجتمعت وكانت على
أكمل عقل رجل منهم فوقها وحسب العقول الكاملة الفاضلة أن أدركت حسننها وشهدت بفضلتها
وأنه ما طرق العالم شريعة أكمل ولا أجل ولا أعظم منها فهي نفسها الشاهد والمشهود له والحجة
والمحتج له والدعوى والبرهان ولولم يأت الرسول ببرهان عليها لكني بها برهاننا وآية وشاهدا
على أنها من عند الله وكلها شاهدة له بكل العلم وكال الحكمة وسعة الرحمة والبر والإحسان
والإحاطة بالغيب والشهادة والعلم بالمبادئ والعواقب وأنها من أعظم نعم الله التي أنعم بها
على عباده فما أنعم عليهم بنعمة أجل من أن هداهم لها وجعلهم من أهلها ومن ارتضاهم لها
فلهذا امتن على عباده بأن هداهم لها قال تعالى (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث
فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من
قبل لفي ضلال مبين) وقال معرفا لعباده ومذكر لهم عظيم نعمته عليهم مستدعيًا منهم شكره
على أن جعلهم من أهلها (اليوم أكملت لكم دينكم الآية) وتأمل كيف وصف الدين الذي
اختاره لهم بالسكال والنعمة التي أسبغها عليهم بالتام إذانا في الدين بأنه لا نقص فيه ولا عيب
ولا خلل ولا شيء خارجا عن الحكمة بوجه بل هو الكامل في حسنه وجلالته ووصف النعمة
بالتام إذانا بدوامها واتصالها وأنه لا يسلبهم إياها بعد إذ أعطاهموها بل يتبها لهم بالدوام
في هذه الدار وفي دار القرار وتأمل حسن اقتران التام بالنعمة وحسن اقتران السكال بالدين
وإضافة الدين اليهم إذ هم القائمون به المقيمون له وأضاف النعمة إليه إذ هو وليها ومسديها
والمنعم بها عليهم فهي نعمته حقا وهم قابلوها وأتى في السكال باللام المؤذنة بالاختصاص وأنه
شيء خصوا به دون الأمم وفي إتمام النعمة بعلى المؤذنة بالاستعلاء والاشتمال والإحاطة فجاء
أتممت في مقابلة أكلت وعليكم في مقابلة لكم ونعمتي في مقابلة دينكم وأكد ذلك وزاده
تقريراً وكالا وإتماما للنعمة بقوله (ورضيت لكم الإسلام ديناً) . وكان بعض السلف الصالح
يقول ياله من دين لو أن له رجالا وقد ذكرنا فصلا مختصراً في دلالة خلقه على وحدانيته
وصفات كاله ونعوت جلاله وأسمائه الحسنى وأردنا أن نختم به القسم الأول من الكتاب ثم
رأينا أن ننبهه فصلا في دلالة دينه وشرعه على وحدانيته وعلمه وحكمته ورحمته وسائر صفات
كاله إذ هذان أشرف العلوم التي يكتسبها العبد في هذه الدار ويدخل بها إلى الدار الآخرة
وقد كان الأولى بنا الإمساك عن ذلك لأن ما يصفه الواصفون منه وتنتهي إليه علومهم هو
كما يدخل الرجل أصبعه في اليم ثم يزعا فهو يصف البحر بما يعلق على إصبعه من البلل وأين
ذلك من البحر فيظن السامع أن تلك الصفة أحاطت بالبحر وإنما هي صفة ما علق بالإصبع
منه وإلا فالأمر أجل وأعظم وأوسع من أن تحيط عقول البشر بأدنى جزء منه وماذا عسى

أن يصف به الناظر إلى قرص الشمس من ضوئها وقدرها وحسنها وعجائب صنع الله فيها
ولكن قد رضى الله من عباده بالثناء عليه وذكر آلائه وأسماؤه وصفاته وحكته وجلاله مع
أنه لا يحصى ثناء عليه أبداً بل هو كما أتى على نفسه فلا يبلغ مخلوق ثناء عليه تبارك وتعالى ولا
وصف كتابه ودينه بما ينبغي له بل لا يبلغ أحد من الأمة ثناء على رسوله كما هو أهل أن يثنى
عليه بل هو فوق ما يثنون به عليه ومع هذا أن الله تعالى يحب أن يحمديوثنى عليه وعلى كتابه
ودينه ورسوله فهذه مقدمة اعتذار بين يدي القصور والتقصير من ركب هذا البحر الأعظم
والله عليم بمقاصد العباد ودنياهم وهو أولى بالعدر والتجاوز .

فصل

وبصائر الناس في هذا النور الباهر تنقسم إلى ثلاثة أقسام . أحدها من عدم بصيرة
الإيمان جملة فهو لا يرى من هذا الصنف إلا الظلمات والرعد والبرق فهو يجعل أصبعيه في أذنه
من الصواعق ويده على عينه من البرق خشية أن يخطف بصره ولا يجاوز نظره ما وراء ذلك
من الرحمة وأسباب الحياة الأبدية فهذا القسم هو الذى لم يرفع بهذا الدين رأساً ولم يقبل هدى
الله الذى هدى به عباده ولوجاءته كل آية لأنه من سبقت له الشقاوة وحقت عليه الكلمة ففائدة
إنذار هذا إقامة الحجة عليه ليعذب بذنبه لا بمجرد علم الله فيه . القسم الثانى أصحاب البصيرة
الضعيفة الخفاشية الذين نسبة أبصارهم إلى هذا النور كنسبة أبصار الخفاش إلى جرم الشمس
فهم تبع لآبائهم وأسلافهم دينهم دين العادة والمنشأ وهم الذين قال فيهم أمير المؤمنين على بن
أبي طالب أو منقاداً للحق لا بصيرة له في إصابة فهو لاء إذا كانوا منقادين لأهل البصائر
لا يتخالجهم شك ولا ريب فهم على سبيل نجاة . القسم الثالث وهو خلاصة الوجود ولباب بنى
آدم وهم أولو البصائر النافذة الذين شهدت بصائرهم هذا النور المبين فكانوا منه على بصيرة ويقين
ومشاهدة لحسنه وكاله بحيث لو عرض على عقولهم ضده لرأوه كالليل البهيم الأسود وهذا هو المحك
والفرقان بينهم وبين الذين قبلهم فإن أولئك بحسب داعيهم ومن يقرن بهم كما قال فيهم
على بن أبي طالب أتباع كل ناقع يميلون مع كل صائح لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجئوا
إلى ركن وثيق هذا علامة من عدم البصيرة فإنك تراه يستحسن الشيء وضده ويمدح الشيء
ويذمه بعينه إذا جاء في قالب لا يعرفه فيعظم طاعة الرسول ويرى عظيماً مخالفته ثم هو
من أشد الناس مخالفة له ونقياً لما أثبتته ومعاداة للقائمين بسنته وهذا من عدم البصيرة
فهذا القسم الثالث إنما عملهم على البصائر وبها تفاوت مراتبهم في درجات الفضل كما قال
بعض السلف وقد ذكر السابقين فقال إنما كانوا يعملون على البصائر وما أوتى أحد أفضل
من بصيرة في دين الله ولو قصر في العمل قال تعالى (واذكر عبادة إبراهيم وإسماعيل

وإسحق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار) قال ابن عباس أولى القوة في طاعة الله والأبصار في المعرفة في أمر الله وقال قتادة ومجاهد أعطوا قوة في العبادة وبصرا في الدين وأعلم الناس أبصرهم بالحق إذا اختلف الناس وإن كان مقصراً في العمل وتحت كل من هذه الأقسام أنواع لا يحصى مقادير تفاوتها إلا الله إذا عرف هذا فالقسم الأول لا ينتفع بهذا الباب ولا يزداد به إلا ضلالة والقسم الثاني ينتفع منه بقدر فهمه واستعداده والقسم الثالث وإليهم هذا الحديث يساق وهم أولو الأبواب الذين يخصهم الله في كتابه بخطاب التنبيه والإرشاد وهم المرادون على الحقيقة بالذكر قال تعالى (وما يذكر إلا أولو الأبواب).

فصل

قد شهدت الفطر والعقول بأن للعالم رباً قادراً حليماً عليماً رحيماً كاملاً في ذاته وصفاته لا يكون إلا المريداً للخير لعباده مجرباً لهم على الشريعة والسنة الفاضلة العائدة باستصلاحهم الموافقة لما ركب في عقولهم من استحسان الحسن واستقباح القبيح وما جبل طباعهم عليه من إيثار النافع لهم المصلح لأشأنهم وترك الضار المفسد لهم وشهدت هذه الشريعة له بأنه أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين وأنه المحيط بكل شيء علماً وإذا عرف ذلك فإيس من الحكمة الإلهية بل ولا الحكمة في ملوك العالم أنهم يسوون بين من هو تحت تدبيرهم في تعريفهم كلما يعرفه الملوك وإعلامهم جميع ما يعلمونه وإطلاعهم على كل ما يجرون عليه سياساتهم في أنفسهم وفي منازلهم حتى لا يقيموا في بلد فيها إلا أخبروا من تحت أيديهم بالسبب في ذلك والمعنى الذي قصدوه منه ولا يأمرون رعيتهم بأمر ولا يضربون عليهم بعثاً ولا يسوسونهم سياسة إلا أخبرهم بوجه ذلك وسببه وغايته ومدته بل لا تتصرف بهم الأحوال في مطاعهم وملايسهم ومرآتهم إلا أوقفهم على أغراضهم فيه ولا شك أن هذا مناف للحكمة والمصلحة بين الخلقين فكيف بشأن رب العالمين وأحكم الحاكمين الذي لا يشاركه في علمه ولا حكمته أحد أبداً فحسب العقول السكاملة أن تستدل بما عرفت من حكمته على ما غاب عنها وتعلم أن له حكمة في كل ما خلقه وأمر به وشرعه وهل تقتضى الحكمة أن يخبر الله تعالى كل عبد من عباده بكل ما يفعله ويوقفهم على وجه تدبيره في كل ما يريد به وعلى حكمته في صغير ما ذرأ وبرأ من خلقته وهل في قوى الخلق ذلك بل طوى سبحانه كثيراً من صنعه وأمره عن جميع خلقه فلم يطلع على ذلك ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلًا والمدبر الحكيم من البشر إذا ثبتت حكمته وابتغواؤه الصلاح لمن تحت تدبيره وسياسته كفا في ذلك تتبع مقاصده فيمن يولى ويعزل وفي جنس ما يأمر به وينهى عنه وفي تدبيره لرعيته

وسياسته لهم دون تفاصيل كل فعل من أفعاله اللهم إلا أن يبلغ الأمر في ذلك مبلغاً لا يوجد لفعله منقذ ومساغ في المصلحة أصلاً فحينئذ يخرج بذلك عن استحقاق اسم الحكيم وإن يجد أحد في خلق الله ولا في أمره ولا واحداً من هذا الضرب بل غاية ما تخرجه نفس المتعنت أمور يعجز العقل عن معرفة وجوهها وحكمتها وأما أن ينفي ذلك عنها فعاذ الله إلا أن يكون ما أخرج به كذب على الخالق الأمر فلم يخلق الله ذلك ولا شرعه. وإذا عرف هذا فقد علم أن رب العالمين أحكم الحاكمين والعالم بكل شيء والغنى عن كل شيء والقادر على كل شيء ومن هذا شأنه لم تخرج أفعاله وأوامره قط عن الحكمة والرحمة والمصلحة وما يخفى على العباد من معاني حكمته في صنعه وابداعه وأمره وشرعه فيكشفهم فيه معرفته بالوجه العام أن تضمنته حكمة بالغة وإن لم يعرفوا تفصيلها وأن ذلك من علم الغيب الذي استأثر الله به فيكشفهم في ذلك الإسناد إلى الحكمة البالغة العامة الشاملة التي علموا ماخفي منها بما ظهر لهم هذا وأن الله تعالى بنى أمور عباده على أن عرفهم معاني جلائل خلقه وأمره دون دقائقهما وتفصيلهما وهذا مطرد في الأشياء أصولها وفروعها فأنت إذا رأيت الرجاءين مثلاً أحدهما أكثر شعراً من الآخر أو أشد بياضاً أو أحد ذهناً لا يمكنك أن تعرف من جهة السبب الذي أجرى الله عليه سنة الخلقية وجه اختصاص كل واحد منهما بما اختص به وهكذا في اختلاف الصور والأشكال ولكن لو أردت أن تعرف ماذا كان شعر هذا مثلاً يزيد على شعر الآخر بعدد معين أو المعنى الذي فضله به في القدر الخصوص والتشكيل الخصوص ومعرفة القدر الذي بينهما من التفاوت وسببه لما أمكن ذلك أصلاً وقس على هذا جميع المخلوقات من الرمال والجبال

والأشجار ومقادير الكواكب وهيئاتها وإذا كان لا سبيل إلى معرفة

هذا في الخلق بل يكفى فيه العلة العامة والحكمة الشاملة

فهي كذا في الأمر يعلم أن جميع ما أمر به متضمن

لحكمة بالغة وأما تفاصيل أسرار المأمورات

والمنهيات فلا سبيل إلى علم البشرية

ولسكن يطلع الله من شاء من خلقه

على ما شاء منه فاعتصم

بـ هذا الأصل

(تم الجزء الأول من كتاب مفتاح دار السعادة وبإيه الجزء الثاني)

(وأوله فصل حاجة الناس إلى الشريعة ضرورية)

فهرس

الجزء الأول من كتاب مفتاح دار السعادة

	صيفة
خطبة الكتاب	٢
بحث جليل فى أسرار الله تعالى فى إهباط آدم إلى الأرض بعد إخراجه من الجنة	٣
مطلب فى بيان الجنة التى أسكنها الله آدم ثم أخرجه منها وذكر أقاويل العلماء فى ذلك وبيان الحق منها	١٠
فصل فى بيان أن آدم أعطى وذريته بعد إخراجه من الجنة أفضل مما تمنعه وهو العهد	٣٢
فصل وهذان الضلالان أعنى الضلال والشقاء يذكرهما سبحانه كثيرأ فى كلامه ويخبر أنهما حظ أعدائه	٣٧
فصل فى بيان من توجه إليه الخطاب فى قوله تعالى (فأما يا آئينكم منى هدى)	٣٧
فصل فى بيان المراد من اتباع هدى الله فى قوله (فمن تبع هداى)	٤٠
فصل فى تعريف القلب السليم الذى ينجو من عذاب الله	٤١
فصل وهذه المتابعة التى أثنى الله على أهلها فى كثير من آى القرآن	٤٢
فصل فى بيان الإعراض عن الذكر فى قوله تعالى (ومن أعرض عن ذكرى)	٤٢
فصل فى تفسير الضنك المذكور فى قوله تعالى (فإن له معيشة ضنكا)	٤٣
فصل فى تفسير العمى فى قوله تعالى (ونحشره يوم القيامة أعمى)	٤٤
فصل فى العلم والإرادة ومكانهما من السعادة	٤٦
الأصل الأول فى العلم وفضله وشرفه وبيان عموم الحاجة إليه وتوقف كمال العبد عليه	٤٨
مطلب فى أن العلم أفضل من المال من وجوه	١٢٨
بحث فى علم المنطق وبيان اختلاف العلماء فيه	١٥٧
فصل وهذا الحديث (يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله) روى من عدة طرق	١٦٣
فصل وإذا تأملت مادعى الله سبحانه إلى التفكر فيه أو قعك على العلم به سبحانه وتعالى وبوحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله الخ	١٨٧
مطلب خلق الإنسان وما فيه من الآثار وبديع الصنع والكلام على أعضاء الإنسان عضوا عضوا وبيان ما فى كل واحد منها من الحكم	١٨٧

- ١٩٦ فصل فارجع الآن إلى النطفة وتأمل حالها أولاً وما صارت إليه ثانياً وفيه الكلام
على الأجرام الفلكية والكواكب وبيان ما فيها من الأسرار والحكم
- ١٩٩ فصل في أن النظر في آيات الله نوعان نظر بالبصر وهذا يشارك فيه الإنسان
سائر الحيوان والثاني بالبصيرة وهذا هو الذي ندب الله إليه
- ١٩٩ فصل في الكلام على الأرض وبيان ما في خلقها من الأسرار والحكم
مطلب في الكلام على الهواء وحاجة العالم إليه
- ٢٠٠ فصل في عجائب الليل والنهار وما فهمنا من الأسرار
- ٢٠٦ د في الكلام على العالم جملة وار تباط علويه بسفليه وكل جزء منه ببقية الأجزاء
- ٢٠٧ د في عجائب خلق السماء
- ٢٠٧ د في عجائب خلق الشمس والقمر
- ٢٠٨ د ثم تأمل بعد ذلك حال الشمس في ارتفاعها وانخفاضها
- ٢٠٩ د ثم تأمل حال الشمس والقمر وما أودعاه من الاضاءة والنور
- ٢٠٩ د في بيان الحكمة في اختلاف مقادير الليل والنهار
- ٢٠٩ د ثم تأمل الحكمة في مقادير الليل والنهار
- ٢١٠ د ثم تأمل لإنارة القمر والكواكب في ظلمة الليل
- ٢١٠ د ثم تأمل حكمته تعالى في هذه النجوم وكثرتها
- ٢١١ د في اختلاف سير الكواكب وما في ذلك من العجائب
- ٢١٢ د ثم تأمل هذا الفلك الدوار بشمس وقمر ونجومه وبروجه
- ٢١٤ د في استنباط دليل من الكون على وجود الصانع القديم
- ٢١٥ د في إمساك السموات والأرض وبيان الإمساك لهما أن تقعا
- ٢١٥ د ثم تأمل الحكمة البالغة في الحر والبرد وقيام الحيوان والنبات عليهما
- ٢١٥ د في بيان الحكمة في خلق النار وبيان ما فيها من الأسرار
- ٢١٦ د في بيان حكمة اختصاص الإنسان بالنار دون سائر الحيوان
- ٢١٦ د في الكلام على الهواء وتفصيل ما فيه من المصالح والمرافق
- ٢١٧ د في الكلام على خلق الأرض وأنها ساكنة غير متحركة
- ٢١٨ د ثم تأمل الحكمة في أن جعل مهب الشمال على الأرض أرفع من مهب الجنوب
- ٢١٨ د ثم تأمل الحكمة العجيبة في الجبال التي يظن الجاهل أنها فضلة لا حاجة إليها

- ٢٢١ فصل في حكمة خلق الأرض ذات سهل وجبل وحزن ووعر
د في الكلام على الزلازل وشرح أسباب حدوثها
٢٢١ د في الكلام على التقدين الذهب والفضة وما فيهما من الأسرار
٢٢٢ د في بيان الحكمة في تيسيره تعالى على العباد ما تشهد حاجتهم إليه وتوسيعه
٢٢٣ د ومن ذلك سعة الأرض وامتدادها .
٢٢٣ د في المطر وبيان ما فيه من المصالح
٢٢٤ د ثم تأمل الحكمة البالغة في إنزاله المطر بقدر الحاجة
٢٢٤ د في حكمة إخراج الأقوات والثمار والحبوب والفواكه
٢٢٥ د ثم تأمل في تشبيهه خلق الأشجار والنبات بالقسطاظ والخيمة
٢٢٥ د في حكمة خلق الورق للشجر
٢٢٦ د ثم تأمل الحكمة في كونها جعلت زينة للشجر وسترا ولباسا للشجرة
٢٢٧ د في إبداع العجم والنوى وما في خلقهما من الأسرار
٢٢٧ د في خلق الرمان وما فيه من البدائع
٢٢٨ د ثم تأمل هذا الربيع والنماء الذي جعله الله في الزرع
٢٢٨ د ثم تأمل الحكمة في الحبوب
٢٢٨ د ثم تأمل هذه الحكمة البارعة في هذه الأشجار
٢٢٩ د في خلق البطيخ واليقطين والجزر
٢٣٠ د في حكمة موافاة أصناف الفواكه في الأوقات المناسبة لها
٢٣٠ د في الكلام على خلق النخلة وما فيها من العجائب
٢٣٣ د في الكلام على العقاقير والأدوية التي يخرجها الله من الأرض
٢٣٤ د في إعطائه سبحانه بهيمة الانعام الاسماع والابصار
٢٣٤ د في حكمة خلق آلات البطش في الحيوان من الإنسان وغيره
٢٣٥ د في حكمة تفريقه سبحانه خلق الحيوان واعطاء كل نوع منها مالا يبدله منه
٢٣٦ د ثم تأمل ذوات الأربع من الحيوان
٢٣٧ د ثم تأمل الحكمة في قوائم الحيوان
٢٣٧ د ثم تأمل الحكمة في جعل ظهور الدواب مبسوطه
٢٣٧ د في حكمة خلق فرج البهيمة بارزاً من ورائها
٢٣٨ د ثم تأمل كيف كسيت أجسام الحيوان الهميمي هذه الكسوة من الشعر وغيرها

- ٢٣٩ فصل في أن الوحوش والبهائم لا يرى إلا القليل منها على أنها أكثر من الإنسان
- ٢٤٠ د في حكمة خلق وجه الدابة على ما يشاهد منها
- ٢٤٠ د في شفر الفيل وما فيه من الحكمة والأسرار
- ٢٤١ د في خلق الزرافة واختلاف أعضائها
- ٢٤٢ د في خلق النملة وما فيها من الأسرار وشرح طرف من آثارها
- ٢٤٤ د في عجيب فطنة الشمع واحتياله في معاشه
- ٢٤٤ د في جسم الطائر وخلقته وما خلق له من الآلات التي يتمكن بها من الطيران
- ٢٤٥ د في خلق البيضة
- ٢٤٥ د في حوصلة الطائر وما فدرت له
- ٢٤٥ د في الكلام على الألوان والاصباغ والوشى التي ترى في كثير من الحيوانات
- ٢٤٦ د ثم تأمل هذا الطائر الطويل الساقين واعرف المنفعة في طول ساقيه
- ٢٤٨ د ثم تأمل أحوال النحل وما فيها من العبر والآيات
- ٢٤٩ د ومن أعجب أمر النحل ما لا يمتدى له أكثر الناس ولا يعرفونه
- ٢٥١ د في حكمة ما يخرج من بطون الأنعام من اللبن
- ٢٥١ د في عجائب خلق السمك وكيفية خلقه
- ٢٥٥ بحث في تنويعه تعالى عقوبات الأمم الخالية وبيان حكمته في ذلك
- ٢٥٥ فصل فأعد الآن النظر في نفسك مرة ثانية
- ٢٦٠ د في الكلام على آلات التناسل وما في خلقها من الحكمة
- ٢٦٠ د فأعد النظر في نفسك وتأمل في وضع هذه الأعضاء مواضعها
- ٢٦٢ د في بيان تركيب البدن ووضع الأعضاء مواضعها وإعدادها لما أعدت له
- ٢٦٣ د في بيان ما اختص الله به الإنسان من أنواع البر وصنوف الكرامات
- ٢٦٤ د في الكلام على الحواس التي في الإنسان
- ٢٦٤ د في أن الحواس أعينت بمخلوقات منفصلة عنها تعيينها على الإحساس
- ٢٦٥ د ثم تأمل حال فاقد البصر وما يقع في أموره من الخلل
- ٢٦٦ د في أن من عدم بيان القلب وبيان اللسان كان كالحوانات العجماء
- ٢٦٦ د ثم تأمل حكمته في الأعضاء التي خلقت فيك أحاداً ومثنى وثلاث
- ٢٦٧ د في أن اختلاف صور الإنسان من أقوى الدلائل على نفي الطبيعة
- ٢٦٨ د في حكمة اشتراك الرجل والمرأة في العانة وانفرا بالرجل باللحية

- ٢٦٨ فصل في الكلام على الصوت وبيان ما فيه من الاسرار
- ٢٦٩ د في أن الأعضاء التي يكون بواسطتها الصوت لها منافع أخر غير وجود الصوت
- ٢٧١ د في بيان الحكمة في كثير من أعضاء الحيوان
- ٢٧٣ د في بيان الحكمة في كثرة بكاء الأطفال وما لهم في ذلك من المصالح
- ٢٧٧ تنبيه الفرق بين نظر الطبيب والطبايعي في هذه الأشياء
- ٢٧٧ د ثم تأمل حكمة الله تعالى في الحفظ والنسيان اللذين خص بهما الإنسان
- ٢٧٧ فصل في الكلام على خلق الحياء الذي خص به الإنسان
- ٢٧٨ د في الكلام على نعمتي البيان النطقى والبيان الخطى
- ٢٨٠ د في حكمة إعطاء الإنسان علم ما لا بد له منه وحجبه عماله غنى عنه
- ٢٨٢ فصل وكذلك أعظام العلوم المتعلقة بصلاح دنياهم ومعاشهم كالطب ونحوه
- ٢٨٢ د في حكمة حجب البارى جل شأه عباده عن علم قيام الساعة ومقادير آجالهم
- ٢٨٥ د ومنها أنه سبحانه يحب أن يتفضل على خلقه
- ٢٨٦ د في أنه سبحانه له الأسماء وأن لكل اسم منها أثر من الآثار في الخلق والأمر
- ٢٨٧ د ومنها أنه سبحانه يعرف عباده عزته في قضائه وقدره
- ٢٨٨ د ومنها أنه سبحانه يستجلب من عباده ما هو من أعظم أسباب السعادة
- ٢٩٠ د ومنها أن العبد يعرف حقيقة نفسه
- ٢٩٠ د ومنها تعريفه عبده سعة حلمه
- ٢٩١ د ومنها تعريفه العبد أنه لا سبيل له إلى النجاة إلا بعفوه
- ٢٩١ د ومنها تعريفه العبد كرمه بقبوله توبته
- ٢٩١ د ومنها إقامة حجة عدله على عبده
- ٢٩١ د ومنها أن يعامل العبد بنى جنسه في إساءتهم له بما يجب أن يعامله الله به
- ٢٩٢ د ومنها إذا عرف هذا أحسن إلى من أساء إليه
- ٢٩٢ د ومنها أن يخلع صولة الطاعة من قلبه
- ٢٩٣ د ومنها أن لله عز وجل على القلوب أنواعا من العبودية
- ٢٩٣ د ومنها أن يعرف العبد مقدار نعمة معافاته
- ٢٩٤ د ومنها أن التوبة توجب للتائب آثارا عجيبة
- ٢٩٤ د ومنها أن الله يفرح بتوبة عبده أعظم فرح
- ٢٩٤ د ومنها أنه إذا شهد ذنوبه استكثر القليل من نعم ربه عليه

- ٢٩٥ فصل ومنها أن الذنب يوجب لصاحبه التيقظ
د ومنها أن القلب يكون ذاهلا عن عدوه
٢٩٥ د ومنها أن مثل هذا يكون كالطبيب
٢٩٦ د ومنها أنه سبحانه يذيق عبده ألم الحجاب عنه
٢٩٧ د ومنها أن الحكمة الإلهية اقتضت تركيب الشهوة
٢٩٧ د ومنها أنه سبحانه إذا أراد بعبده خيرا أنساه روية طاعاته
٢٩٨ د ومنها أن شهود العبد ذنوبه يوجب أن لا يرى لنفسه على أحد فضلا
٢٩٨ د ومنها أنه يوجب له الإمساك عن عيوب الناس
٢٩٨ د ومنها أنه إذا وقع في الذنب شعر نفسه كغيره من المذنبين
٢٩٩ د ومنها إذا شهد نفسه مع ربه مذنبا الخ
٢٩٩ د فيما في ابتلاء العبد من الحكم والمصالح
٣٠٠ د ثم تأمل في حال التكليم
٣٠١ د في الأمر بالنظر في سيرة النبي عليه الصلاة والسلام
٣٠١ د في ذكر طرف من محاسن الدين الإسلامى الحنيف
٣٠٣ د وبصائر الناس في هذا تنقسم إلى ثلاثة أقسام
٣٠٤ د في بيان أن الفطرة والعقل يشهدان برب خالق قديم

(تم فهرس الجزء الأول من كتاب المفتاح)

مِفْتَاحُ دَارِ السَّعَادَةِ

ومنشور ولاية العلم والإرادة

تأليف

الإمام أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر الشهير بابن
قيم الجوزية قدس الله روحه الزكية

قال صاحب كشف الظنون (مفتاح دار السعادة) للشيخ شمس الدين
محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية الدمشقي المتوفى سنة ٧٥١
كتاب كبير الحجم . فيه فوائد مرسله يقتبس من مجموعها معرفة العلم
وفضله ومعرفة إثبات الصانع ومعرفة قدر الشريعة ومعرفة النبوة ومعرفة
الرد على المنجمين ومعرفة الطيرة والفال والجزر ومعرفة أصول نافعة جامعة
تتكمّل به النفوس البشرية إلى غير ذلك من الفوائد

الجزء الثاني

يطلب من

مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده

صيدان النزهة بدمشق

دار العمد للكتاب للطباعة
كامل صباغ . تليفون ٥٠٨٥٢

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فصل

حاجة الناس إلى الشريعة ضرورية فوق حاجتهم إلى كل شيء ولا نسبة لحاجتهم إلى علم الطب إليها ألا ترى أن أكثر العالم يعيشون بغير طبيب ولا يكون الطبيب إلا في بعض المدن الجامعة وأما أهل البدو كلهم وأهل الكفور كلهم وعامة بني آدم فلا يحتاجون إلى طبيب وهم أصح أبدانا وأقوى طبيعة ممن هو متقيد بالطبيب ولعل أعمارهم متقاربة وقد فطر الله بني آدم على تناول ما ينفعهم واجتناب ما يضرهم وجعل لكل قوم عادة وعرفا في استخراج ما يجمع عليهم من الأدوية حتى أن كثيراً من أصول الطب إنما أخذت عن عوائد الناس وعرفهم وتجاربهم وأما الشريعة فبناها على تعريف مواقع رضى الله وسخطه في حركات العباد الاختيارية فبناها على الوحي المحض والحاجة إلى التنفس فضلاً عن الطعام والشراب لأن غاية ما يقدر في عدم التنفس والطعام والشراب موت البدن وتعطل الروح عنه وأما ما يقدر عند عدم الشريعة ففساد الروح والقلب جملة وهلاك الأبد وشتان بين هذا وهلاك البدن بالموت فليس الناس قط إلى شيء أحوج منهم إلى معرفة ما جاء به الرسول ﷺ والقيام به والدعوة إليه والصبر عليه وجهاد من خرج عنه حتى يرجع إليه وليس للعالم صلاح بدون ذلك البتة ولا سبيل إلى الوصول إلى السعادة والفوز الأكبر إلا بالعبور على هذا الجسم .

فصل

الشرائع كلها في أصولها وإن تباينت متفقة مركز حستها في العقول ولو وقعت على غير ما هي عليه لخرجت عن الحكمة والمصلحة والرحمة بل من المحال أن تأتي بخلاف ما أنت به (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن) وكيف يجوز ذو العقل أن ترد شريعة أحكم الحاكمين بضد ما وردت به فالصلاة قد وضعت على أكمل الوجوه وأحسنها التي تعبد بها الخائق تبارك وتعالى عباد من تضمنها للتعظيم له بأواع الجوارح من نطق اللسان وعمل اليدين والرجلين والرأس وحواسه وسائر أجزاء البدن كل يأخذ لحظه من الحكمة في هذه العبادة العظيمة المقدم مع أخذ الحواس الباطنة بحظها منها وقيام القلب بواجب عبوديته فيها فهي مشتملة على الثناء والحمد والتمجيد والتسبيح والتكبير وشهادة الحق والقيام بين يدي الرب مقام العبد الذليل الخاضع المدبر المربوب ثم التذلل له في هذا المقام والتضرع والتقرب إليه بكلامه ثم انحناء الظهر ذلاله وخشوعاً واستكانة ثم استواؤه قائماً ليستعد لخضوع أكمل له من الخضوع

الأول وهو السجود من قيام فيضع أشرف شيء فيه وهو وجهه على التراب خشوعاً لربه واستكانة وخضوعاً لعظمته وذلاً لعزته قد انكسر له قلبه وذلل له جسمه وخشعت له جوارحه ثم يستوى قاعداً يتضرع له ويتذلل بين يديه ويسأله من فضله ثم يعود إلى حاله من الذل والخشوع والاستكانة فلا يزال هذا دأبه حتى يقضى صلاته فيجلس عند إرادة الانصراف منها مثنياً على ربه مسلماً على نبيه وعلى عباده ثم يصلي على رسوله ثم يسأل ربه من خيره وبره وفضله فأى شيء بعد هذه العبادة من الحسن وأى كمال هذا الكمال وأى عبودية أشرف من هذه العبودية فمن جوز عقله أن ترد الشريعة بضدها من كل وجه في القول والعمل وأنه لا فرق في نفس الأمر بين هذه العبادة وبين ضدها من السخرية والسب والبطر وكشف العورة والبول على الساقين والضحك والصفير وأنواع المجون وأمثال ذلك فليعز عقله ويسأل الله أن يهبه عقلاً سواه . وأما حسن الزكاة وما تضمنته من مواساة ذوى الحاجات والمسكنة والحلة من عباد الله الذين يعجزون عن إقامة نفوسهم ويخاف عليهم التلف إذا خلاهم الأغنياء وأنفسهم وما فيها من الرحمة والإحسان والبر والطهارة وإيثار أهل الإيثار والاتصاف بصفة الكرم والجود والفضل والخروج من سماء أهل الشح والبخل والديانة فأمر لا يستريب عاقل في حسنه ومصالحته وأن الأمر به أحكم الحاكمين وليس يجوز في العقل ولا في الفطرة البتة أن ترد شريعة من الحكيم العليم بضد ذلك أبداً . وأما الصوم فناهيك به من عبادة تكف النفس عن شهواتها وتخربها عن شبه البهائم إلى شبه الملائكة المقربين فإن النفس إذا خليت ودواعي شهواتها التحقت بعالم البهائم فإذا كفت شهواتها لله ضيقت مجارى الشيطان وصارت قريبة من الله بترك عاداتها وشهواتها محبة له وإيثار المرصاته وتقرباً إليه فيدع الصائم أحب الأشياء إليه وأعظمها لصوقاً بنفسه من الطعام والشراب والجماع من أجل ربه فهو عبادة ولا تتصور حقيقتها إلا بترك الشهوة لله فالصائم يندع طعامه وشرابه وشهواته من أجل ربه وهذا معنى كون الصوم له تبارك وتعالى وبهذا فسر النبي صلى الله عليه وسلم هذه الإضافة في الحديث فقال يقول الله تعالى كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بمائة أمثالها قال الله إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به يدع طعامه وشرابه من أجل حتى أن الصائم يتصور بصورة من لا حاجة له في الدنيا إلا في تحصيل رضى الله وأى حسن يزيد على حسن هذه العبادة التي تنكسر الشهوة وتقمع النفس وتحبى القلب وتفرحه وتزهد في الدنيا وشهواتها وترغب فيما عند الله وتذكر الأغنياء بشأن المساكين وأحوالهم وأهمهم قد أخذوا بنصيب من عيشهم فتعطف قلوبهم عليهم ويعلمون ما هم فيه من نعم الله فيزدادوا له شكراً وبالجملة فعون الصوم على تقوى الله أمر مشهور فما استعان أحد على تقوى الله وحفظ حدوده

واجتناب محارمه بمثل الصوم فهو شاهد لمن شرعه وأمر به بأنه أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين وأنه إنما شرعه لإحساننا إلى عباده ورحمة بهم ولطفاً بهم لا بخلا عليهم برزقه ولا بمجرد تكليف وتمذيب خال من المحكمة والمصلحة بل هو غاية الحكمة والرحمة والمصلحة وإن شرع هذه العبادات لهم من تمام نعمته عليهم ورحمته بهم . وأما الحج فثأن آخر لا يدركه إلا الخنفاء الذين ضربوا في المحبة بسهم وشأنه أجل من أن تحيط به العبارة وهو خاصة هذا الدين الخنيف حتى قيل في قوله تعالى (خنفاء الله غير مشركين) أى حجاجا وجعل الله بيته الحرام قياما للناس فهو عمود العالم الذى عليه بناؤه فلوترك الناس كلهم الحج سنة لخرت السماء على الأرض هكذا قال ترجمان القرآن ابن عباس فالبيت الحرام قيام العالم فلا يزال قياما ما زال هذا البيت محجوجا فالحج هو خاصة الخنيفة ومعونة الصلاة وسر قول العبد لإلهه إلا الله فإنه مؤسس على التوحيد المحض والمحبة الخاصة وهو استزارة المحبوب لأحبابه ودعوتهم إلى بيته ومحل كرامته ولهذا إذا دخلوا في هذه العبادة فشعارهم لبىك اللهم لبىك إجابة محبة لدعوة حبيبه ولهذا كان للتلبية موقع عند الله وكلما أكثر العبد منها كان أحب إلى ربه وأحظى فهو لا يملك نفسه أن يقول لبىك لبىك حتى ينقطع نفسه . وأما أسرار ما في هذه العبادة من الإحرام واجتنب العوائد وكشف الرأس ونزع الثياب المعتادة والطواف والوقوف بعرفة ورمى الجمار وسائر شعائر الحج فما شهدت بحسنه العقول السليمة والفطر المستقيمة وعلمت بأن الذى شرع هذه لا حكمة فوق حكمته وسنعمود إن شاء الله إلى السلام في ذلك في موضعه . وأما الجهاد فناهيك به من عبادة هي سنام العبادات وذروتها وهو المحك والدليل المفرق بين المحب والمدعى فالمحب قد بذل مهجته وماله لربه وإلهه متقربا إليه ببذل أعز ما يحضرته يود لو أن له بكل شعرة نفسا يبذلها في حبه ومرضاته ويود أن لو قتل فيه ثم أحيى ثم قتل ثم أحيى ثم قتل فهو يفدى بنفسه حبيبه وعبدته ورسوله ولسان حاله يقول .

يفديك بالنفس صب لو يكون له أعز من نفسه شيء فذاك به

فهو قد سلم نفسه وماله لمشتريها وعلم أنه لا سبيل إلى أخذ السلعة إلا ببذل ثمنها (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون) وإذا كان من المعلوم المستقر عند الخلق أن علامة المحبة الصحيحة بذل الروح والمال في مرضات المحبوب فالمحجوب الحق الذى لا تنبغى المحبة إلا له وكل محبة سوى محبته فالمحبة له باطلة أولى بأن يشرع لعباده الجهاد الذى هو غاية ما يتقربون به إلى إلههم وربهم وكانت قرابين من قبلهم من الأمم في ذبايحهم وقرابينهم تقديم أنفسهم للذبح في الله مولا هم الحق فأى حسن يزيد على حسن هذه العبادة ولهذا ادخرها الله لأكمل الأنبياء وأكمل الأمم عقلا وتوحيدا ومحبة لله .

وأما الضحايا والهدايا فقربان إلى الخالق سبحانه تقوم مقام الفدية عن النفس المستحقة للثأف فدية وعوضاً وقرباناً إلى الله وتشبهاً بإمام الحنفاء وإحياء لسنته أن فدى الله ولده بالقربان فجعل ذلك في ذريته باقياً أبداً وأما الإيمان والنذور فعقود يعقدها العبد على نفسه يؤكد بها ما أزم به نفسه من الأمور بالله ولله ففى تعظيم للخالق ولأسمائه ولحقه وأن تكون العقود بهوله وهذا غاية التعظيم فلا يعقد بغير إسمه ولا لغير القرب إليه بل إن حلف فباسمه تعظيماً وتبجيلاً وتوحيداً وإجلالاً وأن نذرله توحيداً وطاعة ومحبة وعبودية فيكون هو المعبود وحده والمستعان به وحده . وأما المطاعم والمشارب والملابس والمناكح ففى داخلتها فيما يقيم الأبدان ويحفظها من الفساد والهلاك وفيما يعود ببقاء النوع الإنسانى ليتم بذلك قوام الأجساد وحفظ النوع فيتحمل الأمانة التى عرضت على السموات والأرض ويقوى على حملها وأدائها ويتمكن من شكر مولى الأنعام ومسديده وفرق فى هذه الأنواع بين المباح والمحظور والحسن والقبيح والضار والنافع والطيب والخبيث فخرم منها القبيح والخبيث والضار وأباح منها الحسن والطيب والنافع كما سيأتى إن شاء الله وتأمل ذلك فى المناكح فإن من المستقر فى العقول والفطر أن قضاء هذا الوطر فى الأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات والجذات مستقيح فى كل عقل مستهجن فى كل فطرة ومن المحال أن يكون المباح من ذلك مساوياً للمحظور فى نفس الأمر ولا فرق بينهما إلا بمجرد التحكم بالمشيئة سبحانه هذا بهتان عظيم وكيف يكون فى نفس الأمر نسكاح الأم واستفراشها مساوياً لنسكاح الأجنبية واستفراشها وإنما فرق بينهما محض الأمر وكذلك من المحال أن يكون الدم والبول والرجيع مساوياً للخبز والماء والفاكهة ونحوها وإنما الشارح فرق بينهما فأباح هذا وحرم هذا مع استواء الكل فى نفس الأمر وكذلك أخذ المال بالبيع والهبة والوصية والميراث لا يكون مساوياً لأخذه بالقهر والغلبة والغصب والسرقة والجناية حتى يكون إباحة هذا وتحريم هذا راجعاً إلى محض الأمر والنهى المفرق بين المتأئين وكذلك الظلم والكذب والزور والفواحش كالزنا واللواط وكشف العورة بين المأ ونحو ذلك كيف يسوغ عقل عاقل أنه لافرق قط فى نفس الأمر بين ذلك وبين العدل والإحسان والعفة والصيانة وستر العورة وإنما الشارح يحكم بإيجاب هذا وتحريم هذا . . وهذا لما لوعرض على العقول السليمة التى لم تدخل ولم يمسها ميل للشالات الفاسدة وتعظيم أهلها وحسن الظن بهم لسكانت أشد إنكاراً له وشهادة ببطلانه من كثير من الضروريات وهل ركب الله فى فطرة عاقل قط أن الإحسان والإساءة والصدق والكذب والفجور والعفة والعدل والظلم وقتل النفوس وانجاءها بل السجود لله وللصنم سواء فى نفس الأمر لافرق بينهما وإنما

الفرق بينهما الأمر المجرد وأى جحد للضروريات أعظم من هذا وهل هذا إلا بمنزلة من يقول أنه لا فرق بين الرجيع والبول والدم والقيء وبين الخبز واللحم والماء والفاكهة والكل سواء في نفس الأمر وإنما الفرق بالعوائد فأى فرق بين مدعى هذا الباطل وبين مدعى ذلك الباطل وهل هذا إلا بهت للعقل والحس والضرورة والشرع والحكمة وإذا كان لامعنى عندهم للمعروف إلا ما أمر به فصار معروفا بالأمر ولا المنكر إلا ما نهى عنه فصار منكرأ بنهيه فأى معنى لقوله (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر) وهل حاصل ذلك زائد على أن يقال يأمرهم بما يأمرهم به وينهاهم عما ينهاهم عنه وهذا كلام ينزه عنه أحاد العقلاء فضلا عن كلام رب العالمين وهل دلت الآية إلا على أنه أمرهم بالمعروف الذى تعرفه العقول وتقر بحسنه الفطر فأمرهم بما هو معروف فى نفسه عند كل عقل سليم ونهاهم عما هو منكر فى الطباع والعقول بحيث إذا عرض على العقول السليمة أنكرته أشد الإنكار كما أن ما أمر به إذا عرض على العقل السليم قبله أعظم قبول وشهد بحسنه كما قال بعض الأعراب وقد سئل بم عرفت أنه رسول الله فقال ما أمر بشيء فقال العقل ليته ينهى عنه ولا ينهى عن شيء فقال ليته أمر به فهذا الأعرابى أعرف بالله ودينه ورسوله من هؤلاء وقد أقر عقله وفطرته بحسن ما أمر به وقيح ما نهى عنه حتى كان فى حقه من أعلام نبوته وشواهد رسالته ولو كان جهة كونه معروفا ومنكرا هو الأمر المجرد لم يكن فيه دليل بل كان يطلب له الدليل من غيره ومن سلك ذلك المسلك الباطل لم يمكنه أن يستدل على صحة نبوته بنفس دعوته ودينه ومعلوم أن نفس الدين الذى جاء به والملة التى دعا إليها من أعظم براهين صدقه وشواهد نبوته ومن لم يثبت لذلك صفات وجودية أو جبت حسنه وقبول العقول له وفضده صفات أو جبت قبحه ونفور العقل عنه فقد سد على نفسه باب الاستدلال بنفس الدعوة وجعلها مستدلا عليه فقط .

ومما يدل على صحة ذلك قوله تعالى (ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث) فهذا صريح فى أن الحلال كان طيبا قبل حله وأن الخبيث كان خبيثا قبل تحريمه ولم يستفد طيب هذا وخبث هذا من نفس الحل والتحريم لوجهين اثنين أحدهما أن هذا علم من أعلام نبوته التى احتج الله بها على أهل الكتاب . فقال (الذين يتبعون الرسول النبى الأسمى الذى يحدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم) فلو كان الطيب والخبث إنما استفيد من التحريم والتحليل لم يكن فى ذلك دليل فإنه بمنزلة أن يقال يحل لهم ما يحل ويحرم عليهم ما يحرم وهذا أيضا باطل فإنه لا فائدة فيه وهو الوجه الثانى فثبت أنه أحل ما هو طيب فى نفسه قبل الحل فكسأه بأحلاله طيبا آخر فصار منشأ طيبه من الوجهين معا فتأمل هذا الموضوع حق

التأمل يطلعك على أسرار الشريعة ويشرفك على محاسنها وكماها وبهجتها وجلالها وأنه من
المتنع في حكمة أحكم الحاكمين أن ترد بخلاف ما وردت به وأن الله تعالى يتنزه عن ذلك
كما يتنزه عن سائر ما لا يليق به . وبما يدل على ذلك قوله تعالى (قل إنما حرم ربي الفواحش
ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن
تقولوا على الله ما لا تعلمون) وهذا دليل على أنها فواحش في نفسها لا تستحسنها العقول
فمعلق التحريم بها لفحشها فإن ترتيب الحكم على الوصف المناسب المشتق يدل على أنه هو العلة
المقتضية له وهذا دليل في جميع هذه الآيات التي ذكرناها فدل على أنه حرمها لكونها فواحش
وحرم الخبيث لكونه خبيثا وأمر بالمعروف لكونه معروفا والعلة يجب أن تغاير المعلول
فلو كان كونه فاحشة هو معنى كونه منهيًا عنه وكونه خبيثا هو معنى كونه محرما كانت العلة عين
المعلول وهذا محال فتأمله وكذا تحريم الإثم والبغى دليل على أن هذا وصف ثابت له قبل
التحريم . ومن هذا قوله تعالى (ولا تقربوا الزنا أنه كان فاحشة ومقما وساء سميلا) فعمل
النهي في الموضوعين بكون المنهي عنه فاحشة ولو كان جهة كونه فاحشة هو النهي لكان تعليلا
للشيء بنفسه ولكان بمنزلة أن يقال لا تقربوا الزنا فإنه يقول لكم لا تقربوه أو فإنه منهي عنه
وهذا محال من وجهين أحدهما أنه يتضمن إخلاء الكلام من الفائدة والثاني أنه تعليل للنهي
بالنهي . ومن ذلك قوله تعالى (ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا
أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين) فأخبر تعالى أن ما قدمت أيديهم قبل
البعثة سبب لإصابتهم بالمصيبة وأنه سبحانه لو أصابهم بما يستحقون من ذلك لاحتجوا عليه
بأنه لم يرسل إليهم رسولا ولم ينزل عليهم كتابا فقطع هذه الحجة بإرسال الرسول وإنزال
الكتاب لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وهذا صريح في أن أعمالهم قبل البعثة كانت
قبیحة بحيث استحقوا أن يصبوا بها المصيبة ولكنه سبحانه لا يعذب إلا بعد إرسال الرسل
وهذا هو فصل الخطاب . وتحقيق القول في هذا الأصل العظيم أن القبح ثابت للفعل في نفسه
وأنه لا يعذب الله عليه إلا بعد إقامة الحجة بالرسالة وهذه التمسكة هي التي فانت المعتزلة
والكلابية كليهما فاستطاعت كل طائفة منهما على الأخرى لعدم جمعها بين هذين الأمرين
فاستطاعت الكلابية على المعتزلة بإثباتهم العذاب قبل إرسال الرسل وترتيبهم العقاب على مجرد
القبح العقلي وأحسنوا في رد ذلك عليهم واستطاعت المعتزلة عليهم في إنكارهم الحسن والقبح
العقليين جملة وجعلهم انتفاء العذاب قبل البعثة دليلا على انتفاء القبح واستواء الأفعال
في أنفسها وأحسنوا في رد هذا عليهم فكل طائفة استطاعت على الأخرى بسبب إنكارها
الصواب وأما من سلك هذا المسلك الذي سنسكناه فلا سبيل لواحدة من الطائفتين إلى رد

قوله ولا الظفر عليه أصلاً فإنه موافق لكل طائفة على ما معها من الحق مقرر له مخالفها في باطلها منكر له وليس مع النفاة قط دليل واحد صحيح على نفي الحسن والقبح العقليين وإن الأفعال المتضادة كلها في نفس الأمر سواء لا فرق بينها إلا بالأمر والنهي وكل أدلتهم على هذا باطلة كما سنذكرها ونذكر بطلانها إن شاء الله تعالى وليس مع المعتزلة دليل واحد صحيح قط يدل على إثبات العذاب على مجرد القبح العقلي قبل بعثة الرسل وأدلتهم على ذلك كلها باطلة كما سنذكرها ونذكر بطلانها إن شاء الله تعالى وبما يدل على ذلك أيضاً أنه سبحانه يحتاج على فساد ذهب من عبده غيره بالأدلة العقلية التي تقبلها الفطر والعقول ويجعل ما ركبته في العقول من حسن عبادة الخالق وحده وقبح عبادة غيره من أعظم الأدلة على ذلك وهذا في القرآن أكثر من أن يذكر ههنا ولولا أنه مستقر في العقول والفطر حسن عبادته وشكره وقبح عبادة غيره وترك شكره لما احتج عليهم بذلك أصلاً وإنما كانت الحجة في مجرد الأمر وطريقة القرآن صريحة في هذا كقوله تعالى (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) فذكر سبحانه أمرهم بعبادته وذكر اسم الرب مضافاً إليهم لمقتضى عبوديتهم لربهم ومالكهم ثم ذكر ضروب أنعامهم عليهم بإيجادهم وإيجاد من قبلهم وجعل الأرض فراشاً لهم يمكنهم الاستقرار عليها والبناء والسكنى وجعل السماء بناءً وسقفاً فذكر أرض العالم وسقفه ثم ذكر إنزال مادة أوقاتهم ولباسهم وثمارهم منبهاً بهذا على استقرار حسن عبادة من هذا شأنه وتشكره الفطر والعقول وقبح الإشراف به وعبادة غيره ومن هذا قوله تعالى حاكياً عن صاحب ياسين أنه قال لقومه محتجاً عليهم بما تقر به فطرهم وعقولهم ﴿وما لي لأعبد الذي فطرني وإليه ترجعون﴾ فنأمل هذا الخطاب كيف تجد تحته أشرف معنى وأجله وهو أن كونه سبحانه فاطراً لعباده يقتضى عبادتهم له وأن من كان مفطوراً مخلوقاً فحقيق به أن يعبد فاطره وخالقه ولا سيما إذا كان مرده إليه فبدأ منه ومصيره إليه وهذا يوجب عليه التفرغ لعبادته ثم احتج عليهم بما تقر به عقولهم وفطرهم من قبح عبادة غيره وإنما أقيح شيء في العقل وأنكره فقال (أأخذ من دونه آلهة إن يردني الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون إني إذا لفي ضلال مبين) أفلا تراه كيف لم يحتج عليهم بمجرد الأمر بل احتج عليهم بالعقل الصحيح ومقتضى الفطرة ومن هذا قوله تعالى (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وأن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز) فضرب لهم

سبحانه مثلا من عقولهم يدطم على قبح عبادتهم غيره وإن هذا أمر مستقر قبجه وهجنته في كل عقل وإن لم يرد به الشرع وهل في العقل أنكر وأقبح من عبادة من لو اجتمعوا كلهم لم يخلقوا ذبابا واحداً وإن يسلبهم الذباب شيئاً لم يقدروا على الانتصار منه واستنقاذ ماسلبهم إياه وترك عبادة الخلاق العليم القادر على كل شيء الذي ليس كمثل شيء أفلا تراه كيف احتج عليهم بما ركب في العقول من حسن عبادته وحده وقبح عبادة غيره وقال تعالى (ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما أرجل هل يستويان مثلا) هذا مثل ضربه الله لمن عبده وحده فسلم له ولمن عبد من دونه آلهة فهم شركاء فيه متشاكسون عسرون فهل يستوى في العقول هذا وهذا وقد أكثر تعالى من هذه الأمثال ونوعها مستدلا بها على حسن شكره وعبادته وقبح عبادة غيره ولم يحتج عليهم بنفس الأمر بل بما ركب في عقولهم من الإقرار بذلك وهذا كثير في القرآن فمن تتبعه وجدته وقال تعالى (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) فذكر توحيديه وذكر المناهى التي نهى عنها والأوامر التي أمرهم بها ثم ختم الآية بقوله (كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها) أى مخالفة هذه الأوامر وارتكاب هذه المناهى سيئة مكروهة لله فتأمل قوله سيئة عند ربك مكروهة أى أنه سيء في نفس الأمر عند الله حتى لو لم يرد به تكليف لكان سيئه في نفسه عند الله مكروها له وكراهته سبحانه له لما هو عليه من الصفة التي اقتضت أن كرهه ولو كان قبجه إنما هو مجرد النهى لم يكن مكروها لله إذ لا معنى للكراهة عندهم إلا كونه منهيًا عنه فيعود قوله كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها إلى معنى كل ذلك نهى عنه عند ربك ومعلوم إن هذا غير مراد من الآية وأيضاً فإذا وقع ذلك منهم فهو عند النفاة للحسن والقبح محبوب لله مرضى له لأنه إنما وقع بإرادته والإرادة عندهم هى المحبة لافرق بينهما والقرآن صريح في أن هذا كله قبيح عند الله مكروه مبعوض له وقع أو لم يقع وجعل سبحانه هذا البغض والقبح سبباً للنهى عنه ولهذا جعله علة وحكمة الأمر فتأمله والعلة غير المعلول وقال تعالى (لقد أرسلنا رسالنا بالبينات وأنزلا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) دل ذلك على أن في نفس الأمر قسطاً وأن الله سبحانه أنزل كتابه وأنزل الميزان وهو العدل ليقوم الناس بالقسط أنزل الكتاب لأجله والميزان فعمل أن في نفس الأمر ما هو قسط وعدل حسن ومخالفته قبيحة وأن الكتاب والميزان نزلا لأجله ومن ينفي الحسن والقبح يقول ليس في نفس الأمر ما هو عدل حسن وإنما صار قسطاً وعدلاً بالأمر فقط ونحن لا ننكر أن الأمر كسأه حسنا وعدلاً إلى حسنه وعدله في نفسه فهو في نفسه قسط حسن وكسأه الأمر حسنا آخر يضاعف به كونه عدلاً حسناً فصار ذلك ثابتاً له من الوجهين جميعاً . ومن هذا قوله تعالى (واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا

عليها آباءنا والله أمرنا بها قل ان الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون (فقلوه قل ان الله لا يأمر بالفحشاء دليل على أنها في نفسها غشياء وان الله لا يأمر بما يكون كذلك وانه يتعالى ويتقدس عنه ولو كان كونه فاحشة إنما علم بالنهي خاصة كان بمنزلة أن يقال ان الله لا يأمر بما ينهى عنه وهذا كلام يصاب عنه آحاد العقلاء فكيف بكلام رب العالمين ثم أكد سبحانه هذا الانكار بقوله (قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين) فأخبر انه يتعالى عن الأمر بالفحشاء بل وأمره كلها حسنة في العقول مقبولة في الفطر فإنه أمر بالقسط لا بالجور وإقامة الوجوه له عند مساجده لا غيره وادعوه وحده مخلصين له الدين لا بالشرك فهذا هو الذي يأمر به تعالى لأب الفحشاء أفلا تراه كيف يخبر بحسن ما يأمر به ويحسنته وينزه نفسه عن الأمر بضده وأنه لا يلبق به تعالى (ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلاً) فاحتج سبحانه على حسن دين الإسلام وانه لاشيء أحسن منه بأنه يتضمن إسلام الوجه لله وهو إخلاص القصد والتوجه والعمل له سبحانه والعبد مع ذلك محسن آت بكل حسن لا امر تكسب للقبح الذي يكرهه الله بل هو مخلص لربه محسن في عبادته بما يحبه ويرضاه وهو مع ذلك متبع لملة إبراهيم في محبته لله وحده وإخلاص الدين له وبذل النفس والمال في مرضاته ومحبته وهذا احتجاج منه على أن دين الإسلام أحسن الأديان بما تضمنه مما تستحسنه العقول وتشهد به الفطر وانه قد بلغ الغاية القصوى في درجات الحسن والكمال وهذا استدلال بغير الأمر المجرد بل هو دليل على أن ما كان كذلك تحقيقاً بأن يأمر به عباده ولا يرضى منهم سواء ومثل هذا قوله تعالى (ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين) فهذا احتجاج بماركب في العقول والفطر لأنه لا قول للعبد أحسن من هذا القول وقال تعالى (فيبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم) فأى شيء أصرح من هذا حيث أخبر سبحانه أنه حرمه عليهم مع كونه طيباً في نفسه فولوا أن طيبه أمر ثابت له بدون الأمر لم يكن ليجمع الطيب والتحریم وقد أخبر تعالى انه حرم عليهم طيبات كانت حلالاً عقوبة لهم فهذا تحریم عقوبة بخلاف التحريم على هذه الأمة فإنه تحریم صيانة وحماية ولا فرق عند النفاة بين الأمرين بل السكل سواء فانه سبحانه أمر عباده بما أمرهم به رحمة منه وإحساناً وإنعاماً عليهم لأن صلاحهم في معاشهم وأبدانهم وأحوالهم وفي معادهم ومآلهم إنما هو بفعل ما أمروا به وهو في ذلك بمنزلة الغذاء الذي لا قوام للبدن إلا به بل أعظم وليس مجرد تسكليف وابتلاء كما يظنه كثير من الناس ونهاهم عما نهاهم عنه صيانة وحماية لهم إذ لا بقاء لصحتهم ولا حفظ لها إلا بهذه الحمية فلم يأمرهم حاجة منهم إليهم وهو الغنى الحميد ولا حرم عليهم

ما حرم بخلا منه عليهم وهو الجواد الكريم بل أمره ونهيه عين حظهم وسعادتهم العاجلة والآجلة ومصدر أمره ونهيه رحمته الواسعة وبره وجوده وإحسانه وإنعامه فلا يسأل عما يفعل لسبب الحكمة وعنده ووقوع أفعاله على وفق المصلحة والرحمة والحكمة وقال تعالى (أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن بل آتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون) فأخبر سبحانه أن الحق لو اتبع أهواء العباد لجاء شرع الله ودينه بأهوائهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ومعلوم أن عند النفاة يجوز أن يرد شرع الله ودينه بأهواء العباد وأنه لا فرق في نفس الأمر بين ما ورد به وبين ما تقتضيه أهواؤهم إلا مجرد الأمر وأنه لو ورد بأهوائهم جاز وكان تعبداً وديناً وهذه مخالفة صريحة للقرآن وأنه من المحال أن يتبع الحق أهوائهم وإن أهواؤهم مشتتة على قبج عظيم لو ورد الشرع به لفسد العالم أعلاه وأسفله وما بين ذلك ومعلوم أن هذا الفساد إنما يكون لقبح خلاف ما شرعه الله وأمر به ومنافاته لصالح العالم علويه وسفليه وإن خراب العالم وفساده لازم لحصوله وشرعه وإن كمال حكمة الله وكمال علمه ورحمته وربوبيته يأبى ذلك ويمنع منه ومن يقول الجبشع في نفس الأمر سواء يجوز ورود التعبد بكل شيء سواء كان من مقتضى أهوائهم أو خلافها . ومثل هذا قوله تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا فسيبجان الله رب العرش) أى لو كان في السموات والأرض آلهة تعبد غير الله لفسدنا وبطلنا ولم يقل أرباب بل قال آلهة والإله هو المعبود المألوه وهذا يدل على أنه من المحتج المستحيل عقلاً أن يشرع الله عبادة غيره أبداً وأنه لو كان معه معبود سواه لفسدت السموات والأرض فقبج عبادة غيره قد استقر في الفطر والعقول وإن لم يرد النبي عنه شرع بل العقل يدل على أنه أقبج التبيح على الإطلاق وأنه من المحال أن يشرعه الله قط فصالح العالم في أن يكون الله وحده هو المعبود وفساده وهلاكه في أن يعبد معه غيره ومحال أن يشرع لعباده ما فيه فساد العالم وهلاكه بل هو المنزه عن ذلك

فصل

وقد أنكر تعالى على من نسب إلى حكمته التسوية بين المختلفين كالنسوية بين الأبرار والفجار فقال تعالى (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار) وقال تعالى (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون) فدل على أن هذا حكم سيء قبج ينزه الله عنه ولم ينكره سبحانه من جهة أنه أخبر بأنه لا يكون وإنما أنكره من جهة قبجه في نفسه وأنه حكم

سبى يتعالى ويتنزه عنه لمنافاته لحكمته وغناه وكلامه ووقوع أفعاله كلها على السداد والصواب والحكمة فلا يليق به أن يجعل البر كالعاجر ولا المحسن كالمسى. ولا المؤمن كالمفسد فى الأرض فدل على أن هذا قبيح فى نفسه تعالى الله عن فعله . ومن هذا أيضا انكاره سبحانه على من جوز أن يترك عباده سدى فلا يأمرهم ولا ينههم ولا يثيبهم ولا يعاقبهم وان هذا الحسبان باطل والله متعال عنه لمنافاته لحكمته وكلامه كما قال تعالى (أيجسب الإنسان أن يترك سدى) قال الشافعى رضى الله عنه أى مهملا لا يؤمر ولا ينهى وقال غيره لا يثاب ولا يعاقب والقولان واحد لأن الثواب والعقاب غاية الأمر والنهى فهو سبحانه خلقهم الأمر والنهى فى الدنيا والثواب والعقاب فى الآخرة فأنكر سبحانه على من زعم أنه يترك سدى انكار من جعل فى العقل استقباح ذلك واستهجانه وأنه لا يليق أن ينسب ذلك إلى أحكم الحاكمين . ومثله وقوله تعالى (أخسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم) فتنزه نفسه سبحانه وبعدها عن هذا الحسبان وأنه يتعالى عنه ولا يليق به لقبهه والمنافاته لحكمته وملكوته وإلهيته أفلا ترى كيف ظهر فى العقل الشهادة بدينه وشرعه وبثوابه وعقابه وهذا يدل على إثبات المعاد بالعقل كما يدل على إثباته بالسمع وكذلك دينه وأمره وما بعث به رسله هو ثابت فى العقول جملة ثم علم بالوحى فقد تطابقت شهادة العقل والوحى على توحيده وشرعه والتصديق بوعده ووعيده وأنه سبحانه دعا عباده على السنة رسله إلى ما وضع فى العقول حسنه والتصديق به جملة فجاء الوحى مفصلاً مبيئاً ومقررأ ومذكراً لما هو مركز فى الفطر والعقول ولهذا سأل هرقل أبا سفيان فى جملة ما سأله من أدلة النبوة وشواهدا عما يأمر به النبى صلى الله عليه وسلم فقال بهم يأمركم قال يأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف فجعل ما يأمر به من أدلة نبوته فان أكذب الخلق وأجرهم من أدعى النبوة وهو كاذب فيها على الله وهذا محال أن يأمر إلا بما يليق بكذبه وفجوره وإفترائه فدعوته نليق به وأما الصادق البار الذى هو أصدق الخلق وأبرهم فدعوته لا تكون إلا أكمل دعوة وأشرفها وأجلها وأعظمها فإن العقول والفطر تشهد بحسنتها وصدق القائم بها فلو كانت الأفعال كلها سواء فى نفس الأمر لم يكن هناك فرقان بين ما يجوز أن يدعو إليه الرسول وما لا يجوز أن يدعو إليه إذ العرف وضده إنما يعلم بنفس الدعوة والأمر والنهى وكذلك مسألة النجاشى لجعفر وأصحابه هما يدعو إليه الرسول فدل على أنه من المستقر فى العقول والفطر انقسام الأفعال إلى قبيح وحسن فى نفسه وأن الرسل تدعو إلى حسنها وتنهى عن قبيحها وأن ذلك من آيات صدقهم وبراهين رسالتهم وهو أولى وأعظم عند أولى الألباب والخبى من مجرد خوارق

العادات وإن كان انتفاع ضعفاء العقول بالخوارق في الإيمان أعظم من انتفاعهم بنفس الدعوة وما جاء به من الإيمان فطرق الهداية متنوعة رحمة من الله بعباده ولطفاً بهم لتفاوت عقولهم وأذهانهم وبصائرهم فمنهم من يهتدى بنفس ما جاء به وما دعا إليه من غير أن يطلب منه برهانا خارجا عن ذلك كحال الكمل من الصحابة كالصديق رضى الله عنه ومنهم من يهتدى بمعرفة بحاله صلى الله عليه وسلم وما فطر عليه من كمال الأخلاق والأوصاف والأفعال وأن عادة الله أن لا يخزى من قامت به تلك الأوصاف والأفعال لعلمه بالله ومعرفة به وإنه لا يخزى من كان بهذه المثابة كما قالت أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها له صلى الله عليه وسلم إبشر فوالله لن يخزبك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتقرى الضعيف وتمين على نوائب الحق فاستدلت بمعرفتها بالله وحكمته ورحمته على أن من كان كذلك فإن الله لا يخزيه ولا يفضحه بل هو جدير بكرامة الله واصطفائه ومحبته وتوبته وهذه المقامات في الإيمان عجز عنها أكثر الخلق فاحتاجوا إلى الآيات والخوارق والآيات المشهودة بالحس فأمن كثير منهم عليها وأضعف الناس إيماناً من كان إيمانه صادراً من المظهر ورؤية غلبته صلى الله عليه وسلم للناس فاستدلوا بذلك المظهر والغلبة والنصرة على صحة الرسالة فأين بصائر هؤلاء من بصائر من آمن به وأهل الأرض قد نصبوا له العداوة وقد ناله من قومه ضروب الأذى وأصحابه في غابة قلة العدد والخافة من الناس ومع هذا فقلبه ممتلئ بالإيمان واثق بأنه سيظهر على الأمم وأن دينه سيعلو كل دين وأضعف من هؤلاء إيماناً من إيمانه إيمان العادة والمربا والمنشأ فإنه نشأ بين أبوين مسلمين وأقارب وجيران وأصحاب كذلك فنشأ كواحد منهم ليس عنده من الرسول والكتاب إلا اسمها ولا من الدين إلا ما رأى عليه أقاربه وأصحابه فهذا دين العوائد وهو أضعف شيء وصاحبه بحسب من يقترن به فلو قبيض له من يخرج عنه لم يكن عليه كلفة في الانتقال عنه والمقصود أن خواص الأمة ولبابها لما شهدت عقولهم حسن هذا الدين وجلالته وكاله وشهدت قبح ما خالفه ونقصه ورداءته خالط الإيمان به ومحبته بشاشة قلوبهم فلو خير بين أن يلقى في النار وبين أن يختار دينها غيره لا يختار أن يقذف في النار وتقطع أعضاؤه ولا يختار ديناً غيره وهذا الضرب من الناس هم الذين استقرت أقدامهم في الإيمان وهم أبعد الناس عن الارتداد عنه وأحقهم بالثبات عليه إلى يوم لقاء الله ولهذا قال هرقل لأبي سفيان أيرتد أحد منهم عن دينه سخطة له قال لا قال فكذلك الإيمان إذ خالطت بشاشته القلوب لا يسخطه أحد والمقصود أن الداخلين في الإسلام المستدلين على أنه من عند الله لحسنه وكاله وأنه دين الله الذي لا يجوز أن يكون من عند غيره هم خواص الخلق والنفاة سدوا على أنفسهم هذا الطريق فلا يمكنهم سلوكه .

فصل

وتحقيق هذا المقام بالكلام في مقامين أحدهما في الأعمال خصوصاً ومراتبها في الحسن والقبح والثاني في الموجودات عموماً ومراتبها في الخير والشر أما المقام الأول فالأعمال إما أن تشتمل على مصلحة خالصة أو راجحة وأما أن تشتمل على مفسدة خالصة أو راجحة وأما أن تستوي مصلحتها ومفسدتها فهذه أقسام خمسة منها أربعة تأتي بها الشرائع فتأتي بما مصلحته خالصة أو راجحة أمره به مقتضية له وما مفسدته خالصة أو راجحة فحكمها فيه النهي عنه وطلب إعدامه فتأتي بتحصيل المصلحة الخالصة ولراجحة أو تكميلها بحسب الإمكان وتعطيل المفسدة الخالصة أو الراجحة أو تقليلها بحسب الإمكان فدار الشرائع والديانات على هذه الأقسام الأربعة . وتنازع الناس هنا في مستلذين . المسئلة الأولى في وجود المصلحة الخالصة والمفسدة الخالصة ففهم من منعه وقال لا وجود له قال لأن المصلحة هي النعم واللذة وما يفضى إليه والمفسدة هي العذاب والألم وما يفضى إليه قالوا والمأمور به لا بد أن يقترن به ما يحتاج معه إلى الصبر على نوع من الألم وإن كان فيه لذة سرور وفرح فلا بد من وقوع أذى لا يمكن لما كان هذا مغموراً بالمصلحة لم يلتفت إليه ولم تعطل المصلحة لأجله . فترك الخير الكثير الغالب لأجل الشر القليل المغلوب شر كثير قالوا وكذلك الشر المنهي عنه إنما يفعله الإنسان لأن له فيه غرضاً ووطراً ما وهذه مصلحة عاجلة له فإذا نهى عنه وتركه فأت عليه مصلحته ولذته العاجلة وإن كانت مفسدته أعظم من مصلحته بل مصلحته مغمورة جداً في جنب مفسدته كما قال تعالى في الخمر والميسر (قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس وأثمهما أكبر من نفعهما) فالربا والظلم والفواحش والسحر وشرب الخمر وإن كانت شروراً ومفاسد ففيها منفعة ولذة لفاعلها ولذلك يؤثرها ويختارها والافلو تجردت مفسدتها من كل وجه لما آثرها العاقل ولا فعلها أصلاً ولما كانت خاصة العقل النـظـر الى العواقب والغايات كان أعقل الناس أتركهم لما ترجحت مفسدته في العاقبة وإن كانت فيه لذة ما ومنفعة يسيرة بالنسبة الى مضرته . ونازعهم آخرون وقالوا القسمة تقتضى إمكان هذين القسمين والوجود يدل على وقوعهما فإن معرفة الله ومحبهه والايان به خير محض من كل وجه لامفسدة فيه بوجه ما . قالوا ومعلوم أن الجنة خير محض لاشرف فيها أصلاً وأن النار شر محض لاخير فيها أصلاً وإذا كان هذان القسمان موجودان في الآخرة فما الخلل بوجودهما في الدنيا قالوا وأيضاً فالمخلوقات كلها منها ما هو خير محض لاشرف فيها أصلاً كالأنبياء والملائكة . ومنها ما هو شر محض لاخير فيه أصلاً كالبليس والشياطين . ومنها ما هو خير وشر وأحدهما غالب على الآخر فمن الناس من يغلب خيره على شره ومنهم من

يغلب شره على خيره فهكذا الأعمال منها ماهو خالص المصلحة وراجحها وخالص
المفسدة وراجحها هذا في الأعمال كما أن ذلك في العمال . قالوا وقد قال تعالى في السحرة
(ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم) فهذا دليل على أنه مضره خالصه لامنفعة فيه إما لأن بعض
أنواعه مضره خالصه لامنفعة فيها بوجه فما كل السحر يحصل غرض الساحر بل يتعلم مائة
باب منه حتى يحصل غرضه بباب والباقي مضره خالصه وقس على هذا فهذا من القسم الخاص
المفسدة وإما لأن المنفعة الحاصلة للساحر لما كانت مغمورة مستهلكة في جنب المفسدة العظيمة
فيه جعلت كلا منفعة فيكون من التسم الراجح المفسدة . وعلى القواين في كل مأمور به فهو
راجح المصلحة على تركه وإن كان مكروها للنفوس قال تعالى (كتب عليكم القتال وهو كره لكم
وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون)
فبين أن الجهاد الذي أمروا به وإن كان مكروها للنفوس شافاً عليها فصلحته راجحة وهو خير
لهم وأحمد عاقبة وأعظم فائدة من التقاعد عنه وإيثار البقاء والراحة فالشر الذي فيه مغمور
بالنسبة الى ما تضمنه من الخير وهكذا كل منهى عنه فهو راجح المفسدة وإن كان محبوباً
للنفوس موافقاً للهوى فضرته ومفسدته أعظم بما فيه من المنفعة وتلك المنفعة واللذة مغمورة
مستهلكة في جنب مضرته كما قال تعالى (وإثمهما أكبر من نفعهما) وقال (وعسى أن تحبوا
شيئاً وهو شر لكم) . وفصل الخطاب في المسئلة اذا أريد بالمصلحة الخاصة انها في نفسها
خالصة من المفسدة لا يشوبها مفسدة فلا ريب في وجودها وإن أريد بها المصلحة التي لا يشوبها
مشقة ولا أذى في طريقها والوسيلة إليها ولا في ذاتها فليست بموجودة بهذا الاعتبار إذ المصالح
والخيرات واللذات والسكالات كلها لا تنال إلا بحظ من المشقة ولا يبر إليها إلا على جسر من التعب
وقد أجمع عقلاء كل أمة على أن النعيم لا يدرك بالنعيم وأن من آثر الراحة فاتته الراحة وإن بحسب
ركوب الأحوال واحتمال المشاق تكون الفرحة والمدة فلا فرحة لمن لاهمه ولالذة لمن لا صبر له ولا نعيم
لمن لا شقاء له ولا راحة لمن لا تعب له بل إذا تعب العبد قليلاً استراح طويلاً وإذا تحمل
مشقة الصبر ساعة قاده لحياة الأبد وكل ما فيه أهل النعيم المقيم فهو صبر ساعة والله المستعان
ولا قوة الا بالله وكلما كانت النفوس أشرف والهمة أعل كان تعب البدن أوفر وحظه من
الراحة أقل كما قال المتنبي :

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام

وقال ابن الرومي :

قلب يظلم على أفكاره وتد تمضي الأمور ونفس طوها التعب

وقال مسلم في صحيحه قال يحيى بن أبي كثير لا ينال العلم براحة البدن ولا ريب

عند كل عاقل أن كان الراحة بحسب التعب وكمال النعيم بحسب تحمل المشاق في طريقه وإنما
تخلص الراحة واللذة والنعيم في دار السلام فاما في هذه الدار فكلها ولما . وبهذا التفصيل يزول
النزاع في المسئلة وتعود مسئلة وفاق .

فصل

وأما المسئلة الثانية وهي ما تساوت مصلحته ومفسدته فقد اختلف في وجوده وحكمه
فأثبت وجوده قوم ونفاه آخرون . والجواب أن هذا القسم لا وجود له . إن حصره التقسيم
بل التفصيل إما أن يكون حصوله أولى بالفاعل وهو راجح المصلحة وإما أن يكون عدمه
أولى به وهو راجح المفسدة وأما فعل يكون حصوله أولى لمصلحته وعدمه أولى به لمفسدته
وكلاهما متساويان فهذا مما لم يقم دليل على ثبوته بل الدليل يقتضى نفيه فإن المصلحة والمفسدة
والمضرة واللذة والألم إذا تقابلا فلا بد أن يغلب أحدهما الآخر فيصير الحكم
للغالب وأما أن يتدافعا ويتصادما بحيث لا يغلب أحدهما الآخر فغير واقع فإنه إما أن
يقال يوجد الأثران معاً وهو محال لتصادمهما في المحل الواحد وإما أن يقال يمتنع وجود كل
من الأثرين وهو ممتنع لأنه ترجيح لأحد الجائزين من غير مرجح وهذا المحال إنما نشأ من
فرض تدافع المؤثرين وتصادمهما فهو محال فلا بد أن يقهر أحدهما صاحبه فيكون الحكم
له . فإن قيل ما المانع من أن يمتنع وجود الأثرين قولكم أنه محال لوجود مقتضيه إن أردتم
به المقتضى السالم عن المعارض فغير موجود وإن أردتم المقتضى المقارن لوجود المعارض فتختلف
أثره عنه غير ممتنع والمعارض قائم ههنا في كل منهما فلا يمتنع تخلف الأثرين فالجواب أن
المعارض إذا كان قد سلب تأثير المقتضى في موجهه مع قوته وشدة اقتضائه لأثره ومع هذا
فقد قوى على سلبه قوة التأثير والاقضاء فلان يقوى على سلبه قوة منعه لتأثيره هو في
مقتضاه وموجهه بطريق الأولى ووجه الأولوية أن اقتضاه لأثره أشد من منعه تأثيره فإذا
قوى على سلبه الأقوى فسلبه الأضعف أولى وأحرى فإن قيل هذا ينتقض بكل مانع يمنع
تأثير العلة في مملولها وهو باطل قطعاً . قيل لا ينتقض بما ذكرتم والنقض مندفع فإن العلة
والمانع ههنا لم يتدافعا ويتصادما ولكن المانع أضعف العلة فبطل تأثيرها فهو عائق لها عن
الاقضاء وأما في مسئلتنا فالعلتان متصادمتان متعارضتان كل منهما تقتضى أثرها فلو بطل
أثرهما لسكانت كل واحدة مؤثرة غير مؤثرة غالبية مغلوبة مانعة ممنوعة وهذا يمتنع وهو دليل
يشبه دليل التمانع وسر الفرق أن العلة الواحدة إذا قارنها مانع منع تأثيرها لم تبق مقتضية
له بل المانع عاقها عن اقتضائها وهذا غير ممتنع وأما العلتان المتمانعتان اللتان كل منهما مانعة
للأخرى من تأثيرها فإن تمانعهما وتقابلهما يقتضى إبطال كل واحدة منهما للأخرى وتأثيرها

فيها وعدم تأثيرها معا وهو جمع بين التقيضين لأنها إذا بطلت لم تكن مؤثرة وإذا لم تكن مؤثرة لم تبطل غيرها فتكون كل منهما مؤثرة غير مؤثرة باطلة غير باطلة وهذا محال فثبت أنهما لا بد أن تؤثر إحداهما في الأخرى بقوتها فيكون الحكم لها . فإن قيل فما تقولون فيمن توسط أرضا مغصوبة ثم بداله في التوبة فإن أمرتموه باللبث فهو محال وإن أمرتموه بقطعها والخروج من الجانب الآخر فقد أمرتموه بالحركة والتصرف في ملك الغير وكذلك إن أمرتموه بالرجوع فهو حركة منه وتصرف في أرض الغصب فهذا قد تعارضت فيه المصلحة والمفسدة فما الحكم في هذه الصورة وكذلك من توسط بين فئة مثبتة بالجراح منتظرين للموت وليس له انتقال إلا على أحدهم فإن أقام على من هو فوقه قتله وإن انتقل إلى غيره قتله فقد تعارضت هنا مصلحة النقلة ومفسدتها على السواء وكذلك من طلع عليه الفجر وهو مجامع فإن أقام أفسد صومه وإن نزع فالنزع من الجماع والجماع مركب من الحركتين فهنا أيضاً قد تضادت العلتان وكذلك أيضاً إذا ترس الكفار بأسرى من المسلمين هم بعدد المقاتلة ودار الأمر بين قتل الترس وبين الكف عنه وقتل الكفار المقاتلة المسلمين فهنا أيضاً قد تقابلت المصلحة والمفسدة على السواء وكذلك أيضاً إذا ألقى في مركبهم نار وعانقوا الهلاك بها فإن أقاموا احترقوا وإن لجؤا إلى الماء هلسكوا بالفرق وكذلك الرجل إذا ضاق عليه الوقت ليلة عرفة ولم يبق منه إلا ما يسع قدر صلاة العشاء فإن اشتغل بها فانه الوقوف وإن اشتغل بالذهاب إلى عرفة فاتته الصلاة فهنا قد تعارضت المصلحتان والمفسدتان على السواء وكذلك الرجل إذا استيقظ قبل طلوع الشمس وهو جنب ولم يبق من الوقت إلا ما يسع قدر الغسل أو الصلاة بالتيميم فإن اغتسل فاتته مصلحة الصلاة في الوقت وإن صلى بالتيميم فاتته مصلحة الطهارة فقد تقابلت المصلحة والمفسدة وكذلك إذا اغتم البحر بحيث يعلم ركبان السفينة أنهم لا يخلصون إلا بتفريق شطر الركبان لتخف بهم السفينة فإن ألقوا شطرهم كان فيه مفسدة وإن تركوهم كان فيه مفسدة فقد تقابلت المفسدتان والمصلحتان على السواء وكذلك لو أكره رجل على إفساد درهم من درهمن متساويين أو إنلاف حيوان من حيوانين متساويين أو شرب قدح من قدحين متساويين أو وجد كافرين قوين في حال المبارزة لا يمكنه إلا قتل أحدهما أو قصد المسلمين عدوان متكافئان من كل وجه في القرب والبعد والعدد والعداوة فانه في هذه الصور كلها تساوت المصالح والمفاسد ولا يمكنكم ترجيح أحد من المصلحتين ولا أحد من المفسدتين ومعلوم أن هذه حوادث لا تخلو من حكم لله فيها وأما ما ذكرتم من امتناع تقابل المصلحة والمفسدة على السواء فكيف عليكم إنكاره وأتم تقولون بالموازنة وإن من الناس من تستوى حسناته وسيئاته فيبقى في الأعراف بين الجنة والنار لتقابل مقتضى الثواب والعقاب في حقه فان حسناته

قصرت به عن دخول النار وسيئاً أنه قصرت به عن دخول الجنة وهذا ثابت عن الصحابة حذيفة
ابن اليمان وابن مسعود وغيرهما . فالجواب من وجهين بجمل ومفصل . أما الجمل فليس في شيء
بما ذكرتم دليل على محل النزاع فإن مورد النزاع أن تتقابل المصلحة والمفسدة وتساويا فينتدافما
ويبطل أثرها وليس في هذه الصور شيء كذلك وهذا يقين بالجواب التفصيلي عنها صورة
صورة فأما من توسط أرضاً مغصوبة فإنه مأثور من حين دخل فيها بالخروج منها في حكم الشارع
في حقه المبادرة إلى الخروج وإن استلزم ذلك حركة في الأرض المغصوبة فإنها حركة تتضمن
ترك الغصب فهى من باب ما لا خلاص عن الحرام إلا به وإن قيل إنها واجبة فوجوب عقل
لزومى لا شرعى مقصود فمفسدة هذه الحركة مغمورة في مصلحة تفرغ الأرض والخروج عن
الغصب وإذا قدر تساوى الجواب بالنسبة إليه فالواجب القدر المشترك وهو الخروج من
أحدها وعلى كل تقدير فمفسدة هذه الحركة مغمورة جداً في مصلحة ترك الغصب فليس مما نحن
فيه بسبيل . وأما مسألة من توسط بين قتلى لا سبيل له إلى المقام أو النقلة إلا بقتل أحدهم
فهذا ليس مكلفاً في هذه الحال بل هو في حكم الملجأ والملجأ ليس مكلفاً اتفاقاً فإنه لا قصد
له ولا فعل وهذا ملجأ من حيث أنه لا سبيل له إلى ترك النقلة عن واحد إلا إلى الآخر فهو
ملجأ إلى لبسه فوق واحد ولا بد ومثل هذا لا يوصف فعله بإباحة ولا تحريم ولا حكم من
أحكام التكليف لأن أحكام التكليف منوطة بالاختيار فلا تتعلق بمن لا اختيار له فلو كان بعضهم
مسلباً وبعضهم كافراً مع اشتراكهم في العصمة فقد قيل يلزمه الانتقال إلى الكافر أو المقام
عليه لأن قتله أخف مفسدة من قتل المسلم ولهذا يجوز قتل من لا يقتله في المعركة إذا تترس بهم
الكفار فيرميهم ويقصد الكفار . وأما من طلع عليه الفجر وهو مجامع فالواجب عليه النزاع
عينا ويحرم عليه استدامة الجماع واللبث وإنما اختلف في وجوب القضاء والكفارة عليه
على ثلاثة أقوال في مذهب أحمد وغيره . أحدها عليه القضاء والكفارة وهذا اختيار القاضى
أبى يعلى . والثانى لاشيء عليه وهذا اختيار شيخنا وهو الصحيح . والثالث عليه القضاء دون
الكفارة وعلى الأقوال كلها فالحكم في حقه وجوب النزاع والمفسدة التي في حركة النزاع مفسدة
مغمورة في مصلحة إقلاعه ونزعه فليست المسئلة من موارد النزاع وأما إذا تترس الكفار
بأسرى من المسلمين بعدد المقاتلة فانه لا يجوز رميهم إلا أن يخشى على جيش المسلمين وتكون
مصلحة حفظ الجيش أعظم من مصلحة حفظ الأسارى فينبذ يكون رمى الأسارى ويكون
من باب دفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناها فلو انعكس الأمر وكانت مصلحة الأسرى أعظم
من رميهم لم يجوز رميهم . فهذا الباب مبنى على دفع أعظم المفسدتين بأدناها وتحصيل أعظم
المصلحتين بتفويت أدناها فإن فرض الشك وتساوى الأمران لم يجوز رمى الأسرى لأنه

على يقين من قتلهم وعلى ظن وتخمين من قتل أصحابه وهلاكهم ولو قدر أنهم تيقنوا ذلك ولم يكن في قتلهم استباحة بيضة الإسلام وغلبة العدو على الديار لم يجز أن يبقى نفوسهم بنفوس الأسرى كما لا يجوز للمكره على قتل المعصوم أن يقتله ويقتل نفسه بل الواجب عليه أن يستسلم للقتل ولا يجعل النفوس المعصومة وقاية لنفسه . وأما إذا ألقى في مركبهم نار فانهم يفعلون ما يرون السلامة فيه وان شكوا هل السلامة في مقامهم أو في وقوعهم في الماء أو تيقنوا الهلاك في الصورتين أو غلب على ظنهم غلبة متساوية لا يرجح أحد طرفيها في الصور الثلاث قولان لأهل العلم وهما روايتان . منصوصتان عن أحمد إحداهما أنهم يخبرون بين الأمرين لأنهما موتتان قد عرضتا لهم فلمهم أن يختاروا أيسرهما عليهما إذ لا بد من أحدهما وكلاهما بالنسبة إليهم سواء فيخبرون بينهما والقول الثاني أن يازمهم المقام ولا يعينون على أنفسهم لئلا يكون موتهم بسبب من جهتهم وليتمحص موتهم بشهادة بأيدي عدوهم وأما الذي ضاق عليه وقت الوقوف بعرفة والصلاة فإن الواجب في حقه تقوى الله بحسب الإمكان وقد اختلف في تعيين ذلك الواجب على ثلاثة أقوال في مذهب أحمد وغيره أحدها أن الواجب في حقه معينا اي قاع الصلاة في وقتها فإنها قد تضيقت والحج لم يتضيق وقته فإنه إذا فعله في العام القابل لم يكن قد أخرجه عن وقته بخلاف الصلاة والقول الثاني أنه يقدم الحج ويقضى الصلاة بعد الوقت لأن مشقة فواته وتكليفه انشاء سفر آخر أو إقامة في مكة إلى قابل ضرر عظيم تأباه الحنيفية السمحة فيشتغل بأدراكه ويقضى الصلاة والثالث يقضى الصلاة وهو سائر إلى عرفة فيكون في طريقه مصليا كما يصلى الهارب من سيل أو سبع أو عدو انفاقا أو الطالب لعدو يخشى فواته على أصح القولين وهذا أقيس الأقوال وأقربها إلى قواعد الشرع ومقاصده فان الشريعة مبناها على تحصيل المصالح بحسب الإمكان وأن لا يفوت منها شيء فان أمكن تحصيلها كلها حصلت وان تزاخت ولم يمكن تحصيل بعضها إلا بتفويت البعض قدم أكلها وأهمها وأشدها طلبا للشارع . وقد قال عبدالله بن أنيس بعثني رسول الله ﷺ إلى خالد بن سفيان العرنى وكان نحو عرنة وعرفات فقال اذهب فاقتله فرأيتته وحضرت صلاة العصر فقلت إني أخاف أن يكون بيني وبينه ما ان أؤخر الصلاة فانطلقت أمشي وأنا أصلي أومى إيماء نحوه فلما دنوت منه قال لي من أنت قلت رجل من العرب بلغني أنك تجمع لهذا الرجل جنتك في ذلك قال اني لني ذلك قال فشيت معه ساعة حتى اذا أمكنتني علوته بسيفي حتى برد رواه أبو داود . وأما مسألة المستيقظ قبل طلوع الشمس جنباً وضيق الوقت عليه بحيث لا يتسع للفعل والصلاة فهذا الواجب في حقه عند جمهور العلماء أن يغتسل وان طلعت الشمس ولا تجزيه الصلاة بالتيتمم لأنه واجد الماء وان كان غير مفطر في نومه فلا اثم عليه

كما لو نام حتى طلعت الشمس والواجب في حقه المبادرة إلى الغسل والصلاة وهذا وقتها في حق أمثاله وعلى هذا القول الصحيح فلا يتعارض هاهنا مصلحة ومفسدة متساويتان بل مصلحة الصلاة بالطهارة أرجح من إيقاعها في الوقت بالتييمم وفي المسئلة قول ثان وهو رواية عن مالك أنه يتيمم ويصلي في الوقت لأن الشارع له التفات إلى إيقاع الصلاة في الوقت بالتييمم أعظم من التفاته إلى إيقاعها بطهارة الماء خارج الوقت والعدم المبيح للتييمم هو العدم بالنسبة إلى وقت الصلاة لا مطلقا فانه لا بد أن يجد الماء ولو بعد حين ومع هذا فأوجب عليه الشارع التيمم لأنه عادم للماء بالنسبة إلى وقت الصلاة وهكذا هذا التائم وان كان واجدا للماء لكنه عادم بالنسبة إلى الوقت وصاحب هذا القول يقول مصلحة إيقاع الصلاة في الوقت بالتييمم أرجح في نظر الشارع من إيقاعها خارج الوقت بطهارة الماء فعلى كلا القولين لم تتساو المصلحة والمفسدة فثبت أنه لا وجوب لهذا القسم في الشرع . وأما مسئلة اغتلام البحر فلا يجوز القاء أحد منهم في البحر بالقرعة ولا غيرها لاستوائهم في العصمة وقتل من لا ذنب وقاية لنفس القاتل به وليس أولى بذلك منه ظلم . نعم لو كان في السفينة مال أو حيوان وجب القاء المال ثم الحيوان لأن المفسدة في فوات الأموال والحيوانات أولى من المفسدة في فوات أنفس الناس المعصومة وأما سائر الصور التي تساوت مفسادها كإلاف الدرهمين والحيوانين وقتل أحد العدوين فهذا الحكم فيه التخيير بينهما لأنه لا بد من إتلاف أحدهما وقاية لنفسه وكلاهما سواء فيتخير بينهما وكذلك العدوان المتكافئان يخير بين قتالهما كالواجب المخير والولى وأما من تساوت حسناته وسيئاته وتدافع أثرهما فهو حجة عليكم فان الحكم للحسنات وهى تغلب السيئات فانه لا يدخل النار ولكنه يبقى على الأعراف مدة ثم يصير إلى الجنة فقد تبين غلبة الحسنات لجانب السيئات ومنعها من ترتب أثرها عليها وان الأثر هو أثر الحسنات فقط فبان أنه لا دليل حكم لكم على وجود هذا القسم أصلا وان الدليل يدل على امتناعه . فان قيل لكم فما قولكم فيما إذا عارض المفسدة مصلحة أرجح منها وترتب الحكم على الرجح هل يترتب عليه مع بقاء المرجوح من المصلحة والمفسدة لكنه لما كان مغمورا لم يلتفت إليه أو يقولون أن المرجوح زال أثره بالراجح فلم يبق له أثر . ومثال ذلك أن الله تعالى حرم الميتة والدم والخنزير لما في تناولها من المفسدة الراجحة وهو خبث التغذيةية والغازى شبيه بالمغتذى فيصير المغتذى بهذه الخبائث خبيث النفس فمن محاسن الشريعة تحريم هذه الخبائث فان اضطراب اليها وخاف على نفسه الهلاك إن لم يتناولها أبيضحت له فهل بإباحتها والحالة هذه مع بقاء وصف الخبث فيها السكن عارضه مصلحة أرجح منه وهى حفظ النفس أو بإباحتها أزال وصف الخبث منها فما أبيض له إلا طيب

وإن كان خبيثا في حال الإختيار قيل هذا موضع دقيق وتحقيقه يستدعى اطلاعا على أسرار الشريعة والطبيعة فلا تستهونه وأعطه حقه من النظر والتأمل وقد اختلف الناس فيه على قولين فكثير منهم أو أكثرهم سلك مسالك الترجيح مع بقاء وصف الخبث فيه وقال مصلحة حفظ النفس أرجح من مفسدة خبث التغذية وهذا قول من لم يحقق النظر ويعين التأمل بل استرسل مع ظاهر الأمور والصواب أن وصف الخبث منتف حال الاضطرار . وكشف الغطاء عن المسئلة أن وصف الخبث غير مستقل بنفسه في المحل المتغذى به بل هو متولد من القابل والفاعل فهو حاصل من المتغذى والمغتذى به ونظيره تأثير السم في البدن هو موقوف على الفاعل والمحل القابل إذا علم ذلك فتناول هذه الخبائث في حال الاختيار يوجب حصول الأثر المطلوب عدمه فإذا كان المتناول لها مضطرا فان ضرورته تمنع قبول الخبث الذي في المغتذى به فلم تحصل تلك المفسدة لأنها مشروطة بالاختيار الذي به يقبل المحل خبث التغذية فاذا زال الاختيار زال شرط القبول فلم تحصل المفسدة أصلا وإن اعتاص هذا على فهمك فانظر في الأغذية والأشربة الضارة التي لا يتخلف عنها الضرر إذا تناولها المختار الواحد لغيرها فاذا اشتدت ضرورته إليها ولم يجد منها بدا فانها تنفعه ولا يتولد له منها ضرر أصلا لأن قبول طبيعته لها وفاقته اليها وميله منعه من التضرر بها بخلاف حال الاختيار وأمثلة ذلك معلومة مشهودة بالحس فاذا كان هذا في الأوصاف الحسية المؤثرة في محالها بالحس فما الظن بالأوصاف المعنوية التي تأثيرها انما يعلم بالعقل أو بالشرع فلا تظن أن الضرورة أزاله وصف المحل وبدلته فانما لم نقل هذا ولا يقوله عاقل وانما الضرورة منعت تأثير الوصف وأبطلته فهي من باب المانع الذي يمنع تأثير المقتضى لا أنه يزيل قوته ألا ترى أن السيف الحاد إذا صادف حجرا فإنه يمشق قطعه وتأثيره لأنه يزيل حدته وتسميته لقطع القابل ونظير هذا الملابس المحرمة اذا اضطر اليها فان ضرورته تمنع ترتب المفسدة التي حرمت لأجلها فان قال فهذا ينتقض عليكم بتحريم نكاح الأمة فانه حرم للمفسدة التي تتضمنه من ارقاق ولده ثم أبيع عند الضرورة اليه وهي خوف العنة الذي هو أعظم فسادا من ارقاق الولد ومع هذا فالمفسدة قائمة بعينها ولكن عارضها مصلحة حفظ الفرج عن الحرام وهي أرجح عند الشارع من رق الولد قيل هذا لا ينتقض بما قررناه فان الله سبحانه لما حرم نكاح الأمة لما فيه من مفسدة رق الولد واشتغال الأمة بخدمة سيدها فلا يحصل لزوجها من السكن اليها والإبواء ودوام المعاشرة ما تقر به عينه وتسكن به نفسه اباحه عند الحاجة اليه بأن لا يقدر على نكاح حرة ويخشى على نفسه واقعة المحذور وكانت المصلحة له في نكاحها في هذه الحال أرجح من تلك المفاسد . وليس هذا حال ضرورة يباح لها المحذور فان الله سبحانه لا يضطر عبده الى الجماع بحيث ان لم يجامع مات بخلاف الطعام والشراب ولهذا لا يباح الزنا بضرورة كما يباح الخنزير

والميتة والدم وانما الشهوة وقضاء الوطر يشق على الرجل تحمله وكف النفس عنه لضعفه
وقلة صبره فرحمه أرحم الراحمين وأباح له أطيب النساء وأحسنهن أربعاً من الحرائر وما شاء
من ملك يميته من الإمام فان عجز عن ذلك أباح له نكاح الأمة رحمة به وتخفيفاً عنه لضعفه
ولهذا قال تعالى (ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فما ملكت أيما نكح
من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم) إلى قوله (والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين
يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً) فأخبر
سبحانه أنه شرع لهم هذه الأحكام تخفيفاً عنهم لضعفهم وقلة صبرهم رحمة بهم واحساناً إليهم
فليس هاهنا ضرورة تبيح المحظور وانما هي مصلحة أرجح من مصلحة ومفسدة أقل من مفسدة
فاختار لهم أعظم المصلحتين وإن فاتت أدناهما ودفع عنهم أعظم المفسدتين وإن فاتت أدناهما
وهذا شأن الحكيم اللطيف الخبير البر المحسن وإذا تأملت شرائع دينه التي وضعها بين عباده
وجدها لا تخرج عن تحصيل المصالح الخالصة أو الراجحة بحسب الإمكان وإن تراخى قدم
أهمها وأجلها وإن فاتت أدناهما وتعطيل المفسد الخالصة أو الراجحة بحسب الإمكان وإن
تراخى عطل أعظمها فساداً باحتمال أدناها وعلى هذا وضع أحكم الحاكمين شرائع دينه دالة
عليه شاهدة له بكل علمه وحكمته ولطفه بعباده واحسانه إليهم وهذه الجملة لا يستريب فيها من
له ذوق من الشريعة وارتضاع من نديها وورود من صفو حوضها وكلما كان تضاعف منها أعظم
كان شهوده لمحاسنها ومصالحها أكمل ولا يمكن أحد من الفقهاء أن يتكلم في ما أخذ الأحكام
وعلاها والأوصاف المؤثرة فيها حقاً ورفقاً إلا على هذه الطريقة وأما طريقة انكار الحكم
التعليل ونفى الأوصاف المقتضية لحسن ما أمر به وقبح ما نهى عنه وتأثيرها واقتضائها للحب
والبغض الذي هو مصدر الأمر والنهي بطريقة جدلية كلامية لا يتصور بناء الأحكام عليها ولا
يمكن فقيها أن يستعملها في باب واحد من أبواب الفقه كيف والقرآن وسنة رسول الله
ﷺ بلوأن من تعليل الأحكام بالحكم والمصالح وتعليل الخلق بهما والتنبية على وجوه الحكم
التي لأجلها شرع تلك الأحكام ولأجلها خلق تلك الأعيان ولو كان هذا في القرآن والسنة في
نحو مائة موضع أو مائتين لسقناها وانكسره يزيد على ألف موضع بطرق متنوعة فتارة يذكر
للام تعليل الصريحة وتارة يذكر المفعول لأجله الذي هو المقصود بالفعل وتارة يذكر من أجل
الصريحة في التعليل وتارة يذكر أداة كي وتارة يذكر الفاء وإن وتارة يذكر أداة عمل المتضمنة
للتعليل المجردة عن معنى الرجاء المضاف إلى المخلوق وتارة يذنبه على السبب يذكره صريحاً وتارة
يذكر الأوصاف المشتقة المناسبة لتلك الأحكام ثم يرتبها عليها ترتيب المسببات على أسبابها وتارة
ينكر على من زعم أنه خلق خلقه وشرع دينه عبثاً وسدى وتارة ينكر على من ظن أنه يسوي

بين المختلفين للذين يقتضيان أثرين مختلفين وتارة يخير بكال حكمته وعلمه المقتضى أنه لا يفرق بين متماثلين ولا يسوى بين مختلفين وأنه ينزل الأشياء منازلها ويرتبها مراتبها وتارة يستدعي من عباده التفكير والتأمل والتدبر والتعقل لحسن ما بعث به رسوله وشرعه لعباده كما يستدعي منهم التفكير والنظر في مخلوقاته وحكمها وما فيها من المنافع والمصالح وتارة يذكر منافع مخلوقاته منها بها على ذلك وأنه الله الذى لا إله إلا هو وتارة يختم آيات خلقه وأمره بأسماء وصفات تناسبها وتقتضيها والقرآن مملوء من أوله إلى آخره بذكر حكم الخلق والأمر ومصالحهما ومنافعهما وما تضمنناه من الآيات الشاهدة الدالة عليه ولا يمكن من له أدنى اطلاع على معاني القرآن أنكار ذلك وهل جعل الله سبحانه في فطر العباد استواء العدل والظلم والصدق والكذب والفجور والعفة والإحسان والإساءة والصبر والعفو والاحتال والطيش والانتقام والحدة والكرم والسماحة والبذل والبخل والشح والإمساك بل الفطرة على الفرقان بين ذلك كالفطرة على قبول الأغذية النافعة وترك ما لا ينفع ولا يغذى ولا فرق في الفطرة بينهما أصلاً. وإذا تأملت الشريعة التي بعث الله بها رسوله حق التأمل وجدتها من أولها إلى آخرها شاهدة بذلك ناطقة به ووجدت الحكمة والمصلحة والعدل والرحمة باديا على صفحاتها ناديا عليها يدعو العقول والألباب إليها وأنه لا يجوز على أحكم الحاكمين ولا يليق به أن يشرع لعباده ما يضادها وذلك لأن الذى شرعها علم ما في خلافها من المفساد والقبايح والظلم والسفاهة الذى يتعالى عن أرائده وشرعه وأنه لا يصلح العباد إلا عليها ولا سعادة لهم بدونها البتة فتأمل محاسن الوضوء بين يدي الصلاة وما تضمنه من النظافة والنزاهة ومجانبة الأوساخ والمستفدرات وتأمل كيف وضع على الأعضاء الأربعه التي هي آلة البطش والمشى وجمع الحواس التي تعلق أكثر الذنوب والخطايا بها ولهذا خصها النبي صلى الله عليه وسلم بالذكر في قوله إن الله كتب على ابن آدم حفظه من الزنا أدرك ذلك ولا محالة فالعين تزنى وزناها النظر والأذن تزنى وزناها الاستماع واليد تزنى وزناها البطش والرجل تزنى وزناها المشى والقلب يتمنى ويشتهى والفرج يصدق ذلك ويكذب به. فلما كانت هذه الأعضاء هي أكثر الأعضاء مباشرة للمعاصي كان وسخ الذنوب أصحق بها وأعلق من غيرها فشرع أحكم الحاكمين الوضوء عليها ليتضمن نظافتها وطهارتها من الأوساخ الحسية وأوساخ الذنوب والمعاصي وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا المعنى بقوله إذا توضأ العبد المسلم خرجت خطايا مع الماء أو مع آخر قطرة من الماء حتى يخرج من تحت أظفاره. وقال أبو أمامة يارسول الله كيف الوضوء فقال أما فإنك إذا توضأت فغسلت كفيك فأنقيت ما خرجت خطاياك من بين أظفارك وأناملك فإذا مضمضت واستنشقت بمنخريك وغسلت وجهك ويديك إلى المرفقين ومسحت

برأسك وغسلت رجلك إلى السكعين اغتسلت من عامة خطاياك فإن أنت وضعت وجهك لله خرجت من خطاياك كيوم ولدتك أمك رواه النسائي والأحاديث في هذا الباب كثيرة فاقضت حكمة أحكم الحاكمين ورحمته أن شرع الوضوء على هذه الأعضاء التي هي أكثر الأعضاء مباشرة للبعاضى وهى الأعضاء الظاهرة البارزة للغبار والوسخ أيضا وهى أسهل الأعضاء غسلًا فلا يشق تكرار غسلها فى اليوم والليلة فكانت الحكمة الباهرة فى شرع الوضوء عليها دون سائر الأعضاء وهذا يدل على أن المضمضة من آكد أعضاء الوضوء ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يداوم عليها ولم ينقل عنه بإسناد قط أنه أدخل بها يوماً واحداً وهذا يدل على أنها فرض لا يصح الوضوء بدونها كما هو الصحيح من مذهب أحمد وغيره من السلف فمن سوى بين هذه الأعضاء وغيرها وجعل تعيينها بمجرد الأمر الخالى عن الحكمة والمصلحة فقد ذهب مذهباً فاسداً فكيف إذا زعم مع ذلك أنه لا فرق فى نفس الأمر بين التعبد بذلك وبين أن يتعبد بالنجاسة وأنواع الأقدار والأوساخ والأتان والرائحة الكريهة ويجعل ذلك مكان الظهارة والوضوء وأن الأمرين سواء وإنما يحكم بمجرد المشيئة بهذا الأمر دون ضده ولا فرق بينهما فى نفس الأمر وهذا قول تصوره كافى فى الجزم بطلانه وجميع مسائل الشريعة كذلك آيات بينات ودلالات واضحات وشواهد ناطقات بأن الذى شرعها له الحكمة البالغة والعلم المحيط والرحمة والعناية بعباده وإرادة الصلاح لهم وسوقهم بها إلى كمالهم وعواقبهم الحميدة وقد نبه سبحانه عباده على هذا فقال (يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤسكم وأرجلكم إلى السكعين) إلى قوله (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون) فأخبر سبحانه أنه لم يأمرهم بذلك حرجاً عليهم وتضييقاً ومشقة ولكن لإرادة تطهيرهم وإتمام نعمته عليهم ليذكروا على ذلك فله الحمد كما هو أهله وكما ينبغى لكرم وجهه وعز جلاله . فإن قيل فما جوابكم عن الأدلة التى ذكرها نفاة التحسين والتقييح على كثرتها . قيل قد كفونا بحمد الله مؤنة إبطالها بقدهم فيها وقد أبطلها كلها واعترض عليها فضلاء اتباعها وأصحابها أبو عبد الله ابن الخطيب وأبو الحسين الأمدى واعتمد كل منهم على مسلك من أفسد المسالك واعتمد القاضى على مسلك من جنسهما فى المفساد فاعتمد هؤلاء الفضلاء على ثلاث مسالك فاسدة وتعرضوا لإبطال ما سواها والقدح فيه ونحن نذكر مسالكهم التى اعتمدوا عليها ونبين فسادها وبطلانها فإما ابن الخطيب فاعتمد على المسلك المشهور وهو أن فعل العبد غير اختيارى وما ليس بفعل اختيارى لا يكون حسناً ولا قبيحاً عقلاً بالاتفاق لأن القائلين بالحسن والقبح العقليين يعترفون بأنه إنما يكون كذلك إذا كان اختيارياً وقد ثبت أنه اضطرارى فلا يوصف بحسن ولا قبح على المذهبين أما بيان كونه غير اختيارى

فلا أنه أن لم يتمكن العبد من فعله وتركه فواضح وإن كان متمكناً من فعله وتركه كان جائزاً
فأما أن يفتقر ترجيح الفاعلية على التاركية إلى مرجح أولاً فإن لم يفتقر كان اتفاقياً
والاتفاق لا يوصف بالحسن والقبح وإن افتقر إلى مرجح فهو مع مرجحه أما إن يكون
لازماً وأما جائزاً فإن كان لازماً فهو اضطرارى وإن كان جائزاً عاد التقسيم فإما أن ينتهى إلى
ما يكون لازماً فيكون ضرورياً أولاً فينتهى إليه فيتسلسل وهو محال أن يكون اتفاقياً فلا يوصف
بحسن ولا قبح فهذا الدليل هو الذى يصول به ويجول ويثبت به الجبر ويرد به على القدرية
وينفى به التحسين والتقييح وهو فاسد من وجوه متعددة أحدها أنه يتضمن التسوية
بين الحركة الضرورية والاختيارية وعدم التفريق بينهما وهو باطل بالضرورة والحس
والشرع فالاستدلال على أن فعل العبد غير اختياري استدلال على ما هو معلوم البطلان
ضرورة وحساً وشرعاً فهو بمنزلة الاستدلال على الجمع بين التقيضين وعلى وجود المحال
الوجه الثانى لوضح الدليل المذكور لزم منه أن يكون الرب تعالى غير مختار فى فعله لأن
التقسيم المذكور والترديد جار فيه بعينه بأن يقال فعله تعالى إما أن يكون لازماً أو جائزاً فإن
كان لازماً كان ضرورياً وإن كان جائزاً فإن احتاج إلى مرجح عاد التقسيم وإلا فهو اتفاقى
ويكفى فى بطلان الدليل المذكور أن يستلزم كون الرب غير مختار * الوجه الثالث أن الدليل
المذكور لو صح لزم بطلان الحسن والقبح الشرعيين لأن فعل العبد ضرورى أو اتفاقى
وما كان كذلك فإن الشرع لا يحسنه ولا يقبحه لأنه لا يرد بالتكليف به فضلاً عن أن يجعله
متعلق الحسن والقبح * الوجه الرابع قوله إما أن يكون الفعل لازماً أو جائزاً * قلنا هو لازم
عند مرجحه التام وكان ماذا قولك يكون ضرورياً أتعنى به أنه لا بد منه أو تعنى به أنه لا يكون
اختيارياً فإن عنيت الأول منعنا انتفاء الإلزام فإنه لا يلزم منه أن يكون غير مختار ويكون
حاصل الدليل إن كان لا بد منه فلا بد منه ولا يلزم من ذلك أن يكون غير اختياري وإن عنيت
الثانى وهو أنه لا يكون اختياريًا منعنا الملازمة إذ لا يلزم من كونه لا بد منه أن يكون غير
اختياري وأنتم لم تذكر على ذلك دليلاً بل هى دعوى معلومة البطلان بالضرورة * الوجه
الخامس أن يقال هو جائز قولك أما أن يتوقف ترجيح الفاعلية على التاركية على مرجح أولاً
قلنا يتوقف على مرجح قولك عند المرجح إما أن يجب أو يبقى جائزاً * قلنا هو واجب
بالمرجح جائز بالنظر إلى ذاته والمرجح هو الاختيار وما وجب بالاختيار لا ينافى أن يكون
اختيارياً فلزوم الفعل بالاختيار لا ينافى كونه اختياريًا * الوجه السادس أن هذا الدليل الذى
ذكرته بعينه حجة على أنه اختياري لأنه وجب بالاختيار وما وجب بالاختيار لا يكون إلا
اختيارياً وإلا كان اختياريًا غير اختياري وهو جمع بين التقيضين والدليل المذكور حجة على

فساد قولك وأن الفعل الواجب بالاختيار اختياري ه الوجه السابع أن صدور الفعل عن المختار بشرط تعلق اختياره به لا ينافي كونه مقدوراً له وإلا كانت إرادته وقدرته غير مشروطة في الفعل وهو محال وإذ لم يناف ذلك كونه مقدوراً فهو اختياري قطعاً ه الوجه الثامن قولك إن لم يتوقف على مرجح فهو اتفاق إن عنيت بالمرجح ما يخرج الفعل عن أن يكون اختيارياً ويجعله اضطرارياً فلا يلزم من نفي هذا المرجح كونه اتفاقياً إذ هذا مرجح خاص ولا يلزم من نفي المرجح المعين نفي مطلق المرجح فما المانع من أن يتوقف على مرجح ولا يجعله اضطرارياً غير اختياري وإن عنيت بالمرجح ما هو أعم من ذلك لم يلزم من توقفه على المرجح الأعم أن يكون غير اختياري لأن المرجح هو الاختيار وما ترجح بالاختيار لم يمتنع كونه اختيارياً ه الوجه التاسع قولك وإن لم يتوقف على مرجح فهو اتفاق ما تعنى بالاتفاق أن تعنى به ما لا فاعل له أو ما فاعله مرجح باختياره أو معنى ثالثاً فإن عنيت الأول لم يلزم من عدم المرجح الموجب كونه اضطرارياً أن يكون الفعل صادراً من غير فاعل وإن عنيت الثاني لم يلزم منه كونه اضطرارياً وإن عنيت معني ثالثاً فابده ه الوجه العاشر أن غاية هذا الدليل أن يكون الفعل لازماً عند وجود سببه وأنت لم تقم دليلاً على أن ما كان كذلك يمتنع تحسينه وتقييمه سوى الدعوة المجردة فإن الدليل على أن ما كان لازماً بهذا الاعتبار يمتنع تحسينه وتقييمه ودليلك إنما يدل على أن ما كان غير اختياري من الأفعال امتنع تحسينه وتقييمه فمحل النزاع لم يتناوله الدليل المذكور وما تناوله وصحت مقدماته فهو غير متنازع فيه فدليلك لم يفد شيئاً ه الوجه الحادي عشر أن قولك يلزم أن لا يوصف بحسن ولا قبح على المذهبين باطل فال منازعك إنما يمنعون من وصف الفعل بالحسن والقبح إذا لم يكن متعلق القدرة والاختيار أما ماوجب بالقدرة والاختيار فإنهم لا يساعدونك على امتناع وصفه بالحسن والقبح أبداً ه الوجه الثاني عشر أن هذا الدليل لو صح لزم بطلان الشرائع والتكاليف جملة لأن التكليف إنما يكون بالأفعال الاختيارية إذ يستحيل أن يكلف المرتعش بحركة يده وإن يكلف المحموم بتسخين جلده والمقرور بقره وإذا كانت الأفعال اضطرارية غير اختيارية لم يتصور تعلق التكليف والامر والنهي بها فلو صح الدليل المذكور لبطلت الشرائع جملة فهذا هو الدليل الذي اعتمده ابن الخطيب وأبطل أدلة غيره وأما الدليل الذي اعتمد عليه الآمدي فهو أن حسن الفعل لو كان أمراً زائداً على ذاته لزم قيام المعنى بالمعنى وهو محال لأن العرض لا يقوم بالعرض وهذا في البطلان من جنس ما قبله فإنه منقوض ما لا يحصى من المعاني التي توصف بالمعاني كما يقال علم ضروري وعلم كسبي وإرادة جازمة وحركة سريعة وحركة بطيئة وحركة مستديرة وحركة مستقيمة ومزاج معتدل ومزاج منحرف وسواد براق وحرارة قانية وخضرة ناصعة ولون مشرق وصوت شج وحس رخيم ورفيع

ودقيق وغليظ وأضعاف أضعاف ذلك مما لا يحصى مما توصف المعاني والأعراض فيه بمان وأعراض
وجودية ومن ادعى أنها عدمية فهو مكابر وهل شك أحد في وصف المعاني بالشدّة والضعف
فيقال هم شديد وحب شديد وحزن شديد وألم شديد ومقابلها فوصف المعاني بصفات أمر
معلوم عند كل العقلاء . الوجه الثاني أن قوله يلزم منه قيام المعنى بالمعنى غير صحيح بل المعنى
يوصف بالمعنى ويقوم به تبعا لقيامه بالجواهر الذي هو المحل فيكون المعنيان جميعا قائمين بالمحل
وأحدهما تابع للآخر وكلاهما تابع للمحل فما قام العرض بالعرض وإنما قام العرضان جميعا بالجواهر
فالحركة والسرعة قائمتان بالمتحرك والصوت وشجاءه وغلظه ودقته وحسنه وقبحه قائمة بالحوامل
له والمحال إنما هو قيام المعنى بالمعنى من غير أن يكون لهما حامل فأما إذا كان لهما حامل
وأحدهما صفة الآخر وكلاهما قام بالمحل الحامل فليس بمحال وهذا في غاية الوضوح . الوجه
الثالث أن حسن الفعل وقبحه شرعا أمر زائد عليه لأن المفهوم منه زائد على المفهوم من نفس
الفعل وهما وجوديان لاعدميان لأن نقيضهما يحمل على العدم فهو عدى فهما إذا وجوديان
لأن كونه أحد النقيضين عدميا يستلزم كون نقيضه وجوديا فلو صح دليلكم المذكور لزم أن
لا يوصف بالحسن والقبح شرعا ولا خلاص عن هذا إلا بالانتماء كون الحسن والقبح الشرعيين
عدميين ولا سبيل إليه لأن الثواب والعقاب والمدح والذم مرتب عليهما ترتب الأثر على
مؤثره والمقتضى على مقتضيه وما كان كذلك لم يكن عدما محضا إذ العدم المحض لا يترتب عليه
نواب ولا عقاب ولا مدح ولا ذم وأيضا فإنه لا معنى لسكون الفعل حسنا وقبيحا شرعا إلا أنه
يشتمل على صفة لأجلها كان حسنا محبوبا للرب مرضيا له متعلقا بالمدح والثواب وكون القبيح
مشتملا على صفة لأجلها كان قبيحا مبغوضا للرب متعلقة بالذم والعقاب وهذه أمور وجودية
ثابتة له في نفسه ومحبة الرب له وأمره به كسأه أمرا وجوديا زاده حسنا إلى حسنه وبعضه له
ونهيته عنه كسأه أمرا وجوديا زاده قبيحا إلى قبحه فجعل ذلك كله عدما محضا ونفيا صرفا لا يرجع
إلى أمر ثبوتى في غاية البطلان والإحالة وظهر أن هذا الدليل في غاية البطلان ولم تعرض
للوجوه التي قدحوا بها فيه فإنها مع طولها غير شافية ولا مقنعة فن اكتفى بها ففى موجودة
في كتبهم . وأما المسلم الذي اعتمده كثير منهم كالقاضي وأبي المعالي وأبي عمرو بن الحجاب
من المتأخرين فهو أن الحسن والقبح لو كانا ذاتيين لما اختلفا باختلاف الأحوال والمتعلقات
والأزمان ولا استحالة ورود النسخ على الفعل لأن ما ثبت للذات فهو باق ببقائها لا يزول وهى
باقية ومعلوم أن الكذب يكون حسنا إذا تضمن عصمة دم نبى أو مسلم ولو كان قبيحا ذاتيا له
لسكان قبيحا ابن وجد وكذلك ما نسخ من الشريعة لو كان حسنه لذاته لم يستحل قبيحا ولو كان
قبحه لذاته لم يستحل حسنا بالنسخ . قالوا وأيضا لو كان ذاتيا لاجتماع النقيضان في صدق من

قال لا كذب غدا فإنه لا يخلو إما أن يكذب في الغد أو يصدق فإن كذب لزم قبحه لكونه كذبا وحسنه لاستلزامه صدق الخبر الأول والمستلزم للحسن حسن فيجتمع في الخبر الثاني الحسن والقبح وهما تقيضان وإن صدق لزم حسن الخبر الثاني من حيث أنه صدق في نفسه وقبحه من حيث أنه مستلزم لكذب الخبر الأول فلزم التقيضان . قالوا وأيضا فلو كان القتل والجلد وقطع الأطراف قبيحا لذاته أو لصفة لازمة للذات لم يكن حسنا في الحدود والقصاص لأن مقتضى الذات لا يتخلف عنها فإذا تخلف فيما ذكرنا من الصور وغيرها دل على أنه ليس ذاتيا فهذا تقرير هذا المسلك وهو من أفسد المسالك لوجوه . أحدها أن كون الفعل حسنا أو قبيحا لذاته أو لصفة لم يعن به أن ذلك يقوم بحقيقة لا ينفك عنها بحال مثل كونه عرضا وكونه مفتقرا إلى محل يقوم به وكون الحركة حركة والسواد لونا ومن ها هنا غلط عاينا المنازعين لنا في المسئلة والزمنونا مالا يلزمنا وإنما نعى بكونه حسنا أو قبيحا لذاته أو لصفته أنه في نفسه منشأ للمصاحبة والمفسدة وترتيبهما عليه كترتب المسببات على أسبابها المقتضية لها وهذا كترتب الري على الشرب والشبع على الأكل وترتب منافع الأغذية والأدوية ومضارها عليها حسن الفعل أو قبحه هو من جنس كون الدواء الفلاني حسنا نافعا أو قبيحا ضارا وكذلك الغذاء واللباس والمسكن والجماع والاستفراغ والنوم والرياضة وغيرها فإن ترتب آثارها عليها ترتب المعلومات والمسببات على عللها وأسبابها ومع ذلك فإنها تختلف باختلاف الأزمان والأحوال والأماكن والمحل القابل ووجود المعارض فتختلف الشبع والري عن الخبز واللحم والماء في حق المريض ومن به علة تمنعه من قبول الغذاء لا تخرجه عن كونه مقتضيا لذلك لذاته حتى يقال لو كان كذلك لذاته لم يتخلف لأن ما بالذات لا يتخلف وكذلك تخلف الانتفاع بالدواء في شدة الحر والبرد وفي وقت تزايد العلة لا يخرج به عن كونه نافعا في ذاته وكذلك تخلف الانتفاع باللباس في زمن الحر مثلا لا يدل على أنه ليس في ذاته نافعا ولا حسنا فهذه قوى الأغذية والأدوية واللباس ومنافع الجماع والنوم تتخلف عنها آثارها زمانا ومكانا وحالا وبحسب القبول والاستعداد فتكون نافعة حسنة في زمان دون زمان ومكان دون مكان وحال دون حال وفي حق طائفة أو شخص دون غيرهم ولم يخرجها ذلك عن كونها مقتضية لآثارها بقواها وصفاتها فهكذا أوامر الرب تبارك وتعالى وشرائعه سواء يكون الأمر منشأ المصلحة وتابعا للمأمور في وقت دون وقت فيما أمر به تبارك وتعالى في الوقت الذي علم أنه مصلحة فيه ثم ينهى عنه في الوقت الذي يكون فعله فيه مفسدة على نحو ما يأمر الطبيب بالدواء والحية في وقت هو مصلحة للمريض وينهاه عنه في الوقت الذي يكون تناوله مفسدة له بل أحكام الحاكمين الذي هرت حكمته العقول أولى بمرعاة مصالح عباده ومفاسدهم في الأوقات والأحوال والأماكن والأشخاص وهل وضعت الشرائع إلا على هذا فكان نكاح الأخت حسنا في وقته حتى لم يكن بدمنه في التناسل

وحفظ النوع الإنساني ثم صار قبيحا لما استغنى عنه فخرمه على عباده فأباحه في وقت كان فيه حسنا وحرمه في وقت صار فيه قبيحا وكذلك كل ما نسخ من الشرع بل الشريعة الواحدة كلها لا تخرج عن هذا وإن خفى وجه المصلحة والمفسدة فيه على أكثر الناس وكذلك إباحة الغنائم كان قبيحا في حق من قبلنا لئلا تحملهم إباحتها على القتال لأجلها والعمل لغير الله فتفوت عليهم مصلحة الإخلاص التي هي أعظم المصالح فحصى أحكم الحاكمين جانب هذه المصلحة العظيمة بتحريمها عليهم ليمتدح قتلهم لله لا للدنيا فكانت المصلحة في حقهم تحريمها عليهم ثم لما أوجد هذه الأمة التي هي أكمل الأمم عقولا وأرسلهم لإيماننا وأعظمهم توحيدا وإخلاصا وأرغبهم في الآخرة وأزدهم في الدنيا أرباح لهم الغنائم وكانت إباحتها حسنة بالنسبة إليهم وإن كانت قبيحة بالنسبة إلى من قبلهم فكانت كإباحة الطيب اللحم للصحيح الذي لا يخشى عليه من مضرته وحميته منه للريض المحموم وهذا الحكم فيما شرع في الشريعة الواحدة في وقت ثم نسخ في وقت آخر كالتخيير في الصوم في أول الإسلام بين الإطعام وبينه لما كان غير مألوف لهم ولا معتاد والطباع تأباه إذ هو هجر مألوفها ومحبوها ولم تدق بعد حلواته وعواقبه الحمودة وما في طيه من المصالح والمنافع فغيرت بينه وبين الإطعام وندبت إليه فلما عرفت علته يعني حكمته والفقهاء وعرفت ما تضمنه من المصالح والفوائد حتم عليها عينا ولم يقبل منها سواء فكان التخيير في وقته مصالحة وتعيين الصوم في وقته مصالحة فاقتضت الحكمة البالغة شرع كل حكم في وقته لأن المصالحة فيه في ذلك الوقت وكان فرض الصلاة أولا ركعتين ركعتين لما كانوا حديثي عهد بالإسلام ولم يكونوا معتادين لها ولا ألفتها طباعهم وعقولهم فرضت عليهم بوصف التخفيف فلما ذلت بها جوارحهم وطوعت بها أنفسهم واطمأنت إليها قلوبهم وباشرت نعيمها ولذتها وطيبها وذاقت حلوة عبودية الله فيها ولذة مناجاته زيدت ضعفها وأقرت في السفر على الفرض الأول لحاجة المسافر إلى التخفيف ولمشقة السفر عليه فتأمل كيف جاء كل حكم في وقته مطابقا للمصلحة والحكمة شاهدا لله بأنه أحكم الحاكمين وأرحم الرحمن الذي بهرت حكمته العقول والألباب وبدا على صفحاتها بأن ما خالفها هو الباطل وأنها هي عين المصلحة والصواب . ومن هذا أمره سبحانه لهم بالأعراض عن الكافرين وترك آذاهم والصبر عليهم والعفو عنهم لما كان ذلك عين المصلحة لقلّة عدد المسلمين وضعف شوكتهم وغلبة عدوهم فكان هذا في حقهم إذ ذاك عين المصلحة فلما تحيزوا إلى دار وكثر عددهم وقويت شوكتهم وتجرات أنفسهم لمناسجة عدوهم أذن لهم في ذلك أذنا من غير إيجاب عليهم لبذيقهم حلوة النصر والظفر وعز الغلبة وكان الجهاد أشق شيء على النفوس فجعله أولا إلى اختيارهم إذنا لاحتمالها فلما ذاقوا عز النصر

والظفر وعرفوا عواقبه الحميدة أوجب عليهم حتماً فاقنوا له طوعاً ورجية ومحبة فلو أناهم الأمر به مفاجأة على ضعف وقلة لنفروا عنه أشد النفر . وتأمل الحكمة الباهرة في شرع الصلاة أولاً إلى بيت المقدس إذ كانت قبلة الأنبياء فبعث بما بعث به الرسل وبما يعرفه أهل الكتاب وكان استقبال بيت المقدس مقرراً لنبوته وأنه بعث بما بعث به الأنبياء قبله وإن دعوته هي دعوة الرسل بعينها وليس بدعا من الرسل ولا مخالفاً لهم بل مصدقاً لهم مؤمناً بهم فلما استقرت أعلام نبوته في القلوب وقامت شواهد صدقه من كل جهة وشهدت القلوب له بأنه رسول الله حقاً وإن أنكروا رسالته عنادا وحسداً وبغياً وعلم سبحانه أن المصاحفة ولأئمة أن يستقبلوا الكعبة البيت الحرام أفضل بقاع الأرض وأحبها إلى الله وأعظم البيوت وأشرفها وأقدمها قر قبله أموراً كالمقدمات بين يديه لعظم شأنه فذكر النسخ أولاً وأنه إذا نسخ آية أو حكماً أتى بخير منه أو مثله وأنه على كل شيء قدير وأن له ملك السموات والأرض ثم حذرهم التعمت على رسوله والإعراض كما فعل أهل الكتاب قبلهم ثم حذرهم من أهل الكتاب وعداوتهم وأنهم يودون لو ردوهم كفاراً فلا يسمعون منهم ولا يقبلوا قولهم ثم ذكر تعظيم دين الإسلام وتفضيله على اليهودية والنصرانية وأن أهلهم السعداء الفائزون لأهل الأمانى الباطلة ثم ذكر اختلاف اليهود والنصارى وشهادة بعضهم على بعض بأنهم ليسوا على شيء حقيق بأهل الإسلام أن لا يقتدوا بهم وأن يخالفوهم في هديهم الباطل ثم ذكر جرم من منع عباده من ذكر اسمه في بيوته ومساجده وأن يعبد فيها وظلمه وأنه بذلك ساعى خرابها الآن عمارتها إنما هي بذكر اسمه وعبادته فيها ثم بين أن له المشرق والمغرب وأنه سبحانه لعظمته وإحاطته حيث استقبال المصلى فثم وجهه تعالى فلا يظن الظان أنه إذا استقبل البيت الحرام خرج عن كونه مستقبلاً به وقبلته فإن الله واسع عليهم ثم ذكر عبودية أهل السموات والأرض له وأنهم كل له قانتون ثم نبه على عدم المصاحفة في موافقة أهل الكتاب وأن ذلك لا يعود باستصلاحهم ولا يرجحى معه إيمانهم وأنهم إن رضوا عنه حتى يتبع ملتهم وضمن هذا تنبيه لطيف على أن موافقتهم في القبلة لا مصلحة فيها فسواء وافقتهم فيها أو خالفتهم فإنهم إن رضوا عنك حتى يتبع ملتهم ثم أخبر أن هداه هو الهدى الحق وحذره من اتباع أهوائهم ثم انتقل إلى تعظيم إبراهيم صاحب البيت وبانيه والثناء عليه وذكر أمامته للناس ولأنه أحق من اتبع ثم ذكر جلاله البيت وفضله وشرفه وأنه أمن للناس ومثابة لهم يشوبون إليه ولا يقضون منه وطراً وفي هذا تنبيه على أنه أحق بالاستقبال من غيره ثم أمرهم أن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ثم ذكر بناء إبراهيم وإسماعيل البيت وتظهيره بعهدته وإذنه ورفعهما قواعد وسؤالهما ربهما القبول منهما وأن يجعلهما مسلمين له ويريهما مناسكهما ويبعث في ذريتهما رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم

ويعلمهم الكتاب والحكمة ثم أخبر عن جهل من رغب عن ملة إبراهيم وسفه ونقصان عقله ثم أكد عليهم أن يكونوا على ملة إبراهيم وأنهم إن خرجوا عنها إلى يهودية أو نصرانية أو غيرها كانوا ضلالاً غير مهتدين وهذه كلها مقدمات بين يدي الأمر باستقبال الكعبة لمن تأملها وتدبرها وعلم ارتباطها بشأن القبلة فإنه يعلم بذلك عظمة القرآن وجلالته وتبنيهم على كمال دينه وحسنه وجلالته وأنه هو عين المصلحة لعباده لامصاحه لهم سواء وشوق بذلك النفوس إلى الشهادة له بالحسن والكمال والحكمة التامة فلما قرر ذلك كله أعلمهم بما سيقول السفهاء من الناس إذا تركوا قبلتهم ثلاثاً يفجأهم من غير علم به فيعظم موقعه عندهم فلما وقع لم يهلمهم ولم يصعب عليهم بل أخبر أن له المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ثم أخبر أنه كما جعلهم أمة وسطاً خياراً اختار لهم أوسط جهات الاستقبال وخيرها كما اختار لهم خير الأنبياء وشرع لهم خير الأديان وأنزل عليهم خير الكتب وجعلهم شهداء على الناس كلهم لكمال فضلهم وعلمهم وعدالتهم وظهرت حكمته في أن اختار لهم أفضل قبلة وأشرفها لتتكمّل جهات الفضل في حقهم بالقبلة والرسول والكتاب والشريعة ثم نبه سبحانه على حكمته البالغة في أن جعل القبلة أولاً هي بيت المقدس ليعلم سبحانه واقماً في الخارج ما كان معلوماً له قبل وقوعه من يتبع الرسول في جميع أحواله وينقاد له ولأوامر الرب تعالى ويدين بها كيف كانت وحيث كانت فهذا هو المؤمن حقاً الذي أعطى العبودية حقها ومن ينقلب على عقبيه ممن لم يرسخ في الإيمان قلبه ولم يستقر عليه قدمه فعارض وأعرض ورجع على حافره وشك في النبوة وخالط قلبه شبهة الكفار الذين قالوا إن كانت القبلة الأولى حقاً فقد خرجتم عن الحق وإن كانت باطلاً فقد كنتم على باطل وضاق عقله المنكوس عن القسم الثالث الحق وهو أنها كانت حقاً ومصاحبة في الوقت الأول ثم صارت مفسدة باطلة الاستقبال في الوقت الثاني ولهذا أخبر سبحانه عن عظم شأن هذا التحويل والنسخ في القبلة فقال (وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله) ثم أخبر أنه سبحانه لم يكن يضيع ما تقدم لهم من الصلوات إلى القبلة الأولى وأن رأفته ورحمته بهم تأتي إضاعة ذلك عليهم وقد كان طاعة لهم فلما قرر سبحانه ذلك كله وبين حسن هذه الجهة بعظمة البيت وعلو شأنه وجلالته قال (قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنويناك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره) وأكد ذلك عليهم مرة بعد مرة اعتناءً بهذا الشأن وتقخيماً له وأنه شأن ينبغي الاعتناء به والاحتفال بأمره فندبر هذا الاعتناء وهذا التقرير وبين المصالح الناشئة من هذا الفرع من فروع الشريعة وبين المفاسد الناشئة من خلافه وأن كل جهة في وقتها كان استقبالها هو المصلحة وأن للرب تعالى الحكمة البالغة في شرع القبلة الأولى وتحويل عبادته عنها إلى المسجد

الحرام . فهذا معنى كون الحسن والقبح ذاتيا للفعل لا ناشئا من ذاته ولا ريب عند ذوى العقول أن مثل هذا يختلف باختلاف الأزمان والامكنة والأحوال والأشخاص . وتأمل حكمة الرب تعالى فى أمره إبراهيم خليله عليه السلام بذبح ولده لأن الله اتخذ خليليا وخلطة منزلة تقتضى لإفراد الخليل بالمحبة وأن لا يكون له فيها منازع أصلا بل قد تخللت بحبته جميع أجزاء القلب والروح فلم يبق فيها موضع خال من حبه فضلا عن أن يكون محلا لمحبة غيره فلما سأل إبراهيم الولد وأعطيه أخذ شعبة من قلبه كما يأخذ الولد شعبة من قلب والده فغار المحبوب على خليله أن يكون فى قلبه موضع لغيره فأمره بذبح الولد ليخرج حبه من قلبه ويكون الله أحب إليه وآثر عنده ولا يبقى فى القلب سوى محبته فوطن نفسه على ذلك وعزم عليه فخلصت المحبة لولياها ومستحقها فخلصت المصاحبة المأمور به من العزم عليه وتوطن النفس على الامتثال فبقى الذبح مفسدة لحصول المصاحبة بدونه فنسخه فى حقه لما صار مفسدة وأمره به لما كان عزمه عليه وتوطن نفسه مصاحبة لهما فأى حكمة فوق هذا وأى لطف وبر وإحسان يزيد على هذا وأى مصاحبة فوق هذه المصاحبة بالنسبة إلى هذا الأمر ونسخة وإذا تأملت الشرائع الناسخة والمنسوخة وجدتها كلها بهذه المنزلة فمنها ما يكون وجه المصاحبة فيه ظاهرا مكشوفاً ومنها ما يكون ذلك فيه خفيا لا يدرك إلا بفضل فطنة وجودة إدراك .

فصل

وهنا سر بديع من أسرار الخلق والأمر به يتبين لك حقيقة الأمر وهو أن الله لم يخلق شيئا ولم يأمر بشيء ثم أبطله وأعدمه بالسكينة بل لا بد أن بثبته بوجه ما لأنه إنما خلقه لحكمة له فى خلقه وكذلك أمره به وشرعه إياه هو لما فيه من المصاحبة ومعلوم أن تلك المصاحبة والحكمة تقتضى ابقائه فإذا عارض تلك المصاحبة مصلحة أخرى أعظم منها كان ما اشتملت عليه أولى بالخلق والأمر ويبقى فى الأولى ما شاء من الوجه الذى يتضمن المصلحة ويكون هذا من باب تزاحم المصالح والقاعدة فيها شرعا وخلقاً تحصيلها واجتماعها بحسب الإمكان فإن تعذر قدمت المصلحة العظمى وإن فاتت الصغرى وإذا تأملت الشريعة والخلق رأيت ذلك ظاهرا وهذا سر قل من تظن له من الناس فتأمل الأحكام المنسوخة حكما حكما كيف تجد المنسوخ لم يبطل بالسكينة بل له بقاء بوجه فمن ذلك نسخ القبلة وبقاء بيت المقدس معظما محترما تشد إليه الرحال ويقصد بالسفر إليه وحط الأوزار عنده واستقباله مع غيره من الجهات فى السفر فلم يبطل تعظيمه واحترامه بالسكينة وإن بطل خصوص استقباله بالصلوات فالقصد إليه ليصلى فيه باق وهو نوع من تعظيمه وتشريفه بالصلة فيه والتوجه إليه قصداً لغضيلته وشرعه له نسبة من التوجه إليه بالاستقبال

بالصلوات فقدم البيت الحرام عليه في الاستقبال لأن مصلحته أعظم وأكمل وبقي قصده وشد الرحال إليه والصلوة فيه منشأ للمصلحة فتعمت الأمة المحمدية المصالحتان المتعلقةتان بهذين البيتين وهذا نهاية ما يكون من اللطف وتحصيل المصالح وتكميلها لهم فتأمل هذا الموضوع . ومن ذلك نسخ التخيير في الصوم بتعيينه فإن له بقاء وبيانا ظاهرا وهو أن الرجل كان إذا أراد أفطر وتصدق فحصلت له مصلحة الصدقة دون مصلحة الصوم وإن شاء صام ولم يفد فحصلت له مصلحة الصوم دون الصدقة فحتم الصوم على المكلف لأن مصلحته أتم وأكمل من مصلحة الفدية وندب إلى الصدقة في شهر رمضان فإذا صام وتصدق حصلت له المصاحتان معا وهذا أكمل ما يكون من الصوم وهو الذي كان يفعله النبي ﷺ فإنه كان أجود ما يكون في رمضان فلم تبطل المصلحة الأولى جملة بل قدم عليها ما هو أكمل منها وجوبا وشرعا لجمع بينها وبين الأخرى ندبا واستحبابا ومن ذلك نسخ ثبات الواحد من المسلمين للعشرة من العدو بثباته الإثنين ولم تبطل الحكمة الأولى من كل وجه بل بقي استحبابه وإن زال وجوبه بل إذا غلب على ظن المسلمين ظفروهم بعدوهم وهم عشرة أمثالهم وجب عليهم الثبات وحرم عليهم الفرار فلم تبطل الحكمة الأولى من كل وجه ومن ذلك نسخ وجوب الصدقة بين يدي مناجاة الرسول ﷺ لم يبطل حكمه بالكلية بل نسخ وجوبه وبقي استحبابه والندب إليه وما علم من تنبيهه وإشارته وهو أنه إذا استجبت الصدقة بين يدي مناجاة المخلوق فاستحبابها بين يدي مناجاة الله عند الصلوات والدعاء أولى فكان بعض السلف الصالح يتصدق بين يدي الصلاة والدعاء إذا أمكنه ويتأول هذه الأولوية ورأيت شيخ الإسلام ابن تيمية يفعله ويتجرأ ما أمكنه وفاوضته فيه فذكر لي هذا التنبيه والإشارة . ومن ذلك نسخ الصلوات الخمسين التي فرضها الله على رسوله ليلة الإسراء بخمس فانها لم تبطل بالكلية بل أثبتت خمسين في الثواب والأجر خمسا في العمل والوجوب وقد أشار تعالى إلى هذا بعينه حيث يقول على لسان نبيه لا يبديل القول لدى هي خمس وهي خمسون في الأجر فتأمل هذه الحكمة البالغة والنعمة السابغة فإنه لما اقتضت المصلحة أن تكون خمسين تكميلا للثواب وسوقا لهم بها إلى أعلا المنازل واقتضت أيضا أن تكون خمسا له جز الأمة وضعفهم وعدم احتياهم الخمسين جعلها خمسا من وجه وخمسين من وجه جمعا بين المصالح وتكميلا لها ولو لم نطالع من حكمته في شرعه وأمره ولطفه بعباده ومراعاة مصالحهم وتخصيهاها لهم على أتم الوجوه إلا على هذه الثلاثة وحدها لسكفى بها دليلا على ما رآها فسبحان من له في كل ما خلق وأمر حكمة بالغة شاهدة له بأنه أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين وأنه الله الذي لا إله إلا هو رب العالمين ومن ذلك الوصية للوالدين والأقرب بين فإنها كانت واجبة على من حضره الموت ثم نسخ الله ذلك بأية المواريث وبقية مشروعة في حق الأقارب الذين لا يرثون (٣ - مفتاح ٢)

وهل ذلك على سبيل الوجوب أو الاستحباب فيه قولان للسلف والخلف وهما في مذهب أحمد
فعلى القول الأول بالاستحباب إذا وصى للأجانب دونهم وصية ولا شيء للأقارب
وعلى القول بالوجوب فهل لهم أن يبطلوا وصية الأجانب ويختصوا هم بالوصية كالورثة أن
يبطلوا وصية الوارث أو يبطلوا ما زاد على ثلث الثلث ويختصوا هم بثلاثة كالورثة أن يبطلوا
ما زاد على ثلث المال من الوصية ويكون الثلث في حقهم بمنزلة المال كله في حق الورثة على
وجهين وهذا الثاني أقيس وأفقه وسره أن الثلث لما صار مستحقاً لهم كان بمنزلة جميع المال في
حق الورثة وهم لا يكونوا أقوى من الورثة فكما لا سبيل للورثة إلى إبطال الوصية بالثلث
للأجانب فلا سبيل لهؤلاء إلى إبطال الوصية بثلث الثلث للأجانب وتحقيق هذه المسائل والكلام
على ما أخذها له موضع آخر والمقصود هنا أن إيجاب الوصية للأقارب وأن نسخ لم يبطل
بالكلية بل بقى منه ما هو منشأ المصلحة كما ذكرناه ونسخ منه ما لا مصلحة فيه بل المصلحة
في خلافه ومن ذلك نسخ الاعتداد في الوفاة بحول الاعتداد بأربعة أشهر وعشر على المشهور
من القولين في ذلك فلم تبطل العدة الأولى جملة . ومن ذلك حبس الزانية في البيت حتى تموت
فإنه على أحد القولين لا نسخ فيه لأنه معيّن بالموت أو يجعل الله لمن سبيلا وقد جعل الله لمن
سبيلا بالحد وعلى القول الآخر هو منسوخ بالحد وهو عقوبة من جنس عقوبة الحبس فلم
تبطل العقوبة عنها بالكلية بل نقلت من عقوبة إلى عقوبة وكانت العقوبة الأولى أصلح في
وقتها لأنهم كانوا حديثي عهد بجاهلية وزنا فأمروا بحبس الزانية أولاً ثم لما استوطنت أنفسهم
على عقوبتها وخرجوا عن عوائد الجاهلية وركنوا إلى التحريم والعقوبة نقلوا إلى ما هو أغلظ
من العقوبة الأولى وهو الرجم والجلد فكانت كل عقوبة في وقتها هي المصلحة التي لا يصلحهم
سواها وهذا الذي ذكرناه إنما هو في نسخ الحكم الذي ثبت بشرعه وأمره . وأما ما كان
مستصحباً بالبراءة الأصلية فهذا لا يلزم من رفعه بقاء شيء منه لأنه لم يكن مصلحة لهم وإنما أمر
عنهم تحريمه إلى وقت لضرب من المصلحة في تأخير التحريم ولم يلزم من ذلك أن يكون مصلحة
حين فعلهم إياه وهذا كتحرير الربا والمسكر وغير ذلك من المحرمات التي كانوا يفعلونها
استصحاباً لعدم التحريم فانها لم تكن مصلحة في وقت ولهذا لم يشرعها الله تعالى ولهذا كان رفعها
بالخطاب لا يسمى نسخاً إذ لو كان ذلك نسخاً لكانت الشريعة كلها نسخاً وإنما نسخ رفع
الحكم الثابت بالخطاب لا رفع موجب الاستصحاب وهذا متفق عليه .

فصل

وأما ما خلقه سبحانه فإنه أوجده لحكمة في إيجادها فإذا اقتضت حكمته إعدامه جملة أعدامه
وأحدث بدله وإذا اقتضت حكمته تبديله وتغييره وتحويله من صورة إلى صورة بدله وغيره

وحوله ولم يعدمه جملة ومن فهم هذا فهم مسألة المعاد وما جاءت به الرسل فيه فان القرآن والسنة انما دلا على تغيير العالم وتحويله وتبديله لاجعله عدماً محضاً واعدامه بالسكلية فدل على تبديل الأرض غير الأرض والسماوات وعلى تشقق السماء وانفطارها وتكوير الشمس وانتثار الكواكب وسجر البحار وانزال المطر على أجزاء بنى آدم المختلطة بالتراب فينبئون كما ينبت النبات وترد تلك الارواح بعينها إلى تلك الاجساد التي احييت ثم اشدت نشأة أخرى وكذلك القبور تبعث وكذلك الجبال تسير ثم تنسف وتصير كالعهن المنفوش وتقيء الأرض يوم القيامة أفلاذ كبدها أمثال الاسطوان من الذهب والفضة وتميد الارض وتدنو الشمس من رؤس الناس فهذا هو الذى أخبر به القرآن والسنة ولاسيلا ل احد من الملاحدة الفلاسفة وغيرهم إلى الاعتراض على هذا المعاد الذى جاء به الرسل بحرف واحد وإنما اعتراضاتهم على المعاد الذى عليه طائفة من المتكلمين أن الرسل جاؤا به وهو ان الله يعدم أجزاء العالم العلوى والسفلى كلها فيجعلها عدماً محضاً ثم يعيد ذلك العدم وجوداً وياليت شعرى أين فى القرآن والسنة ان الله يعدم ذرات العالم وأجزائه جملة ثم يقبل ذلك العدم وجوداً وهذا هو المعاد الذى أنكرته الفلاسفة ورمته بأنواع الاعتراضات وضروب الازمات واحتاج المتكلمون إلى تعسف الجواب وتقريره بأنواع من المكابرات وأما المعاد الذى أخبرت به الرسل فبرىء من ذلك كله مصون عنه لا مطمع للعقل فى الاعتراض عليه ولا يقدر فيه شبهة واحدة وقد أخبر سبحانه أنه يحيى العظام بعد ما صارت رميا وانه قد علم ما تنقص الأرض من لحوم بنى آدم وعظامهم فيرد ذلك اليهم عند النشأة الثانية وأنه ينشئ تلك الاجساد بعينها بعد ما بلبت نشأة أخرى ويرد اليها تلك الارواح فلم يدل على أنه يعدم تلك الارواح ويفنيها حتى تصير عدماً محضاً فلم يدل القرآن على انه يعدم تلك الارواح ثم يخلقها خلقاً جديداً ولا دل على انه يفنى الأرض والسماوات ويعدمهما عدماً صرفاً ثم يجدد وجودها وإنما دلت النصوص على تبدلها وتغييرها من حال إلى حال فلو أعطيت النصوص حقها لارتفع أكثر النزاع من العالم ولكن خفيت النصوص وفهم منها خلاف مرادها وانضاف إلى ذلك تسليط الآراء عليها واتباع ما تقضى به فتضاعف البلاء وعظم الجهل واشتدت المحنة وتفاقم الخطب وسبب ذلك كله الجهل بما جاء به الرسول وبالمراد منه فليس للعبد أنفع من سمح ماجاء به الرسول وعقل معناه وأما من لم يسمعه ولم يعقله فهو من الذين قال الله فيهم (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير) فانرجع إلى الكلام عن الدليل المذكور وهو أن الحسن أو القبح لو كان ذاتياً لما اختلف إلى آخره فنعقول قد بينا أن اختلافه بحسب الأزمنة والأمكنة والأحوال والشروط لا يخرج عن كونه ذاتياً . الثانى انه ليس المعنى من كونه ذاتياً إلا أنه ناشئ من الفعل فالفاعل منشؤه وهذا

لا يوجب اختلافه بدليل ما ذكرنا من الصور . الثالث انه يجوز اقتضاء الذات الواحدة
لأمرين متنافيين بحسب شرطين متنافيين فيقتضى التبريد مثلا في محل معين بشرط معين
والسخن في محل آخر بشرط آخر والجسم في حينه يقتضى السكون فاذا خرج عن حينه اقتضى
الحركة واللحم يقتضى الصحة بشرط سلامة البدن من الحمى والمرض الممتنع منه الغذاء ويقتضى
المرض بشرط كون الجسم محموما ونحوه ونظائر ذلك أكثر من أن تحصى . فان قيل محل النزاع
أن الفعل لذاته أو لوصف لازم له يقتضى الحسن والقيح والشرطان متنافيان يمتنع ان يكون
كل واحد منهما وصفا لازما لأن اللازم يمتنع انفكاك الشيء عنه . قيل معنى كونه يقتضى
الحسن والقيح لذاته أو لوصفه اللازم أن الحسن ينشأ من ذاته أو من وصفه بشرط معين
والقيح ينشأ من ذاته أو من وصفه بشرط آخر فاذا عدم شرط الاقتضاء أو وجد مانع يمنع
الاقتضاء زال الامر المترتب بحسب الذات أو الوصف لزوال شرطه أو لوجود مانعه وهذا
واضح جدا : الثالث أن قولكم يحسن الكذب إذا تضمن عصمة نبي أو مسلم فهذا فيه طريقان .
أحدهما لانسلم أنه يحسن الكذب فضلا عن أن يجب بل لا يكون الكذب الاقيحا وأما الذى
يحسن فالتعريض والتورية كما وردت به السنة النبوية وكما عرض إبراهيم للملك الظالم بقوله هذه
أختي وزوجته وكما قال انى سقيم فعرض بأنه سقيم قلبه من شركهم أو سيسقم يوما ما وكما فعل
في قوله (بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون) فان الخبر والطلب كلاهما معلق بالشرط
والشرط متصل بهما ومع هذا فسامها صلى الله عليه وسلم ثلاث كذبات وامتنع بها من مقام الشفاعة فكيف
يصح دعواكم أن الكذب يجب إذا تضمن عصمة مسلم مع ذلك ؟ فان قيل كيف سماها إبراهيم
كذبات وهى تورية وتعريض صحيح ؟ قيل لا يلزمنا جواب هذا السؤال إذ الغرض ابطال
استدلالكم وقد حصل فالجواب عنه تبرع منا وتكميل للفائدة ولم أجد فى هذا المقام للناس
جوابا شافيا يسكن القلب إليه وهذا السؤال لا يختص به طائفة معينة بل هو وارد عليكم بعينه
وقد فتح الله الكريم بالجواب عنه فتقول الكلام له نسبتان نسبة إلى المتكلم وقصده وإرادته
ونسبة إلى السامع وافهام المتكلم إياه مضمونه فاذا أخبر المتكلم بخبر مطابق للواقع وقصد
افهام المخاطب فهو صدق من الجهتين وان قصد خلاف الواقع وقصد مع ذلك افهام المخاطب
خلاف ما قصد بل معنى ثالثا لاهو الواقع ولا هو المراد فهو كذب من الجهتين بالنسبتين معا
وإن قصد معنى مطابقا صحيحا وقصد مع ذلك التعمية على المخاطب وافهامه خلاف ما قصده
فهو صدق بالنسبة إلى قصده كذب بالنسبة إلى افهامه ومن هذا الباب التورية والمعاريض
وبهذا أطلق عليها إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم اسم الكذب مع أنه الصادق فى خبره ولم يخبر إلا
صدقا فتأمل هذا الموضوع الذى أشكل على الناس وقد ظهر بهذا أن الكذب لا يكون قط إلا

قبيحا وان الذي يحسن ويجب إنما هو الثورية وهى صدق وقد يطلق عليها الكذب بالنسبة إلى الافهام لا إلى العناية . الطريق الثانى أن تخلف القبح عن الكذب لغوات شرط أو قيام مانع يقتضى مصلحة راجعة على الصدق لاتخرجه عن كونه قبيحا لذاته وتقريره ماتقدم . وقد تقدم أن الله سبحانه حرم الميتة والدم ولحم الخنزير للمفسدة التى فى تناولها وهى ناشئة من ذوات هذه المحرمات وتخاف التحريم عنها عند الضرورة لا يوجب أن تكون ذاتها غير مقتضية للمفسدة التى حرمت لأجلها فمكذبا الكذب المتضمن نجاة نبي أو مسلم . الوجه الرابع قوله لو كان ذاتيا لاجتمع النقيضان فى صدق من قال لا كاذب غداً إلى آخر ما ذكر . جوابه انه متى يجتمع النقيضان إذا كان الحسن والقبح باعتبار واحد من جهة واحدة أو اذا كانا باعتبارين من جهتين أو أعم من ذلك فان عنيتم الأول فسلم ولكن لانسلم الملازمة فانه لا يلزم من اجتماع الحسن والقبح فى الصورة المذكورة أن يكون لجهة واحدة واعتبار واحد فان اجتماع الحسن والقبح فيهما باعتبارين مختلفين من جهتين متباينتين وهذا ليس بمتنعاً فانه إذا كان كذباً كان قبيحا بالنظر إلى ذاته وحسنا بالنظر إلى تضمنه صدق الخبر الأول ونظيره أن يقول والله لأشربن الخمر غداً أو والله لأسرقن هذا الثوب غداً ونحوه . وان عنيتم الثانى فهو حق ولكن لانسلم انتفاء اللازم وان عنيتم الثالث منعنا الملازمة أيضا على التقدير الأول وانتفاء اللازم على التقدير الثانى وهذا واضح جدا . الوجه الخامس قوله القتل والضرب حسن إذا كان حداً أو قصاصا وقبيح فى غيره فلو كان ذاتيا لاجتمع النقيضان كلام فى غاية الفساد فان القتل والضرب واحد بالنوع والقبيح ما كان ظاهرا وعدوانا والحسن منه ما كان جزاء على اساءة اما حدا واما قصاصا فلم يرجع الحسن والقبح إلى واحد بالعين ونظير هذا السجود فانه فى غاية الحسن لذاته إذا كان عبودية وخضوعا للواحد المعبود وفى غاية القبح إذا كان لغيره ولو سلمنا أن القتل والضرب الواحد بالعين إذا كان حدا أو قصاصا فانه يكون حسنا قبيحا لم يكن ذلك محالا لأنه باعتبارين فهو حسن لما تضمنه من الزجر والنكال وعقوبة المستحق وقبيح بالنظر إلى المقتول المضروب فهو قبيح له حسن فى نفسه وهذا كما أنه مكروه مبهوض له وهو محبوب مرضى لفاعله والأمر به فأى محال فى هذا فظهر أن هذا الدليل فاسد والله أعلم

فصل

فهذه أقوى أدلة النفاة باعترافهم بضعف ماسواها فلا حاجة بنا إلى ذكرها وبيان فسادها فقد تبين الصريح لذى عينين وجلبت عليك المسئلة رافلة فى حلال أدلتها الصحيحة وبراهينها

المستقيمة ولا تفضض طرف بصيرتك عن هذه المسئلة فان شأنها عظيم وخطبها جسيم . وقد احتج بعضهم بدليل أفسد من هذا كله فقالوا لو حسن الفعل أو قبح لذاته أو لصفته لم يكن البارى تعالى مختاراً فى الحكم لأن الحكم بالمرجوح على خلاف المعقول فيلزم الآخر فلا اختيار وتقرير هذا الاستدلال ببيان الملازمة المذكورة أو لبيان انتفاء اللازم ثانياً . أما المقام الأول وهو بيان الملازمة فان الفعل لو حسن لذاته أو لصفته لكان راجحاً على الحسن فى كونه متعلقاً للوجوب أو الندب ولو قبح لذاته أو لصفته لكان راجحاً على الحسن فى كونه متعلقاً للتحريم أو الكراهة فحينئذ إما أن يتعلق الحكم بالراجح المقتضى له أو المرجوح المقتضى لصدده والثانى باطل قطعاً لاستلزامه ترجيح المرجوح وهو باطل بصريح العقل فتعين الأول ضرورة فاذا كان تعلق الحكم بالراجح لازماً ضرورة لم يكن البارى مختاراً فى حكمه فتأمل هذه الشبهة ما أفسدها وأبين بطلانها والعجب من يرضى لنفسه أن يحتج بشئها وحسبك فساد الحجة مضمونها أن الله تعالى لم يشرع السجود له وتعظيمه وشكره ويحرم السجود للصنم وتعظيمه لحسن هذا وقبح هذا مع استوائهما تفريقاً بين المتماثلين فأى برهان أوضح من هذا على فساد هذه الشبهة الباطلة . الثانى أن يقال هذا يوجب أن تكون أفعاله كلها مستلزماً للترجيح بغير مرجح إذ لو ترجح الفعل منها بمرجح لزم عدم الاختيار بعين ما ذكرتم إذ الحكم بالمرجح لازم . فان قيل لا يلزم الاضطرار وترك الاختيار لأن المرجح هو الإرادة والاختيار . قيل فهلا فتعتم بهذا الجواب منا وقتم إذا كان اختياره تعالى متعلقاً بالفعل لما فيه من المصلحة الداعية إلى فعله وشرعه وتحريمه له لما فيه من المفسدة الداعية إلى تحريمه والمنع منه فكان الحكم بالراجح فى الموضوعين متعلقاً باختياره تعالى وإرادته فانه الحكم فى خلقه وأمره فإذا علم فى الفعل مصلحة راجحة شرعية وأوجبه شرعه ووضعه وإذا علم فيه مفسدة راجحة كرهه وأبغضه وحرمه هذا فى شرعه وكذلك فى خلقه لم يفعل شيئاً إلا ومصلحته راجحة وحكمته ظاهرة واشتاله على المصلحة والحكمة التى فعله لأجلها لا ينافى اختياره بل لا يتعلق بالفعل إلا لما فيه من المصلحة والحكمة وكذلك تركه لما فيه من خلاف حكمته فلا يلزم من تعلق الحكمة بالراجح أن لا يكون الحكم اختيارياً فإن المختار الذى هو أحكام الحاكمين لا يختار إلا ما يكون على وفق الحكمة والمصلحة . الثالث أن قوله إذا لزم تعلق الحكم بالراجح لم يكن مختاراً تلبس فإنه إنما تعلق بالراجح باختياره وإرادته واختياره وإرادته اقتضت تعلقه بالراجح على وجه اللزوم فكيف لا يكون مختاراً واختياره استلزم تعلق الحكم بالراجح . الرابع إن تعلق حكمه تعالى بالفعل المأمور به أو المنهى عنه إيماناً يكون جائز الوجود والعدم أو راجح الوجود أو راجح العدم فان كان جائز الطرفين لم يترجح أحدهما إلا بمرجح وإن كان راجحاً فالتعلق لازم لأن الحكم

يتمتع ثبوته مع المساواة ومع المرجوحية . أما الأول فلاستلزامه الترجيح بلا مرجح . وأما الثاني فلاستلزامه ترجيح المرجوح وهو باطل بصريح العقل فلا يثبت إلا مع المرجح التام .
وحيث أن فيازله عدم الاختيار وما يجيبون به عن الإلزام المذكور هو جوابكم بعينه عن شبهتكم التي استدلتتم بها . الخامس أن هذه الشبهة الفاسدة مستلزما لأحد الأمرين ولا بد اما الترجيح بلا مرجح وإما أن لا يكون الباري تعالى مختارا كما قررتم وكلاهما باطل . السادس أنها تقتضى أن لا يكون في الوجود قادر مختار إلا من يرجح أحد المتساويين على الآخر بلا مرجح وأما من رجح أحد الجانبين بمرجح فلا يكون مختارا وهذا من أبطل الباطل بل القادر المختار لا يرجح أحد مقدره على الآخر إلا بمرجح وهو معلوم بالضرورة ، واحتج النفاة أيضا بقوله تعالى ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ ووجه الاحتجاج بالآية أنه سبحانه نفى التعذيب قبل بعثة الرسل فلو كان حسن الفعل وقبحه ثابتا له قبل الشرع لكان مرتكب القبح وتارك الحسن فاعلا للحرام وتاركا للموجب لأن قبحه عقلا يقتضى تحريمه عقلا عندكم وحسنه عقلا يقتضى وجوبه عقلا فإذا فعل المحرم وترك الواجب استحق العذاب عندكم والقرآن نص صريح أن الله لا يعذب بدون بعثة الرسل . فهذا تقرير الاستدلال احتجاجا والتزاما ولا ريب أن الآية حجة على تناقض المثبتين إذا ثبتوا التعذيب قبل البعثة فيازم تناقضهم وابطال جمعهم بين هذين الحكمين اثبات الحسن والقبح عقلا واثبات التعذيب على ذلك بدون البعثة وليس لإبطال القول بجموع الأمرين موجبا لإبطال كل واحد منهما فلعل الباطل هو قولهم بجواز التعذيب قبل البعثة وهذا هو المتعين لأنه خلاف نص القرآن وخلاف صريح العقل أيضا فإن الله سبحانه إنما أقام الحجة على العباد برسله قال تعالى (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) فهذا صريح بأن الحجة إنما قامت بالرسل وأنه بعد مجيئهم لا يكون للناس على الله حجة وهذا يدل على أنه لا يعذبهم قبل مجيء الرسل اليهم لأن الحجة حينئذ لم تقم عليهم فالصواب في المسئلة اثبات الحسن والقبح عقلا ونفى التعذيب على ذلك إلا بعد بعثة الرسل فالحسن والقبح العقلي لا يستلزم التعذيب وإنما يستلزمه مخالفة المرسلين ، وأما المعتزلة فقد أجابوا عن ذلك بأن قالوا الحسن والقبح العقلي يقتضى استحقاق العقاب على فعل القبيح وترك الحسن ولا يلزم من استحقاق العقاب وقوعه لجواز العفو عنه قالوا ولا يرد هذا علينا حيث تمنع العفو بعد البعثة إذا أوعد الرب على الفعل لأن العذاب قد صار واجبا بجزئه ومستحقا بارتكابه القبيح وهو سبحانه لم يحصل منه إبعاد قبل البعثة فلا يقبح العفو لأنه لا يستلزم خلفا في الخبر وإنما غاية ترك حق له قد وجب قبل البعثة وهذا حسن والتحقيق في هذا أن سبب العقاب قائم قبل البعثة ولكن لا يلزم من وجود سبب العذاب حصوله لأن هذا السبب قد نصب الله تعالى له شرطا وهو بعثة الرسل وانتفاء التعذيب قبل البعثة هو لا انتفاء شرطه لعدم

سببه ومقتضيه وهذا فصل الخطاب في هذا المتمام وبه يزول كل إشكال في المسئلة وينقشع غيمها ويسفر صبحها والله الموفق للصواب . واحتج بعضهم أيضا بأن قال لو كان الفعل حسنا لذاته لامتنع الشارع من نسخه قبل إيقاع المكلف له وقبل تمكنه منه لانه إذا كان حسنا لذاته فهو منشأ للمصلحة الراجحة فكيف ينسخ ولم تحصل منه تلك المصلحة . وأجاب المعتزلة عن هذا بالترامه ومنعوا النسخ قبل وقت الفعل ونازعهم جمهور هذه الأمة في هذا الأصل وجوزوا وقوع النسخ قبل حضور وقت الفعل ثم انقسموا قسمين فنفاة التحسين والتقييح بنوه على أصلهم ومثبتو التحسين والتقييح أجابوا عن ذلك بأن المصلحة كما تنشأ من الفعل فإنها أيضا قد تنشأ من العزم عليه وتوطين النفس على الامتثال وتكون المصلحة المطلوبة هي العزم وتوطين النفس لا إيقاع الفعل في الخارج فإذا أصر المكلف بأمر فعزم عليه وتبأ له ووطن نفسه على امتثاله فحصلت المصلحة المرادة منه لم يمتنع نسخ الفعل وإن لم يوقعه لانه لا مصلحة له فيه وهذا كما مر إبراهيم الخليل بذيخ ولده فإن المصلحة لم تكن في ذبحه وإنما كانت في استسلام الوالد والولد لأمر الله وعزمهما عليه وتوطينهما أنفسهما على امتثاله فلما حصلت هذه المصلحة بقي الذبح مفسدة في حقهما فنسخه الله ورفعوه وهذا هو الجواب الحق الشافي في المسئلة وبه تبيين الحكمة الباهرة في اثبات ما أثبتته الله من الأحكام ونسخ ما نسخه منها بعد وقوعه ونسخ ما نسخ منها قبل إيقاعه وإن له في ذلك كله من الحكم البالغة ما تشهد له بأنه أحكم الحاكمين وإنه اللطيف الخبير الذي بهرت حكمته العقول فتبارك الله رب العالمين . وبما احتج به النفاة أيضا أنه لو حسن الفعل أو قبح لغير الطلب لم يكن تعلق الطلب لنفسه لتوقفه على أمر زائد . وتقرير هذه الحجة ان حسن الفعل وقبحه لا يجوز أن يكون لغير نفس الطلب بل لا معنى لحسنه إلا لكونه مطلوبا للشارع لإيجاده ولا لقبحه إلا لكونه مطلوبا له لإعدامه لانه لو حسن وقبح لمعنى غير الطلب الشرعى لم يكن الطلب متعلقا بالمطلوب لنفسه بل كان التعلق لأجل ذلك المعنى فيتوقف الطلب على حصول الاعتبار الزائد على الفعل وهذا باطل لأن التعلق نسبة بين الطلب والفعل والنسبة بين الأمرين لا تتوقف إلا على حصولهما فإذا حصل الفعل تعلق الطلب به سواء حصل فيه اعتبار زائد على ذاته أولا . فإن قلتم الطلب وإن لم يتوقف إلا على الفعل المطلوب والماعل المطلوب منه لكن تعلقه بالفعل متوقف على جهة الحسن والقبح المقتضى لتعلق الطلب به . قلنا الطلب قديم والجهة الموجبة للحسن والقبح حادثة ولا يصح توقف القديم على الحادث وسر الدليل أن تعلق الطلب بالفعل ذاتي فلا يجوز أن يكون معللا بأمر زائد على الفعل إذ لو كان تعلقه به معللا لم يكن ذاتيا وهذا وجه تقرير هذه الشبهة وان كان كثير من شراح المختصر لم يفهموا تقريرها على هذا الوجه فقرروها على وجه

آخر لا يفيد شيئاً وبعد فهمي شبهة فاسدة من وجوه : أحدها أن يقال ما تعنون بأن تتعلق
الطلب بالفعل ذاتي له أتعنون به ان التعلق مقوم لماهية الطلب وان تقوم الماهية به كتقومها
بجنسها وفصلها أم تعنون به انه لا تعقل ماهية الطلب الا بالتعلق المذكور أم أمراً آخر فإن
عنيتم الأول والتعلق نسبة اضافية وهي عدمية عندكم لا وجود لها في الأعيان فكيف
تكون النسبة العدمية مقومة للماهية الوجودية وأتم تقولون انه ليس لتعلق الطلب من الطلب
صفة ثبوتية لأن هذا هو الكلام النفسى وليس لتعلق القول فيه صفة ثبوتية وان عنيتم الثانى
فلا يلزم من ذلك توقف الطلب على اعتبار زائد على الفعل يكون ذلك الاعتبار شرطاً فى الطلب
وان عنيتم أمراً ثالثاً فلا بد من بيانه وعلى تقدير بيانه فإنه لا ينافى توقف التعلق على الشرط
المذكور . الثانى ان غاية ما قررتموه ان التعلق ذاتى للطلب والذاتى لا يعمل كما ادعيتموه
فى المنطق دعوى مجردة ولم تقرروه ولم تبيّنوا ما معنى كونه غير معلل حتى ظن بعض المقلدين
من المنطقيين ان معناه ثبوتية الذات لنفسه بغير واسطة وهذا فى غاية الفساد لا يقوله من
يدرى ما يقول وإنما معناه انه لا تحتاج الذات فى اتصافها به الى علة مغايرة لعله وجودها
بل علة وجودها هى علة اتصاف الذات فهذا معنى كونه غير معلل بعلة خارجية عن علة الذات
بل علة الذات علة وليس هذا موضع استقصاء الكلام على ذلك والمقصود أن كون التعلق
ذاتياً للطلب فلا يعمل بغير علة الطلب لا ينافى توقفه على شرط فبب أن صفة الفعل لا تكون
علة للتعلق فما المانع أن تكون شرطاً له ويكون تعلق الطلب بالفعل مشروطاً بكونه على
الجهة المذكورة فإذا انتفت تلك الجهة انتفى التعلق لانتهاء شرطه وهذا بما لم يتعرضوا لبطلانه
أصلاً ولا سبيل لكم إلى ابطاله . الثالث إن قولك الطلب قديم والجهة المذكورة حادثة
للفعل ولا يصح توقف القديم على الحادث كلام فى غاية البطلان فإن الفعل المطلوب حادث
والطلب متوقف عليه إذ لا تتصور ماهية الطلب بدون المطلوب فما كان جوابكم عن توقف
الطلب على الفعل الحادث فهو جوابنا عن توقفه على جهة الفعل الحادثة فإن جهته لا تزيد عليه
بل هى صفة من صفاته فان قلتم التوقف ها هنا إنما هو لتعلق الطلب بالمطلوب لا لنفس الطلب
ولا تجدون محذوراً فى توقف التعلق لأنه حادث . قلنا فهلا قنعتم بهذا الجواب فى صفة الفعل
وقلتم التوقف على الجهة المذكورة هو توقف التعاق لا توقف نفس الطلب فنسبة التعلق إلى
جهة الفعل كنسبته إلى ذاته ونسبة الطلب إلى الجهة كنسبته إلى نفس الفعل سواء بسواء
فنسبة القديم إلى أحد الحادثين كنسبته إلى الآخر ونسبة تعلقه بأحد الحادثين كنسبة تعلقه
بالآخر فتبين فسادا الدليل المذكور وحسبك بمذهب فسادا استلزامه جواز ظهور المعجزة على
يد الكاذب وإنه ليس بقبيح واستلزامه جواز نسبة الكذب إلى أصدق

الصادقين وإنه لا يقبح منه واستزامه التسوية بين التثليث والتوحيد في العقل وإنه قبل ورود النبوة لا يقبح التثليث ولا عبادة الأصنام ولا مسبة المعبود ولا شيء من أنواع الكفر ولا السعي في الأرض بالفساد ولا تقييح شيء من القبائح أصلاً وقد التزم النفاة ذلك وقالوا أن هذه الأشياء لم تقيح عقلاً وإنما جمة قبحها السمع فقط وأنه لا فرق قبل السمع بين ذكر الله والثناء عليه وحمده وبين ضد ذلك ولا بين شكره بما يقدر عليه العبد وبين ضده ولا بين الصدق والكذب والعفة والفجور والإحسان إلى العالم والاساءة لإلهم بوجه ما وإنما التفريق بالشرع بين متماثلين من كل وجه وقد كان تصور هذا المذهب على حقيقته كافياً في العلم ببطلانه وأن لا يتكلف رده ولهذا رغب عنه فحول الفقهاء والنظار من الطوائف كلهم فأطبق أصحاب أبي حنيفة على خلافه وحكوه عن أبي حنيفة نصاً واختاره من أصحاب أحمد أبو الخطاب وابن عقيل وأبو يحيى الصغير ولم يقل أحد من متقدمهم بخلافه ولا يمكن أن يتقل عنهم حرف واحد موافق للنفاة واختاره من أئمة الشافعية الإمام أبو بكر محمد بن علي بن إسماعيل القفال الكبير وبالغ في إثباته وبني كتابه محاسن الشريعة عليه وأحسن فيه ماشاء وكذلك الإمام سعيد بن عني الزنجاني بالغ في إنكاره على أبي الحسن الأشعري القول بنفي التحسين والتقييح وأنه لم يسبقه إليه أحد وكذلك أبو القاسم الراغب وكذلك أبو عبد الله الحلي وخلائق لا يحصون وكل من تكلم في علل الشرع ومحاسنه وما تضمنه من المصالح ودرء المفاسد فلا يمكنه ذلك إلا بتقرير الحسن والقيح العقليين إذ لو كان حسنه وقبحه بمجرد الأمر والنهي لم يتعرض في إثبات ذلك لغير الأمر والنهي فقط وعلى تصحيح ذلك فالكلام في القياس وتعليق الأحكام بالأوصاف المناسبة المقترضة لها دون الأوصاف الطردية التي لا مناسبة فيها فيجعل الأول ضابطاً للحكم دون الثاني لا يمكن إلا على إثبات هذا الأصل فلو تساوت الأوصاف في أنفسها لانسد باب القياس والمناسبات والتعليل بالحكم والمصالح ومراعات الأوصاف المؤثرة دون الأوصاف التي لا تأثير لها.

فصل

وإذ قد اتهمنا في هذه المسئلة إلى هذا الموضع وهو بحرهما ومعظمها فلنذكر سرها وغايتها وأصولها التي أثبتت عليها فبذلك تتم الفائدة فإن كثيراً من الأصوليين ذكروها مجردة ولم يتعرضوا لسرها وأصلها الذي أثبتت عليه وللمسئلة ثلاثة أصول هي أساسها . الأصل الأول هل أفعال الرب تعالى وأوامره معللة بالحكم والغايات وهذه من أجل مسائل التوحيد المتعلقة بالخلق والأمر بالشرع والقدر . الأصل الثاني أن تلك الحكم المقصودة فعل يقوم به سبحانه

وتعالى قيام الصفة به فيرجع إليه حكمها ويشق له إسمها أم يرجع إلى المخلوق فقط من غير أن يعود إلى الرب منها حكم أو يشق له منها إسم . الأصل الثالث هل تعلق إرادة الرب تعالى بجميع الأفعال تعلق واحد فما وجد منها فهو مرادله محبوب مرضى طاعة كان أو معصية وما لم يوجد منها فهو مكروه له مبهوض غير مراد طاعة كان أو معصية فهو يجب الأفعال الحسنة التي هي منشأ المصالح وإن لم يشأ تكوينها وإيجادها لأن في مشيئته لإيجادها فوات حكمة أخرى هي أحب إليه منها وببغض الأفعال القبيحة التي هي منشأ المفاسد ويمنعها ويمقت أهلها وإن شاء تكوينها وإيجادها لما تستلزمه من حكمة ومصلحة هي أحب إليه منها . ولا بد من توسط هذه الأفعال في وجودها فهذه الأصول الثلاثة عليها مدار هذه المسئلة ومسائل القدر والشرع . وقد اختلف الناس فيها قديماً وحديثاً إلى اليوم فالجبرية تنفي الأصول الثلاثة وعندهم أن الله لا يفعل لحكمة ولا يأمر لها ولا يدخل في أمره وخلقه لام التعليل بوجه وإنما هي لام العاقبة كما لا يدخل في أفعاله باء السببية وإنما هي باء المصاحبة ومنهم من يثبت الأصل الثالث وينفي الأصلين الأولين كما هو أحد القولين الأشعري وقول كثير من أئمة أصحابه وأحد القولين لأبي المعالي والمشهور من مذهب المعتزلة إثبات الأصل الأول وهو التعليل بالحكم والمصالح ونفي الثاني بناء على قواعدهم الفاسدة في نفي الصفات . فأما الأصل الثالث فهم فيه ضد الجبرية من كل وجه فهما طرفا تقيض فإنهم لا يثبتون لأفعال العباد سوى المحبة لحسنها والبغض لقبحها وأما المشيئة لها فعندهم أن مشيئة الله لاتتعلق بها بناء منهم على نفي خلق أفعال العباد فليست عندهم إرادة الله لها إلا بمعنى محبته لحسنها فقط وأما قبيحها فليس مراد الله بوجه وأما الجبرية فعندهم أنه لم يتعلق بها سوى المشيئة والإرادة وأما المحبة عندهم فهي نفس الإرادة والمشيئة فما شاء فقد أحبه ورضيه . وأما أصحاب القول الوسط وهم أهل التحقيق من الأصوليين والفقهاء والمتكلمين فيثبتون الأصول الثلاثة فيثبتون الحكمة المقصودة بالفعل في أفعاله تعالى وأوامره ويعملونها عائدة إليه حكماً ومشتقاً له إسمها فالمعاصي كلها مقوته مكروهة وإن وقعت بمشيئته وخلقه والطاعات كلها محبوبة له مرضية وإن لم يشأها بمن لم يطعه ومن وجدت منه فقد تعلق بها المشيئة والحب فما لم يوجد من أنواع المعاصي فلم تتعلق به مشيئته ولا محبته وما وجد منها تعلقت به مشيئته دون محبته وما لم يوجد من الطاعات المقدرة تعلق بها محبته دون مشيئته وما وجد منها تعلق به محبته ومشئته ومن لم يحكم هذه الأصول الثلاثة لم يستقر له في مسائل الحكم والتعالم والتحسين والتقييح قدم بل لا بد من تناقضه ويتسلط عليه خصومه من جهة نفيه لواحد منها ولهذا لما رأى القدرية والجبرية أنهم لو سلموا للمعتزلة شيئاً من هذه تسلطوا عليهم به سدوا على أنفسهم الباب

بالسكينة وأنكروها جملة فلا حكمة عندهم ولا تعليل ولا محبة تزيد على المشيئة ولما أنكر المعتزلة رجوع الحكمة إليه تعالى سلطوا عليهم خصومهم فأبدوا تناقضهم وكشفوا عوراتهم ولما سلك أهل السنة القول الوسط وتوسطوا بين الفريقين لم يطمع أحد في مناقضتهم ولا في إفساد قولهم وأنت إذا تأملت حجج الطائفتين وما أزمته كل منهما للأخرى علمت أن من سلك القول الوسط لم يلزمه شيء من إزاماتهم ولا تناقضهم والحمد لله رب العالمين هادي من يشاء إلى صراط مستقيم .

فصل

وقد سلم كثير من النفاة أن كون الفعل حسناً أو قبيحاً بمعنى الملاءمة والمنافرة والكمال والنقصان عقلي وقال نحن لانازعكم في الحسن والقبح بهذين الاعتبارين وإنما النزاع في إثباته عقلاً بمعنى كونه متعلق المدح والذم عاجلاً والثواب والعقاب آجلاً فعندنا لا مدخل للعقل في ذلك وإنما يعلم بالسمع المجرد قال هؤلاء ، فيطلق الحسن والقبح بمعنى الملاءمة والمنافرة وهو عقلي وبمعنى الكمال والنقصان وهو عقلي وبمعنى إستلزامه للثواب والعقاب وهو محل النزاع وهذا التفصيل لو أعطى حقه وألزمته لوازمه رفع النزاع وأعاد المسئلة إنفاقية وأن كون الفعل صفة كمال أو نقصان يستلزم إثبات تعلق الملاءمة والمنافرة لأن الكمال محبوب للعالم والنقص مبغوض له ولا معنى للملاءمة والمنافرة إلا الحب والبغض فإن الله سبحانه يحب الكامل من الأفعال والأقوال والأعمال ومحبهته لذلك بحسب كماله ويبغض الناقص منها ويمقته ومقته له بحسب نقصانه ولهذا أسلفنا أن من أصول المسئلة إثبات صفة الحب والبغض لله فتأمل كيف عادت المسئلة إليه وتوقفت عليه والله سبحانه يحب كل ما أمر به ويبغض كل ما نهى عنه ولا يسمى ذلك ملاءمة أو منافرة بل يطلق عليه الأسماء التي أطلقها على نفسه وأطلقها عليه رسوله من محبهته للفعل الحسن المأمور به وبغضه للفعل القبيح ومقته له وماذا إلا الكمال الأول ونقصان الثاني فإذا كان الفعل مستلزماً للكمال والنقصان واستلزامه له عقلي والكمال والنقصان يستلزم الحب والبغض الذي سميتوه ملاءمة ومنافرة واستلزامه عقلي فبيان كون الفعل حسناً كاملاً محبوباً مرضياً وكونه قبيحاً ناقصاً مسخوطاً مبغوضاً أمر عقلي بقى حديث المدح والذم والثواب والعقاب ومن أحاط علماً بما أسلفناه في ذلك انكشفت له المسئلة وأسفرت عن وجهها وزال عنها كل شبهة وإشكال فأما المدح والذم فترتبه على النقصان والكمال والمتصف به وذمهم لمؤثر النقص والمتصف به أمر عقلي فطرى وانكاره يزاحم المسكابرة وأما العقاب فقد قررنا أن ترتبه على فعل القبيح مشروط بالسمع وأنه إنما انتفى عند انتفاء السمع لانتفاء المشروط لانتفاء شرطه لا انتفائه لا انتفاء سببه فإن سببه قائم ومقتضيه موجود إلا أنه لم يتم انتوقفه على شرطه وعلى

هذا فكونه متعلقاً للثواب والعقاب والمدح والذم عقلي وإن كان وقوع العقاب موقوفاً على شرط وهو ورود السمع وهل يقال أن الإستحقاق ليس بتابت لأن ورود السمع شرط فيه هذا فيه طريقان للناس ولعل النزاع لفظي فإن أريد بالاستحقاق الإستحقاق التام فالحق نفيه وأن أريد به قيام السبب والتخلف لفوات شرط أو وجود مانع فالحق إثباته فعادت الأقسام الثلاثة أعنى الكمال والنقصان والملاءمة والمنافرة والمدح والذم إلى عرف واحد وهو كون الفعل محبوباً أو مبغوضاً ويلزم من كونه محبوباً أن يكون كمالاً وأن يستحق عليه المدح والثواب ومن كونه مبغوضاً أن يكون نقصاً يستحق به الذم والعقاب فظهر أن التزام لوازم هذا التفصيل وإعطائه حقة يرفع النزاع ويعيد المسئلة اتفافية ولكن أصول الطائفتين تأبى التزام ذلك فلا بد لهما من التناقص إذا طردوا أصولهم وأما من كان أصله إثبات الحكمة وانصاف الرب تعالى بها وإثبات الحب والبغض له وأنهما أمر وراه المشيئة العامة فأصول مستلزمة لفروعه وفروعه دالة على أصوله فأصوله وفروعه لا تتناقض وأدلتها لا تتمانع ولا تتعارض. قال النفاة لو قدر نفسه وقد خلق تام الخلقة كامل العقل دفعة واحدة من أن يتخلق بأخلاق قوم ولا تأدب بتأديب الأيوين ولا تربي في الشرع ولا تعلم من متعلم ثم عرض عليه أمران أحدهما الإثنين أكثر من الواحد والثاني أن الكذب قبيح بمعنى أنه يستحق من الله تعالى لوماً عليه لم نشك أنه لا يتوقف في الأول ويتوقف في الثاني ومن حكم بأن الأمرين سيان بالنسبة إلى عقله خرج عن قضايا العقول وعاند كعناد الفضول كيف ولو تقرر عنده أن الله تعالى لا يتضرر بكذب ولا ينتفع بصدق وأن القولين في حكم التكليف على وتيرة واحدة لم يمكنه أن يرد أحدهما دون الثاني بمجرد عقله . والذي يوضحه أن الصدق والكذب على حقيقة ذاتية لا تتحقق ذاتهما إلا بأركان تلك الحقيقة مثلاً كما يقال أن الصدق لإخبار عن أمر على ما هو عليه والكذب أخبار عن أمر على خلاف ما هو به ونحن نعلم أن من أدرك هذه الحقيقة عرف المحقق ولم يخطر بباله كونه حسناً أو قبيحاً فلم يدخل الحسن والقبح إذا في صفاتهما الذاتية التي تحققت حقيقتهما بها ولوازمها في الوهم بالبدئية كما بينا ولألزمها في الوجود ضرورة فإن من الأخبار التي هي صادقة ما يلام عليه من الدلالة على هرب من ظالم ومن الأخبار التي هي كاذبة ما يثاب عليها مثل انكار الدلالة عليه فلم يدخل كون الكذب قبيحاً في حد الكذب ولا لزمه في الوهم ولا لزمه في الوجود فلا يجوز أن يعد من الصفات الذاتية التي تلزم النفس وجوداً وعدمها عندهم ولا يجوز أن يعد من الصفات التابعة للحدوث فلا يعقل بالبدئية ولا بالنظر فإن النظر لا بد أن يرد إلى الضروري أي

البدهي وإذ لا بدهي فلا مرد له أصلا فلم يبق لهم إلا الاسترواح إلى عادات الناس من تسمية ما يضر بهم قبيحا وما ينفعهم حسنا ونحن لانذكر أمثال تلك الأسمى على أنها تختلف بعادة قوم وزمان ومكان دون مكان وإضافة دون إضافة وما يختلف بتلك النسب والإضافات للاحقيقة له في الذات فربما يستحسن قوم ذبح الحيوان وربما يستقبحه قوم وربما يكون بالنسبة إلى قوم وزمان حسنا وربما يكون قبيحا لكننا وضعنا الكلام في حكم التكليف بحيث يجب الحسن به وجوبا يثاب عليه قطعاً ولا يتطرق إليه لوم أصلاً ومثل هذا يمتنع إدراكه عقلاً . قالوا فهذه طريقة أهل الحق على أحسن ما نقرر وأحسن ما تحرر . قالوا وأيضاً فنحن لانذكر إشتهار حسن الفضائل التي ذكر ضربهم بها الأمثال وقبحها بين الخلق وكونها محمودة مشكورة مثني على فاعلها أو مذمومة مذمومة فاعلها ولكننا نثبتها إما بالشرائع وإما بالأغراض ونحن إنما نذكرها في حق الله عز وجل لانتفاء الأغراض عنه فأما إطلاق الناس هذه الألفاظ فيما يدور بينهم فيستمد من الأغراض ولكن قد تبدوا الأغراض وتختفي فلا ينتبه لها إلا المحققون . قالوا ونحن ننبه على مشاركات الغلط فيه وهي ثلاثة مشاركات يغلط الوهم فيها ، الأولى أن الإنسان يطلق لإسم القبيح على ما يخالف غرضه وإن كان يوافق غرض غيره من حيث أنه لا يلتفت إلى الغير فإن كل طبع مشغوف بنفسه ومستحقر لغيره فيقضي بالقبيح مطلقاً وربما يضيف القبيح إلى ذات الشيء ويقول هو في نفسه قبيح فقد قضى بثلاثة أمور هو مصيب في واحد منها وهو أصل الاستقباح مخطيء في أمرين أحدهما إضافة القبيح إلى ذاته وغفل عن كونه قبيحا لخالفه غرضه والثاني حكمه بالقبيح مطلقاً ومنشؤه عدم الالتفات إلى غيره بل عن الالتفات إلى بعض أحوال نفسه فإنه قد يستحسن في بعض الأحوال عين ما يستقبحه إذا اختلف الغرض . الغلطة الثانية سبها أن الوهم غالب للعقل في جميع الأحوال إلا في حالة نادرة قد لا يلتفت الوهم إلى تلك الحالة النادرة عند ذكرها كحكمه على الكذب بأنه قبيح مطلقاً وغفلته عن الكذب الذي يستفاد منه عصمة نبي أو ولي وإذا قضى بالقبيح مطلقاً واستمر عليه مرة وتكرر ذلك على سمعه ولسانه أنغرس في قلبه استقباحه والنفرة منه فلو وقعت تلك الحالة النادرة وجد في نفسه نفرة عنه لطول نشوه على الاستقباح فانه ألقي إليه منذ الصبا على سبيل التأديب والإرشاد أن الكذب قبيح لا ينبغي أن يقدم عليه أحد ولا ينبغي على حسنه في بعض الأحوال خيفة من أن لا تستحكم نفرة عن الكذب فيقدم عليه وهو قبيح في أكثر الأحوال والسباع في الصغر كالنقش في الحجر وينغرس في النفس ويجد التصديق به مطلقاً وهو صدق لكن لا على الإطلاق بل في أكثر الأحوال اعتمده مطلقاً . الغلطة الثالثة سبها سبق الوهم إلى العكس فان من رأى شيئاً مقروناً بشيء يظن أن الشيء لا محالة مقرون به مطلقاً ولا يدري أن الأخص أبداً مقرون بالأعم والأعم لا يلزم

أن يكون مقرونا بالأخص ومثاله نفرة نفس الذى نهشته الحمية عن الحبل المرقش اللون لأنه وجد الأذى مقرونا بهذه الصورة فتوهم أن هذه الصورة مقرونة بالأذى وكذلك ينفر عن العسل إذا شمه بالعذرة لأنه وجد الاستقذار مقرونا بالرطب الأصفر فتوهم أن الرطب الأصفر يقترن به الاستقذار وقد يغلب عليه الوهم حتى يتعذر الأكل وإن كان حكم العقل يكذب الوهم ولكن خلقت قوى النفس مطيعة للأوهام وإن كانت كاذبة حتى إن الطبع ينفر عن حسناء سميت باسم اليهود إذ وجد الإسم مقرونا بالقيح فظن أن القيح أيضا يلزم الإسم ولهذا يورد على بعض العوام مسألة عقلية جلية فيجبها فإذا قلت هذا مذهب الأشعري أو المعتزلى أو الظاهري أو غيره نفر عنه إن كان سىء الاعتقاد فيمن نسبتها إليه وليس هذا طبع العامى بل طبع أكثر العقلاء المتوسمين بالعلم إلا العلماء الراسخين الذين أراهم الله الحق حقا وقواهم على إتباعه وأكثر الخلق ترى نفوسهم مطيعة للأوهام الكاذبة مع علمهم بكذبها وأكثر اقدام الخلق وإحجامهم بسبب هذه الأوهام فإن الوهم عظيم الاستيلاء وكذلك ينفر طبع الإنسان عن الميتة في بيت فيه ميتة مع قطعه بأنه لا يتحرك ولكنه يتوهم في كل ساعة حركته ونطقه قالوا فإذا انتهت لهذه المشارات عرفت بها سر القضايا التى تستحسنها العقول وسر استحسانها إياها والقضايا التى تستقبحها العقول وسر استقباحتها لها ولنضرب لذلك مثلين وهما مما يحتج بهما علينا أهل الإثبات . المثل الأول الملك العظيم المستولى على الأقاليم إذا رأى أى ضعيفا مشرفا على الهلاك فإنه يميل إلى إنقاذه ويستحسنه وإن كان لا يعتقد أصل الدين اينظر ثوبا أو مجازاة ولا سجا إذا لم يعرفه المسكين ولم يره بأن كان أعمى أصم لا يسمع الصوت وإن كان لا يوافق ذلك غرضه بل ربما يتعب به بل يحكم العقلاء بحسن الصبر على السيف إذا أكره على كلمة الكفر أو على إفشاء السر ونقض العهد وهو على خلاف غرض الكفرة وعلى الجملة فاستحسن مكارم الأخلاق وإفاضة النعم لا ينكره إلا من عاند المثل الثانى العاقل إذا سئمت له حاجة وأمكن قضاؤها بالصدق كما يمكن بالكذب بحيث تساوى فى حصول الغرض منهما كل التساوى فإنه يؤثر الصدق ويختاره ويميل إليه طبعه وما ذلك إلا حسنه فلو لأن الكذب على صفة يجب عنده الاحتراز عنه والامتناع من الصدق عنه قالوا وهذا الغرض واضح فى حق من أنكر الشرائع وفى حق من لم تبلغه الدعوة حتى لا يلزمونا كون الترجيح بالتكليف فهذا من حججهم ونحن نجيب عن ذلك فنبين أنه لا يثبت حكم على هذين المثلين فنقول اما قضية إنقاذ الملك وحسنه حتى فى حق من لم تبلغه الدعوة وأنكر الشرائع فسببه دفع الأذى الذى يلحق الإنسان من رقة القلب وهو طبع يستحيل الانفكاك عنه وذلك لأن الإنسان يقدر نفسه فى تلك البلية ويقدر غيره معرضا عن الإنقاذ فيستقبحه منه لخالفه غرضه فيعود ويقدر ذلك الاستقباح من المشرف على الهلاك فى حق نفسه فيدفع عن نفسه ذلك القبح

المتوهم فان فرض في بهيمة أو شخص لارقة فيه يفيد تصويره لو تصويره فيبقى أمر آخر وهو طلب الثناء على إحسانه فان فرض بحيث لا يعلم أنه المنتقد فيتوقع أن يعلم فيكون ذلك التوقع باعثا فان فرض في موضع يستحيل أن يعلم فيبقى ميل وترجيح بضاهي نفرة طبع السليم عن الحبل وذلك أنه رأى هذه الصورة مقرونة بالثناء فيظن أن الثناء مقرون بها بكل حال كما أنه لما رأى الأذى مقرونا بصورة الحبل فطبعه ينفر عن الأذى فينفر عن المقرون به فالمقرون بالليذ لذيد والمقرون بالمكروه مكروه بل الإنسان إذا جالس من عشقه في مكان فاذا انتهى إليه أحس في نفسه ذلك المكان من غيره قال الشاعر

أمر على الديار ديار ليلي أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

وقال ابن الرومي منها على سبب حب الأوطان

وحب أوطان الرجال إليهم مآرب قضاهما الشباب هنا
إذا ذكروا أوطانهم ذكروا عهودا جرت فيها فحنوا لذلك

قالوا وشواهد ذلك مما يكثر وكل ذلك من حكم الوهم قالوا وأما الصبر على السيف في تركه كلمة الكفر مع طمأنينة النفس فلا يستحسنه جميع العقلاء لولا الشرع بل ربما استبحوه فإنما يستحسنه من ينتظر الثواب على الصبر أو من ينتظر الثناء عليه بالشجاعة والصلابة في الدين فكمن شجاع ركب متن الخطر وهجم على عدد وهو يعلم أنه لا يطيقهم ويستحق ما يناله من الألم لما يعترضه من توهم الثناء والحمد ولو بعد موته وكذلك إخفاء السر وحفظ العهد إنما يتوصى الناس بهما لما فيهما من المصالح ولذلك أكثروا الثناء عليهما فن يحتمل الضرر لانه فانما يحتمله لأجل الثناء فان فرض من لا يستولى عليه هذا الوهم ولا ينتظر الثناء والثواب فهو يستجيب التبعي في هلاك نفسه بغير فائدة ويستحق من يفعل ذلك قطعا فن يسلم أن مثل ذلك يؤثر الهلاك على الحياة قالوا وهذا هو الجواب عن عرض له حاجة وأمكن قضاؤها بالصدق والكذب واستويا عنده وإيثاره الصدق على أنا نقول تقدير استواء الصدق والكذب في المقصود مع قطع النظر عن الغير تقدير مستحيل لأن الصدق والكذب متنافيان ومن المحال تساوي المتنافيين في جميع الصفات فلأجل ذلك التقدير المستحيل يستبعد العقل إثار الكذب ومنع إثار الصدق قالوا ولا يلزم من استبعاد منع إثار الصدق على التقدير المستحيل استبعاده في نفس الأمر وإنما يلزم لو كان التقدير المستلزم واقعا وهو ممنوع قالوا ولئن سلمنا أن ذلك التقدير ممكن فمآته أن يدل على حسن الصدق شاهدا ولكن لا

يلزم حسنه غائبا إلا بطريق قياس الغائب على الشاهد وهو فاسد لوضوح الفرق المانع من القياس والذي يقطع دابر القياس أن السيد لو رأى عبيده واماءه يمجج بعضهم في بعض ويركبون الظلم والفواحش وهو مطلع عليهم قادر على منعهم لقبح ذلك منه والله عز وجل قد فعل ذلك بعباده بل أعانهم وأمدهم ولم يقبح منه سبحانه ولا يصح قولهم أنه سبحانه تركهم لينزجروا بأنفسهم ليستحقوا الثواب لأنه سبحانه قد علم أنهم لا ينزجرون ولم لم يمنهم قهرا فكمن ممنوع من الفواحش لعله وعجز وذلك أحسن من تمكينه مع العلم بأنه لا ينزجر وبالجملة فقياس أفعال الله على أفعال العباد باطل قطعا ومحض التشبيه في الأفعال ولهذا جمعت المعتزلة القدرية بين التعطيل في الصفات والتشبيه في الأفعال فهم معطلة مشبهة لباسهم معلم من الطرفين كيف وأن انقاذ الغريق الذي استدلتهم به حجة عليكم فان نفس الإغراق والإهلاك يحسن منه سبحانه ولا يقبح وهو أقبح شيء منا فالإنقاذ إن كان حسناً فالإغراق يجب أن يكون قبيحا فان قلتم لعل في ضمن الإغراق والإهلاك سرا لم نطلع عليه وغرضا لم نصل إليه فقدروا مثله في ترك انقاذنا نحن للغرقى بل في اهلاكتنا لمن نهلكه والفعالان من حيث التكليف والإيجاب مستويان عقلا وشرعا فانه سبحانه لا يتضرر بمعصية العبد ولا ينتفع بطاعته ولا تتوقف قدرته في الإحسان إلى العبد على فعل يصدر من العبد بل كلما أنعم عليه ابتداء بأجزل المواهب وأفضل العطايا من حسن الصورة وكال الخلقة وقوام البنية واعداد الآلة وإتمام الأداة وتمديد القامة ومامتته به من روح الحياة وفضله به من حياة الأرواح وما أكرمه به من قبول العلم وهداه إلى معرفته التي هي أسنى جوائزه (وأن تعدوا نعمه الله لا تحصوها) فهو سبحانه أقدر على الإنعام عليه دواما فكيف يوجب على العبيد عبادة شاقة في الحال لارتقاب ثواب في ثانی الحال أليس لو ألقى إليه زمام الاختيار حتى يفعل ما يشاء جريا على سوق طبعه المائل إلى لذىذ الشهوات ثم أجزل له في العطاء من غير حساب كان ذلك أروح للعبد ولم يكن قبيحا عند العقل فقد تعارض الأمران : أحدهما أن يكلفهم فإمرا وينهى حتى يطاع ويعصى ثم يشيهم ويعاقبهم على فعلهم . الثاني أنه لا يكلفهم بأمر ولا ينهى إذ لا ينتفع سبحانه منهم بطاعة لا يتضرر منهم بمعصية كلا بل لا تكون نعمه ثوابا بل ابتداء وإذا تعارض في العقول هذان الأمران فكيف يهتدى العقل إلى اختيار أحدهما حقا وقطعا فكيف تعرفنا العقول وجوبا على النفس بالمعرفة وعلى الجوارح بالطاعة وعلى البارئ سبحانه بالثواب والعقاب . قالوا ولا سيما على أصول المعتزلة القدرية فان التكليف بالأمر والنهى والإيجاب من الله لا حقيقة له على أصلهم فانه لا يرجع إلى ذات الرب تعالى صفة يكون بها أمرا ناهيا موجبا مكلفا بالأمر والنهى للخلق ومعلوم أنه لا يرجع إلى ذاته من الخلق صفة (٤ - مفتاح ٢)

والعقل عندهم إنما يعرفه على هذه الصفة ويستحيل عندهم أن يعرفه بأنه يقتضى ويطلب منه شيئاً أو يأمره وينهاه بشيء كما يعقل الأمر والنهى بالطلب القائم بالأمر والنهى فإذا لم يقم به طلب استحالة أن يكون أمراً ناهياً فغاية العقل عندهم أن يعرفه على صفة يستحيل عليه الاتصاف بالأمر والنهى فكيف يعرفه على صفة يريد منه طاعة فيستحق عليها ثواباً أو يكره منه معصية يستحق عليها عقاباً وإذ لا أمر ولا نهى يعقل فلا طاعة ولا معصية إذ هما فرع الأمر والنهى فلا ثواب ولا عقاب إذ هما فرع الطاعة والمعصية وغاية ما يقولون إنه يحتلئ في الهواء أو في بحر أفعال أو لا تفعل بشرط أن لا يدل الأمر والنهى المخلوق على صفة في ذاته غير كونه عالماً قادراً ومعلوم أن هذا لا يدل إلا على كون الفاعل قادراً عالماً حياً مريداً لفعله وأما دلالة على حقيقة الأمر والنهى المستلزمة للطاعة والمعصية المستلزمين للثواب والعقاب فلا نعرف من ذلك أن من نفي قيام الكلام والأمر والنهى بذات الله لم يمكنه إثبات التكليف على العبد أبداً ولا إثبات حكم للفعل بحسن ولا قبح وفي ذلك إبطال الشرائع جملة مع استنادها إلى قول من قامت البراهين على صدقه ودلت المعجزة على نبوته فضلاً عن الأحكام العقلية المتعارضة المستندة إلى عادات الناس المختلفة بالإضافة والنسب والأزمنة والامكنة والأقوال وقد عرف بهذا أن من نفي قول الله وكلامه فقد نفي التكليف جملة وصار من أخبث القدرية وشرهم مقالة حيث أثبت تسكيفا وإيجاباً وتحريماً بلا أمر ولا نهى ولا اقتضاء ولا طلب وهذه مقدرته في حق الرب تعالى وأثبت فعلاً وطاعة ومعصية بلا فاعل ولا محدث وهذه مقدرته في حق العبد فليتنبه لهذه الثلاثة . قالوا وأيضاً فما من معنى يستبط من قول أو فعل ليربط به حكم مناسب له إلا ومن جنسه في العقل أمر آخر يعارضه يساويه في الدرجة أو يفضل عليه في المرتبة فيتحير العقل في الاختيار إلى أن يرد شرع يختار أحدهما ويرجحه من تلقائه فيجب على العاقل اعتباره واختياره لترجيح الشرع له لا لرجحانه في نفسه ونضرب لذلك مثالا فنقول إذا قتل إنسان مثله عرض للعقل الصريح هاهنا آراء متعارضة . مختلفة منها أنه يجب أن يقتل قصاصاً ردعاً للجنة وزجراً للطغاة وحفظاً للحياة وشفاءً للغيظ وتبريداً لحر المصيبة اللاحقة لأولياء القتيل ويعارضه معنى آخر أنه إن تلافى بازاء إتلاف وعدوان في مقابلة عدوان ولا يحيا الأول بقتل الثاني ففيه تكثير المفسدة بإعدام النفسين وأما مصلحة الردع والزجر واستبقاء النوع فأمر متوهم وفي القصاص استهلاك محقق فقد تعارض الأمران وربما يعارضه أيضاً معنى ثالث وراهما فيفكر العقل أيراعى شرائط أخر وراء مجرد الإنسانية من العقل والبلوغ والعلم والجهل والكمال والنقص والقراة والأجنبية أو لا فيتحير العقل كل التحير فلا بد إذا من شارح يفصل هذه الحطة ويقرر قانوناً يطرد عليه أمر الأمة وتستقيم عليه مصالحهم .

وظهر بهذا أن المعاني المستنبطة إذا كانت راجعة إلى مجرد استنباط العقل فيلزم من ذلك أن تكون الحركة الواحدة مشتملة على صفات متناقضة وأحوال متناقضة وليس معنى قولنا أن العقل استنبط منها أنها كانت موجودة في الشيء فاستخرجها العقل بل العقل تردد بين إضافات الاحوال بعضها إلى بعض ونسب الأشخاص والحركات نوعا إلى نوع وشخصا إلى شخص فيطرأ عليه من تلك المعاني ما حكيناه وأحصيناه وربما يبلغ مبالغا يشذ عن الإحصاء فعرف بذلك أن المعاني لم ترجع إلى الذات بل إلى مجرد الخواطر الطارئة على الأصل وهي متعارضة . قالوا وأيضا لو ثبت الحسن والقبح العقليان لتعلق بهما الإيجاب والتحرير شاهدا وغائبا على العبد والرب واللازم محال فاللزوم كذلك . أما الملازمة فقد كفاونا أدل الإثبات تقريرها بالالتزامم أنه يجب على العبد عقلا بعض الأفعال الحسنة ويحرم عليه القبيح ويستحق الثواب والعقاب على ذلك وأنه يجب على الرب تعالى فعل الحسن ورعاية الصلاح والأصلح ويحرم عليه فعل القبيح والشر وما لا فائدة فيه كالعبث ووضعوا بمقوله شريعة أوجبوا بها على الرب تعالى وحرموا عليه وهذا عندهم ثمرة المسئلة وفائدتها وأما انتفاء اللازم فإن الوجوب والتحرير بدون الشرع ممتنع إذ لو ثبت بدونه لقامت الحججة بدون الرسل والله سبحانه إنما أثبت الحججة بالرسل خاصة . كما قال تعالى (إنما يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) وأيضا فلو ثبت بدون الشرع لا يستحق الثواب والعقاب عليه وقد نفي الله سبحانه العقاب قبل البعثه . فقال (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) . وقال تعالى (وهم يصطرون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير) فإنما احتج عليهم بالنذير . وقال تعالى (ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ما كنتم لقد جئناكم بالحق وإنما كنتم للاحق كارهون) والحق هاهنا هو ما بعث به المرسلون باتفاق المفسرين . وقال تعالى (كلما أتق فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير) . وقال تعالى (ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين) فلا يسألهم تبارك وتعالى عن موجبات عقولهم بل عما أجاؤا به رسله فعليه يقع الثواب والعقاب . وقال تعالى (ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لسكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم) فاحتج عليهم تبارك وتعالى بما عهده إليهم على السنة رسله خاصة فإن عهده هو أمره ونهيه الذي بلغته رسله . وقال تعالى (وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) . فهذا في حكم الوجوب والتحرير على العباد قبل البعثه . وأما انتفاء الوجوب والتحرير على من له الخلق والأمر ولا يسأل عما يفعل فمن وجوه متعددة . أحدها أن الوجوب والتحرير في حقه سبحانه غير

معقول على الإطلاق وكيف يعلم أنه سبحانه يجب عليه أن يمدح ويذم ويشيب ويعاقب على الفعل بمجرد العقل وهل ذلك إلا مغيب عنا فمعرفة أنه رضى عن فاعل وسخط على فاعل وأنه يشيب هذا ويعاقب هذا ولم يخبر عنه بذلك مخبر صادق ولا دل على موافق رضاه وسخطه عقل ولا أخبر عن محكومته ومعلومه مخبر فلم يبق إلا قياس أفعاله على أفعال عباده وهو من أفسد القياس وأعظمه بطلانا فإنه تعالى كما أنه ليس كمثل شيء في ذاته ولا في صفاته فكذلك ليس كمثل شيء في أفعاله وكيف يقاس على خلقه في أفعاله فيحسن منه ما يحسن منهم ويقبح منه ما يقبح منهم ونحن نرى كثيراً من الأفعال تقيح منا وهي حسنة منه تعالى كإبلام الأطفال والحيوان وإهلاك من لو أهلكتنا ونحن لقبح منا من الأموال والأنفس وهو منه تعالى مستحسن غير مستقبح وقد سئل بعض العلماء عن ذلك فأشدد السائل

ويقبح من سواك الفعل عندي فتفعله فيحسن منك ذاكا

ونحن نرى ترك إتيان الغرق والهلكى قبيحاً منا وهو سبحانه إذا أقرهم وأهلكهم لم يكن قبيحاً منه ونرى ترك أحدنا عبده وإمامه يقتل بعضهم بعضاً ويسبهم بعضاً ويفسد بعضهم بعضاً وهو متمكن من منعهم قبيحاً وهو سبحانه قد ترك عباده كذلك وهو قادر على منعهم وهو منه حسن غير قبيح وإذا كان هذا شأنه سبحانه وشأننا فكيف يصح قياس أفعاله على أفعالنا فلا يدرك إذا للوجوب والتحرير عليه وجه كيف والإيجاب والتحرير يقتضى موجباً ومحرملاً أمراً ناهياً وبينه فرق وبين الذى يجب عليه ويحرم وهذا محال في حق الواحد القهار فالإيجاب والتحرير طلب للفعل والترك على سبيل الاستعلاء فكيف يتصور غائباً قالوا وأيضاً فلهذا الإيجاب والتحرير اللذين زعمتم على الله لوازم فاسدة يدل فسادها على فساد الملزوم . اللازم الأول إذا أوجبتم على الله تعالى رعاية الصلاح والأصلح في أفعاله فيجب أن توجبوا على العبد رعاية الصلاح والأصلح أيضاً في أفعاله حتى يصح اعتبار الغائب بالشاهد وإذا لم يجب علينا رعيتهما بالاتفاق بحسب المقدور بطل ذلك في الغائب ولا يصح تفريقكم بين الغائب والشاهد بالتعب والنصب الذى يلحق الشاهد دون الغائب لأن ذلك لو كان فارقاً في محل الإلزام لكان فارقاً في أصل الصلاح فإن ثبت الفرق في صفته ومقداره ثبت في أصله وإن بطل الفرق ثبت الإلزام المذكور . اللازم الثانى إن القربات من النوافل صلاحية فلو كان الصلاح واجباً وجب وجوب الفرائض . اللازم الثالث أن خلود أهل النار في النار يجب أن يكون صلاحاً لهم دون أن يردوا فيعتبوا بهم ويتوبوا إليه ولا ينفعكم اعتذاركم عن هذا الإلزام بأنهم أوردوا لعادوا لما نهوا عنه فإن هذا حق ولكن لو أماتهم وأعدمهم فقط عتابهم كان أصلح لهم ولو غفر لهم ورحمهم وأخرجهم من النار كان أصلح لهم من إمامتهم

واعدا مهم ولم يتضرر سبحانه بذلك . اللازم الرابع أن مافعله الرب تعالى من الإصلاح والأصلح وتركه من الفساد والعبث لو كان واجبا عليه لما استوجب بفعله له حمداً وثناءً فإنه في فعله ذلك قد قضى ما وجب عليه وما استوجبه العبد بطاعته من ثوابه فإنه عندكم حقه الواجب له على ربه ومن قضى دينه لم يستوجب بقضائه شيئاً آخر . اللازم الخامس أن خلق إبليس وجنوده أصلح للخلق وأنفع لهم من أن لم يخلق مع أن إقطاعه من العباد من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون . اللازم السادس أنه مع كون خلقه أصلح لهم وأنفع أن يكون أنظاره إلى يوم القيامة أصلح لهم وأنفع من إهلاكه وإماتته . اللازم السابع أن يكون تمكنه من إغوائهم وجريانه منهم مجرى الدم في إبطائهم أنفع لهم وأصلح لهم من أن يحال بينهم وبينه . اللازم الثامن أن يكون إمانته الرسل أصلح للعباد من بقائهم بين أظهرهم مع هدايتهم لهم وأصلح من أن يحال بينهم وبينها . اللازم التاسع ما ألزمه أبو الحسن الأشعري للجبايئ وقد سأله عن ثلاثة إخوة أمات الله أحدهم صغيراً وأحيا الآخرين فاختر أحدهما الإيمان والآخر الكفر فرفع درجة المؤمن البالغ على أخيه الصغير في الجنة لعمله فقال أخوه يارب لم لا تبغني منزلة أخى فقال إنه عاش وعمل أعمالاً استحق بها هذه المنزلة فقال يارب فهلا أحييتني حتى أعمل مثل عمله فقال كان الأصلح لك أن توفيتك صغيراً لأنى علمت أنك إن بلغت اخترت الكفر فكان الأصلح في حقتك أن أمتك صغيراً فتأدى أخوهما الثالث من أطباق النار يارب فهلا عملت معي هذا الأصلح واخترتني صغيراً كما عملته مع أخى واخترته صغيراً فأسكت الجبايئ ولم يجبه بشيء فإذا علم الله سبحانه أنه لو اخترم العبد قبل البلوغ وكال العقل لسكان ناجياً ولو أمهله وسهل له النظر لعاند وكفر وجحد فكيف يقال إن الأصلح في حقه إبقاؤه حتى يبلغ والمقصود عندكم بالتكليف الاستصلاح والتعويض بأسنى الدرجات التي لا تنال إلا بالأعمال أو ليس الواحد منا إذا علم من حال ولده أنه إذا أعطى ما لا يتجر به فملك وخسر بسبب ذلك فإنه لا يعرضه لذلك ويقبح منه تعريضه له وهو من رب العالمين حسن غير قبيح وكذلك من علم من حال ولده أنه لو أعطاه سيفاً أو سلاحاً يقاتل به العدو فقتل به نفسه وأعطى السلاح لعدوه فإنه يقبح منه إعطاؤه ذلك السلاح والرب تعالى قد علم من أكثر عباده ذلك ولم يقبح منه سبحانه تمكينهم وإعطاؤهم الآلات بل هو حسن منه كيف وقد ساعدوا على نفوسهم أن الله سبحانه لو علم أنه لو أرسل رسولا إلى خلقه وكلفه الأداء عنه مع علمه بأنه لا يؤدي فإن علمه سبحانه بذلك يصرفه عن إرادة الخير والإصلاح وهذا بمثابة من أدلى جبلا إلى غريق ليخلص نفسه من الغرق مع علمه بأنه يخنق نفسه به وقد ساعدوا أيضا على نفوسهم بأن الله سبحانه إذا علم أن في تكليفه عبداً من عباده فساد الجماعة فإنه يقبح تكليفه لأنه استفساد لمن يعلم

أنه يكفر عند تكليفه . الإلزام الحادى عشر أنهم قالوا وصدقوا بان الرب تعالى قادر على التفضل بمثل الثواب ابتداء بلا واسطة عمل فأى غرض له فى تعريض العباد للبلوى والمشاق ثم قولوا وكذبوا الغرض فى التكليف أن استيفاء المستحق حقه أهنا له وألذ من قبول التفضل واحتمال المنة وهذا كلام أجهل الخلق بالرب تعالى وبحقه وبعلمته ومساو بينه وبين آحاد الناس وهو من أقيح النسبة وأخبثه تعالى الله عن ضلالهم علواً كبيراً فكيف يستمكنكف العبد المخلوق المربوب من قبول فضل الله تعالى ومنتته وهل المنة فى الحقيقة إلا لله المان بفضله قال تعالى (يبنون عليكم أن أسلوا قل لا تمتوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم إن هذا كم الإيمان إن كنتم صادقين) وقال تعالى (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لى ضلال مبين) ولما قال النبي صلى الله عليه وسلم الأنصار ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بنى وعالة فأغنناكم الله بنى فأجابوه بقولهم الله ورسوله أمن وباللهقول التى قد خسف بها أى حق للعبد على الرب حتى يمتنع من قبول منتته عليه فبأى حق استحق الانعام عايه بالإيجاد وكال الخلفة وحسن الصورة وقوام البنية وإعطائه القوى والمنافع والآلات والأعضاء وتسخير مافى السموات وما فى الأرض له ومن أقل ماله عليه من النعم التنفس فى الهواء الذى لا يكاد يخطر بباله أنه من النعم وهو فى اليوم والليلة أربعة وعشرون ألف نفس فاذا كانت أقل نعمه عليهم ولا أقل منها أربعة وعشرون ألف نعمة كل يوم وليلة فما الظن بما هو أجل منها من النعم فى العقول السخيفة المحسوف بها أى علم لكم وأى سعى يقابل القليل من نعمه الدنيوية حتى لا يبقى لله عليكم منة اذا أنا بكم لأنكم استوفيتم ديونكم قبله ولا نعمة له عليكم فيها فأى أمة من الأمم بلغ جهالها بالله هذا المبلغ واستمكنكفت عن قبول منتته وزعمت أن لها الحق على ربها وإن تفضله عليها ومنتته مكدر لا لتذاها بعبادته ولو أن العبد استعمل هذا الأدب مع ملك من ملوك الدنيا لمقته وأبعده وسقط من عينه مع أنه لا نعمة له عليه فى الحقيقة انما المنعم فى الحقيقة هو الله ولى النعم وموليا ولقد كشف القوم عن أقيح عورة من عورات الجهل بهذا الرأى السخيف والمذهب القبيح والحد لله الذى عافانا بما ابتلى به أرباب هذا المذهب المشتككفين من قبول منة الله الزاعمين أن ما أنعم الله به عليهم حقهم عليه وحقهم قبله وأنه لا يستحق الحمد والثناء على أداء ما عليه من الدين والخروج مما عليه من الحق لأن أداء الواجب يقتضى غيره تعالى الله عن أفكهم وكذبهم علواً كبيراً . الإلزام الثانى عشر انه يلزمهم أن يوجبوا على الله عز وجل أن يميت كل من علم من الاطفال انه لو بلغ لكفر وعاند فان اخترامه هو الاصلح له بلا ريب أو أن يجهلوا علمه سبحانه بما سيكون قبل كونه كما التزمه سلفهم الخبيث الذين

اتفق سلف الأمة الطيب على تكفيرهم ولا خلاص لهم عن أحد هذين الإلزامين إلا بالترام
مذهب أهل السنة والجماعة أن أفعال الله تعالى لا تقاس بأفعال عباده ولا تدخل تحت شرائع
عقولهم الفاصرة بل أفعاله لا تشبه أفعال خلقه ولا صفاته صفاتهم ولا ذاته ذواتهم (ليس
كثله شئ وهو السميع البصير) . الإلزام الثالث عشر أنه سبحانه لا يؤلم أحدا من خلقه أبدا
لعدم المنفعة في ذلك بالنسبة إليه وإلى العبد ولا ينفعكم اعتذاركم بأن الإيلام سبب مضاعفة
الثواب ونيل الدرجات العلى وأن هذا ينتقض بالحية وإن البهيم وينتقض بالأطفال الذين
لا يستحقون ثوابا ولا عقابا ولا ينفعكم اعتذاركم بأن الطفل يذنب به في الآخرة في زيادة ثوابه
لا تنقضه عليكم بالطفل الذى علم الله أنه يبلغ ويختار الكفر والجهود فأى مصلحة له في
إيلامه وأى معنى ذكرتموه على أصولكم الفاسدة فهو منتقض عليكم بما لا جواب لكم عنه .
الإلزام الرابع عشر أن من علم الله سبحانه إذا بلغ الأطفال يختاروا الإيمان والعمل الصالح
فإن الأصلح في حقه أن يحيمه حتى يبلغ ويؤمن فينال بذلك الدرجة العالية وإن لا يحترمه صغيراً
وهذا بما لا جواب لكم عنه . الإلزام الخامس عشر وهو من أعظم الإلزامات وأصحها الزاماً
وقد التزمه القدرية وهو أنه ليس في مقدور الله تعالى لطف لو فعله الله تعالى بالكفار
لآمنوا وقد التزم المعتزلة القدرية هذا اللازم وبنوه على أصلهم الفاسد أنه يجب على الله
تعالى أن يفعل في حق كل عبد ما هو الأصلح له فلو كان في مقدوره فعل يؤمن العبد عنده
لوجب عليه أن يفعله به والقرآن من أوله إلى آخره يرد هذا القول ويكذبه ويخبر تعالى أنه
لو شاء لهدى الناس جميعاً ولو شاء لآمن من في الأرض كلهم جميعاً ولو شاء لآتى كل نفس هداها .
الإلزام السادس عشر وهو بما التزمه القوم أيضاً أن لطفه ونعمته وتوفيقه بالمؤمن كلفه
بالكافر وإن نعمته عليهم ما سواء لم يخص المؤمن بفضل عن الكافر وكفى بالوحي وصریح المعقول
وفطرة الله والاعتبار الصحيح واجماع الامة ردا لهذا القول وتكذيباً له . الإلزام السابع
عشر أن ما من أصلح الاوفوقه ما هو أصلح منه والإقتصار على رتبة واحدة كالاقتصار على الصلاح
فلا معنى لقولكم يجب مراعاة الأصلح إذ لانهاية له فلا يمكن في الفعل رعايته . الإلزام الثامن عشر أن
الايجاب والتحریم يقتضى سؤال الموجب المحرم لمن أوجب عليه وحرم هل فعل مقتضى ذلك أم لا وهذا
محال في حق من لا يستل عما يفعل وإنما يعقل في حق المخلوقين وأنهم يسألون وبالجملة فتحتم
بهذه المسئلة طريقاً للإستغناء عن الصواب وسلطتم بها الفلاسفة والصابئة والبراهمة وكل منكر
للتبوات فهذه المسئلة بيننا وبينهم فأنكم إذا زعمتم أن في العقل حاكماً يحسن ويقبح ويوجب
ويحرم ويتقاضى الثواب والعقاب لم تكن الحاجة الى البعثة ضرورية لإمكان الاستغناء عنها
بهذا الحاكم ولهذا قالت الفلاسفة وزادت عليكم حجة وتقريراً قد اشتمل الوجود على خير
مطلق وشر مطلق وخير وشر متميزين والخير المطلق مطلوب في العقل لذاته والشر المطلق

مرفوض في العقل لذاته والمترج مطلوب من وجه ومرفوض من وجه وهو بحسب الغالب من جهته ولا يشك العاقل أن العلم بجنسه ونوعه خير ومحمود ومطلوب والجهل بجنسه ونوعه شر في العقل فهو مستقيح عند الجمهور والفطر السليمة داعية إلى تحصيل المستحسن ورفض المستقيح سواء حمله عليه شارع أو لم يحمله . ثم الأخلاق الحميدة والخصال الرشيدة من العفة والجود والسخاء والنجدة مستحسنات فعلية وأضدادها مستهجات فعلية وكال حال الإنسان أن تستكمل النفس قوى العلم الحق والعمل الخير والشرائع إنما ترد بتمهيد ما تقرر في العقل لا بتغييره لكن العقول الحررة لما كانت قاصرة عن اكتساب المعقولات بأسرها عاجزة عن الاهتمام إلى المصلحة الكلية الشاملة لنوع الإنسان وجب من حيث الحكمة أن يكون بين الناس شرع يفرضه شارع يحملهم على الإيمان بالغيب جملة ويهديهم إلى مصالح معاشهم ومعادهم تفصيلا فيكون قد جمع لهم بين حظى العلم والعدل على مقتضى العقل وحملهم على التوجه إلى الخير المحض والإعراض عن الشر المحض استبقاء لنوعهم واستدامة لنظام العالم ثم ذلك الشارع يجب أن يكون ميمزاً من بينهم بآيات تدل على أنها من عند ربه سبحانه راجعا عليهم بعقله الرزين ورأيه المتين وحديثه النافذ وخلقه الحسن وسمته وهديه يلين لهم في القول ويشاورهم في الأمر ويكلمهم على قدر عقولهم ويكلفهم بحسب وسعهم وطاقتهم قالوا وقد أخطأت المعتزلة حين ردوا الحسن والقيح إلى الصفات الذاتية للأفعال وكان من حقهم تقرير ذلك في العلم والجهل إذ الأفعال تختلف بالأشخاص والأزمان وسائر الإضافات وليس هي على صفات نفسية لازمة لها بحيث لا تفارقها البتة . ثم زادت الصائبة في ذلك على الفلاسفة وقالوا لما كانت الموجودات في العالم السفلى مركبة على تأثير الكواكب والروحانيات التي هي مدبرات الكواكب وكان في اتصالاتها نظر سعيد ونحس واجب أن يكون في آثارها حسن وقبح في الأخلاق والخلق والأفعال والعقول الإنسانية متساوية في النوع فوجب أن يدركها كل عقل سليم وطبع قويم لا تتوقف معرفة المعقولات على من هو مثل ذلك العاقل في النوع فنحن لانحتاج إلى من يعرفنا حسن الأشياء وقبحها وخيرها وشرها ونفعها وضرها وكأنا نستخرج بالعقول من طبائع الأشياء ومنافعها ومضارها كذلك نستنبط من أفعال نوع الإنسان حسنها وقبيحها فنلابس ما هو أحسن منها بحسب الاستطاعة ونجتنب ما هو قبيح منها بحسب الطاقة فأى حاجة بنا إلى شارع يتحكم على عقولنا . وزادت التناسخية على الصائبة بأن قالوا نوع الإنسان لما كان موصوفا بنوع اختيار في أفعاله مخصوصا بنطق وعقل في علومه وأحواله ارتفع عن الدرجة الحيوانية ارتفاع استخسار لها فان كانت أعماله على مناهج الدرجة الإنسانية ارتفعت إلى الملائكة وإن كانت على مناهج الدرجة الحيوانية انخفضت إليها أو إلى أسفل وهو أبدا في أحد

أمرين إما فعل يقتضى جزاء أو مجازاة على فعل فما باله يحتاج في أفعاله وأحواله إلى شخص مثله يحسن أو يقيح فلا العقل يحسن و يقيح ولا الشرع ولكن حسن أفعاله جزاء على حسن أفعال غيره و قبح أفعاله كذلك وربما يظهر حسنها وقبحها صوراً حيوانية روحانية وإنما يصير الحسن والقبح في الحيوانات أفعالاً إنسانية وليس بعد هذا العالم آخر يحكم فيه ويحاسب ويثاب ويعاقب وزادت البراهمة على التناسخية بأن قالوا نحن لانحتاج إلى شريعة وشارع أصلاً فإن ما يأمر به النبي لا يخلو إما أن يكون معقولاً أو غير معقول فإن كان معقولاً فقد استغنى بالعقل عن النبي وإن لم يكن معقولاً لم يكن مقبولاً فهذه الطوائف كلها لما جعلت في العقل حاكماً بالحسن والقبح أداها إلى هذه الآراء الباطلة والنحل الكافرة . وأنتم يامعاشر المثبتة يصعب عليكم الرد عليهم وقد وافقتموهم على هذا الأصل . وأما نحن فأخذنا عليهم رأس الطريق وسددنا عليهم الأبواب فمن طرق لهم الطريق وفتح لهم الأبواب ثم رام مناخزة القوم فقد رام مرتقى صعباً . فهذه مجامع جيوش النفاة قد وافقك بعددها وعديدها وأقبلت إليك بحدها وحديدها . فإن كنت من أبناء الطعن والضرب فقد التقى الزحفان . وتقابل الصفان . وإن كنت من أصحاب التلول فالزم مقامك ولا تدن من الوطيس فإنه قد حمى وإن كنت من أهل الأسراب الذين يسألون عن الأنبياء ولا يشبثون عند اللقاء

فدع الحروب لأقوام لها خلقوا وما لها من سوى أجسامهم جنين
ولا تلهم على ما فيك من جنين فبئست الخلتان اللؤم والجنين

قال المتوسطون من أهل الإثبات مامنكم أيها الفريقان إلا من معه حق وباطل ونحن نساعد كل فريق على حقه ونصير إليه . ونبطل مامعه من الباطل ونرده عليه . فنجعل حق الطائفتين مذهبا ثالثا يخرج من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين من غير أن تنسب لى ذى مقالة وطائفة معينة انتسابا يحملنا على قبول جميع أحوالها والانتصار لها بكل غث وسمين ورد جميع أقوال خصومها ومكابريها على ما معها من الحق حتى لو كانت تلك الأقوال منسوبة إلى رئيسها وطائفتها لبالغت في نصرتها وتقريرها وهذه آفة مانجا منها إلا من أنعم الله عليه وأهله لتابعة الحق أين كان ومع من كان وأما من يرى أن الحق وقف مؤيد على طائفته وأهل مذهبه وحجر محجور على من سواهم بمن لعله أقرب إلى الحق والصواب منه فقد حرم خيراً كثيراً وفاته هدى عظيم وهنا نحن نجلس مجلس الحكومة بين هاتين المقاتلتين فمن أدلى بحجته في موضع كان المحكوم له في ذلك الموضع وإن كان المحكوم عليه حيث يدلى خصمه بحجته والله تعالى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق والعدل بين الطوائف المختلفة . قال تعالى (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن

أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوم إليه الله يحتمى إليه من يشاء ويهدى إليه من يندب وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم). فأخبر تعالى أنه شرع لنا دينه الذي وصى به نوحا والنبیین من بعده وهو دين واحد ونهانا عن التفریق فيه ثم أخبرنا أنه ما تفرق من قبلنا فی الدين الا بعد العلم الموجب للإثبات وعدم التفرق وأن الحامل على ذلك التفرق البغی من بعضهم على بعض وإرادة كل طائفة أن يكون العلو والظهور لها ولقولها دون غيرها واذا تأملت تفرق أهل البدع والضلال رأيت صادرا عن هذا بعينه . ثم أمر سبحانه نبيه أن يدعو إلى دينه الذي شرعه لأنبيائه وأن يستقيم كما أمره ربه وحذره من اتباع أهواء المتفرقين وأمره أن يؤمن بكل ما أنزله الله من الكتاب وهذه حال الحق أن يؤمن بكل ما جمعه من الحق على لسان أى طائفة كانت ثم أمره أن يخبرهم بأنه أمر بالعدل بينهم وهذا يعم العدل فى الأقوال والأفعال والآراء والمحاكمات كلها فخصه ربه ومرسله للعدل بين الأمم فهكذا وارثه ينتصب للعدل بين المقالات والآراء والمذاهب ونسبته منها إلى القدر المشترك بينهما من الحق فهو أولى به وبتقريره وبالحكم لمن خصم به . ثم أمره أن يخبرهم بأن الرب المعبود واحد فى الحامل للتفرق والاختلاف وهو ربنا وربكم والدين واحد والكل عامل عمله لا يعدوه إلى غيره . ثم قال لاجحة بيننا وبينكم والحق صبغة هى الخصومة أى للخصومة ولا وجه للخصومة بيننا وبينكم بعد ما ظهر الحق وأسفر صبحه وبانت أعلامه وانكشفت الغمة عنه وليس المراد نفي الاحتجاج من الطرفين كما يظنه بعض من لا يدري ما يقول وأن الدين لاحتجاج فيه كيف والقرآن من أوله إلى آخره حجج وبراهين على أهل الباطل قطعية يقينية وأجوبة لمعارضتهم وإفسادا لأقوالهم بأنواع الحجج والبراهين وإخبارا عن أنبيائه ومرسله بإقامة الحجج والبراهين وأمر لرسوله بمجادلة المخالفين بالتي هى أحسن وهل تكون المجادلة إلا بالاحتجاج وإفساد حجج الخصم وكذلك أمر المسلمين بمجادلة أهل الكتاب بالتي هى أحسن وقد ناظر النبي ﷺ جميع طوائف الكفرة ثم مناظرة وأقام عليهم ما أقمهم به من الحجج حتى عدل بعضهم إلى عاربه بعد أن عجز عن رد قوله وكسر حججه واختار بعضهم مسالته ومثاركته وبعضهم بذل الجزية عن يد وهو صاغر كل ذلك بعد إقامة الحجج عليهم وأخذها بكظمتهم وأسرها لنفوسهم وما استجاب له من استجاب إلا بعد أن وضحت له الحجة ولم يجد إلى ردها سبيلا وما خالفه أعداؤه إلا عنادا منهم وميلا إلى المكابرة بعد اعترافهم بصحة حججه وأنها لا تدفع فما قام الدين إلا على ساق الحجة . فقوله لا

حجة بيننا وبينكم أى لا خصومة فإن الرب واحد فلا وجه للخصومة فيه ودينه واحد وقد قامت الحجة وتحقق البرهان فلم يبق للاحتجاج والمخاصمة فائدة فإن فائدة الاحتجاج ظهور الحق ليتبع فإذا ظهر وعانده المخالف وتركه جحودا وعنادا لم يبق للاحتجاج فائدة فلا حجة بيننا وبينكم أيها الكفار فقد وضح الحق واستبان ولم يبق إلا الإفراز به أو العناد والله يجمع بيننا يوم القيامة فيمضى للمحق على المبطل وإليه المصير قالوا وما نحن نتحرى القسط بين الفريقين عما بقوله صلى الله عليه وسلم المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن الذين يدخلون في حكمهم وأهلهم ، ما ولوا ويكفي في هذا قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا أعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله إن الله خبير بما تعملون) قالوا قد أصاب أهمل الإثبات من المعزلة في قولهم أن الحسن والقيح صفات ثبوتية الأفعال معلومة بالعقل والشرع وأن الشرع جاء بتقرير ما هو مستقر في الفطر والعقول من تحسين الحسن والأمر به وتقبیح القبيح والنهي عنه وأنه لم يجسء بما يخالف العقل والفطرة وإن جاء بما يعجز العقول عن أحواله والاستقلال به فالشرائع جاءت بمجازات العقول لا محالاتها وفرق بين ما لا تدرك العقول حسنه وبين ما تشهد بقبحه فالأول مما يأتي به الرسل دون الثاني وأخطؤا في ترتيب العقاب على هذا القبيح عقلا كما تقدم وأصابوا في إثبات الحكمة لله تعالى وأنه سبحانه لا يفعل فعلا خاليا عن الحكمة بل كل أفعاله مقصودة لعواقبها الحميدة وغاياتها المحبوبة له وأخطؤا في موضعين أحدهما أنهم أعادوا تلك الحكمة إلى المخلوق ولم يعيدوها إلى الخالق سبحانه على فاسد أصولهم في نفي قيام الصفات به فنفروا الحكمة من حيث أثبتوها وجحدوها من حيث أقروا بها . الموضع الثاني أنهم وضعوا تلك الحكمة شريعة بمقولهم وأوجبوا على الرب تعالى بها وحرموه وشبهوه بمخلقه في أفعاله بحيث ما حسن منهم حسن منه وما قبيح منهم قبيح منه فلزمهم بذلك اللوازم الشنيعة وضاق عليهم المجال وعجزوا عن التخلص عن تلك الالتزامات ولو أنهم أثبتوا له حكمة تليق به لا يشبه خلقه فيها بل نسبتها إليه كنسبة صفاته إلى ذاته فكأنه لا يشبه خلقه في صفاته فكذلك في أفعاله ولا يصح الاستدلال بقبح القبيح وحسن الحسن منهم على ثبوت ذلك في حقه تعالى ومن هاهنا استطال عليهم النفاة وصاحوا عليهم من كل قطر وأقاموا عليهم نائرة الشناعة وأصابوا أيضا في قولهم بأن الرب تعالى لا يمتنع في نفسه الوجوب والتحريم وأخطأوا في جعل ذلك تابعا لمقتضى عقولهم وآرائهم بل يجب عليه ما أوجبه على نفسه ويجرم عليه ما حرمه هو على نفسه فهو الذى كتب على نفسه الرحمة وأحق على نفسه نصر المؤمنين وأحق على نفسه ثواب المطيعين وحرم على نفسه الظلم كما جعله محرما بين عباده وأصابوا في قولهم أنه سبحانه لا يحب الشر

والكفر وأنواع الفساد بل يكرها وأنه يجب الإيمان والخير والبر والطاعة ولكن أخطأوا في تفسير هذه المحبة والكرهية بمجرد معان مفهومة من ألفاظ خلقها في الهواء أوفى الشجرة ولم يجعلوها معاني ما يهدى به تعالى على فاسد أصولهم في التعطيل ونفى الصفات فنفوا المحبة والكرهية من حيث أثبتوها وأعادوها إلى مجرد الشرع ولم يثبتوا له حقيقة قائمة بذاته فان شرع الله هو أمره ونهيه ولم يقم به عندهم أمر ولا نهى فحقيقة قولهم أنه لا شرع ولا محبة ولا كراهة فإن زخرفوا القول وتحيلوا لإثبات ماسدوا على نفوسهم طريق اثباته وأصابوا أيضا في قولهم أن مصلحة المأمور تنشأ من الفعل تارة ومن الأمر تارة أخرى فرب فعل لم يكن منشأ لمصلحة المكلف فلما أمر به صار منشأ لمصلحته بالأمر ولو توسطوا هذا التوسط وسلكوا هذا المسلك وقالوا إن المصلحة تنشأ من الفعل المأمور به تارة ومن الأمر تارة ومنهما تارة ومن العزم المجرد تارة لا تنصفوا من خصومهم . فمثال الأول الصدق والعفة والإحسان والعدل فان مصالحها ناشئة منها ومثال الثاني التجرد في الإحرام والتطهر بالتراب والسعي بين الصفي والمروة ورمى الجمار ونحو ذلك فان هذه الأفعال لو تجردت عن الأمر لم تكن منشأ لمصلحة فلما أمر بها نشأت مصلحتها من نفس الأمر ومثال الثالث الصوم والصلاة والحج وإقامة الحدود وأكثر الأحكام الشرعية فان مصلحتها ناشئة من الفعل والأمر معا فالفعل يتضمن مصلحة والأمر بها يتضمن مصلحة أخرى فالمصلحة فيها من وجهين . ومثال الرابع أمر الله تعالى خليله إبراهيم بذبح ولده فإن المصلحة إنما نشأت من عزمه على المسأور به لا من نفس الفعل وكذلك أمره نبيه ﷺ ليلة الإسراء بخمسین صلاة فلما حصرتم المصلحة في الفعل وحده تسلط عليهم خصوصكم بأنواع المناقضات والإلزامات قالوا وقد أصاب النفاة حيث قالوا إن الحججة إنما تقوم على العباد بالرسالة وإن الله لا يعذبهم قبل البعثة ولكنهم نقضوا الأصل ولم يطرده حيث جوزوا تعذيب من لم تقم عليه الحججة أصلا من الأطفال والمجانين ومن لم تبلغه الدعوة وأخطأوا في تسويتهم بين الأفعال التي خالف الله بينها فجعل بعضها حسنا وبعضها قبيحا وركب في العقول والفطر التفرقة بينهما كما ركب في الحواس التفرقة بين الحلو والحامض والمر والعذب والسخن والبارد والضرار والنافع فزعم النفاة أنه لا فرق في نفس الأمر أصلا بين فعل وفعل في الحسن والقبح وإنما يعود الفرق إلى عادة مجردة أو وهم أو خيال أو مجرد الأمر والنهي وسلبوا الأفعال حتى خواصها التي جعلها الله عليها من الحسن والقبح فالفطر والعقول وسلطوا عليهم خصومهم بأنواع الإلزامات والمناقضات الشنيعة جداً ولم يجدوا إلى ردها سبيلا إلا بالعناء وجحدوا الضرورة وأصابوا في نفهم الإيجاب والتحريم على الله الذي أثبتته القدرية من المعتزلة

ووضعا على الله شريعة بمقولههم قادتهم إلى ما لا قبل لهم به من اللوازم الباطلة وأخطأوا
 في تفهيم عنه لإيجاب ما أوجبه على نفسه وتحريم ما حرمه على نفسه بمقتضى حكمته وعدله
 وعزته وعلوه وأخطأوا أيضا في تفهيم حكمته تعالى في خلقه وأمره وأنه لا يفعل شيئا لشيء .
 ولا يأمر بشيء لشيء . وفي انكارهم الأسباب والقوى التي أودعها الله في الأعيان والأعمال
 وجعلهم كل لام دخلت في القرآن لتعليل أفعاله وأوامره لام عاقبة وكل باء دخلت لربط السبب
 بسببه باء مصاحبة فنفوا الحكم والغايات المطلوبة في أوامره وأفعاله وردوها إلى العلم والقدرة
 فجعلوا مطابقة المعلوم للعلم ووقوع المقدور على وفق القدرة هو الحكمة ومعلوم أن وقوع
 المقدور بالقدرة ومطابقة المعلوم للعلم عين الحكمة والغايات المطلوبة من الفعل وتعلق القدرة
 بمقدورها والعلم بمعلومه أعم من كون المعلوم والمقدور مشتقاً على حكمة ومصالحة أو مجرداً
 عن ذلك والأعم لا يشعر بالأخص ولا يستلزمه وهل هذا في الحقيقة الأنفي للحكمة وإثبات
 لأمر آخر وأخطأوا في تسويتهم بين المحبة والمشيمة وإن كل ما شاءه الله من الأفعال والأعيان
 فقد أحبه ورضيه ومالم يشأه فقد كرهه وأبغضه فحجته مشيئته وإرادته العامة وكرهاته وبغضه
 عدم مشيئته وإرادته فلزمهم من ذلك أن يكون إبليس محبوساً له وفرعون وهامان وجميع
 الشياطين والكفار بل أن يكون الكفر والفسوق والظلم والعدوان الواقعة في العالم محبوبة
 له مرضية وأن يكون الإيمان والهدى ووفاء العهد والبر التي لم توجد من الناس مكروهة
 مسخوطة له مكروهة بمقوته عنده فسوا بين الأفعال التي فاوت الله بينها وسوا بين المشيئة
 المتعلقة بتكوينها وإيجادها والمحبة المتعلقة بالرضى بها واختيارها وهذا مما استطال به عليهم
 خصومهم كما استطالوا هم عليهم حيث أخرجوها عن مشيئة الله وإرادته العامة ونفوا تعلق
 قدرته وخلقها بها فاستطال كل من الفريقين على الآخر بسبب مامعهم من الباطل وهدى الله
 أهل السنة الذين هم وسط في المقالات والنحل لما اختلف الفريقان فيه من الحق بإذنه والله
 يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم . فالقدرية حجروا على الله وألزموه شريعة حرموا عليه
 الخروج عنها وخصومهم من الجبرية جوزوا عليه كل فعل ممكن يتنزه عنه سبحانه إذ لا يخلق
 بغناه وحمده وكمال ما نزه نفسه عنه وحمد نفسه بأنه لا يفعله فالطائفتان متقابلتان غاية التقابل
 والقدرية أثبتوا له حكمة وغاية مطلوبة من أفعاله على حسب ما أنبتوه لخلقهم والجبرية نفوا
 حكمته اللاتمة به التي لا يشابهه فيها أحد والقدرية قالت أنه لا يريد من عباده طاعتهم وإيمانهم
 وأنه لا يسأل ذلك منهم والجبرية قالت أنه يحب الكفر والفسوق والعصيان ورضاه من
 فاعله والقدرية قالت أنه يجب عليه سبحانه أن يفعل بكل شخص ما هو الأصلح له والجبرية
 قالت أنه يجوز أن يعذب أوليائه وأهل طاعته ومن لم يطعه قط وينعم أعداءه ومن كفر به

وأشرك ولا فرق عنده بين هذا وهذا فليعجب العاقل من هذا التقابل والتباعد الذي يزعم كل فريق أن قولهم هو محض العقل وما خالفه باطل بصريح العقل وكذلك القدرية قالت أنه ألقى إلى عباده زمام الاختيار وفوض إليهم المشيئة والإرادة وأنه لم يخص أحداً منهم دون أحد بتوفيق ولا لطف ولا هداية بل ساوى بينهم في مقدوره ولو قدر أن يهدي أحداً ولم يهده كان بخلاً وأنه لا يهدي أحداً ولا يضلّه إلا بمعنى البيان والإرشاد وأما خلق الهدى والضلال فهو إليهم ليس إليه وقالت الجبرية أنه سبحانه أجبر عباده على أفعالهم بل قالوا ان أفعالهم هي نفس أفعاله ولا فعل لهم في الحقيقة ولا قدرة ولا اختيار ولا مشيئة وإنما يعذبهم على ما فعله هو لا على ما فعلوه ونسبة أفعالهم إليه كحركات الأشجار والمياه والجمادات القدرية سلبوه قدرته على أفعال العباد ومشيئته لها والجبرية جعلوا أفعال العباد نفس أفعاله وأنهم ليسوا فاعلين لها في الحقيقة ولا قادرين عليها فالقدرية سلبته كمال ملكة والجبرية سلبته كمال حكمته والطائفتان سلبته كمال حمده وأهل السنة الوسط أنبتوا كمال الملك والحمد والحكمة فوصفوه بالقدرة التامة على كل شيء من الأعيان وأفعال العباد وغيرهم وأنبتوا له الحكمة التامة في جميع خلقه وأمره وأنبتوا له الحمد كله في جميع ما خلقه وأمر به ونزهه عن دخوله تحت شريعة يضعها العباد بأرائهم كما نزهه عما نزه نفسه عنه بما لا يليق به فاستولوا على محاسن المذاهب وتجنبوا أرواها ففازوا بالقدح المعلى وغيرهم طاف على أبواب المذاهب ففاز بأخس المطالب والهدى هدى الله يختص به من يشاء من عباده .

فصل

إذا عرفت هذه المقدمة فالكلام على كلمات النفاة من وجوه : أحدها قولكم لو قدر الإنسان نفسه وقد خلق تام الخلقة تام العقل دفعة من غير تأديب بتأديب الأبوين ولا تعلم من معلم ثم عرض عليه أمران : أحدهما أن الواحد أكثر من الإثنين والآخر أن الكذب قبيح لم يتوقف في الأول ويتوقف في الثاني فهذا تقدير مستحيل ركبت عليه أمراً غير معلوم الصحة فان تقدير الإنسان كذلك محال . الوجه الثاني سلطنا إمكان التقدير لكن لم قلتم بأنه لا يتوقف في كون الواحد نصف الإثنين ويتوقف في كون الكذب قبيحاً بعد تصور حقيقته فلا نسلم أنه إذا تصور ماهية الكذب توقف في الجزم بقبحه وهل هذا إلا دعوة مجردة . الوجه الثالث سلطنا أنه قد يتوقف في الحكم بقبحه ولكن لا يلزم من ذلك أن لا يكون قبيحاً لذاته وقبحه معلوم للعقل وتوقف الذهن في الحكم العقلي لا يخرج عن كونه عقلياً ولا يجب التساوى في العقليات إذ بعضها أجلى من بعض . فان قلتم فهذا التوقف ينفي أن يكون الحكم بقبحه ضرورياً وهو يبطل قولكم . قلنا هذا إنما يلزم من التقدير المستحيل في الواقع

والمحال قد يلزمه محال آخر سلطنا انه ينبغي كون الحكم بقبحه ضروريا ابتداء فلم قلتم انه لا يكون ضروريا بعد التأمل والنظر. والضرورى أعم من كونه ضروريا ابتداء بلا واسطة أو ضروريا بوسط ونفى الأخص لا يستلزم نفي الأعم ومن ادعى سلب الوسائط عن الضروريات فقد كابر أو اصطالح مع نفسه على تسمية الضروريات بما لا يتوقف على وسط. الوجه الرابع ان تصور ماهية الكذب يقتضى جزم العقل بقبحه ونسبة الكذب إلى العقل كنسبة المتنافرات الحسية إلى الحس فكما أن ادراك الحواس المتنافرات يقتضى نفرتها عنها فكذلك ادراك العقل لحقيقة الكذب ولا فرق بينهما الا فرق ما بين ادراك الحس وادراك العقل فان جاز القدح في مدركات العقول وحكمها فيها بالحسن والتبجح جاز القدح في مدركات الحواس. الوجه الخامس انكم فتحت باب السفسطة فان القدح في معلومات العقول وموجباتها كالقدح في مدركات الحواس وموجباتها فن لجأ إلى المكابرة في المعقولات فقد فتح باب المكابرة في المحسوسات ولهذا كانت السفسطة تعرض أحيانا في هذا وهذا وليست مذهبا لامة من الناس يعيشون عليه كما يظنه بعض أهل المقالات ولا يمكن أن تعيش أمة ولا أحد على ذلك ولا تتم له مصلحة وانما هي حال عارضة لكثير من الناس وهي تكثر وتقل وما من صاحب مذهب باطل الا هو مرتكب للسفسطة شاء أم أبى وسنذكر ان شاء الله فضلا فيما بعد نبين فيه ان جميع أرباب المذاهب الباطلة سوفسطائية صريحا ولزوما قريبا وبعيدا. الوجه السادس قولكم من حكم بأن هذين الأمرين سيان بالنسبة إلى عقله خرج عن قضايا العقول جوابه انكم ان أردتم بالتسوية كونهما معقولان في الجملة فمن أين يخرج عن قضايا العقول من حكم بذلك وهل الخارج في الحقيقة عنها الا من منع هذا الحكم فان أردتم بالتسوية الاستواء في الادراك وان كليهما على رتبة واحدة من الضرورة فلا يلزم من عدم هذا الاستواء ان لا يكون العلم بقبح الكذب عقليا. الوجه السابع قولكم لو تقرر عند المثبت ان الله تعالى لا يتضرر بكذب ولا ينتفع بصدق كان الأمران في حكم التكليف على وتيرة واحدة كلام لا يرتضيه عاقل فانه من المتقرر ان الله تعالى لا يتضرر بكذب ولا ينتفع بصدق وانما يعود نفع الصدق وضرر الكذب على المكلف ولكن لبيت شرعى من أين يلزم ان يكون هذان الضدان بالنسبة إلى التكليف على وتيرة واحدة وهل هذا الا مجرد تحكم ودعوى باطلة. الوجه الثامن انه لا يلزم من كون الحكم لا يتضرر بالتبجح ولا ينتفع بالحسن ان لا يجب هذا ولا يبغض هذا بل تكون نسبتها إليه نسبة واحدة بل الأمر بالعكس وهو ان حكمته تقتضى بغضه للتبجح وان لم يتضرر به ومحبهه للحسن وان لم ينتفع به وحينئذ ينقلب هذا الكلام عليكم ونكون أسعد به منكم فنقول لو تقرر عند النافي أن الله تعالى حكيم عليم يضع الأشياء مواضعها وينزلها منازلها العلم ان الأمرين أعنى الصدق والكذب بالنسبة

إلى شرعه وتكليفه متباينان غاية التباين متضادان وأنه يستحيل في حكمته التسوية بينهما وإن يكونا على وتيرة واحدة ومعلوم إن هذا هو المعقول وما ذكرتموه خارج عن المعقول . الوجه التاسع قولكم أن الصدق والكذب على حقيقة ذاتية وإن الحسن والقبح غير داخلين في صفاتهما الذاتية ولا يلزمهما في الوهم بالبدئية ولا في الوجود ضرورة جوابه إنكم إن أردتم إن الحسن والقبح لا يدخل في مسمى الصدق والكذب فسلم ولكن لا يفيدكم شيئاً فإن غايته إنما يدل على تعابير المفهومين فكان ماذا وإن أردتم إن ذات الصدق والكذب لا تقتضى الحسن والقبح ولا تستلزمهما فهل هذا إلا مجرد المذهب ونفس الدعوى وهي مصادرة على المطلوب وخصوصاً كما يقولون إن معنى كونهما ذاتين للصدق والكذب إن ذات الصدق والكذب تقتضى الحسن والقبح وليس مرادهم إن الحسن والقبح صفة داخلية في مسمى الصدق والكذب وأنتم لم تبطلوا عليهم هذا . الوجه العاشر قولكم ولا يلزمهما في الوهم بالبدئية ولا في الوجود دعوى مجردة كيف وقد علم بطلانها بالبرهان والضرورة . الوجه الحادى عشر قولكم إن من الأخبار التي هي صادقة ما يلام عليه مثل الدلالة على من هرب من ظالم ومن الأخبار التي هي كاذبة ما يثاب عليها مثل إنكار الدلالة عليه فلم يدخل كون الكذب قبيحاً في حد الكذب ولا لزمه في الوهم ولا في الوجود فلا يجوز أن يعد من الصفات الذاتية التي تلزم النفس وجوداً وعدماً . جوابه من وجوه . أحدها أنا لا نسلم أن الصدق يقبح في حال ولأن الكذب يحسن في حال أبدأ ولا تنقلب ذاته وإنما يحسن اللوم على الخبر الصادق من حيث لم يعرض للخبر ولم يور بما يقتضى سلامة النبي أو الولي . الوجه الثاني أنه أخبر بما لا يجوز له الإخبار به لاستلزامه مفسدة راجحة ولا يقتضى هذا كون الصدق قبيحاً بل الإخبار بالصدق هو التبييح وفرق بين النسبة المطابقة التي هي صدق وبين الإعلام بها فالقبح إنما نشأ من الإعلام لا من النسبة الصادقة والإعلام غير ذاتي للخبر ولا داخل في حده إذا الخبر غير الإخبار ولا يلزم من كون الإخبار قبيحاً أن يكون الخبر قبيحاً وهذه الدقيقة غفل عنها الطائفتان كلاهما . الوجه الثالث أن قبح الصدق وحسن الكذب المذكورين في بعض المواضع لمعارضة مصلحة أو مفسدة راجحة لا يقتضى عدم اتصاف ذات كل منهما بحكمه عقلاً فإن العلل العقلية والأوصاف الذاتية المقتضية لأحكامها قد تتخلف عنها لغوات شرط أو قيام مانع ولا يوجب ذلك سلب اقتضاها لأحكامها عند عدم المانع وقيام الشرط وقد تقدم تقرير ذلك . الوجه الثاني عشر قولكم أنه لم يبق للشبثين إلا الاسترواح إلى عادات الناس من تسمية ما يضرهم قبيحاً وما ينفعهم حسناً كلام باطل فإن استرواحهم إلى ماركبه الله تعالى في عقولهم وفطرهم وبعث رسله بتقريره وتكميله من استحسان الحسن واستقباح القبيح الوجه الثالث عشر قولكم أنها تختلف بعادة قوم دون قوم وزمان دون زمان ومكان دون

مكان واطافة دون اضافة فقد تقدم أن هذا الاختلاف لا يخرج هذه القبائح والمستحسنات عن كون الحسن والقبیح ناشئاً من ذواتهما وان الزمان المعين والمكان المخصوص والشخص والقابل والاطافة شروط لهذا الاقتضاء على حد اقتضاء الأغذية والأدوية والمساکن والملابس آثارها فان اختلافها بالأزمنة والأمكنة والأشخاص والإضافات لا يخرجها عن الاقتضاء الذاق ونحن لانعنى بكون الحسن والقبیح ذاتين الا هذا والمشاحنة في الاصطلاحات لانفع طالب الحق ولا تجدى عليه الا المناكدة والتعننت فكم يعيدوا ويبدوا في الذائق وغير الذائق سموا هذا المعنى بما شئتم ثم ان أمكنكم ابطاله فباطوه . الوجه الرابع عشر قولكم نحن لاننكر اشتها القضايا الحسنة والقبیحة من الخلق وكونها محمودة مشكورة مثنى على فاعلها أو مذمومها ولكن سبب ذكرها اما التدين بالشرائع واما الاعراض ونحن انما ننكرها في حق الله عز وجل لانقضاء الاعراض عنه فهذا معترك القول بين الفرق في هذه المسئلة وغيرها فقول لكم ما تعنون معاشر النفاة بالأعراض التي نفيتها عنها عن الله عز وجل ونفيتها لأجلها حسن وأمره الذاتية وقبح نواهيها الذاتية وزعمتم لأجلها أنه لا فرق عنده بين مذمومها ومحمودها وانها بالنسبة إليه سواء فاجبرونا عن مرادكم بهذه اللفظة البديعة المحتملة أتعنون بها الحكم والمصالح والعواقب الحميدة والغايات المحبوبة التي يفعل ويأمر لأجلها أم تعنون بها أمراً وراه ذلك يجب تنزية الرب عنه كما يشعر به لفظ الاعراض من الارادات فان أردتم المعنى الاول فنفيكم اياه عن أحكم الحاكمين مذهب لكم خالفتم به صريح المنقول وصريح المعقول وأنتم ما لاتقر به العقول من فعل فاعل حكيم مختار للحكمة ولا لمصلحة ولا لغاية محمودة ولا عاقبة مطلوبة بل الفعل وعدمه بالنسبة إليه سيان وقلتم ما تنكره الفطر والعقول ويرده التنزيل والاعتبار وقد قررنا من ذكر الحكم الباهرة في الخلق والأمر ما تقر به عين كل طالب للحق وهاهنا من أدلة اثبات الحكم المقصودة بالخلق والأمر أضعاف أضعاف ما ذكرنا بل لانسبة لما ذكرناه إلى ما تركناه وكيف يمكن انكار ذلك والحكمة في خلق العالم وأجزائه ظاهرة لمن تأملها بادية لمن أبصرها وقد رقت بطورها على صفحات الخلوقات يقرأها كل عاقل وغير كاتب نصبت شاهدة لله بالوحدانية والربوبية والعلم والحكمة والالطف والخبره :

تأمل سطور الكائنات فانها من الملائ الأعلى إليك رسائل
وقد خط فيها لو تأملت خطها الأكل شيء ما خلا الله باطل

واما النصوص على ذلك فمن طلبها بهرته كثرتها وتطابقها واعلمها ان تزيد على المثين وما يحمله النفاة لحكمة الله تعالى ان اثباتها يستلزم افتقاراً منه واستكبالاً بغيره فهو وسواس

فان هذا بعينه وارد عليهم في أصل الفعل وأيضا فهذا إنما هو إكمال للصنع لاستكمال بالصنع وأيضا فانه سبحانه فعاله عن كماله فانه كمال ففعل لان كماله عن فعاله فلا يقال فعل فكل كما قال المخلوق وأيضا فان مصدر الحكمة ومتعلقها وأسبابها عنه سبحانه فهو الخالق وهو الحكيم وهو الغنى من كل وجه أكمل الغنى وأتمه وكال الغنى والحمد في كمال القدرة والحكمة ومن المحال أن يكون سبحانه وتعالى فقير إلى غيره فاما إذا كان كل شيء فهو فقير إليه من كل وجه وهو الغنى المطلق عن كل شيء فأى محذور في اثبات حكمته مع احتياج مجموع العالم وكل ما يقدر معه إليه دون غيره وهل الغنى إلا ذلك والله سبحانه في كل صنع من صنائعه وأمر من شرائعه حكمه باهرة وآية ظاهرة تدل على وحدانيته وحكمته وعلوه وغناه وقيوميته وملكوته لانكرها إلا العقول السخيفة ولا تنبو عنها إلا الفطر المنكوسة :

ولله في كل تسكينه وتحريكه أبدأ شاهد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

وبالجملة فنحن لانكر حكمة الله ولا نساعدكم على جحدها لتسميتكم اياها إعراضا واخراجكم لها في هذا القالب فالحق لا ينكر حكمه لسوء التعبير عنه وهذا اللفظ بدعى لم يرد به كتاب ولا سنة ولا أطلقه أحد من أئمة الإسلام وأتباعهم على الله . وقد قال الإمام أحمد لا نزيل عن الله صفة من صفاته لأجل شناعة المشنعين فهل ننكر صفات كماله سبحانه لأجل تسمية المعطلة والجهمية لها إعراضا ولأرباب المقالات أغراض في سوء التعبير عن مقالات خصومهم وتحيرهم لها أقبح الألفاظ وحسن التعبير عن مقالات أصحابهم وتحيرهم لها أحسن الألفاظ وأتباعهم محبوسون في قبور تلك العبارات ليس معهم في الحقيقة سواها بل ليس مع المتبوعين غيرها وصاحب البصيرة لانهوله تلك العبارات الهائلة بل مجرد المعنى عنها ولا يكسوه عبارة منها ثم يحمله على محل الدليل السالم عن المعارض حينئذ يتبين له الحق من الباطل والحالي من العاطل . الوجه الخامس عشر قولكم مستند الاستحسان والاستقباح التدين بالشرائع فيقال لا ريب أن التدين بالشرائع يقتضى الاستحسان والاستقباح ولكن الشرائع إنما جاءت بتكميل الفطر وتقريبها لا بتحويلها وتغييرها فما كان في الفطرة مستحسنا جاءت الشريعة باستحسانه فكسوته حسنا إلى حسنه فصار حسنا من الجهتين وما كان في الفطرة مستهجا جاءت الشريعة باستقباحه فكسوته قبيحا إلى قبحه فصار قبيحا من الجهتين وأيضا فهذه القضايا مستحسنة ومستقبحة عند من لم تبلغه الدعوة ولم يقر بذبوة . وأيضا فجنى الرسول بالأمر بحسنها والنهي عن قبيحها دليل على نبوته وعلم على رسالته كما قال بعض الصحابة وقد سئل عما أوجب إسلامه فقال ما أمر بشيء فقال العقل ليته نهى عنه ولا نهى

عن شيء فقال العقل ليته أمر به فلو كان الحسن والقبح لم يكن مركزاً في الفطر والعقول لم يكن ما أمر به الرسول ونهى عنه علماً من أعلام صدقه ومعلوم أن شرعه ودينه عند الخاصة من أكبر أعلام صدقه وشواهد نبوته كما تقدم . الوجه السادس عشر قولكم في مشارات الغلط التي يغلط الوهم فيها أنها ثلاث مشارات الأولى أن الإنسان يطلق اسم القبح على ما يخاف غرضه وإن كان يوافق غرض غيره من حيث أنه لا يلتفت إلى الغير فإن كل طبع مشغوف بنفسه فيقضى بالقبح مطلقاً فقد أصاب في الحكم بالقبح وأخطأ في إضافة القبح إلى ذات الشيء وغفل عن كونه قبيحاً لمخالفة غرضه وأخطأ في حكمه بالقبح مطلقاً ومنشأه عدم الالتفات إلى غيره خاصه أمران أحدهما أنه إنما قضى بالحسن والقبح لموافقة غرضه ومخالفته الثاني أن هذه الموافقة والمخالفة ليست عامة في حق كل شخص وزمان ومكان بل ولا في جميع أحوال الشخص هذا حاصل ما طولتم به فيقال لا ريب أن الحسن يوافق الغرض والقبح يخالفه ولكن موافقة هذا ومخالفة هذا لما قام بكل واحد من الصفات التي أوجبت المخالفة والموافقة إذ لو كانا سواء في نفس الأمر وذاتهما لا تقتضى حسناً ولا قبحاً لم يختص أحدهما بالموافقة والآخر بالمخالفة ولم يكن أحدهما بما اختص به أولى من العكس فما لجأتم إليه من موافقة الغرض ومخالفته من أكبر الأدلة على أن ذات الفعل متصفة بما لأجله وافق الغرض وخالفه وهذا كموافقة الغرض ومخالفته في الطعوم والأغذية والروائح فإن مالا من الإنسان ووافقه مخالف بالذات والوصف لما نافر منه وخالفه ولم تكن تلك الملائمة والمنافرة لمجرد العادة بل لما قام بالملائمة والمنافر من الصفات ففي الحبز والماء واللحم والفاكهة من الصفات التي اقتضت ملاءمتها الإنسان ما ليس في التراب والحجر والقصب والعصف وغيرها ومن ساوى بين الأمرين فقد كابر حسه وعقله فهكنا مالا من العقول والفطر من الأعمال والأحوال وما خالفها هو لما قام بكل منها من الصفات التي اختصت به فأوجب الملائمة والمنافرة فملائمة العدل والأحسان والبر للعقول والفطر والحيوان لما اختصت به ذوات هذه الأفعال من أمور ليست في الظلم والاساءة وايست هذه الملائمة والمنافرة لمجرد العادة والتدين بالشرائع بل هي أمور ذاتية لهذه الأفعال وهذا مما لا ينكره العقل بعد تصوره . الوجه السابع عشر انا لا ننكر أن للعادة واختلاف الزمان والمكان والإضافة والحال تأثيراً في الملائمة والمنافرة ولا ننكر أن الإنسان يلائمه ما اعتاده من الأغذية والملابس والمساكن وينافره ما لم يعتده منها وإن كان أشرف منها وأفضل ومن هذا إلف الأوطان وحب المساكن والحنين إليها ولكن هل يلزم من هذا أن تكون الملائمة والمنافرة كلها ترجع إلى الإلف والعادة المجردة ومعلوم أن هذا مما لا سبيل إليه إذ الحكم على فرد

جزئى من أفراد النوع لا يقتضى الحكم على جميع النوع واستلزام الفرد المعين من النوع
اللازم المعين لا يقتضى استلزام النوع له وثبوت خاصة معينه للفرد الجزئى لا يقتضى ثبوتها
للتوع السكلى : الوجه الثامن عشر أن غاية ما ذكرتم من خطأ الوهم فى اعتقاده إضافة القبح
إلى ذات الفعل وحكمه بالاستقباح مطلقا بما قد يعرض فى بعض الأفعال فهل يلزم من ذلك
أنه حيث قضى بهاتين القضيتين يكون غالطا بالنسبة إلى كل فعل ونحن إنما علمنا غلظه
فما غلط فيه لقيام الدليل العقلى على غلظه فأما إذا كان الدليل العقلى مطابقا لحكمه من
آين الحكم الحكم بغلظه . فإن قائم إذا ثبت أنه يفاظ فى حكم ما لم يكن حكمه مقبولا
إذ لا ثقة بحكمه قلنا إذا جوزتم أن يكون فى الفطرة حاكم الوهم وحاكم العقل
ونسبتم حكم العقل إلى حكم الوهم وقلتم فى بعض القضايا التى يجزم العقل بها هى من
حكم الوهم لم يبق لكم وثوق بالقضايا التى يجزم بها العقل ويحكم بها لاحتمال أن يكون
مستندها حكم الوهم لا حكم العقل فلا بد لكم من التفريق بينهما ولا بد أن تكون
قضاياه ضرورية ابتداء وانتهاء وإذا جوزتم أن يكون بعض القضايا الضرورية وهمية لم
يبق لكم طريق إلى التفريق (الوجه التاسع عشر) أن هذا الذى فرضتموه فيمن يستبح
شيئاً لمخالفة غرضه ويستحسنه لموافقة غرضه أو بالعكس إنما مورده الحسنات غالباً كالمآكل
والملابس والمسكن والمناكح فإنها بحسب الدواعى والميول والعوائد والمناسبات فهى
إنما تكون فى الحركات وأما السكليات العقلية فلا تكاد تعارض تلك فلا يكون العدل والصدق
والإحسان حسنا عند بعض العقول قبيحاً عند بعضها كما يكون اللون أسود مشتبه حسنا
موافقاً لبعض الناس مبغوضاً مستقبحاً لبعضهم ومن اعتبر هذا بهذا فقد خرج واعتبر الشيء
بما لا يصح اعتباره به ويؤيد هذا (الوجه العشرون) أن العقل إذا حكم بقبح السكذب
والظلم والفواحش فإنه لا يختلف حكمه بذلك فى حق نفسه ولا غيره بل يعلم أن كل عقل
يستقبحها وأن كان يرتكبها لحاجته أو جهله فلما أصاب فى استقباحها أصاب فى نسبة القبح
إلى ذاتها وأصاب فى حكمه بقبحها مطلقا ومن غلطه فى بعض هذه الأحكام فهو الغالط عليه
وهذا بخلاف ما إذا حكم باستحسان مطعم أو ملبس أو مسكن أو لون فإنه يعلم أن غيره
يحكم باستحسان غيره وأن هذا مما يختلف باختلاف العوائد والأمم والأشخاص فلا يحكم
به حكما كلياً إلا حيث يعلم أنه لا يختلف كما يحكم حكما كلياً بأن كل ظمآن يستحسن شرب
الماء مالم يمنع منه مانع وكل مقرر يستحسن لباس ما فيه دفاؤه مالم يمنع منه مانع وكذلك كل
جائع يستحسن ما يدفع به سورة الجوع فهذا حكم كلى فى هذه الأمور المستحسنة لا غلط
فيه مع كون المحسوسات عرضة لاختلاف الناس فى استحسانها واستقباحها بحسب الأغراض

والعواد والإلف فما الظن بالأمور السكوية العقلية التي لا تختلف إنما هي نفى واثبات (الوجه الحادى والعشرون) قولكم من منارات الغلط إنما هو مخالف للغرض في جميع الأحوال إلا في حالة نادرة بل لا يلتفت الوهم إلى تلك الحالة النادرة بل لا يخطر بالبال فيقتضى بالقيح مطلقا لاستيلاء قبحه على قلبه وذهاب الحالة النادرة عن ذكره فحكه على الكذب بأنه قبيح مطلقا وعقلية (١) عن الكذب يستفاد به عصمة دم نبى أوولى وإذا قضى بالقيح مطلقا واستمر عليه مرة وتكرر ذلك على سماعه ولسانه انغرس في قلبه استباح مستند إلى آخر فضمونه بعد الأطالة أنه لو كان الكذب قبيحا لذاته لما تخلف عليه القبح ولكنه يتخلف إذا تضمن عصمة دم نبى ففى هذه الحالة ونحوها لا يكون قبيحا وهى حالة نادرة لا تكاد تخطر بالبال فيقتضى العقل بقيح الكذب مطلقا ويفعل عن هذه الحالة وهى تنافى حكمه ببقبحه مطلقا ثم تترك وينشأ على ذلك الاعتقاد فيظن أن قبحه لذاته مطلقا وليس كذلك وهذا بعد تسليمه لا يمنع كونه قبيحا لذاته وإن تخلف القبح عنه لمعارض راجح كما أن الاغذاء بالميتة والدم والحلم الخنزير يوجب نباتا خبيثا وإن تخلف عنه ذلك عند الخمصة كيف وقد بينا أن القبح لا يتخلف عن الكذب أصلا وأما إذا تضمن عصمة ولى فالحسن إنما هو التعريض . والصدق لا يقبح أبدا وإنما القبيح الإعلام به وفرق بين الخبر والإخبار فالقيح إنما وقع في الإخبار لافى الخبر ولو سلنا ذلك كله لتخلف الحكم العقلى اقيام مانع أو لفوات شرط غير مستنكر فهذه الشبهة من أضعف الشبهه وحسبك ضعفا بحكم إنما يستند إليها والى أمثالها (الوجه الثانى والعشرون) أن الوهم قد سبق إلى العكس كمن يرى شيئا مقرونا بشيء فيظن الشيء لا محالة مقرونا به مطلقا ولا يدري أن الأخص أبدأ مقرون بالأعم من غير عكس وتمثيكم ذلك بنفرة السالم من الحبل المرقش ونفور الطبع عن العسل إذا شبه بالعدرة إلى آخر ما ذكرتم من الأمثال كبنفرة الطبع عن الحسنة ذات الاسم القبيح ونفرة الرجل عن البيت الذى فيه الميت ونفرة كثير من الناس عن الأقوال الصحيحة التى تضاف إلى من يسيئون الظن بهم فنحن لا ننكر أن للوهم تأثير فى النفوس وفى الحب والبغض بل هو غالب على أكثر النفوس فى كثير من الأحوال ولكن إذا سلط عليه العقل الصريح تبين غلظه وأن ما حكم به إنما هو موهوم لا معقول كما إذا سلط العقل الصريح والحسن على الحبل المرقش تبين أن نفرة الطبع عنه مستندها الوهم الباطل وكذلك إذا سلط الذوق والعقل على العسل تبين أن نفرة للطبع عنه مستندها

(١) هكذا وقع فى الأصل وليجر من مظانه .

الوهم الكاذب وإذا تأمل الطرف محاسن الجميلة البديعة الجمال تبين أن نفرته عنها لقيح
اسمها وهم فاسد وإذا سلط العقل الصريح على الميت تبين أن نفرة الرجل عنه لتوهم حركته
وثورانه خيال باطل وهم فاسد وهكذا نظائر ذلك . . أفترى يلزم من هذا أنا إذا سلطنا
العقل الصريح على الكذب والظلم والفواحش والإساءة إلى الناس وكفران النعم وضرب
الوالدين والمباغلة في إهانتهم وسبهما وأمثال ذلك تبين أن حكمه بقبحها وهم منه ليكون نظير
ما ذكرتم من الأمثلة وهل في الاعتبار أفسد من اعتباركم هذا فإن الحكم فيما ذكرتم
قد تبين بالعقل الصريح والحس أنه حكم وهمي ونحن لا ننازع فيه ولا عاقل لأننا إن
سلطنا عليه العقل والحس ظهر أن مستنده الوهم وأما في القضايا التي ركب في
العقول والفطر حسنهما وقبحها فإننا إذا سلطنا العقل الصريح عليهما لم يحكم لها بخلاف
ما هي عليه أبدأ إلا أن يلجؤا إلى دبوس السارق وهو الصدق المتضمن هلاك والى
الكذب المتضمن عصمته وليس معكم ما تصولون به سواء وقد بينا حقيقة الأمر فيه
بما فيه كفاية وحتى لو كان الأمر فيهما كما ذكرتم قطعاً لم يجوز أن يبطل بهما ما ركب الله
في العقول والفطر وألزمها إياه التزاماً لا انفكاك لها عنه من استحسان الحسن واستقباح
القيح والحكم بقبحه والتفرقة العقلية التابعة لذواتهما وأوصافهما بينهما وقد أنكر الله
سبحانه على العقول التي جوزت أن يجعل الله فاعل القبيح وفاعل الحسن سواء ونزه نفسه
عن هذا الظن وعن نسبة هذا الحكم الباطل إليه ولولا أن ذلك قبيح عقلاً لما أنكره على
العقول التي جوزته فإن الإنكار إنما كان يتوجه عليهم بمجرد الشرع والخبر لا بانسداد ما ظنوه
عقلاً . ولا يقال فلو كان هذا الحكم باطلاً قطعاً لما جوزته أو أتمك العقلاء لأن هذا احتجاج
بعقول أهل الشرك الفاسدة التي عابها الله وشهد عليهم بأنهم لا يعقلون وشهدوا على أنفسهم
بأنهم لو كانوا يسمعون أو يعقلون ما كانوا في أصحاب السعير وهل يقال إن استحسان عبادة
الأصنام بعقولهم واستحسان التثايب والسجود للقمر وعبادة النار وتعظيم الصليب يدل
على حسنهما لاستحسان بعض العقلاء لها . فان قيل فهذا حجة عليكم فان عقول هؤلاء قد
قضت بحسنها وهي أقبح القبايح . قيل ما مثلنا ومثلكم في ذلك إلا كمثل من قال إذا كان
الأحوال يرى القمر اثنين لم يبق لنا وثوق بكون صحيح الفهم إذا ذاق الشيء المر يدوقه
عذبا وحلوا وإذا كان صاحب الفهم السقيم يعيب القول الصحيح ويشهد ببطلانه لم يبق
لنا وثوق بشهادة صاحب الفهم المستقيم بصحته إلى أمثال ذلك فإذا كانت فطرة أمة من
الأمم وشرذمة من الناس وعقولهم قد فسدت فهل يلزم من هذا إبطال شهادة العقول السليمة
والفطر المستقيمة . ولو صح الحكم هذا الاعتراض لبطل استدلالكم على كل منازع الحكم في

كل مسألة فإنه عاقل وقد شهد عقله بها بخلاف قولكم وكفى بهذا فساداً وبطلاناً وكفى برد العقول وسائر العقلاء له والحمد لله رب العالمين .

(الوجه الثالث والعشرون) قولكم ان الملك العظيم إذا رأى مسكيناً مشرفاً على الهلاك استحسناً انقاذه والسبب في ذلك دفع الأذى الذي يلحق الإنسان من رقة الجنسية وهو طبع يستحيل الانفكاك عنه إلى آخره كلام في غاية الفساد فان مضمونه أن هذا الإحسان العظيم والتنزل من مثل هذا الملك القادر إلى الإحسان إلى مجرود مضرور قد مسه الضرر وتقطعت به الأسباب وانقطعت به الحيل ليس فعلاً حسناً في نفسه ولا فرق عند العقل بين ذلك وان يلتقي عليه حجراً يعرفه وإنما مال إليه طبعه لرقة الجنسية ولتصويره نفسه في تلك الحال واحتياجه إلى من ينقذه والافلو جردنا النظر إلى ذات الفعل وضرربنا صفحاً عن لوازمه وما يقترن به ويبعث عليه لم يقض العقل بحسنه ولم يفرق بينه وبين القاء حجر عليه حتى يعرفه هذا قول يكفي في فساده مجرد تصورهِ وليس في المقدمات البدئية ماهو أجلي وأوضح من كون مثل هذا الفعل حسناً لذاته حتى يحتج بها عليه فان الاحتجاج إنما يكون بالأوضح على الأخرى فاذا كان المطلوب المستدل عليه أوضح من الدليل كان الاستدلال عناء وكلمة ولكن تصور الدعوى ومقابلتها تصويراً مجرداً يعرضان على العقول التي لم يسبق إليها تقليد الآراء ولم يتواطأ عليها ويتلقاها صاغر عن كبر وولد عن والد حتى نشأت معها بنشئها فهي تسعى بنصرتها بما دب ودرج من الأدلة لاعتقادها أولاً أنها حق في نفسها لإحسانها الظن بآبائها فلو تجردت من حب من ولدته وبغض من خالفته وجردت النظر وصابرت العلم وتابعت المسير في المسئلة إلى آخرها لأوشك أن تعلم الحق من الباطل ولكن هجك الشيء يعنى ويصم * والناظر بعين البغض يرى المحاسن مساوى هذا في إدراك البصر مع ظهوره ووضوحه فكيف في إدراك البصيرة لاسيما إذا صادف مشكلاً فهذه بلية أكثر العالم .

فان تنج منها تنج من ذى عظيمه وإلا فاني لا إخالك ناجياً

(الوجه الرابع والعشرون) أن اقتران هذه الأمور التي ذكرتموها من رقة الجنسية وتصور نفسه بصورة من يريد انقاذه ونحوها هي أمور تقترن بهذا الإحسان فيقوم الباعث على فعله ولا يوجب تجرده عن وصف يقتضى حسنه وإن يكون ذاته مقتضية لحسنه وإن اقترن بفعل هذا الأمور وما مثلكم في ذلك إلا كمثل من قال إن تناول الأطعمة والأغذية والأدوية ليس حسناً لذاته فانه يقترن بمناولها من لذة المرة لضم المعدة ما يوجب نزوعها إلى طلب الغذاء لقيام البنية وكذلك الأدوية وغيرها ومعلوم ان هذه البواعث والدواعي وأسباب الميول لا ينافي الاقتضاء الذاتي وقيام الصفات التي تقتضى الانتفاع بها فكذلك تلك

البواعث والدواعى وأسباب الميول التى تحصل لفاعل الإحسان ومنقذ الغريق والحريق وما ينجى الهالك لا ينافى ما عليه هذه الأفعال فى ذواتها من الصفات التى تقتضى حسنها وقبح أضرارها (الوجه الخامس والعشرون) قولكم أنه يقدر نفسه فى تلك الحال وتقديره غيره معرضان للإنقاذ فيستبجحه منه لمخالفته غرضه فيدفع عن نفسه ذلك القبح المتوهم فيقال هذا القبح المتوهم إنما نشأ عن القبح المحقق فى ترك الإحسان إليه مع قدرته عليه وعدم تضرره به فالقبح محقق فى ترك إنقاذه ومتوهم فى تصويره نفسه بتلك الحال وعدم إنقاذه غيره له فلولا تلك الحقيقة لم يحكم العقل بهذا القبح الموهوم وكون الإنقاذ موافقا للغرض وتركه مخالفا له لا ينبغي أن يكون فى ذاته حسنا وقبيحا ملائما وافق الغرض أو خالفه لما انصفت به ذاته من الصفات المتقضية لهذه الموافقة والمخالفة (الوجه السادس والعشرون) قولكم فلو فرض هذا فى بهيمة أو شخص لارفة فيه فيبقى أمر آخر وهو طلب الثناء على إحسانه فيقال طلب الثناء يقتضى أن هذا الفعل بما يتعلق به الثناء وما ذلك إلا لأنه فى نفسه على صفة تقتضى الثناء على فاعله ولو كان هذا الفعل مساويا لضده فى نفس الأمر لم يتعلق الثناء به والذم بضده . وفعله لتوقع الثناء لا ينفى أن يكون على صفة لأجلها استحق فاعله الثناء بل هو باقتضاء ذلك أولى من نفيه (الوجه السابع والعشرون) قولكم فإن فرض فى موضع يستحيل أن يعلم فيبقى ميل وترجيح يضاهى نفرة طبع السليم عن الحبل وذلك أنه رأى هذه الصورة مقرونة بالثناء فيظن أن الثناء مقرون بها بكل حال كما أنه لما رأى الأذى مقرونا بصورة الحبل وطبعه ينفر عن الأذى فينفر عن المقرون به فالمتعرون باللذيد لذيد والمقرون بالمكروه مكروه (فيقال يا عجبا) كيف يرد أعظم الإحسان الذى فطر الله عقول عباده وفطرهم على إحسانه حتى لو تصور نطق الحيوان البهيم لشهد باستحسانه إلى مجرد وهم وخيال فاسد يشبه نفرة طبع الرجل السليم عن حبل مرقش . فتأمل كيف يحمل نفرة الآراء المتقلدة وبعض مخالفتها على أمثال هذه الشنع وهل سوى الله سبحانه فى العقول والفطر بين إنقاذ الغريق والحريق وتحليل الأسير من عدوه وإحياء النفوس وبين نفرة طبع السليم عن حبل مرقش لتوهمه أنه حية وقد كان مجرد تصور هذه الشبهة كافيا فى العلم ببطلانها ولما كنا زدنا الأمر إيضاحا وبيانا (الوجه الثامن والعشرون) قولكم الإنسان إذا جالس من عشقه فى مكان فاذا انتهى إليه أحس فى نفسه تفرقة بين ذلك المكان وغيره واستشهادكم على ذلك بقول الشاعر أمر على الديار ديار ليلى . وقوله . وحبب الرجال إليهم . (فيقال) لا ريب أن الأمر هكذا ولكن هل يلزم من هذا استواء الصدق والكذب فى نفس الأمر واستواء العدل والظلم والبر والفجور والإحسان والإساءة بل هذا المثل نفسه حجة عليكم فإنه لم يمل طبعه

إلى ذلك المسكان مع مساواته لجميع الأمكنة عنده وكذلك حنينه إلى وطنه ومحبة له وكذلك حنينه إلى إلفه من الناس وغيرهم فإن هذا لا يقع منه مع تساوى تلك الأماكن والأشخاص عنده بل لظنه اختصاصهما بأمر لا توجد في سواهما فترتب ذلك الحب والميل على هذا الظن ثم له حالان . أحدهما أن يكون كما ظنه بل ذلك المسكان أو الشخص مساو لغيره وربما يكون غيره أكمل منه في الأوصاف التي تقتضى حبه والميل إليه فهذا إذا ساط العقل الحس على سبب ميله وحبه علم أنه مجرد إلف أو عادة أو تذكراً أو تخيل وهذا الوهم مستند إلى ما تقرر في العقل من أن اختصاص الحب والميل بالشئ دون غيره لما اختص به من الصفات التي اقتضت ذلك وكذلك تعلق النفرة والبغض به ثم تغلب الوهم حتى يتخيل أن تلك الصفات باينة عن المحل وأيست فيه بل يكون المحل مقروناً بتلك الصفات فيحب ويبغض لأجل تلك المفارقة فقارن المحبوب محبوب ومقارن المكروه مكروه كقوله

وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

وقول الآخر

إذا ذكروا وطنهم ذكرتهم وعهوداً جرت فيها فحنوا لذالك (١)

(الوجه التاسع والعشرون) قولكم إن الصبر على السيف في ترك كلمة الكفر لا يستحسنه العقل لولا الشرع بل ربما استقبحوه وإنما يستحسن الثواب أو الثناء بالشجاعة وكذلك بالصبر على حفظ السر والوفاء بالعهد لما في ذلك من المصالح فإن فرض حيث لا تنافيه فقد وجد مقرراً بالثناء فيبقى ميل الوهم للمقرون (فيقال) لكم استحسان الشرع له مطابق لاستحسان العقل لا مخالف وكذلك انتظار الثواب به وهو حسنة في نفسه وكذلك المصالح المترتبة على حفظ السر والوفاء بالعهد هي لما قام بذوات هذه الأفعال من الصفات التي أوجبت المصالح إذ لو سأت غير هالم تكن باقتضاء المصلحة أولى منها (وقولكم) أنه إذا وجب فرض حيث لا ثناء ينفي ميل الوهم للمقارنة فقد تقدم أن هذا الميل تبع للحقيقة وأنه يستحيل وجوده في فعل لا تقتضى ذاته المصلحة والاستحسان وأن حصول الوهم المقارن تبع للحقيقة الثابتة لاستحالة حصول هذا الوهم في فعل لا تكون ذاته منشأ الأمر الموهوم فيتوهم الذهن حيث تلتقي الحقيقة (الوجه الثلاثون) قولكم إن من عرضت له حاجة وأمكن قضاءها بالصدق والكذب وأنه إنما يؤثر الصدق لأنه وجد مقرراً بالثناء فهو يؤثر لما يقترن به من الثناء (جوابه) أيضاً ما تقدم وأن اقترانه بالثناء لما اختص به من الصفات التي اقتضت الثناء على فاعله كيف والكذب يتضمن لفساد تظلم العالم ولا يمكن قيام العالم عليه لاني معاشهم ولا في معادهم بل هو يتضمن لفساد المعاش والمعاد ومفاسد الكذب اللازمة له معلومة عند خاصة الناس وعامتهم كيف وهو منشأ كل شر وفساد

(١) هكذا في الأصل ولم يكن بيدنا من أول الباب إلا أصلاً واحداً فايحبر.

الأعضاء لسان كذب وكف قذازيلت بالكذب مزدول ومالك وخربت به من بلادواستلبت به من نعم وتعطلت به من معاش وفسدت به مصالح وغرست به عداوات وقطعت به مودات واقتقر به غنى وذل به عزيز وهتكت به مصونة ورميت به محصنة وخلت به دوروقصور وعمرت به قبور وأزبل به أنس واستجلبت به وحشة وأفسد به بين الإبن وأبيه وغاض بين الأخ وأخيه وأحال الصديق عدواً مميئناً ورد الغنى العزيز مسكيناً وكف فرق بين الحبيب وحبيبه فأفسد عليه عيشته ونغص عليه حياته وكف جلا عن الأوطان وكف سود من وجوه وطمس من نور وأعمى من بصيرة وأفسد من عقل وغير من فطرة وجلب من معرفة وقطعت به السبل وعفت به معالم الهداية ودرست به من آثار النبوة وخفيت به من مصالح العباد في المعاش والمعاد وهذا وأضعافه ذرة من مفاسده وجناح بعوضة من مضاره ومصالحه إلا فاقا يجلبه من غضب الرحمن وحرمان الجنان وحلول دار الهوان أعظم من ذلك وهل ملئت الجحيم إلا بأهل الكذب الكاذبين على الله وعلى رسوله وعلى دينه وعلى أوليائه المالكذابين بالحق حمية وعصبية جاهلية وهل عمرت الجنان إلا بأهل الصدق الصادقين المصدقين بالحق قال تعالى (فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين) والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين) وإذا كانت هذه حال الكذب والصدق فمن أبطل الباطل دعوى تساويهما وان العقل إنما يؤثر الصدق لتوهم اقترانه بالثناء وإنما يتجنب الكذب لتوهم اقترانه بالقيح كتوهم اقتران اللسع في الحبل المرقش ورد استقباح هذه المفاسد والمقابح التي لا أقبح منها إلى مجرد وهم باطل شبه نفرة الطبع عن الحبل المرقش ونفس العلم بهذه المقاتلة كاف في الجزم ببطلانها ولو ذهبنا نعدد قبائح الكذب الناشئة من ذاته وصفاته لزادت عن الألف وما من عاقل إلا وعنده العلم ببعض ذلك علماً ضرورياً مركزاً في فطرته فما سوى الله بينه وبين الصدق أبداً ودعوى استوائهما كدعوى استواء النور والظلمة والكفر والإيمان وخراب العالم وإهلاك الحرث والنسل وعمارة بل كدعوى استواء الجوع والشمع والرى والظما والفرح والغم وأنه لا فرق عند العقل بين علمه بهذا وهذا (الوجه الحادى والثلاثون) قولكم الصدق والكذب متنافيان ومن المحال تساوى المتنافيين في جميع الصفات إلى آخره إقرار منكم بالحق ونقض لما أصلتموه فإنهما إذا كانا متنافيين ذاتاً وصفاتاً لم يرجع الفرق بينهما استحساناً واستقباحاً إلى مجرد العادة والمنشأ والوباء أو مجرد التدين بالشرائع بل يكون مرجع الفرق إلى ذاتهما وأن ذات هذا مقتضية لحسنه وذات هذا مقتضية لقبحه وهذا هو عين الصواب لولا أنسك لا تثبتون علمه وتصرحون بأن الفرق بينهما سببه العادة والتربية والمنشأ والتدين بشرائع الأنبياء حتى لو فرض انتفاء ذلك لم يؤثر الرجل الصدق على الكذب وهل في التناقض أقيح من هذا .

(الوجه الثاني والثلاثون) قولكم أن غاية هذا أن يدل على قبح الكذب وحسن الصدق .
شاهداً ولا يلزم منه حسنه وقبحه وغائباً إلا بطريق قياس الغائب على الشاهد وهو باطل
لوضوح الفرق واستنادكم في الفرق إلى ما ذكرتم من تخليمة الله بين عباده يوجب بعضهم في
بعض ظلماً وإفساداً وقبح ذلك مشاهد (فيالله العجب) كيف يجوز العقل التزام مذهب ملتزم
ممه جواز الكذب على رب العالمين وأصدق الصادقين وأنه لا فرق أصلاً بالنسبة إليه بين
الصدق والكذب بل جواز الكذب عليه سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً كجواز
الصدق وحسنه لحسنه وهل هذا إلا من أعظم الإفك والباطل ونسبته إلى الله تعالى جوازاً
كنسبة ما لا يليق بجلاله إليه من الولد والزوجة والشريك بل لنسبة أنواع الظلم والشر إليه
جوازاً تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً (فمن أصدق من الله حديثاً ومن أصدق من الله
قيلاً) وهل هذا إلا إفك المفتري إلا رافع للوثوق بأخباره ووعده ووعيدته وتجويزه عليه
وعلى كلامه ما هو أقيح القبايح التي تنزه عنها بعض عبيده ولا يليق به فضلاً عنه سبحانه فلو
التزم كل إلزام بلزوم مسمى الحسن والقبح العقليين لكان أسهل من التزام هذا الإد التي
تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هذا ولا نسبة في القبح بين الولد
والشريك والزوجة وبين الكذب ولهذا فطر الله عقول عباده على الازدراء والذم والمقت
للكاذب دون من له زوجة وولد وشريك فتزده أصدق الصادقين عن هذا القبيح كتزده عن
الولد والزوجة والشريك بل لا يعرف أحد من طوائف هذا العالم جواز الكذب على الله
لما فطر الله عقول البشر وغيرهم على قبحه ومقت فاعله وخسته ودناءته . ونسبة طوائف
المشركين الشريك والولد إليه المالم يكن قبحه عندهم كقبح الكذب وكفى بذهاب بطلانا وفسادا
هذا القول العظيم والإفك المدين لازمه ومع هذا فأهل لا يتحاشون من التزامه فلو التزم القائل
أن يذهب الذم كان خيراً له من هذا ونحن نستغفر الله من التقصير في رد أهل المذهب القبيح
ولكن ظهور قبحه للعقول والفطر أقوى شاهد على رده وإبطاله ولقد كان كافينا من رده
نفس تصويره وعرضه على عقول الناس وفطرهم فليستأمل اللبيب الفاضل ماذا يعود إليه نصر
المقالات والتعصب لها والتزام لوازمها وإحسان الظن بأربابها بحيث يرى مساوئهم محاسن
وإساءة الظن بمخسومهم بحيث يرى محاسنهم مساوئهم كما أفسد هذا السلوك من فطرة وصاحبها
من الذين يحسبون أنهم على شيء إلا إنهم هم الكاذبون ولا يتعجب من هذا فإن مرآة القلب
لا يزال يتنفس فيها حتى يستحکم صداؤها فليس يبدع لها أن ترى الأشياء على خلاف
ما هي عليه فبدأ الهدى والفلاح صقال تلك المرأة ومنع الهوى من التنفس فيها
وقتح عين البصيرة في أقوال من يسىء الظن بهم كما يقبحها في أقوال من يحسن الظن به وقيامك

الله وشهادتك بالقسط وأن لا يحملك بغض منازعك وخصومك على جحد دينهم وتقييح محاسنهم وترك العدل فيهم فإن الله لا يعتد بتعب من هذا نشاء ولا يجدي علمه نفعاً أحوج ما يكون إليه والله يحب المقسطين ولا يحب الظالمين ﴿الوجه الثالث والثلاثون﴾ قوله كم أن مستند الحكم يقبح الكذب غائباً على الشاهد وهو فاسد ﴿فيقال﴾ الرب تعالى لا يدخل مع خلقه في قياس تمثيل ولا قياس شهود يستوى أفراداً فهذان الفرعان من القياس يستحيل ثبوتهما في حقه وأما قياس الأولى فهو غير مستحيل في حقه بل هو واجب له وهو مستعمل في حقه عقلاً ونقلًا أما العقل فكاستدلنا على أن معطى السكال أحق بالسكال فمن جعل غيره سميعاً بصيراً عالماً متكلماً حياً حكماً قادراً مريداً رحياً محسناً فهو أولى بذلك وأحق منه ويثبت له من هذه الصفات أكملها وأتمها وهذا مقتضى قولهم كمال المعلول مستفاد من كمال علته ولكن نحن ننزه الله عز وجل عن إطلاق هذه العبارة في حقه بل نقول كل كمال ثبت للخلق غير مستلزم للنقص بخالفه ومعطيه إياه أحق بالإتصاف به وكل نقص في المخلوق فالخالق أحق بالتنزه عنه كالكذب والظلم والسفه والعيوب بل يجب تنزيه الرب تعالى عن كل النقائص والعيوب مطلقاً وإن لم يتنزه عنها بعض المخلوقين وكذلك إذا استدللنا على حكمته تعالى بهذه الطرائق نحو أن يقال إذا كان الفاعل الحكيم الذي لا يفعل فعلاً إلا للحكمة وغاية مطلوبه له من فعله أكمل ممن يفعل لا لغاية ولا للحكمة ولا لأجل عاقبة محمودة وهي مطلوبة من فعله في الشاهد ففي حقه تعالى أولى وأحرى فإذا كان الفعل للحكمة كإلا فينا فالرب تعالى أولى به وأحق وكذلك إذا كان التنزه عن الظلم والكذب كإلا في حقنا فالرب تعالى أولى وأحق بالتنزه عنه وبهذا ونحوه ضرب الله الأمثال في القرآن وذكر العقول ونبيها وأرسلها إلى ذلك كقوله (ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سليماً لرجل هل يستويان مثلاً) فهذا مثل ضربه يتضمن قياس الأول يعني إذا كان المملوك فيكم له ملاك مشتركون فيه وهم متنازعون ومملوك آخر له مالك واحد فهل يكون هذا وهذا سواء فإذا كان هذا ليس عندكم كمن له رب واحد ومالك واحد فكيف ترضون أن تجعلوا لأنفسكم آلهة متعددة تجعلونها شركاء لله تحبونها كما يحبونه وتخافونها كما يخافونه وترجونها كما يرجونه وكقوله تعالى (وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم) يعني أن أحدكم لا يرضى أن يكون له بنت فكيف تجعلون لله مالا ترضونه لأنفسكم وكقوله (ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سرا وجهراً هل يستويون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل

يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم) يعنى إذا كان لا يستوى عندكم عبد مملوك لا يقدر على شيء وغنى موسع عليه ينفق مما رزقه الله فكيف تجعلون الصنم الذى هو أسوأ حالا من هذا العبد شريكاً لله وكذلك إذا كان لا يستوى عندكم رجلان أحدهما أبكم لا يعقل ولا ينطق وهو مع ذلك عاجز لا يقدر على شيء . وآخر على طريق مستقيم فى أقواله وأفعاله وهو أمر بالعدل عامل به لأنه على صراط مستقيم فكيف تسوون بين الله وبين الصنم فى العبادة ونظائر ذلك كثيرة فى القرآن وفى الحديث كقوله فى حديث الحارث الأشعري وإن الله أمركم أن تعبدوه لا تشركوا به شيئاً وإن مثل من أشرك كشل رجل اشترى عبداً من خالص ماله وقال له اعمل وأد إلى فكان يعمل ويؤدى إلى غيره فأبكم يجب أن يكون عبده كذلك فآله سبحانه لا تضرب الأمثال التى يشترك هو وخلقها فيها لا شمولاً ولا تمثيلاً وإنما يستعمل فى حقه قياس الأولى كما تقدم (الوجه الخامس والثلاثون) إن النفاة إنما ردوا على خصومهم من الجهمية المعتزلة فى إنكار الصفات بقياس الغائب على الشاهد فقالوا العالم شاهداً من له العلم والمتكلم من قام به السلام والحى والمريد والقادر من قام به الحياة والإرادة والقدرة ولا يعقل إلا هذا قالوا ولأن شرط إطلاق الإسم شاهداً وجود هذه الصفات ولا يستحق الإسم فى الشاهد إلا من قامت به فكذلك فى الغائب . قالوا ولأن شرط العلم والقدرة والإرادة فى الشاهد الحياة فكذلك فى الغائب . قالوا ولأن علم كون العالم عالماً شاهداً وجود العلم وقيامه به فكذلك فى الغائب فقالوا بقياس الغائب على الشاهد فى العلة والشرط والاسم والحد فقالوا حد العالم شاهداً من قام به العلم فكذلك غائبا وشرط صحة إطلاق الاسم عليه شاهداً قيام العلم به فكذلك غائبا وعليه كونه عالماً شاهداً قيام العلم به فكذلك غائبا فكيف تنكرون هنا قياس الغائب على الشاهد وتحتجون به فى مواضع أخرى فأى تناقض أكثر من هذا فإن كان قياس الغائب على الشاهد باطلاً بطل احتجاجكم علينا به فى هذه المواضع وإن كان صحيحاً بطل ردكم فى هذا الموضوع فأما أن يكون صحيحاً إذا استدللتم به باطلاً إذا استدللتم به خصوصاً فهذا أقبح التطفيف وقبحه ثابت بالعقل والشرع .

(الوجه السادس والثلاثون) قولكم إن الله خلق بين العباد وظلم بعضهم بعضاً وأن ذلك ليس بقبيح منه فإنه قبيح منافذ لك فاسد على أصل التكليف فإن التكليف إنما يتم بإعطاء القدرة والاختيار والله تعالى قد أقر عباده على الطاعات والمعاصى والصالح والفساد وهذا الإقدار هو مناط الشرع والأمر والنهى فلولا لم يكن شرع ولا رسالة ولا ثواب ولا عقاب وكان الناس بمنزلة الجمادات والأشجار والنبات فلو حال سبحانه بين العباد وبين القدرة على المعاصى لارتفع الشرع والرسالة والتكليف وانقضت فوائد البعث ولزم من ذلك أو ازم لا يحبها الله وتعطلت

به غايات محمودة محبوبة لله وهي ملزومة لإفادار العباد وتمكينهم من الطاعة والمعصية ووجود الملزوم بدون اللازم محال وقد نهينا على شيء يسير من الحكم المطلوبة والغايات المحمودة فيما سلف من هذا الفصل وفي أول السكتاب فلو أن الرب تعالى خلق خلقه ممنوعين من المعاصي غير قادرين عليها بوجه لم يكن لأرسال الرسل وإنزال السكتب والأمر والنهي والثواب والعقاب سبب يقتضيه ولا حكمة تستدعيه وفي ذلك تعطل الأمر جملة بل تعطيل الملك والحمد والرب تعالى له الخلق والأمر وله الملك والحمد والغايات المطلوبة والعواقب المحمودة التي لأجلها أنزل كتبه وأرسل رسله وشرع شرائعه وخلق الجنة والنار ووضع الثواب والعقاب وذلك لأ يحصل إلا بأفادار العباد على الخير والشر وتمكينهم من ذلك فأعطاهم الأسباب والآلات التي يتمكنون بها من فعل هذا وهذا فلقدنا حسن منه تبارك وتعالى التخلية بين عباده وبين ما هم فاعلوه وقبح من أحدنا أن يخلى بين عبده وبين الإفساد وهو قادر على منعهم هذا مع أنه سبحانه لم يخل بينهم بل منعهم منه وحرمه عليهم ونصب لهم العقوبات الدنيوية والأخروية على القبائح وأحل لهم من بأسه وعذابه وانتقامه ما لا يفعله السيد من المخلوقين بعبده ليعلمهم ويزجرهم فقولكم أنه خلى بين عباده وبين إفساد بعضهم بعضاً وظلم بعضهم بعضاً ككذب عليه فإنه لم يخل بينهم شرعاً ولا قدراً بل حال بينهم وبين ذلك شرعاً أتم حيلولة ومنعهم قدراً بحسب ما تقتضيه حكيمته الباهرة وعلمه المحيط وخلى بينهم وبين ذلك بحسب ما تقتضيه حكيمته وشرعه ودينه فمنعه سبحانه لهم حيلولته بينهم وبين الشر أعظم من تخليته والقدر الذي خلاه بينهم في ذلك هو ملزوم أمره وشرعه ودينه فالذي فعله في الطرفين غاية الحكمة والمصلحة ولا نهاية فوقه لا اقتراح عقل ولو خلى بينهم كما زعمتم لسكانوا بمنزلة الأنعام السائمة بل لو تركهم ودواعي طباعهم لأهلك بعضهم بعضاً وخرب العالم ومن عليه بل ألجمهم لجام العجز والمنع من كل ما يريدون فلو أنه خلى بينهم وبين ما يريدون لفسدت الخليقة كما ألجمهم بلجام الشرع والأمر ولو منعهم جملة ولم يمكنهم ولم يقدرهم لتعطل الأمر والشرع جملة وانتقت حكمة البعثة والإرسال والثواب والعقاب فأى حكمة فوق هذه الحكمة وأى أمر أحسن مما فعله بهم ولو أعطى الناس هذا المقام بعض حقه لعلموا أنه مقتضى الحكمة البالغة والقدرة التامة والعلم المحيط وأنه غاية الحكمة ومن فتح له بفهم في القرآن رآه من أوله إلى آخره ينبه العقول على هذا ويرشدها إليه ويدلها عليه وأنه يتعالى ويتنزه أن يكون هذا منه عبثاً أو سدى أو باطلاً أو بغير الحق أو لاملعنى ولا لداع وباعت وإن مصدر ذلك جميعه عن عزته وحكمته ولهذا كثيراً ما يقرن تعالى بين هذين الاسمين العزيز الحكيم في آيات التشريع والتكوين والجزاء ليدل عباده على أن مصدر ذلك كله عن حكمة بالغة وعزة فاهرة ففهم الموفقون عن الله عز وجل مراده وحكمته وانتهوا إلى ما وقفوا عليه

ووصلت إليه أفهامهم وعلومهم وردوا علم ما غاب عنهم إلى أحكم الحاكمين ومن هو بكل شيء عليم وتحققوا بما عملوه من حكمته التي بهرت عقولهم ان الله في كل ما خلق وأمر وأثاب وعاقب من الحكم البوالغ ما تنقص عقولهم عن إدراكه وأنه تعالى هو الغني الحميد العليم الحكيم فصدر خلقه وأمره وثوابه وعقابه غناه وحده وعلمه وحكمته ليس مصدره مشيئة مجردة وقدرة خالية من الحكمة والرحمة والمصلحة والغايات المحمودة المطلوبة له خلقا وأمرأ وأنه سبحانه لا يسأل عما يفعل لسكال حكمته ووقوع أفعاله كلها على أحسن الوجوه وأتمها على الصواب والسداد ومطابقة الحكم والعباد يستلون إذ ليست أفعالهم كذلك ولهذا قال خطيب الأنبياء شعيب صلى الله عليه وسلم (إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم) فأخبر عن عموم قدرته تعالى وأن الخلق كلهم تحت تسخيريه وقدرته وأنه آخذ بناصيتهم فلا يحيص لهم عن نفوذ مشيئته وقدرته فيهم ثم عقب ذلك بالآخبار عن تصرفه فيهم وأنه بالعدل لا بالظلم وبالاحسان لا بالإساءة وبالاصلاح لا بالفساد فهو يأمرهم وينهاهم لإحسانا إليهم وحماية وصيانه لهم ولا حاجة إليهم ولا بخلا عليهم بل جودا وكرما واطفارا برا ويثيبهم إحسانا وتفضلا ورحمة لالمعاوضة واستحقاق منهم ودين واجب لهم يستحقونه عليه ويعاقبهم عدلا وحكمة لا تشفيا ولا مخافة ولا ظلما كما يعاقب الملوك وغيرهم بل هو على الصراط المستقيم وهو صراط العدل والإحسان في أمره ونهيه وثوابه وعقابه فتأمل ألفاظ هذه الآية وما جمعت من عموم القدرة وكال الملك ومن تمام الحكمة والعدل والإحسان وما تضمنته من الرد على الطائفتين فإنها من كنوز القرآن ولقد كتفت وشفت لمن فتح عليه بفهمها فكونه تعالى على صراط مستقيم ينفي ظلمه للعباد وتكليفه إياهم ما لا يطيقون وينفي العيب من أفعاله وشرعه ويثبت لها غاية الحكمة والسداد ردا على منكري ذلك وكون كل دابة تحت قبضته وقدرته وهو آخذ بناصيتها ينبغى أن لا يقع في ملكه من أحد المخلوقات شيء بغير مشيئته وقدرته وأن من ناصيته بيد الله وفي قبضته لا يمكنه أن يتحرك إلا بتحركه ولا يفعل إلا باقداره ولا يشاء إلا بمشيئته تعالى ردا على منكري ذلك من القدرية فالطائفتان ما وفوا الآية معناها ولا قدروها حق قدرها فهو سبحانه على صراط مستقيم في عطاءه ومنعه وهدايته وإضلاله وفي نفعه وضره وعافيته وبلائه وإغناؤه وإفقاره وإعزازه وإذلاله وإنعامه وانتقامه وثوابه وعقابه وأحيائه واماتته وأمره ونهيه وتحليله وتحريره وفي كل ما يخلق وكل ما يأمر به وهذه المعرفة بالله لا تكون إلا للأنبياء ولورثتهم ونظير هذه الآية قوله تعالى (وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم فالمثل الأول للضمن وعابديه والمثل الثاني ضرب به الله تعالى لنفسه وأنه يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم فكيف يسوى بينه وبين الضمن الذي له مثل السوء فما فعله الرب تبارك

وتعالى مع عباده هو غاية الحكمة والإحسان والعدل في إقدارهم وإعطائهم ومنعهم وأمرهم
 ونهيهم فدعوى المدعى أن هذا نظير تخلية السيد بين عبيده وإمائه يفجر بعضهم ببعض ويسىء
 بعضهم بعضا أكذب دعوى وأبطلها والفرق بينهما أظهر وأعظم من أن يحتاج إلى ذكره
 والتنبية عليه والحمد لله الغنى الحميد فغناه التام فارق وحمده وملكه وعزته وحكمته وعلمه
 وإحسانه وعدله ودينه وشرعه وحكمه وكرمه ومحبته المغفرة والعفو عن الجناة والصفح عن
 المسيئين وتوبة التائبين وصبر الصابرين وشكر الشاكرين الذين يؤثرونه على غيره ويتطلبون
 مرضيه ويعبدونه وحده ويسيرون في عبيده بسيرة العدل والإحسان والنصائح ويجاهدون
 أعداءه فيبينلون دماءهم وأمواهم في محبته ومرضاته فيتميز الخبيث من الطيب ووليه من عدوه
 ويخرج طبيبات هؤلاء وخبائث أولئك إلى الخارج فينرتب عليها آثارها المحبوبة للرب تعالى
 من الثواب والعقاب والحمد لأولياته والذم لأعدائه وقد نبه تعالى على هذه الحكمة في كتابه
 في غير موضع كقوله تعالى (ما كان الله لينذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من
 الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكنه الله يجتبي من رسله من يشاء) هذه الآية من
 كتوز القرآن نبه فيها على حكمته تعالى المقتضية تميز الخبيث من الطيب وأن ذلك التمييز لا يقع إلا
 برسله فاجتبي منهم من شاء وأرسله إلى عباده فيتميز برسلاتهم الخبيث من الطيب والولى من العدو ومن
 يصلح لمجاورته وقربه وكرامته مما يصلح للإلوقود وفي هذا تنبيه على الحكمة في إرسال
 الرسل وأنه لا بد منه وان الله تعالى لا يليق به الإخلال به وان من جحد رسالة رسله فما قدره
 حق قدره ولا عرفه حق معرفته ونسبه إلى ما لا يليق به كما قال تعالى (وما قدروا الله حق قدره
 إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء) فتأمل هذا الموضع حق التأمل واعطه حظه من الفكر
 فلولم يكن في هذا الكتاب سواه لكان من أجل ما يستفاد والله الهادى إلى سبيل الرشاد الوجه
 السابع والثلاثون ﴿ قواكم أن الاغراق والإهلاك بنحس منه تعالى وهو أقيس شيء منا فكيف
 يدعون حسن إنقاذ الغرقى عقلا إلى آخره كلام فاسد جدا فان الإغراق والإهلاك من الرب
 تعالى لا يخرج عن المصلحة والعدل والحكمة فانه إذا أغرق أعداءه وأهلكهم وانقم
 منهم كان هذا غاية الحكمة والعدل والمصلحة وإن أغرق أوليائه وأهل طاعته
 فهو سبب من الأسباب التي نصبها لموتهم وتخليصهم من الدنيا والوصول الى دار كرامته ومحل
 قربه ولا بد من موت على كل حال فاختر لهم أكمل الموتين وأنفعهما لهم في معادهم ليوصلهم
 الى درجات عالية لانتمال الا بتلك الأسباب التي نصبها الله موصلا كما يصل سائر الأسباب
 الى مسيئاتها ولهذا سلط على أنبيائه وأوليائه ما سلط عليهم من القتل وأذى الناس وظلمهم
 لهم وعدوانهم عليهم وما ذاك لوانهم عليه ولا لكرامة أعدائهم عليه بل ذاك عين كرامتهم
 وهوان أعدائهم عليه وسقوطهم من عينه لينالوا بذلك ما خلقوا له من مساكنتهم في دار

الموان وينال أولياؤه وحزبه ماهيهم لهم من الدرجات العلى والنعيم المقيم فكل تسليط أعدائه وأعدائهم عليهم عين كرامتهم وعين إهانة أعدائهم فهذا من بعض حكمه تعالى في ذلك ووراء ذلك من الحكم ما لا تبلغه العقول والأفهام وكان إغراقه وإهلاكه وابتلاؤه محض الحكمة والعدل في حق أعدائه ومحض الإحسان والفضل والرحمة في حق أوليائه فلماذا حسن منه . ولعل الإغراق وتسليط القتل عليهم أسهل الموتين عليهم مع ما في ضمنه من الثواب العظيم فيكون وقد بلغ حسن اختياره لهم إلى أن خفف عليهم الموتة وأعاضهم عليها أفضل الثواب فإنه لا يجد الشهيد من ألم القتل إلا كس القرصة .

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تنوعت الأسباب والموت واحد

فليس إمامة أوليائه شهداء بيد أعدائه إهانة لهم ولا غضبا عليهم بل كرامة ورحمة وإحسانا ولطفاً وكذلك الغرق والحرق والردم والتردى والبطن وغير ذلك والمخلوق ليس بهذه المثابة فلماذا قبح منه الإغراق والإهلاك وحسن من اللطيف الخبير (الوجه الثامن والثلاثون) قولكم إذا كان لله في إغراقه وإهلاكه سبحانه حكمة وسر لا نطلع عليه نحن فقد رأوا مثله في ترك إنقاذنا الغرقى كلام نغى ركته وفساده عن تكلف رده وهل يجوز أن يقال إذا كان لله الحكمة البالغة والأسرار العظيمة في إهلاك من يهلكه وابتلاء من يبتليه ولهذا حسن منه ذلك فيلزم من هذا أن يقال يجوز أن يكون في تركنا انجاء الغرقى ونصر المظلوم وسد الخلة وستر العورة حكماً وأسراراً لا يعلمها العقلاء والمناكدة في البحوث إذا وصلت إلى هذا الحد سمجت ونقلت على النفوس ومحتما القلوب والاسماع (الوجه التاسع والثلاثون) قولكم العقلاء من حيث الصفات النفسية واحدة فكيف يقبح أحدهما من فاعل ويحسن الآخر وبمنزلة أن يقال السجود لله والسجود للنصم واحد من حيث الصفات النفسية فكيف يقبح أحدهما ويحسن الآخر وهل في الباطل أبطل من هذا الوهم فاجعل الله ذلك واحداً أصلاً وليس إمامة الله لعبده مثل قتل المخلوق له ولا إجماعته وإعراؤه وابتلاؤه مساوياً في الصفات النفسية لفعل المخلوق بالمخلوق ذلك ودعوى التساوى كذب وباطل فلا أعظم من التفاوت بينهما وهل يساوى هذا الفعل والقطرة فعل الله وفعل المخلوق (فيا لله) العجب أن يتناولهما اسم الفعل المشترك صاروا سواء في الصفات النفسية ترى حصل لهما هذا التساوى من جهة الفعلين والذي أوجب هذا الخيال الفاسد اتحاد المحل وتعلق الفعلين به وهل يدل هذا على استواء الفعلين في الصفات النفسية ولقد وهت أركان مسألة بنيت على هذا الشفا فإنه شفا جرف هار والله المستعان (الوجه الأربعون) قولكم مواجب العقول في أصل التكليف معارضة الأصول (فيقال) معاذ الله من تعارضهما بل هي متفقة الأصول مستقر حسنهما في العقول والفطر مركز ذلك فيها فما شرع الله شيئاً فقال العقل (٦ - مفتاح ٢)

السليم ليته شرع خلافه بل هي متعارضة بين العقل والهوى والعقل يقضى بحسنها ويدعو إليها ويأمر بما تعبتا جملة في بعضها وجملة وتفصيلاً في بعض والهوى والشهوة قد يدعوان غالباً إلى خلافها فالتعارض واقع بين مواجب العقول ومواجب الهوى وما جعل الله في العقل ولا في الفطرة استقباحاً لما أمر به ولا استحساناً لما نهى عنه وأن مال الهوى إلى خلاف أمره ونهيه فالعقل حينئذ يكون ما موراً مع الهوى مقهوراً في قبضته وتحت سلطانه (الوجه الحادى والأربعون) قولكم نطالبكم بإظهار وجه الحسن في أصل التكليف وإيجابه عقلاً وشرعاً (فيقال يا الله العجيب) أحتاج أمر الله تعالى لعباده بما فيه غاية صلاحهم وسعادتهم في معاشهم ومعادهم ونهيه لهم عما فيه هلاكهم وشقاؤهم في معاشهم ومعادهم إلى المطالبة بحسنه ثم لا يقتصر على المطالبة بحسنه عقلاً حتى يطالب بحسنه عقلاً وشرعاً فأى حسن لم يأمر الله به ويستحبه لعباده ويندبهم إليه وأى حسن فوق حسن ما أمر به وشرعه وأى قبيح لم ينه عنه ولم يجر عباده من ارتكابه وأى قبيح فوق قبيح ما نهى عنه وهل في العقل دليل أوضح من علمه بحسن ما أمر الله به من الإيمان والإحسان وتفصيلها من العدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وأنواع البر والتقوى وكل معروف تشهد الفطر والعقول به من عبادته وحده لاشريك له على أكمل الوجوه وأتمها والإحسان إلى خلقه بحسب الإمكان فليس في العقل مقدمات هي أوضح من هذا المستدل عليه فيجعل دليلاً له وكذلك ليس في العقل دليل أوضح من قبيح ما نهى الله عنه من الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق والشرك بالله بأن يجعل له عدل من خلقه فيعبد كما يعبد ويحب كما يحب ويعظم كما يعظم ومن الكذب على الله وعلى أنبيائه وعباده المؤمنين الذى فيه خراب العالم وفساد الوجود فأى عقل لم يدرك حسن ذلك وقبيح هذا فأحرى أن لا يدرك الدليل على ذلك .

وليس يصح فى الأذهان شىء إذا احتاج النهار إلى دليل

فما أبى الله عز وجل حسناً إلا أمر به وشرعاً ولا قبيحاً إلا نهى عنه وحذر منه ثم أنه سبحانه أودع فى الفطر والعقول الإقرار بذلك فأقام عليها الحججة من الوجوه ولكن اقتضت رحمته وحكمته أن لا يعذبها إلا بعد إقامتها عليها برسله وإن كانت قائمة عليها بما أودع فيها واستشهدا عليه من الإقرار به وبوحدانيته واستحقاقه الشكر من عباده بحسب طاقتهم على نعمه وبما نصب عليها من الأدلة المتنوعة المستلزمة لإقرارها بحسن الحسن وقبيح القبيح (الوجه الثانى والأربعون) إنا نذكر لكم وجهاً من الوجوه الدالة على وجه الحسن فى أصل التكليف والإيجاب فنقول لاريب أن إلزام الناس شريعة يأتمرون بأوامرها التى فيها صلاحهم وينتفون عن مناهيها التى فيها فسادهم أحسن عند كل عاقل من تركهم هملاً كالأنعام لا يعرفون معروفها

ولا ينكرون منكرا وينزو بعضهم على بعض نزو السكلاب والخر ويعدو بعضهم على بعض عدو السباع والسكلاب والذئاب ويأكل قويمهم ضعيفهم لا يعرفون الله ولا يعبدونه ولا يذكرونه ولا يشكرونه ولا يمجّدونه ولا يدينون بدين بل هم من جنس الأنعام السائمة ومن كابر عقله في هذا سقط الكلام معه ونادى على نفسه بغاية الوفاحة ومفارقة الإنسانية وما نظير مطالبكم هذه لإمطالبة من يقول نحن نطالبكم بإظهار وجه المنفعة في خلق الماء والهواء والرياح والتراب وخلق الأقوات والفواكه والأنعام بل في خلق الأسماع والأبصار والألسن والقوى والأعضاء التي في العبد فإن هذه أسباب ووسائل ووسائط * وأما أمره وشرعه ودينه فكذلك غاية وسعادة في المعاش والمعاد ولا ريب عنه العقلاء أن وجه الحسن فيه أعظم من وجه الحسن في الأمور الحسية وإن كان الحسن هو الغالب على الناس وإنما غاية أكثرهم إدراك الحسن والمنفعة في الحسيات وتقديهما وإيثارها على مدارك العقول والبصائر قال تعالى (ولكن أكثر الناس لا يعلمون يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) ولو ذهبنا نذكر وجوه المحاسن المودعة في الشريعة لزادت على الألوف ولعل الله أن يساعده بمصنف في ذلك مع أن هذه المسألة بابه وقاعدته التي عليها بناؤه (الوجه الثالث والأربعون) قولكم أنه سبحانه لا يتضرر بمعصية العبد ولا ينتفع بطاعته ولا تتوقف قدرته في الإحسان على فعل يصدر من العبد بل كما أنعم عليه ابتداء فهو قادر على أن ينعم عليه بلا توسط (فيقال) هذا حق ولكن لا يلزم فيه أن لا تكون الشريعة والأمر والنهي معلومة الحسن عقلا ولا شرعا ولا يلزم منه أيضا عدم حسن التكليف عقلا ولا شرعا فذكر كم هذا عديم الفائدة فإنه لم يقل منازعوكم ولا غيرهم أن الله سبحانه يتضرر بمعاصي العباد وينتفع بطاعتهم ولا أنه غير قادر على إيصال الإحسان إليهم بلا واسطة ولكن ترك التكليف وترك العباد هملا كما لأنعام لا يؤمرون ولا ينهون مناف حكيمته وحده وكالملك والهيته فيجب تنزيهه عنه ومن نسبه إليه فما قدره حق قدره وحكمته البالغة اقتضت الإيناع عليهم ابتداء وبواسطة الإيمان والواسطة في إيناعه عليهم أيضا فهو المنعم بالوسيلة والغاية وله الحمد والنعمة في هذا وهذا .. يوضحه (الوجه الرابع والأربعون) وهو أن إيناعه عليه ابتداء بالايجاد وإعطاء الحياة والعقل والسمع والبصر والنعمة التي سخرها له إنما فعلها به لأجل عبادته إياه وشكره له كما قال تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) وقال تعالى (قل ما يعبا بكم ربى لولا دعائكم) وأصح الأقوال في الآية أن معناها ما يصنع بكم ربى لولا عبادتكم إياه فهو سبحانه لم يخلقكم إلا لعبادته فكيف يقال بعد هذا أن تكليفه إياهم عبادته غير حسن في العقل لأنه قادر على الإيناع عليهم بالجزء من غير توسط العبادة (الوجه الخامس والأربعون) أن قدرته سبحانه على الشيء لا تنفي حكمته البالغة من وجوده

فإنه تعالى يقدر على مقدرات تمنع بحكمته كقدرته على قيامه الساعة الآن وقدرته على إرسال الرسل بعد النبي ﷺ وقدرته على إبقائهم بين ظهور الأمة إلى يوم القيامة وقدرته على إمانة إبليس وجنوده وإراحة العالم منهم وقد ذكر سبحانه في القرآن قدرته على ما لا يفعله الحكمة في غير موضع كقوله تعالى (قل هو القادر على أن يبعث عليكم نذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم) وقوله تعالى (وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكنناه في الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون) وقوله (أبحسب الإنسان أن لن نجتمع عظامه بلى قادرين على أن نسوي بنانه) أى نجعلها كخف البعير صفحة واحدة وقوله تعالى ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها و لكن حق القول مني) وقوله (لآمن من فى الأرض كلهم جميعا) وقوله (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) فهذه وغيرها مقدرات له سبحانه وإنما امتنعت لكامل حكمته فهى التى اقتضت عدم وقوعها فلا يلزم من كون الشئ مقدورا أن يكون حسنا موافقا للحكمة وعلى هذا فقدرتة تبارك وتعالى على ما ذكرتم لا تقتضى حسنه وموافقته لحكمته ونحن إنما نتكلم معهم فى الثانى لا فى الأول فالكلام فى الحكمة يقتضى الحكمة والعناية غير الكلام فى المقدر فتعلق الحكمة شئ ومعلق القدرة شئ و لكن أنتم إنما لو تيم من إنكار الحكمة فلا يمكنكم التفريق بين المتعلقين بل قد اعترف سلفكم وأمتكم بأن الحكمة لا تخرج عن صحة تعلقه بالمقدور ومطابقته لها أو تعلق العلم بالمعلوم ومطابقته له ولما بنيتم على هذا الأصل لم يمكنكم الفرق بين موجب الحكمة وموجب القدرة فتوعرت عليكم الطريق وألجأتم أنفسكم إلى أصعب مضيق (الوجه الثالث والأربعون) قولكم أنه تعالى لو ألقى إلى العبد زمام الاختيار وتركه يفعل ما يشاء جريا على رسوم طبعه المسائل إلى لذيذ الشهوات ثم أجزله فى العطاء من غير حساب كان أروح للعبد ولم يكن قبيحا عند العقل (فيقال) لكم ما تعنون بإلقاء زمام الاختيار إليه أتعنون به أنه لا يكلفه ولا يأمره ولا ينهيه بل يجعله كالبهيمة السائمة المهملة أم تعنون به أنه يلقى إليه زمام الاختيار مع تكليفه وأمره ونهيه فإن عنيتم الأول فهو من أفصح شئ فى العقل وأعظمه نقصا فى الآدى ولو ترك رسوم طبعه لكانت البهائم أكل منه ولم يكن مكرما فضلا على كثير ممن خلق الله تفضيلا بل كان كثير من المخلوقات أو أكثرها مفضلا عليه فإنه يكون مصدودا عن كماله الذى هو مستعد له قابل له وذلك أسوأ حالا وأعظم نقصا ممنوع كالأليس قابلا له . . وتأمل حال الآدى الخلى ورسوم طبعه المتروك ودواعى هواه كيف تجده فى شرار الخليفة وأفسدها للعالم ولولا من يأخذ على يديه لأهلك الحرث والنسل وكان شر من الخنازير والذئاب والحيات فكيف يستوى فى العقل أمره ونهيه بما فيه صلاحه وصلاح غيره به وتركه وما فيه أعظم فساده وفساد النوع وغيره به وكيف لا يكون هذا القول قبيحا وأى قبح أعظم

من هذا ولهذا أنكر الله سبحانه على من جوز عقله مثل هذا ونزه نفسه عنه فقال تعالى (أيحسب الإنسان أن يترك سدى) قال الشافعي معطلا لا يؤمر ولا ينهى وقيل لا يثاب ولا يعاقب وقال تعالى (أخسبتم إنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون) ثم نزه نفسه عن هذا الظن الكاذب وأنه لا يليق به ولا يجوز في العقول نسبة مثله إليه لمنافاته لحكمته وربوبيته وإلهيته وحده فقال (فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم وقال تعالى (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق) وفسر الحق بالثواب والعقاب وفسر بالأمر والنهي وهذا تفسير له ببعض معناه والصواب أن الحق هو إلهيته وحكمته المتضمنة للخلق والأمر والثواب والعقاب فصدر ذلك كله الحق وبالحق وجد وبالحق قام وغايته الحق وبه قيامه فمحال أن يكون على غير هذا الوجه فإنه لا يكون باطلا وعبثا فتعالى الله عنه لمنافاته لإلهيته وحكمته وكإل ملكه وخده وقال تعالى (أن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولي الأبصار الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فقلنا عذاب النار) ونأمل كيف أخبر سبحانه عنه بنفي الباطلية عن خلقه دون إثبات الحكمة لأن بيان نفي الباطل على سبيل العموم والاستغراق أوغل في المعنى المقصود وأبلغ من إثبات الحكم لأن بيان جميعها لا يفي به أفهام الخليفة وبيان البعض يؤذن بتناهي الحكمة ونفي البطلان والخلو عن الحكمة والفائدة تفيد أن كل جزء من أجزاء العالم علويه وسفليه متضمن للحكم حجة وآيات باهرة ثم أخبر سبحانه عنهم بتزييه عن الخلق باطلا خلوا عن الحكمة ولا معنى لهذا التزييه عند النفاة فإن الباطل عندهم هو المحال لذاته فعلى قولهم نزهوه عن المحال لذاته الذي ليس بشيء كالجمع بين التقيضين وكون الجسم الواحد لا يكون في مكانين ومعلوم قطعاً أن هذا ليس مراد الرب تعالى مما نزه نفسه عنه وأنه لا يمدح أحد بتزييه عن هذا ولا يكون المنزه به مثنياً ولا حامداً ولم يخظر هذا بقلب بشر حتى ينكره الله على من زعمه ونسبه إليه وقال تعالى (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق) فنفي اللعب عن خلقه وأثبت أنه إنما خلقهما بالحق فجمع تعالى بين نفي اللعب الصادر عن غير حكمة وغاية محمودة وإثبات الحق المتضمن للحكم والغايات المحمودودة والعواقب المحبوبة والقرآن ملو من هذا بنفي العبث والباطل واللعب تارة وتزييه الرب نفسه عنه تارة وإثبات الحكم الباهرة في خلقه تارة كيف يجوز أن يقال أنه لو عطل خلقه وتركهم سدى لم يكن ذلك قبيحا في العقل فإن عنيتم أنه يلحق إليه زمام الاختيار مع أمره ونهيه فهذا حق فإنه جعله مختاراً مأموراً منها وإن كان اختياره مخلوقاً له تعالى إذ هو من جملة الحوادث الصادرة عن خلقه ولكن

هذا الاختيار لا ينافي التكليف ولا يكون إلا به بوجه بل لا يصح التكليف إلا به (الوجه السابع والأربعون) قولكم فقد تعارض الأمران أحدهما أن يكلفهم فيما أمر وينهى حتى يطاع ويعصى ثم يشيهم ويعاقبهم الثاني أن لا يكلفهم إذ لا يترين منهم بطاعة ولا تشيته معصيتهم وإذا تعارض في المعقول هذان الأمران فكيف يهدى العقل إلى اختيار أحدهما عقلاً فكيف يعرفنا الوجوب على نفسه بالمعرفة وعلى الجوارح بالطاعة وعلى الرب تعالى بالثواب (فيقال) لكم لم يتعارض بحمد الله الأمران لأن أحدهما قد علم قبجه في المعقول والآخر قد علم حسنه في المعقول فكيف يتعارض في العقل جواز الأمرين وأن يكون نسيتهما إلى الرب تعالى نسبة واحدة وإنما يتعارض الجائزات على كل سواء بحيث لا يرجح بعضها عن بعض فإما الحسن والقبح فلم يتعارض في العقل قط استواؤهما وقد قررنا بما لا مدفع له قبح الترك سدى بمنزلة الأنعام السائمة وحسن الأمر والنهى وأستصلاحهم في معاشهم ومعادهم فكيف يقال أن هذين الأمرين سواء في العقل بحيث يتعارضان فيه ويقضى باستواؤهما بالنسبة إلى أحكم الحاكمين * فإن قيل إنما تعارضاً في المقدورية إذ نسبة القدرة إليهما واحدة * قلنا قد تقدم أنه لا يلزم من كون الشيء مقدوراً أن لا يكون متمتعاً لمنافاته الحكمة وقد بينا ذلك قريباً فيكون تركهم هملاً وسدى مقدوراً للرب تعالى لا يقتضى معارضته لمقدوره الآخر في تكليفهم وأمرهم ونهيهم (الوجه الثامن والأربعون) قولكم إذ لا يترين منهم بطاعة ولا تشيته معصيتهم (قلنا) ومن الذى نازع فى هذا ولكن حسن التكليف لا ينفى ذلك عن الرب تعالى وأنه إنما يكلفهم تكليف من لا يبلغوا ضره فيضروه ولا يبلغوا نفعه فينفعوه وأنهم لو كانوا كلهم على أتق قلب رجل واحد منهم مازاد ذلك فى ماله شيئاً ولو كانوا على أفر قلب رجل واحد منهم ما نقص ذلك فى ماله شيئاً وهما اختصفت الطارق بالناس فى علة التكليف وحكمته مع كونه سبحانه لا ينتفع بطاعتهم ولا تضره معصيتهم فسلكت الجبرية مسلكها المعروف وأن ذلك صادر عن محض المشيئة وصرف الإرادة وأنه لا علة له ولا باعث عليه سوى محض الإرادة وسلكت القدرية مسلكها المعروف وهل ذلك إلا استدجار منه لعيده لينالوا أجرهم بالعمل فيكون ألد من اقتضائهم الثواب بلا عمل لما فيه من تكدير المنة والمسلكان كما ترى وحسبك ما يدل عليه العقل الصريح والنقل الصحيح من بطلانها وفسادها وليس عند الناس غير هذين المسلكين إلا مسلك من هو خارج عن الديانات واتباع الرسل من يرى أن الشرائع وضعت نواميس يقوم عليها مصلحة الناس ومعيشتهم فإن فائدتها تكميل قوة النفس والحكمة وهذا مسلك خارج عن مناهج الأنبياء وأئمة وأما اتباع الرسل الذين هم أهل البصائر فحكمة الله عز وجل فى تكليفهم ما كلفهم به أعظم وأجل عندهم بما يخطر بالبال أو يجرى به

المقال ويشهدون له سبحانه في ذلك بالحكم الباهرة والأسرار العظيمة أكثر مما يشهدونه في مخلوقاته وما تضمنته ومن الأسرار والحكم ويعلمون مع ذلك أنه لانسبة لما أطلعهم سبحانه عليه من ذلك إلى ما طوى عليه عنهم واستأثر به دونهم وأن حكمته في أمره ونهيه وتكليفهم أجل وأعظم مما تطيقه عقول البشر فهم يعبدونه سبحانه بأمره ونهيه لأنه تعالى أهل أن يعبد وأهل أن يكون الحب كله له والعبادة كلها له حتى لو لم يخلق الجنة ولا ناراً ولا وضع ثواباً ولا عقاباً لكان أهلاً أن يعبد أقصى ما تناله قدرة خلقه من العبادة وفي بعض الآثار الإلهية لو لم أخلق الجنة ولا ناراً ألم أكن أهلاً أن أعبد حتى أنه لو قدر أنه لم يرسل رسله ولم ينزل كتبه لكان في الفطرة والعقل ما يقتضى شكره وإفراجه بالعبادة كما أن فيهما ما يقتضى المنافع واجتناب المضار ولا فرق بينهما في الفطرة والعقل فإن الله فطر خليفته على محبته والإقبال عليه وابتغاء الوسيلة إليه وأنه لا شيء على الإطلاق أحب إليهما منه وإن فسدت فطر أكثر الخلق بما طرأ عليها مما اقتطعها واجتالها عما خلق فيها كما قال تعالى (فاقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها) فيبين سبحانه أن إقامة الوجه وهو لإخلاص القصد وبذل الوسع لدينه المتضمن محبته وعبادته حنيفاً مقبلاً عليه معرضاً عما سواه هو فطرته التي فطر عليها عباده فلو خلوا ودواعي فطرتهم لما رغبوا عن ذلك ولا اختاروا سواه ولكن غيرت الفطر وأفسدت كما قال النبي ﷺ ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها ثم يقول أبو هريرة إقرأوا إن شئتم (فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون منيدين إليه واتقوه) ومنيدين نصب على الحال من المفعول أى فطرتهم منيدين إليه والإنابة إليه تتضمن الإقبال عليه بمحبته وحده والإعراض عما سواه وفي صحيح مسلم عن عياض بن حماد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن الله أمرني أن أعلمكم ما جهلتم بما علمني في مقامى هذا أنه قال كل مال نحلته عبداً فهو له حلال وإنى خلقت عبداً حنيفاً فأتتهم الشياطين فاجتاتهم عن دينهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً وحرمت عليهم ما أحللت لهم فأخبر سبحانه أنه إنما فطر عباده على الحنيفية المتضمنة لكمال حبه والخضوع له والذل له وكإل طاعته وحده دون غيره وهذا من الحق الذى خلقت له وبه قامت السموات والأرض وما بينهما وعليه قام العالم ولأجله خلقت الجنة والنار ولأجله أرسل رسله وأنزل كتبه ولأجله هلك القرون التي خرجت عنه وآثرت غيره فكونه سبحانه أهلاً أن يعبد ويحب ويحمد ويثنى عليه أمر ثابت له لذاته فلا يكون إلا كذلك كما أن الغنى القادر الحى القيوم السميع البصير فهو سبحانه الإله الحق المبين والإله هو الذى يستحق أن يوله محبة

وتعظيماً وخشية وخضوعاً وتذلاً وعبادة فهو الإله الحق ولو لم يخلق خلقه وهو الإله الحق ولو لم يعبدوه فهو المعبود حقاً الإله حقاً المحمود حقاً ولو قدر أن خلقه لم يعبدوه ولم يحمده ولم يألوه فهو الله الذي لا إله إلا هو قبل أن يخلقهم وبعد أن خلقهم وبعد أن يفهمهم لم يستحدث بخلقهم ولا بأمره إياهم استحقاق الإلهية والحمد بل الإلهية وحده ومجده وغناه وأوصاف ذاتية له يستحيل مفارقتها له الحياته ووجوده وقدرته وعلمه وسائر صفات كماله فأولياؤه وخاصته وحزبه لما شهدت عقولهم وفطرتهم أنه أهل أن يعبد وإن لم يرسل إليهم رسولا ولم ينزل عليه كتابا ولو لم يخلق جنة ولا ناراً علموا أنه لا شيء في العقول والفطر أحسن من عبادته ولا أقبح من الإعراض عنه وجاءت الرسل وأنزلت الكتب لتقرير ما استودع سبحانه في الفطر والعقول من ذلك وتمكيته وتفضيله وزيادة حسننا إلى حسنه فاتفقت شريعتهم وفطرتهم وتطابقا وتوافقاً ظهر أنهما من مشكاة واحدة فعبدوه وأحبوه ومجدوه وحمده بداعي الفطرة وداعي الشرع وداعي العقل فاجتمعت لهم الدواعي ونادتهم من كل جهة ودعتهم إلى وإيهم وإلهم وفاطرهم فأقبلوا إليه بقلوب سليمة لم يعارض خبره عندها شبهة توجب ريباً وشكاً ولأمره شهوة توجب رغبته عنه وإبشارها سواء فأجابوا دواعي المحبة والطاعة إذ نادتهم بهم حتى على الفلاح وبذلوا أنفسهم في مرضاة مولاهم الحق بذل أخى السماح وحمدوا عند الوصول إليه سراهم وإنما يحمده القوم السرى عند البصاح فدينهم دين الحب وهو الدين الذي لا إكراه فيه وسيرهم سير المحبين وهو الذي لا وقفة تعتريه .

إني أدين بدين الحب ويحكم
ومن يكن دينه كرها فليس له
وما استوى سير عبد في محبته
فقل غير أخى الأشواق ويحك قد
نجائب الحب تعلوا بالحب إلى
وأطيب العيش في الدارين قدر غبت
فإن ترد علمه فاقراءه ويحك في
فذاك دنى ولا إكراه في الدين
إلا العناء وإلا السير في الطين
وسير خال من الأشواق في دين
غبت حظك لانغتر بالدون
أعلى المراتب من فوق السلاطين
عنه التجار فباعت بيع مغبون
وفي آيات طه في آيات ياسين

ولا ريب أن كمال العبودية تابع لكمال المحبة وكمال المحبة تابع لكمال المحبوب، والله سبحانه له الكمال المطلق التام في كل وجه الذي لا يعتريه توهم نقص أصلاً ومن هذا شأنه فإن القلوب لا يكون شيء أحب إليها منه مادامت فطرها وعقولها سليمة، وإذا كانت أحب الأشياء إليها فلا محالة أن محبته توجب عبوديته وطاعته وتتبع مرضانه واستفراغ الجهد في التبعيد له والإناية إليه وهذا الباعث أكمل بواعث العبودية وأقواها حتى لو فرض تجرده عن الأمر

والنهي والثواب والعقاب استفرغ الوسع واستخلص القلب للعبود الحق ومن
هذا قول بعض السلف أنه ليستخرج حبه من قلبي ما لا يستخرجه قوله ومنه
قول عمر في صهيب لو لم يخف الله لم يعصه وقد كان هذا هو الواجب على كل عاقل كما
قال بعضهم

هب البعث لم تأتنا رسله وجاحة النار لم تضرم
أليس من الواجب المستحق طاعة رب الورك الأكرم

وتد قام رسول الله ﷺ حتى تفطرت قدماه فقيل له تفعل هذا وقد غفر لك ما تقدم من
ذنبك وما تأخر قال أفلا أكون عبداً شكوراً واقتصر ﷺ من جوابهم على ما تدركه عقولهم
وتناله أفهامهم وإلا فمن المعلوم أن باعته على ذلك الشكر أمر يجمل عن الوصف ولا تناله العبادة
ولا الأذهان فأين هذا الشهود من شهود طائفة القدرية والجبرية فليعرض العاقل للييب ذنبك
المشهدين على هذا المشهد ولينظر ما بين الأمرين من التفاوت فالله سبحانه يعبد ويحمد ويجب
لأنه أهل لذلك ومستحقه بل ما يستحقه سبحانه من عباده أمر لا تناله قدرتهم ولا إرادتهم
ولا تتصوره عقولهم ولا يمكن أحد من خلقه قط أن يعبد حق عبادته ولا يوفيه حقه من
الحبة والحمد ولهذا قال أفضل خلقه وأكملهم وأعرفهم به وأحبهم إليه وأطوعهم له لا أحصى
ثناء عليك وأخبر أن عمله صلى الله عليه وسلم لا يستقل بالنجاة فقال لن ينجي أحداً منكم
عمله قالوا ر لا أنت يارسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل عليه طلوات
الله وسلامه عدد ما خلق في السماء وعدد ما خلق في الأرض وعدد ما بينهما وعدد ما هو خالق
وفي الحديث المرفوع المشهور أن من الملائكة من هو ساجد لله لا يرفع رأسه منذ خلق ومنهم
راكع لا يرفع رأسه من الركوع منذ خلق إلى يوم القيامة وأنهم يقولون يوم القيامة سبحانه
ما عبادناك حق عبادتك ولما كانت عبادته تعالى تابعة لمحبيته وإجلاله وكانت الحبة نوعين حبة
تنشأ عن الإناعام والإحسان فتوجب شكراً وعبودية بحسب كمالها ونقصانها وحبة تنشأ عن
جمال المحبوب وكاله فتوجب عبودية وطاعة أكمل من الأولى كان الباعث على الطاعة والعبودية
لا يخرج عن هذين النوعين وإما أن تقع الطاعة صادرة عن خوف محض غير مقرون بمحبه
فهذا قد ظنه كثير من المتكلمين وهي عندهم غاية المعارف بناء على أصلهم الباطل أن الله لا تتعلق
الحبة بذاته وإنما تتعلق بمخلوقاته بما في الجنة من النعيم فهم لا يحبونه لذاته ولا لإحسانه
وينسكرون محبته لذلك وإنما المحبوب عندهم في الحقيقة غيره وهذا من أبطل الباطل . .
وسند كرفي القسم الثاني إن شاء الله في هذا الكتاب بطلان هذا المذهب من أكثر من مائة وجه

ولوعرف القوم صفات الأرواح وأحكامها لعلوا أن طاعة من لا تجب عبادته محال وأن من أتى بصورة الطاعة خوفاً مجرداً عن الحب فليس بمطيع ولا عابد وإنما هو كالمكروه أو كالجبر السوء الذى إن أعطى عمل وإن لم يعط كفر وأبقه وسيرد عليك بسط الكلام فى هذا عن قريب إن شاء الله والمقصود أن الطاعة والعبادة الناشئة عن محبة الكمال والجمال أعظم من الطاعة الناشئة عن رؤية الإناعم والإحسان وفرق عظيم بين ما تعلق بالحقى الذى لا يموت وبين ما تعلق بالخلق وإن شمل النوعين اسم المحبة ولكن كم بين من يحبك لذاتك وأوصافك وجمالك وبين من يحبك لخيرك ودرامك

فصل

والأسماء الحسنى والصفات العلامية لآثارها من العبودية والأمر اقتضاءها لآثارها من الخلق والتكوين فلكل صفة عبودية خاصة هى من موجباتها ومقتضياتها أعنى من موجبات العلم بها والتحقق بمعرفتها وهذا مطرد فى جميع أنواع العبودية التى على القلب والجوارح فعلم العبد بتفرد الرب تعالى بالضر والنفع والعطاء والمنع والخلق والرزق والإحياء والإماتة يشمر له عبودية التوكل عليه باطنا ولوازم التوكل وثمراته ظاهرأ وعلمه بسمعه تعالى وبصره وعلمه وأنه لا يخفى عليه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض وأنه يعلم السر وأخفى ويعلم خائفة الأعين وما تخفى الصدور يشمر له حفظ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه عن كل ما لا يرضى الله وأن يجعل تعلق هذه الأعضاء بما يحبه الله ويرضاه فيشمر له ذلك الحياء باطنا ويشمر له الحياء اجتناب المحرمات والقبائح ومعرفته بغناه وجوده وكرمه وبره وإحسانه ورحمته توجب له سعة الرجاء وثمر له ذلك من أنواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه وكذلك معرفته بجلال الله وعظمته وعزه تشمر له الخضوع والاستكانة والمحبة وتشمر له تلك الأحوال الباطنة أنواعاً من العبودية الظاهرة هى موجباتها وكذلك علمه بكلامه وجماله وصفاته العلى يوجب له محبة خاصة بمنزلة أنواع العبودية فرجعت العبودية كلها إلى مقتضى الأسماء والصفات وارتبطت بها ارتباط الخلق بها فخلق سبحانه وأمره هو موجب أسمائه وصفاته فى العالم وآثارها ومقتضاها لأنه لا يتزين من عباده بطاعتهم ولا تشينه معصيتهم وتأمل قوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح الذى يرويه عن ربه تبارك وتعالى يا عبادى إنكم إن تلبغوا ضرى فتضرونى وإن تلبغوا نفعى فتنفعونى ذكر هذا عقب قوله يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفرونى أغفر لكم فتضمن ذلك أن ما يفعله تعالى بهم فى غفران ذلتهم وإجابة دعواتهم وتفريج كرباتهم ليس لطلب منفعة منهم

ولا لدفع مضرة يتوقعا منهم كما هو عادة المخلوق الذي ينفع غيره ليكافئه بِنفع مثله أو ليدفع عنه ضررا فالرب تعالى لم يحسن إلى عباده ليكافئوه ولا ليدفموا عنه ضررا فقال لن تبلغوا نفعى فتنفَعوني وإن تبلغوا ضرى فتضرونى أنى لست إذا هديت مستهديكم وأطعمت مستطعمكم وكسوت مستكسيمكم وأرويت مستسقيكم وكفيت مستكفيكم وغفرت لمستغفركم بالذى أطلب منكم أن تنفَعوني أو تدفَعوا عني ضررا فإنكم إن تبلغوا ذلك وأنا الغنى الحميد كيف والخلق عاجزون عما يقدرون عليه من الأفعال إلا بأقداره وتيسيره وخلقه فكيف بما لا يقدرُونَ عليه فكيف يبغولون نفع الغنى الصمد الذى يمتنع فى حقّه أن يستجلب من غيره نفعاً أو يستدفع منه ضررا بل ذلك مستحيل فى حقّه ثم ذكر بعد هذا قوله يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئا ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا فبين سبحانه أن ما أمرهم به من الطاعات وما نهاهم عنه من السيئات لا يتضمن استجلاب نفعمهم ولا استدفاع ضررهم كأمر السيد عبده والوالد ولده والإمام رعيته بما ينفع الأمر والمأمور ونهيمهم عما يضر الناهى والمنهى فبين تعالى أنه المنزه عن حقوق نفعمهم وضررهم به فى إحسانه إليهم بما يفعله بهم وبما يأمرهم به ولهذا لما ذكر الأصوليين بعد هذا وأن قواهم وفجورهم الذى هو طاعتهم ومعصيتهم لا يزيد فى ملكه شيئا ولا ينقصه وأن نسبة ما يسألونه كلهم إياه فيعطيههم إلى ما عنده كلاً نسبة فتضمن ذلك أنه لم يأمرهم ولم يحسن إليهم بإجابة الدعوات وغفران الزلات وتفريج الكربات لاستجلاب منفعة ولا لاستدفاع مضرة وأنهم لو أطاعوه كلهم لم يزيدوا فى ملكه شيئا ولو عصوه كلهم لم ينقصوا من ملكه شيئا وأنه الغنى الحميد ومن كان هكذا فإنه لا يتزين بطاعة عباده ولا تشينه معاصيهم ولكن له من الحكم البوالغ فى تكليف عباده وأمرهم ونهيمهم ما يقتضيه ملكه التام وحمده وحكمته ولو لم يكن فى ذلك إلا أنه يستوجب من عباده شكر نعمه التى لا تحصى بحسب قواهم وطاقتهم لا بحسب ما ينبغى له فإنه أعظم وأجل من أن يقدر خلقه عليه ولكنه سبحانه يرضى من عباده بما تسمح به طبايعهم وقواهم فلا شىء أحسن فى العقول والفطر من شكر المنعم ولا أنفع للعبد منه فهذان مسالك آخران فى حسن التكليف والأمر والنهى . . أحدهما يتعلق بذاته وصفاته وأنه أهل لذلك وإن جماله تعالى وكأله وأسماءه وصفاته تقتضى من عباده غاية الحب والذل والطاعة له . . والثانى متعلق بإحسانه وإنعامه ولا سيما مع غناه عن عباده وأنه إنما يحسن إليهم رحمة منه وجودا وكرما لا لمعاوضة ولا لاستجلاب منفعة ولا لدفع مضرة وأى المسالكين سلكه العبد أوقفه على محبته وبذل الجهد

في مرضاته فأين هذان المسلمكان من ذبيك المسلمين وإنما أتى القوم من إنكارهم المحبة وذلك الذي حرمهم من العلم والإيمان ما حرم منهم وأوجب لهم سلوك تلك الطرق المسدودة والله الفتاح العليم (الوجه التاسع والأربعون) قولكم فلا تكون نعمه تعالى ثوابا بل ابتداء كلامي يحتمل حقا وباطلا فإن أردتم به أنه لا يثيبهم على أعمالهم بالجنة ونعيمها ويجزيهم بأحسن ما كانوا يعملون فهو باطل والقرآن أعظم شاهد ببطلانه قال تعالى (فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لا كفرون عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب) وقال تعالى (ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون وقال تعالى (وتلك الجنة التي أوردتموها بما كنتم تعملون) وقال تعالى (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون) وقال تعالى (ولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين) وقال تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئتهم من الجنة غرفا تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين) وهذا في القرآن كثير يبين أن الجنة ثوابهم وجزاؤهم فكيف يقال لا تكون نعمه ثوابا على الإطلاق بل لا تكون نعمه تعالى في مقابلة الأعمال والأعمال ثمنها فإنه لن يدخل أحدا الجنة عمله ولا يدخلها أحد إلا بمجرد فضل الله ورحمته وهذا لا يناقض ما تقدم من النصوص فإنها إنما تدل على أن الأعمال أسباب لا أعواض وأثمان والذي نفاه النبي صلى الله عليه وسلم في الدخول بالعمل هو نفي استحقاق العوض ببذل عوضه فالمثبت بآء السببية والمنفي بآء المعاوضة والمقابلة وهذا فصل الخطاب في هذه المسألة والقدرية الجبرية تنفي بآء السببية جملة وتكرار تكون الأعمال سببا في النجاة ودخول الجنة وتلك النصوص وأضعافها تبطل قولهم والقدرية النفاة تثبت بآء المعاوضة والمقابلة وتزعم أن الجنة عوض الأعمال وأنها ثمن لها وأن دخولها إنما هو بمحض الأعمال والنصوص النافية لذلك تبطل قولهم والعقل والفطر تبطل قول الطائفتين ولا يصح في النصوص والعقول إلا ما ذكرناه من التفصيل وبه يتبين أن الحق مع الوسط بين الفرق في جميع المسائل لا يستثنى من ذلك شيء فما اختلفت الفرق إلا كان الحق مع الوسط وكل من الطائفتين معه حق وباطل فأصاب الجبرية في نفي المعاوضة وأخطوا في نفي السببية وأصاب المقدرية في إثبات السببية وأخطوا في إثبات المعاوضة فإذا ضمنت أحد نفي الجبرية إلى أحد إثباتي القدرية ونفيت باطلهما كنت أسعد بالحق منهما فإن أردتم بأن نعمه لا تكون ثوابا هذا القدر وأنها لا تكون عوضا بل هو المنعم بالأعمال والثواب وله المنة

في هذا وهذا ونعمه بالثواب من غير استحقاق ولا تمن يعاوض عليه بل فضل منه وإحسان فهذا هو الحق فهو المان بهدايته الإيمان وتفسيره الأعمال وإحسانه بالجزاء كل ذلك مجرد منته وفضله قال تعالى (يمتنون عليك أن أسئلوا قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين (الوجه الخمسون) قولكم وإذا تعارض في العقول هذان الأمران فكيف يهتدى العقل إلى اختيار أحدهما (قلنا) قد تبين بحمد الله أنه لا تعارض في العقول بين الأمرين أصلا وإنما يقدر التعارض بين العقل والهوى وأما أن يتعارض في العقول إرشاد العباد إلى سعادتهم في المعاش والمعاد وتركهم هلاكاً لأنعام السائمة لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً فلم يتعارض هذان في عقل صحيح أبداً (الوجه الحادي والخمسون) قولكم فكيف يعرفنا العقل وجوبا على نفسه بالمعرفة وعلى الجوارح بالطاعة وعلى الرب بالثواب والعقاب (فيقال) وأي استبعاد في ذلك وما الذي يحمله فقد عرفنا العقل من الواجبات عليه ما يقبح من العبد تركها كما عرفنا وعرف أهل العقول وذوى الفطر التي لم تتواطأ على الأقوال الفاسدة وجوب الإقرار بالله وربوبته وشكر نعمته ومحبته وعرفنا قبيح الإشراك به والإعراض عنه ونسبته إلى ما لا يليق به وعرفنا قبيح الفواحش والظلم والإساءة والفجور والكذب والبهت والإثم والبغى والعدوان فكيف نستبعد منه أن يعرفنا وجوبا على نفسه بالمعرفة وعلى الجوارح بالشكر المقذور المستحسن في العتول التي جاءت الشرائع بتفصيل ما أدركه العقل منه جملة وبتقرير ما أدركه تفصيلا وأما الوجوب على الله بالثواب والعقاب فهذا مما تباين فيه الطائفتان أعظم تباين فأنبتت القدرية من المعتزلة عليه تعالى وجوبا عقليا وضعوه شريعة له بمقوّمهم وحرّموا عليه الخروج عنه وشهوه في ذلك كله بخلافه وبدعمهم في ذلك سائر الطوائف وسفّهوا رأيهم فيه وبيّنوا مناقضتهم وألزموهم بما لا يحيد لهم عنه ونفت الجبرية أن يجب عليه ما أوجبه على نفسه ويحرم عليه ما حرمه على نفسه وجوزوا عليه ما يتعالى ويتنزه عنه وما لا يليق بجلاله مما حرمه على نفسه وجوزوا عليه ترك ما أوجبه على نفسه مما يتعالى ويتنزه عن تركه وفعل ضده فتباين الطائفتان أعظم تباين وهدى الله الذين آمنوا أهل السنة الوسط للطريقة المثلى التي جاء بها رسوله ونزل بها كتابه وهي أن العقول البشرية بل وسائر المخلوقات لا توجب على ربها شيئا ولا تحرمه وأنه يتعالى ويتنزه عن ذلك وأما ما كتبه على نفسه وحرّمه على نفسه فإنه لا يخل به ولا يقع منه خلافه فهو لإيجاب منه على نفسه بنفسه وتحريم منه على نفسه بنفسه فليس فوقه تعالى موجب ولا محرم . وسيأتى إن شاء الله بسط ذلك وتقريره (الوجه الثاني والخمسون) قولكم أنه على أصول المعتزلة يستحيل الأمر والنهي والتكليف وتقديركم ذلك فكلام لامطعن فيه والأمر فيه كما ذكرتم وإن حقيقة قول القوم أنه لا أمر

ولانهى ولاشعر أصلاً إذ ذلك إنما يصح إذا ثبت قيام الكلام بالمرسل الأمر الناهى وقيام الاقتضاء والطلب والحب لما أمر به والبغض لما نهى عنه فأما إذا لم يثبت له كلام ولا إرادة ولا اقتضاء ولا طلب ولا حب ولا بغض قائم به فإنه لا يعقل أصلاً كونه أمراً ولا ناهياً ولا باعثاً للرسول ولا حياً للطاعة باغضاً للمعصية فأصول هذه الطائفة تعطل الصفات عن صفات كماله فإنها تستلزم إبطال الرسالة والنبوة جملة ولا يمكن رب لازم لا يلتزمه صاحب المقالة ويتناقض في القول بملزومه دون القول به ولا ريب أن فساد اللازم مستلزم لفساد الملزوم ولكن يقال لكم معاشر الجبرية لا تكونوا ممن يرى القذاة في عين أخيه ولا يرى الجذع المعترض في عينه فقد ألزمتكم القدرية ما لا محيد لكم عنه وقالوا من نفي فعل العبد جملة فقد عطل الشرائع والأمر والنهى فإن الأمر والنهى لا يتعلق إلا بالفعل المأمور به فهو الذى يؤمر به وينهى عنه ويثاب عليه ويعاقب فإذا نفيتم فعل العبد فقد رفعتم متعلق الأمر والنهى وفى ذلك إبطال الأمر والنهى فلا فرق بين رفع المأمور به المنهى عنه ورفع المأمور المنهى نفسه فإن الأمر يستلزم أمراً أو مأموراً به ولا يصح له حقيقة إلا بهذه الثلاث ومعلوم أن أمر الأمر بفعل نفسه ونهيه عن نفسه يبطل التكليف جملة فإن التكليف لا يعقل معناه إلا إذا كان المكلف قد كلف بفعله الذى هو المقدر له التابع لإرادته ومشيتته وأما إذا رفعتم ذلك من البين وقاتم بل هو مكلف بفعل الله حقيقة لا يدخل تحت قدرة العبد لا هو متمكن فى الإتيان به ولا هو واقع بإرادته ومشيتته فقد نفيتم التكليف جملة من حيث أثبتوه وفى ذلك إبطال للشرائع والرسالة جملة قالوا فليتأمل المنصف الفطن لا البليد المتعصب صحة هذا الإلزام فإن تجد عنه محيداً قالوا فأنتم معاشر الجبرية قدرية من حيث نفيتم الفعل المأمور به فإن كان خصومكم قدرية من حيث نفوا تعلق القدرة القديمة فأنتم أولى أن تكونوا قدرية من حيث نفيتم فعل العبد له وتأثيره فيه وتعلقه بمشيتته فأنتم أثبتتم قدراً على الله وقدراً على العبد أما القدر على الله فحيث زعمتم أنه تعالى يأمر بفعل نفسه وينهى عن فعل نفسه ومعلوم أن ذلك لا يصح أن يكون مأموراً به منهيًا عنه فأثبتتم أمراً ولا مأموراً به ونهياً ولا منهيًا عنه وهذه قدرية محضة فى حق الرب وأما فى حق العبد فإنكم جعلتموه مأموراً منهيًا من غير أن يكون له فعل يأمر به وينهى عنه فأبى قدرية أبلى من هذه فمن الذى تضمن قوله لإبطال الشرائع وتعطيل الأوامر فليتنبه لليبب لمواقعة هذه المساجلة وسهام هذه المناضلة ثم ليختر منهما إحدى خطتين ولا والله ما فيهما حظ لختار ولا ينجوا من هذه الورطات إلا من أثبت كلام الله القائم به المتضمن لأمره ونهيه ووعده ووعيدته وأثبت له ما أثبت لنفسه من صفات كماله ومن الأمور الثبوتية القائمة ثم أثبت مع ذلك فعل العبد واختياره ومشيتته

وإرادته التي هي مناط الشرائع ومتعلق الأمر والنهي فلا جبري ولا جهمي ولا قدرى وكيف يختار العاقل آراء ومذاهب هذه بعض لوازمها ولو صابرها إلى آخرها لاستبان له من من فسادها وبطلانها ما يتعجب معه من قائلها ومنتحلها والله الموفق للصواب (الوجه الثالث والخمسون) قولكم أنه مامن معنى يستنبط من قول أو فعل ليربط به معنى مناسب له إلا ومن حيث العقل يعارضه معنى آخر يساويه في الدرجة أو يفضل عليه في المرتبة فيتحير العقل في الاختيار إلى أن يرد شرع يختار أحدهما أو يرجحه من تلقائه فيجب على العاقل اعتباره واختياره لترجيح الشرع له لا لرجحانه في نفسه فيقال إن أردتم بهذه المعارضة أنها ثابتة في جميع الأفعال والأقوال المشتملة على الأوصاف المناسبة التي ربطت بها الأحكام كما يدل عليه كلامكم فدعوى باطلة بالضرورة وهو ككذب محض وكذلك إن أردتم أنها ثابتة في أكثرها فأى معارضة في العقل للوصف القبيح في الكذب والفجور والظلم واهلاك الحرث والنسل والإساءة إلى المحسنين وضرب الوالدين واحتقارهما والمبالغة في اهانتهما بلا جرم وأى معارضة في العقل للأوصاف القبيحة في الشرك بالله ومشيته وكفران نعمه وأى معارضة في العقل للوصف القبيح في نكاح الأمهات واستفراشهن كاستفراش الأماء والزوجات إلى أضعاف أضعاف ما ذكرنا مما تشهد العقول بقبحه من غير معارض فيها بل نحن لاننكر أن يكون داعي الشهوة والهوى وداعى العقل يتعارضان إن أردتم هذا التعارض فسلم ولكن لا يجدى عليكم الا عكس مطلوبكم وكذلك أى معارضة في العقول للأوصاف المقتضية حسن عبادة الله وشكره وتعظيمه وتمجيده والثناء عليه بآلائه وانعامه وصفات جلاله ونعوت كاله وافراده بالمحبة والعبادة والتعظيم وأى معارضة في العقول للأوصاف المقتضية حسن الصدق والبر والإحسان والعدل والإيثار وكشف الكربات وقضاء الحاجات وإغاثة اللهفات والأخذ على أيدي الظالمين وقمع المفسدين ومنع البغاة والمعتدين وحفظ عقول العالمين وأمواهم ودمائهم وأعراضهم بحسب الإمكان والأمر بما يصلحها ويكلمها والنهي عما يفسدها وينقصها وهذه حال جملة الشرائع وجمهورها إذا تأملها العقل جزم أنه يستحيل على أحكم الحاكمين أن يشرع خلافها لعباده وأما إن أردتم أن في بعض ما يصدق منها مسائل تعارض فيها الأوصاف المستنبطة في العقول فيتحير العقل بين المناسب منها وغير المناسب فهذا وإن كان واقعاً فانها لا تنفي حسنها الذاتي وقبح منهيها الذاتي وكون الوصف خفي المناسبة والتأثير في بعض المواضع مما لا يدفعه وهذه حال كثير من الأمور العقلية المحضة بل الحسية وهذا الطبع مع أنه حسي تجريبي يدرك منافع الأغذية والأدوية وقواها وحرارتها وبرودتها ورطوبتها ويبوستها فيه بالحس ومع هذا فأتم ترون لإختلاف أهله في كثير من مسائلهم في الشيء الواحد

هل هو نافع كذا ملائم له أو منافر مؤذ وهل هو حار أو بارد وهل هو رطب أو يابس وهل فيه قوة تصلح لأمر من الأمور أولا قوة فيه ومع هذا فالاختلاف المذكور لا ينفى عند العقلاء ما جعل في الأغذية والأدوية من القوى والمنافع والمضار والكيفيات لأن سبب الاختلاف خفاء تلك الأوصاف على بعض العقلاء ودفنها وعجز الحس والعقل عن تمييزها ومعرفة مقاديرها والنسب الواقعة بين كيفياتها وطبائنها ولم يكن هذا الاختلاف بموجب عند أحد من العقلاء إنكار جملة العلم وجهور قواعده ومسائله ودعوى أنه مامن وصف يستنبط من دواء مفرد أو مركب أو من غذاء إلا وفي العقل ما يعارضه في تحير العقل ولو ادعى هذا مدع لضحك منه العقلاء بما علموه بالضرورة والحس من ملاءمة الأوصاف ومنافرتها واقتضاء تلك الذات للنفاع والمضار في الغالب ولا يكون اختلاف بعض العقلاء يوجب إنكار ما علم بالضرورة والحس فهكذا الشرائع (الوجه الرابع والخمسون) أن قولكم إذا قتل إنسان إنسانا عرض للعقل هاهنا آراء متعارضة مختلفة إلى آخره (فيقال) إن أردتم أن العقل يسوى بين ما شرعه الله من القصاص وبين تركه لمصلحة الجاني فهبت للعقل وكذب عليه فإنه لا يستوى عند عاقل قط حسن الاختصاص من الجاني بمثل ما فعل وحسن تركه والإعراض عنه ولا يعلم عقل صحيح يسوى بين الأمرين وكيف يستوى أمران أحدهما يستلزم فساد النوع وخراب العالم وترك الانتصار للمظلوم وتمكين الجناة من البغي والعدوان والثاني يستلزم صلاح النوع وعمارة العالم والانتصار للمظلوم وردع الجناة والبغاة والمعتدين فكان في القصاص حياة العالم وصلاح الوجود. وقد نبه تعالى على ذلك بقوله (ولكم في القصاص حياة يا أولى الأبصار لعلمكم تتقون) وفي ضمن هذا الخطاب ما هو كالجواب لسؤال مقدر أن إعدام هذه البنية الشريفة وإيلام هذه النفس وإعدامها في مقابلة إعدام المقتول تكثير لمفسدة القتل فلاية حكمة صدر هذا بمن وسعت رحمته كل شيء وبهرت حكمته العقول فتضمن الخطاب جواب ذلك بقوله تعالى (ولكم في القصاص حياة) وذلك لأن القاتل إذا توهم أنه يقتل قصاصا بمن قتله كف عن القتل وارتدع وآثر حب حياته ونفسه فكان فيه حياة له ولمن أراد قتله (ومن وجه آخر) وهو أنهم كانوا إذا قتل الرجل من عشيرتهم وقبيلتهم قتلوا به كل من وجدوه من عشيرة القاتل وحيه وقبيلته وكان في ذلك من الفساد والهلاك ما يعم ضرره وتشتد مؤنته فشرع الله تعالى القصاص وأن لا يقتل بالمقتول غير قاتله ففي ذلك حياة عشيرته وحيه وأقاربه ولم تكن الحياة في القصاص من حيث أنه قتل بل من حيث كونه قصاصا يؤخذ القاتل وحده بالمقتول لا غيره فتضمن القصاص الحياة في الوجوهين وتأمل ما تحت هذه الألفاظ الشريفة من الجلالة والإيجاز والبلاغة والفصاحة والمعنى

العظيم فصدر الآية بقوله لستم المؤذن بأن منفعة القصاص مختصة بكم عائدة إليكم فشرعه إنما كان رحمة بكم وإحساناً إليكم فمنفعته ومصالحته لكم لا لمن لا يبلغ العباد ضرره ونفعه ثم عقبه بقوله في القصاص إيداناً بأن الحياة الحاصلة إنما هي في العدل وهو أن يفعل به كما فعل والقصاص في اللغة المماثلة وحقيقته راجعة إلى الإتياع ومنه قوله تعالى (وقالت لأخته قصيه) أي اتبعي أثره ومنه قوله (فارتدا على آثارهما قصصاً) أي يقصان الأثر ويتبعانه ومنه قص الحديث واقتصاصه لأنه يتبع بعضه بعضاً في الذكر فسمى جزاء الجاني قصاصاً لأنه يتبع أثره فيفعل به كما فعل وهذا أحد ما يستدل به على أن يفعل بالجاني كما فعل فيقتل بمثل ما قتل به لتحقيق معنى القصاص وقد ذكرنا أدلة المسئلة من الطرفين وترجيح القول الراجح بالنص والأثر والمعقول في كتاب تهذيب السنن ونكر سبحانه الحياة تعظيماً وتفخياً لشأنها وليس المراد حياة ما بل المعنى أن في القصاص حصول هذه الحقيقة المحبوبة للنفوس المؤثرة عندها المستحسنة في كل عقل والتنكير كثيراً ما يحىء للتعظيم والتفخيم كقوله (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنته) وقوله (ورضوان من الله أكبر) وقوله (إن هو إلا وحى يوحى) ثم خص أولى الألباب وهم أولو العقول التي عقلت عن الله أمره ونهيه وحكمته إذ هم المنتفعون بالخطاب ووازن بين هذه السمكيات وبين قولهم القتل أنى للقتل ليمتد مقدار التفاوت وعظمة القرآن وجلالته (الوجه الخامس والخمسون) قولكم أن القصاص إتلاف بأزاء إتلاف وعدوان في مقابلة عدوان ولا يحيا الأول بقتل الثاني ففيه تكثير المفسدة بإعدام النفسين وأما مصلحة الردع والزجر واستبقاء النوع فأمر متوهم وفي القصاص استهلاك محقق فيقال هذا الكلام من أفسد الكلام وأبينه بطلانا فإنه يتضمن التسوية بين التبيح والحسن ونبي حسن القصاص الذي اتفقت العقول والديانات على حسنه وصلاح الوجود به وهل يستوى في عقل أو دين أو فطرة القتل ظلماً وعدواناً بغير حق والقتل قصاصاً وجزاء بحق ونظير هذه التسوية تسوية المشركين بين الربا والبيع لاسوائهما في صورة العقد ومعلوم أن استواء الفعلين في الصورة لا يوجب استواءهما في الحقيقة ومدعى ذلك في غاية المكابرة وهل يدل استواء السجود لله والسجود للصنم في الصورة الظاهرة وهو وضع الجبهة على الأرض على أنهما سواء في الحقيقة حتى يتحير العقل بينهما ويتعارضان فيه ويكفى في فساد هذا أطباق العقلاء قاطبة على قبح القتل الذي هو ظلم وبغى وعدوان وحسن القتل الذي هو جزاء وقصاص وردع وزجر والفرق بين هذين مثل الفرق بين الزنا والنكاح بل أعظم وأظهر بل الفرق بينهما من جنس الفرق بين الإصلاح في الأرض والإفساد فيها فما تعارض في عقل صحيح قط هذان الأمران حتى يتحير بينهما أيهما يؤثر ويختاره وقولكم أنه (٧- مفتاح ٢)

إتلاف بأزاء إتلاف وعدوان في مقابلة عدوان فكذلك هو لكن إتلاف حسن هو مصلحة وحكمة ومصلح للعالم في مقابلة إتلاف هو فساد وسفه وخراب للعالم فأني يستويان أم كيف يعتدلان حتى يتحير العقل بين الإتلاف الحسن وتركه وقولكم لا يحيا الأول بقتل الثاني قلنا يحيا به عدد كثير من الناس إذ لو ترك ولم يؤخذ على يديه لأهلك الناس بعضهم بعضا فإن لم يكن في قتل الثاني حياة للأول ففيه حياة العالم كما قال تعالى (واكم في القصاص حياة يا أولى الألباب) لكن هذا المعنى لا يدركه حق الإدراك إلا أولوا الألباب فأين هذه الشريعة وهذه الحكمة وهذه المصلحة من هذا الهديان الفاسد وأن يقال قتل الجاني إتلاف بأزاء إتلاف وعدوان في مقابلة عدوان فيكون قبيحا لولا الشرع فوازن بين هذا وبين ما شرعه الله وجعل مصالح عباده منوطة به وقولكم فيه تكثير المفسدة بإعدام النفسين (فيقال) لو أعطيتهم رتب المصالح والمفاسد حقها لم ترضوا بهذا الكلام الفاسد فإن الشرائع والفطر والعقول متفقة على تقديم المصلحة الراجحة وعلى ذلك قام العالم وما نحن فيه كذلك فإنه احتمال لمفسدة إتلاف الجاني إلى هذه المفسدة العامة فن تحير عقله بين هذين المفسدتين فلفساد فيه والعقلاء قاطبة متفقون على أنه يحسن إتلاف جزء سلامة كل كقطع الأصبع أو اليد المتأكلة سلامة سائر البدن ولذلك يحسن الإيلام لدفع إيلام أعظم منه كقطع العروق وبط الخراج ونحوه فلو طرد العقلاء قياسكم هذا الفاسد وقالوا هذا إيلام محقق لدفع إيلام متوهم لفسد الجسد جملة ولا فرق عند العقول بين هذا وبين قياسكم في الفساد (الوجه السادس والخمسون) قولكم أن مصلحة الردع والزجر وإحياء النوع أمر متوهم كلام بين فساده بل هو أمر متحقق وقوعه عادة ويدل عليه ما نشاهده من الفساد العام عند ترك الجناة والمفسدين وإهمالهم وعدم الأخذ على أيديهم والمتوهم من زعم أن ذلك موهوم وهو بمثابة من دهم العدو فقال لا نعرض أنفسنا لمشقة قتالهم فإنه مفسدة متحقة وأما استيلائهم على بلادنا وسبيهم ذرارينا وقتل مقاتلتنا فوهوم (فياليت) شعري من الواهم المخطيء في وهمه ونظيره أيضا أن الرجل إذا تبيخ به الدم وتضرر إلى إخراجه لا يتعرض لشق جلده وقطع عروقه لأنه ألم محقق لأموهوم ولو أطردها القياس الفاسد لخرب العالم وتعطلت الشرائع والاعتماد في طلب مصالح الدارين ودفع مفاسدهما مني على هذا الذي سميتوه أنتم موهوما فالعمل في الدنيا إنما يتصرفون بناء على الغالب المعتاد الذي أطرده به العادة وإن لم يجزموا به فإن الغالب صدق العادة واطرادها عند قيام أسبابها فالناجر يحمل مشقة السفر في البر والبحر بناء على أنه يسلم ويغنم فلو طرد هذا القياس الفاسد وقال السفر مشقة متحقة، والكسب أمر موهوم لتعطلت أسفار الناس بالكلية وكذلك عمال الآخرة لو قولا تعب العمل ومشقته

أمر منتحق وحسن الخاتمة أمر موهوم لعطلوا الأعمال جملة وكذلك الأجراء والصناع والملوك والجند وكل طالب أمر من الأمور الدنيوية والآخروية لولا بناؤه على الغالب وما جرت به العادة لما احتمل المشقة المتيقنة لأمر منتظر ومن هاهنا قيل أن إنكار هذه المسئلة يستلزم تعطيل الدنيا والآخرة من وجوه متعددة (الوجه السابع والخمسون) قولكم ويعارضه معنى ثالث وراهما في فكر العقل في أنواع وشروط أخرى وراه مجرد الإنسانية من العقل والبلوغ والعلم والجهل والكمال والنقص والقراءة والأجنبية في تحجير العقل كل التحير فلا بد إذا من شارع يفصل هذه الخطة ويعين قانونا يطرد عليه أمر الأمة ويستقيم عليه مصالحهم (فيقال) لا ريب أن الشرائع تأتي بما لا تستقل العقول بإدراكه فإذا جاءت به الشريعة اهتدى العقل حينئذ إلى وجه حسن مأموره وقبح منهيته فسرتة الشريعة على وجه الحكمة والمصلحة الباعثين لشرعه فهذا مما لا ينكر وهذا الذي قلنا فيه أن الشرائع تأتي بمجازات العقول لا بمجالات العقول ونحن لم ندع ولا عاقل قط أن العقل يستقل بجميع تفاصيل ما جاءت به الشريعة بحيث لو ترك وحده لاهتدى إلى كل ما جاءت به . . إذا عرف هذا فغاية ما ذكرتم أن الشريعة الكاملة اشترطت في وجوب القصاص شروطا لا يهتدى العقل إليها وأى شيء يلزم من هذا وماذا يقبح لكم ومنازعوكم يسلمونه لكم وقولكم أن هذا معارض للوصف المقتضى لثبوت القصاص من قيام مصلحة العالم إما غفلة عن الشروط المعارضة وإما اصطلاح طار سيم فيه ما لا يهتدى العقل إليه من شروط اقتضاء الوصف لموجه معارضة . . فيالله العجب أى معارضة هاهنا إذا كان العقل والفطرة قد شهدا بحسن القصاص وانتظامه للعالم ونوقفا في اقتضاء هذا الوصف هل يضم إليه شرط آخر غيره أم يكفي بمجردده وفي تعيين تلك الشروط فأدرك العقل ما استقل بإدراكه وتوقف عما لا يستقل بإدراكه حتى اهتدى إليه بنور الشريعة . . يوضح هذا (الوجه الثامن والخمسون) أن ما وردت به الشريعة في أصل القصاص وشروطه منقسم إلى قسمين أحدهما ما حسنه معلوم بصريح العقل الذى لا يسترىب فيه عاقل وهو أصل القصاص وانتظام مصالح العالم به والثانى ما حسنه معلوم بنظر العقل وفكره ونأمله فلا يهتدى إليه إلا الخواص وهو ما اشترط اقتضاء هذا الوصف أو جعل تابعه له الماكفاة فى الدين وهذا فى غاية المراعاة للحكمة والمصلحة فإن الدين هو الذى فرق بين الناس فى العصمة وليس فى حكمة الله وحسن شرعه أن يجعل دم وليه وعبيده وأحب خلقه إليه وخير بريته ومن خلقه لنفسه واختصه بكرامته وأهله لجواره فى جنته والنظر إلى وجهه وسماع كلامه فى دار كرامته كدم عدوه وأمقت خلقه إليه وشر بريته والعاقل به عن عبادته إلى عبادة الشيطان الذى خلقه للنار وللطرد عن بابه والإبعاد عن رحمته . . وبالجملة فاشأ حكمة أن يسوى بين دماء خير البرية ودماء شر

البرية في أخذ هذه بهذه سيما وقد أباح لأوليائه دماء أعدائه وجعلهم قرا بين لهم وإنما اقتضت حكمته أن يكفوا عنهم إذا صاروا تحت قهرهم وإذلاطهم كالعبيد لهم يؤدون إليهم الجزية التي هي خراج رؤسهم مع بقاء السبب الموجب لإباحة دماهم وهذا الترك والكف لا يقتضى استواء الدمين عقلا ولا شرعا ولا مصلحة ولا ريب أن الدمين قبل القهر والإذلال لم يكونا بمستويين لأجل الكفر فأى موجب لاستوائهما بعد الاستذلال والقهر والكفر قائم بعينه فهل في الحكمة وقواعد الشريعة وموجبات العقول أن يكون الإذلال والقهر للكافر موجبا لمساواة دمه لدم المسلم هذا مما تأباه الحكمة والمصلحة والعقول وقد أشار صلى الله عليه وسلم إلى هذا المعنى وكشف الغطاء وأوضح المشكل بقوله المسلمون تتكافأ دماؤهم أو قال المؤمنون فعلق التكافأة بوصف لا يجوز إلغاؤه وإهداره وتعليقها بغيره إذ يكون إبطالا لما اعتبره الشارع واعتبارا لما أبطله فإذا علق التكافأة بوصف الإيمان كان تعليقه سائر الأحكام بالأوصاف كتعليق القطع بوصف السرقة والرجم بوصف الزنا والجلد بوصف القذف والشرب ولا فرق بينهما أصلا فكل من علق الأحكام بغير الأوصاف التي علقها به الشارع كان تعليقه منقطعاً منصرماً وهذا بما اتفق أئمة الفقهاء على صحته فقد أدى نظر العقل إلى أن دم عدو الله الكافر لا يساوى دم وليه ولا يكافيه أبداً وجاء الشرع بموجبه فأى معارضة هاهنا وأى حيرة إن هو إلا بصيرة على بصيرة ونور على نور وليس هذا مكان استيعاب الكلام على هذه المسألة وإنما الغرض التنبيه على أن فى صريح العقل الشهادة لما جاء به الشرع فيها .

فصل

وعكس هذا أنهم تشترط التكافأة فى علم وجهل ولا فى كمال وقبح ولا فى شرف وضعة ولا فى عقل وجنون ولا فى أجنبية وقرابة خلا الوالد والولد وهذا من كمال الحكمة وتام النعمة وهو فى غاية المصلحة إذ لو روعيت هذه الأمور لتعطلت مصالحة القصاص إلا فى النادر البعيد إذ قل أن يستوى شخصان من كل وجه بل لا بد من التفاوت بينهما فى هذه الأوصاف أو فى بعضها فلو أن الشريعة جاءت بأن لا يقتص إلا من مكافئ من كل وجه لفسد العالم وعظم الهرج وانتشر الفساد ولا يجوز على عاقل وضع هذه السياسة الجائرة ووضعها إلى السفه أقرب منه إلى الحكمة فلا جرم أهدتك الشرائع إلى اعتبار ذلك . . . وأما الولد والوالد فنحن من جريان القصاص بينهما حقيقة البعضية والجزئية التي بينهما فإن الولد جزء من الوالد ولا يقتص لبعض أجزاء الإنسان من بعض وقد أشار تعالى إلى ذلك بقوله (وجعلوا له من عباده جزءاً) وهو قولهم الملائكة بنات الله فدل على أن الولد جزء من الوالد وعلى هذا الأصل امتنعت شهادته له وقطعه بالسرقة من ماله وحده أباه على قذفه وعن هذا الأصل ذهب كثير من السلف ومنهم الإمام أحمد وغيره إلى أن له أن يتملك

ماشاء من مال ولده وهو كالمباح في حقه وقد ذكرنا هذه المسألة مستقصاة بأدلتها وبيننا
 دلالة القرآن عليها من وجوه متعددة في غير هذا الموضوع وهذا المأخذ أحسن من قولهم
 أن الأب لما كان هو السبب في إيجاد الولد فلا يكون الولد سبباً في إعدامه وفي المسألة مسلك
 آخر وهو مسلك قوى جداً وهو أن الله سبحانه جعل في قلب الوالد من الشفقة على ولده
 والحرص على حياته ما يوازي شففته على نفسه وحرصه على حياة نفسه وربما يزيد على
 ذلك فقد يؤثر الرجل حياة ولده على حياته وكثيراً ما يحرم الرجل نفسه حظوظها ويؤثر
 بها ولده وهذا القدر مانع من كونه يريد إعدامه وإهلاكه بل لا يقصد في الغالب إلا تأديبه
 وعقوبته على إساءته فلا يقع قتله في الأغلب عن قصد وتعمد بل عن خطأ وسبق يد وإذا
 وقع ذلك غلطاً ألحق بالقتل الذي لم يقصد به إزهاق النفس فأسباب التهمة والعداوة الحاملة
 على القتل لا تنكأ توجد في الآباء وإن وجدت نادراً فالعبرة بما اطردت عليه عادة الخليفة وهنا
 للناس طريقتان أحدهما أنا إذا تحققنا التهمة وقصد القتل والإزهاق بأن يضجعه ويذبحه مثلاً
 أجرينا القصاص بينهما لتحقق قصد الجنائية وانتفاء المانع من القصاص وهذا قول أهل
 المدينة (والثاني) أنه لا يجري القصاص بحال وأن تحقق قصد القتل لمسكان الجزئية والبعضية
 المانعة من الاقتصاص من بعض الأجزاء لبعض وهو قول الأكثرين ولا يرد عليهم قتل
 الولد لوالده وإن كان بعضه لأن الأب لم يخلق من نطفة الإبن فليس الأب بجزء له حقيقة
 ولاحكاماً بخلاف الولد فإنه جزء حقيقة وليس هذا موضع استقصاء الكلام على هذه المسائل
 إذ المقصود بيان اشتغالها على الحكم والمصالح التي يدركها العقل وإن لم يستقل بها فجاءت
 الشريعة بها مقررمة لما استقر في العقل إدراكه ولو من بعض الوجوه . . . وبعد النزول عن
 هذا المقام فأقصى ما فيه أن يقال أن الشريعة جاءت بما يعجز العقل عن إدراكه لا بما يحمله
 العقل ونحن لا نتمكر ذلك ولكن لا يلزم منه نفي الحكم والمصالح التي اشتملت عليها الأفعال
 في ذواتها والله أعلم (الوجه الثامن والخمسون) قولكم وظهر بهذا أن المعاني المستنبطة
 راجعة إلى مجرد استنباط العقل ووضع الذهن من غير أن يكون الفعل مشتملاً عليها كلام
 في غاية الفساد والبطلان لا يرتضيه أهل العلم والإنصاف وتصوره حق التصور كاف في الجزم
 ببطلانه من وجوه عديدة أحدها أن العقل والفطرة يشهدان ببطلانه والوجود يكذبه فإن
 أكثر المعاني المستنبطة من الأحكام ليست من أوضاع الأذهان المجردة عن اشتغال الأفعال
 عليها ومدعى ذلك في غاية المكابرة التي لا تجدى عليه إلا توهين المقالة وهذه المعاني المستنبطة
 من الأحكام موجودة مشهودة يعلم العقلاء أنها ليست من أوضاع الذهن بل الذهن أدركها
 وعلمها وكان نسبة الذهن إلى إدراكها كنسبة البصر إلى إدراك الألوان وغيرها وكنسبة

السمع إلى إدراك الأصوات وكنسبة الذوق إلى إدراك الطعوم والشم إلى إدراك الروائح فهل يسوغ لعاقل أن يدعى أن هذه المدركات من أوضاع الحواس وكذلك العقل إذا أدرك ما اشتمل عليه الكذب والفجور وخراب العالم والظلم وإهلاك الحرث والنسل والزنا بالأممات وغير ذلك من القبائح وأدرك ما اشتمل عليه الصدق والبر والإحسان والعدل وشكران المنعم والعفة وفعل كل جميل من الحسن لم تكن تلك المعاني التي اشتملت عليها هذه الأفعال مجرد وضع الذهن واستنباط العقل ومدعى ذلك مصاب في عقله فإن المعاني التي اشتملت عليها المنهيات الموجبة لتحريرها أمور ناشئة من الأفعال ليست أوضاعاً ذهنية والمعاني التي اشتملت عليها المأمورات الموجبة لحسنها ليست مجرد أوضاع ذهنية بل أمور حقيقية ناشئة من ذوات الأفعال ترتب آثارها عليها كترتب آثار الأدوية والأغذية عليها وما نظير هذه المقالة إلا مقالة من يزعم أن القوى والآثار المستنبطة من الأغذية والأدوية لاحقيقة لها وإنما هي أوضاع ذهنية ومعلوم أن هذا باب من السفسطة فاعرض معاني الشريعة الكليّة على عقلك وانظر ارتباطها بأفعالها وتعلقها بها ثم تأمل هل تجدها أموراً حقيقية تنشأ من الأفعال فإذا فعل الفعل نشأ منه أثره أو تجدها أوضاعاً ذهنية لاحقيقة لها وإذا أردت معرفة بطلان المقالة فكرر النظر في أدلتها فأدلتها من أكبر الشواهد على بطلانها بل العاقل يستغنى بأدلة الباطل عن إقامة الدليل على بطلانه بل نفس دليله هو دليل بطلانه (الوجه الثاني) أن استنباط العقول ووضع الأذهان لما لاحقيقة له من باب الخيالات والتقدير التي لا يترتب عليها علم ولا معلوم ولا صلاح ولا فساد إذ هي خيالات مجردة وأوهام مقدرة كوضع الذهن سائر ما يوضع من المقدرات الذهنية ومعلوم أن المعاني المستنبطة من الأحكام هي من أجمل المعلوم ومعلومها من أشرف المعلومات وأنفعها للعباد وهي منشأ مصالحهم في معاشهم ومعادهم وترتب آثارها عليها مشهود في الخارج معقول في الفطر قائم في العقول فكيف يدعى أنه مجرد وضع ذهني لاحقيقة له (الوجه الثالث) أن استنباط الذهن لما يستنبطه من المعاني واعتقاده أن الأفعال مشتملة عليها مع كون الأمر ليس كذلك جهل مركب واعتقاد باطل فإنه إذا اعتقد أن الأفعال مشتملة على تلك المعاني وإنها منشأها وليس كذلك كان اعتقاداً للشيء بخلاف ما هو به وهذا غاية الجهل فكيف يدعى هذا في أشرف العلوم وأزكاها وأنفعها وأعظمها متضمناً لمصالح العباد في المعاش والمعاد وهل هو إلا لب الشريعة ومضمونها فكيف يسوغ أن يدعى فيها هذا الباطل ويرمى بهذا البهتان . . . وبالجملة فبطلان هذا القول أظهر من أن يتكاف رده ولم يقل هذا القول من شم للفقه رائحة أصلاً (الوجه التاسع والخمسون) قولكم لو كانت صفات نفسية للفعل لزم من ذلك أن تكون

الحركة الواحدة مشتملة على صفات متناقضة وأحوال متناقضة فيقال وما الذي يحيل أن يكون الفعل مشتملا على صفتين مختلفتين تقتضى كل منهما أثراً غير الأثر الآخر وتكون لإحدى الصفتين والأثرين أولى به وتكون مصلحته أرجح فإذا رتب على صفته الأخرى أثرها فانت المصلحة الراجعة المطلوبة شرعا وعقلا بل هذا هو الواقع ونحن نجد هذا حساً في قوى الأغذية والأدوية ونحوها من صفات الأجسام الحسية المدركة بالحس فكيف بصفات الأفعال المدركة بالعقل وأمثلة ذلك في الشريعة تزيد على الألف فهذه الصلاة في وقت النهى فيها مصلحة تكثير العبادة وتحصيل الأرباح ومزيد الثواب والتقرب إلى رب الأرباب وفيها مفسدة المشابهة بالكفار في عبادة الشمس وفي تركها مصلحة سد ذريعة الشرك وفطم النفوس عن المشابهة للكفار حتى في وقت العبادة وكانت هذه المفسدة أولى بالصلاة في أوقات النهى من مصلحتها فلو شرعت لما فيها من المصلحة لغانت مصلحة الترك وحصلت مفسدة المشابهة التي هي أقوى من مصلحة الصلاة حينئذ ولهذا كانت مصلحة أداء الفرائض في هذه الأوقات أرجح من مفسدة المشابهة بحيث لما انغمرت هذه المفسدة بالنسبة إلى الفريضة لم يمنع منها بخلاف النافلة فإن في فعلها في غير هذه الأوقات غنية عن فعلها فيها فلا تفوت مصلحتها فيقع فعلها في وقت النهى مفسدة راجحة ومن هاهنا جوز كثير من الفقهاء ذوات الأسباب في وقت النهى لترجح مصلحتها فإنها لا تقتضى ولا يمكن تداركها وكانت مفسدة نفويتها أرجح من مفسدة المشابهة المذكورة وليس هذا موضع استقصاء هذه المسئلة فما الذي يحيل اشتباها الحركة الواحدة على صفات مختلفة بهذه المثابة ويكون بعضها أرجح من بعض فيقتضى للراجح عقلا وشرعا وعلى هذا المثال مسائل عامة للشريعة ولولا الإطالة لكتبتنا منها ما يبلغ ألف مثال والعالم ينتبه بالجزئيات للقاعدة الكلية (الوجه الستون) فوالسك وليس معنى قولنا أن العقل استنبط منها أنها كانت موجودة في الشيء فاستخرجها العقل بل العقل تردد بين إضافات الأحوال بعضها إلى بعض ونسب الحركات والأشخاص نوعا إلى نوع وشخصاً إلى شخص فطراً عليه من تلك المعاني ما حكيناه وربما يبلغ مبلغاً يشذ عن الإحصاء فعرف أن المعاني لم ترجع إلى الذات بل إلى مجرد الخواطر وهي متعارضة . . فيقال يا عجبا لعقل يروج عليه مثل هذا الكلام ويبنى عليه هذه القاعدة العظيمة وذلك بناء على شفا جرف هار وقد تقدم ما يكفي في بطلان هذا الكلام ونزيدها هنا أنه كلام فاسد لفظاً ومعنى فإن الاستنباط هو استخراج الشيء الثابت الخفي الذي لا يعثر عليه كل أحد ومنه استنباط الماء وهو استخراج من موضعه ومنه قوله تعالى (ولو رده إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) أى يستخرجون حقيقته وتدييره بفظهم وذكائهم وإيمانهم ومعرفتهم بمواطن الأمن والخوف

ولا يصح معنى إلا في شيء ثابت له حقيقة خفية يستنبطها الذهن ويستخرجها فأما ملاحقة حقيقة له فإنه مجرد ذهنه فلا استنباط فيه بوجه وأى شيء يستنبط منه وإنما هو تقدير وفرض وهذا لا يسمى استنباطا في عقل ولا لغة وحينئذ فيقلب الكلام عليكم ويكون من يقلبه أسعد بالحق منكم فتقول وليس معنى قولنا أن العقل استنبط من تلك الأفعال أن ذلك مجرد خواطر طارئة وإنما معناها أنها كانت موجودة في الأفعال فاستخرجها العقل باستنباطه كما يستخرج الماء الموجود من الأرض باستنباطه ومعلوم أن هذا هو المعقول المطابق للعقل واللغة وما ذكرتموه فخارج عن العقل واللغة جميعاً فمعرفة أنه لا يصح معنى الاستنباط إلا لشيء موجود يستخرجه العقل ثم ينسب إليه أنواع تلك الأفعال وأشخاصها فإن كان أولى به حكم له بالافتضاء والتأثير وهذا هو المعقول وهو الذي يعرضه الفقهاء والمتكلمون على مناسبات الشريعة وأوصافها وعللها التي تربط بها الأحكام فلو ذهب هذا من أيديهم لانسد عليهم باب الكلام في القياس والمناسبات والحكم واستخراج ما تضمنته الشريعة من ذلك وتعليق الأحكام بأوصافها المتضمنة لها إذا كان مرد الأمر بزعمكم إلى مجرد خواطر طارئة على العقل ومجرد وضع الذهن وهذا من أبطل الباطل وأبين المحال ولقد أنصفكم خصومكم في ادعائهم عليكم لازم هذا المذهب وقالوا لو رفع الحسن والقيح من الأفعال الإنسانية إلى مجرد تعلق الخطاب بها لبطلت المعاني العقلية التي تستنبط من الأصول الشرعية فلا يمكن أن يقاس فعل على فعل ولا قول على قول ولا يمكن أن يقال لم كان كذا إذ لا نهليل للذوات ولا صفات للأفعال هي عليها في نفس الأمر حتى ترتبط بها الأحكام وذلك رفع للشرائع بالكيفية من حيث إثباتها لا سيما والتعلق أمر عديم ولا معنى لحسن الفعل أو قبحه إلا التعلق العدمي بينه وبين الخطاب فلا حسن في الحقيقة ولا قبح لاشرعاً ولا عقلاً لا سيما إذا انضم إلى ذلك نفي فعل العبد واختياره بالكيفية وأنه مجبور محض فهذا فعله وذلك صفة فعله فلا فعل له ولا وصف لقوله البتة فأى تعطيل ورفع للشرائع أكثر من هذا فهذا إلزامهم لكم كما أنكم ألزمتهم نظير ذلك في نفي صفة الكلام وأنصفتهم في الإلزام (الوجه الحادى والستون) قوالكم لو ثبت الحسن والقيح العقليين لتعلق بهما الإيجاب والتحرير شاهداً وغائباً واللازم محال فاللزوم كذلك إلى آخره فتقول الكلام هاهنا في مقامين أحدهما في التلازم المذكور بين الحسن والقيح العقليين وبين الإيجاب والتحرير غائباً والثاني في انتفاء اللازم وثبوتها فأما المقام الأول فلمشبهى الحسن والقيح طريقتان أحدهما ثبوت التلازم والقول باللازم وهذا القول هو المعروف عن المعتزلة وعليه يناظرون وهو القول الذى نصب خصومهم الخلاف معهم فيه والقول الثانى لإثبات الحسن والقيح فإنهم يقولون بإثباته ويصرحون بنفى الإيجاب قبل الشرع على العبد وبنفى

ليجاب العقل على الله شيئا البتة كما صرح به كثير من الحنفية والحنابلة كأبي الخطاب وغيره والشافعية كسعد بن علي الزنجاني الإمام المشهور وغيره وهؤلاء في نفى الإيجاب العقلي من المعرفة بالله وثبوته خلاف فالأقوال إذا أربعة لامزيد عليها . أحدها نفى الحسن والقبح ونفى الإيجاب العقلي في العمليات دون العلميات كالمعرفة وهذا اختيار أبي الخطاب وغيره فعرف أنه لا تلازم بين الحسن والقبح وبين الإيجاب والتحريم العقليين فهذا أحد المقامين .
وأما المقام الثاني وهو انتفاء اللازم وثبوته فللناس فيه ههنا ثلاثة طرق أحدهما التزام ذلك والقول بالوجوب والتحريم العقليين شاهدا وغائبا وهذا قول المعتزلة وهؤلاء يقولون بترتب الوجوب شاهدا وترتيب المدح والذم عليه وأما العقاب فلهم فيه اختلاف وتفصيل ومن أثبتته منهم لم يشبهه على الوجوب الثابت بعد البعثة ولكنهم يقولون أن العذاب الثابت بعد الإيجاب الشرعي نوع آخر غير العذاب الثابت على الإيجاب العقلي وبذلك يجيبون عن النصوص النافية للعذاب قبل البعثة وأما الإيجاب والتحريم العقليين غائبا فهم مصرحون بهما ويفسرون ذلك باللزوم الذي أوجبه حكمته وحرمة وأنه يستحيل عليه خلافه كما يستحيل عليه الحاجة والنوم والتعب والغوب فهذا معنى الوجوب والامتناع في حق الله عندهم فهو وجوب اقتضته ذاته وحكمته وغناه وامتناع استحيل عليه الانصاف به لمنافاته كاله وغناه قالوا وهذا في الأفعال نظير ما يقولونه في الصفات أنه يجب له كذا ويمتنع عليه كذا فقولنا نحن في الأفعال نظير قولكم في الصفات ما يجب له منها وما يمتنع عليه فكما أن ذلك وجوب وامتناع ذاتي استحيل عليه خلافه فكذا ما تقتضيه حكمته وتأباه وجوب وامتناع استحيل عليه الإخلال به وإن كان مقدورا له لكنه لا يخل به لكمال حكمته وعلمه وغناه والفرقة الثانية منعت ذلك جملة وأحالت القول به وجوزت على الرب تعالى كل شيء يمكن وردت الإحالة والإمتناع في أفعاله إلى غير الممكن من المحالات كالجمع بين التقيضين وبابه فقابلوا المعتزلة أشد مقابلة واقتسما طرفي الإفراط والتفريط ورد هؤلاء الوجوب والتحريم الذي جاءت به النصوص إلى مجرد صدق الخير فما أخبر بأنه يكون فهو واجب لتصديق العلم لمعلومه والخبر لخبره وقد يفسرون التحريم بالإمتناع عقلا كتحریم الظلم على نفسه فإنهم يفسرون الظلم بالمستحيل لذاته كالجمع بين التقيضين وليس عندهم في المقدور شيء هو ظلم يتزده الله عنه مع قدرته عليه لغناه وحكمته وعدله فهذا قول هؤلاء والفرقة الثالثة هم الوسط بين هاتين الفرقتين فإن الفرقة الأولى أوجبت على الله شريعة بمقولها وحرمت عليه وأوجبت مالم يحرمه على نفسه ولم يوجهه على نفسه والفرقة الثانية جوزت عليه ما يتعالى ويتزده عنه لمنافاته حكمته وحمده وكمالها والفرقة الوسط أنبتت له ما أثبتته لنفسه من الإيجاب والتحريم الذي هو مقتضى

أسمائه وصفاته الذي لا يليق به نسبته إلى ضده لأنه موجب كماله وحكمته وعدله ولم تدخله تحت شريعة وضعتها بعقولها كما فعلت الفرقة الأولى ولم يجوز عليه ما نزه نفسه عنه كما فعلته الفرقة الثانية . . . قالت الفرقة الوسط قد أخبر تعالى أنه حرم الظلم على نفسه كما قال على لسان رسوله يا عبادي اني حرمت الظلم على نفسي وقال (ولا يظلم ربك أحداً) وقال (وماربك بظلام للعبيد) وقال (ولا يظلمون فتيلاً) وقال (وما الله يريد ظلماً للعباد) فأخبر عن تحريمه على نفسه ونهى عن نفسه فعله وإرادته وللناس في تفسير هذا الظلم ثلاثة أقوال بحسب أصولهم وقواعدهم أحدها أن الظلم الذي حرمه وتنزه عن فعله وإرادته هو نظير الظلم من الآدميين بعضهم لبعض وشبهوه في الأفعال ما يحسن منهما وما لا يحسن بعباده فحصر بواله من قبل أنفسهم الأمثال وصاروا بذلك مشبهة ممثلة في الأفعال فامتنعوا من إثبات المثل الأعلى الذي أنبته لنفسه ثم ضربوا له الأمثال ومثله في أفعاله بخلقه كما أن الجهمية المعطلة امتنعت من إثبات المثل الأعلى الذي أنبته لنفسه ثم ضربوا له الأمثال ومثله في صفاته بالجمادات الناقصة بل بالمعدومات وأهل السنة نزهوه عن هذا وهذا وأنبتوا له ما أنبته لنفسه من صفات الكمال ونزهوه فيها عن الشبه والمثال فأثبتوا له المثل الأعلى ولم يضربوا له الأمثال فكانوا أسعد الطوائف بمعرفته وأحقهم بالإيمان به وبولايته ومحبيته وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ثم التزم أصحاب هذا التفسير عنه من اللوازم الباطلة ما لا قبل لهم به . قالوا عن هذا التفسير الباطل أنه تعالى إذا أمر العبد ولم يعنه بجميع مقدوره تعالى من وجوه الإعانة كان ظالماً له والتزموا لذلك أنه لا يقدر أن يهدي ضالاً كما قالوا أنه لا يقدر أن يضل مهتدياً وقالوا عنه أيضاً أنه إذا أمر اثنين بأمر واحد وخص أحدهما بإعانتة على فعل المأمور به كان ظالماً وقالوا عنه أيضاً أنه إذا اشترك اثنان في ذنب يوجب العقاب فعاقب به أحدهما وعنى عن الآخر كان ظالماً إلى غير ذلك من اللوازم الباطلة التي جعلوا لأجلها ترك تسويته بين عباده في فضله وإحسانه ظلماً فعارضهم أصحاب التفسير الثاني وقالوا الظلم المنزه عنه في الأمور الممتنعة لذاتها فلا يجوز أن يكون مقدوراً ولأنه تعالى تركه بمشيئته واختياره وإنما هو من باب الجمع بين الضدين وجعل الجسم الواحد في مكانين وقلب القديم محدثاً والمحدث قديماً ونحو ذلك وإلا فسكل ما يقدره الذهن وكان وجوده بمكاننا والرب قادر عليه فليس بظلم سواء فعله أولم يفعله وتلقى هذا القول عنهم طوائف من أهل العلم وفسروا الحديث به وأسندوا ذلك وقووه بآيات وآثار زعموا أنها تدل عليه كقوله (إن تعذبهم فإنهم عبادك) يعني لم تصرف في غير ملكك بل إن عذبت عذبت من تملك وعلى هذا يجوزوا تعذيب كل عبده ولو كان محسناً ولم

يروا ذلك ظالما وبقوله تعالى (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) وبقول النبي ﷺ أن الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم وبقوله ﷺ في دعاء اللهم والحزن اللهم إني عبدك وابن عبدك وماض في حكمك عدل في قضاؤك وبما روى عن إياس بن معاوية قال ما ناظرت بعقلي كله أحداً إلا القدرية قلت لهم ما الظلم قالوا أن تأخذ ما ليس لك أو أن تتصرف فيما ليس لك قلت فله كل شيء والتزم هؤلاء عن هذا القول لو أزم باطلة كقولهم إن الله تعالى يجوز عليه أن يعذب أنبياءه ورسوله وملائكته وأوليائه وأهل طاعته ويخلدكم في العذاب الأليم ويكرم أعداءه من الكفار والمشركين والشياطين ويخصمهم بجمته وكرامته وكلاهما عدل وجائز عليه وأنه يعلم أنه لا يفعل ذلك بمجرد خبره فصار بمنعنا لإخباره أنه لا يفعل له المناقاة حكمته ولا فرق بين الأمرين بالنسبة إليه ولكن أراد هذا وأخبر به وأراد الآخر وأخبر به فوجب هذا لإرادته وخبره وامتنع ضده لعدم إرادته واختياره بأن لا يكون والتزموا له أيضا أنه يجوز أن يعذب الأطفال الذين لا ذنب لهم أصلا ويخلدكم في الجحيم وربما قالوا بوقوع ذلك فأنكر على الطائفتين معا أصحاب التفسير الثابت وقالوا الصواب الذي دلت عليه النصوص أن الظلم الذي حرمه الله على نفسه وتنزه عنه فعلا وإرادة هو ما فسره به سلف الأمة وأئمتها أنه لا يحمل المرء سيئات غيره ولا يعذب بما لم تكسب يداه ولم يكن سعى فيه ولا ينقص من حسناته فلا يجازى بها أو ببعضها إذا قارنها أو طرأ عليها ما يقتضى إبطالها أو اقتصاص المظلومين منها وهذا الظلم الذي نفى الله تعالى خوفه عن العبد بقوله (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً) قال السلف والمفسرون لا يخاف أن يحمل عليه من سيئات غيره ولا ينقص من حسناته ما يتحمل فهذا هو العقول من الظلم ومن عدم خوفه وأما الجمع بين التقيضين وقلب القديم محدثا والمحدث قديما فما يتنزه كلام آحاد العقلاء عن تسميته ظلماً وعن نفى خوفه عن العبد فكيف بكلام رب العالمين وكذلك قوله (وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين) فنفى أن يكون تعذيبه لهم ظلماً ثم أخبر أنهم هم الظالمون بكفرهم ولو كان الظلم المنفى هو المحال لم يحسن مقابلة قوله وما ظلمناهم بقوله ولكن كانوا هم الظالمين بل يقتضى الكلام أن يقال ما ظلمناهم ولكن تصرفنا في ملكنا وعبيدنا فلما نفي الظلم عن نفسه وأثبتته لهم دل على أن الظلم المنفى أن يعذبهم بغير جرم وأنه إنما عذبهم بجرمهم وظلمهم ولا تحتل الآيات غير هذا ولا يجوز تحريف كلام الله لنصر المقالات وقال تعالى (ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً) ولا ريب أن هذا المذكور في سياق التحريض على الأعمال الصالحة والاستكثار منها فإن صاحبها يجزى بها

ولا ينقص منها بذرة ولهذا يسمى تعالى موفيه كقوله (وإنما توفون أجوركم يوم القيامة)
وقوله (ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون) فترك الظلم هو العدل لا فعل
كل ممكن وعلى هذا قام الحساب ووضع الموازين القسط ووزنت الحسنات والسيئات
وتفاوتت الدرجات العلى بأهلها والدركات السفلى بأهلها وقال تعالى (إن الله لا يظلم مثقال
ذرة) أى لا يضيع جزاء من أحسن ولو بمشقال ذرة فدل على أن إضاعته وترك المجازاة
بها مع عدم ما يبطلها ظلم يتعالى الله عنه ومعلوم أن ترك المجازاة عليها مقدر ينتزه الله عنه
لكمال عدله وحكمته ولا تحتل الآية قط غير معناها المفهوم منها وقال تعالى (من عمل
صالحا فلننفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد) أى لا يعاقب العبد بغير إساءة ولا
يجرمه ثواب إحسانه ومعلوم أن ذلك مقدر له تعالى وهو نظير قوله (أم لم ينبأ بما في صحف
موسى وإبراهيم الذى وفى ألا تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس الإنسان إلا ماسعياً) فأخبر
أنه ليس على أحد فى وزر غيره شيء وأنه لا يستحق إلا ماسعاه وأن هذا هو العدل الذى نزه
نفسه عن خلافه (وقال الذى آمن يا قوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب مثل دأب
قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلماً للعباد) بين أن هذا العقاب لم
يكن ظلماً من الله للعباد بل لذنوبهم واستحقاقهم ومعلوم أن المحال الذى لا يمكن ولا يكون
مقدوراً أصلاً لا يصلح أن يمدح الممدوح بعدم إرادته ولا فعله ولا يحمده على ذلك وإنما يكون
المدح بترك الأفعال لمن هو قادر عليها وأن ينتزه عنها لكماله وغناه وحمده وعلى هذا يتم قوله
إنى حرمت الظلم على نفسى وما شأكله من النصوص فيما أن يكون المعنى إنى حرمت على نفسى
مالا حقيقة له وما ليس بممكن مثل خلق مثلى ومثل جعل القديم محدثاً والمحدث قديماً ونحو
ذلك من المحالات ويكون المعنى إنى أخبرت عن نفسى بأن مالا يكون مقدوراً لا يكون منى
فهذا بما يتيقن المنصف أنه ليس مراداً فى اللفظ قطعاً وأنه يجب تنزيه كلام الله ورسوله عن حملة
على مثل ذلك . . قالوا وأما استدلالكم بتلك النصوص الدالة على أنه سبحانه إن عذبهم فإنهم
عباده وأنه غير ظالم لهم وأنه لا يسأل عما يفعل وأن قضاءه فيهم عدل بمناظرة إياس للقدرية
فهذه النصوص وأمثالها كلها حق يجب القول بموجبها ولا تحرف معانيها والسكل من عند الله
واسكن أى دليل فيها يدل على أنه تعالى يجوز عليه أن يعذب أهل طاعته وينعم أهل معصيته
وأنه يعذب بغير جرم ويحرم المحسن جزاء عمله ونحو ذلك بل كلها متفقة متطابقة دالة على كمال
القدرة وكال العدل والحكمة فالنصوص التى ذكرناها تقتضى كمال عدله وحكمته وغناه ووضعه
العقوبة والثواب مواضعهما وأنه لا يعدل بهما عن سننهما والنصوص التى ذكرت مواضعها تقتضى
كمال قدرته وانفراده بالرؤية والحكم وأنه ليس فوقه أمر ولأنه يتعقب أفعاله بسؤال وأنه

لو عذب أهل سماواته وأرضه لكان ذلك تعذيباً لحقه عليهم وكانوا إذ ذاك مستحقين للعذاب لأن أعمالهم لا تفي بنجاتهم كما قال النبي صلى الله عليه وسلم إن ينجي أحداً منكم عمله قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل فرحمته لهم ليست في مقابلة أعمالهم ولا هي ثمناً لها فإنها خير منها كما قال في الحديث نفسه ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيراً لهم من أعمالهم أي يجمع بين الأمرين في الحديث أنه لو عذبهم لعذبهم باستحقاقهم ولم يكن ظالماً لهم وأنه لو رحمهم لكان ذلك مجرد فضله وكرمه لا بأعمالهم إذ رحمته خير من أعمالهم فصولات الله وسلامه على من خرج هذا الكلام أولاً من شفيعه فإنه أعرف الخلق بالله وبحقه وأعلمهم به وبعده وفضله وحكمته وما يستحقه على عباده وطاعات العبد كلها لا تكون مقابلة لنعم الله عليهم ولا مساوية لها بل ولا للتقليل منها فكيف يستحقون بها على الله النجاة وطاعة المطيع لانسبة لها إلى نعمة من نعم الله عليه فتبقى سائر النعم تقاضاه شكراً والعبد لا يقوم بمقدوره الذي يجب لله عليه لجميع عباده تحت عفوه ورحمته وفضله فإنما نجوا منهم أحد إلا بعفوه ومغفرته ولا فاز بالجنة إلا بفضلته ورحمته وإذا كانت هذه حال العباد فلو عذبهم لعذبهم وهو غير ظالم لهم لا لكونه قادراً عليهم وهم مأسك بل لاستحقاقهم ولو رحمهم لكان ذلك بفضلته لا بأعمالهم . . وأما قوله فإنهم عبادك فليس المراد به أنك قادر عليهم مالك لهم وأي مدح في هذا ولو قلت لشخص أن عذبت فلانا فإنك قادر على ذلك أي مدح يكون في ذلك بل في ضمن ذلك الأخبار بغاية العدل وأنه تعالى إن عذبهم فإنهم عباده الذين أنعم عليهم بإيجادهم وخلقهم ورزقهم وإحسانه إليهم لا بوسيلة منهم ولا في مقابلة بذل بذلوه بل ابتداءً بنعمه وفضله فإذا عذبهم بعد ذلك وهم عبيده لم يعذبهم إلا بجرمهم واستحقاقهم وظلمهم فإن من أنعم عليهم ابتداءً بجلائل النعم كيف يعذبهم بغير استحقاق أعظم النقم . . وفيه أيضاً أمر آخر اللطف من هذا وهو أن كونهم عباده يقتضى عبادته وحده وتعظيمه وإجلاله كما يحل العبد سيده ومالكه الذي لا يصل إليه نفع إلا على يده ولا يدفع عنه ضرراً إلا هو فإذا كفروا به أوجب الكفر وأشركوا به أعظم الشرك ونسبوه إلى كل نقيصة مما تكاد السموات يتفطرن منه وتشق الأرض وتخز الجبال هذا كانوا أحق عباده وأولاهم بالعذاب والمعنى هم عبادك الذين أشركوا بك وعدلوا بك وجحدوا حقتك فهم عباد مستحقون للعذاب وفيه أمر آخر أيضاً لعله أطف بما قبله وهو إن تعذبهم فإنهم عبادك وشأن السيد المحسن المنعم أن يتعطف على عبده ويرحمه ويحنو عليه فإن عذبت هؤلاء وهم عبيدك لا تعذبهم إلا باستحقاقهم وإجرامهم وإلا فكيف يشقى العبد بسيده وهو مطيع له متبع لمرضاته فتأمل هذه المعاني ووازن بينها وبين قوله من يقول إن تعذبهم فأنت الملك القادر وهم

المملوكون المربوبون وإنما تصرفت في ملسكتك من غير أن يكون قام بهم سبب العذاب فإن القوم نفاة الأسباب وعندهم أن كفر الكافرين وشركهم ليس سبباً للعذاب بل العذاب بمجرد المشيئة ومحض الإرادة وكذلك الكلام في مناظرة إياس للقدرية إنما أراد بأن التصرفات الواقعة منه تعالى في ملكه لا تكون ظلماً وهذا حق فإن كل ما فعله الرب ويفعله لا يخرج عن العدل والحكمة والمصلحة والرحمة فليس في أفعاله ظلم ولا جور ولا سفه وهذا حق لا ريب فيه فأياس بين أنه سبحانه في تصرفه في ملكه غير ظالم فهذه مجامع طرق العالم في هذا المقام ألقىت إليك مختصرة بذكر قواعدها وأداتها وترجيح الصواب منها وإبطال الباطل ولعلك لا تجد هذا التفصيل والكلام على هذه المذاهب وأصولها في كتاب من كتب القوم والله تعالى المستور لتمام نعمته ومزيد العلم والهدى إنه المان بفضله .

فصل

وكذلك الكلام في الإيجاب في حق الله سواء الأفعال فيه كالأقوال في التحريم وقد أخبر سبحانه عن نفسه أنه كتب على نفسه وأحق على نفسه قال تعالى (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) وقال تعالى (وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة) وقال تعالى (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن) وفي الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للمعاذ أتدرى ما حق الله على عباده قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه لا يشركوا به شيئاً أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك قلت الله ورسوله أعلم قال حقهم عليه أن لا يعذبهم ومنه قوله صلى الله عليه وسلم في غير حديث من فعل كذا كان على الله أن يفعل به كذا وكذا في الوعد والوعيد ونظير هذا ما أخبر سبحانه من قسمه ليفعلن ما أقسم عليه كقوله (فوربك لنسئلنهم أجمعين . فوربك لنحشرنهم والشیاطین . ثم لنحضرنهم حول جهنم جشياً) وقوله (لنهلكن الظالمين) وقوله (لأملاّن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين) وقوله (فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لا كفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار) وقوله (فلنساءن الذين أرسل إليهم ولنساءن المرسلين) وقوله فيما يرويه عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعزتي وجلالي لأقتصن للظالم من الظالم ولو لطمه ولو ضربة بيد إلى أمثال ذلك من صيغ القسم المتضمن معنى إيجاب المقسم على نفسه أو منعه نفسه وهو القسم الطلبي المتضمن للحظر والمنع بخلاف القسم الخبري المتضمن للتصديق

والتكذيب ولهذا قسم الفقهاء وغيرهم اليقين إلى موجب للحظر والمنع أو التصديق والتكذيب قالوا وإذا كان معقولا من العبد أن يكون طالبا من نفسه فتكون نفسه طالبة منها لقوله تعالى ﴿ أن النفس لأماراة بالسوء ﴾ وقوله ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ﴾ مع كون العبد له أمر ونهيه فإلزامه تعالى الذي ليس فوقه أمر ولا نهيه كيف يمتنع منه أن يكون طالبا من نفسه فيكتب على نفسه ويحتمل على نفسه ويحرم على نفسه بل ذلك أولى وأحرى في حقه من تصوره في حق العبد وقد أخبر به عن نفسه وأخبر به رسوله . . قالوا وكتابه ما كتبه على نفسه وإحقاقه ما حقه عليها متضمن لإرادته ذلك ومحبه له ورضاه به وأنه لا بد أن يفعل وتحرمة ما حرمه على نفسه متضمن لبعضه لذلك وكرهته له وأنه لا يفعل ولا يرب أن محبه لما يريد أن يفعله ورضاه به يوجب وقوعه بمشيئته واختياره وكرهته للفعل وبغضه له يمنع وقوعه منه مع قدرته عليه لو شاء وهذا غير ما يحبه من فعل عبده ويكرهه منه فذاك نوع وهذا نوع ولما لم يمين كثير من الناس بين النوعين وأدخلوهما تحت حكم واحد اضطربت عليهم مسائل القضاء والقدر والحكم والتعليل وهذا التفصيل سفر لك وجه المسئلة وتبليج صحتها ففرق بين فعله سبحانه الذي هو فعله وبين فعل عبادته الذي هو مفعوله فحبه تعالى وكرهته للأول توجب وقوعه وامتناعه وأما محبه وكرهته للثاني فلا توجب وقوعه ولا امتناعه فإنه يجب الطاعة والإيمان من عباده كلهم وإن لم تكن محبه موجبة لطاعتهم وإيمانهم جميعا إذ لم يجب فعله الذي هو إعاتهم وتوفيقهم وخلق ذلك لهم ولو أحب ذلك لاستلزم طاعتهم وإيمانهم ويغض معاصيهم وكفرهم فسوقهم ولم تكن هذه الكراهة والبغض مانعة من وقوع ذلك منهم إذ لم يكره سبحانه خذلانهم وإضلالهم لما له في ذلك من الغايات المحبوبة التي فواتها يستلزم فوات ما هو أحب إليه من إيمانهم وطاعتهم وتعقل ذلك مما يقصر عنه عقول أكثر الناس وقد أشرنا إليه فيما تقدم من الكتاب فالرب تعالى يجب من عباده الطاعة والإيمان ويجب مع ذلك من تضرعهم وتذللهم وتوبتهم واستغفارهم ومن توبته ومغفرته وعفوه وصفحه وتجاوزه ما هو ملزوم لمعاصيهم وذنوبهم ووجود الملزوم بدون لازمه متمنع وإذ اعقل هذا في حق المذنبين فيعقل مثله في حق الكفار وإن خلقهم وإضلالهم لازم لأمور محبوبة للرب تعالى لم تكن تحصل إلا بوجود لازمها إذ وجود الملزوم بدون لازمه متمنع فكانت تلك الأمور المحبوبة والغايات الحمودة متوقفة على خلقهم وإضلالهم توقف الملزوم على لازمه وهذا فصل معترض لم يكن من غرضنا وإن كان أهم مما سقنا الكلام لأجله ونكتة المسألة الفرق بين ما هو فعل له تستلزم محبه وقوعه منه وبين ما هو مفعول له لا تستلزم محبه له وقوعه

من عبده وإذا عرف هذا فالظلم والكفر والفسوق والعصيان وأنواع الشرور واقعة في مفعولانه المنفصلة التي لا يتصف بها دون أفعاله القائمة به ومن انكشف له لهذا المقام فهم معنى قوله صلى الله عليه وسلم والشر ليس إليك فهذا الفرق العظيم يزيل أكثر الشبه التي حارت لها عقول كثير من الناس في هذا الباب وهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهتدى من يشاء إلى صراط مستقيم فإني مخلوقاته ومفعولانه تعالى من الظلم والشر فهو بالنسبة إلى فاعله المكلف الذي قام به الفعل كما أنه بالنسبة إليه يكون زنا وسرقة وعدوانا وأكلا وشربا ونكاحا فهو الزاني السارق الآكل الناكح والله خالق كل فاعل وفعله وليست نسبة هذه الأفعال إلى خالقها كنسبتها إلى فاعلها الذي قامت به كما أن نسبة صفات المخلوقين إليه كطوله وقصره وحسنه وقبحه وشكله ولونه ليست كنسبتها إلى خالقها فيه فتأمل هذا الموضوع واعط الفرق حقه وفرق بين النسبتين فكما أن صفات المخلوق ليست صفات لله بوجه وإن كان هو خالقها فكذلك أفعاله ليست أفعالا لله تعالى ولا إليه وإن كان هو خالقها فلنرجع الآن إلى مانحن بصدده فنقول الأمر الذي كتبه على نفسه مستحق عليه الحمد والثناء ويتعالى ويتقدس عن تركه إذ تركه مناف للثناء والحمد الذي يستحقه عليه متضمنا لما يستحق لذاته وهذا بحمد الله بين عند من أوتى العلم والإيمان وهو مستقر في فطرهم لا يفسخه منها شبهات المبطلين وهذا الموضوع مما خفي على طائفتي القدرية والجبرية فخطبوا في عشواء وخطبوا في ليلة ظلماء والله الموفق الهادي للصواب .

فصل

وقد ظهر بهذا بطلان قول طائفتين معا الذين وضعوا لله شريعة بعقولهم أوجبوا عليه وحرّموا منها ما لم يوجبه على نفسه ولم يحرمه على نفسه وسووا بينه وبين عباده فيما يحسن منهم ويقبح وبذلك استطال عليهم خصومهم وأبدوا مناقضتهم وكشفوا عوارثهم وبيّنوا فضائحهم وكذلك بطلان قول الطائفة التي جوزت عليه كل شيء وأنكرت حكيمته وجحدت في الحقيقة ما يستحقه من الحمد والثناء على ما يفعله مما يمدح بفعله وعلى ترك ما يتركه مع قدرته عليه بما يمدح بتركه وجعلت النوعين واحدا ولا فرق عندهم بالنسبة إليه تعالى بين فعل ما يمدح بفعله وبين تركه ولا بين ترك ما يمدح بتركه وبين فعله وبهذا تسلط عليهم خصومهم وأبدوا مناقضتهم وبيّنوا فضائحهم قال المتوسطون وأما نحن فلا يلزمنا شيء من هذه الفضائح والأباطيل فإننا نوافق طائفة من الطائفتين على كل ما قالته بل وافقنا كل طائفة فيما أصابت فيه الحق وخالفنا ما فيها خالفت فيه الحق فكنا أسعد به من الطائفتين والله المنة والفضل هذا قولنا قد أوضحنا في هذه المسئلة غاية الإيضاح وأفصحنا عنه بما أمكننا من الإفصاح فن وجدسيلا إلى

المعارضة أوران طريقا إلى المناقضة فليبدوها فانا من وراء الرد عليه وإهداء عيوب مقالته إليه ونحن نعلم أنه لا يرد علينا مقالتنا إلا باحدى المقالتين اللتين كشفنا عن عوارهما وبيننا فسادهما فليستر عورة مقالته ويصلح فسادها ويرم شعها ثم ليلق خصومه بها فالمحاكمة إلى النقل الصريح والعقل الصحيح والله المستعان (الوجه الثاني والستون) قولكم الوجوب والتحرير بدون الشرع ممنوع لأنه لو ثبت لقامت الحججة بدون الرسل والله سبحانه إنما أقام حجته برسله إلى آخره فيقال لا ريب أن الوجوب والتحرير اللذين هما متعلق الثواب والعقاب بدون الشرع ممنوع كما قررتموه والحججة إنما قامت على العباد بالرسل ولكن هذا الوجوب والتحرير بمعنى حصول المقتضى للثواب والعقاب وإن تخلف عنه مقتضاه اقيام مانع أو فوات شرط كما تقدم تقريره وقد قال تعالى (ولو أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونسكون من المؤمنين) فأخبر تعالى أن ما قدمت أيديهم سبب لإصابة المصيبة إياهم وأنه سبحانه أرسل رسوله وأنزل كتابه لئلا يقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك فدللت الآية على بطلان قول الطائفتين جميعا الذين يقولون أن أعمالهم قبل البعثة ليست قييحة لذاتها بل إنما قبحت بالنهي فقط والذين يقولون أنها قييحة ويستحقون عليها العقوبة عقلا بدون البعثة فنظمت الآية بطلان قول الطائفتين ودلت على القول الوسط الذى اخترناه ونصرناه أنها قييحة فى نفسها ولا يستحق العقاب إلا بعد إقامة الحججة بالرسالة فلا تلازم بين ثبوت الحسن والتبجح العقليين وبين استحقاق الثواب والعقاب فالأدلة إنما اقتضت ارتباط الثواب والعقاب بالرسالة وتوقفهما عليها ولم تقتض توقف الحسن والقيح بسكل اعتبار عليها وفرق بين الأمرين (الوجه الثالث والستون) قولكم كيف يعلم أنه سبحانه يجب عليه أن يمدح ويذم ويثيب ويعاقب على الفعل بمجرد العقل وهل ذلك لإغيب عنا فيما يعرف أنه رضى عن فاعل وسخط على فاعل وأنه يثيب هذا ويعاقب هذا ولم يخبر عنه بذلك مخبر صادق ولادل على مواقع رضاه وسخطه عقل ولا أخبر عن معلومه ومحكومه مخبر فلم يبق إلا قياس أفعاله على أفعال عباده وهو من أفسد القياس فإنه ليس كمثل شئ فيقال هذا لازم للمعتزلة ومن وافقهم حيث يوجبون على الله ويحرمون بالقياس على عباده ولا ريب أن هذا من أفسد القياس وأبطله ولكن من أين ينفى ذلك لإثبات صفات أفعال اقتضت حسنها وقبحها عقلا ولم يعلم ترتب الثواب والعقاب عليها إلا بالرسالة كما نصرناه فأتم معاشر النفاة نسلبتم الأفعال خواصها وصفاتها التى لا تنفك عنها ولا تعقل مجردة عنها أبدا وظننتم أن قول المعتزلة الباطل فى إيجابها وتحريمها على الله لا يتم إلا بهذا النهى فأخطاتم فى الأمرين

معافان بطلان قولهم لا يتوقف على نفى الحسن والقبح ونفيهما باطل وخصوصكم من المعتزلة أثبتوا لله شريعة عقلية أو جبوا عليه فيها وحرموا بمقتضى عقولهم وظنوا أنهم لا يمكنهم إثبات الحسن والقبح إلا بذلك فأخطؤوا في الأمرين معافان الله تعالى كما لا يقاس بعباده في أفعاله لا يقاس بهم في ذاته وصفاته فليس كمثل شيء في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله وإثبات الحسن والقبح لا يستلزم هذا الإيجاب والتحریم العقليين فليتناهل اللبيب هذه الدقائق التي هي مجامع مآخذ الفرق فيها يتبين أن الناس إنما تكلموا في حواشي المسئلة ولم يخوضوا لجلتها ويقتحموا غمرتها والله المستعان وأما الزامكم لخصوصكم من المعتزلة تلك اللوازم فلا ريب أنها مستلزمة لبطلان قولهم مع أضعافها من اللوازم التي تبين فساد مذهبهم ونحن مساعدوكم عليها كما لا يحيدلهم عن الزاماتكم فنها أنكم سددتم على أنفسكم طريق الاستدلال بالمعجزة على النبوة حيث جوزتم على الله أن يؤيد الكذاب كما يؤيد الصادق وعندكم أن كلا الأمرين بالنسبة إليه تعالى سواء ولم تعتدروا عن هذا الإلزام المقابل لسائر الزاماتكم بعدد صحيح وهذه أعداركم مسطورة في الصحائف ومنها الزام الأخام ونفى المكلف النظر في المعجزة لعدم الوجوب عقلا واعتذاركم عن هذا الإلزام بأن الوجوب ثابت نظر أو لم ينظر اعتذار يبطل أصلكم فإن ثبوت الوجود بدون نظر المكلف لو كان شرعيا لتوقف على الشرع المتوقف في حق المكلف على النظر في المعجزة فلما ثبت الوجوب وإن لم ينظر في المعجزة علم أن الوجوب عقلي لا يتوقف على ثبوت الشرع . . فان قيل هو ثابت في نفس الأمر على تقدير ثبوت الرسالة . قيل حينئذ يعود الإلزام وهو أنه لا ينظر حتى يجب ولا يجب حتى تثبت الرسالة ولا تثب حتى ينظر ولهذا عدل من عدل لي مقابلة هذا الإلزام بمثله وقالوا هذا لازم للمعتزلة لأن الوجوب عندهم نظري وهذا لا يغني شيئا ولا يدفع الإلزام المذكور بل غاية مقابلة الفاسد بمثله وهو لا يجدي في دفع الإلزام شيئا وهذا يدل على بطلان المقالتين وأما نحن فلنا في دفع هذا الإلزام عشرة مسالك وليس هذا موضع هذه المسئلة وإنما المقصود أن المعتزلة أزمتم نظير ما أزموهم به ومنها إلزام التعطيل للشرائع جملة وقد تقدم بيانه قريبا حيث بينا أن متعلق الأمر والنهي إنما هو فعل العبد الإختياري فاذا بطل أن يكون له فعل إختياري بطل متعلق الأمر والنهي فلزمه بطلان الأمر والنهي لأن وجوده بدون متعلقه محال إلى سائر تلك اللوازم التي أسلفناها قبل فلا نطيل باعادتها . قالوا أما نحن فلا يلزمنا شيء من هذه اللوازم من الطرفين فانا لم نسلك واحدا من الطريقين فلا سبيل لأحدى الطائفتين إلى إلزامنا بلازم واحد باطل والله الحمد فن رام ذلك فليده . فان قيل فن أصلكم لإثبات التعليل والحكمة في الخلق والأمر فما تصنعون

بهذه اللوازم التي أزمناها المعتزلة وماذا جوابكم عنها إذا وجهناها إليكم . قيل لا ريب
أنا نشبت لله ما أثبتته لنفسه وشهدت به الفطر والعقول من الحكمة في خلقه وأمره ونقول إن
كل ما خلقه وأمر به فله فيه حكمة بالغة وإلا آيات باهرة لأجلها خلقه وأمر به وإن كان لا نقول
إن الله تعالى في خلقه وأمره كله حكمة ماثلة لما للخلق من ذلك ولا مشابهة له بل الفرق بين
الحكمتين كالفرق بين الفعلين وكالفرق بين الوصفين والذاتين فليس كمثل شيء في وصفه
ولا في فعله ولا في حكمة مطلوبة له من فعله بل الفرق بين الخالق والمخلوق في ذلك كله
أعظم فرق وأبينه وأوضحه عند العقول والفطر وعلى هذا فجميع ما أزمتموه لأصحاب
الصلاح والأصلح بل وأضعافه وأضعاف أضعافه الله فيه حكمة يختص بها لا يشاركه فيها غيره
ولأجلها حسن منه ذلك ويقبح من المخلوق لانقضاء تلك الحكمة في حقه وهذا كما يحسن منه تعالى
مدح نفسه والثناء على نفسه وإن قبح من أكثر خلقه ذلك ويليق بجلاله الكبرياء والعظمة
ويقبح من خلقه تعاطيها كما روى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم الكبرياء إزارى والعظمة
ردائى فمن نازعنى واحداً منهما عذبتى وكما يحسن منه إمامة خلقه وابتلائهم وامتحانهم بأنواع
الحسن ويقبح ذلك من خلقه وهذا أعظم من أن نذكر أمثله فليس بين الله وبين خلقه جامع
يوجب أن يحسن منه ما حسن منهم ويقبح منه ما قبح منهم وإنما تتوجه تلك الإلزامات إلى من
قاس أفعال الله بأفعال عباده وأما من أثبت له حكمة تختص به لا تشبه ما للمخلوقين من
الحكمة فهو عن تلك الإلزامات بمعزل ومنزله منها أبعد منزل وإن كتته الفرق أن بطلان
الصلاح والأصلح لا يستلزم بطلان الحكمة والتعليل والله الموفق (الوجه الثالث والستون)
قواكم أنتم فتحتم بهذه المسئلة طريقتاً للاستغناء عن النبوات وسلطتم عليكم بها الفلاسفة
والبراهمة والصابئة وكل منكر للنبوات فإن هذه المسئلة باب بيننا وبينهم فأنكم إذا زعمتم
أن في العقل حاكماً يحسن ويقبح ويوجب ويحرم ويتقاضى الثواب والعقاب لم تكن الحاجة
إلى البعثة ضرورية لإمكان الاستغناء عنها فهذا الحاكم إلى آخره . . قال المثبتون هذا كلام
هائل وهو عند التحقيق باطل لو أنصف مورده لعلم إنا وهو كما قال الأول: رمتنى بدائها
وانسلت . وقد بينا أن النفاة سدوا على أنفسهم طريق إثبات النبوة بإنكارهم هذه المسئلة
وقالوا إنه يحسن من الله كل شيء حتى اظهر المعجزة على يد الكاذب ولا فرق بالنسبة إليه
بين اظهارها على يد الصادق ويد الكاذب وليس في العقل ما يدل على استحالة هذا وجواز
هذا وتوقف معرفته على السمع لا سيما إذا انضم إلى ذلك انكار كون العبد فاعلاً مختاراً البتة
فإن ذلك يسد الباب جملة لأن متعلق الأمر والنهى إنما هو أفعال العباد الاختيارية فمن لأفعل
له ولا اختيار أصلاً فكيف يعقل أن يكون مأموراً منها وقد تقدم حديث الاخام وعجزكم

عن الجواب عنه . . قالوا وأما نحن فإننا سهلنا بذلك الطريق إلى اثبات النبوات بل لا يمكن اثباتها إلا بالاعتراف بهذه المسألة فإنه إذا ثبت أن من الأفعال حسناً ومنها قبيحاً وأن أظهر المعجزة على يد الكاذب قبيح وأن الله تعالى ويتقدس عن فعل القبائح علمنا بذلك صحة نبوة من أظهر الله على يديه الآيات والمعجزات وأما أنتم فأنتم لا يمكنكم العلم بذلك قالوا وكذلك نحن قلنا إن العبد فاعل مختار لفعله وأوامر الشرع ونواهيها متوجهة إلى مجرد فعله الاختياري القائم به وهو متعلق الثواب والعقاب وأما أنتم فلا يمكنكم ذلك لأن تلك الأفعال عندهم هي فعل الله في العبد لاصنع للعبد فيها أصلاً فكيف يتوجه أمر الشرع ونهيه إلى غير فاعل بل يؤمر وينهى بما لاقدرة له عليه البتة بل بفعل غيره . . قالوا فليتدبر المنصف هذا المقام فإنه يتبين له أنه سد على نفسه طريق النبوات وفتح باب الاستغناء عنها . . قالوا وأيضاً فإن الله سبحانه فطر عباده على الفرق بين الحسن والقبيح وركب في عقولهم إدراك ذلك والتمييز بين النوعين كما فطرهم على الفرق بين النافع والضار والملائم لهم والمنافر وركب في حواسهم إدراك ذلك والتمييز بين أنواعه والفطرة الأولى هي خاصة الإنسان التي تميز بها عن غيره من الحيوانات وأما الفطرة الثانية فمشتركة بين أصناف الحيوان وحجة الله عليه إنما تقوم بواسطة الفطرة الأولى ولهذا اختص من بين سائر الحيوانات برسالة الرسل إليه وبالامر والنهي والثواب والعقاب فجعل سبحانه في عقله ما يفرق بين الحسن والقبيح وما ينبغي إشارته وما ينبغي اجتنابه ثم أقام عليه حجته برسالاته بواسطة هذا الحاكم الذي يتمكن به من العلم بالرسالة وحسن الإرسال وحسن ما تضمنته من الأمور وقبح ما نهى عنه فإنه لو لم يركب في عقله من إدراك ذلك لما أمكنه معرفة حسن الرسالة وحسن الأمور وقبح المحظور ولهذا قلنا إن من أنكر الحسن والقبيح العقلين لزمه إنكار الحسن والقبيح للشريعة وإن زعم أنه مقربه فإن أخبار الشرع عن الفعل بأنه حسن أو قبيح مطابق لكونه في نفسه كذلك فإذا كان في نفسه ليس بحسن ولا قبيح فإن هذا الخبر لا يخبر له إلا مجرد تعلق الفعل أو لا تفعل به وهذا التعليق عندهم جائز أن يكون بخلاف ما هو به وإن يتعلق الطلب بالمنهى عنه والنهي بالمأمور به والتعلق لم يجعله حسناً ولا قبيحاً بل غاية أن جعل الفعل مأموراً منهياً فعاد الحسن والقبيح إلى مجرد كونه مأموراً منهياً ولا فرق عندهم بالنظر إلى ذات الفعل بين النوعين بل ما كان مأموراً يجوز أن يقع منهياً وبالعكس فلم يكشف الأمر والنهي صفة حسن ولا قبيح أصلاً فلا حسن ولا قبيح إذا عقلاً ولا شرعاً وإنما هو تعلق الطلب بالفعل والترك وهذا بما لا خلاص منه إلا بالقول بأن للأفعال خواص وصفات عليها في أنفسها اقتضت أن يؤمر بحسنها وينهى عن سيئها ويخبر عن حسنها بما هو عليه ويخبر غيره بقبحها بما تكون عليه

فيكون للخبر مخبر ثابت في نفسه والأمر والنهي متعلق ثابت في نفسه . قالوا فعله من الفعل بحسن الحسن وقبح القبيح ثم علمه بأن ما أمرت به الرسل هو الحسن ومأنت عنه هو القبيح طريق الى تصديق الرسل وأنهم جاؤا بالحق من عند الله ولهذا قال بعض الأعراب وقد سئل بماذا عرفت أن محمدا رسول الله فقال ما أمر بشيء فقال العقل ليته نهي عنه ولا نهى عن شيء فقال العقل ليته أمر به أفلا ترى هذا الأعرابي كيف جعل مطابقة الحسن والقبح الذي ركب الله في العقل إدراكه لما جاء به الرسول شاهدا على صحة رسالته وعلمها عليها ولم يقل أن ذلك يقبح طريق الاستغناء عن النبوة بحاكم العقل . قالوا أيضا فهذا إنما يلزم أن لو قيل بأن ما جاءت به الرسل ثابت في العقل إدراكه مفصلا قبل البعثة فحينئذ يقال هذا يفتح باب الاستغناء عن الرسالة ومعلوم أن إثبات الحسن والقبح العقليين لا يستلزم هذا ولا يدل عليه بل غاية العقل أن يدرك بالإجمال حسن ما أتى الشرع بتفضيله أو قبحه فيدركه العقل جملة ويأتي الشرع بتفضيله وهذا كما أن العقل يدرك حسن العدل وأما كون هذا الفعل المعين عدلا أو ظلما فهذا بما يعجز العقل عن إدراكه في كل فعل وعقد وكذلك يعجز عن إدراك حسن كل فعل وقبحه وأن تأتي الشرائع بتفصيل ذلك وتبينه وما أدركه العقل الصريح من ذلك أتت الشرائع بتقريره وما كان حسنا في وقت قبيحا في وقت ولم يهتد العقل لوقت حسنه من وقت قبحه أتت الشرائع بالأمر به في وقت حسنه وبالنهي عنه في وقت قبحه وكذلك الفعل يكون مشتملا على مصلحة ومفسدة ولا تعلم العقول مفسدته أرجح أم مصلحته فيتوقف العقل في ذلك فتأتي الشرائع ببيان ذلك وتأمر براجح المصلحة وتنهى عن راجح المفسدة وكذلك الفعل يكون مصلحة لشخص مفسدة لغيره والعقل لا يدرك ذلك فتأتي الشرائع ببيانه فتأمر به ممن هو مصلحة له وتنهى عنه من حيث هو مفسدة في حقه وكذلك الفعل يكون مفسدة في الظاهر وفي ضمنه مصلحة عظيمة لا يهتدى إليها العقل فلا يعلم الا بالشرع كالجهاد والقتل في الله ويكون في الظاهر مصلحة وفي ضمنه مفسدة عظيمة لا يهتدى إليها العقل فتجيء الشرائع ببيان ما في ضمنه من المصلحة والمفسدة الراجحة هذا مع أن ما يعجز العقل عن إدراكه من حسن الأفعال وقبحها ليس بدون ما تدركه من ذلك فالحاجة إلى الرسل ضرورة بل هي فوق كل حاجة فليس العالم إلى شيء أحوج منهم إلى المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين ولهذا يذكر سبحانه عباده نعمه عليهم برسوله ويعد ذلك عليهم من أعظم المن منه لشدة حاجتهم اليه ولتوقف مصالحهم الجزئية والكلية عليه وأنه لا سمادة لهم ولا فلاح ولا قيام الا بالرسول فإذا كان العقل قد أدرك حسن بعض الأفعال وقبحها فن

أين له معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته والآية التي تعرف بها الله الى عباده على السنة رسله ومن أين له معرفة تفاصيل شرعه ودينه الذى شرعه لعباده ومن أين له تفاصيل مواقع محبته ورضاه وسخطه وكرهته ومن أين له معرفة تفاصيل ثوابه وعقابه وما أعد لأوليائه وما أعد لأعدائه ومقادير الثواب والعقاب وكيفيتهما ودجارتهما ومن أين له معرفة الغيب الذى لم يظهر الله عليه أحداً من خلقه إلا من ارتضاه من رسله الى غير ذلك مما جاءت به الرسل وبلغته عن الله وليس فى العقل طريق الى معرفته فكيف يكون معرفة حسن بعض الأفعال وقبحها بالعقل مغنياً عما جاءت به الرسل فظهر أن ما ذكرتموه مجرد تهويل مشحون بالأباطيل والحمد لله . وقد ظهر بهذا قصور الفلاسفة فى معرفة النبوات وانهم لاعلم عندهم بها إلا كعلم عوام الناس بما عندهم من العقليات بل علمهم بالنبوات وحقيقتها وعظم قدرها وما جاءت به أقل بكثير من علم العامة بمقلياتهم فهم عوام بالنسبة إليها كما أن من لم يعرف علومهم عوام بالنسبة إليهم فلولا النبوات لم يكن فى العالم . علم نافع البتة ولا عمل صالح ولا صلاح فى معيشته ولا قوام لمملكة ولسان الناس بمنزلة البهائم والسباع العادية والكلاب الضارية التى يمدو بعضها على بعض وكل دين فى العالم . فمن آثار النبوة وكل شيء وقع فى العالم أو سيقع فسبب خفاء آثار النبوة ودروسها فالعالم حينئذ روحه النبوة ولا قيام للجسد بدون روحه ولهذا إذا تم انكساف شمس النبوة من العالم ولم يبق فى الأرض شيء من آثارها البتة انشقت سماؤه وانتثرت كواكبه وكورت شمسه وخسف قره ونسفت جباله وزلزلت أرضه وأهلك من عليها فلا قيام للعالم إلا بآثار النبوة ولهذا كان كل موضع ظهرت فيه آثار النبوة فأعله أحسن حالاً وأصلح بالاً من الموضع الذى يخفى فيه آثارها وبالجملة حاجة العالم الى النبوة أعظم من حاجتهم الى نور الشمس وأعظم من حاجتهم الى الماء والهواء الذى لاهياة لهم بدونه

فصل

وأما ما ذكره الفلاسفة من مقصود الشرائع وان ذلك لاستكمال النفس قوى العلم والعمل والشرائع ترد بتمهيد ما تقرر فى العقل بتعبيره الى آخره . . فهذا مقام يجب الاعتراف بشأنه وأن لا تضرب عنه صفحاً فنقول للناس فى المقصود بالشرائع والأوامر والنواهي أربعة طرق : أحدها طريق من يقول من الفلاسفة وأتباعهم من المنتسبين الى الملل أن المقصود بها تهذيب أخلاق النفوس وتعديها لتستعد بذلك لقبول الحكمة العلمية والعملية . . ومنهم من يقول لتستعد بذلك لأن تكون محلاً لانتقاش صور المعقولات فيها ففائدة ذلك عندهم كالفائدة

الحاصلة من صقل المرأة لتستعد لظهور الصور فيها وهؤلاء يجعلون الشرائع من جنس الأخلاق الفاضلة والسياسات العادلة ولهذا رام فلاسفة الإسلام الجمع بين الشريعة والفلسفة كما فعل ابن سينا والفارابي واضراهما وآل بهم إلى أن تكلموا في خوارق العادات والمعجزات على طريق الفلاسفة المشائين وجعلوا لها أسمايا ثلاثة أحدها القوى الفلكية والثاني القوى النفسية والثالث القوى الطبيعية وجعلوا جنس الخوارق جنساً واحداً وأدخلوا ما للسحرة وأرباب الرياضة والحكمة وغيرهم مع ما للأنبيا والرسل في ذلك وجعلوا سبب ذلك كله واحداً وإن اختلفت بالغايات والنبي قصده الخير والساحر قصده الشر وهذا المذهب من أفسد مذاهب العالم وأخبثها وهو مبنى على انكار الفاعل المختار وأنه تعالى لا يعلم الجزئيات ولا يقدر على تغيير العالم ولا يخلق شيئاً بمشيئته وقدرته وعلى انكار الجن والملائكة ومعاد الأجسام وبالجملة فهو مبنى على الكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وليس هذا موضع الرد على هؤلاء وكشف باطلهم وفضائحهم إذ المقصود ذكر طرق الناس في المقصود بالشرائع والعبادات وهذه الفرقة غاية ما عندها في العبادات والأخلاق والحكمة العلمية أنهم رأوا النفس لها شهوة وغضب بقوتها العملية ولها تصور وعلم بقوتها العلمية فقالوا كمال الشهوة في العفة وكمال الغضب في الحكم والشجاعة وكمال القوة النظرية بالعلم والتوسط في جميع ذلك بين طرفي الإفراط والتفريط هو العدل . هذا غاية ما عند القوم من المقصود بالعبادات والشرائع وهو عندهم غاية كمال النفس وهو استحكال قوتها العلمية والعملية فاستحكال قوتها العلمية عندهم بانطباع صور المعلومات في النفس واستحكال قوتها العلمية بالعدل وهذا مع أنه غاية ما عندهم من العلم والعمل وليس فيه بيان خاصية النفس التي لا كمال لها بدونه البتة وهو الذي خلقت له وأريد منها بل ما عرفه القوم لأنه لم يكن عندهم من معرفة متعلقه إلا نزر يسير غير مجد ولا محصل للمقصود وذلك معرفة الله بأسمائه وصفاته ومعرفة ما ينبغى لجلاله وما يتعالى ويتقدس عنه ومعرفة أمره ودينه والتمييز بين مواقع رضاه وسخطه واستفراغ الوسع في التقريب إليه وامتلاء القلب بحبته بحيث يكون سلطان حبه قاهراً لكل محبة ولا سعادة للعبد في دنياه ولا أخراه إلا بذلك ولا كمال للروح بدون ذلك البتة وهذا هو الذي خلق له وأريد منه بل ولأجله خلقت السموات والأرض واتخذت الجنة والنار كما سيأتي تقريره من أكثر من مائة وجه إن شاء الله . ومعلوم أنه ليس عند القوم من هذا خبر بل هم في واد وأهل الشأن في واد وهذا هو الدين الذي أجمعت الأنبياء عليه من أولهم إلى خاتمهم كلهم جاء به وأخبر عن الله أنه دينه الذي رضي له عباده وشرعه لهم وأمرهم به كما قال تعالى (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) وقال تعالى (وما أرسلنا

قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لإله إلا أنا فاعبدون) وقال تعالى (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه) وقال تعالى (واسأل من رسلنا من رسلنا أجمعنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) وقال (بأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون) وقال تعالى (شرح لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين) وقال تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين) وقال تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) فالغاية الحميدة التي يحصل بها كمال بنى آدم وسعادتهم ونجاتهم هي معرفة الله ومحبته وعبادته وحده لا شريك له وهي حقيقة قول العبد لا اله إلا الله وبها بعث الرسل ونزلت جميع الكتب ولا تصلح النفس ولا تزكو ولا تكمل إلا بذلك قال تعالى (فويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة) أى لا يؤتون ما تزكى به أنفسهم من التوحيد والإيمان ولهذا فسرنا غير واحد من السلف بأن قالوا لا يأتون الزكاة لا يقولون لإله إلا الله وحده لا شريك له وإن يكون الله أحب إلى العبد من كل ماسواه هو أعظم وصية جاءت بها الرسل ودعوا إليها الأمم وسننبتن إن شاء الله عن قريب بالبراهين الشافية ان النفس ليس لها نجات ولا سعادة ولا كمال إلا بأن يكون الله وحده محبوبها ومعبودها لا أحب إليها منه ولا آثر عندها من مرضاته والتقرب إليه وإن النفس محتاجة بل مضطرة إليه حيث هو معبودها ومحبوبها وغاية مرادها أعظم من اضطرابها إليه من حيث هو ربها وخالقها وفاطرها ولهذا كان من آمن بالله خالقه ورازقه ورببه ومليكه ولم يؤمن بأنه لا اله يعبد ويحب ويخشى ويخاف غيره بل أشرك معه في عبادته غيره فهو كافر به مشرك شركاً لا يغفره الله له كما قال تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به) وقال تعالى (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله) فأخبر أن من أحب شيئاً سوى الله مثل ما يحب الله فقد اتخذ من دون الله أنداداً ولهذا يقول أهل النار لمعبوداتهم وهم معهم فيها (تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين) وهذه التسوية إنما كانت في الحب والتأله لا في الخلق والقدرة والربوبية وهي العدل الذى أخبر به عن الكفار بقوله (والحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) وأصح القولين أن المعنى ثم الذين كفروا بربهم يعدلون فيجعلون له عدلاً يحبونه ويعبدونه ويعبدونه كما يحبون الله ويعبدونه فا ذكر الفلاسفة من الحكمة العملية والعلمية ليس فيها من العلوم والأعمال ما تستعد به النفوس وتنجو به من العذاب فليس في

حكمتهم العلية إيمان بالله ولا ملائكته ولا كتبه ولا رسله ولا لقائه وليس في حكمتهم العملية عبادته وحده ولا شريك له واتباع مرضاته واجتناب مساخطه ومعلوم أن النفس لا سعادة لها ولا فلاح إلا بذلك فليس من حكمتهم العلية والعملية ما تسعده النفوس وتفوز ولهذا لم يكونوا داخلين في الأمم السعداء في الآخرة وهم الأمم الأربعة المذكورون في قوله تعالى (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

فصل

وهذه السكالات الأربعة التي ذكرها الفلاسفة للنفس لا بد منها في كمالها وصلاحتها ولكن قصروا غاية التقصير في أنهم لم يبينوا متعلقها ولم يحدوا لها حداً فاصلاً بين ما تحصل به السعادة وما لا تحصل به فإنهم لم يذكروا متعلق العفة ولا عما إذا تكون ولا مقدارها الذي إذا تجاوزه العبد وقع في الفجور وكذلك الحلم لم يذكروا مواقفه ومقداره وأين يحسن وأين يقبح وكذلك الشجاعة وكذلك العلم لم يميزوا العلم الذي تزكو به النفوس وتسعد من غيره بل لم يعرفوا أصلاً وأما الرسل صلاة الله وسلامه عليهم فبينوا ذلك غاية البيان وفصلوه أحسن تفصيل وقد جمع الله ذلك في كتابه في آية واحدة فقال (قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشرکوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) فهذه الأنواع الأربعة التي حرمها تحريماً مطلقاً لم يبح منها شيئاً لأحد من الخلق ولا في حال من الأحوال بخلاف الميتة والدم ولحم الخنزير فإنها تحرم في حال وتباح في حال وأما هذه الأربعة فهي محرمة فالفواحش متعلقة بالشهوة وتعديل قوة الشهوة باجتنابها والبغى بغير الحق متعلق بالغضب وتعديل القوة الغضبية باجتنابه والشرك بالله ظلم عظيم بل هو الظلم على الإطلاق وهو مناف للعدل والعلم وقوله (وأن تشرکوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً متضمن تحريم أصل الظلم في حق الله وذلك يستلزم إيجاب العدل في حقه وهو عبادته وحده لا شريك له فان النفس لها القوتان العلية والعملية وعمل الإنسان عمل اختياري تابع لإرادة العبد وكل إرادة فلها مراد وكال هو إما مراد لنفسه وإما مراد لغيره ينتهي إلى المراد لنفسه ولا بد فالقوة العملية تستلزم أن يكون للنفس مراد تستكمل بإرادته فان كان ذلك المراد مضمحلًا فإنما زالت الإرادة بزواله ولم يكن للنفس مراد غيره فقائماً أعظم سعادتها وفلاحها فيجب إذا أن يكون مرادها الذي تستكمل بإرادته وجه وإشارته باقياً لا يفنى ولا يزول وليس ذلك إلا الله وحده وسنذكر إن شاء الله عن قريب معنى تعلق الإرادة به تعالى وكونه مراداً والعبد مرید له فان هذا مما أشكل على بعض

المتكلمين حيث قالوا إن الإرادة لا تتعلق إلا بجاذب وأما القديم فكيف يكون مراداً وخفي عليهم الفرق بين الإرادة العائية والإرادة الفاعلية وجعلوا الإرادتين واحدة والمقصود أن هؤلاء الفلاسفة لم يذكروا هذا في كمال النفس وإنما جعلوا كمالها في تعديل الشهوة والغضب والشهوة هي جلب ما ينفع البدن ويبتغي النوع والغضب دفع ما يضر البدن وما تعرضوا لمراد الروح المحبوب لذاته وجعلوا كمالها العلمي في مجرد العلم وغلطوا في ذلك من وجوه كثيرة .
 منها أن ما ذكروه لا يعطى كمال النفس الذي خلقت له كما بيناه . . ومنها أن ما ذكروه في كمال القوة العملية إنما غايته اصلاح البدن الذي هو آلة النفس ولم يذكروا كمال النفس الإرادى والعمل بالمحبة والخوف والرجاء . . ومنها أن كمال النفس في العلم والإرادة لا في مجرد العلم فإن مجرد العلم ليس بكمال للنفس ما لم تكن مريدة محبة لمن لاسعادة لها إلا بإرادته ومحبه فالعلم المجرد لا يعطى النفس كمالا ما لم تقترن به الإرادة والمحبة . . ومنها أن العلم لو كان كمالا بمجرد لم يكن ما عندهم من العلم كمالا للنفس فإن غاية ما عندهم علوم رياضية صحيحة مصدحتها من جنس مصاخ الصناعات وربما كانت الصناعات أصاح وأنفع من كثير منها وإما علم طبيعي صحيح غايته معرفة العناصر وبعض خواصها وطبائنها ومعرفة بعض ما يتركب منها وما يستحيل من الموجبات إليها وبعض ما يقع في العالم من الآثار بامتزاجها واختلاطها وأي كمال للنفس في هذا وأي سعادة لها فيه وإما علم إلهي كله باطل لم يوفقوا في الإصابة الحق فيه مسألة واحدة .
 ومنها أن كمال النفس وسعادتها المستفاد عن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ليس عندهم اليوم منه حس ولا خبر ولا عين ولا أثر فهم أبعد الناس من كالات النفوس وسعادتها وإذا عرف ذلك وأنه لا بد للنفس من مراد محبوب لذاته لا يصلح إلا به ولا يكمل إلا بحبه وإيثاره وقطع العلائق عن غيره وإن ذلك هو النهاية وغاية مطلوبها ومرادها الذي إليه ينتهى الطلب فليس ذلك إلا الله الذي لا إله إلا هو قال تعالى (أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون . ولو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) وليس صلاح الإنسان وحده وسعادته إلا بذلك بل وكذلك الملائكة والجن وكل حى شاعر لاصلاح له إلا بأن يكون الله وحده إلهه ومعبوده وغاية مراده وسيمر بك إن شاء الله بسط القول في ذلك وإقامة البراهين على هذا المطلوب الأعظم الذي هو غاية سعادة النفوس وأشرف مطالبها فلنرجع إلى ما كنا فيه من بيان طرق الناس في مقاصد العبادات (الطريق الثانى) طريق من يقول من المعتزلة ومن تابعهم إن الله سبحانه عرضهم بها للثواب واستأجرهم بتلك الأعمال للخير فعاوضهم عليها معاوضة قالوا والإنعام منه في الآخرة غير حسن لما فيه من تكرير مئة العطاء ابتداء ولما فيه من الإخلال بالمدح والثناء والتعظيم الذى لا يستحق إلا بالتكليف ومنهم من يقول إن الواجبات الشرعية لطف في الواجبات

العقلية ومنهم من يقول أن الغاية المقصودة التي يحصل بها الثواب هي العمل والعلم وسيلة إليه حتى ربما قالوا ذلك في معرفة الله تعالى وإنما وجبت لأنها لطف في أداء الواجبات العملية وهذه الأقوال تصور العاقل اللبيب لها حق التصور كاف في جزمه ببطالانها رافع عنه مؤنة الرد عليها والوجوه الدالة على بطلانها أكثر من أن تذكر ها هنا (الطريق الثالث) طريق الجبرية ومن وافقهم أن الله سبحانه امتحن عباده بذلك وكلفهم بالحكمة ولا لغاية مطلوبة له ولا بسبب من الأسباب فلا لام لتعليل ولا باء سبب إن هو إلا محض المشيئة وصرف الإرادة كما قالوا في الخلق سواء وهؤلاء قابلوا من قبلهم من التقديرية والمعزلة أعظم مقابلة فهما طرفا تقيض لا يلتقيان (والطريق الرابع) طريق أهل العلم والإيمان الذين عقلوا عن الله أمره ودينه وعرفوا مراده بما أمرهم ونهاهم عنه وهي أن نفس معرفة الله ومحبته وطاعته والتقرب إليه وابتغاء الوسيلة إليه أمر مقصود لذاته وأن الله سبحانه يستحقه لذاته وهو سبحانه المحبوب لذاته الذي لا تصلح العبادة والمحبة والذل والخضوع والتأله إلا له فهو يستحق ذلك لأنه أهل أن يعبد ولو لم يخلق جنة ولا ناراً ولو لم يضع ثواباً ولا عقاباً كما جاء في بعض الآثار لو لم أخلق جنة ولا ناراً أما كنت أهلاً أن أعبد فهو سبحانه يستحق غاية الحب والطاعة والثناء والمجد والتعظيم لذاته ولما له من أوصاف الكمال ونعوت الجلال وحببه والرضى به وعنه والذل له والخضوع والتعبد هو غاية سعادة النفس وكاملها والنفس إذا فقدت ذلك كانت بمنزلة الجسد الذي فقد روحه وحياته والعين التي فقدت ضوءها وبورها بل أسوأ حالا من ذلك من وجهين: أحدهما أن غاية الجسد إذا فقد روحه أن يصير معطلا ميتاً وكذلك العين تصير معطلة وأما النفس إذا فقدت كاملها المذكور فإنها تبقى معذبة متألمة وكلما اشتد خجابها اشتد عذابها وألمها وشاهد هذا ما يجده المحب الصادق المحبة من العذاب والألم عند احتجاب محبوبه عنه ولا سيما إذا يئس من قربه وحظى غيره بحبه ووصله هذا مع إمكان التعوض عنه بمحبوب آخر نظيره أو خير منه فكيف بروح فقدت محبوبها الحق الذي لم تخلق إلا لمحبهته ولا كمال لها ولا صلاح أصلاً إلا بأن يكون أحب اليها من كل ما سواه وهو محبوبها الذي لا تعوض منه سواه بوجه ما كما قال القائل:

من كل شيء إذا ضيعته عوض وما من الله أن ضيعته عوض

ولولم يكن احتجاب به سبحانه عن عبده أشد أنواع العذاب عليه لم يتوعد به أعداءه كما قال تعالى (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم إنهم لصالو الجحيم) فأخبر أن لهم عذابين أحدهما عذاب الحجاب عنه والثاني صلي الجحيم وأحد العذابين أشد من الآخر وهذا كما أنه سبحانه ينعم على أوليائه بنعيمين نعم كشف الحجاب فيظنون إليه ونعيم الجنة وما فيها

وأحد النعميين أحب إليهم من الآخر وآثر عندهم وأقر لعيونهم كما في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال إذا دخل أهل الجنة نادى مناديا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه فيقولون ما هو ألم بيض وجوهنا ويشغل موازيننا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار قال فيكشف الحجاب فينظرون إليه فما أعظم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه وفي حديث غير هذا أنهم إذا نظروا إلى ربهم تبارك وتعالى أنساهم لذة النظر إليه ما هم فيه من النعيم . . . والوجه الثاني أن البدن والأعضاء آلات للنفس ورعية للقلب وخدم له فإذا فقد بعضهم كاله الذي خلق له كان بمنزلة هلاك بعض جنود الملك ورعيته وتعطل بعض آلاته وقد لا يلحق الملك من ذلك ضرر أصلاً وأما إذا فقد القلب كاله الذي خلق له وحياته ونعيمه كان بمنزلة هلاك الملك وأسرته وذهاب ملكه من يديه وصيرورته أسيراً في أيدي أعدائه فهكذا الروح إذا عدمت كآله وصلاحتها في معرفة فاطرها وبارئها وكونه أحب شيء إليها رضاه وابتغاء الوسيلة إليه آثر شيء عندها حتى يكون اهتمامها بمحبته ومرضاته اهتمام المحب التام المحبة بمرضاة محبوبه الذي لا يجد منه عوضاً كانت بمنزلة الملك الذي ذهب منه ملكه وأصبح أسيراً في يدي أعدائه يسومونه سوء العذاب وهذا الألم كامن في النفس لكن يستتره ستر الشهوات ويواريه حجاب الغفلة حتى إذا كشف الغطاء وحيل بين العبد وبين ما يشتهي وجد حقيقة ذلك الألم وذائق طعمه وتجرد ألمه عما يحجب به ويواريه وهذا أمر يدرك بالعيان والتجربة في هذه الدار تكون الأسباب المؤهلة للروح والبدن موجودة مقتضية لآثارها ولكن يقوم للقلب من فرحه بحظ ناله من مال أو جاه أو وصال حبيب ما يوارى عنه شهود الألم وربما لا يشعر به أصلاً فإذا زال المعارض ذاق طعم الألم ووجد مسه ومن اعتبر أحوال نفسه وغيره علم ذلك فإذا كان هذا في هذه الدار فما الظن عند المفارقة والغطام عن الدنيا والانتقال إلى الله والمصير إليه فليتأمل العاقل الفطن الناصح لنفسه هذا الموضوع حق التأمل وليشغل به كل أفساره فان فهمه وعقله واستمر اعراضه .

فما تباع الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه

وإن لم يفهمه لغلظ حجابيه وكثافة طبعه فيكفيه الإيمان بما أعد الله تعالى في الجنة لأهلها من نعيم الأكل والشرب والتسكح والمناظر المهيجة وما أعد في النار لأهلها من السلاسل والأغلال والحميم ومقطعات الثياب من النار ونحو ذلك والمقصود بيان أن الحاجة إلى الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ضرورية بل هي في أعلى مراتب الضرورة وليست نظراً لحاجتهم إلى الحاجة وأسبابها بل هي أعظم من ذلك وأما ما ذكر عن الصابئة من الاستغناء عن النبوة فهذا ليس مذهبا لجميعهم بل فيهم سعيد وشق كما قال تعالى (إن الذين

آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) فأدخل المؤمنين من الصابئين في أهل السعادة ولم ينالوا ذلك إلا بالإيمان بالرسول ولكن منهم من أنكر النبوات وعبد الكواكب وهم فرق كثيرة ليس هذا موضع ذكرهم . . فأما قولهم إن الموجودات في العالم السفلي مركبة في تأثير الكواكب والروحانيات وفي اتصالها بعود ونحوس بوجب أن يكون في آثارها حسن وقبح في الأخلاق والأعمال يدركه كل ذى عقل سليم فلا حاجة لنا إلى من يعرفنا حسنها وقبحها إلى آخر كلامهم فسلام من هو أجهل الناس وأضلهم وأبعدهم عن الإنسانية وقائل هذه المقالة مناد على نفسه أنه لم يعرف فاطره فاطر السموات والأرض ولا صفاته ولا أفعاله بل ولا عرف نفسه التي بين جنبيه ولا ما يسعدها ويشقيها ولا غايتها ولا لماذا خلقت ولا بماذا تكمل وتصلح وبماذا تفسد وتهلك بل هو أجهل الناس بنفسه وبفطرها وبارئها وهل يتمكن العقل بعد معرفة النفس ومعرفة فاطرها ومبدعها أن يمجّد النبوة أو يجوز على الله وعلى حكمته أن يترك النوع البشرى الذى هو خلاصة المخلوقات سدسى ويدعهم هملا معطلا ومخلّهم عبثا باطلا ومن جوز ذلك على الله سبحانه فما قدره حق قدره بل ولا عرفه ولا آمن به قال تعالى (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء) فأخبر تعالى أن من جحد رسالاته فما قدره حق قدره ولا عرفه ولا عظمه ولا نزهه عما لا يليق به تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ثم يقال لهذه الطائفة بماذا عرفتم أن الموجودات بالعالم السفلي كلها مركبة على تأثير الكواكب والروحانيات وهل هذا إلا كذب بحت وبهت فهب أن بعض الآثار المشاهدة مسبب عن تأثير بعض الكواكب والعلويات كما يشاهد من تأثير الشمس والقمر في الحيوان والنبات وغيرهما فن أين لكم أن جميع أجزاء العالم السفلي صادر عن تأثير الكواكب والروحانيات وهل هذا إلا كذب وجهل فهذا العالم فيه من التغيير والاستحالة والكون والفساد ما لا يمكن إضافته إلى كوكب ولا يتصور وقوعه إلا بمشيئة فاعل مختار قادر مؤثر في الكواكب والروحانيات مسخر لها بقدرته مدبر لها بمشيئته ، كما تشهد عليها أحوالها وهيئاتها وتسخيرها وانقيادها أنها مدبرة مربوبة مسخرة بأمر قادر قاهر يصرها كيف يشاء ويدبرها كما يريد ليس لها من الأمر شيء ولا يمكن أن تتصرف في نفسها بذرة فضلا أن تعطى العالم وجوده فلو أرادت حركة غير حركتها أو مكانا غير مكانها أو هيئة أو حالا غير ما هي عليه لم تجد إلى ذلك سبيلا فكيف تكون ربنا لكل ماتحتها مع كونها عاجزة مصرفة مقهورة مسخرة آثار الفقر مسطورة في صفحاتها وآيات العبودية والتسخير

بأدب عليها فبأى اعتبار نظر إليها العاقل رأى آثار الفقر وشواهد الحدوث وأدلة التسخير والتصريف فيها فهى خلق من ليس كمثل شئ. وآيات من آياته عبيد مسخرات بأمره ألاله الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين . . وأما قولهم إن فى اتصالات الكواكب نظر سعود ونحوس مما أضحكوا به العقلاء عليهم من جميع الأمم ونادوا به على جهلهم وصاروا به مركزاً لكل كذاب وكل أفاك وكل زنديق وكل مفرط فى الجهل بالنبوت وما جاءت به الرسل بالحقائق العقلية والبراهين اليقينية وسريك طرفاً من جهالاتهم وكذبهم وتناقضهم وبطلان مقاتلهم ليعرف اللبيب نعمة الله عليه فى عقله ودينه ، فيقال لهم المؤثر فى هذه السعود والنحوس هل هو الكوكب وحده والبرج وحده أو الكوكب بشرط حصوله فى البرج والسلك محال أما الأول والثانى فإنهما يوجبان دوام الأثر لكون المؤثر دائم الثبوت والثالث أيضاً محال لأنه لما اختلف أثر الكوكب بسبب اختلاف البرجين لزم أن تكون طبيعة كل برج مخالفة بالماهية لطبيعة البرج الثانى إذ لو لم يكن كذلك كانت طبائع جميع البروج متساوية فى تمام الماهية فوجب أن يكون أثر الكوكب فى جميع البروج أثراً واحداً لأن الأشياء المتساوية فى تمام الماهية يمتنع أن تلزمها لوازم مختلفة ولما كانت آثار كل كوكب واجبة للاختلاف بسبب اختلاف البروج لزم القطع بكون البروج مختلفة فى الطبيعة والماهية وهذا يقتضى كون الفلك مركباً لا بسيطاً . . وقد قلتم أنهم وجميع الفلاسفة أن الفلك بسيط لا تركيب فيه ومن العجب جواب بعض الأحكاميين عن هذا بأن الكواكب حيوانات ناطقة فاعلة بالقصد والاختيار فلذلك تصدر عنها الأفعال المختلفة وهذا مكابرة من هؤلاء ظاهرة فإن دلائل التسخير والاضطرار عليها من لزومها حركة لا سبيل لها إلى الخروج عنها ولزومها موضعاً من الفلك لا تتمكن من الانتقال عنه وإطراد سيرها على وجه مخصوص لا تفارقه البتة أبين دليل على أنها مسخرة مقهورة على حركاتها محركاً بتحرك قاهر لا متحركة بإرادتها واختيارها كما قال تعالى (والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألاله الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) . . ثم يقال لا ينفك هذا الجواب شيئاً فإن طبائع البروج إن كانت متساوية فى تمام الماهية كان اختصاص كل برج بأثره الخاص ترجيحاً لأحد طرفى الممكن على الآخر بلا مرجح وإن لم تكن متساوية لزم تركيب الفلك وبما أضحكتم به العقلاء منكم أنكم جعلتموها أجساماً ناطقة فاعلة بالاختيار ونفيتها أن يكون فاعلها ومبدعها حياً قيوماً فاعلاً بالاختيار وهذه الحوادث مستندة إلى مشيئته واختياره جارية على وفق حكمته وعلمه مع كون هذه الكواكب عبيده وخلق مسخر بأمره ولا تملك لأنفسها ولا لما تحتها ضراً ولا نفعاً ولا سعداً ولا نحساً كما قاله العقلاء من بنى آدم وانفقت عليه الرسل وأتباعهم . . فان قيل لا نسلم أن الفلك بسيط بل هو مركب من هذه

البروج وطبيعة كل برج مخالفة لطبيعة البرج الآخر بل طبيعة كل دقيقة وثانية مخالفة لطبيعة الدقيقة الأخرى والثانية الأخرى ولا يتم علم الأحكام إلا بهذا . . قيل قولكم بأنه قديم أبدى غير قابل للسكون والفساد ولا يقبل الانحلال ولا الحرق ولا الالتئام مع كون طبيعة كل جزء منه صغيراً أو كبيراً مخالفة لطبيعة الجزء الآخر كما صرح به أبو معشر جمع بين النقيضين فإنه إذا كان مركباً من أجزاء مختلفة الماهية لم يتمتع انحلاله وانفطاره وانشقاقه فكيف جمعتم بين تكذيب الرسل في الإخبار عن انقطاعه وانشقاقه وانحلاله وبين دعواكم تركبه من ماهيات مختلفة في نفسها غير متمتع على المركب منها الانحلال له والانفطار فلا للرسل صدقتم ولا مع وجوب العقل ووقفتم بل أنتم من أهل هذه الآفة (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير) . . فان قيل لم لا يجوز أن يقال إن كل برج من البروج الإثني عشر قد ارتسمت فيه كواكب صغيرة باغت في الصغر إلى حيث لا يمكننا أن نحس بهائم إن الكواكب إذا وقع في مسامتة برج خاص امتزج نور ذلك الكوكب بأنوار تلك الكواكب الصغار المرسمة في تلك القطعة في الفلك فيحصل بهذا السبب آثار مخصوصة وإذا كان هذا محتملاً ولم يبطل بالدليل ثبوته تعين المصير إليه . . قيل طبائع تلك الكواكب إن كانت مختلفة بالماهية عاد المحذور المذكور وإن كانت واحدة لم يكن ذلك الامتزاج متشابهاً فلا يتصور صور الآثار المتضادة المختلفة عنه . . (الوجه الثاني في السلام على بطلان علم الأحكام) إن معرفة جميع المؤثرات الفلكية متمتعة وإذا كان كذلك امتنع الاستدلال بالأحوال الفلكية على حدوث الحوادث السفلية وإنما قلنا أن معرفة جميع المؤثرات الفلكية متمتعة لوجوه . . أحدها أنه لا سبيل إلى معرفة الكواكب بواسطة القوى الباصرة والمرئي إذا كان صغيراً أو في غاية البعد من الرائي فإنه يتم نذرويته لذلك فإن أصغر الكواكب التي في فلك الثوابت وهو الذي تمتحن به قوة البصر مثل كرة الأرض بضعة عشر مرة وكرة الأرض أعظم من كرة عطاردها كذا مرة فلو قدرنا أنه حصل في الفلك الأعظم كواكب كثيرة يكون حجم كل واحد منها مساوياً لحجم عطاردها فإنه لا شك أن البصر لا يقوى على إدراكه فيثبت أنه لا يلزم من عدم إبصارنا شيئاً من الكواكب في الفلك الأعظم عدم تلك الكواكب وإذا كان كذلك فاحتمال أن في الفلك الأعظم وفي فلك الثوابت وفي سائر الأفلاك كواكب صغيرة وإن كنا لا نحس بها ولا نراها يوجب امتناع معرفة جميع المؤثرات الفلكية . . فان قلتم إنها لما كانت صغيرة وآثارها ضعيفة لم تصل آثارها وقواها إلى هذا العالم . . قيل لكم صغر الجنة لا يوجب ضعف الأثر فإن عطاردها أصغر الأجرام الفلكية جرماً عندهم مع أن آثاره قوية وأيضاً فالرأس والذنب نقطتان وهميتان وأما أنتم فقد أثبتتم لهما آثاراً وأيضاً السهام مثل سهم السماء وسهم الغيب نقط

وهمية ولها عندكم آثار قوية . . الوجه الثاني مما يدل على أن معرفة جميع المؤثرات الفلكية غير معلوم أن الكواكب المرئية غير مرصودة بأسرها فإنكم أنتم وغيركم قد قلتم أن المجرة عبارة عن أجرام كوكبية صغيرة جدا مرتكزة في فلك الثوابت على هذا سمت المخصوص ولا ريب أن الوقوف على طبائعها متعذرة . . وثالثها أن جميع الكواكب الثابتة المحسوسة لم يحصل الوقوف التام على طبائعها لأن كلام الأحكاميين قيل الجاصل لاسيما في طبائع الثوابت نعم غاية ما عندهم أنهم ادعوا أنهم كشفوا بعض الثوابت التي في الفلك الأول والثاني فأما البقية فقلما تكلموا في معرفة طبائعها ورايبها أن بتقدير أنهم عرفوا طبائع هذه الكواكب حال بساطتها لكن لا شبهة أنه لا يمكن الوقوف على طبائعها حال امتزاج بعضها ببعض لأن الامتزاجات الحاصلة من طبائع ألف كوكب أو أكثر بحسب الأجزاء الفلكية يبلغ في الكثرة إلى حيث لا يقدر العقل على ضبطها . . وخامسها آلات الرصد لا تفي بضبط الثوابت والثوابت ولا شك أن الثانية الواحدة مثل الأرض كذا كذا ألف مرة أو أقل أو أكثر ومع هذا التفاوت العظيم كيف يمكن الوصول إلى الغرض حيث قيل إن الإنسان الشديد الجري بين رفعه رجله ووضعها الأخرى يتحرك جرم الفلك الأقصى ثلاثة آلاف ميل وإذا كان الأمر كذلك فكيف ضبط هذه المؤثرات . . وسادسها أنا عرفنا تلك الامتزاجات الحاصلة في ذلك الوقت فلا ريب أنه لا يمكننا معرفة الامتزاجات التي كانت حاصلة قبله مع أننا نعلم قطعاً أن الأشكال السالفة ربما كانت عاتقة ومانعة عن مقتضيات الأشكال الحاصلة في الحال ولا ريب أنا نشاهد أشخاصا كثيرة من النبات والحيوان والإنسان مقارنة لطالع واحد مع أن كل واحد منها يخالف للآخر في أكثر الأمور وذلك أن الأحوال السالفة في حق كل تكون مخالفة للأحوال السالفة في حق الآخر وذلك يدل أنه لا اعتماد على مقتضى الوقت بل لابد من الإحاطة بالطوالع السالفة وذلك مما لا وقوف عليه أصلاً فإنه ربما كانت الطوالع السالفة دافعة مقتضيات هذا الطالع الحاضر وعلى هذا الوجه عول ابن سينا في كتابيه اللذين سماهما الشفا والنجاه في إبطال هذا العلم فثبت بهذا أن الوقوف التام على المؤثرات جميعها ممتنع مستحيل وإذا كان الأمر كذلك كان الاستدلال بالأشخاص الفلكية على الأحوال السفلية باطلا قطعاً . . (الوجه الثالث) أن تأثير الكواكب فيما ذكرتم من السعد والنحس إما بالنظر في مفردة وإما بالنظر إلى انضمامه إلى غيره فمضى لم يحط المنجم بهاتين الحالتين لم يصح منه أن يحكم له بتأثير ولم يحصل إلا على تعارض التقدير ومن المعلوم أن في فلك البروج كواكب شدت عن الرصد معرفة أقدرها وأعدادها ولم يعرف الأحكاميون ما يوجهه خواص مجموعاتها وأفرادها نخرج الفريقان

أصحاب الرصد والأحكام عن الإحاطة بما في طباعها وماعسى أن تؤثره مع السيارة عند انفرادها واجتماعها فما الذى يؤمنكم كلكم عند وقوع نجم من تلك النجوم المجهولة على درجة الطالع أن يكون موجبا من الحكم مالا يوجبُه النظر بدونه . . (الوجه الرابع) أن تأثير الكواكب يختلف باختلاف أقدارها فما كان من القدر الأول أثر بوقوعه على الدرجة وإن لم تضبط الدقيقة وما كان من القدر الأخير لم يؤثر إلا بضبط الدقيقة ولا ريب أن الجمالة بتلك الكواكب ومقاديرها يوجب كذب الأحكام النجومية وبطلانها . . (الوجه الخامس) أنها لو كان لها تأثير كما يزعمون لم يحل إما أن تكون فيه مختاره مريدة أو غير مختارة ولا مريدة وكلاهما محال أما الأول فلأنه يوجب جرى الأحكام على وفق اختيارها وإرادتها ولم يتوقف على اتصالاتها وانفصالاتها ومفارقتها ومقارنتها وهبوطها بها في حضيضها وارتفاعها في أوجها كما هو المعروف من الفاعل بالاختيار ولا سيما الأجرام العلوية المؤثرة في سائر السفليات ولاختلفت آثارها أيضا عند هذه الأمور بحسب الدواعى والإرادات ولا يمكنها أن تسعد من أراد أنه ينحسه وتنحس من أراد أنه يسعده كما هو شأن الفاعل المختار وإن لم تكن مختارة ومريدة فتأثيرها بحسب الذات والطبع وما كان هكذا لم يختلف أثره إلا باختلاف القوابل والمعدات وعندكم أن في اختلاف تلك القوابل والمعدات مستند إلى تأثيرها فأى محال أبلغ من هذا وهل هذا إلا دور ممتنع في بداية العقول . . (الوجه السادس) أن هذا العلم مشتمل على أصول يشهد صريح العقل بفسادها وهى وإن كانت فى الكثرة إلى حيث لا يمكن ذكرها فنحن نعد بعضها . . فالأول من المعلوم بالضرورة أنه ليس فى السماء حمل ولا نور ولا حية ولا عقرب ولا كلب ولا ثعلب إلا أن المتقدمين لما قسموا الفلك إلى اثني عشر قسما أرادوا أن يميزوا كل قسم منها بعلامة مخصوصة شبهوا الكواكب المذكورة فى تلك القطعة المعينة بصورة حيوان مخصوص تشبيها بعيدا جداً ثم إن هؤلاء الأحكاميين فرعوا على هذه الأسماء تفريعات طويلة فرعوا أن الصور السفلية مطبعة للصور العلوية فالعقارب مطبعة لصور العقرب والأفاعى مطبعة لصور الثنين وكذا القول فى الأسد والسنبلة ومن عرف كيف وضعت هذه الأسماء ثم سمع قول هؤلاء الأحكاميين ضحك منهم وتبين له فرط جهلهم وكذبهم . . الثانى أن هؤلاء لما عجزوا عن معرفة طالع القرآن أقاموا طالع السنة مقام القرآن ومعلوم أن هذا فى غاية الفساد . . الثالث أنهم اختلفوا اختلافاً شديداً فى الواحدة من مسائل هذا العلم فإن أقوالهم فى حدود الكواكب كثيرة مختلفة وليس مع أحد منهم شبهة ولا خيال فضلاً عن حجة واستدلال ثم إن كثيراً منهم من غير حجة ولا دليل ربما أخذوا واحداً من تلك الأقوال من غير بصيرة بل بمجرد التشبهى مثل (٩ - مفتاح ٢)

أخذهم في ذلك بحدود الضربين وذلك من أدل الدلائل على فساد هذا العلم . . الرابع أن أقوالهم متناقضة فإن منهم من يقول كون زحل في بيت المال دليل الفقر ومنهم من يقول يدل على وجدان كنز . . الخامس أن هذا العلم مع أنه تقليد محض فليس أيضا تقليدا منتظما لأن لكل قوم فيه مذهبها ولكل طائفة فيه مقالة فللبابليين فيه مذهب وللفرس مذهب آخر وللهند مذهب وللصين مذهب والرابع والأقوال إذا تعارضت وتعذر الترجيح كان دليلا على فسادها وبطلانها وسيأتي إن شاء الله بسط هذه الوجوه أكثر من هذا . . (الوجه السابع) ما يدل على بطلان القول بالأحكام ان الطالع عندهم هو الشكل المخصوص الحاصل للفلك عند انفصال الولد من رحم أمه وإذا ثبت هذا . . فنقول الاستدلال بحصول ذلك الشكل على جميع الأحوال الكلية التي تحصل لهذا الولد إلى آخر عمره استدلال باطل قطعا ويدل عليه وجوه : أحدها أن ذلك الشكل كما حدث في تلك اللحظة فانه يفنى ويزول ويحدث شكل آخر فذلك الشكل المعين معد في جميع أجزاء عمر هذا الإنسان والمعدوم لا يكون علة للموجود ولا جزء من أجزاء العلة وإذا كان كذلك امتنع الاستدلال بذلك الشكل منهما على الأحوال التي تحدث في جميع أجزاء العمر . . الثاني أنه لا مشابهة بين ذلك الشكل المخصوص وبين هذا الإنسان الذي انفصل من بطن الأم إلا في أمر واحد وهو أن كل واحد ظهر بعد الخفاء وهو بمجرد ذلك لا يوجب ارتباط ذلك الشكل المخصوص للملك بسائر أحوال هذا الإنسان البتة فدعى ذلك فاسد العقل . والنظر الثالث أنه عند حدوث ذلك الطالع حدثت أنواع من الحيوانات وأنواع من النباتات وأنواع من الحمادات فلو كان ذلك الطالع يوجب آثارا مخصوصة لوجب اشتراك كل الأشياء التي حدثت في عالمنا هذا في ذلك الوقت في تلك الآثار وحيث لم يكن الأمر كذلك علمنا أن القول بتأثير الطالع باطل الرابع هب أن الطالع له أثر إلا أن الواجب أن يقال الطالع المعتبر هو طالع مسقط النطفة لا طالع الولادة وذلك لأن عند مسقط النطفة يأخذ ذلك الشخص في التكون والتولد فأما عند الولادة فالشخص قد تم تكونه وحدوثه ولاحداث في هذا الوقت إلا انتقاله من مكان إلى مكان آخر فثبت أنه لو كان للطالع اعتبار لوجب أن يكون المعتبر هو طالع مسقط النطفة لا طالع الولادة . (الوجه الثامن) أن الأرصاد لا تنفك عن نوع الخلل والزلل وقد صنف أبو علي ابن الهيثم رسالة بليغة في أقسام الخلل الواقع في آلات الرصد وبين أن ذلك الخلل ليس في وسع الإنسان دفعه وإزالته وإذا عرف هذا فنقول إذا بعد العهد بتجديد الرصد اجتمعت تلك المساحات القليلة ويحصل بسببها تفاوت عظيم في مواضع الكواكب وكذلك إذا وجد موضع الكواكب

بحسب بعض الزيجات درجة معينة حين وجد بحسب زيج آخر غير تلك الدرجة ربما حصل التفاوت بالبرج ولما كان علم الأحكام مبنيًا على مواضع الكواكب ومناسبتها ثم قد تبين أن التفاوت الكبير وقع في قطع الكواكب علم بطلان هذا العلم وفساده . . (الوجه التاسع) أن المعقول من تأثير هذه الكواكب في العالم السفلي هو أنها بحسب مساقط شعاعاتها تسخن هذا العالم أنواعا من السخونة فأما تأثيراتها في حصول الأحوال النفسانية من الذكاء والبلادة والسعادة والشقاوة وحسن الخلق وقبحه والغنى والفقر والحلم والسرور واللذة والألم فلو كان معلوما لكان طريق علمه إما بالخبر الذي لا يجوز عليه الكذب أو الحس الذي يشترك فيه الناس أو ضرورة العقل أو نظره وشمه من هذا كله غير موجود البتة فالقول به باطل ولا يمكن للأحكاميين أن يدعوا واحداً من الثلاثة الأول وغايتهم أن يدعوا أن النظر والتجربة قادم إلى ذلك وأوقعهم عليه ونحن نبين فساد هذا النظر والتجربة بما لا يمكن دفعه من الوجوه التي ذكرناها ونذكر غيرها مما هو مثلها وأقوى منها وكل علم صحيح فله براهين يستند إليها تنتهي إلى الحس أو ضرورة العقل وأما هذا العلم فلا ينتهي إلا إلى جحد وتخمين وظنون لا تغني عن الحق شيئاً وغاية أهله تقليد من لم يقيم دليل على صدقه . . (الوجه العاشر) أن إذا فرضنا أن رجلين سألا منجمين في وقت واحد في بلد واحد عن خصمين أيهما الظافر صاحبه فهبنا يكون الطالع مشتركا بين كل واحد من ذينك الخصمين فإن دل ذلك الطالع على حال الغالب والمغلوب مع كونه مشتركا بين الخصمين لزم كون كل منهما غالباً لخصمه ومغلوباً من جانبه وذلك محال . . فإن قالوا بين حال كل واحد منهما اختلاف بسبب طالع لأصل أو طالع التحويل أو برج الانتهاء . . قلنا هذا تسليم لقول من يقول إن طالع الوقت يدل على شيء أصلاً بل لا بد من رعاية الأحوال الماضية لكن الأحوال الماضية كثيرة غير مضبوطة فتوقف دلالة طالع الوقت على تلك الأحوال الماضية يقتضي التوقف على شرائط لا يمكن اعتبارها البتة وقد ساعد أصحاب الأحكام على الاعتراف بأن الاعتداد على طالع الوقت غير مفيد بل لا يتم الأمر إلا عند معرفة طالع الأصل فطالع التحويل وبرج الانتهاء ومعرفة التسييرات فعند اعتبار جملة هذه الأمور يتم الاستدلال ومع اعتبار جملة ما تحريرها بحيث يؤمن بتلطف فيها يكون الاستدلال على سبيل الظن لا على سبيل القطع . . (الوجه الحادي عشر) لو فرضنا جادة مسلوكة وطريقاً يمشى فيه الناس ليلاً ونهاراً ثم حصل في تلك الجادة آثار متاربة بحيث لا يقدر سالك ذلك الطريق على سلوكه إلا بتأمل كثير وتفكير شديد حتى يتخلص من الوقوع في تلك الآثار فإن من المعلوم بالضرورة أن سلامة من يمشى في هذه الطريق من عريان لا يكون كسلامة من يمشى من البصراء بل ولا بد أن يكون عطب العميان في

ذلك الطريق كثيرا جدا وأن يكون سلامة البصراء غالبية جدا إذا عرفت هذا . . فنقول مثال العميان عند الأحكاميين الذين لا يعرفون أحكام النجوم وهم الأكثرون من الخلاق ومثال البصراء عندهم هم أهل هذا العمل وهم الأقلون ومثال الطريق الذي حصلت فيه الآثار العميقة المهلكة الزمان الذي يمضى على الخلق أجمعين ومثال تلك الآثار المصائب الزمانية والمحن والبلايا فلو كان هذا العلم صحيحا لوجب أن يكون فوز المنجمين بالغنى والسلامة والنعيم أتم فوز وسلامتهم فوق كل سلامة ومعلوم أن الأمر بالعكس والغالب كون المنجمين ومن سمع منهم عمل بقولهم في الأدبار والنحس والحرمات والواقع أبين شاهد بذلك ولو ذهبنا نذكر الوقائع التي شوهدت من ذلك واشتملت عليها التواريخ ازادت على ألوف عديدة فلا نجد أحدا راعى هذا العلم وتقيده به في حركاته واختياراته إلا وكانت عاقبته قريبا إلى أدبار ونكابة وبلايا لا يصاب بها سواه ومن أكثر خبره بأحوال الناس فإنه يعرف من ذلك ما لا يعرف غيره . . (الوجه الثاني عشر) أنا نشاهد عالما كثيرا يقتلون في ساعة واحدة في حرب وخلقوا يعرفون في ساعة واحدة مع القطع باختلاف طوالهم واقتضائها عندهم أحوالا مختلفا ولو كان للطوالع تأثير في هذا لامتنع عند اختلافها الاشتراك في ذلك . . ولا ينفعكم جواب من انتصر لكم بأن الطوالع قد يكون بعضها أقوى من بعض ولعل طالع الوقت أقوى من طالع الأصل وكان الحكم له فإن طالع الوقت لعله اقتضى هلاكاً أو غرقاً عاما وهو أقوى من طالع الأصل فكان التأثير له . . لانا نقول هذا بعينه يبطل عليكم طالع المولود والأصل ويحيل القول بتأثيره واعتباره جملة فإن الطوالع بعده مختلفة كثيرة وأصل بعضها أو أكثرها أقوى منه فيكون الحكم بموجبه باطلا إذ لا أمان لكم من اقتضاء الطوالع بعده ضد ما اقتضاه وحيث فلا يفيد اعتباره شيئا . . (الوجه الثالث عشر) أنا نرى الجيشين العظيمين والحزبين المتقابلين يقتتلان ويختصمان وقد أخذ طالع الوقت لكل منهما ومع هذا فالمنصور والغالب أحدهم مع أن الطالع واحد ولا ينفعكم في هذا جواب من انتصر لكم بأنه لا مانع من القول بوجه الأخذ للطالع في الحساب والحكم فإنه لو أخذ لهما أى طالع كان لم يكن الغالب إلا أحده حتى لو كان الطالع قطعا لا يتصور فيه الغلط لم يكن بد من كون أحدهما غالبا والآخرون مغلوبا وهذا يبطل مذهب الأحكام بلا ريب . . (الوجه الرابع عشر) أن الأجزاء المفترضة في الفلك إما أن تكون متشابهة في الطبيعة والماهية أو مختلفة فيها فان كانت متساوية كان الجزء الذي هو الطالع مساويا لساائر الأجزاء وحكم ساائر الأجزاء واحدا وإن كانت الأجزاء مختلفة في الماهية والطبيعة فلا ريب أن الفلك جرمه في غاية العظم حتى قالوا ان الرجل الشد العدو إذا رفع رجله ووضعها يكن الفلك قد تحرك ثلاثة آلاف ميل وإذا كان كذلك فن الوة

الذى ينفصل الولد من بطن أمه إلى أن يأخذ المنجم الاسطرلاب ويأخذ الارتراف يكون الفلك قد تحرك مثل كل الأرض كذا ألف مرة وإذا كان الأمر كذلك فالجزء الذى يأخذه المنجم بالاسطرلاب ليس الجزء الطالع فى الحقيقة وإذا كانت الأجزاء الفلكية مختلفة فى الطبيعة والماهية علينا أن أخذ الطالع محال وقد اعترف فضلائكم بهذا وقالوا إن الأمر وإن كان كذلك إلا أن التجربة قد دلت على أن هذا الطالع الذى تعذر على الانسان تحصيله يدل على كثير من مقدمة المعرفة مع ما فيه من الخلل الكثير الذى ذكرتم فوجب أن لا يهمل وهذا خطأ بين فإن التجارب التى دلت على كذب ذلك وبطلانه ووقوع الأمر بخلافه أضعاف أضعاف التجربة التى دلت على صدقه كما سنذكر قطرة من بحر عن قريب إن شاء الله ولهذا قال أبو نصر الفارابى واعلم أنك لو قلبت أوضاع المنجمين فجعلت الحار بارداً والبارد حاراً والسعد نحساً والنحس سعداً والذكر أنثى والأنثى ذكراً ثم حكمت لكنت أحكامك من جنس أحكامهم نصيب تارة وتخطىء تارات وهى معهم إلا الحدس والتخمين والظنون الكاذبة . . . ولقد حكى أن امرأة أنت منجماً فاعطته درهما فأخذ طالعها وحكم وقال الطالع يخبر بكذا فقالت لم يكن شئ من ذلك ثم أخذ الطالع وقال يخبر بكذا فأكرته حتى قال إنه ليدل على قطع فى بيت المال فقالت الآن صدقت وهو الدرهم الذى دفعته اليك . (الوجه الخامس عشر) أن الأجسام لا تتفعل من غيرها إلا بواسطة الماسة وهذه الكواكب لا ماسة لها بأعضائها وأبدانها وأرواحها فيمتنع كونها فاعلة فيها . . . أقصى ما فى الباب أن يقال إنها وإن لم تكن ماسة لأعضائها إلا أن شعاعها يصل إلى أجسامنا فيقال لا ريب أن تأثير الشعاع إنما يكون بالتسخين عند المسامته أو بالتبريد عند الانحراف عن المسامته فهذا بعد تصحيحه يقتضى أن لا يكون لهذه الكواكب تأثير فى هذا العالم إلا على سبيل التسخين والتبريد فأما أن تعطى العلوم والأخلاق والحجة والبغضاء والموالة والمعاداة والعفة والحرية والندالة والحبث والمكر والحديعة فذلك خارج عن معقول العقلاء وهو من صفات الاحكاميين وجهالاتهم فإن قيل التأثير بالتسخين والتبريد يوجب اختلاف أمزجة الأبدان واختلاف أمزجة الأبدان يوجب اختلاف أفعال النفس قيل فنحن نرى التسخين يقتضى حرارة وحدة فى المزاج يفعل بها هذا غاية الخير والأفعال الحميدة وهذا غاية الشر والأفعال الخبيثة والشعاع قد سخن مركبها فما الموجب لانفعال نفسيهما عن هذا التسخين هذا الانفعال المتباعد المتناقض وأيضا فما الموجب لاختلاف القوابل وتأثير الكواكب فيها بطبعه وتسخينه وتبريده فكيف اختلفت القوابل هذا الاختلاف العظيم وهى مستندة إلى تأثير واحد . (الوجه السادس عشر) أن رجلاً لو جلس فى دار لها بابان شرقى وغربى فسأل

المنجم وقال من أيهما يقتضى الطالع خروجي؟ فإذا قال له المنجم من الشرق أمكنه تكذيبه والخروج من الغرب وبالعس وكذلك السفر في يوم واحد وابتداء البناء وغيره في يوم يعينه له المنجم ويحكم باقتضاء الطالع له من غير تقدم عنه ولا تأخر فإنه يمكنه تكذيبه في ذلك أجمع . فإن قلتم إن المنجم إذا أخبره بما يفعله ويختاره يصير ذلك داعياً له إلى أن يخالفه في قوله ويكذبه فالطريق إلى علم صدقه أن يحكم ذلك المنجم على معين ويكتبه في كتاب ويخفيه أو يذكره لإنسان آخر ويخفيه عن صاحب الواقعة فهنا يظهر صدق المنجم . قلت هذا العذر من أسقط الأعدار لأن النجوم لو كانت كما تزعمون دالة على جميع السكانات الواقعة في هذا العالم لعرف المنجم ذلك الذي يستقر عليه اختياره على كل حال شاء تكذيبه أو لم يشأ فلما لم يكن الأمر كذلك سقط القول بصحة هذا العذر . فإن قيل الأشخاص الفلكية مؤثرات والسفلية قوابل ويجوز أن تختلف الأحوال الصادرة عن الفاعل بسبب اختلاف القوابل وإذا كان كذلك فهب أن الدلائل الفلكية دلت على أنه إنما يختار الخروج من الباب الفلاني لأن كون الإنسان مشغولاً بتكذيب المنجم حالة حاصلة في النفس مانعة من ظهور ذلك الأثر الذي تقتضيه الموجبات الفلكية فهذا الأمر لم يحصل الأمر على وفق حكم المنجم . قيل إذا اقتضت الموجبات الفلكية أثراً امتنع أن يحصل في النفس ما يضاذه لأن تلك الإرادة والميول والعزوم الواقعة في النفس هي عندكم من موجبات الآثار الفلكية فيمتنع أن تكون مضادة لموجبها لاسيما والمنجم يحكم بأنه إنما تقتضى النجوم أن يريد الإنسان كذا وكذا وليس حكمه أن الطالع يقتضى كذا وكذا إلا أن يريد الإنسان خلافه هذا ما لا يقوله أحد منكم فعلم بطلان هذا الاعتذار . (الوجه السابع عشر) أنه لا سبيل إلى معرفة طبائع البروج وطبائع الكواكب وامتزاجاتها إلا بالتجربة وأقل ما لا بد منه في التجربة أن يحصل ذلك الشيء على حالة واحدة مرتين إلا أن الكواكب لا يمكن تحصيل ذلك فيها لأنه إذا حصل كوكب معين في موضع معين في الفلك وكانت سائر الكواكب متصلة به على وضع مخصوص وشكل مخصوص فإن ذلك الوضع المعين بحسب الدرجة والدقيقة لا يعود إلا بعد ألوف من السنين وعمر الإنسان الواحد لا يفي بذلك بل عمل البشر لا يفي به والتواريخ التي تضبط هذه المدة مما لا يمكن وصولها إلى الإنسان فثبت أنه لا سبيل إلى الوصول إلى هذه الأحوال من جهة التجربة البتة ولا ينفعكم اعتذار من اعتذر عنكم بأنه لا حاجة في التجربة إلى ما ذكرتم لأننا إذا شاهدنا حادثاً معيناً في وقت مخصوص فلا شك أنه قد تحصل في الفلك اتصالات الكواكب المختلفة في ذلك الوقت فلو قدرنا عود ذلك الوضع الفلكي بتمامه على تلك الحال ألف مرة يعلم أن المؤثر في ذلك الحادث هل بمجموع الاتصالات أو اتصال معين منها فاذا علمنا

أن ذلك الوضع بجملة فاته وما عاد ولا كنهه عاد اتصال واحد من تلك الاتصالات وكما عاد ذلك الاتصال المعين فإنه يعود ذلك الأثر بعينه لا لأجل سائر الاتصالات فثبت أن الرجوع في هذا الباب إلى التجربة غير ممتذر وهذا الاعتذار في غاية الفساد والمكابرة لأن تخالف ذلك الأثر عن ذلك الإتصال العائد أكثر من إقراره به والتجربة شاهدة بذلك كما قد اشتهر بين العقلاء أن المنجمين إذا أجمعوا على شيء من الأحكام لم يكذبوا ويقع ونحن نذكر طرفاً من ذلك فنقول في (الوجه الثامن عشر) لما نظر حذاقكم وفضلاؤكم سنة سبع وثلاثين عام صفيين من مخرج على رضى الله عنه من الكوفة إلى محاربة أهل الشام اتفقوا على أنه يقتل ويقهر جيشه فظهر كذبهم وانتصر جيشه على أهل الشام ولم يقدروا على التخلص منهم إلا بالحميلة التي وضعوها من نشر المصاحف على الرياح والدعاء إلى ما فيها وقد قيل إن الاتفاق منهم إنما كان في حرب المؤمنين للخوارج فانهم اتفقوا على أنه من خرج في ذلك الطالع قتل وهزم جيشه فان القمر كان إذ ذاك في العقرب فخالفهم على وقال بل نخرج ثقة بالله وتوكلاً عليه وتكذيباً لقول المنجم فما غزا غزاة بعد رسول الله ﷺ أتم منها قتل عدوه وأيده الله عليهم بالنصر والظهورهم ورجع مؤيداً منصوراً ماجوراً والقصة معروفة في السير والتواريخ . . . وكذلك اتفاق ملائكتكم في سنة سبع وستين على غلبة عبيد الله بن زياد للمختار بن أبي عبيد وأنه لا بد أن يقتله أو يأسره فسار إليه في نحو من ثمانين ألف مقاتل فلقبه إبراهيم بن الأشتر صاحب المختار بأرض نصيبين وهو فيما دون سبعة آلاف مقاتل فانهم أصحاب ابن زياد بعد أن قتل منهم خلق لا يحصيهم إلا الله حتى أنه قيل إنهم قتل منهم ثلاثة وسبعون ألفاً ولم يقتل من أصحاب ابن الأشتر سوى عدد لا يبلغون مائة وفيهم يقول الشاعر:

برزوا نحوهم بسبعة آلا ف ان يهم عجائباً
فتعشوا منهم بسبعين ألفاً أو يزيدون قبل وقت العشاء
فجراك ابن مالك وأبا مسح ق عنا الإله خير جزاء

يريد بابن مالك إبراهيم بن مالك بن الأشتر وأبو اسحاق كنية المختار وقتل ابن الأشتر عبيد الله بن زياد في المعركة ولم يعلم به حتى إذا هل الليل قال لأصحابه لقد ضربت على شاطئ هذا النهر رجلاً فرجع إلى سيني وفيه رائحة المسك ورأيت إقداماً وجراًة فصرعته فذهبت رجلاه قبل المشرق ويدها قبل المغرب فانظروه فأتوه بالنيران فإذا هو عبيد الله بن زياد ذكر ذلك المبرد في الكامل فانظر حكمة الله من انعكاس ما قال الكاذبون المنجمون وقيل لما علم عبيد الله بن زياد أن أمر القتال قد تيسر وسأل منجمه عن قوة نجمه ونجم ابن الأشتر وقال والله انى لأعلم أنه ليس بشيء إلا أنى كنت أنا وهو صغيران وقعت بيني وبينه خصومة بسبب حمام

كننا نلعب به فضررتني إلى الأرض وقعد على صدرى وقال والله أنى قاتلك ولا يقتلك أحد
غيرى ان شاء الله وأنا من استثنائه بالمشيئة خائف فذهب به منجمه إلى ماقرره المنجمون
له من قوة نجمه وأن هذا وهم منه وحكم النجوم يقضى على وهمه فحقق الله سبحانه ذلك
الوهم وأبطل حكم الطالع والنجم . . ومن ذلك اتفاقهم عند ماتم بناء بغداد سنة ست
وأربعين ومائة أن طالعا يقضى بأنه لا يموت فيها خليفة وشاع ذلك حتى هتأ الشعراء به
المنصور حتى قال بعض شعرائه :

يهينك منها بلدة تقضى لنا أن المات بها عليك حرام
لما قضت أحكام طالع وقتها أن لا يرى فيها يموت أمام

وأكد هذا الهذيان في نفوس العوام موت المنصور بطريق مكية ثم المهدي بماسبذان ثم الهادي

بمسابذان ثم الرشيد بطوس فلما قتل بها المأمون الأمين بشارع باب الأنبار انخرم الأصل
الباطل الذى أصوله وظهر الزور الذى لفقوه حتى رجع إلى الحق الأول فقال :

كذب المنجم في مقاله التي نطقت به كذبا على بغدادان
قتل الأمين بها لعمرى يقضى تكذيبهم في سائر الحسينان

ثم مات ببغداد جماعة من الخلفاء مثل الواثق والمنتوكل والمعتضد والمكشفي والناصر
وغير هؤلاء . . ومن ذلك اتفاقهم في سنة ثلاث وعشرين في قصة عمورية أن المعتصم إن
خرج لفتحها كانت عليه الدائرة وأن النصر لعدوه فرزقه الله التوفيق في مخالفتهم ففتح الله
على يديه ما كان مغلقا وأصبح كذبهم وخرصهم بعد أن كان موهوما عند العامة محققا ففتح
عمورية وما والاها من كل حصن وقلعة وكان ذلك من أعظم الفتوحات الممدودة وفي ذلك
الفتح قام أبو تمام الطائي منشدا له على رؤس الأشهاد .

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
والعلم في شهب الأرماع لامعه بين الخميسين لاني السبعة الشهب
أين الرواية أم أين النجوم وما صاغوه من زخرف منها ومن كذب
تخرصا وأحاديثا ملفقة ليست ينبع إذا عدت ولا غرب
عجائباً زعموا الأيام تجعله عنهن في صفر الأصفار أو رجب
وخوفوا الناس من دهيا مظلمة إذا بدا الكوكب الغربي ذو الذنب
وصيروا الأبرج العليا مرتبة ما كان منقلبا أو غير منقلب
يقضون بالأمر عنها وهي غافلة مدار في فلك منها وفي قطب
لو نبتت قط أمرا قبل موقعه لم يخف ماحل بالأوثان والصلب

وهي نحو من سبعين بيتا أجزى على كل بيت منها بالف درهم . . ومن ذلك اتفاقهم سنة اثنتين وتسمين ومائتين في قصة القرامطة على أن المكتفي بالله إن خرج لمقاتلتهم كان هو المغلوب الملزوم وكان المسلمون قد لقوا منهم على توالى الأيام شرا عظيما وخطباً جسيما فأنهم قتلوا النساء والأطفال واستباحوا الحرم والأموال وهدمو المساجد وربطوا فيها خيولهم ودوابهم وقصدوا وفد الله وزوار بيته فأوقموا فيهم القتل الذريع والفعل الشنيع وأباحوا محارم الله وعطلوا شرائعه فعزم المكتفي على الخروج إليهم بنفسه فجمع وزيره القاسم بن عبيد الله من قدر عليه من المنجمين وفيهم زعيمهم أبو الحسن العاصمي وكلهم أوجب عليه بأن يشير على الخليفة أن لا يخرج فإنه إن خرج لم يرجع وبخوجه نزول دولته وبهذه تشهد النجوم التي يقضى بها طالع مولده وأخافوا الوزير من الهلاك إن خرج معه وقد كان المكتفي أمر الوزير بالخروج معه فلم يجد بدأ من متابعته نخرج وفي قلبه ما فيه وأقام المكتفي بالرقعة حتى أخذ أعداء الله جميعا وسيقت جموعهم بكأس السيف نجيماً ثم جاء الخبر من مصر بموت خمارويه بن أحمد بن طولون وكانوا به يستطيعون فأرسل المكتفي من تسلمها واستحضر القواد المصرية إلى حضرته ثم لما عاد أمر القاسم بن عبيد الله الوزير بإحضار رئيس المنجمين وصفه الصفع الكثير بعد أن وقفه ووبخه على عظيم كذبه وإفترائه وترأ منه ومن كل من يقول برأيه . . قال أبو حيان التوحيدى في كتاب الاتباع والمؤانسة وقد ذكر هذه القصة. فهذا وما أشبهه من الافتراء والكذب لو ظهر ونشر وعير أهله به ووقفوا عليه وزجروا عن الدعوى المشرفة على الغيب لكان مقمعة لمن يطلق لسانه بالاطلاع على مالا يكونوا في غد وقطعاً لألسنتهم وكفا لدعواهم وتأديبا لصغيرهم وكبيرهم. . ومن ذلك اتفاقهم سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة عندما أراد القائد جوهر العزيز بناء مدينة القاهرة وقد كان سبق مولاه الملقب بالمعز إلى الدخول إلى الديار المصرية لما أمره المعز بدخولها بالدعوة وأمره إذا دخلها أن يبنى بها مدينة عظيمة تكون نجوم طالعتها في غاية الاستقامة ويكون بطالع السكوكب القاهر وهو زحل أو المريخ على اختلاف حاله فجمع القائد جوهر المنجمين بها وأمر كل واحد منهم أن يحقق الرصد ويحكمه وأمر البنائين أن لا يضعوا الأساس حتى يقال لهم ضموه وأن يكونوا على هيئة من التيقظ والإسراع حتى يوافقوا تلك الساعة التي اتفقت عليها أروصاد أولئك الجماعة فوضعت الأساسات على ذلك في الوقت الحاضر وسموها بالقاهرة إشارة بزعمهم الكاذب إلى السكوكب القاهر واتفقوا كلهم بأن الوقت الذي بنيت فيه يقضى بدوام جدهم وسعادتهم ودوانهم وأن الدعوة لا تخرج فيها عن الفاطمية وإن تداولتها الألسن

العربية والعجمية فلما ملكها أسد الدين شيركوه بن شادى ثم ابن أخيه الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ومع ذلك المصريون قامون بدعوة العاضد عبد الله بن يوسف توهم الجهال أن ما قال المنجمون من قبل حقاً لتبديل اللسان وحال الدعوة مستبقي فلبارد صلاح الدين الدعوة إلى بنى العباس انكشف الأمر وزال الالتباس وظهر كذب المنجمين والحمد لله رب العالمين وكانت المدة بين وضع الأساس وانقراض دولة الملاحدة منها نحو مائة وثلاثة وتسعين عاماً فنقض انقطاع دولتهم على المنجمين أحكامهم وخرب ديارهم وأهتك أستارهم وكشف أسرارهم وأجرى الله سبحانه تكذيبهم والطعن عليهم على لسان الخاص والعام حتى اعتذر من اعتذر منهم بأن البنائين كانوا قد سبقوا الرصادين إلى وضع الأساس وليس هذا من بهت القوم ووقاحتهم ببعيد فانه لو كان كذلك لرأى الحاضرون تبديل البناء وتغييره فانه لو دخلهم شك في تقديم أو تأخير أو سبق بما دون الدقيقة في التعذر لما ساءحوا بذلك مع المقتضى التام والطاعة الظاهرة والاحتمياط الذى لا مزيد فوقه وليس في تبديله حجر أو تحويله برفعه ووضعه كبير أمر على البنائين ولا مشقه وقرآن الأحوال في إقامة دولة بتقريرها وإنشاء قاعدة بتجربها شاهدة بأن الغفلة عن مثل هذا الخطب الجسمي مما لا يساح بها البتة وبالله العجب كيف لم يظهر سبق البنائين للرصدين إلا بعد انقراض دولة الملاحدة وأما مدة بقاء دولتهم فكان البناء مقارناً للطالع المرصود فهل في البهت فوق هذا .. ومن ذلك اتفاقهم سنة خمس وتسعين وثلاثمائة في أيام الحاكم على أنها السنة التي ينقضى فيها بمصر دولة العميدى هذا مع اتفاق أولئك على أن دعوتهم لا تنقطع من القاهرة وذلك عند خروج الوليد بن هشام المعروف بأبى ركة الأموى وحكم الطالع له بأنه هو القاطع لدعوة العميدى وأنه لا بد أن يستولى على الديار المصرية ويأخذ الحاكم أسيراً ولم يبق بمصر منجم إلا حكم بذلك وأكبرهم المعروف الفسكرى منجم الحاكم وكان أبو ركة قد ملك بركة وأعمالها وكثرت جموعه وقويت شوكته وخرجت إليه جيوش الحاكم من مصر فعادت مغلوبة فلم يشك الناس في حذق المنجمين وكان من تدبير الحاكم أن دعا خواص رجاله وأمرهم أن يعملوا بما رآه من احتياله وهو أن يكتبوا أبا ركة بأنهم على مذهبه وأنهم ماثلون عن الدعوة الحاكية وراغبون في الدعوة الوليدية الأموية وأطعموه بكل ما أوهموه به أنهم صادقون وله مناصحون فلما وثق بما قالوه وخفي عليه ما احتالوه زحف بعساكره حتى نزل موسيم على ثلاثة فراسخ من مصر فخرجت إليه العسكر الحاكية فهزمته فتنحى عنها أنها كانت خديعة فهرب وقتل خلق كثير من عسكره وطلب فأخذ أسيراً ودخل به القاهرة على جمل مشهور ثم أمر الحاكم بقتله بعد ما أحضر بين يديه مغلولاً بقل من حديد وذلك

في رجب سنة سبع وتسعين وثلاثمائة وكان مبدأ خروجه في رجب سنة خمس وتسعين فظهر كذب المنجمين وكان هذا الفسكرى قد استولى على الحاكم فإنه اتفقت له معه قضيتان أمالته إليه . . إحداهما أن الحاكم عزم على إرسال أسطول إلى مدينة صور لمحاربتهم فسأله الفسكرى أن يكون تديره إليه ليخرجه في طالع يختاره وتكون العهدة إن لم يظهر عليه واتفق ظهور الأسطول . . الثانية أنه ذكر أن بساحل بركة رميس مسجداً قديماً وأن تحته كنزاً عظيماً وسأله أن يتولى هو هدمه فإن ظهر الكنز وإلا بناه هو من ماله وأودعه السجن فاتفق لإصابة الكنز فطاش المغرور بذلك فلما حكم عليه الفسكرى بتغيير دولته وقضى المنجمون بمثل قضائه فوقع للحاكم أن يغير أوضاع المملكة والدولة ليكون ذلك هو مقتضى الحكم النجوى فصار يأمر في يومه بخلاف كل ما يأمر به في أمسه فأمر بسب الصحابة رضوان الله عليهم على رؤس المنابر والمساجد ثم أمر بقطع سهبهم وعقوبة من سهبهم وأمر بقطع شجرة الزرجون من الأرض وأوجب القتل على من شرب الخمر وأمر بغرس هذه الشجرة وأباح شرب الخمر وأهمل الناس نهب الجانب الغربي من القاهرة وقتلت فيه جماعة ثم ضبط الأمر حتى أمر أن لا تغلق الحوانيت ليلاً ولا نهاراً وأمر مناديه ينادى من عدم له ما يساوي درهماً أخذ من بيت المال عنه درهمين بعد أن يحلف على ما عدمه أو يعضده شهادة رجلين حتى تحمى الناس في ستر حوانيتهم بالجر يد لئلا تدخلها الكلاب ثم عمد إلى كل متول في دولته ولاية فعزله وقتل وزيره الحسن بن عماد كل ذلك ليكون قول أهل النجم أن دولته تتغير واقعاً على هذا الضرب من التغيير فلما كان من أمر أبي ركوة ما تقدم ذكره ساء ظنه بعلم النجامة فأمر بقتل منجمه الفسكرى وأطلق في المنجمين العيب والذم وكان قد جمع بين المنجمين بالديار المصرية واستدعا غيرهم وأمرهم أن يرصدوا له رصداً يعتمد عليه فصارت الطوائف النجومية إلى هذا الرصد يتحاضرون وإن تضمن بعض خلاف الرصد المأمون ووضعوا له الذبح المسمى بالحاكمي وكان هذا الفسكرى قد أخذ علم النجامة عن أخذه عن العاصمي فسير أوقات الحاكم وساعاته ووافقه على ذلك المنجمون فلما قتله لم يزل أثر التنجيم عن نفسه لشرف النفس على التطلع إلى الحوادث قبل وقوعها وكان بعد يتولع بهذا العلم ويجمع أصحابه فحكوا له في جملة أحكامهم بركوب الحمار على كل حال والأزموه أن يتعاهد الجبل المقطم في أكثر الأيام وينفرد وحده بخطاب زحل بما علوه إياه من الكلام ويتعاهد فعل ما وضعوه له من البخورات والأعزام وحكوا بأنه مادام على ذلك وهو يركب الحمار فهو سالم النفس عن كل إيداء فلزم ما أشاروا به عليه وأذن الله العزيز العليم رب الكواكب ومسخرها ومدبرها أن هلاكه كان في ذلك الجبل على ذلك الحمار فإنه خرج بحماره إلى ذلك

الجبل على عادته وانفرد بنفسه منقطعاً عن موكبه وقد استعد له قوم بسكاكين تقطر منها
المنيايا فقطعوه هنالك للوقت والحين ثم أعدموا جثته فلم يعلم لها خبر فمن هذا يقول أتباعه
الملاحدة انه غائب منتظر وأظهرت قدرة الرب القاهر تبارك اسمه وتعالى جده تكذيب
قول تلك الطائفة المفترين ووقوع الأمر بضد ما حكموا به لهلك من هلك عن بينة ويحيى من
حيى عن بينة وإن الله لسميع عليم فظهر من كذبهم وجهلهم بتغيير دولته في خروج أبي ركوة
وفي هذا الحين فهذا في مبدئها وهذا في ختامها قبل بعد ذلك وثوق للعاقل بالنجوم وأحكامها
كلا لعمر الله ليس بها وثوق وإنما غاية أهلها الاعتماد على رازق ومرزوق فأما إصابة الفكري
بظفر الأسطول فإما كان بتحليل دبره على أهل صور لا بالطالع فكانت الغلبة له عليهم
بالتحليل الذي دبره ساعة القتال لا بما ذكره من حكم الطالع قبل تلك الحال وأما إصابة السكندر
فليس من النجوم في شيء ومعرفة مواضع السكنوز علم متداول بين الناس وفيه كتب مصنفة
معروفة بأيدي أرباب هذا الفن وفيها خطأ كثير وصواب قد دل الواقع عليه . . ومن ذلك
اتفاقهم سنة اثنين وثمانين وخمسائة على خروج ريج سوداء تسكون في سائر أقطار الأرض
عامة فهلك كل من على ظهرها إلا من اتخذ لنفسه مغارة في الجبال بسبب أن السكواكب كانت
بزعمهم ان اجتمعت في برج الميزان وهو برج هوائى لا يختلف فيه منهم اثنان كما اجتمعت
في برج الحوت زمن نوح وهو عندهم برج مائى لحصل الطوفان المائى قالوا وكذا اجتماعها
في البرج الميزانى يوجب طوفاناً هوائياً ودخل ذلك في قلوب الرعاع من الناس فاتخذوا المغارات
استدفاعاً لما أنذره به السكندابون من الله رب العالمين مسخر الرياح ومدبر السكواكب ثم لما
كان ذلك الوقت الذى حدوه والأجل الذى عدوه قل هبوب الرياح عن عادتها حتى أمم الناس
ذلك ورأوا من الكرب بقلة هبوب الرياح ما هو خلاف المعتاد فظهر كذبهم للخاص والعام
وكانوا قد دبروا في قصة هذه الريح التى ذكروها بأن عزوها إلى على رضى الله عنه وضمنوها
جزء بمضمون هذه الريح وذكروا قصة طويلة في آخرها أن الراوى عن على رضى الله عنه
قال له لقد صدقنى المنجمون فيما حكيت عنك وقالوا إنه تجتمع السكواكب في برج الميزان
كما اجتمعت في برج الحوت على عهد نوح وأحدثت الفرق فقلت له يا أمير المؤمنين كم
تقيم هذه الريح على وجه الأرض قال ثلاثة أيام وإيالها وتسكون قوتها من نصف الليل
إلى نصف النهار عن اليوم الثانى وانظر إلى اتفاقهم على أن السكواكب إذا اجتمعت في
برج الميزان حصل هذا الطوفان الهوائى واتفاقهم على اجتماعها فيه في ذلك الوقت ولم
يقع ذلك الطوفان . . ومن ذلك اتفاقهم في الدولة الصلاحية بحكم زحل والدالى أن
مدينة الإسكندرية لا يموت فيها من الغز وال فلما مات بها الملك المعظم شمس الدولة

توران شاه ابن أيوب بن شاذى سنة خمس وسبعين وخمسة ثم والها نجر الدين قراجا
ابن عبد الله سنة تسع وثمانين ثم والها سعد الدين سودكين بن عبد الله سنة خمس
وستمئة انخرمت هذه القاعدة أصلاً وبطل قولهم فرعاً وأصلاً حتى قال بعض شعراء ذلك
العصر عند موت الأمير فخر الدين :

وقضى طلوع الثغر عند سمانه ان المنجم كاذب لا يصدق
لو كان فيه لايموت مؤمر أودى وفخر الدين حتى يرزق

ومن ذلك اجتماعهم فى سنة خمس وعشرة وستمئة لما نزل الفرنج على دمياط على أنهم لا بد
أن يغلبوا على البلاد فيتملكوا ما بأرض مصر من رقاب العباد وأنهم لا تدور عليهم الدائرة
إلا إذا قام قائم الزمان وظهر براياته الخافقة ذلك الأوان فكذب الله ظنهم وأنى من لطفه
الخفى ما لم يكن فى حساب ورد الفرنج بعد القتل الذريع فيهم والأسر على العقاب وكان
المنجمون قد أجمعوا فى أمر هذه الواقعة على نحو ما أجمع عليه من قبلهم فى شأن عمورية
واتفق أن كان مبدأ هذا الفتح فى سابع رجب سنة ثمان عشرة وستمئة ومبدأ ذلك الفتح فى
سابع رجب أيضاً سنة ثلاث وعشرين ومائتين قال الفاضل العلامة محمد بن عبد الله بن محمود
الحسينى ولما كذب الله هؤلاء القوم فيما ادعوه نسجت على منوال أبى تمام فى قصيدته البائية
المكسورة فعمات بائية مفتوحة وهى :

الحمد لله حمدا يبلغ الأربا	نقضى به من حقوق الله ما وجبا
حمدا يزيد إذا التعمى تزيد به	أخراه أولاه تعطى ضعف ما وهبا
لا يياس المرء من روح الإله فكلم	من راح فى مستهل كان قد صعبا
فكم مشى بك مكروه ركضت به	من غير علم إلى ما تشتمى خبيا
وكم تقطع دون المشتمى سبب	وكان منك لأعلى المنتهى سببا
لا يفيض لك فى مكروه حادثة	أن يتغنى لك فى غير الرضا طلبا
لله فى الخلق تدبير يفوت مدى	أسرار حكته أحكام من حسبا
ابغ النجاء إذا ما ذر النجامة فى	زور من القول يقضى كل ما قربا
وذو الأراجيز مما قد يقول فدع	فما أراجيز شئ كان قد كتبنا
ما كان لله فى ديوان قدرته	من كاتب بحدوس الظن إذ كتبنا
لا يعلم الغيب إلا الله خالقنا	لأعالم غيره عجبنا ولا عربا
لاشئ أجهل عن يدعى ثقة	بحدسه وترى فيما يرى ربنا
قد يجهل المرء ما فى بيته نظراً	فكيف عنه بما فى غيبه احتجبا
قد كذب الله قول القائلين غداً	إذا أتى رجب لم تحمدوا رجبا

قالوا يرى عجب فيه فقلت لهم
 في منقضى السبعة الأيام منه أتى
 وأتمت فيه عواء النجوم على
 والشعريان فكل منهما شعرت
 وصح عن قمر الأفلاك أنهم
 غطاؤهم رد في وجهي عطاردهم
 وقد بدت زهرة الإسلام زاهرة
 وأجملت حمرة المريخ حكمهم
 ولم يك المشتري تقضى سعاداته
 وقيل منقلب الأبراج ذر قدر
 كم حامل نائر في الثور أو حمل
 ولم يدر فلک إلا لذی ملک
 حتى غدا نغر دمياط وقد حكموا
 يفتر عن صبيح إيمان به جدلا
 ومد كفاله التوحيد فانقبضت
 وتلك حرب صليب عودها فقصت
 وأطلق القول بالتأذين إذ خرست

بالنصر بعد إياس تبصروا عجبا
 ما يأت في مقتضاه السبعة الشهيا
 عواء ذئب من الكفار قد حربا
 بأن للحق فيهم سيف من غلجا
 ما فيهم غير مقهور وقد نشبا
 إلى الذي منهم ماشاء قد سلبا
 قد أظلمت فوقهم من دونها سحبا
 ففسرت بدم فيهم لمن خضبا
 إلا إلى المشتري نفسا بما طلبا
 فعاد منه مبان النفع منقلبا
 أجاز فيهم على جوزاتهم حربا
 يدير جيشا عليهم عسكريا نجيا
 أن لا يرى باسما مستجما شذبا
 وكان في ليل كفر بات مكتئبا
 رجل من الشرك في تأخيره هربا
 أن لا يعود صليب بعد منتصبا
 له نواقيس جرجيس فما احتسبا

وما اتفق عليه المنجمون أن الإنسان إذا أراد أن يستجيب الله دعاه جعل الرأس في
 وسط السماء مع المشتري أو شطر منه مقبل والقمر متصلا به أو منصرفا عنه متصل
 بصاحب الطالع أو صاحب الطالع متصل بالمشتري ناظر إلى الرأس نظرة مودة فهناك
 لا يشكون ان الاجابة حاصلة قالوا وكانت ملوك اليونان يلزمون ذلك فيحمدون عقباه
 والعاقل إذا تأمل هذا الهديان لم يحتج في علمه ببطلانه ومحاله إلى فكر ونظر فان رب
 السموات والأرض سبحانه لا يتأثر بحركات النجوم بل يتقدس ويتعالى عن ذلك
 فيا للعقول التي أضحكت عليها العقلاء من المؤمنين والكفار ماهذه الانصالات حتى
 تكون على وجوب اجابة الله من أقوى الدلالات . . . وما عليه المنجمون متفقون أو
 كالمتفقين أن الخبر إذا ورد في وقت أو بادنا منه (١) الوجوه والقمر وعطاردهم في بروج
 نوابت والقمر منصرف عن السعود فالخبر ليس بباطل والباطل مثل هذا فانه يلزمهم

(١) هكذا في الأصل ولم تقف على كتاب أبي معشر المنقولة عنه فليحذر

أن من وضع خبراً باطلاً في ذلك الوقت أن الطالع المذكور يصححه أو يقولوا لا يمكن أحداً أن يكذب في ذلك الوقت وقد أورد أبو معشر المنجم هذا السؤال في كتاب الأسرار له وأجاب عنه أن الأخبار تختلف فإن ورد خبر مكروه من أسباب الشر والجور والأفعال المنسوبة إلى طبائع النحوس والطالع في القمر منصرف عن سعد فالخبر باطل وإن ورد خبر محبوب ومن أسباب الخير والعدل والأفعال المنسوبة إلى طبائع السعود وفي الطالع سعد والقمر منصرف عن سعد فالخبر حق قال وزحل لا يدل في كل حال على الكذب بل يدل على وجود العوائق عما يوقع ذلك الخبر لكن البلاء المريع أو الذنب إذا استوليا على الأوتاد وعلى القمر أو عطارد فإنهما يدلان على الكذب والبطلان ثم قال وعلى كل حال فالقمر في العقرب والبروج الكاذبة تنذر بكذب في نفس الخبر أو زيادة أو نقصان وفي الحمل والبروج الصادقة تدل على صدق فيه واستواء وفي السرطان والبروج المنقبة لا تدل على انقلاب الخبر إلى باطل ولكنه قد ينقلب فيصير أقوى مما هو عليه الآن إلا أن ينظر إليه نحس فيفسده ويطله ثم قال واعرف صدق الخبر من سهم الغيب إذا شكك فيه فإن كان سليماً من المريع والذنب وينظر إليه صاحبه أو القمر أو الشمس نظر صلاح فهو حق هذا منتهى كلامه في الجواب وهو كما تراه متضمن أن عند هذه الاتصالات التي ذكرها يكون الخبر صحيحاً صدقاً وعند تلك الاتصالات الأخر تكون منكرة بالكذب فيقال هؤلاء الكذابين المفترين المبلسين أيستحيل عندكم معاشر المنجمين أن يضع أحدكم خبراً كاذباً عند تلك الاتصالات أم ذلك واقع في دائرة الإمكان بل هو موجود في الخارج وكذلك يستحيل أن يصدق مخبر عند الاتصالات الأخر أو يبعد صدق العالم عندها ويكون كذبهم إذ ذاك أكثر منه في غير ذلك الوقت وهل في الهوس أبلغ من هذا ولو تتبعنا أحكامهم وقضاياهم الكاذبة التي وقع الأمر بخلافها لقمنا منها عدة أسفار . . . وأما نكبات من تقيد بعلم أحكام النجوم في أفعاله وسفره ودخوله البلد وخروجه منه واختياره الطالع لهارة الدار والبناء بالأهل وغير ذلك فعند الخاصة والعامة منهم عبر يكفي العاقل بعضها في تكذيب هؤلاء القوم ومعرفة لاقتنائهم على الله وأقضيته وأقداره بل لا يكاد يعرف أحد تقيد بالنجوم في ما يأتيه ويذره إلا نكب أفيح نكبة وأشنعها مقابلة له بنقيض قصده وموافات النحوس له من حيث ظن أنه يفوز بسعده فهذه سمة الله التي لا تبدل وعادته التي لا تحول إن من اطمان إلى غيره أو وثق بسواه أو ركن إلى مخلوق يدره أجرى الله له بسببه أو من جهته خلاف ما علق به آماله وانظر ما كان أقوى تعلق بني برمك بالنجوم حتى في ساعات أكلهم وركوبهم وعامة أفعالهم وكيف كانت نكبتهم الشنيعة وانظر حال أبي علي ابن مقلة الوزير وتعليمة لأحكام النجوم ومراعاته لها أشد المراعات ودخوله داراً بناها بطالع زعم الكذابون

المفترون أنه طالع سعد لا يرى به في الدار مكروها فقطعت يده ونكب في آثاره أقيح نكبة نكبها وزير قبله وقتلى المنجمين أكثر من أن يحصيه إلا الله عز وجل . . (الوجه التاسع عشر) إن هؤلاء القوم قد أقرروا على أنفسهم وشهادة بعضهم على بعض بفساد أصول هذا العلم وأساسه فقد كان أوائلهم من الأقدمين وكبار رصدهم من عهد بطليموس وطيموحارس وما نالوا قد حكموا في الكواكب الثابتة بمقدار وانفقوا أنه صحيح الاعتبار وأقام الأمر على ذلك فوق سبعمائة عام والناس ليس بأيديهم سوى تقليدهم حتى كان في عهد المأمون فاتفق من رصدهم وحكامهم علماء الفريقيين مثل خالد بن عبد الملك المروزي وحسن صاحب الزبيج المأموني ومحمد بن الجهم ويحيى بن أبي منصور على أنهم امتحنوا رصد الأوائل فوجدواهم غالطين فيما رصدهم فرصدواهم رصداً لأنفسهم وحرروه وسموه الرصد الممتحن وجعلوه مبدأ ثانياً بعد ذلك الزمن كان لأوائلهم إجماع على صحة رصدهم ول هؤلاء إجماع على خطأهم فيه فتضمن ذلك إجماع الأواخر على الأوائل أنهم كانوا غالطين وإقرار الأواخر على أنفسهم أنهم كانوا بالعمل به مخطئين ثم حدثت طائفة أخرى منهم كبيرهم وزعيمهم أبو معشر محمد ابن جعفر وكان بعد الرصد الممتحن بنحو من ستين عاما فرد عليهم وبين خطأهم كما ذكر أبو سعيد ابن شاذان بن بحر المنجم في كتاب أسرار النجوم قال قال أبو معشر أخبرني محمد بن موسى المنجم الخليلي وليس بالحوارزمي قال حدثني يحيى بن أبي منصور أو قال حدثني محمد بن محمد الخليلي قال دخلت على المأمون وعنده جماعة المنجمين وعنده رجل قد تنبأ وقد دعا القضاة والفقهاء ولم يحضروا بعد ونحن لانعلم فقال لي ولما حضر من المنجمين اذهبوا فخذوا الطالع لدعوى رجل في شيء يدعيه وعرفوني بما يدل عليه الفلك من صدقه وكذبه ولم يعلمنا المأمون أنه متنبئ . فحسنا إلى ناحية من القصر وأحكمتنا أمر الطالع وصورناه فوق الشمس والقمر في دقيقة الطالع والطالع الجدى والمشتري في السذبة ينظر إليه والزهرة وعطارد في المقرب ينظر إليه فقال كل من حضر من المنجمين هذا الرجل صحيح لا كذب فيه قال يحيى وأنا ساكت فقال لي المأمون قل فقلت هو في طلب تصحيحه وله حجة زهرية وعطاردية وتصحيح ما يدعيه لا يتم له فقال من أين قلت فقلت لأن صحة دعاوى من المشتري وهو ينظر إليه زحل موافقة إلا أنه كاره لهذا البرج ولا يتم له التصديق ولا التصحيح والذي قالوه إنما هو من حجة عطاردية وزهرية وذلك يكون من جنس التحسين والتزيق والخذاع عن غير حقيقة فقال لله درك ثم قال تدرون ما يدعي هذا الرجل قلنا لا قال هذا يدعي النبوة فقلت يا أمير المؤمنين ومعه شيء يحتاج به فسأله فقال نعم معي خاتم ذو قصين ألبسه فلا يتغير مني شيء ويلبسه غيري فلا يتالك من الضحك حتى ينزعه ومعى قم شامى أكتب به ويأخذه غيري

فلا تطلق أصبعه به فقلت ياسيدى هذا عطارد والزهرة قد عملا عملهما فأمره أمير المؤمنين فأظهر ما أذعاه منهما وكان ذلك ضرب من الطلسمات فما زال به المأمون أيا ما كثيرة حتى أقر وتبرأ من دعوى النبوة ووصف الحيلة التي احتالها في الخاتم والقلم فوهب له المأمون ألف دينار وصرفه فلقيناه بعد ذلك فإذا هو أعلم الناس بعلم النجوم ومن أكبر أصحاب عبد الله القشيري وهو الذي عمل طلسم الخنافس في دور بغداد قال أبو معشر لو كنت في القوم ذكرت أشياء خفيت عليهم كنت أقول الدعوى باطلة من أصلها إذ البرج منقلب وهو الجدى والمشتري في الوبال والقمر في المحاق والسكوكبان الناظران إلى الطالع في برج كذاب وهو العقرب فنأمل كيف اختلفت أحكامهم مع اتحاد الطالع وكل منهم يمكنه تصحيح حكمه بشبهة من جنس شبهة الآخر فلو اتفق أن أدعى رجل صادق في ذلك الوقت والطالع دعوى ألم يمكن ادعاؤه يمكننا غير مستحيل ودعواه صحيحة في نفسها أم تقولون إنه لا يمكن أن يدعى أحد في ذلك الوقت والطالع دعوى صحيحة البتة ومن المعلوم لجميع العقلاء أنه يمكن إذ ذلك دعوتين من رجل محق ومبطل بذلك الطالع بعينه فما أسخف عقل من ارتبط بهذا الهذيان وبني عليه جميع حوادث الزمان وليس بيد القوم إلا ما اعترف به فاضلهم وزعيمهم أبو معشر . . وقال شاذان في الكتاب المذكور أيضا قلت لأبي معشر الذنب بارد يابس فلم قلت له يدل على التأنيت فقال هكذا قالوا قلت فقد قالوا إنه ليس بصادق اليبس لكنه بارد فنظرتي فقال كل الأعراض الغائبة توهم لا يكون شيء منها يقينا وإنما يكون توهم أقوى من توهم . . ومن تأمل أحوال القوم علم أن مامعهم إلا زرق وتفرس يصيبون معها ويخطئون . . قال شاذان في كتابه المذكور كان الرازي الثنوي الذي بالهند يكتب أبا العشر ويهاديه فأنفذ لأبي معشر مولدا لابن مالك سرنديب طالعه الجوزاء والشمس والقمر في الجدى والقمر خارج عن الشعاع وعطارد في الدلو والمشتري في الحمل وزحل في السرطان راجع في بحران الرجوع فختم له أبو معشر بأنه يعيش دور زحل الأوسط فقلت سبحان الله جاءه راجع في بحران الرجوع في بيت ساقط عن الأوتاد لا يعطيه لإدور الأصغر ويحتاج أن يسقط منه الخسنيين وجعلت أنكر عليه ذلك وأخوفه أن تسقط منزلته عند أهل تلك البلاد إلى أن ذكر محاوره طويلة انتهت بهما إلى أن أبا معشر أخذ ذلك من عادات أهل الهند في طول الأعمار . . وقال شاذان في مسألة ستل عنها ما أنتم إلا زرايين ثم حدثت بعد هؤلاء جماعة منهم أبو الحسين عبد الرحمن بن عمر بن عبد المعروف بالصوفي وكان بعد أبي معشر بنحو من سبعين عاما فذكر أنه قد عثر من غلط الأواخر بعد الأوائل على أشياء كثيرة وصنف كتابا في معرفة الثوابت وحمله إلى عضد الدولة بن بويه فاستحسنه (١٠ - مفتاح ٢)

وأجزل ثوابه وبين في هذا الكتاب من أغاليط أتباع الرصد الثاني أموراً كثيرة لعطارد
المنجم ومحمد بن جابر التبانى وعلى بن عيسى الحرانى فقال في مقدمة كتابه ولما رأيت هؤلاء
القوم مع ذكركم في الآفاق وتقدمهم في الصناعة واقتداء الناس بهم واشتغالهم بمؤلفاتهم قد
تبع كل واحد منهم من تقدمه من غير تأمل لخطئه وصوابه بالعيان والنظروا أو هموا الناس
بالرصد حتى ظن كل من نظر في مؤلفاتهم أن ذلك عن معرفة بالكواكب ومواضعها إلى أن
قال ومعلوهم على آلات مصورة من عمل من لا يعرف الكواكب بأعيانها وإنما عولوا على
ما وجدوه في الكتب من أطوالها وعروضها فرسموها في الكرة من غير معرفة بخطئها
وصوابها ثم قال وزادوا أيضاً على أطوال الكواكب أطوالاً كثيرة وعلى عروضها دقائق
يسيرة ونقصوا منها أو هموا بذلك أنهم رصدوا الشكل وأنهم وجدوا بين أرسادهم وأوضاع
بطليموس من الخلاف في أطوالها وعروضها القدر الذى خالفوا به سوى الزيادة التى وجدوها
من حركاتها فى المدة التى بينهم وبينه من السنين من غير أن عرفوا الكواكب بأعيانها وله
تواليف آخر مشحونة ببيان أغاليطهم وإيضاح كاذبيهم وتجاليطهم وشهد عليهم بأنهم تارة
قلدوا فى الأقوال النجومية وتارة قلدوا فيما وجدوه من الصور الكوكبية فهم مقلدون فى
القول والعمل ليس مع القوم بصيرة وشهد عليهم بأنهم بموهون مدلسون بل كاذبون مفترون
من جهة أنهم زادوا دقائق ما بين زمانهم وزمان بطليموس وأوهموا بها أنهم رصدوا مارصده
من قبلهم فعثروا على ما لم يعثروا عليه ثم حدثت جماعة أخرى منهم الكوشيار بن ياسر بن
الدبلى ومن تأليفه الزيجات والجامع والمجمل فى الأحكام وهو عندهم نهاية فى الفن وكان
بعد الصوفى بنحو ثلاثين عاماً وذكر فى مقدمة كتابه المجمل أنى جمعت فى هذا الكتاب من
أصول صناعة النجوم والطريق إلى التصرف فيها ما ظننته كافياً فى معناه مغنياً عما سواه
وأكثر الأمر فيما أخذت به أقرب طريق عزوته إلى القياس وأوضح سبيل سلكته إلى
الصواب إذ هى صناعة غير مبرهنة وللخواطر والظنون مجال بلا نهاية صواب ومجال إلى أن
ذكر علم الأحكام فقال فيه ولا سبيل للبرهان عليه ولا هو مدرك بكليته نعم ولا بأكثره لأن
الشيء الذى يستعمل فيه هذا العلم أشخاص الناس وجميع ما دون الفلك القمرى مطبوع على
الاتقال والتغير ولا يثبت على حال واحدة فى أكثر الأعمار ولا للإنسان بكامل القوة من الخدس
بخواص الأحوال التى تكون من امتزاجات الكواكب فبلغ من الصعوبة وتعسر الوقوف
عليه إلى أن دفعه بعض الناس وظنوا أنه شيء لا يدركه أحد البتة وأكثر المنفردين بالعلم
الأول يعنى علم الهيئة ينكرون هذا العلم ويجحدون منفعتهم ويقولون هو شيء يقع بالإتفاق
وليس عليه برهان إلى أن قال ومن المنفردين بالعلم الثانى يعنى علم الأحكام من يأتى على

جزئياته بحجج على سبيل النظر والجدل فظن أنها برهان لجهله بطريق البرهان وطبيعته فحصل
من كلام هذا تجهيل أصحاب الأحكام كما حصل في كلام الصوفي تكذيب أصحاب الإرساد
وهذان رجلان من عظمائهم وزعمائهم ثم حدثت جماعة أخرى منهم المنجم المعروف بالفكرى
منجم الحاكم بالديار المصرية وكان قد انتهت إليه رياسة هذا العلم وكان قد قرأ على من قرأ على
العاصمى فوضع هو وأصحابه رسدا آخر وهو الرصد الحاكمي وخالف فيه أصحاب الرصد الممتحن
في أشياء وعلى ذلك التفاوت بنو الزبيح الحاكمي وكان الحاكم قد أمرهم أن يخذوا على فعل المأمون فأمر
أن يجتمعوا عنده فاجتمع المنجمون ورئيسهم الفكرى فوضعوا الذبيح الحاكمي وخالفوا أصحاب
الرصد المأموني ومالوا أتباعهم إلى الرصد الحاكمي ولو اتفق بعد ذلك رصد آخر أسلك
أصحابه في خلاف من تقدمهم مسلك أوائلهم هذا ومستندهم ومعولهم الحس والحساب
وهما هما لا يقبلان التغليب فالظن بما يدعونه من علم الأحكام الذى مبناه على هواجس
الظنون وخيالات الأوهام ثم حدثت جماعة أخرى منهم أبو الريحان البيرونى مؤلف
كتاب التفهيم إلى صناعة التنجيم جمع فيه بين الهندسة والحساب والهيئة والأحكام وكان
بعد كوشيار بنحو من أربعين سنة فخالف من تقدمه وأتى من مناقضتهم والرد عليهم بما
هو دال على فساد الصناعة فى نفسها وختم كتابه بقوله فى الحجب والضمير ما أكثر
افتضاح المنجمين فيه وما أكثر إصابة الراصدين فيه بما يستعملون من كلامه وقت السؤال
ويرويه باديا من آثار وأفعال على السائل وقال وعند البلوغ إلى هذا الموضوع من صناعة
التنجيم كفاية ومن تعدها فقد عرض نفسه وصناعته لما بلغت إليه الآن من السخرية
والاستهزاء فقد جهلها المتفقهون فيها فضلا عن المنتسبين إليها إنتهى كلامه . ثم حدثت
جماعة أخرى منهم أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أمية الأندلسى الشاعر المنجم
الطبيب الأديب وكان بعد البيرونى بنحو من ثمانين عاما ودخل مصر وأقام بها نحو عامين
ولما كان بالغرب توفيت والدته الأمين على بن عيم صاحب المهديّة وكان قد وافق موتها
أخبار المنجمين بذلك قبل وقوعه فعمل أمية قصيدة يرثيها وهى من مستحسن شعره
فقال فيها .

وراعك قبول للمنجم موهم ومن يعتقد زرق المنجم يوهم

فواعجبا يهنى المنجم دهره ويكذب لإفك قول المنجم

وكان المذكور رأسا فى الصناعة وقد اعترف بأن المنجم كذاب صاحب زرق وهذيان ثم
حدثت طائفة أخرى بالغرب منهم أبو اسحق الزرقال وأصحابه وهو بعد أبى الصلت بنحو
من مائة عام وقد خالف الأوائل والأواخر فى الصناعتين والرصدية والأحكامية فأسقط من

الرصد الممتحن المأموني في البروج درجات ومن الرصد الحماكي دقائق وسلك في الأحكام
طرقا غير الطرق المعهودة منه اليوم وزعم أن عليها المعول وأن طرق من تقدمه ليست بشيء
ولو حدث في هذا العصر من يشبه من تقدمه لرأينا اختلافا آخر ولكن هذه الصناعة قد
ماتت ولم يبق بأيدي المنتسبين إليها إلا تقليد هؤلاء الضلال فيما فهموه من كلامهم
الباطل وما لم يفهموه منه فقد يظنون أنه صحيح ولكن أفهامهم نبت عنه وهذا شأن
جميع أهل الضلال مع رؤسائهم ومتبوعيهم فجهال النصارى إذا ناظرهم الموحد
في تثليثهم وتناقضه وتكاذبه قالوا الجواب على التقييس والتقييس يقول
الجواب على المطران والمطران يحيل الجواب على البترك والبترك على الأسقف والأسقف
على الباب والباب على الثلاثمائة والثمانمائة عشر أصحاب المجمع الذين اجتمعوا في عهد قسطنطين
ورضعوا للنصارى هذا التثليث والشرك المناقض للعقول والأديان ولعلمهم عند الله أحسن
حالا من أكثر القائلين بأحكام النجوم الكافرين برب العالمين وملائكته وكتبه وزوا
واليوم الآخر .

فصل

ورأيت لبعض فضلائهم وهو أبو القاسم عيسى بن علي بن عيسى رسالة بليغة في الرد
عليهم وإبداء تناقضهم كتبها لما بصره الله رشده وأراه بطلان ما عليه هؤلاء الضلال
الجهال كتبها نصيحة لبعض إخوانه فأحببت أن أورها بلفظها وإن تضمنت بعض الطول
والتكرار وأتعقب بعض كلامه بتقرير ما يحتاج إلى تقرير وسؤال يورد عليه ويطعن به
على كلامه ثم بالجواب عنه ليكون قوة للمسترشد وبيانا للتشهير وتبصرة للبهتدي
ونصيحة لأخواني المسلمين وهذا أولها .

(بسم الله الرحمن الرحيم) عصمك الله من قبول المحلات واعتقاد ما لم تقم عليه
الدلالات وضاعف لك الحسنات وكفأك المهمات بمنه ورحمته كنت أدام الله توفيقك
وتسديدك ذكرت لي إهتمامك بما قد لهج به وجوه أهل زماننا من النظر في الأحكام
النجوم وتصديق كل ما يأتى من ادعى أنه عارف بهامن علم الغيب الذى تفرد الله سبحانه وتعالى
به ولم يجعله لأحد من الأنبياء والمسلمين ولا ملائكته المقربين ولا عباده الصالحين من معرفة
طويل الأعمار وقصيرها وحميد العواقب وذميمها وسائر ما يتجدد ويحدث ويتخوف ويتمنى
وسألنى أن أعمل كتابا أذكر فيه بعض ما وقع من اختلافهم في أصول الأحكام الدالة على
همهم قبح اعتقادهم وما يستدل به من طريق النظر والقياس على ضعف مذهبهم وأخص ذلك
واحصره وقربه بحسب الوسع والطاقة فوعدتك بذلك وقد ضمنته كتابي هذا والله أسأل

عونا على ما قرب منه وتوفيقا لما أزلف لديه إنه قريب مجيب فعال لما يريد لست مستعملا للتجامل على من أثبت تأثير الكواكب في هذا العالم وترك إنصافهم كما فعل قوم ردوا عليهم فأنهم دفعوهم عن أن يكون لها تأثير البتة غير وجود الضياء في المواضع التي تطلع فيها الشمس والقمر وعدمه فيما غابا عنه وما جرى هذا المجرى بل أسلم لهم أنها تؤثر تأثيرا ما يجرى على الأمر الطبيعي مثل أن يكون البلد القليل العرض مزاجه يميل عن الاعتدال إلى الحر والبس وكذلك مزاج أهله ضعيف وأوانهم سود وصفرة كالنوبة والحبشة وأن يبدون البلد الكثير العرض مزاجه يميل عن الاعتدال إلى البرد والرطوبة وكذلك مزاج أهله وأجسامهم عبلة وأوانهم بيض وشعورهم شقر مثل الترك والصلابة ومثل أن يكون النبات ينمو ويقوى ويتكامل وينضج ثمرة بالشمس والقمر فإن أهل الصحراء ومن يعانها يجمعون دلي أن القماء تطول وتغلظ بالقمر وقد شاهدت غير شجرة كبيرة حاملة من التين والتوت وغيرهما فاقابل الشمس منها أسرع نضج الثمر السكائن فيه وما خفي منها عنها بقي ثمرة نجأ وتأخر إدراكه ومثال ذلك ما شاهد من حال الريحان الذي يقال له اللينوفر وحال الخبازي وورق الخطمي والأديون وأشياء كثيرة من النبات فإننا نراه يتحرك وينفتح مع طلوع الشمس ويضعف إذا غابت لأن هذه أمور محسوسة وليس الكلام في هذا التأثير كيف هو وعلى أي سبيل يقع فما يليق بفرضنا ههنا فلذلك أدعه فأمامنا زعمونه فيما عدا هذا من أن النجوم توجب أن يعيش فلان كذا كذا سنة وكذا كذا شهراً وينتهون في التحديد إلى جزء من ساعة وأن يدل على تقليد رجل بعينه الملك وتقليد آخر بعينه الوزارة وطول مدة كل واحد منهما في الولاية وقصرها وما فعله الإنسان وما يفعله في منزله وما يضمه في قلبه وما هو متوجه فيه من حاجاته وما هو في بطن الحامل والسارق ومن هوو المسروق وما هو وأين هو وكميته وكيفيته وما يجب بالسكسوف وما يحدث معه والختار من الأعمال في كل يوم بحسب اتصال القمر بالكواكب من أن يكون هذا اليوم صالحاً للقاء الملوك والرؤساء وأصحاب السيوف وهذا يوم محمود للقاء الكتاب والوزراء وهذا اليوم محمود للقاء القضاة وهذا اليوم محمود لأمر النساء وهذا اليوم محمود لشرب الدواء والفصد والحجامة وهذا اليوم محمود للعب الشطرنج والنرد وغير ذلك فمحال أن يكون معلوما من طريق الحس وليس نص من كتاب الله بل قد نص الله سبحانه وتعالى فيه على بطلانه بقوله تبارك وتعالى (قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله) ولا من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بل قد جاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال من أتى عرفاً أو كاهناً أو منجماً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ولاهاهنا ضرورة تدعو إلى القول به ولا هو أول في المعقول ولا يأتون عليه ببرهان ولا دليل

مفنع وهذه هي الطرق التي تثبت بها الموجودات وتعلم بها حقائق الأشياء لا طريق ها هنا غيرها ولا شيء لاحكام النجوم منها وانا ابتدئ الآن بوصف جملة من اختلافهم في الاصول التي يبنون عليها أمرهم ويفرعون عنها أحكامهم وأذكر المستبشع من أقوالهم وقضاياهم وظاهر مناقضاتهم ثم أتى بطرف من احتجاجهم والاحتجاج عليهم والله الموفق للصواب بفضله . . ذكر اختلافهم في الاصول زعموا جميعا أن الخير والشر والإعطاء والمنع وما أشبه ذلك يكون في العالم بالكواكب وبحسب السعود منها والنحوس وعلى حسب كونها من البروج الموافقة والمنافرة لها وعلى حسب نظر بعضها إلى بعض من التسديس والتربيع والتثليث والمقابلة وعلى حسب محاسبة بعضها بعضا وعلى حسب كونها في شرفها وهبوطها ووبالها ثم اختلفوا على أى وجه يكون ذلك فزعم قوم منهم أن فعلها بطبائعها وزعم آخرون أن ذلك ليس فعلا لها لكنها تدل عليه بطبائعها . قلت وزعم آخرون أنها تفعل في البعض بالعرض وفي البعض بالذات قال وزعم آخرون أنها تفعل بالاختيار لا بالطبع إلا أن السعد منها لا يختار إلا الخير والنحس منها لا يختار إلا الشر وهذا بعينه نفي للاختيار فان حقيقة القادر المختار القدرة على فعل أى الضدين شاء وترك أيهما شاء . قلت ليس هذا بشيء فانه لا يلزم من كون المختار مقصود الاختيار على نوع واحد سلب اختياره وان كان الذى يبطل هذا أنهم يقولون إن الكوكب النحس سعد في برج كذا وفي بيت كذا وإذا كان الناظر إليه من النجوم كذا وكذا وكذلك الكوكب السعد ويقولون إنها تفعل بالذات خيراً وبالعرض شراً وبالعكس وقد يقولون أنها تختار في زمان خلاف ما تختار في زمان آخر وقد تتفق كلها أو أكثرها على إشار الخير فيكون في العالم في ذلك الوقت على الأكثر الخير والنفع والحسن قالوا كما كان في زمن بهمن وفي أيام أنوشروان وبضد ذلك أيضا فيقال إذا كانت مختارة وقد تتفق على إرادة الخير وعلى إرادة الخير والشر بطل دلالة حصولها في البروج المعينة ودلالة نظر بعضها إلى بعض بتسديس أو تربيع أو تثليث أو مقابلة لأن هذا شأن من يقع فعله إلا عن وجه واحد في وقت معين على شروط معينة ولا ريب أن هذا ينفي الاختيار فكيف يصح قولكم بذلك وجمعكم بين هاتين القضيتين أعنى جواز اختيارها في زمان خلاف ما تختارها في زمان آخر وجواز اتفاقها على الخير واتفاقها على الشر من غير ضابط ولا دليل يدلكم عليه ثم تحكمون بتلك الأحكام مستعدين فيها إلى حركاتها المخصوصة وأوضاعها ونسبة بعضها إلى بعض وهل هذا الاضحك للعقلاء قال وزعم آخرون أنها لا تفعل باختيار بل تدل باختيار وهذا كلام لا يعقل معناه إلا أنى ذكرته لما كان مقولا واختلفوا فقالت فرقة من الكواكب ماهو سعد ومنها ماهو نحس وهي تسعد غيرها وتنحسه وقالت فرقة هي في أنفسها طبيعة واحدة

وإنما تختلف دلالتها على السعد والنحوس وإن لم تكن في أنفسها مختلفة واختلفوا فقال قوم
إنها تؤثر في الأبدان والأنفس جميعا وقال الباقون بل في الأبدان دون الأنفس قلت أكثر
المنجمين على القول بأنها تسعد وتنحس غيرها وأما الفرقة التي قالت هي دالة على السعد والنحس
فقولهم وإن كان أقرب إلى التوحيد من قول الأكثرين منهم فهو أيضا قول مضطرب متناقض
فإن الدلالة الحسية لا تختلف ولا تتناقض وهذا قول من يقول منهم إن الفلك طبيعة مخالفة
لطبيعة الاستقصات السكائنة الفاسدة وأنها لاحارة ولا باردة ولا يابسة ولا رطبة ولا ساعد
ولا نحس فيها وإنما يدل بعض أجزائها على الخير وبعضها على الشر وارتباط
الخير والشر والسعد والنحس بهما ارتباط المدلولات بأدلتها لارتباط المعلومات بعلمها ولأرب
أن قائل هذا أعقل وأقرب من أصحاب القول بالافتضاء الطبيعي والعلمية وأما القول بتأثيرها
في الأبدان والأنفس فهو قول بطليموس وشيعته وأكثر الأوائل من المنجمين وهؤلاء لهم
قولان أحدهما أنها تفعل في الأنفس بالذات وفي الأبدان بالعرض لأن الأبدان تنفعل عن
الأنفس والثاني أنها هي سبب جميع ما في عالم الكون والفساد وفعلها في ذلك كله بالذات وكأنه
لاخلاف بين الطائفتين فإن الذين قالوا فعلها في النفوس لا يضيفون انفعال الأبدان إلى غيرها
بذاتها بل بوسائط قال واختلف رؤسائهم بطليموس ودورسوس والطيقوس وريمسوس
وغيرهم من علماء الروم والهند وبابل في الحدود وغيرها وتصادوا في المواضع التي يأخذون
منها دليلهم فبعضهم يفلرب بيت الطالع وبعضهم يقول بالدليل المستولى على الحظوظ واختلفوا
فزعم بطليموس أنهم يعلم منهم السعادة بأن يأخذ أبدا العدد الذي يحصل من موضع
الشمس إلى موضع القمر ويبتدىء من الطالع فيرصد منه مثل ذلك العدد ويأخذ إلى الجهة التي
تلو من البروج فيكون قد عرف موضع السهم وزعم غيره أنه يعد من الشمس ثم يبتدىء
من الطالع فيعد مثل ذلك إلى الجهة المتقدمة من البروج قلت وزعم آخرون أن بطليموس
يرى أن جميع ما يكون ويفسد إنما يعرف دليله من موضع التقاء النيرين إما الاجتماع
وإما الامتلاء لأن هذين الكوكبين عنده مثل الرئيسين العظيمين أحدهما ياتمر اصاحبه وهو
القمر وهما سببا جميع ما يحدث في عالم الكون والفساد وأن الكواكب الجارية والثابتة
منهما بمنزلة الجنود والعسكر من السلطان فاذا أراد النظر في أمر من الأمور فإن كان بعد
الاجتماع أو عنده فانه يأخذ الدليل عليه من الكوكب المستولى على جزء الاجتماع وجزئ
الشمس والقمر في الحال وشاركه مع الشمس بالنسبة إلى الطالع وإذا كان بعد الامتلاء
أو عنده فانه ينظر أي النيرين كان فوق الأرض عند الامتلاء وينظر إلى الكوكب المستولى
على ذلك الجزء وجزء النير الذي كان بعد الشمس من الطالع كبعد القمر من سهم السعادة

فلذلك يجب عنده أن يؤخذ العدد أبدا من الشمس الى القمر لتبقى تلك النسبة وهي البعد بين كل واحد من النيرين طالعه محفوظ فهذا قول آخر غير قول أولئك وللفرس مذهب آخر وهو أنهم قالوا لما كانت الشمس لها نوبة النهار والقمر له نوبة الليل وكان سهم السعادة بالنهار يؤخذ من الشمس الى القمر وجب أن يعكس ذلك بالليل لأن نسبة النهار الى الشمس مثل نسبة الليل الى القمر وكل واحد من النيرين ينوب واحدا من الزمانين فيأخذون منهم السعادة بالليل من القمر إلى الشمس وبالنهار بالعكس وزعموا أن كلام بطليموس إنما يدل على هذا لأنه قال وإن أخذنا من الشمس إلى القمر إلى خلاف تأليف البروج وألقيناه بالعكس كان موافقا للأول فقالوا يجب أن يعكس الأمر بالليل فهذا اختلاف المنجمين على بطليموس يقتض بعضه بعضا وليس بأيدي الطائفة برهان يرجحون به قولنا على قول (أن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يبغي من الحق شيئا. فأعرض من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلى الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى) قالوا واختلفوا فرتبت طائفة منهم البروج المذكورة والمؤنثة من البرج الطالع فعدوا واحدا مذكرا وآخر مؤنثا وصيروا الابتداء بالمذكر وقسمت طائفة أخرى البروج أربعة أجزاء وجعلوا البروج المذكورة هي اثني من الطالع إلى وسط السماء والتي يقابلها من الغرب إلى وتد الأرض وجعلوا الربعين الباقيين مؤنثين قلت ومن هذيانهم في هذا الذي أضحكوا به عليهم العقلاء أنهم جعلوا البروج قسمين حار المزاج وبارد المزاج وجعلوا الحار منها ذكرا والبارد أنثى وابتدؤا بالحلل وصيروه ذكرا حارا ثم الذي بعده مؤنثا باردا ثم هكذنا إلى آخرها فصارت ستة ذكورا وستة أنثانا وليست على الأوائل واحد ذكر وثلاثة آخر أنثى بخلاف له في الطبيعة والذكورية والأنوثة مع أن قسمة الفلك إلى البروج قسمة فرضية وضعية فهل في أنواع هذيان الهاذين أعجب من هذا ولما رأى من به رمق من عقل منهم تهافت هذا الكلام وسخرية العقلاء منه رام تقريبه بغاية جهده وحنقه فقال إنما ابتدأ بالذكر دون الأنثى لأن الذكر أشرف من الأنثى لأنه فاعل والأنثى منفعله فاعجبوا يامعشر العقلاء وأسألوا الله أن لا يخسف بعقولكم كما خسف بعقول هؤلاء لهذا الهذيان افتري في البروج ناكحا ومنكوحا يكون المنكوح منها منفعلا لنا كحبه بالذكورية والأنوثة تابعة لهذا الفعل والانفعال فيها قال وأيضا فالذكورية بسبب الانفراد وازواج فيها فان الأفراد ذكور والأزواج إناث وهذا أعجب من الأول أن الذكر ينضم إلى الذكر فيصير المضموم إليه أنثى فتبا للمصفي ليكم والمجوز عقله صدقكم وإصابتكم وأما أتم فقد أشهد الله سبحانه عقلاء عباده وأنباهم مقدر عقولكم وسخافتها فله الحمد والمنة قال هذا المنتصر لهم وانما جعلوا الأفراد للذكور والأزواج للأنثى لأن الفرد

يحفظ طبيعته أعني ينقسم دائما الى فرد والزوج لا يحفظ طبيعته أعني ينقسم مرة الى الإفراد ومرة الى الأزواج كما يعرض ذلك للآثي فانها تلد مرة مثلها ومرة ذكر أخلافا لها ومرة ذكرين ومرة أنثيين ومرة ذكرا وأنثى وفساد هذا والعلم بفساد عقل صاحبه ونظره مغن لذى اللب عن تطلب دليل فساده قال المتصّر وانما جمعوا للبرج الآثي بل برج الذكر فدلان الطبيعة هكذا ألف الإعداد واحدا فردا وآخر زوجا هكذا بالغاما بلغ هذه القسمة عندهم هي قسمة ذاتية للبروج ولها قسمة ثانية بالعرض وهي أنهم يبدون من الطالع الى الثاني عشر فبأخذون واحدا ذكرا وهو الأول وآخر أنثى وهو ما يليه وهذه تختلف بحسب اختلاف الطالع والقسمة الأولى انما كانت ذاتية لأن الابتداء لها برأس الحمل وهو موضع تقاطع الدائرتين اللتين هما فلك البروج ومعدل النهار وأما الليل للقسمة فإنه لا يبقى على حال واحدة لأنه ماخوذ من الجزء المماس لأفق البلد وهو دائما يتغير بحركته مع الشكل وحصول الاجزاء كلها واحدا بعد آخر على الافق دورة واحدة وأما قسمة الفلك أرباعا فإينهم قالوا اذا خرج خط من أفق المشرق الى أفق المغرب وخط من وتد الأرض الى وسط السماء انقسمت البروج أربعة أقسام كل قسم ثلاثة بروج على طبيعة واحدة ابتداء كل قسم من طرف قطر الى طرف القطر الذى يليه وأطراف هذين القطرين تسمى أوتاد العالم والقسم الأول من وتد المشرق الى وتد العاشر ذكر شرقي مخفف سريع ومن وتد العاشر الى وتد العاشر مؤنث جنوبي محرق وسط ومن ذيل العاشر الى وتد الرابع ذكر مقبل رطب غربي بطى ومن وتد الرابع الى وتد الطالع مؤنث دليل مبرد شمالي وسط وهذه القسمة مخالفة لتلك القسمتين لان هذه قسمة البروج بأربعة أقسام متساوية كل ثلاثة بروج منها تسعين درجة لها طبيعة تخصها مع أن الفلك شيء واحد وطبيعة واحدة وقسمته الى الدرج والبروج قسمة وهمية بحسب الوضع فكيف اختلفت طبائعها وأحكامها وتأثيراتها واختلفت بالذكورية والانوثية.. ثم إن بعض الأوائل منهم لم يقتصر على ذلك بل ابتداء بالدرجة الأولى من الحمل فنسبها الى الذكورية والثانية الى الانوثية هكذا الى آخر الحوت ولا ريب أن الهذيان لازم لمن قال بقسمة البروج الى ذكر وأنثى وقال الذكر طبيعة الفرد والآثي طبيعة الزوج فان هذا بعينه لازم لهم فى درجات البرج الواحد وكان هذا القائل تصور لزومه لأولئك فالتزمه . . . وأما بطليموس فله هذيان آخر فانه ابتداء بأول درجة كل برج ذكر فنسب منها الى تمام اثني عشر درجة وبضعا الى الذكورية ومنه الى تمام خمس وعشرين درجة الى الانوثية ثم قسم باقى البرج بالنصفين فنسب النصف الأول الى الذكر والنصف الآخر الى الأنثى وعلى هذه القسمة ابتداء بالبروج الآثي فنسب الثلث ونصف السدس الى الانوثية ومثلها بعده الى الذكورية وبقي

سدس قسمه بنصفين فنسب النصف الاول إلى الأثني والآخر إلى الذكر كما عمل بالبرج الذكر حتى أتى على البروج كلها . . وأما دوروسوس فله هذيان آخر فانه يقسم البروج كلها كل برج ثمانية وخمسين دقيقة ومائة وخمسين ثانية ثم ينظر فان كان البرج ذكراً أعطى القسمة الأولى للذكر ثم الثانية الأثني إلى أن يأتي على الأقسام كلها وإن البرج أنثى أعطى القسمة الأولى للذكر إلى أن يأتي على الأقسام كلها ولو قدر أن جاهلاً آخر تفنن في هذه الأوضاع وقلبها وتكلم عليها لكان من جنس كلامهم ولم يكن عندهم من البرهان ما يردون به قوله بل إن رأوه قد أصاب في بعض أحكامه لا في أكثرها أحسنوا به الظن وتقلدوا قوله وجعلوه قدوة لهم وهذا شأن الباطل . . عدنا إلى كلام عيسى في رسالته قالوا واختلفوا في الحدود فزعم أهل مصر أنها تؤخذ من أرباب البيوت وزعم السكديونيون أنها تؤخذ من مدبر المثليات وإذا كان اختلاف الذين يعتقدون بهم في أصولهم هذا الاختلاف وليس هم ممن يطالب بالبرهان ولا يعتقد الشيء حتى يصح على البحث والقياس فيعرفون مع من الحق من رؤسائهم وفي أي قول هو من أقوالهم فيعملون به وإنما طريقتهم التسليم لما وجدوه في الكتب المنقولة من لسان إلى لسان فكيف يجوز لهم أن يتفردوا باعتقاد قول من هذه الأقوال وينصرفوا عما سواه إلا على طريق الشهوة والتخمين والله المستعان.

(ذكر بعض ما يستبشع من أقوالهم ويستدل به على مناقضتهم)

من ذلك زعمهم أن الفلك جسم واحد وطبيعة واحدة وأنه شيء واحد وليس بأشياء مختلفة ثم زعموا بعد ذلك أن بعضه ذكر وبعضه أنثى ولا دلالة لهم على ذلك ولا برهان ولا وجدنا جسماً واحداً في الشاهد بعضه ذكر وبعضه أنثى قلت قد رام بعض المبلسين من فضلائهم تصحيح هذا الهذيان فقال ليس يستحيل أن يكون جسم واحد وبعضه أنثى وبعضه ذكر كالرجل مثلاً فإن العين والأذن واليد والرجل منه مؤنثة والرأس والصلب والصدر والظهر منه ذكر وأيضاً فإن الجسم مركب من الهيمولي والصورة والهيمولي مذكرة والصورة مؤنثة وأيضاً لما وجد المنجمون الشمس تدل على الآباء والأب ذكر والقمر يدل على الأم وهي أنثى قالوا إن الشمس ذكر والقمر أنثى قالوا وقد قال أرسطو في كتاب الحيوان طمئت المرأة يقل في نقصان الشهر وكذلك قال بعض الناس أن القمر أنثى قالوا وأيضاً فالشمس إذا كانت قريباً من سمت الرأس كان الحر واليبس وهما من طبيعة الذكورية والقمر إذا كان يقرب من سمت الرأس بالليل كان البرد والرطوبة وهما من طبيعة الأنثى فليعجب العاقل اللبيب من هذه الخرافات . . فأما أعضاء الإنسان الذكور والأنثى فذلك أمر راجع إلى مجرد اللفظ والحقاق علامة التأنيث في تصغيره ووصفه وخبره وعود الضمير عليه بلفظ التأنيث وجمعه جمع المؤنث وليس ذلك عائد إلى طبيعة العضو ومزاجه فنظير هذا قول النحاة الشمس مؤنثة للحاق العلامة لها في تصغيرها فنقول شمسية وفي الخبر عنها نحو الشمس طالعة والقمر مذكرة لعدم

لحاق العلامة له في شيء من ذلك فعلى هذا الوجه وقع التذكير والتأنيث في أعضاء الحيوان وأما قسمتك البروج وأجزاء الفلك إلى مذكر ومؤنث فليست بهذا الاعتبار بل باعتبار الفعل والانفعال والحرارة والرطوبة فتشبيهه أحد البابين بالآخر تلبيس وجهل وأما تركب الجسم من الهيولى والصورة فأكثر العقلاء نفوه وقالوا هو شيء واحد متصل متوارد عليه الاتصال والانفصال كما يتوارد عليه غيرهما من الإغراض فيقبلها ولا يلزم من قبول الإتصال والانفصال أن يكون هناك شيء آخر غير الجسمية يقبل به ذلك والذين قالو بتركيبه منهما لم يقل أحد منهم أصلاً أنه مركب من ذكر وأنثى والصورة مؤنثة في اللفظ لاني الطبيعة واضحاكاه على عقولهم السخيفة . . وأما دلالة الشمس على الأب وهو مذكر ودلالة القمر على الأم وهى أنثى فلو سلمت لسمك هذه الدلالة كيف يلزم منها تذكير مادل على الذكر وتأنيث ما يدل على الأنثى وأين الارتباط العقلى بين الدليل والمدلول في ذلك كيف ودلالة الشمس على الأب والقمر على الأم مبنى على تلك الدعاوى الباطلة التى ليس لها مستند إليه إلا خيالات وأوهام لا يرضاها العقلاء . . وأما ما حكوه عن ارسطو فنقل محرف ونحن نذكر نصه فى الكتاب المذكور فإن لنا به نسخة مصححه قد اعتنى بها قال فى المقالة الثامنة عشر بعد أن تكلم فى علة الإذكار والإيناث وذكر قول من قال أن سبب الإذكار حرارة الرحم وسبب الإيناث برودته وأبطل هذا بأن الرحم مشتمل على الذكر والأنثى معاً فى الإنسان وفى كل حيوان يلد قال فقد كان ينبغى على قول هذا القائل أن يكون التوأمين إما ذكراين وإما أنثيين وأبطله بوجوه أخر وهذا رأى أنبذ فليس وذكر قول ديمقراطيس أن ذلك ليس لأجل حرارة الرحم وبرودته بل بحسب الماء الذى يخرج من الذكر وطبيعته فى الحرارة والبرودة وجعل قوة الإذكار والإيناث تابعة لماء الذكر وذكر قول طائفة أخرى أن خروج الماء من الناحية اليمنى من البدن هى علة الإذكار وخروجه من الناحية اليسرى هى علة الإيناث قال إن الناحية اليمنى من الجسد أسخن من الناحية اليسرى وأنضج وأدفأ من غيرها ورجع قول ديمقراطيس بالنسبة إلى هذه الآراء ثم قال فقد بينا العلة التى من أجلها يخلق فى الرحم ذكر وأنثى والأغراض التى تعرض تشهد لما بيننا أن الأحداث يلدون الإناث أكثر من الشباب والمتشبيون يلدون إناثا أيضاً أكثر من الشباب لأن الحرارة التى فى الأحداث ليست بتامة بعد الحرارة التى فى الشيوخ ناقصة والأجسام الرطبة التى خلقتها شبيهة بمخلقة بعض النساء تلد إناثا أكثر ثم قال فإذا كانت الريح شمالا كان الولد ذكرا وإذا كانت جنوبا كان المولود أنثى لأن الأجساد إذا هبت الجنوب كانت رطبة وكذلك يكون الزرع أكثر وكلما أكثر الزرع يكون الطبخ غير نضج ولحال هذه العلة يكون زرع الذكورية ويكون دم طمعت النساء من قبل الطباع عند خروجه أرطب أيضاً قلت ومراده بالزرع الماء الذى يكون من

الرجل قال والحال هذه العلة يكون طمعت النساء من قبل الطباع في نقص الأهله أكثر لأن تلك الأيام
أبرد من سائر أيام الشهر وهى أربط أيضا لنقص الأهله وقلة الحرارة والشمس تصير الصيف
والشتاء في كل سنة فأما القمر فيفعل ذلك في كل شهر فتأمل كلام الرجل فإنه لم يتعرض لكون
القمر ذكر ولا أنثى ولا أحال على ذلك وإنما أحال على الأمور الطبيعية في السكائنات الفاسدات
وبين تأثير النيرين في الرطوبة واليبوسة والحرارة والبرودة وجعل لذلك تأثيرا في الإذكار والإيناث
لأن النجوم والطوالع ومع أن كلامه أقرب إلى العقول من كلام المنجمين فهو باطل من وجوه كثيرة
معلومة بالحس والعقل وإخبار الأنبياء فان الإذكار والإيناث لا يقوم عليه دليل ولا يستند إلى
أمر طبيعي وإنما هو مجرد مشيئة الخالق البارئ المصور الذي يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن
يشاء الذكور ويزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيبا انه عليم بقدير الذي أعطى كل شيء
خلقه ثم هدى وكذا هو قرين الأجل والرزق والسعادة والشقاوة حيث يستأذن الملك الموكل
بالمولود ربه ومخالقه فيقول يارب أذكر أم أنثى سعيد أم شقى فما الرزق فما الأجل فيقضى الله
ما يشاء ويكتب الملك. ولاستقصاء الكلام في هذه المسألة موضع هو أليق بها من هذا وقد
أشبعنا الكلام فيها في كتاب الروح والنفس وأحوالها وشقاوتها وسعادتها ومقرها بعد الموت
والمقصود الكلام على أقوال الأحكاميين من أصحاب النجوم وبيان تهاافتها وانها إلى المحالات
والتخييلات أقرب منها إلى العلوم والحقائق . . . وأما قول المنتصر لكم ان الشمس إذا كانت
مسامته الرؤوس كان الحر واليبس وهما من طبيعة الذكور وإذا كان القمر مسامة للرؤوس
كان البرد والرطوبة وهما من طبيعة الاناث فيقال هذا لا يدل على تأنيث القمر وتذكير الشمس
بوجه من الوجوه فان البرد والرطوبة يكونان أيضا بسبب بعد الشمس من المسامته وميلها عن
الرؤوس وحصولها في البروج الشمالية سواء كان القمر مسامتا أو غير مسامت فينبغى على
قولكم أن يكون سبب هذا البرد أنثى وهذا لا يقوله عاقل بل الأسباب الطبيعية من برد الهواء
وتسكافته وتأثير الشمس في تحليل الأبخرة التي تكون منها الحرارة بسبب بعدها عن الرؤوس
وليس سبب ذلك أنثى اقتضته وفعلته فقد جمعتم إلى جهلكم بالطبيعة والكذب على الخلق
القول الباطل على الله وعلى خلقه وليس العجب إلا بمن يدعى شيئا من العقل والمعرفة كيف
ينقاد له عقله بالاصغاء إلى محالاتكم وهذا يائنا تمكم ولكن كل مجبول مهيب ولما تكايس من
تكايس منكم في أمر الهوى وزعم أنها أنثى وان الصورة ذكر وان الجسم الواحد مشتمل
على الذكر والأنثى أضحك عقلاء الفلاسفة عليه فان زعيمهم ومعلمهم الأول قد نص في كتاب
الحيوان له على أن الهوى في الجسم كالذكر . . . وان قلتم فهذا يشهد لقولنا أيضا لانها ان كانت
عنده كالذكر فالصورة أنثى فصار الجسم الواحد بعضه ذكر وبعضه أنثى . . . قلنا القائلون

بتركب الأجسام من الهوى والصورة لم يقولوا أن أحدهما متميز عن الآخر كما زعمتم ذلك في أجزاء الفلك بل عندهم الهوى والصورة قد اتحدوا وصارا شيئاً واحداً فلاشارة الحسية إلى أحدهما هي بعينها اشارة إلى الآخر وأنتم جمعتم الجزء المذكر من القلب مباينا للجزء الأنثى منه بالوضع والحقيقة والإشارة إلى أحدهما غير الإشارة إلى الآخر . وللحكام مع أصحاب الهوى مقام آخر ليس هذا موضعه فإن دعوى تركب الجسم منهما دعوى فاسدة من وجوه كثيرة وليس يصح شيء منه غير الهوى الصناعية كالخشب للسريير والطبيعية كالمنى للدولود وهي المادة الصناعية والطبيعية وما سوى ذلك نغيال ومحال والله المستعان . . . عدنا إلى كلام صاحب الرسالة . . . قال ومن ذلك زعمهم انه إن انفق مولود ابن ملك وابن حجام في البلد والوقت والطالع والدرجة وكانت سائر دلالات السعادة موجودة في مولديهما وجب أن يكون من ابن الملك ملك جليل سائس مدبر ومن ابن الحجام حجام حاذق وهذا يخرج النجوم عن أن تكون تدل على ما يتحدد من حال الانسان ويجعلها تدل على حذقه وصناعة أيه وتقصره فيها . . . قلت وما يوضح فساد قولهم في ذلك أن بطليموس جعل الكواكب الدالة على الصناعات ثلاثة المريخ والزهرة وعطارد وقال لأن الصناعات العملية تحتاج إلى ثلاثة أشياء ضرورية أحدها المعرفة والثاني الآلة والثالث الطاقة في الكف ليخرج المعلول المصنوع حسنا والآلة للمريخ التي يشير إليها يكون على الأكثر إما حديد وإما مصاحبة للحديد ولذلك يقولون صورته صورة شاب بيميناه سيف مسلول ويسراه رأس سنان وهو راكب أسدا وثيابه حر تلهب وآخرون منهم يقولون على رأسه بيضة ويسراه طبرزين وعليه خرقة حمراء وهو راكب فرسا أشهب والمعرفة لعطارد ولذلك يقولون صورته صورة شاب بيميناه حبة ويسراه لوح يقرأه وعلى رأسه تاج وثيابه ملوثة بالتراويق والنقوش وماشاكل ذلك الزهرة ولذلك يقولون صورتها صورة امرأة حسنة بين يديها مدق تضرب به وهي راكبة على جمل ومنهم من يقول امرأة جالسة مرخاة الشعر ذوائبها يسراها وباليتي مرأة تنظر فيها نظيفة الثوب وعليها طوق واسورة وخلخل وأما الشمس والقمر فهما الدالان على الملك فالشمس صورتها صورة رجل بيده اليمنى عصا يتوكأ عليها وباليسرى جزر راكب عجلة تجرها أربعة نمور ومنهم من يقول صورتها صورة رجل جالس قابض على أربعة أعنة أفراس ووجهه كالطبق يلتهب نارا قالوا ودلائل الملك ليست بأعيانها هي دلائل الصناعات ودلائل الصناعات هي دلالات الملك بل قد يجوز أن يدل على رياسة ما إلا أن الملك أخص من الرياسة ولكل واحد من الكواكب على الاطلاق دلالة على رياسة مافي معنى من المعاني . . . فيقال أرايتم ان حصلت أدلة الملك في طالع مولود ليس من الملك في شيء بل أكثر المولودين لاينالون الملك البتة

وإنما يناله واحد من الناس ولا يلزم أن يكون في آباءه ملك ولا يكون ابن ملك فما بال طالع الملك المشترك بين عدة أولاد خص هذا وحده حتى أن أكثركم ينظر بنص بطليموس إلى جنس المولود وما يصلح له فيحكم على ابن الملك بالملك وعلى ابن الحجام بالحجامة فإن كان طالعهما واحداً حكم بتقدم ابن الحجام في رياسة صناعته وكونه كما حكمهم ومعلوم أن الحس والوجود أكبر المسكذبين لكم في هذه الأحكام فما أكثر من نال الملك وليس هو من أبناء الملوك البتة ولا كان طالعهم يقتضى ذلك وحرمه من يقتضيه طالعهم بزعمكم من أبوه ملك وكذلك الكلام في غير الملك من الطالع الذى يقتضى كون المولود حكماً عالماً أو حاذقاً في صناعته كما قد أخلف وحصل العلم والحكمة والتقدم في الصناعة لغير أرباب ذلك الطالع وفى ذلك أبين تكذيب لكم وإبطال لقولكم والله المستعان . . قال صاحب الرسالة وأبعد من ذلك قولهم أن الكواكب المنتحرة أجل من الثوابت وأبين تأثيراً فى العالم وإن كل واحد من الكواكب الثابتة يفعل فعلاً واحداً لا يزول عنه من غير أن ينحس أو يسعد وإن عطارد هو من الكواكب المنتحرة ليس له طبع يعرف وأنه نحس إذا قارن النحوس وسعد إذا قارن السعود . . ومن ذلك قولهم أن قوة القمر الترطيب وإن العلة فى ذلك قرب فلكه من الأرض وقبوله البخارات الرطبة التى ترتفع إليه منها وإن قوة زحل أن يبرد ويجفف تجفيفاً يسيراً وإن علة ذلك بعده عن حرارة الشمس وعن البخارات الرطبة التى ترتفع من الأرض وإن قوة المريخ مجففة محرقة لمشاكلة لونه للون النار ولقربه من الشمس لأن الكرة التى فيها الشمس موضوعة تحته . . قلت فليتامل العاقل ما فى هذا الكلام من ضروب المحال وما للفلك ووصول البخارات الأرضية إليه وهل فى قوة البخارات تصاعدها إلى سطح الفلك مع البعد المفرط والبخار إذا ارتفع فغاية ارتفاعه كارتفاع السحاب لا يتعداه وهل تتأثر العلويات بطبائع السفليات وتكيف بكيفياتها وتنفعل عنها . . وما يدل على فساد ذلك أيضاً أن القمر لو كان مترطباً من البخارات وجب أن تزداد رطوبته فى كل يوم لأنه دائم القبول للبخارات ولا يقولون ذلك . . وإن التزمه منهم مكابر وقال كل يوم يزداد رطوبة . . قلت له فما تنكر أن تكون دلالة زحل والمريخ على النحوس تزايد وتكون دلالاته على النحوس فى اليوم أكثر من دلالاته فى الأمس ولو فتح عليكم هذا الباب فلعل السعد ينقلب نحساً وبالعكس وهذا يرفع الأمان عن أصول هذا العلم . . وأيضاً فإذا جوزتم انفعال الفلكيات عن أجزاء هذا العالم السفلى لزمكم تجويز فساد هذه الكواكب من هذه الأجرام العنصرية ولزمكم تجويز أن ترتفع إلى القمر من الأدخنة ما يوجب جفافه وبلوغه فى اليبس الغاية وأيضاً فإذا جوزتم ذلك فلم لا تجوزون نفوذ تلك البخارات إلى ما وراء

فلك القمر حتى يترطب فلك الأفلاك . . فان قامت فلك القمر عائق عن ذلك . . قلنا وكرة الاثير حائلة بين عالمنا هذا وبين فلك القمر فكيف جوزتم وصول البخارات الأرضية إلى فلك القمر وفي مشابهة لون المريخ للون النار مما يقتضى تأثيره الاحراق والتجفيف وهل في الهذيان أعجب من هذا فان أرادوا النار البسيطة فاما لا لون لها وإن أرادوا النار الحادثة فهى بحسب مادتها التى توجب حرمتها وصفرتها وبياضها وأما كون الشمس تحته فهذا لا يقتضى تأثيرها فيه واعطاؤه قوة التجفيف والاحراق فان الشمس لو أثرت فيه ذلك واعطته إياه لسكانت الشمس بهذا التأثير والاعطاء للزهرة أولى لأن كرتها فوق كرة الزهرة ونسبتها إلى كرة الزهرة كنسبتها إلى كرة المريخ فهلا كانت قوة الزهرة التجفيف والاحراق بل تأثير الشمس فيما تحتها أولى من تأثيرها فيما فوقها . . قال صاحب الرسالة وإن الكواكب الثابتة التى فى الدب الأكبر قوتها كقوة المريخ وهذا غلط عظيم لأن لون هذه الكواكب غير مشبه للون النار وايست الكوكبة التى فيها الشمس موضوعة تحتها بل الكوكبة التى فيها زحل موضوعة تحتها فهى بأن يكون حالها مشبهاً لحال زحل أولى لأنها فوقه وبعدها عن الشمس وعن حرارات الأرض أكثر من بعده . . قلت والعجب من هؤلاء يعلمون قول مقدمهم بطليموس أن طبائع الاجرام السماوية واحدة ثم يحكمون على بعضها بالحرارة وعلى بعضها بالبرودة وكذلك بالرطوبة واليبوسة . . قال وزعموا أن عطارده معتدل فى التجفيف والترطيب لانه لا يبعد فى وقت من الأوقات عن حر الشمس بعدا كثيرا ولا وضعه فوق كرة القمر وإن الكواكب الثابتة التى فى الجاني حالها شبيهة بحاله وليس يوجد لها من السبيين اللذين دلا على طبيعة عطارده شيئا بل الدور يوجد لها ضد ذلك وهو أنها بعيدة من الشمس فى أكثر الأوقات وإن فلكها أبعد أفلاك الكواكب من كرة القمر . . وقالوا إن الكواكب التى من النماذ (١) تشبه حال عطارده وزحل فى بعض الأوقات وتشبه حال المشترى والمريخ فى بعضها . . قلت وقد استدلت فضلاؤكم على اختلاف طبائع الكواكب باختلاف ألوانها فقالوا زحل لونه الغبرة والسكودة فحكما بأنه على طبع السوداء وهو البرد واليبس فان السوداء لها من الألوان الغبرة وأما المريخ فانه يشبه لونه لون النار فلا جرم قلنا طبعه حار يابس وأما الشمس فهى حارة يابسة لوجهين : أحدهما أن لونها يشبه لون الحمرة الثانى أنا نعلم بالتدبير أنها مسخة للأجسام منشفة للرطوبات وأما الزهرة فإننا نرى لونها كالمركب من البياض والصفرة ثم إن البياض يدل على طبيعة البلغم الذى هو البرد والرطوبة والصفرة تدل على الحرارة ولما كان بياض الزهرة أكثر من صفرتها حكمتنا عليها بأن بردها ورطوبتها أكثر وأما المشترى فلما

(١) هكذا فى الأصل ولم تنف على صحته فليحرو.

كانت صفته أكثر مما في الزهرة كانت سخونته أكثر من سخونة الزهرة وكان في غاية الاعتدال وأما القمر فهو أبيض وفيه كمودة فيماضه يدل على البرد وأما عطارد فإنا نرى عليه الألوان مختلفة فربما رأيناه أخضر وربما رأيناه أغير وربما رأيناه على خلاف هذين اللونين وذلك في أوقات مختلفة مع كونه من الألق على ارتفاع واحد فلا جرم قلنا إنه لكونه قابلاً للألوان المختلفة يجب أن يكون له طبائع مختلفة إلا أننا وجدنا في الغالب عليه الغبرة الأرضية قلنا طبيعته أميل إلى الأرض وليس . . وهذا التقرير باطل من وجوه عديدة أحدها أن المشاركة في بعض الصفات لا تقتضى المشاركة في الماهية والطبيعة ولا في صفة أخرى . . الوجه الثاني أن الدلالة بمجرد اللون على الطبيعة ضعيفة جداً فإن النورة والنوشار والزرنيخ والزئبق المصعد والكبريت في غاية البياض مع أن طبائعها في غاية الحرارة . . الثالث أن ألوان الكواكب ليست كما ذكرتم فزحل رصاصى اللون وهذا مخالف للغبرة والسواد الخالص وأما المشتري فلا بد أن بياضه أكثر من صفته فيلزم على قولكم أن برده أكثر من حره وهم يتكرون ذلك وأما الزهرة فلا صفرة فيها البتة بل الزرقة ظاهرة في أمرها فيلزم أن تكون خالصة البرد وأما المريخ فإن حره لشبهه بالنار في لونه فهذه المشابهة في الشمس والنار أتم فيلزم أن تكون حرارة الشمس وسخونتها أقوى من حرارة المريخ وهم لا يقولون ذلك وأما عطارد فإنا وان رأيناه مختلف اللون في الأوقات المختلفة إلا أن السبب فيه أننا لا نراه إلا إذا كان قريباً من الأفق وحينئذ يكون بيننا وبينه بخارات مختلفة فلا جرم إن اختلف لونه لهذا السبب وأما القمر فقد قال زعيمكم المؤخر أبو معشر أنه لا ينسب لونه إلى البياض إلا من عدم الحس البصرى فتبين بطلان قولكم في طبائع الكواكب وتناقضه واختلافه . ولما علم بعض فضلائكم فساد قولكم في طبائع الكواكب وإن العقل يشهد بتكذيبه صدف عنه وأنكره وقال إنما نشير بهذه القوى والطبائع إلى ما يحدث عن كل واحد من الأجرام السماوية وينفعل بها من الكائنات الفاسدات لا أنها بطبائعها تفعل ذلك بل يحدث عنها ما يكون حاراً أو بارداً أو رطباً أو يابساً كما يقال إن الحركة تسخن والصوم يجفف لا على أنها تفعل ذلك بطبائعها بل بما يحدث عنها فبطليموس قال إن القمر مرطب والشمس تسخن بحسب ما يحدث عنهما وتنفعل المنفعلات بتلك القوى لا بأن طبائعها مكيفات فقال نحن لم ننازعكم في تأثير الشمس والقمر في هذا العالم بالرطوبة والبرودة واليبوسة وتوابعها وتأثيرها في أبدان الحيوان والنبات ولكن هما جزء من السبب المؤثر وليس بمؤثر تام فإن تأثير الشمس مثلاً إنما كان بواسطة الهواء وقبوله للسخونة والحرارة بانعكاس شعاع الشمس عليه عند مقابلتها لجرم الأرض ويختلف هذا القبول عند قرب الشمس من الأرض وبعدها

فيختلف حال الهواء وأحوال الأبخرة في تكاثفها وبرودتها وتلطفها وحرارتها فتختلف التأثيرات باختلاف هذه الأسباب والسبب جزء الشمس في ذلك والأرض جزء والمقابلة الموجبة لانعكاس الأشعة جزء والمحل القابل للتأثير والانفعال جزء ونحن لانستكر أن قوة البرد بسبب بعد الشمس عن سمت رؤسنا وقوة الحر بسبب قرب الشمس من سمت رؤسنا ولا ننكر أن الشمس إذا طلعت فإن الحيوان ناطقه وبهيمه يخرج من مكانه وأكثته وتظهر القوة والحركة فيهم ثم مادامت الشمس صاعدة في الربع الشرقي فحركات الحيوان في الازدياد والقوة والاستكمال فإذا مالت الشمس عن وسط السماء أخذت حركات الحيوان وقواهم في الضعف وتستمر هذه الحال إلى غروب الشمس ثم كلما ازداد نور الشمس عن هذا العالم بعدا ازداد الضعف والفتور في حركة الحيوان وهدأت الاجساد ورجعت الحيوانات إلى مكانها فإذا طلعت الشمس رجعوا إلى الحالة الأولى ولا ننكر أيضا ارتباط فصول العالم الأربعة بحركات الشمس وحلولها في أبراجها ولا ننكر أن السودان لما كان مسكنهم خط الاستواء إلى محاذة عم رأس السرطان وكانت الشمس تمر على رؤسهم في السنة إما مرة وإما مرتين تسودت أبدانهم وجمعدت شعورهم وقلت رطوباتهم فسامت أخلاقهم وضعفت عقولهم وأما الذين مساكنهم أقرب إلى محاذة عم السرطان فالسواد فيهم أقل وطبايعهم أعدل وأخلاقهم أحسن وأجسامهم ألطف كأهل الهند واليمن وبعض أهل الغرب وعكس هؤلاء الذين مساكنهم على عم رأس السرطان إلى محاذة بنات نعش الكبرى فهؤلاء لأنهم لا تسامت رؤسهم ولا تبعد عنهم أيضاً بعداً كثيراً لم يعرض لهم حر شديد ولا برد شديد قالوا إنهم متوسطة وأجسامهم معتدلة وأخلاقهم فاضلة كأهل الشام والعراق وخراسان وفارس والصين ثم من كان من هؤلاء أميل إلى ناحية الجنوب كان أتم في الذكاء والفهم ومن كان منهم يميل إلى ناحية الشرق فهم أقوى نفوساً وأشد ذكورة ومن كان يميل إلى ناحية الغرب غلب عليه اللين والرزانة ومن تأمل هذا حق التأمل وسافر بفكره في أقطار العالم علم حكمة الله في نشره مذهب أهل العراق وما فيه من اللين وما شاكله في أهل المشرق ومذهب أهل المدينة وما فيه من الشدة والقوة في أهل المغرب وأما من كانت مساكنهم محاذية لبنات نعش وهم الصقالبة والروم فإنهم لكثرة بعدهم عن مسامتة الشمس صار البرد غالباً عليهم والرطوبة الفضلية فيهم لانه ليس من الحرارة هناك ما ينشفها وينضجها فلذلك صارت ألوانهم بيضاء وشعورهم سبعة شقراء وأبدانهم رخصة وطبايعهم مائلة إلى البرودة وأذهانهم جامدة وكل واحد من هذين الطرفين وهما الإقليم الأول والسابع يقل فيه العمران وينقطع بعضه عن بعض لأجل غلبة اليبس ثم لاتزال العمارة تزداد في الإقليم

الثاني والسادس والخامس ويقبل الخراب فيها وأما الإقليم الرابع فإنه أكثر الأقاليم عمارة وأقلها خرابا بالفصل الوسط على الأطراف بسبب اعتدال المزاج وهو الذي انتشرت فيه دعوة الإسلام وضرب الدين بجرانه فيه وظهر فيه أعظم من ظهوره في سائر الأقاليم ولهذا قال النبي ﷺ زويت لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيلبغ ملك أمتي ما زوى لي منها، فكان انتشار دعوته ﷺ في أعدل الأرض ولذلك انتشرت شرقا وغربا أكثر من انتشارها جنوبا وشمالا ولهذا زويت له فأرى مشارقها ومغاربها وبشر أمته بانتشار مملكتهما في هذين الربعين فإنهما أعدل الأرض وأهلها أكمل الناس خلقا وخلقا فظهر الكمال له في الكتاب والدين والأصحاب والشريعة والبلاد والممالك صلوات الله وسلامه عليه فإن قيل فقد فضلت الإقليم الرابع على سائر الأقاليم مع أن شيئا من الأدوية لا تتولد فيه الادواء ضعيفا وإنما تتكون الأدوية في سائر الأقاليم قيل هذا من أدل الدلائل على فضله عليها لأن طبيعة الدواء لا تكون معتدلة إذ لو حصل فيها الاعتدال لكان غذاء لا دواء والطبيعة الخارجة عن الاعتدال لا تحدث إلا في المساكن الخارجة عن الاعتدال وكذلك حال الشمس في المواضع التي تسامتها فوضع حضيضها وغاية قربها من الأرض في البراري الجنوبية تكون تلك الأماكن محترقة نارية لا يتكون فيها حيوان البتة ولذلك والله أعلم كان أكثر البخار من الجانب الجنوبي دون الشمالي لأن الشمس إذا كانت في حضيضها كانت أقرب إلى الأرض وإذا كانت في أوجها كانت أبعد وعند قربها من الأرض يعظم تسخينها والسخونة جاذبة للرطوبات وإذا انجذبت الرطوبات إلى الجانب الجنوبي انكشف الجانب الشمالي ضرورة وصار مستقرا للحيوان الأرضي والجنوبي أعظم الجانبين رطوبة وأكثرها مياها ومقرا للحيون المائي وأما المواضع المسامتة لأوج الشمس في الشمال فهي غير محترقة بل معتدلة لبعدها عن الشمس من الأرض بسبب التفاوت القليل الحاصل بين أقرب قرب الشمس من الأرض وأبعد بعدها منها صار الجنوبي محترقا والجانب الشمالي معتدلا فلو كانت الشمس حاصلة في فلك الكواكب لتفسد هذا العالم من شدة البرد ولو فرضنا أنها انحدرت إلى فلك القمر لأحرقت هذا العالم فاقترضت حكمة العزيز العليم الحكيم أن يضع الشمس وسط الكواكب السبعة وجعل حركتها المعتدلة وقربها المعتدل - يبا لاعتدال هذا العالم وجعل قربها وبعدها وارتفاعها وانخفاضها سببا لفصوله التي هي نظام مصالحه فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين . . وأهل الإقليم الأول لأجل قربهم من الموضع المحاذي لحضيض الشمس كانت سخونة هوائهم شديدة ولا جرم كانوا أشد سواها من مكان خط الاستواء . . وأهل الإقليم الثاني سخونة هوائهم ألطف فكانوا سمر الألوان . . والإقليم الثالث والرابع أعدل الأقاليم مزاجا بسبب اعتدال الهواء بسبب تعديل ارتفاع الشمس لا تكون في أبعد

بعدها عن الأرض فهنا وإن حصلت مسامحة مفيدة لمزيد السخونة لكن حصل أيضا البعد المقلل للسخونة فحصل الاعتدال من بعض الوجوه وفي الجانب الجنوبي وإن حصل مزيد القرب من الأرض لكن لم يحصل هناك مسامحة للساكن المعمورة لخط الاعتدال في الجانبين بهذه الطريق وصار أهل الإقليم الثالث والرابع أفضل الناس صورا وأخلاقا .. وأما الإقليم الخامس فإن سخونة الهواء هناك أقل من الاعتدال بمقدار يسير فلا جرم صار في جزء البرد وصارت طبائع أهله أقل نضجا من طبائع أهل الإقليم الرابع إلا أن بعدهم عن الاعتدال قليل .. وأما أهل الإقليم السادس والسابع فإن أهلها محرورون ولغلبة البرد والرطوبة عليهم يشتد بياض ألوانهم وزرقة عيونهم وأما المواضع التي تقرب من أن يكون الخط فيها فوق الرأس فهناك لا يصل تسخين الشمس إليها فلا جرم عظم البرد فيها ولم يكن هناك حيوان البتة وهذا كله يدل على أن الشمس جزء السبب وأن الهواء جزء السبب والأرض جزء وانعكاس الشعاع جزء وقبول المنفعلات جزء مجموع ذلك سبب واحد قدره العليم القدير وأجرى عليه نظام العالم وقدر سبحانه أشياء أخر لا يعرفها هؤلاء الجهال ولا عندهم منها خبر من تدبير الملائكة وحركاتهم وطاعة استقصات العالم ومواده لهم وتصريفهم تلك المواد بحسب ما رسم لهم من التقدير الإلهي والأمر الرباني ثم قدر تعالى أشياء أخر تمنع هذه الأسباب عند التصادم وتدافعها وتقررها موجبا ومقتضاها ليظهر عليها أثر القهر والتسخير والعبودية وأنها مصرفة مدبرة بتصريف قاهر قادر كيف يشاء ليدل عباده على أنه هو وحده الفعال لما يريد المدبر الخلاقه كيف يشاء وأن كل ما في المملكة الإلهية طوع قدرته وتحت مشيئته وأنه ليس شيء يستقل وحده بالفعل إلا الله وكل ما سواه لا يفعل شيئا إلا بمشارك ومعاون وله ما يعاونه ويمانه ويسلبه تأثيره فتارة يسلب سبحانه النار إحراقها ويجعلها بردا كما جعلها على خليله بردا وسلاما وتارة يمسك بين أجزاء الماء فلا يتلاقى كما فعل بالبحر لموسى وقومه وتارة يشق الأجرام السماوية كما شق القمر لخاتم أنبيائه ورسله وفتح السماء لمصعده وعروجه وتارة يقلب الجماد حيوانا كما قلب عصاموسى نعبا ناوتارة يغير هذا النظام ويطلع الشمس من مغربها كما أخبر به أصدق خلقه عنه فإذا أتى الوقت المعلوم فشق السموات وفطرها ونثر الكواكب على وجه الأرض ونسف جبال العالم ودكها مع الأرض وكور شمس العالم وقره ورأى ذلك الخلائق عيانا ظهر للخلائق كلهم صدقه وصدق رسله وعموم قدرته وكماها وأن العالم بأسره منقاد لمشيئته طوع قدرته لا يستعصى عليه انفعاله لما يشاؤه ويريده منه وعلم الذين كفروا وكذبوا رسله من الفلاسفة والمنجمين والمشركين والسفهاء الذين سموا أنفسهم الحكماء أنهم كانوا كاذبين .. واجتمع جماعة من الكبراء والفضلاء يوما فقرأ قارىء إذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت وإذا الجبال

سيرت.. حتى بلغ.. علت نفس ما أحضرت، وفي الجماعة أبو الوفاء بن عقيل فقال له قائل
ياسيدي هب أنه أنشر الموتى للبعث والحساب وزوج النفوس بقرناتها للشواب والعقاب فإنا
الحكمة في هدم الأبنية وتسيير الجبال ودك الأرض وفطر السماء ونثر النجوم وتخريب هذا
العالم وتكوير شمس وخسف قمره فقال ابن عقيل على البديهة إنما بنى لهم هذه الدار للسكنى
والتمتع وجعلها وما فيها للاعتبار والتفكير والاستدلال عليه بحسن التأمل والتذكر فلما
انقضت مدة السكنى وأجلهم عن الدار وخربها لا تنتقل الساكن منها فأراد أن يعلمهم بأن
في إحالة الأحوال وإظهار تلك الأحوال وإبداء ذلك الصنع العظيم بياناً لكمال قدرته
ونهاية حكمته وعظمته ربوبيته وعز جلاله وعظم شأنه وتكذيباً لأهل الإلحاد وزنادقة
المنجمين وعباد الكواكب والشمس والقمر والأوثان ليعلم الذين كفروا أنهم كانوا
كاذبين فإذا رأوا أن منار آلهتهم قد انهدم وأن معبوداتهم قد انتثرت والأفلاك التي زعموا
أنها وما حوتها هي الأرباب المستولية على هذا العالم قد تشققت وانفطرت ظهرت حينئذ
فضاحهم وتبين كذبهم وظهر أن العالم مر بوب محدث مدبر له رب يصرفه كيف يشاء
تكذيباً لملاحدة الفلاسفة القائلين بقدمه فكم لله من حكمة في هدم هذه الدار ودلالة على
عظيم قدرته وعزته وسلطانه وانفراده بالربوبية وانقياد المخلوقات بأسرها لقهره وإذعانها
لمشيئته فتبارك الله رب العالمين ونحن لا ننكر ولا ندفع أن الزرع والنبات لا ينمو ولا ينشأ
إلا في المواضع التي تطلع عليها الشمس ونحن نعلم أيضاً أن وجود بعض النبات في بعض
البلاد لا سبب له الاختلاف البلدان في الحر والبرد الذي سببه حركة الشمس وتقاربها في قربها
وبعداها من ذلك البلد وأيضاً فإن النخل ينبت في البلاد الحارة ولا ينبت في البلاد الباردة وشجر
الموز لا ينبت في البلاد الباردة وكذلك ينبت في البلاد الجنوبية أشجار وفواكه وحشائش
لا يعرف شيء منها في جانب الشمال وبالعكس وكذلك الحيوانات يختلف تكوينها بحسب اختلاف
حرارة البلاد وبرودتها فإن النسر والقيط يكونان بأرض الهند ولا يكونان في سائر الأقاليم
التي هي دونها في الحرارة وكذلك غزال المسك والكر كند وغير ذلك وكذلك لا ندفع
تأثير القمر في وقت امتلائه في الرطوبات حتى في جزر البحار ومدها فإن منها ما يأخذ في
الازدياد من حين يفارق القمر الشمس إلى وقت الامتلاء ثم إنه يأخذ في الانقاص ولا
يزال نقصانه يستمر بحسب نقصان القمر حتى ينتهي إلى غاية نقصانه عند حصول المحاق
ومن البحار ما يحصل فيه المد والجزر في كل يوم وليلة مع طلوع القمر وغروبه وذلك
موجود في بحر فارس وبحر الهند وكذلك بحر الصين وكيفية أنه إذا بلغ القمر مشرقاً من
مشارك البحر ابتداء البحر بالمد ولا يزال كذلك إلى أن يصير القمر إلى وسط سماء ذلك

الموضع فعند ذلك ينتهى منتهاه فإذا زال القمر من مغرب ذلك الموضع ابتداء المد من تحت الأرض ولا يزال زائدا إلى أن يصل القمر إلى وتد الأرض فحينئذ ينتهى المد منتهاه ثم يبتدىء الجزر ثانيا ويرجع الماء كما كان وسكان البحر كلما رأوا في البحر انتفاخاً وهيجان رياح عاصفة وأمواج شديدة علواً أنه ابتداء المد فإذا ذهب الانتفاخ وقلت الأمواج والرياح علواً أنه وقت الجزر وأما أصحاب الشطوط والسواحل فانهم يجدون عندهم في وقت المد للساء حركة من أسفله إلى أعلاه فإذا رجع الماء ونزل فذلك وقت الجزر وكذلك أيام بحرانات الأمراض بحسب زيادة القمر ونقصانه منطبقه عليها وكذلك الأخلاط التي في بدن الإنسان مادام القمر آخذاً في الزيادة فانها تكون أزيد ويكون ظاهر البدن أكثر رطوبة وحسناً فإذا نقص ضوء القمر صارت الأخلاط في غور البدن والعروق وازداد ظاهر البدن يبساً وكذلك ألبان الحيوانات تنزاید من أول الشهر إلى نصفه فإذا أخذ القمر في النقصان نقصت غزارتها وكذلك أدمغة الحيوانات في أول الشهر أزيد منها في نصفه الأخير وإن حدث في أجواف الطيور بيض في النصف الأول من الشهر كان بياضه أكثر من بياض الحادث في نصفه الثاني وكذلك الإنسان إذا نام أو قعد في ضوء القمر حدث في بدنه الإسترخاء والكسل وهاج عليه الزكام والصداع وإذا وضعت لحوم الحيوانات مكشوفة تحت ضوء القمر تغيرت طعمها وتعفنت وكذلك السمك في البحار والآجام الجارية توجد من أول الشهر إلى وقت الامتلاء أكثر وخروجها من قعور البحار والآجام أظهر ومن بعد الامتلاء إلى الاجتماع فانها تدخل قعور البحار والآجام الذي يظهر من سمك السمك فالنصف الأول أكثر من الذي يظهر في الثاني منه وكذلك حرشة الأرض يسكون خروجها من أبحرتها في النصف الأول من الشهر أكثر من خروجها في النصف الثاني وأصحاب الغراس يزعمون أن الأشجار والغروس إذا غرست والقمر زائد الضوء كان نشوها وكالها وإسراعها في النبات أحمد من التي تغرس في محاقه وذهاب نوره وكذلك تكون الرياحين والبقول والأعشاب من الاجتماع إلى الامتلاء أزيد نشواً وأكثر نمواً وفي النصف الثاني بالصد من ذلك وكذلك القشأ والقرع والخيار والبطيخ ينمو نمواً بالغاً عند ازدياد الضوء وأما في وسط الشهر عند حصول الامتلاء فهناك يعظم النوحى يظهر التفاوت للحس في الليلة الواحدة وكذلك الينابيع تزداد في النصف الأول من الشهر وتنقص في النصف الثاني إلى غير ذلك من الوجوه التي تؤثر فيها الشمس والقمر في هذا العالم فتحسن لم ندفعكم عن هذه التأثيرات وإضعافها إنما الذي أنكره عليكم العقلاء من أهل الملل وغيرهم أن جملة الحوادث في هذا العالم خيرها وشرها وصلاحتها وفسادها وجميع أشخاصه وأنواعه وصوره وقواه ومدد بقاء أشخاصه وجميع أحوالها العارضة لها وتكون الجنين ومدة لبثه في بطن أمه وخروجه إلى الدنيا

وعمره ورزقه وشقاوته وسعادته وحسنه وقبحه وأخلاقه وحذقه وبلادته وجهله وعلمه بل
ونزول الأمطار واختلاف أنواع الشجر والنبات في الشكل واللون والطعوم والروائح والمقادير
بل انقسام الحيوان إلى الطير وأصنافه والبحرى وأنواعه والبرى وأقسامه وأشكال هذه
الحيوانات واختلاف صورها وأنواعها وأفعالها وأخلاقها ومنافعها بل وتكون المعادن المنطبعة
كالحديد والرصاص والنيحاس والذهب والفضة بل وغير المنطبعة كالملح والقار والزئبق والنفط
والزئبق بل العداوة الواقعة بين الذئب والغنم والحيات والسباع وبني آدم والصدقة والعداوة
بين أفراد النوع الواحد سيما بين ذكوره وإناثه وبالجملة فالأرزاق والآجال والعز والذل
والرفعة والخفض والغناء والفقر والإحياء والإماتة والمنع والإعطاء والضر النفع والهدى
والضلال والتوفيق الخذلان وجميع ما في العالم والأشخاص وأفعالها وقواها وصفاتها
وهياتها والمعطى له هذه واتصالاتها وانفصالاتها واتصالاتها بنقط وانفصالاتها عن نقط
ومقارنتها ومفارقتها ومسامتتها ومباينتها فهي المعطية لهذا كله المدبرة الفاعلة فهي الآلهة والآرباب
على الحقيقة وما تحتها عبيد خاضعون لها ناظرون إليها فهذا كما أنه الكافر الذي خرجوا به
عن جميع الملل وعن جملة شرائع الأنبياء ولم يمكنهم أن يقيموا بين أرباب الملل إلا بالتستر
بهم ومنافقتهم والتزيي بزيمهم ظاهرا وإلا فقتل هؤلاء من الأمر الضروري في كل ملة لأنهم
سوسها وأعداؤها فهو من الهذيان الذي أضحكوا به العقلاء على عقولهم حتى رد عليهم من
لا يؤمن بالله واليوم الآخر من الفلاسفة كالفارابي وابن سينا وغيرهما من عقلاء الفلاسفة
وسخروا منهم واستصغفوا عقولهم ونسبوه إلى الزرق والزينة والتلبس وقد رد عليهم
أفضل المتأخرين من فلاسفة الإسلام أبو البركات البغدادي في كتاب التعبير له فقال
وأما أحكام النجوم فإنه لا يتعلق به منه أكثر من قولهم بغير دليل بحر السكواكب وبردها
ورطوبتها ويوبستها واعتدالها كما يقولون بأن زحل منها بارد يابس والمريخ حار يابس
والمشتري معتدل والاعتدال خير والافراط شر وينتجون من ذلك أن الخير يوجب سعادة
والشر يوجب منحة وما جانس ذلك مما لم يقل به علماء الطبيعيين ولم تنتجهم مقدماتهم في أظواهرهم
وإنما الذي أنتجته هو أن السماء والسموات فعالة فيما تحويه وتشتمل عليه وتحرك حوله
فعلا على الإطلاق لم يحصل له من العلم الطبيعي حد ولا تقدير والقائلون به ادعوا حصوله
من التوقيف والتجربة والقياس منهما كما ادعى أهل الكيمياء وإلا فتي يقول صاحب العلم
الطبيعي بحسب أنظاره التي سبقت أن المشتري سعيد والمريخ نحس والمريخ حار يابس وزحل
بارد يابس والحار والبارد من الملوسات ومادله على هذا المس كما يستدل بلبس الملوسات
فإن ذلك ما ظهر للحس كما ظهر في الشمس حيث تسخن الأرض بشعاعها وإن كان في السماء
بيان شيء من طبائع الاضداد فالأولى أن تكون كلها حارة لأن كواكبها كلها منيرة ومتى

يقول الطبيعي بتقطع الفلك وقسمته كما قسمه المنجمون قسمة وهمية إلى بروج ودرج ودقائق وذلك جائز للتوهم كجواز غيره غير واجب في الوجود ولا حاصل ونقلوا ذلك التوهم الجائز إلى الوجود الواجب في أحكامهم وكان الأصل فيه على زعمهم حركة الشمس في الأيام والشهور فحملوا منها قسمة وهمية وجملوها حيث حكموا كالحاصلة الوجودية المتميزة بحدود وخطوط كأن الشمس بحركتها من وقت إلى وقت مثله خطت في السماء خطوطاً وأقامت فيها جدراناً وحدوداً وغرست في أجزائها طباعاً معتبراً بنق فتبقى به القسمة إلى تلك البروج والدرج مع جواز الشمس عنها وليس في جوهر الفلك اختلاف يتميز موضع منه عن موضع سوى السكواكب والكواكب تتحرك عن أمكنتها فتبقى الأمكنة على التشابه فما يتميز درجة عن درجة ويبقى اختلافها بعد حركة المتحرك في سمتها فكيف يقاس الطبيعي على هذه الأصول وينتج منها نتائج ويحكم بحسبها أحكاماً فكيف أن يقول بالحدود التي تجعل خمس درجات من برج السكوكب وستة لآخر وأربعة لآخر ويختلف فيها المصريون والبابليون ويصدق الحكم مع الاختلاف وأرباب اليوسات كأنها أملاك بنيت بصكوك وحكام الأسد للشمس والسرطان للقمر وإذا نظر الناظر وجد الأسد أسداً من جهة كواكب شكلوها بشكل الأسد ثم انتقلت عن مواضعها التي كان بها أسداً كأن الملك بنيت للشمس مع انتقال الساكن وكذلك السرطان للقمر هذا من ظواهر الصناعة وما لا يمارى فيه ومن طاعه الأسد فالشمس كوكبه وربته بيته ومن الدقائق في الحقائق النجومية المذكورة والمؤنثة والمظلمة والثيرة والزائدة في السعادة ودرج الآثار من جهة أنها أجزاء الفلك التي قطعوها وما انقطعت مع انتقال أن السكوكب ينظر إلى السكوكب من ستين درجة نظر تسديس لأنه سدس الفلك ولا ينظر إليه من خمسين ولا سبعين وقد كان قبل الستين بخمس درج وهو أقرب من ستين وبعدها بخمس درج وهو أبعد من الستين لا ينظر فليت شعري ما هو هذا النظر أترى السكوكب يظهر للسكوكب ثم يحتجب عنه أو شعاعه يختلط بشعاعه عند حد لا يختلط به قبله ولا بعده وكذلك التربيع من الربع الذي هو تسعون درجة والثلث من الثالث الذي هو مائة وعشرون فلم لا يكون التخمس من الخمس والتسبيع من السبع والتعشير من العشر والخل حار يابس من البروج النارية والثور بارد يابس من الأرضية والجوزاء حارة رطبة من الهوائية والسرطان بارد رطب من المائية ما قال الطبيعي قط هذا ولا يقول به وإذا احتجوا وقاسوا كانت مبادئ قياساتهم أن الحمل منقلب لأن الشمس إذا نزلت فيه ينقلب الزمان من الشتاء إلى الربيع والثور ثابت لأنه إذا نزلت الشمس فيه يثبت الربيع على ربيعته والحق أنه لا انقلاب في الحمل ولا ثبات في الثور بل هو في كل يوم غير

ما هو في الآخر ثم إن الزمان انقلب بحلول الشمس فيه وهو يبقى دهره منقلبا مع خروج الشمس منه وحلولها فيه أتراها تختلف فيه أترأ أو تحيل منه طباعاً وتبقى تلك الاستحالة إلى أن تعود فتجددها ولم لا يقول قائل أن السرطان حار يابس لأن الشمس إذا نزلت اشتد حر الزمان وما يجانس هذا بما لا يلزم لاهو ولا ضده مافي الفلك اختلاف معرفة الطبيعي إلا بما فيه من الكواكب ومواضعها وهو واحد متشابه الجوهر والطبع وهذه أقوال قالها قائلنا فقبليها قابل ونقلها ناقل فحسن بها ظن السامع واعتبرها من لاخبرة له ولا قدرة له على النظر ثم حكم بحسبها الحاكمون بجيد وردى وسلب وإيجاب وسعد ونحوس فصادف بعضه موافقة الوجود فصدق فأعتر به المعترون ولم يلتفتوا إلى ما كذب منه فيمكنذبون بل عذروا وقالوا هو منجم ما هو نبي حتى يصدق في كل مايقول واعتذروا له بأن العلم أوسع من أن يحيط به ولو أحاط به لصدق في كل شيء. واعمر الله أنه لو أحاط به علما صادقا لصدق والشأن أن يحيط به على الحقيقة لا على أن يفرض فرضاً ويتوهم وهماً فينقله إلى الوجود ويثبتته في الموجود وينسب إليه ويقيس عليه والذي يصح منه ويلتفت إليه العقلاء هي أشياء غير هذه الخرافات التي لا أصل لها مما حصل بتوقيف أو تجربة حقيقية كالتقارنات والانتقالات والمقابلة من جملة الانصالات فانها المقارنة من جهة أن تلك غاية القرب وهذه غاية البعد ويمر كوكب من المتنجرة تحت كوكب من الثابتة وما يفرض للنجرة من رجوع واستقامة ورجوع في شمال وانخفاض في جنوب وغير ذلك وكأني أريد أن اختصر الكلام ههنا وأوفق إشارتك واعمل بحسب اختيارك رسالة في ذلك أذكر ما قيل فيها من علم أحكام النجوم من أصول حقيقية أو مجازية أو وهمية أو غلطية وفروع نتائج أنتجت عن تلك الأصول وأذكر الجائز من ذلك والممتع والقريب والبعيد فلا أورد علم الأحكام من كل وجه كما رده من جهله ولا أقبل فيه كل قول كما قبله من لم يعقله بل أوضح موضع القبول والرد في المقبول وموضع التوقف والتجوز والذي من المنجم والذي من التنجيم والذي منهما وأوضح لك أنه لو أمكن الإنسان أن يحيط بشكل كل مافي الفلك علما لأحاط علما بكل ما يحويه الفلك لأن منه مبادئ الأسباب لكنه لا يمكن ويبعد عن الإمكان بعدا عظيما والبعض الممكن منه لا يهدى إلى بعض الحكم لأن البعض الآخر المجهول قد يناقض المعلوم في حكمه ويبطل ما يوجبه فنسبة المعلوم إلى المجهول من الأحكام كنسبة المعلوم إلى المجهول من الأسباب وكفى بذلك بعدا انتهى كلامه . ولو ذهبنا نذكر من رد عليهم من عقلاء الفلاسفة والطبائعين والرياضيين اطال ذلك جداً هذا غير رد المتكلمين عليهم فإننا لا نقنع به ولا نرضى أكثره فإن فيه من المكابرات والمنوع الفاسدة والمسؤولات الباردة والتطويل الذي ليس تحته تحصيل ما يضيغ الزمان في غير شيء.

وكان تركهم لهذه المقاتلة خيراً لهم منها فانهم لا للتوحيد والإسلام نصروا ولا لأعدائه
كسروا والله المستعان وعليه التكلان .

فصل

فلنرجع إلى كلام صاحب الرسالة . . قال زعموا أن القمر والزهرة مؤنثان وإن الشمس
وزحل والمشتري والمريخ مذكرة وإن عطارد ذكر أنثى مشارك للجنسين جميعاً وإن سائر
الكواكب تذكر وتؤنث بسبب الأشكال التي تكون لها بالقياس إلى الشمس وذلك أنها
إذا كانت مشرقة متقدمة للشمس فهي مذكرة وإن كانت مغربة تابعة كانت مؤنثة وإن ذلك
أيضاً يكون بالقياس إلى أشكالها إلى الأفق وذلك أنها إذا كانت في الأشكال التي من
المشرق إلى وسط السماء مما تحت الأرض فهي مذكرة لأنها إذا كانت شرقية فهي من ناحية
مهب الصبا وإذا كانت في الربعين الباقيين فهي مؤنثة لأنها في ناحية مهب الدبور وإذا كان هذا
هكذا صارت الكواكب التي يقال إنها مؤنثة مذكرة والتي يقال أنها مذكرة مؤنثة وصارت طباعها
مستحيلة بل تصير أعيانها تنقلب وأن القمر والزهرة مؤنثتان والكواكب الخمسة الباقية مذكرة
على الوضع الأول فإن تقدم القمر والزهرة الشمس وكانا شرقيين صاروا مذكرين وإن تأخرت
الكواكب الخمسة وكانت مغربة تابعة كانت مؤنثة على الموضوع الثاني ويصير عطارد
ذكراً إذا شرق أنثى إذا غرب وذكرنا أنثى إذا لم يكن بأحد هاتين الصفتين . . قلت وقد
أجاب بعض فضلائهم عن هذا الإلزام فقال ليس ذلك بممكن لأننا قد نقول إن الأدكن أبيض
إذا قسناه إلى الأسود ونقول إنه أسود إذا قسناه إلى الأبيض وهو شيء واحد بعينه مرة
يكون أسود ومرة يكون أبيض وهو في نفسه لأسود ولا أبيض وكذلك الكواكب يقال إنها
ذكران وإناث بالقياس إلى الأشكال أعنى الجهات والجهات إلى الرياح والرياح إلى الكيفيات
لأنها ذكران وإناث وهذا تلبس منه فإن الأدكن فيه شائبة البياض والسواد فلذلك صدق عليه
اسمها لأن الكيفيتين محسوستان فيه فتكيفه بهما أوجب أن يقال عليه الاسمان وأما تقسيم
الكواكب إلى الذكور والإناث فهي قسمة وضعت فيها تمييز كل نوع عن الآخر بحقيقته وطبيعته
وقلم البروج تنقسم إلى ذكور وإناث قسمة تميز فيها قسم عن قسم لأن حقيقتها متركبة من
طبيعتين ذكورية وأنثوية بحيث يصدقان على كل برج برج فنظير ما ذكرتم من الأدكن أن يكون
كل برج ذكراً وأنثى فأين أحد البابين من الآخر لولا التلبس والمحال وأيضا فالتقسامها إلى
الذكور والإناث انقسام بحسب الطبيعة والتأثير والتأثر الذي هو الفعل والانفعال وما كان
كذلك لم تنقلب حقيقته وطبيعته بحسب الموضوع والقرب والبعد . . قال صاحب الرسالة وزعموا
أن القمر منذ الوقت الذي يهل فيه إلى وقت انتصافه الأول في الضوء يكون فاعلا الرطوبة خاصة

ومنذ وقت انتصافه الأول في الضوء إلى وقت الامتلاء يكون فاعلا للحرارة ومنذ وقت الامتلاء إلى وقت الانتصاف الثاني في الضوء يكون فاعلا لليبس ومنذ وقت الانتصاف إلى الوقت الذي يخفى فيه ويفارق الشمس يكون فاعلا للبرودة وأي شيء أقبح من هذا ولا سيما وقد أعطى قائله أن القمر رطب وأنه يفعل بطبعه لا باختياره وكيف أن يفعل شيء واحد بطبعه الأشياء المتضادة مرة في الدهر فضلا عن أن يفعلها في كل شهر وهل القول بأن شيئاً واحداً يفعل بطبعه في الأشياء الترتيب في وقت يفعل بطبعه التجفيف في آخر ويفعل الاسخان في وقت ويفعل التبريد في آخر إلا كالقول بأن شيئاً واحداً تنقلب عيته وقتا بعد وقت . . قلت قد قالوا إن الشمس لما كانت تفعل هذه الأفاعيل بحسب صعودها وهبوطها في فلكها فإنها إذا كانت من خمسة عشر درجة من الحوت إلى خمسة عشر من الجوزاء فعلت الترتيب وهوزمان الربيع وكذلك من خمسة عشر درجة من القوس إلى خمسة عشر من الحوت تفعل التبريد وهوزمان الشتاء وهذا دورها في الفلك مرة في العام والقمر يدور في شهر واحد صارت نسبة دور القمر في الفلك كنسبة دور الشمس فيه فكانت نسبة الشهر إلى القمر كنسبة السنة إلى الشمس فالشهر يجمع الفصول الأربعة كما تجتمع السنة وما تفعله الشمس في كل تسعين يوما وكسر يفعله القمر في سبعة أيام وكسر قالوا فآخر الشهر شبيه بالشتاء وأوله شبيه بالربيع والربع الثاني من الشهر شبيه بالصيف والربع الثالث منه شبيه بالخريف فهذا غاية ما قرروا به هذا الحكم . قالوا وأما كون الشيء الواحد سبباً للضدين فقد قضا أرسطاطاليس في كتاب السماع الطبيعي على جوازها والجواب عن هذا أن الشمس ليست هي السبب الفاعل لهذه الطبائع المختلفة وإنما قربها وبعدها وارتفاعها وانخفاضها أثر في سخونة الهواء وتبريده وفي تحلل البخارات وتكاثفها فيحدث بذلك في الحيوان والنبات والهواء هذه الطبائع والكيفيات والشمس جزء السبب كما قررناه وأما القمر فلا يؤثر قرب ولا بعده وامتلاؤه ونقصانه في الهواء كما تؤثر الشمس فلو كان ذلك كذلك لسكان كل شهر من شهور العام يجمع الفصول الأربعة بطبائعها وتأثيراتها وأحكامها وهذا شيء يدفعه الحس فضلا عن النظر والمعقول وقياس القمر على الشمس في ذلك من أفسد القياس فإن الفارق بينهما في الصفة والحركة والتأثير أكثر من الجامع فالحكم على القمر بأنه يحدث الطبائع الأربعة قياسا على الشمس والجامع بينهما قطعه للفلك في كل شهر كما تقطعه في سنة لا يعتمد عليه من له خبرة بطرق الأدلة وصنعة البرهان . . وأما قولكم أن أرسطاطاليس نهى في كتابه على أن الواحد قد يكون سبباً للضدين فمجنن نذكر كلامه بعينه في كتابه وتبين ما فيه . . قال في المقالة الثانية وأيضاً فإن الواحد قد يكون سبباً للضدين فإن الشيء الذي بحضوره يكون أمر من الأمور فغيبته قد تكون سبباً لضده فيقال في ذلك

إن غيبة الربان سبب غرق السفينة وهو الذى كان حضوره سبب سلامتها فتأمل هذا الكلام وقابل بينه وبين كلامهم فى فعل القمر الامور المتضادة يظهر لك تلبيس القوم وجملهم فان نظر ذلك يوجب بطلان هذه الطبائع والكيفيات عند انقطاع تعلق القمر بهذا العالم كما بطل عمل السفينة وجريها عند غيبة الربان عنها انقطاع تعنقه بها فلم يكن الربان هو سبب الغرق الذى هو ضد السلامة كما كان القمر سببا لليبس الذى هو ضد الرطوبة وللحرارة التى هى ضد البرودة وإنما كانت أسباب الغرق غيبة أحد الاسباب التى كان الربان يمنع فعلها فلما غاب عنها عمل ذلك السبب عمله فغرقت وهذا أوضح من أن يحتاج إلى تقرير ولكن الأذهان التى قد اعتادت قبول المحالات قد يحتاج فى علاجها إلى ما لا يحتاج اليه غيرها وبالله التوفيق . . قال صاحب الرسالة وقاوا فى معرفة أحوال أمهات المدن أن ذلك يعلم من المواضع التى فيها الشمس والقمر فى أول ابتنائها ومواضع الاوتاد فهو خاصة وتد الطالع كما يفعل فى المواليذ فان لم يتوقف على الزمان الذى بنيت فيه فليُنظر إلى موضع وسط السماء فى مواليذ الولاة والملوك الذين كانوا فى ذلك الزمان الذى بنيت فيه تلك المدن . . قلت ونظير هذا من هذيانهم قولهم إنا نعرف أحوال الأب من مولد الابن إذا لم يعرف مولد الأب قالوا ان هذا الموضوع تالى فى المرتبة للطالع وهو أخص المواضع بالطالع كما أن الأب أخص الأشياء بالابن فكذلك أخص الأشياء بالملك بملكته فوضع وسط سمائه يدل على مدينته وأحوالها وكل عاقل يعلم بطلان هذه الدلالة وفسادها وأنه لا ارتباط بين طالع المدينة وطالع السلطان كما لا ارتباط بين طالع ولادة الابن وطالع ولادة أبيه وإنما هذه تشبيهات بعيدة ومناسبات فى غاية البعد . . قال صاحب الرسالة وقالوا فى معرفة حال الوالدين إن الشمس وزحل يشا كلان الآباء بالطبع ولست أدرى كيف تعقل دلالة شىء ليس بما يتوالد بطبعه على شىء من طريق التوالد لأن الأب إنما يكون أبا باضافته إلى ابنه والابن إنما يكون ابنا باضافته إلى أبيه وانهم يستدلون على حال الأولاد بالقمر والزهرة والمشتري وإن أحوال الأب تعرف من مواليذ ابنه بأن يقام موضع الكوكب الدال عليه وهو الشمس أو زحل مقام الطالع ويستدل على حال الابن من مولد أبيه بأن يقام موضع الكوكب الدال عليه وهو أحد الكواكب الثلاثة القمر والمشتري والزهرة مقام الطالع وقد يكون الانسان فى أكثر الأوقات أبا فيكون الشمس وزحل يدل عليه من مولد ابنه وله فى نفسه مولد لا محالة ويمكن أن يكون رب طالع مولده كوكبا غير الكوكبين الدالين على حاله من مولد أبيه وابنه فيكون حاله يعرف من ثلاثة كواكب وثلاثة بروج مختلفة الاشكال والطبائع وتناقض هذا القول بين لمستهمله فضلا عن متوهمه . . قلت قد قالوا فى الجواب عن هذا أنه

لانتفاض فيه بل هو حق واجب قالوا إذا أردنا أن نعرف حال سقراط مثلا من حيث هو إنسان أليس ينظر إلى ما يخص الحيوان والإنسان السكلي وإذا أردنا أن نعرف حاله من حيث هو أب أن ننظر إلى المضاف وما يلحقه وإذا أردنا أن نعرف حاله من حيث هو عالم ننظر إلى الكيفية وما يخصها والأول جوهر والباقي اعراض وسقراط واحد ونعرف أحواله من مواضع مختلفة متباينة مرة يكون جوهرها ومرة عرضا فكذلك إذا أردنا أن نعرف حاله من مولده نظرنا إلى الطالع وربّه وإذا أردنا أن نعرف حاله من مولد أبيه نظرنا إلى العاشر والشمس وكذلك إذا أردنا أن نعرف حاله من مولد ابنه نظرنا إلى موضع آخر وليس ذلك متناقضا كما أن الأول ليس متناقضا فيقال هذا تنبيه فاسد واعتبار باطل فإننا نظرنا في طالع الأب لنستدل به على حال الولد ونظرنا في الطالع لتستدلوا به على حال الأب هو استدلال على شيء واحد وحكم عليه بسبب لا يقتضيه ولا يفارقه فأين هذا من تعرف إنسانية سقراط وأبوته وعدالته وعلمه ومثلا وطبيعته فإن هذه أحوال مختلفة لها أدلة وأسباب مختلفة فنظيرها أن نعرف حال الولد من جهة سعادته وسخطه وصحته وسقمه من طالعه وحاله من جهة ما يناسبه من الأغذية والأدوية من مزاجه وحاله من جهة أفعاله وورثته من أخلاقه كالحياء والصبر والبذل وحاله من جهة اعتدال مزاجه من اعتدال أعضائه وتركيبه وصورته فهذه أحوال بحسب اختلاف أسبابها فأين هذا من أخذ حال الولد وعمره وسعادته وشقاوته من طالع أبيه وبالعكس فالتة يمين العقلاء على تليسكم ومحالكم ويثبت عليهم ما وهبهم من العقول التي رغبت بها ورغبوا بها عن مثل ما أتم عليه . . قال وزعم بطليموس أن الفلك إذا كان على شكل ما ذكره في مولد ما وكانت الكواكب في مواضع ذكرها وجب أن يكون الولد أبيض اللون سبطاً وإن وجد مولود في بلاد الحبشة والفلك متشكل على ذلك الشكل والكواكب في المواضع التي ذكرها لم يمس ذلك الحكم عليه ومضى على المولود إن كان من الصقالية أو من قرب مزاجه من مزاجهم وزعم أن الفلك إذا كان على شكل ما ذكره في مولد ما وكانت الكواكب في مواضع ذكرها فإن صاحب الولد يتزوج أخته إن كان مصريا فإن لم يكن مصريا لم يتزوجها وزعم أن الفلك إذا كان على شكل آخر ذكره في مولد من المواليد وكانت الكواكب في مواضع بينهما تزوج الولد بأمه إن كان فارسيا وإن لم يكن فارسيا لم يتزوجها . . وهذه مناقضة شنيعة لأنه ذكر علة ومعلولا يوجد بوجودها وترفع بارفعها ثم ذكر أنها توجد من غير أن يوجد معلولها . . قلت أرباب هذا الفن يقولون لا بد من معرفة الأصول التي يحكم عليها لئلا يغلط الحاكم ويذهب كلامه إن لم يعرف الأصول وهي الجنس والشريعة والأخلاق والعادات مما يحتاج المنجم أن يحصلها ثم يحكم عليها وكذلك قال بطليموس أنه يجب على المنجم النظر في صور الأبدان وخواص حالات الأنفس -

واختلاف العادات والسنن . . قال ويجب على من نظر في هذه الأشياء على المذهب الطبيعي أن يتشبت أبدأ بالأسباب الأول الصحيحة لثلا يغاط بسبب اشتباه المواليذ فيقول مثلاً أن المولود في بلاد الحبش يكون أبيض اللون سبط الشعر وأن المولود في بلاد الروم أسود اللون جعد الشعر أو يغاط أيضاً في السنن والعادات التي يخص بها بعض الأمم في الباه فيقول مثلاً أن الرجل من أهل انطاكية يتزوج بأخته وكان الواجب أن ينسب ذلك الفارسي وفي الجملة ينبغي أن يعلم أولاً حالات القضاء السكلى ثم يأخذ حالات القضاء الجزئي ليعلم منها الأمر في الزيادة والنقصان وكذلك يجب ضرورة أن يقدم في قسمة الأزمان أصناف الأسنان الزمانية وموافقها لكل واحد من الأحداث وأن يتفقد أمرها لثلا يغاط في وقت من الأوقات في الأعراض العامة البسيطة التي ينظر فيها في المواليذ فيقول أن الطفل يباشر الأعمال أو يتزوج أو يفعل شيئاً من الأشياء التي يفعلها من هو أتم سناً منه وأن الشيخ الفاني يولد له أو يفعل شيئاً من أفعال الأحداث وهذا ونحوه يدل على أن الأمور وغيرها إنما هي بحسب اختلاف العوائد والسنن والبلاد وخواص الأنفس واختلاف الأسنان والأغذية وقواها أيضاً بما فيها تأثير قوى وكذا الهواء والتربة واللباس وغيرها كل هذه لها تأثير في الأخلاق والأعمال وأكبرها العوائد والمربا والمنشأ فأحالة هذه الأمور على السكواكب والطاقع والمقارنة والمفارقة والمناظر من أبين الجهل ولهذا اضطر إمام المنجمين ومعلمهم إلى مراعات هذه الأمور وأخبر أن الحاكم بدون معرفتها والتشبت بها يكون مخطئاً وحينئذ فالطاقع المعتبر المؤثر إنما هو طالع العوائد والسنن والبلاد وخواص هيآت النفوس الإنسانية وقوى أغذية أبدانها وهوائها وتربتها وغير ذلك مما هو مشاهد بالعيان تأثيره في ذلك أفليس من أبين الجهل الأعراض عن هذه الأسباب والحوالة على حركات النجوم واجتماعها وافتراقها ومقابلتها في تربييع أو تثليث أو تسديس مما لو صح إمكان غايته أن يكون جزء سبب من الأسباب التي تقتضى هذه الآثار ثم إن لها من المقارنات والمفارقات والصوارف والعوارض ما لا يحصى المنجم القليل من عشر معشاره أفليس الحكم بمجرد معرفة جزء من أجزاء السبب بالظن والحس والتقليد لمن حسن ظنه به حكم كاذب ولهذا كذب المنجم أضعاف أضعاف صدقه بكثير حتى صدق أن بعض الزرايين وأصحاب الكشف وأرباب الفراسة والجزائين أكثر من صدق هؤلاء بكثير وما ذاك إلا لأن المجهول من جهل الأسباب وما يعارضها ويمنع تأثيرها أكثر من المعلوم منها فكيف لا يقع الكذب والخطأ بل لا يكاد يقع الصدق والصواب إلا على سبيل التصادف ونحن لا نشكر ارتباط المسببات بأسبابها كما ارتكبه كثير من المتكلمين وكابروا العيان وجهدوا الحقائق كما أنا لا نرضى بهذيانا الأحكاميين ومحالاتهم بل نشبت

الأسباب والمسببات والعلل والمعلولات ونبين مع ذلك بطلان ما يدعونه من علم أحكام النجوم
وأنها هي المدبرة لهذا العالم المسعدة المشقية المحيية المميتة المعطية للعلوم والأعمال والأرزاق
والآجال وإن نظرتم في هذا العالم موجب لكم من علم الغيب ما انفردتم به عن سائر الناس
وليس في طوائف الناس أقل علما بالغيب منكم بل أنتم أجمل الناس بالغيب على الإطلاق ومن
اعتبر حال حذقاتكم وعلماكم واعتمادهم على ملاحم مركبة من إخبارات بعض الكهان ومنامات
وفراسات وقصص متوارثة عن أهل الكتاب وغيرهم ومن ج ذلك بتجارب حصلت مع اقترانات
نجومية واتصالات كوكبية يعلم بالحساب حصولها في وقت معين فقتضيتم بحصول تلك الآثار
أو نظيرها عندها إلى أمثال ذلك من أسباب علم تقدمه المعرفة التي قد جرب الناس منها مثل
ما جربتم فصدقت تارة وكذبت تارة فغاية الحركات النجومية والاتصالات الكوكبية أن تكون
كالعلل والأسباب المشاهدة التي تأثيراتها موقوفة على انضمام أمور أخرى إليها وارتقاع موانع
تمنعها تأثيرها فهي أجزاء أسباب غير مستقلة ولا موجبة هذا لو أقمتم على تأثيرها دليلا فكيف
وليس معكم إلا الدعاوى وتقليد بعضكم بعضا واعتراف حذاقكم بأن الذي يجمل من بقية
الأسباب المؤثرة ومن الموانع الصارفة أعظم من المعلوم منها بأضعاف مضاعفة لا يدخل تحت
الوهم فكيف يستقيم لعاقل الحكيم بعد هذا وهل يكون في العالم أكذب منه . . قال صاحب
الرسالة وإذا كان الفلك متى تشكل شكلا ما دل إن كان في مولد مصرى على أنه يتزوج أخته
فذلك سنة كانت لهم وعادة وإن كان في مولد غيره لم يدل على ذلك ونحن نجد أهل مصر في
وقتنا هذا قد زالوا عن تلك العادة وتركوا تلك السنة بدخولهم في الإسلام والنصرانية واستعمالهم
أحكامهما فيجب أن تسقط هذه الدلالة من موايدهم لزوالهم عن تلك العادة أو تكون الدلالة
توجب ذلك في مولد كل أحد منهم ومن غيرهم أو تسقط الدلالة وتبطل بزوال أهل مصر عما كانوا
عليه وكذلك جمهور أهل فارس وأى ذلك كان فهو دال على قبيح المناقضة وشدة المغالطة وقد
رأيت وجههم بطليموس يقول في كتابه المعروف بالأربعة فيحدث كذا وكذا توهمنا أنه يكون
كذا وكذا قلت الذى صرح به بطليموس إن علم أحكام النجوم بعد استقصاء معرفة ما ينبغى
معرفة إن ما هو على جهة الحدس لا العلم واليقين فمن ذلك قوله هذا وبالجملة فإن جميع علم حال هذا
العنصر إنما يستقيم أن يلحق على جهة الظن والحدس لا على جهة اليقين وخاصة منه ما كان مركبا
من أشياء كثيرة غير متشابهة قال شارح كلامه وإنما ذهب إلى ذلك لأن الأفعال التي تصدر
عن الكواكب إنما هي بطريق العرض وإنما لا تفعل بذواتها شيئا والدليل على ذلك قوله في الباب
الثاني من كتاب الأربعة وإذا كان الإنسان قد استقصى معرفة حركة جميع الكواكب والشمس
والقمر حتى أنه لا يذهب عليه شئ من المواضع والأوقات التي تحدث لها فيها الأشكال وكانت عنده

معرفة بطبائعها قد أخذها عن الأخبار المتواترة التي تقدمته وإن لم يعلم طبائعها في نفس جواهرها لكن يعلم قواها التي تفعل بها كالعلم بقوة الشمس أنها تسخن وكالعلم بقوة القمر أنها ترطب وكذلك يعلم أمر قوى سائر الكواكب وكان قويا على معرفة أمثال سائر هذه الأشياء لا على المذهب الطبيعي فقط لكن يمكنه أيضا أن يعلم بجودة الحدس خواص الحال التي تكون من امتزاج جميع ذلك . . قال الشارح وبطليموس يرى أن علم الأحكام إنما يلحق على جهة الحدس لا على جهة اليقين قلت وكذلك صرح أرسطاطاليس في أول كتابه السماع الطبيعي أنه لا سبيل إلى اليقين بمعرفة تأثير الكواكب فقال لما كانت حال العلم واليقين في جميع السبل التي لها مبادئ أو أسباب أو استقصاءات إنما يلزم من قبل المعرفة بهذه فإذا لم تعرف الكواكب على أي وجه تفعل هذه الأفاعيل أعني بذاتها أو بطريق العرض ولم تعرف ماهيتها وذواتها لم تكن معرفتنا بالشيء أنه يفعل على جهة اليقين . . وهذا ثابت ابن قرة وهو هو عندهم يقول في كتاب ترتيب العلم وأما علم القضاء من النجوم فقد اختلف فيه أهله اختلافا شديداً وخرج فيه قوم إلى ادعاء مالا يصح ولا يصدق بما لا اتصال له بالأمور الطبيعية حتى ادعوا في ذلك ما هو من علم الغيب ومع هذا فلم يوجد منه إلى زماننا هذا قريب من التمام كما وجد غيره هذا لفظه مع حسن ظنه به وعدله في العلوم . . وهذا أبو نصر الفارابي يقول واعلم أنك لو قلبت أوضاع المنجمين جعلت السعد نحساً والنحس سعدا والحر بارداً والبارد حاراً والذكر أنثى والأنثى ذكراً ثم حكمت لكأنك أحكامك من جنس أحكامهم تصيب تارة وتخطئ تارة . . وهذا أبو علي بن سينا قد أتى في آخر كتابه للشفاء في رد هذا العلم وإبطاله بما هو موجود فيه وقرأت بخط رزق الله المنجم وكان من زعمائهم في كتاب المقاييس لأنى حيان التوحيدى مناظرة دارت بين جماعة من فضلائهم جمع جمعهم بعض المجالس فذكرتها مختصرة مالا يتعلق بها بل ذكرت مقاصدها . . قال أبو حيان هذه مقاييس دارت في مجلس أبي سليمان محمد بن ظاهر بن بهرام السجستاني وعنده أبو زكريا الصيمرى والبوشجاني أبو الفتح وأبو محمد العروضى وأبو محمد المقدسى والقوطى وغلانم زحل وكل واحد من هؤلاء إمام في شأنه فرد في صناعته فقيل في المجلس لم خلا علم النجوم من الفائدة والثمرة وليس علم من العلوم كذلك فإن الطب ليس على هذه الحال ثم ذكرت قائده والمنفعة به وكذلك الحساب والنحو والهندسة والصنائع ذكرت وذكرت منافعها وثمراتها ثم قال السائل وليس علم النجوم كذلك فإن صاحبه إذا استقصى وبلغ الحد الأقصى في معرفه الكواكب وتحصيل سيرها واقترانها ورجوعها ومقابلتها وتربيعها وتثليثها وتسديسها وضروب مزاجها في مواضعها من بروجها وأشكالها ومطالعها ومعاطفها ومغاربها ومشارقها ومذاهبها حتى إذا

حكم أصاب وإذا أصاب حقق وإذا حقق جزم وإذا جزم حتم فإنه لا يستطيع البتة قلب شيء عن شيء ولا صرف شيء عن شيء ولا تبعيد حال قد دنت ولا نفي خلة قد كتبت ولا رفع سعادة قد حمت وأظلت أعنى أن امرءاً لا يقدر على أن يحمل الإقامة سفراً ولا الهزيمة ظفراً ولا العقد حلاً ولا الإبرام نقضاً ولا اليأس رجاءً ولا الإخفاق دركاً ولا العدو صديقاً ولا الولي عدواً ولا البعيد قريباً ولا القريب بعيداً فكان العالم به الحاذق المنتاهي في خفياته بعد هذا التعب والنصب وبعد هذا السكد والدأب وبعده هذه السكفة الشديدة والمعرفة الغليظة هو ملتزم بالمقدار مستجد لما يأتي به الليل والنهار وعادت حانه مع عليه الكثير إلى حال الجاهل بهذا العلم الذي انقياده كانقياده واعتباره كاعتباره ولعل توكل الجاهل أحسن من توكل العالم به ورضاه في الخير المشتبه ونجاته من الشر المتقى أقوى وأصح من رجاء هذا المدل بزيجه وحسابه وتقويمه واسطرلابه ولهذا لما لقي أبو الحسين النورى مانيا المنجم قال له أنت تخاف زحل وأنا أخاف رب زحل وأنت ترجو المشتري وأنا أعبد رب المشتري وأنت تعدو بالإشارة وأنا أعدو بالاستخارة فكم بيننا وهذا أبو شروان وكان من الملوك الأفاضل كان لا يرفع بالنجوم رأساً فقيل له في ذلك فقال صوابه يشبه الحدس وخطأه شديد على النفس فتى أفضى هذا الفاضل التحريير والحاذق البصير إلى هذا الحد والغاية كان عليه عارياً من الثمرة خالياً من الفائدة حائلاً عن النتيجة بلا عائدة ولا مرجوع وإن أمراً أوله على ماقرناه وآخره على ما ذكرناه لحرى أن لا يشغل الزمان به ولا يوهب العمر له ولا يعار لهم والسكد ولا يعاج عليه بوجه ولا سبب هذا ان كانت الأحكام صحيحة مدركة محققة ومصابة ملحقة معروفة محصلة ولم يكن المذهب على ما زعم أرباب الكلام والذين يأبون تأثير هذه الاجرام العالية في الاجسام السافلة وينفون الوسائط بينهما والوصائل ويدفعون الفواعل والقوابل تم السؤال . . فأجاب كل من هؤلاء بما سنع له فقال قائل منهم عن هذا السؤال المهول جوابان . . أحدهما هو زجر عن النظر فيه لثلاث يكون هذا الإنسان مع ضعف تجربته واضطراب غريزته وضعف بنيته علا على ربه شريكاً له في غيبه متكبراً على عباده ظاناً بأنه فيما يأتي من شأنه قائم بجده وقدرته وحوله وقوته وتشميره وتقليصه وتهجيريه وتقريبه فإن هذا النمط يحجز الإنسان عن الخشوع الخالقه والإذعان لربه ويبعده عن التسليم لمدره ويحول بينه وبين طرح الكاهل بين يدي من هو أملك له وأولى به . . وأما الجواب الآخر فهو بشرى عظيمة على نعمة جسيمة لمن حصل له هذا العلم وذلك سرلو اطلع عليه وغيب لو وصل إليه لكان ما يجده الإنسان فيه من الروح والراحة والخير في العاجلة والآجلة تكفيه مؤنة هذا الخطب القادح وتغنيه عن تجشم هذا السكد السكادح فاجعل أيها المنكر لشرف هذا العلم

قبل عينك ماتخفي عليك خفيه ومكشونه تذلالا لله تقُدس اسمه فيما استبان لك معلومه
ووضح عندك مظلونه ثم قال أعلم أن العلم به حق ولكن الإصابة بعيدة وليس كل بعيد محالا
ولا كل قريب صوابا ولا كل صواب معروفا ولا كل محال موصوفا وإنما كان العلم حقا
والاجتهاد فيه مبلغا والقياس فيه صوابا وبذل السعى دونه محموداً لاشتغال هذا العالم السفلي
بذلك العالم العلوي واتصال هذه الأجسام القابلة بتلك الأجسام الفاعلة واستحالة هذه الصور
بحركات تلك المحركات المشاكلة بالوحدة وإذا صح هذا الاتصال والتشابك وهذه الحبال
والروابط صح التأثير من العلوي وقبول التأثير من السفلي بالمواضع الشعاعية وبالمنسليات
الشكلية والأحوال الخفية والجلية وإذا صح التأثير من المؤثر وقبوله من القابل صح الاعتبار
واستنب القياس وصدق الرصد وثبت الإلف واستحكمت العادة وانكشفت الحذر ودانشالت
العمل وتعاضدت الشواهد وصار الصواب غامراً والخطأ مغموراً والعلم جوهرأ راسخا والظن
عرضا زائلا . . . فقيل هل تصح الأحكام أم لا فقال الأحكام لا تصح بأسرها ولا تبطل
من أصلها وذلك سبب يتبين إذا أنعم النظر وبسط الإصغاء وصد نحو الفائدة بغير متابعة
الهوى وإيثار التعصب ثم قال الأمور الموجودة على ضربين ضرب له الوجود الحق وضرب
له الوجود ولكن ليس الوجود الحق فأما الأمور الموجودة بالحق فقد أعطت الأخرى نسبة
من جهة الوجود الحق وأما الأمور الموجودة لا بالحق فقد أعطت الأخرى نسبة من جهة
الوجود وارتجعت منها حقيقية ذلك فالحكم بالاعتبار الفاحص عن هذه الأسرار إن أصاب
فبسبب الوجود الذي هو هذا العالم السفلي من ذلك العالم العلوي وإن أخطأ فبأفات هذا
العالم السفلي من ذلك العالم العلوي والإصابة في هذه الأمور السيمالة المتبدلة عرض والإصابة
في أمور الفلك جوهر وقد يكون هناك ما هو كالخطأ ولكن بالعرض لا بالذات كما يكون
ههنا لاهو بالصواب والحق ولكن بالعرض لا بالذات فلهدا صح بعض الأحكام وبطل بعضها
ومما يكون شاهداً لهذا أن هذا العالم السفلي مع تبدله في كل حالة واستحالاته في كل طرف
ولمح متقبل لذلك العالم العلوي يتحرك شوقاً إلى كماله وعشقا لجماله وطلباً للتشبه به وتحققاً بكل
ما أمكن من شكله فهو بحق التقبل معط هذا العالم السفلي ما يكون به مشابها للعالم العلوي
وبهذا التقبل يقبل الإنسان الناقص الكامل ويقبل الكامل من البشر الملك ويقبل الملك
البارى جل وعز . . . قال آخر وإنما وجب هذا التقبيل والتشبه لأن وجود هذا العالم وجود
متفاوت مستحيل لا صورة له ثابتة ولا شكل دائم ولا هيئة معروفة وكان من هذا الوجه فقيرا
إلى ما يمدد ويشده فأما مسحه فهو موجود وثابت مقابل لذلك العالم الموجود الثابت وإنما
عرض ما عرض لأن أحدهما مؤثر والآخر قابل فيحقق هذه المرتبة ما وجد التواصل . . . وقال

آخر قد يغفل مع هذا كله المنتجم اعتبار حركات كثيرة من اجرام مختلفة لانه يعجز عن نظمها وتقويمها ومزجها وتسييرها وتفصيل أحوالها وتحصيل خواصها مع بعد حركة بعضها وقرب حركة بعضها وبطنها وسرعتها وتوسطها والتفاف صورها والتباس تقاطعها وتداخل أشكالها ومن الحكمة في هذا الإغفال أن الله تقديس اسمه يتم بذلك القدر المقفل والقليل الذي لا يؤبه والكثير الذي لا يحاول البحث عنه أمرؤلم يكن في حساب الخلق ولا فيما أعملوا فيه القياس والتقدير والتوهم ولهذا يحكم هذا الخاذق في صناعته لهذا الملك وهذا الماهر في عمله لهذا الملك ثم يلتقيان فتكون الدائرة على أحدهما مع شدة الوقاع وصدق المصاع هذا وقد حكم له بالظفر والغلب . . وقال آخر وهو البوشنجاني إنما يؤتى أحد الحاكمين لأحد السائنين لا من جهة غايط يكون في الحساب ولا من قلة مهارة في العمل ولكن يكون في طالع أن لا يصيب في ذلك الحكم ويكون في طالع الملك أن لا يصيب منجمه في تلك الحرب فقتضى حاله وحال صاحبه يحول بينه وبين الصواب ويكون الآخر مع صحة حسابه وحسن إدراكه قد وجب في طالع نفسه وطالع صاحبه ضد ذلك فيقع الأمر الواجب ويبطل الآخر الذي ليس بواجب وقد كان المنتجمان من جهة العلم والحساب أعطيا للصناعة حقها ووفيا ما عليهما ووقفا موقفا واحداً على غير مزية بينة ولا علة قائمة . . قال آخر ولولا هذه البقية المندفنة والغاية المستترة التي استأثر الله بها لكان لا يعرض هذا الخطأ مع صحة الحساب ودقة النظر وشدة الغوص وتوفى المطلوب ومع غلبة الهوى والميل إلى المحكوم له وهذه البقية دائرة في أمور هذا الخلق فاضلهم وناقصهم ومتوسطهم في دقيقتها وجليلها وصعبها ومن كان له في نفسه باعث على التصفح والنظر والبحث والاعتبار وقف على ما أوامت إليه وسلم وبحكمة جليلة ضرب الله دون هذا العلم بالاسداد وطوى حقائقه عن أكثر العباد وذلك أن العلم بما سيكون ويحدث ويستقبل علم حلو عند النفس وله موقع عند العقل فلا أحد إلا وهو يتخى أن يعلم الغيب ويطلع عليه ويدرك ماسوف يكون في غد ويجد سبيلا إليه ولو ذلل السبيل إلى هذا الفن لرأيت الناس يهرعون إليه ولا يؤثرون شيئاً آخر عليه لحلاوة هذا العلم عند الروح ولصوقه بالنفس وغرام كل أحد به وقتنة كل إنسان فيه فبنعمة من الله لم يفتح هذا الباب ولم يكشف دونه الغطاء حتى يرتقى كل أحد روضه ويلزم حده ويرغب فيما هو أجدى عليه وأنفع له إما عاجلاً وإما آجلاً فطوى الله عن الخلق حقائق الغيب ونشر لهم نبأاً منه وشيئاً يسيراً يتعلمون به لئلا يكون هذا العلم محروصاً عليه كسائر العلوم ولا يكون مانعاً من غيره قال فلولا هذه البقية التي فضحت الكاملين وأعجزت القادرين لكان تعجب الخلق من غرائب الأحداث وعجائب الصروف وطرائف الأحوال عبثاً وسفهاً

وتوكلهم على الله هوأ ولعياً . . فقال آخر وهذا يتضح بمثال وليكن المثال أن ملكاً في زمانك
وبلادك واسع الملك عظيم الشأن بعيد الصيد سابق الهيمية معروف بالحكمة مشهوراً بالحزم
يضع الخير في مواضعه ويوقع الشر في مواقعه عنده جزء كل سيئة وثواب كل حسنة قد
رتب إريده أصلح الأولياء له وكذلك نصب لجباية أمواله أقوم الناس بها وكذلك ولى
عمارة أرضه أنهض الناس بها وشرف آخر بكتابتة وآخر بوزارته وآخر بزيايته فإذا نظرت
إلى ملكه وجدته مؤزراً بسداد الرأي ومحمود التدبير وأولياؤه حوالية وحاشيته بين يديه وكل
يخف إلى ما هو منوط به ويستقصى طاقته ويبذل فيه والملك يأمر وينهى ويصدر ويورد
ويشيب ويعاقب وقد علم صغير أوليائه وكبيرهم ووضع رعاياه وشريفهم ونبه الناس
وخاملهم أن الأمر الذى تعلق بكذا وكذا صدر من الملك إلى كاتبه لأنه من جنس الكتابة
وعلاقتها وما يدخل في شرائطها ووثائقها والأمر الآخر صدر إلى صاحب بريده لأنه من
أحكام البريد وقنونه والأمر الآخر ألقى إلى صاحب المعونة لأنه من جنس ما هو مرتب
له منسوب من أجله والحديث الآخر صدر إلى القاضى لأنه من باب الدين والحكم والفصل
وكل هذا مسلم إلى الملك لا يفئات عليه فى شىء منه ولا يستبد بشىء منه فبالأحوال على هذا
كلها جارية على أصولها وقواعدها فى مجاريها لا يرد شىء منها إلى غير شكله ولا يرتقى
إلى غير طبقته فلو وقف رجل له من الحزم نصيب ومن اليقظة قسط على هذا الملك الجسم
وتصفح أبوابه باباً باباً وحالاً حالاً وتخلل بيتاً بيتاً ورفع سجفاً سجفاً لا يمكنه أن يعلم بما
يشمره له هذا النظر وميزه له هذا القياس وأوقعه عليه هذا الحدس ما سيفعله هذا الملك غداً
وما يتقدم به إلى شهر وما يكاد يكون منه إلى سنة وستين لأنه يعانى الأحوال ويقايس
بينها ويلتقط ألفاظ الملك ولحظاته وإشاراته وحركاته ويقول فى بعضها رأيت الملك يفعل
كذا وكذا ويفعل كذا وكذا وهذا يدل على كذا وكذا وإنما جراه هذه الجرأة على هذا الحكم
والبت أنه قد ملك لحظ الملك ولفظه وحركته وسكونه وتعريضه وتصريحه وجده وهزله
وشكاه وسجيته وتجعده واسترساله ووجومه ونشاطه وانقباضه وانبساطه وغضبه ورضاه
ثم هجس فى نفس هذا الملك هاجس وخطر بياله خاطر فقال أريد أن أعمل عملاً وأوثر
أثراً وأحدث حالاً لا يقف عليها أوليائى ولا المطيعون لى ولا المختصون بقولى ولا
المتعلقون بحبالى ولا أحد من أعدائى المتتبعين لأمرى والمحصين لأنفاسى ولا أدرى كيف افتتحه
ولا اقترحه لأنى متى تقدمت فى ذلك إلى كل من يلوذنى ويطوف بناحتى كان الأمر فى ذلك
نظير جميع أمورى وهذا هو الفساد الذى يلزمنى تجنبه ويجب على التيقظ فيه فيقدح له
الفكر الثاقب أنه ينبغى أن يتأهب للصيد ذات يوم فيتقدم بذلك ويذيعه فيأخذ أصحابه

وخاصته في أهبة ذلك واعداد الآلة فإذا تكامل ذلك له أصحح للصيد وتقاب في البيداء
وصمم على ما يلوح له وأمعن وراهه وركض خلفه جواده ونهى من معه أن يتبعه حتى إذا
وغل في تلك الفجاج الخاوية والمدارج المتناثية وتباعده عن متن الجادة ووضع المحجة
صادف أنسانا فوقه وحاوره وفأوضه فوجده حصينا محصلا يتقدمهما فقال له أفيك خير
فقال نعم وهل الخير إلا في وعندى وإلامعنى اتق إلى ما بدالك وخلتى وذلك فقال له إن
الواقف عليك المكلّم لك منك هذا الإقليم فلا ترع وأهد أفعال السعادة قيصنتى لك والجد
أطلعك على فيقول له الملك أنى أريد أن أطلعك لأرب فى نفسى وأبلغ بك إن بلغت لى
ذلك أريد أن تكون عينا لى وصاحبيا لى نصوحا وأطوى سرى عن سلخ فؤادك فضلا عن
غيره فإذا بلغ منه التوثقة والتوكيد ألقى إليه ما يأمره به ويحثه على السعى فيه وأزاح علقته
فى جميع ما يتعلق المراد به ثم نبى عنان دابته إلى وجهه عسكريه وأولياته والحق بهم قفضى وطره
ثم عاد إلى سريره وليس عند أحد من رهطه وبطانته وغاشيته وخاصته وعامته علم بما قد أسره
إلى ذلك الإنسان فيبينما الناس على مكانهم وغفلاتهم إذ أصبحوا ذات يوم فى حادث عظيم
وخطب جسيم وشأن هائل فبكل يقول ذلك عند ذلك ما أعجب هذا من فعل هذا متى
تهميا هذا هذا صاحب البريد ليس عنده منه أثر هذا صاحب المعونة وهو عن الخبر بمعزل
وهذا الوزير الأكبر وهو متحير وهذا القاضى وهو متفكر وهذا حاجبه وهو ذاهل
وكلمهم عن الأمر الذى دهم غافل وقد قضى الملك مأربته وأدرك حاجته وطلب بغيته ونال
غرضه فلذلك ينظر المنجم إلى زحل والمشتري والمريخ والشمس والقمر وعطارد والزهرة
وإلى البروج وطبائعها والرأس والذنب وتقاطعها والهبلاج والسكامداه وإلى جميع
مادانى هذا وقاربه وكان له فيه نتيجة وثمرة فيحسب ويمزج ويرسم فيثقلب عليه أشياء
كثيرة من سائر السكواكب التى لها حركات بطيئة وآثار مطوية فينبعث فيما أهمله وأغفله
وأضرب عنه لم يتسع له ما يملك عليه حسه وعقله وفكره ورويته حتى لا يدري من أين أتى
ومن أين دهمى وكيف انفرج عليه الأمر وأنسد دونه المطلب وفات المطلوب وعزب
عنه الرأى هذا ولا خطأ له فى الحساب ولا نقص فى قصد الحق وهذا كى يلاذ
بالله وحده فى الأمور كلها ويعلم أنه مالك الدهور ومدبر الخلائق وصاحب الدواعى
والمعالاتق والقائم على كل نفس والحاضر عند كل نفس وأنه إذا شاء نفع وإذا شاء ضر وإذا
شاء عافا وإذا شاء أسقم وإذا شاء أغنى وإذا شاء أفقر وإذا شاء أحميا وإذا شاء أمات وأنه
كاشف الكربات مغيث ذوى اللهفات قاضى الحاجات مجيب الدعوات ليس فوق يده يد وهو
الأحد الصمد على الأبد والسرمد . وقال آخر هذه الأمور وإن كانت منوطة بهذه العلويات

مربوطة بالفلكيات عنها تحدث ومن جهتها تنبعث فإن في عرضها مالا يستحق أن ينسب إلى شيء منها إلا على وجه التقريب ومثال ذلك ملك له سلطان واسع ونعمة جمّة فهو يفرّد كل أحد بما هو لائق به وبما هو ناهض فيه فيولى بيت المال مثلاً خازناً أميناً كافياً شهماً يفرق على يده ويخرج على يده ثم إن هذا الملك قد يضع في هذه الخزانة شيئاً لا علم للخازن به وقد يخرج منها شيئاً لا يقف الخازن عليه ويكون هذا منه دليلاً على ملكه واستبداده وتصرفه وقدرته . . . وقال آخر لما كان صاحب علم النجوم يريد أن يقف على أحداث الزمان ومستقبل الوقت من خير وشر وخصب وجذب وسعادة ونحس وولاية وعزل ومقام وسفر وغم وفرح وفقر ويسار ومحبة وبغض وجدة وعدم ووجدان وعافية وسقم وإلفة وشتات وكساد ونفاق وإصابة وإخفاق وحياة ومات وهو إنسان ناقص في الأصل لأن نقصانه بالطبع وكاله بالعرض ومع هذه الحال المحوطة بالنسخ المعروفة بالظن قد يرى بارئته ونازع ربه وتتبع غيبه وتحلل حكمه وعارض ماله فخرمه الله فائدة هذا العلم وعرفه عن الانتفاع به والاستثمار من شجرته وإضافه إلى من لا يحيط بشيء منه ولا يخجل بشيء فيه ونظمه في باب القسر والقهر وجعل غاية سعيه فيه الخيبة ونهاية علمه به الخيرة وسلط عليه في صناعته الظن والحدس والحيلة والزرق والكذب والختل ولو شئت لذكرت لك من ذلك صدراً وهو مشهور في السكتب ومنشور في المجالس ومتداول بين الناس فلذلك وأشباهه حط رتبته وردّه على عقبيه ليعلم أنه لا يعلم إلا ما علم وأنه ليس له أن يتخطى بما علم على ما جهل فإن الله سبحانه لا شريك له في غيبه ولا وزير له في ربه وبه وأنه يؤنس بالعلم ليطاع ويعبد ويوحش بالجهل ليفزع إليه ويقصد عز ربنا وجل إلهاً وتقدس مشاراً إليه وتعالى معتمداً عليه . . . وقال آخر وهو العروضي قد يقوى هذا العلم في بعض الدهر حتى يشغف به ويدان بتعلمه بقوة سماوية وشكل فلسفي فيكثر الاستنباط والبحث وتشتد العناية والفكر فتغلب الإصابة حتى يزول الخطأ وقد يضعف هذا العلم في بعض الدهر فيكثر الخطأ فيه بشكل آخر يقتضى ذلك حتى يسقط النظر فيه ويحرم البحث عنه ويكون الدين حاضر الطالب والحكم به وقد يعتدل الأمر في دهر آخر حتى يكون الخطأ في قدر ذلك الصواب والصواب في قدر الخطأ وتكون الدواعي والصوارف متكاثرة ويكون الدين لا يحث عليه كل الحث ولا يحظر على طالبه كل الحظر قال وهذا إذا صح تعلق الأمر كله بما يتصل بهذا العالم السفلي من ذلك العالم العلوي فإذا الصواب والخطأ محمولان على القوى المثبتة والأنوار الشائنة والآثار الذائنة والعلل الموجبة والأسباب المتوافية. وقال آخر وهو البوشنجاني أيها القوم اختصروا الكلام وقرّبوا البقية فإن الإطالة مصدرة عن الفائدة مضلة للفهم والفتنة هل تصح الأحكام . . . فقال غلام زحل ليس عن هذا جواب

يثبت على كل وجه فصل ولم بين ذلك قال لأن صحتها وبطلانها يتعلقان بآثار الفلك وقد يقتضى شكل الفلك في زمان أن لا يصح منها شيء وأن غيص على دقائقها وبلغ إلى أعماقها وقد يزول ذلك الشكل في وقت آخر إلى أن يكثر الصواب فيها والخطأ ويتقاربان ومتى وقف الأمر على هذا الحد لم يثبت على قضاء ولم يوثق بجواب .. وقال آخر أن الله تعالى وتقدس اخترع هذا العالم وزينه ورتبه وحسنه ووشحه ونظمه وهذبه وقومه وأظهر عليه البهجة وأطن في أثنائه الحكمة وحفه بما اضطر العقول إلى تصفحه ومعرفة وحشاه بكل ما حاش النفوس إلى علمه وتعليمه والتعجب من أعاجيبه وأمتع الأرواح بحجاسنه وأودعه أمورا واستحزنه أسرارهم حرك الأبواب عليها حتى استثارها ولقطنها وأحبها وعشقتها ودارت عليها لأنها عرفت بها ربهما وخالقهما وإلهما وواضعها وصانعها وحافظها وكافلها ثم أنه تعالى مزج بعض ما فيه ببعض وركب بعضه على بعض ونسج بعضه في بعض وأمد بعضه من بعض وأحال بعضه إلى بعض بوسائل من أشخاص وأجناس وطبائع وأنفس وعلوم وعقول وتصرف في ملكه بقدرته وجوده وحكمته لا معيب الفضل ولا معدوم الإختيار ولا مردود الحكمة ولا مجرود الذات ولا محدود الصفات سبحانه وهو مع هذا كله لم يستفد شيئا ولم ينتفع بشيء بل استفاد منه كل شيء وانتفع به كل شيء وبلغ غايته كل شيء بحسب مادته المتفاداة وصورته المعتادة ولم يثبت بشيء وثبت به كل شيء فهو الفاعل القادر الجواد الواهب والمنيل المفضل والأول السابق فلما كان الباحث عن العالم العلوى يتصفح سكانه ومعرفة آثاره ومواقفه وأسراره متعرضا لأن يكون مثبتا لها لبارئته مناسبة لربه بهذا الوجه المعروف استحجال أن يستفيد بعلمه كما استحجال أن يستفيد خالقه بفعله لمن يقصد لصبوه وحكمه لزمه كليته بدت منه وصفته عادت عليه وهذه حال إذا فطن لها وأشرف ببصيرة ناقبة عليها وتحقق بحقيقتها وترقى للخبرة بسنى ما فيها علم اضطرارا عقليا أنها أجل وأعلى وأنفس وأسمى وأدوم وأبقى من جميع فوائد سابق العلوم التي حازها أولئك العاملون لأن علم أولئك فوائد علومهم فيما حفظ عليهم حد الإنسان وخلقه وعاداته وخلقه وشهوته وراحته في اجتلاب نفع ودفع ضرر ونقصت رتبهم عن مشابته ومناسبته والتشبه بخاصته والتجلى بحليته ولذلك جبر الله نقصهم في علمهم بفوائد نالوها ومنافع خبروها فأما من أراد معرفة هذه الخفايا والأسرار من هذه الاجرام والأنوار على ما هيأت له ونظمت عليه فهو حري جدير أن يعرى من جميع ما وجده صاحب كل علم في علمه من المرافق والمنافع ويفرد بالحكم من رتبها على ما هي عليه غير مستفيد بذلك فائدة ولا جدوى وهذه لطيفة شريفة متى وقف عليها حق الوقوف وتقبلت حق التقبل كان المدرك لها أجل من كل فائت وإن عز

لأنها بشرية صارت إلهية وجسمية استحالت روحانية وطينية انقلبت نورية ومركب عاد بسيط وجزء استحال كلا وهذا أمر قلما يهتدى إليه ويتنبه عليه . . وقال آخر وهو أبو سلمان المنظمي وقد سأله أبو حيان تليذه عن هذه الأجوبة وما فيها من حق وباطل أن ههنا أنفسا خبيثة وعقولا ردية ومعارف خسيصة لا يجوز لأربابها أن ينشقوا ريح الحكمة أو يتناولوا إلى غرائب الفلسفة والنهي ورد من أجلمهم وهو حق فأما النفوس التي قوتها الحكمة وبلغتها العلم وعدتها الفضائل وعقدتها الحقائق وذخرها الخيرات وعادتها المسكارم وهمتها المعالي فإن النهي لم يوجه إليها والعتب لم يوقع عليها وكيف يكون ذلك وقد بان بما تكرر من القول أن فائدة هذا العلم أجل فائدة وثمرته أجل ثمرة وتديجته أشرف نتيجة فليكن هذا كله كافا عن سوء الظن وكافيا لك فيما وقع فيه القول وطال بين هؤلاء السادة الجحاحجة في العلم والفهم والبيان والنصح انتهت الحكاية فليتأمل من أنعم الله عليه بالعقل والعلم والإيمان وصانه عن تقليد هؤلاء وأمثالمهم من أهل الحيرة والضلال ما في هذه المحاوررة وما انطوت عليه من اعترافهم بغاية علمهم ومستقر أقدامهم فيه وما حكموا به على أنفسهم من مقتضى حكمة الله فهم أن يسلمهم ثمرات علوم الناس وفوائدها وأن يكسبهم لباس الخيبة وقهر الناس لهم وإذلالهم إياهم وأن يجعل نصيب كل أحد من العلم والسعادة فوق نصيبهم وأن يجعل رزقهم من أبواب الكذب والظن والزرق وهو أخيث مكاسب العالم ومكسب البغايا وأرباب المواخير خير من مكاسب هؤلاء لأنهم كسبوا بذنوب وشهوات وهؤلاء اكتسبوا ما اكتسبوه بالكذب على الله وادعاء ما يعلمون هم فيه كذب أنفسهم . . والعجب من شهادتهم على أنفسهم أن حكمة الله سبحانه اقتضت ذلك فيهم لتعاطيهم مشاركته في غيبه والاطلاع على أسرار مملكته وتعميدهم طور العبودية التي هي سمتهم إلى طور الربوبية الذي لم يجعل لأحد سبيلا إليه فاقتضت حكمة العزيز الحكيم إن عاملهم بنقيض قصودهم وعكس مراداتهم وجعل كل واحد فوقهم في كل ملة ورعى الناس باللسان العام والخاص لهم بأنهم أكذب الناس فإنهم هم الزنادقة الدهرية أعداء الرسل وسوس المال وأن طالعبهم على من حسن الظن بهم وتقييد بأحكامهم في حركاته وسكناته وتدييره شر طالع والملك والولاية المسوس بهم أذل ملك وأقله ومن له شيء من تجارب الأمم وأخبار الدول والوزراء وغيرهم فعنده من العلم بهذا ما ليس عند غيره ولهذا الملوك والخلفاء والوزراء الذين لهم قبول في العالم وضيت ولسان صدق هم أعداء هؤلاء الزنادقة كالمنصور والرشيد والمهدي وكخلفاء بني أمية وكملوك المؤيدين في الإسلام قديما وحديثا كانوا أشد الناس إبعاد هؤلاء عن أبوابهم ولم تقم لهم سوق في عهدهم إلا عند أشباههم ونظرائهم من كل منافق متمسك بالإسلام أو جاهل مفرط

في الجهل أو ناقص العقل والدين وهؤلاء المذكورون في هذه المحاوره لما صحوا و خلا بعضهم
بعض ولم يمكنهم أن يعتمدوا من التلبيس والكذب والزرق مع بعضهم بعضا ما يعتمدونه مع
غيرهم تكلموا بما عندهم في ذلك من الاعتراف بالجهل وأن الأمر إنما هو حدس وظن و زرق
وأن أحوال العالم العلوى أجل وأعظم من أن تدخل تحت معارفهم وتكال بقفزان عقولهم
وأن جهلهم بذلك يوجب ولا بد جهلهم بالأحكام وأنهم لا وثوق لهم بشيء مما فيه لجواز
تشكل الفلك بشكل يقتضى بطلان جميع الأحكام وتشكله بشكل يكون بطلانها وصحتها
بالنسبة إليه على السواء وليس لهم علم بانتفاء هذا الشكل ولا بوقت حصوله فإنه ليس جاريا
على قانون مضبوط ولا على حساب معروف ومع هذا فكيف ينبغي لعاقل الوثوق بشيء من
علم أحكامهم وهذه شهادة فضلائهم وأئمتهم ولو أن خصومهم الذين لا يشاركونهم في صناعتهم
قالوا هذا القول لم يكن مقبولا كقبوله منهم والحمد لله الذى أشهد أهل العلم والإيمان جمل
هؤلاء وحيرتهم وضلالهم وكذبهم واقترنهم بشهادتهم على نفوسهم وعلى صناعتهم وإن
استفاد كل ذى علم بعمله وكل ذى صناعة بصناعته أعظم من استفادتهم بعلمهم وأن أحدا
منهم لا يمكنه أن يعيش إلا في كنف من لم يحط من هذا العلم بشيء وتحت ظل من هو أجمل
الناس ومن العجب قولهم أن طالع أحد المملكين المتغالبين قد يكون مقتضيا أن لا يصيب منجمه
في تلك الحرب وطالع المنجم يقتضى خطأه في ذلك الحكم وطالع خصمه ومنجمه بالصد فليعجب ذر
اللب من هذا الهذيان وتهافته فإذا كان الطالع مقتضيا أن لا يصيب المنجم في تلك الحرب وقد
أعطى الحساب والحكم حقه عند أرباب الفن بحيث يشهد كل واحد منهم أن الحكم ما حكم
به أفليس هذا من أبين الدلائل على بطلان الوثوق بالطالع وأن الحكم به حكم بغير علم وحكم
بما يجوز كذبه فما في الوجود أعجب من هذا الطالع الصادق الكاذب المصيب الخطيء وأعجب
من هذا أن الطالع بعينه يكون قد حكم به لظفر عدو هذا عليه منجمه فوافق القضاء
والقدر ذلك الطالع وذلك الحكم فيكون أحد المنجمين قد أصاب للملك طالعا وحكما
والآخر قد أخطأ للملك وقد خرجا بطالع واحد وأعجب من هذا كله تشكل الفلك بشكل
وحصول طالع سعد فيه باتفاق ملاكم فيحدث معه من علو كفة من لا يعنون به ولا يعدونه
وظهور أمرهم واستيلائهم على المملكة والرئاسة والعز والحياة ولهبهم بذمكم وعيبكم وإبداء
جهلكم وزندقكم وإلحادكم محتاجون أن تنضوا إليهم وتعصموا بحبلهم وتترسوا بهم
وتقولون لهم بالسنتكم ما تنطوى قلوبكم على خلافه مما لو أظهرتموه لكنتم حصاد سيوفهم
كما صرتم حصاد أسننتهم فأى سعد في هذا الطالع لعمري أم أى خير فيه وليت شعري كيف
لم يوجب لكم هذا الطالع بارقة من سمادة أو لائحاً من عز وقبول ولكن هذه حكمه رب

الطالع ومدبر الفلك وما حواه ومسخر الكواكب ومجرها على ما يشاء سبحانه أن جعلكم كالذمة بل أذل منهم تحت قهر عبيده وجعل سهام سماعتهم من كل خير وعلم وورثاسة وجاه أوفر من سهامكم وبيوت شرفهم في هذا العالم أعمر من بيوتكم بل خرب بيوتكم بأيديهم فلا ينعمر منها بيت إلا بالانضمام إليهم والانتفاء إلى شريعتهم وماتهم وهذا شأن العزيز الحكيم في الكذابين عليه قال تعالى (إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين) قال أبو قلابة هي لكل مفتر من هذه الأمة يوم القيامة وهذه المحاورة التي جرت بين أصحاب هذا المجمع هي غاية ما يمكن النجومى أن يقوله ولا يصل إلى ذلك المبرزون منهم ومع هذا فقد رأيت حاصلها ومضمونها واعلمهم لو عدوا أن هذه الكلمات تعتد من جماعتهم وتصل بأهل الإيمان لم ينطقوا منها ببنت شفة ويأبى الله إلا أن يفضح المفترى الكذاب وينطقه بما يبين باطله .

فصل

قال صاحب الرسالة ذكر جمل من احتجاجهم والاحتجاج عليهم من أوكد ما يستدلون به على أن الكواكب تفعل في هذا العالم أولها دلالة على ما يحدث فيه أنهم امتحنوا عدة مواليد صححوا طوالها وجماعة مسائل راعوها فوجدوا القضية في جميع ذلك صادقة فدلهم ذلك على أن الأصول التي عملوا عليها صحيحة فيقال لهم إذا كان ما تدعونه من هذا دليلا على صحة الأحكام فما الفضل بينكم وبين من قال الدليل على بطلان الأحكام أن امتحنوا مواليد صححنا طوالها ومسائل تفقدنا أحوالها فوجدنا جميعها باطلا ولم يصح الحكم في شيء منها . . فان قالوا إنما يكون هذا لجواز الغلط على المنجم الذي عملها . . قيل لكم فما تنكرون من أن يكون صدق المنجم في حكمه باتفاق وتخمين كإخراج الزوج والفردي وصدق الحزر في الوزن والكيل والذرع والعدد وإذا كانت الدلالة على صحة مقالتكم صدقكم في بعض أحكامكم فالدلالة على بطلانها كذبكم في بعضها . . فان قالوا ليس ما قلناه بتخمين لانا إنما نحكمه على أصول موضوعة في كتب القدماء . . قيل لهم لسنا نشك في أنكم نتبعون ما في الكتب وتقلدون من تقدمكم وما يقع من الصدق فإنا يقع بحسب الاتفاق والذي حصلتم عليه هو الحدس والتخمين بحسب ما في الكتب . . وما يستدل به من ينتسب إلى الإسلام منهم على تصحيح دلالة النجوم قوله تعالى (فنظر نظرة في النجوم فقال إني سقيم) ولا حجة في هذا البتة لأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام إنما قال هذا ليدفع به قومه عن نفسه ألا ترى أنه عز وجل قال بعد (فتولوا عنه مدبرين فراغ إلى آلهم فقال ألا تأكلون) فبين تبارك وتعالى أنه إنما قال ذلك ليدفعهم به لما كان عزم عليه من أمر

الأصنام وليس يحتاج أحد إلى معرفة أصحح هو أم سقيم من النجوم لأن ذلك يوجد حساً ويعلم ضرورة ولا يحتاج فيه إلى استدلال وبحث . . قلت قد احتج لهم بغير هذه الحجج فنذكرها ونبين بطلان استدلالهم بها وبينان الباطل منها . . قال أبو عبد الله الرازي اعلم أن المثبتين لهذا العلم احتجوا من كتاب الله بآيات . . احداها الآيات الدالة على تعظيم هذه الكواكب فمنها قوله تعالى (فلا أقسم بالخنس الجوارى الكنس) وأكثر المفسرين على أن المراد هو الكواكب التي تسير راجعة تارة ومستقيمة أخرى ومنها قوله تعالى (فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) وقد صرح تعالى بتعظيم هذا القسم وذلك يدل على غاية جلالة مواقع النجوم ونهاية شرفها ومنها قوله تعالى (والسماء والطارق وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب) قال ابن عباس الثاقب هو زحل لأنه يشقب بنوره سمك السموات السبع ومنها أنه تعالى بين إلهيته بكون هذه الكواكب تحت تدبيره وتسخيره فقال (والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألاله الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) . . النوع الثانى الآيات الدالة على أن لها تأثيراً فى هذا العالم كقوله تعالى (فالمدبرات أمرا) وقوله (فالملقحات أمراً قال بعضهم المراد هذه الكواكب . . النوع الثالث الآيات الدالة على أنه تعالى وضع حركات هذه الاجرام على وجه ينتفع بها فى مصالح هذا العالم فقال (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق) وقال (تبارك الذى جعل فى السماء بروجاً وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا) . . النوع الرابع انه تعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام انه تمسك بعلوم النجوم فقال ﴿ فنظر نظرة فى النجوم فقال إني سقيم ﴾ . . النوع الخامس انه قال ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ولا يكون المراد من هذا كبر الجثة لأن كل أحد يعلم ذلك فوجب أن يكون المراد كبر القدر والشرف وقال تعالى ﴿ ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا ﴾ ولا يجوز أن يكون المراد أنه تعالى خلقها ليستبدل بتركيبها وتأليفها على وجود الصانع لأن هذا القدر حاصل فى تركيب البقرة والبموضة وفى حصول الحياة فى بنية الحيوانات على وجود الصانع أقوى من دلالة تركيب الاجرام الفلكية على وجود الصانع لأن الحياة لا يقدر عليها أحد إلا الله أما تركيب الأجسام وتأليفها فقد يقدر على جنسه غير الله فلما كان هذا النوع من الحكمة حاصل فى غير الافلاك ثم انه تعالى خصها بهذا التشريف وهو قوله (ربنا ما خلقت هذا باطلا) علمنا أن له تعالى فى تخليقها أسراراً عالية وحكما بالغة تنقاصر عقول البشر عن إدراكها ويقرب من هذه الآية قوله تعالى (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار) ولا يمكن أن يكون المراد انه تعالى خلقها على وجه يمكن

الاستدلال بها على وجود الصانع الحكيم لأن كونها دالة على الافتقار إلى الصانع أمر ثابت لها لذاتها لأن كل متحيز فهو محدث وكل محدث فانه مفتقر إلى الفاعل فثبت أن دلالة المتحيزات على وجود الفاعل أمر ثابت لها لذواتها وأعيانها وما كان كذلك لم يكن سبب الفعل والجملة فلم يمكن حمل قوله (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا) على هذا الوجه فوجب حمله على الوجه الذي ذكرناه : النوع السادس روى أن عمر بن الخطاب كان يقرأ كتاب المجسطى على استاذة فدخل عليهم واحد من أجلاف المتفهمة فقال لهم ماذا تقرؤون فقال عمر بن الخطاب نحن في تفسير آية من كتاب الله (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج) فنحن ننظر كيف خلق السماء وكيف بناها وكيف صانها عن الفروج : النوع السابع ان ابراهيم عليه السلام لما استدلل على اثبات الصانع تعالى بقوله (ربى الذى يحى ويميت) قال له نمرود أتدعى انه يحيى ويميت بواسطة الطبائع والعناصر أو لا بواسطة هذه الأشياء فان ادعيت الأول فلذلك مما لا تجده البتة لأن كل ما يحدث فى هذا العالم فانما يحدث بواسطة أحوال العناصر الأربعة والحركات الفلكية وإذا ادعيت الثانى فمثل هذا الإحياء والإماتة حاصل منى ومن كل أحد فان الرجل قد يكون سببا لحدوث الولد لكن بواسطة تمزيج الطبائع وتحريك الاجرام الفلكية ولذلك قد نمت بهذه الوسائط وهذا هو المراد من قوله تعالى حكاية عن الخضم أنا أحى وأميت ثم ان ابراهيم عليه الصلاة والسلام أجاب عن هذا السؤال بقوله فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب يعنى هب أنه سبحانه انما يحدث حوادث هذا العالم بواسطة الحركات الفلكية لكنه تعالى هو المبدى للحركات الفلكية لأن تلك الحركات لا بد لها من سبب ولا سبب لها سوى قدرة الله تعالى فثبت أن حوادث هذا العالم وان سلمنا أنها انما حصلت بواسطة الحركات الفلكية لكنه لما كان المدبر لتلك الحركات الفلكية هو الله تعالى كان الكل منه بخلاف الواحد منا فاننا وان قدرنا على الإحياء والإماتة بواسطة الطبائع وحركات الأفلاك إلا أن حركات الأفلاك ليست منا بدليل أنا لا نقدر على على تحريكها على خلاف التحريك الإلهى وظهر الفرق وهذا هو المراد من قول ابراهيم عليه الصلاة والسلام فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب يعنى هب أن هذه الحوادث فى هذا العالم حصلت بحركة الشمس من المشرق إلا أن هذه الحركات من الله لأن كل جسم متحرك فلا بد له من محرك وذلك المحرك لست أنت ولا أنا فلم لانحركها من المغرب فثبت أن اعتماد ابراهيم الخليل عليه السلام فى معرفة نبوت الصانع على الدلائل الفلكية وانه ما نازع الخضم فى كون هذه الحوادث السفلية مرتبطة بالحركات الفلكية واعلم انك إذا عرفت نهج الكلام فى هذا الباب علمت أن القرآن مملوء من تعظيم الاجرام الفلكية وتشريف الكواكب : وأما الأخبار فكثيرة منها ما روى عن النبي صلى

الله عليه وسلم انه نهى عند قضاء الحاجة عن استقبال الشمس والقمر واستدرهما ومنها انه لما مات ولده ابراهيم انكسفت الشمس ثم إن الناس قالوا انما انكسفت لموت ابراهيم فقال ان الشمس والقمر آياتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته فاذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى الصلاة ومنها ما روى ابن مسعود ان النبي صلى الله عليه وسلم قال إذا ذكر القدر فأمسكوا وإذا ذكر أصحابي فأمسكوا وإذا ذكر النجوم فأمسكوا ومن الناس من يروى أنه صلى الله عليه وسلم قال لا تسافروا والقمر في العقرب ومنهم من يروى ذلك عن علي رضي الله عنه وان كان المحدثون لا يقبلونه . . وأما الآثار فكثيرة منها أن رجلا أتاه فقال له اني أريد الخروج في تجارة وكان ذلك في محاق الشهر فقال تريد أن يمحق الله تجارتك استقبل هلال الشهر بالخروج وعن عمكمة أن يهوديا منجما قال له ابن عباس ويحك تخبر الناس بما لاتدرى فقال اليهودي ان لك ابنا وهو في المكتب ويجيء غدا محمومًا ويموت في اليوم العاشر منه قال ابن العباس ومتى تموت أنت قال في رأس السنة ثم قال لابن عباس قال لاتموت أنت حتى تعمي ثم جاء ابن ابن عباس وهو محموم ومات في العاشر ومات اليهودي في رأس السنة ولم يمت ابن عباس رضي الله عنه حتى ذهب بصره وعن الشعبي رضي الله عنه قال قال أبو الدرداء والله لقد فارقتنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتركنا ولا طائر يطير بجناحيه إلا ونحن ندعى فيه علما وليست السكواكب موكلة بالفساد والصلاح وان كان فيها دليل بعض الحوادث عرف ذلك بالتجربة وجاء في الآثار أن أول من أعطى هذا العلم آدم وذلك أنه عاش حتى أدرك من ذريته أربعين ألف أهل البيت وتفرقوا عنه في الأرض وكان يفتن لحفاه خبرهم عليه فأكرمه الله تعالى بهذا العلم وكان إذا أراد أن يعرف حال أحدهم حسب له بهذا الحساب فيقف على حاله وعن ميمون بن مهران أنه قال إياكم والتكذيب بالنجوم فإنه علم من علم النبوة عنه أيضا أنه قال ثلاث ارفضوهن لاتنازعوا أهل القدر لاتذكروا أصحاب نبيكم إلا بخير وإياكم والتكذيب بالنجوم فإنه من علم النبوة وروى أن الشافعي كان عالما بالنجوم وجاء لبعض جيرانه ولد فحسب له الشافعي أن هذا الولد ينبغي أن يكون على العضو الفلاني منه خال صفته كذا وكذا فوجد الأمر كما قال وأيضا أنه تعالى حكى عن فرعون أنه كان يذبح أبناء بني إسرائيل ويستحي نساءهم والمفسرون قالوا إن ذلك إنما كان لأن المنجمين أخبروه بأنه سيحيى ولد من بني إسرائيل ويكون هلاكا على يده وهذه الرواية ذكرها محمد بن اسحاق وغيره وهذا يدل على اعتراف الناس قديما وحديثا بعلم النجوم . . وأما المعقول فهو أن هذا علم ماخلت عنه ملة من الملل ولأمة من الأمم ولا يعرف تاريخ من التواريخ القديمة والحديثة إلا وكان أهل ذلك الزمان مشتغلين بهذا العلم ومعهولين عليه

في معرفة المصالح ولو كان هذا العلم فاسداً بالكلية لاستحال أطباق أهل المشرق والمغرب من أول بناء العالم إلى آخره عليه . . وقال بطليموس في بعض كتبه بعض الناس يعيبون هذا العلم وذلك العيب إنما حصل من وجوه . . الأول عجزهم عن معرفة حقيقة موضع الكواكب بدقتها ومراتبها وذلك أن الآلات الرصدية لا تنفك عن مساحات لا يفي بضبطها الحس لأجل قلتها في الآلات الرصدية لكنها وإن قلت هذه الآلات لإلانتها في الأجرام الفلكية كثيرة فإذا تباعدت الأرصاد حصل بسبب تلك المساحات تفاوت عظيم في مواضع الكواكب . . الثاني أن هذا العلم علم مبني على معرفة الدلائل الفلكية وتلك الدلائل لا تحصل إلا بتميزجات أحوال الكواكب وهي كثيرة جداً ثم أنها مع كثرتها قد تكون متعارضة ولا بد فيها من الترجيح وحينئذ يصعب على أكثر الأفهام الإحاطة بتلك التميزجات الكثيرة وبعد الإحاطة بها فإنه يصعب الترجيحات الجيدة فهذا السبب لا يتفق من يحيط بهذا العلم كما ينبغي إلا للفرد بعد الفرد ثم أن الجهال يظهرون من أنفسهم كونهم عارفين بهذا العلم فإذا حكموا وأخطوا ظن الناس أن ذلك بسبب أن هذا العلم ضعيف . . الثالث أن هذا العلم لا يفي بإدراك الجزئيات على وجه التفصيل الباهر فن حكم على هذا الوجه فقد يقع في الخطأ فهذه الأسباب الثلاثة توجهت المطاعن إلى هذا العلم وحكى أن الأكاسرة كان إذا أراد أحدهم طلب الولد أمر بإحضار المنجم ثم كان ذلك الملك يخلو بامرأته فساعة ما يقع الماء في الرحم يأمر خادماً على الباب بضرب طستا يكون في يده فإذا سمع المنجم طنين الطست أخذ الطالع وحكم عليه حتى يخبر بعدد الساعات التي يمكث في بطن أمه ثم أنه كان يأخذ الطالع أيضاً عند الولادة مرة أخرى ويحكم فلاجرم كانت أحكامهم كاملة قوية لأن الطالع الحقيقي هو طالع مسقط النطفة فإن حدوث الولد إنما يكون في ذلك الوقت فأما طالع الولادة فهو طالع مستعار لأن الولد لا يحدث في ذلك الوقت وإنما ينتقل من مكان إلى مكان آخر وروى أن في عهد أردشير بن بابك أنه قال في العهد الذي كتبه لولده لولا اليقين بالبوار الذي على رأس ألف سنة لسكنت أكتب لكم كتاباً إن تمسكتم به لن تضلوا أبداً وعنى بالبوار ما أخبره المنجمون من أنه يزول ملكهم عند رأس ألف سنة من ملك كستاسد والمراد منه زوال دولتهم وظهور دولة الإسلام وروى أنه دخل المفضل ابن سهل على المأمون في اليوم الذي قتل فيه وأخبره أنه يقتل في هذا اليوم بين الماء والنار وأنكر المأمون ذلك عليه وقوى قلبه ثم اتفق أنه دخل الحمام فقتل في الحمام وكان الأمر كما أخبر ثم قال واعلم أن التجارب في هذا الباب كثيرة وفيما ذكرناه كفاية . . قلت فهذا أقصى ما قرره الرازي كلام هؤلاء ومنههم ولقد نثر الكنانة ونفض الجعبة واستفرغ الوسع وبذل الجهد وروح وبهرج وقعق وفرقع وجمع جمع ولا ترى طحناً وجمع بين ما يعلم بالاضطرار أنه كذب على

رسول الله ﷺ وعلى أصحابه وبين ما يعلم بالاضطرار أنه خطأ في تأويل كلام الله ومعرفة مراده ولا يروج ما ذكره إلا على مفرط في الجهل بدين الرسل وما جاؤا به أو مقلد لأهل الباطل والمحال من المنجمين وأقوا ويلهم فان جمع بين الأمرين شرب كلامه شرباً ونحن بحمد الله ومعونته وتأيدته نبين بطلان استدلاله واحتجاجه فنقول أما الاستدلال بقوله تعالى فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس فإن أكثر المفسرين على أن المراد هو الكواكب التي تسير راجعة تارة ومستقيمة أخرى وهذا القول قد قاله جماعة من المفسرين وإنما الكواكب الخمسة زحل وعطارد والمشتري والمريخ والزهرة وروى عن علي واختاره ابن مقاتل وابن قتيبة قالوا وسماها خنسا لأنها في سيرها تتقدم إلى جهة المشرق ثم تخنس أي تتأخر وكنوسها إستنارها في مغربها كما تسكنس الظباء وتفتر من الوحوش إلى أن تأوى إلى كناسها وهي أكنستها وتسمى هذه الكواكب المتحيرة لأنها تسير مستقيمة وتسير راجعة وقيل كنوسها بالنسبة إلى الناظر وهو إستنارها تحت شعاع الشمس وقيل هي النجوم كلها وهو اختيار أبي عبيدة وقال الحسن وقتادة وعلى هذا القول فيكون باعتبار أحوالها الثلاثة من طلوعها وغروبها وما بينهما فهي خنس عند أول الطلوع لأن النجم منها يرى كأنه يبدو ويخنس وتسكنس عند غروبها تشبها بالظباء التي تأوى إلى كناسها وهي جوار ما بين طلوعها وغروبها خنس عند الطلوع جوار بعده كنس عند الغروب وهذا كله بالنسبة إلى أفق كل بلد تكون لها فيه الأحوال الثلاثة وقال عبد الله بن مسعود هي بقر الوحش وهي رواية عن ابن عباس واختاره سعيد بن جبير وقيل وهو أضعف الأقوال الملائكة حكاه المروزي في تفسيره فإن كان المراد بعض هذه الأقوال غير ما حكاه الرازي فلا حجة له وإن كان المراد ما حكاه فغايته أن يكون الله سبحانه وتعالى قد أقسم بها كما أقسم بالليل والنهار والضحى والوالد والفجر وليال عشر والشفع والوتر والسماء والأرض واليوم الموعود وشاهد ومشهود والنفس والمرسلات والعاصفات والناشرات والفارقات والنازعات والناشطات والسابحات والسابقات وما نصره وما لا نصره من كل غائب عنا وحاضر بما فيه التنبية على كمال ربوبيته وعزته وحكمته وقدرته وتدبيره وتنوع مخلوقاته الدالة عليه المرشدة إليه بما تضمنته من عجائب الصنعة وبديع الخلقة وتشهد لفاطرها وبارئها بأنه الواحد الأحد الذي لا شريك له وأنه الكامل في علمه وقدرته ومشيتته وحكمته وربوبيته وملئكة وأنها مسخرة منذلة منقادة لأمره مطيعة لمراده منها ففي الإقسام بها تعظيم لخالقها تبارك وتعالى وتنزيهه له عما نسب إليه أعداؤه الجاحدون المعطلون لربوبيته وقدرته ومشيتته ووحدايته وإن من هذه عبيده ومماليكه وخلقه وصنعه وإبداعه فكيف تجحد ربوبيته وإلهيته وكيف تذكر صفات كماله ونعوت جلاله وكيف يسوغ لذي حس سليم فطرة

مستقيمة تعطيها عن صانعها أو تعطيل صانعها عن نعوت جلاله وأوصاف كماله وعن أفعاله فأقسامه بها أكبر دليل على فساد قول نوعي المعطلة والمشركين الذين جعلوها آلهة تعبد مع دلائل الحدوث والعبودية والتسخير والافتقار عليها وأنها أدلة على بارئها وفاطرها وعلى وحدانيته وأنه لا تنبئ الربوبية والإلهية لها بوجه ما بل لا تنبئ إلا لمن فطرها وبرأها كما قال القائل :

نأمل سطور الكائنات فإنها إلى الملك الأعلى إليك رسائل
وقد خطت فيها لو تأملت خطها ألاكل شيء ما خلا الله باطل
وقال آخر :

فوا عجباً كيف يعصى الإله أم كيف يجحده جاحد
ولله في كل تحريكه وتسكينه أبدا شاهد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

فلم يكن إقسامه بها سبحانه مقررأ بذلك علم الأحكام النجومية كما يقوله الكاذبون المفترون بل مقررأ لكمال ربوبيته ووحدانيته وتفرد بالخلق والابداع وكمال حكمته وعلمه وعظمته وهذا نظير لإخباره سبحانه عن خلقها وعن حكمة خالقها بقوله (الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما) وقوله (وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون) وقوله (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون) وقوله (إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) وقوله (وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) وهؤلاء المشركون يعظمون الشمس والقمر والكواكب تعظيما يسجدون لها ويتذللون لها ويسبحونها تسابيح معروفة في كتبهم ودعوات لا ينبغي أن يدعى بها إلا خالقها وفاطرها وحده . . . ويقول بعضهم في كتاب مصحف الشمس مصحف القمر مصحف زحل مصحف عطارد وبعضهم يقول تسبيحة الشمس تسبيحة القمر تسبيحة عطارد تسبيحة زحل ولا يتحاشى من ذلك وبعضهم يقول دعوة الشمس دعوة القمر دعوة عطارد دعوة زحل وبعضهم يقول هيكل الشمس والقمر وعطارد وأصله أن الهيكل هو البيت المبنى للعبادة وكان الصابئون يبنون لكل كوكب من هذه الكواكب هيكلًا ويصرون فيه ذلك الكوكب ويتخذونه لعبادته وتعظيمه ودعائه ويزعمون أن روحانية ذلك الكوكب تنزل عليهم فتخططهم وتقضى حوائجهم وشاهدوا

ذلك منها وعائنه وتلك الروحانية هي الشياطين تنزلت عليهم وخاطبتهم وقضت حوائجهم ثم لما رام هذا الفعل من تستر منهم بالإسلام ولم يمكنه أن يبني لها بيوتا يعبدها فيه كتب لها دعوات وتسييحات وأذكاراً سماها هياكل ثم من اشتد تستره وخوفه أخرجها في قالب حروف وكلمات لا تفهم لئلا يبادر إنكارها وردها ومن لم يخف منهم صرح بتلك الدعوات والتسييحات والأذكار بلسان من يخاطبه بالفارسية والعربية وغيرها فلما أنكرك عليه أهل الإيمان قال إنما ذكرت هذا معرفة لهذا العلم وإحاطة به لا اعتقاداً له ولا ترغيباً فيه وقد وصف ذلك العلم وقرره أتم تقرير وحمله هدية إلى ملائكة فأناب به عليه جملة من الذهب يقال انه ألف دينار وصار ذلك الكتاب إماماً لأهل هذا الفن اليه يلجئون وعليه يعولون وبه يحتجون ويقولون شهرة مصنفه وجلالته وعلمه وفضله لا تنكر ولا تجحد وفي هذا الكتاب من مخاطبة الشمس والقمر والكواكب بالخطاب الذي لا يليق إلا بالله عز وجل ولا ينبغي لأحد سواه ومن الخضوع والذل والعبادة التي لم يكن عباد الأصنام يبلغونها من آلتهم فيالله أن يجعل قوله تعالى (فلا أقسم بالجنس الجوارى الكفيس) دليلاً على هذا ومقدمة له في أول الكتاب فان كان الإقسام بها دليلاً على تأثيراتها في العالم كما يقولون فينبغي أن يكون سائر ما أقسم به كذلك وان لم يكن القسم دليلاً بطل الاستدلال به وأما قوله تعالى (فلا أقسم بمواقع النجوم) ففيها قولان . . أحدهما أنها النجوم المعروفة وعلى هذا ففي مواقعها أقوال أحدها انه إنكسارها وانتشارها يوم القيامة وهذا قول الحسن والمنجمون يكذبون بهذا ولا يقرون به . . والثاني مواقعها منازلها قاله عطاء وقتادة . . والثالث انه مغاربا . . والرابع انه مواقعها عند طلوعها وغروبها حكاه ابن عطية عن مجاهد وأبي عبيدة . . والخامس أن مواقعها مواضعها من السماء وهذا الذي حكاه ابن الجوزي عن قتادة حكاه ابن عطية عنه فيحتمل أن يكونا واحداً وأن يكونا قولين . . السادس أن مواقعها انقضاءها أثر العفريت وقت الرجوم حكاه ابن عطية أيضاً ولم يذكر أبو الفرج ابن الجوزي سوى الثلاثة الأولى . . والقول الثاني أن مواقع النجوم هي منازل القرآن ونجومه التي نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم في مدة ثلاث وعشرين سنة قال ابن عطية ويؤيد هذا القول عود الضمير على القرآن في قوله (انه لقرآن كريم في كتاب مكنون) وذلك أن ذكره لم يتقدم الا على هذا التأويل ومن لا يتأول هذا التأويل يقول إن الضمير يعود على القرآن وان لم يتقدم ذكره لشهرة الأمر ووضوح المعنى كقوله تعالى حتى توارت بالحجاب وكل من عليها فان وغير ذلك قلت ويؤيد القول الأول انه أعاد الضمير بلفظ الأفراد والتذكير ومواقع النجوم جميع فلو كان الضمير عائداً عليها لقال انها لقرآن كريم الا أن يقال مواقع النجوم دل على القرآن فأعاد الضمير

عليه لأن مفسر الضمير يكتفى فيه بذلك وهو من أنواع البلاغة والايجاز فان كان المراد من القسم نجوم القرآن بطل استدلاله بالآية وان كان المراد السكواكب وهو قول الأكثرين فلما فيها من الآيات الدالة على ربوبية الله تعالى وانفراده بالخلق والابداع فانه لا ينبغي أن تكون الإلهية إلا له وحده كما انه وحده المتفرد بخلقها وابداعها وما تضمنته من الآيات والعجائب فالإقسام بها أوضح دليل على تكذيب المشركين والمنجمين والذهرية ونوعى المعطلة كما تقدم وكذلك قوله والنجم الثاقب على أن فيه قولين آخرين غير القول الذى ذكره . . أحدهما انه الثريا وهذا قول ابن زيد حكاه عنه أبو الفرج بن الجوزى وعنه رواية ثانية انه زحل حكاهما عنه ابن عطية . . والثانى انه الجدى حكاه ابن عطية عن ابن عباس وقول آخر حكاه أبو الفرج بن الجوزى عن على بن أحمد النيسابورى أنه جنس النجوم وأما قوله تعالى (فالمدبرات أمراً) فلم يقل أحد من الصحابة ولا التابعين ولا العلماء بانفسير انها النجوم وهذه الروايات عنهم فقال ابن عباس هي الملائكة قال عطاء وكلت بأمر عرفهم الله العمل بها وقال عبد الرحمن بن سابط يدبر أمور الدنيا أربعة جبريل وهو موكل بالوحى والجنود وميكائيل وهو موكل بالقطر والنبات وملك الموت وهو موكل بقبض الأنفس واسرافيل وهو ينزل بالأمر عليهم وقيل جبريل للوحى واسرافيل للصور وقال ابن قتيبة فالمدبرات أمراً الملائكة تنزل بالخلال والحرام ولم يذكر المتوسعون فى نقل أقوال المفسرين كابن الجوزى والماوردى وابن عطية غير الملائكة حتى قال ابن عطية ولا أحفظ خلافاً انها الملائكة هذا مع توسعه فى النقل وزيادته فيه على أبى الفرج وغيره حتى انه لينفرد بأقوال لا يحكيها غيره فنفسي المدبرات بالنجوم كذب على الله وعلى المفسرين وكذلك المقسمات أمراً لم يقل أحد من أهل التفسير العالمين به انها النجوم بل قالوا هي الملائكة التى تقسم أمر الملكوت باذن ربها من الارزاق والآجال والخلق فى الأرحام وأمر الرياح والجبال قال ابن عطية لأن كل هذا إنما هو بملائكة تخدeme فالآية تتضمن جميع الملائكة لأنهم كلهم فى أمور مختلفة قال أبو الطيفيل عامر بن واثلة كان على بن ابى طالب علم المنبر فقال لا تسألون عن آية من كتاب الله وسنة ماضية إلا قلت لكم فقام إليه ابن السكواك فسأله عن الذاريات ذرواً فالجملات وقرأ فالجاريات يسراً فالمقسمات أمراً فقال الذاريات الرياح والحاملات السحاب والجاريات السفن والمقسمات الملائكة ثم قال سل سؤال تعلم ولا تسأل سؤال تعنت وكذلك قال أبو الفرج ولم يذكر فيه خلافاً فى المقسمات أمراً يعنى الملائكة تقسم الأمور على ما أمر الله به قال ابن السائب المقسمات أربعة جبريل وهو صاحب الوحى والغلظة يعنى العقوبة على أعداء الرسل وميكائيل وهو صاحب الرزق والرحمة وإسرافيل وهو صاحب الصور والوح وعزرائيل وهو قابض الأرواح فتفسير الآية (١٣ - مفتاح ٢)

بأنها النجوم تفسير المنجمين ومن سلك سبيلهم وأما وصفه تعالى بعض الأيام بأنها أيام نحس كقوله (فأرسلنا عليهم ريحا صرصراً في أيام نحسات) فلرب أن الأيام التي أوقع الله سبحانه فيها العقوبة بأعدائه وأعداء رسله كانت أياماً نحسات عليهم لأن النحس أصابهم فيها وإن كانت أيام خير لا وليائه المؤمنين فهي نحس على المكذبين سعد للمؤمنين وهذا كيوم القيامة فإنه عسير على الكافرين يوم نحس لهم يسير على المؤمنين يوم سعد لهم قال مجاهد أيام نحسات مشائيم وقال الضحاك معناه شديد أى شديد البرد حتى كان البرد عذاباً لهم قال أبو علي وأنشده الاصمعي في النحس بمعنى البرد .

كان سلاقة عرضت بنحس يحيل شفيفها الماء الزلالا
وقال ابن عباس نحسات متابعات وكذلك قوله (إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصراً في يوم نحس مستمر) وكان اليوم نحسا عليهم لإرسال العذاب عليهم أى لا يقطع عنهم كما تطلع مصائب الدنيا عن أهلها بل هذا النحس دائم على هؤلاء المكذبين للرسول ومستمر صفة للنحس لا لليوم ومن ظن أنه صفة لليوم وأنه كان يوم الأربعاء آخر الشهر وأن هذا اليوم نحس أبداً فقد غلط واخطأ فهم القرآن فإن اليوم المذكور بحسب ما يقع فيه وكلمة الله من نعمة على أوليائه في هذا اليوم وإن كان له فيه بلايا ونقم على أعدائه كما يقع ذلك في غيره من الأيام فسهود الأيام ونحوسها إنما هو بسعود الأعمال وموافقها لمرضاة الرب ونحوس الأعمال مخالفتها لما جاءت به الرسل واليوم الواحد يكون يوم سعد لطائفة ونحس لطائفة كما كان يوم بدر يوم سعد للمؤمنين ويوم نحس على الكافرين فاللكوكب والطارح والقمرانات وهذا السعد والنحس وكيف يستنبط علم أحكام النجوم من ذلك ولو كان المؤثر في هذا النحس هو نفس الكوكب والطارح لكان نحساً على العالم فأما أن يقتضى الكوكب كونه نحساً لطائفة سعداً لطائفة فهذا هو المحال .

فصل

وأما الاستدلال بالآيات الدالة على أن الله سبحانه وضع حركات هذه الأجرام على وجه ينتفع بها في مصالح هذا العالم بقوله (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق ذلك إلا بالحق) وقوله تعالى (تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجاً وقراً منيراً) الآية فمن أطرف الاستدلال فأين فى هذه الآيات ما يدل على ما يدعيه المنجمون من كذبهم وبهتانهم وافتراءهم ولو كان الأمر كما يدعيه هؤلاء الكذابون لكانت الدلالة والعبارة فيه أعظم من مجرد الضياء والنور والحساب ولكان الأليق ذكر ما تقتضيه من السعد والنحس وتعطيه من السعادة والشقاوة وتبهم من

الأعمار والأرزاق والآجال والصناعات والعلوم والمعارف والصور الحيوانية والنباتية والمدنية وسائر ما في هذا العالم من الخير والشر وأما قوله (تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سرجاً وقراً منيراً) فهو تعظيم وثناء منه تعالى على نفسه بجعل هذه البروج والشمس والقمر في السماء وقد اختلف في البروج المذكورة في هذه الآية فأكثر السلف على أنها القصور أو الكواكب العظام . قال ابن المنذر في تفسيره حدثنا موسى حدثنا شجاع حدثنا ابن إدريس عن أبيه عن عطية جعل في السماء بروجاً قال قصوراً فيها حرس . . حدثنا موسى حدثنا أبو بكر حدثنا أبو معاوية ووكيع عن اسماعيل عن يحيى بن رافع قال قصوراً في السماء . . حدثنا موسى حدثنا أبو بكر حدثنا وكيع عن سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال النجوم يعني بروجاً وكذلك قال عكرمة . . حدثنا أبو أحمد حدثنا يعلى حدثنا إسماعيل عن أبي صالح تبارك الذي جعل في السماء بروجاً قال النجوم الكبار وهذا موافق لمعنى اللفظة في اللغة فإن العرب تسمى البناء المرتفع بروجاً قال تعالى (أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة) . . وقال الأخطل :

كأنها برج روى يشيده بأن بجض وأجر وأحجار

قال الأعمش كان أصحاب عبد الله يقرؤونها (تبارك الذي جعل في السماء قصوراً) وأما المتأخرون من المفسرين فكثير منهم يذهب إلى أنها البروج الإثني عشر التي تنقسم عليها المنازل كل برج منزلتان وثلاث وهذه المنازل الثمانية والعشرون يبدو منها للناس أربعة عشر منزلاً أبداً ويخفي منها أربعة عشر منزلاً كما أن البروج يظهر منها أبدأ ستة ويخفي ستة والعرب تسمى أربعة عشر منزلاً منها شامية وأربعة عشر يمانية فأول الشامية السرطان وآخرها السماك الأعزل وأول اليمانية الغفر وآخرها الرشا إذا طلعت منها نزل من المشرق غاب رقبته من المغرب وهو الخامس عشر وبها تنقسم فصول السنة الأربع فلربيع منها الحمل والثور والجوزاء ومنازلها الشرطين والبطين والثريا والذبران والهقعة والهنعة والذراع وللصيف منها السرطان والأسد والسنبلة ومنازلها الثرة والظرف والجمبة والزبرة والصرقة والعواء والسماك وللخريف منها الميزان والعقرب والقوس ومنازلها الغفر والزبان والأكليل والقلب والشولة والتعائم والبلدة والشتاء منها الجدى والدلو والحوت ومنازلها سعد الذابح وسعد بلع وسعد السعود وسعد الأخبية والفرع المقدم ويسمى الأول والفرع المؤخر ويسمى الثاني والرشا ولما كان زوال القمر في هذه المنازل معلوماً بالعيان والمشاهدة ونزول الشمس فيها إنما هو بالحساب لا بالرؤية قال تعالى (هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل) وقال تعالى (والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه

منازل حتى عاد كالعرجون القديم) فخص القمر بذكر تقدير المنازل دون الشمس وإن كانت مقدرة المنازل لظهور ذلك للحس في القمر وظهور تفاوت نوره بالزيادة والنقصان في كل منزل منزل ولذلك كان الحساب القمري أشهر وأعرف عند الأمم وأبعد من الغلط وأصح للضبط من الحساب الشمسي ويشترك فيه الناس دون الحساب الشمسي ولهذا قال تعالى في القمر (وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) ولم يقبل ذلك في الشمس ولهذا كانت أشهر الحج والصوم والأعياد ومواسم الإسلام إنما هي على حساب القمر وسيره ونزواه في منازل لا على حساب الشمس وسيرها حكمة من الله ورحمة وحفظاً لدينه لاشتراك الناس في هذا الحساب وتعذر الغلط والخطأ فيه فلا يدخل في الدين من الاختلاف والتخليط ما دخل في دين أهل الكتاب فهذا الذي أخبرنا تعالى به من شأن المنازل وسير القمر فيها وجعل الشمس سراجاً وضياء يبصر به الحيوان ولولا ذلك لم يبصر الحيوان فأين هذا مما يدعيه الكذابون من علم الأحكام التي كتبها أضعاف صدقها .

فصل

وأما ما ذكره عن إبراهيم خليل الرحمن أنه تمسك بعلم النجوم حين قال إني سقيم فمن الكذب والافتراء على خليل الرحمن صلى الله عليه وسلم فإنه ليس في الآية أكثر من أنه نظر نظرة في النجوم ثم قال لهم إني سقيم فمن ظن من هذا أن علم أحكام النجوم من علم الأنبياء وأنهم كانوا يراعونه ويعانونه فقد كذب على الأنبياء ونسبهم إلى ما لا يليق وهو من جنس من نسبهم إلى الكهانة والسحر وزعم أن تلقى الغيب من جنس تلقى غيرهم وإن كانوا فوقهم في ذلك الكمال نفوسهم وقوة استعدادها وقبولها أفيض العلويات عليها وهؤلاء لم يعرفوا الأنبياء ولا آمنوا بهم وإنما هم عندهم بمنزلة أصحاب الرياضات الذين خصوا بقوة الإدراك وزكاة النفوس وزكاة الأخلاق ونصبوا أنفسهم لإصلاح الناس وضبط أمورهم ولا ريب أن هؤلاء أبعد الخلق عن الأنبياء وأتباعهم ومعرفةهم ومعرفة مرسلهم وما أرساهم به هؤلاء في شأن والرسول في شأن آخر بل هم ضدهم في علومهم وأعمالهم وهديتهم وإرادتهم وطرائقهم ومعادهم وفي شأنهم كله ولهذا نجد أتباع هؤلاء ضد أتباع الرسول في العلوم والأعمال والهدى والإرادات ومتى بعث الله رسولا يعانى التنجيم والنرجات والطلسمات والأوقاق والتدخين والبخورات ومعرفة القرانات والحكم على الكواكب بالسعود والنحوس والحرارة والبرودة والذكورة والأنوثة وهل هذه إلا صنائع المشركين وعلومهم وهل بعثت الرسول إلا بالإنكار على هؤلاء ومحققهم وبحق علومهم وأعمالهم من الأرض وهل للرسول أعداء بالذات إلا هؤلاء ومن سلك سبيلهم وهذا معلوم بالاضطرار لكل من آمن بالرسول صلوات

الله وسلامه عليهم وصدقهم فيما جاؤا به وعرف مسجى رسول الله وعرف مرسله وهل كان لإبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام عدو مثل هؤلاء المنتجمين الصابئين وحر إن كانت دار ملكتهم والخليل أعدى عدو لهم وهم المشركون حقا والأصنام التي كانوا يعبدونها كانت صوراً وتمائيل للكواكب وكانوا يتخذون لها هياكل وهى بيوت العبادات لسكل كوكب منها هيكلا فيه أصنام تناسبه فكانت عبادتهم للأصنام وتعظيمهم لها تعظيماً منهم للكواكب التي وضعوا الأصنام عليها وعبادة لها وهذا أقوى السببين في الشرك الواقع في العالم وهو الشرك بالنجوم وتعظيمها واعتقاد أنها أحياء ناطقة ولها روحانيات تنزل على عابديها ومخاطبيها فصوروا لها الصور الأرضية ثم جعلوا عبادتها وتعظيمها ذريعة إلى عبادة تلك الكواكب واستزال روحانياتها وكانت الشياطين تنزل عليهم وتخطبهم وتكلمهم وترهم من العجائب ما يدعوهم إلى بذل نفوسهم وأولادهم وأموالهم لتلك الأصنام والتقرب إليها وكان مبدأ هذا الشرك تعظيم الكواكب وظن السعود والنحوس وحصول الخير والشر في العالم منها وهذا هو شرك خواص المشركين وأرباب النظر منهم وهو شرك قوم إبراهيم عليه الصلاة والسلام . . والسبب الثاني عبادة القبور والإشراك بالأموات وهو شرك قوم نوح عليه الصلاة والسلام وهو أول شرك طرق العالم وفنته أعم وأهل الإبتلاء به أكثر وهم جمهور أهل الإشراك وكثيراً ما يجتمع السببان في حق المشرك يكون مقابرياً نجومياً قال تعالى عن قوم نوح (وقالوا لا تدرن آلهتكم ولا تدرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا) . . قال البخارى في صحيحه قال ابن عباس كان هؤلاء رجالات صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشياطين إلى قومهم أن انصبوا على مجاسمهم التي كانوا يجلسون عليها أنصاها وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبت ولهذا لعن النبي صلوات الله وسلامه عليه الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ونهى عن الصلاة إلى القبور وقال اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد وقال اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد وقال إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاك عن ذلك وأخبر أن هؤلاء شرار الخلق عند الله يوم القيامة وهؤلاء هم أعداء نوح كما أن المشركين بالنجوم أعداء إبراهيم فنوح عاداه المشركون بالقبور وإبراهيم عاداه المشركون بالنجوم والطائفتان صوروا الأصنام على صور معبودهم ثم عبدوها وإنما بعثت الرسل بمحق الشرك من الأرض ومحق أهله وقطع أسبابه وهدم بيوته ومحاربة أهله فكيف يظن بإمام الحنفاء وشيخ الأنبياء و خليل رب الأرض والسماء أنه كان يتعاطى علم النجوم ويأخذ منه أحكام الحوادث سبحانه هذا بهتان عظيم وإنما كانت النظرة التي نظرها

في علم النجوم من معاريض الأفعال كما كان قوله فعله كبيرهم هذا وقوله إني سقيم وقوله عن امرأته سارة هذه أختي من معاريض المقال ليتوصل بها إلى غرضه من كسر الأصنام كما توصل بتعريضه بقوله هذه أختي إلى خلاصها من يد الفاجر ولما غلظ فهم هذا عن كثير من الناس وكشفت طباعهم عن إدراكه ظنوا أن نظره في النجوم ليستنبط منها علم الأحكام وعلم أن نجمة وطالعه يقضى عليه بالسقم وحاشا لله أن يظن ذلك بخليته صلى الله تعالى عليه وسلم أو بأحد من أتباعه وهذا من جنس معاريض يوسف الصديق صلى الله تعالى عليه وسلم حين تفتيش أوعية أخيه عن الصاع فإن المفتش بدأ بأوعيتهم مع علمه أنه ليس فيها وآخر وعاء أخيه مع علمه أنه فيها تعريضاً بأنه لا يعرف في أي وعاء هي ونفياً للتهمة عنه بأنه لو كان عالماً في أي الأوعية هي لبادر إليها ولم يكلف نفسه تعب التفتيش لغيرها فلماذا نظر الخليل صلى الله تعالى عليه وسلم في النجوم نظر تورية وتعريض محض ينفي به عنه تهمة قومه ويتوصل به إلى كيد أصنامهم .

فصل

وأما الاستدلال بقوله تعالى (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس) وأن المراد به كبر القدر والشرف لا كبر الجثة ففي غاية الفساد فإن المراد من الخلق ههنا الفعل لانفس المفعول وهذا من أبلغ الأدلة على المعاد أي أن الذي خلق السموات والأرض وخلقها أكبر من خلقكم كيف يعجزه خلقكم بعدما تموتون خلقاً جديداً ونظير هذا في قوله في سورة يس (أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم) أي مثل هؤلاء المشركين فهذا استدلال بشمول القدرة للنوعين وأنها صالحة لهما فلا يجوز أن يثبت تعلقها بأحد المقدورين دون الآخر فكذلك قوله (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس) أي من لم تعجز قدرته عن خلق العالم العلوي والسفلي كيف يعجز عن خلق الناس خلقاً جديداً بعد ما أماتهم ولا تعرض في هذا لأحكام النجوم بوجه قط ولالتأثير السكواكب وأما قوله تعالى (ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً) فلا ريب أن خلق السموات والأرض من أعظم الأدلة على وجود فاطرها وكمال قدرته وعلمه وحكمته وانفراده بالربوبية والوحدانية ومن سوى بين ذلك وبين البقرة وجعل العبرة والدلالة والعلم بوجود الرب الخالق الباري المصور منهما سواء فقد كابر والله سبحانه إنما يدعو عباده على النظر والفكر في مخلوقاته العظام لظهور أثر الدلالة فيها وبديع عجائب الصنعة والحكمة فيها واتساع مجال الفكر والنظر في أرجائها وإلا

ففي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

ولكن أين الآيات والدلالة في خلق العالم العلوي والسفلي إلى خالق القملة والبرغوث

والبقعة فكيف يسمح لعاقل عقله أن يسوى بينهما ويجعل الدلالة من هذا كالدلالة من الآخر والله سبحانه إنما يذكر من مخلوقاته للدلالة عليه أشرفها وأظهرها للحس والعقل وأبينها دلالة وأعجبها صنعة كالسما والارض والشمس والقمر والليل والنهار والنجوم والجبال والسحاب والمطر وغير ذلك من آياته ولا يدعو عباده إلى التفكر في القمل والبراغيث والبعوض والبق والكلاب والحشرات ونحوها وإنما يذكر ما يذكر من ذلك في سياق ضرب الأمثال مبالغة في الاحتقار والضعف كقوله تعالى (إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه) فهنا ما يذكر الذباب في سياق الدلالة على إثبات الصانع تعالى وكذلك قوله (أن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها) وكذلك قوله (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وأن أوهن البيوت لبيت العنكبوت) فتأمل ذكر هذه المخلوقات الحفيرة في أى سياق وذكر المخلوقات العظيمة في أى سياق . . وأما قول من قال من المتكلمين المتكلمين أن دلالة حصول الحياة في الأبدان الحيوانية أقوى من دلالة السموات والارض على وجود الصانع تعالى فبناء هذا القائل على الأصل الفاسد وهو إثبات الجوهر الفرد وإن تأثير الصانع تعالى في خلق العالم العلوى والسفلى هو تركيب تلك الجواهر وتأليفها هذا التأليف الخاص والتركيب جنسه مقدور للبشر وغيرهم وأما الأحداث والاختراع فلا يقدر عليه إلا الله والقول بالجواهر الفرد وبناء المبدأ والمعاد عليه مما هو من أصول المتكلمين الفاسدة التي نازعهم فيها جمهور العقلاء قالوا وخلق الله تعالى وإحداثه لما يحدثه من أجسام العالم هو لإحداث الأجزاء وذواتها لا مجرد تركيب الجواهر منفردة ثم قد فرغ من خلقها وصنعه وإبداعه الآن إنما هو في تأليفها وتركيبها وهذا من أقوال أهل البدع التي ابتدعوها في الإسلام وبنوا عليها المعاد وحدوث العالم فسلطوا عليهم أعداء الإسلام ولم يمكنهم كسرهم لما بنوا المبدأ والمعاد على أمر وهمي خيالي وظنوا أنه لا يتم لهم القول بحدوث العالم وإعادة الأجسام إلا به وأقام منازعهم حججا كثيرة جدا على بطلان القول بالجواهر واعترفواهم بقوة كثير منها وصحته فأوقع ذلك شكاً لكثير منهم في أمر المبدأ والمعاد لبنيته على شفا جرف هار وأما أئمة الإسلام وخول النظائر فلم يعتمدوا على هذه الطريقة وهي عندهم أضعف وأوهى من أن يبنيوا عليها شيئا من الدين فضلا عن حدوث العالم وإعادة الأجسام وإنما اعتمدوا على الطرق التي أرشد الله سبحانه إليها في كتابه وهي حدوث ذات الحيوان والنبات وخلق نفس العالم العلوى والسفلى وحدوث السحاب والمطر والرياح وغيرها من الأجسام التي يشاهد حدوثها بذواتها لا مجرد حدوث تأليفها وتركيبها فعند القائلين بالجواهر لا يشهد أن الله أحدث في هذا العالم شيئا من

الجواهر وإنما أحدث تأليفها وتركيبها فقط وإن كان أحدائه بجواهره سابقاً متقدماً قبل ذلك وأما الآن فإنما تحدث الأعراض من الاجتماع والإفتراق والحركة والسكون فقط وهي الأكوان عندهم وكذلك المعاد فإنه سبحانه يفرق أجزاء العالم وهو اعدامه ثم يؤلفها ويجمعها وهو المعاد وهؤلاء احتاجوا إلى أن يستدلوا على كون عين الإنسان وجواهره مخلوقة إذ المشاهد عندهم بالحس دائماً هو حدوث أعراض في تلك الجواهر من التأليف الخالص وزعموا أن كل ما يحدثه الله من السحاب والمطر والزرورع والثمار والحيوان فإنما يحدث فيه أعراضاً وهي جمع الجواهر التي كانت موجودة وتفريقها وزعموا أن أحداً لا يعلم حدوث عين من الأعيان بالمشاهدة ولا بضرورة العقل وإنما يعلم ذلك بالاستدلال وجمهور العقلاء من الطوائف يخالفون هؤلاء ويقولون الرب لا يزال يحدث الأعيان كما دل على ذلك الحس والعقل والقرآن فإن الأجسام الحادثة بالمشاهدة ذواتها وأجزاؤها حادثة بعد إن لم تكن جواهر مفرقة فاجتمعت ومن قال غير ذلك فقد كابر الحس والعقل فإن كون الإنسان والحيوان مخلوقاً محدثاً كما كنا بعد إن لم يكن أمر معلوم بالضرورة لجميع الناس وكل أحد يعلم أنه حدث في بطن أمه بعد إن لم يكن وإن عينه حدثت كما قال الله تعالى (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً) وليس هذا عندهم بما يستدل عليه بل يستدل به كما هي طريقة القرآن فإنه جعل حدوث الإنسان وخلقه دليلاً لا مدلولاً عليه . . وقولهم إن الحادث أعراض فقط وأنه مركب من الجواهر المفردة قولان باطلان بل يعلم حدوث عين الإنسان وذاته وبطلان الجواهر الفرد ولو كان القول بالجواهر صحيحاً لم يكن معلوماً إلا بأدلة خفية دقيقة فلا يكون من أصول الدين بل ولا مقدمة فيها فطريقتهم تتضمن جحد المعلوم وهو حدوث الأعيان الحادثة وذواتها وإثبات ما ليس بمعلوم بل هو باطل وهو إثبات الجواهر الفرد وليس هذا موضع استقصاء هذه المسئلة والمقصود الكلام على قوله إن الاستدلال بمحصل الحياة في بنية الحيوان على وجود الصانع أقوى من دلالة تركيب الاجرام الفلكية وهو مبنى على هذا الأصل الفاسد .

فصل

وأما استدلاله بقوله تعالى (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً) فموجب من العجب فإن هذا من أقوى الأدلة وأبينها على بطلان قول المنجمين والدهرية الذين يسندون جميع ما في العالم من الخير والشر إلى النجوم وحركاتها واتصالاتها ويزعمون أن ما تأتي به من الخير والشر فعن تعريف الرسل والأنبياء وكذلك ما تعطيه من السعود والنحوس وهذا هو السبب الذي سبقنا الكلام لأجله معهم لما حكينا قولهم أنه لما كانت الموجودات في العالم

التسفلى مترتبة على تأثير الكواكب والروحانيات التي هي مدبرات الكواكب وإن كان في اتصالاتها نظر سعد ونحس وجب أن يكون في آثارها حسن وقبح في الخلق والأخلاق والعقول الإنسانية متساوية في النوع فوجب أن يدركها كل عقل سليم ولا يتوقف إدراكها على من هو مثل ذلك العاقل في النوع ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم إلى آخر كلامكم المتضمن خلق السموات والأرض بغير أمر ولا نهى ولا ثواب ولا عقاب وهذا هو الباطل الذي نفاه الله سبحانه عن نفسه وأخبر أنه ظن أعدائه الكافرين ولهذا اتفق المفسرون على أن الحق الذي خلقت به السموات والأرض هو الأمر والنهى وما يترتب عليهما من الثواب والعقاب فمن جحد ذلك وجحد رسالة الرسل وكفر بالمعاد وأحال حوادث العالم على حركات الكواكب فقد زعم أن خلق السموات والأرض أبطل الباطل وأن العالم خلق عبثاً وترك سدى وخلى هملاً وغاية ما خلق له أن يكون متمتعاً باللذات الحسية كالهائم في هذه المدة القصيرة جداً ثم يفارق الوجود وتحديث حركات الكواكب أشخاصاً مثله هكذا أبداً فأى باطل أبطل من هذا وأى عبث فوق هذا أخسبتم أنما خلقناكم عبثاً وإنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم والحق الذي خلقت به السموات والأرض وما بينهما هو إلهية الرب المتضمنة لكامل حكمته وملكوته وأمره ونهيه المتضمن لشعره وثورابه وعقابه المتضمن لعدله وفضله ولقائه فالخلق الذي وجد به العالم كون الله سبحانه هو الإله الحق المعبود والأمر الناهى المتصرف في الممالك بالأمر والنهى وذلك يستلزم إرسال الرسل وإكرام من استجاب لهم وتام الإنعام عليه وإهانة من كفر بهم وكذبهم واختصاصه بالشقاء والهلاك وذلك معقود بكامل حكمة الرب تعالى وقدرته وعلمه وعدله وتام ربه بيته وتصرفه وانفراده بالإلهية وجريان مخلوقات على موجب حكمته وإلهيته وملكوته التام وأنه أهل أن يعبد ويطاع وأنه أولى من أكرم أحبابه وأوليائه بالإكرام الذى يليق بعظمته وغناه وجوده وأهان أعداءه المرصين عنه الجاحدين له المشركين به المسوين بينه وبين الكواكب والأوثان والأصنام في العبادة بالإهانة التي تليق بعظمته وجلاله وشدة بأسه فهو الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذو الطول لا إله إلا هو إليه المصير وهو ذو الرحمة الواسعة الذى لا يرد بأسه عن القوم المجرمين لأنه الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين وهو سبحانه خلق العالم العلوى والسفلى بسبب الحق ولأجل الحق وضمنه الحق فبالحق كان وللحق كان وعلى الحق اشتمل والحق هو توحيدته وعبادته وحده لا شريك له وموجب ذلك ومقتضاه وقام بعدله الذى هو الحق وعلى الحق اشتمل فما خلق الله شيئاً إلا بالحق وللحق ونفس خلقه له حق وهو شاهد من شواهد الحق فإن أحق الحق هو التوحيد كما

أن أظلم الظلم هو الشرك ومخلوقات الرب تعالى كلها شهادة له بأنه الله الذى لا إله إلا هو وإن كل معبود باطل سواه وكل مخلوق شاهد بهذا الحق إمام شهادة نطق وإمام شهادة حال وإن ظهر بفعله وقوله خلافها كالمشرك الذى يشهد حال خلقه وإبداعه وصنعه لخالقه وفاطره أنه الله الذى لا إله إلا هو وإن عبد غيره وزعم أن له شريكاً فشاهد حاله مكذب له مبطل لشهادة فعله وقاله . . وأما قوله أنه لا يمكن أن يقال المراد أنه خلقها على وجه يمكن الاستدلال بها على الصانع الحكيم إلى آخر كلامه . . فيقال له إذا كانت دلالتها على صانعها أمراً ثابتاً لها لذواتها وذواتها إنما وجدت بإيجاده وتكوينه كانت دلالاتها بسبب فعل الفاعل المختار لها ولكن هذا بناء منه على أصل فاسد يكرره فى كتبه وهو ان الذوات ليست بمجمولة ولا تتعلق بفعل الفاعل وهذا مما أنكره عليه أهل العلم والإيمان وقالوا ان كونها ذواتاً وإن وجودها وأوصافها وكل ما ينسب إليها هو بفعل الفاعل فكونها ذواتاً وما يتبع ذلك من دلالتها على الصانع كله يجعل الجاعل فهو الذى جعل الذوات والصفات وثبوت دلالتها لذاتها لا تنفى أن تكون يجعل الجاعل فإنه لما جعلها على هذه الصفة مستلزماً لدلالتها عليه كانت دلالتها عليه يجعله . . فإن قيل لو قدر عدم الجاعل لها لم يرتفع كونها ذواتاً ولو كانت ذواتاً يجعله لا يرتفع كونها ذواتاً بتقدير ارتفاعه . . قيل ما معنى بكونها ذواتاً وماهيات أتعنى به تحقق ذلك فى الخارج أو فى الذهن أو أعم منها فإن عنيت الأول فلا ريب فى بطلان كونها ذوات وماهيات على تقدير ارتفاع الجاعل وإن عنيت الثانى فالصور الذهنية مجمولة له أيضاً لأنه هو الذى علم فأوجد الخلاق الذهنية فى العلم كما أنه الذى خلق فأوجد الحقائق الذهنية فى العين فهو الأكرم الذى خلق وعلم فما فى الذهن بتعليمه وما فى الخارج بخلقها وإن عنيت القدر المشترك بين الخارج والذهن وهو مسمى كونها ذوات وماهيات بقطع النظر عن تقييده بالذهن أو الخارج قيل لك هذه ليست بشىء البتة فإن الشىء إنما يكون شيئاً فى الخارج أو فى الذهن والعلم وما ليس له حقيقة خارجية ولا ذهنية فليس بشىء بل هو عدم صرف ولا ريب أن عدم ليس بفعل فاعل ولا جعل جاعل . . فإن قيل هى لا تنفك عن أحد الوجودين إما الذهن وإما الخارجى ولكن نحن أخذناها مجردة عن الوجودين ونظرنا إليها من هذه الهيئة وهذا الاعتبار ثم حكمتنا عليها بقطع النظر عن تقيدها بذهن أو خارج . . قيل الحكم عليها بشىء ما يستلزم تصورها ليكن الحكم عليها وتصورها مع أخذها مجردة عن الوجود والذهن محال فإن قيل مسلم إن ذلك محال ولكن إذا أخذناه مع وجودها الذهنى أو الخارجى فهنا أمران حقيقة وماهيتها والثانى وجودها الذهنى أو الخارجى فنحن أخذناها موجودة وحكمتنا عليها مجردة فالحكم على جزء هذا المأخوذ المتصور . . قيل هذا القدر المأخوذ عدم محض كما تقدم والعدم لا يكون يجعل جاعل ونكتة المسألة أن

الذوات من حيث هي ذوات إما أن تكون وجوداً أو عدماً فإن كانت وجوداً فهي بجعل الجاعل وإن كانت عدماً فالعدم كاسمه لا يتعلق بجعل الجاعل .

فصل

وأما قوله إن إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه كان اعتماده في إثبات الصانع على الدلائل الفلسفية كما قرره فيقال من العجب ذكركم تحليل الرحمن في هذا المقام وهو أعظم عدو لعباد الكواكب والأصنام التي اتخذت على صورها وهم أعداؤه الذين ألقوه في النار حتى جعلها الله عليه برداً وسلاماً وهو صلى الله عليه وسلم أعظم الخلق براءة منهم وأما ذلك التقرير الذي قرره الرازي في المناظرة بينه وبين الملك المعطل فما لم يخطر بقلب إبراهيم ولا بقلب المشرك ولا يدل اللفظ عليها البتة وتلك المناظرة التي ذكرها الرازي تشبه أن تكون مناظرة بين فيلسوف ومتكلم فكيف يسوغ أن يقال أنها هي المرادة من كلام الله تعالى فيكذب على الله وعلى خليفه وعلى المشرك المعطل وإبراهيم أعلم بالله ووحدانيته وصفاته من أن يوحى إليه بهذه المناظرة ونحن نذكر كلام أئمة التفسير في ذلك ليفهم معنى المناظرة وما دل عليه القرآن من تقريرها قال ابن جرير معنى الآية ألم تر يا محمد إلی الذي حاج إبراهيم في ربه حين قال له إبراهيم ربی الذي یحیی ویمیت یعنی بذلك ربی الذي یمیدة الحیاة والموت یحیی من یشاء ویمیت من أراد بعد الإحیاء قال أنا أفعل ذلك فأحیی وأمیت أستحیی من أردت قتله فلا أقتله فیكون ذلك منی إحیاء له وذلك عند العرب یسمى إحیاء كما قال تعالى (ومن أحمیاء فكمأناً ما أحمیاء الناس جمیعاً) واقتل آخر فیكون ذلك منی إماتة له قال إبراهيم له إن الله هو الذي یأتی بالشمس من مشرقها فإن كنت صادقاً إنك آله فأت بها من مغربها قال الله عز وجل (فبیت الذي کفر) یعنی انقطع وبطلت حجته ثم ذکر من قال ذلك من السلف فروی عن قتادة ذکر لنا أنه دعا برجلین فقتل أحدهما واستحیی الآخر وقال أنا أحیی هذا وأمیت هذا قال إبراهيم عند ذلك فان الله یأتی بالشمس من المشرق فات بها من المغرب وعن مجاهد أنا أحیی وأمیت أقتل من شئت وأستحیی من شئت أدعه حیاً فلا أقتله وقال ابن وهب حدثنی عبد الرحمن بن زید بن أسلم أن الجبار قال لإبراهیم أنا أحیی وأمیت إن شئت قتلک وأن استحییتک فقال لإبراهیم إن الله یأتی بالشمس من المشرق فات بها من المغرب فبیت الذي کفر وقال الربیع لما قال لإبراهیم ربی الذي یحیی ویمیت قال هو یعنی نمرود فأنا أحیی وأمیت فدعا برجلین فاستحیی أحدهما وقتل الآخر وقال أنا أحیی وأمیت أی أستحیی من شئت فقال لإبراهیم فإن الله یأتی بالشمس من المشرق وقال السدی لما خرج لإبراهیم من النار أدخلوه على الملك ولم یکن قبل ذلك دخل علیه فکلمه وقال له من ربک قال ربی الذي یحیی ویمیت قال نمرود أنا أحیی وأمیت أنا آخذ

أربعة نفرأ فأدخلهم بيتاً فلا يطعمون ولا يسقون حتى إذا هلكوا من الجوع أطعمت اثنين وسقيتهما فعاشا وتركت الإثنين فماتا فعرف إبراهيم أن له قدرة بساطانه وملهكه على أن يفعل ذلك قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر وقال إن هذا إنسان مجنون فأخرجوه الأترو أن أنه من جنونه اجترأ على آلهتكم فكسرها وأن النار لم تأكله وخشى أن يفتضح في قومه وكان يزعم أنه رب فامر بإبراهيم فأخرج وقال مجاهد أحيى فلا أقتل وأميت من قتلت وقال ابن جريج أتى برجلين فقتل أحدهما وترك الآخر فقال أنا أحيى وأميت فأميت من قتلت وأحيى فلا أقتل وقال ابن إسحاق ذكر لنا والله أعلم أن نمرود قال لإبراهيم أرأيت إلهك هذا الذي تعبد وتدعو إلى عبادته وتذكر من قدرته التي تعظمه بها على غيرها ما هي قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال نمرود أنا أحيى وأميت فقال له إبراهيم كيف يحيي ويميت قال آخذ الرجلين قد استوجبا القتل في حكى فاقتل أحدهما فأكون قدأتمته وأعفو عن الآخر فاتركه فأكون قد أحييته فقال له إبراهيم عند ذلك فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب أعرف أنه كما تقول فبهت عند ذلك نمرود ولم يرجع إليه شيئاً وعرف أنه لا يطيق ذلك فهذا كلام السلف في هذه المناظرة وكذلك سائر المفسرين بعدهم لم يقل أحد منهم قط أن معنى الآية أن هذا الإحياء والإماتة حاصل مني ومن كل أحد فإن الرجل قد يكون منه الحدوث بواسطة تمزيج الطبايع ونحريك الأجرام الفلكية بل نقطع بأن هذا لم ينظر بقلب المشرك المناظر البتة ولا كان هذا مراده فلا يحل تفسير كلام الله بمثل هذه الأباطيل ونسأل الله أن يعيذنا من القول عليه بما لم نعلم فانه أعظم المحرمات على الإطلاق وأشدّها إثماً وقد ظن جماعة من الأصوليين وأرباب الجدل أن إبراهيم أنتقل مع المشرك من حجة إلى حجة ولم يجبه عن قوله أنا أحيى وأميت قالوا وكان يمكنه أن يتم معه الحجة الأولى بأن يقول مرادى بالإحياء إحياء الميت وإيجاد الحياة فيه لا استبقاؤه على حياته وكان يمكنه تميمها بمعارضته في نفسها بأن يقول فاحي من أمت وقلت ان كنت صادقاً ولكن انتقل إلى حجة أوضح من الأولى فقال إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فانقطع المشرك المعطل وليس الأمر كما ذكروه ولا هذا انتقال بل هذا مطالبة له بموجب دعواه الإلهية والدليل الذي استدلل به إبراهيم قد تم وثبت موجبها فلما ادعى الكافر أنه يفعل كما يفعل الله فيكون إلهاً مع الله طالبه إبراهيم بموجب دعواه مطالبة تتضمن بطلانها فقال إن كنت أنت رباً كما تزعم فتحي وتميت كما يحيي ربي ويميت فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فتصاع لقدرته وتسخيره ومشيته فإن كنت أنت رباً فأت بها من المغرب وتأمل قول الكافر أنا أحيى وأميت ولم يقل أنا الذي أحيى

وأमित يعنى أنا أفعل كما يفعل الله فأكون رباً مثله فقال له إبراهيم فان كنت صادقاً فافعل مثل فعله فى طلوع الشمس فلماذا أطلعها من جهة فأطلعها أنت من جهة أخرى ثم تأمل ما فى ضمن هذه المناظرة من حسن الاستدلال بأفعال الرب المشهودة المحسوسة التى تستلزم وجوده وكال قدرته ومشيتته وعلمه ووجدانيته من الإحياء والإماتة المشهودين الذين لا يقدر عليهما إلا الله وحده وإتيانه تعالى بالشمس من المشرق لا يقدر أحد سواه على ذلك وهذا برهان لا يقبل المعارضة بوجه وإنما لبس عدو الله وأوهم الحاضرين أنه قادر من الإحياء والإماتة على ما هو مماثل لمقدور الرب تعالى فقال له إبراهيم فان كان الأمر كما زعمت فأرتى قدرتك على الإتيان بالشمس من المغرب لتكون مماثلة لقدرة الله على الإتيان بها من المشرق فأين الانتقال فى هذا الاستدلال والمناظرة بل هذا من أحسن ما يكون من المناظرة والدليل الثانى مكمل لمعنى الدليل الأول ومبين له ومقرر لتضمن الدليلين أفعال الرب الدالة عليه وعلى وجدانيته وانفراده بالربوبية والإلهية كما لا تقدر أنت ولا غير الله على مثلها ولما علم عدو الله صحة ذلك وأن من هذا شأنه على كل شىء قدير لا يعجزه شىء ولا يستصعب عليه مرادخاف أن يقول لإبراهيم فسل ربك أن يأتي بها من مغربها فيفعل ذلك فيظهر لأتباعه بطلان دعواه وكذبه وأنه لا يصلح للربوبية فهبت وأمسك وفى هذه المناظرة نكتة لطيفة جدا وهى أن شرك العالم إنما هو مسند إلى عبادة الكواكب والقبور ثم صورت الأصنام على صورها كما تقدم فتضمن الدليلان اللذان استدلت بهما إبراهيم إبطال إلهية تلك جملة بأن الله وحده هو الذى يحيى ويميت ولا يصلح الحى الذى يموت للإلهية لافى حال حياته ولا بعد موته فان له ربا قادرا قاهرا متصرفا فيه لإحياء وإماتة ومن كان كذلك فكيف يكون إلهاً حتى يتخذ الصنم على صورته ويعبد من دونه وكذلك الكواكب أظهرها وأكبرها للحس . هذه الشمس وهى ربوبية مدبرة مسخرة لاتصرف لها فى نفسها بوجه ما بل ربهما وخالفها سبحانه يأتي بها من مشرقها فتنقاد لأمره ومشيتته فهى ربوبية مسخرة مدبرة لا إله يعبد من دون الله .

فصل

وأما استدلاله بأن النبي ﷺ نهى عند قضاء الحاجة عن استقبال الشمس والقمر واستدبارهما فكأنه والله أعلم لما رأى بعض الفقهاء قد قالوا ذلك فى كتبهم فى آداب التخلي ولا تستقبل الشمس والقمر ظن أنهم إنما قالوا ذلك لنهى النبي ﷺ عنه فاحتج بالحديث وهذا من أبطل الباطل فان النبي ﷺ لم ينقل عنه ذلك فى كفة واحدة لا بإسناد صحيح ولا ضعيف ولا مرسل ولا متصل وليس لهذه المسألة أصل فى الشرع والذين ذكروها من الفقهاء منهم من قال العلة

أن اسم الله مكتوب عليهما ومنهم من قال لأن نورهما من نور الله ومنهم من قال إن التنكب عن استقبالهما واستدبارهما أبلغ في التستر وعدم ظهور الفرجين وبكل حال فما لهذا ولا أحكام النجوم فإن كان هذا دالا على دعواكم فدلالة النهي عن استقبال الكعبة بذلك أقوى وأولى وأما استدلاله بأن النبي ﷺ قال يوم موت ولده إبراهيم إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيت ذلك فافزعوا إلى الصلاة وهذا الحديث صحيح وهو من أعظم الحجج على بطلان قولكم فإنه ﷺ أخبر أنهما آيتان من آيات الله لا يحصيها إلا الله فالمنطق والنبات والحيوان والليل والنهار والبر والبحر والجبال والشجر وسائر المخلوقات آياته تعالى الدلالة عليه وهي في القرآن أكثر من أن نذكرها ههنا فهما آيتان لآربان ولا إلهان ولا ينفعان ولا يضران ولا هما تصرف في أنفسهما وذواتهما البتة فضلا عن إعطائهما كل ما في العالم من خير وشر وصلاح وفساد بل كل ما فيه من ذراته وأجزائه وكتباته وجزئياته له تعالى الله عن قول المفتريين المشركين علوا كبيرا . ، وفي قوله ﷺ لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته قولان . . أحدهما أن موت الميت وحياته لا يكون سببا في انكسافهما كما كان يقوله كثير من جهال العرب وغيرهم عند الانكساف إن ذلك لموت عظيم أو ولادة عظيم فأبطل النبي ﷺ ذلك وأخبر أن موت الميت وحياته لا يؤثر في كسوفهما البتة . ، والثاني أنه لا يحصل عن انكسافهما موت ولا حياة فلا يكون انكسافهما سببا لموت ميت ولا حياة حتى وإنما ذلك تخويف من الله لعباده أجرى العادة بحصوله في أوقات معلومه بالحساب كطولع الهلال وإبداره وسراره . . فأما سبب كسوف الشمس فهو توسط القمر بين جرم الشمس وبين أبصارنا فإن القمر عندهم جسم كثيف مظلم فإسكاه دون فلك الشمس فإذا كان على مسامته إحدى نقطتي الرأس أو الذنب أو قريبا منهما حالة الاجتماع من تحت الشمس حال بيننا وبين نور الشمس كسحابة تمر تحتها إلى أن يتجاوزها من الجانب الآخر فإن لم يكن للقمر عرض ستر عنا نور كل الشمس وإن كان له عرض فبقدر ما يوجهه عرضه وذلك أن الخروط الشعاعية تخرج من بصر الناظر إلى المرئي على شكل مخروط رأسه عند نقطة البصر وقاعدته عند جرم المرئي فإن وجهنا أبصارنا إلى جرم الشمس حالة كسوفها فإنه ينتهي إلى القمر أولا مخروط الشعاع فإذا توهمنا نفوذه منه إلى الشمس وقع جرم الشمس في وسط المخروط وإن لم يكن للقمر عرض انكسف كل الشمس وإن كان للقمر عرض فبقدر ما يوجهه عرضه ينحرف جرم الشمس عن مخروط الشعاع ولا يقع كله فيه فينكسف بعضه ويبقى الباقي على ضيائه وذلك إذا كان العرض المرئي أقل من نصف مجموع قطر الشمس والقمر حتى إذا ساوى العرض المرئي نصف مجموع القطرين كان صفحة القمر تماس مخروط الشعاع فلا ينكسف

ولا يكون لكسوف الشمس لبث لأن قاعدة الخروط المتصل بالشمس مساو لقطريها فكما
ابتدأ القمر بالحركة بعد تمام الموازاة بينه وبين الشمس تحرك الخروط وابتدأت الشمس
بالإسفار إلا أن كسوف الشمس يختلف باختلاف أوضاع المساكن حتى أنه يرى في بعضها
ولا يرى في بعضها ويرى في بعضها أقل وفي بعضها أكثر بسبب اختلاف المنظر إذ الكاسف
ليس عارضاً في جرم الشمس يستوى فيه النظر من جميع الأماكن بل الكاسف شيء متوسط
بينها وبين الأبصار وهو قريب منها والمحجوب عنها بعيد فيختلف التوسط باختلاف
مواضع الناظرين وكذلك يختلف كسوف الشمس في ميادها وعند انجلائها في كمية
ما ينكسف منها وفي زمان كسوفها الذي هو من أول البدو إلى وسط الكسوف ومن
وسط الكسوف إلى آخر الانجلاء . . فإن قيل فجرم القمر أصغر من جرم الشمس بكثير
فكيف يحجب عنا كل الشمس . . قيل إنما يحجب عنا جرم الشمس لقربه منا وبعدها عنا
لأن الشيتين المختلفين في الصغر والكبر إذا قرب الصغير من الكبير يرى من أطراف
الكبير أكثر ما يرى منها مع بعد الأصغر عنه وكلما بعد الأصغر عنه وازداد قربه من
الناظر تناقص ما يرى من أطراف الأكبر إلى أن ينتهي إلى حد لا يرى من الأكبر
شيء والحس شاهد بذلك . . وأما سبب خسوف القمر فهو توسط الأرض بينه وبين
الشمس حتى يصير القمر ممنوعاً من اكتساب النور من الشمس ويبقى ظلام ظل الأرض
في مره لأن القمر لا ضوء له أبداً وأنه يكتسب الضوء من الشمس . . وهل هذا الاكتساب
خاص بالقمر أم يشاركه فيه سائر الكواكب ففيه قولان لأرباب الهيئة : أحدهما أن
الشمس وحدها هي المضيئة بذاتها وغيرها من الكواكب مستضيئة بضياها على سبيل العرض
كما عرف ذلك في القمر . . والقول الثاني أن القمر مخصوص بالكسوف دون سائر الكواكب
وغیره من الكواكب مضيئة بذاتها كالشمس . . ورد هؤلاء على أرباب القول الأول بأن
الكواكب لو استفادت أضواها من الشمس لاختلف مقادير تلك الأضواء فيما كان تحت فلك
الشمس منها بسبب القرب والبعد من الشمس كما في القمر فإنه يختلف ضوءه بحسب قربه وبعده
من الشمس . . والذي حمل أرباب القول الأول عليه ما وجدوه من تعلق حركات الكواكب
بحركات الشمس وظنوا أن ضوءها من ضياها وليس الغرض استيفاء الحجاج من الجانبين
وما لكل قول وعليه والمقصود ذكر سبب الخسوف القمري ولما كانت الأرض جسماً
كثيفاً فإذا أشرقت الشمس على جانب منها فإنه يقع لها ظل في الجهة الأخرى لأن كل ذي
ظل يقع في الجهة المقابلة للجرم المضيء فتمت أشرقت عليها من ناحية الشرق وقعت أظلالها في
ناحية الغرب وإذا وقعت عليها من ناحية الغرب مالت أظلالها إلى ناحية المشرق والأرض

أصغر من جرم الشمس بكثير فينبعث ظلها ويرتفع في الهواء على شكل مخروط قاعدته قريبة من تدوير الأرض ثم لا يزال ينخرط تدويره حتى يدق ويتلاشى لأن قطر الشمس لما كان أعظم من قطر الأرض فالمخروط الشعاعية المارة من جوانب الشمس إلى جوانب الأرض تكون متلاقية لامتوازية فإذا مرت على الاستقامة إلى الأرض انقذت على جوانبها فالتقى لاحتالة إلى نقطة فينحصر ظل الأرض في سطح مخروط فيكون مخروطا لاحتالة قاعدته حيث ينبعث من الأرض ورأسه عند نقطة تلاقى المخروط ولو كان قطر الأرض مساويا لقطر الشمس لكانت المخروط الشعاعية تخرج إليها على التوازي فيكون الظل متساوي الغلط إلى أن ينتهى إلى محيط العالم ولو كان قطر الشمس أصغر من قطر الأرض لكانت المخروط تخرج على التلاقى في جهة الشمس وأوسعها عند قطر الأرض وكان الظل يزداد غلظا كلما بعد عن الأرض إلى أن ينتهى إلى محيط العالم ويلزم من ذلك أن ينخسف القمر في كل استقبال والوجود بخلافه ولما ثبت أن ظل الأرض مخروطى الشكل وقد وقع في الجهة المقابلة لجهة الشمس فيكون نقطة رأسه في سطح فلك البروج لاحتالة ويدور بدوران الشمس مسامنا للنقطة المقابلة لموضع الشمس وهذا الظل الذى يكون فوق الأرض هو الليل فإن كانت الشمس فوق الأرض كان الظل تحت الأرض بالنسبة إلينا ونحن في ضياء الشمس وذلك النهار والزمان الذى يوازي دوام الظل فوق الأرض هو زمان الليل فاذا اتفق مرور القمر على محاذة نقطتى الرأس والذنب حالة الاستقبال يقع في مخروط الظل لاحتالة لأن الخط الخارج من مركز العالم المار بمركز الشمس ثم بمركز القمر من الجانب الآخر ينطبق على سهم مخروط الظل فيقع القمر في وسط المخروط فينخسف كله ضرورة لأن الأرض تمنعه من قبول ضياء الشمس فيبقى القمر على جوهره الأصيل فان كان للقمر عرض ينحرف عن سهم المخروط بقى الضوء فيه بقدره وطبعه وقد يقع كله في المخروط ولكن يمر في جانب منه وقد يقع بعضه في المخروط ويبقى بعضه خارجا وربما يماس مخروط للظل ولا يقع من جرمه شيء وإنما يختلف هذا باختلاف بعده من الخط الخارج من مركز العالم المار بمركز الشمس المطابق لسهم المخروط حتى إذا عظم عرضه بأن لا يبقى بينه وبين إحدى نقطتى الرأس والذنب أكثر من ثلاثة عشر دقيقة لا يماس المخروط أصلا وإذا وقع في جانب منه قل مكثه وربما لم يكن له مكث أصلا وإنما يعرف ذلك بتقديم معرفة قطر الظل وقطر القمر يختلف باختلاف أبعاده عن الأرض وكذلك قطر الظل أيضا يختلف باختلاف أبعاد الشمس عن الأرض فإن الشمس متى قربت من الأرض كان ظل الأرض دقيقا قصيرا وإذا بعدت عنها كان ظل الأرض طويلا غليظا لأنها متى بعدت عن الأرض يرى قطرها أصغر وأقرب تلاقيا منها وكلما كان أعظم مقداراً فى رأى

العين فالخطوط الشعاعية أقصر وأقرب تلاقيا فلذلك يختلف قطع القمر غلاظ الظل في أوقات الكسوفات والموضع الذي يقطعه القمر من الظل يسمونه فلك الجوزهر وإذا عرف قطر الظل وعرف مقدار قطر نصف القمر وجمع بينهما ونصف ذلك وعرف عرض القمر إن كان له عرض فإن كان العرض مساويا لنصف مجموع القطرين فإن القمر يماس دائرة الظل ولا ينكسف وإن كان العرض أقل من نصف مجموعهما فإنه ينكسف فينظر إن كان مساويا لنصف قطر الظل انكسف من القمر مثل نصف صفحته وإن كان العرض أقل من نصف قطر الظل فينتقص العرض من نصف قطر الظل فإن كان الباقي مثل قطر القمر انكسف كله ولا يكون له مكث وإذا لم يكن له عرض انكسف كله ويمكث زمانا أ كثر وأطول ما يمتد زمان الكسوف القمري أربع ساعات وأما زمان الكسوف الشمسي فلا يزيد على ساعتين وكسوف القمر يختلف باختلاف أوضاع المساكن إذ الكسوف عارض في جهة وهو عبوره في ظلام ظل الأرض بخلاف كسوف الشمس وإنما يختلف الوقت فقط بأن يكون في بعض المساكن على مضي ساعة من الليل وفي بعضها على مضي نصف ساعة وقد يطلع منكسفا في بعض المساكن وينكسف بعد الطلوع في بعضها وقد لا يرى منكسقا أصلا إذا كانت الشمس فوق الأرض حالة الاستقبال ويرى الخسوف في القمر أبدأ يكون من طرفه الشرقي إذ هو الذهاب إلى الاستقبال نحو المشرق والدخول في الظل بحر كته ثم ينحرف قليلا قليلا إلى الشمال أو الجنوب في بدء انجلائه أيضا من طرفه الشرقي وأما في الشمس فبدء الكسوف من طرفها الغربي إذ الكسوف لها يأتي إليها من ناحية الغرب وكذلك الانجلاء أيضا من الطرف الغربي لكن بانحراف منه إلى الشمال والجنوب وإنما ذكرنا هذا الفصل ولم يكن من غرضنا لأن كثيرا من هؤلاء الأحكاميين يوهون على الجهال بأمر الكسوف ويوهونهم أن قضاياهم وأحكامهم النجومية من السعد والنحس والظفر والغلبة وغيرها هي من جنس الحكم بالكسوف فيصدق بذلك الأغمار والرعاغ ولا يعلمون أن الكسوف يعلم بحساب سير النيرين في منازلهما وذلك أمر قد أجرى الله تعالى العادة المطردة به كما أجراها في الأبدار والسرار والهلل فمن علم ما ذكرناه في هذا الفصل علم وقت الكسوف ودوامه ومقداره وسببه . . وأما أنه يقتضى من التأثيرات في الخير والشر والسعد والنحس والإماتة والإحياء وكذا وكذا بما يحكم به المنتجمون فقول على أنه وعلى خلقه بما لا يعلمون نعم لا ننكر أن الله سبحانه يحدث عند الكسوفين من أفضيته وأقداره ما يكون بلاء لقوم ومصيبة لهم ويجعل الكسوف سببا لذلك ولهذا أمر النبي ﷺ عند الكسوف بالفرع إلى ما ذكر الله والصلاة والعقاة والصدقة والصيام لأن هذه الأشياء تدفع موجب الكسوف الذي جعله الله سببا لما جعله فلولاً انعقاد سبب التخويف لما أمر بدفع موجب هذه

العبادات والله تعالى في أيام دهره أوقات يحدث فيها ما يشاء من البلاء والنعماء ويقضى من الأسباب بما يدفع موجب تلك الأسباب لمن قام به أو يقلله أو يخففه فن فزع إلى تلك الأسباب أو بعضها اندفع عنه الشر الذي جعل الله الكسوف سبباً له أو بعضه ولهذا قل ما يسلم أطراف الأرض حيث يخفى الإيمان وما جاءت به الرسل فيها من شر عظيم يحصل بسبب الكسوف وتسلم منه الأماكن التي يظهر فيها نور النبوة والقيام بما جاءت به الرسل أو يقل فيها جداً ولما كسفت الشمس على عهد النبي ﷺ قام فزعا مسرعاً يجر رداءه ونادى في الناس الصلاة جامعة وخطبهم بتلك الخطبة البليغة وأخبر أنه لم ير كيومه ذلك في الخير والشر وأمرهم عند حصول مثل تلك الحالة بالعتاقة والصدقة والصلاة والتوبة فصلوات الله وسلامه على أعلم الخلق بالله وبأمره وشأنه وتعريفه أمور مخلوقاته وتدييره وأنصحهم الأمة ومن دعاهم إلى ما فيه سعادتهم في معاشهم ومعادهم ونهاهم عما فيه هلاكهم في معاشهم ومعادهم ولقد خفي ما جاءت به الرسل على طائفتين هلك بسببهما من شاء الله ونجا من شركهما من سبقت له العناية من الله إحدى الطائفتين وقفت مع ما شاهدته وعلمته من أمور هذه الأسباب والمسببات وإحالة الأمر عليها وظنت أنه ليس لها شيء فسكفرت بما جاءت به الرسل وجحدت المبدأ والمعاد والتوحيد والنبوات وغيرها ما انتهى إليه علومها ووقفت عنده أقدامها من العلم بظاهر من المخلوقات وأحوالها وجاء ناس جهال رأوهم قد أصابوا في بعضها أو كثير منها فقالوا كل ما قاله هؤلاء فهو صواب لما ظهر لنا من صوابهم وانضاف إلى ذلك أن أولئك لما وقفوا على الصواب فيما أدهم إليه أفكارهم من الرياضيات وبعض الطبيعيات وثقوا بعقولهم وفرحوا بما عندهم من العلم وظنوا أن سائر ما خدتمته أفكارهم من العلم بالله وشأنه وعظمته هو كما أوقعهم عليه فكفرهم وحكمه حكم ما شهد به الحس من الطبيعيات والرياضيات فتفاقم الشر وعظمت المصيبة وجحد الله وصفاته وخلقه للعالم وإعادته له وجحد كلامه ورسله ودينه ورأى كثير من هؤلاء أنهم هم خواص النوع الإنساني وأهل الألباب وأن ما عداهم هم القشور وأن الرسل إنما قاموا بسياستهم لئلا يكونوا كالبهايم فهم بمنزلة قيم المارستان وأما أهل العقول والرياضيات والأفكار فلا يحتاجون إلى الرسل بل هم يعلمون الرسل ما يصنعونه للدعوة الإنسانية كما تجحد في كتبهم وينبغي للرسول أن يفعل كذا وكذا والمقصود أن هؤلاء لما أوقفهم أفكارهم على العلم بما خفي على كثير من أسرار المخلوقات وطبائعها وأسبابها ذهبوا بأفكارهم وعقولهم وتجاوزوا ما جاءت به الرسل وظنوا أن إصابتهم في الجميع سواء وصار المقلد لهم في كفرهم إذا خطر له إشكال على مذهبهم أو دهمه ما لا حيلة له في دفعه من تناقضهم وفساد أصولهم يحسن الظن بهم ويقول لاشك أن علومهم مشتملة على حكمة .

والجواب عنه إنما يعسر على إدراكه لأن من لم يحصل الرياضيات ولم يحكم المنطقيات وتمده علوم قد صقلتها أذهان الأولين وأحكمها أفكار المتقدمين فالفاضل كل الفاضل من يفهم كلامهم . . . وأما الاعتراض عليهم وإبطال فاسد أصولهم فعندهم من المحال الذي لا يصدق به وهذا من خداع الشيطان وتلبسه بغروره لهؤلاء الجهال مقلدى أهل الضلال كما ليس على أمتهم وسلفهم بأن أوهمهم أن كل ما نالوه بأفكارهم فهو صواب كما ظهرت إصابتهم في الرياضيات وبعض الطبيعيات فركب من ضلال هؤلاء وجهل أتباعهم ما اشتدت به البلية وعظمت لأجله الرزية وضرب لأجله العالم ووجد ما جاءت به الرسل وكفر بالله وصفاته وأفعاله ولم يعلم هؤلاء أن الرجل يكون إماما في الحساب وهو أجهل خلق الله بالطب والهيئة والمنطق ويكون رأسا في الطب ويكون من أجهل الخلق بالحساب والهيئة ويكون مقدما في الهندسة وليس له علم بشيء من قضايا الطب وهذه علوم متقاربة والعبد بينها وبين علوم الرسل التي جاءت بها عن الله أعظم من العبد بين بعضها وبعض فإذا كان الرجل إماما في هذه العلوم ولم يعلم بأى شيء جاءت به الرسل ولا تحلى بعلوم الإسلام فهو كالعالمى بالنسبة إلى علومهم بل أبعد منه وهل يلزم من معرفة الرجل هيئة الأفلاك والطب والهندسة والحساب أن يكون عارفا بالآلهيات وأحوال النفوس البشرية وصفادتها ومعادها وسعادتها وشقاوتها وهل هذا إلا بمنزلة من يظن أن الرجل إذا كان عالما بأحوال الأبنية وأوضاعها ووزن الأنهار والقنى والقنطرة كان عالما بالله وأسمائه وصفاته وما ينبغي له وما يستحيل عليه فعولم هؤلاء بمنزلة هذه العلوم التي هي نتائج الأفكار والتجارب فما لها وعلوم الأنبياء التي يتلقونها عن الله بوسائط الملائكة هذا وإن تعلق الرياضيات التي هي نظر في نوعي الحكم المتصل والمنفصل والمنطقيات التي هي نظر في المعقولات الثابتة ونسبة بعضها إلى بعض بالكلية والجزئية والسلب والإيجاب وغير ذلك بمعرفة رب العالمين وأسمائه وصفاته وأفعاله وأمره ونهيه وما جاءت به رسله وثوابه وعقابه ومن الخدع الإبلسية قول الجهال أن فهم هذه الأمور موقوف على فهم هذه القضايا العقلية وهذا هو عين الجهل والحق وهو بمنزلة قول القائل لا يعرف حدوث الرمانة من لم يعرف عدد حباتها وكيفية تركيبها وطبوعها ولا يعرف حدوث العين من لم يعرف عدد طبقاتها وتشريحها وما فيها من التركيب ولا يعرف حدوث هذا البيت من لم يعرف عدد لبناته وأخشابه وطبائعها ومقاديرها وغير ذلك من الكلام الذي يضحك منه كل عاقل وينادى على جهل قائله وحقه بل العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله ودينه لا يحتاج إلى شيء من ذلك ولا يتوقف عليه وآيات الله التي دعا عباده إلى النظر فيها دالة عليه بأول النظر دلالة يشترك فيها كل سليم العقل والحاسة وأما أدلة هؤلاء غيالات وهمية وشبه عسرة المدرك بعيدة التحصيل متناقضة الأصول غير

مؤدية إلى معرفة الله ورسله والتصديق بها مستلزمة للكفر بالله ووجد ما جاءت به رسله وهذا لا يصدق به إلا من عرف ما عند هؤلاء وعرف ما جاءت به الرسل ووازن بين الأمرين فحينئذ يظهر له التفاوت وأما من قلدتم وأحسن ظنه بهم ولم يعرف حقيقة ما جاءت به الرسل فليس هذا عشه بل هو في أودية هائم حيران ينقاد لكل حيران .

يعدو من العلم في ثوبين من طمع معلمين بحرمان وخذلان

والطائفة الثانية رأت مقابلة هؤلاء برد كل ما قالوه من حق وباطل وظنوا أن من ضرورة تصديق الرسل رد ما علمه هؤلاء بالعقل الضروري وعلوا مقدماته بالحس فنازعوهم فيه وتعرضوا لإبطاله بمقدمات جدلية لا تغني من الحق شيئاً وليتهم مع هذه الجناية العظيمة لم يضيفوا ذلك إلى الرسل بل زعموا أن الرسل جاؤا وبها يقولونه فسأظن أولئك الملاحدة بالرسل وظنوا أنهم هم أعلم وأعرف منهم ومن حسن ظنه بالرسل قال أنهم لم يخف عليهم ما نقوله ولكن خاطبوهم بما تحتمله عقولهم من الخطاب الجمهوري للجمهور وأما الحقائق فكسبتموها عنهم والذي سلطهم على ذلك جحد هؤلاء لحقهم ومكابرتهم إياهم على ما لا يمكن المكابرة عليه ، وهو معلوم لهم بالضرورة كمكابرتهم إياهم في كون الأفلاك كروية الشكل والأرض كذلك وأن نور القمر مستفاد من نور الشمس وإن الكسوف القمري عبارة عن انحناء ضوء القمر بتوسط الأرض بينه وبين الشمس من حيث أنه يقتبس نوره منها والأرض كرة والسماء محيطة بهما من الجوانب فإذا وقع القمر في ظل الأرض انقطع عنه نور الشمس كما فندمناه وكقولهم أن الكسوف الشمسي معناه وقوع جرم القمر بين الناظر وبين الشمس عند اجتماعهما في العقدين على دققة واحدة وكقولهم بتأثير الأسباب المحسوسة في مسباتها وإثبات القوى والطباع والأفعال وانفعالات مما تقوم عليه الأدلة العقلية والبراهين اليقينية فيخوض هؤلاء معهم في إبطاله فيغيرهم ذلك بكفرهم وإلحادهم والوصية لأصحابهم بالتمسك بما هم عليه فإذا قال لهم هؤلاء هذا الذي تذكرونه على خلاف الشرع والمصير إليه كفر وتكذيب الرسل لم يستريبوا في ذلك ولم يلحقهم فيه شك ولكنهم يستريبون بالشرع وتنقص مرتبة الرسل من قلوبهم وضرر الدين وما جاءت به الرسل بهؤلاء من أعظم الضرر وهو كضرره بأولئك الملاحدة فهما ضرران على الدين ضرر من يطعن فيه وضرر من ينصره بغير طريقه وقد قيل إن العدو العاقل أقل ضرراً من الصديق الجاهل فإن الصديق الجاهل يضرك من حيث يقدر أنه ينفعاك والشأن كل الشأن أن تجعل العاقل صديقك ولا تجعله عدوك وتغريه بحجارة الدين وأهله . فإن قلت فقدأطلت في شأن الكسوف وأسبابه وجئت بما شئت به من البيان الذي لم يشهدله الشرع بالصحة ولم يشهدله بالإعلان بل جاء الشرع بما هو أهم منه وأجل فائدة من الأمر عند الكسوفين

بما يكون سببا لصلاح الأمة في معاشها ومعادها وأما أسباب الكسوف وحسابه والنظر في ذلك فانه من العلم الذي لا يضر الجهل به ولا ينفع نفع العلم بما جاءت به الرسل وبين علوم هؤلاء فكيف نصنع بالحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته فاذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله والصلاة فكيف يلائم هذا ما قاله هؤلاء في الكسوف.. قيل وأي مناقضة بينهما وليس فيه إلا نفي تأثير الكسوف في الموت والحياة على أحد القولين أو نفي تأثير النيرين بموت أحد أو حياته على القول الآخر وليس فيه تعرض لإبطال حساب الكسوف وإلا الأخبار بأنه من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله وأمر النبي ﷺ عنده بما أمر به من العتاقة والصلاة والدعاء والصدقة كأمره بالصلوات عند الفجر والغروب والزوال مع تضمن ذلك دفع موجب الكسوف الذي جعله الله سبحانه سببا له فشرع النبي ﷺ للأمة عند انعقاد هذا السبب ما هو أنفع لهم وأجدى عليهم في دنياهم وأخراهم من اشتغالهم بعلم الهيئته وشأن الكسوف وأسبابه فإن قيل فما تصنعون بالحديث الذي رواه ابن ماجه في سننه والإمام أحمد والنسائي من حديث النعمان بن بشير قال انكسفت الشمس على عهد النبي ﷺ فخرج فرعا يجر ثوبه حتى أتى المسجد فلم يزل يصل حتى انجلت ثم قال إن ناسا يزعمون أن الشمس والقمر لا ينكسفان إلا لموت عظيم من العظماء وليس كذلك أن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا تجلى الله لشيء من خلقه خشع له . . . قيل قد قال أبو حامد الغزالي أن هذه الزيادة لم يصح نقلها فيجب تكذيب قائلها وإنما المروى ما ذكرنا يعني الحديث الذي ليست هذه الزيادة فيه قال ولو كان صحيحا لكان تأويله أهون من مكابرة أمور قطعية فكم من ظواهر أولت بالأدلة العقلية التي لا تتبين في الوضوح إلى هذا الحد وأعظم فانفرج به الملحدة أن يصرح ناصر الشرع بأن هذا وأمثاله على خلاف الشرع فيسهل عليه طريق لإبطال الشرع وإن كان شرطه أمثال ذلك وليس الأمر في هذه الزيادة كما قاله أبو حامد فإن إسنادها لا مطعن فيه قال ابن ماجه حدثنا محمد بن المثنى وأحمد بن ثابت وحميد بن الحسن قالوا حدثنا عبد الوهاب قال حدثنا خالد الحذاء عن أبي قلابة عن النعمان بن بشير فذكره وهؤلاء كلهم ثقات حفاظ لكن لعل هذه اللفظة مدرجة في الحديث من كلام بعض الرواة ولهذا لا توجد في سائر أحاديث الكسوف فقد رواها عن النبي ﷺ بضعة عشر صحابيا. عائشة أم المؤمنين وأسماء بنت أبي بكر وعلي بن أبي طالب وأبي بن كعب وأبو هريرة وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وجابر بن عبد الله في حديثه وسمرة بن جندب وقبيصة الهلالي وعبد الرحمن بن سمرة فلم يذكر أحد منهم هذه اللفظة التي ذكرت في حديث النعمان بن بشير فمن ههنا نخاف أن تكون أدرجت في الحديث إدراجا

وايست من لفظ رسول الله ﷺ على أن ههنا مسلكا بعيد المآخذ لطيف المنزع يتقبله العقل السليم والفطرة السليمة وهو أن كسوف الشمس والقمر وجب لهما من الخشوع والخضوع بانمحاه نورهما وانقطاعه عن هذا العالم ما يكون فيه سلطانهما وبهاؤهما وذلك يوجب لا محالة لهما من الخشوع والخضوع لرب العالمين وعظمته وجلاله ما يكون سببا لتجلى الرب تبارك وتعالى لهما ولا يستنكرون أن يكون تجلى الله سبحانه وتعالى لهما في وقت معين كما يدنو من أهل الموقف عشية عرفة وكما ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا عند مضي نصف الليل فيحدث لهما ذلك التجلي خشوعا آخر ايسر هو الكسوف ولم يقل النبي ﷺ أن الله إذا تجلى لهما انكسفا ولكن اللفظة فإذا تجلى الله لشيء من خلقه خشع له ولفظ الإمام أحمد في الحديث إذا بدا الله لشيء من خلقه خشع له فهنا خشوعان خشوع أوجبهما كسوفهما بذهاب ضوءهما وانمحاه فتجلى الله سبحانه لهما لحدث لهما عند تجليه تعالى خشوع آخر سبب التجلي كما حدث للجهل إذ تجلى تبارك وتعالى له أن صار دكا وساخ في الأرض وهذا غاية الخشوع لكن الرب تبارك وتعالى ثبتهما لتجليه عناية بخلقه لانتظام مصالحهم بهما ولو شاء سبحانه لثبت الجبل لتجليه كما ثبتهما ولكن أرى كليمة موسى أن الجبل العظيم لم يطق الثبات له فكيف تطيق أنت الثبات للرؤية التي سألتها .

فصل

وأما استدلاله بحديث ابن مسعود عن النبي ﷺ إذا ذكر القدر فأمسكوا وإذا ذكر أصحابي فأمسكوا وإذا ذكر النجوم فأمسكوا فهذا الحديث لو ثبت لكان حجة عليه لا له إذ لو كان علم الأحكام النجومية حقا لا باطلا لم ينه عنه النبي ﷺ ولا أمر بالإمسك عنه فإنه لا ينهى عن الكلام في الحق بل هذا يدل على أن الخائض فيه خائض فيما لا علم له به وأنه لا ينبغي له أن يخوض فيه ويقول على الله ما لا يعلم فأين في هذا الحديث ما يدل على صحة علم أحكام النجوم . . . وأما أحاديث النهي عن السفر والقمر في العقرب فصحيح من كلام المنجمين وأما رسول رب العالمين فبريء ممن نسب إليه هذا الحديث وأمثاله ولكن إذا بعد الإنسان عن نور النبوة واشتدت غربته عما جاء به الرسول جوز عقله مثل هذا كما يجوز عقل المشركين يقول النبي ﷺ لو حسن أحدكم ظنه بمحجر نفعه وهذا ونحوه من كلام عباد الأصنام الذين حسنوا ظنهم بالأحجار فساقهم حسن ظنهم إلى دار البوار . . . وأما الرواية عن علي أنه نهى عن السفر والقمر في العقرب فمن الكذب على علي رضي الله عنه والمشهور عنه خلاف ذلك وعكسه وأنه أراد الخروج لحرب الخوارج فاعترضه منجم فقال يا أمير المؤمنين لا تخرج فقال لأى شيء قال إن القمر في العقرب فإن خرجت أصبت وهزم عسكريك فقال علي رضي الله عنه ما كان لرسول الله ﷺ

ولا لأبي بكر ولا لعمر منجم بل أخرج ثقة بالله وتوكلا على الله وتكذيبا لقولك فما سافر بعد رسول الله ﷺ سفرة أبرك منها قتل الخوارج وكفى المسلمين شرهم ورجع مؤيدا منصورا فائزا ببشارة النبي صلى الله عليه وسلم لمن قتلهم حيث يقول شر قتلي تحت أديم السماء خير قتيل من قتلوه وفي لفظ طوبى لمن قتلهم وفي لفظ تقتلهم أولى الطائفتين بالحق وفي لفظ أن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد وقال على لأصحابه لولا أن تتكلموا لحدتكم بما لكم عند الله في قتلهم فكان هذا الظفر ببركة خلاف ذلك المنجم وتكذيبه والثقة بالله رب النجوم والاعتماد عليه وهذه سنة الله فيمن لم يلتفت إلى النجوم ولا إلى علمه أحر كاته وسب كناه وأسفاره وإقامته كما أن سنته نكبة من كان منقادا لأربابها عاملا بما يحكمون له به وفي التجارب من هذا ما يكفي اللبيب المؤمن والله الموفق .

فصل

والذي أوجب للمنجمين كراهية السفر والقمر في العقرب أنهم قالوا السفر أمر يراد خير من الخيرات فإذا كان الوصول إلى ذلك الأمر أسرع كان أجود فينبغي على هذا أن يكون القمر في برج منقلب والعقرب برج ثابت والثواب عندهم تدل على الأمور البطيئة . . قالوا وأيضاً البرج للمريخ والمريخ عندهم نحس أكبر والنحس ينحس الحظوظ على أصحابها فينبغي أن يكون القمر في برج سعد لأن السعد ينفع والنحس يضر وأيضاً فإن هذا البرج هو برج هبوط القمر وإذا كان الكوكب في هبوطه لا يلتزم لصاحبه ما يريد ويقصده بل يكون وبالاً عليه لأن الكوكب الهابط عندهم كالمنكس وأيضاً فإن القمر عندهم رب تاسع العقرب وإذا كان رب التاسع منحوساً فالسفر مكروه لأن التاسع منسوب إلى السفر وبالجملة فإن العقرب عندهم شر البروج والقمر على الإطلاق قالوا فلذلك ينبغى الحذر من السفر والقمر في العقرب قالوا فمن كره السفر إذ ذاك فأنما يكرهه بعلمه وعقله وأمير المؤمنين على بن أبي طالب رضي الله عنه أعقل أهل زمانه وأعلمهم فهو أولى بكرهته وليس ذلك مخصوصاً عندهم بالسفر وحده بل يكرهون جميع الابتداآت والاختيارات والقمر في العقرب ولما كان القمر أسرع السكواكب حركة فهو أولى أن يكون دليلاً على الأمور المنقلبة والسفر أمر منقلب والعقرب برج ثابت غير منقلب والتجربة والواقع من أكبر شاهد على تكذيبهم في هذا الحكم فكم بمن سافر وتزوج وابتدأ واختار والقمر في العقرب وتم له مراده على أكمل ما كان يؤمله ولا يزال الناس يبدئون الأسفار والابتداآت والاختيارات في كل وقت والقمر في العقرب وغيره ويحمدون عواقب أسفارهم كما أنشأ أمير المؤمنين على رضي الله عنه سفر جهاده للخوارج والقمر في العقرب وأنشأ المعتمد سفر فتح عمورية وجهاد أعداء الله والقمر في العقرب وقد أجمع الكذابون

أنه إن خرج كسر عسكره وقتل أو أسرفين الله للمسلمين كذبهم بذلك الفتح الجليل ولو استقصينا أمثال هذه الوقائع لطال الأمر جدا ومن أراد أن يعلم كذبهم قطعا فليبتدىء سفر أو اختيارا أو بناء أو غيره والقمر في العقرب ولتوكل على الله وليسافر فانه يرى ما يغبطه ويسره ومن أبين الكذب والبهت الكذب على الحس والواقع وهذا الذى كرهوه وحذروا منه لو كان الواقع شاهداً به لكان الناس لا يختارون ولا يسافرون ولا يبتدون شيئا البتة والقمر في العقرب وكان عليهم بهذا وتجربتهم له معلوما بالضرورة فكيف والأمر بالعكس وأيضاً فيقال له قد يكون القمر في العقرب وتجمعه السعود وهما المشتري والزهرة مثلا ويكون رب بيت السفر وبيت الطالع وبيت السفر أيضاً سعودات فهلا قلتم ان السفر حينئذ يكون صالحا لاجتماع هذه السعودات في البرج المنقلب واجتماعها يكسبها قوة بل قال قضاؤكم يكون القمر في العقرب مسعودا إن جامع السعود بل قالوا إن السعود أيضاً تنتحس فيه فاذا حل السعود العقرب انتحست فيه ولذلك قلتم إن الشمس إذا حلت ضعفت فيه أيضاً جدا وإن كان معه السعدان أعنى المشتري والزهرة فلو قلب عليكم هذا الاستدلال وقيل إذا حلت السعود في هذا البرج قوى فعلها وتضاف بعضها مع بعض فقوى السعد واجتماعها ولم يقوى البرج على انحسارها وقوة زحل والمريخ النحسين على هذا البرج لا يستلزم انحسار هذه السعود بل إن سعادتها تؤثر في نحسها كمن جنس قولكم ومن هنا قال أبو نصر الفارابي واعلم أنك لو قلبت أوضاع المنجمين فجعلت السعد نحسا والنحس سعديا والحرار بارداً وعكسه لكانت أحكامك من جنس أحكامهم تصيب وتخطئ .

فصل

وأما ما احتج به من الأثر عن علي أن رجلا أتاه فقال إني أريد السفر وكان ذلك في محاق الشهر فقال أتريد أن يمحق الله تجارتك استقبال هلال الشهر بالخروج فهذا لا يعلم ثبوته عن علي والكذبون كثيرا ما يتفقون سلمهم الباطلة بنسبتها إلى علي وأهل بيته كأصحاب القرعة والجفر والبطاقة والهفت والسكبان والملاحم وغيرها فلا يدري ما كذب على أهل البيت إلا الله سبحانه ثم لو صح هذا عن علي رضی الله عنه لم يكن فيه تعرض لثبوت أحكام النجوم بوجه ولا ريب أن استقبال الأسفار والأفعال في أوائل النهار والشهر والعام لها مزية والنبي ﷺ قد قال اللهم بارك لأمتي في بكرها وكان صخر الغامدى راوى الحديث إذا بعث تجارة له بعثها في أول النهار فأثرى وكثر ماله ونسبة أول النهار نسبة أول الشهر وإليه وأول العام إليه فلأوائل مزية القوة وأول النهار والشمس بمنزلة شبابه وآخره بمنزلة شيخوخته وهذا أمر معلوم بالتجربة وحكمة الله تقتضيه . . وأما ما ذكره عن اليهودى الذى أخبر ابن عباس بما أخبره من موت

ابنه إلى تمام ذكر القصة فهذه الحكاية إن صححت فهي من جنس أخبار الكهان بشيء من المقدمات وقد أخبر ابن صياد النبي ﷺ بما خبأ له في ضميره فقال له أنت من إخوان الكهان وعلم تقدمه المعرفة لا تختص بما ذكره المنجمون بل له عدة أسباب يصيب ويخطئ ويصدق الحكم معها ويكذب منها السكاهة ومنها المنامات ومنها الفأل والزجر ومنها السناخ والبارح ومنها الكف ومنها ضرب الحصى ومنها الحظ في الأرض ومنها الكشوف المستندة إلى الرياضة ومنها الفراسة ومنها الجزاية ومنها علم الحروف وخواصها إلى غير ذلك من الأمور التي ينال بها جزء يسير من علم الكهان وهذا نظير الأسباب التي يستدل بها الطبيب والفلاح والطبايعي على أمور غيبية بما تقتضيه تلك الأدلة مثال الطبيب إذا رأى الجرح مستديراً حكماً بأنه عسر البرء وإذا رآه مستطيلاً حكماً بأنه أسرع برء وكذلك علامات البحارين وغيرها ومن تأمل ما ذكره بقراط في علائم الموت رأى العجائب وهي علامات صحيحة مجربة وكذلك ما علم به الربان في أمور تحدث في البحر والرياح بعلامات تدل على ذلك من طلوع كوكب أو غروبه أو علامات أخرى فيقول يقطع مطر أو يحدث ريح كذا وكذا أو يضطرب البحر في مكان كذا ووقت كذا فيقع ما يحكم به وكذلك الفلاح يرى علامات فيقول هذه الشجرة يصيبها كذا وتيبس في وقت كذا وهذه الشجرة لا تحمل العام وهذه تحمل وهذا النبات يصيبه كذا وكذا لما يرى من علامات يختص هو بمعرفة ما بل هذا أمر لا يختص بالإنسان بل كثير من الحيوان يعرف أوقات المطر والصحو والبرد وغيره كما ذكره الناس في كتب الحيوان والفرس الرديء الخلق إذا رأى اللجام من بعيد نفر وجزع وعرض من يريد أن يلجمه علماً منه بما يكون بعد اللجام وهذه النملة إذا خزنت الحب في بيوتها كسرتة بنصفين علماً منها بأنه ينبت إذا كان صحيحاً وأنه إذا انكسر لا ينبت فإذا خزنت الكسفرة كسرتها بأربعة أرباع علماً منها بأنها تنبت إذا كسرت بنصفين وهذا السنور يدفن أذاه ويغطيه بالتراب علماً منه بأن الفأر تهرب من رائحته فيفوته الصيد ويشمه أولاً فإن وجد رائحته شديدة غطاه بحيث يوارى الرائحة والجرم وإلا اكتفى بأيسر التغطية وهذا الأسد إذا مشى في لين سحب ذنبه على آثار رجله ليغطها علماً منه بأن المار يرى مواطئ رجله ويديه وإذا ألف السنور المنزل منع غيره من السنانير الدخول إلى ذلك المنزل وحارهم أشد محاربة وهم من جنسه علماً منه بأن أربابه ربما استحسنوه وقدموه عليه أو شاركوا بينهما في المطعم وإن أخذ شيئاً مما يجزيه أصحاب المنزل عنه هرب علماً بما يكون إليه منهم من الضرب فإذا ضربوه تملقهم أشد التلق وتمسح بهم واطع أقدامهم علماً منه بما يحصل له الملق من العفو والإحسان وهذا في الحيوان البهيم أكثر من أن

نذكره فله من تقدمه المعرفة ما يليق به وللخيال والهام من ذلك عجائب وكذلك الثعلب وغيره
فعلم أن هذا أمر عام للانسان والحيوان أعطى من تقدمه المعرفة بحسبه وأسباب هذه التقدمه
تختلف والأمم الذين لم يتقيدوا بالشرائع لهم اعتبار عظيم بهذا وكذلك من قل التفاته واعتناؤه
بما جاءت به الرسل فإنه يشتد التفاته ويكثر نظره واعتناؤه بذلك وأما أتباع الرسل فقد أغناهم
الله بما جاءت به الرسل من العلوم النافعة والأعمال الصالحة عن هذا كله فلا يعتنون به ولا يجعلونه
من مطالبهم المهمة لأن ما يطلبونه أعلى وأجل من هذا ومع هذا فلهم منه أوفر نصيب بحسب
متابعتهم الرسل من الدراسة الصادقة والمنامات الصالحة الصحيحة والكشوفات المطابقة وغيرها
وهممهم لانقش عند شيء من ذلك بل هي طامحة نحو كشف ما جاء به الرسل من الهدى ودين
الحق في كل مسألة وهذا أعظم الكشوف وأجله وأفعه في الدارين مع كشف عيوب النفس
وآفات الأعمال وأما الكشف الجزئي عما أكل فلان وعما أحده في داره وعما يجري له في غده
ونحو ذلك فهذا مما لا يعاباً به من علت همته ولا يلتفت إليه ولا يعده شيئاً على أنه مشترك بين المؤمن
والكافر فلعباد الأصنام والمجوس والصابئة والفلاسفة والنصارى من ذلك شيء كثير وذلك
لا ينفعهم عند الله ولا يخلصهم من عذابه وهؤلاء الكهان وعبيد الجن والسمرة لهم من ذلك
أمور معروفة وهم أكفر الخلق فغاية هذا المنجم اليهودى الذى أخبر ابن عباس بما أخبره
أن يكون واحداً من هؤلاء فنكان ماذا وهل يقف عند هذا لإلههم الدينية السفلية التى
لانفضت لها إلى الله والدار الآخرة لما يرى لها بذلك من التمييز عن الهمج الرعاع من بنى آدم

فصل

وأما احتجاجه بحديث أبي الدرداء لقد توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتركنا
وما طائر يقلب جناحيه إلا وقد ذكر لنا منه علماً فهذا حق وصدق وهو من أعظم الأدلة على
إبطال قولكم وتكذيبكم فيما تدعونه من علم أحكام النجوم فإنه صلى الله عليه وسلم ذكرهم على
كل شيء حتى الخزاة ذكرهم من علم كل طائر وكل حيوان وكل مافى هذا العالم ولم يذكرهم من
علم أحكام النجوم شيئاً البتة وهو صلى الله عليه وسلم أجل من هذا وأعظم وقد صانه الله سبحانه
عن ذلك وإنما الذى ذكركم بهذه الأحكام المشركون عباد الأصنام والكواكب مثل بطليموس
وبنكلوسا وطلم صاحب الدرج وهؤلاء مشركون عباد الأصنام وكذلك أتباعهم أفلا يستحي رجل
أن يذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا المقام نعم رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر أمته من
تسكينكم وكفركم ومعاداتكم والبراءة منكم والإخبار بأنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم
أنتم لها واردون ما يعرفه من عرف ما جاء به من أمته واليهت والفريفة والكذب على الله
ورسوله . هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أحد من أهل بيته مثبته لأحكام النجوم

عاملا بها في حركاته وسكناته وأسفاره كما هو المعروف من المشركين وأتباعهم سبحانه
هذا بهتان عظيم . . . وأما قوله أنه جاء في الآثار أن أول من أعطى هذا العلم آدم لأنه عاش
حتى أدرك من ذريته أربعين ألف أهل بيت وترفوا عنه في الأرض فكان يعتم لحفاء خبرهم
عليه فأكرمه الله تعالى بهذا العلم فكان إذا أراد أن يعرف حال أحدهم حسب له بهذا الحساب
فيفقف على حالته فليس هذا ببدع من بهت المنجمين والملاحدة وإفكهم وافتراءهم على
آدم وقد علوا بالمثل السائر هنا : إذا كذبت فابعد شاهدك .

فصل

وأما ما نسبته إلى الشافعي من حكمه بالنجوم على عمر ذلك المولود فلقد نسب الشافعي
إلى هذا العلم وحكمه فيه بأحكام ليعجز عن مثلها أئمة المنجمين وأطن الذي غره في ذلك أبو
عبد الله الحاكم فإنه صنّف في مناقب الشافعي كتابا كبيرا وذكر علومه في أبواب وقال الباب
الرابع والعشرون في معرفته تسيير الكواكب من علم النجوم وذكر فيه حكايات عن الشافعي
تدل على تصحيحه لأحكام النجوم وكان هذا الكتاب وقع للرازي فتصرف فيه وزاد ونقص
وصنّف مناقب الشافعي من هذا الكتاب على أن في كتاب الحاكم من الفوائد والآثار ما لم
يلم به الرازي والذي غر الحاكم من هذه الحكايات تساهله في إسنادها ونحن نبينها ونبين حالها
ليتبين أن نسبة ذلك إلى الشافعي كذب عليه وأن الصحيح عنه من ذلك ما كانت العرب
تعرفه من علم المنازل والاهتداء بالنجوم في الطرقات وهذا هو الثابت الصحيح عنه بأصح
إسناد إليه قال الحاكم حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب حدثنا الربيع بن سليمان قال قال الشافعي
قال الله عز وجل (هو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر) وقال
(وعلامات وبالنجم هم يهتدون) كانت العلامات جبالا يعرفون مواضعها من الأرض
وشمسا وقرأ ونجما يعرفون من الفلك ورياحا يعرفون صفاتها في الهواء تدل على قصد
البيت الحرام وأما الحكايات التي ذكرت عنه في أحكام النجوم فثلاث حكايات إحداها قال
الحاكم قرىء على أبي يعلى حمزة بن محمد العلوي وأكثر ظني أني حضرته حدثنا أبو اسحاق
إبراهيم بن محمد بن العباس الأزدي في آخرين قالوا حدثنا محمد بن أبي يعقوب الجوال
الدينوري حدثنا عبد الله بن محمد البلوي حدثني خالي عمارة بن زيد قال كنت صديقا لمحمد
ابن الحسن فدخلت معه يوما على هرون الرشيد فسأله ثم أني سمعت محمد بن الحسن وهو
يقول إن محمد بن أدریس يزعم أن للخلافة أهلا قال فاستشاط هرون من قوله
غضبا ثم قال علي به فلما مثل بين يديه أطرق ساعة ثم رفع رأسه إليه فقال إياها قال الشافعي
ما إياها بأمر المؤمنين أنت الداعي وأنا المدعو وأنت السائل وأنا المجيب فذكر حكاية طويلة

سأله فيها عن العلوم ومعرفة بها إلى أن قال كيف علمك بالنجوم قال أعرف الفلك الدائر والنجم السائر والقطب الثابت والمائى والنارى وما كانت العرب تسميه الأنواء ومنازل النيران والشمس والقمر والاستقامة والرجوع والنحوس والسعود وهيأتها وطبائعها وما استدل به من برى وبحرى وأستدل فى أوقات علاتى وأعرف ما مضى من الأوقات فى كل مسمى ومصبح وظهرنى فى أسفارى قال فكيف علمك بالطب قال أعرف ما قالت الروم مثل ارسطاطا ليس ومهراريس وفرفوريس وجالينوس وبقراط واسد فليس بلغاتهم وما نقل من أطباء العرب وفلاسفة الهند ونمقته علماء الفرس مثل حاماسف وشاهمرو وبهم ردويوز جهر ثم ساق العلوم على هذا النحو فى حكاية طويلة يعلم من له علم بالمنقولات أنها كذب مختلق وافك مفترى على الشافعى والبلاء فيها من عند محمد بن عبد الله البلوى هذا فإنه كذاب وضاع وهو الذى وضع رحلة الشافعى وذكر فيها مناظرته لأبى يوسف بحضرة الرشيد ولم ير الشافعى أبى يوسف ولا اجتمع به قط وإنما دخل بغداد بعد موته ثم إن فى سياق الحكاية ما يدل من له عقل على أنها كذب مفترى فإن الشافعى لم يعرف لغيره هؤلاء اليونان البتة حتى يقول لى أعرف ما قالوه بلغاتهم وأيضاً فإن هذه الحكاية أن محمد بن الحسن وشى بالشافعى إلى الرشيد وأراد قتله وتعظيم محمد الشافعى ومحبه له وتعظيم الشافعى له وثناؤه عليه هو المعروف وهو يدفع هذا الكذب وأيضاً فإن الشافعى رحمه الله لم يكن يعرف علم الطب اليونانى بل كان عنده من طب العرب طرف حفظ عنه فى منشور كلامه بعضه كنهيه عن أكل الباذنجان بالليل وأكل البيض المصلوق بالليل وكان يقول عجبا لمن يتعشى ببيض وينام كيف يعيش وكان يقول عجبا لمن يخرج من الحمام ولا يأكل كيف يعيش وكان يقول عجبا لمن يحتجم ثم يأكل كيف يعيش يعنى عقب الحجامة وكان يقول احذر أن تشرب ل هؤلاء الأطباء دواء ولا تعرفه وكان يقول لا تسكن ببلدة ليس فيها عالم ينبئك عن دينك ولا طبيب ينبئك عن أمر بدنك وكان يقول لم أر شيئاً أنفع للوباء من البنفسج يدهن به ويشرب إلى أمثال هذه الكلمات التى حفظت عنه فأما أنه كان يعلم طب اليونان والروم والهند والفرس بلغاتها فهذا بهت وكذب عليه قد أعاده الله عن دعواه وبالجملة فن له علم بالمنقولات لا يسترىب فى كذب هذه الحكاية عليه ولولا طولها لسقناها ليتبين أثر الصنعة والوضع عليها . . وأما الحكاية الثانية فقال الحاكم أخبرنا أبو الوليد الفقيه قال حدثت عن الحسن بن سفيان عن حرمة قال كان الشافعى يديم النظر فى كتب النجوم وكان له صديق وعنده وجارية قد حبلى فقال إنها تلد لى سبعة وعشرين يوماً ويكون فى نخذ الولد الأيسر خال أسود ويعيش أربعة وعشرين يوماً ثم يموت فجاءت به على النعت الذى وصف وانقضت

مدته فأت فأحرق الشافعي بعد ذلك تلك الكتب وما عاود النظر في شيء منها وهذا الإسناد رجاله نقات لكن الشأن فيمن حدث أبا الوليد بهذه الحكاية عن الحسن بن سفيان أو فيمن حدث بها الحسن عن حرمة وهذه الحكاية لو صحت لوجب أن تثني الخناصر على هذا العلم وتشده به الأيدي لا أن تحرق كتبه ويهان غاية الإهانة ويجعل طعمة للنار وهذا لا يفعل إلا بكتب المحال والباطل. ثم إنه ليس في العالم طالع للولادة يقتضى هذا كله كما سنذكره عن قريب إن شاء الله تعالى والطالع عند المنجمين طالعان طالع مسقط النطفة وهو الطالع الأصلي وهذا لا سبيل إلا العلم به إلا في أندر النادر الذي لا يقتضيه الوجود والثاني طالع الولادة وهم معترفون أنه لا يدل على أحوال الولد وجزئيات أمره لأنه انتقال الولد من مكان إلى مكان وإنما أخذوه بدلا من الطالع الأصلي لما تعذر عليهم اعتباره وهذه الحكاية ليس فيها أخذ واحد من الطالعين لأن فيها الحكم على المولود قبل خروجه من غير اعتبار طالع الأصل والمنتجم يقطع بأن الحكم على هذا الولد لا سبيل إليه وليس في صناعة النجوم ما يوجب الحكم عليه والحالة هذه وهذا يدل على أن هذه الحكاية كذب محتلق على الشافعي على هذا الوجه وكذلك الحكاية الثالثة وهي مارواه الحاكم أيضا أنبأني عبد الرحمن بن الحسن القاضي أن زكريا بن يحيى الساجي حدثهم أخبرني أحمد بن محمد بن محمد بن بنت الشافعي قال سمعت أبي يقول كان الشافعي وهو حدث ينظر في النجوم وما نظر في شيء إلا فاق فيه مجلس يوما وامرأة تكد فحسب فقال تكد جاريتة عوراء على فرجها خال أسود وتموت إلى كذا وكذا فولدت فكان كما قال فجعل على نفسه ألا ينظر فيه أبدا وأمر هذه الحكاية كالتى قبلها فإن ابن بنت الشافعي لم يلق الشافعي ولا رآه والشأن فيمن حدثه بهذا عنه والذي عندي في هذا أن الناقل إن أحسن به الظن فإنه غلط على الشافعي والشافعي كان من أفرس الناس وكان قد قرأ كتب الفراسة وكانت له فيها اليد الطولى فحكم في هذه القضية وأماها بالفراسة فأصاب الحكم فظن الناقل أن الحكم كان يستند إلى قضايا النجوم وأحكامها وقد برأ الله من هو دون الشافعي من ذلك الهديان فكيف بمثل الشافعي رحمه الله في عقله وعلمه ومعرفة حتى يروج عليه هديان المنجمين الذى لا يروج إلا على جاهل ضعيف العقل وتزيه الشافعي رحمه الله عن هذا هو الذى ينبغي أن يكون من مناقبه فأما أن يذكر في مناقبه أنه كان منجما يرى القول بأحكام النجوم وتصحيحها فهذا فعل من يذم بما يظنه مدحا وإذا كان الشافعي شديد الإنكار على المتكلمين مزريا بهم وكان حكمه فيهم أن يضربوا بالحديد ويظاف بهم في القبائل فاذا رآه في المنجمين وهو أجل وأعلم من أن يحكم بهذا الحكم على أهل الحق ومن قضايهم في الصدق ينتهى إلى الحد الذى ذكر في هذه الحكاية فذكر عبد الرحمن بن أبي حاتم والحاكم وغيرهما عن الحميدى قال قال الشافعي خرجت

إلى اليمن في طلب كتب الفراسة حتى كتبتها وجمعتها ثم لما كان انصرافي مررت في طريقي
برجل وهو محتب بفناء داره أزرق العين نأىء الجبهة سفاط فقلت له هل من منزل قال نعم
قال الشافعي وهذا النعت أخيب ما يكون في الفراسة فأنزلتني فرأيت أكرم رجل بعث إلى
بعشاء وطيب وعلف لدواى وفراش ولحاف وجعلت أتقلب الليل أجمع ما أصنع بهذه
الكتب فلما أصبحت قلت للغلام أسرج فأسرج فركبت ومررت عليه وقلت له إذا قدمت
مكة ومررت بنى طوى فاسأل عن منزل محمد بن إدريس الشافعي فقال لى الرجل أموالا
لأبيك أنا قلت لا قال فهل كانت لك عندي نعمة قلت لا قال فأين ما تكلفتك البارحة
قلت وما هو قال اشتريت لك طعاما بدرهمين وأدما بكذا وعطراً بثلاثة دراهم وعلفا لدوايك
بدرهمين وكرى الفراش واللحاف درهمان قال قلت يا غلام فهل بقى شيء قال كرى المنزل
فإني وسمعت عليك وضيقت على نفسي فغبطت نفسي بتلك الكتب فقلت له بعد ذلك هل بقى
شيء قال امض أخراك الله فما رأيت شرا منك . وقال الربيع اشتريت للشافعي طيبا
بدينار فقال لى من اشتريته فقلت من ذلك الأشقر الأزرق فقال أشقر أزرق أذهب فرده .
وقال الربيع مر أخى فى صحن الجامع فدعانى الشافعي فقال لى ياربيع أنظر إلى الذى يمشى
هذا أخوك قلت نعم أصلحك الله قال اذهب ولم يكن رآه قبل ذلك . قال قتيبة بن سعيد
رأيت محمد بن الحسن والشافعي قاعدين بفناء الكعبة فرجل فقال أحدهما لصاحبه تعال
تركز على هذا المار أى حرفة معه فقال أحدهما هذا خياط وقال الآخر هذا نجار فبعثا إليه
فسألاه فقال كنت خياطا واليوم أنجر أو كنت نجارا واليوم أخيط . وقال الربيع سمعت
الشافعي وقدم عليه رجل من أهل صنعاء فلما رآه قال له من أهل صنعاء قال نعم قال خداد
أنت قال نعم . وقال كنت عند الشافعي إذ أتاه رجل فقال له الشافعي أنساج أنت قال
عندى أجرا . . وقال كئنا عند الشافعي إذا مر به رجل فقال الشافعي لا يخلو هذا أن يكون
حائكا أو نجارا قال فدعوانه فقال ما صنعتك فقال نجار فقلنا أو غير ذلك قال عندى غلمان
يعملون الثياب . . وقال حرمة سمعت الشافعي يقول احذروا من كل ذى عاهة فى بدنه فإنه
شيطان قال حرمة قلت من أولئك قال الأعرج والأحوال والأشل وغيره . . وقال اشتهى
الشافعي يوما عنبا أبيض فأمرنى فاشتريت له منه بدرهم فلما رآه استجاده فقال لى يا أبا محمد
من اشتريت هذا فسميت له البائع فتحى الطبق من بين يديه وقال لى رده عليه واشتر لى
من غيره فقلت له وما شأنه فقال ألم أنك أن تصحب الأزرق الأشقر فإنه لا ينجب فكيف
آكل من شيء اشتريته لى من أنهى عن صحبته قال الربيع فرددت العنب على البائع واعتذرت
إليه بكلام حسن واشتريت له عنبا من غيره . . وقال حرمة سمعت الشافعي يقول احذروا

الأعور والأحول والأعرج والأحذب والأشقر والكوسج وكل من به عاهة في بدنه وكل ناقص الخلق فأحذروه فإنه صاحب لؤم ومعاملته حسرة وقال مرة أخرى فإنهم أصحاب خب . . . وقال الربيع دخلنا على الشافعي عند وفاته أنا والبويطي والمزني ومحمد بن عبد الله ابن عبد الحكم قال فنظر إلينا الشافعي ساعة فأطال ثم التفت فقال أما أنت يا أبا يعقوب فستموت في حديد يعني البويطي وأما أنت يا مزني فسيكون لك بمصر هنات وهنات وتندركن زمانا تكون أقيس أهل ذلك الزمان وأما أنت يا محمد فسترجع إلى مذهب أبيك وأما أنت يا ربيع فأنت أنفعهم لي في نشر الكتب قم يا أبا يعقوب فتسلم الحلقة قال الربيع فكان كما قال . . . وقال الربيع مارأيت أفطن من الشافعي لقد سمى رجلا بمن يصحبه فوصف كل واحد منهم بصفة ما أخطأ فيها فذكر المزني والبويطي وفلانا فقال ليفعلن فلان كذا وفلان كذا وليصحبن فلان السلطان وليقلدن القضاء وقال لهم يوما وقد اجتمعوا ما فيكم أنفع من هذا وأوما إلى لأنه أمثلكم بأخيه وذكر صفاتا غير هذه قال فلما مات الشافعي صار كل منهم إلى ما ذكر فيه ما أخطأ في شيء من ذلك . . . وقال حرمله لما وقع الشافعي في الموت خرجنا من عنده فقلت لأبي يا أبة كل فراسة كانت للشافعي أخذناها يدا بيد إلا قوله يقتلني أشقر وهاهو في السياق فوإفينا عبد الله بن عبد الحكم ويوسف ابن عمرو فقلنا إلى أين قالوا إلى الشافعي فابلقنا المنزل حتى أدركنا الصراخ عليه قلنا مه مالكم قالوا مات الشافعي فقال أبي من غمضه قالوا يوسف بن عمرو وكان أزرق وهذه الآثار وغيرها ذكرها ابن أبي حاتم والحاكم في مصنفيهما في مناقب الشافعي وهي اللاتفة بجلالته ومنصبه لا ما باعده الله منه من أكاذيب المنجمين وهذا بنا تهم والله أعلم وأما ما احتج به من أن فرعون كان يذبح أبناء بني إسرائيل ويستحي نساءهم لأن المفسرين قالوا كان ذلك بأن المنجمين أخبروه بأنه سيحيى في بني إسرائيل مولود يكون هلاكه على يديه فأكثر المفسرين وإنما أحلوا ذلك على خبر الكهان . . . وروى بعضهم أن قومه أخبروه بأن بني إسرائيل يزعمون أنه يولد منهم مولود يكون هلاكك على يديه وهاتان الروايتان هما الدائران في كتب المفسرين وأما هذه الرواية أن المنجمين قالوا له ذلك فقابتها أنها من أخبار أهل الكتاب وقد خالفها غيرها من الروايات فكيف يسوغ التسك بها في الأمر العظيم وفي أخبار الكهان ما هو أعجب من ذلك فقد أخبروا بظهور خاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم قبل ظهوره وذلك موجود في دلائل النبوة ونحن لا ننكر علم تقدمه المعرفة بأسباب مفضية إليه تختلف قوى الناس في ادراكها وتحصلها وإنما كلامنا معكم في أصول علم الأحكام وبيان فسادها وكذب أكثر الأحكام التي يسندونها إليها وبيان أن ضرر هذا العلم لو كان حقا أعظم من نفعه في

الدنيا والآخرة وأن أهله لهم أوفر نصيب من قوله (إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المغترين) وأهل هذا العلم أذل الناس في الدنيا لا يمكن أحداً منهم أن يأكل رزقه بهذا العلم إلا بأعظم ذل وعزيرهم لا بد أن يتعبد وينضوى إلى مكاس أو ديوان أو وال يكون تحت ظله وفي كنفه وسائرهم على الطرقات وفي كسر الحوانيت مدسسين صيدهم كبل ناقص العقل والإيمان والدين من صبي أو امرأة أو حمار في سلاح آدمي أو ذباب طمع لو لاح له في عبادة الأصنام والشمس والقمر والنجوم لكان أول العابدين ورأس ما لهم الكذب والزرق وأخذ أحوال السائل منه ومن فلتات لسانه وهيثته وإعراضه فيخبرونه بما يناسب ذلك من الأحوال فيمنفعل عقله لهم ويقول لقد أعطى هؤلاء عطاء لم يعطه غيرهم وتراهم في الغالب يقصد أحدهم قرية أو دكانا منزويًا عن الطريق ويصلي فيه للصيد وينصب الشرك فإذا لاح له بدوى أو حبشى أو تركياني فإنه يتبرك بطبعته ويقول اجلس حتى أبين لك ما يقتضيه نجمك وطالعك وبيت مالك وبيت فراشك وبيت أفراحك وهمومك وكم بقى عليك من القطع نعم ما اسمك واسم أمك وأبيك فإذا قال له اسمه واسم أبويه أخرج له الاضطراب أو السكرة النحاس وقال كيف قلت اسمك فإذا أخبره ثانية قال وكيف قلت اسم الوالدة طول الله عمرها فإذا قال درجت إلى رحمة الله تعالى قال مامات من خلف مثلك ثم يحسب ويقول فلانة تسعة وتزيد عليها تسعة تسقط منها خمسة يبقى منها أربعة أقعد واسمع يا أخى لى أرى عليك حججا مكتوبة ووثائق ولا بد لك من الوقوف بين يدي ولى أمر إما حاكم وإما وال وأرى دماً خارجاً عنك ما أنت من أهله وأرى ناساً قد اجتمعوا حولك وإن كان شكل ذلك الرجل شكل من هو من أرباب التهم قال وأرى خشباً ينصب ومسامير تضرب وجنايات تؤخذ نعم يا أخى برجك بالأسد وهو نارى مذكر أخذت منه نطاح مقدم بطل نجمك الزهرة أنت قليل البخت عند الناس مكفور الإحسان مقصود بالأذى قل إن صاحبت أحداً فأثمرت لك صحبتته خيراً نعم يا أخى أسعد أيامك يوم الجمعة وخير كسبك كد يدك اعلم أنه لا بد لك من أسفار وغربة وركوب أهوال واقتحام أخطار وأمور عظام أبينها لك إن شاء الله هات لا تبخل على نفسك حظ يدك في جيبك حل الكيس ولا يزال يلكزه ويجذبه ويطمعه حتى يستخرج ما تسمع به نفسه فان رأى منه تباطيا قال عجل قبل خروج هذه الساعة السعيدة فانها ساعة مباركة أما سمعت قول نبيك يسروا ولا تعسروا فإذا حاز ما أخذه قال له زدنى فان أمورك كثيرة وتحتاج إلى تعب وفكر وحساب طويل فاذا تم له ما يأخذه منه بقى هو من جوا فكال له من جراب الكذب ما أمكنه ولا يبالي أ كذبه أم صدقه ثم يقول له يا أخى

برجك الأسد وهو سهم العداوة والحسد وما عاداك أحد قط وأفلح بل يظفرك الله به وينصرك عليه نعم وهو برج نارى والنار من النور والنور فيه البهجة والسرور ابشر فأنت طويل العمر لا تموت فى هذا الوقت عمرك من الستين إلى السبعين إلى الثمانين إلى التسعين بيت كسبك كذا وكذا وأرى حاجة مهمة قد خرجت عن يدك نعم بغير مرادك وأنت فى غالب أحوالك الخارج عن يدك أكثر من الداخل فيها بالله صدقت أم لا فيقول والله صحيح والأمر كما قلت ولكن أحمد الله كلما بقى عليك من القطع أربعة أشهر وعشرة أيام وتخرج من نحسك وتدخل فى برج سعادتك وتنجو ويخاف الله عليك بالخيرات والبركات ولا بد لك الساعة من رزق يأتيك الله به ويفرح به أهلك وعيلتك وتصلح حالك ويستقيم سعدك . .

الثالث يا أخى من برجك الميزان وهو بيت الإخوان سعدك يا أخى منهم منقوص وحظك منهم منحوس غالب من أوليته منهم خيرا جازاك بالشر وغالب من قلت فيه الخير منهم يقول فيك الشر بالله أما الأمر هكذا وذلك يا أخى أنك خفيف الدم كل من رآك مال إليك وأنس بك وأنت محسود تحسد فى مالك وفى عافيتك وفى أهلك وأولادك وكل ما عمله بيدك ولكن العين لا تؤثر فيك لأن كل من برجه الأسد لا بد أن يكون له فى رأسه أو جسده علامة مثل شجرة أو ضربة بين أكتافه أو فى ساقه وما هو بعيد أن فى جسده شامة أو فى جسمك ثلثة وهذا هو الذى يدفع عنك العين وأنت لا تدري . . الرابع من بروجك العقرب وهو بيت الآباء أراك كنت قليل السعد بين أبويك ومع هذا فكان أكثر ميلهم وإشفاقهم مع غيرك هم عليك وكان حظك منهم ناقصا ولهم تطلع إلى كدك وكسبك . . الخامس من بروجك القوس وهو بيت البنين أراك قليلا ما يعيش لك أولاد تدفهم كلهم ثم تموت أنت بعدهم بل سوف يكون لك ولد يشد الله به عضدك ويقوى أمرك وتنال من جهته راحة وخيرا وربما تكون سعادتك على يديه . . السادس من بروجك الجدى وهو برج أمراضك وأعلالك يا أخى أمراضك وأسقامك كثيرة وأكثرها فى رأسك وربما يكون فى أجنابك وهى أمراض قوية طوال الله يعافينا وإياك وكنت فى صغرك لا ترقد فى السرير إلا بعد جهد جهيد وعهدى بك الآن لا ترقد فى فراشك إلا بعد شدة نعم وأكثر أمراضك فى الصيف والخريف . . السابع من بروجك الدلو وهو بيت الفراش وأرى فراشك خاليا أتم زوجة فإن قال نعم قال لا بد لك من فراقها عن قريب إما بموت وإما بطلاق فإن المريخ منك فى بيت الفراش وإن قال لا قال عجيب والله لقد أبصرت فى الطبائع أن فراشك فارغ وأرى روحا ناظرة إليك بعين الألفة والمحبة خطوطك وخطوره عليك وأرى لك من قبله منفعة ولك به اتصال وفرح أبين لك على أى سبب يكون اجتماعكما نعم فإن قال له نعم قال هات (١٥ - مفتاح ٢)

فإن الذي أعطيتني قليل فإذا أخذ منه قال اعلم أنه لا بد لك من الاتصال بهذا الشخص على كل حال إلا أني أرى قد عمل لك عمل وعقد لك عقد وأنت في هم وغم من ذلك فإن شئت عملت لك كتابا نافعا يكون لك حرزا من كل ما تخافه وتحذره ولا يزال يفتل له في الذروة والقرب حتى يستكتبه الحرز وكذب هذه الطائفة وجهلها وزرقها بغنى شهرته عند الخاصة والعامة عن تكليف إرادة وكلاءه المنجم أ كذب وبالزرق أعرف كان على الجهال أروج .

فصل

وأما قوله إن هذا علم ما خلت عنه ملة من الملل ولا أمة من الأمم ولا يعرف تاريخ من التواريخ القديمة والحديثة إلا وكان أهل ذلك الزمان مشتغلين بهذا العلم ومعوين عليه في معرفة المصالح ولو كان هذا العلم فاسداً بالسكينة لاستحال لطباق أهل المشرق والمغرب عليه فانظر ما في هذا الكلام من الكذب والبهت والافتراء على العالم من أول بنائه إلى آخره فإن آدم وأولاده كانوا برآء من ذلك وأتمتكم معترفون بأن أول من عرف منه الكلام في هذا العلم وتلقيت عنه أصوله وأوضاعه هو إدريس النبي ﷺ وكان بعد بناء هذا العالم بزمن طويل هذا لو ثبت ذلك عن إدريس فكيف وهو من الكذب الذي ليس مع صاحبه إلا مجرد القول بلا علم والكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم أو ليس من القرية والبهت أن ينسب هذا العلم إلى أمة موسى في زمنه ويعدوه بأنهم كانوا معولهم في مصالحهم على هذا العلم وكذلك أمة عيسى وأمة يونس والذين كانوا مع نوح ونجوا معه في السفينة وحسبك بهذا الكذب والافتراء على تلك الأمة المضبوط أمرها المحفوظ فعلها فهل كان النبي ﷺ وأصحابه يعولون على هذا العلم ويعتمدون عليه في مصالحهم أو قرن التابعين بفعله أو قرن تابعي التابعين وهذه هي خيار قرون العالم على الإطلاق كما أن هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس وهم أعلم الأمم وأعرفها وأكثر كتباً وتصانيف وأعلها شأناً وأكملها في كل خير ورشد وصلاح كما ثبت في المسند وغيره عن النبي ﷺ أنه قال أتمت توفون سبعين أمة أتم خيرها وأكرمها على الله فهل رأيت خيار قرون هذه الأمة والموفقين من خلفاتها وملوكها وساداتها وكبرائها معولين على هذا العلم أو معتمدين عليه في مصالحهم وهذه سيرهم ما يعهدا من قدم ولا يتأتى الكذب عليهم هذا وقد أعطوا من التأييد والنصر والظفر بعودهم والاستيلاء على ممالك العالم ما لم يظفر به أحد من المعولين على أحكام النجوم بل لا تجد المنجمين الا ذمة لهم لولا اعتصامهم بحبل منهم لقطعت حبال أعناقهم ولا تجد المعولين على هذا العلم إلا خصوصين بالخذلان والحرمان وهذا لانهم حق عليهم قوله تعالى (إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين) قال أبو قلابة هي لكل مفتر من هذا الأمة إلى يوم القيامة نعم لا ننكر أن هذا العلم له طلبة مشغولون به

معتنون بأمره وهذا لا يدل على صحته فهذا السحر لم يزل في العالم من يشتغل به ويتطلبه أعظم من اشتغاله بالنجوم وطلبه لها بكثير وتأثيره في الناس مما لا ينكر أفكان هذا دليلاً على صحته وهذه الأصنام لم تزل تعبد في الأرض من قبل نوح وإلى الآن ولها الهياكل المبنية والسدنة ولها الجيوش التي تقايل عنها وتحارب لها وتختار القتل والسبي وعقوبة الله تعالى ولا تنتهي عنها أفيدل هذا على صحة عبادتها وإن عبادها على الحق ومن العجب قوله لو كان هذا العلم فاسداً لاستحال أطباق أهل المشرق والمغرب من أول بناء العالم إلى آخره عليه وليس في القرية أبلغ من هذا ولا في البهتان أترى هذا الرجل ما وقف على تأليف لأحد من أهل المشرق والمغرب في إبطال هذا العلم والرد على أهله فقد رأينا نحن وغيرنا ما يزيد على مائة مصنف في الرد على أهله وإبطال أقوالهم وهذه كتبهم بأيدي الناس وكثير منها للفلاسفة الذين يعظمهم هؤلاء ويرون أنهم خلاصة العالم كالفارابي وابن سينا وأبي البركات الأوحى وغيرهم وقد حكينا كلامهم وأما الردود في ضمن الكتب حين يرد على أهل المقالات فأكثر من أن تذكر ولعلها أن تزيد على عدة الآلاف تجرد في كل كتاب منها الرد على هؤلاء وإبطال مذهبهم ونسبتهم إلى الكذب والزرق ولو أن مقابلاً قابله وقال لو كان هذا العلم صحيحاً لاستحال إطباق أهل المشرق والمغرب على رده وإبطاله لكان قوله من جنس قوله ولكن أهل المشرق فيهم هذا وهذا كما يشهد به الحس والتواريخ القديمة والحديثة ولقد رأينا من الردود القديمة قبل قيام الإسلام على هؤلاء ما يدل على أن العقلاء لم يزالوا يشهدون عليهم بالجهل وفساد المذهب وينسبونهم إلى الدعاوى الكاذبة والآراء الباطلة التي ليس مع أصحابها إلا القول بلا علم.

فصل

وأما ذكره في أمر الطالع عن الفرس وأنهم كانوا يعنفون بطالع مسقط النظفة وهو طالع الأصل ثم يحكم بموجبه حتى يحكم بعدد الساعات التي يمكثها الولد في بطن أمه فهذا من الكذب والبهت ومن أراد أن يختبر كذبه فليجربه فإن تجربه مثل هذا ليست بمشقة ولا عسرة ثم إن هذا الواطئ لا علم له ولا لأحد أن الولد إنما يخلق من أول وطئه الذي أنزل فيه دون ما بعده وإن فرض أنه أمسك عن وطئها بعد المرة الأولى وحبسها بحيث يتيقن أن غيره لم يقربها وهذا في غاية الندرة لم يمكن المنجم أن يعلم أحوال ذلك المولود ولا تفاصيل أمره البتة ومدعى ذلك مجاهر بالكذب والبهت وقد اعترف القوم بأن طالع الولادة مستعار لا يفيد شيئاً لأن الولد لا يحدث في ذلك الوقت وإنما ينتقل من مكان إلى مكان وقد اعترفوا بأن ضبطه متمسر جداً بل متمذر فإن في اللحظة الواحدة من اللحظات تتغير نصفة الفلك تغيراً لا يضبط ولا يحصىه

إلا الله ولا ريب أن الطالع يتغير بذلك تغيراً عظيماً لا يمكن ضبطه وقد اعترفوا هم بهذا وأن سبب هذا التفاوت يحيل أحكامهم واعترفوا بأنه لا سبيل إلى الاحتراز من ذلك فأى وثوق لعاقل بهذا العلم بعد هذا كله وقد بينا أن غاية هذا لوصح وسلم من الخلل جميعه ولا سبيل إليه لكان جزء السبب والعلة والحكم لا يضاف إلى جزء سببه ثم لو كان سببياً تاماً فصورافه وموانعه لا تدخل تحت الضبط البتة والحكم إنما يضاف إلى وجود سببه التام وانتفاء مانعه وهذه الأسباب والموانع بما لا تدخل تحت حصر ولا ضبط إلا لمن أحصى كل شيء عدداً وأحاط بكل شيء علماً لا إله إلا هو علام الغيوب فلو ساعدناهم على صحة أصول هذا العلم وقواعده لكانت أحكامهم باطلة وهي أحكام بلا علم لما ذكرناه من تعذر الإحاطة بمجموع الأسباب وانتفاء الموانع ولهذا كثيراً ما يجمعون على حكم من أحكامهم الكاذبة فيقع الأمر بخلافه كما تقدم . . . وأما تلك الحكايات المتضمنة لإصابتهم في بعض الأحوال فليسبب بأكثر من الحكايات عن أصحاب الكشف والقائل وزجر والطائر والضرب بالحصى والطرق والعيافة والكهانة والخط والحسد وغيرها من علوم الجاهلية وأعنى بالجاهلية كل من ليس من أتباع الرسل كالفلاسفة والمنجمين والكهان وجاهلية العرب الذين كانوا قبل النبي ﷺ فإن هذه كانت علوماً لقوم ليس لهم علم بما جاءت به الرسل ومن هؤلاء من يزعم أنه يأخذ من الحروف علم المسكان ولهم في ذلك تصانيف وكتب حتى يقولون إذا أردت معرفة ما في رؤيا السائل من خير أو شر فخذ أول حرف من كلامه الذي يكلمك به وفسر رؤياه على معنى ذلك الحرف فإن كان أول ما نطق به باء فرؤياه خير لأن الباء من البهائم والخير ألتراها في البر والبركة وبلوغ الآمال والبقاء والبيشارة والبيان والبيخت فإذا كان أول حرف من كلامه باء فاعلم أنه قد عين ما بهائم وبشره من الخيرات وإن كان أول كلامه تاء فقد بشر بالتمام والسكالم وإن كان تاء فبشره بالآثام والمتاع لقوله تعالى هم أحسن أناثا ورتبنا ثم قالوا فعمليك بهذه الأحرف الثلاثة فليس شيء يخلو منها ويجاوزها وإذا تأملت جهل هؤلاء رأيتهم شديداً فكيف حكموا على البهائم والبركة دون البأس والبغى والبين والبلاء والبوار والبعد وكيف حكموا على الثاء بالآثام دون الثقل والثلب ونحوه وكذلك استدلاله بأول ما يقع بصره عليه كما حكى عن أبي معشر أنه وقف هو وصاحب له على واحد من هؤلاء وكانا سائرين في خلاص محبوس فسألاه فقال أتما في طلب خلاص مسجون فمجيباً من ذلك فقال له أبو معشر هل يخلص أم لا فقالا تذهبان تلقمانيه قد خلاص فوجدنا الأمر كما قال فاستدعاه أبو معشر وأكرمه وتلطف له في السؤال عن كيفية علم ذلك فقال نحن نأخذ القائل بالعين والنظر فينظر أحدنا إلى الأرض ثم يرفع رأسه فأول شيء يقع نظره عليه يكون الحكم به فلما سألتنا كان أول ما رأيت ماء في قرية فقلت

هذ مجبوس ثم لما سألته في الثانية نظرت فإذا هو قد أفرغ من القربة فقلت يخلص ويصيب تارة ويخطيء تارة . . ومن هذا أخذ بعضهم الجواب عن التفاؤل بالأيام فإذا رأى أحد رؤيا مثلاً يوم أحد أو ابتدأ فيه امرأ قال حدة وقوة وإن كان يوم الجمعة قال اجتماع وألفة وإن كل يوم سبت قال قطع وفرقة . ومن هذا استدلال المسئول بالمسكن الذي يضع السائل يده عليه من جسده وقت السؤال فإن وضع يده على رأسه فهو رئيسه وكبيره والرجلين قوامه والأنف بناء مرتفع أو تل أو نحوه والقدم بث عذبة اللحية أشجار وزروع وعلى هذا النحو من ذلك ما حكى عن المهدي أنه رأى رؤيا وأنسيما فأصبح مغتماً بها فدل على رجل كان يعرف الزجر والفأل وكان حاذقاً به واسمه خويلد فلما دخل عليه أخبره بالذي أراد له فقال له يا أمير المؤمنين صاحب الزجر والفأل ينظر إلى الحركة وأخطار الناس فغضب المهدي وقال سبحان الله أحدم يذكر بعلم ولا يدري ما هو ومسح يده على رأسه ووجهه وضرب بها على فخذه فقال له أخبرك برؤياك يا أمير المؤمنين قال هات قال رأيت كأنك صعدت جبلاً فقال المهدي لله أبوك يا سحار صدقت قال ما أنا بساحر يا أمير المؤمنين غير أنك مسحت بيدك على رأسك فزجرت لك وعلمت أن الرأس ليس فوقه أحد إلا السماء فأولته بالجبل ثم نزلت بيدك إلى جبهتك فزجرت لك بنزولك إلى أرض ملساء فيها عيمان مالحتان ثم انحدرت إلى سفح الجبل فلقيت رجلاً من فخذك قريش لأن أمير المؤمنين مسح بعد ذلك بيده على فخذه فعلمت أن الرجل الذي لقيه من قرابته قال صدقت وأمر له بمال وأمر أن لا يحجب عنه . . ومن ذلك هؤلاء أصحاب الطير السائح والبارح والقميد والناطح وأصل هذا أنهم كانوا يزجرون الطير والوحش ويشيرونها فما تيامن منها وأخذ ذات اليمين سموه سائحاً وما تياسر منها سموه بارحاً وما استقبلهم منها فهو الناطح وما جاءهم من خلفهم سموه القميد فمن العرب من يتشام بالبارح ويتبرك بالسائح ومنهم من يرى خلاف ذلك قال المدائني سألت روبة بن العجاج ما السائح قال ما ولاك ميامنه قال قلت فما البارح قال ما ولاك مياسره قال والذي يجيء من قدامك فهو الناطح والنطيط والذي يجيء من خلفك فهو القاعد والقميد وقال المفضل الضبي البارح ما يأتيك عن اليمين يريد يسارك والسائح ما يأتيك عن اليسار فيمر على اليمين وإنما اختلفوا في مراتبها ومذاهبها لأنها خواطر وحدوس وتخمينات لأصل لها فمن تبرك بشيء مدحه ومن تشام به ذمه ومن اشتهر بإحسان الزجر عندهم ووجهه حتى قصده الناس بالسؤال عن حوادثهم وما ملوه من أعمالهم سموه عائفاً وعرافاً وقد كان في العرب جماعة يعرفون بذلك كعراف الإمامة والأبلى الأسيدى والأجلح وعروة بن يزيد وغيرهم فكانوا يحكمون بذلك ويعملون به ويتقدمون ويتأخرون في جميع ما يتقبلون فيه ويتصرفون في حال الأمن والخوف والسعة والضيق والحرب والسلام فإن أنجحوا

فيا يتفاملون به مدحوه وداوموا عليه وإن عطبوا فيه تركوه وذموه ومنهم من أنكرها بعقله وأبطل تأثيرها بنظره واذم من اغتربها واعتمد عليها وتوهم تأثيرها ففهم الرقشي حيث يقول :

ولقد غدوت وكنت لا أغدو على واق وحاتم
فإذا الأشائم كالآيا من والآيا من كالأشائم
وكذاك لاخير ولا شر على أحد بدائم
لا يمنعك من بغا الخير تعقاد التائم
قد خط ذلك في السطو ر الأوليات القدائم

وقال جهم الهذلي :

ألم تر أن العانفين وإن جرت لك الطير عما في غد عميان
يظنان ظنا مرة يخطيانه وأخرى على بعض الذي يصفان
قضى الله أن لا يعلم الغيب غيره ففي أي أمر الله يمتريان

وقال آخر :

وما أنا بمن يزجر الطير همه أطار غراب أم تعرض ثعلب
ولا السانحات البارحات عشية أمر سليم القرن أم مر أعضب

وقال آخر يمدح منسكرها :

وليس بهياب إذا شد رحله يقول عداني اليوم واق وحاتم
ولكنه يمضى على ذاك مقدما إذا حاد عن تلك الهنات الختارم

يعنى بالواق الصرد وبالختارم الغراب سموه حاتما لأنه كان عندهم يحتم بالفراق والختارم العاجز الضعيف الرأى المتطير . . وقد شفى النبي صلى الله عليه وسلم أمته في الطيرة حيث سئل عنها فقال ذاك شيء يجده أحدكم فلا يصدنه وفي أثر آخر إذا تطيرت فلا ترجع أى امض لما قصدت له ولا يصدنك عنه الطيرة . . واعلم أن التطير إنما يضر من أشفق منه وخاف وأما من لم يبال به ولم يعبأ به شيئا لم يضره البتة ولا سيما إن قال عند رؤية ما يتطير به أو سماعه اللهم لا تطير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا إله غيرك اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت ولا يذهب بالسيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك فالطيرة باب من الشرك والقاء الشيطان وتخويفه ووسوسته يسكب ويعظم شأنها على من اتبعها نفسه واشغل بها وأكثر العناية بها وتذهب وتضمحل عن لم يلتفت إليها ولا أتى إليها باله ولا شغل بها نفسه وفكره واعلم إن من كان معتنياً بها قائلاً بها كانت إليه أسرع من السيل إلى منحدره وفتحت له

أبواب الوسوس فيما يسمعه ويراها ويعطاه ويفتح له الشيطان فيها من المناسبات البعيدة والقريبة في اللفظ والمعنى ما يفسد عليه دينه وينسكد عليه عيشه فإذا سمع سفر جلا أو أهدي إليه تطير به وقال سفر وجلاء وإذا رأى ياسمينا أو سمع اسمه تطير به وقال ياس ومين وإذا رأى سوسنة أو سمعها قال سوء يبقى سنه وإذا خرج من داره فاستقبله أعور أو أشل أو أعمى أو صاحب آفة تطير به وتشامم بيومه . . ويحكى عن بعض الولاة أنه خرج في بعض الأيام لبعض مهماته فاستقبله رجل أعور فتطير به وأمر به إلى الحبس فلما رجع من مهمه ولم يلق شراً أمر باطلاقه فقال له سألتك بالله ما كان جرى الذي حبستني لأجله فقال له الوالى أن يمكن لك عندنا جرم ولكن تطيرت بك لما رأيتك فقال فما أصبت في يومك برؤيتي فقال بما لم ألق إلا خيراً فقال أيها الأمير أنا خرجت من منزلى فرأيتك فلقيت في يومى الشر والحبس وأنت رأيتنى فلقيت في يومك الخير والسرور فنأشأنا والطيرة بمن كانت فاستحيا منه الوالى ووصله . . وقال أبو القاسم الزجاجى لم أر أشد تطيراً من ابن الرومى الشاعر وكان قد تجاوز الحد في ذلك فعاتبته يوماً على ذلك . . فقال يا أبا القاسم فقال لسان الزمان والطيرة عنوان الحدنان . . وهذا جواب من استحكمت علته فعبجز عنها وهو أيضاً بمنزلة من قد غلبته الوسوس في الطهارة فلا يلتفت إلى علم ولا إلى ناصح وهذه حال من تقطعت به أسباب التوكل وتقلص عنه لباسه بل تمرى منه ومن كان هسكذا فالبلايا إليه أسرع والمصائب به أعلق والمحن له ألزم بمنزلة صاحب الدمى والقرحة الذى يهدى إلى قرحته كل مؤذ وكل مصادم فلا يكاد يصد من جسده أو يصاب غيرها والمنظير متعب القلب منسكد الصدر كاسف البال سيء الخلق يتخيل من كل ما يراه أو يسمعه أشد الناس خوفاً وأنكدهم عيشاً وأضيق الناس صدرأ وأحزنهم قلباً كثير الاحتراز والمراعاة لما لا يضره ولا ينفعه وكم قد حرم نفسه بذلك من حظ ومنعها من رزق وقطع عليها من فائدة ويكفيك من ذلك قصة النابغة مع زياد بن سيار الفزارى حين تجهز إلى الغزو فلما أراد الرحيل نظر النابغة إلى جرادة قد سقطت عليه فقال جرادة تجرد وذات ألوان عزيز من خرج من هذا الوجه ونفذ زياد لوجهه ولم يتطير فلما رجع زياد سالما غانماً أنشأ يقول .

تخير طيرة فيها زياد ليخبره وما فيها خبير
أقام كان لقمان بن عاد أشار له بحسبته مشير
تعلم أنه لا طير إلا على منطير وهو الثبور
بلى شيء يوافق بعض شيء أحايينا وباطله كثير

ولم يحك الله التطير إلا عن أعداء الرسل كما قالوا لرسولهم (انا تطيرنا بكم لأن لم تنتهوا لئلا نرجسكم وليسكنكم منا عذاب أليم قالوا طائرکم معکم أن ذکرتم بل أنتم قوم مسرفون)

وكذلك حكي الله سبحانه عن قوم فرعون فقال (فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله) حتى إذا أصابهم الخصب والسعة والعافية قالوا لنا هذه أى نحن الجديرون الحقيقة بكوننا به ونحن أهله وإن أصابهم بلاء وضيق وقحط ونحوه قالوا هذا بسبب موسى وأصحابه أصبنا بشؤمهم ونقض علينا غبارهم كما يقوله المتطير لمن يتطير به فأخبر سبحانه أن طائرهم عنده كما قال تعالى عن أعداء رسوله ﷺ (وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك) فهذه ثلاثة مواضع حكي فيها التطير عن أعدائه وأجاب سبحانه عن تطيرهم بموسى وقومه بأن طائرهم عند الله لا بسبب موسى وأجاب عن تطير أعداء رسول الله ﷺ بقوله (قل كل من عند الله) وأجاب عن الرسل بقوله (ألا طائركم معكم) وأما قوله (ألا إنما طائركم عند الله) فقال ابن عباس طائرهم ما قضى عليهم وقدر لهم وفى رواية شؤمهم عند الله ومن قبله أى إنما جاءهم الشؤم من قبله بكفرهم وتكذيبهم بأياته ورسله وقال أيضا أن الأرزاق والأقدار تتبعكم وهذا كقوله تعالى (وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج) أى ما يطير له من الخير والشر فهو لازم له فى عنقه والعرب تقول جرى له الطائر بكذا من الخير والشر قال أبو عبيدة الطائر عندهم الحظ وهو الذى تسميه العامة البخت يقولون هذا يطير لفلان أى يحصل له قلة ومنه الحديث فطار لنا عثمان بن مظعون أى أصابنا بالقرعة لما اقترع الأنصار على نزول المهاجرين عليهم وفى حديث روي عن ابن ثابت حتى أن أحدنا ليطير له النصل والريش والآخر القدح أى يحصل له بالشركة فى الغنيمة وقيل فى قوله تعالى (وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه) أن الطائر ههنا هو العمل قاله الفراء وهو يتضمن الرد على نفاة القدر وخص العنق بذلك من بين سائر أجزاء البدن لأنها محل الطوق الذى يطوقه الإنسان فى عنقه فلا يستطيع فكاكه من هذا يقال لئم هذا فى عنقك وافعل كذا وأئمه فى عنقى والعرب تقول طوقها طوق الحمامة وهذا ربة فى رقبته وعن الحسن بن آدم لتنظر لك صحيفة إذا بعثت قلدها فى عنقك فخصوا العنق بذلك لأنه موضع القلادة والتميمة واستعمالهم التعاليق فيها كثير كما خصت الأيدي بالذكر فى نحو بما كسبت أيديكم بما قدمت يداك ونحوه وقيل المعنى أن الشؤم العظيم هو الذى لهم عند الله من عذاب النار وهو الذى أصابهم فى الدنيا وقيل المعنى أن سبب شؤمهم عند الله وهو عملهم المكتوب عنده الذى يجرى عليه ما يسوؤهم ويعاقبون عليهم بعد موتهم بما وعدهم الله ولا طائر أشأم من هذا وقيل حظهم ونصيبهم وهذا لا يناقض قول الرسل طائركم معكم أى حظكم وما نالكم من خير وشر معكم بسبب أفعالكم وكفركم ومخالفتكم الناصحين ليس هو من أجلنا ولا بسببنا بل بغيركم

وعدوا نكم فطائر الباغى الظالم معه وهو عند الله كما قال تعالى (وإن تصيبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فما هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا) ولوفقهوا ووفهموا لما نظيروا بما جئت به لأنه ليس فيما جاء به الرسول ﷺ ما يقتضى الطيرة فإنه كله خير محض لا شر فيه وصلاح لا فساد فيه وحكمة لا عبت فيها ورحمة لا جور فيها فلو كان هؤلاء القوم من أهل الفهم والعقول السليمة لم يتطيروا من هذا فإن الطيرة إنما تكون بالشر لا بالخير المحض والمصلحة والحكمة والرحمة وليس فيما أتيتهم به لوفقهوا ما يوجب تطيرهم بل طائرهم معهم بسبب كفرهم وشركهم وبغيهم وهو عند الله كسائر حظوظهم وأنصباثهم التي يتناولوها منه بأعمالهم وكسبهم ويحتمل أن يكون المعنى طائرهم معكم أى راجع عليكم فالطير الذى حصل لكم إنما يعود عليكم وهذا من باب القصاص فى الكلام مثل قوله فى الحديث أخذنا فالك من فيك ونظيره قول النبى ﷺ إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم فعلى هذا معنى طائرهم معكم أى نصيبكم طيرتهم التى تطيرتم بها لأنهم اعتقدوا الشؤم فيها ولا شؤم فيها البتة فقبل لهم الشؤم منكم وهو نازل بكم فتأملوه وهذا يشبه قوله تعالى (وقد مكروا مكروهم وعند الله مكروهم وإن كان مكروهم لتزول منه الجبال) قيل جزاء مكروهم عنده فمكر بهم كما مكروا برسله ومكروه تعالى بهم إنما كان بسبب مكروهم فهو مكروهم عاد عليهم وكيدهم عاد عليهم فهكذا طيرتهم عادت عليهم وحلت بهم وسمى جزاء المكر مكرًا وجزاء الكيد كيدًا تنبيهًا على أن الجزاء من جنس العمل ولما ذكر سبحانه أن ما أصابهم من حسنة وسيئة أى نعمة وعمة فالكل منه تعالى بقضائه وقدره فكأنهم قالوا فما بالك أنت تصيبك الحسنات والسيئات كما تصيبنا فذكر سبحانه أن ما أصابه من حسنة فمن الله من بها عليه وأنعم بها عليه وما أصابه من سيئة فمن نفسه أى بسبب من قبله أى لا لتقص ما جاء به ولا لشر فيه ولا لشؤم يقتضى أن تصيبه السيئة بل بسبب من نفسه ومن قبله وقد قيل فى قوله تعالى (طائرهم عند الله بل أنتم قوم تقتنون) أن طائرهم ههنا هو السبب الذى يجىء فيه خيرهم وشرهم فهو عند الله وحده وهو وقدره وقسمه إن شاء رزقكم وعافاكم وإن شاء حرمكم وابتلاككم من هذا قالوا طائر الله لا طائر كلبى قدر الله الغالب الذى يأتى بالحسنات ويصرف السيئات ومنه اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا إله غيرك وعلى هذا فالمعنى بطائرهم نصيبكم وحظكم الذى يطيركم ومن فسره بالعمل فالمعنى طائرهم الذى طار عنكم من أعمالكم وبهذين القولين فسر معنى قوله تعالى (وكل إنسان أزمانه طائرته فى عمقه) وأنه ما طار عنه من عمله أو صار لازمًا مما قضى الله عليه وقدر عليه وكتب له من الرزق والأجل والشقاوة والسعادة .

فصل

وقد ثبت فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال فى وصف

السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب أنهم الذين لا يكتون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون زاد مسلم وحده ولا يرقون فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول هذه الزيادة وهم من الراوى لم يقل النبي صلى الله عليه وسلم ولا يرقون لأن الراقى محسن إلى أخيه وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن الرقى فقال من استطاع منكم أن ينفخ أخاه فلينفعه وقال لا بأس بالرقى ما لم يكن شركاً والفرق بين الراقى والمسترق أن المسترق سائل مسقط ملتفت إلى غير الله بقلبه والراقى محسن نافع . قلت والنبي صلى الله عليه وسلم لا يجعل ترك الإحسان المأذون فيه سبباً للسبق إلى الجنان وهذا بخلاف ترك الاسترقاء فإنه توكل على الله ورغبة عن سؤال غيره ورضاء بما قضاه وهذا شيء وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم لا عدوى ولا طيرة وأحب الفال الصالح ونحوه من حديث أنس وهذا يحتمل أن يكون نفيًا وأن يكون نهيًا أى لا تطيروا ولكن قوله فى الحديث ولا عدوى ولا صفر ولا هامة يدل على أن المراد النفى وإبطال هذه الأمور التى كانت الجاهلية تعانيتها والنفى فى هذا أبلغ من النهى لأن النفى يدل على بطلان ذلك وعدم تأثيره والنهى إنما يدل على المنع منه . وقد روى ابن ماجه فى سننه من حديث سفيان عن سلمة عن عيسى بن عاصم عن ذر عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الطيرة شرك ومأمننا ولكن الله يذهب بالتوكل وهذه اللفظة ومأمننا إلى آخره مدرجة فى الحديث ليست من كلام النبي صلى الله عليه وسلم كذلك قاله بعض الحفاظ وهو الصواب فإن الطيرة نوع من الشرك كما هو فى أثر مرفوع من رده الطيرة فقد قارن الشرك وفى أثر آخر من أرجعته الطيرة من حاجة فقد أشرك قالوا وما كفارة ذلك قال أن يقول أحدكم اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك . وفى صحيح مسلم من حديث معاوية بن الحكم السامى أنه قال يا رسول الله ومنا أناس يتطيرون فقال ذلك شيء يجده أحدكم فى نفسه فلا يصدنه فأخبر أن تأذبه وتشاومه بالطير إنما هو فى نفسه وعقيدته لافى المتطير به فوهمه وخوفه وإشراكه هو الذى يطيره ويصدنه لا مارآه وسمعه فأوضح صلى الله عليه وسلم لأئمة الأمر وبين لهم فساد الطيرة ليعلموا أن الله سبحانه لم يجعل لهم عليها علامة ولا فيها دلالة ولا نصيبها سبباً لما يخافونه ويحذرونه لتطمئن قلوبهم ولتسكن نفوسهم إلى وحدانيته تعالى التى أرسل بها رسله وأنزل بها كتبه وخلق لأجلها السموات والأرض وعمر الدارين الجنة والنار فبسبب التوحيد ومن أجله جعل الجنة دار التوحيد وموجباته وحقوقه والنار دار الشرك ولو أزمه وموجباته فقطع صلى الله عليه وسلم علق الشرك من قلوبهم لئلا يبقى فيها علة منها ولا يتلبسوا بعمل من أعمال أهله البتة . وفى الحديث المعروف أقرؤا الطير

على مكائنها قال أبو عبيدة في الغريب أراد لا تزجروها ولا تلتفتوا إليها أقروها على مواضعها التي جعلها الله لها ولا تتعدوا ذلك إلى غيره أي أنها لا تضر ولا تنفع وقال غيره المعنى أقروها على أمكئتها فانهم كانوا في الجاهلية إذا أراد أحدهم سفرا أو أمرا من الأمور أثار الطير من أوكارها لينظر أي وجه تسلك وإلى أي ناحية تطير فان خرجت ذات اليمين خرج لسفره ومضى لأمره وإن أخذت ذات الشمال رجع ولم يمرض فأمرهم أن يقروها في أمكئتها وأبطل فعلهم ذلك ونهاهم عنه كما أبطل الاستقسام بالألزام . . وقال ابن جرير معنى ذلك أقروا الطير التي تزجرونها في مواضعها الممكنة فيها التي هي لها مستقر وامضوا لأمركم فإن زجركم إياها غير مجد عليكم نفعا ولا دافع عنكم ضررا . . وقال آخرون هذا تصحيف من الرواة وخطأ منهم ولا يعرف المكئتات إلا أسماء البيض الضباب دون غيرها . . قال الجوهري الممكن البيض الضب قال ومكن الضباب طعام العرب لا تشبهه نفوس العجم وفي الحديث أقروا على الطير مكانها بالضم والفتح قال أبو زياد السكابي وغيره إنا لانعرف للطير مكئتات فأما المكئتات فانما هي الضباب قال أبو عبيد ويجوز في السكلام وإن كان الممكن الضباب في أن يجعل للطير تشبيها بذلك كقولهم مشافر الحبش وإنما المشافر الإبل وكقول زهير يصف الأسد له لبد أظفاره لم تقلم * وإنما له مخالب قال هؤلاء فاعل الراوى سمع أقر الطير في وكئاتها بالواو ولأن وكئتات الطير عشها وحيث تسقط عليه من الشجر وتأوى إليه وفي أثر آخر ثلاث من كن فيه لم ينل الدرجات العلى من تكهن أو استقسم أو رجع من سفر من طيرة وقد رفع هذا الحديث فمن استمسك بعروة التوحيد الوثقى واعتصم بحبله المتين وتوكل على الله قطع بأحسن الطيرة من قبل استقرارها وبأدر خواطرها من قبل استمكانها قال عكرمة كنا جلوسا عند ابن عباس فر طائر يصيح فقال رجل من القوم خير خير فقال له ابن عباس لا خير ولا شر مبادرة بالإنكار عليه لئلا يعتقد له تأثيرا في الخير أو الشر وخرج طاووس مع صاحب له في سفر فصاح غراب فقال الرجل خير فقال طاووس وأى خير عنده والله لا تصحبنى وقيل لكعب هل تتطير فقال نعم فليل له فكيف تقول إذا تطيرت قال أقول اللهم لا طير إلا لطيرك ولا خير إلا خيرك ولا رب غيرك ولا قوة إلا بك وكان بعض السلف يقول عند ذلك طير الله لا طيرك وصياح الله لا صياحك ومساء الله لا مساك وقال ابن عبد الحكم لما خرج عمر بن عبد العزيز من المدينة قال مزاحم فنظرت فاذا القمر في الدبران فكهرت أن أقول له فقلت ألا تنظر إلى القمر ما أحسن استواءه في هذه الليلة قال فنظر عمر فاذا هو في الدبران فقال كأنك أردت أن تعلمنى أن القمر في الدبران يمازحهم إنا لانخرج بشمس ولا بقمر واسكننا نخرج بالله الواحد القهار . . فان قيل فما تقولون فيما

روى عن النبي ﷺ أنه كان يستحب الفأل في الصحيحين من حديث أنس وأبي هريرة عن
 النبي صلى الله عليه وسلم لا عدوى ولا طيرة وخيرها الفأل وفي لفظ وأصدقها الفأل وفي لفظ
 وكان يعجبه الفأل وفي لفظ مسلم ويعجبنى الفأل الصالح أى الكلمة الحسنة وقال إذا أردتم
 إلى يريدأ فاجعلوه حسن الاسم حسن الوجه وروى عن يحيى بن سعيد أن رسول الله صلى
 الله عليه وسلم قال للفتحة تحلب من يحلب هذه فقام رجل فقال النبي ﷺ ما إسمك فقال الرجل
 مرة فقال النبي صلى الله عليه وسلم إجلس ثم قال من يحلب هذه فقام رجل فقال النبي صلى الله
 عليه وسلم ما إسمك فقال الرجل حرب فقال له النبي ﷺ إجلس ثم قال من يحلب هذه فقام
 رجل فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ما إسمك فقال الرجل يعيش فقال له النبي ﷺ يعيش
 احلب فحلب زاد ابن وهب في جامعه في هذا الحديث فقام عمر بن الخطاب فقال أتكم
 يارسول الله أم أصمت قال بل أصمت وأخبرك بما أردت ظننت يا عمر أنها طيرة ولا طير إلا طيره
 ولا خير إلا خيره ولكن أحب الفأل وفي جامع ابن وهب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
 أتى بغلام فقال ما سميت هذا الغلام فقالوا السائب فقال لا تسموه السائب ولكن عبد الله قال
 فغلبوا على اسمه فلم يمت حتى ذهب عقله وفي صحيح البخارى من رواية الزهرى عن سعيد
 ابن المسيب عن أبيه أن أباه جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ما إسمك قال حزن قال
 أنت سهل قال لا أغير اسما سماه أبى قال ابن المسيب فما زالت الحزونة فينا بعد وروى مالك
 عن يحيى بن سعيد أن عمر بن الخطاب قال لرجل ما اسمك قال جمره قال ابن من قال ابن شهاب
 فقال بمن قال من الحرقة قال أين مسكنك قال بحرة النار قال بأيها قال بذات لظى فقال له عمر
 أدرك أهلك فقد احترقوا فكان كما قال عمر وفي غير رواية مالك هذه القصة عن مجاهد عن الشعبي
 قال جاء رجل من جهينة إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال له ما اسمك قال شهاب قال ابن من قال
 ابن جمره قال ابن من قال ابن ضرام قال من قال من الحرقة قال وأين منزلك قال بحرة النار قال ويحك
 أدرك منزلك أو أهلك فقد احترقوا قال فأناهم فألفاهم قد احترق امتهم وقالت عائشة كان رسول
 الله ﷺ يعجبه التيمن ما استطاع في تنعله وترجله ووضوئه وفي شأنه كله وفي صحيح البخارى
 عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال الشؤم في ثلاث في المرأة والدار والداية وفي الصحيح أيضاً من حديث
 سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله ﷺ قال إن كان في الفرس والمرأة والمسكن يعنى الشؤم وفي
 الموطأ عن يحيى بن سعيد قال جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت يارسول
 الله دار سكنناها والعدد كثير والمال وافر فقل العدد وذهب المال فقال رسول الله صلى الله
 عليه وسلم دعوها ذميمة ولما رأى النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد فرسا قد لوح بذنبيه ورجل
 قد استل سيفه فقال له شم سيفك فأنى أرى الشؤم ستسل اليوم وكذلك قوله لما رمى واقد
 ابن عبد الله عمر بن الحضرمى فقتله فقال واقد وقدت الحرب وعامر عمرت الحرب وابن الحضرمى

حضرت الحرب ولما خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى بدر استقبل في طريقه جبلين فسأل
عنهما فأتوا اسم أحدهما مسلح والآخر مخزى. وأهلما بنو النار وبنو محراق فكره المرور
عليهما وتركهما على يساره وسلك ذات النبين وعرض عبد الله بن جعفر مالا له على معاوية
يقال له الدعان وقال له اشتره منى فقال له معاوية هذا مال يقول دعنى ولما نزل الحسين بن
على بكر بلاء قال ما اسم هذا الموضع قالوا كربلاء قال كرب و بلاء ولما خرج عبد الله بن الزبير
من المدينة إلى مكة أنشده أحد أخويه

وكل بني أم سيمسون ليلة ولم يبق من أغنامهم غير واحد
فقال له عبد الله ما أردت إلى هذا قال لم أتعمدته قال هو أشد على وقد كره السلف ومن بعدهم
أن يتبع الميت بنار إلى قبره من حجر أو غيره وفي معناه الشمع قالت عائشة لا تجعلوا آخر
زاده أن تتبعوه بالنار ولما بايع طلحة بن عبيد الله على بن أبي طالب وكان أول من بايع قال
رجل أول يد بايعته يد شلاء لا يتم هذا الأمر له ولما بعث على رضى الله عنه معقل بن قيس
الرباحى من المدائن فى ثلاثة آلاف وأمره أن يأخذ على الموصل ويأتى نصيبين ورأس عين حتى
يأتى الرقة فيقيم بها فسار معقل حتى نزل الحديثة فبينما هو ذات يوم جالسا إذ نظر إلى كبشين
يتناطحان حتى جاء رجلان فأخذ كل منهما كبشاً فذهب به فقال شداد بن أبي ربيعة الخثعمى
ستصرفون من وجهكم هذا لا تغلبون ولا تغلبون لا فتراق الكبشين سليمان فكان كذلك ولما
بعث معاوية فى شأن حجر بن عدى وأصحابه كان الذى جاءهم أعور يقال له هذبة وكانوا
ثلاثة عشر رجلا مع حجر فنظر إليه رجل منهم فقال إن صدق القائل قتل نصفنا لأن الرسول
أعور فلما قتلوا سبعة وأتى رسول ثان ينهى عن قتلهم فكفوا عن الباقيين وقال عوانة بن
الحكم لما دعا ابن الزبير إلى نفسه قام عبد الله بن مطيع ليبايع فقبض عبد الله بن الزبير يده
وقال أعييد الله بن أبي طالب قم فبايع فقال عبد الله قم يا مصعب فبايع فقام فبايع فتفاهل
الناس وقالوا أبى أن يبايع ابن مطيع و بايع مصعبا ليكون فى أمره صعوبة أو شر فكان
كذلك . . وقال سلمة بن محارب نزل الحجاج فى محاربه لابن الأشعث دير قررة ونزل عبد الرحمن
ابن الأشعث دير الجمام فقال الحجاج استقر الأمر فى يدي وتجمجم به أمره والله لأقتله
وقال عمرو بن مروان السكبي حدثني مروان بن يسار عن سلمة مولى يزيد بن الوليد قال
كنت مع يزيد بن الوليد بناحية القريتين قبل خروجه على الوليد بن يزيد ونحن نتذاكر
أمره إذ عرض لنا ذنب هناك فتناول يزيد قوسه فرمى الذنب فأصاب حلقه فقال قتلت الوليد
ورب الكعبة فكان كإقال وقال داود بن عيسى بن محمد بن على خرج أبى وأبو جعفر غازيين
فى بلاد الروم ومعه غلام له ومع أبى جعفر مولى فسنحت له أربعة أظب ثم مضت تخاتلنا

حتى غابت عنا ثم رجعت ومضى واحد فقال لنا أبو جعفر والله لا نرجع جميعاً فأت مولى
أبي جعفر وأمر بعض الأمراء جارية له تغني فاندفعت تقول :
هم قتلوه كي يكونوا مكانه كما غدرت يوماً بكسرى مرارته
فقال ويملك غنى غير هذا فغنت

هذا مقام مطرد هدمت منازلها ودوره
فقال ويملك غنى غير هذا فقالت والله ياسيدي ما أعتد إلا ما يسرك ويسبق إلى لساني
ماترى ثم غنت

كليب له مري كان أكثر ناصراً وأيسر جرماً منك ضرج بالدم
فقال ما أرى أمري إلا قريباً فسمع قائلاً يقول قضى الأمر الذي فيه تستفتيان وقد ذكر
في حرب بني تغلب أن تيم اللات أرسل بنيه في طلب مال له فلما أمسى سمع صوت الريح فقال
لامرأته أن نظري من أين نشأ السحاب ومن أين نشأت الريح فأخبرته أن الريح طالع من وجه السحاب
فقال والله إنى لأرى ريحاً تهدهذه الصخرة وتمحق الأثر فلما دخل عليه بنوه قال لهم ما لقيتم قالوا
سرنا من عندك فلما بلغنا غصن شعشين إذا بعفر جاثمات على دعص من رمل فقال أمشقات أم
مغربات قالوا مغربات قال فإريكم ناطح أم دابر أم بارح أم سانح فقالوا ناطح فقال لنفسه يا تيم اللات
دعص الشعشين والشعثم الشيخ الكبير وأنت شعثم بنى بكر وجواثم بدعص وريح ناطح نطحت
فبرحت قال ثم ماذا قالوا ثم رأينا ذئباً قد دلح لسانه من فيه وهو يطجر وشعره عليه فقال ذلك
حران نأثر ذو لسان عدول حامى الظهر همه سفك الدماء وهو أرقم الأرقام يعنى مهلهل قال ثم
ماذا قالوا ثم رأينا ريحاً وسحاباً قال فهل مطر تم قالوا بلى قال ببرق قالوا قد كان ذلك
فقال أماء سائل فقالوا نعم فقال ذلك دم سائل ومرهفات قال ثم مه قالوا ثم طلعنا قلعة
الضعفاء ثم تصوبنا من تل فاران قال فكنتم سواء أو مترادفين قالوا بل سواء قال فما سئوكم
قالوا خبا قال فإريكم قالوا ناطح قال فمافعل الجيش الذين لقيتم قالوا نجو نامنه هربا وجدالقوم
في أثرنا قال ثم مه قالوا ثم رأينا عقاباً منقضة على عقاب فتشابكا وهويا إلى الأرض قال ذلك
جمع رام جمعاً فهو لاقية قال ثم مه قالوا ثم رأينا سبعاً على سبع ينهشه وبه بقية لم يمت فقال
ذرونى أما والله أنها لقبيلة مصروعة مأكولة مقتولة من بنى وائل بعد عز وامتناع . .
وذكروا أن تيم اللات هذا مريوما يحمل أجرة وعليه ثلاث غرايب فقال ابنه يستفنون
على مقتولا فكان كما قال وقتل عن قريب وكذلك قول علقمة في مسيره مع أصحابه وقد
مروا في الليل بشيخ فان فقال لقيتم شيخاً كبيراً فأنيا يغالب الدهر والدهر يغالبه يخبركم أنكم
ستلقون قوماً فيهم ضعف وهن ثم لقي سبعاً فقال دلج لا يغلب ثم رأى غراباً ينفض

بجؤجؤه فقال أبشروا ألا ترون أنه يخبركم أن قد اطعمأنت بكم الدار فيكان كذلك . . . وذكر المدائني قال خرج رجل من لذب ، لهم عيافة في حاجة له ومعه سقاء من ابن فسار صدر يومه ثم عطش فأناخ ليشرب فإذا الغراب ينبع فأثار راحلته ومضى فلما أجهده العطش أناخ ليشرب فنبع الغراب فأثار راحلته ثم الثالثة نبع الغراب وتمرغ في التراب فضرب الرجل السقاء بسيفه فإذا فيه أسود ضخم ثم مضى فإذا غراب على سدره فصاح به فوقع على سلمة فصاح به فوقع على صخرة فانتهى إليه فاذا تحت الصخرة كنز فلما رجع إلى أبيه قال له ما صنعت قال سرت صدر يوم ثم أنخت لأشرب فإذا الغراب ينبع قال أثره وإلا لست بابني قال أثرته ثم أنخت لأشرب فنبع الغراب وتمرغ في التراب قال أضرب السقاء وإلا لست بابني قال فعلت فإذا أسود ضخم قال ثم مه قال ثم رأيت غرابا واقعا على سدره قال أطره وإلا لست بابني قال أطرته فوقع على سلمة قال أطره وإلا لست بابني فحدث فأخبرته . . . وذكر أيضا أن أعرابيا أضل ذودأ له وخادما فخرج في طلبهما إذ اشتدت عليه الشمس وحى النهار فمر برجل يحلب ناقة قال أظنه من بني أسد فسأه عن ضالته قال أذن فأشرب من اللبن وأدلك على ضالته قال فشرب ثم قال ما سمعت حين خرجت قال بكاء الصبيان ونباح الكلاب وصراخ الديكة ونغاء الشاء قال ينهك عن الغدو ثم مه قال ثم ارتفع النهار فعرض لى ذئب قال كسوب ذو ظفر ثم مه قال ثم عرضت لى نعامة قال ذات ريش واسمها حسن هل تركت فى أهلك مريضا يعاد قال نعم قال ارجع إلى أهلك فذودك وخادملك عندهم فرجع فوجدهم . . . وذكر أبو خالد التيمي قال كنت أخذ الإبل بضمان فأرعاها فى ظهر البصرة فطردت فخرجت أقفو أثرها حتى انتهيت إلى القادسية فاختلفت على الآثار فقلت لو دخلت الكوفة فتخسست عنها فأتيت السكناسة فإذا الناس مجتمعون على عراف اليمامة فوقفت ثم قلت له حاجتى فقال بعيدة أشطان الهوى جمع مثلها على العاجز الباغى الغبى ذو تكاليف وترجمن قال فوجدتها فى الشام مع ابن عم لى فصالحتها أصحابها عنها وقال المدائني كان بالسواد زاجر يقال له مهر فأخبر به بعض العمال فجعل يكذب زجره ثم أرسل إليه فلما أتاه قال إنى قد بعثت بغنم إلى مكان كذا وكذا فانظر هل وصلت أم لم تصل وقد عرف للعامل قبل ذلك أن بينهما وبين الكلاء رحلة فقال لغلामه أخرج فانظرأى شىء تسمع قال وكان العامل قد أمر غلامه أن يكن فى ناحية الدار ويصيح صياح ابن آوى فخرج غلام الزاجر ليسمع وصاح غلام العامل فرجع إلى الزاجر غلامه وأخبره بما سمع فقال للعامل قد ذهبت عنك وقطع عليها الطريق فاستيقنت قال فضحك العامل وقال قد جاءنى خبرها أنها وصلت والصائح الذى صاح غلامى قال إن كان الصائح الذى الصاح ابن آوى فقد ذهبت

وإن كان غلامك فقد ذهب الراعى قال فبلغه بعد ذلك ذهاب الغنم وقتل الراعى ... وذكر عن العكلى أنه خرج في تسعة نفر هو عاشرهم ليصيبوا الطريق فرأى غرابا واقفا فوق بانه فقال يا قوم أنكم تصابون في سفركم هذا فاذجروا وأطيعوني وارجعوا فأبوا عليه فأخذ قوسه وانصرف وقتلت التسعة فأنشد يقول :

رأيت غرابا واقفا فوق بانه ينشئ أعلى ريشه ويطايره
فقلت غراب اغتراب من النوى وبانه بين من حبيب تجاوره
فما أعيف العكلى لا دردره وازجره للطير لاعز ناصره

... وذكر عن كثير عزة أنه خرج يريد مصر وكانت بها عزة فلقية أعرابي من نهد فقال أين تريد قال أريد عزة بمصر قال ما رأيت في وجهك قال رأيت غرابا ساقطا فوق بانه ينتف ريشه فقال ماتت عزة فانتهى ومضى فوانى مصر والناس منصرفون من جنازتها فأنشأ يقول :

فأما غراب فاغتراب وغربة وبان فبين من حبيب تعاشره

... وذكر عنه أيضا أنه هوى امرأة من قومه بعد عزة يقال لها أم الحويرث وكانت فائقة الجمال كثيرة المال فقالت له أخرج فأصب مالا وأتزوجك فخرج إلى اليمن وكان عليها رجل من بنى مخزوم فلما كان ببعض الطريق عرض له قوط والقوط الجماعة من الظباء فضى ثم عرض له غراب ينبعب ويفحص التراب على رأسه فأتى كثير حيا من الأزدي ثم من بنى لهب وهم من أزجر العرب وفيهم شيخ قد سقط حاجباه على عينيه فقص عليه ما عرض له فقال إن كنت صادقا لقد ماتت هذه المرأة أو تزوجت رجلا من بنى كعب فأغتم كثيرا لذلك وسقى بطنه فكان ذلك سبب موته وقال في ذلك :

تيممت لهما أبتغى العلم عندهم وقد رد علم العائفين إلى لهب
فيممت شيخا منهم ذو أمانة بصيرا بزجر الطير منحني الصلب
فقلت له ماذا ترى في سوانح وصوت غراب يفحص الأرض بالترب
فقال جرى الطير السنيح بينها ونادى غراب بالفراق وبالسلب
فان لا تكن ماتت فقد حال دونها سواك حليل باطن من بنى كعب

وقال رجل من بنى أسد تزوجت ابنة عم لي فخرجت أريدها فلقيني شيء كالكلب مدليا لسانه في شق فقلت أخفت ورب الكعبة فأتيت القوم فلم أصل إليها وناقرتي أهلها فخرجت عنهم فمكثت ثلاثة أيام ثم بدا لي فيهم فخرجت نحوهم فلقيت كلبة تنطف أطباؤها لبنا فقلت أدركت ورب الكعبة فدخلت بأهلى وحمام منى بغلام ثم آخر حتى ولدت أولادا . . . وذكر عن

يحيى بن خالد قال حج رجلان فقيل لهما هبنا امرأة تزجر قال فأتياها فسألاها فقال أحدهما ما نضم فقال أنك لتسألني عن رجل مقتول فقال هو والله الذي سألت عنه صاحبي فقالت هو كما قلت فسألاها عن تفسير ذلك فقالت أما رأيتهما الجارية التي مرت ومعها ديك مشدود الرجلين حين سألتني الأول قالوا بلى قالت فلذلك قلت أنه محبوس مقيد قالت ورأيت الجارية حين رجعت وسألتنى أنت والديك مذبح فقالت مقتول . . وذكر المدائني أن أهل بيت من العجم كانوا إذا غاب الرجل عن أهله ولم يأتيهم خبره أربع حجج زوجوا امرأته فتزوج منهم رجل جارية وغاب أربع حجج لا يأتيهم فأرادوا تزويج الجارية وكانت مشغوفة به فقالت دعوني سنة أخرى فأبوا عليها وأتوا زاجر ألهم فخرج الزاجر ومعهم تلميذ له فتلقاهم قوم يحملون ميتا ويد الميت على صدره فقال الزاجر لتلميذه مات الرجل قال مامات ألا ترى يد الميت على صدره يخبر أنه هو الميت والرجل صحيح فرجما فأخبرا الحاكم أنه لم يمت فأمر بتأجيلها سنة فجاء زوجها بعد شهر . . وذكر ابن قتيبة عن إبراهيم بن عبد الله قال دخلت على رجل ضرير زاجر من العرب وقد خبأت سحابة عنوان من كتان فقالت أخبرني بما خبأت لك فنظر قليلا ثم قال هو من نبات المساء فقالت زدني في الشرح قال هو قطعة من كتان قال فسألته عن ذلك فقال سألتني عن الخبيء فوعدت يدي على الحصر فقالت لأنه من نبات الماء قال فقالت زدني فقال وصاح صائح من جانب الدار فقضيت بالسواد وبأنه صغير للتصغير ثم نظرت فلم يكن ذلك أولى بأن يكون قطعة من كتان قال وسألته عن مقرضين في يدي قد أدخلت أصبعي في حلقتهما فقال في يدك خاتم من حديد وذكر ابن عيينة عن الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يرمى الجرة فجاءته حصاة فأصابت جبهته ففصدت منه عرقا فقال رجل من بني لُب أشعر أمير المؤمنين ورب الكعبة لا يقوم هذا المقام أبدا فقتل بعد ذلك وثبت في الصحيحين من حديث ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الشؤم في الدار والمرأة والفرس وفي لفظ فيهما لا عدوى ولا صفر ولا طيرة وإنما الشؤم في ثلاثة المرأة والفرس والدار وفي لفظ آخر فيهما إن يكن الشؤم في شيء حقا ففي الفرس والمسكن والمرأة وفي بعض طرق البخاري والداية بدل الفرس وفي الصحيحين أيضا عن سهل بن سعد الساعدي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن كان في المرأة والفرس والمسكن يعني الشؤم . . وقال البخاري إن كان في شيء وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن كان في شيء ففي الربع والخادم والفرس . . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا يورد ممرض على

مصحح . . وفي موطن ما لك أنه بلغه عن بكير بن عبد الله بن الأشج عن أبي عطية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا عدوى ولا هام ولا صفر ولا يحل للمريض على المصحح ولا يحل للمصحح حيث شاء قالوا يا رسول الله وما ذاك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه أذى . . وقال ابن وهب أخبرني يونس عن ابن شهاب أن أبا سلمة بن عبد الرحمن قال كان أبو هريرة رضى الله عنه يحدثنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أنه لا عدوى وحديثنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يورد مريض على مصحح الحديث ثم صحت أبو هريرة بعد ذلك عن قوله لا عدوى وأقام أن لا يورد مريض على مصحح الحديث قال فقال الحارث بن أبي ذئاب وهو ابن عم أبي هريرة قد كنت أسمعتك يا أبا هريرة تحدثنا مع هذا الحديث حديثنا آخر قد سكنت عنه كنت تقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا عدوى فأنى أبو هريرة أن يحدث ذلك وقال لا يورد مريض على مصحح فأراه الحارث في ذلك حتى غضب أبو هريرة ورطن بالحبشية فقال للحارث أتدرى ماذا قلت قال لا قال أبو هريرة إني أقول أبيت أبيت قال أبو سلمة فنعمرى أقد كان أبو هريرة يحدثنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا عدوى فلا أدري أنسى أبو هريرة أو نسخ أحد القولين الآخر قالوا هذا النهى عن إيراد المريض على المصحح إنما هو من أجل الطيرة التي تلحق المصحح . . وقال مسدد حدثنا يحيى بن هشام عن يحيى بن أبي كثير عن الحضرمي بن لاحق عن سعيد بن المسيب قال سألت سعد بن مالك عن الطيرة فأنه رنى وقال من حدثك فكبرهت أن أحدثه فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا عدوى ولا طيرة ولا هامة وإن كانت الطيرة في شيء . ففى الفرس والمرأة والدار فإذا كان الطاعون بأرض وأتم بها فلا تفروا . . وفي صحيح مسلم عن الشريد بن سويد قال كان فى وفد ثقيفة رجل مجذوم فأرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم إنا قد بايعناك فأرجع وفى حديث آخر فر من المجذوم فرارك من الأسد .

فصل

الآن التقت حلقتنا البطان وتداعى نزال الفریقان نعم وهما أضعاف أضعاف ما ذكرتم وأضعاف أضعافه وللناس ههنا مسلكان عليهما يعتمد المتكلمون فى هذا الباب لا ترضيهما بل نسلك مسلك العدل والتوسط بين طرفى الأفرات والتفريط فدين الله بين الغالى فيه والجافى عنه والوادی بین الجبلین والهذى بین الضلالتین وقد جعل الله هذه الأمة هى الأمة الوسط فى جميع أبواب الدين فإذا انحرف غيرها من الأمم إلى أحد الطرفين كانت هى فى الوسط كما كانت وسطا فى باب أسماء الرب تعالى وصفاته بين الجهمية والمعتلة والمشبهة الممثلة وكان وسطا فى باب الإيمان بالرسول بين من عبدهم وأشركهم بالله كالنصارى وبين من قتلهم

وكذبهم فأمنوا بهم وصدقوهم وتركوهم من العبودية وكانت وسطا في القدر بين الجبرية الذين ينفون أن يكون للعبد فعل أو كسب أو اختيار البتة بل هو مجبور متهور لا اختيار له ولا فعل وبين القدرية النفاة الذين يجعلونه مستقلا بفعله ولا يدخل فعله تحت مقدر الرب تعالى ولا هو واقع بمشيئة الله تعالى وقدرته فأثبتوا له فعلا وكسبا واختيارا حقيقة وهو متعلق الأمر والنهي والثواب والعقاب وهو مع ذلك واقع بقدره الله ومشيئته فما شاء الله من ذلك كان وما لم يشأ لم يكن ولا يتحرك ذرة إلا بمشيئته وإرادته والعباد أضعف وأعجز أن يفعلوا ما لم يشأه الله لا قوة له ولا قدرة عليه وكذلك هم وسط في المطاعم والمشارب بين اليهود الذين حرمت عليهم الطيبات عقوبة لهم وبين النصارى الذين يستحلون الخبائث فأحل الله لهذه الأمة الوسط الطيبات وحرم عليهم الخبائث وكذلك لا تجرد أهل الحق دائما إلا وسطا بين طرفي الباطل وأهل السنة وسط في النحل كما أن المسلمين وسط في الملل وكذلك مانحن فيه من هذا الباب فإنهم وسط بين النفاة الذين ينفون الأسباب جملة ويمنعون ارتباطها بالمسببات وتأثيرها بها ويسدون هذا الباب بالكلية ويضطربون فيما ورد من ذلك فيقابلون بالتكذيب منه ما يمكنهم تكذيبه ويحيلون على الاتفاق والمصادفة ما لا قبل لهم بدفعه من غير أن يكون لشيء من هذه الأمور مدخل في التأثير أو تعلق بالسببية البتة وربما يقولون أن أكثر ذلك مجرد خيالات وأوهام في النفوس تتفعل عنها النفوس كأنفعال أرباب الخيالات والأمراض والأوهام وليس عندهم وراء ذلك شيء وهذا مسلك نفاة الأسباب وارتباط المسببات بها وهذا جواب كثير من المتكلمين والمسلك الثاني مسلك المثبتين لهذه الأمور المعتقدين لها الداهيين إليها وهي عندهم أقوى من الأسباب الحسية أو في درجتها ولا يلتفتون إلى قدح قاذح فيها والقذح فيها عندهم من جنس القذح في الحسيات والضروريات ونحن لانسلك سبيل هؤلاء ولا سبيل هؤلاء بل نسلك سبيل التوسط والإحصاف ونجانب طريق الجور والانحراف فلا نبطل الشرع بالقدر ولا نكذب بالقدر لأجل الشرع بل نؤمن بالمقدور ونصدق الشرع فنؤمن بقضاء الله وقدره وشرعه وأمره ولا نعارض بينهما فنبتل الأسباب المقدورة أو نقذح في الشريعة المنزلة كما فعله الطائفتان المنحرفتان بإحداهما بطلت ما قدره الله من الأسباب بما فهمته من الشرع وهذا من تقصيرها في الشرع والقدر والأخرى توصلت إلى القذح في الشرع وإبطاله بما تشاهده من تأثير الأسباب وارتباطها بمسبباتها لما ظنت أن الشرع نفاها وكذبت بالشارع فالطائفتان جانبتان على الشرع لكن الموفقون المهديون آمنوا بقدر الله وشرعه ولم يعارضوا أحدهما بالآخر بل صدق كل منهما الآخر عندهم وقرره فكان الأمر تفصيلا للقدر وكاشفا عنه وحاكما عليه والقدر أصل الأمر ومنفذه وشاهد له ومصدق له فلولا القدر لما وجد الأمر ولا تحقق ولا قام

على ساقه ولو لا الأمر لما تميز القدر ولا تبينت مراتبه وتصاريفه فالقدر مظهر الأمر والأمر تفصيل له والله سبحانه له الخلق والأمر فلا يكون إلا خالفاً أمراً فأمره تصرف لقدره وقدره منفذ لأمره ومن أبصر هذا حق البصر وانفتحت له عين قلبه تبين له سر ارتباط الأسباب بمسبباتها وجرانها فيها وأن القدر فيها وإبطالها لإبطال الأمر وتبين له أن كمال التوحيد بإثبات الأسباب لا أن إثباتها نقض للتوحيد كما زعم منكرها حيث جعلوا لإبطالها من لوازم التوحيد فجنوا على التوحيد والشرع والتزموا تكذيب الحس والعقل ووقعوا في أنواع من المكابرة سلطت عليهم أعداد الشريعة وأوجبت لهم إن أساؤا بها الظن وتنقصوها وزعموا أنها خطائية وإفناعية وجدلية لإبرهانية فمظم الخطب وتفاهم الأمر واشتدت البلية بالمطائفتين وقد قيل أن العدو العاقل خير من الصديق الجاهل ونحن بحمد الله نبين الأمر في ذلك ونوضح أيضاً ما يتبين به تصديق كل من الأمرين الآخر وشهادته له وتزكيتة له وتبين ارتباط كل من الأمرين بالآخر وعدم انفكاكه عنه فنقول وبالله التوفيق . . . أما ما ذكرتم من أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعجبه الفأل الحسن فلاريب في ثبوت ذلك عنه وقد قرن ذلك بإبطال الطيرة كما في الصحيحين من حديث الزهري عن عبيد بن عبد الله عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا طيرة وخيرها الفأل قالوا وما الفأل يا رسول الله قال الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم فابتدأهم النبي ﷺ بإزالة الشبهة وإبطال الطيرة لئلا يتوهموا عليه في إعجابهم بالفأل الصالح وليس في الإعجاب بالفأل ومحبة شيء من الشرك بل ذلك إبانة عن مقتضى الطبيعة وموجب الفطرة الإنسانية التي تميل إلى ما يلائمها ويوافقها مما ينفعها كما أخبرهم أنه حبيب إليه من الدنيا النساء والطيب . . . وفي بعض الآثار أنه ﷺ كان يعجبه الفاغية وهي نور الحناء وكان يحب الحلواء والعسل وكان يحب الشراب البارد الحلو ويحب حسن الصوت بالقرآن والأذان ويستمتع إليه ويحب معالي الأخلاق ومكارم الشيم وبالجملة يحب كل كمال وخير وما يفضي إليهما والله سبحانه قد جعل في غرائز الناس الإعجاب بسماع الإسم الحسن ومحبة وميل نفوسهم إليه وكذلك جعل فيها الإرتياح والاستبشار والسرور باسم السلام والفلاح والنجاح والتهنئة والبشرى والفوز والظفر والغنم والريح والطيب ونيل الأمنية والفرح والنعوت والعز والغنى وأمثالها فإذا قرعت هذه الأسماء الأسماع استبشرت بها النفس وانشرح لها الصدر وقوى بها القلب وإذا سمعت أصدادها أو جملها ضد هذه الحال فأحزنها ذلك وأثار لها خوفاً وطيرةً وانكاشاً وانقباضاً عما قصدت له وعزمت عليه فأورث لها ذلك ضرراً في الدنيا ونقصاً في الإيمان ومقارفة للشرك كما ذكره أبو عمر

في التمهيد من حديث المقرئ عن أبي لميعة حدثنا ابن هبيرة عن أبي عبد الرحمن الجبلي عن عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ قال من أرجعته الطيرة من حاجته فقد أشرك قال وما كفارة ذلك يا رسول الله قال أن يقول أحدهم اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا إله غيرك ثم يمضي لحاجته . . . وذكر ابن وهب قال أخبرني أسامة بن زيد قال سمعت نافع بن جببر ابن مطعم يقول سألت كعب الأحمري عبد الله بن عمر هل تطير فقال نعم قال فكيف تقول إذا تطيرت قال أقول اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا رب غيرك ولا قوة إلا بك فقال كعب إنه أفتقه العرب والله إنها لكذلك في التوراة وهذا الذي جعله الله سبحانه في طباع الناس وغرائزهم من الإعجاب بالأسماء الحسنة والألفاظ المحبوبة وهو نظير ما جعل في غرائزهم من الإعجاب بالمناظر الأنيقة والرياض المنورة والمياه الصافية والألوان الحسنة والروائح الطيبة والمطاعم المستلذذة وذلك أمر لا يمكن دفعه ولا يجد القلب عنه انصرافا فهو ينفع المؤمن ويسر نفسه وينشطها ولا يضرها في إيمانها وتوحيدها وأخبر صلى الله عليه وسلم في حديث أبي هريرة أن الفأل من الطيرة وهو خيرها فقال لا طيرة وخيرها الفأل فأبطل الطيرة وأخبر أن الفأل منها ولكنه خيرها ففصل بين الفأل والطيرة لما بينهما من الامتياز والتضاد ونفع أحدهما ومضرة الآخر ونظير هذا منعه من الرقاء بالشرك وإذنه في الرقية إذا لم تكن شركا لما فيها من المنفعة الخالية عن المفسدة وقد اعتاص هذا الفرقان على أفهام كثير من غلط عن معرفة الحق والدين حجابا وغلاظ عنه وطبعه وكشف عنه ففهمه فقال السامع إذا سمع مثلا بإشارة أو أبشر أو لا تخف أو يانجیح ونحوه وسمع ضد ذلك فأما أن يوجب الأمر أن ما يشا كلهما وأمان لا يوجب شيئا فأما أن يوجب أحدهما دون الآخر فلا وجه له وهذا من عمى عن الهدى وصم عن سماعه وإنما تحصل الهداية من ألفاظ رسول الله ﷺ وتشرق ألفاظها في صدر من تلقاها بالتصديق والقبول فأذعن لها بالسمع والطاعة وقابلها بالرضى والتسليم وعلم أنها منبع الهدى ومعين الحق ونحن بحمد الله نوضح لمن اشتبه ذلك عليه فرقان ما بينهما وفائدة الفأل ومضرة الطيرة فنقول . . . الفأل والطيرة وإن كان مأخذهما سواء ومجتاهما واحدا فإنهما يختلفان بالمقاصد ويفترقان بالمذاهب فما كان محبوبا مستحسننا تفاءلوا به وسموه الفأل وأحبوه ورضوه وما كان مكروها قبيحا منفرأ تشاءموا به وكرهوه وتظيروا منه وسموه طيرة تعرقة بين الأمرين وتفصيلا بين الوجهين وسئل بعض الحكماء فقيل له ما بالكم تكروهون الطيرة وتحبون الفأل فقال لنا في الفأل عاجل البشرى وإن قصر عن الأمل ونكره الطيرة لما يلوم قلوبنا من الوجع وهذا الفرقان حسن جداً وأحسن منه ما قاله ابن الرومي في ذلك الفأل لسان الزمان والطيرة عنوان الحدثنان وقد كانت العرب تقلب الأسماء تطيرا وتفاؤلا

فيسمون اللديغ سلبيا باسم السلامة وتظيرا من اسم السقم ويسمون العطشان ناهلا أي سينهل والنهل الشرب تفاؤلا باسم الري ويسمون الفلاة مفازة أي منجاة تفاؤلا بالفوز والنجاة ولم يسموها مهلكة لأجل الطيرة وكانت لهم مذاهب في تسمية أولادهم فمنهم من سموه بأسماء تفاؤلا بالظفر على أعدائهم نحو غالب وغلاب ومالك وظالم وعارم ومنازل ومقاتل ومعارك ومسهر ومؤرق ومصبح وطارق ومنهم من تفاول بالسلام كتسميتهم بسلام وثابت ونحوه ومنهم من تفاول بنيل الحظوظ والسعادة كسعد وسعيد وأسعد ومسعود وسعدى وغانم ونحو ذلك ومنهم من قصد لتسميته بأسماء السباع ترهيبا لأعدائهم نحو أسد وليث وذئب وضرغام وشبل ونحوها ومنهم من قصد التسمية بما غلظ وخشن من الأجسام تفاؤلا بالقوة كحجر وصخر وفهر وجندل ومنهم من كان يخرج من منزله وامراته تمخض فيسمى ما تلده باسم أول ما يلقاه كائنا ما كان من سبع أو ثعلب أو ضب أو كلب أو ظبي أو حشيش أو غيره وكان القوم على ذلك إلى أن جاء الله بالإسلام ومحمد رسول الله ﷺ ففرق به بين الهدى والضلال والقي والرشاد وبين الحسن والقبيح والمحجوب والمكروه والنافع والحق والباطل ففكره الطيرة وأبطلها واستحب الفأل وحده فقال لا طيرة وخيرها الفأل قالوا وما الفأل قال الكلمة الصالحة يسميها أحدكم وقال عبد الله بن عباس لا طيرة ولكنة فأل والفأل المرسل يسار وسالم ونحوه من الإسم يعرض لك على غير ميعاد وسئل بعض العلماء عن الفأل فقال أن تسمع وأنت قد أضللت بعيرا أو شيئا يا واجد أو أنت خائف ياسالم وقال الأصمعي سألت ابن عون عن الفأل فقال أن يكون مريضا فيسمع ياسالم وأخبرك عن نفسى بقضية من ذلك وهي أنى أضللت بعض الأولاد يوم التروية بمكة وكان طفلا فجهدت في طلبه والنداء عليه في سائر الركب إلى وقت يوم الثامن فلم أقدر له على خبر فأيست منه فقال لى لإنسان إن هذا عجز اركب وادخل الآن إلى مكة فطلبه فيها فركبت فرسا فما هو إلا أن استقبلت جماعة يتحدثون في سواد الليل في الطريق وأحدهم يقول ضاع له شيء فلقية فلا أدري انقضاء كذته كان أسرع أم وجدانى الطفل مع بعض أهل مكة في محلة عرفته بصوته فقله ﷺ ولا طيرة وخيرها الفأل ينفي عن الفأل مذهب الطيرة من تأثير أو فعل أو شركة ويخلص الفأل منها وفي الفرقان بينهما فائدة كبيرة وهي أن التطير هو التشاؤم من الشيء المرئى أو المسموع فإذا استعملها الإنسان فرجع بها من سفره وامتنع بها مما عزم عليه فقد قرع باب الشرك بل وجهه وبرى من التوكل على الله وفتح على نفسه باب الخوف والتعلق بغير الله والتطير مما يراه أو يسمعه وذلك قاطع له عن مقام إياك نعبد وإياك نستعين وأعبده وتوكل عليه وعليه توكلت وإليه أنيب فيصير قلبه متعلقا بغير الله عبادة وتوكلا فيفسد عليه قلبه وإيمانه

وحاله ويبقى هدفا لسهام الطيرة ويساق إليه من كل أوب ويقبض له الشيطان من ذلك ما يفسد عليه دينه ودنياه وكم هلك بذلك وخسر الدنيا والآخرة فأين هذا من العال الصالح السار للقلوب المؤيد للآمال الفاتح باب الرجاء المسكن للخوف الرابط للجأش الباعث على الاستعانة بالله والتوكل عليه والاستبشار المقوى لأمله السار لنفسه فهذا ضد الطيرة فالعال يفضى بصاحبه إلى الطاعة والتوحيد والطيرة تفضى بصاحبها إلى المعصية والشرك فلهذا استحب صلى الله عليه وسلم الفأل وأبطل الطيرة وأما حديث اللقحة ومنع النبي صلى الله عليه وسلم حربا ومرة من حلها وأذنه ليعيش في حلها فليس هذا بحمد الله في شيء من الطيرة لأنه محال أن ينهى عن شيء ويبطله ثم يتعاطاه هو وقد أعاده الله سبحانه من ذلك قال أبو عمر ليس هذا عندي من باب الطيرة لأنه محال أن ينهى عن شيء ويفعله وإنما هو من طلب الفأل الحسن وقد كان أخبرهم عن أفتح الأسماء أنه حرب ومرة فأكد ذلك حتى لا يتسمى بها أحد ثم ساق من طريق ابن ربيعة عن جعفر بن ربيعة بن يزيد عن عبد الله بن عامر اليحصبي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال خير الأسماء عبد الله وعبد الرحمن وأصدقها حارث وهمام حارث يحرث لأبنائه وهمام بهم بالخير وكان يكره الإسم القبيح لأنه كان يتفاهل بالحسن من الأشياء ثم ساق من طريق ابن وهب حدثني ابن لهيعة عن الحارث بن يزيد عن عبد الرحمن بن جبير عن يعيش الغفاري قال دعا النبي صلى الله عليه وسلم يوما بناقة فقال من يحلبها فقام رجل فقال أنا فقال ما اسمك قال مرة قال أقعد ثم قام آخر فقال ما اسمك قال جمرة قال أقعد ثم قام رجل فقال ما اسمك قال يعيش قال احلبها وروى حماد بن سلمة عن حميد عن بكر بن عبد الله المزني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا توجه لحاجة يحب أن يسمع يا نجيح يا راشد يا مبارك وقد روى من حديث بريدة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يتطير من شيء ولكن كان إذا سأل عن اسم الرجل فكان حسنا روى البشاشة في وجهه وإن كان سيئا روى ذلك في وجهه وإذا سأل عن اسم الأرض وكان حسنا روى ذلك فيه . . قلت الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده حدثنا عبد الصمد حدثنا هشام عن قتادة عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يتطير من شيء ولكنه إذا أراد أن يأتي أرضا سأل عن اسمها فإن كان حسنا روى ذلك في وجهه وكان إذا بعث رجلا سأل عن اسمه فإن كان حسن الإسم روى البشر في وجهه وإن كان قبيحا روى ذلك في وجهه وقال أبو عمر حدثنا عبد الوارث حدثنا قاسم حدثنا أحمد بن زهير بن حسين بن حريث ابن عبد الله بن بريدة عن الحسين بن واقد عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يتطير ولكن كان يتفاهل فركب بريدة في سبعين راكبا من أهل بيته من بني أسلم فتلقي النبي صلى الله عليه وسلم ليلا فقال له النبي صلى الله عليه وسلم من أنت قال أنا بريدة فالتفت إلى أبي بكر قال يا أبا بكر

برد أمرنا وصلاح ثم قال ممن قال من أسلم قال لأبي بكر سلمنا ثم قال ممن قال من بنى سهم قال خرج سهمنا قال أحمد بن زهير قال لنا أبو عمار سمعت أوسا يحدث هذا الحديث بعد ذلك عن أخيه سهل بن عبد الله عن أبيه عبد الله بن بريدة فأعدت ثلاثا من حديثك قال سهل أخى والذى يكشف أمر حديث اللقحة مازاده ابن وهب فى جامعه الحديث فقال بعد أن ذكره فقام عمر بن الخطاب فقال أتكلّم يارسول الله أم أصمت قال بل أصمت وأخبرك بما أردت ظننت يا عمر أنها طيرة ولا طير إلا طيره ولا خير إلا خيره ولكن أحب الفأل الحسن فزال بذلك تعلق المتطيرين ووضح أمر الحديث واخذ الله رب العالمين . . . ويمكن أن يكون هذا منه صلى الله عليه وآله على سبيل التأديب لأمته لئلا يتسموا بالأسماء القبيحة وليبادر من أسلم منهم وله اسم قبيح إلى إبداله بغيره من غير إيجاب منه ولا إزام ولكن لوجهين من الاستحباب : أحدهما اتقاهم عن مذاهب آبائهم ومقاصد سلفهم الفاسدة القبيحة التى يحزن بها بعضهم بعضا عند سماعها وموافاة أهلها ومخالطتهم ومفاجأتهم لما يبقى فى ذلك من آثار الطيرة السكّنة فى الغريزة فإن سلم العبد منها وجاهد نفسه عليها عند لقبها صاحبها وسماعه لاسم أخيه لم يسلم من الكمد وحزن القلب وقد يؤدى ذلك إلى البغضاء وإلى ضرب من النفرة والتفرقة كالصديق يدعو الصديق القبيح الاسم فقد يتمنى خاطره أنه لم يصحبه ولا رآه ولا سمع اسمه حتى إذا طمع به ودعاه ذو الاسم الحسن اتبجح إليه وأقبل عليه وسر بصياحه ودعائه له لراحة قلبه إلى حسن اسمه فقد يدعو البعيد من قلبه ويبعد الصديق من نفسه من أجل اسمه فكيف به إذا رآه من يومه وعبرله بتعبير السوء من اشتقاق اسمه كيف يعود متمنيا لفقده فى رقاده متكرها للقاءه متطيرا لرؤيته وهذا ضد التوادد والتراحم والتوافق الذى قصد الشارع ربطه بين المؤمنين فذكر صلى الله عليه وآله لأمته مقامها على حالة يؤذى بها بعضهم بعضا لغير عذر ولا فائدة تعود عليهم لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ويؤدى هذا إلى التقاطع والتنافر مع أنه صلى الله عليه وآله قد نذبههم واستحب لهم إدخال أحدهم السرور على أخيه المسلم ما استطاع ودفع الأذى والمكروه عنه فقال لا تقاطعوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا المسلم أخو المسلم وقد أمرهم يوم الجمعة بالغسل والطيب عند اجتماعهم لئلا يؤذى بعضهم بعضا برائحته التى انما يتجشمها ساعة للاجتماع ثم يفترقا ومنع أكل الثوم والبصل من دخول المسجد لأجل تأذى الناس والملائكة به ومنع الاثنين أن يتناجيا دون صاحبهما خشية تأذيه وحزنه ومنع أحدهم أن يأكل متاع أخيه لاعبا لأن ذلك يؤذيه ومعلوم أن ضرر الاسم القبيح على كثير منهم أشد عليه عند همه وخروجه من منزله ورؤية صاحبه فى منامه ودعائه من برائحة الثوم والبصل وهذا من كمال رأفته ورحمته صلى الله عليه وسلم بالمؤمنين وعزة ما عنتوا

عليه ولهذا والله أعلم غير كثيراً من الأسماء القيحة بأحسن منها وغير أسماء حسنة إلى غيرها خشية الطيرة والتأذى عند نفيها والخروج من عند المسمى أو لئلا تضمنها تزكية النفس ونحوها فالأول كتغييره اسم الحباب بن المنذر بعبد الرحمن وقال الحباب اسم الشيطان وغير أبامرة إلى أبي حلوة وغير أبالمعاصي إلى مطيع وغير عاصية بمجميلة وغير اسم بنى الشيطان إلى بنى عبد الله وغير اسم أصرم إلى اسم زرعة وغير اسم حزن جد سعيد بن المسيب إلى سهل فأبى قبول ذلك فلزمه مسمى اسمه من الحزونة له ولذريته . . وقال أبو داود وغير النبي ﷺ اسم العاص وعزير وعقلة والشيطان والحكم وغراب وحباب وشهاب فسماه هشاماً وسمى حرباً سلباً وسمى المضطجع المنبعث وأرضاً اسمها عفرة سماها خضرة وشعب الضلالة سماه شعب الهدى وبنو الزينة سماهم بنى الرشدة وسمى بنى مغوية بنى رشدة قال أبو داود تركت أسانيدنا للاختصار . . وقال مسروق لقيت عمر فقال من أنت فقلت مسروق بن الأجدع فقال عمر سمعت رسول الله ﷺ يقول الأجدع شيطان وأما الثاني ففي صحيح مسلم عن سمرة قال قال رسول الله ﷺ لا تسمين غلامك يساراً ولا رباحاً ولا نجيحاً ولا أفلاح فإنك تقول اثم هو فيقال لا وغير اسم برة بزئبب وكره أن يقال خرج من عند برة وأما الثالث فكثيره أبو الحكم بأبي شريح وتغييره أيضاً برة بزئبب وقال لا تزكوا أنفسكم فروى مسلم في صحيحه عن محمد بن عمرو بن عطاء أن زئبب بنت أبي سلمة سألته ما سميت بنتك قال سميتها برة فقالت إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن هذا الاسم وسميت برة فقال النبي ﷺ لا تزكوا أنفسكم الله أعلم بأهل البر منكم فقالوا ما نسميها قال سموها زئبب ومن هذا ما في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أن أخرج اسم عند الله يوم القيامة رجل تسمى ملك الأملاك لا مالك إلا الله قال سفيان بن عيينة مثل شاهان شاه وذكر ابن وهب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بسلام فقال ما سميت هذا قالوا السائب فقال لا تسموه السائب واسكن سموه عبد الله قال فغلبوا على اسمه فلم يمت حتى ذهب عقله فإن قيل فقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم غلام اسمه رباح وكان لأبي أيوب غلام اسمه أفلح ولعبد الله بن عمر غلام اسمه رباح قيل هذا النهى من النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن على وجه العزيمة والحتم وإنما كان على جهة الكراهة والدليل عليه ما روى البخاري في صحيحه عن سعيد بن المسيب عن أبيه عن جده حزن أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له ما اسمك قال حزن فقال أنت سهل قال لا غير اسمها سمانيه أبي فلم ينكر عليه النبي ﷺ ولا أخبره أن ذلك معصية بل سكت عنه وكذلك لما غير اسم السائب فأبوا تغييره لم ينكر عليهم وأيضاً فروى مسلم في صحيحه من حديث أبي الزبير عن جابر قال أراد النبي ﷺ أن يسمي بيعلى وبركة وأفلح ويسار ونافع ونحو ذلك ثم رأته سكت

بعد عنها فلم يقل شيئا ثم قبض ولم ينه عن ذلك ثم أراد عمر رضى الله عنه أن ينهى عن ذلك
ثم تركه ورأيت لبعضهم في الفرق بين الغال والظيرة كلاما ما ذكره بلفظه قال أماما روى أن
النبي صلوات الله وسلامه عليه كان يتفأل ولا يتطير فهما وإن كان معناهما واحد في الاستدلال فيبينهما افتراق لأن
الغال إبانة والتطير استدلال والإبانة أكثر وأشهر وأوضح وأفصح لأن من كان في قلبه وضميره
شيء فسمع قائلا يقول أقبل الخير وامض بسلام أو أبشر أو نحو ذلك فقد اكتفى بما سمع
من الاستدلال والذي يرى طائرا يصيح أو ينوح فليس معه إلا الاستدلال على اليمن بالسائح
والشؤم بالبارح وهذا أمر قد يكون وقد لا يكون وذلك الغال في الأعم يكون وقال آخرون
إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يتطير أى لم يكن يسند الأمور السكائنة من الخير والشر إلى
الطير كما يفعل الكهنة وقال آخرون إن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا جلس مع أصحابه
فتكلم أحدهم بخير أو سمع من تكلم حصم عليه وعرفهم به ومعلوم أنه لا بد لطائر أن يمر
سائحا أو بارحا أو قعيدا أو ناطحا فلا يوقفهم عليه ولا يعرفهم به إذ ذلك من فعل الكهان
وكان الحديث المروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يتفأل ولا يتطير من هذا المعنى وقد
أغنى الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأخباره برسالة جبريل إليه بما يحدثه سبحانه من الاستدلال
على أحداثه بالأشياء التي ينظر فيها غيره تفرقة منه سبحانه بين النبوة وغيرها فان قيل فهذا الذي
نزل بهذين الرجلين وهما السائب وحزن هل كان من أجل اسميهما أم من جهة غير الاسم قيل
قد يظن من لا ينعم النظر أن الذي نزل بهما هو من جهة اسميهما ويصح بذلك أمر الظيرة
وتأثيرها ولو كان ذلك كما ظنوه لوجب أن ينزل بجميع من تسمى باسميهما من أول الدهر
ولسكان اقتضاء الاسم لذلك كاقضاء النار الإحراق والماء التبريد ونحوه ولكن يحمل ذلك
والله أعلم على أن الأمرين الجاريين عليهما قد تقدما في أم الكتاب كما تقدم لهما أيضا أن
يتسميا باسميهما إلى أن يختار لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيرهما فيرغبون عن
اختياره ويتخلفون عن استجابته فيعاقبا بما قد سبق لهما عقوبة تطابق اسميهما ليكون ذلك
زاجرا لمن سواهما وقد يكون خوفه صلى الله عليه وسلم على أهل الأسماء المكروهة أيضا
من مثل هذه الحوادث إذ قد تنزل بالإنسان بلا مشيئة بما في اسمه فيظن هو أو جميع من
بلغه أن ذلك كان من أجل اسمه عاد عليه بشؤمه فيعصى الله عز وجل وقد كره قوم من
الصحابة والتابعين أن يسموا عبدهم عبد الله أو عبد الرحمن أو عبد الملك ونحو ذلك مخافة
أن يعتقهم ذلك قال سعيد بن جبيرة كنت عند ابن عباس سنة لا أكله ولا أعرفه ولا يعرفني
حتى أتاه يوما كتاب من امرأة من أهل العراق فدعا غلامه فجعل يسكني عن عبيد الله
وعبد الله وأشباههم ويدعو يا مخراق يا ثواب وروى أبو معاوية عن الأعمش عن إبراهيم

قال كانوا يكرهون أن يسمى الرجل غلامه عبد الله مخافة أن ذلك يعتقه وروى مغيرة عن أبي معشر عن إبراهيم أنه كره أن يسمى مملوكه عبد وعبيد الله وعبد الملك وعبد الرحمن عليه وسلم من تسمية المالك برباح ونافع وأفلاح لأن ذلك كان منه صلى الله عليه وسلم حذراً من أن يقال أهاهنا نافع فيقال لا أو أئثم أفلاح فيقال لا أو بركة أو يسار أورباح فيقال لا ومعلوم إن السائل عن إنسان اسمه أفلاح أو نافع أورباح هل هو في مكان كذا إنما مسألة تلك عن مسمى شخص من أشخاص بني آدم سمى باسم جعل عليه دليلاً يعرف به إذا ذكر إذا كانت الأسماء العوارى المفرقة بين الأشخاص المتشابهة إنما هي أدلة المسمين بها لا مسألة عن شخص صفته النفع والفلاح والبركة وذلك من كراهته صلى الله عليه وسلم نظير كراهته تسمية تلك المرأة برة فحول اسمها جويرية وتحويله اسم أرض كان اسمها عفرة فردها خضرة ونحو ذلك كثير ومعلوم أن تحويله ما حول من هذه الأسماء عما كان عليه لم يكن لأن التسمية بما كان المسمى به منهم مسمى قبل تحويله ذلك كان حرام التسمية ولكن كان ذلك منه وعلى وجه الإستحباب واختيار الأحسن على الذى هو دونه فى الحسن إذ كان لا شيء فى القبيح من الأسماء إلا وفى الجليل الحسن منها مثله من الدلالة على المسمى به مع تخير الأحسن بفضله الحسن والجمال من غير مؤنة تلزم صاحبه بسبب التسمية وكذلك كراهة من كره تسمية مملوكه عبد الله وعبد الرحمن إنما كانت كراهة ذلك حذراً أن يوجب ذلك له العتق ولا شك أن جميع بنى آدم عبيد الله أحرارهم وعبيدهم وصفهم بذلك واصف أو لم يصفهم ولكن الذين كرهوا التسمية بذلك صرفوا هذه الأسماء عن رقيقهم لئلا يقع اللبس على السامع بذلك من أسمائهم فيظن أنهم أحرار إذ كان استعمال أكثر الناس التسمية بهذه الأسماء فى الأحرار فتجنبوا ذلك إلى ما يزيل اللبس عنهم من أسماء المالك والله أعلم .

فصل

وأما الأثر الذى ذكره مالك عن يحيى بن سعيد أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لرجل ما اسمك قال جمرة الحديث إلى آخره فالجواب عنه أنه ليس بحمد الله فيه شيء من الطيرة وحاشا أمير المؤمنين رضى الله عنه من ذلك وكيف يتطير وهو يعلم أن الطيرة شرك من الجبوت وهو القائل فى حديث اللقحة ما تقدم ولكن وجه ذلك والله أعلم أن هذا القول كان منه مبالغة فى الإنكار عليه لاجتماع أسماء النار والحريق فى اسمه واسم أبيه وجدته وقبيلته وداره ومسكنه فوافق قوله اذهب فقد احترق منزك قدراً واعلم قوله كان السبب وكثيراً ما يجرى مثل هذا لمن هو دون عمر بكثير فكيف بالمحدث الملمم الذى ما قال شيء أتى

لأظنه كذا إلا كان كما قال وكان يقول الشيء ويشير به فينزل القرآن بموافقة فإذا نزل الأمر
الدينى بموافقة قوله فكذلك وقوع الأمر الكونى القدرى موافقا لقوله فى الصحيحين عن
عائشة رضى الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول قد كان فى الأمم قبلكم
محدثون فان يكن فى أمتى أحد منهم فعمر بن الخطاب رضى الله عنه قال ابن وهب تفسير
محدثون ملهون وفى صحيح البخارى عن أنى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى
عليه وسلم لقد كان فيمن كان قبلكم من بنى اسرائيل رجال يعلمون من غير أن يكونوا
أنبياء فان يكن فى أمتى منهم أحد فعمر وفى الصحيحين عن عمر رضى الله عنه قال وافقت ربي
فى ثلاث فى مقام إبراهيم وفى الحجاب وفى أسارى بدر وفى صحيح البخارى عن أنس قال
قال عمر وافقتى الله فى ثلاث أو وافقتى ربي فى ثلاث قلت يا رسول الله لو اتخذت مقام إبراهيم
مصلى وقلت يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب
فأنزل الله آية الحجاب وبلغنى معاتبة النبي صلى الله عليه وسلم بعض نسائه فدخلت عليهن
فقلت ان اتهمتن أو ليمدبن الله رسوله خيرا منكن حتى أتيت إحدى نسائه فقالت يا عمر
أما فى رسول الله ما يعظ نساءه حتى تعظن أنت فأنزل الله عز وجل (عسى ربه إن طلقكن
أن يبدله أزواجا خيرا منكن) الآية . وفى الصحيحين أنه لما قام صلى الله عليه وسلم
ليصلى على عبد الله بن أبى بن أبى سلول رأس المنافقين قام عمر فأخذ ثوبه وقال يا رسول الله
أتصلى عليه وقد نهاك الله أن تصلى عليه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما خيرنى
الله فقال (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم)
وسأزيد على السبعين وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل (ولا
تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره) فترك الصلاة عليهم فاذا كانت هذه
موافقة عمر لربه فى شرعه ودينه وينطق بالشئ فيسكون هو المأمور المشروع فكذلك
لا يبعد موافقة له تعالى فى قضائه وقدره ينطق بالشئ فيكون هو المقضى المقدر فهذا
لون والطيرة لون وكذلك جرى له تطهير مع رجل آخر سأله عن اسمه فقال ظالم فقال ابن من
قال ابن سارق قال تظلم أنت ويسرق أبوك وذكر المدائنى عن أبى صفرة وهو أبو المهلب
أنه ابتاع سلعة بتأخير من رجل من بنى سعد فأراد أن يشهد عليه فقال له ما اسمك قال ظالم
قال ابن من ؟ قال ابن سراق قال لا والله لا يكون عليك شئ أبدا .

فصل

وأما محبة النبي صلى الله عليه وسلم التيمن فى تنعله وترجله وطهوره وشأنه كله فليس
هذا من باب الغأل ولا التطير بالشمال فى شئ . ولكن تفضيل اليمين على الشمال فيمكن يعجبه

أن يباشر الأفعال التي هي من باب الكرامة باليمين كالأكل والشرب والأخذ والعطاء وضدها بالشمال كالاستنجاء وامساك الذکر وإزالة التجاسة فإن كان الفعل مشتركاً بين العضوين بدأ باليمين في أفعال التكريم وأما كنهه كالوضوء ودخول المسجد وبالإيسار في ضد ذلك كدخول الخلاء والخروج من المسجد ونحوه والله تعالى فضل بعض مخلوقاته على بعض وفضل بعض جوارح الإنسان وأعضائه على بعض ففضل العين على الكعب والوجه على الرجل وكذلك فضل اليد اليمينية على اليسار وخلق خلقه صنفين سعداء وجعلهم أصحاب اليمين وأشقياء وجعلهم أصحاب الشمال وقال النبي صلى الله عليه وسلم المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم لما أسرى به رأى آدم في سماء الدنيا وإذا عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة فإذا نظر قبل يمينه عنه ضحك وإذا نظر قبل شماله بكى فقال ما هذا يا جبريل فقال هذا آدم وهذه الأسودة عن يمينه ويساره بنوه فأهل اليمين أهل السعادة من ذريته وأهل اليسار أهل الشقاوة وفي المسند عن عائشة قالت كانت يد رسول الله صلى الله عليه وسلم اليمين لظهوره وطعامه وكانت يده اليسرى لخلائه وما كان من أذى وفي المسند أيضاً وسنن أبي داود عن حفصة بنت عمر زوج النبي صلى الله عليه وسلم كان يجعل يمينه لطعامه ويجعل شماله لما سوى ذلك وقال أحمد كانت يمينه لطعامه وظهره وصلاته وشأنه وكانت شماله لما سوى ذلك .

فصل

وأما قوله صلى الله عليه وسلم الشؤم في ثلاث الحديث فهو حديث صحيح من رواية ابن عمر وسهل بن سعد ومعاوية بن حكيم وقد روى أن أم سلمة كانت تزيد السيف يعنى في حديث الزهري عن حمزة وسالم عن أبيهما في الشؤم وقد اختلف الناس في هذا الحديث وكانت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها تنسك أن يسكون من كلام النبي ﷺ وتقول إنما حكاها رسول الله ﷺ عن أهل الجاهلية وأقوالهم فذكر أبو عمر بن عبد البر من حديث هشام بن عمار حدثنا الوليد بن مسلم عن سعيد عن قتادة عن أبي حسان أن رجلين دخلا على عائشة وقالوا إن أبا هريرة يحدث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال إنما الطيرة في المرأة والدار والداية فطارت شقة منها في السماء وشقة في الأرض ثم قالت كذب والذي أنزل الفرقان على أبي القاسم من حدث عنه بهذا ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول كان أهل الجاهلية يقولون إن الطيرة في المرأة والدار والداية ثم قرأت عائشة (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير) قال أبو عمر وكانت عائشة

تنفي الطيرة ولا تعتقد منها شيئاً حتى قالت للنسوة كن. يكرهن البناء بأزواجهن في شوال
ما تزوجني رسول الله ﷺ إلا في شوال وما دخل بي إلا في شوال فن كان احظى مني
عنده وكان تستحب أن يدخلن على أزواجهن في شوال قال أبو عمر وقولها في أبي هريرة
كذب فإن العرب تقول كذبت بمعنى غلظت فيما قدرت وأوهمت فيما قلت ولم تظن حقاً
ونحو هذا وذلك معروف من كلامهم موجود في أشعارهم كثيراً قال أبو طالب :

كذبتهم وبيت الله نترك مكة ونظعن إلا أمرم في بلابل
كذبتهم وبيت الله نبري محمداً ولما نطاعن دونه ونناضل
ونسله حتى نصرع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل
وقال شاعر من همدان :

كذبتهم وبيت الله لا تأخذونه مراغمة مادام للسيف قائم
وقال زفر بن الحارث العبسي :

أفي الحق إما مجدل وابن مجدل فيحبي وأما ابن الزبير فيقتل
كذبتهم وبيت الله لا تقتلونه ولما يكن أمر أغر مجدل

قال ألا ترى أن هذا ليس من باب الكذب الذي هو ضد الصدق وإنما هو من باب
الغلط وظن ما ليس بصحيح وذلك أن قريشا زعموا أنهم يخرجون بني هاشم من مكة أن لم
يتروا جوار محمد صلى الله عليه وسلم فقال لهم أبو طالب كذبتهم أي غلظتم فيما قلتم وظننتم
وكذلك معنى قول الهمداني والعبسي وهذا مشهور في كلام العرب قلت ومن هذا قول سعيد
ابن جبير كذب جابر بن زيد يعني في قوله الطلاق بيد السيد أي أخطأ ومن هذا قول عبادة
ابن الصامت كذب أبو محمد لما قال الوتر واجب أي أخطأ وفي الصحيح أن النبي صلى الله
عليه وسلم قال كذب أبو السنا بل لما أفي أن الحامل المتوفى عنها زوجها لا تزوج حتى
تم لها أربعة أشهر وعشراً ولو وضعت وهذا كثير والمقصود أن عائشة رضی الله عنها
ردت هذا الحديث وأنكرته وخطأت قائله ولكن قول عائشة هذا مرجوح ولها رضی
الله عنها اجتهاد في رد بعض الأحاديث الصحيحة خالفها فيه غيرها من الصحابة وهي رضی
الله عنها لما ظنت أن هذا الحديث يقتضي إثبات الطيرة التي هي من الشرك لم يسعها غير تكذيبه
ورده ولكن الذين رووه عن لا يمكن رد روايتهم ولم ينفرد بهذا أبو هريرة وحده ولو انفرد
به فهو حافظ الأمة على الإطلاق وكلما رواه عن النبي ﷺ فهو صحيح بل قد رواه عن النبي
ﷺ عبد الله بن عمر بن الخطاب رضی الله عنه وسهل بن سعد الساعدي وجابر بن عبد الله
الأنصاري وأحاديثهم في الصحيح فالحق أن الواجب بيان معنى الحديث ومباينته للطيرة الشركية

فنعقول وبالله التوفيق هذا الحديث قد روى على وجهين أحدهما بالجزم والثاني بالشرط فأما الأول فرواه مالك عن ابن شهاب عن سالم وحزمة بن عبد الله بن عمر عن أبيهما أن رسول الله ﷺ قال الشؤم في الدار والمرأة والفرس متفق عليه وفي لفظ في الصحيحين عنه لا عدوى ولا ضفر ولا طيرة وإنما الشؤم في ثلاثة المرأة والفرس والدار وأما الثاني ففي الصحيحين أيضا عن سهل بن سعد قال قال رسول الله ﷺ إن كان في المرأة والفرس والممكن يعني الشؤم وقال البخاري إن كان في شيء وفي صحيح مسلم عن جابر مرفوعا إن كان في شيء ففي الربع والخادم والفرس وفي الصحيحين عن ابن عمر مرفوعا إن يكن من الشؤم شيء حقا ففي الفرس والمسكن والمرأة وروى زهير بن معاوية عن عتبة بن حميد قال حدثني عبيد الله بن أبي بكر أنه سمع أنسأ يقول قال رسول الله ﷺ لا طيرة ولا طيرة على من تطير وإن يكن في شيء ففي المرأة والدار والفرس ذكره أبو عمر . . وقالت طائفة أخرى لم يجزم النبي ﷺ بالشؤم في هذه الثلاثة بل علقه على الشرط فقال إن يكن الشؤم في شيء ولا يلزم من صدق الشرطية صدق كل واحد من مفردهما فقد يصدق التلازم بين المستحيلين قالوا ولعل الوهم وقع من ذلك وهو أن الراوي غلط وقال الشؤم في ثلاثة وإنما الحديث إن كان الشؤم في شيء ففي ثلاثة قالوا وقد اختلف على ابن عمر والروايتان صحيحتان عنه قالوا وبهذا يزول الإشكال ويتبين وجه الصواب . . وقالت طائفة أخرى إضافة رسول ﷺ بالشؤم إلى هذه الثلاثة مجاز واتساع أى قد يحصل مقارنا لها وعندها لا أنها هي في أنفسها مما يوجب الشؤم قالوا وقد يكون الدار قد قضى الله عز وجل عليها أن يميت فيها خلقا من عباده كما يقدر ذلك في البلد الذى ينزل الطاعون به وفي الممكن الذى يكثر الوباء به فيضاف ذلك إلى الممكن مجازا والله خلقه عنده وقدره فيه كما يخلق الموت عند قتل القاتل والشعب والرى عند أكل الآكل وشرب الشارب فالدار التى يهلك بها أكثر ساكنيها توصف بالشؤم لأن الله عز وجل قد قصها بكثرة من قبض فيها فمن كتب الله عليه الموت في تلك الدار حسن إليه سكنها وحركة إياها حتى يقبض روحه في الممكن الذى كتب له كما ساق الرجل من بلد إلى بلد للأثر والبقعة التى قضى أنه يكون مدفنه بها . . قالوا وكذلك ما يوصف من طول أعمار بعض أهل البلدان ليس ذلك من أجل صحة هواء ولا طيب تربة ولا طبع يزداد به الأجل وينقص بفواته وإن كان الله سبحانه قد خلق ذلك الممكن وقضى أن يسكنه أطول خلقه أعمارا فيسوقهم إليه ويجمعهم فيه ويحببه إليهم قالوا وإذا كان هذا على ما وصفنا في الدور والبقاع جاز مثله في النساء والحيل فتكون المرأة قد قدر الله عليها أن تزوج عددا من الرجال ويموتون معها فلا بد من انفاذ قضائه وقدره حتى أن الرجل ليقدّم عليها من بعد علمه بكثرة من مات عنها لوجه من الطمع يقوده إليها حتى

يتم قضاؤه وقدره فتوصف المرأة بالشؤم لذلك وكذلك الفرس وإن لم يكن شيء من ذلك فعل ولا تأخير .. وقال ابن القاسم سئل مالك عن الشؤم في الفرس والدار فقال إن ذلك كذب فيما نرى كم من دار قد سكنها ناس فهلكوا ثم سكنها آخرون فهلكوا قال فهذا تفسيره فيما نرى والله أعلم .. وقالت طائفة أخرى شؤم الدار مجاورة جدار السوء وشؤم الفرس أن لا يغزى عليها في سبيل الله وشؤم المرأة أن لا تلد وتكون سيئة الخلق .. وقالت طائفة أخرى منهم الخطائي هذا مستثنى من الطيرة أى الطيرة منهى عنها إلا أن يكون له دار يكره سكنها أو امرأة يكره صحبتها أو فرس أو خادم فليفارق الجميع بالبيع والطلاق ونحوه ولا يقيم على الكراهة والتأذى به فإنه شؤم وقد سلك هذا المسلك أبو محمد بن قتيبة في كتاب مشكل الحديث له لما ذكر أن بعض الملاحدة اعترض بحديث هذه الثلاثة .. وقالت طائفة أخرى الشؤم في هذه الثلاثة إنما يلحق من تشام بها وتطير بها فيكون شؤمها عليه ومن توكل على الله ولم يتشام ولم يتطير لم تكن مشؤمة عليه قالوا ويدل عليه حديث أنس الطيرة على من تطير وقد يجعل الله سبحانه تطير العبد وتشاؤمه سببا لحلول المكروه به كما يجعل الثقة والتوكل عليه وإفراده بالخوف والرجاء من أعظم الأسباب التي يدفع بها الشر المتطير به وسر هذا أن الطيرة إنما تتضمن الشرك بالله تعالى والخوف من غيره وعدم التوكل عليه والثقة به كان صاحبها غرضاً لسهام الشر والبلاء فيمتسرع نفوذها فيه لأنه لم يتدرع من التوحيد والتوكل بحجة واقية وكل من خاف شيئاً غير الله سلط عليه كما أن من أحب مع الله غيره عذب به ومن رجا مع الله غيره خذل من جهته وهذه أمور تجربتها تكفي عن أداتها والنفس لا بد أن تطير ولكن المؤمن القوى الايمان يدفع موجب تطيره بالتوكل على الله فان من توكل على الله وحده كفاه من غيره قال تعالى ﴿ فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ﴾ ولهذا قال ابن مسعود وما مننا إلا يعني من يقارب التطير ولكن الله يذهب بالتوكل ومن هذا قول زبان بن سيار :

أطار الطير إذ سرنا زياد لتخبرنا وما فيها خبير
أقام كان لقمان بن عاد أشار له بحكمته مشير
تعلم أنه لا طير إلا على تطير وهو الثبور
بل شيء يوافق بعض شيء أحياناً وباطله كثير

قالوا فالشؤم الذي في الدار والمرأة والفرس قد يكون مخصوصاً بمن تشام بها وتطير وأما من توكل على الله وخافه وحده ولم يتطير ولم يتشام فان الفرس والمرأة والدار لا يكون شؤماً

في حقه . . وقالت طائفة أخرى معنى الحديث لإخباره صلى الله عليه وسلم عن الأسباب المثيرة للطيرة الكامنة في الغرائز يعني أن المثير للطيرة في غرائز الناس هي هذه الثلاثة فأخبرنا بهذا لناخذ الحذر منها فقال الشؤم في الدار والمرأة والفرس أي أن الحوادث التي تسكثر مع هذه الأشياء والمصائب التي تتوالى عندها تدعو الناس إلى التشاؤم بها فقال الشؤم فيها أي أن الله قد يقدره فيها على قوم دون قوم غياطهم صلى الله عليه وسلم بذلك لما استقر عندهم منه صلى الله عليه وسلم من لإبطال الطيرة وإنكار العدوى ولذلك لم يستفهموا في ذلك عن معنى ما أراه صلى الله عليه وسلم كما تقدم لهم في قوله لا يورد الممرض على المصح فقالوا عنده وماذا يارسول الله فأخبرهم أنه خاف في ذلك الأذى الذي يدخله الممرض على المصح لا العدوى لأنه صلى الله عليه وسلم أمر بالوادد وإدخال السرور بين المؤمنين وحسن التجاوز ونهى عن التقاطع والتباغض والأذى فمن اعتقد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نسب الطيرة والشؤم إلى شيء من الأشياء على سبيل أنه مؤثر بذلك دون الله فقد أعظم القرية على الله وعلى رسوله وضل ضلالا بعيداً والنبي صلى الله عليه وسلم ابتدأهم بنفي الطيرة والعدوى ثم قال الشؤم في ثلاث قطعاً لتوهم الطيرة المنفية في الثلاثة التي أخبر أن الشؤم يكون فيها فقال لا عدوى ولا طيرة والشؤم في ثلاثة فابتدأهم بالمؤخر من الخبر تعجيلاً لهم بالأخبار بفساد العدوى والطيرة المتوهمة من قوله الشؤم في ثلاثة وبالجملة فأخبره صلى الله عليه وسلم بالشؤم أنه يكون في هذه الثلاثة ليس فيه إثبات الطيرة التي تفاهأ وإنما غايته إن الله سبحانه قد يخلق منها أعيانا مشؤمة على من قاربها وسكنها وأعيانا مباركة لا يلحق من قاربها منها شؤم ولا شر وهذا كما يعطى سبحانه الوالدين ولدأ مباركا يريان الخير على وجهه ويعطى غيرهما ولدأ مشؤوما ندلا يريان الشر على وجهه وكذلك ما يعطاه العبد من ولاية أو غيرها فكذلك الدار والمرأة والفرس والله سبحانه خالق الخير والشر والسعود والنحوس فيخلق بعض هذه الأعيان سعودا مباركة ويقضى سعادة من قارنها وحصول اليمن له والبركة ويخلق بعض ذلك نحو سابتنحس بها من قارنها وكل ذلك بقضائه وقدره كما خلق سائر الأسباب وربطها بتسبباتها المتضادة والمختلفة فكما خلق المسك وغيره من حامل الأرواح الطيبة ولذذ بها من قارنها من الناس وخلق ضدها وجعلها سببا لإيذاء من قارنها من الناس والفرق بين هذين النوعين يدرك بالحس فكذلك في الديار والنساء والحيل فهذا لون والطيرة الشركية لون آخر .

فصل

وأما الأثر الذي ذكره مالك عن يحيى بن سعيد جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت يارسول الله دار سكنناها والعدد كثير والمال وافر فقل العدد وذهب المال فقال النبي (١٧ - مفتاح ٢)

دعواها ذميمة وقد ذكر هذا الحديث غير مالك من رواية أنس أن رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله إنا نزلنا دارا فكشرف فيها عدونا وكشرت فيها أموالنا ثم تحولنا إلى أخرى فقلت فيها أموالنا وقل فيها عدونا فقال رسول الله ﷺ وذكره فليس هذا من الطيرة المنهى عنها وإنما أمرهم ﷺ بالتحول عنها عند ما وقع في قلوبهم منها لمصلحتين ومنفعتين إحداهما مفارقتهم لمكان هم له مستثقلون ومنه مستوحشون لما لحقهم فيه ونالهم ليتعجلوا الراحة بما داخلهم من الجزع في ذلك المكان والحزن والهلح لأن الله عز وجل قد جعل في غرائز الناس وتركيبتهم استئصال ما نالهم الشر فيه وإن كان لا سبب له في ذلك وحب ما جرى لهم على يديه الخير وإن لم يردم به فأمرهم بالتحول بما كرهوه لأن الله عز وجل بعثه رحمة ولم بعثه عذابا وأرسله ميسرا ولم يرسله معمرا فكيف يأمرهم بالمقام في مكان قد أحزنهم المقام به واستوحشوا عنده لكثرة من فقدوه فيه لغير منفعته ولا طاعة ولا مزيد تقوى وهدى فلا سيما وطول مقامهم فيها بعد ما وصل إلى قلوبهم منها ما وصل قد يعثمهم ويدعوهم إلى التشاؤم والتظير فيوقعهم ذلك في أمرين عظيمين أحدهما مقاربة الشرك والثاني حلول مكروه أحزنهم بسبب الطيرة التي إنما تلحق المتظير فخماهم ﷺ بكآل رأفته ورحمته من هذين المكروهين بمفارقة تلك الدار والاستبدال بها من غير ضرر يلحقهم بذلك في دنيا ولا نقص في دين وهو ﷺ حين فهم عنهم في سؤالهم ما أرادوه من التعرف عن حال رحلتهم عنها هل ذلك لهم ضار مؤد إلى الطيرة قال دعوها ذميمة وهذا بمنزلة الخارج من أرض بها الطاعون غير فار منه ولو منع الناس الرحلة من الدار التي تتوالى عليهم المصائب والمحن فيها وتعذر الأرزاق مع سلامة التوحيد في الرحلة للزم ذلك أن كل من ضاق عليه رزق في بلد أن لا ينتقل منه إلى بلد آخر ومن قلت فائدة صناعته أن لا ينتقل عنها إلى غيرها .

فصل

وأما قول النبي ﷺ للذي سل سيفه يوم أحد شم سيفك فإني أرى السيوف تستنسل اليوم فهذه القصة لم يكن الرجل قد سل فيها السيف ولكن الفرس لوح بذنبيه فسل السيف ولم يرد صاحبه سله هكذا في القصة ولا ريب أن الحرب تقوم بالخيول والسيوف ولما لوح الفرس بذنبيه فاستل السيف قال النبي ﷺ إني أرى السيوف تستنسل اليوم فهذا له يحمل من ثلاثة محامل . . أحدها أن النبي ﷺ أخبر عن ظن ظنه في ذلك ولم يجعل هذا دليلا تماما في كل واقعة تشبه هذه وإذا كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو أحد أتباع رسول الله ﷺ ورجل من أمته كان إذا قال أظن كذا أو أرى كذا خرج الأمر كما ظنه وحسبه فكيف الظن برسول الله ﷺ . . الثاني أن النبي ﷺ كان قد علم قبل مخرجه أن السيوف

ستنسل ويقع القتال ولهذا أخبرهم أنه رأى في منامه أنه يقرأ النحل وعلم أن ذلك شهادة من قتل من أصحابه . . الثالث أن الوحي الذي كان يعرف به رسول الله ﷺ الحوادث والنوازل كان مغنياً له عن الإشارات والعلامات والأمارات وما في معناها مما يحتاج إليه غيره . وأما من يأتيه خبر السماء صباحاً ومساءً فأخباره بقوله أرى السيوف اليوم ستنسل لم يكن عن تلك الأمانة وإنما وقع الإخبار به عقيبتها والشئ بالشئ . يذكر .

فصل

وأما ما احتج به ونسبه إلى قوله ﷺ وقدت الحرب لما رأى واقد بن عبد الله الحضرمي والحضرمي حضرت الحرب فكذب عليه ﷺ وإنما قال ذلك أعداؤه من اليهود فتطيروا بذلك وتفاءلوا به فكانت الطيرة عليهم ووقدت الحرب عليهم .

فصل

وأما استقباله ﷺ الجبلين في طريقه وهما مسلح ومخزي . وترك المرور بينهما وعدله ذات اليمين فليس هذا أيضاً من الطيرة وإنما هو من العدول عما يؤذى النفوس ويشوش القلوب إلى ما هو بخلافه كالعدول عن الإسم القبيح وتغييره بأحسن منه وقد تقدم تقرير ذلك بما فيه كفاية وأيضاً فإن الأماكن فيها الميمون المبارك والمشؤم المذموم فاطلع رسول الله ﷺ على شؤم ذلك المكان وأنه مكان سوء فجاوزه إلى غيره كما جاوز الوادي الذي ناموا فيه عن الصبح إلى غيره وقال هذا مكان حضرنا فيه الشيطان والشيطان يحب الأمكنة المذمومة وينتابها وأيضاً فلما كان المرور بين ذينك الجبلين قد يشوش القلب على أنا نقول في ذلك قولاً كلياً نبين به سر هذا الباب بحول الله وعونه وتوفيقه . . إعلم أن بين الأسماء ومسمياتها ارتباطاً قدره العزيز القادر وألهمه نفوس العباد وجعله في قلوبهم بحيث لا تنصرف عنه وليس هذا الارتباط هو ارتباط العلة بمعلولها ولا ارتباط المقتضى الموجب لمقتضاه وموجبه بل ارتباط تناسب وتساكل اقتضته حكمة الحكيم فقل أن ترى اسماً قبيحاً إلا وبين مسماه وبينه رابط من القبح وكذلك إذا تأملت الإسم الثقيل الذي تنفر عنه الأسماع وتنبو عنه الطباع فإنك تجد مسماه يقارب أو يلم أن يطابق ولهذا من المشهور على ألسنة الناس أن الألقاب تنزل من السماء فلا تسكاد تجد الإسم الشنيع القبيح إلا على مسمى يناسبه وفي ذلك قول القائل .

وقل أن أبصرت عينك ذا لقب إلا ومعناه أن فكرت في لقبه

ولهذا كثيراً ما تجد أيضاً في أسماء الأجناس والواضع له عناية بمطابقة الألفاظ للبعاني ومناسبتها لها فيجعل الحروف الهوائية الخفيفة لمسمى مشاكلها كالهواء والحروف الشديدة

للمسمى المناسب لها كالصخر والحجر وإذا تابعت حركة المسمى تابعوا بين حركة اللفظ كال دوران والغليان والنزوان وإذا تكررت الحركة كرروا اللفظ كقفل وزلزل ودكدك وصرصر وإذا اكتنز المسمى وتجمعت أجزاءه جعلوا في إسمه من الضم الدال على الجمع والاكنتاز ما يناسب المسمى كالبحتر للقصير المجتمع الخلق وإذا طال جعلوا في المسمى من الفتح الدال على الامتداد نظير ما في المعنى كالعشيق للطويل ونظائر ذلك أكثر من أن تستوعب وإنما أشرنا إليها أدنى إشارة وهذا هو الذي أراده من قال بين الإسم والمسمى مناسبة فلم يفهم عنه بعض المتأخرين مراده فأخذ يشنع عليه بأنه لا تناسب طبعيا بينهما واستدل على إنكار ذلك بما لا طائل تحته فإن عاقلا لا يقول أن التناسب الذي بين الإسم والمسمى كالتناسب الذي بين العلة والمعلول وإنما هو ترجيح وألوية تقتضى اختصاص الإسم بمسماه وقد يتخلف عنه اقتضاؤها كثيراً والمقصود أن هذه المناسبة تنضم إلى ما جعل الله في طبائع الناس وغرائزهم من النفرة بين الإسم القبيح المسكروه وكرهته وتظير أ كشرهم به وذلك بوجوب عدم ملابسته ومجاوزته إلى غيره فهذا أصل هذا الباب .

فصل

وأما كراهية السلف أن يتبع الميت بشيء من النار أو أن يدخل القبر شيء مسته النار وقول عائشة رضي الله عنها لا يكون آخر زاده أن يتبعوه بالنار فيجوز أن يكون كراهتهم لذلك مخافة الأحداث لما لم يكن في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف وذلك مما يبيح الطيرة به والظنون الردية بالميت وقد قال غير واحد من السلف منهم عبد الملك بن حبيب وغيره إنما كرهوا ذلك تهاؤلا بالنار في هذا المقام أن يتبعه . . وذكر ابن حبيب وغيره أن النبي ﷺ أراد أن يصلى على جنازة فجاءت امرأة ومعها جمر فما زال يصيح بها حتى توارت بأجام المدينة . . قال بعض أهل العلم وليس خوفهم من ذلك على الميت لكن على الأحياء المجبولين على الطيرة لئلا تحدثهم أنفسهم بالميت أنه من أهل النار لما رأوا من النار التي تتبعه في أول أيامه من الآخرة ولا سيما في مكان يراد منهم فيه كثرة الاجتهاد للميت بالدعاء فإذا لم يبق له زاد غيره فيظنون أن تلك النار من بقايا زاده إلى الآخرة فتسوء ظنونهم به وتنفر عن رحمته قلوبهم في مكان هم فيه شهداء الله كما جاء في الحديث الصحيح لما أمر على النبي ﷺ بجنازة فأنثوا عليها خيراً فقال وجبت فقالوا ما وجبت قال وجبت له الجنة أنتم شهداء الله في الأرض من أنثيتم عليه خيراً وجبت له الجنة ومن أنثيتم عليه شراً وجبت له النار . . وفي أثر آخر إذا أردتم أن تعلموا ما للميت عند الله فانظروا ما يتبعه من حسن الثناء فقالت عائشة رضي الله عنها لا يكون آخر زاده من الثناء والدعاء أن

يتبعوه بالنار فتهيجوا بها خواطر الناس وتبعثوا ظنونهم بالتطير والنار والهذاب والله أعلم .

فصل

وأما تلك الوقائع التي ذكروها مما يدل على وقوع ما تطير به من تطير فنعم وهاهنا أضعافا وأضعاف أضعافها ولستنا ننكر موافقة القضاء والقدر لهذه الأسباب وغيرها كثيرا موافقة حزر الحازرين وظنون الظانين وزجر الزاجرين للقدر أحيانا مما لا ينكره أحد ومن الأسباب التي توجب وقوع المكروه الطيرة كما تقدم وإن الطيرة على من تطير ولكن نصب الله سبحانه لها أسبابا يدفع بها موجبها وضررها من التوكل عليه وحسن الظن به وإعراض قلبه عن الطيرة وعدم التفاته إليها وخوفه منها وثقته بالله عز وجل ولستنا ننكر أن هذه الأمور ظنون وتخمين وخذس وخرص وما كان هذا سبيله فيصيب تارة ويخطئ تارات وليس كل ما تطير به المنتطيرون وتشاءوا به وقع جميعه وصدق بل أكثره كاذب وصادقه نادر والناس في هذا المقام إنما يعولون وينقلون ما صح ووقع ويعتنون به فيرى كثيرا والكاذب منه أكثر من أن ينقل قال ابن قتيبة من شأن النفوس حفظ الصواب للعجب به والاستغراب و تناسى الخطأ قال ومن ذا الذي يتحدث أنه سأل منجما فأخطأ وإنما الذي يتحدث به وينقل أنه سأل فأصاب قال والصواب في مسألة إذا كان بين أمرين قد يقع للعتوه والطفل فضلا عن أولى العقل وقد تقدم من بطلان الطيرة وكذنها ما فيه كفاية وقد كانت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها تستحب أن تزوج المرأة أو يبنى بها في شوال وتقول ما تزوجني رسول الله ﷺ إلا في شوال فأى نسائه كان أحظى عنده مني مع تطير الناس بالنكاح في شوال وهذا فعل أولى العزم والقوة من المؤمنين الذين صح توكلهم على الله واطمأنت قلوبهم إلى ربهم ووثقوا به وعلوا إن ماشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وأنهم لن يصيبهم إلا ما كتب الله لهم وأنهم ما أصابهم من مصيبة إلا وهي في كتاب من قبل أن يخلقهم ويوجدهم وعلوا أنه لا بد أن يصيروا إلى ما كتبه وقدره ولا بد أن يجرى عليهم وإن تطيرهم لا يرد قضاءه وقدره عنهم بل قد يكون تطيرهم من أعظم الأسباب التي يجرى عليهم بها القضاء والقدر فيعينون على أنفسهم وقد جرى لهم القضاء والقدر بأن نفوسهم هي سبب إصابة المكروه لهم فطائرهم معهم وأما المتوكلون على الله المفوضون إليه العالمون به وبأمره فنفسهم أشرف من ذلك وهممهم أعلى وثقتهم بالله وحسن ظنهم به عدة لهم وقوة وجنة مما يتطير به المنتطيرون ويتشاءم به المتشائمون عالمون أنه لا تطير إلا طيره ولا خير إلا خيره ولا إله غيره إلا اله الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين .

فصل

وبما كان أهل الجاهلية يتطيرون به ويتشاءمون منه العطاس كما يتشاءمون بالبوراح

والسوانح قال روبة بن العجاج يصف فلاة * قطعها ولا أهاب العطاس * وقال أمرؤ القيس :
وقد اغتدى قبل العطاس بهيكل شديد مشيد الجنب فعم المنطق
أراد أنه كان ينتبه للصيد قبل أن ينتبه الناس من نومهم ليلا يسمع عطاسا فيتشام بعطاسه وكانوا
إذا عطس من يحبونه قالوا له عمرا وشبابا وإذا عطس من يبغضونه قالوا له وربا وقحابا والورى
كالرمى داه يصيب السكبد فيفسدها والقحاب كالسعال وزنا ومعنى فكان الرجل إذا سمع عطاسا يتشام
به يقول بكلابني إني أسأل الله أن يجعل شؤم عطاسك بك لابني وكان تشاؤمهم بالعطسة الشديدة أشد
كما حكى عن بعض الملوك أن سامرا له عطس عطسة شديدة فراعته فغضب الملك فقال سميره والله ما تعمدت
ذلك ولكن هذا عطاسي فقال والله لئن لم تأتني بمن يشهد لك بذلك لأقتلنك فقال أخرجني
إلى الناس لعلي أجد من يشهد لي فأخرجه وقد وكل به الأعوان فوجد رجلا فقال
يا سيدى نشدتك بالله إن كنت سمعت عطاسي يوماً فلعلك تشهد لي به عند الملك فقال نعم
أنا أشهد لك فنهض معه وقال يا أيها الملك أنا أشهد أن هذا الرجل عطس يوماً فطار ضرس
من أضراسه فقال له الملك عد إلى حديثك ومجلسك فلما جاء الله سبحانه بالإسلام وأبطل
برسوله صلواته عليه وآله ما كان عليه الجاهلية من الضلالة نهى أمته عن التشاؤم والتطير وشرع لهم أن
يجعلوا مكان الدعاء على العاطس بالمكروه الدعاء له بالرحمة كما أمر العائن أن يدعو بالتبريك
للبعين ولما كان الدعاء على العاطس نوعا من الظلم والبغى جعل الدعاء له بلفظ الرحمة المنافي
للظلم وأمر العاطس عمران يدعو لسامعه ويشتمه بالمغفرة والهداية وإصلاح البال فيقول
يغفر الله لنا ولكم أو يهديكم الله ويصلح بالكم فأما الدعاء بالهداية فلما أن اهتدى إلى طاعة
الرسول ورغب عما كان عليه أهل الجاهلية فدعا له أن يثبتته الله عليها ويهديه إليها وكذلك
الدعاء بإصلاح البال وهي حكمة جامعة لإصلاح شأنه كله وهي من باب الجزاء على دعائه لأخيه
بالرحمة فناسب أن يجازيه بالدعاء له بإصلاح البال وأما الدعاء بالمغفرة فجاء بلفظ يشمل
العاطس والمشتمت كقوله يغفر الله لنا ولكم ليستحصل من مجموع دعوى العاطس والمشتمت
له بالمغفرة والرحمة لهما معا فصولات الله وسلامه على المبعوث بإصلاح الدنيا والآخرة ولأجل
هذا والله أعلم لم يؤمر بتشميت من لم يحمد الله فإن الدعاء له بالرحمة نعمة فلا يستحقها من لم
يحمد الله ويشكره على هذه النعمة ويتأسى بأبيه آدم فإنه لما نفخت فيه الروح إلى الخياشيم
عطس فألممه ربه تبارك وتعالى أن نطق بحمده فقال الحمد لله فقال الله سبحانه برحمك الله
يا آدم فصارت تلك سنة العطاس فمن لم يحمد الله لم يستحق هذه الدعوة ولما سبقت هذه الكلمة
لآدم قبل أن يصيبه ما أصابه كان ماله إلى الرحمة وكان ما جرى عارضا وزال فإن الرحمة
سبقت العقوبة وغلبت الغضب . . وأيضا فإنما أمر العاطس بالتحميد عند العطاس لأن

الجاهلية كانوا يعتقدون فيه أنه داء ويكره أحدهم أن يعطس ويود أنه لم يصدر منه لما في ذلك من الشؤم وكان العاطس يحبس نفسه عن العطاس ويمتنع من ذلك جهده من سوء اعتقاد جاهلهم فيه ولذلك والله أعلم بنوا لفظه على بناء الأدوية كالزكام والسعال والدوار والسهم وغيرها فاعلموا أنه ليس بداء ولكنه أمر يحبه الله وهو نعمة منه يستوجب عليها من عبده أن يحمد الله عليها وفي الحديث المرفوع أن الله يحب العطاس ويكره التثاؤب والعطاس ريح مخنقة تخرج وتفتح السد من الكبد وهو دليل جيد للمريض مؤذن بانفراج بعض علته وفي بعض الأمراض يستعمل ما يعطس الليل ويجعل نوعاً من العلاج ومعينا عليه هذا قدر زائد على ما أحبه الشارع من ذلك وأمر بحمد الله عليه وبالدهاء لمن صدر منه وحمد الله عليه ولهذا فالله أعلم يقال شتمته إذا قال له يرحمك الله وسمته بالمعجمة وبالمهملات وبهما روى الحديث فأما التسميت بالمهملات فهو تفهيم من السميت الذي يراد به حسن الهيئة والوقار فيقال لفلان سميت حسن فعنى سميت العطاس وقرته وأكرمه وتأدبت معه بأدب الله ورسوله في الدعاء له لا بأخلاق أهل الجاهلية من الدعاء عليه والتطير به والتشاور منه وقيل سمته دعا له أن يعيده الله إلى سمته قبل العطاس من السكون والوقار وطمأنينة الأعضاء فإن في العطاس من انزعاج الأعضاء واضطرابها ما يخرج العطاس عن سمته فإذا قال له السامع يرحمك الله فقد دعا له أن يعيده إلى سمته وهيئته وأما التسميت بالمعجمة فقالت طائفة منهم ابن السكيت وغيره أنه يعنى التسميت وأنهما لغتان ذكر ذلك في كتاب القلب والإبدال ولم يذكر أيهما الأصل ولا أيهما البدل وقال أبو علي الفارسي المهملات هي الأصل في الكلبة والمعجمة بدل واحتج بأن العطاس إذا عطس انتفش وتغير شكل وجهه فإذا دعا له فكأنه أعاده إلى سمته وهيأته وقال تلميذه ابن جنى لو جعل جاعل الشين المعجمة أصلاً وأخذ من الشوامت وهي القوائم لكان وجهها صحيحاً وذلك أن القوائم هي التي تحمل الفرس ونحوه وبهما عصمته وهي قوامه فكأنه إذا دعا له فقد أنهضه وثبت أمره وأحكم دعائه وأنشد للنابغة . طوع الشامت من خوف ومن صرد . وقالت طائفة منهم ابن الأعرابي يقال مرضت الليل أي قتت عليه ليزول مرضه ومثله قذيت عينه أزلت قذاها فكأنه لما دعا له بالرحمة قد قصد إزالة الشماتة عنه وينشد في ذلك :

ما كان ضر الممرضى يجفونه لو كان مرض منعما من أمرضا
وإلى هذا ذهب ثعلب . . والمقصود أن التطير من العطاس من فعل الجاهلية الذي أبطله الإسلام وأخبر النبي ﷺ أن الله يحب العطاس كما في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال إن الله يحب العطاس ويكره التثاؤب فإذا ثأب أحدكم فليستره ما استطاع فإنه إذا فتح فاه فقال آه آه ضحك منه الشيطان .

فصل

وأما قوله صلى الله عليه وسلم لا يورد ممرض على مصح فالممرض الذى إبله مراض والمصح الذى إبله صحاح وقد ظن بعض الناس أن هذا معارض لقوله لا عدوى ولا طيرة وقال لعزل أحد الحديثين نسخ الآخر وأورد الحارث بن أبى ذئاب وهو ابن عم أبى هريرة رضى الله عنه عليه جمعه بين الروايتين وظهرهما متعارضتين فروى ابن هريرة عن أبى سلمة بن عبد الرحمن قال كان أبو هريرة يحدثنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا عدوى ثم حدثنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يورد ممرض على مصح قال فقال الحارث بن أبى ذئاب وهو ابن عم أبى هريرة قد كنت أسمك يا أبا هريرة تحدثنا حديثا آخر قد سكت عنه كنت تقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا عدوى فأبى أبو هريرة أن يحدث بذلك وقال لا يورد ممرض على مصح فما رآه الحارث فى ذلك حتى غضب أبو هريرة ورطن بالحبشية ثم قال للحارث أندرى ما قلت قال لا قال إني أقول آبيت آبيت فلا أدرى أنسى أبو هريرة أو نسخ أحد القولين الآخر . . قلت قد اتفق مع أبى هريرة سعد بن أبى وقاص وجابر بن عبد الله وعبد الله بن عباس وأنس بن مالك وعمر بن سلم على روايتهم عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله لا عدوى وحديث أبى هريرة محفوظ عنه بلا شك من رواية أوثق أصحابه وأحفظهم أبى سلمة بن عبد الرحمن ومحمد بن سيرين وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة والحارث بن أبى ذئاب ولم يتفرد أبو هريرة بروايته عن النبي صلى الله عليه وسلم بل رواه معه من الصحابة من ذكرناه وقوله لا يورد ممرض على مصح صحيح أيضا ثابت عنه صلى الله عليه وسلم فالحديثان صحيحان ولا نسخ ولا تعارض بينهما بحمد الله بل كل منهما له وجه وقد طعن أعداء السنة فى أهل الحديث وقالوا يروون الأحاديث التى ينقض بعضها بعضا ثم يصحونها والأحاديث التى تخالف العقل فانتدب أنصار السنة للرد عليهم ونفى التعارض عن الأحاديث الصحيحة وبيان موافقتها للعقل قال أبو محمد بن قتيبة فى كتاب مختلف الحديث له قالوا حديثان متناقضان قالوا رويتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لا عدوى ولا طيرة وأنه قيل له أن النقبه تقع بمشفر البعير فتجرب لذلك الإبل فقال فما أعدى الأول هذا أو معناه ثم رويتم فى خلاف ذلك لا يورد ذو عاهة على مصح وفر من المجذوم فرارك من الأسد وأتاه رجل مجذوم ليبياعه ببيعة الإسلام فأرسل إليه البيعة وأمره بالانصراف ولم يأذن له وقال الشوم فى المرأة والدار والداية قالوا وهذا كله مختلف لا يشبه بعضه بعضا . . قال أبو محمد ونحن نقول أنه ليس فى هذا اختلاف ولا كل واحد معنى فى وقت وموضع فإذا وضع موضعه زال الاختلاف . . والعدوى جنسان أحدهما عدوى الجذام فإن

الجدام تشتد راحته حتى يسقم من أطال مجالسته ومواكلته وكذا المرأة تكون تحت المجذوم تخضاجعه في شعار واحد فيوصل إليها الأذى وربما جذمت وكذلك ولده ينزعون في الكبر إليه وكذلك من به سل ودق وتعب والأطباء تأمر أن لا يجالس المجذوم ولا المسلول ولا يريدون بذلك معنى العدوى وإنما يريدون به معنى تغير الرائحة وأنها قد تسقم من أطال اشتامها والأطباء أبعده الناس من الإيمان بيمن وشؤم وكذلك النقبة تكون بالبعير وهو جرب رطب فإذا خالط الإبل أو حاكها أووى في مباركها أوصل إليها بالماء الذي يسيل منه والنظف نحواً مما به فهذا هو المعنى الذي قال رسول الله ﷺ لا يورد ذو عاهة على مصح كره أن يخالط المصاب الصحيح فيناله من نطفه وحكمته نحو مما به . . قال وقد ذهب قوم إلى أنه أراد بذلك أن لا يظن أن الذي نال إبله من ذوات العاهة فيأثم وليس لهذا عندى وجه إلا الذي خبرتك به عيانا . . وأما الجنس الآخر من العدوى فهو الطاعون ينزل ببلد فيخرج منه خوف العدوى . . حدثني سهل بن محمد قال حدثني الأصمعي عن بعض المصريين أنه هرب من الطاعون فركب حمراً ومضى بأهله نحو حلوان فسمع حاديا يحدو خلفه وهو يقول :

لن يسبق الله على حمار ولا على ذى هيعة مطار

أو يأتي الختف على مقدار قد يصيح الله أمام السارى

وقد قال رسول الله ﷺ إذا كان بالبلد الذي أنتم فيه فلا تخرجوا منه وقال إن كان ببلد فلا تدخلوه يريد بقوله لا تخرجوا من البلد إذا كان فيه كما أنكم تظنون أن الفرار من قدر الله ينجيكم من الله ويريد إن كان ببلد فلا تدخلوه فإن مقامكم في الموضوع الذي لا طاعون فيه أسكن لأنفسكم وأطيب لمعيشتكم ومن ذلك المرأة تعرف بالشؤم والدار فينال الرجل مكروه أو جائحة فيقول أعدتني بشؤمها فهذا هو العدوى الذي قال فيه رسول الله ﷺ لا عدوى فأما الحديث الذي رواه أبو هريرة رضى الله عنه أنه قال الشؤم في المرأة والدار والذابة فإن هذا الحديث يتوهم فيه الغلط على أبي هريرة وأنه سمع فيه شيئاً من رسول الله ﷺ فلم يعه . . حدثني محمد بن القطعي حدثنا عبد الأعلى عن سعيد عن قتادة عن أبي حسان الأعرج أن رجلين دخلا على عائشة فقبالا إن أبا هريرة رضى الله عنه يحدث عن رسول الله ﷺ أنه قال إنما الطيرة في المرأة والدار والذابة فطارت شفقاً ثم قالت كذب والذي أنزل الفرقان على أبي القاسم من حدث بهذا عن رسول الله ﷺ إنما قال رسول الله ﷺ كان أهل الجاهلية يقولون إن الطيرة في الذابة والمرأة والدار ثم قرأت (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها) حدثني أبي قال حدثني أحمد بن الحليل حدثنا موسى بن مسعود النهدي عن

عكرمة بن عمار عن إسحق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله إنا نزلنا داراً فكثرت فيها عددنا وكثرت فيها أموالنا ثم تحولنا عنها إلى أخرى فقلت فيها أموالنا وقل فيها عددنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذروها وهي ذميمة . قال أبو محمد وهذا ليس ينقض الحديث الأول ولا الحديث الأول ينقض هذا وإنما أمرهم بالتحول منها لأنهم كانوا مقيمين فيها على استئصال لظلمها واستيحاش لما نالهم فيها فأمرهم بالتحول وقد جعل الله في غرائز الناس وتركيبهم استئصال ما نالهم السوء فيه وإن كان لا سبب له في ذلك وحب من جرى على يده الخير لهم وإن لم يردم به وبغض من جرى على يده الشر لهم وإن لم يردم به وكيف يتطير ﷺ والطيرة من الجحيت وكان كثير من الجاهلية لا يرونها شيئاً ويمدحون من كذب بهائم أنشد ما ذكرنا من الآيات سالفاً ثم قال حدثنا إسحق بن راهويه أخبرنا عبد الرزاق عن معمر عن إسماعيل بن أبي أمية قال قال رسول الله ﷺ ثلاث لا يسلم منهن أحد الطيرة والظن والحسد قيل فما المخرج منهن قال إذا تطيرت فلا ترجع وإذا ظننت فلا تحقق وإذا حسدت فلا تبغ هذه الألفاظ أو نحوها حدثني أبو حاتم قال حدثنا الأصمعي عن سعيد بن سالم عن أبيه أنه كان يعجب بمن يصدق بالطيرة ويعيبها أشد العيب وقال فرقت لنا ناقة وأنا بالطائف فركبت في أثرها فلقيني هانيء بن عبيد من بني وائل وهو مسرع وهو يقول . الشرع يلقي مطالع الإاكم . ثم لقميني آخر من الحى وهو يقول .

وإن بغيت لهم بغاة ما البغاة بواجدينا

ثم دفعنا إلى غلام قد وقع في صغره في نار فأحرقته فقبح وجهه وفسد فقلت له هل ذكرت من ناقة فارق قال ههنا أهل بيت من الأعراب فانظر فنظرت فإذا هي عندهم وقد نتجت فأخذناها وولدها قال أبو محمد الفارق التي ضلت فقارقت صواحبها وقال عكرمة كنا جلوساً عند ابن عباس فر طائر يصيح فقال رجل خير خير فقال ابن عباس لا خير ولا شر وكان رسول الله ﷺ يستحب الإسم الحسن والفأل الصالح حدثني الرياشي حدثنا الأصمعي قال سألت ابن عون عن الفأل فقال هو أن يكون مريضاً فيسمع ياسلم أو يكون باغياً فيسمع يا واجد وهذا أيضاً مما جعل في غرائز الناس وتركيبهم استحبابه والانس به وكما جعل على الألسنة من التحية بالسلام والمد في الأصب والتبشير بالخير وكما يقال أنعم وأسلم وأنعم صباحاً وكما تقول الفرس عش ألف نوروز والسامع لهذا يعلم أنه لا يقدم ولا يؤخر ولا يزيد ولا ينقص ولكن جعل في الطباع محبة الخير والارتياح للبشرى والمنظر الأنيق والوجه الحسن والإسم الخفيف وقد يمر الرجل بالروضة المنورة فتسره وهي لا تنفعه وبالماء الصافي

فيعجب به وهو لا يبشر به ولا يرده وفي بعض الحديث أن رسول الله ﷺ كان يعجب بالأترج ويعجبه الحمام الأحمر وتعجبه الفاغية وهو نور الحناء وهذا مثل إعجابه بالإسم الحسن والفعال الحسن وعلى حسب هذا كانت كراهية الإسم القبيح كبنى النار وبنى حراق وأشياء هذا انتهى كلامه وقد سلك أبو عمر بن عبد البر في هذا الحديث نحواً من مسلك أبي محمد بن قتيبة فقال أما قوله ﷺ لا عدوى فهو نهى أن يقول أحد إن شيئاً يعدى شيئاً وإخبار أن شيئاً لا يعدى شيئاً يقول لا يصيب أحد من أحد شيئاً من خلق أو فعل أو داء أو مرض وكانت العرب تقول في جاهليتها في مثل هذا أنه إذا اتصل شيء من ذلك بشيء أعده فأخبرهم رسول الله ﷺ أن قولهم واعتقادهم في ذلك ليس كذلك ونهى عن ذلك القول لإعلاما منه بأنما اعتقد ذلك من اعتقد منهم كان باطلاً قال وأما الممرض فالذي لإبله مراض والمصح الذي لإبله صحاح وروى ابن وهب عن ابن لهيعة عن أبي الزبير عن جابر قال يكره أن يدخل المريض على الصحيح منها وليس به إلا قول الناس وحماية للقلب مما يستبق إليه من الإفهام ويقع فيه من التطير والتشاؤم بذلك وقد قال أبو عبيد قولا قريبا من ذلك فقال في قوله في هذا الحديث أنه إذا أريد المررض على المصح فقال معنى الأذى عندي المأثم يعني أن المورد يأثم بأذاه من أورد عليه وتعرضه للتشاؤم والتطير وقد سلك بعضهم مسلكا آخر فقال ما يخبر به النبي ﷺ نوعان : أحدهما يخبر به عن الوحي فهذا خبر مطابق لخبره من جميع الوجوه ذهنيا وخارجيا وهو الخبر المعصوم والثاني ما يخبر به عن ظنه من أمور الدنيا التي هم أعلم بها منه فهذا ليس في رتبة النوع الأول ولا تثبت له أحكامه وقد أخبر ﷺ عن نفسه الكريمة بذلك تفرقا بين النوعين فإنه لما سمع أصواتهم في النخل يؤبرونها وهو التلقيح قال ما هذا فأخبروه بأنهم يلقحونها فقال ما أرى لو تركتموه يعضوه شيئاً فتركوه فجاء شيصا فقال إنما أخبرتكم عن ظني وأتم أعلم بأمر دنياكم ولكن ما أخبرتكم عن الله والحديث صحيح مشهور وهو من أدلة نبوته وأعلامها فإن من خفي عليه مثل هذا من أمر الدنيا وما أجرى الله به عادته فيها ثم جاء من العلوم التي لا يمكن البشر أن يطلع عليها البتة إلا بوحي من الله فأخبر عما كان وما يكون وما هو كائن من لدن خلق العالم إلى أن استقر أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار وعن غيب السموات والأرض وعن كل سبب دقيق أو جليل تنال به سعادة الدارين وكل سبب دقيق أو جليل تنال به شقاوة الدارين وعن مصالح الدنيا والآخرة وأسبابهما مع كون معرفتهم بالدنيا وأمورها وأسباب حصولها ووجوه تمامها أكثر من معرفته كما أنهم أعرف بالحساب والهندسة والصناعات والفلاحة وعمارة الأرض والكتابة فلو كان ما جاء به مما ينال بالتعلم والتفكير والتطير والطرق التي

يسلكها الناس لكانوا أولى به منه وأسبق لإيمه لأن أسباب ما ينال بالفكر والكتابة والحساب والنظر والصناعات بأيديهم فهذا من أقوى براهين نبوته وآيات صدقه وإن هذا الذى جاء به لا صنع للبشر فيه البتة ولا هو مما ينال بسعى وكسب وفكر ونظر إن هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى الذى يعلم السر فى السموات والأرض أنزله عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول قالوا فهكذا إخباره عن عدم العدوى لإخبار عن ظنه كإخباره عن عدم تأثير التلقيح لا سيما وأحد البابين قريب من الآخر بل هو فى النوع واحد فإن اتصال الذكر بالأنثى وتأثره به كاتصال المعدى بالمعدى وتأثره به ولا ريب أن كليهما من أمور الدنيا لا مما يتعلق به حكم من الشرع فليس الإخبار به كالإخبار عن الله سبحانه وصفاته وأسمائه وأحكامه قالوا فلما تبين له ﷺ من أمر الدنيا الذى أجرى الله سبحانه عاداته به ارتباط هذه الأسباب بعضها ببعض وتأثير التلقيح فى صلاح الثمار وتأثير إيراد الممرض على المصح أقرهم على تأبير النخل ونهاهم أن يورد ممرض على مصح قالوا وإن سمي هذا نسخاً بهذا الاعتبار فلا مشاحة فى التسمية إذا ظهر المعنى ولهذا قال أبو سلمة بن عبد الرحمن فلا أدري أنسى أبو هريرة أو نسخ أحد القولين بالآخر يعنى بحديثه بالحديثين فجوز أبو سلمة النسخ فى ذلك مع أنه خبر وهو بما ذكرنا من الاعتبار وهذا المسلك حسن لولا أنه قد اجتمع الفصلان فى حديث واحد كما فى موطأ مالك أنه بلغه عن بكير بن عبد الله بن الأشج عن ابن عطية أن رسول الله ﷺ قال لا عدوى ولا صفر ولا يحلل الممرض على المصح ويحلل المصح حيث شاء قالوا وما ذاك يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ إنه أذى وقد يجاب عن هذا بجوابين : أحدهما أن الحديث لا يثبت لوجهين : أحدهما إرساله والثانى أن ابن عطية هذا ويقال أبو عطية مجهول لا يعرف إلا فى هذا الحديث . . الجواب الثانى قوله فيه لا عدوى نسى لا نفى أى لا يعدى الممرض المصح بحلوله عليه ويدل على ذلك ما رواه أبو عمر النمرى حدثنا خلف بن القاسم حدثنا محمد بن عبد الله حدثنا يحيى بن محمد بن صاعد حدثنا أبو هشام الرفاعى حدثنا البشر بن عمر الزهرانى قال قال مالك أنه بلغه عن بكير بن عبد الله بن الأشج عن أبى عطية أو ابن عطية شك بشر عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ لا طيرة ولا هامة ولا يعدى سقيم صحيحاً ويحلل المصح حيث شاء فى هذا النهى كالإنبات للعدوى والنهى عن أسبابها ولعل بعض الرواة رواه بالمعنى فقال لا عدوى ولا طيرة ولا هامة وإنما مخرج الحديث النهى عن العدوى لا نفيها وهذا أيضاً حسن لولا حديث ابن شهاب عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ فن أعدى الأول فهذا الحديث قد فهم منه السامع النفى وأقره عليه ﷺ ولهذا استشكل نفيه وأورد ما أورده فأجابه صلى

الله عليه وسلم بما يتضمن إبطال الدعوى وهو قوله فن أعدى الأول وهذا أصح من حديث أبي عطية المتقدم وحينئذ فيرجع إلى مسلك التلقيح المذكور آنفاً أو ما قبله من المسالك وعندى في الحديثين مسلك آخر يتضمن إثبات الأسباب والحكم ونفى ما كانوا عليه من الشرك واعتقاد الباطل ووقوع النفي والإثبات على وجهه فإن العوام كانوا يثبتون العدوى على مذهبهم من الشرك الباطل كما يقوله المنجمون من تأثير الكواكب في هذا العالم وسعودها ونحوها كما تقدم الكلام عليهم ولو قالوا أنها أسباب أو أجزاء أسباب إذا شاء الله صرف مقتضياتها بمشيئته وإرادته وحكمته وأنها مسخرة بأمره لما خلقت له وأنها في ذلك بمنزلة سائر الأسباب التي ربطها مسبباتها وجعل لها أسباباً أخر تعارضها وتمانعها وتمنع اقتضاءها لما جعلت أسباباً له وإنها لا تقضى مسبباتها إلا بإذنه ومشيئته وإرادته ليس لها من ذاتها ضر ولا نفع ولا تأثير البتة إن هي إلا خلق مسخر مصرف مروب لا تتحرك إلا بإذن خالقها ومشيئته وغايتها أنها جزء سبب ليست سبباً تاماً فمسبباتها من جنس سببية وطء الوالد في حصول الولد فإنه جزء واحد من أجزاء كثيرة من الأسباب التي خلق الله بها الجنين وكسبية شق الأرض وإلقاء البذر فإنه جزء يسير من جملة الأسباب التي يكون الله بها الثبات وهكذا جملة أسباب العالم من الغذاء والرواء والعافية والسقم وغير ذلك وأن الله سبحانه جعل من ذلك سبباً ما يشاء ويبطل السببية عما يشاء ويخلق من الأسباب المعارضة له ما يحول بينه وبين مقتضاه فهم لو أثبتوا العدوى على هذا الوجه لما أنكر عليهم كما أن ذلك ثابت في الداء والدواء وقد تداوى النبي ﷺ وأمر بالتداوى وأخبر أنه ما أنزل الله داء إلا أنزل له دواء إلا لاهرم فأعلمنا أنه خالق أسباب الداء وأسباب الدواء المعارضة المقاومة لها وأمرنا بدفع تلك الأسباب المكروهة بهذه الأسباب وعلى هذا قيام مصالح الدارين بل الخلق والأمر مبنى على هذه القاعدة فإن تعطيل الأسباب وإخراجها عن أن تكون أسباباً تعطيل للشرع ومصالح الدنيا والاعتماد عليها والركون إليها واعتقاد أن المسببات بها وحدها وأنها أسباب تامة شرك بالخالق عز وجل وجهل به وخروج عن حقيقة التوحيد وإثبات مسبباتها على الوجه الذي خلقها الله عليه وجعلها له إثبات للخلق والأمر للشرع والقدر للسبب والمشيئة للتوحيد والحكمة فالشارع يثبت هذا ولا ينفيه وينفى ما عليه المشركون من اعتقادهم في ذلك ويشبه هذا نفيه سبحانه وتعالى الشفاعة في قوله (واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل) وفي الآية الأخرى (ولا تنفعها شفاعة) وفي قوله (من قبل أن يأتي يوم لا يبيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) وإثباتها في قوله (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) وقوله (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) وقوله (لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً) فإنه سبحانه

في الشفاعة الشركية التي كانوا يعتقدونها وأمثالهم من المشركين وهي شفاعة الوسائط لهم عند الله في جلب ما ينفعهم ودفع ما يضرهم بذواتها وأنفسها بدون توقف ذلك على إذن الله ومرضاته لمن شاء أن يشفع فيه الشافع فهذه الشفاعة التي أبطلها الله سبحانه ونفاها وهي أصل الشرك كله وقاعدته التي عليها بناؤه وأخيبته التي يرجع إليها وأثبت سبحانه الشفاعة التي لا تكون إلا بإذن الله للشافع ورضاه عن المشفوع قوله وعمله وهي الشفاعة التي تنال بتجريد التوحيد كما قال صلواته عليه وآله أسعد الناس بشفاعتي من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه والشفاعة الأولى هي الشفاعة التي ظنها المشركون وجعلوا الشرك وسيلة لإلها فالمقامات ثلاثة . . أحدها تجريد التوحيد وإثبات الأسباب وهذا هو الذي جاءت به الشرائع وهو مطابق للواقع في نفس الأمر . . والثاني الشرك في الأسباب بالمعبود كما هو حال المشركين على اختلاف أصنافهم . . والثالث إنكار الأسباب بالكلية محافظة من منكرها على التوحيد فالمنحرفون طرفان مذمومان إما قادح في التوحيد بالأسباب وإما منكر الأسباب بالتوحيد والحق غير ذلك وهو إثبات التوحيد والأسباب وربط أحدهما بالآخر فالأسباب محل حكمه الديني والكوني والحكمان عليها يجران بل عليها يترتب الأمر والنهي والثواب والعقاب ورضى الرب وسخطه ولعنته وكرامته والتوحيد تجريد الربوبية والإلهية عن كل شرك فإنكار الأسباب إنكار الحكمة والشرك بها قدح في توحيده وإثباته والتعلق بالسبب والتوكل عليه والثقة به والخوف منه والرجاء له وحده هو محض التوحيد والمعرفة تفرق بين ما أثبتته الرسول وبين ما نفاه وبين ما بطله وبين ما اعتبره فهذا لون وهذا لون والله الموفق للصواب .

فصل

ويشبه هذا ما روى عنه صلى الله عليه وسلم من نهي عن وطء الغيل وهو وطء المرأة إذا كانت ترضع وإنه يشبه قتل الولد سرا وأنه يدرك الفارس فيد عشره وقوله في حديث آخر لقد هممت أن أنهي عنه ثم رأيت فارس والروم يفعلونه ولا يضر ذلك أولادهم شيئاً وقد قيل أن أحد الحديثين منسوخ بالآخر وإن لم تعلم عين الناسخ منها من المنسوخ لعدم علمنا بالتاريخ وقيل وهو أحسن أن النفي والإثبات لم يتواردا على محل واحد فإنه صلواته عليه وآله أخبرني أحد الجاهلانيين أنه يفعل في الوليد مثل ما يفعل من يصرع الفارس عن فرسه كأنه يدعثره ويصرعه وذلك يوجب نوع أذى ولكنة ليس يقتل للولد وإهلاك له وإن كان قد يترتب عليه نوع أذى للطفل فأرشدهم إلى تركه ولم ينه عنه بل قال علام يفعل أحدكم ذلك ولم يقل لا تفعلوه فلم يجيء عنه صلواته عليه وآله ونسياناً واحداً بالنهي عنه ثم عزم على النهي سدا للذريعة الأذى الذي ينال الرضيع فرأى أن سد هذه الذريعة لا يقاوم المفسدة التي تترتب على الإمساك عن وطء النساء مدة الرضاع ولا سيما

من الشباب وأرباب الشهوة التي لا يكسرها إلا موافقة نسايتهم فرأى أن هذه المصلحة أرجح من مفسدة سد الذريعة فظفر ورأى الأمتين اللتين هما من أكثر الأمم وأشدّها بأساً يفعلونه ولا يتقونه مع قوتهم وشدتهم فأمسك عن النهي عنه فلا تعارض إذا بين الحدِيثين ولا ناسخ منهما ولا منسوخ والله أعلم بمراد رسوله.

فصل

ويشبه هذا قوله ﷺ الذي قال له إن لي أمة وأنا أكره أن تجبل وإني أعزل عنها فقال سيأتينا ما قدر لها فليس بين هذه الأحاديث تعارض فإنه ﷺ لم يقل أن الولد يخلق من غير ماء الواطئ بل أخبر أنه سيأتينا ما قدر لها ولو عزل فإنه إذا قدر خلق الولد قدر سبق الماء والواطئ لا يشعر بل يخرج منه ماء يمازج ماء المرأة لا يشعر به يكون سبباً في خلق الولد ولهذا قال ليس من كل الماء يكون الولد فلو خرج منه نظفة لا يحس بها لجمعها الله مادة للولد.. قلت مادة الولد ليست مقصورة على وقوع الماء بجملته في الرحم بل إذا قدر الله خلق الولد من الماء فلو وضع على صخرة لخلق منه الولد كيف والذي يعزل في الغالب إنما يلقى ماءه قريباً من الفرج وذلك إنما يكون غالباً عند ما يحس بالإنزال وكثيراً ما ينزل بعض الماء ولا يشعر به فينزل خارج الفرج ولا شعور له بما ينزل في الفرج ولا بما خالط ماء المرأة منه وبالجملة فليس سبب خلق الولد مقصوراً على الإنزال التام في الفرج ولقد حدثني غير واحد ممن أثق به أن امرأته حملت مع عزله عنها الرضاع وغيره ورأيت بعض أولادهم ضعيفاً ضئيلاً فصلوات الله وسلامه على من يصدق كلامه بعضه بعضاً ويشهد لبعضه لبعض فلا اختلاف والإشكال والاشتباه إنما هو في الأفهام إلا فيما خرج من بين شفقتيه من الكلام والواجب على كل مؤمن أن يسأل ما أشكل عليه إلا أصدق قائل ويعلم أن فوق كل ذي علم عليم وأنه لو اعترض على ذي صناعة أو علم من العلوم التي استنبطتها معاول الأفكار ولم يحط علماً بتلك الصناعة والعلم لا ندرى على نفسه وأضحك صاحب تلك الصناعة والعلم على عقله والنبي صلى الله عليه وسلم يذكر المقتضى في موضع والممانع في موضع آخر ويثبت الشيء وينفي مثله في الصورة وعكسه في الحقيقة ولا يحيط أكثر الناس بمجموع نصوصه علماً ويسمع النص ولا يسمع شرطه ولا موانع مقتضاه ولا تخصيصه ولا ينتبه للفرق بين ما أثبتته ونفاه فينشأ من ذلك في حقه من الإشكالات ما ينشأ وينضاف هذا إلى عدم معرفة الخاص بخطابه ومجاري كلامه وينضاف إلى ذلك تنزيل كلامه على الاصطلاحات التي أحدثها أرباب العلوم من الأصوليين والفقهاء وعلم أحوال القلوب وغيرهم فإن لكل من هؤلاء الاصطلاحات حادثته في مخاطباتهم وتصانيفهم فيجيء من قد ألف تلك

الاصطلاحات الحادثة وسبقت معانيها إلى قلبه فلم يعرف سواها فيسمع كلام الشارع فيجمله على ما ألفه من الاصطلاح فيقع بسبب ذلك في الفهم عن الشارع ما لم يرد به بكلامه ويقع من الخلل في نظره ومناظرته ما يقع وهذا من أعظم أسباب الغلط عليه مع قلة البضاعة من معرفة نصوصه فإذا اجتمعت هذه الأمور مع نوع فساد في التصور أو القصد أوهما ما شئت من خبط وغلط واشكالات واشتمالات وضرب كلامه ببعضه ببعض وإثبات ما نفاه ونفى ما أثبتته والله المستعان .

فصل

وأما قضية المجذوم فلا ريب أنه روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال فر من المجذوم فرارك من الأسد وأرسل إلى ذلك المجذوم انا قد بايعتاك فأرجع وأخذ بيد مجذوم فوضعها في القصة وقال كل ثقة بالله وتوكلا عليه ولا تنافى بين هذه الآثار ومن أحاط علماً بما قدمناه تبين له وجهها وأن غاية ذلك أن مخالطة المجذوم من أسباب العدوى وهذا السبب يعارضه أسباب آخر تمنع اقتضاه فمن أقواها التوكل على الله والثقة به فإنه يمنع تأثير ذلك السبب المكروه ولكن لا يقدر كل واحد من الأمة على هذا فأرشدهم إلى مجانبة سبب المكروه والفرار والبعد منه ولذلك أرسل إلى ذلك المجذوم الآخر بالبيعة تشريعاً منه للفرار من أسباب الأذى والمكروه وأن لا يتعرض العبد لأسباب البلاء ثم وضع يده معه في القصة فإنما هو سبب التوكل على الله والثقة به الذي هو من أعظم الأسباب التي يدفع بها المكروه والمجذور تعليمها منه للأمة دفع الأسباب المكروهة بما هو أقوى منها وإعلاماً بأن الضرر والنفع بيد الله عز وجل فإن شاء أن يضر عبده ضره وإن شاء أن يصرف عنه الضرر صرفه بل إن شاء أن ينفعه بما هو من أسباب الضرر ويضره بما هو من أسباب النفع فعل ليتبين العباد أنه وحده الضار النافع وأن أسباب الضرر والنفع بيديه وهو الذي جعلها أسباباً وإن شاء خلق منها سببها وإن شاء جعل ما تقتضيه بخلاف المعهود منها ليعلم أنه الفاعل المختار وأنه لا يضر شيء ولا ينفع إلا بإذنه وأن التوكل عليه والثقة به تحيل الأسباب المكروهة إلى خلاف موجباتها وتبدين مرتبتها وأنها محال لمجاري مشيئة الله وحكمته وأنه سبحانه هو الذي يضرها وينفع ليس إياها ولا لها من الأمر شيء وأن الأمر كله لله وأنهم إنما ينال ضررها من علق قلبه بها ووقف عندها وتطير بما يتطير به منها فذلك الذي يصيبه مكروه الطيرة والطيرة سبب للمكروه على المنطير فإذا توكل على الله ووثق به واستعان به لم يصدده التطير عن حاجته وقال اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا إله غيرك اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يذهب بالسليئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك فإنه لا يضره

ما يتطير منه شيئاً قال ابن مسعود ما منا إلا من يعنى يتطير ولكن الله يذهب به بالتوكل وقد روى مرفوعاً والصواب عن ابن مسعود قوله فالطيرة إنما تصيب المتطير لشركه والخوف دائماً مع الشرك وإلا من دائماً مع التوحيد قال تعالى حكاية عن خليله إبراهيم أنه قال في حاجته لقومه (وكيف أخاف ما أشركتم به ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما ينزل به عليكم سلطاناً فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون) خذكم الله عز وجل بين الفريقين بحكم فقال (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك هم الأمن وهم مهتدون) وقد صح عن رسول الله ﷺ تفسير الظلم فيها بالشرك وقال ألم تسمعوا قول العبد الصالح (إن الشرك اظلم ظلمات) فالتوحيد من أقوى أسباب الأمن من المخاوف والشرك من أعظم أسباب حصول المخاوف ولذلك من خاف شيئاً غير الله ساط عليه وكان خوفه منه هو سبب تسليطه عليه ولو خاف الله دونه ولم يخفه لكان عدم خوفه منه وتوكله على الله من أعظم أسباب نجاته منه وكذلك من رجا شيئاً غير الله حرم ما رجاه منه وكان رجاؤه غير الله من أقوى أسباب حرمانه فإذا رجا الله وحده كان توحيد رجاؤه أقوى أسباب الفوز بما رجاه أو بنظيره أو بما هو أنفع له منه والله الموفق للصواب وليكن هذا آخر الكتاب وقد جليت إليك فيه نقائس في مثلها يتنافس المتنافسون وجليت عليك فيه عرائس إلى مثلهن بادر الخاطبون فإن شئت اقتبست منه معرفة العلم وفضله وشدة الحاجة إليه وشرفه وشرف أهله وعظم موقعه في الدارين وإن شئت اقتبست منه معرفة اثبات الصانع بطرق واضحات جليات تلج القلوب بغير استئذان ومعرفة حكيمته في خلقه وأمره وإن شئت اقتبست منه معرفة قدر الشريعة وشدة الحاجة إليها ومعرفة جلالها وحكمتها وإن شئت اقتبست منه معرفة النبوة وشدة الحاجة إليها بل وضرورة الوجود إليها وإنه يستحيل من أحكم الحاكمين أن يخلى العالم عنها وإن شئت اقتبست منه معرفة ما فطر الله عليه العقول من تحسين الحسن وتجميل القبيح وإن ذلك أمر عقلي فطري بالأدلة والبراهين التي اشتمل عليها هذا الكتاب فلا توجد في غيره وإن شئت اقتبست منه معرفة الرد على المنجمين القائلين بالأحكام بأبلاغ طرق الرد من نفس صناعتهم وعلمهم وإلزامهم بالإلزامات المفحمة التي لا جواب لهم عنها ولإبداء تناقضهم في صناعتهم وفضائحهم وكذبهم على الخلق والأمر وإن شئت اقتبست منه معرفة الطيرة والقآل والزجر والفرق بين صحيح ذلك وباطله ومعرفة مراتب هذه في الشريعة والقدر وإن شئت اقتبست منه أصولاً نافعة جامعة مما تكمل به النفس البشرية وتعالج بها سعادتها في معاشها ومعادها إلى غير ذلك من الفوائد التي ما كان منها صواباً فمن الله وحده هو المان به وما كان منها من خطأ فمن مؤلفه ومن الشيطان والله برىء منه ورسوله والله سبحانه المستول والمرغوب إليه المأمول أن

يجعله خالصاً لوجهه وأن يعيذنا من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا وأن يوفقنا لما يحبه ويرضاه إنه قريب مجيب والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين وسلم تسليماً كثيراً .

(كان في آخر الأصل ما نصه)

الكتاب المسمى بمفتاح السعادة وهو كتاب نفيس لا يمل الجليس وفيه من بدائع الفوائد وفرائد القلائد ما لا يوجد ذلك لسواه وفيه من البحوث ما يستقصى كل علم إلى فنه واسمه مطابق لمسامه ولفظه موافق لمعناه فإن فيه من الإفادة ما يحدد إلى دار السعادة وذلك على يد أفقر خلق الله المتوكل في جميع أحواله المعترف بالخطأ والزلل والمسيء في القول والعمل أحمد بن محمد الصعدي المكي الحنبلي عفا الله عنه وكان تمام ذلك في ٢٢ رجب سنة ١٨٤١ وحسبنا الله ونعم الوكيل

أشرف على تصحيحه ومراجعته الأستاذ فكري أبو النصر من خريجي الأزهر الشريف

فهرس

الجزء الثاني من كتاب مفتاح دارالسعادة

	حديقة
فصل في بيان حاجة الناس إلى الشريعة	٢
د الشرائع كلها في أصولها وإن تمايزت متفقة	٣
د وقد أنكر تعالى على من نسب إلى حكمته التسوية بين المختلفين	١١
د وتحقيق هذا الكلام في مقامين	١٤
د وأما المسئلة الثانية وهي ما تساوت مصلحته ومفسدته	١٦
د وههنا سر بديع من أسرار الخلق والأمر	٣٢
د وأما ما خلقه سبحانه فانه أوجده لحكمة في إيجاد	٣٤
د فهذه أقوى أدلة نفاة الحسن والقبیح الذاتيين	٣٧
د وإذ قد انتهينا في هذه المسئلة إلى هذا الموضوع	٤٢
د وقد سلم كثير من النفاة أن كون الحسن والقبیح بمعنى الملامة والمنافرة عقلي	٤٤
د إذا علمت هذه المقدمة فالكلام على كلة النفاة من وجوه	٦٣
د والأسماء الحسنى والصفات العلى مقتضية لآثارها من العبودية	٩٠
د في اقتضاها لآثارها من الخلق والتكوين	٩٠
د وعكس هذا أنه لم تشترط المكافأة في علم ولا جهل	١٠٠
د وكذلك الكلام في الإيجاب في حق الله سواء الأقال فيه كالأقال في التحريم	١١٠
د وقد ظهر بهذا بطلان قول طائفتين معا	١١٢
د في قول الفلاسفة أن المقصود من الشرائع استكمال النفسى قوى العلم والعمل	١١٨
د في أن الفلاسفة ذكروا كالات النفس الأربع إلا أنهم لم يبينوا متعلقها	١٢١
د بحث في إبطال قول المنجمين أن في اتصالات الكواكب نظر سعد ونحوس	١٢٦
د فصل في ذكر رسالة أبي القاسم عيسى بن على في إبطال علم النجوم مع تعليلات للصنف	١٤٨
د فلنرجع إلى كلام صاحب الرسالة قال وزعموا أن القمر والزهرة مؤنثان	١٦٩
د قال صاحب الرسالة ذكر طرف من احتجاجهم والاحتجاج عليهم	١٨٥
د في إبطال ما احتج به المنجمون من الآيات القرآنية	١٩٤
د في إبطال ما ذكروه من تمسك إبراهيم الخليل عليه السلام بعلم النجوم	١٩٦
د في إبطال احتجاجهم بقوله تعالى (خلق السموات والأرض أكبر)	١٩٨

- ٢٠٠ فصل في إبطال احتجاجهم بقوله تعالى (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا)
- ٢٠٣ د في إبطال ما تمسكوا به من أن الخليل تمسك في إثبات الصانع بالدلائل القلديكية
- ٢٠٥ د في إبطال استدلالهم على علم النجوم بنهي النبي عليه السلام عن استقبال الثيرين
- ٢١٤ د في إبطال استدلالهم بقول النبي صلى الله عليه وسلم إذا ذكر النجوم فأمسكوا
- ٢١٥ د في بيان سبب كراهية المنجمين للسفر والقمر في العقب
- ٢١٦ د في إبطال ما احتجوا به من نهى على رضى الله عنه عن السفر في حاق الشهر
- ٢١٨ د في إبطال احتجاجهم بحديث أبي الدرداء
- ٢١٩ د في إبطال ما نسبوه إلى الشافعي من حكمه بالنجوم
- ٢٢٦ د في إبطال قوتهم أن هذا علم ما خلت عنه أمة من الأمم ولا ملة من الملل
- ٢٢٧ د وأما ما ذكروه عن الفرس من اعتنائهم بطالع النطفة
- ٢٣٣ د في حديث يدخل الجنة سبعون ألفا بغير حساب
- ٢٤٨ د الآن التقت حلقتا البطان وفيه السلام على إبطال الطيرة
- ٢٥١ د فيما روى عن عمر أنه سأل رجلا عن اسمه فقال جمره
- ٢٥٢ د وأما محبة النبي عليه الصلاة والسلام التيمن
- ٢٥٣ د في قوله صلى الله عليه وسلم الشؤم في ثلاث الحديث
- ٢٥٧ د وأما حديث دعواها ذميمة لدار سكنونها فرأوا فيها شرا
- ٢٥٨ د وأما قوله صلى الله عليه وسلم للذي سل سيفه يوم أحد الخ
- ٢٥٩ د وأما قوله صلى الله عليه وسلم واقد وقرت الحرب
- ٢٥٩ د وأما استقباله عليه الصلاة والسلام الجبلين الخ
- ٢٦٠ د وأما كراهية السلف أن يتبع الميت بشيء من النار
- ٢٦١ د وأما تلك الوقائع التي ذكروها بما يدل على وقوع ما نظير به
- ٢٦١ د وبما كان أهل الجاهلية يتطيرون به ويتشاءمون منه العطاس
- ٢٦٤ د في بيان معنى قوله صلى الله عليه وسلم لا يورد بمرض على مصح
- ٢٧٠ د في بيان ما ورد من نهيه صلى الله عليه وسلم عن وطء الغيل
- ٢٧١ د في معنى قوله عليه الصلاة والسلام لمن قال له إنى أعزل عن أمتى سياتها ما قدرها
- ٢٧٢ د في بيان ما روى من قوله صلى الله عليه وسلم فر من المجذوم فرارك من الأسد